رواية

إدوارد سينت أوبين

مكتبة

خماسيّة باتريك ميلْروز

لاعليك

-I-

ترجمة: أسامة منزلجي



رواية

مكتبة

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

نبأ مشؤوم

-II-



ترجمة: أسامة منزلجي

رواية

مكتبة

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

بعض الأمل

-III-



ترجمة: أسامة منزلجي

رواية

إدوارد سينت أوبين

مكتبة

خماسيّة باتريك ميلْروز

حليب الأم

-IV-

ترجمة: أسامة منزلجي



رواية

إدوارد سينت أوبين

مكتبة

خماسيّة باتريك ميلْروز

أخيراً

-V-

ترجمة: أسامة منزلجي







خماسيّة باتريك ميلْروز

لا عليك



روايـــة

Author: **Edward St Aubyn**	اسم المؤلف: إدوارد سينت أوبين
Title: **Patrick Melrose – Never Mind**	عنوان الكتاب: باتريك ميلْروز - لا عليك
Translated by: **Osama Menzlchi**	ترجمة: أسامة منزلجي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2023**	الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 · + 964 (0) 780 808 0800 · + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 · + 961 706 15017 · + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 · + 963 11 232 2275 · + 963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

لا عليك

-I-

ترجمة: أسامة منزلجي



الإهداء

إلى آنا

- 1 -

عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، تقدَّمتْ إيفيت على الممشى، حاملة الغسيل الذي كانت قد كوَتْه في الليلة السابقة، في طريقها إلى المنزل. أصدر صندلها صوتاً خفيفاً وهي تشدّ أصابع قدميها عليه لكي تمنعه من السقوط، وجعل شريطُهُ المحلولُ مشيتَها غير ثابتة على الأرضيّة الحجريّة، المُحزَّزة. وعلى الجدار، تحت صف أشجار السروّ الممتدة على طول الممشى، رأتْ الطبيب واقفاً في الحديقة.

كان وهو بمبذله الأزرق، ويضعُ نظارات قاتمة على الرغم من أنَّ الوقتَ لا يزال باكراً جداً لارتفاع أشعة شمس شهر أيلول من خلف الجبل الجيريّ، يوجِّه سيلاً قويّاً من الماء من الخرطوم الذي يُمسكه بيده اليُسرى نحو رتلٍ من النمل يتحرَّك مُسرِعاً خلال البلاط عند قدميه. كان أسلوبه مُتقَناً: كان يدع الناجين منه يُكافحون على الحجارة الرطبة، ويستعيدون كرامتهم برهة من الوقت، ومن ثم يوجّه دفق المياه القويّ من جديد إليه في الأسفل. وبيده الحرَّة أبعدَ سيجاراً عن فمه، ودخانه يندفع إلى أعلى خلال خِصَل الشعر البُنيّة والرماديّة التي تغطّي عِظام جبينه البارزة. ومن ثم ضيَّقَ اندفاع الماء بإبهامه لكي يضرب بفعاليّةٍ أكبرَ نملةٍ صمَّمَ على قتلها.

لم يكن أمام إيفيت إلّا أنْ تتجاوز شجرة التين لكي تنسلّ إلى داخل المنزل من دون أنْ يعلَم الدكتور ميلروز أنّها قد وصلتْ. ولكن كان من عادته أنْ يُناديها من دون أنْ يرفع نظره عن الأرض حالما تظنّ أنَّ الشجرة قد أخفتها. وبالأمس تحدّثَ معها مطوّلاً حتى شعرتْ بإرهاق ذراعيها، ولكن ليس إلى درجة أنْ تترك الغسيل يسقط منها. كان يحسِبُ مثل تلك

الأشياء بدقّة متناهية. بدأ بطلب رأيها بالرياح الشماليّة الباردة، مع احترامٍ جمّ لمعرفتها الفِطريّة بالمقاطعة. ومع وصوله إلى التلطُّف بإبداء اهتمامٍ بعملِ ابنها في مرسى السُفُن، كان الألم قد انتشرَ حتى كتفيها وبدأ يشنّ غزوات حادَّة على عنقها. كانت مُصمِّمة على دحره، حتى عندما سألها عن آلام ظَهر زوجها وما إذا كانت تمنعه من قيادة الجرّارة خلال موسم الحصاد. واليوم لم يهتف قائلاً «*Bonjour, chere Yvette*» (صباح الخير، عزيزتي إيفيت) وهي العبارة التي يبدأ بها أحاديث فترات الصباح القلقة تلك، فانحنتْ لتمرّ من تحت الأغصان المنخفضة لشجرة التين لكي تلج المنزل.

كان القصر، كما كان يحلو لإيفيت أنْ تصِفَ ما يُسمّيه آل ميلروز منزلاً ريفيّاً قديماً، مبنيّاً على منحدرٍ بحيث أنَّ الممشى كان على مستوى واحد مع الطابق العُلويّ من المنزل. وكان مطلعٌ من الدَّرَج العريض يؤدي إلى أسفل أحد جانبي المنزل إلى مصطبة تقع أمام غرفة الجلوس.

ثمة مطلع درج آخر يلتفّ على الجانب الآخر من المنزل هبوطاً إلى مُصلّى صغير يُستخدَم لإخفاء صناديق القمامة. وفي فصل الشتاء، تُغرغر المياه وهي تجري على المنحدر خلال سلسلة من البرك، لكنَّ المجرور الذي يمتد بجوار شجرة التين كان صامتاً في ذلك الوقت من العام، ومسدوداً بثمار التين المسحوقة والمفتوحة وتلطِّخ الأرض التي سقطَتْ عليها.

ولَجَتْ إيفيت الغرفة العالية والمُظلِمة ووضعت الغسيل. أدارت مفتاح النور وباشرتْ بفرز المناشِف عن أغطية الأسرَّة والأغطية عن مفارش الطاولات. كانت هناك خزائن طويلة مكدَّسة عن آخرها بالبياضات المطويّة بأناقة والتي لم تعُد تُستَخدَم الآن. وأحياناً تفتح إيفيت تلك الخزائن لكي تستمتع بمرأى تلك المجموعة المُصانة. وكان بين طيّات بعض مفارش الطاولات أغصان الغار وحفنة من حبّات العنب بطريقة تبيِّن توقيت وضعها بزوايا معيَّنة. كانت تُمرِّر إصبعها على الأحرف الأولى المُطرَّزة على الأغطية البيضاء الناعمة، وعلى الأكاليل التي تُحيط حرف «v» في زاوية المناديل. وكان الرسمُ المُفضَّل لديها هو رسم وحيد القرن الواقف فوق شريط من الكلمات الأجنبيّة على بعض أقدم الأغطية ولكن تلك أيضاً لم تكن تُستَخدَم أبداً، وكانت السيدة ميلروز تصرّ على أنْ تقوم إيفيت بإعادة

تدوير الكميّة المسكينة نفسها من البياضات البسيطة من أصغر الخزانات القريبة من الباب.

شقّتْ إلينور طريقها باندفاع وهي ترتقي الدَّرَجات المنخفضة التي تصل المطبخ بالممشى. ولو أنّها مشتْ ببطءٍ أكثر، لترنّحتْ، وتوقّفتْ، وجلستْ يائسة على الجدار المنخفض الممتد على طول جانب الدَّرَج. لقد شعرتْ بغثيانٍ متحدٍ لم تجرؤ على أنْ تتحداه بالطعام وفاقمته بتدخين سيجارة. كانت قد نظَّفَتْ أسنانها بعد أنْ تقيّأتْ لكنَّ المذاق الصفراويّ بقيَ في فمها. وكانت قد نظَّفَتْ أسنانها أيضاً قبل أنْ تتقيَّأ، ولم تتمكَّن من القضاء تماماً على خيط التفاؤل في طبيعتها. لقد أضحتْ أوقات الصباح أشدّ برودة منذ بداية شهر أيلول وكان الهواء قد بدأ يفوح بعبق الخريف، ولكنْ لم يكن لهذا أيّة أهميّة بالنسبة إلى إلينور التي كان جبينها يتصبَّب بالعرق من تحت طبقات سميكة من البودرة. ومع كل دَرَجَة كانت تضغط يديها على رُكبتيها لكي تندفع إلى الأمام، وتُحدِّق من خلال نظارتها الكبيرة القاتمة إلى حذاء القنَّب الأبيض في قدميها الشاحبتين، وإلى بنطلونها الورديّ الفاقع من الحرير الطبيعيّ الشبيه بالفُلفل الحارّ المُتشبِّث بساقيها.

تخيّلتْ الفودكا وهي تُصبّ فوق الثلج والمكعّبات التي تجمّدَتْ تصبح صافية ومن ثم تنهار داخل الكأس والثلج يتكسَّر، كطقطقة العمود الفقريّ بين يدَي مُعالِج تقويم عِظام واثق من نفسه. كانت مكعبات الثلج اللزجة المُضطربة كلها تعوم معاً، تُقعقع، وينتشر صقيعها على حواف الكأس، وشعرتْ بالفودكا باردة وملساء في فمها.

ارتفع الممشى بزاوية حادّة إلى يسار الدَّرَج نحو دائرة من الأرض الممهّدة حيث تتوقف سيارتها البويك الحمراء الداكنة في ظل شجرة صنوبر. بدت شنيعة، وهي تمتد على أُطُر دواليبها ذات الحواف البيضاء أمام مصطبة الدوالي وكروم الزيتون، ولكنْ بالنسبة إلى إلينور كانت سيارتها أشبه بقنصليّة في مدينةٍ غريبة، وتقدَّمتْ منها بسرعةِ سائحٍ تعرَّضَ للسرقة.

عِلِقَتْ كريّات من الراتينج الشفّاف بأعلى سيارة البويك. والتصقت بقعة من الراتينج في داخلها إبرة صنوبر واحدة بأسفل حاجب الريح. حاولتْ أنْ تُزيلها، لكنَّ ذلك لم يعمل إلّا على زيادة تلطيخ حاجب الريح وجعل أطراف أصابعها لزجة. كانت متلهّفة لولوج السيارة، لكنّها تابعت كشط الراتينج بإلحاح، وزادتْ من اسوداد أظافر أصابعها. إنَّ سبب تعلُّق إلينور الشديد بسيارتها البويك يعود إلى أنَّ ديفيد لم يقُدْها قط، أو حتى يجلس فيها. كانت تمتلك المنزل والأرض، وتدفع رواتب الخدم وثمن المشروبات، ولكنْ هذه السيارة وحدها كانت تمتلكها بالكامل.

عندما قابلَتْ ديفيد للمرة الأولى قبل اثني عشر عاماً، سحرها شكله. كان تعبير الوجه الذي يشعر الرجال أنّهم جديرون برسمه على وجوههم عندما يُحدّقون من داخل غرفة جلوسٍ إنكليزيّة باردة إلى أرضهم الخاصّة قد أصبح عنيداً عبر خمسة قرون وكان مثاليّاً على وجه ديفيد. ولم يتَّضِح أبداً لإلينور لماذا يعتقد الإنكليز أنَّ من المهم ألّا يفعلوا أيَّ شيء على مدى فترة طويلة من الزمن في مكان واحد، لكنَّ ديفيد لم يترك لديها أدنى قدرٍ من الشك حول هذا الأمر. وكان أيضاً ينحدر من سلالة تشارلز الثاني عبر عاهرة. وعندما أخبرها بهذا للمرة الأولى قالت مازحة «لو كنتُ مكانك لأبقيتُ الأمر سرّاً». وبدل أنْ يبتسم، استدار نحوها بطريقة كانت تمقتها، بمدّ شَفَتَه السفلى وكأنّه يتحمَّل عبئاً ثقيلاً بعدم قوله أيّ شيءٍ ساحق.

في وقتٍ سابق أُعجِبَتْ بالطريقة التي أصبح بها ديفيد طبيباً. وعندما أخبر والده عن نيَّته، قام الجنرال ميلروز في الحال بقطع الراتب السنوي عنه، مُفضّلاً استخدام المال في تربية طيور التدرج. كان إطلاق النار على الرجال والحيوانات هو نشاط السادة المحترمين، أما مُداواة جراحهم فعمل دجّالي الطبقة الوسطى. تلك كانت وجهة نظر الجنرال، وعلى أساسها كان يستمتع أكثر بإطلاق النار. ولم يواجه الجنرال ميلروز صعوبة في معاملة ابنه ببرودة. والمرة الأولى التي أظهرَ اهتماماً به كانت عندما ترك ديفيد جامعة إيتون، وسأله والده ماذا يريد أنْ يفعل. فتلعثمَ ديفيد وهو يقول، «أخشى أنني لا أعلم، يا سيدي» ولم يجرؤ على الاعتراف بأنه أراد أنْ يؤلِّف الموسيقى. ولم يَخفَ على انتباه الجنرال أنَّ ابنه كان يعبث على آلة البيانو، وأصدر حكماً

صائباً بأنَّ الانخراط في الجيش سوف يضعُ حدّاً لحافزه الأنثويّ. قال، وهو يُقدِّم سيجاراً لابنه بحركة ودّ خرقاء «الأفضل أنْ تنضمّ إلى الجيش».

ومع ذلك فإنَّ ديفيد بدا في نظر إلينور شديد الاختلاف عن جماعة المتغطرسين الإنكليز الصِغار والأقرباء البعيدين المستعدّين لأي طارئ، أو لقضاء عطلة نهاية أسبوع، وينطوون على ذكريات عن أسلوب حياة أجدادهم، والذي لم يكن في الواقع أسلوب الحياة الذي عاشه أجدادهم. وعندما قابلتْ ديفيد، اعتقدتْ أنّه أول شخص فهمها حقاً والآن أصبح آخر شخص يمكن أنْ تلجأ إليه ليفهمها. كان صعباً تفسير هذا التغيُّر وحاولتْ أنْ تقاوِم إغواء التفكير في أنّه كان ينتظر كل ذلك الوقت لكي يُخمِد مالُها أوهامَه حول كيف يستحق أنْ يعيش. ومن ناحية أخرى، كان مالها هو الذي جعله رخيصاً. فقد تخلّى عن ممارسة الطب بعد زواجهما مباشرة. في البدء دار حديثٌ بينهما حول الاستعانة بقسم من أموالها لبناء مركز لعلاج المدمنين على الخمر. وقد نجحا في ذلك بصورةٍ ما.

من جديد خطر في بال إلينور أنْ تلتقي مُصادفة بديفيد. فتركتْ أمر راتينج الصنوبر الملتصق بحاجب الريح، وركبت سيارة البويك غير العمليّة وقادتها متجاوزة الدَّرَج وعلى طول الممشى المُغبرّ، ولم تتوقف إلّا في منتصف طريق هبوط التل. كانت في طريقها إلى منزل فيكتور أيزين لكي تنطلق باكراً إلى المطار مع آنّا، ولكن كان عليها أولاً أنْ تُهيّئ نفسها لذلك. كان هناك مقدار نصف زجاجة من براندي بسكيت بين طيّات الوسادة التي يجلس عليها السائق. وكانت تحتفظ في حقيبتها بالأقراص الصفراء التي تجعلها يقظة وبالأقراص البيضاء التي تخلّصها من الخوف والرعب المُرافقَين لتلك اليقظة. ولما كانت أمامها رحلة طويلة بالسيارة تناولت بدل القرصَين الأصفرين أربعة ومن ثم، عندما انتابها القلق من أنْ تتسبَّب الجرعة المُضاعَفة في جعلها عصبيّة، تناولتْ قرصَين أبيضَين، وشربتْ مقدار نصف زجاجة البراندي لكي تبتلع الأقراص. في أول الأمر ارتعشت بعنف، ومن ثم قبل أنْ تصل حتى إلى مجرى دمها، شعرتْ بوخز حِدَّة الكحول، وملأها بشعور بالامتنان وبالدفء.

استرختْ على المقعد الذي كانت قد جلستْ عليه تواً، وشاهدتْ

انعكاس صورتها في المرآة للمرة الأولى في ذلك اليوم. استقرّت داخل جسدها، كالسائر في نومه عندما يعود لارتقاء سريره بعد قيامه برحلة استكشاف خطيرة. ومن خلال النوافذ الموصدة جيداً رأت وسط صمتها طيور العقعق البيضاء والسوداء تطفر من بين أوراق الكرمة، وإبر أشجار الصنوبر تبرز حادَّة في وجه السماء الشاحبة، وكانت قد سقطت كلّها بعد يومين من هبوب رياح قويّة. أدارت محرِّك السيارة من جديد وانطلقَتْ، مندفعة بلا هدى على طول أزقّة طويلة وضيِّقة.

بعد أنْ ملَّ ديفيد ميلوز إغراق النمل بالماء، تخلّى عن ريّ الحديقة. فحالما فقدَتْ اللعبة التركيز الدقيق، تولاه اليأس. كان هناك دائماً عشٌ آخر للنمل، مصطبة أخرى من الأعشاش. كان ينطق كلمة نمل كأنها كلمة «خالات»، وكان يزيد من حماسته لارتكاب أعماله الإجراميّة أنْ يتذكّر أخوات أمّه السبع المتعجرفات، والمتكبرات والأنانيات اللائي كان قد عرضَ عليهن موهبته في العزف على البيانو عندما كان طفلاً.

ترك ديفيد الخرطوم على الممشى المكسو بالحصى، مُفكّراً كم أضحتْ إلينور بلا فائدة له. لقد طال أمد جمودها من فرط الرعب. كان الأمر أشبه بمحاولة تحسُّس تورُّم كبد أحد المرضى بعد أنْ تبيَّنَ أنّه مؤلِم. في الإمكان فقط إقناعها بالاسترخاء أكثر.

تذكَّرَ ذات مساء قبل اثني عشر عاماً، عندما دعاها لتناول طعام العشاء في شقّته. كم كانت مُفعمة بالثقة في تلك الأيام! كانا قد مارسا الجنس من قبل، لكنَّ إلينور بقيَتْ تتعامل معه بحياء. كانت ترتدي ثوباً أبيضَ لا شكل له مزيَّناً بنقاط سوداء كبيرة. كانت في الثامنة والعشرين لكنّها بدتْ أصغر سناً بسبب قصَّة شعرها الأشقر الخفيف. وقد وجدها جميلة بصورة مُحيِّرة، باهتة، لكنَّ اضطرابها هو الذي أثاره، والسخط الهادئ لامرأة تتوق إلى الانخراط في شيء مهمّ، لكنّها لا تعرف ما هو.

كان قد طبخ طبقاً مراكشيّاً يتألَّف من حمام محشيّ باللوز. قدَّمه لها على طبقٍ من الأرز بالزعفران ومن ثم أرجعَ الطبق، وسألها «هل لكِ أنْ تُقدّمي لي معروفاً؟».

قالت «طبعاً، ما هو؟».

وضعَ الطبق على الأرض خلف كرسيها وقال «هلّا أكلتِ طعامك من دون أنْ تستخدمي سكيناً وشوكة، أو يديك، وتكتفي بالأكل من الطبق مباشرة؟»

سألته «تقصد كما يفعل الكلب؟»

«كفتاة تتظاهر بأنّها كلب»

«ولكن لِمَ؟»

«لأنني أريد هذا»

استمتع بالمخاطرة التي يخوضها. إذ يمكنها أنْ ترفض وتغادر. وإذا مكثَتْ وفعلَتْ ما أراد، فسوف يأسرها. والغريب في الأمر هو أنَّ لا أحد منهما فكَّر في الضحك.

كان الاستسلام بالنسبة إلى إلينور، حتى النوع السخيف منه، يُعتبَر غواية حقيقيّة. كانت مستعدة للتضحية بأشياء لا تحتاج إليها مقابل أنْ تصدّق هذا –آداب المائدة، الكرامة، الكبرياء– مقابل شيء لم ترغب في تصديقه: روح التضحية. في ذلك الوقت، جعل خواء اللفتة، فكرة أنَّ تلك اللفتة لا تساعد أحداً، تبدو أشدّ صفاءً. ركعتْ على أطرافها الأربعة على السجادة الفارسيّة الرثّة، ويداها مبسوطتان على كلا طَرَفيّ الطبق. وبرز مرفقاها عندما انخفضَتْ والتقطَتْ قطعة من لحم الحمام بين أسنانها. وشعرتْ بشدٍّ عند قاعدة عمودها الفقريّ.

عادتْ إلى الجلوس، ويداها مُستقرتان على رُكبتيها، وهي تمضغ بهدوء. كان مذاق الحَمام غريباً. رفعَتْ بصرها قليلاً ورأتْ حذاء ديفيد، إحدى فردتيه تتجه نحوها على الأرض، والأخرى تتدلّى بالقرب منها في الهواء. بدا أنّها ليست أعلى من رُكبتَي ساقيه الموضوعة إحداهما على الأخرى، ولكنها انحنتْ من جديد، وأكلتْ المزيد بشراهة هذه المرَّة، وهي تحفر في تل الأرز بحثاً عن قطعة لوز بشفتيها وتهزّ رأسها برفق لكي تزيل قطعة من لحم الحَمَام عن العَظم. وعندما رفعت بصرها نحوه أخيراً، كانت إحدى وجنتيها محمرَّة بصلصة المرق الحمراء وقد علِقَتْ حبّات من الأرز الأصفر بفمها وبأنفها. وكانت الحيرة قد زالت تماماً عن وجهها.

أُعجِبَ ديفيد بها بضع لحظات لأنها نفّذَتْ ما طلب منها. مدَّ قدمه ومرَّرَ حافة حذاءه برفق على طول وجنتها. كان مأسوراً تماماً بالثقة التي أبدتها فيه، لكنّه لم يعلَم ماذا يفعل بها، بما أنّها قد حقّقَتْ فعلاً الغرض منها، وهو تبيان أنَّ في استطاعته أنْ يعرِض استسلامها.

في اليوم التالي أخبر نيكولاس برات بما حدث. كان أحد تلك الأيام التي دفع فيها سكرتيره إلى قول إنه مشغول، وجلسَ يتناول المشروب في ناديه، بعيداً عن منال الأطفال المحمومين والنساء اللائي تظاهرنَ بأنَّ آثار السُكر هي أعراض الشقيقة. كان يحبّ أنْ يتناول المشروب تحت سقف الغرفة الصباحيّة الأزرق والذهبيّ، حيث كانت هناك دائماً تموجات متخلفة عن مرور رجال ذوي أهميّة. أعضاء مملّون، فاسقون ومغمورون يشعرون بالابتهاج من جو القوة هذا، كما تتمايل الزوارق الصغيرة على مرساتها عندما ينطلق يختٌ خارجاً من المرفأ الذي تشترك فيه.

سأل نيكولاس، ما بين النزوع إلى الأذى والكراهية، «لِمَ دفعتَها إلى فعل ذلك؟»

قال ديفيد «ألَمْ تلاحظ أنَّ كلامها قليل جداً؟»

لم يُجِب. شعرَ بأنه مُجبَر على الاشتراك في المؤامرة، تماماً كما أُجبِرَتْ إلينور على الأكل.

سأَلَ «هل أحسنتْ الكلام وهي على الأرض؟»

قال ديفيد «أنا لستُ ساحراً، ولا أستطيع أنْ أجعلها مسلّية، لكنني على الأقلّ أبقيتها هادئة. كنتُ أخشى فتح حديث آخر عن آلام كون المرء ثريّاً. إنني لا أعرف الكثير عن تلك الآلام، وهي لا تعرف الكثير عن أي شيء آخر»

قهقه نيكولاس وكشفَ ديفيد عن أسنانه. قال نيكولاس في نفسه، مهما كانت مشاعر المرء حول تبديد ديفيد لمواهبه، فهو لم يكن أبداً بارعاً في الابتسام.

ارتقى ديفيد الجانب الأيمن من مطلع الدَّرَج العريض المؤدي من الحديقة إلى المصطبة. وعلى الرغم من أنّه حينئذٍ كان قد بلغ الستين من العمر، إلّا أنَّ شَعره بقيَ كثيفاً ومُشوّشاً قليلاً، ووجهه وسيماً بصورة مدهشة.

كان عيبه الوحيد هو خلوّه من العيوب؛ كان نسخةً من وجهٍ ويحمل شعوراً غير ثابت، وكأنه يخلو من أي أثر للأسلوب الذي عاش به صاحبه واستطاع أنْ يُغيِّر مثاليّة التقاطيع. وكان الذين يعرفون ديفيد جيداً ينتظرون ظهور علائم الضعف، لكنَّ صفحة وجهه كانت تزدادُ نبلاً مع مرور السنين. فعلى الرغم من صلابة عنقه كانت عيناه تلمعان خِفية، من خلف النظارات القاتمة، وتُقدّران ضعف الآخرين. وكان التشخيص هو موهبته الأشدّ إبهاراً كطبيب وبعد استعراضها كان في المعتاد يفقد اهتمامه بمرضاه، إلّا إذا حيَّره شيء في معاناتهم. ومن دون نظاراته القاتمة، كان وجهه يحمل تعبيراً بغيضاً، إلى أنْ يلاحظ ضعف شخص آخر. حينئذٍ تقسى النظرة في عينيه كعضلاتٍ مشدودة.

توقَّفَ عند أعلى الدَّرَج. كان سيجارُه قد انطفأ فرماه من فوق الجدار إلى الكرمة التي في الأسفل. وقبالته، كان اللبلاب الذي غطّى الجانب الجنوبيّ من المنزل قد بدأ الاحمرار يتخلّله. كان مُعجباً بذلك اللون، لأنه يدلّ على تحدّي البلى، كرجلٍ يبصقُ في وجه مُعذِّبه. كان قد شاهد إلينور وهي تندفعُ مسرعة باكراً بسيارتها السخيفة. بل إنّه رأى إيفيت وهي تحاول التسلّل إلى المنزل من دون أنْ يُلاحظها أحد. فمَنْ يستطيع أنْ يلومهما؟

كان يعلم أنَّ معاملته الفظّة لإلينور لم تكن فعّالة إلّا إذا أرفقها على التعاقب بإظهار اهتمامه وتقديم اعتذاره المُرهَف على طبيعته التدميريّة، لكنّه كان قد تخلّى عن هذه التنويعات لأنَّ خيبة أمله في إلينور كانت بلا حدود. كان يعلم أنّه ليس في استطاعتها أنْ تساعده في حلّ عقدة العجز عن الإفصاح التي يحملها داخله. بدل ذلك، شعر بأنها تشتدّ، كوعدٍ باختناقٍ خيَّمَ على كل نَفَس أخذه.

كان شيئاً سخيفاً؛ لكنه طوال فصل الصيف كان ممسوساً بذكرى شخصٍ أخرسَ مُعاق كان قد رآه في مطار أثينا. هذا الرجل، الذي كان يُحاول أنْ يبيع أكياساً صغيرة من الفستق برمي منشورات مطبوعة بين أيدي مُسافرين ينتظرون، اندفع إلى الأمام، وهو يطأ الأرض بقدمٍ لا يستطيع التحكُّم فيها، ورأسه يتدلّى وعيناه تتجهان نحو الأعلى. وفي كل مرة نظر ديفيد فيها إلى فم الرجل الذي يتلوّى بصمت، كسمكة تلهثُ على ضفّة نهر، شعر بما يُشبه الدوار.

أصغى ديفيد لصوت حفيف خِفّه الأصفر في أثناء ارتقائه آخر مطلع للدَّرَج نحو الباب المؤدّي من المصطبة إلى غرفة الجلوس. لم تكن إيفيت قد أزاحت الستائر بعد، وهذا ما وفّر عليه عناء سدْلها من جديد. كان يحبّ أنْ تكون غرفة الجلوس مُعتِمة وقيِّمة. كان كرسيٌّ، ذو لون أحمر قانٍ ومثقَلٌ بطلاء الذهب فازتْ به جدَّة إلينور الأميركيّة من عائلة من مدينة البندقيّة خلال إحدى غزواتها للتكسُّب لأوروبا، يلمعُ أمام الجدار المقابِل من الغرفة. وقد استمتع بالفضيحة المتعلّقة بحيازتها له، ولما كان من المتوجب أنْ يُحفَظ جيداً داخل مُتحف، كان مُحقّاً في جلوسه عليه قدر استطاعته. وأحياناً، عندما ينفرد بنفسه، كان يجلس على كرسيّ دوغ، كما كان دائماً يُسمَّى، ويميل إلى الأمام عن حافة المقعد، ويده اليُمنى تقبض على إحدى الذراعين المحفورة بصورة مُعقّدة، في وضعيّةٍ تذكّرها في كتاب «*تاريخ إنكلترا المُصوَّر*» الذي أُهديَ إليه في المدرسة الإعداديّة. وتمثّل الصورةُ حالةَ غضب رائعة للملك هنري الخامس وذلك عندما تلقّى كرات التنس كهديّة من ملك فرنسا الوقِح.

كان ديفيد مُحاطاً بغنائم من عائلة إلينور الأميركيّة من ناحية الأم. هي لوحات بريشة غواردي وتيبولو، وبياتزيتا ونوفيللي مُعلّقة بأعداد كبيرة على الجدران. وستارة فرنسيّة من القرن الثامن عشر، مملوءة برسوم لقِرَدة رماديّة اللون وورود زهريّة اللون، مُقسِّمة الغرفة الطويلة إلى نصفَين. وهناك خزانة سوداء صينيّة، مُستترة جزئيّاً خلفها، من موقع وقوف ديفيد، على أعلاها تحتشد زجاجات بأناقة في صَفَّين، وكانت الأرفف الداخليّة تمتلئ بما يُعزّز تلك الزجاجات. وبينما ديفيد يصبّ لنفسه مشروباً، فكَّرَ في صِهره المُتوفّى، ددلي كريغ، الاسكتلندي السكّير الفاتن الذي طردته والدة إلينور، ميري، عندما أصبح يُكلّفها الكثير ولم يعُد في استطاعتها أنْ تعيله.

بعد ددلي كريغ، تزوجتْ ميري من جين دو فالينسيه، شاعرة بأنّها إذا أرادتْ أنْ تحتفظ برجل، فيمكن أنْ يكون أيضاً دوقاً. وكانت إلينور قد نشأتْ في سلسلة من المنازل حيث بدا أنَّ كل غرض كان يمتلكه ملكٌ أو إمبراطور. كانت المنازل رائعة، لكنَّ الضيوف كانوا يُغادرونها مع شعور بالارتياح، لإدراكهم أنّهم لا يصلحون، في عينيّ الدوقة، للجلوس على الكراسي التي جلسوا عليها.

مشى ديفيد باتجاه النافذة الطويلة في آخر الغرفة. الوحيدة التي أُزيحتْ ستارتها، وكانت تطلّ على الجبال المُقابلة. كان كثيراً ما يُحدِّقُ إلى الأجزاء البارزة العارية من الحجارة الكلسيّة المكسورة. كانت تبدو له أشبه بأدمغة إنسانيّة مغروزة على الجانب الأخضر الداكن من سفح الجبل، أو في مرات أخرى، كدماغٍ واحد، منبجس من عددٍ من الشقوق. جلسَ على الأريكة المُجاورة للنافذة وأطلّ منها، مُحاولاً استحضار إحساس بدائيّ بالرهبة.

– 2 –

مشى باتريك باتجاه البئر، حاملاً بيده سيفاً من البلاستيك الرماديّ ذا مقبضٍ ذهبيّ، وأطاح به على الأزهار الورديّة لنبات الناردين التي تنمو على جدار المصطبة. وعندما عثر على حلزون على أحد سيقان نبات الشمّار، انهال بسيفه على الساق وبترها. وإذا قتل حلزوناً يجب أنْ يطأه بسرعة ويهرب، لأنَّ بقعته تنتشر وتتبعثر كأنه تمخّطَ. ومن ثم يعود ويُلقي نظرة على القوقعة البنيّة المكسورة العالقة باللحم الرماديّ الرقيق، ويتمنّى لو أنّه لم يفعل ذلك. فليس من الإنصاف أنْ يسحق الحلازين بعد هطل المطر لأنها تخرج لتمرح، وتغتسل في البرك تحت أوراق النباتات التي تقطر وتمدّ قرونها. وعندما يلمس قرونها تندفع متراجعة وتندفع يده متراجعة أيضاً. فبالنسبة إلى الحلازين هو أشبه بشخص بالغ.

وذات يوم، عندما لم يكن في نيّته أنْ يذهب إلى هناك، دُهِشَ عندما وجد نفسه بجوار البئر فقرَّر أنَّ الدربَ الذي اكتشفه هو طريق مختصرة سريّة. وأصبح الآن يلجأ إليه دائماً عندما يكون وحده. مشى خلال مصطبة من أشجار الزيتون حيث جعلتْ الرياح بالأمس لون الأوراق يتراوح بين الأخضر والرمادي ثم بين الرمادي والأخضر، كأنّه يُمرِّر أصابعه جيئة وذهاباً على سطح من المخمل، فيجعل لونه فاتحاً ثم غامقاً من جديد.

كان قد كشفَ لأندرو بنيل أمر الطريق المُختصَرة السريّة فقال أندرو إنها أطول من الأخرى، فقال لأندرو إنه سيرميه في البئر. وكان أندرو ضعيفاً فبدأ يبكي. وعندما طار أندرو عائداً إلى لندن، قال باتريك إنه سيرميه من الطائرة. بلاب، بلاب، بلاب. ولم يكن باتريك موجوداً حتى على متن الطائرة، لكنّه

قال لأندرو إنّه سيكون مختبئاً تحت الأرضيّة وسوف يُحدِث فجوة حول مقعده. فقالت مربّية أندرو إن باتريك ولد صغير قذر، فقال باتريك إنَّ ذلك لأنَّ أندرو ضعيف.

أما مربيّة أندرو فكانت قد ماتت. وقالت إحدى صديقات أمّه إنها صعدتْ إلى السماء، لكنَّ باتريك كان موجوداً هناك وكان يعرف حقّ المعرفة أنهم وضعوها داخل تابوت من الخشب وأنزلوها في حفرة. أما السماء فكانت في الاتجاه المعاكس وهكذا فإنَّ المرأة كانت تكذب، إلّا إذا كان الأمر أشبه بإرسال طرد بالبريد. وبكتْ أمّه كثيراً عندما وُضِعَتْ المربّية في التابوت، وقالت إنَّ ذلك بسبب مربيتها الخاصّة. وهذا كلام أحمق، لأنَّ مربّيتها الخاصة كانت لا تزال حيّة تُرزَق وفي الحقيقة كانوا سيقومون بزيارتها على متن القطار، وكان ذلك شيئاً مملّاً جداً. فقد قدَّمتْ لهم كعكة كريهة لا يوجد عليها إلّا مقدار ضئيل من المربّى في الوسط والكثير جداً من الرغوة على كلا الجانبين. كانت دائماً تقول «أنا أعلم أنكَ تحبّها»، وهذا كذب، لأنه كان قد أخبرها في آخر مرّة أنّه لا يُحبّها. كانت تُسمّى بالكعكة الإسفنجيّة فسألها إنْ كانت تُستَخدَم في الاستحمام فضحكتْ مربّية أمّه وضحكتْ وعانقته مطوّلاً. وكان ذلك شيئاً مُقرِفاً لأنها ضغطَتْ خدّها على خدَّه وتدلّى جلدها بارتخاء، كعنق دجاجة كان قد رآه يتدلّى من حافة طاولة المطبخ.

على أيّة حال لماذا كان على أمّه أنْ تحتفظ بمربّية؟ هو لم تعُد لديه واحدة ولم يتجاوز الخامسة من العمر. وقد قال والده إنّه أصبح الآن رجلاً صغيراً. وتذكّر أنّه ذهب إلى إنكلترا عندما كان في الثالثة. كان الوقت شتاءً وشاهد الثلج للمرة الأولى في حياته. وتذكّر أنّه وقفَ في الطريق بجوار جسر حجريّ وكان الطريق مكسوّاً بالصقيع والحقول مكسوّة بالثلوج والسماء مُشرقة والطريق والسياجات تتلألأ وكان يلبس قفازاً من الصوف الأزرق وكانت المُربيّة تُمسك بيده ووقفا لا يأتيان بحركة فترة طويلة وهما ينظرانْ إلى الجسر. كان يفكّر في ذلك كثيراً، وفي المناسبة التي جلسا خلالها في المقعد الخلفي من السيارة وكيف وضعَ رأسه على حِجرها ورفعَ بصره إليها وابتسمتْ وكانت السماء من خلف رأسها شاسعة وزرقاء، ومن ثم استغرقَ في النوم.

ارتقى باتريك ضفّة منحدرة على دربٍ يمرّ بمُحاذاة شجرة غار حتى وصل إلى جوار البئر. كان مُحرَّماً عليه أنْ يلعب بجوار البئر. وكان مكانه المُفضَّل للَّعب. أحياناً كان يرتقي الغطاء العفن ويأخذ بالقفز عنه وإليه، متظاهراً بأنّه منصّة للقفز البهلواني. لا أحد كان يستطيع أنْ يمنعه، ولا أحد كان يحاول أنْ يفعل ذلك في الغالب. كان الخشب أسود اللون في البقعة التي تقشَّر عنها الدهان الورديّ المُنقَّط. وكان قد تشقَّق بصورة خطرة وجعل قلبه ينبض أسرع. ولم يكن قوياً بما يكفي ليرفع الغطاء بنفسه، ولكنْ عندما كان يُترَك مرفوعاً كان يجمع الحجارة وكتلاً من التربة ويرميها إلى أسفل المهوى، فتضرب المياه مع طرطشة يتردَّد صداها وتغوص داخل السواد.

رفعَ باتريك سيفه بحركة انتصار عندما بلغ قمة الدرب. فوجدَ أنَّ غطاء البئر قد رُفِعَ. وأخذ يبحث عن حجر بحجمٍ جيِّد، أكبر حجر استطاع أنْ يرفعه وأكثر ما عثر عليه استدارة. فتشَ في الحقل المجاور واستخرج من تحت التربة حجراً يميل لونه إلى الحمرة احتاجَ إلى يديه الاثنتين لحمله. وضعه على سطحٍ مستوٍ مُجاور لفتحة مهوى البئر ورفعَ نفسه عالياً حتى لم تعد ساقاه تلمسان الأرض، ثم مال فوقه قدر استطاعته، ونظر نحو الأسفل إلى الظلام حيث كان يعلم أنَّ الماء يختبئ. ثبَّتَ نفسه بيده اليُسرى، ودفع بالحجر من الحافة وسمعَ ضجيج الغوص الذي أصدره وراقبَ سطح الماء ينشقّ والمياه تضطرب وتعكس ضوء السماء وتعيد لمعانه مُشوّشاً. كان الماء ثقيلاً جداً وأسود وأشبه بالزيت. صرخ نحو أسفل المهوى حيث تحوَّلَ لون حجارة الآجر الجافة إلى الأخضر ومن ثم إلى الأسود. ولو أنّه مال بالقدر الكافي لسمعَ تردّد الصدى الرطب لصوته.

قرَّر باتريك أنْ يرتقي جانب البئر. كان صندله الأزرق الخفيف يتناسب مع الفجوات التي بين الصخور. أراد أنْ يقفَ على الحافة بجوار فتحة مهوى البئر. كان قد فعل ذلك مرةً من قبل، على سبيل التحدّي، عندما كان أندرو يمكث عنده. كان أندرو قد وقفَ بجوار البئر وهو يقول «أرجوك لا تفعل، يا باتريك، أرجوك انزل، أرجوك لا تفعل». عندئذٍ لم يكن باتريك خائفاً، على الرغم من أنَّ أندرو كان كذلك، أما الآن وهو وحده فشعر بالدوار، جاثماً على الحافة، وظهره باتجاه الماء. نهضَ واقفاً ببطء شديد وعندما شدَّ قامته،

شعر بالفراغ الذي خلفه يُناديه، يجذبه إلى الخلف. كان مُقتنعاً بأنَّ قدميه سوف تنزلقان إذا أتى بأيّة حركة، وحاولَ أنْ يكفَّ عن الارتعاش بالتشبُّث بقبضتَي يديه وبأصابع قدميه والنظر إلى أسفل بجديّة صارمة إلى الأرض الصلبة المُحيطة بالبئر. كان السيف لا يزال يستقرّ على الحافّة وأراد أنْ يستعيده لكي يُصبح انتصاره متكاملاً، وهكذا مال إلى الأمام بحذر، مُستعيناً بقدرٍ هائل من الإرادة، متحدّياً الخوف الذي حاولَ أنْ يستولي على أطرافه، والتقطَ السيف من شفرته الرماديّة المخدوشة والمنبعجة. وحالما أمسك بالسيف، أحنى رُكبتيه بتردُّد وقفز عن الحافة، واستقرّ على الأرض، وأطلقَ هتاف الانتصار هوررراي مُصدِراً ضجيجَ صليلٍ معدنيّ وهو يُطيح بسيفه حوله ويحصد أعداءً وهميين. وضرب ورقة غار بشفرة سيفه ومن ثم طعن الهواء من تحتها مُطلقاً أنيناً مُروِّعاً، وممسِكاً بجنبه في الوقت نفسه. كان يحبّ أنْ يتخيَّل جيشاً رومانيّاً كامناً يوشِك أنْ يُقطِّع إرباً على أيدي البرابرة، ثم يصل هو، آمراً لثلّة خاصّة من الجنود تلبس أرديّة أرجوانيّة، وكان هو أجرأ الجميع وأنقذ النهار من هزيمة نكراء.

عندما كان يخرج ليتمشّى في الغابة كان غالباً ما يفكّر في إيفانو، أحد أبطاله المُفضَّلين في القصص المُصوَّرة، الذي يقطع الأشجار على كلا جانبيه في أثناء مروره. كان باتريك يضطرّ إلى الالتفاف حول أشجار الصنوبر، لكنّه يتخيَّل أنّه يمتلك القدرة على شقّ طريقه الخاصّ، ويخطو خطوات جبّارة داخل الغابة الصغيرة الواقعة في نهاية المصطبة التي يقفُ عليها، ويُطيحُ بضربة واحدة بكل شجرة تقع إلى يمينه وإلى يساره. كان يقرأ عن أشياء في الكتب ومن ثم يفكِّر فيها مطولاً. قرأ عن أقواس قُزح في كتابٍ مُصوَّرٍ صبيانيّ، لكنّه بعد ذلك أصبحَ يُشاهدها في شوارع لندن بعد أنْ تُمطِر هناك، وعندما يتسرَّب زيتُ الوقود من السيارات ويُلوّث الإسفلت وتنتشر المياه على شكل حلقات بألوان متكسِّرة أرجوانيّة، وزرقاء، وصفراء.

اليوم لا يشعر برغبة في الذهاب إلى الغابة ولذلك قرَّرَ أنْ يقفز عن المصطبة كلها. كان الأمر أشبه بالطيران، لكنَّ بعض الجدران كانت مفرطة الارتفاع واضطرّ إلى الجلوس على حافتها، ورمى بسيفه إلى أسفل، وأنزلَ نفسه قدر استطاعته قبل أنْ يسقط. امتلأ حذاؤه بالتربة الجافة حول كرم

العنب واضطرّ إلى خلعه مرّتين وقَلَبَه لإفراغه من التربة والحصى. وبالقرب من قاع الوادي أضحت المصاطب أوسع وأكثر ضحالة وأصبح في استطاعته أنْ يقفز عن الجدران كلها. كان يستجمع أنفاسَه لأداء التحليق الأخير.

أحياناً كان ينجح في القفز مسافة بعيدة بحيث يشعر كأنّه سوبرمان بكل معنى الكلمة، وفي أحيانٍ أخرى كان يجعل نفسه يركض بشكلٍ أسرع عبر التفكير في الكلب الألزاسيّ الذي طارده على طول الشاطئ في ذلك اليوم العاصِف عندما ذهبوا لتناول طعام الغداء في مطعم جورج. كان قد توسّل إلى أمّه لكي تسمح له بالذهاب ليتمشّى، لأنه يحبّ أنْ يتفرَّج على الرياح عندما تهبّ بعنف على مياه المحيط، كتحطيم زجاجات على الصخور. والجميع قالوا له لا تبتعد كثيراً، لكنّه أراد أنْ يقترب من الصخور. كان هناك درب رمليّ يوصِلُ حتى الشاطئ وبينما كان يمشي عليه، ظهر له كلبٌ ألزاسيّ ضخم، طويل الشَعر، في أعلى التلّ، وأخذ ينبح في وجهه. وعندما رأى أنّه يقتربُ منه، باشر بالركض، مُقتفياً التواءات الدرب في أول الأمر ومن ثم أخذ يقفز مباشرة عبر المنحدرات الناعمة، أسرع فأسرع، إلى أنْ بدأ يخطو خطوات جبّارة، وذراعاه منشورتان في وجه الرياح، مندفعاً إلى أسفل التلّ ونحو نصف الدائرة من الرمال التي تقع بين الصخور، وتصل حتى حافة أعلى الأمواج. وعندما نظر عالياً كان الكلب قد أصبح على مسافة أميال فوق التل، وأدركَ أنّه لم يعُد في الإمكان أنْ يلحق به لأنه كان سريعاً جداً. ولاحقاً تساءلَ إنْ كان قد حاول أنْ يلحق به.

وصل باتريك وهو يلهث إلى قاع النهر الجافّ. وارتقى إلى صخرة كبيرة تقعُ بين دغلَين من قصب البامبو الأخضر الباهت. وعندما أخذ أندرو برفقته إلى هناك لعبا لعبةً من اختراع باتريك. كان عليهما أنْ يقفا على الصخرة ويحاول كلٌ منهما أنْ يدفع الآخر إلى أسفل، وكانا يتظاهران بأنَّ على أحد الجوانب توجد حفرة مملوءة بشفرات أمواس مكسورة وعلى الجانب الآخر صفيحة مملوءة بالعسل. فإذا سقط أحدهما على أحد الجانبين يتقطَّع حتى الموت وتنتشر أشلاؤه، وإذا سقط على الجانب الآخر يغوص، ويُصاب بالإرهاق جرّاء السباحة في السائل الذهبيّ الثقيل. وكان أندرو دائماً يسقط، لأنّه ضعيف جداً.

كان والد أندرو أيضاً ضعيفاً، بصورة ما. فقد حضرَ باتريك حفلة عيد ميلاد أندرو التي أُقيمَتْ في لندن، وكان هناك صندوق كبير في وسط غرفة الجلوس، مملوء بالهدايا لتوزَّع على الأطفال الآخرين. اصطفوا رتلاً واحداً وأخذ كلٌ منهم هديته من الصندوق ومن ثم ركضوا في المكان ليُقارنوا بين هداياهم. وخلافاً لهم، أخفى باتريك هديته تحت إحدى الأرائك وعاد لكي يأخذ واحدة أخرى. وعندما مال فوق الصندوق، لكي يتناول لُفافة برّاقة أخرى، جثم والد أندرو بجواره وقال «ألم يسبق أنْ أخذتَ هديّة، يا باتريك؟» -ليس بغضب، بل بصوتٍ يبدو كأنه يُقدِّم قطعة حلوى لباتريك- «ليس عدلاً بالنسبة إلى الأطفال الآخرين أنْ تأخذ أنتَ هديّة أحدهم، أليس كذلك؟». نظر باتريك إليه بتحدٍ وقال «أنا لم آخذ هديّة بعد»، فبدا والد أندرو شديد الحزن وضعيفاً جداً وقال «حسن، يا باتريك، ولكن لا أريد أنْ أراكَ تأخذ واحدة أخرى». وهكذا حصل باتريك على هديتين، لكنّه شعر بكراهية اتجاه والد أندرو لأنه أراد أنْ يحصل على المزيد.

الآن اضطرَّ باتريك إلى ممارسة لعبة الصخرة وحده، قافزاً من أحد جانبي الصخرة إلى الأخرى، متحدّياً مقدرته على التوازن بحركات جريئة. وعندما كان يسقط، يتظاهر بأنَّ ذلك لم يحدث، على الرغم من عِلمه أنّه يغشّ.

نظر باتريك بعين الريبة إلى الحبل الذي ربطه فرانسوا له بإحدى الشجرات القريبة لكي يتأرجح فوق مجرى النهر. وشعر بالعطش وبدأ يرتقي عائداً إلى المنزل على طول الدرب حيث كان جرّار يشقّ طريقه بين أشجار الكرمة. أصبح السيف عبئاً عليه فتأبّطه باحتقار. كان قد سمعَ والده ذات مرّة يستخدم عبارة غريبة. قال لجورج «أعطِهِ مقداراً كافياً من الحبل وسوف يشنق نفسه به». في أول الأمر لم يفهم باتريك معناها، لكنّه اقتنع، في لحظةٍ من الشعور بالرعب وبالخزي، بأنهما كانا يتحدثان عن الحبل الذي ربطه فرانسوا بالشجرة. وفي تلك الليلة حلُمَ بأنَّ الحبلَ قد تحوَّلَ إلى إحدى مجسّات أخطبوط التفَّ حول عنقه. حاول أنْ يقطعه، لكنّه لم يتمكّن لأنَّ سيفه لم يكن إلا سيف دمية. وبكتْ أمّه كثيراً عندما عثروا عليه يتدلّى من الشجرة.

حتى عندما يكون المرء يقظاً يصعبُ عليه أنْ يعرف ما يعنيه البالغون

عندما يتكلّمون عن بعض الأشياء. وذات يوم عرِفَ السبيل إلى تخمين ما ينوون فعله: فكلّا يعني كلّا، وربما يعني لعلَّ، ونعم يعني ربما ولعلَّ يعني كلا، لكنَّ المنظومة لم تنجح، وقرَّر أنَّ ربما كل شيء يعني لعلَّ.

غداً سوف تزدحم المصاطب بقاطفي العنب وهم يملؤون الدلاء بعناقيد العنب. وفي العام السابق كان فرانسوا قد أخذه معه على متن الجرّار. كانت يداه قويتين جداً وصلبتين كالخشب. كان فرانسوا متزوجاً من إيفيت التي لديها سنٌّ من ذهب يمكن رؤيته عندما تبتسم. وذات يوم أراد باتريك أنْ يجعل أسنانه كلها من ذهب، وليس فقط اثنتين أو ثلاث. وأحياناً كان يجلس في المطبخ مع إيفيت وتسمح له بتذوُّق الأطباق التي أعدَّتها. كانت تقترب منه مع ملاعق مترعة بالبندورة واللحم والحساء وتقول «*Ca te plait?*» (هل أعجبك؟) ويستطيع أنْ يرى سنّها الذهبيّة عندما يومئ برأسه إيجاباً. وفي العام السابق طلبَ فرانسوا منه أنْ يجلس في زاوية العربة المقطورة بجوار برميلَين كبيرين مملوءَين بالعنب. وأحياناً عندما يكون الدرب وعراً ومنحدراً كان يلتفت إليه ويسأله «*Ca va?*» (أأنت على ما يُرام؟)، فيردّ باتريك هاتفاً «*Oui, Merci*» (نعم، شكراً) عبر ضجيج المُحرِّك واهتزاز الجرّار وتخبّطه وصوت المكابح. وعندما يصلان إلى المكان الذي يُصنَع فيه النبيذ، كان باتريك يفرح كثيراً. كان المكان هناك مظلماً وبارداً، والأرضيّة مغسولة بالمياه، وتنبعثُ منه رائحة عصير حادّة وهي تتحول إلى نبيذ. كانت الغرفة شاسعة وكان فرانسوا يرتقي معه السلَّم إلى ارتفاعٍ منحدر يقع فوق معصرة النبيذ والأوعية كلها. كان المنحدر مصنوعاً من المعدن ومزوَّداً بثقوب وكان ينتابه شعور غريب وهو على ذلك الارتفاع والثقوب تحت قدميه.

عندما وصلا إلى معصرة النبيذ نظر باتريك إلى أسفل فرأى بَكَرتين من الفولاذ تدوران في اتجاهين متعاكسين لا تفصل بينهما أيّة مسافة. كانت كلٌّ منهما تضغط في عكس اتجاه الأخرى وهما مُلطّختان بعصير العنب، وتدور مع ضجيج مرتفع. كانت الحافة السفليّة من المنحدر المنخفض تصل فقط حتى ذقن باتريك وشعر بقُربه الشديد من معصرة النبيذ. وعندما نظر إليها شعر كأنَّ عينيه حبّتا عنب، مصنوعتان من الهلام الناعم الشفّاف نفسه وأنهما يمكن أنْ تسقطا من رأسه وتُسحقا بين البكرتين.

مع اقتراب باتريك من المنزل، مرتقياً كالمعتاد المطلع الأيمن من الدَّرَج المزدوج لأنَّ ذلك يجلب الحظ أكثر، انعطفَ إلى الحديقة ليرى إنْ كان يمكن أنْ يعثر على الضفدع الذي يُقيم في شجرة التين. معتبراً أنَّ ضفدع شجرة التين محظوظ حقاً. كان جلده الأخضر البرّاق أشدّ نعومة من اللحاء الرمادي الناعم لشجرة التين، وكان صعباً العثور عليه بين أوراق التين التي كان لونها هو لونه نفسه تقريباً. في الحقيقة، لم يكن باتريك قد رأى ضفدع شجرة التين إلّا مرّتين فقط، لكنّه وقفَ بثبات فترات طويلة يُحدِّق إلى هيكله حادّ التقاطيع وإلى عينيه الجاحظتين، كحبّتين صفراوين في قِلادة أمّه، وإلى الأجزاء البارزة من طَرَفه الأماميّ التي تجعله ثابتاً لا يأتي بأيّة حركة وهو يلتصق بالجذع، وفوق كل شيء، إلى جنبيه المنتفخين اللذين يبثّان الحياة في جسمٍ رقيق كحجر كريم، لكنّه أشدّ نهماً إلى التنفُّس. وفي المرة الثانية التي شاهَدَ فيها الضفدع، مدَّ باتريك يده ولمس بعناية رأسه بطرف سبّابته، فلم يتحرَّك وشعرَ بأنّه يثِقُ فيه.

في ذلك اليوم لم يكن الضفدع موجوداً فارتقى بإرهاق المطلعَ الأخير من الدَّرَج، وهو يدفع رُكبتيه بيديه. دار حول المنزل نحو مدخل المطبخ واقتربَ ليفتح الباب الصارّ. كان يتوقَّع أنْ يرى إيفيت في المطبخ، لكنها لم تكن هناك. حالما فتح الثلّاجة سمع قعقعة قناني النبيذ الأبيض والشمبانيا وتلاطمها. عادَ إلى خزانة اللحوم، حيث عثر على زجاجتين من الحليب بالشوكولاتة في ركنٍ من الرفّ السفليّ. وبعد قيامه بعددٍ من المحاولات استطاع أنْ يفتح إحداها وشربَ السائل السلس من الزجاجة مباشرة، وهو تصرُّف كانت إيفيت قد أمرته بألّا يلجأ إليه. وفور انتهائه من الشرب شعر بحزنٍ عنيف وجلسَ على مدى بضع دقائق على طاولة المطبخ وحدَّقَ نحو الأسفل إلى حذائه المتدلّي.

سمع عزفاً على آلة البيانو، مكبوتاً بفعل المسافة والأبواب المُغلَقَة، لكنّه لم يولِهِ انتباهه، إلى أنْ تعرَّفَ على اللحن الذي كان والده هو الذي ألَّفه لأجله. قفز عن الطاولة وهرع على طول الرواق المؤدي إلى الردهة، واجتاز الردهة، ثم انتقل إلى الهرولة حالما ولج غرفة الجلوس وأخذ يرقص على أنغام لحن والده. كانت موسيقى جامحة مع مقاطع من الأنغام العالية

والخشنة مُركَّبة على لحن المارش العسكري المُدمدم. وأخذ باتريك يقفز وينساب بين الطاولات والكراسي وحول حافة آلة البيانو، ولم يلجأ إلى الراحة إلّا بعد أنْ كفَّ والده عن العزف.

سأله والده، وهو يُحدِّق إليه بإمعان، «كيف حالك اليوم، أيّها السيد؟»

قال باتريك، متسائلاً إنْ كان سؤالاً خادِعاً، «على ما يرام، شكراً لك». كان يلهث، لكنّه علِمَ أنَّ عليه أنْ يُركِّز انتباهه لأنه برفقة والده. وعندما سأله ما هو أهمّ شيء في العالم، أجابه والده «ملاحظة كل شيء». كان باتريك غالباً ما ينسى هذه النصيحة، ولكن في حضرة والده كان ينظر إلى الأشياء بعناية، من دون أنْ يكون واثقاً مما يبحث. راقبَ عينَي والده من خلف النظارات القاتمة. كانتا تنتقلان من غرضٍ إلى آخر ومن شخصٍ إلى آخر، متوقّفاً برهة عند كلٍ منها ويبدو كأنه يسرقُ شيئاً حيويّاً منها، بإلقاء نظرة سريعة ثابتة، كفرقعة لسان أبي بريص السامّ. وعندما يكون باتريك مع والده، كان باتريك ينظر إلى كل شيء بجديّة، آملاً في أنْ يبدو هو نفسه جديّاً في عين أي شخص ينظر في عينيه، كما نظر هو إلى عينَي والده.

قال والده «تعالَ إلى هنا». اقتربَ باتريك.

«هل أشدّ لك أُذُنك؟»

هتفَ باتريك «كلا». كانا كأنهما يمارسان لعبة ما. مدَّ والده يده وشدَّ أُذُنَي باتريك بين سبّابتيه وإبهامَيه. أحاط باتريك رسغَي والده بيديه فتظاهر الوالد بأنّه يرفعه من أُذُنيه، لكنَّ باتريك تلقّى الضغط حقاً بذراعيه. نهضَ والده واقفاً ورفعَ باتريك إلى أنْ تقابلتْ عيونهما على مستوى واحد.

قال «أبعِد يديك»

هتفَ باتريك «كلا»

قال والده بنبرة مُقنِعة «أفلتْ أنتَ وسوف أُفلِتُ في الوقت نفسه»

حرَّر باتريك رسغيّ والده، لكنَّ والده استمرَّ في قرص أُذنيه. كان ثقل جسمه بأكمله مدعوماً بأُذنيه. فأسرع بالقبض على رسغيّ والده من جديد.

قال «آخ، أنتَ قلتَ إنكَ سوف تُفلتني. أرجوك أفلتْ أُذني»

ظل والده يرفعه عن الأرض. قال «ها أنتَ قد تعلَّمتَ درساً مفيداً اليوم. فكِّر في نفسك دائماً. لا تدع الآخرين يتّخذون قرارات مهمّة بالنيابة عنك»

قال باتريك «أرجوك أفلتني. أرجوك». شعرَ بأنه يوشك أنْ يبكي، لكنّه أبعد إحساسه باليأس. كانت ذراعاه مُرهقتَين، ولكن إذا أرخاهما فسوف يشعر بأنَّ أُذنيه سوف تُنزعان، كما تُنزَع وريقة الذهب عن وعاء الكريما، وتُخلعان عن رأسه.

زعقَ «لقد وعدتني، وعدتني»

أنزله والده. قال بصوت ملول «لا تئنّ، لأنَّه شيء كريه» وجلسَ على البيانو وباشر بعزف المارش من جديد، لكنَّ باتريك لم يرقص.

هرعَ خارجاً من الغرفة، عبر الردهة، وخارج المطبخ، ومن المصطبة، على طول كرم الزيتون ومنه إلى غابة الصنوبر. عثر على أيكة الشوك، فاندسَّ تحتها، وانزلقَ تحت منحدر قصير داخل أشدّ المخابئ سريّة. وتحت مظلّة الأيكات، مُلتصقاً بشجرة صنوبر مُحاطة بأجمات من كل جانب، جلسَ وحاولَ أنْ يكفّ عن النشيج، الشبيه بالفواق، الذي تحشرجَ في حنجرته.

قال في نفسه، لا أحد في وسعه أنْ يعثر عليّ هنا. لم يتمكّن من إيقاف النوبات التي سيطرتْ على أنفاسه وهو يحاول أنْ يستنشق الهواء. وكأنه كان محبوساً داخل سترته الصوفيّة، وعندما أقحمَ رأسه فيها لم يجد عنق السترة وحاولَ أنْ يخرجه عن طريق الكُمّ فتلوّتْ وحسِبَ أنّه لن يخرج منها أبداً ولم يستطع أنْ يتنفَّس.

قال في نفسه، لِمَ فعل والده ذلك؟ لا يجوز لأحد أنْ يفعل هذا مع أي شخص آخر، لا يجوز لأحد أنْ يفعل هذا مع أي شخص آخر.

في فصل الشتاء عندما يتشكَّل الجليد فوق البِرَك، يمكن رؤية الفقاعات من تحته ويعجز الهواء عن التنفُّس: لقد أغرقه الجليد وأبقاه في الأسفل، وكره هذه الفكرة لأنها كانت مُجحفة ولذلك كان دائماً يكسر الثلج ليدع الهواء يتحرَّر.

قال في نفسه، لا أحد يستطيع أنْ يعثر عليّ هنا. ثم قال في نفسه، ماذا لو أنَّ لا أحد عثر عليّ هنا؟

– 3 –

كان فيكتور لا يزال نائماً في غرفته في الطابق السُفليّ وأرادتْ آنّا له أنْ يبقى نائماً. فبعد أنْ عاشا معاً أقلّ من عام أصبحا الآن ينامان في غرفتين منفصلتين لأنَّ غطيط فيكتور في نومه، ولا شيء آخر، يُبقيها يقظة طوال الليل. كانت تهبط الدَّرَج شديد الانحدار والضيِّق حافية وتُمرِّر أطراف أصابعها على طول منحنى الجدران المُبيَّضة. وفي المطبخ أزالتْ الصُفرة عن ميزاب الإبريق المصقول والمُشوَّه، وصنعَتْ قهوة بأقصى قدر من الصمت.

كان مطبخ فيكتور يتَّسِم بحماسة مُتعَبَة، بأطباقه البرتقاليّة البرّاقة وشرائح البطيخ بابتسامتها العريضة الطريفة التي تطل من مناشف الشاي. كان المطبخ ملجأ المرح الرخيص الذي ولَّدته زوجة فيكتور السابقة، إيلين، وقد تمزَّقَ فيكتور بين الاعتراض على قلّة ذوقها والخوف من أنْ يكون من قلَّة الذوق أنْ يعترض. فقبل كل شيء، هل يُلاحظ المرء أغراض المطبخ؟ هل تستحق الاهتمام؟ أليست اللامبالاة أكثر أهميّة؟ لطالما أُعجِبَ بيقين ديفيد ميلروز بأنَّ ما بعد حُسن الذوق تكمن الثقةُ في ارتكاب الأخطاء لأنها أخطاء المرء الخاصّة. وعند هذه النقطة كان فيكتور دائماً يتردَّد. أحياناً كان يؤثِرْ لبضعة أيام، أو لبضع دقائق، الوقاحةَ الجازمة، لكنّه كان دائماً يعود إلى تجسيدِهِ الحذر لشخصيّةِ السيِّد المحترم؛ كان لا بأس على الإطلاق من *epater les bourgeois* (إثارة إعجاب البورجوازيين)، لكنَّ الإثارة كانت تتضاعَف إذا كنتَ واحداً منهم. كان فيكتور يعلم أنّه لن يتمكّن أبداً من اكتساب يقين ديفيد ميلروز بأنَّ النجاح شيْ سوقيّ. وعلى الرغم من أنّه كان أحياناً يرضخ لغوايةِ اعتقادِ أنَّ كسلَ ديفيد واحتقاره يُخفيان ندماً على حياته الفاشلة، فإنَّ هذه الفكرة البسيطة كانت تتلاشى في حضور ديفيد المُستبدّ.

إنَّ ما أذهل آنْ كان أنَّ رجلاً بمهارة فيكتور يمكن أنْ يقع في فخٍّ صغير كذاك. صبّتْ لنفسها بعض القهوة وشعرتْ بتعاطُفٍ غريب مع إيلين. لم تكونا قد تقابلتا، لكنها فهمتْ دافع زوجة فيكتور للّجوء إلى مجموعةٍ كاملة من المغفّلين المتطفلين.

عندما أرسلَ مكتب لندن لصحيفة نيويورك تايمز آنْ مور لكي تُجري حديثاً صحفيّاً مع الفيلسوف البارز السير فيكتور أيزن، بدا عتيق الطراز قليلاً. كان قد عاد تواً من تناول وجبة غداء في الأثنيوم، وكانت قبعته المصنوعة من اللباد، واسودَّتْ بفعل المطر، موضوعة على طاولة الردهة. أخرج ساعة جيبه من جيب صدريته بإيماءة بدت لآنْ أنها عفا عليها الزمن.

قال «آه، وصلتِ في موعدك بالضبط، يُعجبني الالتزام بالمواعيد»

أجابت «أوه، عظيم، كثير من الناس لا يلتزمون بها»

سار الحديث الصحفيّ بشكلٍ جيد، بل في الحقيقة جيد جداً إلى درجة أنّه في وقت لاحق من ذلك اليوم انتقلَ الحوار إلى غرفة نومه. ومنذ تلك النقطة فصاعداً اعتبرتْ آنْ عن طيب خاطر أنَّ ملابسه التي ربما يعود عهدها إلى العصر الإدوارديّ، والمنزل المتداعي والحكايات المُلطّخة باللون الأحمر الأرجوانيّ، تشكِّلُ جزءاً من التمويه الذي يمكن للمُثقّف اليهودي أنْ يلجأ إليه، بالإضافة إلى مظهر الفارس، لكي ينخرط في المشهد العام للحياة الإنكليزيّة التقليديّة.

على امتداد الأشهر التالية عاشتْ مع فيكتور في لندن، متجاهلة أي دليل يجعل هذا التأويل المعتدل يبدو متفائلاً. على سبيل المثال، فترات العطل الأسبوعيّة المتقطّعة التي كانت تبدأ بإعطاء المعلومات النهائيّة في ليلة يوم الأربعاء: عن عدد الأراضي، وعدد القرون، وعدد أفراد الخدم. وكانت أمسية يوم الخميس تُخصَّص للتأمُّل: كان يأمل، يأمل بشدّة، ألّا يكون المُستشار حاضراً هذه المرَّة؛ هل سيكون جيرار لا يزال يمارس إطلاق النار الآن وقد أصبحَ يجلس على كرسيّ متنقّل؟ كانت التحذيرات تصدر في يوم الجمعة، في أثناء الانتقال بالسيارة: «*لا تحلّي* أمتعتك في هذا المنزل»، «*كفاكِ* سؤال

الناس عمّا يعملون»، «*لا تسألي* الساقي عن شعوره، كما فعلت آخر مرَّة». كانت العطل الأسبوعيّة لا تنتهي إلّا في يوم الثلاثاء عندما تُعصَر بقايا يومَي السبت والأحد من جديد لاستخلاص آخر قطرات العصير الحامض.

في لندن، قابلتْ أشدّ أصدقاء فيكتور ذكاءً أمّا في العطل الأسبوعيّة فيكون الناس الذين يُلازمانهم من الأثرياء وفي الغالب أغبياء. كان فيكتور بالنسبة إليهم هو صديقهم الذكي. كان يستحسن نبيذهم ولوحاتهم وكانوا يبدؤون العديد من جُمَلَهم بالقول «سوف يُخبرنا فيكتور...» وراقبَتْهم وهم يُحاولون دفعه إلى قول شيء ينم عن ذكاء وراقبَتْه وهو يبذل جهده لكي يكون أقرب شَبَهاً بهم، بل ويُكرِّر بشكلٍ مملّ السلوك الورِع المحلّي: أليس شيئاً رائعاً أنَّ جيرالد لم يتخلَّ عن ممارسة إطلاق النار؟ أليستْ والدة جيرالد رائعة؟ كلّها حيويّة وما زالتْ تعمل في الحديقة كالقندس وهي في الثانية والتسعين. شهقَ «كم يُضجرني هذا».

إذا كان فيكتور قد غنّى من أجل الحصول على وجبة عشائه، فهو على الأقلّ استمتع بتناولها. أما الشيء الذي كان من الأصعب إسقاطه من الحسبان فهو منزل لندن. كان قد دفعَ قيمة إيجار هذا المنزل الكبير بصورة مدهشة والأبيض المُزخرف بالجصّ في مُجمَّع نايتسبريدج بعد أنْ باع منزله الذي يمتلكه والأصغر حجماً بقليل مقابل آخر أقلّ حداثة. الآن لم يتبقَّ من مدة الإيجار إلّا سبع سنوات. وقد عزَتْ آنْ بقوة هذا الإجراء المجنون إلى شرود الذهن الذي يشتهر به الفلاسفة.

ولم يبدأ ولاؤها بالتلاشي إلّا عندما جاءتْ إلى هنا في لوكوست في شهر تموز وشهدتْ علاقة فيكتور بديفيد. بدأتْ تتساءل عن الثمن المرتفع الذي كان فيكتور مُستعداً لدفعه في وقتٍ ضائع مقابل أنْ يُقبَل اجتماعيّاً، وعن السبب في رغبته في دفعه لديفيد.

وِفقَ رواية فيكتور، كانا «من العصر نفسه»، وهي عبارة كان يصِفُ بها أيَّ شخصٍ في عمره نفسه تقريباً لم يُلاحِظ وجوده في أيام المدرسة. وقوله «كنتُ أعرفه في مدرسة إيتون» كان غالباً ما يعني به أنّه كان يتعرَّض بقسوة للسُخرية من أحدهم. وقوله عن اثنين آخرين فقط من الطلاب إنهما كانا

صديقَين له في المدرسة، ولم يعد يرى أيّاً منهما. أحدهما كان رئيس جامعة كمبريدج والآخر كان موظفاً حكومياً من المعروف عنه على نِطاق واسع أنه جاسوس لأنَّ عمله كان يبدو مملاً إلى درجة أنَّ من الصعب تصديق وجوده.

في تلك الأيام كان في استطاعتها أنْ تتخيَّل فيكتور، كتلميذ مدرسة قلق غادر والداه النمسا بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، واستقرّا في هامستد، ولاحقاً ساعدا صديقاً لهما في العثور على منزل من أجل فرويد. كانت الصور التي تخيّلتها لديفيد ميلروز تتألّف من مزيجٍ من حكايات فيكتور وتصوّرها الأميركيّ للامتياز الإنكليزيّ. تصوّرته شبه إله من المنزل الكبير، يبدأ الضربة الأولى في مباراة ضد فريق الكريكيت في القرية، أو يتسكّع مرتدياً صدريّة غريبة الشكل سُمِحَ له بارتدائها لأنه ينتسب إلى بوب، النادي الذي لم يطأ فيكتور أرضه أبداً. كان صعباً تناول موضوع نادي بوب ذاك بجديّة لكنَّ فيكتور نجح في ذلك بصورة ما. وبقدر ما فهمَتْ كان أشبه ببطل فريق الجامعة بكرة القدم، ولكنْ بدل أنْ يُضاجع رئيسات الهتاف، كان يضرب الفتية الصِغار لأنهم أحرقوا خبزه المُحمَّص.

عندما قابلتْ ديفيد، عند آخر السجادة الحمراء الطويلة التي مَدَّتها حكايات فيكتور، لاحظتْ الغطرسة لكنّها قرّرتْ أنّها هي أميركيّة إلى درجة أنها لا يمكن أنْ تتأثّر برونق وعد ديفيد الضائع وفشله. لقد فاجأها بزيفه وهذا ما أخبرتْ به فيكتور. وأظهر فيكتور رصانة واستهجاناً، وردَّ بأنَّ ديفيد على العكس عانى من الوضوح الذي رأى به وضعه الخاصّ. وسألتْ «أتقصد أنّه يعلم أنّه إنسان مُزعج؟».

عادتْ آنْ ترتقي الدَّرَج، وهي تُدفئ يديها بكوب برتقاليّ اللون يتصاعد منه البخار وعليه رسوم قلوب أرجوانيّة بأحجام مختلفة. كانت تودُّ لو تمضي النهار في القراءة وهي على الأرجوحة المُعلَّقة بين شجرتَين عاديتين أمام المنزل، لكنّها وافقتْ على الذهاب إلى المطار مع إلينور. لقد فرَضَت عليها رغبةُ فيكتور اليهوديّة في مرافقة آل ميلروز عادةَ الفتيات الأميركيات في الخروج للنزهة. والفرد الوحيد من آل ميلروز الذي أحبّته آنْ كان باتريك. على الرغم من عدم تجاوزه سن الخامسة إلّا أنه كان لا يزال قادراً على إظهار القليل من الحماس.

إنْ كانت في أول الأمر تأثّرتْ بهشاشة إلينور، إلّا أنَّ آنْ غضبَت الآن لأنها سكرتْ. ثم إنَّه كان على آنْ أنْ تحذَر من رغبتها في إنقاذ الناس، بالإضافة إلى عادتها في إبراز نقائصهم الأخلاقيّة، خاصّة وأنها تعلم أنَّ لا شيء يُثير حفيظة الإنكليز أكثر من امرأة تحمل آراءً مُحدَّدة، والمرأة التي تُدافع عن تلك الآراء. وكأنما كلما لعبتُ بالورقة الكبيرة يغلبها لاعبٌ صغير. واللاعبون الصغار قد تكون بعض الثرثرة، أو تعليقات مُغرِضة، أو تلاعب في الألفاظ لا صِلة له بالموضوع، أو أي شيء يُبدِّد احتمال الجديّة. لقد ملَّتْ الابتسام القاتل المرتسم على وجوه الناس الذين يُعزِّز سُخفُهُم انتصارَهم.

إبّان معرفتها هذا، بات من السهل نسبياً أنْ تلعب مع الدوق الإنكليزيّ المُتهرِّب من دفع الضرائب، جورج واتفورد، الذي جاء من الساحل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع آل ميلروز، منتعلاً حذاءً رقيقاً جداً، ووجهه الجامد تكسوه الشقوق الرفيعة، كالورنيش الذي يكسو وجوه الرسّامين العِظام الذين «صعقت الأمّة» ببيع رسومهم. إنَّ الإنكليز لا يطلبون الكثير من دوقاهم حسب رأي آن. كل ما كان عليهم أنْ يفعلوا هو التشبُّث بممتلكاتهم، على الأقلّ بالمعروف منها، ومن ثم أنْ يُصبحوا حرّاسَ ما يُسميه الآخرون «إرثنا». وخاب أملها عندما اكتشفتْ أنَّ هذا الشخص ذا الوجه الشبيه بشبكة العنكبوت لم ينجح في مهمة بسيطة كترك لوحات رامبرانت مُعلّقة على الجدار حيث وجدها.

استمرّتْ آنْ في متابعة اللعب إلى أنْ وصل فيجه شاه. كان مجرد أحد المعارف، وليس صديقاً من أصدقاء فيكتور، كانا قد تقابلا قبل عشر سنوات عندما دعا فيجه، بوصفه رئيس جمعية المناظرة، فيكتور إلى إيتون لكي يُدافع عن «ضرورة» الفلسفة. ومنذ ذلك الحين وفيجه يُعزِّز تلك الصِلة بوابلٍ من بطاقات البريد الفنيّة وكانا يتقابلان على فترات متقطعة في حفلات تُقام في لندن. وكان فيجه، على غرار فيكتور طالباً في إيتون، ولكن خِلافاً لفيكتور كان أيضاً فاحش الثراء.

في أول الأمر شعرت آنْ بالذنب لأنها أبدتْ ردّة فعل سيئة لظهور فيجه. كانت بشرته ذات لون المحار واللغد السميك الذي بدا أشبه بهجوم دائم من التهاب النكاف، بمثابة خلفية تعسة لأنفٍ كبير معقوف وكمية من الشَعر

العنيد تنمو حول المنخرين. كانت نظارته سميكة ومربّعة الشكل ولكن، من دونها، كان الانبعاج المسلوخ على جسر أنفه والعينان الواهنتان المُحدّقتان من مِحجريهما الرماديين القاتمَين، كلها تبدو أسوأ مما هي. كان شَعره قد جفَّ من دفق الهواء حتى انتصبَ وتيبَّسَ كعجينة سوداء تقبعُ على قمّة جمجمته. ولم يكن لملابسه أيّ أثر للتعويض عن تلك العوائق الطبيعيّة. فإنْ كان بنطلون فيجه المُفضَّل الأخضر الساطع هو خطأ، فإنّه خطأ تافه مقارنة بسلسلة ستراته الخفيفة بأشكالها العشوائيّة، والجيوب الخالية من الطيّات المُثبّتة من الخارج. ومع ذلك، كان يبدو جيداً بأي زي للسباحة. وتذكّرتْ آنْ مع شعورٍ بالرعب كتفيه الضيِّقين وبثورهما البيضاء التي تكافح لتخترق بشرة سميكة مغطاة بشَعرٍ أسود خفيف.

لو أنَّ شخصية فيجه كانت أشدّ جاذبيّة لأثار مظهره الشفقة أو حتى اللامبالاة، لكنَّ قضاء بضعة أيام معه أقنعتْ آنْ بأنَّ كل خط في تقاسيمه الشنيعة رسمتها ضغينة كامنة داخله. كان فمه الواسع، المُكشِّر في وقتٍ واحد فظّاً وقاسياً. وعندما يحاول أنْ يبتسم، لا تنجح شفتاه بلونهما الأرجوانيّ إلّا بالانعطاف والالتواء كورقة نبات رُمِيَتْ إلى النار وبدأتْ تتلف. ولما كان خَنوعاً ومُقهقهاً في تعامله مع الأشخاص الأكبر سناً والأكثر سلطة، كان يُصبح متوحشاً حالما يشمّ رائحة الضعف، ولا ينقضّ إلّا على الفريسة السهلة. وبدا كأنَّ صوته مُصمَّمٌ حصراً للابتسام بتكلُّف ومع ذلك عندما تجادلا في الليلة السابقة لمغادرته، أنجزَ ذلك الصوت صرامة حادّة النبرة جديرة بأستاذ مدرسة تعرَّضَ للخيانة. وكالعديد من المتملّقين، لم يكن يعي أنّه يُثير حفيظة الناس الذين يتملّقهم. وعندما قابل الدوق المتخشِّب أخذ يُغدقه بدفقٍ غزير من المديح، كزجاجة مقلوبة من الشراب الحلو. وبعد ذلك تناهى إلى سمعها جورج وهو يشتكي لديفيد قائلاً «لقد جلب لي صديقك فيكتور رجلاً فظيعاً. ظلَّ يحكي لي عن أعمال الجصّ في ريتشفيلد. حسبتُ أنّه يبحث عن عمل كدليل»، زمجر جورج بازدراء وردَّ عليه ديفيد بزمجرة ازدراء.

جديرٌ بهنديّ صغير تعرَّض للسُخرية من قِبَل أشخاص متوحشين من الإنكليز ذوي الامتياز أنْ يُوجّه في المعتاد كامل ثِقَل ولاء آنْ للمُضطَهَدين،

ولكن في هذه المرَّة مسحتْ ذلك الولاء رغبةُ فيجه الجامحة في أنْ يصبح هو نفسه وحشاً يحظى بامتيازٍ إنكليزيّ. قال وهو يُقهقه «لا أطيق الذهاب إلى كلكوتا، بسبب الناس، يا عزيزي، والضجيج»، ثم سكتَ لكي يُفسِح المجال للجميع استحسان هذه الملاحظة اللامبالية التي صدرتْ عن جنديّ بريطانيّ في موقعة سوم.

تلاشتْ ذكرى صدى تملُّق فيجه مع محاولة آنْ فتح باب غرفة نومها، الذي كان دائماً يَعْلَق بسبب نتوء في الأرضيّة غير المستوية بصورة غريبة. كانت الغرفة مما تبقّى من إيلين، التي رفضَتْ أنْ تغيِّر ما سمّته «الإحساس الأصيل بالمنزل». والآن أصبحت حجارة البلاط القرميدي سُداسيّة الشكل متهرّئة وتحوّلتْ إلى طينٍ يابس شاحب اللون وفي كل مرَّة يُفتَح الباب يرتطم به. وخشية أنْ تريق قهوتها تركتْ الباب عالقاً ودخلتْ بانحرافٍ إلى الغرفة. دفعَ صدرها الخزانة ومرَّتْ.

وضعت آنْ كوب القهوة على الطاولة ذات السطح الرخاميّ والقوائم المعدنيّة السوداء التي كانت إيلين قد اشترتها من أحد محلات بيع سقط المتاع في آبتْ كالمنتصرين وعادتْ واستخدمتها ببراعة كطاولة مُجاورة للسرير. كانت مرتفعة العلوّ أكثر مما ينبغي وغالباً ما كانت آنْ تنتقي الكتاب الخطأ من الركام بعناوينه غير الواضحة الذي فوقها. كانت دائماً تنتقي كتاب سويتونيوس «*القياصرة الاثنا عشر*»، الذي كان ديفيد قد أعارها إياه منذ أوائل شهر آب، وكأنّه تأنيبٌ لها. كانت قد ألقتْ نظرة سريعة على فصلٍ أو فصلَين فيه، لكن كون ديفيد هو الذي أوصى بالكتاب جعلها تتردَّد في التآلُف معه. كانت تعلم أنَّ عليها حقاً أنْ تقرأ المزيد منه قبل وجبة العشاء لكي يُصبح في حوزتها شيء ينم عن ذكاء تُدلي به بعد أنْ تُعيده إليه هذه الليلة. كل ما تذكّرت هو أنَّ كاليغولا خطّطَ لتعذيب زوجته ليعلم لماذا هو مُخلص لها كثيراً. وتساءلتْ، ما هو عذر ديفيد.

أشعلتْ آنْ سيجارة. واستلقت على ركام من المخدّات ومن الوسائد الأصغر حجماً، وأخذتْ ترشف قهوتها بضجيج مسموع، وتعبث بدخان سيجارتها، وشعرتْ قليلاً بأنَّ أفكارها تزداد رهافة ورحابة. ولم يُعكّر صفو استمتاعها إلّا صوت جريان ماء في غرفة استحمام فيكتور.

أولاً، سوف يحلق ذقنه ويمسح ما تبقّى من صابون الحلاقة بفوطة نظيفة. ثم سوف يُسرِّح شَعره بشكل يلتصق بفروة رأسه قدر الإمكان، ويمشي حتى أسفل الدَّرَج ويهتف «حبيبتي». وبعد فترة سكوت وجيزة سوف يهتف من جديد بصوته الجدّيّ. فإذا لم تظهر أيضاً سوف يهتف «الفطور».

كانت آنْ قد تسببتْ في مضايقته حول هذا قبل أيام، وقالت «أوه، حبيبي، ما كان ينبغي أنْ تفعل».

«أفعلُ ماذا؟»

«تُعدّ مائدة الفطور»

«أنا لم أفعل هذا»

«حسبتُ عندما هتفتَ «الفطور» أنّه بات جاهزاً»

«كلا، كنتُ أقصد أنني أنا جاهز لتناول الفطور»

لم تُخطئ آن كثيراً، فقد كان فيكتور حقاً في الحمّام في الطابق السفليّ يمشّط شَعره بنشاط. ولكن، كما يحدث دائماً، وبعد مرور بضع ثوانٍ من انتهائه من التخلُّص من تموُّج شَعره الذي كان يُعذّبه منذ طفولته عاد فتموَّجَ من جديد.

لم يكن لفرشاتَي تسريح الشعر العاجيَّتين مقبضان. لم تكونا مُناسبتين كثيراً، لكنهما من صُلب التراث التقليديّ، كالطاس الخشبيّ الخاص بصابون الحلاقة، الذي لا يُنتِج ما يكفي من رغوة الصابون من الوعاء. كان فيكتور في السابعة والخمسين من العمر، وبدا أصغر سناً من ذلك. لم يكن هناك إلّا بعض الارتخاء في لحمه، وفقدانٌ في التماسُك حول فكَّيه والفم والعمق الهائل في الخطوط الأفقيّة في جبينه، تُشي بحقيقة سنّه. كانت أسنانه متساوية وقويّة وصفراء. وعلى الرغم من توقه إلى شيءٍ أكثر حيوية في حركة السوائل والهواء إلّا أنَّ أنفه كان منتفخاً وينمّ عن الودّ. وكانت النساء دائماً يمدحن عينيه لأنَّ لونهما الرمادي الفاتح بدا مُضيئاً على البشرة الزيتونيّة – السمراء المُنقَّرة قليلاً. وفي المجمل، كان الغرباء يُدهشون عندما تصدر لثغة سريعة وجذّابة عن وجهٍ كان يمكن أنْ يخصّ مُلاكماً مُثقلاً بالملابس.

بدا فيكتور بالبيجاما الورديّة من محلات نيو أند لينغْوود، والمبذل

الحرير، والخفّ الأحمر، أنيقاً. كان قد خرج تواً من الحمّام، مارّاً بغرفة نومه البسيطة المُبيَّضة بالجير وناموسيتها الخضراء التي وُضِعَتْ فوق النوافذ بتثبيتها بدبابيس تُستخدم على لوحات الرسم، ومنها إلى المطبخ، وهناك يتلكّأ، لا يجرؤ على مُناداة آنْ.

بينما فيكتور يتردَّد داخل المطبخ، وصلتْ إيلين. كانت سيارة البويك مفرطة الطول ولا تستطيع الانعطاف نحو ممر منزل فيكتور فاضطرتْ إلى إيقافها عند حافة غابة صنوبر صغيرة في أسفل التل. هذه الأرض لم تكن تخصّ فيكتور بل جيرانه، آل فوبرت، ذائعي الصيت في لاكوست بأسلوب حياتهم غريب الأطوار. كانوا لا يزالون يستخدمون البغل لحرث حقولهم، وليست لديهم طاقة كهربائيّة، وفي منزلهم الكبير المتهالك كانوا يُقيمون في غرفة واحدة فقط. أمّا ما تبقّى من المنزل فكان مزدحماً ببراميل النبيذ، وجرار زيت الزيتون، وأكياس طعام للحيوانات، وأكوام اللوز وأزهار الخزام. ولم يكن آل فوبرت قد غيَّروا أي شيء منذ وفاة العجوز مدام فوبرت، ولم تكن هي قد غيَّرتْ أيّ شيء منذ وصولها وهي عروس شابة، قبل ذلك بنصف قرن، حاملة طاساً من الزجاج وساعة حائط.

لقد أسر أولئك القوم إلينور. كانت تتخيَّل حياتهم المتقشّفة والمُثمِرة كنافذة من الزجاج المُلوَّن في كنيسة من العصور الوسطى - كعمّال في كرم عنب يحملون سِلالاً مملوءة بالعنب على ظهورهم. كانت قد رأتْ أحد أفراد آل فوبرت في بنك التسليف الزراعيّ وكان يبدو كرجل يصبو إلى خنق الدواجن. ومع ذلك، احتفظَتْ لنفسها بالفكرة القائلة إنَّ آل فوبرت مرتبطون بالأرض بطريقة صحيّة نسيتها بقيتنا. لقد نسيتْ هي نفسها حتماً أنها تتصل بالأرض بطريقة صحيّة. ربما على المرء أنْ يكون من الهنود الحُمر، أو ما شابه.

حاولتْ أن تمشي بخُطى أكثر بطئاً إلى أعلى التل. يا الله، كان ذهنها ينطلقُ مُسرعاً، مُسرعاً بحياديّة، كانت تتصبَّب عَرَقاً وتنتابها ومضات من الخوف عبر الابتهاج. كان التوازن مُراوغاً: كان إمّا هكذا، فائق السرعة، أو كان هناك الشيء الثقيل كالخوض في مستنقع للوصول إلى آخر جُملة. عندما كان هناك زيز الحصاد يتصاعد في بداية الصيف كان يبدو جيداً. كان صريره أشبه باندفاع الدم في أُذُنيها. كان أحد تلك الأشياء الخارجية والداخليّة.

قُبيل بلوغها قمة التل توقفتْ، وتنفّستْ بعمق، وحاولتْ أنْ تلملم شتات إحساسها بالهدوء، كعروسٍ تتفحّص خِمارها أمام آخر مرآة قبل أنْ تلج الكنيسة. تخلّى عنها شعورها بالرصانة في الحال تقريباً وبعد قطع بضع ياردات بدأتْ ساقاها ترتعشان. وارتعشت عضلات وجنتيها نحو الخلف كستائر خشبة المسرح، وحاولَ قلبها أنْ يقوم بحركات بهلوانيّة وهو يشقّ طريقه خارج صدرها. ينبغي أنْ تتذكَّر ألّا تتناول العديد من تلك الأقراص الصفراء دفعة واحدة. ما الذي حدث بحقّ الله للمهدِّئات؟ بدا كأنها غرقتْ في فيضٍ من الحبوب المُنشِّطة. أوه، يا الله، إنَّ فيكتور في المطبخ، يرتدي كالمعتاد ملابس كأنّه سيظهر في إعلان تجاريّ. لوّحتْ له بيدها بثقة وبمرح من خلال النافذة.

أخيراً استجمعَ فيكتور شجاعته وهتف لآن، وعندما سمع وقع خُطى على ممشى الحصى في الخارج رأى إلينور تلوِّح له بشوق. بدتْ وهي تقفز إلى أعلى إلى أسفل، تعقد ذراعيها فوق رأسها وتباعدهما، وشَعرها الأشقر الهزيل يقفز من ناحية إلى أخرى، بدتْ أشبه بجندي بحريّة جريح يُحاولُ أنْ يُلفِت انتباه طائرة مروحيّة.

شكلَّتْ بفمها كلمة «مرحباً» من دون كلام وبكثير من المبالغة وكأنها تتكلَّم مع شخص أجنبيّ أصمّ.

هتفَ فيكتور «الباب مفتوح»

قال في نفسه، وهو يتحرَّك نحو الباب الأماميّ، لا يستطيع المرء إلّا أنْ يُعجَب بمقدرتها على التحمُّل.

دُهِشَتْ آن، التي كانت تتوقَّع سماع هتاف «الإفطار»، عندما سمعت بدلاً عنها عبارة «الباب مفتوح». غادرتْ السرير وهرعت تهبط الدَّرَج لكي ترحّب بإيلينور.

«كيف حالك؟ أنا لم أرتد ملابسي بعد»

قالت إلينور «أنا يقظة تماماً»

قال فيكتور «مرحباً حبيبتي، لِمَ لا تُعدّين الشاي. ألا ترغبين في شرب الشاي، إلينور؟»

«كلا، شكراً لك»

بعد صنع الشاي، ذهبتْ آنْ لكي ترتدي ملابسها، وهي مسرورة لوصول إلينور باكراً. ومع ذلك، بعد أنْ رأتْ هيأتها المسعورة وبودرة وجهها الممزوجة بالعرق، لم تتوقَّع آنّا منها أنْ توصِلها بالسيارة، وحاولتْ أنْ تفكِّر في طريقة لتتولّى بنفسها قيادة السيارة.

في المطبخ، أخذت إلينور تفتِّش في حقيبة يدها، وسيجارة تتدلَّى من فمها، بحثاً عن ولّاعة. كانت لا تزال تضع نظارتها القاتمة وكان صعباً تمييز الأشياء داخل عماء حقيبتها المُظلِم. ودار عدد من أنابيب أقراص الدواء ذات لون الكراميل داخلها مع علب زائدة من سجائر بلير، ودفتر هاتف من الجلد، وأقلام رصاص، وأحمر شِفاه، وعلبة بودرة من الذهب، ووعاء خمر صغير من الفضّة مملوء بخمر فيرنيه - برانكا، وبطاقة تنظيف على الناشِف من شركة جيفز في شارع بونت. التقطتْ يداها التوّاقتان كل غرض في حقيبتها، ما عدا الولّاعة البلاستيك الحمراء التي كانت تعلم أنها موجودة هناك في مكان ما. تمتمت «يا الله. أكاد أُجَنْ».

قالت بإشراق «كنتُ أفكِّر في مرافقة آن إلى مطعمساينز لتناول الغداء»

«ساينز؟ إنّه ليس على طريقك، أليس كذلك؟»

«ليس على الطريق التي سنسلكها». لم تقصد إلينور أنْ تبدو فكهة.

قال فيكتور وهو يبتسم بتسامُح «بالضبط. الطريق التي ستسلكينها ليست أقرب، ولكن أليست طويلة؟»

«نعم، لكنَّ طائرة نيكولاس لن تصل حتى الساعة الثالثة وغابة أشجار الفلّين جميلة جداً». كان شيئاً لا يُصدَّق، ها هي بطاقة التنظيف على الناشف من جديد. يبدو أنَّ هناك أكثر من واحدة. «وهناك ذلك الدير الذي يستحقّ المُشاهدة، ولكن أعتقد أنّه ليس لدينا وقت لهذا. إنَّ باتريك دائماً يريد أنْ يذهب إلى مهرجان الغرب الأميركي عندما نسلك ذلك الطريق بالسيارة ونحن ذاهبون إلى المطار. ويمكننا أنْ نتوقّف هناك أيضاً»، وتفتش، وتفتش، وتفتش، أقراص، أقراص، أقراص. «يجب أنْ أرافقه إلى هناك ذات يوم. آه، ها هي ولّاعتي. كيف يسير العمل على الكتاب، يا فيكتور؟».

قال فيكتور بخبث «أوه، كما تعلمين، إنَّ الهويّة موضوع شاسع»
«هل لفرويد ذِكر فيه؟»
كان فيكتور قد خاض في حديث مُشابه من قبل وإنْ كان هناك شيء يجعله يرغب في تأليف هذا الكتاب فهو الرغبة في التخلُّص منه. «إنني لا أتناول الموضوع من وِجهة نظر التحليل النفسيّ».
قالت إلينور، التي كانت قد أشعلتْ سيجارتها واستعدَّتْ لتنبهر قليلاً، «أوه، حسبتُ أنّه –ما هي الكلمة؟– حسن، نفسيّ بامتياز. أقصد، إنْ كان هناك خطبٌ في العقل، فلا حيلة في ذلك».
قال فيكتور «يمكن أنْ أقتطِف منك في هذا المجال. ولكن ذكّريني، يا إلينور، هل المرأة التي سيجلبها نيكولاس معه هذه المرَّة هي الزوجة الرابعة أم الخامسة؟».
لا فائدة. لقد شعرَتْ من جديد بأنها غبيّة. كانت دائماً تشعر بأنها حمقاء مع ديفيد وأصدقائه، حتى وهي تعلم أنهم هم الأغبياء. قالتْ «إنها ليست زوجته. لقد تركَ جورجينا التي كانت رقم ثلاثة، لكنّه لم يتزوج هذه بعد. اسمها بريدجت. أعتقد أننا تقابلنا في لندن، لكنها لم تُثِر إعجابي بها».
هبطتْ آن من الطابق العُلويّ مرتدية ثوباً أبيض من القطن يكاد لا يختلف كثيراً عن مبذل النوم الأبيض القطنيّ الذي خلعته. فكَّرَ فيكتور برضا في أنّها ما زالت تبدو شابّة بقدرٍ كافٍ وهي ترتدي هذا الثوب الجدير بالفتيات الصغيرات. إنَّ الأثواب البيضاء تُعمِّق الصفاء الخادع الذي أضفاه وجهها الواسع وعِظام وجنتيها العالية والعينان السوداوان الهادئتان على مظهرها. تقدَّمت داخل الغرفة بخُطى رشيقة. وبالمقابل، دفعَتْ إلينور فيكتور إلى التفكير في ملاحظة الليدي ويشْفورت، «أبدو كأنني مسلوخة الجلد بالمعنى الحرفيّ للكلمة؛ إنني أشبه بجدار قديم متهرِّئ».
قالت آن «حسنٌ، أعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ ننطلق في أيّة لحظة تشاؤون»
سألتْ فيكتور «هل أنتَ مستعد لتناول الغداء؟»
«أنتِ تعرفين كيف هم الفلاسفة، نحن لا نلاحظ مثل هذه الأشياء. وفي استطاعتي دائماً أنْ أذهب إلى فندق ومطعم كوكوير لتناول عنق حَمَل مع صلصة بيارنيز».

قالتْ آنْ «بيارنيز؟ مع لحم الحمل؟»

«طبعاً. إنّه الطبق الذي جعل المسكين الدوق غيرمان يشعر بالجوع بحيث لم يتوفّر لديه الوقت لتبادل الحديث مع ابنة سوان المُحتضِرة المُرتابة قبل أنْ ينطلق مسرعاً لتناول طعام العشاء».

ابتسمتْ آنْ لإلينور وقالتْ «هل سبقَ أنْ دعوتِ بروست على مائدة الفطور في منزلك؟»

أجابت إلينور «كلا، لكننا كنا ندعوه غالباً على مائدة العشاء»

بعد أنْ تبادلت المرأتان تحية المساء، التفتَ فيكتور نحو البرّاد. كان حرّاً طوال النهار ليتابع العمل على كتابه وفجأة شعرَ بجوعٍ كافر.

– 4 –

زمجر نيكولاس، وهو يُطفئ مصباح النور المجاور لسريره، «يا الله، إنني في أسوأ حال»

قالت بريدجت ناعسة «أيّها المسكين الصغير»

«ماذا سنفعل في الغدّ؟ لا أتذكَّر»

«سوف نذهب إلى جنوب فرنسا»

«آه نعم. إنّه كابوس. ما هو موعد انطلاق الطائرة؟»

«بعد الساعة الثانية عشرة بقليل. وسوف تصل بعد الثالثة بقليل. أعتقد أنَّ هناك مقدار ساعة فرق في التوقيت، أو ما شابه»

«حبّاً بالمسيح كفاك تكراراً لكلمة «ما شابه»»

«آسفة»

«يعلمُ الله لِمَ سهرنا حتى وقت متأخّر جداً ليلة أمس. إنَّ تلك المرأة التي جلست إلى يميني كانت فظيعة جداً. أعتقد أنَّ أحداً كان قد أخبرها قبل زمنٍ بعيد أنَّ لديها ذقناً جميلة، وهكذا قرَّرتْ أنْ تحصل على واحدة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى. لعِلمك، كانت متزوجة من جورج واتفورد».

سألتْ بريدجت «مَنْ تقصد؟»

«تلك التي رأيتِ صورتها في ألبوم صور بيتر في عطلة الأسبوع الفائت ذات الوجه الشبيه بالكريما المحروقة بعد تناول مقدار ملعقة منها، ومغطّاة كلها بالشقوق»

قالت بريدجت، وهي تتسلل خلال الأغطية نحوه «ليس كل شخص يحظى بعاشق ثريّ وجميل»

قال نيكولاس بما تصوَّر أنّها نبرة شمال شرق إنكلترا. فغادر السرير وهو يئن «الموت والدمار»، وزحفَ بحركة متكلِّفة عبر السجادة القرمزيّة نحو باب الحمّام المفتوح.

نظرتْ بريدجت بانتقاد إلى جسم نيكولاس وهو ينهض واقفاً على قدميه. لقد أضحى أكثر بدانة خلال العام المنصرم. والسبب ليس أنّ هذا ما يحدث لكبار السن. كان سن الثالثة والعشرين يُشكِّل فرقاً كبيراً ولم تكن بريدجت، وهي في العشرين من عمرها، قد أُصيبَتْ بحُمّى الزواج التي تُعذِّب الأخوات واتسون - سكوت الأكبر سناً وهن يقتربن بسرعة من سن الثلاثين من حياتهن المُشتّتة فكريّاً. كان أصدقاء نيكولاس كلهم من العجائز وبعضهم كانوا مملّين بكل معنى الكلمة. وكان من المستحيل تعاطي المخدرات مع نيكولاس. في الواقع، يمكن ذلك؛ في الحقيقة، هي تعاطت، لكنَّ الأمر لم يكن مُشابهاً لتعاطيه مع باري. فنيكولاس ليست لديه الموسيقى المناسبة، ولا الملابس المناسبة، ولا الموقف المناسب. كانت منزعجة تماماً من باري، ولكن على المرأة أنْ تُبقي خياراتها مفتوحة.

كانت مشكلة نيكولاس هي أنّه فعلاً ثريّ ووسيم وأيضاً يحمل رتبة بارونيت، وهذا أمر حسن ويُذكِّر بأجواء روايات جين أوستن. ومع ذلك، قريباً سوف يبدأ الناس بالقول «يمكن القول إنّه كان وسيماً»، وسوف يتفضّل شخص آخر بالتدخّل قائلاً «أوه، كلا، بل ما زال كذلك». وفي نهاية المطاف قد تتزوج منه وسوف تكون رابع ليدي برات، ثم يمكنها أنْ تتطلَّق منه وتحصل على نصف مليون جنيه، أو نحوه، وتحتفظ بباري كعبد جنسيّ وبلقب ليدي برات في المحال التجاريّة. يا الله، أحياناً تبالغ في سخريتها إلى درجة مخيفة.

كانت تعلم أنَّ نيكولاس يعتقد أنَّ الجنس هو الذي يُبقيهما معاً. وهذا حتماً ما أبقاهما معاً خلال الحفلة التي تمّ لقاؤهما الأول فيها. كان نيكولاس في حالة سُكر شديد وسألها إنْ كانت «شقراء بطبيعتها». شيء مملّ، مملّ، كم كان سؤالاً تعوزه اللياقة. ومع ذلك، كان باري موجوداً في غلاستونبري وكانت تشعر بشيءٍ من القلق فرمته بتلك النظرة الثقيلة وقالت «لِمَ لا تكتشف ذلك بنفسك؟» وهي تنسلّ خارجة من الغرفة. لقد اعتقدَ أنّه اكتشف ذلك

فعلاً، ولكنْ ما لم يعلمه كان أنها تصبغ شعرها كلّه. كان شِعارها، إذا قمت بأية عملية تجميل، يمكنكَ أيضاً أنْ تقوم بها بشكل شامل.

في الحمّام، أخرجَ نيكولاس لسانه وتأمّل بإعجاب سطحه المكسو بطبقة سميكة، ولا زال مشوباً بلون أرجوانيّ قاتم من أثر القهوة والنبيذ الأحمر اللذين شربهما في الليلة السابقة. لا بأس في التنكيت حول ذقن ساره واتفورد المزدوجة، لكنَّ الحقيقة هي أنّه ما لم يرفع رأسه عالياً كجندي حرس في عرض عسكري فسوف تتشكل لديه هو نفسه ذقن مزدوجة. لم يكن قادراً على مواجهة حلاقة ذقنه، لكنّه وضع بعض اللمسات من مساحيق تجميل بريدجت. إنه لا يرغب في أنْ يبدو أشبه بالمثليّ جنسياً العجوز في رواية «*موت في البندقيّة*»، يسيل اللون الأحمر عن وجنتيها كأنها مُصابة بحمّى الكوليرا، ولكنه من دون بودرة خفيفة يبدو كما يقول الناس «شاحباً شحوباً غير صحي بشكلٍ واضح». كان مسحوق وجه بريدجت أساسيّاً، على غرار ملابسها التي تكون أحياناً شنيعة حقاً. ومهما قيل عن فيونا (وقد قيل فيها أحياناً أشياء بغيضة حقاً) فإنَّ لديها حقاً بعض الكريمات والأقنعة المُذهلة التي جاءتها من باريس. كان أحياناً يتساءل إنْ كانت بريدجت (إنَّ المرء مُضطر إلى التسلُّل إلى فروق اللغة الفرنسيّة الرقيقة) *insortable* (لا تُطاق). كانت في عطلة نهاية الأسبوع السابق في منزل بيتر قد أمضَتْ طوال فترة تناول الغداء في يوم الأحد في الضحك كأنها في الرابعة عشرة من العمر.

ومن ثم كانت هناك خلفيتها الاجتماعيّة. لم يكن يعلم متى وجد أصحاب منزل واتسون وأصحاب منزل سكوت أنَّ من المناسِب أنْ يدمجا ثروتيهما، ولكنه كان يُدرك من نظرة سريعة أنّ عائلتَي واتسون - سكوت تنتميان إلى الأبرشيّة القديمة ومستعدتان للقتل مقابل أنْ تندمج ابنتهما في *الحياة الريفيّة*. كان الوالد مولعاً بالسباقات وعندما أخذه نيكولاس هو وزوجته المولعة بالأزهار لمشاهدة أوبرا «*زواج فيغارو*» في مسرح كوفنت غاردن، قال رودي واتسون - سكوت «إنهم ينتظرون أوامر البادئ» حالما صعد قائد الأوركسترا إلى منصّة الأوركسترا. وإذا كانت عائلة واتسون - سكوت مغمورة قليلاً، فعلى الأقل كان الجميع متّفقين على أنَّ بريدجت هي المُفضّلة وأنّه محظوظ بالحصول عليها.

إذا تزوج من جديد فلن ينتقي فتاة مثل بريدجت. فقد كانت، بغضّ النظر عن أي شيء آخر، جاهلة تماماً. لقد قرأتْ رواية «*إيمّا*» على طلاب المستوى الأول، ولكن منذ ذلك الحين، وحسب عِلمِه، لم تقرأ إلّا مجلات مُصوَّرة كـ «*أوز*» أو «*الإخوة غريبو الأطوار والمكسوون بالفراء*» زوّدها بها شخص سيِّئ السمعة اسمه باري. وأمضتْ ساعات وهي تُدقِّق النظر في صور لمُقَل عيون لولبيّة ولأمعاء متفجِّرة ولرجال شرطة بوجوه كلاب دوبرمان بينشر. كانت أمعاؤه هو في حالة من الفوضى الموجِعة وأراد أنْ يُخرِج بريدجت من غرفة النوم قبل أنْ تنفجر أمعاؤه هو.

هتفَ، أو بالأحرى حاولَ أنْ يهتف، «حبيبتي!». خرج الصوت منه كالنعيب. فتنحنحَ وبصقَ في الحوض.

«هلّا جلبتِ لي يا ملاكي كأس عصير البرتقال من غرفة الطعام؟ مع كوب الشاي؟»

«أوه، حسن»

كانت بريدجت مستلقية على بطنها، وتداعب نفسها بحركة كسلى. تقلَّبَتْ وخرجت من السرير مع تنهيد مُبالغ فيه. يا الله، كم نيكولاس مُضجِر. ما فائدة الخَدَم؟ إنَّ معاملته لهم أفضل من معاملته لها. ومشتْ بخُطى مترهّلة إلى غرفة الطعام.

جلس نيكولاس بحركة ثقيلة على مقعد المرحاض المصنوع من خشب الساج. كانت إثارة تثقيف بريدجت اجتماعيّاً وجنسيّاً قد بدأتْ تبهت عندما كفَّ عن التفكير في مدى براعته في ذلك ولاحظَ قِلَّة رغبتها في التعلُّم. بعد قيامه برحلته إلى فرنسا سوف يُضطر إلى الذهاب إلى محل آسبري ليجلب لها هديّة الرحيل. ومع ذلك لم يشعر بأنه مُستعد للاقتران بتلك الفتاة القادمة من مؤسسة كريستي لأعمال كبار الرسّامين -كان عقدٌ بسيط من اللؤلؤ يُطوّق عنقها الأزرق المتدثر بالصوف- التي تتوق إلى استنزاف نفسها في مساعدة شخص في المحافظة على تماسُك عزبته؛ هي ابنة قائد متعوّدة على جو الانضباط. ثم تمدَّدتْ أفكاره وقال لنفسه، هي فتاة تستمتع بأجواء التلال الصغيرة الرطبة في شروبشير عند الحدود

مع مقاطعة ويلز، وهذا أمر ما زال عليه هو نفسه أنْ يُنجِزه على الرغم من امتلاكه للعديد جداً منها وإقامته بجوار جارٍ «مزارع» ما زال لم ينجح في الترشُّح للانتساب إلى نادي برات. إنَّ الأذكياء لا يملّون قول «ولكن، يا نيكولاس، حسبتُ أنكَ تمتلك المكان». كان قد ولَّدَ لنفسه العديد من الأعداء لكي يتوصل إلى انتخابه.

انفجرتْ أحشاء نيكولاس. جلسَ هناك ينضح بالعرَق بصورة بائسة كإحدى نوبات الخوف التي تظهر في الصور المتحركة المُفضّلة لدى بريدجت. كان في استطاعته أنْ يتخيَّل فاتي بول وهو يزعق «إنَّ الرجل عاهر بكل معنى الكلمة، وإذا سمحوا له بالدخول إلى هنا، فسوف اضطرّ إلى قضاء ما تبقّى من حياتي في مضمار سباق الخيل». كان دفعُ ديفيد ميلروز إلى أنْ يقترحه تصرّفاً خاطئاً، لكنَّ ديفيد كان أحد أصدقاء والده المُقرَّبين، وقبل عشر سنين لم يكن قد أضحى كارهاً للبشر ومكروهاً كما هو الآن، ولا كان قد أمضى الكثير من الوقت في لا كوست.

كان الطريق من كلابون ميوز وحتى مطار هيثرو مألوفاً جداً ولا داعي لأنْ ينطبع على أحاسيس نيكولاس. كان قد انتقل إلى مرحلة الخَدَر من تأثير سُكره، وشعرَ بقليل من الغثيان. استرخى في ركن سيارة الأجرة شاعراً بالتعب الشديد. وكانت بريدجت أقلّ إحساساً بالإرهاق بسبب السفر إلى الخارج. كان نيكولاس قد أخذها إلى اليونان في شهر تموز وإلى توسكاني في شهر آب، وكانت لا تزال تحبّ فكرة اعتقادها أنَّ حياتها أصبحتْ برّاقة.

لم تحبّ ملابس نيكولاس الإنكليزيّة التي يرتديها في أثناء السفر إلى الخارج، خاصّة قبعة باناما العريضة التي يعتمرها اليوم ويرخيها فوق وجهه ليُبيِّن أنّه غير راغب في التحدّث. ولا أحبّت سترته البيضاء الضاربة إلى الصفرة المصنوعة من الحرير البرّي والبنطلون الجوخ الأصفر. كانت تشعر بالحَرَج من القميص ذي الخطوط الرفيعة جداً واللون الأحمر القاني والياقة المستديرة المُنشّاة، ومن حذائه شديد اللمعان. كان موقفه شديد الغرابة فيما يخصّ حذاءه. كان لديه من الأحذية خمسون زوجاً، وكلّها فُصِّلَت خصيصاً

لأجله، ومتطابقة بالمعنى الحرفي للكلمة، ما عدا بعض التفاصيل السخيفة التي كان يتعامل معها كأنها على قدرٍ عالميّ من الأهميّة.

من ناحية أخرى، كانت تعلم أنَّ ملابسها الخاصة مُثيرة جنسيّاً بصورة صاعقة. ماذا يمكن أنْ يكون أشدّ إثارة جنسيّاً من تنورة قرمزيّة اللون شديدة القِصَر وسترة كاوبوي سويديّة سوداء مع شرّابات تتدلّى على طول الذراعين وعبر الظَهر؟ وتحت السترة يمكن أنْ ترى حلمتَي ثدييها من خلال القميص الرياضيّ الأسود. وكان يستغرق خلع حذاءها الكاوبوي القرمزيّ والأسود نصف ساعة، لكنّه كان يستحقّ ذلك العناء، لأنَّ الجميع يلاحظه.

بما أنّها لم تكن تفهم القصص التي تسمعها في معظم الوقت، تساءلَ نيكولاس إنْ كان عليه أنْ يُخبرها عن قصّة التين. وفي كل الأحوال، لم يكن متيقّناً مما إذا كان يريد منها أنْ تفهم مغزى قصة التين. لقد مرَّ عليها عشر سنين، بُعيد إقناع ديفيد لإلينور بشراء منزل لاكوست. وهما لم يتزوجا بسبب محاولة والدة إلينور منعهما من ذلك، وتهديد والد ديفيد بحرمانه من الإرث.

نقرَ نيكولاس حافة قبعته. «هل سبقَ أنْ أخبرتك بما حدث عندما ذهبتُ إلى لاكوست في المرة الأولى؟». ولكي يتيقَّن من أنَّ الحكاية لم تفشل في ترك أثرها، أضاف «إلى حيث نحن ذاهبان اليوم».

قالت بريدجت بكسل «كلا». وحكى لها المزيد من القصص عن أناسٍ لم تعرفهم، معظمها وقعَت أحداثها قبل أنْ تولَد. وتثاءبتْ، تثاءبتْ.

«حسن، كانت إلينور – التي قابلتِها في منزل أنابيل، ربما لا تتذكرين»

«تلك التي سكرتْ»

«نعم!». فرحَ نيكولاس بهذه الدلائل على أنّها تذكّرتْ. «على أيّة حال، كانت إلينور –التي لم تكن تسكر في تلك الأيام، بل كانت شديدة الخجل ومتوترة– قد اشترت حديثاً منزل لاكوست، واشتكتْ لديفيد عن كمية التين الهائلة التي تسقط عن الشجرة وتتعفّن على أرضيّة المصطبة. وأتتْ على ذِكرها من جديد في اليوم التالي عندما كنا نحن الثلاثة جالسين في الخارج. رأيتُ نظرة باردة تكتسح كامل وجه ديفيد. فأبرزَ شَفتَه السفلى –وكانت دلالة سيئة، شبه متوحشة وشبه متجهمة– وقال، «تعالوا معي». وكأننا كنا نتبع مدير

مدرسة إلى غرفة مكتبه. تقدَّم مسيرنا نحو شجرة التين بخُطى طويلة واسعة، وإلينور وأنا نتعثَّر خلفه. وعندما وصلنا إلى هناك رأينا ثمار التين مُبعثَرة على امتداد مساحة حجارة الرصف. كان بعضها قديم العهد ومسحوقاً، وبعضها مشقوقاً ومفتوحاً، ودبابير تتراقص حول الشقوق أو تنهش قلب الثمرة الأحمر والأبيض الدبق. كانت شجرة ضخمة وتناثر الكثير من ثمار التين حولها على الأرض. ومن ثم قام ديفيد بأمر مُذهل. أمرَ إلينور أنْ تركع على أطرافها الأربعة وتأكل ثمار التين كلها المتناثرة على المصطبة».

قالت بريدجت، بعينين مُحدّقتين واسعاً، «ماذا، أمامكم؟»

بالضبط. إنَّ إلينور تبدو مُضطربة حقاً وأعتقد أنَّ الكلمة واضحة. لكنّها لم تحتجّ، ونفَّذتْ الأمر الكريه. ولم يسمح لها ديفيد بترك ثمرة واحدة. ورفعت بصرها مرة واحدة مُناشِدة وقالت «لقد اكتفيتُ الآن، يا ديفيد»، لكنّه وضعَ قَدَمَه على ظهرها وقال«كُليها كلَّها. لا نريد أنْ نُبدِّدها، أليس كذلك؟»

قالت بريدجت «معتوه»

كان نيكولاس مسروراً بأثر قصّته على بريدجت. قال في نفسه. إنّه إنجاز، إنجاز واضح.

سألته بريدجت «وماذا فعلت؟»

قال نيكولاس: راقبتُ. لا ينبغي مُقاطعة ديفيد وهو في تلك الحالة. وبعد قليل بدا الاشمئزاز على إلينور ومن ثم اقترحتُ أنْ نجمع ما تبقّى من ثمار التين في سلّة. قال ديفيد «لا تتدخَّل. إنَّ إلينور لا تتحمَّل رؤية التين يُهدَر وهناك أناس جياع في العالم. أليس كذلك، يا حبيبتي؟ ولهذا سوف تأكلها كلّها وحدها». وكشَّرَ في وجهي، ثم أضاف، «على ايّة حال، إنّها نيِّقة فيما يخصّ طعامها، ألا تعتقد؟»

قالت بريدجت «واو! ومع ذلك ما زلتَ تتردَّد على أولئك القوم؟»

توقفتْ سيارة الأجرة خارج المطار واستطاع نيكولاس أنْ يتجنَّب الأسئلة. لمحه أحد الحمّالين بزيّ رسميّ بنيّ اللون في الحال وهرع لكي يحمل الحقائب. وقفَ نيكولاس ثابتاً برهة، كمَنْ يقفُ تحت دشٍّ دافئ، بين سائق سيارة الأجرة الممتنّ والحمّال المجتهد، وكلاهما خاطبه في

وقت واحد بـ «الحاكم». وكان دائماً يمنح إكراميات سخيّة لأناسٍ يُخاطبونه بالـ «حاكم». كان يعلم، كما علِموا، أنّ ذلك ما يُسمّى بالـ «النظام المتحضِّر».

تطورت فترة تركيز بريدجت تطوراً هائلاً بفعل قصة التين. حتى عندما ارتقيا متن الطائرة وعثرا على مقعديهما، ظلَّتْ تتذكّر ما أرادت منه أنْ يشرح.

«ما الذي يُعجبك في هذا الرجل أصلاً؟ أعني، هل يُحوِّل المذلّة الشعائريّة أو ما شابه إلى عادة؟»

«حسن، لقد سمعتُ، ولم أشهد هذا بأم عينيّ، إنه كان يُجبِر إلينور على تلقّي دروس من مومس»

قالت بريدجت مُبدية إعجابها «أنتَ تمزح». استدارت إلى الخلف وهي على مقعدها «إنّه معتوه»

جلبَتْ مُضيفة الطائرة كأسين من الشمبانيا، معتذرة على التأخير الطفيف. كانت زرقاء العينين ولديها نمش وابتسمت لنيكولاس بتملُّق. كان يُفضِّل فتيات الخطوط الجويّة الفرنسيّة الجميلات بصورة غامضة على المُضيفات السخيفات ذوات الشَعر البُنّيّ والمربيات بملابسهن الرثّة على متن الطائرات الإنكليزيّة. وشعر بموجةٍ أخرى من التعب جاءته من الهواء المُعقَّم، ومن الضغط الخفيف على أُذنيه وجفنيّ عينيه، ومن صحارى البلاستيك بلون البسكويت من حوله ومن مذاق الأسيد الجافّ للشمبانيا.

أنعشته قليلاً الإثارة المُشعَّة من بريدجت، ومع ذلك لم يكن قد شرحَ بعد ما جذبه إلى ديفيد. ولا كانت مسألة رغبَ في إيلائها اهتماماً خاصّاً. لقد شكّلَ ديفيد ببساطة جزءاً من العالم الذي يهمّ نيكولاس. قد لا تحبّه، لكنّه كان يترك انطباعاً جيداً. وبزواجه من إلينور تخلَّصَ من الفقر الذي كان يُشكِّل نقطة ضعفه الاجتماعيّة الكبرى. وحتى عهدٍ قريب كان آل ميلروز يُقيمون حفلاتهم في لندن.

رفعَ نيكولاس ذقنه عن وسادة عنقه. أراد أنْ يُشبع شهيّة بريدجت إلى جو الانحراف. كانت ردّة فعلها على قصّة التين قد فتحت الباب لاحتمالات لم يكن يعرف كيف يستغلّها، ولكن حتى الاحتمالات كانت مُحفِّزة.

قال لبريدجت «في الواقع، لقد كان ديفيد صديقاً صغير السن لوالدي،

وكنتُ أنا صديقاً له أصغر منه سناً. كان يأتي ليزورني في المدرسة ويُرافقني لتناول غداء يوم الأحد في الكومبيليت أنغلر». شعرَ نيكولاس بأنَّ اهتمام بريدجت يزول أمام هذه اللوحة الرومانسيّة. قال نيكولاس «ولكن ما أعتقد أنّه فتنني هو جوّ القَدَر المحتوم الذي كان يحمله معه أينما ذهب. وهو صغير كان بارعاً في العزف على البيانو ثم أُصيبَ بالروماتيزم ولم يعُد قادراً على العزف. فاز بمنحة دراسيّة في باليول لكنّه تركها بعد مرور شهر واحد. ودفعه والده إلى الانضمام إلى صفوف الجيش لكنه تركه أيضاً. وقد تأهّلَ ليكون طبيباً لكنّه لم يزعج نفسه بممارسة تلك المهنة. وكما ترين، كان يُعاني من قلقٍ يكاد يكون بطوليّاً».

قالت بريدجت «يبدو أنّه فاشل تماماً»

انعطفتْ الطائرة ببطء نحو المدرج، بينما كان طاقم الطائرة يقوم بحركات تمثّل نفخ سترات النجاة.

«حتى ابنهم كان نتيجة اغتصاب» وانتظر نيكولاس ردّة فعلها، «ولكن لا ينبغي أنْ تُخبري أحداً بهذا. أنا لم أعلم به إلّا لأنَّ إلينور أخبرتني ذات أمسية، عندما كانت شديدة السُكر وتبكي. كانت ترفض مُضاجعة ديفيد منذ زمن بعيد لأنها لم تكن تطيق أنْ يلمسها، وذات أمسية اغتصبها وهما يرتقيان الدَّرَج وحشَرَ رأسها بين أعمدة الدرابزين. وحسب القانون، طبعاً، لا وجود للاغتصاب في علاقة الزواج، لكنَّ ديفيد يضع قانونه الخاص».

بدأتْ المحرّكات تهدر. هتفَ نيكولاس «سوف تكتشفين على امتداد حياتك»، ومن ثم، عندما أدركَ أنّ نبرة صوته طنّانة، لجأ إلى نبرة طنّانة مرحة، «كما اكتشفتُ في سياق حياتي، أنَّ مثل أولئك الأشخاص، على الرغم من كونهم مُدمّرين وقُساة في تعاملهم مع أقرب الناس إليهم، غالباً ما يتّصفون بحيويّة تجعل الآخرين يبدون بالمقارنة بلداء».

قالتْ بريدجت «أوه، يا الله، ارحمني». استجمعتْ الطائرة سرعتها واهتزّتْ وانطلقَتْ في السماء الإنكليزيّة الشاحبة.

- 5 -

بينما سيارة إلينور البويك تنساب على طول الطرق الخلفيّة البطيئة نحو مطعم ساينز كانت السماء صافية تقريباً لولا غيمة شاردة تتبدَّد أمام وجه الشمس. ومن خلال الحدود الملوّثة لحاجب الريح، شاهدتْ آنْ حواف الغيمة تنحني وتذوب في الحرّ. كانت السيارة قد لحقَتْ بجرّار برتقاليّ اللون، وعربته المقطورة مُحمّلة بالعنب الأرجوانيّ المُغبرّ؛ كان السائق قد لوَّحَ لهم بيده بشهامة لكي يتقدّموا. وداخل السيارة، كان الهواء المُكيَّف يُبرِّد الجو برقّة. كانت آنْ قد حاولتْ أنْ تسلب المفاتيح منها، لكنَّ إلينور قالتْ إنَّ لا أحد أبداً يقود سيارتها غيرها. والآن جعل التوقُّف المؤقّتْ الهادئ وتدفّق الهواء البارد أخطارَ قيادتها تبدو مُستبعدة أكثر.

لم تكن الساعة قد تجاوزتْ الحادية عشرة ولم تكن آنْ تصبو إلى استقبال النهار الطويل الذي ينتظرها. سادَ صمتُ مُربِك، مزعج، منذ أنْ ارتكبَتْ خطأ السؤال عن حال باتريك. كانت آنْ تكنُّ له حبّ أمٍ لابنها، وهو شيء ما كان يمكن أنْ تقوله عن أمّه. قالت لها إلينور بحِدَّة «لِمَ يعتقد الناس أنَّهم يُسعدونني بسؤالي عن أحوال باتريك، أو عن أحوال ديفيد؟ أنا لا أعرف أحوالهما، هما فقط يعلمان».

ذُهِلَتْ. ومرّت فترة طويلة قبل أنْ تحاول آنْ من جديد. «ما رأيك بفيجه؟»

«لا يُعجبني كثيراً»

«ولا أنا. من حُسن الحظ أنّه سوف يرحل قبل الوقت المتوقَّع». وظلَّتْ آنْ لا تعلم كم ينبغي أنْ تُفشي عن الشجار الذي نشب مع فيجه. «كان ينوي أنْ يمكث مع ذلك الرجل العجوز الذين يعبدونه كلهم، جوناثان الذي لا

أعرفُ كنيته، الذي يؤلِّف تلك الكتب الشنيعة ذات العناوين الجنونيّة، على غرار «***شقائق نعمان وأعداء***» أو «***أشياء غريبة وأشياء قديمة***». أنتِ تعلمين مَنْ أقصد؟».

«أوه، ذاك، يا يسوع، إنّه فظيع. كان يتردَّد على منزل والدتي في روما. ودائماً يردِّد أشياء مثل «إنَّ الشوارع تعجّ بالمتسولين» وكان ذلك يُثير غضبي وأنا في السادسة عشرة. ولكن هل ذلك الرجل المُسمّى فيجه ثريّ؟ إنّه لا يني يتكلَّم وكأنّه كذلك، ولكنّه لا يبدو أنّه يُنفِق أيّ نقود - ليس على شراء ملابسه على أيّة حال؟»

قالت آنْ «أوه، نعم، إنّه فاحش الثراء: إنّه يصنع النقود، بنك من النقود. لديه أحصنة للعب البولو في كلكوتا، لكنّه لا يحب ممارسة لعبة البولو ولم يذهب أبداً إلى كلكوتا. هذا ما أسميّه ثراءً».

لزمتْ إلينور الصمت برهة. لقد شعرتْ بأنّها تستطيع أنْ تتنافس بهدوء في هذا الموضوع. لم ترغب في الموافقة على الفور على أنَّ إهمال أحصنة لعبة البولو في كلكوتا يُسمّى ثراءً.

قالت آنْ لكي تملأ الصمت «لكنّه شديد البُخل. وهذا أحد أسباب تشاجرنا». أصبحتْ الآن تتوق إلى قول الحقيقة، لكنّها كانت لا تزال غير متيقّنة. «كان في كل يوم يتصل بوطنه، أي سويسرا، لكي يُثرثر بلغة الغوجاراتي مع أمّه الطاعنة في السن، فإذا لم تُجِب، يظهر في المطبخ وهو يُحيطُ كتفيه بشال أسود، ويبدو هو نفسه أشبه بامرأة عجوز. وأخيراً اضطررتُ إلى أنْ أطلب منه بعض المال مقابل المكالمات الهاتفيّة».

«وهل دفع ثمنها؟»

«لم يدفع إلّا بعد أنْ فقدتُ أعصابي»

سألتْ إلينور «ألم يُقدِّم فيكتور مُساعدة؟»

«إنَّ فيكتور ينفر من أشياء بغيضة كالمال»

كان الطريق يمرّ من خلال غابة من شجر الفلّين، ومن أشجار عليها قطع حديث أو قديم حيثُ نُزِعَ مقدار حزام من اللحاء عن جذوعها وأخذتْ تنمو بسرعة من جديد على كلا الجانبَين.

سألتْ إلينور «هل مارس فيكتور الكتابة كثيراً خلال هذا الصيف؟»

أجابتْ آنْ «بالكاد كتبَ أيَّ شيء. وهذا لا يعني أنّه قام بأي عمل آخر عندما عاد إلى المنزل. أتعلمين لماذا يتردَّد إلى هذا المكان؟ على مدى ثماني سنوات؟ ومع ذلك لم يأتِ لكي يُسلِّم على أولئك المزارعين المجاورين له»

«آل فوبرت؟»

قالت آنْ «نعم. ولا مرّة واحدة. إنهم يُقيمون على مسافة ثلاثمائة ياردة في ذلك المنزل الريفيّ القديم، الذي أمامه شجرتا سرو. والحديقة تخصّهم عمليّاً، ومع ذلك لم يتبادلوا كلمة واحدة. وذريعته هي «لم نتعرَّف على بعض»».

«أليس يُعتبَر إنكليزيّاً قحّاً بالنسبة إلى نمساويّ مثله؟»، ابتسمتْ إلينور. «أوه انظري، ها قد اقتربنا من مطعم ساينز. آمل أنْ أعثر على ذلك المطعم الغريب. إنّه يقع في ساحة مقابل إحدى تلك النوافير التي تحوّلتْ إلى ركامٍ من الطحالب الرطبة والسرخس الذي ينمو منها. وفي الداخل هناك رؤوس خنازير بريّة ذات أنياب صفراء مُلمَّعة على الجدران كلها. أفواهها مدهونة باللون الأحمر، وهكذا تبدو كأنه ما زال في الإمكان أنْ تندفع خارجة من خلف الجدار».

قالتْ آن، بجفاف، «يا الله، كم هذا مُخيف»

تابعتْ إلينور «عندما غادر الألمان هذا المكان، في نهاية الحرب، أطلقوا النار على كل رجل في القرية، ما عدا مارسيل – الشخص الذي يمتلك المطعم. عندما حدثَ هذا كان مُسافراً».

أسكتَتْ آنْ هيئة التعاطف المجنونة لإلينور. وحالما عثرتا على المطعم، ارتاحت من جديد وخاب أملها قليلاً لأنَّ الساحة الرطبة والمُظلمة لم تكن تذكِّر بأكثر من التضحية والجزاء. كانت جدران المطعم مصنوعة من البلاستيك الأشقر المُصمَّم ليبدو أشبه بألواح من خشب الصنوبر وكان هناك في الواقع رأسان لخنزيرين برِّيين في الغرفة الخالية تقريباً، وكانت مُضاءة بشكلٍ مزعج بمصابيح نيون عارية. وبعد تناول أول طبق مؤلَّف من طيور سمنة صغيرة مملوءة ممتلئة بمادة الرصاص ومُثبَّتة على قطع من الخبز ملوّثة بالشحم،

اكتفَتْ آنْ بالعبث باليخنة القاتمة التي يبعثُ منظرها على اليأس، والمُكدَّسة بكمية كبيرة من الشعيريّة المطهوة بإسراف. وكان النبيذ الأحمر بارداً وطبيعيّاً وجُلِبَ إليهما بزجاجات خضراء قديمة لا تحمل رقعة تُعرِّف عنه.

قالتْ إلينور «مكان عظيم، أليس كذلك؟»

قالت آنْ «هو يتّسم حقاً بجوّ خاصّ»

قالت إلينور بيأس «انظري، ها هو مارسيل»

قال «*Ah, Madame Melrose, je ne vous ai pas vue*» (آه، مدام ميلروز، لم أركِ)، متظاهراً بأنّه لاحظ وجود إلينور للمرة الأولى. وهرع من خلف نهاية البار بخطوات قصيرة وسريعة، وهو يمسح يديه على المئزر الأبيض المُبقَّع. ولاحظتْ آنْ شاربه المتدلي والانتفاخ الهائل تحت عينيه.

وفي الحال، قدَّمَ بعض الكونياك لإلينور ولآن. رفضَتْ آنْ عَرْضَه على الرغم من ادّعائه أنّه سوف يفيدها، أما إلينور فقبلتْ، ومن ثم ردّت العرض. شربا نخباً آخر وتحدّثا عن محصول العنب بينما ندمتْ آنْ، التي لم تكد تفهم شيئاً من لَكْنة جنوب فرنسا، أكثر من السابق لأنه لم يُسمَح لها بقيادة السيارة.

لدى رجوعهما إلى السيارة، كان مفعول الكونياك والأقراص المُهدِّئة قد بدأ وشعرت إلينور كأنَّ دمها يسقط كحامل الكريّات خلال شرايينها من تحت بشرتها الخدِرة. وكان رأسها ثقيلاً ككيسٍ من القطع النقديّة وأغمضتْ عينيها ببطء، ببطء، وهي في حالة سيطرة تامة على نفسها.

قالتْ آن «هيه، استيقظي»

قالت إلينور بنكد «أنا يقِظة»، وأردفَتْ بصفاء أشدّ «أنا يقِظة». وبقيَتْ عيناها مُغمَضَتين.

كانت آنْ مستعدّة لمناقشة هذه النقطة «أرجوك دعيني أتولّى القيادة»

قالت إلينور «طبعاً». وفتحتْ عينيها، اللتين بدا لونهما فجأة شديد الزُرقة أمام شرايين الدم المُنهكة مع لمسة ورديّة، «أنا أثقُ بكِ»

نامتْ إلينور حوالي نصف ساعة بينما كانت آنْ تقود السيارة على الطرقات الملتوية بدءاً بمطعم ساينز وحتى مارسيليا.

عندما استيقظَتْ إلينور، كانت قد عادتْ إلى صفائها وقالتْ «يا إلهي تلك اليخنة كانت شديدة الدسامة، وشعرتُ بعد الغداء بأنني مُثقلة قليلاً». ثم عاد تأثير المُهدِّئ؛ كاللحن الأساسي لأوبرا «*فالكيري*» واستمرَّ فترة طويلة لا يخمد، وإنْ كان قد انخفضَ واستترَ أكثر من السابق.

قالتْ آنْ «ما معنى Le Wild Ouest؟ إنني طوال الوقت أمرُّ بصورٍ لرُعاة بقر تخترق قبعاتهم السِهام»

قالتْ إلينور بصوت طفوليّ «أوه، يجب أنْ نذهب، يجب أنْ نذهب. إنها مدينةُ مَلاهٍ لكنَّ كلّ شيء مُنفَّذ لكي يبدو كأننا في دودج سيتي. أنا لم أدخل إلى هناك في الواقع، لكنني أرغبُ حقاً في - »

سألتْ آنْ مرتابة «ألدينا ما يكفي من الوقت؟»

«أوه نعم، إنَّ الساعة لم تتجاوز الواحدة والنصف، انظري، والمطار لا يبعد عنا أكثر من مسافة خمس وأربعين دقيقة فقط. أوه، هيا بنا؟ فقط نصف ساعة. أر -جوو- كِ؟»

كان هناك إعلان آخر مكتوب عليه Le Wild Ouest بعد مسافة أربعمائة متر. وكانت نسخٌ مُحاكية مُنمنمة لعربات سفر من البلاستيك الملوَّن البرّاق مُعلَّقة من دولاب ملاهي متوقف.

قالتْ آنْ «لا يمكن أنْ تكون حقيقيّة. أليست رائعة؟ يجب أنْ نتابع طريقنا»

مرّتا من خلال أبواب حانة عملاقة للـLe Wild Ouest. وعلى الجانب الآخر، كانت أعلام عديد من الدول تتدلّى فوق دائرة من السواري البيضاء.

قالت إلينور «يا الله، شيء رائع». كان صعباً عليها أنْ تُقرِّر أياً من وسائل الركوب الرائعة تمتطي أولاً. وفي النهاية اختارتْ ركوب دولاب الملاهي. قالت «أريد ذا اللون الأصفر».

تحرّكَ الدولاب ببطء إلى الأمام بعد أنْ شُغِلَت المقاعد. وأخيراً، ارتفع مقعدهما فوق مستوى أعلى أشجار الصنوبر.

زعقَتْ إلينور «انظري! ها هي سيارتنا»

سألتْ آنْ «هل يحبّ باتريك هذا المكان؟»

قالت إلينور «لم يأتِ إليه أبداً»

«يُستحسن أنْ تأتي به إليه قريباً، وإلّا فسوف يتقدَّم في السن ولا يعود يصلح للمجيء. كما تعلمين، الناس يكبرون ولا يعودون يصلحون للمجي إلى مثل هذه الأماكن» ابتسمتْ آنْ.

بدت الكآبة الشديدة على إلينور برهة من الزمن. بدأ الدولاب يدور، مولِّداً نسيماً خفيفاً. وعند المنحنى الأعلى، شعرتْ إلينور بانقباض في معدتها. وبدل أنْ يُزوّدها بمشهدٍ أفضل لمدينة الملاهي وللغابة المُحيطة بها، جعلتها حركة الدولاب تشعر بالغثيان وراحت تُحدِّقُ بنكد إلى الأطراف البيضاء لبراجم أصابعها، متمنيّة أنْ ينتهي مشوار الدوران.

لاحظَتْ آنْ أنَّ مزاج إلينور قد انكسر وأنّها عادتْ لتكون في رفقة عجوز أكبر سنّاً، وأكثر ثراءً وسكّيرة.

ترجلتا، وسارتا خلال أزقة مواقع الرمي. قالت إلينور «هيا بنا نخرج من هذا المكان اللعين. على أيّة حال حان وقت نقل نيكولاس».

قالتْ آنْ، مُحاولة أنْ تُطيل المكوث «أخبريني عن نيكولاس»

«أوه، سوف تتعرّفين عليه قريباً جداً»

– 6 –

قالتْ بريدجت «إذن تلك المرأة المُسمّاة إلينور هي ضحيّة حقيقيّة؟».
كانت قد استغرقَتْ في النوم بعد أنْ دخّنتْ سيجارة حشيش في المرحاض وأرادتْ أنْ تعوِّض بفورة من الفضول المتأخِّر.

«هل كل امرأة تختار العيش مع رجلٍ صعب المِراس تُعتبَر ضحيّة؟»

حلَّ نيكولاس حزام مقعده حالما حطَّتْ الطائرة. كانا في الصف الثاني وفي وسعهما بسهولة أنْ يخرجا قبل باقي المُسافرين لو لم، ولمرَّة واحدة فقط، تستلّ بريدجت علبة تجميلها الصغيرة من جيبها الأزرق المخمليّ الصغير وتتأمّل نفسها في مرآة وضع البودرة.

تنهّد نيكولاس «هلّا ذهبنا»

«ما زالت إشارة حزام المقعد مُضاءة»

«الإشارات مُخصَّصة للغنم»

ثغتْ بريدجت وهي تنظر في المرآة «ماااااءءء. أنا خروف»

قال نيكولاس في نفسه، هذه المرأة لا تُطاق.

وقال بصوت مرتفع «حسن، أنا الراعي، ولا تدعيني أرتدي ملابس الذئب»

قالت بريدجت، وهي تنكمش مذعورة في ركن مقعدها، «أوه، أنا خائفة، ما أكبر أنيابك»

«وهي صالحة لقطع رأسك»

قالت بخيبة أمل حقيقيّة «لا أعتقد أبداً أنكَ تصلُح أنْ تكون جدَّتي»

كفَّتْ الطائرة عن تقدُّمها الزاحف وسادت قعقعة عامة لفكّ الأقفال والتحرُّر من أحزمة المقاعد.

قال نيكولاس، وقد تلبَّسَ الآن سِمة رجل الأعمال «هيا بنا». كان يكره كثيراً الانضمام إلى حشود السيّاح المتزاحمين وهم يتلاطمون على طول ممر بين المقاعد.

وصلا إلى باب الطائرة المفتوح، شاحبي الوجوه ومُثقلين بالملابس، وبدأا يشقّان طريقهما مع قعقعة إلى أسفل الدَّرَج المعدني، يحفّ بهما طاقم الطائرة الذي تظاهر بأنّه آسف لرحيلهما والطاقم الأرضيّ الذي تظاهرَ بالسرور لوصولهما. وفي أثناء هبوطها الدَّرَج، شعرتْ بريدجت بقليل من الغثيان بفعل الحرارة ورائحة الوقود المحروق.

نظر نيكولاس عبر الطريق المُسفلتْ إلى الرتل الطويل من العرب الذين يرتقون ببطء متن طائرة الخطوط الجويّة الفرنسيّة. وتذكّر الأزمة الجزائريّة في عام 1962 والمُستعمرين الذين تعرَّضوا للخيانة وهم يهبطون بالمظلات في باريس. تلاشى التفكير عندما تخيَّلَ كم ينبغي أنْ يعود في الماضي لكي يبدأ بشرح الأمر لبريدجت. ربما كانت تعتقد أنَّ الجزائر هي اسم لمُصمِّم أزياء إيطالي. وشعر بتوقٍ مألوف إلى امرأة مُثقَّفة في أوائل عقد الثلاثينيات من عمرها تخصَّصَتْ في دراسة التاريخ في جامعة أكسفورد؛ ولمّا كان قد طلَّقَ اثنتين من أمثالها حتى الآن لم يؤثِّر ذلك على حماسته الفوريّة. قد يرتخي لحمهما فوق عِظامهما، لكنَّ ذِكرى الحديث الفكريّ عذَّبه كما تفعل رائحة طبخ دسم تهبّ إلى داخل زنزانة سجن منسيّة. لماذا يكون دائماً مركز رغبته هو مكان غادره تواً؟ كان يعلم أنَّ ذِكرى لحم بريدجت سوف تخدعه بالحِدَّة السهلة نفسها لو أنّه كان الآن يرتقي الحافلة برفقة امرأة يستطيع تحمُّل حديثها. طبعاً، نظريّاً، هناك نساء -أقام علاقات عاطفيّة مع بعضهنّ- جمعنَ بين مزايا وَضَعَها في منافسةٍ لا لزوم لها، لكنّه كان يعلم أنَّ شيئاً ما داخله سوف يُشتِّتْ دائماً استحسانه ويُجزِّئ ولاءاته.

انغلقَتْ البوابات واهتزّتْ الحافلة لتتحرَّك. جلسَتْ بريدجت قِبالة نيكولاس. وتحت تنورتها السخيفة، كانت ساقاها نحيلتين وعاريتين

ورائعتين. فَصَلَهما بصورة إباحيّة عن باقي جسدها، ووجدَ أنَّ فكرة توفّر تينك الساقين ما زالت تُثيره. وضعَ ساقاً على ساق وأرخى البنطلون الداخلي القصير المتشابك من خلال الحواف القاسية لبنطلونه الجوخ.

لم يبدُ الانتصاب العابر الذي حدث معه مجرد جائزة صغيرة وغير مناسِبة لحالةٍ من الإثارة شبه الدائمة إلّا عندما تذكَّرَ الشخص الذي تنتمي إليه هاتان الساقان الرائعتان. وفي الحقيقة، عندما استعرَضَ القامة من فوق الخصر، على طول الكُمّ ذي الكشكش لسترتها السويديّة السوداء، وإلى أعلى باتجاه تعبير الوجه الضَجِر والعنيد، شعرَ بنوبة من الاشمئزاز والنفور. لماذا يأخذ هذا المخلوق السخيف ليمكث مع ديفيد ميلروز الذي كان، قبل أيّ شيء، رجلاً يتمتَّعُ بقدرٍ من البصيرة، ولا أقول متعجرفاً لا يعرف الرحمة؟

كانت تفوح من مبنى المطار رائحة مادة مُطَهِّرة. وثمة امرأة بزيّ عمل أزرق تنساب على أرضيّة برّاقة، واللباد المُستدير لآلة التنظيف التي تجرّها يُهمهم وهي تُحرّكها جيئة وذهاباً عبر الحصى الأسود والبُنّيّ الشفّانيّ العالق على الرخام الأبيض الرخيص. وتاهت بريدجت، ولا تزال مفتونة، في رقائق الألوان وكأنّها نجومٌ تنبعث من حجر الصوّان والكوارتز في سماء بيضاء.

قال نيكولاس ساخراً «إلامَ تحدّقين؟»

قالت بريدجت «هذه الأرضيّة متميِّزة»

عند كوّة تفحُّص جوازات السفر لم تعثر على جواز سفرها لكنَّ نيكولاس رفضَ أنْ يُثير شجاراً وهما مُقبلان على مقابلة إلينور.

قال نيكولاس «أمرٌ غريب أنَّ المرء في هذا المطار يجتاز أرض البهو قبل أنْ يستلم أمتعته، وهناك سوف تكون إلينور ربما في انتظارنا».

قالت بريدجت «واو! لو كنتُ مُهرِّبة»، وسكتتْ، تأملُ في أنْ يتحدّاها نيكولاس، «لكان هذا هو مطار أحلامي. أقصد، هناك ذلك البهو الشاسع حيث يمكنكَ أنْ تُسلِّم لشخصٍ ما أمتعتك، الممتلئة بالمواد المُهرَّبة الثمينة، ومن ثم تذهب لكي تُحضِر أمتعتك الشرعيّة لتفتيشها في الجمارك».

قال نيكولاس «هذا ما يُعجبني فيك، تفكيرك الخلّاق. كان يمكن أنْ يكون لك مستقبل لامع في مجال الدعابة؛ على الرغم من أنني أعتقد فيما

يتعلَّق بالتهريب أنَّ السلطات في مارسيليا لديها مشكلات أشدّ إلحاحاً عليها أنْ تُعالجها من الاهتمام بأيّة «مواد مُهرَّبة ثمينة» يمكن أنْ تُهرّبيها في حقيبة يدك. لا أعلم إنْ كنتِ تعين هذا ولكن...»

كانت بريدجت قد توقفتْ عن الإصغاء. لقد عاد نيكولاس إلى حمقه. كان دائماً يُصبح هكذا عندما يعاني من الضغوط؛ وفي الحقيقة هو هكذا طوال الوقت ما عدا عندما يكون في السرير، أو مع أناسٍ يرغبُ في إثارة إعجابهم. أبرزتْ له لسانها وهي تمشي خلفه - بليد، بليد، بليد... مُملّ، مُملّ، مُملّ.

غطَّتْ بريدجت أُذُنيها ونظرتْ نحو الأسفل إلى قدميها اللتين تجرّهما جرّاً، بينما نيكولاس يمشي وحده بخُطى واسعة، ويصبّ سخريته على أفكار تبتعد باطِّراد عن ملاحظات بريدجت التفهة عن التهريب.

عندما رفعتْ نظرها من جديد، رأتْ بريدجت القامة المألوفة. إنّه باري يتكِّئ على العمود المُجاور لكشك بيع الصحف. كان في وسع باري دائماً أنْ يشعر بأنَّ ثمة مَنْ ينظر إليه، مُعتمداً على مزاجه، ويعزو ذلك إلى «جنون الارتياب» أو إلى «الإدراك فوق الحسّي».

«بريدج! غير معقول!»

قالت بريدجت، وهي تقرأ بصوت مرتفع الكلمات المكتوبة على قميص باري الرياضيّ وتضحك، «باري! كل ما تحتاج إليه هو الحب».

قال باري، وهو يُمرِّر أصابع يده على امتداد شعره الأسود الطويل «إنّه حقاً أمرٌ لا يُصدَّق. أتعلمين أنني كنتُ أفكِّرُ فيك في صباح هذا اليوم».

كان باري يفكِّر في بريدجت كل يوم، ومع ذلك فوجئ بأنه ليس فقط فكَّرَ فيها هذا اليوم بل وقابلها مُصادفة أيضاً في المطار واعتبرَ ذلك برهاناً إضافيّاً على سيطرة عقله.

قال باري «نحن ذاهبان إلى آرل لحضور مهرجان الجاز المتطوّر. هيه، لِمَ لا تأتين معنا؟ سوف يكون حفلاً رائعاً حقاً. سوف يعزف بَكس ميلرمان».

شهقتْ بريدجت «واو»

قال باري «هيه، اسمعي، خذي رقم هاتف إتيين في كل الأحوال. سوف نكون هناك على هذا الرقم وقد نجتمع معاً».

قالت بريدجت «نعم، عظيم»

أخرجَ باري قطعة ورق لفّ كبيرة من نوع Rizla ودوَّنَ رقماً عليها. قال مازحاً «إياكِ أنْ تدخّنيها، وإلّا فلن نتمكَّن من التواصُل»

أعطته بريدجت رقم هاتف ميلروز لأنها كانت تعلم أنّه لن يستخدمه، وأنَّ ذلك الاجتماع كله لن يحدث. سألته «منذ متى وأنت هنا؟»

«منذ عشرة أيام تقريباً والنصيحة الوحيدة التي أستطيع أنْ أمنحكِ إيّاها هي إياكِ أنْ تشربي الخمر. إنَّ ذلك النبيذ مملوء بالقذارة الكيميائيّة والأثر الذي يُخلّفه الخمر أسوأ من أثر الإقلاع عن تعاطي المخدِّر».

قاطعهما صوت نيكولاس بقوة «ماذا تفعلين بحقّ الله؟» وحدَّقَ بغضب إليها. «أنتِ حقاً تغالين في الاعتماد على حظّك، وتتجولين وسط مطار من دون أي إنذار. وأنا أجرُّ معي هذه الأمتعة اللعينة بالنيابة عنكِ طوال الربع ساعة الأخيرة».

قال باري «يجب أنْ تستعين بحافلة».

حدَّقَ نيكولاس مباشرة أمامه وكأنَّ لا أحد تكلَّمَ. «إياكِ أنْ تفعلي هذا مرة أخرى وإلّا سوف أقصفك كأنكِ... آه، ها هي إلينور!».

«نيكولاس، أنا آسفة جداً. لقد علقنا في دولاب الملاهي في مهرجان المرح وبدل أنْ يدَعونا نترجل أطلقونا في جولة جديدة. تصوَّر!»؟

«هذا جدير بك، يا إلينور، دائماً تحصلين على أكثر مما ترغبين من المرح»

رحّبَتْ إلينور بنيكولاس وببريدجت بتلويح دائريّ واضح، كأنّها تُلمِّع زجاج نافذة «حسن، ها قد وصلتُ الآن. وهذه آنْ مور»

قالت آنْ «مرحباً»

قال نيكولاس، «كيف حالك؟»، وقدَّم بريدجت.

قادتهم إلينور إلى موقف السيارات وأرسلتْ بريدجت قُبلة خلف ظهرها في اتجاه باري.

قال باري «تشاو»، مُشيراً بإصبعه إلى الكلمات الواثقة المطبوعة على قميصه الرياضيّ. «لا تنسي».

سألتْ إلينور «مَنْ ذلك الرجل الوسيم المُبهِر الذي كانت فتاتك تتحدث معه؟»

قال نيكولاس «أوه، مجرد شخص كان في الطائرة». لقد انزعج لوجود باري على متن الطائرة وفكَّرَ في أنَّه ربما بريدجت هي التي أعدَّتْ لذلك اللقاء. كانت الفكرة سخيفة، لكنّه لم يتمكَّن من التخلُّص منها، وحالما استقروا جميعاً داخل السيارة، همس لها «عمَّ كنتِ تتحدثين مع ذلك الشخص؟»

قالت بريدجت: باري ليس مجرد شخص، وهذا ما يُعجبني فيه، ولكن إنْ كنتَ حقاً تريد أنْ تعرف، فقد قال «لا تشربي الخمر، لأنه مملوء بالقذارة الكيميائيّة وآثاره أسوأ من آثار الإقلاع عن تعاطي المُخدِّر».

استدار نيكولاس بحركة كاملة ورماها بنظرة قاتلة.

قالت إلينور «إنه على صواب من دون أدنى شك، طبعاً. ربما كان ينبغي أنْ ندعوه على مائدة العشاء».

- 7 -

بعد تعليق باتريك من أُذنيه ومراقبته يهرب من غرفة المكتب، هزَّ ديفيد كتفيه استخفافاً، وجلسَ على آلة البيانو، وباشر بارتجال مقطوعة فيوغ. احتجَّتْ يداه المُصابتان بالروماتيزم عند لمس كل مفتاح. وكان كأس من مشروب الباستيس يقبع، كسحابة في فخ، على أعلى آلة البيانو. تألّمَ جسمه طوال النهار وكان الألم يوقِظه ليلاً كلما تقلَّبَ في فراشه. وغالباً ما كانت الكوابيس أيضاً توقظه وتدفعه إلى الأنين والصراخ بصوت مرتفع حتى أنَّ أرقه كان يفيض إلى غرف نوم الجيران. ورئتاه أيضاً كانتا تُسدّان وعندما تحتدم نوبة الربو كان يئزّ ويفحّ، ويتورَّم وجهه بسبب الكورتيزون الذي يستخدمه للتخفيف عن صدره المخنوق. يشهق، ويتوقف عند أعلى الدَّرَج، عاجزاً عن الكلام، وتحوم عيناه حول الأرض وكأنّه يفتّش عن الهواء الذي هو في أمسّ الحاجة إليه.

في سن الخامسة عشرة كانت موهبته الموسيقيّة قد جذبَتْ اهتمام أستاذ الموسيقى العظيم شابيرو، الذي لم يكن يقبل تعليم أكثر من طالب واحد في وقتٍ واحد. ولكن لسوء الحظ أُصيبَ ديفيد بحمّى روماتيزميّة وأمضى الأشهر الستة التالية في السرير مع يدين متيبّستين تعوزهما رشاقة الحركة ولم يستطع أنْ يتمرَّن على العزف على البيانو. وقَضَى مَرَضُه على فُرَصِهِ في أنْ يُصبح عازف بيانو جادّاً، وعلى الرغم من حملِهِ الكثير من الأفكار الموسيقيّة، فإنّه منذ ذلك الحين فصاعداً أصبح يدَّعي أنّه ملَّ تأليف الموسيقى وتلك «الحشود وصِغار القوم» الذين يُضطر المرء إلى استخدامهم من أجل تسجيل الموسيقى على الورق. بدل ذلك، أصبحَ لديه حشودٌ من المُعجبين الذين ناشدوه أنْ يعزف بعد تناول وجبة العشاء. كانوا دائماً يهتفون مُطالبين بعزف اللحن الذي سمعوه في المرَّة الأخيرة، ولم

يعُد يتذكَّره، إلى أنْ يستمعوا إلى اللحن الذي يعزفه الآن، والذي سرعان ما سينساه. كان اضطراره إلى تسلية الآخرين والغطرسة التي يستعرِض بها مواهبه يجتمعان لتبديد الأفكار الموسيقيّة التي كان ذات يوم يُحافِظ عليها بشدِّة ويكنزها.

حتى بينما كان يتقبَّل التملُّق كان يعلم أنَّ تحت ذلك التبديد المنمَّق لمواهبه لم يتغلَّب أبداً على اعتماده على تقديم المقطوعات المتفرّقة، ولا على خوفه من المستوى العادي، ولا على الشك الشديد في أنَّ أول نوبة حُمّى انتابته سبَّبها هو لنفسه. هذه البصيرة لم تفده؛ ومعرفته أسباب فشلهِ لم تقضِ على ذلك الفشلَ، لكنّها جعلتْ كراهيته لنفسه أكثر تعقيداً وأشدّ صفاءً بقليل مما كان يمكن أنْ تكون في حالة الجهل الصِرف.

مع تطوُّر مقطوعة الفيوغ، انقضَّ ديفيد على لحنها الأساسي بتكرارات مُحبَطَة، دافناً اللحن الابتدائيّ تحت وابلٍ من أنغام الآلات النحاسيّة الهادرة، وأفسد تقدَّمها بدفقات عنيفة من الأصوات المتنافرة. كان في استطاعته أحياناً وهو جالس عند البيانو أنْ يتخلّى عن الأساليب المتهكّمة التي يتشبَّع بها كلامه، ووجدَ الزائرون الذين كان قد تنمَّر عليهم وضايقهم إلى درجة السخط، وجدوا أنفسهم يتأثّرون بالحزن الشديد الذي تتسم به الموسيقى التي تُعزَف في غرفة المكتب. ومن ناحية أخرى، كان في استطاعته أنْ يوجِّه آلة البيانو نحوهم كأنّها مدفعٌ رشّاش ويوجِّه عِدائيته نحو موسيقاه التي جعلتهم يتوقون أكثر إلى فجاجة حديثه الأكثر تقليديّة. وحتى حينئذٍ، سوف يأسر عزفه الأشخاص الراغبين أكثر من غيرهم في مقاومة تأثيره عليهم.

توقفَ ديفيد عن العزف بسرعة وأغلقَ غطاء الآلة على لوحة المفاتيح. وتناول جرعة كبيرة من المشروب وبدأ يُدلِّك راحة يده اليُسرى بإبهام يده اليُمنى. هذا التدليك فاقمَ الألم قليلاً، لكنّه منحه المتعة النفسيّة نفسها التي تمنحها إزالة قشرة جرح، وجسّ خرّاجات وتقرّحات الفم بلسانه، ومسّ الرضوض بإصبعه.

عندما حوّلَتْ طعنتان من إبهامه الألمَ الكليلَ في راحة يده إلى إحساس أشدّ حِدَّة، انحنى إلى الأمام والتقط سيجار مونتكريستو مُدخَّن حتى منتصفه. من

«المفترَض» بالمرء أنْ يزيل الحزام الورقيّ عن السيجار، لكنَّ ديفيد تركه عليه. كان خرق أصغر قاعدة من القواعد التي كان الآخرون مُقتنعين على أساسها بأنهم يُحسنون التصرُّف يمنحه متعة كبرى. وكان ازدراؤه للسوقيّة يتضمَّن سوقيّة الرغبة في تفادي الظهور بمظهر السوقيّ. وفي هذه اللعبة الأكثر خصوصيّة، لم يتعرَّف إلّا على حفنة من اللاعبين، من بينهم نيكولاس برات وجورج واتْفورد، وكان في استطاعته بالسهولة نفسها أنْ يحتقر رجلاً لتركه الحزام الورقيّ *على* سيجاره. وقد استمتع بمراقبة فيكتور أيزن، المفكّر العظيم، الذي يخوض في تلك المياه الضحلة، ويتمسّك بقوة أكبر في كل مرة يحاول أنْ يتجاوز الخط الذي يفصله عن الطبقة الاجتماعيّة التي يتوق إلى الانتماء إليها.

نفَضَ ديفيد الرقائق الخفيفة من رماد السيجار عن مبذله الصوفيّ الأزرق. وفي كل مرة كان يُدخّن كان يُفكِّر في انتفاخ الرئة الذي قتل والده، وينزعج من احتمال أنْ يموت بالطريقة نفسها.

تحت المبذل ارتدى بيجاما لونها شديد الشحوب وتعرَّضَتْ للارتداء مدة طويلة حتى أنّها صارت ملكه في اليوم الذي ووري والده الثرى. وحدث الدفن في موقع مناسب بجوار منزل والده، في الكنيسة الصغيرة التي أمضى الأشهر الأخيرة القليلة من حياته وهو يُحدِّق إليها من نافذة غرفة مكتبه. ونام في غرفة المكتب، التي غيَّر اسمها فأصبح «استراحة المُغادرة»، واضعاً قِناع الأكسجين الذي كان يُسمّيه مازحاً «قناع الغاز»، وعاجزاً عن تجاوز «تمرين ارتقاء الدَّرَج»، نام على سرير خاص بالحملات قديم من القرم تركه عمّه له.

حضرَ ديفيد الجنازة الكئيبة والتقليديّة بلا أي حماس؛ كان يعلم أصلاً أنّه قد حُرِمَ من الإرث. وعندما أُنزِلَ التابوت إلى بطن الأرض، أخذَ يفكِّر كم من حياة والده أمضاها داخل خندق من الخنادق العديدة، وهو يُطلق النار على الطيور وعلى الرجال، وكيف أنّه أفضل مكان له.

بعد الجنازة، وبعد ما غادر الضيوف، جاءتْ أمّه إلى غرفة نومه القديمة لتقضي برهة حِداد مع ابنها. قالت، بصوتها الرائع، «أنا أعلم أنّه كان سيودُّ لو تركَ لك هذه»، ووضعَت بيجاما مطويّة بعناية على السرير. ولمّا لم يُجِب ديفيد بأي شيء، ضغطَتْ على يده وأغمضَتْ عينيها الزرقاوَين الباهتتين برهة،

لتبيِّن أنَّ مثل هذه الأشياء شديدة العمق وتعصى على التعبير عنها بالكلمات، وأنّها تعلم كم كان يرغب في الحزمة الصغيرة من الفانيلا البيضاء والصفراء المُشتراة من شارع بوند الذي أقفل أبوابه قبل بدء الحرب العالمية الأولى.

كانت بيجاما الفانيلا البيضاء والصفراء نفسها التي، وإذْ أضحى الجو حاراً، بات من غير المناسب ارتداؤها. نهضَ ديفيد عن مقعد البيانو وأخذ يتنقَّل في المكان ومبذله مفتوح، يُدخّن سيجاره. لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّه غاضب من باتريك لأنه هربَ. لقد أفسد عليه متعته. وسلَّمَ بأنه ربما أساء تقدير حجم الإزعاج الذي يمكن أنْ يُسبّبه لباتريك من دون إحداث أضرار.

كانت أساليب ديفيد في التعليم تعتمد على أساس ادّعائه أنَّ طفولته كانت أسطورة رومانسيّة وكان من صفاء البصيرة بحيث لا يُشجّعها. كان الأطفال نُسَخاً ضعيفة وجاهلة مُصغَّرة من البالغين يجب تحفيزهم على تصحيح ضعفهم وجهلهم. وعلى غرار الملك تشاكا، مُحارب قبيلة الزولو العظيم، الذي دفعَ قواته إلى الوطء على شجيرات الشوك في الأرض لكي يجعل أقدامهم قاسية، وهو تدريبٌ كان يمكن لبعضهم أنْ يرفضه في حينه، صمَّمَ على أنْ يزيد صلابة آثار الخيبة الخشنة وأنْ يُطوِّر مهارة الانفصال عند ابنه. إذْ ماذا كان في وسعه أنْ يُقدِّم له غير ذلك؟

لبرهة من الزمن اجتاحه حسّ بالسُخف والوَهَن؛ شعرَ كأنّه مُزارع يراقب سرباً من الغربان يستقرّ برضا على فزّاعته المُفضّلة.

لكنّه تقدَّمَ بشجاعة على خط تفكيره الأصليّ. كلا، لا فائدة من توقُّع الامتنان من باتريك، على الرغم من أنَّه ذات يوم قد يُدرك، كأنه أحد رجال تشاكا يركض على أرضٍ صلبة على قدمين لا تتأثّران، كم يُدين لمبادئ والده الصارمة.

عندما وُلِدَ باتريك انتاب ديفيد القلق من أنْ يُصبح ملاذاً أو مصدر إلهام لإلينور، وباشرَ بدافع الغيرة يُطمئن نفسه بأنَّ هذا لم يحدث. وأخيراً روّضَتْ إلينور نفسها على الإيمان المُنير والمُبهَم بـ «حِكمة» باتريك، وهي سِمة أسندتها إليه قبل أنْ يتعلَّم كيف يتحكَّمُ بحركة أحشائه ببعض الوقت. دفعَته إلى أسفل التيّار على متن هذا القارب الورقيّ وتراجعتْ، مُرهَقَة بإحساسها بالرعب وبالذنب. والشيء الأهمّ بالنسبة إلى ديفيد من القلق الفِطريّ من

أنْ تتولّه زوجته وابنه أحدهما بالآخر كان الإحساس المُسكِر بأنَّ لديه وعياً مُطلَقاً يجب أنْ يتعامل معه، وقد استمدَّ متعة بالغة من تشكيل هذا الطين المُستسلِم بأصابعه الفنيّة.

في أثناء ارتقائه إلى الطابق العُلويّ لكي يرتدي ملابسه، حتى ديفيد الذي أمضى مُعظَم نهاره غاضباً أو على الأقلّ متوتراً، وكان مُحِقّاً بعدم السماح للأشياء بمفاجئته، فوجئ بنوبة الحنق التي اجتاحته. وما بدأ كسخط على هرب باتريك تحوّل الآن إلى حنق لم يعُد في استطاعته التحكُّم فيه. دخل بخُطى واسعة إلى غرفة نومه وشَفَتُه السُفلى بارزة نكداً وقبضتا يديه مشدودتان، لكنّه شعر في الوقت نفسه برغبة جامحة في الهرب من جوّه الخاصّ، كرجلٍ منحنٍ يُسرع للهرب من شفرات تدور لطائرة حوّامة ترجَّلَ منها تواً.

كان لغرفة النوم التي وَلَجَها مظهر رهبانيّ، كانت رحبة وبيضاء، بحجارة قرميد عارية بلون بنيّ غامق تكون دافئة بصورة مُعجِزة في فصل الشتاء عندما يُدار جهاز التدفئة في الطابق التحتيّ. واللوحة الوحيدة المُعلَّقة على الجدار كانت صورة المسيح يضع تاجاً من الشوك، وإحدى تلك الأشواك مغروزة في جبينه الشاحب. وخيط سائل من الدماء الحارّة يجري إلى أسفل جبينه الناعم نحو عينيه العائمتين، اللتين تنظران نحو الأعلى بتحدٍّ إلى إكليل رأسه الفذّ وكأنّه يسأل، «ولكن أحقّاً هذا *أنا*؟». كانت اللوحة للفنان كوريجيو ومن الجليّ أنّها الشيء الأكثر قيمة في المنزل، لكنَّ ديفيد أصرَّ على تعليقها في غرفة نومه، قائلاً بعذوبة إنّه لن يطلب أيَّ شيءٍ آخر.

وقد أضفى مسند الرأس البنيّ والذهبيّ، الذي اشترته والدة إلينور، وكانت في ذلك الوقت دوقة فالانساي، من تاجرٍ أكَّدَ لها أنَّ رأس نابوليون استراح عليه مرّة واحدة على الأقلّ، أضفى توازناً على سِمة التقشُّف في الغرفة، كما فعلَ مفرش السرير الحريريّ ذو اللون الأخضر القاتم، بما عليه من رسوم لطيور الفينيق التي تنهض من قلب اللهب الذي تحتها. وكانت الستائر التي من النسيج نفسه تنسدل من أعمدة بسيطة من الخشب، على نوافذ تطلّ على شرفة ذات درابزين من الحديد المشغول.

فتح ديفيد تلك النوافذ بنزَق وخرج إلى الشرفة. نظر إلى أرتال نبتة الكرمة

المُنسّقة، وحقول زهر الخزام ذات الأشكال المُستطيلة، وبقع غابة الصنوبر، وبعدها نحو قريتَي بيكاس وسان كرو اللتين تحتلان التلال السفلي. «كأنهما قلنسوتان ضيِّقتان»، كما أحبَّ أنْ يقول لأصدقائه اليهود.

نقل تحديقه نحو الأعلى وأخذ يستعرض الحافة الطويلة والمنحنية للجبل الذي كان يبدو، في يومٍ صافٍ كهذا، شديد القُرب وشديد الجموح. وأخذ يبحث عن شيءٍ في المشهد العام يمكنه أنْ يستقبل مزاجه ويستجيب له، ولم يخطر في باله من جديد، كما حدث معه غالباً من قبل، إلّا مقدار سهولة الهيمنة على كامل الوادي بمدفع رشّاشٍ واحد مُثبَّت إلى الدرابزين الذي يقبض عليه الآن بيديه كِلتَيهما.

حالما بدأ يلتفتُ بقلق في اتجاه غرفة النوم لمح بطرف عينه حركة تحت الشرفة.

كان باتريك قد لبثَ في مخبئه مدة طويلة قدر استطاعته، لكنَّ الجوَّ كان بارداً هناك بعيداً عن الشمس فخرج زاحفاً من تحت الدغل وبدأ يمشي، بتردُّدٍ مسرحيّ، عائداً إلى المنزل خلال العشب الطويل الجافّ. كان صعباً التجهُّم وحده. وشعر بالحاجة إلى جمهور أوسع لكنّه تمنّى ألّا يحصل عليه. ولم يجرؤ على مُعاقبة أحد بسبب غيابه، لأنه لم يكن متيقّناً من أنّ أحداً سوف يُلاحظُ غيابه.

تابع سيره ببطء، ثم انعطفَ نحو حافة الجدار وتوقفَ ليحدِّق إلى الجبل الهائل على الجانب المقابل من الوادي. بدتْ التشكيلات الضخمة التي يُبرزها السطح الخارجي وتلك الصغيرة المنتشرة على أرجاء جوانبه كأنها الأشكال والوجوه التي تمنى ظهورها. رأس نسر. أنف غريب الشكل. جماعة من الأقزام. رجل عجوز ذو لحية. سفينة فضاء، ومساقط جانبيّة لوجوه عدد لا يُحصى من المجذومين والبدينين ذوي محاجر عيون غائرة تشكَّلَتْ من الانسيابيّة الشبيهة بالدخان التي أضفاها تركيزُه على الحجارة. وبعد مدة وجيزة، لم يعُد يُميِّز ما يفكِّر فيه، وكما أنَّ واجهات المحال التجاريّة تمنع أحياناً الناظر من رؤية المواد المعروضة خلف لوح الزجاج

وتكتنفه بدل ذلك كعناقٍ نرجسيّ، تجاهلَ عقلُه دفقَ الانطباعات الوافدة من العالم الخارجيّ وسجنته داخل حلم يقظة لم يتمكّن لاحقاً من وصفه.

أعاده التفكير في الغداء إلى الزمن الحاضر مع إحساس قويّ بالقلق. كم الساعة الآن؟ هل تأخّر كثيراً؟ هل ستكون إيفيت ما زالت موجودة هناك لكي تتحدث معه؟ هل سيُضطر إلى تناول الطعام وحده مع والده؟ كان دائماً يبرأ من تهرُّبه الذهنيّ بالإصابة بخيبة أمل. لقد استمتعَ بالإحساس بالفراغ، ولكن بعد ذلك أخافه إثر التخلُّص منه ولم يتمكّن من تذكُّر ما كان يُفكِّر فيه.

واندفعَ باتريك يركض. لقد اقتنع بأنّ وجبة الغداء فاتته. كان موعدها دائماً هو الثانية إلّا ربعاً وفي المعتاد كانت إيفيت تخرج وتنادي عليه، ولكن بما أنّه كان مختبئاً ربما لم يسمعها.

عندما وصل باتريك إلى خارج المطبخ، استطاع أنْ يرى إيفيت من خلال الباب المفتوح، وهي تغسل الخسّ في المغسلة. وشعرَ بألم في جنبه جرّاء الركض، والآن وقد بات في استطاعته أنْ يُدرك أنَّ وجبة الغداء أضحتْ بعيدة المنال ارتبك بسبب استعجاله الشديد. لوّحتْ إيفيت له بيدها من موقعها عند المغسلة، لكنّه لم يرغب في أنْ يبدو أنه كان في عجلة من أمره، لذلك اكتفى بالتلويح بيده ومشى من أمام الباب، وكأنّ لديه عملاً يجب أنْ يقضيه. وقرّر أنْ يتقصّى من جديد ما إذا كان في استطاعته أنْ يعثر على ضفدع الشجر المحظوظ قبل أنْ يعود من جديد إلى المطبخ ويجلس مع إيفيت.

عند منعطف زاوية المنزل، ارتقى باتريك الجدار المنخفض عند الحافة الخارجيّة من المصطبة ومشى بخطى متوازنة، على علوّ خمسة عشر قَدَماً إلى يساره، وذراعاه منشورتان. مشى على طول الجدار كلّه ثم قفز من جديد إلى أسفل. كان على قمة دَرَج الحديقة التي تبدو منها شجرة التين، عندما سمعَ صوت والده يصرخ «*إياك أنْ تجعلني أشاهدك وأنت تفعل هذا من جديد!*».

أجفلَ باتريك. من أين يأتي الصراخ؟ أهو موجَّه إليه؟ دار حول نفسه ونظر خلفه. كان وجيب قلبه سريعاً. لطالما سمعَ والده يصرخ في أُناسٍ آخرين، خاصّة في أمّه، فأُصيبَ بالرعب ورغبَ في الركض والهرب. ولكن في هذه المرَّة كان عليه أنْ يقفَ بثبات ويُصغي لأنّه أراد أنْ يفهم الخطب وإنْ كان هو الملوم.

«تعال إلى هنا في الحال!»

الآن بات باتريك يعلم من أين يصدر الصوت. رفعَ بَصَرَه فرأى والده يميل عبر حافة الشرفة.

سأل الوالد «ما الخطأ الذي ارتكبتُهُ؟»، ولكن بهدوءٍ شديد لكي يسمعه. بدا والده في حالة غضبٍ شديد إلى درجة أنَّ باتريك فقدَ كلَّ إيمان ببراءته. وحاول مع إحساس متصاعد بالرعب أنْ يتراجع عن ثورة غضب والده على ما يمكن أنْ تكون الجريمة التي ارتكبها.

مع بداية ارتقائه الدَّرَج شديد الانحدار المؤدّي إلى غرفة نوم والده، أصبحَ باتريك مستعداً للاعتذار على أي شيء، ولكنه كان لا يزال يشعر برغبةٍ باقية في معرفة عمّا ينبغي أنْ يعتذر. وعند مدخل الباب توقّفَ وسأل من جديد، بصوتٍ مسموع هذه المرَّة «أي خطأ ارتكبتُ؟»

قال والده «أغلق الباب خلفك، وتعال إلى هنا» بدا مُشمئزّاً من الالتزام الذي فَرَضَه الطفل عليه.

بينما باتريك يجتاز ببطء المسافة حاولَ أنْ يفكّر في وسيلة لاسترضاء والده. ربما لو قال شيئاً ينمّ عن براعة قد ينال الغفران، لكنّه شعر بأنه غبيّ غباءً استثنائيّاً وأخذ يفكّر ويُعيد التفكير: اثنان في اثنين يُساوي أربعة، اثنان في اثنين يُساوي أربعة. حاول أنْ يتذكَّر شيئاً لاحظَه في صباح ذلك اليوم، أو أيّ شيء، أي شيء مهما كان يمكن أنْ يُقنِع والده بأنّه كان «يُلاحظ كلّ شيء». لكنَّ الظلِ الذي ألقاه حضور والده أعتمَ عقلَه.

وقفَ بجوار السرير وأخذ يُحدِّق إلى أسفل مفرش السرير الأخضر بما عليه من رسوم طيور النار. عندما تكلَّم والده بدا مُرهَقاً.

«أنا مُضطر إلى ضربك»

«ولكن ما الخطأ الذي ارتكبتُهُ؟»

قال والده بصوتٍ بارد، ساحق، وجده باتريك مُقنِعاً إقناعاً تاماً «أنتَ تعلم كلّ العِلم ماذا اقترفت». فجأة أصبحَ يشعر بالخزيّ من كل الأخطاء التي كان قد ارتكبها. بدا كأنَّ وجوده كلّه أصبحَ مُلوَّثاً بالفشل.

وبحركة سريعة قبضَ الوالد على ياقة قميصٍ باتريك. جلسَ على

السرير، ورفعَ عالياً فخذ باتريك الأيمن، ونزع الخفّ الأصفر عن قَدَمه. تلك المناورات السريعة في المعتاد كانت جديرة بأنْ تجعل ديفيد يتلوّى من الألم، لكنّه استطاع أنْ يستعيد رشاقته الفتيّة لتخدمه في مثل هذه القضيّة الجيدة. أنزلَ بنطلون باتريك ثم سرواله الداخليّ ورفعَ الخفّ إلى علوٍّ مُدهِش بالنسبة إلى رجلٍ يُعاني من مشكلة في كتفه الأيمن.

الضربة الأولى كانت مؤلِمة بصورة مُذهلة. حاولَ باتريك أنْ يتّخذ موقف البؤس الخالي من الانفعال الكفيل بإثارة إعجاب أطباء الأسنان. حاولَ أنْ يُبدي شجاعةً لكنّه في أثناء تلقّي الضرب، وعلى الرغم من أنّه على الأقلّ أدركَ أنَّ والده أرادَ أنْ يُسبِّب له قدر ما يستطيع من الألم، إلّا أنّه رفضَ أنْ يُصدِّق ذلك.

كان كلما أمعنَ في المقاومة، تلقّى ضرباً أقوى. أرادَ أنْ يتحرَّك لكنّه خشيَ أنْ يفعل، كان منقسِماً إلى جزئين بفعل ذلك العنف المُبهَم. لقد أطبقَ الرعب عليه وسحقَ جسمه كأنياب كلب. وبعد انتهاء الضرب، أسقطه والده على السرير كشيءٍ ميِّتْ.

كان لا يزال غير قادر على الفرار. فقد أبقاه والده في الأسفل بضغط راحة يده على عظم كتف باتريك الأيمن. أدار باتريك رأسه بقلق، لكنّه لم يرَ إلّا زُرقة مبذل والده.

سألَ «ماذا تفعل؟»، لكنَّ والده لم يُجِب وكان باتريك من فرط الخوف بحيث لم يُكرِّر السؤال. كانت يد والده تضغط عليه ولم يكد يستطيع التنفُّس، ووجهه مسحوق داخل تضاعيف مفرش السرير. حدَّقَ عالياً بنظرة ثابتة إلى عمود الستارة وإلى أعلى النوافذ المفتوحة. لم يفهم شكل العقاب الذي كان يتلقّاه، لكنّه علِمَ أنَّ والده لا بد شديد الغضب منه حتى يضربه بتلك الشِدّة. لم يستطع أنْ يتحمَّل العجز الذي طغى عليه. لم يستطع أنْ يتحمّل الظلم. لم يعرف مَنْ يكون هذا الرجل، لا يمكن أنْ يكون الذي يسحقه هكذا هو والده.

لو كان في وسعه أنْ يرتقي عمود الستارة، لاستطاع أنْ يُطلّ على المشهد كلّه، تماماً كما يُطلّ والده عليه. وشعر باتريك للحظة بأنّه هناك في الأعلى يُراقب بحياديّة العقاب الذي يُنزِله عليه رجلٌ غريب بصبيّ صغير. ركّزَ باتريك قدر استطاعته على عمود الستارة وهذه المرَّة دام ذلك مدَّة أطول، كان جالساً هناك، عاقداً ذراعيه على صدره، ومستنداً بظهره على الجدار.

ثم عاد إلى السرير من جديد شاعراً بما يُشبه الفراغ ومتحمّلاً عبء عدم معرفة ما يحدث. استطاع أنْ يسمع والده يتنفّس بصوت مسموع، ومسند رأس السرير يضرب الجدار. ومن خلف الستائر التي تحمل رسوم الطيور الخضراء، شاهد أبو بريص يبرز ويتشبّث بثبات بزاوية الجدار المُجاور للنافذة المفتوحة. اندفع باتريك نحوه، وأحكمَ قبضتيه وأخذ يُركّز إلى أنْ أصبحَ تركيزه أشبه بسلك هاتف يصِلُ بينهما، واختفى باتريك داخل جسم أبو بريص.

فهمتْ السحليّة ما يجري، لأنها في تلك اللحظة بالذات اندفعتْ نحو منعطف زاوية النافذة وخرجتْ إلى الجدار. وفي الأسفل استطاع باتريك أنْ يرى المهوى الذي يصل حتى المصطبة وأوراق نبات فيرجينيا المعترش، الأحمر والأخضر والأصفر، ومن هناك، التصَقَتْ بالجدار وتمسَّكَت بأطرافها متشبثة وتدلّت بالمقلوب وبأمان من إفريز السقف. هرعَتْ إلى قرميد السقف القديم المكسو بنبات الأشنة الرماديّ والبرتقاليّ، ومنه بين حجارة القرميد وعالياً إلى حافة السقف. وتحرَّكَ سريعاً نحو أسفل المنحدر الآخر، وابتعد كثيراً، بحيث لا يمكن لأحد أنْ يعثر عليه، لأنه لن يعرف أين يبحث، ولن يعرف أنّ باتريك مُلتفّ داخل جسم أبو بريص.

قال ديفيد، «ابقَ هنا»، ونهضَ وعدَّلَ من شأن بيجامته الصفراء والبيضاء.

لم يكن باتريك ليفعل أي شيء آخر. لقد لاحظ، بشكل باهتْ في أول الأمر ومن ثم بحيويّة أكبر، مذلّة موقفه. بوجهه المنكفئ على السرير، وبنطلونه المتجمِّع عند ركبتيه والرطوبة الغريبة، المُقلِقة عند أسفل عموده الفقريّ. جعله ذلك يعتقد أنّه كان ينزفُ دماً. وأنَّ والده، بصورة ما، طَعَنَه في ظهره.

ولجَ والده غرفة النوم وعاد أدراجه. كان يحمل حفنة من ورق المرحاض مسحَ به البركة التي تزداد برودة من المادة اللزجة التي كانت قد بدأتْ تنزّ من بين كفلَي باتريك.

قال «تستطيع أنْ تنهض الآن»

في الحقيقة لم يتمكن باتريك من النهوض. لقد أصبحتْ ذِكرى الفعل الإرادي شديدة النأي والتعقيد. رفع الوالد بنطلون باتريك عالياً بحركة نزقة

ورفعه عن السرير. وقفَ باتريك بجوار السرير بينما كان والده يقبض بحزم على كتفيه، ظاهريّاً لكي يقوِّم وِقفته، لكنَّ ذلك دفعه إلى الاعتقاد أنَّ والده سوف يُثبِّت كتفيه إلى الخلف ويدفعهما بالقوة معاً إلى أنْ يبرزا من الداخل إلى الخارج وتخرج رئتاه وقلبه من صدره.

بدل ذلك، مال ديفيد عليه وقال «إياكَ أنْ تُخبر أمّك أو أيّ شخص آخر بما حدث اليوم، وإلّا فسوف تتلقّى عقاباً ***شديد*** القسوة. أتفهم؟».

أومأ باتريك برأسه إيجاباً.

«أأنتَ جائع؟»

هزَّ باتريك رأسه نفياً.

قال ديفيد بلهجة خفيفة «في الحقيقة، أكاد أموت من الجوع. يجب أنْ تأكل أكثر مما تفعل. يجب أنْ تبني قوّتك».

«هل أستطيع أنْ أذهب الآن؟»

«لا بأس إذا كنتَ لا ترغب في الأكل، تستطيع أنْ تذهب» كان الغضب قد استبدَّ بديفيد من جديد.

مشى باتريك على طول الممشى وعندما نظر نحو الأسفل إلى أصابع صندله البالي رأى، بدل ذلك، قمّة رأسه وكأنما عن بُعد عشرة أقدام أو اثني عشرة قدماً في الهواء، وشعر بفضول مزعج بشأن الصبي الذي كان ينظر إليه. لم يكن الأمر شخصيّاً بمعنى الكلمة، كالحادث الذي شهدوه على الطريق في العام السابق وطلبَتْ أمّه منه ألّا ينظر.

بالعودة إلى الأسفل، شعر باتريك بهزيمة نكراء. لم يكن هناك ومض رداء قرمزيّ اللون. ولا جنود خاصّون. ولا أبو بريص. لا شيء. حاول أنْ يعود إلى الهواء من جديد، كما تفعل طيور البحر عندما تتكسَّر موجة على الصخرة التي كانت تقفُ عليها. لكنّه كان قد فقدَ القُدرة على الحركة وبقيَ في مكانه، وغرق.

- 8 -

في أثناء تناول وجبة الغداء شعرَ بأنّه ربما غالى قليلاً بازدرائه لتكلُّف احتشام الطبقة المتوسطة. حتى في بار نادي «الفارس والحرس» لا يستطيع المرء أنْ يتباهى بالمثليّة الجنسيّة، وبسِفاح الأقارب بأي قدرٍ من الثقة ليحظى بقبول معقول. مَنْ يستطيع أنْ يُخبر أنّه اغتصَبَ ابنه البالغ خمس سنوات؟ إنّه لا يعرفُ شخصاً واحداً لا يُفضِّل أنْ يُغيِّر الموضوع - بل إنَّ البعض سوف يتصرّفون تصرُّفاً أسوأ من هذا بكثير. إنَّ التجربة بحدّ ذاتها كانت قصيرة الأمد ووحشيّة، لكنّها ليستْ قذرة في المُجمَل. ابتسم في وجه إيفيت، وقال إنّه شديد الجوع، وتناول بعضاً من لحم الغنم المشوي ويخنة الفاصولياء الفرنسيّة.

«لقد كان السيد يعزف على آلة البيانو طوال فترة الصباح»

أضافَ ديفيد بوقار «وكان يلعب مع باتريك»

قالتْ إيفيت إنَّ الأولاد مُتعِبون وهم في ذلك السن.

وافقَ ديفيد قائلاً «مُتعبون!»

غادرتْ إيفيت الغرفة وصبَّ ديفيد كأساً أخرى من زجاجة رومانسيه - كونتي التي كان قد أحضرها من القبو من أجل وجبة العشاء، لكنّه قرَّر أنْ يشرب وحده. كان هناك المزيد من الزجاجات وكان المشروب يتلاءم تماماً مع لحم الغنم؟ «إمّا الأفضل، أو لا شيء»: هذا هو الدستور الذي عاش على أساسه، ما دام هذا «اللا شيء» لا يحدث فعلاً. لم يكن في ذلك أيّ شك، لقد كان رجلاً حسّيّاً، أما بالنسبة إلى الحادث الأخير، فهو لم يرتكب أيّ شيء خطير طبّيّاً، كان مجرد تدليك بسيط بين الفخذَين، ليس شيئاً مما لا

يحدث لصبيّ في مدرسة في الوقت المناسب. إنْ كان قد ارتكبَ أيّة جريمة، فذلك لكي يواظب على تربية ابنه. كان يعي أنّه بلغ سن الستين، ولا زال هناك الكثير مما ينبغي تعليمه له وليس هناك إلّا القليل من الوقت.

رنَّ الجرس الصغير الموضوع بجوار طبقه فعادتْ إيفيت إلى غرفة الطعام.

قال ديفيد «لحم غنم ممتاز»

«أيرغب السيد في تناول كعكة تاتان؟»

لم يكن قد تبقّى حيِّز في معدته، للأسف، من أجل كعكة تاتان. لعلها تغري باتريك بتناول بعضها مع الشاي. أما هو فسوف يكتفي بشرب القهوة. هلّا جَلَبْتها إلى غرفة الجلوس؟ طبعاً ستفعل.

كانت قدما ديفيد متيبّستين وعندما نهضَ عن الكرسيّ ترنَّحَ مقدار خطوتين، مُستنشقاً أنفاسه بحِدَّة من خلال أسنانه. قال بصوت مرتفع «لعنة الله». لقد فقدَ فجأة كل تحمُّل لآلامه الروماتيزميّة وقرَّرَ أنْ يصعد إلى الطابق العُلويّ إلى غرفة استحمام إلينور، جنّة المستحضرات الصيدليّة. كان نادراً ما يلجأ إلى استخدام مُسكّنات الآلام، ويُفضِّل عليها سيلاً متواصلاً من الكحول ووعيه ببطولته.

عندما فتح الخزانة الموجودة أسفل مغسلة إلينور فوجئ بروعة تشكيلة الأنابيب والزجاجات: مجموعة بيضاء وأخرى صفراء وأخرى قاتمة اللون، وبرتقاليّة وخضراء، بأوعية بلاستيكيّة وزجاجيّة، مستوردة من عدد من البلدان، وكلها تحثّ المُستهلك على ألّا يزيد الجرعة المُقرَّرة. بل كانت هناك مُغلّفات مكتوب عليها «سيكونال ومانداكس»، مسروقة، في تصوّره، من صيدليات غرف استحمام أشخاص آخرين. وعندما فتَّشَ بين أملاح تخفيف الآلام والمُنشّطات ومُضادات الاكتئاب والأقراص المنوّمة، دُهِشَ إذ لم يعثر إلّا على القليل من مُسكنات الآلام. لم يخرج منها بأكثر من زجاجة من مُسكّن الكودائين، والقليل من الديكونول وبعض الديستالجيك، ثم اكتشفَ، في خلفيّة الخزانة، زجاجة من أقراص أفيون مُلبّسة بالسُكّر كان قد وصفها قبل سنتين لحماته من أجل تخفيف أعراض إسهال متواصل

إبّان إصابتها بسرطان الأمعاء. وقد ملأه العمل الأخير من أعمال الرحمة الأبقراطيّة، بعد انتهاء المدة القصيرة التي مارس خلالها مهنة الطب، بحنين إلى مهنة الشافي.

على رقعة جذّابة ساحرة من منتجات هاريس الكائن في شارع سينت جيمس، كُتِبَ: «الأفيون (B.P. 0.6 حبّة)» وتحته اسم «الدوقة دو فالينسيه»، وأخيراً، «يؤخَذ منه عند الحاجة». ولمّا كان قد تبقّى عدد كبير من الأقراص، فلا بد أنَّ حماته توفيتْ قبل أنْ تُصبح مُدمنة على الأفيون. قال في نفسه، يا له من تحرُّر رحيم، وهو يدسّ الزجاجة داخل جيب سترته المُثلّمة. ولو أنّها أدمنت الأفيون قبل أي شيء لأصبح الوضع مُتعِباً.

صبَّ ديفيد قهوته في كوب من الصيني طراز القرن الثامن عشر رقيق ومستدير، مُزخرف بديوك ذهبيّة وبرتقاليّة تتصارع تحت شجرة ذهبيّة وبرتقاليّة. أخرج الزجاجة من جيبه، وهزَّ منها ثلاثة أقراص بيضاء إلى يده وابتلعها مع جرعة كبيرة من القهوة. وبحماسٍ من فكرة الاسترخاء تحت تأثير مفعول الأفيون، احتفلَ بالمناسبة بشرب بعض البراندي الذي صُنِعَ في عام ولادته، وتلقّاه كهديّة كانت بمثابة مُصالحة، كما أخبر إلينور عندما اشترت علبتها، بينه وبين التقدُّم في السن. ولكي تكتمل صورة شعوره بالرضا أشعلَ سيجاراً وجلسَ على أريكة عميقة بجوار النافذة مع نسخة متهرِّئة من كتاب سورتيز[1] «*رحلات جوروك الممتعة وحفلاته الصاخبة*». قرأ الجملة الأولى باستمتاع مألوف «ما الذي لا يعتبره الرجل الرياضيّ المدينيّ الأصيل أمراً ملحاحاً –قد يكون زواجه، أو حتى دفنَ زوجته– ويمكن أنْ «يواجه به النهار» مع تلك العصبة الشهيرة، مُطاردو الثعالب المُكتئبين في سَري»؟

عندما استيقظَ ديفيد بعد ذلك بساعتين، شعر كأنّه موثق إلى نومٍ مُضطرب بآلاف الخيوط الصغيرة المرنة. ورفعَ بصره ببطء عن مرتفعات بنطلونه

1- روبرت سميث سورتيز (1803–1864): صحفيّ وروائيّ بريطانيّ، كان يسخر من ممارسة الألعاب الرياضيّة بين الطبقة الإقطاعيّة، كما فعل في الكتاب المذكور – المترجم.

ومنخفضاته وركّزه على كوب قهوته. بدا كأنَّ حزاماً رفيعاً مُضيئاً يُحيط بحواف الكوب وأنّه يرتفع قليلاً فوق سطح الطاولة الصغيرة والمستديرة التي يستقرّ عليها. واضطرب وافتُتِنَ عندما لاحظَ أنَّ أحد الديكَين الذهبيين والبرتقاليين يقوم ببطء بنقر عين الديك الآخر. لم يتوقَّع أنْ يُصاب بالهلوسة. وعلى الرغم من تخلُّصه العجيب من الألم، شعر بالقلق من فقدان السيطرة الذي يلي تلك الهلوسة.

شعر كأنَّ ذراع الأريكة أشبه بجبن ذائب وهو ينتزع نفسه انتزاعاً منها، وذكَّره اجتياز أرض الغرفة بارتقاء كثيبٍ من الرمال. وصبَّ مقدار كأسَين من القهوة الباردة وشربهما دفعة واحدة، آملاً في أنْ يُعيدا إليه صحوه قبل أنْ تعود إلينور مع نيكولاس وفتاته تلك.

أراد أنْ يذهب ليتمشّى برشاقة، ولكنْ لم يسعه إلّا أنْ يتوقف ويستمتع بالوهج الوافر الذي يبثّه مُحيطُه. أصبحَ منهمكاً كليّاً بالخزانة الصينيّة السوداء وبالأشكال الملوَّنة التي تزيِّن سطحها الصقيل. وتقدّمَتْ المحفّة التي يسترخي داخلها صاحب مقام إمبراطوريّ مهمّ، وبدأتْ الشمسيّة التي يرفعها فوق رأسه خدمٌ يعتمرون قبعات منخفضة من القشّ تدور بشكلٍ متقطِّع.

انتزع ديفيد نفسه بعيداً عن هذا المشهد الحيّ وولجَ إلى الداخل. وقبل أنْ يكتشف ما إذا كان الهواء المنعش سوف يُبدِّد إحساسه بالغثيان ويُعيدُ إليه السيطرة التي أرادها، سمعَ هدير سيارة إلينور قادمة على طول الممشى. قفلَ عائداً، وتناول نسخته من كتاب سورتيز، وانسحبَ إلى المكتبة.

بعد أنْ ترجّلتْ آنْ من السيارة عند باب منزل فيكتور، حلَّ نيكولاس محلّها على المقعد الأمامي، وتمدَّدَتِ بريدجت في المقعد الخلفي ناعسة. كانت إلينور ونيكولاس يتحدثان عن أناسٍ لا تعرفهم.

قال نيكولاس، مع اقترابهم من المنزل «كدتُ أنسى كم هذا المكان رائع»

قالتْ إلينور «أما أنا فنسيتُ تماماً، وقد عشتُ هنا»

قال نيكولاس «أوه، إلينور، هذا القول مُحزِنٌ جداً. قولي لي بسرعة إنَّ هذا ليس صحيحاً، وإلّا فلن أستمتع بشرب الشاي»

قالت إلينور «حسن»، وهي تُنزِل زجاج النافذة الكهربائيّة لكي ترمي سيجارة خارجها، «ليس صحيحاً»

قال نيكولاس «أنتِ فتاة طيّبة»

لم يخطر في بال بريدجت أيّ شيء تقوله عن محيطها الجديد. استطاعتْ أنْ ترى من خلال نافذة السيارة دَرَجاً عريضاً يهبط على طول جانب المنزل الكبير ذي مصاريع نوافذ زرقاء اللون. وعرَّشَتْ نباتات الويستريا وصريمة الجدي صعوداً وهبوطاً عند نقاطٍ مختلفة على طول جانب المنزل وكسَرَتْ رتابة الحجارة. شعرتْ بريدجت كأنّما سبقَ لها أنْ شاهدتْ ذلك كلّه، وكان بالنسبة إليها لا يمثّل إلّا الخيط الرفيع للواقع الذي تمنحه صورة فوتوغرافيّة من خلال التصفُّح السريع لصفحات مجلّة. كان المُخدّر قد جعلها تشعر بأنها مُثيرة جنسيّاً. ورغبتْ في الاستمناء وشعرتْ بأنها شديدة البُعد عن الحديث الدائر من حولها.

قالتْ إلينور «كان ينبغي على فرانسوا أنْ يأتي ويجلب حقائبك. اتركها في السيارة وسوف يُحضِرها لاحقاً»

قال نيكولاس «أوه، لا بأس، أستطيع أنْ أتدبَّر أمر الحقائب». أراد أنْ ينفرد قليلاً ببريدجت في غرفتهما ويطلب منها أنْ «تبتهج».

قالتْ إلينور، التي لم تشأ أنْ تبقى وحدها مع ديفيد، «كلا، حقاً، دع فرانسوا يفعل ذلك، ليس أمامه ما يفعل طوال النهار»

اضطرَّ نيكولاس إلى أنْ يرسم على وجهه بوضوح تعبير الاستنكار الأخرس أمام بريدجت، التي راحت تتجول متقدّمة من الدَّرَج وتحاول أنْ تتفادى الشقوق بين حجارة الرصف، ولم تُلقِ حتى نظرة خاطفة في اتجاهه.

عندما وصلوا إلى الردهة، ابتهجتْ إلينور لغياب ديفيد. لعلّه غرِقَ في الحمّام. كان أملاً مستحيلاً. دَعَتْ نيكولاس وبريدجت إلى الخروج إلى المصطبة وذهبتْ هي إلى المطبخ لكي تطلب من إيفيت إعداد بعض الشاي. وفي الطريق شربَتْ مقدار كأس من البراندي.

قال نيكولاس حالما انفرد ببريدجت، «أليس في وسعك تحمُّل حديث قصير وخفيف بين حين وآخر؟ إنكِ لم توجهي كلمة واحدة إلى إلينور»

قالتْ بريدجت، ولا تزال تحاول أنْ تتفادى المشي على الشقوق، «حسن، يا حبيبي»، ثم استدارتْ نحو نيكولاس وقالت بهمسٍ مسموع، «أهذه هي؟»

«ماذا؟»

«شجرة التين التي أجبرها على الأكل وهي تنخّ على أطرافها الأربعة»

رفعَ نيكولاس بصره إلى النوافذ التي تقع فوقه، متذكّراً الأحاديث التي تناهتْ إلى سمعه من غرفة نومه في آخر مرَّة مكث هنا. أومأ برأسه إيجاباً، وهو يضع أصابعه على شفتيه.

كانت ثمار التين مُبعثرة على الأرض تحت الشجرة. بعضُها انكمشَ إلى حجم لطخة سوداء وإلى بضعة بذور، لكنّ عدداً منها لم يكن قد فسدَ بعد وقشورها الأرجوانيّة، المكسوّة بطبقة رقيقة بيضاء مُغبرَّة، كان لا يزال سليماً. ركعتْ بريدجت وجثمتْ على الأرض ككلب.

زمجر نيكولاس، وهو يقفز إلى جوارها، «كفى إكراماً لله». في تلك اللحظة فُتِحَ باب غرفة الجلوس وخرجت إيفيت منه، حاملة صينيه مملوءة بالكعك وبالفناجين. وبالكاد لمحتْ ما كان يجري، لكنّه عزَّزَ شكّها في أنَّ أغنياء الإنكليز تربطهم صِلة غريبة بمملكة الحيوان. نهضَتْ بريدجت وهي ترسم ابتسامة متكلِّفة.

قال نيكولاس «*Ah, fantastıque de vous revoir, Yvette*» (آه، تسعدني رؤيتك من جديد، يا إيفيت)

«*Bonjour, Monsieure*» (صباح الخير، سيدي)

قالت بريدجت بطريقة جميلة «*Bonjour*» (صباح الخير)

قالت إيفيت بقوة، «*Bonjour, Madame*»، على الرغم من معرفتها أنَّ بريدجت ليست متزوجة.

هدر نيكولاس من فوق رأس إيفيت «ديفيد! أين كنتَ مُختبئاً؟»

لوَّح ديفيد بسيجاره لنيكولاس. قال، وهو يخطو متجاوزاً عتبة الباب، «كنتُ منهمكاً في قراءة سورتيز». كان يضع نظارته القاتمة لكي تحميه من وقع المفاجآت. قال لبريدجت، التي كان قد نسيَ اسمها «مرحباً، يا عزيزتي.

هل رأى أحدٌ منكم إلينور؟ لقد لمحتُ بنطلوناً ورديّ اللون يختفي عند الزاوية، لكنَّها لم تردّ على ندائي اسمها»

قال نيكولاس «هذا بالضبط ما كانت ترتدي عندما شوهِدَتْ آخر مرَّة»

قال ديفيد لبريدجت «اللون الوردي يليقُ بها تماماً، ألا تعتقدين ذلك؟ إنّه يتماشى مع لون عينيها»

قال نيكولاس بسرعة «أليس شرب بعض الشاي شيئاً لذيذاً؟»

صبَّتْ بريدجت الشاي، بينما ذهبَ ديفيد ليجلس على جدارٍ منخفض، على مسافة بضع خطوات من نيكولاس. وبينما كان ينقر طرف سيجاره برفق ويترك الرماد يسقط على قَدَمِهِ، لاحظ وجود رتلٍ من النمل يشقّ طريقه على طول جانب الجدار ومنه إلى داخل وكره في الركن.

حملت بريدجت كوبين من الشاي إلى الرجلَين، واستدارت لكي تُحضِر كوبها، فقرَّب ديفيد طرف السيجار المُشتعل من النمل وسار به على طول كلا الاتّجاهَين إلى أبعد ما استطاع أنْ يصِل. تلوّى النمل، من لسع الحرارة، وسقطَ عن المصطبة. قام بعضه بالوقوف على أطرفه الخلفيّة قبل أنْ يسقط وأطرافه المتألّمة تحاول عبثاً أنْ تُرمِّم أجساده المُدمَّرة.

هتفتْ بريدجت وهي تغوص مسترخية على كرسي المراكب ذي اللون الأزرق القاتم، «يا لها من حياة متحضّرة تعيشونها هنا». أدار نيكولاس عينيه داخل مِحجريهما وتساءلَ لماذا بحق الجحيم طلبَ منها أنْ تُثير حديثاً خفيفاً. ولكي يكسر الصمت لفتَ نظر ديفيد إلى أنّه حضر إحياء ذكرى جوناثان كرويدن في اليوم السابق.

سأله ديفيد «ألا تلاحظ أنّك تحضر الكثير من مناسبات إحياء الذكرى، أو الكثير من مناسبات الزواج هذه الأيام؟»

«وما زلتُ أتلقّى دعوات إلى أعراس، لكنني أجد أنني أستمتع بإحياء الذكرى أكثر»

«ألأنكَ لستَ مُضطراً إلى إحضار هدية معك؟»

«في الواقع، هذا الأمر يُساعد كثيراً، لكنَّ السبب الرئيس هو أنَّ المرء يُقابل أناساً أكثر أهميّة عندما يموت شخص بارز»

«إلّا إذا كان أصدقاؤه كلهم ماتوا قبله»

قال نيكولاس بصراحة تامة «إنَّ هذا، طبعاً، شيء لا يُطاق»

«ويُفسِد الحفل»

«حتماً»

قال ديفيد، وهو يأخذ سحبة أخرى من سيجاره، «أخشى أنني لا أُحبِّذ حضور مناسبات التأبين. ليس فقط لأنني لا أتخيَّل أيّ شيء في حياة مُعظم الرجال ما يستحق الاحتفال به، ولكن أيضاً لأنَّ الفترة الفاصلة بين الجنازة وإحياء ذكرى الوفاة تكون في المعتاد طويلة جداً إلى درجة أنها، إلى جانب إيقاظ ذكرى روح الصديق الفقيد، لا تبيِّن إلّا مدى سهولة أنْ يعيش المرء من دونه». واصل ديفيد تدخين سيجاره وتوهَّجَ طرفه وسطع. لقد جعله الأفيون يشعر بأنّه يُصغي إلى رجل آخر يتكلَّم.

تابعَ «إنَّ الموتى ماتوا واندفنوا، والحقيقة هي أنَّ المرء ينسى الناس عندما يتوقفون عن تلبية الدعوة على العشاء. وهناك استثناءات، طبعاً – أي، الأناس الذين ينساهم المرء *في أثناء تناول* وجبة العشاء».

قبضَ بسيجاره على نملةٍ ضالّةٍ نجتْ بفضل إشارة من هوائها من غارة إحراقه. «إذا اشتقتَ حقاً إلى أحدهم، الأفضل أنْ تقوم بعملٍ تستمتعان أنتما الاثنان بالقيام به، وهو لا يعني أنْ تقف في كنيسةٍ يضربها تيار هواء بارد، وأنت ترتدي معطفاً وتغني التراتيل، اللهم إلّا في أشدّ الحالات غرابة».

فرّتْ النملة بسرعة مُذهلة وكادتْ تصل إلى الطرف القصيّ من الجدار عندما مدَّ ديفيد جسمه، ولمسها لمساً خفيفاً بدقّة طبيبٍ جرّاح. فتقرَّحَت بشرتها وتلوَّت بعنف وماتت.

«على المرء ألّا يحضر إلّا إحياء ذكرى عدوّ. وبعيداً عن متعة العيش أكثر منه، هي فرصة إعلان فترة هدنة. والغفران أمر غاية في الأهميّة، ألا تعتقد ذلك؟».

قالت بريدجت «أوه، نعم، خاصّة إقناع الآخرين بالغفران لك».

ابتسم ديفيد لها مُشجّعاً، إلى أنْ رأى إلينور تخرج من الباب.

كشَّر نيكولاس بسرورٍ مُبالغ به «آه، إلينور، كنا نتحدث تواً عن ذكرى وفاة جوناثان كرويدن».

قالت إلينور «أعتقد إنّه يمثّل نهاية حقبة زمنيّة».

قال نيكولاس «لقد كان **فعلاً** آخر رجلٍ حيّ يحضر إحدى حفلات «إيفلين وو» وهو يرتدي ملابس امرأة. وقيلَ إنَّ ذوقه في ارتداء ملابس امرأة كان أفضل من ذوقه وهو بملابس رجل. كان مصدر إلهام لجيلٍ بأكمله من الرجال الإنكليز. وهذا يُذكّرني بأنني بعد انتهاء إحياء الذكرى قابلتُ هنديّاً مُبالِغاً في إطرائه ومُضجِراً جداً ادَّعى أنّه قامَ بزيارتك قُبيل مكوثه مع جوناثان في كاب فيرات».

قالت إلينور «لا بد أنّه فيجه. وفيكتور هو الذي أحضره».

أومأ نيكولاس برأسه إيجاباً «هذا هو. بدا أنّه يعلم بأمر قدومي إلى هنا. أمرٌ خارق، لأنني لم أكن قد رأيته قط».

شرحَ ديفيد قائلاً «إنّه عصريّ بصورة مُبالغ فيها، وبالتالي هو يعرف عن الناس الذين قابلهم أكثر من معرفته بأيِّ شيء آخر».

جثمتْ إلينور على كرسيّ أبيض هشّ مزوَّد بوسادة زرقاء باهتة اللون على مِقعدته المُستديرة. نهضَتْ من جديد في الحال وجرَّتْ الكرسيّ أكثر نحو ظل شجرة التين.

قالت بريدجت «انتبهي، قد تسحقين المزيد من ثمار التين».

لم تُدلِ إلينور بجواب.

قالت بريدجت ببراءة، وهي تنحني وتلتقط ثمرة تين عن الأرض «إنَّ هدرها شيء مؤسِف. أليس أمراً غريباً كيف أنَّ لون قشرتها هو أرجوانيّ وأبيض في وقتٍ واحد».

قال ديفيد، مبتسماً لإلينور «كسكّير مُصاب بانتفاخ الرئة».

فتحتْ بريدجت فمها، وجعلتْ شفتيها على شكل دائرة وأقحمتْ ثمرة التين داخله. وفجأة شعرتْ بما وَصَفَته لاحقاً لباري بأنّه «ذبذبات قويّة جداً» انبعثتْ من ديفيد، «وكأنه كان يُقحِم قبضة يده داخل رحمي». ابتلعتْ

بريدجت ثمرة التين، لكنّها شعرتْ بحاجة بدنيّة لترك كرسي المراكب والابتعاد أكثر عن ديفيد.

مشتْ بمُحاذاة حافة الجدار فوق مصطبة الحديقة، ورغبةً منها في شرح تصرّفها المُفاجئ، فتحت ذراعيها واسعاً، وعانقت المشهد، وقالت «ما أجمله من نهار». لم يردّ عليها أحد. وتابعت استعراض المشهد العام بحثاً عن شيء آخر تقوله، فلمحتْ حركة بسيطة عند الطرف القصيّ من الحديقة. في أول الأمر ظنّتْ أنّه حيوان رابض تحت شجرة إجاص، ولكن عندما نهضَ تبيَّنَ لها أنّه طفل. سألتْ «أذاك ابنك؟ بالبنطلون الأحمر».

اقتربت إليانور منها. «نعم، إنه باتريك»، وهتفتْ «باتريك! أترغب في شرب الشاي، يا عزيزي؟»

لم يصِلها أي جواب. قالت بريدجت «ربما لا يسمعك»

قال ديفيد «طبعاً يسمع. هو فقط ضَجِر»

قالت إلينور «ربما نحن لا نسمعه»، وهتفتْ من جديد، «باتريك! لِمَ لا تأتي وتشرب الشاي معنا؟»

قالت بريدجت «إنّه يهزّ رأسه رافضاً»

قال نيكولاس «ربما شربَ الشاي مرتين أو ثلاث حتى الآن. أنتِ تعلمين كيف يكون الأولاد في مثل هذه السنّ».

قالت بريدجت، مبتسمة في وجه إلينور، «يا الله، *ما ألذّ* الأطفال!»، وبنبرة الصوت نفسها قالت، وكأنَّ طلبَها يجب أنْ يُلبَّى كجائزة لها على اعتبار الأطفال لذيذين، «إلينور، هلّا أخبرتني في أيّة غرفة سأنزل لأنني توّاقة إلى الصعود لآخذ حمّاماً وأحلّ أمتعتي».

قالت إلينور «طبعاً. دعيني أُريك»

قادت إلينور بريدجت إلى داخل المنزل.

قال ديفيد «إنَّ صديقتكَ، أعتقد أنَّ الكلمة التي تصلح لوصفها هي «حيويّة»»

قال نيكولاس «أوه، سوف تنجح في الوقت الراهن»

«لا داعي للاعتذار، إنها رائعة. هلّا تناولنا مشروباً حقيقيّاً؟»

«فكرة جيدة»

«ما رأيكم بالشمبانيا؟»

«عظيم»

أحضر ديفيد الشمبانيا وعاد وهو ينزع الرصاصة الذهبيّة عن عنق زجاجة.

قال نيكولاس طائعاً «كالكريستال»

قال ديفيد «إمّا الأفضل، أو لا شيء»

قال نيكولاس «هذا يُذكّرني بتشارلز بيوسي. كنا نشرب زجاجة من ذلك المشروب في محل ويلتون في الأسبوع الفائت وسألته إنْ كان يتذكَّر غونتر، سكرتير جوناثان كرويدن سيئ السُمعة. وهدر تشارلز –تعلم كيف هو أصمّ– «سيئ السمعة؟ تقصد، *داعر سيئ السمعة*» والتفتَ الجميع وحدَّقَ إليه».

كشّرَ ديفيد وقال «دائماً يفعلون هذا عندما يكون المرء مع تشارلز». كان تصرّفاً نموذجيّاً من تشارلز، يجب معرفة تشارلز جيّداً لكي يستحسن المرء غرابة الأمر.

كانت غرفة النوم التي خُصِّصَتْ لبريدجت مؤثّثة بقماش الشيت المطبوع بالأزهار، مع منحوتات من الآثار الرومانيّة على الجدران. وبجوار السرير كانت هناك نسخة من كتاب مدام موزلي «*حياة من المتناقضات*» وضعَتْ بريدجت فوقها كتاب «*وادي الدُمى*» الذي كانت تعكف على قراءته. وجلستْ بجوار النافذة تدخّن سيجارة حشيش، وتراقب الدخان يتسرَّب من الثقوب الصغيرة لناموسيّة البعوض. وسمعت نيكولاس يهتف من الأسفل قائلاً «*داعر سيئ السمعة*». لا بد أنهم يتذكرون أيام المدرسة. هكذا يتصرَّف الذكور.

رفعَتْ بريدجت إحدى قدميها ووضعتها على حافة النافذة. كانت لا تزال تحمل سيجارة الحشيش بيدها اليُسرى، على الرغم من أنها قد تحرق أصابعها بالسحبة التالية. وزلَقَتْ يدها اليُمنى بين ساقيها وباشرت الاستمناء.

قال نيكولاس «إنَّ ذلك يُبيِّن أنَّ كون المرء سكرتيراً لا يهمّ ما دام الساقي إلى جوارك»

فهم ديفيد التلميح. قال «الأمر هو نفسه دائماً في الحياة. ليس المهم ما تفعل، بل المهم ما تعرف»

دفع العثور على مثال مضحك على هذا القول المأثور المهمّ الرجلين إلى الضحك.

انتقلتْ بريدجت إلى السرير وانبطحتْ على وجهها على غطاء السرير الأصفر. وحالما أغمضَتْ عينيها واستأنفتْ الاستمناء، وَمَضَ في ذاكرتها التفكير في ديفيد كالصدمة الكهربائيّة السكونيّة، لكنّها أجبرتْ نفسها على التركيز بولاء على ذكرى حضور باري المُثير.

- 9 -

عندما يواجه فيكتور صعوبة في كتابته كان في المعتاد يقوم بعصبيّة بفتح جيب ساعته ومن ثم يُغلقها من جديد. كان يُشتِّت انتباهه الضجيجُ الذي تُثيره نشاطات الكائنات البشريّة الأخرى ولكن كان يفيده أنْ يُثير ضجيجاً خاصّاً به. فخلال سراديب التأمّل في أحلام يقظته كان يقوم بفتح الجيب وإغلاقه بوتيرة أبطأ، ولكنْ عندما يُثقِل عليه إحساسه بالإحباط كانت الوتيرة تصبح أسرع.

في صباح هذا اليوم ارتدى السترة المُنقّطة والواسعة التي بحث عنها بحثاً حثيثاً ليرتديها في مناسبةٍ لا تولي ببساطة للملابس أيّة أهميّة، كان يتعمَّد أنْ يبدأ مقالته حول الشرط الضروريّة والكافية للهويّة الشخصيّة، جلسَ على طاولة خشبيّة متزعزعة قليلاً تحت شجرة البلانيرة المائيّة تصفرُّ أوراقها وتنمو أمام المنزل، ومع ارتفاع حرارة الجو تعرَّى من قميصه. ومع حلول موعد الغداء لم يكن قد سجَّل أكثر من فكرة واحدة، «لقد ألَّفتُ كتباً كنتُ مُضطراً إلى تأليفها، لكنني لم أؤلِّف كتاباً واحداً يُضطر الآخرون إلى قراءته». وعاقبَ نفسه بإعداد شطيرة ليتناولها على الغداء، بدل السير حتى مطعم لا كوكيير وتناول ثلاثة أصناف من الطعام في الحديقة، تحت شمسيّة شركة ريكارد باستيس الصفراء والحمراء والزرقاء.

ورُغماً عنه ظلَّ يفكِّر في مُساهمة إلينور الصغيرة المرتبكة في صباح ذلك اليوم. «يا الله، أعني، إنْ كان ثمة ما يجري في الدماغ، فهو يمثّلك». إنْ كان هناك ما يجري في الدماغ، فهو يمثّلك: كلام سخيف، ولا يُفيد، لكنّه يطنُّ حوله كبعوضة في الظلام.

وكما يمكن لروائيّ أنْ يتساءل أحياناً لماذا يختلق شخصيات لا وجود لها ويدفعها إلى القيام بأعمال ليست لها أيّة أهميّة، يمكن لفيلسوف أنْ يتساءل لماذا يختلق حالات لا يمكن أنْ تحدث لكي يُحدِّد ما ينبغي أنْ تكون عليه الحالة. وبعد أنْ أهملَ فيكتور موضوعه طويلاً، لم يعُد مُقتنعاً تماماً بأنَّ الاستحالة هي الطريق الفُضلى المؤدّية إلى الضرورة كما يمكن أنْ يكون هو لو أنّه أعاد التفكير مؤخّراً في قضيّة ستولكن المتطرِّفة وفيها «دمَّرَ العلماء دماغي وجسدي، ومن ثم أعادوا تشكيلهما من مادّة جديدة، نسخة من الممثلة غريتا غاربو». كيف يمكن للمرء أنْ يتَّفِق مع ستولكن على أنَّه «لن تكون هناك صِلة بيني وبين الشخص الذي سينتج»؟

مع ذلك، بدا أنَّ معرفة ما سيحدث لإحساس الشخص بالهويّة إذا ما قُطِعَ دماغه إلى نصفَين موزَّعَين بين توأم متطابقَين تُعتَبَر، في الوقت الحالي فقط، وقبل أنْ يرتمي إلى تيار المناظرة الفلسفيّة، بديلاً سقيماً لوصفٍ فكريّ لمعنى أنْ تعرف هويتك.

ولجَ فيكتور إلى الداخل لإحضار أنبوبة أقراص بيسودول المألوفة لمعالجة عِسر الهضم. وكالمعتاد أكل شطيرته بسرعة فائقة، وابتلعها كما يفعل بالع السيوف. فكَّر باستحسان مُتجدِّد في ملاحظة وليم جيمس القائلة إنَّ الذات تتألَّف في الأساس من «حركات خاصة في الرأس وبين الرأس والنحر»، على الرغم من أنَّ الحركات الخاصّة في الموقع الأكثر انخفاضاً قليلاً في معدته وأحشائه تُعتبَر على الأقلّ شخصيّة.

عندما جلسَ فيكتور من جديد تخيَّلَ نفسه يفكِّر، وحاولَ أنْ يُركِّب هذه الصورة على فراغه الداخليّ. إنْ كان في الأساس آلة مُفكِّرة، فهو يحتاج إلى مَنْ يخدمه. إنَّ ما شغله في ذلك اليوم ليس مشكلات الفلسفة بل المشكلة مع الفلسفة. ومع ذلك كم من مرَّة أصبح الاثنان متطابقَين. لقد قال فيتغنشتاين إنَّ مُعالجة الفيلسوف لمشكلةٍ ما أشبه بمعالجة مَرَض. ولكن أيّة مُعالجة؟ بالتطهير؟ باستخدام العلقات؟ بمضادات الجراثيم للقضاء على أمراض اللغة؟ بأقراص معالجة عسر الهضم، هكذا فكَّرَ فيكتور، وهو يتجشّأ بهدوء، لكي يُساعد على تفتيت كتلة الإحساس العجينيّة؟

نحن نعزو الأفكار إلى المفكّرين لأنّنا هكذا نتكلّم، لكنَّ الأشخاص ليسوا في حاجة إلى الادّعاء بأنهم المفكّرون الذين خرجوا بتلك الأفكار. ومع ذلك، كما فكَّرَ فيكتور بكسل، لِمَ لا نرضخ لمطالب العامّة في هذا المجال؟ أما بالنسبة إلى الأدمغة والعقول، هل هناك حقاً أيّة مشكلة بين ظاهرتين مختلفتين في الطبقة، عمل الدماغ والوعيّ، اللتين تحدثان في وقتٍ واحد؟ أم أنَّ المشكلة تكمنُ في الطبقات؟

سمعَ فيكتور من أسفل التلّ صوت باب سيارة يُصفَع. لا بد أنّها إلينور توصِلُ آنْ إلى أسفل الممرّ. فتح فيكتور ساعة جيبه، وتفقّد الوقت، ثم أغلقها من جديد. ماذا أنجزَ؟ تقريباً لا شيء. لم يكن ذلك اليوم أحد تلك الأيام غير المُنتِجة التي يكون خلالها مُشوّشاً بفعل الوفرة والجوع، كحال حمار بوريدان[1]، بين كمّيتين متعادلتين من التبن المُغذّي. كان افتقاره إلى التقدُّم اليوم أعمق من ذلك.

راقبَ آنْ تنعطف عند آخر زاوية الممر، برّاقة بصورة مؤلمة وهي بثوبها الأبيض.

قالت «مرحباً!»

قال فيكتور بكآبة صبيانيّة، «مرحباً»

«كيف الحال؟»

«أوه، كان تدريباً شديد العقم، لكنني أعتقد أنَّ من الجيد ممارسة التدريب مهما كان»

قالت آنْ «لا توقِف ذلك العمل العقيم، إنه تجارة مُربحة. أشبه بالدراجات التي لا تذهب إلى أيّ مكان، وقطع مسافة طويلة بلا هدف بدوران شريط من المطاط، وأغراض ثقيلة لا *تحتاج* حتى إلى نقلها».

بقيَ فيكتور ملازماً للصمت، يُحدِّقُ نحو الأسفل من أجل الإدلاء بجملة واحدة. وَضَعَتْ آنْ يديها على كتفيه. «إذن ليس هناك كلام واضح حول هويتنا؟»

1- حمار بوريدان: حالة تمثيليّة في الفلسفة لطرح مسألة الإرادة الحرَّة، وفيها يظهر حمار جائع وظمآن أمام خيارَين بين كمية من الشعير ودلو من الماء.

«أخشى أنّه لا يوجد. إنَّ الهويّة الشخصيّة، طبعاً، وهم، محض وهم. لكنني وصلتُ إلى هذه النتائج بالأسلوب الخطأ»

«وماذا كان؟»

«عدم التفكير في الأمر»

«ولكن أليس هذا ما يقصده الإنكليز عندما يقولون «لقد كان شديد التفلسف في تناول الموضوع»؟ ويقصدون بذلك أنَّ شخصاً ما توقّفَ عن التفكير في شيء ما». أشعلتْ آنْ سيجارة.

قال فيكتور بصوت هادئ، «ومع ذلك، لقد ذكَّرني تفكيري اليوم بطالب مولع بالقتال مُقبل على التخرُّج كنتُ أُعلِّمه ذات يوم، قال إنَّ المدرسين الخصوصيين فشلوا في اجتياز الامتحان الشفوي».

جلستْ آنْ على حافة طاولة فيكتور وخلعتْ إحدى فردتَي حذائها الكنفا بطرف إصبع القدم الأخرى الكبير. كانت تحب أنْ ترى فيكتور يعمل من جديد، حتى من دون أنْ يحقق نجاحاً. ووضَعَت قَدَمها الحافية على رُكبته وقالت، «أخبرني، يا بروفسور، هل هذه قَدَمي *أنا*؟»

قال فيكتور، وهو يرفع قَدَمها بيده، «حسن، إنَّ بعض الفلاسفة قد يقولون في ظل ظروفٍ معيَّنة إنَّ هذا يُحدِّدُه شعور القَدَم بالألم»

«وما خطب القدم المسرورة؟»

قال فيكتور، مُعتبراً هذا سؤالاً سخيفاً، «حسن، في الفلسفة كما في الحياة، السرور في الغالب هو هلوسة. والألم هو مفتاح التملُّك». فتحَ فمه واسعاً، كرجلٍ جائع يقترب من شطيرة، لكنّه عاد فأغلقه من جديد، وقبَّلَ كل إصبعٍ في قدمها برفق.

حرَّر فيكتور قَدَمها فقامت آنْ بخلع فردة الحذاء الأخرى. قالت، وهي تتوجّه بحذر فوق الحصى الحادّة والدافئة نحو باب المطبخ، «سأعود في الحال».

فكَّرَ فيكتور برضا في أنّه في مجتمع الصين القديمة كانت اللعبة الصغيرة التي مارسها مع قَدَم آنْ تُعتبَر مألوفة إلى أقصى مدى. كانت القَدَم المتحرِّرة

تمثّل بالنسبة إلى الصينيين درجة من الاستسلام لا يمكن للأعضاء التناسليّة أنْ تُحقّقه. لقد أثاره التفكير في المدى الذي قد تصل إليه شِدَّة رغبته في زمنٍ آخر، وفي مكان آخر. وتذكّرَ أبياتاً من مسرحيّة «*يهودي مالطا*» تقول «لقد اقترفتَ الزنا: لكنَّ ذلك وقع في بلدٍ آخر، ثم إنَّ الفتاة ماتت». في الماضي كان غاوياً نفعيّاً، هدفه زيادة كمّ السرور *العامّ*، ولكن منذ بداية علاقته الغراميّة بآنْ أصبح وفيّاً بصورة غير مسبوقة. وبما أنّه لم يُمارس الغواية الجسديّة من قبل، كان دائماً يعتمد على البراعة في إغواء امرأة. ولما ازداد قُبحاً وشُهرة، أضحتْ أداة الإغواء، وكلامه، وأداة الامتنان، وجسده، في حالة شائنة متفاقمة من التناقُض. وقد ألقى الأسلوب التقليديّ لمحاولات الإغواء الجديدة الضوء على هذا الجانب من مشكلة العقل - القلب بصورة أكثر خشونة من العلاقة الحميمة، وقرَّرَ أنّه ربما حان الوقت لكي يكون في البلد نفسه مع الفتاة الحيّة. ولم يكن التحدّي يكمن في استبدال الغياب الذهنيّ بالغياب الجسديّ.

خرجَتْ آنْ من المنزل حاملة كأسين من عصير البرتقال. أعطتْ واحداً منهما إلى فيكتور.

سألته «فيمَ كنتَ تفكّر؟»

كذب فيكتور «فيما إذا ستكونين الشخص نفسه وأنتِ في بلدٍ آخر»

«حسن، اسأل نفسك، هل كنتَ ستداعب أصابع قدمي لو أنني كنتُ أشبه قاطع أخشاب كنديّ؟»

قال فيكتور بولاء «نعم إذا علِمتُ أنّه أنتِ *من الداخل*»

«داخل الشخص الذي ينتعل حذاءً طويل العنق ومُلبَّساً بالفولاذ؟»

«بالضبط»

تبادلا الابتسام. وتناول فيكتور جرعة كبيرة من عصير البرتقال. قال «ولكن أخبريني، كيف كانت رحلة الاستكشاف مع إلينور»

«في طريق العودة وجدتُ نفسي أعتقد أنَّ كل فرد من المجتمعِين لتناول العشاء في هذه الليلة ربما قال كلاماً غير لائق بحق كل شخص آخر. أعلمُ أنكَ ستعتقد أنّ هذا سلوك بدائيّ وأميركيّ يصدر عني، ولكن لماذا يقضي الناس أمسيةً مع أناسٍ أمضوا النهار في إهانتهم؟»

«لكي يُصبح لديهم مادة مُهينة يقولونها عنهم في اليوم التالي»

شهقَتْ آن «آه، *طبعاً، غداً يومٌ آخر*»، ثم أضاف «يختلف عنه كثيراً ومع ذلك يُشبهه كثيراً»

بدا الانزعاج على فيكتور. «هل كانت كلٌّ منكن تُهين الأخرى وأنتنَّ في السيارة، أم كنتنَّ فقط تُهاجمن ديفيد وأنا؟»

«لا هذا ولا ذاك، ولكن كما نال كل شخص الآخر المهانة كنتُ أعلم أننا سوف نتفكَّك إلى مركّبات أصغر فأصغر، إلى أنْ يتعامل كل شخص على حِدة مع كل شخص آخر»

«ولكن هذا هو تعريف السِحر: أنْ يكون المرءُ خبيثاً في تعامله مع الجميع إلّا مع الشخص الذي يرافقه، الذي يتوهَّج حينئذٍ بامتياز الاستثناء»

قالتْ آنْ «إنْ كان هذا هو تعريف السِحر فإنه قد انكسر في هذه المناسبة، لأنني شعرتُ بأنَّ لا أحد منّا كان مستثنى»

«هل ترغبين في التشديد على نظريتك بقول شيء مُسيء عن أحد رفاقك من ضيوف العشاء؟»

قالتْ آنْ، وهي تضحك، «حسن، بما أنكَ قلتَ هذا فإنني اعتبرتُ أنَّ نيكولاس برات شخص بغيض جداً»

شرح فيكتور قائلاً «أفهم ما تعنين. إنَّ مشكلته هي أنّه يريد الانخراط في السياسة، ولكنْ كدَّرَهُ ما اعتُبِرَ فضيحة جنسيّة قبل بضع سنوات وربما ما زال يُعتبَر الآن ما يُسمّى بـ«الزواج المفتوح». إنَّ معظم الناس ينتظرون ريثما يُصبحون وزراء لكي يُدمّروا مستقبلهم السياسيّ بفضيحة جنسيّة، لكنَّ نيكولاس نجح في فعل ذلك عندما كان لا يزال يحاول أنْ يُثير إعجاب المكتب الرئيسيّ بخوض انتخابات فرعيّة لنيل مقعد عمّاليّ آمن»

قالت آن «هذا أمر سابق لأوانه، هه. ماذا اقترفَ بالضبط ليستحق إقصاءه من الجنّة؟»

لقد ضبطته امرأةٌ كان متزوجاً منها وهو في السرير مع امرأتين ليس متزوجاً منهما، وقرَّرتْ ألّا «تدعمه»

قالت آنْ «يبدو أنّه لم يكن هناك متسعٌ لها، ولكن كما تقول، كان التوقيتُ سيئاً. ففي تلك الأيام لم يكن في وسعك أنْ تظهر على شاشة التلفزيون وتشرح كم كانت تجربة مُحرِّرة حقاً»

قال فيكتور بدهشة ساخرة، وهو يضمّ رؤوس أصابعه بطريقة مدرسيّة لكي يُشكِّل قوساً بيديه، «ربما ما زالت هناك مناطق ريفيّة نائية معيَّنة في إنكلترا يحكمها الحزب المُحافِظ لا تمارسُ فيها كل القيِّمات في لجنة الانتقاء، حتى هذا اليوم، الجنس الجماعيّ».

جلستْ آنْ على رُكبة فيكتور. «فيكتور، هل يشكِّل شخصان جماعة»

«أخشى أنهما لا يشكّلان إلّا جزءاً من جماعة»

قالت آنْ مرتعبة «تعني أننا كنا نمارس الجنس كجزء من جماعة؟» ونهَضَتْ من جديد، وهي تعبث بشَعر فيكتور، «هذا فظيع»

تابع فيكتور بهدوء «أعتقد أنّه عندما دُمِّرَتْ مطامح نيكولاس السياسيّة في وقتٍ مُبكّر جداً، أصبحَ غير مُبالٍ ببدء مُستقبل مهنيّ واعتمدَ على ميراثه الضخم»

قالت آنْ«ما زال لا يستطيع أنْ ينجح في الوصول إلى لائحة ضحاياي. وكونه ضُبِطَ في السرير مع فتاتين لا يعني أنّه في غرفة الإعدام في معتقل أوشفيتز»

«إنّ لديك معايير عالية»

قالتْ آنْ «هذا صحيح وغير صحيح. لا يكون الألم قليلاً إذا كان موجِعاً، ولكن أيّ ألم يكون قليلاً جداً إذا تمّت العناية به. على أي حال، هو لا يتألَّم كثيراً، كانت في صحبته فتاة مُخدَّرة. كانت تتصرف بمزاجٍ متقلِّب وهي في المقعد الخلفي للسيارة. واثنتان على شاكلتها ليستا كافيتين، كان عليه أنْ يحصل على ثلاث»

«ماذا كان اسمها؟»

«بريدجت لا أتذكّر كنيتها. كان اسماً من تلك الأسماء الإنكليزيّة غير المُقنِعة كثيراً كإحدى ألعاب الأطفال»

تقدَّمتْ آنْ بسرعة، كانت مُصمّمة على ألّا تدع فيكتور يتوه وسط انهماكه

في التفكير في الموقع «المناسب» لبريدجيت. «إنَّ أغرب ما حدث لنا في هذا اليوم كان زيارتنا لـ Le Wild Ouest»

«ولماذا ذهبتم إلى هناك بحق الله؟»

«حسبما فهمت ذهبنا إلى هناك لأنَّ باتريك رغبَ في الذهاب إلى هناك، لكنَّ إلينور كانت لديها أولويّة»

«لا أظنكِ تعتقدين أنّها ربما أرادتْ أنْ تتبيَّن إنْ كان أخذُ ابنها إلى ذلك المكان شيئاً مُسلّياً؟»

«في مدينة دودج المتطورة، يجب أنْ تكون سريعاً في إشهار مُسدسك»، قالت آنْ هذا، وقامت بحركة إشهار مُسدَّس وهميّة.

قال فيكتور بنبرة جافة «يبدو أنكِ اندمجتِ في روح المكان»

استأنفَت آنْ قائلة «لو كانت تريد أنْ تأخذ ابنها إلى هناك، لرافقنا. ولو أنّها أرادتْ أنْ تعرف إنْ كان «المكان مُسلّياً»، لأخبرها باتريك بذلك».

لم يرغب فيكتور في مجادلة آنْ. فغالباً ما تحمل آراءً قويّة حول الأوضاع الإنسانيّة التي لا تهمّه حقاً، إلّا إذا كانت تمثّل مَبدأً أو تحكي أمثولة، وكان يُفضِّل أنْ يتنازل لها عن هذه الأرضيّة الصلبة، مهما تطلَّبَ مزاجه من عَرضٍ للتساهُل. قال «لم يُترَك لنا أي شخص على مائدة العشاء هذه الليلة لنذمّه، ما عدا ديفيد، ونحن نعرف رأيكِ فيه»

«وهذا يُذكِّرني بأنني يجب أنْ أقرأ على الأقلّ فصلاً من كتاب «*القياصرة الاثنا عشر*» لكي أُعيده إليه هذا المساء»

اقترحَ فيكتور «اقرئي الفصول التي تتناول نيرون وكاليغولا. وأنا واثق من أنهما المُفضّلان لدى ديفيد. أحدهما يمثّل ما يحدث عندما تجمعين بين الموهبة الفنيّة العاديّة مع القوة المُطلَقة. والثاني يُبيِّن كيف أنّه من المحتوم تقريباً بالنسبة إلى الذين شعروا بالرعب أنْ يُصبحوا مُرعبين، حالما تسنح لهم الفرصة لذلك»

«ولكن أليس هذا مفتاح يؤدي إلى ثقافة عُظمى؟ لقد أمضيتَ فترة مراهقتك وأنتَ تنتقل من مرحلة رعب إلى أخرى أشدّ رُعباً، من دون وجود امرأة معك لتسلّيك»

قرَّر فيكتور أنْ يتجاهل استعراض آنْ الأخير لموقفها المُملّ من المدارس الحكوميّة الإنكليزيّة. وتابع بصبر «الآسر في شخصيّة كاليغولا هو أنّه قصد أنْ يكون إمبراطوراً قِدوة، وخلال الأشهر القليلة الأولى من فترة حُكمِهِ تلقّى الثناء على شهامته. لكنَّ اضطرار المرء إلى تكرار ما كان قد مرَّ به يُشبه قوة الجاذبيّة، ويستلزم التخلُّص منه أدوات خاصّة»

سُرَّتْ آنْ بسماع فيكتور يُدلي بهذا التعميم النفسيّ الصريح. ربما إذا مات الناس مدَّة طويلة بالقدر الكافي فإنهم يعودون إلى الحياة من أجله.

تابع فيكتور قائلاً «أنا أكره نيرون لأنه دفعَ سينيكا إلى الانتحار، وعلى الرغم من أنني أعي تماماً العداوة التي يمكن أنْ تنشأ بين تلميذ ومُعلِّمه، فينبغي أيضاً إبقاؤها ضمن حدود» وضحك ضحكاً خافتاً.

«ألم ينتحر نيرون نفسه، أم أنَّ ذلك حدث فقط في فيلم *نيرون*»؟

عندما تعلَّق الأمر بالانتحار فإنَّه أظهر من الحماس أقلّ مما أبداه لدفع الآخرين إليه. وجلس مدة طويلة متسائلاً أي جزء من جسمه «المُغطّى بالبثور والكريه الرائحة» يجب ثقبه، وهو يولول «فناناً ميتاً وعظيماً جداً!»

«وكأنكَ كنتَ موجوداً هناك»

«أنتِ تعلمين كيف يقرأ المرء الكتب في شبابه»

قالت آنْ «نعم، هكذا أشعر عندما أقرأ *فرانسيس البغل المتكلِّم*[1]»

نهضَتْ عن الكرسي المجدول الذي يصرّ. «أعتقد أنَّ من الأفضل أنَّ نناقش "عهد الشباب" قبل موعد العشاء». وانتقلتْ لتكون إلى جوار فيكتور. قالت برفق «اكتب لي جُملة واحدة قبل أنْ نذهب. ممكن؟»

كان فيكتور يستمتع بالتودُّد إليه. رفع نظره إليها كطفل مُطيع. قال بتواضُع «سوف أحاول»

انتقلَتْ آنْ إلى جو المطبخ الكئيب وارتقت الدَّرَج اللولبيّ. شعرتْ باستمتاعٍ بارد لانفرادها بنفسها للمرة الأولى منذ الصباح الباكر وبالرغبة في

1- عنوان لمسلسل كوميدي تلفزيوني بطله فرانسيس الحمار المُتكلّم، عُرِضَ في حقبة خمسينيات القرن الماضي، وقصته مأخوذة عن رواية بعنوان «فرانسيس» عام 1946 - المترجم.

الاستحمام في الحال. كان فيكتور يحبّ أنْ يتمرَّغ في حوض الاستحمام، وأنْ يتحكَّم بالصنابير بإصبع قدمه الكبير، وكانت تعلم كم يُصبح خائب الأمل بصورة غير عقلانيّة إذا انقطع تدفّق المياه في أثناء تلك المراسِم المهمّة. ثم، إذا استحمّتْ الآن تستطيع أنْ تستلقي على سريرها وتقرأ مدة ساعتين قبل أنْ تخرج لتناول وجبة العشاء.

كان كتاب «*وداعاً برلين*»[1] يتبوّأ قمة كمية الكتب بجوار سريرها، وتساءلتْ آنْ كم ستكون ممتعة إعادة قراءة هذا الكتاب بدل الانغماس في حيوات القياصرة المروّعة. وقفز تفكيرها من برلين ما قبل الحرب عائداً إلى ملاحظةٍ كانت قد أدلتْ بها عن غرفة الإعدام في مُعتقل أوشفيتز. وتساءلتْ، هل كانت تستسلم لتلك الحاجة الإنكليزيّة إلى أنْ تكون فكِهة؟ وشعرتْ بأنها ملوَّثة ومُرهَقة بفعل فصل صيف أمضته في حرق وسائلها الأخلاقيّة إكراماً لتأثيرات صغيرة ومبتذلة. وشعرت بأنَّ السلوكيات الإنكليزيّة الكسول والمصقولة، والتوق إلى التهكُّم الواقي، والخوف المُريع من أنْ تكون «مُضجِرة»، وملل الأساليب التي كانت تلك السلوكيات تتفادى بها بلا هوادة وبدقّة هذا المصير، قد أفسدتها برهافة.

فوق كل شيء كان تذبذب فيكتور أمام تلك القيَم هو الذي أرهقها. لم يعد في استطاعتها أنْ تعلم إنْ كان يعمل عميلاً مزدوجاً، أم كاتباً جدّياً يدّعي بأنّه من «سكّان التل»[2] –الذين لا يمثّل آل ميلْروز إلاّ نسخة باهتة منهم– كان مُعجباً مُخلِصاً بالبطلان العفويّ لحياتهم. أو ربما هو عميل ثلاثي، متظاهراً أمامها بأنه لم يقبل الرشوة التي تمثّلَتْ بقبوله عضواً في عالمهم.

اختفَتْ الشمس باكراً خلف سطح المنزل الضيِق والمرتفع. ارتدى فيكتور من جديد سترته عند طاولته تحت شجرة الدلب. وشعر بالأمان داخل كتلة سترته وصوت آنْ البعيد وهي تستحمّ. كتبَ جُملةً بيده العنكبوتيّة، ومن ثم كتبَ أخرى.

1- للروائي كريسنوفر إيشروود.

2- المقصود بهم عليّة القوم والمتنفذين وأكابر المجتمع – المترجم.

- 10 -

إنْ كان ديفيد قد كافأ نفسه بأهمّ لوحة في المنزل، فإنَّ إلينور قد ضمِنَتْ على الأقلّ أكبر غرفة نوم. وعلى الطرف القصيّ من الرواق، كانت ستائرها منسدلة طوال النهار لحماية عدد كبير من اللوحات الإيطاليّة الهشّة من قوة الشمس المُستنزِفة.

تردَّد باتريك عند مدخل باب غرفة نوم أمّه، في انتظار أنْ تنتبه لوجوده. وقد جعلت العتمة الغرفة تبدو أوسع، خاصة عندما يُحرِّك هبوب النسيم الستائر وينتشر الضوء غير الثابت ظلالاً على الجدران الممتدّة. كانت إلينور جالسة عند طاولة مكتبها وظهرها نحو باتريك، تُحرِّر شيكاً لصالح صندوق جمعيّة «أنقذوا الأطفال» المُفضَّلة لديها. لم تسمع ابنها وهو يلج الغرفة إلى أنْ وقفَ بجوار كرسيها.

قالت «مرحباً، عزيزي»، بحبٍّ شديد بدا أشبه بمكالمة خارجيّة، «ماذا فعلتَ هذا اليوم؟»

قال باتريك، وهو مُطرِقٌ إلى الأرض، «لا شيء»

سألته إلينور بشجاعة «هل ذهبتَ في نزهة مع البابا؟». شعرتْ بأنَّ أسئلتها غير مُلائمة، لكنّها لم تستطع أنْ تتغلَّب على رعب تلقّي أجوبة هزيلةٍ عليها.

هزَّ باتريك رأسه نفياً. اهتزَّ غصن شجرة في الخارج، وراقبَ ظلّ أوراقه تومض من فوق عمود الستائر. انتفختْ الستائر بوهن ومن ثم انهارتْ من جديد، كرئتين مهزومتين. وعلى طول الرواق صُفِعَ بابٌ. نظر باتريك إلى الفوضى التي تعمّ طاولة مكتب والدته. كانت مُغطّاة برسائل، وأغلفة رسائل، وقُصاصات من الورق، وأربطة من المطاط، وأقلام رصاص وفيض

من دفاتر شيكات بألوانٍ متنوعة. وكانت زجاجة شمبانيا مفتوحة تقفُ بجوار منفضة السجائر مترعة.

سألها «هل آخذ الكأس معي إلى أسفل؟»

قالت إلينور باندفاع «كم أنت صبيّ لبِق. يمكنكَ أنْ تأخذه معك إلى أسفل وتعطيه لإيفيت. سيكون ذلك لطفاً إضافياً منك»

أومأ باتريك برأسه إيجاباً برصانة وحمل الكأس. تعجَّبتْ إلينور من التحسُّن الذي طرأ على سلوك ابنها. ربما الناس يولَدون بطريقة ما والأهمّ هو ألّا نُغالي في التدخُّل في حياتهم.

قالت بصوتٍ قويّ «شكراً لك، يا عزيزي»، متسائلة ماذا كان متوقَّعاً منها أنْ تفعل، وهي تراقبه يخرج من الغرفة، ممسكاً الكأس من عنقه بحزم بيده اليُمنى.

بينما باتريك يهبط الدَّرَج، تناهى إلى سمعه حديث يجري بين والده ونيكولاس من الطرف المقابل من الرواق. وفجأة خشيَ أنْ يسقط، وبدأ يهبط كما كان يفعل وهو صغير، واضعاً إحدى قدميه أولاً، ومن ثم يُتبعها بالأخرى نحو الأسفل ويضعها بجوار الأخرى. كان عليه أنْ يُسرِع خشية أنْ يُفاجئه والده، ولكن إذا أسرع فقد يسقط. سمعَ والده يقول، «سوف نعرض الأمر عليه ونحن على مائدة العشاء، وأنا متيقّن من أنّه سوف يوافق»

تجمَّد باتريك في مكانه على الدَّرَج. كانا يتكلَّمان عنه. سوف يُجبرانه على الموافقة. شعر وهو يُطبقُ بحزم على عنق الكأس بموجة من الإحساس بالخزي والرعب. رفعَ بصره إلى اللوحة المُعلَّقة على الدَّرَج وتخيَّلَ إطارها يندفع عبرِ الهواء وتنغرز زاويته الحادّة في صدر والده؛ ولوحة أخرى تندفع وهي تصفِّر على طول الرواق وتقطَع رأس نيكولاس.

قال نيكولاس «سوف أقابلك عند أسفل الدَّرَج بعد ساعة أو اثنتين»

قال والده «اتفقنا»

سمعَ باتريك باب نيكولاس يُغلَق، فأصغى بانتباه لوقع خطوات والده وهو يسير على طول الرواق. أهو ذاهب إلى غرفة نومه، أم يهبط الدَّرَج؟ أراد باتريك أنْ يتقدَّم، لكنَّ القدرة على الحركة خذلته من جديد. حبسَ أنفاسه عندما توقّفَ وقع الخُطى.

في الرواق توزَّعت رغبة ديفيد بين القيام بزيارة إلينور، التي كان دائماً حانقاً عليها في المبدأ، وبين أنْ يذهب ليستحمّ. كان مفعول الأفيون الذي قضى على ألم جسمه الدائم قد أوهنَ رغبته في إهانة زوجته. وبعد مرور بضع لحظات أمضاها في التفكير في اتخاذ قراره توجه إلى غرفة نومه.

كان باتريك يعلم أنّه لم يكن مرئيّاً من قمة الدَّرَج، ولكن عندما سكتَ وقع الأقدام حاولَ أنْ يستبعد فكرة والده بتركيزٍ شديد. ظلَّ باتريك، حتى بعد أنْ ولجَ ديفيد غرفة نومه بفترة طويلة، لا يتقبَّل فكرة زوال الخطر. وعندما أرخى قبضة يده على الكأس، أفلتتْ قاعدة الكأس وعنقه من يده وانكسر على الدَّرَجة التي تحته. لم يفهم باتريك كيف انكسر الكأس. عندما تركَ ما تبقّى من الكأس من يده رأى جرحاً صغيراً في وسط راحة يده. ولم يُدرك ما حدث إلّا بعد أنْ رآه ينزف دماً، وشعر أخيراً بوخز الجرح الحادّ، بعد أنْ علِمَ أنّه لا بد يتألَّم.

شعر برعبٍ شديد من تلقّي العقاب بسبب إسقاط الكأس. لقد تفتَّتَ وهو في يده، لكنّهم لن يُصدقوا هذا أبداً، سوف يقولون إنّه أسقطه. أخذ يخطو بحذر بين شظايا الزجاج على الدَّرَجة التالية ويُتابع الهبوط حتى أسفل الدَّرَج، لكنّه لم يعلم ماذا يفعل بنصف الكأس الذي في يده، فارتقى عائداً ثلاث دَرَجات وقرَّرَ أنْ يقفز. ارتمى إلى الأمام أقوى ما في استطاعته، لكنّه حالما وصل الأرض تعثَّرَ، تاركاً ما تبقّى من الكأس يطير من يده وتهشَّمَ على الجدار. تمدَّد على الأرض منبطحاً ومصدوماً.

عندما سمعت إيفيت باتريك يصرخ، تركت مغرفة الشوربة، ومسحت يديها بسرعة بمئزرها، وهرعتْ إلى الرواق.

قالت مؤنِّبةً «*Ooh –la– la, tu vas te casser la figure un de ces jours*» (أوه –لا– لا، ذات يوم سوف تكسر وجهك). أفزعها عجز باتريك، ولكن بينما هي تقترب سألته أيضاً برفق، «*Ou est – ce que ca te fait mal, pauvre petit ?*» (أم أنكَ تتألَّم أيّها المسكين الصغير؟)

كان باتريك ما يزال مصدوماً من عزم السقطة وأشار إلى صدره حيث تلقّى صدمة السقوط. رفَعَتْه إيفيت، وهي تتمتم «*Allez, c'est pas grave*»

(هيا، الأمر ليس خطيراً)، وقبَّلتْه على وجنته. واستمر في البكاء، ولكنْ بشدّة أقلّ. امتزجَ إحساس متشابك من العَرَق والسن الذهبيّ ورائحة الثوم مع متعة كونه محمولاً، ولكنْ عندما بدأتْ إيفيت تدعك ظَهرَه، تلوّى بين ذراعيها وتملَّصَ منها.

فكَّرتْ إلينور وهي على طاولة مكتبها، «أوه يا إلهي، لقد سقط إلى أسفل الدَّرَج وجرحَ نفسه بالكأس الذي أعطيته إيّاه. إنَّ الذنب ذنبي من جديد». أفزعها صراخ باتريك وهي جالسة على كرسيها كالرمح، وهي تفكّر في مدى رعب موقفها.

استجمعتْ شجاعتها لتخرج إلى منبسَط الدَّرَج، ولا يزال الإحساس بالذنب والخوف من انتقام ديفيد يستولي عليها. وعند أسفل الدَّرَج وجدتْ إيفيت جالسة بجوار باتريك.

قالت إيفيت «*Rıen de casse, Madame, ill a eu peur en tombant, c'est tout*» (لم ينكسر شيء، يا مدام، لقد خاف ووقع، هذا كل شيء)

قالت إلينور «*Merci, Yvette*»

قالت إيفيت في نفسها، لم يكن تصرّفاً عمليّاً منها أنْ تشرب كل ذلك المقدار، وذهبت لكي تُحضِر لقّاطة كناسة وفرشاة.

جلستْ إلينور بجوار باتريك، لكنَّ قِطعاً من الزجاج غرزتْ في مقعدتها، هتفت «آخ»، ونهضَتْ من جديد لكي تنفض خلفيّة ثوبها.

قالت لباتريك «الماما جلسَتْ على قطعة من الزجاج». نظر إليها باكتئاب.

«ولكنْ لا عليك من هذا، أخبرني عن سقوطك»

«لقد قفزتُ من علوّ مرتفع جداً»

«وأنت تحمل الكأس، يا عزيزي؟ كان يمكن لذلك أنْ يكون خطراً جداً»

قال باتريك غاضباً «بل كان خطراً»

قالت إلينور، وهي تمدّ يدها بخجل لكي تُعيد إلى الخلف حواف شعر بنيّ خفيف عن جبينها. قالت، شاعرة بالفخر لأنها تذكّرتْ، «سوف أخبرك ماذا سنفعل، يمكننا أنْ نذهب إلى مدينة الملاهي غداً، إلى الـ Le Wıld Ouest، ألا تحبّ هذا؟ لقد ذهبتُ إلى هناك اليوم مع آنْ لكي نرى إنْ كان

سيعجبني، وكان هناك الكثير من رعاة البقر ومن الهنود ومن الركوب. هل نذهب في الغدّ؟»

قال باتريك «أريد أنْ أرحل بعيداً»

في جناحه الجدير بناسك، هرع ديفيد في الباب المجاور وفتح صنابير الحمّام عن آخرها، إلى أنْ غطّى هدير الماء على الضجيج المتنافِر الذي أصدره ابنه. ونثر أملاح الاستحمام في الماء من صَدَفَةٍ وقال في نفسه كم كان شيئاً لا يُطاق ألّا يحصل على مربّية في هذا الصيف لتُبقي الولد هادئاً في فترات المساء. ولم يكن لدى إلينور أدنى فكرة عن أسلوب تنشئة الطفل.

بعد أنْ توفيَتْ مربّية باتريك، توافد على منزل لندن موكبٌ كئيب من الفتيات الأجنبيات. وانداليات يشعرن بالحنين إلى الوطن، غادرنَ باكيات بعد بضعة أشهر، وأحياناً حبالى، لم يُحسنَّ الإنكليزيّة التي جئن لكي يتعلَّمنها. وفي النهاية كان باتريك غالباً يُعهَد إلى رعاية كارمن، الخادم الإسبانيّة الكئيبة التي لم تكن تزعج نفسها بحرمانه من أي شيء. كانت تقيم في الطابق التحتي، وأوردتها المتّسعة تُبدي احتجاجاً مع كل خطوة تتخذها وهي ترتقي الطوابق الخمسة ونادراً ما كانت تصل إلى غرفة الطفل. وكان على المرء بصورةٍ ما أنْ يشعر بالامتنان لأنَّ تلك الفلاحة الحزينة لم يكن لها إلّا أقل تأثير على باتريك. ومع ذلك، كان شيئاً مُضجراً العثور عليه على الدَّرَج ليلة بعد أخرى، هارباً من خلف البوابة الخشبيّة، وينتظر إلينور.

كانوا غالباً ما يعودون في وقتٍ متأخر من منزل آنابل إلى درجة أنَّ باتريك سأل بقلق ذات مرة، «مَنْ هي آنّابل؟» فضحك كل مَنْ كان في الغرفة وتذكَّر ديفيد أنَّ باني وارن قال، بذلك الافتقار إلى اللباقة الذي ينطوي على طيبة قلب وكان محبوباً جداً من الجميع تقريباً بسببها، «إنها فتاة صغيرة محبوبة جداً ووالداك يكنّان لها حبّاً خاصّاً». وسنحت الفرصة لنيكولاس ليقول «أعتقد أنَّ الطفل يمرّ بتجربة التنافس بين الأطفال»

عندما كان ديفيد يعود في وقتٍ متأخِّر من الليل ويجد باتريك جالساً على الدَّرَج كان يأمره بالعودة إلى غرفته، ولكن بعد أنْ يأوي إلى السرير

كان أحياناً يسمع صرير الباب عند منبسَط الدَّرَج، ويعلمْ أنَّ باتريك تسلّل إلى غرفة أمّه ليُحاول أنْ يستمدّ بعض العزاء من ظهرها المُذهل، وهي راقدة منطوية حول نفسها وغير واعية على حافّة فراشها. لقد شاهدهما في الصباح كلاجئين في غرفة انتظار مرفّهة.

أغلقَ ديفيد الصنابير واكتشفَ أنَّ الصراخ توقّف. والصراخ الذي لا يستمرّ إلّا مدَّة كافية لملء حمّام لا يمكن اعتباره أمراً خطيراً. اختبر ديفيد درجة حرارة الماء بقَدَمه. كان شديد الحرارة، لكنّه أقحمَ ساقه أعمق إلى أنْ غطى الماءُ ذقنَه الخالية من الشَعر، وبدأت الحرارة تلسعه. وحثّه كل عَصَب في جسمه على مغادرة الحمّام اللاهب، لكنّه استدعى منابع احتقاره الأعمق وأبقى على ساقه مغمورة لكي يُثبتْ سيطرته على الألم.

وقف متباعد الساقَين في حوضِ الاستحمام؛ إحداهما تحترق، والأخرى باردة على أرضيّة الفلّين. ولم يتطلَّب منه أي مجهود لإحياء الغضب الذي شعر به قبل ذلك بساعة من الزمن عندما لمحَ بريدجت راكعة تحت الشجرة. كان جليّاً أنَّ نيكولاس أخبر تلك العاهرة الحمقاء عن حادثة التين.

أوه، يا لها من أيام سعيدة، وتنهّدَ، إلى أين ذهبتْ؟ الأيام حين قامت خلالها زوجته القذرة الآن وكانت ما تزال مُطيعة باندفاع وتوّاقة لإرضائه، بالأكل بكل هدوء بين التين العفِن.

رفع ديفيد ساقه الأخرى عبر حافة الحوض وغمرها في الماء، آملاً في أنْ المزيد من الألم سوف يُحفزّه على التفكير في الانتقام الصحيح الذي ينبغي أنْ يمارسه على نيكولاس في أثناء وجبة العشاء.

قال نيكولاس ساخراً من بريدجت، حالما سمعَ باب غرفة نوم ديفيد يُغلَق، «لماذا فعلتِ ذلك بحق الله؟»

«لِمَ أنت منزعج؟»

«منكِ، وأنت جاثية على أربع»

قالتْ بريدجت من السرير وهي ناعسة، «لم أكن مُضطرّة. فعلتُ ذلك فقط لأنكَ كنتَ توّاقاً لتحكي لي الحكاية، ورأيتُ أنها ربما تُثيرك جنسيّاً». ومن الجليّ أنها فعلتْ ذلك في المرّة الأولى.

وقفَ نيكولاس واضعاً يديه على كفليه، دلالة على الاعتراض: كفاكِ سُخفاً. أمّا بالنسبة إلى ملاحظاتكِ المُسرِفة -إنكَ تعيش حياة مثاليّة هنا- ورسم ابتسامة متكلّفة، يا له من منظر جميل - إنها تجعلكِ تبدين أشدّ سوقيّة وحمقاً مما أنتِ عليه.مكتبة سُر مَن قرأ

كانت بريدجت ما تزال تجد صعوبة في التعامُل مع فظاظة نيكولاس بجديّة.

قالت «إذا كنتَ ستُصبح بغيضاً، فسوف أهجرك وأهرب مع باري»

لهثَ نيكولاس قائلاً «وهذه مسألة أخرى»، ونزع سترته الحريريّة. كانت هناك حلقات قاتمة من العَرَق تحت إبطَي قميصه. «ما الذي كان يدور في ذهنك -إنْ كانت كلمة ذهن صحيحة- عندما أعطيتِ ذلك المزاول لرياضة اليوغا رقم هاتفك هنا؟»

«عندما قلتُ إننا يجب أنْ نبقى على تواصُل، طلبَ مني رقم هاتف المنزل الذي أُقيمُ فيه»

نبح نيكولاس قائلاً «كان في وسعك أنْ تكذبي، في الواقع. هناك شيء اسمه التضليل»، وأخذ يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ويهزّ رأسه نفياً. «شيء اسمه نقض العهد»

تدحرجتْ بريدجت وغادرت السرير واجتازت أرض الغرفة. قالتْ «اغرب عن وجهي»، وصفعَتْ باب الحمّام وأقفلته. جلسَتْ على حافة حوض الاستحمام وتذكَّرتْ أنَّ نسختها من صحيفة «*تاتلر*»، والأسوأ من ذلك، أنَّ مساحيق التجميل موجودة في الغرفة المجاورة.

قال نيكولاس، وهو يُدير مِقبَض الباب، «افتحي الباب، أيتها العاهرة الحمقاء»

كرّرت القول «اغرب عن وجهي». على الأقلّ كان في استطاعتها أنْ تمنع نيكولاس من استخدام الحمّام أطول مدّة ممكنة، حتى وإنْ لم يكن حولها غير حوض الاستحمام ليُسلّيها.

- 11 -

بعد أنْ أُقصيَ خارج غرفة الاستحمام أخذ نيكولاس يُخرِج قمصانه ويملأ بها الأرفُف المناسبة؛ وفي الخزانة شَغَلَتْ أطقمه أكثر من نصف المساحة. ووضع من جديد نسخ سيرة حياة ف. إ سميث التي كان يحملها معه إلى عدد من المنازل في صيف ذلك العام على الطاولة المجاورة ليمين السرير. وعندما سُمِحَ له أخيراً بدخول الحمّام وزَّعَ ممتلكاته حول الحوض بترتيب مألوف، فوضع فرشاة شَعر الغُرير على أحد الجانبَين ومحلول شطف الفم الورديّ اللون على الجانب الآخر.

رفضَتْ بريدجت أنْ تُخرِج أمتعتها كما ينبغي. أخرجتْ ثوباً يبدو هشّاً من المخمل المتغضِّن الأحمر القاني لترتديه في تلك الليلة، ورمته على السرير، وتركت حقيبتها في وسط الغرفة. ولم يقوَ نيكولاس على مقاومة الرغبة في رفسها، لكنه لم يقُل شيئاً، لإدراكه أنّه إذا ما عاملها بفظاظة مباشرة من جديد فقد تُسبب له متاعب على مائدة العشاء.

ارتدى نيكولاس بهدوء بذلة من الحرير الأزرق الداكن وقميصاً قديماً بلون أصفر باهت، وهو أشد قميص تقليديّ استطاع العثور عليه في محل مستر فيش، وأضحى بعدئذٍ مستعداً للهبوط إلى الطابق السُفليّ. كانت تفوح من شَعره رائحة خفيفة لعطرٍ أعدَّه لأجله محل ترامبر، وفاحت وجنتاه بخلاصة الليمون البسيطة اعتبرها نظيفة ورجوليّة.

جلستْ بريدجت عند طاولة الزينة، ووضعت ببطء شديد تحديداً أسود فاحماً للعينين.

قال نيكولاس «يجب أنْ نهبط إلى الطابق السفليّ، وإلّا تأخرنا»

«أنتَ دائماً تقول هذا ومن ثم لا نجد أحداً هناك»

«إنَّ ديفيد أشدّ تقيّداً بالمواعيد مني»

«إذن اهبط من دوني»

قال نيكولاس، بنبرة ضجر مُهدِّد، «أفضِّل أنْ نهبط معاً»

استمرّتْ بريدجت في تأمّل نفسها في المرآة ذات الإضاءة غير الكافية، بينما جلسَ نيكولاس على حافة السرير وشدَّ قليلاً كُمّيه ليكشف المزيد من أزراره الفخمة، المصنوعة من الذهب السميك. كانت مصنوعة من الذهب السميك وحُفِرَ عليها الحرفَان الأوَّلان إ. ر، وكان يمكن أنْ تكون تقليعة مُعاصِرة، لكنّها في الواقع كانت هدية لجدِّه الأنيق، الذي كان السير نيكولاس برات في أيامه وأحد رجال حاشية الملك إدوارد السابع. ولما لم يستطع أنْ يزيد في تزيين مظهره، نهضَ واقفاً وأخذ يتجوّل في المكان، انساب عائداً إلى غرفة الحمّام، واسترقَ نظرةً سريعة على نفسه في المرآة. لا شك في أنَّ الحدود الناعمة لذقنه، حيث بدأ الارتخاء يتكوَّن، سوف تستفيد مرة أخرى بلا أدنى شك من سُمرة الشمس. وضمَّخ خلفَ أُذنيه بكمية صغيرة أخرى من خلاصة الليمون.

قالت بريدجت «أنا جاهزة»

اقتربَ نيكولاس من طاولة الزينة وضغط قطيفة البودرة الخاصّة ببريدجت على عظمتَي وجنتيه، ومرَّرها بحياء على جسر أنفه. وبينما هما يُغادران الغرفة، ألقى نظرة سريعة مُنتقدة إلى بريدجت، غير قادر على أنْ يستحسن بصورة تامة ثوب المخمل الأحمر الذي كان قد مَدَحَه ذات يوم. كان يتَّسِم بسِمة كشك بيع الأشياء القديمة في سوق كينغستون، وبرزت بشكل فاقع قيمته الرخيصة في حضور الأشياء القديمة الأخرى. وأبرز اللون الأحمر شعرها الأشقر، وأظهرَ المخمل الزرقة الصافية لعينيها، لكنَّ تصميم ثوبها، الذي بدا كأنّه صُنِعَ من أجل ساحرة من القرون الوسطى، ودليل الإصلاحات التي جرت على يد شخصٍ هاوٍ بالمادة المتهرّئة فاجأته بأنها بدتْ أقلّ جمالاً مما كانت عليه عندما شاهد في المرَّة الأولى بريدجت ترتدي هذا الثوب نفسه. كان في حفلة شبه بوهيميّة أقامها في تشيلسي رجل طموح من بيرو. كان نيكولاس وذُرى المجتمع الآخرون الذين حاول

المُضيف أنْ يُصنفهم يقفون معاً في أحد أطراف الغرفة يهينون ساكن الجبال وهو يتنقَّل بينهم مُجاملاً. وعندما لم يجدوا شيئاً أفضل يفعلونه سمحوا له برشوتهم بحُسن ضيافته، مُدركاً أنّه سيتلقّى سيلاً من الذمّ إذا ما عاملهم بلا كلفة في حفلةٍ يُقيمها أناسٌ على قدر كبير من الأهميّة.

أحياناً كانت احتفالات كبرى راقية هي التي تؤكِّد على إحساس المرء بأنّه من عليّة القوم، وفي أحيان أخرى كان يفعل ذلك تملُّقُ الآخرين وحَسَدهم. أحياناً كان إغواء فتاة جميلة هو الذي يُنجِز هذه المهمّة الهامة وفي أحيان أخرى يعود الأمر إلى أزرار كمّ المرء الأنيقة.

تمتم نيكولاس راضخاً «كل الدروب تؤدي إلى روما»، لكنَّ بريدجت لم تكن فضوليّة لمعرفة السبب.

وكما توقَّعَتْ، لم يكن هناك أحد في انتظارهما في غرفة الجلوس. فمع إسدال الستائر، والاكتفاء ببرَكٍ من ضوءٍ بلون البول تتبعثر تحت مظلات المصابيح ذات اللون الأصفر الداكن، بدت الغرفة في وقتٍ واحد غامضة وباذخة، كالعديد من أصدقاء المرء، كما قال نيكولاس لنفسه.

قال، وهو يشمّ العِطر المُحترِق بضجيجٍ مسموع، «آه، *Extraits de Plantes Marines* (خلاصة أعشاب بحريّة)، من المستحيل الحصول عليه الآن». لم تُجِب بريدجت.

انتقلَ إلى الخزانة السوداء وأخرجَ زجاجة فودكا روسيّة من دلوٍ من الفضّة مملوء بمكعّبات الثلج. صبَّ السائل اللزج والبارد في كأس صغير. كانوا يبيعونها مع خواتم من النحاس تَسخَنْ أحياناً أكثر مما ينبغي فتُطلِق عِطراً محترقاً نحو مصابيح الضوء. وذات أمسية، وبينما كان مسيو ومدام فلان الفلاني يُبدلان ملابسهما استعداداً لتناول العشاء انفجر مصباح في غرفة الطعام، فاندلعت النار في مظلة المصباح، وأمسك اللهب بتلابيب الستائر. وبعد ذلك، سُحِبَتْ المصابيح من السوق.

لم تُبدِ بريدجت أي دهشة أو اهتمام. رنَّ جرس هاتف بوهن عن بُعد. كانت إلينور تكره كثيراً ضجيج الهواتف بحيث أنّه لم يوجد في المنزل أكثر من جهاز واحد، موضوع على طاولة صغيرة تحت الدَّرَج الخلفيّ.

قال نيكولاس، وهو يجرع الفودكا بما اعتبره الأسلوب الروسيّ الصحيح، «هل أُحضِر لكِ مشروباً؟»

قالت بريدجت «فقط كوكا كولا». لم تكن تحب شرب الكحول، لأنَّ مفعوله قوي بصورة فظّة. على الأقلّ هذا ما قاله باري. فتحَ نيكولاس زجاجة كوكا كولا وصبَّ لنفسه المزيد من الفودكا، وهذه المرَّة بكأس طويلة مملوءة بمكعبات الثلج.

على قرميد الرصف سُمِعَت قعقعة حذاء بكعب عالٍ ودخلتْ إلينور بحياء، مرتديةً ثوباً طويلاً أرجوانيّ اللون.

قالتْ، تبتسم لبريدجت، التي كانت قد نسيَتْ اسمها لسبب ما خلال قطْعها المسافة ما بين جهاز الهاتف وغرفة الجلوس، «هناك مكالمة هاتفيّة لأجلك»

قالت بريدجت «أوه، واو! من أجلي؟» ونهضَتْ، وحرِصَتْ على ألّا تنظر إلى نيكولاس. وصفَتْ لها إلينور السبيل لبلوغ الهاتف، وأخيراً وصلتْ بريدجت إلى الطاولة التي تحت الدَّرَج الخلفيّ. قالت «ألو، *ألو؟*» لم يُجِب أحد.

مع عودتها إلى غرفة الجلوس كان نيكولاس يقول «وذات أمسية، كان المركيز والمركيزة لا أعرف كنيتهما في الطابق العِلويّ يُبدلان ملابسهما استعداداً للحفلة الكبرى التي كانا قد أقاماها، وإذا بمظلة المصباح تحترق وتتحول غرفة الجلوس إلى رماد»

قالت لإلينور، من دون أنْ يكون لديها أدنى فكرة عمّا كان نيكولاس يتحدث، «أمرٌ رائع»، وعندما استفاقَتْ من إحدى تلك الفترات الخاوية التي لم يكن في وِسعها أنْ تعرف ما الذي كان يحدث من حولها خلالها، كل ما عرفت هو أنّه مرَّت فترة فاصلة منذ أنْ كانت واعية. قالت لبريدجت «هل استلمتِ المكالمة؟»

«كلا. كان الأمر شديد الغرابة، فلم يردّ عليّ أحد. يبدو أنَّ النقود نَفَدَتْ منه»

رنَّ جرس الهاتف من جديد، بضجيجٍ أعلى هذه المرَّة مُجتازاً الأبواب كلها التي كانت بريدجت قد تركتها مفتوحة. وعادتْ أدراجها متلهّفة.

قالت إلينور «تخيَّل أنَّ هناك مَنْ يرغب في الحديث عبر الهاتف. أنا أخافُ ذلك»

قال نيكولاس بتسامُح «إنّه الشباب»

«كنتُ أخشاه أكثر في شبابي، إنْ كان ذلك ممكناً»

صبّتْ إلينور بعض الويسكي لنفسها. شعرتْ بالإرهاق وبالقلق في وقتٍ واحد. كان شعوراً تعرفه أكثر من معرفتها لأي شعور آخر. ورجعتْ إلى مقعدها المعتاد، مع مسند للقدمَين منخفض ومحشور داخل زاوية خالية من المصباح بجوار الشاشة. وفي طفولتها، عندما كانت الشاشة تخصّ أمها، كانت غالباً تجثم تحت أغصانها التي تحتشد عليها القرود متظاهرة بأنّها غير مرئيّة.

من جديد نهضَ نيكولاس، الذي كان قد جلس بتردُّد على حافة كرسي دوغ، بحركة عصبيّة. «هذا مقعد ديفيد المُفضَّل، أليس كذلك؟»

قالت إلينور «أعتقد أنّه لن يجلس عليه إذا كنتَ أنتَ جالساً عليه أصلاً»

قال نيكولاس «لستُ متيقّناً من هذا. أنتِ تعلمين كم هو مولع بالتمسُّك بأسلوبه الخاص»

قالتْ إلينور بصراحة تامة «كأنّني لا أعلم هذا»

انتقلَ نيكولاس للجلوس على أريكة مجاورة وعبَّ ملء فم آخر من الفودكا من كأسه. كان مذاقها قد أصبحَ يغلب عليه طعم الثلج المُذاب، وكان يكرهه، لكنّه أخذ يُديره في أنحاء فمه، بما أنّه لم يكن لديه ما يقول لإلينور. وانتظر ليرى مَنْ سيلجُ من الباب، وهو منزعج لغياب بريدجت ومتوجس من وصول ديفيد. وشعر بالإحباط عندما وصلت آنْ وفيكتور أولاً.

كانت آنْ قد بدَّلَتْ ثوبها الأبيض البسيط بآخر أسود بسيط وكانت تحمل سيجارة مشتعلة. كان فيكتور قد تغلَّبَ على قلقه بشأن ما ينبغي أنْ يرتدي وكان لا يزال يرتدي السترة السميكة المُنقَّطة.

قالتْ آنْ لإلينور «مرحباً؟!»، وقبّلتها بحبٍ حقيقيّ.

بعد انتهاء جولة الترحيب، لم يسع نيكولاس إلّا أنْ يُعلِّق على ظهور فيكتور. «صديقي العزيز، تبدو كأنكَ ذاهب لصيد سمك الإسقمريّ في بحر هبريدس»

قال فيكتور، متلفتاً حوله ومُسلّماً الكأس لآنْ، «في الحقيقة، آخر مرَّة ارتديتُ فيها هذه السترة كانت عندما اضطررتُ إلى مقابلة طالب كان يتقدَّم

بشكل سيئ مع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، وعنوانها «أبيلار، ونيتشه، وساد، وبيكيت»، وهذا يُعطيك فكرة عن المصاعب التي كانت تواجهه»

قالت إلينور في سرِّها، أحقاً؟

«في الحقيقة، لا شيء يُعيق الناس عن نيل شهادة الدكتوراه في هذه الأيام». كان فيكتور يتأهَّب للعب الدور الذي شعر بأنّه مطلوب منه القيام به أثناء تناول وجبة العشاء.

سألتْ إلينور «ولكن كيف تسير كتابتك *أنتَ* اليوم؟»، وكذبتْ قائلة «طوال النهار وأنا أفكِّر في مدخلك اللا نفسيّ إلى الهويّة، فهل فهمي لهذا صحيح؟»

قال فيكتور «من دون أدنى شك. في الحقيقة، لقد شغلتني ملاحظتك إلى درجة أنني عجزتُ عن التفكير في أي شيء آخر»

احمرَّ وجه إلينور. شعرتْ بأنّه يسخر منها. قال نيكولاس بشهامة، «يبدو لي كأنَّ إلينور مُصيبة تماماً. فكيف يمكن الفصل بين ما نحن عليه وما نعتقد أننا عليه؟»

أجاب فيكتور «أوه، أعتقد أنكَ لا تستطيع ذلك، حالما تقرِّر أنْ تفكِّر في الأشياء بتلك الطريقة. لكنني لا ألجأ إلى التحليل النفسيّ الذي هو، بالمناسبة، نشاطٌ سوف يبدو طريفاً كما تبدو صناعة الخرائط في القرون الوسطى عندما تتكوَّن لدينا صورة دقيقة عن عمل الدماغ»

قال نيكولاس، خائفاً من أنْ يكون فيكتور مملّاً على مائدة العشاء، «لا شيء يُعجب أستاذ جامعة أكثر من تحطيم انضباط شخص آخر»

قهقه فيكتور «إنْ كان في استطاعتك أنْ تسمّيه انضباطاً. إنَّ اللا وعي، الذي لا نستطيع مناقشته إلّا بعد أنْ **يكفّ** عن كونه لا وعياً، هو أداة استعلام أخرى من القرون الوسطى تمكِّن المُحلِّل من التعامل مع النكران بوصفِهِ دليلاً على نقيضه. وفي ظل هذه القواعد نقضي على مَنْ يُنكِر أنّه قاتل ونهنِّئه إذا قال إنّه كذلك»

قالت آنْ «هل ترفض فكرة وجود لا وعي؟»

قال نيكولاس لنفسه مُحاكياً بتكلُّف صوتاً نسائيّاً أميركيّاً هستيريّاً «هل ترفض فكرة وجود لا وعي؟»

قال فيكتور «أنا أقول إنّه إنْ كانت تحكمنا قِوى لا نفهمها، فإنَّ العبارة التي تصِف تلك الحالة هي الجهل. واعتراضي هو على أننا نُحوِّل الجهل إلى مشهد عامّ داخلي ونتظاهر بأنَّ هذه المغامرة المجازيّة، التي قد تكون غير مؤذية أو حتى فاتنة، إذا لم تكن عالية التكلفة ومؤثِّرة، ترقى إلى مستوى العِلم»

قالتْ آنْ «لكنّها تُساعد الناس»

قال فيكتور بحِكمة «آه، الوعد العِلاجيّ»

كان ديفيد يراقبهم منذ بعض الوقت، من مكان وقوفه عند ممر الباب، من دون أنْ يلاحظ وجوده أحد، ما عدا إلينور

قال فيكتور «أوه، مرحباً، ديفيد»

قالتْ آنْ «مرحباً»

أجاب ديفيد، مُشيحاً بوجهه عنها على الفور، وموجهاً كلامه إلى فيكتور، «يا عزيزي، يُسعدني أنْ أراك كما أنتَ دائماً. أخبرنا المزيد عن الوعد العلاجيّ»

قال فيكتور «ولكن لِمَ لا تُخبرنا *أنت*؟»

قال ديفيد بتواضُع «خلال فترة ممارستي الوجيزة للطب اكتشفتُ أنَّ الناس يقضون حياتهم كلها متخيّلين أنَّ موتهم وشيك. وعزاؤهم الوحيد هو أنهم ذات يوم سيكونون على صواب. وكل ما يقفُ حائلاً بينهم وبين هذا العذاب الذهنيّ هو سلطة الطبيب. وذلك هو الوعد العلاجيّ الوحيد الناجع»

ارتاح نيكولاس لتجاهُل ديفيد له، بينما راقبَتْ آنْ بحياديّة الأسلوب المسرحيّ الذي لجأ إليه الرجل ليُهيمن على جو المكان. وتاقتْ إلينور، كجارية وسط مستنقع مملوء بالكلاب المسعورة، إلى الاختفاء والتصقَتْ بجبن أكثر من الحاجب.

اجتاز ديفيد أرض الغرفة بخطوات واسعة فخمة، وجلس على كرسي دوغ ومال نحو آنْ. قال، وشدّ قليلاً الحرير القاسي لبنطلونه ذي اللون الأحمر القانيّ ويضع ساقاً فوق ساق، «أخبريني، يا عزيزتي، هل برأتِ من تضحيتك التي لا لزوم لها على الإطلاق، بذهابك إلى المطار مع إلينور؟»

قالت آنْ ببراءة «لم تكن تضحية، بل كانت متعة. وهذا يُذكّرني بأنني استمتعتُ أيضاً بإعادة كتاب «*القياصرة الاثنا عشر*». وما أعني هو أنني استمتعتُ بقراءته وأنتَ الآن استمتعتَ باستعادته»

قال ديفيد، تاركاً إحدى فردتَي الخفّ الأصفر تتدلّى من قَدَمَه، «وهذا استمتاع كثير في يومٍ واحد»

«هذا صحيح. لقد طفحَ كأسنا»

قال ديفيد «وأنا أيضاً أمضيتُ نهاراً مُبهِجاً، لا بد أنَّ الجو يعبقُ بالسِحر»

لمحَ نيكولاس فرصة سنحَتْ له لينضمَّ إلى الحديث الدائر من دون استفزاز ديفيد. فسألَ آنْ «إذن ما رأيكِ في كتاب «*القياصرة الاثنا عشر*»؟»

قالتْ آنْ «كان جديراً بهم معاً أنْ يُشكّلوا هيئة محكمة عُظمى، إذا كنتَ تحبّذ المحاكمات السريعة» وأشارت بإبهامها نحو الأرض[1].

أطلقَ ديفيد على الفور لفظ «ها» بيَّنَ أنّه يتسلّى. قال، مُشيراً بإبهاميه إلى أسفل أيضاً، «كانوا سيصدرون أحكامهم بالدور»

قالت آنْ «بلا أدنى شك، تخيَّل ما يمكن أنْ يحدث إذا حاولوا أنْ يختاروا رئيس مُحلّفين»

قال ديفيد، وهو يلوي إبهاميه المتألّمين نحو الأعلى ثم الأسفل باستمتاع طفل، «إنني أفكّر في الأساور الإمبراطوريّة»

هذا المنحى الخيالي المرح قاطعته عودة بريدجت. وكانت بريدجت قد دخَّنتْ سيجارة صغيرة أخرى، إثر عودتها من مكالمة باري عبر الهاتف وأصبحتْ الألوان المحيطة بها شديدة الحيويّة. قالت لديفيد بإشراق «كم *أ*حبّ هذا الخفّ الأصفر الغريب»

أجفلَ نيكولاس.

سألَ ديفيد، وهو ينظر إليها بنظرة أنيسة ثابتة، «أحقاً تُحبينه؟ أنا سعيد جداً لذلك»

أدرك ديفيد بالحدس أنَّ بريدجت سوف تشعر بالحرج من التحدّث بشأن مكالمتها مع باري، ولكن لم يكن لديه وقتٌ كاف لاستجوابها الآن

1- دلالة الحكم بالإعدام في أيام الإمبراطورية الرومانية القديمة – المترجم.

لأنَّ إيفيت دخلتْ لكي تُعلن عن فتح مائدة العشاء. قال ديفيد نفسه، لا بأس، يمكنني أنْ أستجوبها لاحقاً. في السعي إلى المعرفة، لا معنى لقتل الأرنب قبل أنْ تكتشف إنْ كانت عيناه تتحسّسان من الشامبو، أو إنْ كان جلده يلتهب بفعل صِباغ الأهداب. كان من السُخف «تعذيب فراشة». والأداة المناسِبة لتثبيت فراشة هي الدبّوس. استفزّتْ هذه الأفكار المواسية ديفيد فنهضَ عن كرسيه وقال بلا مقدّمات «فلنتناول العشاء»

اضطربت الشموع في غرفة الطعام بفعل تيار الهواء المندفع من الباب المفتوح فخفق ضوؤها وبثَّ الحياة في ألواح الخشب التي تكسو الجدران وتحمل رسماً كان ديفيد شديد الإعجاب به، يمثّل موكباً من الفلاحين المُمتنين، يسير مسافة على طول الدرب الملتوي المؤدي إلى بوابات القلعة، ومال الموكب نحو الخلف من جديد عندما انتقل ميلان اللهب إلى الجهة المقابلة. ودواليب عربة الجرّ التي انغرزتْ في الخندق الموازي للدرب، بدا كأنّها تتقدم وتصدر صريراً، ولبرهة من الزمن انتفختْ العضلات القاتمة للحمار الذي يجرّها.

كانت إيفيت قد وضعَتْ على الطاولة وعاءين من الصلصة من أجل حساء السمك، وثمة زجاجة خضراء تتعرَّق من شمبانيا بلان دو بلان على كل طرف من الطاولة.

في الطريق من غرفة الجلوس إلى غرفة الطعام، قام نيكولاس بمحاولة أخيرة لانتزاع بعض الحماس من أجل قصّته المُحاصَرَة. إنَّ أحداثها تقع الآن في مقرّ أمير أو أميرة لا يعرف كنيتها. هتفَ لآنْ مع إيماء منفعل «ووش!». «واندلعَ اللهب في نسيج الأثاث من طراز القرن الخامس عشر ***واحترقَ فندقهم الخاص حتى سُوّيَ بالأرض***. واضطروا إلى إلغاء حفل الاستقبال. وانتشرتْ الفضيحة في أرجاء البلاد، وصودرت كل زجاجات عطر النباتات البحرية ***في العالم كله***»

قالتْ آنْ «وكأنّه لا يكفي أنْ يكونوا مجهولي الكنية»

هتف نيكولاس، بعد أنْ أرهقته الجهود التي بذلها، «ولكنكِ الآن لا تستطيعين أنْ تصلي إلى أي شيء»

«يبدو هذا هو القرار الصائب. أعني، مَنْ يرغب في أنْ يحترق الفندق الذي ينزل فيه ويُسوّى بالأرض؟ ليس أنا!».

انتظر الجميع ليعرفوا أماكن جلوسهم ونظروا إلى إلينور مُستفهمين. وعلى الرغم من أنّه لم يبدُ أنَّ هناك مجالاً للشك، شعرتْ، مع وجود النساء الجالسات إلى جوار ديفيد والرجال الجالسين بجوارها واختلاط الأزواج، بيقين رهيب بأنها سوف ترتكب خطأً وتُثير غضب ديفيد. وقفتْ هناك، مرتبكة، وقالت «آنْ... هل لكِ... كلا، اذهبي إلى هناك... كلا، أنا آسفة... »

قال ديفيد بهمسٍ مسموع لنيكولاس، «حمداً لله لأنَّ عددنا لا يتجاوز الستة. وهناك أمل في أنْ تحلّ المشكلة قبل أنْ يبرد الحساء» وابتسم نيكولاس بتكلُّف مُطيعاً.

قالت بريدجت في نفسها، بينما كانت إيفيت تُحضِر الحساء الساخن، يا الله، كم أكره حفلات العشاء الخاصة بالبالغين.

قال ديفيد لآنْ، وهو يميل عليها بدماثة، لكي يُؤكّد على لا مبالاته ببريدجت، «أخبريني يا عزيزتي، ما رأيك بشخصيّة الإمبراطور غالبا Galba[1]؟»

هذا هو المنحى الذي كانت آنْ تأمل في ألّا يأخذه منحى الحديث. قالت في نفسها، مَنْ؟ لكنها قالت، «آه، شخصية عظيمة! لكنَّ ما أثار اهتمامي *حقاً* كان شخصية كاليغولا. لِمَ في اعتقادك كان مولعاً بأخواته؟»

كشّر ديفيد «حسن، أنتِ تعلمين ماذا يقولون، الرذيلة جميلة، لكنَّ سِفاح الأقارب أفضل»

سألتْ آنْ، متظاهرة بأنّها مفتونة، «ولكن ماذا... ما هو التحليل النفسي لوضعٍ كهذا؟ أهو نوع من النرجسيّة؟ أهو أقرب شيء لغواية النفس؟»

«في اعتقادي هو أقرب إلى الاعتقاد بأنَّ فقط أحد أفراد عائلته يمكن أنْ يُعاني كما عانى هو. وفي الواقع، تعلمين أنَّ تيبريوس قتل تقريباً كل أقربائهم،

1- الإمبراطور الروماني سيرفيوس سولبيسوس غالباً (3 قبل الميلاد - 69 ميلادي): الإمبراطور الذي خَلَفَ نيرون بعد اغتياله - المترجم.

وهكذا نجا هو ودروزيلا[1] من الرعب نفسه. هي وحدها التي استطاعت حقاً أنْ تفهمه»

بينما سكت ديفيد قليلاً ليشرب بعض النبيذ، استأنفتْ آنْ القيام بدور الطالبة التواقّة إلى المعرفة. «ثمة شيء آخر أحبّ أنْ أعرفه هو لماذا اعتقد كاليغولا أنَّ تعذيب زوجته سوف يكشِف سبب تفانيه من أجلها؟»

«إنَّ التفسير الرسميّ هو من أجل اكتشاف ممارسة السِحر، ولكننا نفترض أنّه كان يشكّ في العاطفة المنفصلة عن تهديد الموت»

سألتْ آنْ «وكان لديه الشك نفسه في الشعب الروماني، أليس كذلك؟»

قال ديفيد «بالضبط، لورد كوبر»[2]. بدا كأنَّ هناك أشياء يعرفها، لكنّه يرفض أنْ يُفشيها. قالت آنْ في نفسها، التي لطالما سمعتْ ديفيد وفيكتور يتحدثان حولها، إذن هذه فوائد الثقافة الكلاسيكيّة.

كان فيكتور يتناول حساءه بصمت وبسرعة كبيرة بينما نيكولاس يُخبره عن الاحتفال بذكرى جوناثان كرويدن. وكانت إلينور قد تخلّتْ عن الحساء وأشعلتْ سيجارة؛ كانت الجرعة الزائدة من الديكسدرين ذات مفعولٍ قويّ. واستغرقتْ بريدجت في حلم يقظة عن عمد.

قال فيكتور، بعد أنْ زمّ شفتيه برهة لكي يتذوَّق طعم كذب ما أوشك على قوله، «أخشى أنني لا أوافق على إقامة احتفالات ذكرى؛ إنها مجرد ذرائع لإقامة حفل»

صحَّح ديفيد كلامه «إنَّ مشكلتها هي أنها ذرائع لإقامة حفلات سيئة. حسبتُ أنكَ تتكلَّم عن كرويدن»

قال فيكتور «هذا صحيح. يُقال إنه يتكلَّم أفضل مما يكتب. كان هناك حتماً حيِّز للتطوُّر»

1- جوليا دروزيلا (16 م – 38 م): واحدة من عائلة إمبراطوريّة في روما القديمة، الابنة الثانية والطفل الخامس لجرماتيكوس وأغربينا الكبرى وأخت كاليغولا وعشيقته في وقت واحد، وعمّة الإمبراطور نيرون الذي قتل أقرباءه كلهم ما عدا هي – المترجم.

2- عبارة مأخوذة بشكل ساخر من رواية «*سبق صحفي*» لـ«يفلين وو»، حيث إنّ شخصيّة لورد كوبر، صاحب الصحيفة، شخصية مُخيفة وتبثّ الرعب في كل مَنْ حولها ولا يستطيع أحد أنْ يُخالفها الرأي – المترجم.

كشفَ ديفيد عن أسنانه اعترافاً بهذه الملاحظة الصغيرة الخبيثة. «هل أخبرك نيكولاس أنَّ صديقه الشاب فيجه كان هناك؟»

قال فيكتور «كلا»

قال ديفيد، ملتفتاً إلى آن مُقنِعاً «أوه، ولم تُخبرينا لماذا غادر فجأة». كانت آنّا قد رفضَتْ أنْ تُجيب عن هذا السؤال في مناسباتٍ شتّى، وكان ديفيد يحبّ أنْ يُضايقها بطرحه عليها كلما تقابلا.

قالت آنْ، وهي تتابع اللعب، «ألم أفعل؟»

سأل ديفيد «ألم يكن غليماً[1]؟»

قالت آنْ «كلا»

«أم كان أسوأ من ذلك، في حالته، أي لعوباً؟»

«حتماً لا»

اقترحَ نيكولاس «كان فقط يتصرَّف على سجيّته»

قالتْ آنْ «قد يكون هذا آخر الكلام، لكنَّ الأمر يتجاوز ذلك»

قال فيكتور متباهياً «إنَّ الرغبة في نقل المعلومات تشبه الجوع، وأحياناً هي فضول، أو لامبالاة الآخرين الذين يُثيرونها»

قالت آنْ، «حسن، حسن»، ثم أردفت باتزان، لتنقذ فيكتور من الصمت الذي يمكن أنْ يلي تصريحه، «أرجو ألّا تعتبروا ما سأقول مسألة خطيرة أيها الراقون، ولكن عندما حملتُ أحد قمصانه النظيفة إلى غرفته، وجدتُ مجموعة من المجلات الفظيعة. إنها ليست فقط إباحيّة، بل أسوا من ذلك بكثير جداً جداً. طبعاً لم أكنْ أنوي أنْ أطلب منه أنْ يُغادر. إنَّ ما يقرأ هو شأنه الخاص، لكنّه عاد ووجدني هناك وتصَرَّفَ بفظاظة شديدة، في حين كنتُ هناك فقط لأحمل إليه قميصه القذر، ففقدتُ أعصابي»

قالت إلينور مذعورة «أحسنتِ»

سألها نيكولاس، وهو يسترخي في جلسته ويضع ساقاً فوق ساق، «أي نوع من المجلات بالضبط؟»

1- الغليم: الذي يعاني من إفراط في الشهوة الجنسيّة - المترجم.

قهقهت بريدجت «أتمنى أنْ تُصادرها»

قالت آنْ «أوه، فقط فظيعة. صَلبٌ. وكل أنواع التصرفات الحيوانيّة»

قال نيكولاس «يا إلهي، هذا مضحك جداً. لقد بدأ تقدير فيجه يرتفع عندي»

قالت آنْ «أوه، حقاً؟ حسن، كان ينبغي أنْ ترى وجه ذلك الخنزير المسكين»

كان فيكتور منزعجاً قليلاً. قال «إنَّها أخلاقيات صِلاتنا الغامضة بمملكة الحيوان» وقهقه بضحك مكبوت.

قال ديفيد بلهجة حازمة «إننا نقتلهم عندما نرغب، ولا شيء أشدّ غموضاً من هذا»

قال فيكتور «إنَّ الأخلاق ليست دراسة ما نفعل، يا عزيزي ديفيد، بل هي ما ينبغي علينا أنْ نفعل»

قال نيكولاس بمرح «ولهذا فإنّها تبديد للوقت، يا عزيزي»

سألتْ آنْ نيكولاس «لماذا تعتقد أنَّ كون المرء لا أخلاقياً شيءٌ سام؟»

قال، كاشِفاً عن منخريه الغائرين لآنْ، «الأمر لا يتعلَّق بكونه سامياً، بل ينبع من رغبته في ألّا يكون مملّاً أو متزمّتاً»

قال ديفيد «إنَّ كل شيء في نيكولاس سام، وحتى لو ***كان حقاً*** مملّاً أو متزمتاً، فأنا متأكّد من أنّه سيكون مع ذلك سامياً»

قال نيكولاس برضا مُصمِّم «شكراً لك، يا ديفيد»

قال فيكتور «فقط في اللغة الإنكليزيّة يمكن للمرء أنْ يكون «مملّاً»، كما يكون محامٍ أو صانع معجّنات، ويُحوَّل الملل إلى مهنة – في اللغات الأخرى يكون المرء ببساطة مُملّاً، كحالة مؤقّتة. وأعتقد أنَّ المسألة هي إنْ كان هذا يُشير إلى تعصُّب أكبر ضد المُملّين، أم هي نوعيّة أقوى بكثير من الملل بين الإنكليز»

قالت بريدجت في نفسها، إنها لأنكم ثلّة من العجائز المُملّين القذرين.

رفعَتْ إيفيت أطباق الحساء وأغلقتْ الباب خلفها. خفقَ ضوء الشموع، ومن جديد دبَّتْ الحياة برهة في لوحة الفلاحين.

قال ديفيد «إنَّ ما يهدف إليه المرء هو الضجر»

قالتْ آنْ «إنها ليست مجرد كلمة فرنسيّة[1] بالنسبة إلى صديقنا القديم ملل. إنها ملل بالإضافة إلى المال، أو ملل بالإضافة إلى عنجهيّة. إنّها مقولة «أنا أجد كلَّ شيءٍ مملّاً إذن أنا فاتن». ولكن يبدو أنَّ الناس لا يدركون أنّه لا يمكن للمرء أنْ يحصل على صورة شاملة للعالم من دون أنْ يكون جزءاً منها»

رانتْ برهة من الصمت عندما عادتْ إيفيت حاملة طبقاً واسعاً يضمّ لحم عجلٍ مشويّ مع خضروات.

قال ديفيد لإلينور «حبيبتي، إنَّ ذاكرتك حادّة حتى تتمكَّني من إقامة وليمة عشاء مُطابقة لتلك التي أقمتِها لآنْ وفيكتور في آخر مرَّة اجتمعنا هنا»

قالت إلينور «أوه، يا إلهي، كم هذا شنيع، أنا شديدة الأسف»

قال نيكولاس «بمناسبة الحديث عن أخلاقيات الحيوان، أعتقد أنَّ جيرالد فروغْمور اصطاد عدداً من العصافير في العام الفائت يفوق ما اصطاده أي شخص في إنكلترا. وهذا ليس شيئاً سيئاً بالنسبة إلى شخص يجلس على كرسيّ متحرك»

قالت آنْ «ربما هو لا يحبّ أنْ يرى الأشياء تتحرك حوله بحريّة». وفي الحال شعرتْ بإثارةِ شبه الرغبةِ في ألّا تكون قد أدلتْ بتلك الملاحظة.

سألَ نيكولاس، بنبرة «قبل كل شيء»، «ألستِ ضد ممارسات سفك الدماء؟»

سألتْ آنْ «كيف يمكن أنْ أكون كذلك؟ إنه تحامُل الطبقة الوسطى قائم على أساس الحسد. هل أحسنتُ فهمَ هذا؟»

قال نيكولاس «في الحقيقة، ليس هذا ما كنتُ أنوي قوله، لكنكِ أحسنتِ التعبير عنه بصورة تفوق ما كنتُ آمل أنْ أفعل...»

سألتْ آنْ «هل تحتقر أناساً من الطبقة الوسطى؟»

قال نيكولاس، وهو يرمي أحد طرَفَي كُمّيه «أنا لا أحتقر أناساً من الطبقة

1- كلمة ضجر، أو سأم، المُستخدَمة هنا أو ennui هي كلمة فرنسيّة الأصل.

الوسطى، على العكس، كلما ازدادوا، كان ذلك أفضل. أمّا الذين يُثيرون احتقاري فهم أناس **دخلاء *على*** الطبقة الوسطى»

«أيمكن أنْ يكون أناس الطبقة الوسطى من الطبقة الوسطى بالمعنى الذي تقصده؟»

قال نيكولاس بسماحة «آه، نعم، وفيكتور هو مثال بارز على ذلك»

ابتسمَ فيكتور ليبيِّن أنّه يستمتع.

تابع نيكولاس «إنَّ هذا أسهل على الفتيات، طبعاً. إنَّ الزواج نعمة، لأنه يرفع النساء من الخلفيات الكئيبة إلى عالمٍ أرحب». وألقى نظرة سريعة إلى بريدجت. ثم أضاف، وهو يبتسم لفيكتور مُطمئناً «وكل ما في استطاعة الرجل أنْ يفعل حقاً، إلّا إذا كان غريب الأطوار يقضي معظم وقته في كتابة بطاقات بريديّة إلى أُناسٍ قد يحتاجون إلى رجل إضافي، هو أنْ يلتزم بصرامة بالقواعد. وأنْ يكون فاتناً وواسع المعرفة بكل معنى الكلمة».

تدخّلَ ديفيد «إنَّ نيكولاس، طبعاً، خبير، بما أنّه قام شخصيّاً بإخراج العديد من النساء من الوحل»

وافق نيكولاس قائلاً «بثمن باهظ»

قال ديفيد، مُذكِّراً نيكولاس بمهانته السياسيّة، «ألا تريد أنْ تقول، يا نيكولاس، إنَّ ثمن جرّهن إلى الوحل كان باهظاً أكثر؟ في كلا الحالتين، يبدو أنّ الوحل هو المكان الذي تشعر فيه بالألفة»

قال نيكولاس بصوته ذي اللهجة اللندنيّة الهزليّة، «وحقّ الله، أيها الحاكم، عندما تهبط إلى داخل الوحل كما فعلتُ فسوف يبدو لك الوحل أشبه بسرير من الورد»

ظلّتْ إلينور ترى أنّه من غير المفهوم أنَّ أفضل السلوكيات الإنكليزيّة تحتوي نسبة عالية من الفظاظة الصريحة والقتال العنيف. كانت تعلم أنَّ ديفيد أساء استخدام هذه الإجازة، لكنّها كانت تعلم أيضاً كم هو «مملّ» التدخّل في ممارسة الفظاظة. وعندما كان ديفيد يُذكِّر أحدهم بضعفه وفشله كانت تتمزّق بين الرغبة في إنقاذ الضحيّة، التي تطابقَتْ مع مشاعرها، والرغبة التي لا تقل عن الأولى قوة في ألّا تُتهَم بإفساد اللعبة. وكلما فكّرَتْ

أكثر في هذا الصراع، ازدادت وطأته عليها. ولا تعرف أبداً ماذا تقول لأنَّ أي شيء تقوله سيكون خطأً.

تذكّرتْ إلينور زوج أمّها عندما كان يصيحُ في وجه أمّها عبر مساحات جرداء من الفضّيات الإنكليزيّة، والأثاث الفرنسيّ، والمزهريات الصينيّة التي كانت تساعد على منعه من اللجوء إلى العنف الجسديّ. ذلك الدوق الفرنسيّ القزم والشخصيّة المهمّة كان قد كرَّسَ حياته لفكرة أنَّ الحضارة قد ماتت في عام 1789[1]. لكنّه مع ذلك قبِلَ اقتطاع نسبة عشرة بالمئة من التجّار الذين يبيعون قِطعاً أثريّة يعود عهدها إلى ما قبل الثورة لزوجته. وأجبرَ ميري على بيع لوحات مونيه وبونار الخاصة بوالدتها على أساس أنها تمثّل انحطاط الفن الذي لا أهميّة له. وبالنسبة إليه، كانت ميري هي الغرض الأقلّ قيمة في المتاحف النيِّقة التي كانا يسكنانها، وعندما قام أخيراً بالتنمُّر عليها حتى الموت شعرَ بأنَّه تخلَّصَ من آخر أثر للحداثة من حياته ما عدا، طبعاً، الدخل الضخم الذي بات يأتيه من بيع سائل تنظيف على الناشِف صُنِعَ في أوهايو.

كانت إلينور قد شهدت اضطهاد أمّها بالصمت الحيويّ نفسه التي عانت منه في وجه تحطّمها التدريجي هذه الليلة. وعلى الرغم من أنها ليست شخصاً قاسياً، إلّا أنها تذكّرتْ أنها لم تقوَ على كبح جماح ضحكها وهي تراقب زوج أمها، الذي كان حينئذٍ يُعاني من مرض باركنسن، وهو يرفع ملء شوكة من البازيلاء، لكنّه وجد أنَّ الشوكة قد أضحتْ فارغة حالما وصلتْ إلى فمه. لكنها لم تُخبره أبداً أنها تكرهه. لم تتكلَّم حينئذٍ، ولن تتكلَّم الآن.

قال ديفيد «انظري إلى إلينور، إنها تحمل تعبير الوجه الذي لا ترسمه إلّا عندما تفكِّر في أمها العزيزة الثريّة والميتة. ألستُ مُصيباً، يا عزيزتي؟» كان يتملّقها، «ألستُ كذلك؟»

اعترفت «نعم، أنت مُصيب»

قال ديفيد بنبرة رجل يقرأ قصّة *Little Red Riding Hood* لطفلة ساذجة، «كانت والدة إلينور وخالتها تظنان أنَّ في استطاعتهما أنْ تشتريا قطعاً أثريّة بشريّة. كانت حاملتا الألقاب العريقة اللتان أكلَهما العثّ مُدجّجتين بحزم

1- أي في تاريخ بدء الثورة الفرنسيّة - المترجم.

من الدولارات، ولكن...»، ختمَ بعبارة مبتذلة دافئة لم تُخفِ تماماً نواياه الفكهة، «لا يمكن معاملة الكائنات البشريّة كأنها أشياء».

قالت بريدجت، مذهولة من سماع نفسها تتكلَّم «من دون أدنى شك»

قال ديفيد، وقد انتبه فجأة، «أتوافقينني؟»

قالت بريدجت، التي بدا كأنها كسرتْ صمتها الخاصّ بشروط مُحدَّدة نوعاً ما، «طبعاً»

اقترحتْ آنْ «ربما القطعُ الأثريّة نفسها أرادتْ أنْ تُجلَب»

قال ديفيد «لا أحد يشكّ في هذا. أنا واثق من أنَّ القِطع الأثريّة كانت تلعق زجاج النافذة. والمُذهل هو أنه بعد إنقاذها، تجرّأتْ على الوقوف على قوائمها الخلفيّة النحيلة طراز لوي كانز وبدأتْ بإصدار الأوامر. يا للجحود!».

قال نيكولاس «يا إلهي! أستطيع أنْ أهِبَ أي شيء مقابل أصحاب قوائم لوي كانز تلك - لا بد أنها كانت جرواً أو اثنين»[1]

شعر فيكتور بالحرج بالنيابة عن إلينور. فهي التي ستدفع فاتورة العشاء، في نهاية المطاف

أربك بريدجت ما قال ديفيد. فوافقت من كل قلبها على ما قال عن أنَّ البشر ليسوا مجرد أشياء. في الحقيقة، ذات يوم كانت تسافر وأدركتْ بوضوح غامر أنَّ خَطْب العالم يكمن في معاملة الناس بعضهم للبعض الآخر كأنهم أشياء. لقد كانت قضيّة كبرى ومن الصعب التمسُّك بها، ولكنْ في ذلك الوقت كان إحساسها بها قويّاً، وحسِبَتْ أنَّ ديفيد كان يُحاول أنْ يقول الشيء نفسه. كانت مُعجَبَة به لأنه الشخص الوحيد الذي بثّ الخوف في نيكولاس. ومن ناحية أخرى، لقد فهمت سبب إخافته لنيكولاس.

وطفح الكيل بالنسبة إلى آنْ. شعرتْ بمزيج من الضجر والتمرُّد ذكّرها بعهد المراهقة. لم يعُد في استطاعتها أنْ تتقبَّل المزيد من تقلُّب مزاج ديفيد، وطريقته في مضايقة إلينور، وتعذيب نيكولاس، وجعلْ بريدجت تلزم الصمت، وحتى أنْ يسحق فيكتور.

1- قال هذا مُحاكياً اللكنة السوقيّة - المترجم.

تمتمت لإلينور «آسفة، سوف أعود حالاً»

في عتمة الرواق، أخرجتْ سيجارة من حقيبتها وأشعلتها. انعكسَ ضوء لهب عود الثقاب على المرايا كلها في كل أرجاء الرواق، وجعلتْ شظيّةً من الزجاج تومض برهة عند أسفل الدَّرَج. عندما انحنت آنْ لكي تلتقط قطعة الزجاج بطرف إبهامها أدركتْ فجأة أنَّ هناك مَنْ يُراقبها، فرفعت بصرها ورأتْ باتريك جالساً على الدَّرَجة الأوسع عند منعَطَف مطلع الدَّرَج. كان يرتدي بيجامته الفانيلا التي تحمل رسوم الفيلة، لكنَّ وجهه بدا كئيباً.

قالت آنْ «مرحباً، باتريك، تبدو مكتئباً. ألا تستطيع النوم؟»

لم يُجب أو يتحرك. قالت آن «يجب أنْ أتخلَّص من قطعة الزجاج هذه. أعتقد أنَّ شيئاً ما انكسر هنا قبل قليل؟»

قال باتريك «أنا فعلتُ هذا»

قالت «انتظر لحظة»

قال باتريك في نفسه، إنها تكذب، ولن تعود.

لم تكن هناك سلّة مهملات في الرواق، لكنّها أسقَطَتْ الشظيّة عن إصبعها داخل موقع المظلّة البورسلان الممتلئ بمجموعة من عصي ديفيد الغريبة.

هرعتْ عائدة إلى باتريك وجلستْ على الدَّرَجة التي خلفه. سألته برقّة، واضعة يدها على ذراعه، «هل جرحتَ نفسك بقطعة الزجاج تلك؟»

ابتعد عن يدها وقال «دعيني وشأني»

سألته آنْ «أتريد مني أنْ أستدعي أمك؟»

قال باتريك «نعم»

قالتْ آنْ «حسن. سوف أذهب وأُحضرها في الحال». في قاعة الطعام، سمعَتْ نيكولاس يقول لفيكتور، «كنا ننوي ديفيد وأنا أنْ نسألك قبل العشاء إنْ كان جون لوك[1] هو حقاً الذي قال إنَّ الرجلَ الذي ينسى جرائمه لا ينبغي معاقبته عليها»

1- جون لوك (1632 –1704): فيلسوف إنكليزيّ. ناقش مسألة التطبيب التجريبيّ (من دون الاستعانة بالعِلم أو بالنظريات)، أي أنَّ المعرفة كلها تعتمد على التجريب – المترجم.

قال فيكتور «نعم، هذا صحيح. لقد أثبتَ أنَّ الهويّة الشخصيّة تعتمد على استمراريّة الذاكرة. وفي حالة الجريمة المنسيّة سوف يُعاقَب الشخص الخطأ»

قال نيكولاس «سوف أشرب نخب هذا»

مالتْ آنْ على إلينور وقالت لها بهدوء، «أعتقد أنّه ينبغي أنْ تخرجي وتجتمعي بباتريك. كان جالساً على الدَّرَج وطلبَ رؤيتك»

همستْ إلينور «شكراً لك»

قال ديفيد «ربما ينبغي أنْ يحدث العكس. إنَّ الرجل الذي يتذكَّر جرائمه يمكن في المعتاد الاتّكال عليه في مُعاقبة نفسه، في حين أنَّ على القانون أنْ يُعاقب الشخص الذي لا يشعر بالمسؤوليّة بالقدر الكافي لكي ينسى»

غرَّدتْ بريدجت «أتؤمن بعقوبة الإعدام؟»

قال ديفيد «لم أفعل منذ أنْ توقفتْ عن أنْ تكون مناسبة عامة. في القرن الثامن عشر كانت مشاهدة الشنق نزهة حقيقيّة ممتعة»

أضاف نيكولاس «كان الجميع يستمتعون بوقتهم: حتى الرجل المشنوق»

تابع ديفيد كلامه «متعة للعائلة كلها. أليست هذه هي العبارة التي يستخدمها الجميع في هذه الأيام؟ يعلمُ الله أنَّ هذا ما أسعى إليه أنا دائماً، ولكن لا بد أنَّ القيام برحلة بين حينٍ وآخر إلى تايبرن كانت تجعل المهمّة أيسر»

قهقه نيكولاس بضحك مكبوت. وتساءلتْ بريدجت عمّا يكون تايبرن. ورسمت إلينور ابتسامة واهنة، ودفعَتْ كرسيها إلى الخلف.

قال ديفيد «آمل ألّا تتركينا، يا حبيبتي»

تمتمت إلينور «أنا مُضطرة... سوف أعود سريعاً»

«لم أسمع جيداً ما قلتِ: أقلتِ أنكِ سوف تعودين سريعاً؟»

«لديّ عمل يجب أنْ أنجزه»

قال ديفيد بشهامة «حسن، أسرعي، أسرعي، أسرعي. سوف نتوه من دون حديثك الممتع»

مشتْ إلينور نحو الباب في الوقت نفسه الذي فتحته إيفيت حاملة إبريق شايّ فضياً.

قالتْ آنْ «لقد وجدتُ باترَيك جالساً على الدَّرَج، وبدا حزيناً»

تحركت عينا ديفيد بسرعة البرق عائدة إلى جهة إلينور وتجاوزتا إيفيت. قال «حبيبتي»، ومن ثم أضاف بنبرة باتّة، «إلينور».

التفتتْ، وأسنانها مُطبَقة بإحكام، مُحاولة أنْ تتماسك وتثبتْ. كانت دائماً تقضم أظافرها غير النامية عندما لا تدخّن. قالت «نعم؟»

«حسبتُ أننا اتفقنا على ألّا نندفع إلى باتريك كلما أنَّ وانتحب»

«ولكن لقد سبقَ أنْ سقط قبل قليل وربما جرح نفسه»

قال ديفيد بجديّة مُفاجئة «في هذه الحالة، قد يحتاج إلى طبيب». أراح راحتَي يديه على سطح الطاولة، كأنه ينوي أنْ ينهض.

قالتْ آنْ، لكي تكبح جماح ديفيد، «أوه، لا أعتقد أنّه تأذّى». كان لديها شعورٌ قويّ بأنّها لن تكون قد أوفتْ بوعدها لباتريك إذا أرسلت إليه والده بدل والدته. «هو فقط يحتاج إلى بعض المواساة»

قال ديفيد «في الواقع، يا عزيزتي، هو لم يتأذَّ، لذلك فالأمر هو مجرد سؤال عاطفيّ: هل نُطلِقَ العنان للطفل كي يرثي نفسه، أم لا؟ هل يسمح المرء لنفسه بأنْ يتعرَّض للابتزاز، أم لا؟ تعالي لنجلس - على الأقلّ نستطيع أنْ نتناقش حول الأمر»

عادتْ إلينور بحذر إلى كرسيها على مضض. كانت تعلم أنها سوف تُدفَع إلى خوض حديث تخرج منه مهزومة، ولكنه لن يُقنعها.

قال ديفيد «إنَّ ما أريد قوله هو أنَّه ينبغي أنْ يكون التثقيف شيئاً يمكن للطفل أنْ يقول عنه لاحقاً: ما دمتُ قد تجاوزتُ هذا، فسوف أتجاوز كل العقبات»

قالت آنْ «هذا كلام جنونيّ وخطأ، وأنتَ تعلم هذا»

قال فيكتور «إنني حتماً أعتقد أنَّه ينبغي مَدُّ حدود قُدرات الأطفال، ولكنني أيضاً متيقِّن من أنَّ ذلك غير ممكن إنْ كانوا في حالة بؤسٍ شديد»

قال نيكولاس، وهو ينفخ وجنتيه بصورة لا تُصدَّق، «لا أحد يريد أنْ يُسبِّب البؤس لأحد. إننا فقط نقول إنه لا يفيد الطفل أبداً أنْ يكون مُدلَّلاً. قد أكون رجعيّاً مُخيفاً، لكنني أعتقد أنَّ كل ما عليك أنْ تفعل من أجل الأطفال هو أنْ تستعين بمربّية مناسبة وأنْ تُعدّهم للانتساب لمدرسة إيتون»

قالت بريدجت وهي تقهقه «ماذا، مربّيات؟ على أي حال، ماذا لو أنَّ لديك فتاة؟»

رماها نيكولاس بنظرة صارمة.

قالت آنْ لنيكولاس «أعتقد أنَّ هذا يضع الأمور في صُلب اختصاصك»

تابعَ نيكولاس راضياً «أوه، أعلم أنها وجهة نظر عتيقة الطِراز بالنسبة لهذه الأيام، ولكن في رأيي لا شيء يحدث للمرء وهو طفل يهمّ حقاً»

قالتْ آن «إذا ناقشنا أموراً لا تهمّ، فأنتَ على رأس قائمة تلك الأمور»

قال نيكولاس، بصوته الشبيه بصوت مُعلِّق رياضيّ، «أوه، يا إلهي، هذه لكمة عنيفة بظاهر الكف من امرأة أميركيّة شابة، لكنَّ حَكَم الخط يُسيطر»

قالت بريدجت، ولا زالت مُعجبة بفكرة المربيات بالسترات الرسميّة، «أستشفُّ مما أخبرتني أنّه لم يحدث في طفولتك *أنت* ما يستحق الذِكر: أي كنتَ تفعل ما توقّعه الجميع منك». وشعرتْ بضغط غامض على فخذها الأيمن، فالتفتت بسرعة نحو ديفيد، لكنّه كان يُحدِّق أمامه، راسماً تعبيراً مرتاباً على وجهه. توقف الضغط. وعلى جانبها الآخر، كان فيكتور يُقشِّر ثمرة رحيقاني[1] بدقّة سريعة.

قال نيكولاس، باذلاً جهداً ظاهراً للحفاظ على هدوئه، «صحيح، كانت فترة طفولتي خالية من الأحداث. إنَّ الناس لا يتذكرون السعادة بالعناية التي يُغدقونها على الحِفاظ على أدقّ تفاصيل معاناتهم. أتذكّر أنني داعبتُ وجنتي على ياقة معطفي المخمل. وأنني كنتُ أطلب قطعاً نقديّة من جدِّي لكي أرمِيها في تلك البركة الذهبيّة في الريتز. وأتذكّر مروجاً شاسعة. ودلاءً ورفوشاً. وأشياء كهذه»

1- الرحيقاني: ثمرة تشبه الدرّاق أو الخوخ - المترجم.

لم تستطع بريدجت أنْ تركّز على ما كان نيكولاس يقوله. لقد شعرتْ بمعدنٍ بارد على رُكبتها. وعندما نظرتْ إلى أسفل، رأتْ ديفيد يرفع طرف ثوبها بسكين صغيرة فضيّة ويُمرّرها على طول فخذها. ماذا يظن نفسه فاعلاً؟ تجهّمتْ في وجهه مؤنّبةً. كان قد ضغط الطرف المُدبَّب أكثر بحزم داخل فخذها، من دون أنْ ينظر إليها.

مسحَ فيكتور رؤوس أصابعه بفوطته، وهو يُجيب عن سؤالٍ لم تسمعه بريدجت. بدا ضجراً قليلاً وهذا ليس مُفاجئاً، لو أنها سمعت جوابه. «لا شك في أنّه لو أنَّ درجة الترابُط النفسي والاستمراريّة النفسيّة تدنَّت بقدرٍ كافٍ، لصحَّ القول إنَّ على المرء ألّا يرعى أطفاله بأكثر من مستوى الفضول المُتصدِّق».

عادتْ ذاكرة بريدجت إلى خِـدَعِ والدها في الاستحضار الأحمق للأشياء، وإلى أثواب أمها بأزهارها المطبوعة الفظيعة، لكنَّ ما شعرتْ به لم يكن فضولاً مُتصدِّقاً.

قال ديفيد، ملتقطاً ثمرة تين من الوعاء الذي في منتصف الطاولة، «أترغبين في واحدة من هذه؟ تكون في أحسن حالات نضجها في مثل هذا الوقت من العام»

قالتْ «كلا، شكراً»

ضغط ديفيد ثمرة التين بحزم بين إصبعيه ودفعها نحو فم بريدجت، قال «هيا، أعلمُ كم تحبينه»

فتحت بريدجت فمها طائعة وتلقّتْ الثمرة بين أسنانها. احمرَّت خجلاً لأنَّ الصمت رانَ على الجالسين على الطاولة وأدركتْ أنَّ الجميع كانوا يُراقبونها. وحالما أُتيحتْ لها الفرصة أخرجَتْ ثمرة التين من فمها وسألتْ ديفيد إنْ كان في وسعها أنْ تستعير سكينه لتقشيرها بها. وتعجَّبَ ديفيد من سرعة وتسلُّل هذا التكتيك وناولها السكين.

راقبتْ إلينور بريدجت وهي تُمسِك بثمرة التين بإحساس مألوف بالموت. لم تر ديفيد أبداً يفرِض إرادته على أي شخص من دون أنْ تفكر في عدد المرات الكثيرة التي فرض فيها إرادته عليها.

كانتْ تكمن في أعماق خوفها الذكرى المُجزَّأة لليلة حملها بباتريك. وتخيّلتْ رُغماً عنها منزل منطقة كورنويل القائم على لسانها الضيِّق، الرطب دائماً، الكئيب دائماً، الذي ينتمي إلى المحيط الأطلسي أكثر من انتمائه إلى الأرض. لقد دفعَ القاعدة الجوفاء لجمجمتها نحو زاوية الطاولة ذات السطح الرخاميّ. وعندما تحرَّرتْ منه سدَّدَ ضربة إلى خلف رُكبتيها وجعلها تسقط على الدَّرَج وهناك اغتصبها، بعد أنْ لوى ذراعيها خلف ظهرها. لقد كرهته كأنه شخصٌ غريب وكرهته كأنه خائن. يا الله، كم بغضته، ولكن عندما أصبحتْ حاملاً قالتْ إنها سوف تمكث إذا كفَّ عن لمسها من جديد *إلى الأبد*.

مضغتْ بريدجت ثمرة التين بلا حماس. وبينما آنْ تراقبها، لم يسعها إلّا أنْ تفكِّر في السؤال السحيق في القِدَم الذي تطرحه كل امرأة على نفسها في وقتٍ من الأوقات: هل ينبغي أنْ أتقبّلَ الأمر؟ وتساءلتْ هل تتخيَّل بريدجت كجارية تضع ياقة ترتدي ثوباً يمتد حتى قدميها يمتلكها متنمِّر شرقيّ، أم كتلميذة مدرسة متمرّدة أُجبِرَتْ على أكل فطيرة تفّاح حاولتْ أنْ تتركها وراءها بعد الغداء. وفجأة شعرتْ بانفصال تامّ عن المجموعة المُحيطة بها.

فاجأ نيكولاس آنْ بأنّه أصبح أشدّ إثارة للرثاء من قبل. كان مجرد أحد الإنكليز الذين ينطقون دائماً بأشياء حمقاء لكي يبدون أقلّ غروراً، ولكي تبدو الأشياء الطنّانة أقلّ سُخفاً. تحوَّلتْ الأشياء إلى مُحاكاة ذاتية ساخرة من دون تكبُّد عناء اكتساب ذات أولاً. وديفيد، الذي ظنَّ أنّه المخلوق الأسطوري في المسلسل الكرتونيّ «*البحيرة السوداء*»، كان نوعاً أرقى من هذا الفشل المعقَّد. نظرتْ إلى كتفيّ فيكتور العريضتين المرتخيتين فوق بقايا ثمار الرحيقانيّ. لم يستمر في المزاح شبه البارع الذي كان في المعتاد يشعر بأنَّ من واجبه أنْ يمدّهم به. تذكّرته يقول في وقت مُبكِّر من ذلك الصيف، «قد أقضي عمري في الشك المتواصل، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بالثرثرة فإنني أحبّ الحقائق *الصلبة*». ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم تعد هناك غير الحقائق الصلبة. واليوم كان هو مختلفاً. ربما أراد حقاً أنْ يقوم من جديد بإنجاز بعض العمل.

حتى تعبير وجه إلينور المسحوق أيضاً لم يعد يؤثِّر فيها. والشيء

الوحيد الذي جعل انفصال آنْ يتداعى كان التفكير في باتريك الجالس على الدَّرَج ينتظر، وخيبة أمله تتعاظَم في أثناء انتظاره، لكنَّ ذلك عمل فقط على حثّها نحو النتيجة نفسها: وهي أنها لم تعُد ترغب في أنْ تكون لها أيّة صِلة بهؤلاء القوم، وأنّه حان الوقت للمغادرة، حتى وإنْ كانت المغادرة باكراً سوف تسبّب الحرج لفيكتور. مدَّتْ بصرها حتى مكان فيكتور، رافعة حاجبيها وموجّهة عينيها نحو الباب. وبدل تعبير التجهُّم القليل الذي توقّعته منه، أومأ فيكتور برأسه إيجاباً سرّاً وكأنه يتّفق مع طاحونة الفلفل. سمحتْ آنْ بمرور بضع لحظات ثم مالتْ على إلينور وقالت، «إنه أمرٌ مُحزِن، ولكنني أعتقد أننا ينبغي حتماً أنْ نغادر. لقد كان نهارنا طويلاً، ولا بد أنكِ أنتِ أيضاً مُرهقة»

قال فيكتور بحزم «نعم، يجب أنْ أستيقظ باكراً في صباح الغد وأُحرِز بعض التقدُّم في عملي». تهادى وهو ينهض وبدأ يشكر إلينور وديفيد قبل أنْ يُتيح لهما الفرصة لإبداء احتجاجاتهما المعتادة.

في الحقيقة، لم يكد ديفيد ينظر إليها. استمرَّ في تمرير ظِفر إبهامه حول الطرف المختوم من سيجاره، قال، رداً على عبارات الشكر الصادرة عنهما، «أنتما تعرفان طريق الخروج، وآمل أنْ تسامحاني لعدم تلويحي لكما مودِّعاً»

قالت آنْ، بجديّة لم تكن تقصدها، «لا بأس»

كانت إلينور تعلم أنَّ هناك صيغة معيَّنة يستخدمها الجميع في مثل تلك المواقف، لكنّها لم تتمكن من العثور عليها. وكلما فكّرتْ فيما كانت تنوي أنْ تقول، يتملَّص منها، وتغوص في زحام الأشياء التي لا ينبغي أنْ تقولها. كان أشدّ الهاربين نجاحاً هم في الغالب أشدّهم بلادة، هي الجُمَل التي لا ينتبه إليها أحد إلى أنْ لا يجهر بها أحد: «كم أنا سعيد برؤيتك... ألا تُطيل مكوثك أكثر قليلاً... إنها فكرة جيدة جداً...»

أغلقَ فيكتور باب قاعة الطعام خلفه بعناية، كمَنْ لا يريد أنْ يوقِظ حارساً نائماً. وابتسم لآنْ فردَّتْ له الابتسامة بأخرى، وفجأة أدركا كم ارتاحا لمغادرتهما آل ميلروز. وبدأا يضحكان بصمت ويمشيان على رؤوس أصابع أقدامهما نحو الرواق.

همسَتْ آنْ «سوف أرى فقط إنْ كان باتريك ما زال هنا»

همس فيكتور «لماذا نهمس؟»

ردَّتْ آنْ «لا أعلم». نظرتْ إلى أعلى الدَّرَج. كان خالياً. من الواضح أنّه ملّ الانتظار وعاد إلى السرير. قالت لفيكتور «أعتقد أنّه نام»

خرجا من الباب الأمامي ثم ارتقيا الدَّرَج العريض نحو سيارتهما. كان القمر مخدوشاً بسُحُبٍ رقيقة ومُحاطاً بحَلَقَة من الضوء المُبعثَر.

قالتْ آنْ «لا تستطيع أنْ تقول إنني لم أحاول. لقد مكثتُ بينهم هناك إلى أنْ بدأ نيكولاس وديفيد يضعان الخطوط العامة لبرنامجهما التثقيفيّ. ولو أنَّ أحد أصدقائهما من الشخصيات المهمّة، كجورج، شعر بالحزن والوحشة لطارا عائدَين إلى إنكلترا وقاما *شخصيّاً* بإعداد مشروب المارتيني له وشحن المسدسات، ولكن عندما شعر ابنه من صُلبه بالحزن والوحشة في الغرفة المُجاورة لغرفته، قاوما كل محاولة للتخفيف من بؤسه»

قال فيكتور، فاتحاً باب السيارة، «أنتِ على صواب، في الختام على المرء أنْ يُكافح القسوة، على الأقلّ برفض الاشتراك في ممارستها»

قال آنْ «إنّ تحت ذلك القميص الجديد ينبض قلبٌ من ذهب»

قالتْ إلينور لنفسها، أينبغي أنْ تغادري. *تلك* كانت العبارة. لقد تذكّرتها. وهناك أخرى تقول، في كل تأخير يوجد خير، وهي لا تنطبق تماماً على هذه الحالة. أحياناً تتأخّر الأمور كثيراً، تتأخّر في لحظة حدوثها. هناك أناس آخرون يعرفون ما ينبغي أنْ يقولوا، يعرفون ما يعنون، وثمة آخرون – غيرهم– يعرفون ما يعنيه الآخرون عندما يتكلّمون. يا إلهي، إنها ثملة. عندما ظهرت الدموع في عينيها، بدا لهب الشموع كأنّه إعلان عن مشروب، يتناثر إلى أشواك من الضوء بلون خشب الماهوغاني. إنها ليست ثملة بما يكفي لإيقاف أنصاف الأفكار من الخروج إلى الليل، والتي تحرمها من أي راحة. لعلّها تستطيع الآن أنْ تذهب لترى باتريك. لقد تسلّلتْ، ما اسمها، بدهاء حالما غادر فيكتور وآنْ. قد يسمحان لها أيضاً بالمغادرة. ولكن ماذا لو لم يسمحا؟ لا تستطيع تحمُّل فشل آخر،لا تستطيع أنْ تنحني مرة أخرى. وهكذا لم تفعل أيّ شيء مدة زمنيّة أخرى.

اقتطفَ نيكولاس قائلاً، مع قليل من الابتهاج، «إنْ كان لا شيء يهمّ، فأنت الأول على قائمتي. إنَّ فيكتور يستحقّ الاحترام الذي يحاول جاهداً أنْ يكون تقليديّاً، لأنَّ لديه صديقة تقليديّة بكل معنى الكلمة».

قال ديفيد «لا شيء مُسلٍ يُضاهي تقريباً شخصاً متكبّراً يهودياً بارعاً»

قال نيكولاس، بصوت القاضي، «إنَّ استقبالك له في بيتك يدل على سِعة أفق منك»، ثم هدر قائلاً، وهو يُعدِّل من وضع شَعره المُستعار[1] «قد يشعر بعض أعضاء المُحلَّفين بأنَّها سِعة أفق *مُغالٍ* فيها، ولكن ليس أنا مَنْ يحكم على هذا. لطالما كان انفتاح المجتمع الإنكليزيّ هو نقطة قوته العظمى: أصبح مُقاولو ومُحدثو نعمة الأمس -كآل سيسيل، على سبيل المِثال- هم حرّاس الاستقرار في غضون فقط ثلاثمائة أو أربعمائة عام. ومع ذلك، ليس هناك مبدأ، مهما كان جديراً بالثناء بحدّ ذاته، غير قابل للفساد. ويعود الأمر إليكم، إليكم وحدكم، أنْ تحكموا إنْ كان انفتاح وسماحة ما تحبّ الصحافة أنْ تسمّيه «المؤسّسة» أُسيء استعمالهما في هذه المناسبة، باستضافة مُثقف خطِر من أُصول ساميّة غامضة»

كشّرَ ديفيد. كان مُستعداً لتقبُّل المزاح. فقبل كل شيء، إنَّ ما يُخلِّص الحياة من الرعب التامّ هو العبث بعدد غير محدود تقريباً من الأشياء. وكل ما يحتاج إليه الآن هو التخلّص من إلينور، التي كانت ترتعش بصمت كخنفساء منقلبة على ظهرها، وإحضار زجاجة من البراندي، والجلوس ليتسامر مع نيكولاس. كان الوضع مثاليّاً. قال «فلننتقل إلى غرفة الجلوس»

قال نيكولاس، الذي علِمَ أنّه تغلَّبَ على ديفيد ولم يرغب في خسارة هذا الامتياز بإيلاء الانتباه لإلينور، «عظيم». نهضَ واقفاً، وأفرغَ كأسه من النبيذ، ولحقَ بديفيد إلى غرفة الجلوس.

بقيَتْ إلينور ساكنة على كرسيها، غير قادرة على تصديق مدى حُسن حظّها بانفرادها تماماً بنفسها. واندفع ذهنها نحو التصالُح الرقيق مع باتريك، لكنّها بقيتْ مسترخية أمام بقايا وجبة العشاء. وفُتِحَ الباب فقفزتْ إلينور. كانت فقط إيفيت.

1- بحركة مُحاكية وساخرة لِما يحدث في قاعة المحكمة - المترجم.

Oh, pardon, Madame, je ne savais pas que vous etiez toujours»
la » (أوه، أنا آسفة، مدام، لم أكن أعلم أنكِ ما زلت موجودة هنا)

قالت إلينور بنبرة اعتذار، «*Non, non, je vais justement partir*» (كلا، كلا، كنتُ سأغادر في الحال). اجتازتْ المطبخ ومنه ارتقت الدَّرَج الخلفي لتفادي مقابلة نيكولاس وديفيد، قاطعةً مسافة الرواق كلها لترى إنْ كان باتريك لا يزال ينتظرها على مطلع الدَّرَج. لم يكن موجوداً هناك. وبدل أنْ تشعر بالامتنان لأنه عاد إلى السرير، شعرتْ بإحساس زائد بالذنب لأنها لم ترجع سريعاً لتواسيه.

فتحتْ باب غرفته برفق، يُعذّبها صرير المفاصل. كان باتريك نائماً في سريره. وبدل أنْ تزعجه، تراجعت على أطراف أصابع قدميها وخرجت من الغرفة.

كان باتريك يستلقي يقظاً. كان قلبه يضرب بقوة، وعلِمَ أنّها أمّه، لكنها تأخرتْ في المجيء. لن يستدعيها مرة أخرى. عندما كان لا يزال ينتظر على الدَّرَج وفُتِحَ باب الردهة، انتظر لكي يرى إنْ كان القادم هو أمّه، واختبأ خشية أنْ يكون والده. لكنها كانت فقط المرأة التي كذبتْ عليه. كان الجميع يستخدمون اسمه ولكن من دون أنْ يعرفوا مَنْ يكون. وذات يوم سوف يلعب كرة القدم برؤوس أعدائه.

مَنْ يظن نفسه بحقّ الله؟ كيف يجرؤ على إقحام سكين داخل ثوبي؟ تخيّلتْ بريدجت نفسها تخنق ديفيد وهو جالس على الكرسي في قاعة الطعام، وإبهاماها يضغطان على قصبته الهوائيّة. ومن ثم تخيّلتْ، باضطراب، أنها سقطتْ في حجره، في أثناء خنقها له، وشعرتْ بأنّ لديه انتصاباً أقصى. قالت بصوتٍ مرتفع، «شيء مُقرِف، مُقرف ومُقزِّز». على الأقلّ كان ديفيد منفعلاً، مُقرِفاً بانفعال، لكنه منفعل. خلاف نيكولاس، الذي اتّضَحَ أنّه خنوع بالكامل، ومُثير حقاً للرثاء. والآخرون مُملّون جداً. فكيف يُنتَظَر منها أنْ تقضي لحظة أخرى في منزله؟

رغبتْ بريدجت في تدخين سيجارة لتخفِّف من سخطها. فتحت حقيبة

سفرها وأخرجت كيس بلاستيك من داخل حذائها الكاوبوي. الكيس يضم بعض الحشيش الأخضر الداكن كانت قد نزعت عنه البذور والسيقان، مع حزمة من ورق لفّ السجائر. جلستْ على طاولة مسلّية من الطراز القوطيّ محشورة بين نافذتَي غرفة النوم المستديرتين. كانت حزمٌ من ورق الكتابة الممهور بنقشٍ مكدَّسٍ تحت أطول الأقواس، والمُغلفات تحت الأقواس الأصغر على كلتا الجهتين. وعلى درفة باب طاولة الكتابة وُضِعَتْ مِختمة من الجلد الأسود مُثبّتة عليها قطعة كبيرة من ورق النشّاف. لفّتْ سيجارة صغيرة فوقها ومن ثم جمعتْ وريقات العشب الزائدة بعناية وأعادتها إلى الكيس.

أطفأتْ النور لإشاعة جو أكثر شعائريّة وخصوصيّة، وجلستْ بريدجت على عتبة النافذة المنحنية وأشعلتْ سيجارتها المُخدِّرة. كان القمر قد ارتفعَ فوق السحب الرقيقة ورمى ظلالاً عميقة على المصطبة. استنشقتْ عموداً سميكاً وملتوياً من الدخان باستمتاع إلى داخل رئتيها وأبقته هناك، ولاحظتْ كيف يجعل الوهج الباهت لأوراق شجرة التين تبدو كأنها اقتُطِعَتْ من وعاء قصديريّ قديم. وبينما هي تنفث الدخان ببطء من خلال الثقوب الصغيرة للناموسيّة سمعتْ الباب يُفتَح تحت نافذتها.

سمعتْ نيكولاس يسأل «لماذا السترات الرياضيّة الفضفاضة شائعة؟»

أجابَ ديفيد «لأنَّ الأناس المخيفين أمثاله يرتدونها»

قالتْ بريدجت في نفسها، يا الله، ألا يملّون أبداً التشنيع على الناس؟ أو، على الأقل، الناس الذين لا تعرفهم. أو، هل هي تعرفه؟ وتذكّرتْ بريدجت، مع ومضٍ من الإحساس بالخزي وبالارتياب، أنَّ والدها كان يرتدي من تلك السترات الرياضيّة الفضفاضة. لعلهما يُحاولان أنْ يُهيناها. حبسَتْ أنفاسها وجلستْ بسكون تامّ. أصبحَ في استطاعتها الآن أنْ تراهما، يُدخنان معاً سيجاريهما. ثم تمشيا على المصطبة، وتلاشى حديثهما مع ابتعادهما نحو الطرف القصيّ. وسحبتْ سحبة أخرى من سيجارتها؛ كادتْ تنتهي، لكنّها أشعلتها من جديد. ربما أولاد الحرام يتحدثان عنها، لكنها ربما تعتقد هذا لأنها تحت تأثير الحشيش. حسن، لقد كانت مُخدَّرة *حقاً* وكانت تعتقد ذلك. ابتسمتْ بريدجت. تمنَّتْ لو أنها برفقة شخص معاً لكي يشاركها

الحماقة. لعقَتْ إصبعها وهي تُطفئ جانب السيجارة المُخدِّرة التي كانت تحترق بسرعة كبيرة. كانا يتمشيان عائدَين الآن واستطاعتْ من جديد أنْ تسمع ما كانا يقولان.

قال نيكولاس «أعتقد أنَّ عليّ أنْ أُجيب عن هذا السؤال بالملاحظة التي أدلى بها كرويدن -بالمناسبة، هي لم تُقتَطَف في الاحتفال بذكراه- عندما شوهد وهو يخرج من مرحاض عام مُشين في هاكني». هنا ارتفعت نبرة صوت نيكولاس مقدار ثُمن درجة، قال «لقد سعيتُ وراء الجمال إلى حيث قادني، حتى إلى أشدّ الأماكن قُبحاً»

قال ديفيد «لا بأس بها من سياسة، وإنْ كان قد عبَّر عنها بقليل من الاضطراب»

- 12 -

عندما عادا إلى المنزل، كانت آنْ في مزاجٍ حَسَن. استرختْ على الأريكة الكبيرة البنيّة، ورفسَت حذاءها لتخلعه، وأشعلتْ سيجارة. قالتْ لفيكتور «الجميع يعلمون أنّك صاحب عقل جبّار، ولكن ما يُثير اهتمامي هو جسمك الأقلّ شهرة بقليل»

ضحك فيكتور قليلاً بعصبيّة واجتاز أرض الغرفة لكي يصبّ لنفسه كأساً من الويسكي. قال «السُمعة ليست كل شيء»

أمرته آنْ برقّة «تعال إلى هنا»

سألَ فيكتور «أترغبين في مشروب؟»

هزَّتْ رأسها نفياً. راقبتْ فيكتور وهو يُسقِط مُكعّبين من الثلج في الكأس.

تقدَّمَ من الأريكة وجلسَ إلى جوارها، مبتسماً بعذوبة.

عندما مالتْ إلى الأمام لكي تُقبِّله، أخرج إحدى مُكعّبات الثلج من الكأس، وبسرعة غير متوقّعة زلقها داخل مقدمة ثوبها.

شهقَتْ آن، مُحاولة أنْ تُحافِظ على هدوئها، «أوه، يا إلهي، هذا شيء بارد ومنعش ولذيذ»، ثم أضافتْ، «ورطب»، وهي تتلوّى وتدفع بقطعة الثلج أكثر نحو أسفل ثوبها الأسود.

دسَّ فيكتور يده تحت ثوبها واستعاد مكعّب الثلج بأسلوب الخبير، ووضعه في فمه وأخذ يمتصّه قبل أنْ يتركه ينزلق من فمه عائداً إلى الكأس. قال، ممسِكاً رُكبتيها بحزم براحتي يديه، «رأيتُ أنكِ في حاجة إلى أنْ تبردي قليلاً»

هزَّتْ، بلهجة جنوبيّة ممطوطة «أوه، يا الله، على الرغم من مظهرك الخارجي، أرى أنكَ رجلٌ صاحب شهيّة قويّة»، ورفعَتْ إحدى قدميها إلى الأريكة وفي الوقت نفسه مدَّتْ يدها لكي تُمرِّر أصابعها خلال التموّجات الكثيفة لشَعر فيكتور. وجرَّتْ رأسه برفق نحو الوتر الممدود لفخذها المرفوع. قبَّلَ فيكتور القطن الأبيض لملابسها الداخليّة ورعى فيه كمَنْ يلتقط حبات عنب بين أسنانه.

جافى النوم إلينور، فارتدتْ رداءها اليابانيّ وعادتْ إلى سيارتها. شعرَتْ ببهجة غريبة وهي داخل سيارة البويك الجلديّ الأبيض، ومعها علبة سجائر بليرز وزجاجة من الكونياك أخرجتها من تحت مقعد السائق. واكتملتْ سعادتها عندما استمعت إلى راديو مونت كارلو واكتشفَتْ أنها تذيع إحدى أغانيها المُفضَّلة: «لديّ الكثير من لا شيء»، من مقطوعة «**بورغي وبيس**». أخذتْ تتمتم بكلمات الأغنية بصمت، «ولا شيء هو الكثير مني» وهي تهزّ رأسها من جانب إلى آخر، مع إيقاع الموسيقى.

عندما رأتْ بريدجت تمشي وهي تعرج تحت ضوء القمر وحقيبة السفر تضرب ركبتها، قالت إلينور في نفسها، وليس للمرة الأولى، إنَّها لا بد تهلوس. ما الذي تفعله هذه الفتاة؟ حسن، في الحقيقة الأمر غاية في الوضوح. إنها راحلة. وبساطة الفعل أثارت رعب إلينور. فبعد مرور سنين عديدة على حلمها بحفر نفق تحت غرفة الحارس من دون أنْ يلاحظها أحد، ذُهِلَتْ إذ رأتْ وافدة جديدة تشقّ طريقها خارجة من البوابة. تمشي ببساطة على طول الممر وكأنها حرَّة.

نقلَتْ بريدجت حقيبة السفر من يدٍ إلى أخرى. لم تكن متيقّنة إنْ كان يمكن حملها على خلفيّة دراجة باري. إنَّ الأمر برمّته غريب. كانت قد تركتْ نيكولاس في السرير، يغط كالمعتاد، كخنزيرٍ عجوز مُصاب ببرد ختاميّ. كانت الفكرة هي ترك الحقيبة في أسفل الممر لكي تعود وتُحضرها حالما تلتقي بباري. ومن جديد نقلتها من يدٍ إلى أخرى. إنَّ غواية الطريق المفتوحة تفقد حتماً بعضاً من سِحرها إذا أخذتَ معك أمتعتك.

ألاقيكِ عند الساعة الثانية والنصف بجوار كنيسة القرية، هذا ما قاله باري عبر الهاتف قبل العشاء. رمَتْ حقيبة سفرها داخل دغل من نبات إكليل الجبل، وهي تزفر تنهيداً نكداً لتبيِّن لنفسها أنها غاضبة أكثر منها خائفة. ماذا لو أنَّ القرية خالية من الكنائس؟ ماذا لو أنَّ حقيبة سفرها سُرِقَتْ؟ على أي حال كم تبلغ المسافة حتى القرية؟ يا الله، ما أعقد الحياة. كانت قد هربتْ من المنزل ذات مرة عندما كانت في التاسعة من العمر، لكنها عادتْ لأنها لم تتحمّل التفكير فيما يمكن أنْ يقوله والداها في أثناء غيابها.

عندما سارت بريدجت على الدرب المؤدي إلى القرية، وجدتْ نفسها مُحاطة بأشجار الصنوبر. وتكثَّفَتْ الظلال إلى أنْ غاب نور القمر عن الدرب. وحرَّكَتْ ريح خفيفة أغصان الأشجار الباسقة. فجأة تولى الخوف بريدجت، فتوقفت. أحقاً كان باري شخصاً مسلّياً عندما تطلّبَ الأمر أنْ يكون كذلك؟ بعد أنْ حدَّدا موعدهما قال، «احضري أو انسي الأمر!» حينئذٍ كانت مُشبّعة بفكرة الهرب من نيكولاس ومن آل ميلْروز إلى درجة أنها نسيتْ أنْ تنزعج، أمّا الآن فأدركتْ كم هذا مُزعِج.

كانت إلينور تتساءل هل تُحضِر زجاجة أخرى من الكونياك (كان الكونياك مُخصّصاً للسيارة لأنّه مُحفِّز جيّد)، أم تعود إلى السرير وتشرب الويسكي. في كلا الحالتين عليها أنْ تعود إلى المنزل. وعندما همَّتْ بفتح باب السيارة رأتْ بريدجت من جديد. هذه المرة كانت تترنَّح وهي تسير على الممشى، جارَّة حقيبة سفرها. شعرتْ إلينور بالبرد وبالانفصال. فقررتْ أنّه لم يعد هناك شيء يُفاجئها. ربما كانت بريدجت تفعل هذا في مساء كل يوم على سبيل التمرين. أو ربما أرادتْ أنْ يقلّها أحدٌ إلى مكانٍ ما. وفضّلتْ إلينور أنْ تراقبها على أنْ تتورَّط معها، ما دامت بريدجت ستعود إلى المنزل وبسرعة.

خُيلَ لبريدجت أنها سمعت صوتاً صادراً عن راديو، لكنها أضاعته من جديد وسط حفيف أوراق الأشجار. لقد زعزعها هروبها وأحرجها. إلى جانب أنَّ ذراعيها كادتا تنهاران من فرط التعب. حسن، لا بأس، على الأقل لقد أثبتتْ عزمها، بدرجة ما. وفتحتْ باب المنزل. فأصدر صريراً. لحُسن

الحظ، كان في استطاعتها أنْ تعتمد على كون نيكولاس لا يزال نائماً كفيلٍ مُخدَّر، بحيث لا يمكن لأي صوت أنْ يصِله. ولكن ماذا لو أنّها تسبَّبت في إيقاظ ديفيد؟ أمر مخيف. وصدر صرير آخر وأغلقتْ الباب خلفها. وبينما كانت تتسلل على طول الرواق سمعتْ ما يُشبه الأنين ومن ثم صرخة نائحة، كصرخة ألم.

استيقظَ ديفيد مع صرخة خوف. لماذا بحقّ الله يقول الناس، «إنّه مجرد حلم»؟ لقد أرهقته أحلامه ومزَّقته. كأنها تفتح باباً إلى طبقة أعمق من الأرق، كأنّه فقط تراخى ونام لكي يتبيَّن له إنه لا يستطيع أنْ يرتاح. وفي هذه الليلة حلُمَ بأنه المُعاق الذي شاهده في مطار أثينا. كاد يشعر بأطرافه تلتوي كجدعات التعريشة، ورأسه المهتزّ يحفر طريقه وهو يحاول أنْ يدفع نفسه إلى الأمام، ويداه العِدوانيتان تصفعان وجهه. وفي غرفة الانتظار في المطار كان المسافرون كلهم أناساً يعرفهم: ساقي حانة من سنترال في لاكوست، وجورج، وبريدجت، وأناس من حفلات أُقيمت في لندن على مدى عقود، كلهم يتحدثون ويقرأون الكتب. وها هو ذا، يجتهد لدفع نفسه عبر الغرفة وإحدى ساقَيه تُجرّ خلفه، يحاول أنْ يقول، «مرحباً، أنا ديفيد ميلروز، آمل ألّا يخدعكم شكلي التنكّريّ هذا»، ولكن لم ينجح إلّا في إصدار أنين، أو صرير، مع ازدياد يأسه، وهو يوزّع عليهم بشكل عشوائي مزعج إعلانات تجارية عن الجوز المُحمَّص. كان يُميِّز الحرج المرتسم على وجوههم، وخلو التعبير الزائف على وجوه آخرين. وسمع جورج يقول لجاره، «يا له من رجل شنيع حقاً»

أدار ديفيد مفتاح النور وأخذ يبحث عن نسخته من كتاب «*جوروكس ينطلق من جديد*». وتساءلَ إنْ كان باتريك سيتذكّره. كان هناك دائماً كبت، طبعاً، على الرغم من أنّه لم يبدُ أنّه فعّال جداً على رغباته. يجب أنْ *يحاول* ألّا يُعيد الكرَّة، وسوف يكون ذلك مصيراً مُغرياً حقاً. ولم يسع ديفيد إلّا أنْ يبتسِم من تهوّره.

لم يفِق باتريك من حُلمه، على الرغم من شعوره بإبرة تتسلَّل تحت

عَظمِة كتفه وتخرج من صدره. كان الخيط الثخين يُخيطُ رئتيه كأنهما كيس قديم حتى عجز عن التنفُّس. كان الذعر يحوم حول وجهه كالدبابير، تغوصُ وتتلوّى وتضرب الهواء.

شاهد الكلب الألزاسيّ الذي طارده في الغابة، وشعرَ كأنه يركض من جديد خلال أوراق الأشجار الصفراء التي تخشخش بخُطى واسعة تتسع أكثر فأكثر. ومع اقتراب الكلب حتى كاد ينقضّ عليه، بدأ باتريك يُجري عمليات حسابيّة بصوتٍ مرتفع، وفي اللحظة الأخيرة ارتفعَ جسمه عن الأرض إلى أنْ بدأ ينظر نحو أسفل إلى ذُرى الأشجار، كأنه ينظر إلى أعشاب بحرية على حافة قارب. كان يعلم أنّه لا ينبغي أنْ يسمح لنفسه بأنْ يستغرق في النوم. وتحته كان الكلب الألزاسيّ قد وصل إلى نقطة توقف عند كتلة عشوائيّة من الأوراق اليابسة والتقطَ غصناً ميّتاً بفمه.

- انتهى -

مكتبة

t.me/soramnqraa

خماسيّة باتريك ميلْروز

نبأ مشؤوم

رواية 

اسم المؤلف: إدوارد سينت أوبين

عنوان الكتاب: باتريك ميلْروز-نبأ مشؤوم

ترجمة: أسامة منزلجي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2023

Author: **Edward St Aubyn**

Title: **Patrick Melrose – Bad News**

Translated by: **Osama Menzlchi**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800

☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017

☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjich Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275

☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

نبأ مشؤوم

-II-

ترجمة: أسامة منزلجي



الإهداء

إلى آنا

- 1 -

تظاهرَ باتريك بالنوم، أملاً في أنْ يبقى المقعد المجاور له شاغراً، لكنّه سرعان ما سمعَ حقيبة أوراق تنزلق داخل الحجيرة فوق الرأس. ففتح عينيه على مضض ورأى رجلاً طويل القامة أفطس الأنف.

قال الرجل، مادّاً يداً كبيرة يُغطيها نمشٌ وشعرٌ أشقرُ كثيف، «مرحباً، أنا إيرل هامر. أعتقد أنني رفيقك في المقعد»

قال باتريك بلهجة فاترة، مادًّاً للسيد هامر يداً باردة يعوزها الحماس، «وأنا باتريك ميلْروز»

كان جورج واتفورد قد اتّصلَ بباتريك من نيويورك في وقتٍ مُبكرٍ من مساء اليوم السابق.

قال بصوتٍ متوتر وممطوط، كان يصله متأخراً بسبب عبوره المحيط الأطلسي، «باتريك، عزيزي، أخشى أنني أحمل إليك خبراً مشؤوماً جداً: لقد توفي والدك في ليلة يوم قبل أمس في غرفة الفندق حيث كان ينزل. ولم أتمكن أبداً من الاتصال بك أو بأمّك - أعتقد أنها في تشاد مع صندوق جمعيّة أنقذوا الأطفال - ولكن لا أستطيع أنْ أعبِّر لك عن مشاعري؛ لقد كنتُ مولعاً بوالدك، كما تعلم. والغريب هو أنّه كان من المُفترَض أنْ يتناول طعام الغداء معي في نادي كي في يوم وفاته، لكنّه طبعاً لم يأتِ؛ وأتذكَّر أنني فكَّرتُ في أنَّ ذلك ليس من عادته. لا بُدَّ أنَّ الصدمة شديدة عليك. لقد أحبّه الجميع، كما تعلم، يا باتريك. وقد نقلتُ الخبر إلى بعض أعضاء النادي وبعض الخدَم، فعبّروا عن عميق حزنهم لسماعهم خبر وفاته».

سألَ باتريك ببرود «وأين هو الآن؟»

«إنه في مركز فرانك إ. ماكدونالد في جادّة ماديسون: إنّه المكان الذي يلجأ إليه الجميع هنا، وأعتقد أنّه مكان جيد جداً»

وعدَ باتريك بأنه حالما يصل إلى نيويورك سوف يتصل بجورج.

قال جورج «يؤسفني أنْ أكون مَنْ يجلب لك مثل هذا الخبر المشؤوم. سوف تحتاج إلى حشدِ كل ما لديك من شجاعة خلال هذه الفترة العصيبة»

قال باتريك «شكراً على اتصالك. أراك غداً»

«وداعاً، يا عزيزي»

ترك باتريك الحقنة التي كان يستخدمها، وجلسَ بجوار الهاتف لا يأتي بحركة. أكان نبأً مشؤوماً؟ لعلّه سيحتاج إلى حشد كل ما لديه من شجاعة لكيلا يرقص في الشارع، ولكيلا يرسم أوسع ابتسامة على وجهه. تدفّقتْ أشعة الشمس من خلال زجاج النوافذ الغبِش والمُغبَرّ في شقّته. في الخارج، في إنيسمور غاردنز، كانت أوراق أشجار الدلب برّاقة بصورة مؤلمة.

فجأةً قفز عن كرسيه. وتمتم بنبرة تنمّ عن الانتقام «لن تفلت من العقاب». امتدَّ كُمّ قميصه وامتصَّ خيط الدم على ذراعه.

قال إيرل، «أتعلم، يا بادي»، بغضّ النظر عن أنَّ لا أحد كان يُخاطب باتريك «بادي»، «لقد جمعتُ كماً هائلاً من المال، ورأيتُ أنَّ الوقتَ قد آن للاستمتاع ببعض أطايب الحياة»

كانت قد مرّت نصف ساعة من الطيران ومع ذلك أصبح بادي صديقاً حميماً لإيرل.

شهقَ باتريك «هذا قرار سديد»

قال إيرل، هازّاً رأسه مُعبِّراً عن شكّه، «لقد استأجرتُ شقّة على الشاطئ في مونتي كارلو، ومنزلاً على التلال خلف موناكو. ***منزلاً غاية في الجمال***. وعيَّنتُ ساقياً إنكليزيّاً: هو الذي ينتقي لي السترة الرياضيّة التي ينبغي أنْ أرتدي – أتصدِّق؟ ويتوفّر لديّ وقت فراغ لقراءة صحيفة «***وول ستريت جورنال***» من الغلاف إلى الغلاف»

قال باتريك «حرية مُسكِرة»

«إنها *عظيمة*. وأنا أقرأ أيضاً كتاباً ممتعاً حقاً في الوقت الراهن، عنوانه «*الأزياء الشائعة الكبرى*»، *وأيضاً* كتاباً صينيّاً كلاسيكيّاً عن الحرب. هل لديك أي اهتمام بالحرب؟»

قال باتريك «ليس إلى درجة الهوس»

قال إيرل، مُحدِّقاً إلى الأفق من خلال كوة نافذة الطائرة، «أعتقد أنني شخص منحرف: لقد ذهبتُ إلى فيتنام»

«هل أعجبتك؟»

ابتسم إيرل «طبعاً أعجبتني»

«ألم يكن لديك أيّة تحفّظات؟»

«سوف أخبرك، يا بادي، إنَّ التحفّظات الوحيدة التي كوّنتها عن فيتنام كانت القيود المفروضة. وعندما تطير فوق بعض الموانئ ورؤية ناقلات البترول وهي تسلِّم البترول *وتعلم* أنّها من أجل قوات الفيتكونغ، ولا تستطيع أنْ تضربها – كانت تلك من أشد ما مررتُ به من تجارب في حياتي إحباطاً». ومن جديد هزَّ إيرل رأسه أسفاً وقد بدا في أشد حالات الذهول الدائمة من الأشياء التي قالها.

استدار باتريك في اتجاه الممر بين المقاعد، وفجأة انقضَّتْ عليه الموسيقى التي كان والده يُحبّها، صافية وعالية كتكسُّر الزجاج، لكنَّ تلك الهلوسة السمعيّة سرعان ما غطّتْ عليها حيويّة جاره.

«هل سبقَ لك أنْ ذهبت إلى نادي تاهيتي في سان تروبيه، يا بادي؟ ذلك المكان رائع! قابلتُ هناك راقصتين»، وانخفضَتْ طبقة صوته نصف درجة لكي تتناسب مع النبرة الجديدة للرفقة الذكوريّة. قال في سرّية، «يجب أنْ أخبرك بأنني أحبّ أنْ أنكح»، ثم هتف «يا الله كم أحب النكاح. ولكن لا يكفي الجسم الرائع، أتفهم ما أعني؟ يجب أنْ يتوفر لك ذلك *العنصر الذهنيّ*. كنتُ أنكح تينك الراقصتين: كانتا مذهلتين، جسداهما رائعان، كانتا بكل بساطة جميلتين، لكنَّ المشكلة هي أنني لم أتمكّن من القذف. أتعلم لماذا؟»

اقترحَ باتريك «لأنه ليس لديك ذلك العنصر الذهنيّ»

قال إيرل «هذا صحيح! لم يكن لدي ذلك *الشيء العقليّ*»

ربما كان ذلك العنصر الذهنيّ هو المفقود عند ديبي. كان قد اتّصلَ بها في الليلة السابقة لكي يُبلّغها نبأ وفاة والده.

تلعثمتْ «أوه، يا ربي، هذا فظيع. سوف آتي في الحال»

ميَّزَ باتريك التوتّر العصبيّ في صوت ديبي، والقلق الموروث حول الشيء الصائب الذي ينبغي قوله. ومع والدين كوالديها، ليس غريباً أنَّ الارتباك أضحى الانفعال الأقوى في حياتها. كان والد ديبي، وهو رسّام أستراليّ اسمه بيتر هيكمان، شخصاً شائناً مملّاً. كان باتريك قد سمعه مرَّة يُقدِّم إحدى الحكايات بقوله، «إنها تُذكّرني بأفضل قصصي التي تدور حول حساء السمك». وبعد ذلك بنصف ساعة، اعتبر باتريك نفسه محظوظاً لأنه لم يكن يُصغي لثاني أفضل قصّة له عن حساء السمك.

أما والدة ديبي، التي جعلتها مواردها العُصابيّة أشبه بحشرة عَضَويّة تعمل بالبطاريّة، فكانت لديها طموحات اجتماعيّة ليس في مقدورها أنْ تُحققّها ما دام أنَّ بيتر يقفُ إلى جوارها ويحكي لها حكايات عن حساء السمك. وبوصفها مُعِدَّة حفلات محترفة مشهورة، كانت حمقاء إلى درجة أنها لم تنصح نفسها. وكان الكمال الهشّ لحفلاتها الترفيهيّة يذهب أدراج الرياح حالما تلج الكائنات البشريّة ساحة غرفة جلوسها ذات الجو الراكد. وأورثَتْ ديبي حذاءها ذا الرقبة الطويلة، كمتسلّق الجبال الذي يلفظ أنفاسه في مخيم القاعدة، وأورثتها مع الحذاء الإحساس الهائل بالمسؤوليّة: أنْ *ترتقي*. وكانت السيدة هيكمان تميل إلى مُسامحة باتريك على خلوّ حياته الواضح من الهدف وعلى شحوب بشرته المشؤوم، عندما تتذكَّر أنّ دخله السنويّ يبلغ مائة ألف جنيه، وكله يأتي من عائلة تنظر إلى الغزو الروماني من جانب الطرف المنتصر، على الرغم من أنها لم تُنجِز أيّ شيء منذ ذلك الحين. لم يكن الأمر مثاليّاً، ولكن لا بأس. فقبل كل شيء، لم يكن باتريك قد تجاوز الثانية والعشرين.

في تلك الأثناء، تابع بيتر نسجَ حياته على شكل حكاية ووصفَ الحوادث العُظمى في حياة ابنته في حانة نادي ترافلرز التي كانت تخلو من روّادها بسرعة وحيث كان قد انتُخِبَ، بعد أربعين عاماً من المعارضة الصارمة، في لحظة ضعف ندِمَ عليها كل الأعضاء الذين كانوا قد ابتهجوا بحديثه ندماً مرّاً.

بعد أنْ أقنعَ باتريك ديبي بعدم الحضور لرؤيته، خرجَ يتمشّى في الهايد بارك، والدموع تخز عينيه. كانت أمسية حارّة وجافّة، مملوءة بغبار الطلع وبالغبار. وجرى العَرَق على أضلعه وتفصَّدَ من جبينه. وفوق بحيرة سربنتاين تبعثرت كتلة من السُحب أمام قرص الشمس الذي غاصَ، منتفخاً وأحمر، خلال كتلة التلوُّث. وعلى صفحة المياه المتلألئة تهادت قوارب صفراء وزرقاء إلى أعلى وإلى أسفل. وقفَ باتريك ساكناً يراقبُ سيارة شرطة تندفع بسرعة شديدة على طول الدرب خلف مرسى القوارب. وأقسم على ألّا يتعاطى الهروين بعد الآن. تلك كانت أهمّ لحظة في حياته وينبغي أنْ يعيشها بشكلٍ صحيح. يجب أنْ يعيشها بشكل صحيح.

أشعلَ باتريك سيجارة تركيّة وطلبَ من النادلة كأساً أخرى من البراندي. كان قد بدأ يشعر بشيء من التوتُّر من دون أي أثر. كانت أقراص الفاليوم الأربعة التي سرقها من كاي قد ساعدته على مواجهة وجبة الإفطار، أما الآن فيشعر ببداية تراجُع مفعولها، كمجموعة من صِغار القطط تغوص داخل تجويف بطنه.

كانت كاي هي الفتاة الأميركيّة التي أقام علاقة غرامية معها. وفي الليلة السابقة عندما رغبَ في أنْ يدفن نفسه في جسد امرأة، وأنْ يُشدِّد على أنّه، خلاف والده، حيّ، اختار أنْ يُقابل كاي. كانت ديبي جميلة (الجميع كانوا يقولون هذا)، وكانت بارعة (هي نفسها قالتْ هذا)، لكنّه كان يتخيّلها وهي تقعقع بحذائها ذارعة أرض الغرفة بقلق، كعَصَوَيْ طعام، وعندئذٍ بالذات احتاج إلى عناق أرقّ.

كانت كاي تُقيم في شقّة مُستأجَرَة في ضواحي أوكسفورد، تعزف على آلة الكمان، وتربي قططاً وتعمل على إعداد أطروحتها حول كافكا. وكان

موقفها من عطالة باتريك أقلّ رضا من أي شخص آخر يعرفه. قالتْ له «ينبغي أنْ تُقنِع الناس بقُدراتك لكي تتخلَّص من تلك الصِفة اللعينة»

كره باتريك كل شيء في شقّة كاي. كان يعلم أنها لم ترسم الملائكة الذهبية على ورق الجدران طرازِ وليم موريس؛ ومن ناحية أخرى، هي لم تَنزعها. وفي الرواق المُظلِم، تبدَّتْ كاي له، بشعرها البُنّي الغزير المنهمر على أحد كتفيها، وجسدها المتدثِّر بثوب ثقيل من المخمل الرمادي. قبّلته ببطء، بينما قططها الغيورة تخربش باب المطبخ.

كان باتريك قد شرب الويسكي وتناول أقراص الفاليوم التي أعطتها له. وحكتْ كاي له عن والديها المحتضرَين. قالت «ينبغي أنْ تعتني بوالديك بتفانٍ قبل أنْ تتغلَّب على صدمة مدى التفاني الذي اعتنيا بك به. وفي الصيف الفائت اضطررتُ إلى نقل والديّ بالسيارة عبر الولايات. كان والدي يحتضر متأثّراً بانتفاخ الرئة وتحولتْ أمي، التي كانت ذات يوم امرأة ضارية، إلى طفلة بعد إصابتها بسكتة دماغيّة. وانطلقتُ بسرعة ثمانين خلال ولاية يوتاه، بحثاً عن أنبوبة أوكسجين، وأمي لا تنفك تقول بمفرداتها الفقيرة، «أوه يا إلهي، أوه يا ربي، البابا في حالة حرجة، أوه يا ربّي».

تخيَّلَ باتريك والد كاي غائصاً في المقعد الخلفي للسيارة، وعيناه عليهما غشاوة من فرط الإرهاق ورئتاه، كشبكة صيد ممزَّقة، تتصيَّد الهواء بلا طائل. كيف مات والده يا ترى؟ لقد نسي أنْ يسأل.

منذ أنْ أدلى بملاحظاته المُفيدة عن «ذلك العنصر الذهنيّ»، كان إيرل يتكلَّم عن «تشكيلته الكاملة من الممتلكات» وعن حبّه لعائلته. كان طلاقه «صعباً على الأطفال»، لكنّه ختم بقهقهة، «كنتُ أنوِّعُ نشاطاتي، ولا أقصد بذلك فقط مجال الأعمال».

كان باتريك ممتنّاً للانتقال على متن طائرة كونكورد. فهو لن يكون فقط مستعداً لمحنة رؤية جثمان والده، قبل أنْ يُحرَق في اليوم التالي، بل أيضاً لأنْ يتقاسم وقت حديثه مع إيرل. يجب أنْ ينشروا إعلاناً. وبرز في ذهنه صوت طاغ يبتسم متكلّفاً يقول: «لأننا نهتم، ليس فقط براحتك الجسديّة، بل لصحتك الذهنيّة، اختصرنا حديثك مع أناسٍ كإيرل هامر»

قال إيرل «أتعلم يا بادي، لقد ساهمتُ مساهمةً ضخمة - أقصد كبيرة - في الحزب الجمهوريّ، وأصبح في استطاعتي أنْ أدخل أيّة سفارة أريد. لكنني لستُ مهتماً بلندن أو بباريس: إنَّ ذلك مجرد هراء اجتماعيّ»

شرب باتريك ما تبقّى من البراندي جرعة واحدة.

«إنَّ ما أريد هو بلد صغير في أميركا اللاتينيّة أو في أميركا الوسطى حيث يُسيطر السفير على وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة على الأرض»

ردّد باتريك بعده «على الأرض»

قال إيرل «نعم، ولكنْ لديّ مشكلة عند هذه النقطة». وعاد إلى رصانته من جديد. «إنَّ ابنتي تحاول أنْ تنضمّ إلى فريق كرة الطائرة وقد اشتركتْ في سلسلة من المباريات الهامة جداً طوال عام. اللعنة، لا أعلم هل ألتحق بالسفارة أم أعمل لصالح ابنتي»

قال باتريك بجديّة «إيرل، لا أعتقد أنَّ هناك ما هو أهمّ من أنْ تكون أباً صالحاً»

كان تأثُّر إيرل جليّاً. «إنني أُقدِّر نصيحتك، يا بادي، أُقدِّرها حقاً»

اقتربت رحلة الطائرة من نهايتها. وأدلى إيرل ببعض الملاحظات حول كيف يُقابل المرء دائماً أناساً «راقين» على متن طائرة كونكورد. وفي المطار مشى إيرل في مسار المواطنين الأميركيين، واتجه باتريك نحو مسار الغرباء.

هتفَ إيرل مع تلويح كبير «كل فِراق هو موتٌ صغير»

– 2 –

«ما الغرض من زيارتك، يا سيدي. أهي للعمل أم للمتعة؟»

«لا هذا ولا ذاك»

«آسفة، ماذا قلت؟»، كانت امرأة شكلها يشبه الإجاصة، بلون حلزون، وقصيرة الشعر، تضعُ نظّارات كبيرة وترتدي زيّاً رسمياً بلون أزرق قاتم.

تمتم باتريك «أنا هنا لكي أستلم جثمان أبي»

قالتْ بنبرة سخط رسميّة «آسفة، يا سيدي، لم أسمعك جيداً»

صرخ باتريك ببطء «*أنا هنا لكي أستلم جثمان والدي*»

أعادتْ إليه جواز سفره. «نهاراً سعيداً»

غطّى الحنقُ الذي استولى على باتريك بعد عبوره مركز تفحّص جوازات السفر على إحساسه المعتاد بالرعب من الجمارك (ماذا لو جرّدوه من ملابسه؟ ماذا لو رأوا ذراعيه؟)

ها هو من جديد، مُسترخٍ في مقعدٍ خلفيّ لسيارة أجرة، مقعد غالباً ما يكون مُرمّماً بشريط أسود لاصِق، لكنّه ما زال ينفتح أحياناً ليكشِف عن فتحات صغيرة بلون زَبَد أصفر، في بلدٍ يسلك سبيل الحِمية المؤدي إلى الخلود، في حين ما زال هو يتّبع طريق الحِمية الذي يسير في الاتّجاه المعاكس.

بينما سيارة الأجرة تقفز وتصرّ على طول الطريق العامة، بدأ باتريك يسجّل على مضض أحاسيس الدخول من جديد إلى مدينة نيويورك. هناك طبعاً سائق يتكلّم الإنكليزيّة، وصورته الفوتوغرافيّة الكئيبة تؤكّد على المزاج الانتحاري الذي لم تكن تكشِف عنه إلّا خلفية عنقه. كانت الأزقة المجاورة تشهد على المزيج المعتاد من الإسراف والانحلال. هناك سيارات ضخمة

مُحطَّمة بمحركات قذرة، وسيارات ليموزين بنوافذ سوداء، تجتاح المدينة، كتجمُّع الذباب على طعامه المُفضَّل. حدَّقَ باتريك إلى الغطاء المعدني المُنبعج لسيارة ستيشن واغن بيضاء قديمة. قال في نفسه، كم شهدتْ من أحداث، ولم تتذكّر شيئاً، كفقدان ذاكرة ماكر يستعرض آلاف الصور ويرفضها على الفور، يغزلُ حياتَه الخاوية تحت سماءٍ شاسعةٍ أشدّ شحوباً.

قاطعتْ الفكرة التي شغلته في الليلة السابقة نشوته. كانت لا تُطاق: لقد خدعه والده من جديد. حرمه ابن الحرام من فُرصة تحويل رعبه القديم وإعجابه غير المقصود إلى شفقة مُحتقِرة للعجوز الأمرد والمُملّ الذي آل إليه. ومع ذلك وجد باتريك نفسه مُنجذباً إلى موت والده بعادة تنافُس أقوى منه ولا يستطيع تحمّلها. طبعاً، لطالما كان الموت *غواية*؛ أما الآن فبدا كغواية يجب الرضوخ لها. وعلى ذروة قُدرة الموت على اتّخاذ موقف منحطّ ومتحدٍّ في ملهاة الشاب غير المحدودة، على ذروة الغواية المألوفة للعنف الخشن وتدمير الذات، اتّخَذَ موقف الانسجام، كالانخراط في مجال أعمال العائلة. في الحقيقة، لقد جرَّبَ الخيارات كلها.

على امتداد أميال وأميال من شواهد القبور الممتدة على طول الطريق العامة، فكَّرَ باتريك في أبيات الشِعر المُفضّلة إليه: «فليمُتْ، فليمُت طويلاً، فليمُتْ طويلاً!» (مَنْ يستطيع أنْ يبزَّ هذا؟) «وقلبي حفنة من غبار/ والدواليب تسير على رأسي/ وعِظامي تهتزّ من فرط الألم/ لأنها مدفونة في قبر ضحل/ تحت الشارع بمقدار ياردة» إلى آخره، إلى آخره، «تكفي لدفع المرء إلى الجنون».

من جديد أيقظته الهمهمة الزلقة لمعدن جسر وليامسبرغ على ما يُحيط به، ولكن ليس لفترة طويلة. شعر بغثيان وبتوتّر عصبيّ. إنّها استعادة أخرى للوعي من المُخدِّر في غرفة فندق أجنبيّ. كان يعرف النظام التقليديّ. ما عدا أنَّ هذه سوف تكون المرَّة الأخيرة. أو *واحدة* من المرات الأخيرة. ضحكَ بعصبيّة. كلا، لن ينال منه أولاد الحرام. التركيز يُشبه قاذف اللهب. لا مكان لدينا لسجناء!

المشكلة هي أنّه كان دائماً يُرغب في جرعة مُخدِر، كالرغبة في مغادرة

الكرسيّ المتحرك عندما يقع حريق في الغرفة. وإذا فكّرتَ مليّاً في الأمر فقد تتقبّله. ارتعشتْ ساقه اليُمنى بحركة سريعة إلى أعلى وإلى أسفل. وعقد ذراعيه فوق بطنه وشدّ طرفَي ياقة المُعطف معاً. قال بصوت مرتفع «اغرب عن وجهي. فقط اغرب عن وجهي».

انتقلَ إلى الشوارع المرفّهة. كتلٌ من الضوء والظلّ. على طول الجادّة، تحولت الأضواء إلى اللون الأخضر على طول الخط. الضوء والظل، يتكّان كبندول التوقيت، وهما يجتاحان الكرة الأرضيّة.

كان الوقت أواخر شهر أيار، وكان الجو حارّاً، وأصبح لا مناص من التخلّي عن المعطف، لكنَّ معطفه كان أداة دفاعه ضد شظايا الزجاج الرقيقة التي يدسّها العابرون عَرَضَاً تحت جِلده، وضد الانفجار بالحركة البطيئة لواجهات المحلات، وهدير قطارات الأنفاق الذي يهزّ العِظام، والعبور الذي يُحطم القلب لكل لحظة، كحبّة رمل تتسلل من الساعة الرمليّة لجسده. كلا، لن يخلع معطفه. هل تطلب من جراد البحر أنْ يخلع صَدَفَته؟

رفع بصره إلى أعلى ورأى أنّه موجود في الجادّة السادسة. الشارع الثاني والأربعون، الشارع الثالث والأربعون، كلها على طراز هندسة ميس فان در رو[1]. مَنْ قال هذا؟ لم يتذكَّر. انسابت كلمات أناس آخرين في عقله، كتدحرج كرات القش عبر صحراء تضربها الرياح في اللقطة الافتتاحيّة من فيلم «*جاؤوا من الفضاء الخارجيّ*».

وماذا عن كل الشخصيات التي سكنته، وكأنّه فندق رخيص: أوكونر الفصيح والرجل البدين، والسيدة غارسينغتن، والباقون كلهم، التواقون إلى تنحيته جانباً ليقولوا كلمتهم. أحياناً كان يشعر كأنه جهاز تلفزيون وثمة شخص آخر يُبدِّل القنوات بنزَق وبسرعة كبيرة. حسن، في استطاعتهم هم أيضاً أنْ يغربوا عن وجهي. وهذه المرَّة سوف ينهار **بصمت**.

حينئذٍ كانوا يقتربون من فندق بيير. أرض الصدمة الكهربائيّة الثابتة. حيث مقابض الأبواب وأزرار المصاعد تبصقُ شرراً على جسم شقَّ طريقه

1- لودفيغ ميس فان در رو (1886–1969): مهندس أميركي من أصل ألمانيّ، أحد روّاد الهندسة المعمارية الحديثة. وآخر مدير لمؤسسة باوهاوس – المترجم

خلال أميال من السجاد السميك قبل أنْ ينسى أنْ يتّصل بالأرض. وهنا بدأ انحداره العنيف خلال زيارته الأخيرة إلى نيويورك. من جناح في فندق يعجُّ بالخزف الصينيّ قدر ما يتوقَّع المرء أنْ يأخذ منه، ومشهد يطلّ على المتنزّه من موقعٍ مرتفع جداً عن ضجيج حركة المرور، انزلقَ نحو أسفل، عبر القذارة المشهورة عالميّاً لفندق تشلسي، وحطَّ داخل غرفةٍ بحجم تابوت تقع في قعر مهوى بئر مملوء بالقمامة في الشارع الثامن بين الشارعين C و D. ومن ذلك الموقع الممتاز عاد بذاكرته مع شعور بالحنين إلى الفندق الذي مقته قبل بضعة أسابيع فقط، بسبب وجود جرذ في البرّاد هناك.

ومع ذلك، خلال فترة هذا الانحدار في تجهيزاته، لم يكن باتريك يُنفِق أقلّ من خمسة آلاف دولار في الأسبوع على الهروين والكوكايين. وتسعون في المائة من المخدرات كانت من أجله وعشرة في المائة من أجل ناتاشا، المرأة التي بقيَتْ بالنسبة إليه لغزاً مُغلَقاً خلال الأشهر الستة التي عاشا في أثنائها معاً. والشيء الوحيد الذي شعر بأنّه متيقّن منه كان أنّها أثارت غضبه؛ ولكن، مَنْ لم يفعل ذلك؟ كان يتوقُ باستمرار إلى العزلة الصِرف، وعندما يحصل عليها كان يتوق إلى إنهائها.

قال السائق «الفندق»

تمتم باتريك «أخيراً»

رفعَ خادم بوابة يرتدي زيّاً رماديّاً قلنسوته ومدَّ يده، بينما هرعَ خادم الفندق ليُحضِر أمتعة باتريك. وبعد تلقّي ترحيبٍ واحدٍ ودفع إكراميتين سار باتريك بشموخ وهو يتعرَّق خلال الرواق الطويل الذي أفضى إلى نقطة الاستقبال. كانت تشغل الطاولات في الغرفة البيضاويّة سيّدات ثنائيات يتناولن طعام الغداء، يعبثن بأطباق تضم أوراق خسّ بألوان مختلفة ويتجاهلن كؤوساً من المياه المعدنيّة. ولمح باتريك صورته تعكسها مرآة كبيرة مُذهّبة، ولاحظَ، كالمعتاد، أنّه يُبالغ في كمية الملابس التي يرتديها وأنّه مريض جداً. كان هناك فرقٌ مُقلِق بين العناية التي تراكمت بها الملابس والسهولة التي بدا بها الوجه كأنّه يوشك أنْ يتهاوى. بدا أنَّ معطفه الأسود مفرط الطول، والبزّة الزرقاء الداكنة، وربطة العنق الرقيقة السوداء والفضيّة (التي اشتراها والده

في أوائل الستينيات) كأنها غير متناسبة مع الكتلة الشعثة من الشعر البنيّ التي تكتنف الوجه المُشرِق والشاحب شحوب الموتى. الوجه نفسه يُعاني من فورة تنافر. كانت الشفتان الممتلئتان مضغوطتين نحو الداخل، والعينان اختُزِلتا إلى شِقَّين ضيّقَين، والأنف، المسدود دائماً، كان يُجبره على التنفُّس من فمه المفتوح ويجعله يبدو أبلهاً؛ وثمة تجهُّم تكثَّفَ على جبينه وتحوّل إلى تموُّج شاقوليّ فوق الأنف مباشرة.

بعد أنْ تسجَّل، استجمعَ باتريك قِواه لكي يتخلَّص بأسرع وقت ممكن من السلسلة الطويلة من عبارات الترحيب والإكراميّات التي كانت ما تزال تقفُ حائلاً بينه وبين تناول مشروب في غرفته. أوصله أحدهم إلى المصعد، ورافقه شخص آخر في الصعود (ذلك التعلُّق الطويل والمُملّ، وهو يراقبُ الأرقام تومض إلى أعلى حتى الرقم تسعة وثلاثين)، وبيَّنَ له أحدهم كيف يُدير جهاز التلفزيون، ووضع شخص آخر حقيبة سفره على المنصب، وأضاء آخر مصباح الحمّام، وأعطاه آخر مفتاح غرفته، وأخيراً، جلب له أحدهم زجاجة جاك دانييل مع دلو أسود مملوء بمكعبات الثلج الهشّة، وأربعة كؤوس.

صبَّ لنفسه كأساً حتى الشَفة مع بضع مكعبات من الثلج. بدتْ له رائحة البوربون مرهفة ولاذعة إلى أقصى حد، وبينما كان يجرع الجرعة الأولى الحارقة، وهو واقف عند النافذة، أطلّ على متنزَّه سنترال بارك، المورِق والحار تحت سماءٍ أكثر شحوباً وامتداداً، ورغبَ في البكاء. لقد كان المنظر فائق الجمال. وشعر بحزنه وبإحساسه بالإرهاق يلتحمان مع عناق البوربون العاطفيّ والمُذيب. كانت لحظة من السِحر الكارثيّ. كيف يمكن له أنْ يأمل بأي حال في أنْ يتخلّى عن تعاطي المُخدرات؟ إنها تشحنه بمشاعر قويّة جداً. وكان الإحساس بالقوة الذي تمنحه إياه، بلا جِدال، شخصياً (حُكم العالم من تحت أغطية السرير، إلى أنْ يصل بائع الحليب وتظنُ أنّه فصيلة من جنود الصاعقة جاءت لتسرق مخدراتك وتهشِّم دماغك على الجدار)، ولكنْ، إنَّ *الحياة* شخصيّة جداً.

بات من المتوجب الآن حقاً أنْ يذهب لحضور صالون العزاء، سيكون شيئاً مُريعاً أنْ يُفوِّت فرصة مشاهدة جثمان والده (وربما يستطيع أنْ يضع

قَدَمَه عليه). قهقه باتريك بصوت مكتوم وترك كأسه الفارغة على عتبة النافذة. لن يتعاطى أيّة جرعة. وقال بصوت صارّ شبيهاً بصوت السيد مَفيتْ، أستاذ مادة الكيمياء القديم في المدرسة، «أريد أنْ أوضِّح هذا *كل الوضوح*». امشِ بشموخ، هذه كانت فلسفته، ***ولكن احصل على بعض المهدّئات أولاً***. لا أحد يستطيع أنْ يتخلّى عن كل شيء دفعة واحدة، خاصّة (تجشّؤ، تجشّؤ) في وقتٍ كهذا. يجب أنْ ينزل إلى كتلة النبات النابضة، والمنتشرة، والشنيعة، في البارك، ويُسجّل هدفاً. اعتبرَ قطيعُ تجّار المخدّرات الإسبان والسود المتجمّعون عند بوابة سنترال بارك قِبالة الفندق الذي ينزل فيه أنَّ باتريك زبونٌ مُحتَمَل من مسافة بعيدة.

قال رجل أسود طويل القامة، يبدو مرضوضاً، «مُنشّطات! مُهدِّئات! تعال وانظر». وتابع باتريك طريقه.

أبرز إسبانيّ غائر الخَدَّين، ذو لحية هزيلة، فكَّه إلى الأمام وقال «كيفَ أخدمك، يا صديقي؟»

قال رجل أسود آخر، يضع نظارات شمسيّة، «معي بضاعة عظيييييمة. ***انظر***»

قال باتريك متشدقاً «ألديك أيّ مقدار من الـ كوالود؟»

«طبعاً، لديّ بعض الكوالود. لديّ ليمون 714س – كم تريد؟»

«بكم؟»

«بخمسة دولارات»

«سآخذ ستة»، ثم أضاف، «وربما بعض منشط السبيد». هذا ما يسمّونه بالتسوُّق المُفاجئ. كان مُنشِّط السبيد هو آخر ما يرغب فيه، لكنه لم يرغب في شراء مُخدِّر إلّا إذا كانت لديه المقدرة على أخذ نقيضه.

«لديّ أشياء جميلة، إنها مُستحضر صيدليّ»

«تقصد أنكَ أعددتها بنفسك»

«كلا، يا رجل، مُستحضر صيدليّ يعني أنها بضاعة جيييييدة»

«أريد ثلاثة منها»

«الواحد بعشرة دولارات»

سلّمه باتريك ستين دولاراً وأخذ الأقراص. في تلك الأثناء كان التجار الآخرون قد تجمّعوا حوله، متعجّبين من السهولة التي يُنفِق فيها باتريك المال.

قال الإسبانيّ «أنتَ إنكليزيّ، صح؟»

قال له صاحب النظارات الشمسيّة «لا تزعج الرجل»

قال باتريك، مُدركاً ما سيحدث بعد ذلك، «نعم»

قال الرجل الذي يبدو مرضوضاً، وقد بدا عليه الارتياح برهة، «ذات يوم سوف أذهب إلى بريطانيا وأحصل على بعضٍ من ذلك المُخدِّر المجانيّ»

قال باتريك، عائداً إلى ارتقاء دَرَج الجادّة الخامسة، «افعل هذا. وداعاً الآن»

قال ذو النظارات الشمسيّة بلهجة تملّكيّة، «عُدْ إلى هنا في الغد»

تمتم باتريك، وهو يرتقي الدرج مُسرعاً، «نعم». وضع الكوالود في فمه، وجمَّع بعض اللعاب، ونجحَ في ابتلاع القرص عُنوة. كانت تلك براعة هامة من أجل ابتلاع قرص من دون استخدام أي مشروب. قال في نفسه، وهو يستوقف سيارة أجرة، إنَّ الذين يحتاجون إلى مشروب لا يُطاقون.

قال «إلى ملتقى جادة ماديسون والشارع الثاني والثمانين»، مُدركاً أنَّ الكوالود، الذي كان قرصاً كبيراً، علِقَ في منتصف المسافة إلى بلعومه. وبينما سيارة الأجرة تنطلق بسرعة على طول جادة ماديسون، أخذ باتريك يلوي عنقه في الاتجاهات كلها في محاولةٍ لجعل القرص ينزل.

مع وصوله إلى مركز فرانك إ. ماكدونالد، كان باتريك قد تمدَّدَ ومال بعنقه إلى الخلف وجانباً فوق حافة المقعد، ولمسَ شَعره ممسحة الأرضيّة المطاطيّة السوداء بينما كان يستجمع قدر ما يستطيع من اللعاب من جانبٌ فمه ويبتلع بعنف. نظر السائق في مرآة المشهد الخلفي. ها هنا منحرفٌ آخر.

في الختام أزاح باتريك قرص الكوالود عن الحافة التي استقرَّ عليها تحت تفاحة آدم مباشرة، واجتاز أبواب خشب السنديان لصالون العزاء، وفي داخله يتبارى الخوف والسخف. كانت المرأة الشابة التي تجلس خلف طاولة خشب الزان المحفورة مع مجموعة أنصاف أعمدة من الطراز اليوناني

القديم على كلا طَرَفيّ لوحها الخشبيّ الداخليّ ترتدي سترة زرقاء وبلوزة من الحرير الرماديّ، كمُضيفة طيران في رحلة إلى الحياة الآخرة.

قال باتريك ببرودة «جئتُ لأرى جثمان ديفيد ميلْروز». فطلبَتْ منه أنْ يتقدَّم مباشرة إلى داخل المصعد ويتوجّه «مباشرة إلى أعلى» إلى الطابق الثالث، وكأنما يمكن أنْ يرغب في أنْ يتوقف ليشاهد جثثاً أخرى وهو في الطريق إلى هناك.

كان المصعد بمثابة تقدير لصناعة الأقمشة الفرنسيّة. وفوق المنصّة الجلد ذات الأزرار، التي يمكن لقريب المتوفّى أنْ يقفَ عليها قبل أنْ يواجه جثمان الفقيد الحبيب، رُسِمَ مشهد جميل بزخرفة منسوجة يُمثّلُ عاشقاً يتظاهر بأنّه راعي غنم يعزف على الناي لعاشق آخر يتظاهر بأنّه راعية.

ثم حانت اللحظة الكبرى: جثمان عدوّه اللدود، بقايا خالقه، جثّة والده الميّتْ؛ العبء الأعظم لكل ما لم يُقَلْ وما لم يكن من الممكن أنْ يُقال؛ والإلحاح على قوله الآن، حيث لا يوجد مَنْ يسمع، ولا مَنْ يتكلَّم بالنيابة عن والده، بعمليّة انقسام ذاتّي يمكن أنْ تشقّ العالم وتحوِّل جثّته إلى لعبة الصورة المُجزّأة. ***ها قد تمّ الأمر.***

الضجيج الذي رحَّبَ بباتريك حالما انفتح باب المصعد دفعه إلى التساؤل إنْ كان جورج قد أعدَّ له مفاجأة، لكنَّ الفكرة كانت شديدة الغرابة، بالنظر إلى صعوبة جمع عدد من الناس من جميع أنحاء العالم ممَّن كانوا يعرفون والده جيداً وما زالوا مُعجبين به. خرج من المصعد إلى المصطبة ورأى، بعد عمودَين على الطراز اليوناني القديم، غرفة ملبّسة بألواح الخشب ممتلئة بغرباء من العجائز بملابس زاهية. كانوا رجالاً يرتدون من أنواع القماش الخفيف المُخطَّط كلها، والنساء اللواتي يعتمرن قبعات كبيرة بيضاء وصفراء اللون كنَّ يشربن الكوكتيل وتقبض كل منهن على ذراع الأخرى. وفي الجزء الخلفي من الغرفة، التي أخذ يتجول فيها من دون أنْ يفهم شيئاً، كان هناك تابوت مفتوح ومائل مُبطَّن بالستان الأبيض، ويضم رجلاً ضئيل الحجم يرتدي ملابس شديدة الأناقة، ويضع دبوساً من الحجر الكريم، وذا شعر أبيض، ويرتدي بزّة سوداء. وعلى طاولة إلى جواره رأى باتريك

مجموعة من البطاقات مكتوب عليها: «في الذكرى الحبيبة لهرمان نيوتن». لا شك في أنَّ الموت كان تجربة غامرة، ولكن ينبغي أنْ تكون أقوى تأثيراً مما تخيَّل إذا كان في استطاعتها أنْ تحوّل والده إلى يهوديّ صغير من دون العديد من الأصدقاء الجُدد المُسلّين.

وبدأ قلب باتريك ينبض بقوة. فاستدار واندفعَ نحو المصعد، حيث تلقّى صدمة كهربائيّة سكونيّة عندما ضغط على زر الاستدعاء. زمجر، «لا أصدّق هذا»، ورفسَ كرسيّاً من طراز لوي كانز. فُتِحَ باب المصعد على رجل عجوز بدين رخو اللحم، يرتدي بنطلوناً قصيراً حتى الركبتين غريب الشكل وقميصاً رياضياً أصفر اللون. كان جليّاً أنَّ هرمن وضعَ في وصيّته عبارة «لا عزاء». وقال باتريك في نفسه، أو ربما أنَّ الناس كانوا سعداء برؤيته ميتاً. إلى جوار الرجل البدين وقفَتْ زوجته المشوّشة، وهي أيضاً ترتدي ملابس الشاطئ، وإلى جوارها وقفتْ المرأة الشابة موظفة الاستقبال.

قال باتريك، وهو يحدق بغضب إليها، «إنه الجثمان اللعين الخطأ»

قال البدين، وكأنَّ باتريك يُضخِّم من قضيته، «أوه، هوو، هدِّئ من روعك»

قال باتريك، متجاهلاً الزوجَين العجوزين وهما يتجاوزانه متهادِيين، «جرِّبي من جديد»

وجَّه إلى موظفة الاستقبال تحديقه الحارق، بنظرات ثقيلة كمنصّة الانطلاق عبر الفضاء تعبُر بينهما وتُسلِّط نشاطاً إشعاعيّاً إلى دماغها. ولم يبدُ عليها الاضطراب.

قالتْ «أنا واثقة من أنّه ليست لدينا أيّة حفلة أخرى في المبنى في الوقت الحالي»

قال باتريك «لا أريد أنْ أذهب إلى أيّة حفلة. أريد أنْ أرى والدي»

عندما وصلا إلى الطابق الأرضيّ تقدَّمت موظفة الاستقبال من الطاولة التي كان باتريك قد رآها جالسة عندها للمرة الأولى وعرضَتْ عليه قائمة بالـ «حفلات» التي تُقام في المبنى. قالتْ باعتداد بالنفس «لا يوجد أي اسم هنا خلاف اسم السيد نيوتن، ولهذا السبب أرسلتكَ إلى جناح الأرز»

قال باتريك، مائلاً نحوها؛ «ربما والدي لم يمُتْ أصلاً، سوف يكون ذلك صدمة حقيقيّة. ربما كانت مجرد صرخة لطلب المُساعدة، ما رأيك؟»

قالتْ، متراجعة، «يُستحسن أنْ أذهب وأستشير مديرنا. عن إذنك لحظة واحدة» وفتحتْ باباً مُستتراً خلف أحد ألواح الخشب وتسللتْ خلفه.

اتّكأ باتريك على المنضدة، ينفثُ من فرط الحنق، بين رخام أرضيّة البهو اللامع الأسود والأبيض، الشبيهة كثيراً بأرضيّة ذلك الرواق في ساحة إيتون. لم يكن ارتفاعه يعلو عن مستوى يد السيدة العجوز. كانت تقبضُ على عصا المشي، وعروقها الزرقاء البارزة تنتشر على طول أصابعها وتغلغل داخل خاتم حجر الصفير. وتوقف الدم وأصبحَ واضحاً. تحدثتْ العجوز مع أمّه عن لجنتهما، بينما تاه باتريك في إحساسه بأنه يجعل الشَبَه يحدث. هناك أيام يُصبح خلالها كل شيء يشبه كل شيء آخر، وأقلّ ذريعة لإقامة المقارنة تجعل شيئاً ما يلتهم شيئاً آخر في وليمة من الشَرَه المَرَضيّ.

ما الذي كان يحدث بحقّ الله؟ لماذا يصعب عليه العثور على *رُفات* والـده؟ إنه لا يواجه صعوبة في العثور عليها في نفسه، كان فرانك إ. ماكدونالد وحده يواجه هذه الصعوبة. وبينما باتريك يضحك بشكلٍ هستيريّ على هذه الفكرة، ظهر له مثليٌّ جنسياً أصلع وينمّي شارباً، مع حسّ قويّ بالميل المكبوح جَلَبَه معه إلى مستودع الجثث، خارجاً من الباب المُستتر خلف لوح الخشب وشقّ طريقه مع ضجيج وقع أقدامه عبر أرضيّة البهو ذات أشكال الأحجار الكريمة السوداء والبيضاء. وطلبَ من باتريك من دون تقديم اعتذار أنْ يذهب في هذا الاتّجاه وقاده عائداً إلى داخل المصعد. ضغط زر الطابق الثاني، الأبعد عن السماء كبُعده عن السيد نيوتن، ولكن من دون سماع ضجيج حفل كوكتيل. ووسط سكون ذلك الرواق الذي يغمره الضوء، تقدَّمه المدير متبختراً. وبدأ باتريك يُدرك أنّه بدّد وسائل دفاعه على دجّال وها هو الآن، مرهق جرّاء مهزلة السهر على جثّة السيد نيوتن، أصبحَ هشّاً بصورة خطرة أمام تأثير جثمان والده.

قال المدير، وهو يعبث بطرف كمّه، بصوت كالهرير «هذه هي الغرفة. سوف أدعك وحدك معه»

ألقى باتريك نظرة سريعة على الغرفة الصغيرة، الغنيّة بالسجّاد. *يا للّعنة*. ما الذي يفعله والده داخل ذلك تابوت؟ أومأ برأسه للمدير موافقاً وانتظر داخل الغرفة، شاعراً بموجة من الجنون تتصاعد داخله. ما معنى أنْ يأتي ليشاهد جثمان والده؟ ما المُفتَرَض أنْ يعني؟ أخذ يحوم عند مدخل الغرفة. كان رأس والده مُستلقياً ومتجهاً نحوه ولم يكن قد تمكَّنَ بعد من رؤية وجهه، بل فقط الخصل المُجعّدة الرمادية لشَعره. وكانوا قد دثّروا الجثمان بمناديل ورقيّة. كان متمدداً في التابوت، وكأنَّ هديّة وضعها أحدهم ولم يلفّها إلّا جزئيّاً.

تمتم باتريك غير مُصدِّق، وضامّاً يديه معاً بشدَّة ومُستديراً نحو صديقٍ وهميّ، «إنه أبي! *ما كان ينبغي* أنْ تفعلوا!»

خطا داخل الغرفة، وقد ملأه الرعب من جديد، ولكن يحثّه الفضول. يا للأسف، لم يُغطّوا الوجه بالمناديل، وذُهِلَ باتريك من نبل ملامح وجه والده. تلك النظرات، التي خدعَتْ العديد من الناس لأنها منفصلة عن شخصيّة والده، أضحتْ أشدّ وقاحة الآن بعد أنْ اكتمل الانفصال. بدا والده وكأنَّ الموتَ حماسةٌ لم يتقاسمها مع أحد، لكنه يكتنفه كحضور كاهن في مباراة للملاكمة.

هاتان العينان اللامعتان، المخدوشتان، القادرتان على تقييم أي ضعف، كأصابع أمين صندوق تحصي كمية من الأوراق النقديّة، هما الآن مُغمضتان. وتلك الشَفَة السُفلى، التي طالما برزتْ قبل انفجار نوبة غضب، قلَّصَتْ الآن تعبير الافتخار الذي كانت قَسَمَات وجهه ترتاح فيه. لقد تمدَّدتْ (لا بُدَّ أنّه كان لا يزال يضع أسنانه الاصطناعيّة) بفعل الحنق والاحتجاج ووعي الموت.

مهما حاول أنْ يقتفي آثار حياة والده عن قُرب – وقد شعرَ بتأثير هذه العادة كشعوره بتلوُّث في مجرى دمه، كسُمّ لم يضعه هناك بنفسه، ومن المستحيل التخلُّص منه أو استخلاصه من دون نزف دم المريض – ومهما حاول أنْ يتخيَّل بدقّة المزيج القاتل للكبرياء والقسوة والحزن الذي هيمن على حياة والده، ومهما تاقَ باتريك إلى ألّا يُهيمن على حياته هو، لم يستطع

أنْ يتبع والده حتى تلك اللحظة الأخيرة التي علِمَ عندها أنه يوشك أنْ يموت وكان على صواب. وكثيراً ما شعر باتريك بأنّه موشك على الموت، لكنّه كان دائماً مُخطئاً.

شعرَ برغبة قوية في الإمساك بشَفَة والده بكلتا يديه وتمزيقها كأنها قطعة من الورق، على طول الجرح البليغ الذي أحدثته أسنانه أصلاً.

كلّا، لن يفعل هذا. لن يحمل هذه الفكرة. ليس الضرورة الإباحيّة لامتطاء عمود الستارة. ليس هذه، لن يتبنّى تلك الفكرة. لا يستطيع أنْ يكون ذلك الشخص. لن يكون ابن حرام.

زمجر باتريك، وكشّفَ عن أسنان عارية ومشدودة معاً. ولَكَمَ جانب التابوت ببراجم يده لكي يُعيده إلى الحياة. كيف ينبغي عليه أنْ يمثّل هذا المشهد المأخوذ من فيلم حياته؟ اعتدلَ في وِقفته وابتسم بازدراء.

قال بنبرة أميركيّة مُضخَّمة، «أبي، لقد كنتَ شديد الحزن، يا رجل، وها أنتَ الآن تحاول أنْ تجعلني أنا أيضاً حزيناً»، واختنق بنفاق، ثم أضاف بصوته هو «حسن، أتمنى لك حظاً تعيساً».

- 3 -

دَخَلَتْ آنْ أيزن المبنى الذي تُقيم فيه، حاملةً علبةً من الكعك من محل حلويات لو فريه. قالت في نفسها وهي تبتسم في وجه فريد عند البوابة، إذا كانت حلويات حقيقيّة[1]، كما لا يني فيكتور يشير، فسوف تكون ***أكثر حقيقيّة***، أو ***حقيقيّة زائدة***. بدا فريد أشبه بصبي ورِثَ عن أخيه زيّه المدرسيّ. كان كُمّا معطفه البُنّيّ المزركشان بالذهب يتدليان حتى براجم يديه الكبيرتين الشاحبتين، في حين أنَّ بنطلونه، المهزوم أمام حجم كفليه وفخذَيه، فضفاضاً فوق جوربه النايلون الأزرق الباهت المُتشبِّث بكاحليه.

قالتْ آنْ «مرحباً، فريد»

فقال فريد، يقترب منها متهادياً، «مرحباً، سيدة أيزن. هل أساعدك في حمل أغراضك؟»

قالتْ آنْ، وهي تنحني بحركة مسرحيّة، «شكراً لك، ولكن ما زال في استطاعتي أنْ أحمل عبوتَي فانيليا وفطائر الزبيب» ثم أضافت، «بالمناسبة، يا فريد، لديّ صديق سيأتي إليّ عند قرابة الساعة الرابعة. إنه شاب ويبدو مريضاً. فعامله بلطف، لأنَّ والده مات مؤخراً».

قال فريد «أوه، يا إلهي، أنا آسف»

قالتْ آنْ «لا أظنّ ***أنّه هو*** آسف، على الرغم من أنّه ربما لم يعلم ذلك بعد»

حاول فريد أنْ يبدو كأنه لم يسمع. لقد كانت السيدة أيزن سيدة محترمة لطيفة حقاً، ولكنها أحياناً تتفوه بأغرب الأقوال.

1- اسم محل الحلويات بالفرنسيّة لو فريه Le Vraie وتعني «الحقيقيّة» والمؤلِّف يتلاعب بهذه الكلمة – المترجم.

ولجتْ آنْ المصعد وضغطتْ زر الطابق الحادي عشر. في غضون بضعة أسابيع سوف ينتهي كل شيء. لن يكون هناك طابق حادي عشر، ولا كراسي خيزران البروفسور ويلسون وأقنعته الإفريقيّة ولوحاته التجريديّة المُبهمة المُعلَّقة في غرفة الجلوس.

كان جيم ويلسون، التي مكَّنته زوجته الثريّة من عرض سلعه الليبراليّة عتيقة الطراز في جادة بارك، ولا أقلّ، يقوم «بزيارة» جامعة أوكسفورد منذ شهر تشرين أول، بينما زار فيكتور في المقابل جامعة كولومبيا. وفي كل مرة كانت تذهب مع فيكتور إلى إحدى الحفلات - التي لم تكن تتوقف أبداً - كانت تحثّه على أنْ يكون بروفسوراً زائراً. وكانت آنْ وفيكتور يعيشان في حالة «زواج مفتوح». وكلمة «مفتوح» على غرار «جرح مفتوح» أو «تمرّد مفتوح» أو في الحقيقة «زواج مفتوح»، لم يكن دائماً شيئاً جيداً، ولكنْ الآن بعد أنْ بلغ فيكتور سن السادسة والسبعين لم يعُد الطلاق منه أمراً يستحق العناء. ثم، ينبغي أنْ يكون هناك مَنْ يعتني به.

خرجت آنْ من المصعد وفتحتْ باب الشقة 11E، ومدَتْ يدها إلى مفتاح النور، بجوار الغطاء الهنديّ الأحمر المُعلَّق في الرواق. ماذا ستقول لباتريك بحقّ الله؟ فعلى الرغم من أنّه تحول إلى مُراهق حقيقيّ وحقود، وأصبح الآن في الثانية والعشرين ومُدمناً فاسداً، ما زالت تتذكّره جالساً على الدَّرَج في لا كوست وهو في سن الخامسة وما زالت تشعر بأنها مسؤولة - كانت تعلم أنَّ هذا أمر سخيف - عن عدم استطاعتها استدعاء أمّه وإبعادها عن حفلة العشاء البغيضة تلك.

الغريب في الأمر هو أنَّ الأوهام التي جعلتها تتزوج من فيكتور كانت في الواقع قد بدأتْ في تلك الليلة. وعلى امتداد الأشهر القليلة التالية انغمسَ فيكتور في تأليف كتابه الجديد «*الوجود، والمعرفة، وإصدار الأحكام*»، الذي كان يمكن بسهولة (ولكن بطريقة خاطئة!) الخلط بينه وبين الكتاب السابق «*التفكير، والمعرفة، وإصدار الأحكام*». ويدّعي فيكتور أنّه أراد أنْ يُبقي طلابه «متحفزين» بوضع عناوين متشابهة على كتبه لو لم يقضِ ذلك كلّه على شكوك آنْ أو شكوك ناشره. ومع ذلك، كان كتابه الجديد قد أزال غباراً طال تراكمه على موضوع الهويّة، كأنّه مكنسة جبّارة، وجمعه وشكّلَ منه أكوماً جديدة.

في نهاية موجة الإبداع تلك تقدَّم فيكتور لطلب يد آنْ. كانت في الرابعة والثلاثين، على الرغم من أنّها لم تكن تعلم ذلك حينئذٍ، وكان إعجابها بفيكتور في ذروته. وقبلتْ عرضه، ليس فقط لأنّه مُشبَّع بالشهرة المعتدلة التي يأمل كل فيلسوف حيّ في نيلها، ولكنْ أيضاً لأنها كانت تؤمن بأنَّ فيكتور رجل صالح.

تساءلتْ وهي تتناول طبقاً من الخزف الأخضر بلون السبانخ من مجموعة بربارة الرائعة وترتِّب الكعكات بلا انتظام على سطحه البرّاق، ماذا ستقول لباتريك بحق الله.

لا فائدة من التظاهر أمام باتريك بأنها كانت تحب ديفيد ميلْروز. حتى بعد طلاقه من إلينور، عندما كان فقيراً ومريضاً، لم يكن ديفيد أقرب إليها من كلبٍ ألزاسيّ مُكبَّل. وكانت حياته فشلاً كاملاً ومجرد تخيُّل مقدار عزلته كان شيئاً مُرعباً، ولكن كان لا يزال يتمتع بابتسامة حادة كالسكّين؛ وإنْ كان قد حاولَ أنْ يتعلَّم (بوصفه طالباً ناضجاً!) كيف يُرضي الناس، فإنَّ جهوده كانت بغيضة قليلاً بالنسبة لكل مَنْ عرِفَ طبيعته الحقيقيّة.

بينما كانت آنْ تميل فوق طاولة مراكشيّة منخفضة بصورة مزعجة في غرفة الجلوس، شعرتْ بأنَّ نظاراتها القاتمة تنزلق عن قمة رأسها. ربما كان ثوبها القطنيّ الأصفر مُبهرجاً قليلاً من أجل هذه المناسبة، ولكن ماذا يهمّ؟ إنَّ باتريك لم يرها مؤخراً بالقدر الكافي ليُميِّز إنْ كانت قد صَبَغَتْ شَعرها. ولا ريب في أنَّ بربارة ويلسون كانت ستتركه رمادياً على حقيقته، أمّا آنْ فكان عليها أنْ تظهر على شاشة التلفزيون في ليلة الغد لكي تتحدث عن «المرأة الجديدة». وبينما كانت تحاول أنْ تكتشف ما هي المرأة الجديدة، حصَلَتْ على تسريحة شَعر جديدة واشترت ثوباً جديداً. لقد كان بحثاً وأرادتْ تكاليفه.

أربع وعشرون ساعة. هناك وقتٌ ميِّتٌ من الآن وحتى يصل. ثمة وقت لإشعال سيجارة قاتلة، تُسبِّب السرطان، ووقت للطيران في وجه نصيحة كبيرَ الأطباء في الجيش – وكأنَّ في استطاعتك أنْ تثِقَ في رجلٍ هو طبيبٌ جرّاح وجنرال في وقتٍ واحد. كانت تسمّي ذلك عملاً على كِلا جانبي الشارع.

ولكن لم يكن في استطاعتها أنْ تُخفي إحساسها الفعليّ بالذنب، فقد شعرت بالذنب لأنها وضعتْ ثلاث قطرات من مُستخلص الاستحمام في الماء بدل قطرتين. فماذا يهمّ؟

حالما أشعلتْ آنْ سيجارة لا أهمية لها، مُعطَّرة، خفيفة ومعتدلة، حتى رنَّ جرس الهاتف في الطابق السفلي.

«مرحباً، فريد»

«أوه، مرحباً، سيدة أيزن: السيد ميلْروز وصل»

قالت، متسائلة إنْ كانت هناك وسيلة لتغيير هذا الحديث، «حسن، أعتقد أنَّ من المُستحسن إرساله إلى هنا»

توجهتْ آنْ إلى المطبخ، وأشعلتْ النار تحت إبريق الشاي، ونثرتْ بعض أوراق الشاي في الإبريق الياباني ذي مقبض الروطان المهتزّ المُبالَغ في انحنائه.

قاطعها رنين جرس الباب فهرعتْ خارجة من المطبخ لكي تفتح الباب الأمامي. كان باتريك واقفاً مُعطياً ظهره لها بمعطفه الأسود الطويل.

قالتْ «مرحباً، باتريك»

تمتم «مرحباً» مُحاولاً أنْ يدخل حشراً من أمامها. لكنّها أمسكته من كتفيه، وعانقته بحرارة.

قالتْ «أنا شديدة الأسف»

لم يستسلم باتريك لذلك العناق، لكنه تملَّصَ منها كمُصارع ينفك عن قبضة خصمه.

قال، وهو ينحني قليلاً «وأنا أيضاً آسف. إنَّ التأخّر في الوصول شيء مملّ، لكنَّ الوصول باكراً شيء لا يُغتَفَر. إنَّ التقيُّد بالمواعيد بدقّة هو أحد الرذائل الصغيرة التي ورثتُها عن والدي؛ وهذا يعني أنني لن أكون أنيقاً أبداً» وأخذ يتمشّى في أرجاء غرفة الجلوس ويداه في جيبيّ معطفه. قال ساخراً «**لا تعجبني**[1] هذه الشقّة. مَنْ المحظوظ الذي أعطاكِ هذه الشقّة وأخذ منزلك الجميل في لندن؟»

1- استخدم ساخراً كلمة «unlike» الخطأ بدل أنْ يقول «I don't like» – المترجم.

«إنه نظيره في العمل في جامعة كولومبيا، جيم ويلسون»

قال باتريك «يا الله، تخيّلي أنْ يكون للمرء زميل نظير بدل أنْ يكون هو دائماً ذلك النظير»

سألتْ آنْ مع تنهيدة متعاطِفة «أترغب في شرب الشاي؟»

قال باتريك «همم. أتساءل إنْ كان في وسعي أنْ أحصل على مشروبٍ حقيقيّ أيضاً؟ فبالنسبة إليّ أصبحتْ الساعة التاسعة مساءً»

قالت آنْ «بالنسبة إليك الساعة دائماً هي التاسعة مساءً. فيمَ ترغب؟ وسوف أُحضِّره لك»

قال «كلا، أنا سأحضّره. أنتِ لن تجعليه قوياً كما ينبغي»

قالت آنْ، والتفتتْ نحو المطبخ، «حسن، المشروبات تجدها على حجر الرحى المكسيكيّ»

كان محفوراً على حجر الرحى رسوم لمحاربين يضعون الريش، لكنَّ ما جذب انتباه باتريك كان زجاجة من بوربون «الديك البرّي». صبَّ بعضاً منه في كأس طويلة وابتلعَ قرصاً آخر من الكوالود مع الجرعة الأولى، وأعاد ملْء الكأس من جديد في الحال. بعد أنْ شاهد جثمان والده، كان قد ذهب إلى فرع الشارع الرابع والأربعين من مصرف مورغان غواراني وتلقّى منه مبلغ ثلاثة آلاف دولار نقداً في مُغلَّف بلون برتقالي وبُنّي بدا عندئذٍ منتفخاً داخل جيبه.

تفقَّدَ حبوب المُخدِّر من جديد (في الجيب الأيمن السفليّ) ومن ثم تفقّد المُغلَّف (في الجيب الأيسر الداخليّ) ومن ثم بطاقات الائتمان (في الخارجي الأيسر). هذا الفعل العصبيّ، الذي كان يؤديه أحياناً كل بضع دقائق، كان أشبه برجل يرسم إشارة الصليب أمام المذبح - المخدرات؛ والنقود؛ وروح بطاقات التأمين القُدُس.

كان حتى تلك اللحظة قد تناول قرص الكوالود الثاني بعد زيارته للمصرف، لكنه ما زال يشعر بالتشتُّت وباليأس وبالإرهاق. وقد يعمل قرصٌ ثالث على زيادة الطين بِلّة، لكنَّ شغله الشاغل كان أنْ يزيد الطين بِلّة.

سألَ باتريك، وهو يمشي بخُطى واسعة نحو المطبخ بطاقةٍ مُتجدّدة،

«أهذا ما يحدث لك؟ ترين حجر رحى، فترنّ عبارة «في عنقي»[1] في ذهنك كرنين السِعر على آلة تسجيل النقود القديمة. أليس هذا مُهيناً». قال هذا، وهو يتناول بضع مكعبات من الثلج، «يا الله، كم أحبّ آلات صنع الثلج تلك، إنها أفضل شيء في أميركا حتى الآن – أليس مُهيناً أنْ تُعدّ أفكار المرء كلها مُسبقاً بهذه الآليات البلهاء؟»

وافقتْ آنْ قائلة «الحمقاء منها لا تنفع، ولكن لا تحتاج آلات حساب النقود إلى أنْ تُعطي نتائج تافهة»

«إذا كان عقلك يعمل كآلة حساب النقود، فإنَّ كل ما تخرجين به منها يجب أنْ يكون تافهاً حتماً»

قالتْ آنْ، حاملة الكعك والشاي إلى غرفة الجلوس، «من الواضح أنكَ لا تتسوّق من محل حلويات لا فريه»

«إذا لم نتمكن من التحكُّم في إجاباتنا الواعية، فما هي الفرص المُتاحة لنا لمواجهة التأثيرات التي لم نلاحظها؟»

قالت آنْ بمرح، وهي تسلِّمه فنجان الشاي، «ليست لدينا أيّة فرصة»

أطلقَ باتريك ضحكاً مُقتضَباً. شعر بأنه مُنفصل عمّا كان يقول. ربما بدأتْ أقراص المُخدِّر تشكِّل فرقاً.

قالتْ آنْ «أتريد كعكة؟ لقد أحضرتُها لكي تُذكّرنا بلاكوستْ. إنها فرنسيّة... كالأحرف الفرنسيّة»

شهقَ باتريك، وهو يتناول إحدى الكعكات من باب التهذيب، «إلى هذه الدرجة هي فرنسيّة». وبينما هو يرفع قطعة الكعك نزَّت الكريما من جوانبها، كصديدٍ يقطر من جُرح. قال في نفسه، يا إلهي، **لا شيء يكبح هذه الكعكة.**

ثم قال بصوت مرتفع، وهو يعصِر كعكة الزبيب بقوة، «إنها *حيّة*!». انبجسَت الكريما خارجها وأخذتْ تقطر على السطح النحاسي المُزخرف

1- يُشير هنا إلى عبارة وردتْ في إنجيل متّى، في العهد الجديد، حيث يقول السيد المسيح «مَن أعثر أحدٌ هؤلاء الصغار بي فخير له أنْ يعلّق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجّة البحر» (إنجيل متّى 18:6) – المترجم.

بإتقان للطاولة المراكشيّة. وأصبحت أصابعه دبقة بفعل الدهون والسكّر. تمتمَ، وهو يُعيد الكعكة إلى مكانها، «أوه، أنا آسف»

ناولته آنْ فوطة. لاحظتْ أنَّ باتريك يُصبح أخرقَ ومرتبكاً أكثر فأكثر. وقبل أنْ يصل كانت تخشى الحديث الحتميّ الذي سيدور بينهما عن والده؛ أما الآن فأصبحت تقلق من أنَّ الحديث قد لا يتمّ.

سألته بلا مقدّمات «ألم تذهب لرؤية والدك بعد؟»

قال باتريك بلا تردُّد «رأيته. أعتقد أنّه كان أفضل حالاً بكثير وهو في التابوت – كان أقل صلابة بكثير من المعتاد»، وابتسمَ لها ابتسامة عريضة مُلطِّفة.

ابتسمت آنْ له برقّة، لكنَّ باتريك لم يكن في حاجة إلى تشجيع.

قال «عندما كنتُ يافعاً، كان والدي يأخذنا إلى المطاعم. وأقول «مطاعم» بصيغة الجمع، لأننا لم نكن نتردَّد على أقلّ من ثلاثة. كانوا إمّا يتأخّرون في إحضار قائمة الطعام، أو يُفاجأ والدي بأنَ النادل أحمقُ حمقاً لا يُطاق، أو أنَّ قائمة أنواع النبيذ خيَّبتْ أمله. وأتذكّر أنّه في إحدى المرات رفع زجاجة نبيذ أحمر وقلبها رأساً على عقِب وبدأ محتواها يقرقر وينسكب على السجاد. وصرخ «كيف تجرؤ على إحضار هذه القذارة إليّ؟». فذُعِرَ النادل إلى درجة أنّه بدل أنْ يرمي به إلى الخارج، جلبَ له المزيد من النبيذ».

«إذن كنتَ تحب أنْ تكون بصحبته في مكانٍ لا اعتراض له عليه»

قال باتريك «بالضبط. لم أصدِّق كم كنتُ محظوظاً، ولبرهة من الوقت توقعتُ أنْ ينهض من التابوت، كما يفعل مصاص دماء عند غروب الشمس، ويقول: «إنَّ الخدمة هنا لا تُطاق». ومن ثم كنا نُضطر إلى ارتياد أربعة أو خمسة صالونات عزاء. وبالمناسبة، كانت الخدمة لا تُطاق **فعلاً**. لقد أرسلوني إلى الجثمان الخطأ»

هتفتْ آنْ «الجثمان الخطأ!»

«نعم، وانتهى بي الأمر إلى حفل كوكتيل يهودي صاحب مُقام على شرف السيد هرمن نيوتن. أتمنى لو أنني مكثتُ هناك؛ كانوا يقضون وقتاً ممتعاً جداً...»

قالتْ آن، وهي تُشعل سيجارة، «يا لها من قصة مُريعة. أراهن على أنهم يُقيمون دورات في الاستشارة حول فقدان الأب»

قال باتريك، مُطلِقاً واحدة من الضحكات الجوفاء السريعة ومُسترخياً على الأريكة، «طبعاً». بدأ الآن حتماً يشعر بتأثير الأقراص المُخدِّرة. لقد أخرج الكحول كل ما في داخله، كشمسٍ تُغري وريقات زهرة لتتفتَّح، هذا ما فكّر فيه برقّة.

قال «عفواً؟». لم يكن قد سمع سؤال آنْ الأخير.

كرّرتْ السؤال «هل سيُحرَق جثمانه؟»

قال باتريك «نعم، هذا صحيح. أعتقد أنه عندما يُحرق الناس لا يحصلون على رمادهم، بل فقط على بعض البقايا العامة من قعر الفرن. وكما يمكن أنْ تتصوّري، أنا أعتبر ذلك نبأً طيباً. وفي الأساس، *كل* الرماد يخصّ شخصاً آخر، لكننا لا نعيش في عالمٍ مثاليّ»

كانت آنْ قد كفَّتْ عن التساؤل إنْ كان يشعر بالأسى على موت والده، وبدأتْ تتمنّى لو أنّه يشعر بقدر أكبر قليلاً من الأسى. وقد جعلت ملاحظات باتريك السامّة، على الرغم من أنها قد لا تنال من ديفيد، يبدو شديد المرض وكأنه ينتظر الموت متأثراً بعضّة ثعبان.

أغمضَ باتريك عينيه ببطء، وبعد مرور وقت طويل، فتحهما من جديد ببطء. والعمليّة برمّتها استغرقتْ حوالي نصف ساعة. ومرّت نصف ساعة أخرى وهو يلعق شفتيه الجافتين والمُلتهبتين مع إحساسٍ مُذهل. كان يحصل حقاً على شيءٍ ما من تلك الأقراص المُخدّرة. كان دمه يهسّ كهسيس شاشة تلفزيون بعد انتهاء البثّ. كانت يداه ثقيلتين ككرات التمارين الرياضية، كأنه يحمل كرتين حديديتين بيديه. كان كل شيء ينطوي نحو الداخل ويُصبح أثقل وزناً.

هتفت آنْ «مرحباً يا هذا!»

قال باتريك، مائلاً إلى الأمام راسماً ما تخيَّلَ أنها ابتسامة فاتنة، «أنا آسف جداً. إنني مُرهَق»

«ربما يجب أنْ تأوي إلى السرير»

«لا، لا، لا. لا داعي للمبالغة»

اقترحت آنْ، «يمكنكَ أنْ تتمدَّد بضع ساعات، ومن ثم تتناول طعام العشاء معي ومع فيكتور. وبعد ذلك سوف نحضر حفلاً يُقيمه بعض الأشخاص المُخيفين من لونغ أيلند ويُحبّون إنكلترا. من النوع الذي يُناسبك»

قال باتريك، مُستخدِماً بطاقة فقدان الأب وقد تأخّر قليلاً بحيث لم يُقنِع آنْ، «هذا ظرفٌ منكِ، لكنني لا أستطيع حقاً أنْ أواجه العديد من الغرباء في الوقت الراهن»

أغوته قائلة «يجب أنْ تأتي. أنا واثقة من أنها ستكون مثالاً للـ «الرفاهية الصريحة»».

قال باتريك ناعساً «لا أتخيّل ما يمكن أنْ يعني هذا»

أصرَّتْ آنْ «على أيّة حال دعني أعطيك العنوان. لا أحبّ فكرة إفراطك في العزلة»

«عظيم. دوّنيه لأجلي قبل أنْ أذهب»

كان يعلم أنَّ عليه أنْ يتناول بعض المُنشِّط حالاً أو أنْ يقبل عَرض آنْ بـ «التمدُّد بضع ساعات». لم يرغب في ابتلاع كل الأقراص لأنها سوف تحمله في رحلة أسطوريّة جنونيّة تدوم خمس عشرة ساعة، ولم يرغب في أنْ يصل إلى ذلك المستوى من الوعي. ومن ناحية أخرى، كان عليه أنْ يتخلَّص من الإحساس بأنه سقط في بركةٍ من إسمنتٍ يجفّ ببطء.

«أين المرحاض؟»

بيَّنت آنْ له كيف يصل إلى هناك، فمشى باتريك بصعوبة عبر السجادة في الاتّجاه الذي أشارتْ إليه آنْ. حالما أغلق باتريك على نفسه باب الحمّام انتابه إحساس مألوف بالأمان. في داخل الحمّام يستطيع أنْ يستسلم لهوسه بحالته الجسديّة والعقليّة التي غالباً ما تتعرَّض للفضيحة في حضور أناسٍ آخرين أو في غياب مرآة مزوّدة بإنارة جيّدة. إنَّ معظم «الوقت الممتع» في حياته أمضاه في غرفة الحمّام. يتلقّى الحقن، ينخر، يبتلع، يسرق، يتناول جرعات زائدة من المُخدِّر؛ يتفحَّص بؤبؤيّ عينيه، وذراعيه، ولسانه، ومخبأه.

قال مُغرّداً، وناشراً ذراعيه أمام المرآة، «أوه ما أجملكِ يا غرف الاستحمام! كم تُسعدني خزائن الأدوية! إنَّ مناشفكِ تُجفِّف أنهارَ دمائي...» وهدأ حالما أخرج أقراص المُخدر من جيبه. كان ينوي أنْ يتناول ما يكفي منها لتعطي مفعولها، ما يكفي لكي... ماذا كان ينوي أنْ يقول؟ لا يتذكَّر. يا الله، ها هي الذاكرة تخونه من جديد، إنّه بروفسور موريارتي[1] في سوء استخدام المُخدِّر، مُقاطِعاً ومن ثم مُلغياً الأحاسيس النفيسة التي يخوض المرء من أجل الحفاظ عليها الكثير من المتاعب.

تمتم «أيها الشيطان المتوحش»

أخيراً انفكّت الكبسولة السوداء وأفرغ نصف محتوياتها على الآجر البرتغالي حول الحوض. وأخرج واحدة من الأوراق النقدية الجديدة من فئة المائة دولار، وجعلها على شكل أنبوب ضيِّق وأخذ يستنشق عبره ركام المسحوق الأبيض الصغير عن الآجرّ.

وَخَزَه أنفه ودمعتْ عيناه قليلاً، ولكنَّ باتريك لم يفقد تركيزه، فأعاد إغلاق الكبسولة، ودثّرها بمنديل ورقيّ، وأعادها إلى جيبه ومن ثم، من دون أي سبب يستطيع تحديده، يكاد يكون رُغماً عن إرادته، أخرجها من جديد، وأفرغ ما تبقّى من المسحوق على سطح القرميد واستنشقه أيضاً. تبيَّنَ له أنّ التأثير لن يدوم طويلاً بالاستنشاق عميقاً عبر أنفه. كان من البخل الشديد تناول نصف أيّ شيء. على أيّة حال، كان والده قد مات تواً وأصبح متوقَّعاً أنْ يتشوَّش. إنَّ الأمر الأساسيّ، الإنجاز البطوليّ، البرهان على جدّيته وموقفه كمُقاتل في الحرب ضد المخدرات، هو أنّه لم يتناول أي هيروين.

مال باتريك إلى الأمام وتفحَّصَ بؤبؤيّ عينيه في المرآة. لقد توسّعا حتماً. وتسارع نبض قلبه. شعر بنشاط، شعر بحيويّة، بل في الواقع شعر بأنّه عدوانيّ. وكأنّه لم يتناول في حياته أي مشروب أو أي مُخدِّر، وعاد

1- البروفسور موريارتي، إحدى الشخصيات الإجراميّة العبقريّة الشريرة. ظهر في روايتين من روايات شرلوك هولمز التي ألّفها آرثر كونان دويل: هما «*المشكلة الأخيرة*» و «*وادي الخوف*»، ومع ذلك بقيتْ من أبرز شخصيات تلك القصص – المترجم.

إلى وضع السيطرة الكاملة، وبدأتْ أشعة ضوء المنارة تشقّ الليل الحالك للمُخدِّر والخمر والشعور بالتشتُّت.

قال، قابضاً على طيَّتَي سترته برصانة رئيس بلديّة، «وأخيراً وليس آخراً، ومن خلال الظل القاتم، إنْ صحَّ التعبير، لحزننا على رحيل ديفيد ميلْروز»

كم طال مكوثه في الحمّام؟ وكأنّه عمرٌ مديد. ربما سوف يقتحم رجال الإطفاء الباب قريباً. وبدأ باتريك يزيل الفوضى على عَجَل. لم يشأ أنْ يرمي صَدَفَة المُخدِّر في سلّة المهملات (جنون الارتياب!) ولذلك حَشَرَ نصفَي الكبسولة الفارغة داخل فوهة تصريف المغسلة. كيف سيشرح استعادته لنشاطه لآنْ. رشّ بعض الماء البارد على وجهه وتركه يقطر متفاخراً. بقيَ شيء واحد ينبغي أنْ يفعله: ذلك الدفق ذو الضجيج الأصيل للماء الذي يرسله كل مُدمن في أي حمّام، آملاً في أنْ يخدع الجمهور المتجمِّع في مخيّلته.

قالتْ آنْ عندما عاد إلى غرفة الجلوس، «بحقّ الله، لِمَ لمْ تُجفِّف وجهك؟»

«كنتُ أحاول أنْ أُنعِش نفسي بقليل من الماء البارد»

قالت آنْ «أوه حقاً؟ وأي نوع من الماء هذا؟»

قال، وهو يُجفف يديه المُبلَّلتين على بنطلونه وهو يجلس، «ماء منعش جداً». ثم قال، وهو ينهض على الفور، «بالمناسبة، أودُّ أنْ أتناول مشروباً آخر بعد إذنك»

قالت آنْ راضخة «طبعاً. وبالمناسبة، نسيت أنْ أسألك، كيف حال ديبي؟»

ملأ السؤالُ باتريك بالرعب الذي كان يُغير عليه كلما طُلِب منه التعبير عن مشاعر شخص آخر. كيف له أنْ يعرف؟ كان صعباً عليه جداً أنْ يُنقِذ نفسه من خضم مشاعره الخاصّة، من دون أنْ يسمح لكآبة انتباهه من التجوال في الحقول الأخرى. ومن ناحية أخرى كانت العقاقير قد أثارتْ فيه رغبةً مُلحَّة في التحدّث ولم يتمكّن من تجاهل السؤال تجاهلاً تاماً.

قال من الطرف المقابل من الغرفة، «في الواقع، إنها تسير على خطى أمها، وتكتب مقالة عن أعظم المضيفات. إنَّ خُطى تيريسا هيكْمان، الخفيّة

على معظم الناس، تتوهّج في الظلام لتُضيء طريق ابنتها المُطيعة. ومع ذلك، ينبغي أنْ نكون ممتنّين لأنها لم تَصُغْ أسلوب حديثها على مِثال حديث والدها».

لبرهة من الوقت تاه باتريك من جديد وسط تأمّله بحالته النفسيّة. شعر بشفّافيّة، ولكن ليس حيال كل شيء، بل فقط حيال شفافيته الخاصة. وتلعثمت أفكاره، مُستبقاً وقوعها بصورة مؤكَّدة، أمام العوائق الأولى وقرَّبَتْ إحساسه بالطلاقة بصورة خطرة من منطقة الصمت. قال، منتزعاً نفسه بعيداً عن هذا التلعثُم الذهنيّ المُحيِّر وفي الوقت نفسه مُنتقِماً من آنْ لأنها سألته عن ديبي، «كيف حال فيكتور؟»

«أوه، بخير. أصبح الآن جَدّاً عجوزاً، وهو الدور الذي كان طوال حياته يتدرَّب على القيام به. إنّه يحظى بالكثير من الاهتمام ويُلقي مُحاضرات حول الهويّة وهو يُحسِن، حسب قوله، القيام بهذا العمل وهو مُغمَض العينين. هل سبقَ لك أنْ قرأتَ كتابه «*الوجود، والمعرفة، وإصدار الأحكام*»؟»

قال باتريك «كلا»

قالتْ آنْ، وهي تنهض وتتوجه نحو رف الكتب، «حسن، إذن يجب أنْ أعطيكَ نسخة منه». وتناولتْ ما بدا لباتريك أشبه بمجلّد سميك مُضجِر من بين عدد من نسخ هذا الكتاب. كان يُحبّ الكتب الرقيقة التي يستطيع أنْ يضعها في جيوب معطفه ويتركها هناك على مدى أشهر من دون أنْ يقرأها. ما فائدة الكتاب إذا لم تتمكن من حمله معك أينما ذهبت كوسيلة دفاع نظريّة ضد الملل؟

سأل بارتياب «أهو عن الهويّة؟»

قالتْ آنْ «عن كل ما أردتَ معرفته في حياتك ولم تجرؤ على صياغته بدقّة»

قال باتريك، وهو ينهض باضطراب، «عظيم». كان عليه أنْ يتمشّى في المكان، أنْ يتحرَّك فيه، وإلّا أصبح للعالم ميل خطِر إلى أنْ يُصبح مُسطّحاً وشعرَ كأنّه ذبابة تزحف وترتقي زجاج نافذة بحثاً عن مخرج من سجنها الشفّاف. ناولته آن الكتاب، معتقدة أنّه اقتربَ منها ليأخذه.

قال، مائلاً نحوها ليُقبّلها بسرعة، «أوه، إه، شكراً لكِ. سوف أقرأه قريباً جداً»

حاولَ أنْ يحشُر الكتاب داخل جيب معطفه. كان *متيقّناً* من أنّه لن يدخل فيه. لا فائدة على الإطلاق. والآن بات عليه أنْ يحمل هذا الكتاب الضخم السخيف معه أينما ذهب. شعر بموجة من الحنق العنيف تجتاحه. فحدَّقَ بثبات إلى سلة مهملات الأوراق (كانت ذات مرّة وعاء ماء صوماليّ) وتخيَّلَ الكتاب ينطلق بحركة دورانيّة نحوها كقرصٍ دائريّ.

قال باقتضاب فجّ «يجب أنْ أغادر الآن حتماً»

«حتماً؟ ألا تمكث حتى تسلِّم على فيكتور؟»

قال بنزق «كلا، يجب أنْ أغادر»

«حسن، ولكن اسمح لي أنْ أعطيك عنوان سامانتا»

«ماذا؟»

«من أجل الحفل»

قال باتريك «آه، نعم. أشكّ في أنْ أتمكن من الحضور»

دوّنت آنْ العنوان على مزقة من الورق وناولتها لباتريك. «ها هو».

قال باتريك بسرعة «شكراً لك»، ورفع ياقة معطفه، «سوف أتّصل بكِ غداً»

«أو أراك هذه الليلة»

«ربما»

استدار وأسرع في اتجاه الباب. كان عليه أنْ ينتقل إلى الخارج. بدا وكأنَّ قلبه يكاد يقفز من بين أضلعه، كعفريت العلبة، وشعرَ بأن في استطاعته أنْ يُجبِر غطاء العلبة على البقاء مُغلَقاً بضع لحظات أُخَر.

هتف من الباب «وداعاً»

قالتْ آنْ «وداعاً»

هبط بالمصعد البطيء والخالي من الهواء، ومرَّ بالبواب البدين والأحمق،

ومن ثم إلى الشارع. ثم صدمه الوقوف من جديد تحت قبّة السماء الشاحبة والمترامية، مكشوفاً بأكمله. لا بُدَّ أنَّ هذا ما يشعر به المحار عندما يسقط عليه عصير الليمون.

لماذا غادر ملاذ شقّة آنْ؟ وبفظاظة شديدة. الآن سوف تكرهه إلى الأبد، إنَّ كل ما فعله كان خطأً.

نظر باتريك على طول الجادَّة. كانت أشبه باللقطة الأولى من فيلمٍ وثائقيّ عن الكثافة السكّانيّة. سار على طول الشارع، متخيّلاً رؤوس المارَّة المقطوعة تتدحرج وتسقط في المجاري وتتجه نحوه.

- 4 -

تساءلَ باتريك، وليس للمرة الأولى، وهو يخلع معطفه ويُسلّمه لنادلٍ شَعره مُلمَّع ويرتدي سترة حمراء، كيف يفكِّر في وسيلة للخروج من المشكلة في حين أنّ المشكلة هي في أسلوب تفكيره.

كان الأكل هو الحل المؤقَّتْ الوحيد. ولكن في الأساس كل الحلول مؤقّتة، حتى الموت، ولا شيء كان يمنحه المزيد من الإيمان في وجود حياة آخرة من السخرية التي لا ترحم من القَدَر. ولا ريب في أنّه سيتَّضِح أنَّ الانتحار هو المقدِّمة العنيفة لفترة أخرى من الوعي المُثير للاشمئزاز، والمسارات اللولبيّة المتلاشية والأشراك المشدودة، وذكريات كشظايا قذيفة تمزِّقُ لحمه طوال النهار. مَنْ يستطيع أنْ يُخمِّن العذابات الحادَّة التي تكمن في معسكرات عطل الأبديّة؟ يكاد ذلك يجعل المرء ممتنّاً لأنه حيّ.

قال باتريك في نفسه، يستطيع فقط خلف شلال من الأحاسيس الوحشيّة والممتعة، وقبول لائحة طعام مُلبّسة بالجلد من دون رفع البصر، أنْ يختبئ من كلاب وعيه المسعورة. وهناك، في برودة المُعتَزَل داخل صخرة، خلف ذلك الستار الأبيض الثقيل يسمعها تنبح وتزمجر باضطراب على ضفة النهر، لكن على الأقلّ لا تستطيع أنْ تمزّق عنقَه ثورةُ غضب تأنيبها. فقبل كل شيء، لم يكن صعباً اقتفاء الأثر الذي خلَّفه. فعليه ينتثر دليل الوقت المهدور والتوق اليائس، بالإضافة إلى تلك القمصان المُلَطَّخة بالدم، والحقن التي لوى إبرها في نوبة اشمئزاز ومن ثم أعادها إلى وضعها السابق من أجل تناول جرعة أخيرة. أخذَ باتريك نَفَساً عميقاً وعقد ذراعيه على صدره.

تشدّقَ قائلاً «أريد كوكتيل مارتيني. صرفاً، مع عصير ليمون. وبعد ذلك سوف أصبحُ مستعداً لطلب الطعام»

اقترب نادل منه لكي يتلقّى طلبه. كان كل شيء تحت السيطرة.

إنَّ معظم الذين ينسحبون ويتعاطون المنشطات، والمخدرات، قد يفقدون شهيتهم على الطعام، لكنَّ باتريك وجد أنَّ شهواته كلها جاهزة طوال الوقت، حتى عندما يُضفي اشمئزازُهُ من أنْ يلمسه أحد على رغبته الجنسيّة سِمةً نظريّة.

إنّه يتذكر جوني هول عندما قال ساخطاً عن صديقةٍ له كان قد تخلّى عنها حديثاً، «كانت من النوع الذي يأتي إليك ويعبث بشعرك بعد أنْ تكون قد تناولت جرعة من الكوكايين». وصاح باتريك من هول هذا التصرُّف غير اللائق. فعندما يشعر الرجل بالخواء وبالهشاشة كلوح من الزجاج، لا يريد أنْ يعبث أحدهم بشَعره. قد لا يدور نقاشٌ بين الذين يعتقدون أنَّ الكوكايين مُخدِّر مُثير للشهوة وسيئ السمعة بصورة غامضة وبين المُدمنين مُصابين بضمور الأوردة الذين يعلمون أنَّ المرور بتجربة الرعب الصافي في مشهد للمنطقة القطبيّة هو فرصة نادرة.

كان الرعب هو الثمن الذي عليه أنْ يدفعه لأول موجة من السرور تحطِّم القلوب عندما بدا كأنَّ الوعي قد انفجر، كبراعم بيضاء، على طول تفرّعات كل عَصَب. واندفعتْ أفكاره المُبعثَرَة كلها معاً، كاندفاع برادة حديد سائبة عندما يُقرَّب منها مغناطيس فيجذبها ويَشكّلها على هيئة وردة. أو – ينبغي أنْ يكفّ عن التفكير في الأمر – أو أشبه بانحلال حمض النحاس المُشبَّع تحت المجهر، عندما يتحول فجأة وتتفكَّك البلورات وتنتشر على سطحه.

يجب أنْ يكفّ عن التفكير في الأمر – ويُنفّذه. كلا! وأنْ يفكّر في شيء آخر. على سبيل المثال، في جثمان والده. هل سيمثّل هذا تطوّراً؟ سوف يُخلّصه من مشكلة الرغبة، لكنَّ الكراهية يمكن أنْ تكون أيضاً إلزاميّة.

آه، ها قد وصل كوكتيل المارتيني. إذا لم يكن يمثّل سلاح الفرسان، فعلى الأقلّ سيمثّل المزيد من الذخيرة الحربيّة. جرعَ باتريك السائل الزيتيّ البارد دفعة واحدة.

«هل ترغب في كأس أخرى، يا سيدي؟»

قال باتريك بفظاظة «نعم»

تقدَّمَ نادل كبير آخر يرتدي سترة العشاء ليسجل طَلَبَ باتريك.

قال باتريك، «أريد طارطار[1] دو سومون كرو، وبعد ذلك شريحة من الطارطار»، استمدّ متعة بريئة من لفظ كلمة «طارطار» مرّتين وسرَّه أنْ يطلب أشكالاً ناضجة من طعام الأطفال، الذي قُطِّعَ وسُحِقَ من أجله.

وكان نادل ثالث، مع رسم لحفنة من العنب الذهبيّ على ياقة سترته، وكوب كبير ذهبيّ من أجل تذوُّق النبيذ يتدلّى من سلسلة مربوطة حول عنقه، على أُهبة الاستعداد ليجلب لباتريك زجاجة من نبيذ كورتون شارلمان على الفور وليفتح زجاجة نبيذ دوكرو - بوكيو لاحقاً. كان كل شيء تحت السيطرة.

كلا، لا ينبغي أنْ يفكِّر في الأمر، أو في الحقيقة في أي شيء، وخاصة ليس في الهيروين، لأنَّ الهيروين كان الشيء الوحيد الناجع، والشيء الوحيد الذي يمنعه من العدو في المكان في دوامة من أسئلةٍ لا يمكن الإجابة عنها. كان الهيروين هو سلاح الفرسان. كان الهيروين ساق الكرسي المفقودة، صُنِعَت بدقَّة متناهية بحيث أنَّ كل شظيّة منها تتطابق مع مكانها الصحيح. استقرَّ الهيروين مستكيناً عند قاعدة جمجمته، وتدثَّرَ في الظلام بجهازه العصبيّ، كقطة سوداء ملتفّة حول نفسها على وسادتها المُفضّلة. كان ناعماً وكثيفاً كحنجرة حمامة خشبيّة، أو كتناثُر رذاذ شمع الختم على صفيحة الورق، أو كحفنة من الأحجار الكريمة تنزلق من راحة كف إلى أخرى.

كان شعور الناس الآخرين بالحب، كشعوره هو حيال الهيروين، وكان شعوره بالحب كشعور الآخرين حيال الهيروين: أي أنّه تبديد خطِر ومُبهَم للوقت. ماذا سيقول لديبي؟ «على الرغم من عِلمكِ أنَّ كراهيتي لوالدي، وحبّي للمخدرات، هما الصِلتان الأهمّ اللّتان أقمتهما في حياتي، أريد منكِ أنْ تعلمي أنكِ تأتين في المرتبة الثالثة». ومَنْ هي المرأة التي لا تشعر بالفخر بكونها «إحدى الميداليات» في مثل هذه المنافسة؟

1- صنف من الطعام قِوامه السمك النيء - المترجم.

تمتم باتريك بصوت مرتفع «أوه، اخرس إكراماً لله»، وهو يشرب كأس كوكتيل المارتيني الثانية مع قدرٍ من التعقّل في البدء. وإذا استمرّت الأمور على هذا المنوال سوف يُضطر إلى الاتصال بصاحب الفندق، التاجر الرائع الصدوق الذي يتعامل معه في نيويورك. كلا! لن يفعل ذلك، لقد أقسمَ على ألّا يفعل. 555–1726. كان يمكن أيضاً أنْ يضرب هذا الرقم وَشَماً على رسغه. ولم يستخدمه منذ شهر أيلول، أي قبل ثمانية أشهر، لكنه لا ينسى أبداً إثارة تلك الأرقام السبعة المُحرِّكة للأمعاء.

وعاد صاحب العنب الذهبيّ، وأزال طبقة الرصاص الصفراء الثقيلة عن عنق زجاجة الكورتون شارلمان، وهزّ زجاجة خمر كلاريت في مهدها، بينما باتريك يُدقِّق النظر في صورةٍ تمثّل قصراً أبيضَ تحت سماءٍ ذهبيّة ممتدة. فكَّرَ باتريك مرتاباً، وهو يتذوَّق عيِّنةً من نبيذ كورتون شارلمان، في أنّه ربما مع توفّرِ هذه المواد المُعزّية لن يُضطرَّ إلى تناول جرعة مُخدِّر بعد العشاء.

التذوُّق الأول دفعَه إلى رسم ابتسامة واسعة دلالةَ التقدير، كمَن لمح حبيبته في آخر رصيف مُكتظ بالناس. رفع الكأس من جديد، وتناول جرعة كبيرة من النبيذ الأصفر الشاحب، وأبقاها في فمه بضع لحظات، ومن ثم تركها لتنزلق عبر بلعومه. نعم، جيد، ما زال جيداً. بعض الأشياء لا تخيِّب أمله أبداً.

أغمضَ عينيه وانتشر المذاق كانتشار الأمواج على كيانه كما الهلوسة. لو كانَ نبيذاً رخيصاً لأغرقَه بطعم الفاكهة، لكنَّ العنب الذي تخيّله الآن كان اصطناعيّاً والحمد لله، كقرطٍ من اللؤلؤ الأصفر الكبير. تخيَّل الأفرع الطويلة والملتوية للكرمة، وهي تجرّه على التراب الثقيل المحمرّ. ثمة آثار لحديد وحجر وتراب ومطر تومض عبر حاسة التذوُّق عنده وتغويه كنيازك سيّارة. والأحاسيس التي طال أمد تدثّرها داخل زجاجة تمدَّدتْ الآن كقماشة لوحة مسروقة.

بعض الأشياء لا تُخيِّب أمله أبداً. وهذا كان يدفعه إلى البكاء.

«هلّا تفضّلتَ وتذوّقت الدوك – رو بو – كا – و؟»

قال باتريك «نعم»

صبَّ ذو «العنب الذهبيّ» النبيذ الأحمر في الكأس الكبيرة بصورة تدعو إلى السخرية. حتى عَبَقَه جعل باتريك يرى أخيلة. حجر غرانيت متلألئ، نسيج عنكبوتيّ، أقبية قوطيّة.

قال، من دون أنْ يزعج نفسه بتذوّقه، «إنّه جيد. صبّ بعضاً منه الآن، وسوف أشربه لاحقاً»

غاصَ باتريك في كرسيه، بعد زوال أثر النبيذ المُشتِّت، عاد السؤال نفسه: هل سيلجأ إلى التاجر الذي يتعامل معه بعد العشاء، أم يعود إلى الفندق؟ ربما يعود إلى بيير بزيارة اجتماعية. ضحك باتريك على سُخف هذه الذريعة، ولكن في الوقت نفسه شعر برغبة عاطفيّة هائلة في رؤية الرجل الفرنسيّ المعتوه من جديد. لقد كان بيير مِن نَواحٍ متعدّدة الشخصَ الذي شعر باتريك أنّه الأقرب إليه.

كان بيير قد أمضى ثماني سنوات في مصحّ عقليّ وهو تحت تأثير سوء فهمٍ مفاده أنّه بيضة. كان يقول، متكلّماً بسرعة كبيرة بلكنة فرنسيّة ظاهرة، «طوال ثماني سنوات، يا رجل، وأنا أعتقد أنني بيضة. *Je croyais que j'etais un oeuf* - وهذه ليست نكتة لعينة». في تلك الأثناء كان جسده المُهمَل يُطعَم، ويُحرَّك، ويُغسَل، ويُبلَس على أيدي ممرضات لا يعرفنَ أنّهن كنَّ يتعاملن مع بيضة. وأُطلِقَ سراح بيير وبدأ يجوب العالم في رحلات بلا قيود، وهو في حالة من التنوير لم تتطلّب التوسُّط الكامل من الكلمات والأحاسيس. كان يقول «كنتُ أفهم كل شيء»، ويُحدِّق بغضب إلى باتريك متحدّياً، «J'avais, une conscience totale».

في أثناء تلك الرحلات، كان بيير يتوقف أحياناً في غرفته في المستشفى ويحوم مع إحساس بالشفقة وبالامتعاض اتجاه بيضة جسمه التي لم تكن قد فقستْ بعد. ولكن، بعد مرور ثماني سنوات أدركَ انَّ جسمه كان يحتضر من الإهمال.

«كان عليَّ أنْ أُجبِر نفسي على العودة إلى جسدي اللعين؛ كان شيئاً رهيباً. *J'avais un degout total*»

كان باتريك مفتوناً. ذكّره بامتعاض لوسيفر عندما اضطرَّ إلى حشر نفسه داخل الحَلَقات الرطبة والباردة والمُقيِّدة لجسد أفعى.

وذات يوم دخلتْ عليه الممرضات مع قطع الاسفنج وطعام الأطفال، ووجدنَ بيير ضعيفاً ولكنه نزِق، جالساً على حافة سريره بعد مضيّ حوالي عقد من الزمان من الجمود والصمت.

قال بسرعة «حسن، أنا ذاهب الآن»

بيَّنتْ الاختبارات أنّه صافي الذهن بكل معنى الكلمة، وربما أكثر مما ينبغي، وهكذا أطلقوا سراحه من المستشفى بكل ارتياح.

والآن وحدهُ سيلٌ متواصلٌ من الهيروين والكوكايين يمكنه أنْ يدعم نسخةً خشنة من جنونه المجيد السابق. أخذ يحوم، ولكن ليس بالخفّة السابقة نفسها، في الهامش بين جسده وحنينه القاتل إلى التحرُّر. نهضَ، وفي ذراعه جرح أشبه بفوهة بركان، كركام خشن من الدم الجافّ ونسيج ندب، من التجويف الناعم في الجانب المقابل لمرفقه. مكّنه من إسقاط الشوكة الرفيعة لحقنة الإنسولين شاقوليّاً في الوريد، لا يقصد بذلك تحقيق إصابة، بل لكي يفتح هذا المنفذ إلى مجرى دمه، كمعبر لحالةِ الطوارئ، جاهزٍ دائماً لتلقّي جرعة قويّة من المُخدِّر لتخفيف الإحساس برعب الاحتجاز داخل جسد مُصاب باليرقان وغير مضياف لا يشعر أنّه جسمه الخاصّ.

كان نظام حياة بيير مُنتَظَماً انتظاماً مثاليّاً. كان يبقى يقظاً طوال يومين أو ثلاثة ومن ثم، بعد تلقّي جرعة كبيرة من الهيروين، ينام أو على الأقلّ يرتاح طوال ثماني عشرة ساعة. وخلال فترات يقظته كان يبيع المخدرات باقتضاب وبفعاليّة، لا يسمح لمعظم زبائنه بالمكوث أكثر من بضع دقائق في شقّته ذات اللونين الأبيض والأسود. وكان أيضاً يوفِّر على نفسه إزعاج احتضار أشخاص في حمّامه بحظر أخذ الحقن هناك، وهذا الحظر سرعان ما رفعه خصيصاً من أجل باتريك. وطوال فصل الصيف الأخير حاول باتريك أنْ يتّبع أنماط نوم بيير نفسها. كانا غالباً ما يبقيان يقظين طوال الليل، جالسَين على كلا جانبي المرآة الأفقيّة التي يستخدمها بيير كطاولة، وهما عاريان حتى خصريهما ليوفرا على نفسيهما عناء رفع أكمامهما وإنزالها، ويتناولان جرعة بعد كل ساعة، وبينما هما يتصبّبان بالعرق الذي يفوح برائحة كيميائيّة، كانا يتحدثان حول مواضيعهما المُفضّلة: كيف يُحققان

التحرُّر الكامل؛ وكيف يشهدان موتهما الخاص؛ وكيف يبقيان على التخوم، التي لا تُحدِّدها الهويات التي تحاول أنْ تفرض تواريخها عليها؛ وكم هم كذّابون وضحلون الأشخاص المستقيمون؛ وطبعاً، كيف أنَّ في استطاعتهما أنْ يتخلَّيا عن تعاطي المخدرات إذا أرادا ذلك حقاً، وهي حالةٌ لم يوضَع أي منهما فيها حتى الآن مدة طويلة. قال باتريك في نفسه «اللعنة»، وهو يُفرِغ كأسه من النبيذ الأبيض ويقوم في الحال بإعادة ملئه من الزجاجة التي تقطر. يجب أنْ يكفّ عن التفكير في الأمر.

مع أب كأبيه (نشيج، نشيج)، لطالما شكّلتْ الشخصيات الحاكمة والقُدوات مشكلة، ولكنّه وجد في بيير أخيراً شخصاً يمكنه أنْ يكون قدوة له يستطيع أنْ يتبعه بحماسة كاملة، ويمكنه أنْ يأخذ بنصيحته. على الأقلّ إلى أنْ يُضطر بيير إلى وضعْ حدّ له هو مقدار غرامين من الكوكايين في اليوم بدل السبعة التي يعتبر باتريك أنّه لا غِنى عنها.

صرخ بيير فيه «أنت مجنون لعين، يا رجل، أنت تزداد اندفاعاً في كل مرة. أنت تقتل نفسك بهذه الطريقة»

هذه المناقشة شوّهتْ نهاية فصل الصيف، ولكن على أيّة حال كان الوقت قد حان للتخلُّص من الطفح المُلتَهِب الذي غطّى جسم باتريك كلّه والقروح البيضاء الحارقة التي ظهرتْ فجأة في أنحاء فمه كلّه، وحنجرته، وعلى بطنه، وهكذا عاد إلى إنكلترا بعد ذلك ببضعة أيام لكي يستشير عيادته المُفضّلة.

تنهّد قائلاً، وهو يلتهم بشراهة السلمون النيء ببضع لُقَم من دون أنْ يأخذ نفساً، «آه، *les beaux jours*». وشرب آخر ما تبقّى من النبيذ الأبيض، من دون الاهتمام الآن بمذاقه.

مَنْ أيضاً كان يوجد في هذا المطعم المُريع؟ الغريب في الأمر أنّه لم ينظر قبل ذلك؛ بل ليس غريباً جداً، في الحقيقة. لن يستدعوه لكي يحلّ مشكلة العقول الأخرى، على الرغم طبعاً من أنَّ الأشخاص، أمثال فيكتور، الذين اعتقدوا أنَّها مشكلة في المقام الأول معروفون بأنهم منغمسون بالكامل في نشاطات عقولهم الخاصة. مُصادفة غريبة.

أدار عينيه في أرجاء المكان ببرودة أفعى. لقد كرههم كلهم، كل واحد

فيهم، خاصة ذلك الرجل البدين بصورة لا تُصدَّق الجالس مع المرأة الشقراء. لا بُدَّ أنّه دفع لها نقوداً لكي تُخفي اشمئزازها من وجودها بصحبته.

تمتم باتريك «يا الله، كم أنت مُقرِف. ألم تفكر أبداً في اتّباع حِمية؟ نعم، كما أقول لك، حِمية، أمْ لم يخطر في بالك أنك بدين بدانة شنيعة؟». شعر باتريك بعِدائيّة انتقاميّة وجلفة. قال في نفسه، إنَّ الكحول قويّ المفعول، مُتذكراً القول الحكيم الذي تفوَّه به تاجر الحشيش الأول الذي تعامل معه في أيام المدرسة، كان هيبّياً عجوزاً مُدمناً مملّاً اسمه باري.

سخر من الرجل البدين قائلاً «إذا بدوتُ مثله، فسوف أنتحر. هذا لا يعني أنَّ الإنسان في حاجة إلى حافز». لم يكن هناك شكّ في الأمر، إنّه أشدّ الناس بدانةً واضطهاداً للنساء وللعجائز وأشدّ عنصريّة وتزمّتاً وتعاطياً للمخدرات وأيضاً، طبعاً، تعجرفاً، لكنه صاحب شخصيّة خبيثة بحيث أنَّ لا أحد يمكن أنْ يرقى إلى معاييره. لقد تحدّى أيّ شخص أنْ يجمع أقليّة أو أغلبيّة لا يكرهها لسببٍ أو لآخر.

سأله أحد النُدُل «هل كل شيء على ما يُرام، يا سيدي؟»، مُعتقداً خطأً أنَّ باتريك يُتمتم طالباً شيئاً.

قال باتريك «نعم، نعم». قال في نفسه، ليس كل شيء على ما يُرام في المُطلَق، لا يمكنكَ أنْ تتوقَّع جديّاً من أيِّ شخص أنْ يتفق معك في هذا. في الحقيقة إنَّ فكرة أنَّ كل شيء على ما يُرام جعلته يشعر بصورة خطرة بالسخط. إنَّ التوكيد سلعة نادرة لا يمكن تبديدها على مثل هذا التقرير المُضحك. شعر برغبة في استدعاء النادل لكي يُصحِّح أيَّ انطباع أو سعادة زائفة يمكن أنْ يكون قد أثارهما عنده. لكنّه كان مجرَّدَ نادلٍ آخر – ألن يدعوه وشأنه؟ هل سيتحمّل الأمر إذا فعلوا؟ – كان يجلب له شريحة الطارطار. أرادها بالبهار، بالكثير من البهار.

بعد ذلك بقليل، ذاب فمه بطعم فلفل التاباسكو والفلفل الأحمر، وبسرعة التهم باتريك ما يحتوي طبقه من كتلة اللحم النيء والـ*pomme allumettes* (بطاطا مقليّة).

قال متلبِّساً صوت مربيته، «هذا صحيح، يا عزيزي، إنَّ في داخلك شيئاً صلباً»

أجاب طائعاً «نعم، يا ناني، كطلقة رصاص أو إبرة، أليس كذلك، يا ناني؟»

أخذ يلهث وينفخ «طلقة رصاص، حتماً، وإبرة! وماذا بعد؟ لطالما كنتَ ولداً غريب الأطوار. لا خير يُرجى منك، تذكّر كلامي، أيها الشاب»

أوه، يا الله، ها هي تبدأ من جديد. الأصوات التي لا تسكتْ. الحوارات المفردة. الثرثرة الرهيبة التي تتدفّق بلا توقُّف. جرع دفعةً واحدة محتوى كأس النبيذ الأحمر بنهمٍ جدير بلورنس العرب، حسب تأويل الممثل بيتر أوتول، وهو يجرع بشوقٍ كأس الليمونادة بعد ظمأ عبور الصحراء. قال، وهو يُحدِّق بجنون إلى المدى ويهزّ حاجبيه بخِبرة، «لقد احتللنا العقبة».

«هل تأبه لتناول حلوى بعد الطعام، يا سيدي؟»

أخيراً، شخصٌ حقيقيٌ يطرح سؤالاً حقيقيّاً، على الرغم من كونه سؤالاً غريباً. كيف يُفترَض به أنْ «يأبه» لتناول حلوى؟ هل عليه أنْ يقوم بزيارتها في أيام الآحاد؟ وأنْ يُرسِل إليها بطاقة عيد ميلاد؟ هل ينبغي أنْ يُطعمها؟

قال باتريك، مبتسماً بعنف، «نعم، سوف أطلب كريما محروقة»

حدَّقَ باتريك إلى كأسه. لقد بدأ النبيذ الأحمر حتماً يؤدِّي عمله. من المؤسِف أنّه استهلكه كلّه. نعم، لقد بدأ مفعوله يظهر، كقبضة يد تُفتَح ببطء. وداخل راحة الكف... في راحة الكفّ، ماذا؟ حجر ياقوت؟ حبّة عنب؟ حجر؟ ربما التشبيهات لا تعمل إلّا على نقل الفكرة نفسها جيئة وذهاباً، مُستترة بخفّة، من أجل إعطاء انطباع التبادُل المُثمِر. كان السير سيمبسون ليجيند المتودِّد الوحيد الصادق الذي مدح صِفات المرأة. «أَعْطِيني يدكِ، يا أودْ، دعيني أُقبّلها؛ إنها دافئة وناعمة – كـ ماذا؟ يا أود، كاليد الأخرى». والآن ظهرتْ ابتسامة دقيقة. الحدود المأساويّة للمُقارنة. الرصاص في قلب القُبَّرة. التقوُّس المُخيِّب للآمال للمدى. قبّة الزمن.

يا إلهي، إنه حقاً غارقٌ في الثمالة. ومع ذلك، ليس ثملاً بالقدر الكافي. وصبَّ المزيد من المشروب، لكنه لم يبلغ منابع الفوضى الأساسيّة، الحادث الذي وقع على جانب الطريق، ما زال حبيس المعدن الملتوي بعد مرور كل تلك السنين. تنهد بصوت مرتفع، وأنهى التنهّد بما يُشبه النخر، وأطرقَ رأسه دلالة العجز.

وصلَ طبق الكريما المحروقة والتهمها بالنَزَق اليائس نفسه الذي يُبديه مع كل صنف طعام يتناوله، لكنّه الآن مُضطرب بفعل الإرهاق وضيق الصدر. كانت طريقته العنيفة في الأكل دائماً تتركه وهو في حالة من الحزن العصيّ على الوصف في نهاية الوجبة. وبعد مرور بضع دقائق لم يسعه خلالها إلّا أنْ يُحدِّق إلى قعر كأسه، حشدَ ما يكفي من الشغف لكي يطلب إحضار براندي مارك دو بورغوني والفاتورة.

أغمضَ باتريك عينيه وترك دخان السيجارة ينساب خارجاً من فمه ليدخل في أنفه ثم يخرج من فمه من جديد. كانت تلك عمليّة إعادة تدوير بأفضل صورها. طبعاً كان ما يزال في استطاعته أنْ يذهب إلى الحفلة التي دعته آنْ إليها، لكنّه كان يعلم أنّه لن يذهب. لماذا دائماً يرفض؟ يرفض المُشاركة. يرفض الموافقة. يرفض الغفران. فما إنْ يفوت الأوان حتى يتمنّى لو أنّه ذهب إلى تلك الحفلة. وألقى نظرة سريعة على ساعة يده. لم تتجاوز الساعة التاسعة والنصف. لم يحنْ الوقت بعد، ولكن حالما يحين، سوف يتحول الرفض إلى ندم. يستطيع أيضاً أنْ يتخيَّل أنّه يُحبّ امرأة إنْ كان قد خسرها أوّلاً.

الأمر هو نفسه مع القراءة. فحالما يُحرَم من الكتب، يُصبح توقه إلى القراءة لا يرتوي، في حين إذا أخذ جانب الحيطة وحمل كتاباً معه، كما فعل هذه الليلة، حين دسَّ كتاب «*أسطورة سيزيف*» من جديد في جيب معطفه، يستطيع أنْ يتيقّن من أنّ رغبته في الأدب لن تُقلِق راحته.

وقبل كتاب «*أسطورة سيزيف*» كان يحمل معه أينما ذهب كتاب «*اللا مُسمّى*» وأيضاً «*نايْنوودْ*» على مدى عام على الأقلّ، وطوال عامَين قبل ذلك حمل كتاب معطفه الأبرز «*قلب الظلام*». أحياناً، وبدافع من رعبه من فرط جهله وعزمه على قهر كتابٍ صعب، أو حتى نص أساسيّ، كان يتناول نسخة من شيءٍ شبيه بـ «*النماذج السبعة للغموض*» أو «*انحدار الإمبراطوريّة الرومانيّة وانهيارها*» عن رفوف مكتبته فيكتشف أنَّ الصفحات الأولى منه مدجَّجة بشبكة من الحواشي الغامضة التي كان قد كتبَها بخطٍّ يده. هذه الآثار من حضارة مُبكِّرة كانت جديرة بتطمينه لو كانت لديه أيّة ذكرى حول الأشياء التي كان بكل وضوح قد قرأها ذات يوم، لكنَّ هذا النسيان سبَّبَ له الرعب

بدل ذلك. ما فائدة تجربةٍ إنْ كانت تتملَّص منه تملّصاً تاماً؟ بدا كأنَّ ماضيه قد تحوّل إلى ماء يملأ كفّيه ويتسرَّب من خلال أصابعه المتوترة من دون رجعة.

نهضَ باتريك بتثاقُل واجتاز سجادة المطعم الحمراء السميكة، ورأسُه شامخ بلا ثبات وعيناه متقاربتان جداً، حتى أنَّ الطاولات بدتْ غبشة مُعتِمة من خلال تشابُك جفونه.

كان قد اتّخذَ قراراً مهمّاً. سوف يتصل هاتفيّاً ببيير ويترك للقدر تقرير إنْ كان مُخدَّراً أم لا. إنْ كان بيير نائماً فلن يحصل على أيّة جرعة، ولكن إنْ كان يقظاً فالأمر يستحق الذهاب إليه من أجل الحصول على ما يكفي لقضاء ليلة هانئة مريحة. ويبقى القليل من أجل الصباح لكيلا يشعر بالغثيان.

وضع عامل البار جهاز الهاتف على منضدة الماهوغاني، وإلى جوارها كأساً ثانية من البراندي. 5... 5... 5... 1... 7... 2... 6. وتسارعَ نبض قلب باتريك؛ وشعر فجأة بالحذَر.

«لا أستطيع أنْ أتقدَّم من جهاز الهاتف الآن، ولكن إذا تركت...»

ضرب باتريك جهاز الهاتف بقوة. إنه الصوت الآليّ اللعين. ماذا يعني بنومه في الساعة العاشرة مساءً؟ إنّه شيء لا يُطاق على الإطلاق. رفع سمّاعة الهاتف وطلب الرقم من جديد؟ هل يترك رسالة؟ صدرت عنه شِفرة مفادها «استيقظ، أيها الأبله، أريد جرعة»

كلا، لا فائدة. لقد قال القَدَر كلمتَه ويجب أنْ يقبل حُكمه.

كان الجو في الخارج دافئاً بشكل مُدهِش. ومع ذلك، رفع باتريك ياقة معطفه، وهو يمسح بعينيه الشارع بحثاً عن سيارة أجرة شاغرة.

سرعان ما لمح سيارة أجرة فهبط إلى الشارع لكي يستوقفها.

قال وهو يستقلّها «إلى فندق بيير».

- 5 -

أيّة أداة يستطيع أنْ يستخدم لكي يتحرَّر؟ الازدراء؟ العِدوانيّة؟ الكراهية؟ كلها مُلوّثة بتأثير والده، وهذا بالذات الشيء الذي يحتاج إلى التحرُّر منه. والحزن الذي تولّاه، إذا توقف ولو للحظة، ألم يتعلّمه من انحدار والده إلى درك البؤس الشالّ؟

بعد طلاق ديفيد من إلينور، بقيَ في جنوب فرنسا، على مسافة خمسة عشر ميلاً من المنزل القديم في لا كوست. وفي منزله الجديد، الخالي من النوافذ الخارجيّة، لا توجد إلّا نوافذ تطل على الفناء المركزيّ المُختنِق بالأعشاب الضارة، ظلَّ يتمدَّد على السرير على مدى أيام طويلة يُصدِرُ أزيزاً ويُحدِّق إلى السقف بنظرة ثابتة، لا يبذل أيّة طاقة حتى لقطْع أرض الغرفة وإحضار نسخته من كتاب «*جوروكس يبدأ من جديد*» الذي كان ذات يوم قادراً على إدخال البهجة إلى قلبه في أشدّ الظروف سوءاً.

عندما كان باتريك في سن الثامنة أو التاسِعة، ومُمزَّقاً بين الرعب والولاء غير المفهوم، قام بزيارة أبيه، ولم يكن ديفيد يكسر فترات الصمت الهائل إلّا لكي يعبِّر عن رغبته في الموت، ولكي يُصدِر تعليماته الختاميّة.

شهقَ وهو يقول «قد لا أعيش طويلاً، وقد لا نتقابل بعد الآن»

ناشده باتريك قائلاً «كلا، يا أبي، لا تقُل هذا»

ثم تتدفّق النصائح القديمة: راقب كل شيء... لا تثِق بأحد... احتقِرْ أمّك... بذلُ الجهد أمرٌ سوقيّ... كانت الأحوال أفضل في القرن الثامن عشر.

بدافعٍ من إعجابه، عاماً بعد عام، بفكرة أنَّ تلك ربما تكون آخر تصريحات

والده عن العالم، وزبدة حِكمته كلها وتجربته، أولى باتريك انتباهاً مُفرِطاً لهذه المجموعة المُملّة من الآراء، على الرغم من الدليل القاطع على أنّها لم تُساعد والده على قطع مشوار طويل في سعيه وراء السعادة. لكنَّ هذا أيضاً كان شيئاً سوقيّاً. لقد نجح النظام كلّه نجاحاً جميلاً، كالعديد من الأنظمة الأخرى، بعد قفزة الإيمان الأولى.

إنْ استطاع والده أنْ يُغادر السرير، كانت الأمور تسوء أكثر. كانا يمشيان حتى القرية للقيام بحملة للتسوُّق، والده يرتدي بيجاما قديمة خضراء، ومعطفاً قصيراً أزرق ومرسوماً على أزراره علامة المرساة، ويضع نظارات داكنة هي الآن مربوطة بخيط خشن حول عنقه، وينتعل في قدميه الحذاء الثقيل طويل الرقبة ذا الرباط الذي يُفضّله الفلاحون المحليّون الذين يقودون الجرّارات. وكان لدى ديفيد أيضاً لحية طويلة بيضاء الشَعر وكان دائماً يحمل معه حقيبة تسوُّق من النايلون برتقاليّة اللون ذات مقبض ذهبيّ فَقدَ لمعانه. كان الناس يظنون خطأً أنّ باتريك هو حفيده، وتذكَّر الإحساس بالخزي والرعب، بالإضافة إلى الافتخار الواقي، الذي كان يحس به وهو بمُصاحبة والده الذي يزداد كآبة وغرابة أطوار في طريقهما إلى القرية.

تمتم باتريك على عجل «أريد أنْ أموت... أريد أنْ أموت... أريد أنْ أموت». كان أمراً غير مقبول البتّة. لم يكن في استطاعته أنْ يكون الشخص الذي كانه ذلك الشخص. كان مفعول المُنشِّط يعود إليه جالباً معه تهديد صفاء الذهن والمشاعر القويّة.

كانا يقتربان من الفندق وكان على باتريك أنْ يتّخذَ قراراً سريعاً. مال إلى الأمام وقال للسائق، «لقد غيَّرتُ رأيي، خُذني إلى الشارع الثامن بين الجادتين C و D»

بدا الشك على السائق الصينيّ من مرآته التي تنظر إلى الخلف. كانت الجادة D أشبه بصيحة نائية من فندق بيير. أيّ نوعٍ من الرجال يمكن أنْ يرغب في الانتقال من إحداهما إلى الأخرى؟ فقط إمّا مُدمن مخدرات أو سائح جاهل.

قال، مُجرِّباً النظريّة الثانية، «إنَّ الجادّة D مكان سيئ السمعة»

قال باتريك «لهذا أريد الذهاب إليها. خذني إلى هناك»

تابع السائق سيره على الجادة الخامسة، متجاوزاً المنعطف الموصِل إلى الفندق. وغاص باتريك مُسترخياً في مقعده، شاعراً بالإثارة وبالغثيان وبالذنب، لكنّه يُخفي مشاعره، كالمعتاد، بمظهر من اللامبالاة الفاترة.

ماذا لو غيَّر رأيه؟ إنَّ المرونة صِفة مُثيرة للإعجاب. لا أحد أكثر مرونة منه عندما يتعلَّق الأمر بالتخلِّي عن المخدرات، ولا أكثر انفتاحاً لاحتمال تعاطيها أصلاً. لم يكن قد فعل أيَّ شيء بعد. كان في وسعه أنْ يعكس قراره، أو بالأحرى أنْ يعكس عكسه. كان لا يزال في استطاعته أنْ يعود.

بينما هو ينتقل من الجزء العلويّ إلى الجزء السفليّ من الحيّ الشرقيّ، ومن لو فو غراس إلى مخزن بقاليّة بارغين في الشارع الثامن، لم يسعه إلّا أنْ يُبدي إعجابه بتطوافه الحرّ، أو ربما كانت الكلمة الأصحّ هي «الحتميّ»، بين الترف والفساد.

كانت سيارة الأجرة تقترب من ساحة تومبكنز، بداية منطقة المرح. هنا أطال تشيلي ويلي، الذي كان صِلة تواصله مع الشارع في تلك المناسبات المزعجة التي يكون بيير خلالها نائماً، أطال حياته وهو يُعاني أعراض التخلّي المُستمر عن المخدرات. كان تشيلي يحصل دائماً على كفايته من المُخدِّر لإبقائه يبحث عن المزيد منه؛ يُفتّش عدداً كافياً من الحقائب لكي يرتعش بدل أنْ يتشنَّج، ويصرخ صراخاً حادّاً بدل أنْ يصرخ صراخاً عالياً، كان يمشي بخُطى مهتزة قليلاً وإحدى ذراعيه الرخوة والخالية من الحسّ تتدلّى إلى جانبه، كالتواءٍ قديم من سقفٍ تضربه الرياح. وبيده السليمة كان تشيلي يرفع بنطلونه الفضفاض القذر المُعرَّض دائماً لخطر الانزلاق عن خصره الهزيل. وعلى الرغم من كونه أسود البشرة، إلّا أنه بدا شاحباً وكان وجهه مُنقَّطاً ببقع مرض الكبد البُنيّة. كانت أسنانه، الأربع أو الخمس التي بقيَتْ متشبثة ببطولة بلثّته، ما تزال إمّا صفراء داكنة أو سوداء، إمّا مكسورة أو مُهشَّمة. وكان منبع إلهامٍ لجماعته ولزبائنه بما أنَّ لا أحد كان يستطيع أنْ يتخيّل أنْ يبدو سقيماً مثله، مهما عاش حياته بتهوُّر.

اجتازتْ سيارة الأجرة جادة C وتابعت انطلاقها على الشارع الثامن. قال باتريك لنفسه مؤكِّداً، هنا هو بين الجماعات القذرة في المدينة.

سأله الصينيّ «أين تريد أنْ نقف؟»

قال باتريك «أريد هيروينا»

ردَّد السائق بقلق، «هيلوين[1]»

قال باتريك «هذا صحيح. قِفْ هنا، هذا جيد»

كان أشخاص من بورتوريكو يتمشّون خلف سياج من الأسلاك كما يفعل الملاكمون عند الزاوية، وأشخاص من السود يعتمرون قبعات كبيرة يتّكئون عند ممرات الأبواب. أنزل باتريك زجاج نافذة سيارة الأجرة، فتجمَّعَ حوله أصدقاء جُدُد من كل مكان.

«ماذا تريد، يا رجل؟ عمَّ تبحث؟»

«يوجد شريط صافٍ... شريط أحمر... شريط أصفر. ماذا تريد؟»

«أريد هيروين»

«اللعنة، يا رجل، أنتَ من الشرطة. أنت شرطيّ»

احتجَّ باتريك «كلا، لستُ كذلك. أنا إنكليزيّ»

«اخرُج من السيارة، يا رجل، لن نبيعك شيئاً وأنتَ داخل السيارة»

قال باتريك للسائق «انتظر هنا». وخرج من سيارة الأجرة. أمسك به أحد التجار من ذراعه وبدأ يمشي به نحو الركن.

قال باتريك بعد أنْ كادت السيارة تغيب عن أنظارهما، «لن أبتعد أكثر من هذا»

«كم تريد؟»

قال باتريك «أعطني أربع حصص من الشريط الأحمر»، وهو يُخرِج بحذر ورقتين ماليتين من فئة العشرين دولاراً من حزمة، كان يحتفظ بأوراق فئة العشرين في جيب بنطلونه الأيسر، والعشرات في جيب البنطلون الأيمن، والخمسات في جيوب المعطف. المئات بقيَتْ داخل مغلّفها في جيب المعطف الداخلي. وبهذه الطريقة لا يُغري أحداً بعرض نقوده.

«سوف أعطيك ستة مقابل خمسين، يا رجل. وتحصل على عبوة إضافيّة»

1- لَفَظَها خطأً - المترجم.

«كلا، تكفيني أربع»

دسَّ باتريك العبوات الصغيرة الأربع ذات الورق المُضاد للشحم في جيبه، واستدار وركب السيارة من جديد.

قال الصيني بلهفة «والآن نذهب إلى الفندق»

«كلا، فقط خذني في جولة قصيرة. خذني إلى الشارع السادس وجادة B»

«ما الداعي إلى الجولة في الجوار؟» وغمغم السائق بسباب بالصينيّة، لكنه تابعَ طريقه في الاتجاه الصحيح.

كان على باتريك أنْ يتذوَّق الهيروين الذي اشتراه تواً قبل أنْ يبتعد عن المنطقة. مزَّقَ أحد الأكياس وسكبَ المسحوق في التجويف الذي تشكَّل على ظاهر يده بوتر إبهامه المرفوع. رفع الكميّة الصغيرة من المسحوق الأبيض إلى أنفه واستنشق.

أوه، يا إلهي! إنه كريه. أمسك باتريك أنفه الذي يخزه. اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة.

كان مزيجاً شنيعاً من الطاقة والأشواك[1]. أضفى المسحوق تلك اللمسة من المرارة الحقيقيّة على المزيج، وزوَّدَت الأحماض بقدر ضئيل من مفعول المُسكِّن. طبعاً كانت له بعض المزايا. فيمكن تناول عشرة من تلك الأكياس في اليوم من دون أنْ يصبح المرء مُدمناً. ويمكن إلقاء القبض عليك وهي في حوزتك ولا توجَّه إليك أيّة تهمة بحيازة الهيروين. شكراً لله لأنه لم يتناولها، كان جديراً بالإحساس الحارق الذي تخلّفه الطاقة أنْ يحرق شرايينه. ما الذي دفعه إلى شراء المُخدِّر من الشارع؟ لا بُدَّ أنّه جُنّ. كان ينبغي أنْ يقبض على تشيلي ويلي ويُرسله إلى لوريتا. على الأقلّ هناك يوجد بعض آثار الهيروين في عبواتها المُضادة للشحم.

ومع ذلك، لن يرمي هذه المادة القذرة إلى أنْ يحصل على بضاعة أفضل. كانت السيارة قد وصلت إلى الشارع السادس والجادة C.

قال باتريك «قف هنا»

1- ألقاب خاصّة تُطلَق على أنوتع مختلفة من المُخدرات – المترجم.

هتفَ السائق في نوبة غيظ مفاجئة «لا يوجد موقف هنا»

قال باتريك «أوه، حسن، اغرب عن وجهي إذن»، ورمى ورقة نقديّة بعشرة دولارات إلى المقعد المجاور للسائق وخرج من السيارة. صفقَ الباب وانطلقَ باتجاه الشارع السابع. ابتعدت السيارة عن حافة الرصيف. وبعد أنْ ابتعدتْ، ساد صمت بدت خلاله خطوات باتريك كأنها تقرع بضجيج مرتفع على أرض الرصيف. كان وحيداً. ولكن ليس لوقت طويل. فعند المنعطف التالي كانت مجموعة من تجار المخدرات تتسكَّع خارج متجر بارغين للبقاليّة.

أبطأ باتريك خطاه، وعندما انفصل أوّل مَن لمحه من المجموعة عنهم اجتاز الشارع بمشية مبتهجة وجسد عضليّ. كان رجلاً أسود طويل القامة بصورة استثنائيّة، ويرتدي سترة حمراء لامعة.

سأل باتريك «كيف حالك؟». كان وجهه أملس تماماً، وعِظام وجنتيه مرتفعة، وعيناه الواسعتان تبدوان مُشبّعتَين بالكسل.

قال باتريك «عظيم، وكيف حالك أنت؟»

«أنا بخير. عمَّ تبحث؟»

«هل تستطيع أنْ تأخذني إلى مكان لوريتا؟»

قال الرجل الأسود بكسل «لوريتا»

«نعم»، وشعر باتريك بخيبة الأمل من أسلوبه البطيء، ثم تحسَّسَ الكتاب الموجود في جيب معطفه، تخيّل نفسه يشهره كما يُشهر مُسدساً ويُطلق النار ويُردي الرجل أرضاً بأول جُملة طموح فيه، «هناك فقط مسألة فلسفيّة واحدة جادّة حقاً: إنها الانتحار»

سألَ التاجر، وقد وصل بلا مبالاة خلف ظهره، «كم تريد؟»

قال باتريك «فقط بما يُعادل خمسين دولاراً»

وقع فجأة هياج على الجانب الآخر من الشارع ورأى شخصاً شبه مألوف لديه يهرع نحوهم وهو مُضطرب.

هتف الوافد الجديد «لا تطعنه، لا تطعنه»

حينئذٍ تعرَّفَ باتريك عليه: إنه تشيلي، قابضاً على بنطلونه. وصل، يتعثَّر ومقطوع الأنفاس. كرر قائلاً «لا تطعنه، إنه زبوني»

ابتسم الرجل الطويل وكأنه يشهد حادثة مُضحكة حقاً. قال، وهو يشهر في وجه باتريك سكيناً صغيراً، «كنتُ سأطعنك. لم أكن أعلم أنكَ تعرف تشيلي!»

قال باتريك بضجر «ما أصغر العالم». شعر بأنّه مُنفصل تماماً عن التهديد الذي ادّعى ذلك الرجل أنّه يُمثّله، وهو يتوق إلى إتمام الصفقة.

قال الرجل الطويل، بمزيد من الفتور، «هذا صحيح». وقدّم يده لباتريك بعد أنْ أبعد السكين. قال «اسمي مارك. إذا احتجتَ إلى أي شيء، فاسأل عن مارك»

صافحه باتريك ورسم له ابتسامة واهية. قال «مرحباً، تشيلي»

سأله تشيلي مؤنّباً «أين كنت؟»

«أوه، ذهبتُ إلى إنكلترا. هيا نذهب إلى لوريتا»

لوَّحَ مارك بيده مودِّعاً ووثبَ عائداً عبر الشارع. وتوجه باتريك وتشيلي إلى قلب البلدة.

قال باتريك متشدقاً «رجل خارق. هل هو دائماً يطعن الناس في المقابلة الأولى؟»

قال تشيلي «إنه رجل شرير. لا أنصحك بمُصاحبته. لِمَ لم تسأل عنّي؟»

كذب باتريك قائلاً «سألت، ولكنه طبعاً قال إنكَ لستَ موجوداً. أعتقد أنه أراد أن يكون حرّاً في طعني»

ردَّد تشيلي «نعم، إنه رجل شرّير»

انعطفَ الرجلان عند زاوية الشارع السادس وقاد تشيلي باتريك على الفور تقريباً في هبوط مطلع دَرَج قصير إلى طابق تحتيّ في مبنى متهدِّم بنيّ الحجارة. سرَّ باتريك بهدوء لأنَّ تشيلي يأخذه إلى مكان لوريتا، بدل أنْ يتركه ينتظر على قارعة الطريق.

لم يكن هناك إلّا باب واحد في الطابق التحتيّ، مُدعَّم بالفولاذ ومزوَّد

بلسان من النحاس وبعين زجاجيّة صغيرة. قرع تشيلي الجرس وسرعان ما أجاب صوتٌ بارتياب، «مَنْ هذا؟»

«أنا تشيلي»

«كم تريد؟»

ناول باتريك تشيلي خمسين دولاراً. عدَّ تشيلي النقود، وفتح اللسان النحاسي وأقحمها إلى الداخل. عاد اللسان إلى وضعه بسرعة وظل مُغلقاً برهة بدت وقتاً طويلاً.

سأل تشيلي، منتقلاً من ساق إلى ساق، «أليس لديك عبوة لأجلي؟»

أجاب باتريك بفخامة «طبعاً»، وأخرجَ ورقة نقديّة بعشرة دولارات من جيب بنطلونه.

«شكراً لك، يا رجل»

فُتِحَ اللسان فقبضَ باتريك على الأكياس الخمسة الصغيرة التي برزتْ إلى الخارج. وأخذ تشيلي واحداً لنفسه، وغادر الرجلان المبنى مع إحساس بالإنجاز، متوازناً بالرغبة.

سأل باتريك «هل لديك أيّة مادة نظيفة؟»

«أمي العجوز لديها بعض منها. أتريد أنْ نعود إلى منزلي؟»

قال باتريك، مبتهجاً بهذه الدلالات المُضاعَفة على الثقة والألفة، «شكراً لك»

كان منزل تشيلي هو غرفة واحدة تقع في الطابق الثاني من مبنى أتلفه الحريق. كانت جدرانه مسودَّة بفعل الدخان، ومطلع الدرج المتزعزع مكسواً بعلب الثقاب الفارغة وزجاجات الخمر، وأكياس الورق البنيّة، وأكوام الغبار الموضوعة في الزوايا، وبكتل قديمة من الشَعر. الغرفة نفسها لم تكن تحتوي إلّا قطعة أثاث واحدة، هي أريكة بلون الخردل، مغطّاة بالحروق، والنوابض بارزة من مركز المقعد، كلسان بذيء.

كانت السيدة تشيلي ويلي – قال باتريك في نفسه، إنْ كان هذا لقبها الصحيح – جالسة على ذراع تلك الأريكة عندما دخل الرجلان. كانت امرأة ضخمة، أكثر ذكورية في بُنيتها من زوجها الشبيه بالهيكل العظميّ.

قالتْ كأنها نائمة، ومن الواضح أنها أبعد عن الامتناع عن المخدر منه هو، «مرحباً، تشيلي»

قال «مرحباً، أنت تعرفين صديقي»

«مرحباً، حبيبي»

أشرقَ باتريك بشكلٍ فاتن، «مرحباً، قال لي تشيلي إنه ربما لديك بعض الحقن الإضافيّة»

قالت عابثة «ربما»

«أهي جديدة؟»

«حسن، ليست بالضبط جديدة، لكنني غليتها وما شابه»

رفع باتريك أحد حاجبيه مُعبِّراً عن شك عنيف. سألَ «أهي كليلة *كثيراً*؟»

أخرجتْ حزمة من ورق المرحاض من صدرها الضخم وأخذت تحلّ الحزمة النفيسة بعناية. كان في مركزها حقنة كبيرة بصورة مُفزعة جديرة بحارس حديقة حيوان أنْ يتردَّد في حقن فيل مريض بها.

أبدى باتريك اعتراضه، ماداً يده، «هذه ليست حقنة، إنها منفاخ دراجة»

لمّا كانت مُصمَّمة لاستخدامها في العضل، كانت إبرتها ثخينة بصورة مُقلقة، وعندما أزال باتريك الرأس البلاستيكي الذي يتوّجها لم يسعه إلّا أنْ يلاحظ وجود حلقة من الدم القديم في الداخل. قال «أوه، لا بأس. كم تريدين مقابلها؟»

قالت السيدة تشيلي بسرعة، مُغضّنة أنفها بحب «أعطني كيسَين»

كان ثمناً مضحكاً، لكنَّ باتريك لا يُجادل أبداً في مسألة الأسعار. ورمى كيسين إلى حجرها. إنْ كانت المادة جيدة يمكنه دائماً أنْ يحصل على المزيد. أما الآن فعليه أنْ يأخذ الجرعة. وطلبَ من تشيلي أنْ يُعيره ملعقة وفيلتر سيجارة. ولما كانت الإضاءة في الغرفة قد خفتَتْ، عَرَض عليه تشيلي اللجوء إلى الحمّام، الغرفة الخالية من المغطس، ولم يتبقَّ فيها إلّا العلامة السوداء الباقية على الأرضيّة حيث ربما كان هناك مغطس. أرسل مصباحٌ كهربائيٌّ عارٍ ضوءاً أصفرَ مُعتِماً إلى حوض الاغتسال المشروخ بصورة جنونيّة وإلى المرحاض القديم الخالي من المقعد.

صبَّ باتريك القليل من الماء في الملعقة ووضعها على خلفيّة الحوض. مزَّقَ الأكياس الثلاثة المتبقّية، وتساءل من أيّ نوع هي. لا أحد يستطيع أنْ يدّعي أنَّ تشيلي يبدو على ما يُرام وهو يتّبع حِمية لوريتا، لكنّه على الأقلّ ليس ميتاً. وإذا كان السيد والسيدة تشيلي ينويان أنْ يتعاطيا منها فلِمَ لا يفعل هو. يكاد يسمعهما يتهامسان خلف الباب المُجاور. كان تشيلي يقول شيئاً عن «الألم» ومن الواضح أنّه يحاول أنْ ينتزع الكيس الثاني من زوجته. أفرغَ باتريك محتوى الأكياس الثلاثة في الملعقة وسخّنَ المحلول، كان لهب ولاعته يلعق الجانب السُفليّ المسْودّ أصلاً من الملعقة. وحالما بدأ يغلي، قطع عنه الحرارة وترك السائل المتبخّر من يده من جديد. ونزعَ الخيط الرفيع عن فيلتر السيجارة، وأسقطه في الملعقة، وأزال الإبرة عن الحقنة، وأخذ يمتصّ السائل من خلال الفيلتر. كان الجزء الأسطوانيّ سميكاً إلى درجة أنَّ المحلول بالكاد ارتفع مقدار ربع بوصة.

خلعَ باتريك معطفه وسترته ورماهما على الأرض، ورفع كُمّيه وحاول أنْ يتبيَّن موقع أوردته على الضوء الخافت الذي كان يُرسِل وَهَجاً بلون الكبد إلى كل شيء ليس أسودَ اللونِ أصلاً. ولحُسن الحظ، شكّلتْ آثار مساره خيوطاً بنيّة وقرمزيّة، وكأنّ أوردته هي آثار مسحوق بارود احترقَ على طول ذراعه.

رفع باتريك كُم قميصه وشدَّه حول عضلة أعلى ذراعه ونفخ ساعده إلى أعلى وإلى أسفل مرات عِدَّة، وهو يشدّ قبضة يده ويُرخيها في الوقت نفسه. كانت أوردته جيدة، وعلى الرغم من قدرٍ من الحَذَر نتجَ عن تعامله الوحشي معها، كان في وضع أفضل من العديد من الناس الذين يستغرق منهم البحث عن وريد أحياناً وقتاً قد يصل حتى ساعة من البحث الاستكشافي.

التقطَ الحقنة ووضع طرفها المُدبَّب على الجزء الأكثر اتّساعاً من آثار مساره، وإلى جانب الندبة قليلاً. وبتلك الإبرة الطويلة يتعرَّض المرء دائماً لخطر اختراق الوريد كله وينتقل إلى العضل من الجانب الآخر، وهي تجربة مؤلمة، وهكذا اقتربَ من الذراع من زاوية منخفضة جداً. وفي اللحظة الحرجة أفلتتْ الحقنة من يده واستقرَّتْ على بقعة رطبة من الأرضيّة بجوار المرحاض. وكاد لا يُصدِّق ما حدث. شعر بمزيج من الدوار والرعب وخيبة

الأمل. هناك مؤامرة اليوم تُحاك ضد حصوله على أيِّ متعة. مالَ، يائساً من فرط الشوق، والتقطَ الحقنة عن البقعة الرطبة. الإبرة لم تنثنِ. شكراً لله على هذا. كل شيء على ما يُرام. وأسرع بمسح الحقنة على بنطلونه.

حينئذٍ كان قلبه ينبض بسرعة وشعر بتلك الإثارة العميقة، بذلك المزيج من الخوف والرغبة، الذي دائماً يسبق نقطة الحقن. دفعَ الطرف الكليل المؤلِم للإبرة تحت الجلد واعتقد أنّه رأى، معجزة المعجزات، كريّة من الدم تندفع خلال تجويف الإبرة. لمّا لم يرغب في هدر أيّ وقت مع تلك الأداة غير العمليّة، وضعَ إبهامه على المكبس وضغطه إلى أسفل مباشرة.

شعر بتورُّم عنيف ومُفزِع في ذراعه وفي الحال أدركَ أنَّ الإبرة انزلقَتْ عن وريده وانبجسَ المحلول تحت جلده.

صرخَ «اللعنة!»

جاءه تشيلي جارّاً قدميه. «ما الذي يجري، يا رجل؟»

قال باتريك من خلال أسنان مشدودة معاً، وهو يدفع يد الذراع المجروحة عالياً ويسندها إلى الكَتِف، «لقد أخطأت»

نعقَ تشيلي متعاطِفاً «أوه، يا رجل»

قال باتريك متفاخراً، ويده تبدو كأنها مكسورة، «هل لي أنْ أقترح أنْ تضع مصباحاً أقوى إضاءة؟»

قال تشيلي وهو يهرش نفسه، «كان ينبغي أنْ تستخدم المصباح اليدويّ»

قال باتريك ساخراً «أوه، شكراً لأنك أخبرتني بهذا»

سأله تشيلي «أتريد أنْ تعود وتأخذ جرعة أخرى؟»

قال باتريك باقتضاب جافّ، وهو يرتدي معطفه من جديد، «كلا. سأغادر»

مع وصوله إلى الشارع بدأ باتريك يتساءل لِمَ لمْ يقبل عَرض تشيلي. تمتم ساخراً «المزاج، المزاج». شعر بالإرهاق، لكنَّ خيبة أمله كانت كبيرة ولا يمكن أنْ ينام. كانت الساعة قد بلغتْ الحادية عشرة والنصف؛ ربما يكون بيير قد استيقظ الآن. يُستحسَن أنْ يعود إلى الفندق.

استدعى باتريك سيارة أجرة.

سألَه السائق «أتقيم في هذا الجوار؟»

تنهّدَ باتريك، وهو يرمي أكياس المُخدِّر من النافذة، «كلا، كنتُ فقط أحاول أنْ أتعاطى المخدرات»

«أتريد جرعة؟»

تنهد باتريك «نعم»

«اللعنة، أنا أعرفُ مكاناً أفضل من هذا»

قال باتريك، وكلّه آذان صاغية، «أحقاً؟»

«نعم، في جنوب حي برونكس»

«حسن، هيا بنا إليه»

ضحك السائق. «حالاً»

أخيراً كان سائق سيارة أجرة هو الذي قدَّم له المساعدة. يمكن لتجربةٍ كتلك أنْ تُحسِّن مزاجه. ربما عليه أنْ يكتب رسالة إلى شركة سيارات الأجرة يلو كاب. تمتم باتريك لنفسه، «سيدي العزيز، أودّ أنْ أُطري بأرقى العبارات الممكنة روح المبادرة والكياسة عند سائقكم الشاب الرائع، جيفرسون إ. باركر. فبعد قيامي، بكل صراحة، برحلة استكشافيّة عقيمة تُثير الغيظ في مدينة ألفابيت، أنقذني هذا الفارس المتنقّل، هذا العندليب جيفرسون، إنْ حقَّ لي أنْ أقول هذا، من ورطةٍ مزعجة جداً، وأخذني لكي أتلقّى جرعة في جنوب حي برونكس. ليت المزيد منكم أيها السائقون يُبدون مثل هذه الرغبة التقليديّة نفسها لتقديم المُساعدة. المخلص لكم، إلى آخره، الكولونيل ميلروز».

ابتسم باتريك. كان كل شيء تحت السيطرة. شعرَ بالتيه، بل وبالطيش. كان حي البرونكس مبعث قليل من القلق بالنسبة إلى شخص شاهد *مُحاربو برونكس* – وهو فيلم سينمائيّ مملوء بالقذارة المتواصلة، ولا ينبغي الخلط بينه وبين العنف الذي تمَّ التعبير عنه بلوحة راقصة جميلة في الفيلم الذي يحمل العنوان الأشدّ بساطة وشموليّة *المُحاربون* – لكنّه شعر بالهشاشة. لقد شهرَ الناس سكاكينهم في وجهه، لكنهم لم يجرؤوا على لمسه، ولو أنهم فعلوا لما كان قد وصل إلى هناك.

بينما سيارة الأجرة تنطلق على أحد الجسور التي لم يكن باتريك قد عبرها من قبل، أدار جيفرسون رأسه قليلاً وقال «سوف نُصبح في برونكس قريباً»
سأله باتريك «سوف أنتظر في السيارة، ما رأيك؟»
ضحك جيفرسون «الأفضل أنْ تنخفض إلى الأرض، لأنهم لا يُحبّون البيض هنا»
«إلى الأرض؟»
«نعم، بعيداً عن الأنظار. فإذا رأوك فسوف يُحطّمون النوافذ. اللعنة، لا أريد لنوافذي أنْ تتحطَّم»
أوقفَ جيفرسون السيارة على بُعد مسافة قصيرة من الجسر وجلسَ باتريك على الرقعة الأرضيّة المطاطيّة مُعطياً ظهره للباب.
سأله جيفرسون، مائلاً عبر مقعد السائق، «كم تريد؟»
قال باتريك، وهو يناوله سبعين دولاراً، «أوه، خمسة أكياس. وأحضر اثنين من أجلك»
قال جيفرسون «شكراً لك. سوف أقفل الأبواب الآن. وابقَ أنت بعيداً عن الأنظار، أفهمت؟»
قال باتريك «فهمت»، وانزلقَ أكثر نحو الأسفل وتمدَّد على الأرضيّة. واستقرَّتْ الأقفال في كل الأبواب في أماكنها. تلوّى باتريك حول نفسه لبعض الوقت وهو ملتفّ في وضعيّة الجنين واضعاً رأسه على الحدبة المركزيّة. وبعد مضيّ بضع لحظات أصبح عظم وركه يضغط على كبده وشعر بأنه عالق بصورة يائسة في تضاعيف معطفه. وتلوّى مستديراً أمامه، وأراحَ رأسه بين يديه، وأخذ يُحدِّقُ إلى أخاديد الرقعة الأرضيّة. كانت هناك رائحة زيت قوية تفوح عند مستواه. قال باتريك بصوت ربّة منزل تظهر على شاشة التلفزيون، «إنها تمنحك منظوراً جديداً على الحياة».

كان شيئاً لا يُطاق. كل شيء كان لا يُطاق. كان دائماً يتورّط في مثل تلك *المواقف*، ودائماً ينتهي به الأمر إلى التعامُلِ مع الفاشلين، والحثالة، وأمثال تشيلي ويلي في هذه الحياة. حتى وهو في المدرسة كان يُرسَل بعد ظهيرة كل يوم ثلاثاء وخميس، في الوقت الذي ينضمّ الصِبية الآخرون إلى فرقهم

ويلعبون مباراتهم، إلى ملاعب نائية تضم أنواعاً شتّى من غير اللائقين رياضياً: موسيقيين شاحبين وحسّاسين، وأولاداً يونانيين بدناء بلا أمل، ومحتجّين ساخطين يُدخنون السجائر ويعتبرون الجهد البدنيّ عبثاً لا طائل من ورائه. وعقاباً لهم على طبائعهم غير الرياضيّة، أُجبِر أولئك الأولاد على شق طريقهم بالأسلوب الصعب. وكان السيد بيتش، اللوطيّ العصبيّ المسؤول عن ذلك الفريق البغيض، ينتشي بالحماس والخبث وهو يرى كل صبي يُسحَق بسبب قِصر النظر، والتهادي بضعف، أو محاولة خرق النظام بالجري على طول الجدار في بداية الدورة. وبينما اليونانيون يتخبّطون في الوحل، والمختصّون في الموسيقى يفقدون نظاراتهم، والمحتجون ذوو الضمائر الحيّة يُدلون بتعليقاتهم الساخرة، يندفع السيد بيتش في المكان يصرخ فيهم ويلعنهم بسبب حيواتهم «المُوسِرة» ويرفسهم، إذا سنحت له الفرصة، على مؤخراتهم.

ما الذي يجري بحق الجحيم. هل ذهب جيفرسون ليُحضِر بعضاً من أصدقائه لكي يضربوه كلهم معاً، أم أنّه ببساطة تخلّى عنه وذهب ليتعاطى المخدرات وحده؟

قال باتريك في نفسه، وهو يتململ بانزعاج، نعم، إنه لا يتعامل إلّا مع فاشلين. عندما كان يعيش في باريس وهو في التاسعة عشرة، تورط مع جيم، مُهرّب المخدرات الأستراليّ في الشوارع، ومع سايمون سارق المصارف الأميركي الأسود الذي كان قد خرج تواً من السجن. إنّه يتذكّر قول جيم، وهو يبحث عن وريد بين شَعر ساعده البرتقاليّ الكثيف، «إنَّ أستراليا جميلة في فصل الربيع، يا رجل. عندما تخرج الحملان الصغيرة وتطفر في كل مكان، يمكنك أنْ تتبيَّن سعادتها بكونها تحيا». كان قد أقحم رأس الإبرة وعلى وجهه تعبير غريب.

جاول سايمون أنْ يسرق مصرِفاً بينما كان في مرحلة الإقلاع عن تعاطي المخدرات، لكنّه اضطرَّ إلى الاستسلام لرجال الشرطة بعد أنْ أطلقوا عليه وابلاً من الرصاص. قال لي شارحاً «لم أرغب في أنْ أبدو كالجبن السويسري[1]».

1- أي ممتلئاً بالثقوب بسبب إطلاق الرصاص عليه - المترجم.

سمعَ باتريك الصوت الرحيم للأقفال وهي تُفتَح من جديد.

قال جيفرسون بصوته الأجشّ «حصلت عليها»، فأجاب باتريك وهو يعتدل في جلسته، «بضاعة جيدة»

كان جيفرسون سعيداً ومرتاحاً وهو يقود السيارة عائداً إلى الفندق. وبعد أنْ جرع باتريك محتوى الأكياس الثلاثة فهم السبب. ها هنا أخيراً مسحوق يحتوي القليل من الهيروين.

افترقَ جيفرسون عن باتريك وبينهما دفء شخصَين استفاد كل منهما من الآخر بصورة ناجحة. وفي غرفته في الفندق، أدرك باتريك، وهو مُتمدد على السرير وذراعاه ممدودتان على طوليهما، أنّه إذا تعاطى محتوى الكيسَين الآخرَين وفتح جهاز التلفزيون فقد يستغرق في النوم. وحالما تناول الهيروين استطاع أنْ يتخيَّل نفسه وهو من دونه؛ عندما كان من دونه كان يتخيّل فقط الحصول على المزيد منه. وقرَّرَ أنْ يتّصل ببيير هاتفياً فقط لكي يرى إنْ كان عناء الأمسية كلها لم يكن ضرورياً البتّة.

بينما جرس الهاتف يرنّ تساءلَ من جديد ما الذي منعه من الانتحار. أكان شيئاً مُثيراً للاشمئزاز كالسِمة العاطفيّة، أم الأمل، أم النرجسيّة؟ كلّا. بل كان في الحقيقة الرغبة في معرفة ما سيحدث لاحقاً، على الرغم من إيمانه بأنّه سيكون شيئاً مرعباً: الإثارة الروائيّة للأمر كله.

«ألو؟»

«بيير!»

«مَنْ المتكلِّم؟»

«أنا باتريك»

«ماذا تريد؟»

«هل أستطيع أنْ آتي إليك؟»

«حسن. كم سيدوم ذلك؟»

«عشرين دقيقة»

«حسن»

رفعَ باتريك قبضة يده دلالة الانتصار وانطلقَ بأقصى سرعة مُغادراً الغرفة.

- 6 -

«بيير!»

قال بيير «*Ca va ?*»، ونهضَ عن كرسي المكتب الجلديّ. كان جلد وجهه الأصفر الجافّ مشدوداً أكثر من أي وقت سابق على أنفه الرفيع، وعلى عِظام وجنتيه العالية، وعلى الفك البارز. صافحَ باتريك، وهو يُثبِّتْ عينيه الشبيهتين بمصباحَين عليه.

فوجئ باتريك بأنَّ جو الشقّة الكريه كعَبَق حبيبٍ طال غيابه. كانت البقع التي سبّبها انقلاب كأس القهوة لا تزال تترك أثرها على السجادة ذات لون طحين الشوفان في الأماكن السابقة نفسها، والصور المألوفة التي تبيِّن رؤوساً مقطوعة تعوم فوق قطع من أحجية الصور المقطوعة، نفّذَها بيير بشكل جميل بقلم حبر دقيق، دفعتْ باتريك إلى الابتسام.

هتفَ «ما أجمل أنْ أراك من جديد! لا أستطيع أنْ أعبِّر لك عن مدى فظاعة الأمر هناك، التجوّل في الشوارع واستجداء المخدرات».

صرخ بيير مُعترضاً «تشتري المخدر من الشارع! أيها المجنون اللعين!».

«لكنّكَ كنتَ نائماً»

«وحقنتَ نفسك بماء الشرب؟»

اعترف باتريك بذنبه «نعم»

صرخ بيير بغضب «أنت مجنون. تعال إلى هنا، وسوف أُريك»

ومشى إلى مطبخه الضيق والكئيب. فتحَ باب البرّاد الكبيرة والقديمة، وأخرجَ مرطباناً كبيراً من الماء.

قال بيير متشائماً، وهو يرفع المرطبان، «هذا ماء صنبور. تركتُه مدَّة شهر

وانظر...» وأشار إلى ترسّبات بنيّة منتشرة في قعر المرطبان. قال «هذا صدأ. إنّه قاتل لعين! لي صديق تناول جرعة مُستعيناً بماء الصنبور فاستقرَّ الصدأ في مجرى الدم وإذا بقلبه... - وقام بيير بحركة قطع للهواء بيده - ***تاك***: توقف».

تمتم باتريك، متسائلاً متى سيباشران العمل، «هذا مُرعب»

قال بيير، وهو يجلس على كرسيه الدوّار ويمتصّ الماء من كأس عبر حقنة رفيعة تُثير الحسد، «الماء جاء من الجبال، لكنَّ أنابيب المياه ممتلئة بالصدأ»

قال باتريك من غير اقتناع، «إنني محظوظ لبقائي على قيد الحياة. لن أستخدم إلّا مياهاً معدنيّة من الآن فصاعداً، أعدك»

قال بيير بغموض «نحنُ في المدينة، حيثُ يوفّر الناسُ النقود لشراء أنابيب مياه جديدة، إنّها تقتل يا صديقي»، ثم أضاف، وهو يفتح حزمة ويجمع بعض المسحوق الأبيض في ملعقة بزاوية شفرة موسى، «ماذا تريد؟»

قال باتريك بلهجة عَرَضيّة «أووم... أريد غراماً من الهيروين، وسبعة غرامات من الكوكايين»

«الكوكايين بستمائة. وسوف أقدِّم لك سِعراً خاصاً للكوكايين: مائة دولار لكل غرام بدل مائة وعشرين. والسِعر الإجمالي: ألف وثلاثمائة دولار»

أخرج باتريك المغلَّف البرتقالي من جيبه بينما أخذ بيير يجمع المسحوق في الملعقة ويُحرّكه، عابساً كطفلٍ يتظاهر بأنّه يصنع إسمنتاً.

أهذه تسعة أم عشرة؟ باشر باتريك العدّ من جديد. عندما وصل إلى العدد ثلاثة عشر جمع الأوراق النقديّة معاً كأنها مجموعة من أوراق اللعب ورماها إلى جانب بيير من المرآة حيث انتشرتْ وتوزّعتْ. ربط بيير عضلة أعلى ساعده بقطعة من المطاط وأمسكها بأسنانه. سُرَّ باتريك عندما وجد أنّه لا يزال يستخدم القمع في تجويف ذراعه.

اتَّسعَ بؤبؤ عينيّ بيير برهة ومن ثم انكمش من جديد، كفوهة الأكل عند حيوان الشقيق البحريّ.

نعقَ، «حسن»، مُحاولاً أنْ يُعطي انطباعاً بأنَّ لا شيء حدث، ولكن بدا أنَّ السرور كبَته، «سوف أعطيك ما تريد»، وأعاد ملء الحقنة وحقن المحتويات في كأس أخرى من الماء ورديّة اللون.

مسحَ باتريك يديه الدبقتين على بنطلونه. ولم يكن هناك ما يحتوي نَزَقه الذي يُفجِّر القلب غير الحاجة إلى إجراء مفاوضة بارعة أخرى.

سألَ «هل لديك حقنٌ فائضة؟». كان يمكن لبيير أنْ يصبح أخرق كثيراً فيما يخصّ الحقن. لأنَّ قيمتها تختلف بدرجة كبيرة وِفقاً لَما تبقّى لديه منها، وعلى الرغم من أنّه في العموم قدَّم يد المساعدة لباتريك عندما أنفق أكثر من ألف دولار، إلّا أنّه كان دائماً مُعرّضاً لخطر الانزلاق إلى إلقاء محاضرة ساخطة حول افتراضه.

قال بيير بكرم متأخّر «سأعطيك اثنتين».

هتفَ باتريك وكأنه شاهد تواً قطعة آثار من العصور الوسطى تلوِّح له بيدها من خلال الصندوق الزجاجي الموضوعة فيه، «اثنتين!». أخرجَ بيير ميزاناً أخضر فاتحاً ووزن الكميات التي طلبها باتريك، وأعطاه عبوة واحدة بمقدار غرام بحيث يستطيع أنْ يحافظ على مسار استهلاكه للكوكايين.

تمتم باتريك «دائماً تُحسِن التفكير، ودائماً كريم». الحقنتان الثمينتان وصلتا إليه عبر المرآة المُغبرَّة.

قال بيير «سوف أُحضِر لك بعض الماء».

ربما وضع المزيد من الهيروين في خلطة المخدرات. كيف يمكن للمرء بغير هذه الطريقة أنْ يُفسِّر هذه الهِبة غير الاعتياديّة؟

قال باتريك «شكراً»، وأسرع بخلع معطفه وسترته ورفع كُمْ قميصه. يا إلهي! كان هناك انتفاخ أسود اللون في جلده حيث أخطأ في غرز الإبرة في الوريد في منزل تشيلي. يُستحسَن ألّا يسمح لبيير برؤية هذه الدلالة على عدم كفاءته ويأسه. كان بيير شخصاً أخلاقيّاً. أنزلَ باتريك كُمّ القميص، وحلّ الزر المعدني الذهبيّ لكمّه الأيمن، ورفعه بدل الأول. كان إعداد الخلطة هو النشاط الذي أصبحَ بارعاً حقاً فيه. وعاد بيير مع كأس مملوءة وأخرى فارغة، وملعقة.

فكَّ باتريك إحدى حزمتَي الكوكايين. كانت الورقة البيضاء اللامعة تحمل رسم دب قطبيّ بلون أزرقَ فاتح. وخلافاً لبيير فضَّلَ أنْ يتناول الكوكايين صافياً حتى يُصبح التوتّر والخوف لا يُحتمَلان، بعد ذلك سوف يُرسل في

طلب حارس الهيروين البريتوريّ[1] لكي يُنقِذ يومه من الجنون ومن الهزيمة. حمل الحزمة داخل قمع وأخذ يربت عليه برفق. تسلّلتْ حبّات دقيقة من المسحوق إلى الملعقة وسقطتْ في وادي الورقة الضيق ومنه إلى الملعقة. لم يكن إنجازاً كبيراً بالنسبة لأولى محاولاتي في المزج. وليست قليلة أيضاً. لا شيء كان أبغض من الاندفاع الهزيل، المُشتَّت. وتابع الربت.

سأل بيير، «كيف الحال؟»، بسرعة كبيرة حتى بدا السؤال كأنّه كلمة واحدة.

«حسن، لقد مات والدي قبل أيام قليلة وهكذا...». لم يكن باتريك واعياً لِما يقول. نظر إلى الحزمة، وربت عليها مرة أخرى بمزيد من الحزم، فانضمَّ مقدارٌ آخر مُضطرب إلى الركام القليل الذي تكوَّن في الملعقة. وختم قائلاً «وهكذا تراني مُضطرباً قليلاً في هذه اللحظة»

«كيف كان، والدك؟»

قال باتريك بنغمة عاطفيّة «كان قطة صغيرة، وكانت له يدان جديرتان بفنّان». في تلك اللحظة تحول الماء إلى محلول سكّري ومن ثم ذاب فأضحى محلولاً صافياً. ثم أضاف «كان يمكن أنْ يُصبح رئيس وزراء»

سأل بيير، وهو يُضيِّق عينيه، «أكان منخرطاً في السياسة؟»

أجاب باتريك «كلا، كلا، كانت مجرد نكتة. في عالمه - عالم الخيال الصِرف - كان من الأفضل لو أنَّ الرجل يمكن أنْ يُصبح رئيس وزراء من أنْ **يكون فعلاً** رئيس وزراء: كان ذلك يبدو طموحاً سوقيّاً». صدر صوت رنين معدني ضعيف وهو يوجّه دفق الماء من حقنته على جانب الملعقة.

سأل بيير بنبرة لاذعة «*Tu regrettes qu'il est mort?*» (أنادم لأنه مات؟)

«*Non, absolument pas, je regretted qu'il ait vecu*» (كلا، لا أندم أبداً، بل أندم على أنّه عاش)

«ولكن *mais sans lui* (من دونه) ما كنتَ خُلِقت»

1- أي من الحرس الإمبراطوريّ الروماني القديم - المترجم.

قال باتريك مع ابتسامة «لا ينبغي على المرء أنْ يكون أنانياً في مثل هذه المسائل»

لم ينل ذراعه اليمنى نسبيّاً أي ألم. صبَغَتْ بضعة رضوض بلون التبغ الجزء السُفليّ من ساعده باللون الأصفر، وتجمّعَتْ علامات الغرز الورديّة الباهتة حول فتحة الوريد الرئيسيّ. رفع الإبرة وسمح لقطرتين بالنزول من ثقبها. قرقعت بطنه وشعر بالتوتر وبالإثارة كصبيّ في الثانية عشرة في خلفيّة دار سينما مُعتمة يُحيط بذراعه كتفَي فتاة للمرة الأولى.

وجّه رأسَ الإبرة إلى مركز علامات الثقوب الموجودة أصلاً وأقحمه بلا أي ألم تقريباً تحت الجلد. انبجسَ خيطٌ من الدم داخل الإبرة وتلوّى، كمظلة نبات فِطر خاصّة، بلونه الأحمر الزاهي في الماء المُرّ الصافي. شكراً لله أنّه عثر على أحد الأوردة. وازداد خفقان قلبه، كقرع طبل على وقع تجذيف في سفينة شراعيّة متوجهة لخوض معركة حربيّة. أمسكَ الأسطوانة بحزم بين أصابعه وأقحمَ رأس الإبرة ببطء. وكعرض فيلم سينمائيّ يجري بالعكس تراجع الدم خلال الإبرة إلى منبعه.

قبل أنْ يشعر بتأثيراتها اشتمَّ عبق الكوكايين الذي يُحطِّم القلب، ومن ثم بعد ذلك ببضع لحظات، في نوبة سُعر بالحركة البطيئة، تفتّحتْ أزهارها بأشكالها الهندسيّة والباردة في كل مكان وفرشَتْ سطح بصيرته الداخليّة. لم يكن هناك ما يبعثُ على السرور أكثر من هذا. أخرجَ الإبرة بحركة خرقاء، وملأ الأسطوانة بالدم، وحقنَ نفسه للمرة الثانية. ترنّحَ ومال إلى الأمام، ثملاً من فرط المتعة، مُترعاً بالحب، وترك الحقنة على المرآة بحركة ثقيلة. كان عليه أنْ يحقنها قبل أنْ يتخثّر الدم، لكنه لم يستطع أنْ يفعل ذلك على الفور. كان الإحساس الرائع أقوى مما ينبغي. وتشوه الصوت وتضخَّمَ إلى أنْ أصبح كصفيرٍ ينبعث عن محرِّك طائرة نفّاثة تهبط.

استرخى باتريك في جلسته وأغمضَ عينيه، وبرزتْ شفتاه كطفلٍ ينتظر تلقّي قُبلة. كان العَرَق قد بدأ يتفصّد بغزارة على جبينه، وكان تحت إبطيه ينضحان بالعَرَق بعد كل بضع لحظات كصنبورَين مُعطوبَين.

أدركَ بيير بالضبط الحالة التي يمرّ بها باتريك وخابَ أمله بشدَّة ببدايته

غير المتوازنة، وبالطريقة غير المسؤولة التي غرز بها الحقنة قبل أنْ يشطفها. رفعها عالياً وملأها بالماء لكيلا تتعطّل الآليّة. وعندما شعر باتريك بحركة، فتح عينيه وهمسَ، «شكراً لك»

قال بيير مؤنِّباً «يجب أنْ تأخذ هروين في الوقت نفسه، إنّه دواء، يا رجل، دواء»

«يُعجبني الاندفاع»

«لكنكَ تستغرقُ وقتاً طويلاً جداً، وتفقد السيطرة»

اعتدل باتريك في جلسته وأمعنَ النظر إلى بيير. قال «إنني لا أفقد السيطرة أبداً، إنني فقط أختبر حدودها»

قال بيير، غير متأثِّر، «هذا هراء»

«طبعاً أنتَ على صواب»، وابتسم باتريك، «ولكن أنتَ تعلم كيف تكون محاولة البقاء على الحافّة من دون الوقوع»، قال هذا، مُناشِداً تضامنهما التقليديّ.

صرخ بيير، وعيناه متوهجتان بالانفعال، «أنا أعلم كيف هو الأمر. طوال ثماني سنوات كنتُ أظنّ أنني بيضة، لكنني كنتُ في حالة سيطرة تامة، *controle total*»

قال باتريك مُهدِّئاً روعه، «أتذكّر هذا»

انتهتْ فورة الاندفاع، وعلى غرار راكب الأمواج الذي ينطلق خارجاً من أنبوب من البحر البرّاق، الملتفّ، وينتهي به الأمر إلى الشعور بالإرهاق والسقوط بين الأمواج المتكسِّرة، بدأتْ أفكاره تتبعثر قبل بداية الاضطراب اللا متناهي. وبعد تناول المزيج ببضع دقائق شعر بحنين مُعذِّب إلى النشوة الخطرة التي كانت قد بدأتْ تتلاشى. وكأنَّ أجنحته ذابتْ في سطوع ذلك الضوء، شعر كأنّه يسقط في بحرٍ من قنوط لا يُحتَمَل، وهذا ما جعله يتناول الحقنة، ويشطفها، وعلى الرغم من ارتعاش يديه، بدأ يعدّ مزيجاً آخر.

سأل بيير «أتعتقد أنَّ معيار الانحراف هو الحاجة إلى تكراره، وعجزه عن الارتواء؟»، ثم أضاف، «ليت والدي كان موجوداً لكي يُجيب عن هذا السؤال»

«لِمَ؟ أكان مُدمناً؟»

قال باتريك «كلا، كلا...». أراد أنْ يقول «كانت مجرد نكتة» مرة أخرى، لكنّه قاومَ. سألَ على عَجَل «أي نوع من الرجال كان *والدك أنتَ*؟»، في حال كان بيير يُتابع ما يقول.

قال بيير بامتعاض «كان *fonctionnaire* (موظفاً مدنيّاً) *metro, boulot, dodo* (مواصلات، عمل، نوم). وأسعد أيامه أمضاها في الــ*service militaire* (الخدمة العسكريّة)، واللحظة التي أشدّ ما يفخر بها في حياته كانت عندما هنّأه الوزير لأنّه لم يقُل أيّ شيء. أتتخيَّل ذلك؟ وكلما زار أحدٌ المنزل، وهذا لم يكن يحدث كثيراً، يُخبره والدي القصّة نفسها». استقام بيير في جلسته، وابتسم برضا، وهزَ إصبعه. «*Et Monsıeur le Mınıstre m'a dıt, Vous avez eu raison de ne rien dire* (وقد قال لي السيد الوزير إنكَ كنتَ مُحقّاً في عدم قول أيّ شيء). وعندما كان يحكي تلك الحكاية كنتُ أسرع إلى مغادرة الغرفة، ممتلئاً بالاشمئزاز، *J'avais un degout total*».

قال باتريك، وقد سرَّه أنْ يُخرِج ما لدى بيير عن أبيه، «وماذا عن أمّك؟»

قال بيير ساخراً «مَنْ هي المرأة التي ليستْ أماً. إنها قطعة أثاث لها ثديان!».

قال باتريك، وهو يمتصّ محلولاً جديداً بحقنته «صحيح». ونزولاً عند نصيحة بيير الطبيّة، قرَّر أنْ يتناول بعض الهيروين بدل تأخير بداية الصفاء بجرعة مُهدِّئة أخرى من الكوكايين.

قال بيير «عليك أنْ تترك هذا كلّه وراءك. كل ما قلتَ عن الوالدين، وكل ذلك الهراء. ينبغي أنْ تبتكر نفسك من جديد لتُصبح فرداً ذا شخصيّة متميِّزة»

قال باتريك، مُدرِكاً أنَّ الأفضل عدم مناقشة نظريات بيير، «سأفعل».

«إنَّ الأميركيين يتحدثون طوال الوقت عن الفرديّة، ولكنهم لا يتبنّون أيّة فكرة إلّا إذا كان الجميع يتبنّون الفكرة نفسها. وزبائني الأميركيون دائماً يزعجونني بذلك لكي يبيّنوا أنهم أفراد مُستقلّون، لكنّهم دائماً يفعلون ذلك بالطريقة نفسها. والآن لم يعد لديّ أي زبائن أميركيين»

علَّقَ باتريك «إنَّ الناس يعتقدون أنهم أفراد مُستقلّون لأنهم يستخدمون كلمة «أنا» كثيراً»

قال بيير «عندما كنتُّ في المستشفى، *j'avais une conscience sans limites*. (تكوَّن لديّ وعي بلا حدود). عرفتُ كل شيء، يا رجل، ***كل شيء***، بالمعنى الحرفيّ للكلمة. بعد ذلك لا أستطيع أنْ أتقبّل بجديّة كلام الـ*sociologies et psychologies* (علماء الاجتماع وعلماء النفس) الذين يقولون إنكَ «مُصاب بانفصام في الشخصيّة» أو بـ«جنون العَظَمة» أو أنكَ تنتمي إلى «الطبقية الاجتماعيّة الثانية» أو إلى «الطبقة الاجتماعيّة الثالثة». هؤلاء الناس لا يعرفون أيّ شيء، *absolument rien*»، وحدَّقَ بيير بعنف إلى باتريك، وقال ساخراً، «وكأنهم يُعيّنون مناجذ[1] مسؤولين عن برنامج الفضاء».

ضحك باتريك ضحكاً جافاً. كان قد كفّ عن الإصغاء إلى بيير وبدأ يفتش عن وريد. وعندما رأى لوناً أحمرَ دمويّاً يرتفع داخل أسطوانة الحقنة، نفّذَ عملية الحقن، وأخرجَ الحقنة، وقام هذه المرَّة بتنظيفها كما ينبغي.

أذهلته قوة تأثير الهيروين وسلاسته. وأصبح دمه ثقيلاً ككيس من القطع النقديّة وغاص بارتياح داخل جسده، وذاب من جديد في كيان واحد بعد المنفى المُذعن للكوكايين.

همس «بالضبط، كالمناجذ... يا الله، ما أجود هذه المادة» وأغمضَ جفنيه متريثاً.

قال بيير «إنه صافٍ، *Faites attention, c'est tres fort*» (انتبه، إنّه قويّ جداً)

«ممم، أدرك هذا»

كرّر بيير القول «إنه دواء، يا رجل، دواء»

همس باتريك وهو يبتسم سراً، «حسن، وأنا شُفيتُ تماماً». كان كل شيء سيُصبح على ما يُرام. موقد على الفحم في ليلة عاصفة، ومطر لا يستطيع لمسه يضرب زجاج النافذة. وسيول من الدخان تحوّل إلى برك مشرقة. وأفكار تخفقُ على حدود هلوسة واهنة.

كشطَ أنفه وفتح جفنيه من جديد. نعم، بعد أنْ زوّده الهيروين بقاعدة ثابتة

1- مناجذ؛ جمع خِلد: حيوان قارض - المترجم.

أصبح في استطاعته أنْ يأخذ جرعات عالية من الكوكايين طوال الليل من دون أنْ ينهار.

ولكن كان ينبغي أنْ ينفرد بنفسه من أجل هذا، فمع مخدرات جيدة، تكون العزلة ليستْ فقط يمكن تحمّلها، بل ضروريّة. نعقَ «إنه أشدّ رهافة من الهيروين الفارسيّ. إنه منعطف رقيق وقوي... يشبه، يشبه صَدَفة سُلحفاء مصقولة» وأغمض عينيه من جديد.

قال بيير ببساطة «إنه أقوى هيروين في العالم»

تشدَّق باتريك قائلاً «نعم، من المملّ أنَّ المرء لا يستطيع إدخاله إلى إنكلترا»

«يجب أنْ تأتي لتعيش هنا»

قال باتريك بشكل مُحبَّب «فكرة جيدة. وبالمناسبة، كم الساعة؟»

«الواحدة وسبعٌ وأربعون دقيقة»

قال باتريك، وهو يضع الحقنة بعناية داخل جيبه، «يا إلهي، يجب أنْ أذهب لأنام. لقد سعدتُ برؤيتك من جديد. سوف أتّصل بك قريباً»

قال بيير «حسن، أنا يقِظ هذه الليلة، وغداً، وليلة غد»

قال باتريك وهو يهزّ رأسه موافقاً «عظيم»

ارتدى سترته ومعطفه. نهضَ بيير واقفاً، وفتح أقفال الأمان الأربعة، ثم فتح الباب ليسمح له بالخروج.

- 7 -

ارتمى باتريك بتراخٍ على الكرسيّ. لقد زال التوتُّر عن صدره. ران عليه الصمت برهة. لكنّ شخصيّةً جديدة سرعان ما حلَّتْ على جسده، وأجبرَتْ كتفيه على التراجع إلى الخلف وعلى بروز بطنه، ودفعته إلى بدء جولة أخرى من المُحاكاة الإلزاميّة.

قال الرجل البدين[1]: (دافعاً الكرسي إلى الخلف، ليُريح بطنه الكبير) «أشعر بأنني مُجبَر على الكلام، يا سيدي، حقاً. وكلمة مُجبَر، يا سيدي، هي وصفٌ معتدل للالتزام الذي تعهدتُ به في هذا الأمر. إنَّ قصّتي بسيطة، هي قصة رجل أحبّ ولكن ليس بطريقة حكيمة بل جيدة جداً» (يمسح دمعة ظهرتْ من زاوية عينه) «إنّه رجل لا يأكل بدافع الجشع، بل بشغف. فلطالما كان الأكل، يا سيدي - لا أحاول أنْ أُخفي الأمر - هو حياتي. ووسط حُطام هذا الجسم العجوز تجد آثار بعض من أفضل ما أُعِدّ من أصناف الطعام قاطبة. وعندما كانت الجياد تنهار تحت ثقل كتلتي الضخمة، وتتكسّر قوائمها أو تمتلئ رئاتها بدمائها، أو أُجبَرْ على التخلّي عن الصراع العقيم للدخول بين المقعد وعجلة قيادة السيارة، كنتُ أعزّي نفسي بالاعتقاد بأنَّ ثقل وزني قد اكتُسِبَ اكتساباً، وبأنّه ليس فقط «تراكماً». وطبعاً، تناولتُ الطعام في ليه بان وفي ليه بو، بل وتناولتُ الطعام في كيتو وفي الخرطوم. وعندما قدَّم لي قوم يانومامي[2] المتوحشون طبقاً من لحم البشر، لم أسمح

1- الحوار التالي هو هلوسة وهمية تدور بين شخصيات من مسلسلات وأفلام سينمائية كسلسلة لأفلام ستار تريك و ديڤ وود، بالإضافة إلى شخصيات وهميّة أخرى وهو تحت تأثير المُخدِّر - المترجم.

2- يانومامي: قبائل من آكلي لحم البشر تقيم في غابات الأمازون - المترجم.

لفرط الاحتشام أنْ يمنعني من طلب طبق ثالث منه. لم أسمح له حقاً، يا سيدي» (يبتسم بكآبة).

قالت المربّية: (وهي تتأفّف وتتذمّر) «لا ينقصنا إلا أكل لحم البشر! وماذا بعد ذلك؟ لطالما كنتَ فتى غريب الأطوار».

صرخ باتريك من دون ضجيج «أوه، اخرسي» وهو يتمشّى عبر السجادة الخضراء الباهتة اللون ثم استدار على عجَل.

قال غاري: (رافعاً بصره نحو السماء مع تنهيدٍ قصير فاتن) «اسمي غاري، وسوف أكون خادمك هذه الليلة. وجبة اليوم الخاصّة تتضمَّن طبقاً من اللحم البشريّ والكوكايين الكولومبي الخالي من الصوديوم المستكين في سرير الكوكايين الأبيض الصيني ماركة «الطفل العنيف»».

قال بيت بلوك: «إذن ليس لديكم خبز ماركة هوفر؟»

قالت السيدة بلوك: «نعم، نريد خبزاً ماركة هوفر»

صوت إعلان[1] خبز هوفر (الموسيقى من مسلسل «*شارع كورونيشن*») «كان الأمر رائعاً وأنا فتى صغير. كنتُ أذهب إلى محل التاجر، وأشتري نصف أونصة من الكوكايين وأربعة غرامات من الهيروين، وأطلب صندوقاً من الشمبانيا من محل باري وإخوته، وأخرج مع فتاة إلى مطعم ميرابيلا، ويتبقّى معي بضعة قروش. كم كانت أياماً جميلة».

أفلتْ زمامه بصورة خطِرة. وكل فكرة أو طرف من فكرة كانت تأخذ شكل شخصيّة أقوى من شخصيته. تمتم باتريك، وهو ينهض ويذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، «أرجوك، أرجوك، أرجوك، اجعله يتوقف».

صدى صوت ساخر: «أرجوك، أرجوك، أرجوك اجعله يتوقف»

المربّية: «أنا أعرف الأرستقراطيّين وأساليبهم القذرة»

قال النكد الواهن: (وهو يضحك برقّة) «أيّة أساليب قذرة يا ناني؟»

1- كان هناك إعلان لخبز ماركة هوفر يمثّل طفلاً في قرية صغيرة يجرّ دراجة تحمل هذا الخبز إلى أعلى التل لكي يوزّعه، ثم يهبط التل تاركاً الدراجة تندفع إلى أسفل من دون أنْ يقودها – المترجم.

قالت المربّية: «كلا، كلا، لن تسمع المربية تحكي لك حكايات غير لائقة. لن أتفوَّه بكلمة واحدة. ماذا ستقول الليدي ديدْوودْ؟ إنَّ الحجارة المتدحرجة لا تنمو عليها طحالب. علِّمْ على كلامي. لطالما كنتَ فتى غريب الأطوار»

قالت السيدة غارسينغتون: «مَن المسؤول هنا؟ أودّ أنْ أتحدّث مع المدير في الحال»

قال الدكتور ماكوي: «إنها الحياة، يا جيم، ولكن ليس كما نعرفها»

الكابتن كيرك: (يفتح جهاز الاتّصال) «أبهجنا، يا سكوتي»

فتح باتريك حزمة الهيروين، ووسط اندفاعه لإعداد مزيج آخر، أسقطَ بعضاً منه على الزجاج الذي يحمي سطح الطاولة.

قال إريك الساخط (العارف): «أوه، هذا تصرف نموذجيّ، في مواجهة مشكلة: تناول المزيد من الهيروين. في الأساس، هو نظام تطوير الذات المثاليّ»

قال الكابتن واهن: «هل لكَ، أيها الرقيب، أنْ تُسكِتْ أولئك الأشخاص؟»

قال الرقيب: «لا تقلق، يا سيدي، سوف نُسيطر عليهم. إنهم ليسوا أكثر من حفنة من السود القذرين، أولاد حرام أرواحهم سوداء، يا سيدي، لم يروا مرة في حياتهم البائسة، المُلحدة مدفعاً رشّاشاً، يا سيدي»

الكابتن واهن: «أحسنتَ صنعاً، أيّها الرقيب»

استنشق باتريك المسحوق، ورمى رأسه إلى الخلف، وأخذَ نَفَساً عميقاً من أنفه.

الرقيب: «اسمح لي أنْ أتلقّى القسم الأكبر من الضربة، يا سيدي» (يئن، ويستقرّ رمحٌ في صدره)

يقول الكابتن واهن: «أوه، شكراً لك... يا...»

الرقيب: «ويلسون، يا سيدي»

الكابتن واهن: «نعم، طبعاً. أحسنتَ صنعاً، يا ويلسون»

الرقيب: «ليت في استطاعتي أنْ أفعل ذلك ثانية، يا سيدي. ولكنْ يؤسفني أنْ أقول إنَّ إصابتي قاتلة، يا سيدي»

الكابتن واهن: «أوه، يا إلهي. حسن، جِدْ مَن يرعى ذلك الجرح، أيّها الرقيب»

الرقيب: «شكراً لك، سيدي، هذا كرم صافٍ منك. يا لك من سيد محترم رائع!»

الكابتن واهن: «وإذا وقعَ الأسوأ، أنا متأكّد من أنَّ في استطاعتنا أنْ نحصل لأجلك على ما يُشبه ميداليّة ما بعد الموت. إنَّ عمّي هو المسؤول عن مثل هذه الأمور»

الرقيب (يعتدل في جلسته، ويؤدي التحيّة، ويهتف): «سيدي!» (ثم يتهاوى من جديد) «سوف يعني ذلك الكثير للسيدة ويلسون وللأطفال، أولئك الصغار يتامى الأب المساكين» (يئنّ) «يا لك... من... سيد محترم رائع»

يقول جورج عامل البار (وهو يُلمِّع أحد الكؤوس متأمّلاً): «أوه، نعم، ذلك الكابتن الواهن، إنني أتذكّره جيداً. كان يأتي إلى هنا ودائماً يطلب تسع محارات. ليس نصف دزينة أو دزينة، بل تسعاً. يا له من سيد محترم رائع! لم يعودوا يصنعون مثلهم الآن. وأتذكّر أيضاً الرجل البدين. آه، نعم، لا يمكن أنْ أنساه. لم يعد في استطاعتنا استقباله في البار في النهاية، لم يعد المكان يتَّسِع له بالمعنى الحرفيّ. ومع ذلك، كان سيداً محترماً! أحد المنتمين للمدرسة القديمة، لا يتَبع أيّاً من برامج الحِمية، يا إلهي، كلا»

الرجل البدين (وهو واقف في قفص الاتّهام ضخم بصورة استثنائيّة في دار القضاء): «لقد كان ذلك حقاً من سوء حظي، يا سيدي، أنْ أعيش في عصر برامج الحِمية والتخسيس» (يمسح دمعة عن زاوية عينه) «ينعتونني بالرجل البدين، وأنا بدين حقاً ولا يمكن أنْ أمدح نفسي واللقب لا يحتاج إلى تفسير. إنني أواجه تهمة كوني ذا شهيّة غير طبيعيّة وبدرجة غير طبيعية من الشهيّة. هل أُلامُ، يا سيدي، إذا ملأتُ كوبي حتى الشفة، إذا ملأتُ طبق حياتي عن آخره بـ*Moules au Menthe Fraiches* (محار طازج بالنعناع) من الخبرة (وهو طبق جدير بإيقاظ الموتى من قبورهم، يا سيدي، طبق جدير بِسِحر ملك!)؟ أنا لم أكن أبداً أحد مُشرّدي الحياة المعاصرة الرعاديد، ولم أكن ضيفاً فقيراً في وليمة. إنَّ الموتى، يا سيدي، لا يقبلون تحدّي قائمة

الطعام في مطعم لابان فير لأنهم لم يبتلعوا آخر لقمة من طبق الفطور القرن – أوسطي الصغير في شاتو دانترمان. وبالتالي لا يجعلون سيارة الإسعاف تنقلهم (وهي وسيلة النقل الطبيعية للذين يستمتعون بالحياة، يا سيدي، إنها عربة ملك!) إلى مطعم ساك دارجان لكي ينغمسوا في تهتّك شرس في منتجع كريستا رن عبر بطاقة دعوة ملكيّة» (وهناك عازف كمان من كافيه فلوريان يعزف في الخلفيّة) «إنها أيامي الأخيرة، الأيام الأخيرة، يا سيدي، لأنني أخشى أنَّ كبدي – أوه، كم قدَّمَ لي من خدمات جلّى، أما الآن فأصبحَ مُتعباً وأنا أيضاً أصبحتُ مُتعباً؛ ولكن كفى كلاماً عن هذا – أيامي الأخيرة تحجبها سُحُب الافتراء» (يُسمع صوت نشيج مكبوت في قاعة المحكمة) «ولكنني لا أندم على صنف طعام، أو بالأحرى أصناف الطعام» (ضحك حزين مُقتَضَب) «التي تناولتها في حياتي، حقاً لا أندم» (واستجمع كل ما لديه من هيبة) «لقد أكلتُ، وأكلتُ بشجاعة».

القاضي (بسخط عاصِف): «هذه القضيّة مرفوضة. لقد ارتكبتْ العدالة خطأً بقبول عرض هذه القضية، واعترافاً بهذه الحقيقة، تكافئ المحكمة الرجل البدين بوجبة عشاء لشخصٍ واحد في مطعم بيغ أند ويسل»

يُهلل الجمهور: «هوووووراي! هوووراي!»

انتاب باتريك خوف غامر. وأخذت أُسُس أفكاره العفنة تتفكّك واحداً بعد آخر إلى أنْ بدت الأرض نفسها من تحته ليست أكثر ثباتاً من ورقة مُشبّعة بالماء لتتلقَّفَ سقوطه. وربما لن يتوقف هذا. قال «أنا شديد التعب، شديد التعب» وجلس على حافة السرير، لكنه سرعان ما نهضَ من جديد.

صدى صوت يُحاكي بسخرية: «أنا شديد التعب، أنا شديد التعب»

غريتا غاربو (تصرخ بهيستريا): «لا أريد أنْ أبقى وحدي. لقد سئمتُ الوحدة»

انهار باتريك عند الجدار. أخذَ ينوح «إنني مُتعب جداً»

السيدة ممسحة: «لديك مزيج جيد من الكوكايين، يا عزيزي، متِّع نفسك قليلاً»

الدكتور موت (يُخرِج حقنة): «لدي الشيء الوحيد الذي يلزمك. نحن دائماً نستخدمه في حالات وفاة الأقارب»

كليوباترا: «أوه، نعم» (تُقطِّبُ جبينها كطفلة) «من أجل تقبيل أشدّ أوردتي زُرقة»

السيدة ممسحة: «تابع، يا عزيزي، قدِّم معروفاً لنفسك»

كليوباترا (بصوت أجشّ): «تابع، يا ابن الحرام، انكحني»

هذه المرَّة اضطرَّ باتريك إلى استخدام ربطة عنقه. لفّها حول عضلة أعلى ساعده مراتٍ عِدَّة وثبّتها بأسنانه، كاشفاً عن لثّته ككلب يُزمجر.

قال أوكنر الفصيح (وهو يشرب القطرات الأخيرة من كأس نبيذ جيمسون): «كانت تستغلّ ساكسون المُشاكس وتصرخ «لطالما أردتُ أنْ أكون في مكانين في وقت واحد»»

قال المتودِّد (بحماس): «إنه نجاح، نجاح ملموس»

الكابتن كيرك: «عنصر السرعة عشرة، يا سيد سولو»

أتيلا قائد الهَنْ (بصوت عميق جهير): «إنني ألعب كرة القدم برؤوس أعدائي، وأمشي تحت أقواس النصر، وحوافر حصاني تُطلِقُ شرراً عندما تضرب حجارة الطريق، وعبيد روما ينثرون الأزهار في طريقي»

سقط باتريك عن الكرسي وانكمش حول نفسه على الأرض. لقد جعلته وحشيّة قوة المُخدِّر يلتفّ حول نفسه ويُذهل. وتخلَّصَ من عنف خفقات قلبه، كمَنْ ينكمش خائفاً تحت شفرات مروحة طائرة هليكوبتر تدور. كانت أعضاؤه قد شُلَّت من شدّة التوتّر وتخيّل أوردته، الرقيقة والهشّة كعروق كؤوس الشمبانيا، تتقطَّع إذا حاول أنْ يفكّ ذراعيه. من دون هيروين سوف يموت من نوبة قلبيّة. تمتم «فقط اغربوا عن وجهي، كلّكم»

جون الصادق (يهزّ رأسه): «يا له من ابن حرام شرير، ذلك المدعو أتيلا. يا إلهي، أوه، يا إلهي». قال «علامَ تُحدِّق؟». قلتُ «لا شيء». قال «حسن، لا تفعل هذا أيها اللعين، أسمعت؟» (يهزّ رأسه نفياً) «شرير!».

المربية: «المربية تقول إذا لم تكفّ عن التكلُّم بأصوات سخيفة، فسوف تغيِّر معاملتها معك، ولن تستطيع التوقف عن ذلك»

فتى (بيأس): «ولكن أريد أنْ أكفّ عن هذا، يا ناني»

المربية: «كلمة «أريد» لا توصلنا إلى شيء»

الرقيب: «اضبطي نفسه، أيتها السيدة» (ثم يصرخ): «مارش بسرعة! يسار، يمين، يسار، يمين»

تحرّكت ساقا باتريك عبر السجادة جيئة وذهاباً، كدمية تعمل بالزنبرك انقلبتْ.

إعلان قصير في عمود الوفيات في صحيفة التايمز: «ميلْروز. في 25 أيار، بسلام، بعد قضاء يوم سعيد في فندق بيير. باتريك، العمر 22 عاماً، الابن الحبيب لديفيد وإلينور، سوف يفتقده بحزن أتيلا زعيم الهَنْ، والسيدة ممسحة، وإريك الساخط، وأصدقاؤه الكثيرون، بل أكثر مما يمكن حصره»

أوكنر الفصيح: «يا للروح التعس المسكينة. إنْ كان لا يرتجف كالساق المقطوعة لضفدع مُكهرَب، فذلك فقط لأنَّ المزاج ثقيل الوطأة عليه، كقطع نقدية على جفنيّ رجل ميت» (أنهى شرب كأس من ويسكي جيمسون)

المربية (أضحتْ أكبر سناً الآن، ولم تعُد ذاكرتها كما كانت): «لا أستطيع تحمّل الأمر، لقد كان فتى صغيراً محبوباً. كان دائماً يُخاطبني بـ«يا قطّتي الغالية»، وأتذكّر أنني كنتُ دائماً أقول له «لا تنسَ أنَّ ناني تحبّك»».

أوكنر الفصيح (والدموع تسيل على وجنتيه): «وهاتان الذراعان المسكينتان البائستان جديرتان بأنْ تدفعا رجلاً قويّاً إلى البكاء. كانتا مُثخنتين بالجراح، كأفواه أسماك ذهبيّة جائعة تصرخُ طلباً للشيء الوحيد الذي يمكن أنْ يوفّر القليل من السلام لقلبه المُعذَّب المسكين» (وأنهى شرب كأس من ويسكي جيمسون)

الكابتن الواهن: «كان شاباً من النوع الذي يُلازم غرفته طويلاً. وهذا ليس خطأً طبعاً، لو لا أنَّه كان يتمشّى طوال الوقت. وكما أحبّ أنْ أقول، إنْ كان لا بُدَّ للمرء من أنْ يكون عاطلاً، فعليه أنْ يكون عاطلاً تماماً» (يرسم ابتسامة ساحرة)

أوكنر الفصيح (الآن يشرب من الزجاجة مباشرة، ويبكي بحرقة، وأصبح كلامه مُختَلَطاً): «واضطربَ عقله أيضاً. أيمكن أنْ يكون قلقه حول الحريّة هو الذي قَتَلَه؟ في كل الأحوال – وكان دائماً يتقلَّب بين الأحوال – رأى

الخيارات تمتد أمامه بجنون، كشرايين الدم المتكسِّرة في العيون المُتعَبة. ومع كل فعل كان يسمع صرخة الموت تصدر عن كل الأشياء التي لم يُنجِزها. وأُتيحَتْ له الفرصة ليحصل على الدوار، حتى في بركة تعكس صورة السماء، أو في بريق ماء الصرف في ركن من شارع ليتل بريتن. لقد سبّبَ له الرعب من النسيان وفقدان وعيه بهويته الجنون، وأخذ يدور ضمن دوائر، كصائد ثعالب ماكر لعين في قلب غابة لعينة»

جون الصادق: «يا له من أحمق، هه؟ لم يقُم في حياته كلها بأي عمل. متى رأيته يُساعد سيّدة عجوز في عبور شارع، أو يشتري كيساً من الحلوى لبعض الأطفال المحرومين؟ أبداً. يجب أنْ تكون صادقاً»

الرجل البدين: «لقد كان، يا سيدي، لا يحصل على كمية كافية من الطعام، ويعبث بطعامه، وانتقل من الوفرة إلى أدوية الحياة. وباختصار، يا سيدي، إنه أسوأ أنواع الأوغاد»

أوكنر الفصيح (كان بين حين وآخر يعوم فوق بحيرة من الدموع): «ومظهره» (يجرع، يجرع، يجرع) «... تينك الشفتين المشقوقتين اللتين لم تتعلّما كيف تُحبّان...» (يجرع، يجرع، يجرع) «... تينك الشفتين اللتين نطقتا كلمات عنيفة ومريرة...» (يجرع، يجرع، يجرع) «...افترتا بقوة غضبها، وبمعرفة أنَّ الموت آتٍ إليه» (يجرع).

ديبي (تتلعثم): «أتساءل ماذا يُتوقَّع مني أنْ أقول؟»

كاي: «لقد قابلته في يوم الحادث»

صرخ باتريك بصوتٍ بدأ كأنه صوته، لكنّه أصبح أقرب شبهاً بصوت الممثل جون غيلغود مع لفظه الكلمتين الأخيرتين.

القسيس (ينظر إلى أسفل بهدوء من منبره): «بعضنا يتذكّر ديفيد ملْروز كمُشتهٍ للأطفال، ومدمن الخمر، والكاذب، والمُغتصِب، والساديّ، والـ «قذر قلباً وقالباً». ولكن، في الواقع، في وضع كهذا، ما يطلبُ منا يسوع أنْ نفعل، وما كان يمكن أنْ يقول بكلماته هو «(سكت)» «ولكن هذه ليست الحكاية كلها، أليس كذلك؟»».

جون الصادق «بل هي كذلك»

القسيس: «وفكرة «الحكاية كلّها» تلك هي أحد أشدّ الأشياء إثارة في المسيحيّة. وعندما نقرأ كتاباً لأحد مؤلفينا المُفضّلين، سواء أكان ريتشارد باخ أو بيتر، لا نرغب فقط في معرفة أنّه يدور حول نورس بحر فريد من نوعه، أو أنَّ أحداثه تجري في الـ*campagne* الجميل، وأستخدم هنا الكلمة الفرنسيّة، في منطقة بروفانس؛ بل نرغب في إرضاء حبّ القراءة حتى النهاية»

جون الصادق: «تكلَّم عن نفسك»

القسيس: «وبالروح نفسها، عندما نُصدر أحكامنا على الآخرين (ومَنْ منّا لا يفعل هذا؟) علينا أنْ نتيقَّن من أنَّ لدينا «الحكاية كلّها» منشورة أمامنا»

قال أتيلا زعيم الهَنْ (بصوت جهوريّ أجشّ): «مُتْ، أيّها الكلب المسيحيّ!» (ويضرب عنق القسيس)

يقول رأس القسيس المقطوع (بعد فترة تأمُّل صامت): «في الحقيقة، قبل أيام، جاءتني حفيدتي الشابة وقال لي، «جدّي، أنا أحبّ المسيحيّة». فقلتُ لها (وأنا مذهول كل الذهول)، «لماذا؟»، أتعلمون ماذا قالتْ؟»

جون الصادق: «طبعاً لا نعلم، أيّها الأحمق»

رأس القسيس المقطوع: «قالتْ، «لأنها مُريحة للروح» (فترات صمت، ثم تابعَتْ بمزيد من البطء والتوكيد): «لأنها مُريحة للروح»»

فتح باتريك عينيه وتمدَّد أكثر وهو على الأرض. حدَّقَ جهاز التلفزيون إليه مُتَّهِماً. ربما يستطيع أنْ يُنقِذه ويُلهيه عن أدائه التمثيليّ اللا إراديّ.

التلفزيون (يشرق بمخاطه ويرتعش): «أدِر مفتاحي، يا رجل. افتحني».

السيد رئيس الجمهوريّة: «لا تسأل ماذا في وسع تلفزيونك أنْ يُقدِّم لأجلك، بل ما تستطيع أنتَ أنْ تُقدّم له»

يهتف الجمهور المنتشي: «هوووراي! هووووراي!»

السيد الرئيس: «سوف ندفع أيّ سعر، ونتحمّل أيّ عب، ونواجه أيّة صعوبة...»

عائلة فون تراب تغني (بنشوة): «ارتقِ أيّ جبل!»

السيد الرئيس: «... ادعم أي صديق، واجه أيّ خصم، لكي تضمن بقاء التلفزيون ونجاحه»

الجمهور المنتش: «هووووراي! هووووراي!»

السيد الرئيس: «فلتتقدَّم الكلمة من هذا الزمان والمكان، التي نقلها المِشعل إلى جيلٍ جديد في أميركا - وُلِدَ في هذا القرن، وقويَ بالحرب، وانضبطَ بالسلام الصعب والمرير، وافتخر بإرثنا العريق ولا يرغب في القيام بأي شيء ما عدا مشاهدة التلفزيون»

قال باتريك في نفسه، وهو يزحف على الأرض، «نعم، نعم، نعم، التلفزيون»

التلفزيون (منتقلاً بقلق من دولاب إلى دولاب): «أدِر مفتاحي، يا رجل، أحتاج إلى هذا»

المشاهد (بهدوء): «ماذا لديك لأجلي؟»

التلفزيون (مسروراً): «لدي«*فيلم بمليون دولار*». و «*رجل بمليار دولار*». و «*برنامج مسابقات بتريليون دولار*»»

مشاهد: «نعم نعم نعم، ولكن ماذا لديك *الآن*؟»

التلفزيون (شاعراً بالذنب): «صورة ساكنة للعلم الأميركيّ، وشخص غريب الأطوار يرتدي بزّة من النايلون الأورق الفاتح يتحدَّث عن نهاية العالم. وقريباً سوف يُنشَر *التقرير الزراعيّ*»

المشاهد: «حسن، أعتقد أنني سآخذ العلم. ولكن لا تدفعني» (يستلّ مُسدساً) «وإلّا سوف أُفجّر شاشتك اللعينة»

التلفزيون: «حسن، يا رجل، فقط اهدأ، هلّا فعلت؟ إنَّ الاستقبال ليس حافلاً جداً، لكنّ لقطة العلم جيّدة *حقاً*. أنا شخصيّاً أضمن هذا»

أغلقَ باتريك جهاز التلفزيون. متى ستنتهي هذه الليلة اللعينة؟ انهار وهو يرتقي السرير، وأغمضَ عينيه، وأصغى بانتباه إلى الصمت.

رون زاك (مُغمَض العينين، ويبتسم برقّة): «أريدُ منكم أنْ تُصغوا إلى ذلك الصمت. أتسمعونه؟» (برهة صمت) «كُونوا جزءاً من ذلك الصمت. الصمت هو صوتكم الداخليّ»

جون الصادق: «يا إلهي، ألم ينته الأمر بعد؟ مَنْ يكون رون زاك إذن؟ يبدو أحمق قليلاً، بصراحة»

رون زاك: «هل اتّحدتُم كليّاً مع ذلك الصمت؟»

الطلاب: «اتّحدنا مع الصمت، يا رون»

رون زاك: «عظيم» (فترة صمت طويلة) «والآن أريد منكم أنْ تستعينوا بتقنيتكم البصريّة التي تعلمتموها في الأسبوع الفائت لتخيّل معبداً بوذيّاً – هو نوع من منزل شاطئ صينيّ، لا يوجد إلّا في الجبال» (فترة صمت) «عظيم. جميل، أليس كذلك؟»

الطلاب: «يا الله، يا رون، إنّه أنيق جداً»

رون زاك: «إنّه سقف ذهبيّ جميل، وثمة شبكة من الفقاقيع حول البرك في الحديقة. ويرتقون إلى أحد تلك الأسقف – ممم، شيء ممتع – ويسمحون لحرّاس البوابات أنْ يغسلوا أجسادهم ويجلبوا لهم أثواباً جديدة منعشة من الحرير وأقمشة أخرى مهيبة. إنهم يشعرون بتحسُّن، أليسوا كذلك؟»

الطلاب: «أوه، نعم، إنهم يشعرون بتحسُّن كثير»

رون زاك: «عظيم. والآن أريد منكم أنْ تلجوا المعبد» (صمت). «ثمة شخصٌ ما هناك، أليس كذلك؟»

الطلاب: «نعم، إنّه الدليل الذي علِمنا بأمره في الأسبوع ما قبل الماضي»

رون زنك (بشيٍ من الغضب): «كلا، الدليل يوجد في الغرفة المجاورة» (صمت) «بل هو أمكم وأبوكم»

الطلاب (باعتراف مُفاجئ): «أمي؟ أبي؟»

رون زاك: «والآن أريد منكم أنْ تذهبوا إلى أمكم وتقولوا «ماما، أنا أحبّك حقاً»»

الطلاب: «ماما، أنا أحبّك حقاً»

رون زاك: «والآن أريد منكم أنْ تعانقوها» (صمت) «شيء ممتع، أليس كذلك؟»

الطلاب (يصرخون، ويُغمى عليهم، ويُحررون شيكات، ويعانقُ كلٌ منهم الآخر، وينفجرون بالبكاء، ويلكمون الوسائد): «شيء ممتع جداً!»

رون زاك «والآن أريد منكم أنْ تذهبوا إلى الوالد وتقولون، «أما أنتَ، من ناحية أخرى، فلا أستطيع أنْ أغفر لك»»

الطلاب: «أما أنت، من ناحية أخرى، فلا أستطيع أنْ أسامحك»

رون زاك: «أخرجوا المسدس وانسفوا رأسه اللعين. بانغ. بانغ. بانغ. بانغ»

الطلاب: «بانغ. بانغ. بانغ، بانغ»

كونيغ سبوك (درعه يصرّ بضجيج مزعج): «*Omlet! Ich bin thine Popospook!* » (أومليت! أنا سيدك بوبوسبوك!)

صرخ باتريك، وهو يعتدل في جلسته ويصفع نفسه على الوجه، «توقف عن التفكير في هذا»

(صدى يُحاكيه ساخراً): «توقف عن التفكير في هذا»

جلسَ باتريك عند الطاولة ورفع عبوة الهيروين. ربتَ على العبوة فخرجت منه صخرة كبيرة إلى الملعقة. يُوجّه دفقاً من الماء إلى الكوكايين، ويسمع رنيناً على معدن الفضّة حيث يرتطم على جانب الملعقة. وينغمر المسحوق بالماء ويذوب.

بدأتْ أوردته تنكمش بفعل الانقضاض الوحشي الذي وقع في المساء ما عدا وريد واحد، فأخفضَ الساعد، ولا يزال يعرضه بلا شجاعة. كان يشقُّ طريقه كالأفعى سميكاً وأزرق اللون نحو الرسغ. وكان الجلد هناك أكثر سماكة، وكان اختراقه مؤلماً.

المربية (تغني بصوتٍ حالم لأوردتها): «اخرجي، اخرجي، أينما كنتِ!»

يظهر خيطٌ من الدم في أسطوانة الإبرة.

كليوباترا (تشهق): «أوه، نعم، نعم، نعم، نعم، نعم»

أتيلا زعيم الهَنْ (يقول بشراسة، من خلال أسنانه المشدودة معاً): «لا نحتفظ بأسرى!»

يُصاب باتريك بالإغماء ويغوص عائداً إلى الأرض، شاعراً كما لو أنَّ جسمه قد امتلأ فجأة بالإسمنت الرطب. وساد صمت وهو ينظر نحو الأسفل إلى جسده من السقف.

بيير: «انظر إلى جسمك، يا رجل، إنه حثالة لعينة. *Tu as une conscience total. No limites*» (إنَّ وعيك كاملاً بلا حدود) (تتزايد

سرعة جسد باتريك. ويتحول لون الفضاء من الأزرق إلى الأورق الغامق، ومن الأزرق الغامق إلى الأسود. والسُحُب تشبه قِطع لعبة الصور المُقطَّعة. ينظر باتريك نحو الأسفل ويرى، في أبعد زاوية، نافذة غرفته في الفندق. وداخل الغرفة يوجد شريط ساحل أبيض رفيع يكتنفه بحرٌ شديد الزُرقة. وعلى الشاطئ أطفال يدفنون جسد باتريك في الرمال. لا يبدو منه إلّا الرأس. يعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يكسر صندوق الرمال بحركة بسيطة، لكنّه يُدرك خطأه عندما يقوم أحد الأطفال بإفراغ ملء دلو من الإسمنت الرطب على وجهه. يُحاولُ أنْ يمسح الإسمنت عن فمه وعينيه، لكنَّ ذراعيه عالقتان في قبرٍ من الإسمنت).

مفكّرة جنيفر: «بدا أنَّ لا أحد واكب قبر باتريك ميلروز وهم يُنزلونْ التابوت إلى بطن الأرض، بشكل خشن نوعاً ما. ولكن لم يَضِع أيُّ شيء، وفي اللحظة الحرجة، يندفع السيد والسيدة تشيلي ويلي، المشهورَان، الكريمَان، الفاتنان، اللذان لا يعرفان التعب، مُدمنا مدينة ألفابيت، في زيارة نادرة إلى قلب المدينة، وينضمّان بحركة جميلة إلى المشهد. يصرخ تشيلي ويلي الحزين، «لا تُنزلوه، لا تُنزلوه، لا تُنزلوا الرجل»، وينوح قائلاً «من أين سأحصل على البضاعة الآن؟»، «ألم يترك لي أي شيء في وصيته؟» هكذا تصرخ الزوجة المُبتلية، التي ترتدي ثوباً مُصمَّماً بطريقة بارعة، وليس غالي الثمن، قماشه مُرصَّع بأزهار وتشكيلات مُلوّنة رائعة. ومن بين الذين لم يحضروا، مُدَّعين أنهم لم يسمعوا أبداً بالفقيد، كان السير فيريديان غرافالو – غرافالاكس، القيِّم على مركز تدريب الكلاب وقريبته الجذّابة جداً الآنسة روينا كيتس – شيلي».

جون الصادق: «لا أعتقد أنّه سوف ينجو هذه المرَّة، بكل صدق»

إريك الساخط (وهو يهزّ رأسه غير مُصدِّق): «إنَّ ما يُذهلني هو أنَّ الذين يعتقدون أنّ في استطاعتهم أنْ يحضروا ويقوموا، إه، بصورة عفوية، إه، بدفن الناس أحياء»

قالتْ السيدة كرونوس (حاملة ساعة رمليّة ضخمة، وترتدي ثوب احتفال قديم بالٍ) (بحرارة): «يجب أنْ أقول إنَّه شيء جميل أنْ يكون

المرء مرغوباً! لم أحصل على أي دور تمثيليّ منذ أدائي الفصل الرابع من مسرحيّة «*حكاية الشتاء*»، مسرحيّة بيل شكسبير، طبعاً - وهو، بالمناسبة، رجل جميل، وصديق شخصيّ مُقرَب. ومع مرور القرون قلتُ في نفسي، «نعم، تجاهلني، أنا أعلم متى لا أكون مرغوبة»» (تعقد ذراعيها وتومئ برأسها). «الناس يعتبرون أنني ممثلة أؤدي شخصيّة، ولكن إنْ كان هناك شيء واحد لا أطيقه، فهو أنْ أوضَع في قالب أداء شخصية واحدة مُتكررة. وعلى أيّ حال» (تنهيدة قصيرة) «أعتقد أنَّ الوقتَ قد حان لأودي دوري» (وترسم تعبيراً كئيباً على وجهها) «بصراحة، إنني أجد دوري قديم الطراز قليلاً. ويبدو أنَّ الناس لا يُحبّذون كوني فتاة عصريّة» (ضحكة حياء) «إنني فقط أريد أنْ أقول شيئاً واحداً آخر» (أصبحتْ جديّة الآن) «وأوّجه شكري الجزيل إلى مُعجبيّ كلّهم. لقد دعمتموني خلال سنوات وحدتي. شكراً على القصائد، وعلى الرسائل والأحاديث، إنها ثمينة جداً بالنسبة إليّ، حقاً. تذكّروني بين وقتٍ وآخر، أيّها الأعزّاء، عندما تسودّ لثاكم، وتعجزون عن تذكُّر اسم شخص ما» (تُرسِل قُبُلات عبر الهواء إلى الجمهور. ثم تتمالك نفسها، وتُمسِّد طيّات ثوبها، وتمشي إلى مقدّمة خشبة المسرح).

«بما أنّه لا يمكن إلغاء موته،

لا تقسوا في حكمهم على مسرحيتنا

بل تعالوا مرة أخرى ذات يوم»

أتيلا زعيم الهَنْ (يضرب بقوة غطاء تابوته ويُطيح به، مُصدِراً صوت دمدمة، زمجرة، حنقاً مكبوتاً، كفهد مُحتَجَز خلف قضبان قفص): «رااااااارررغ!»

يحقن باتريك نفسه بقوة ويضرب رأسه على ساق الكرسي. أخيراً يقول بصوته هو، «اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة».

- 8 -

باتريك مُتمدِّدٌ على السرير كالميِّتْ. كان قد أزاح الستائر برهة وشاهد الشمس ترتفع فوق المعبر المائيّ إيست ريفر، وملأته بالاشمئزاز وتأنيب الذات.

سطعتْ الشمس، بما أنّه لا بديل لديها، على اللا شيء جديد. تلك كانت جملة أولى أخرى.

انسابت كلمات الآخرين خلال ذهنه. ككتل الأعشاب الجافة المتحرجة عبر الصحراء. هل سبقَ له أنْ فكَّرَ في هذا؟ هل سبقَ له أنْ قاله؟ شعر في وقت واحد بأنه مغرور وفارغ.

كانت آثار استحواذ الليل تطفو بين حين وآخر فوق قذارة أفكاره التي تجيش ببطء، وتركته تجربةُ كونهِ في غير مكانه غالباً وبصورة تامّة متألِّماً ووحيداً. ثم إنه كاد يقتل نفسه.

تمتم كعاشق مُحاصَر لم يُسمَح له أبداً أنْ ينسى عملاً طائشاً، «كفاني استعراضاً لهذا من جديد»

أجفلَ وهو يمدّ ذراعيه المتوجّعتين واللزجتين ليتفقّد الوقت على الساعة الموجودة إلى جواره. إنها السادسة إلّا ربع. يمكنه أنْ يطلب على الفور إحضار تشكيلة من اللحوم الباردة أو طَبَقاً من سمك السلمون المُدخَّن، ولكن قد يستغرق منه ترتيب لحظة التقرير الوجيزة تلك ثلاثة أرباح ساعة أخرى قبل أنْ يسمع قعقعة عربة تحمل وجبة إفطار كاملة وهي تلج الغرفة.

ثم سوف يتعرَّق عصير الفاكهة وينفصل من تحت غطائه الكرتونيّ؛ وطبق البيض واللحم المُقدَّد، الذي يتَّسِم بصورة مرعبة جداً بالشهوانيّة قبل

أي شيء، سوف يبرد وتفوح رائحته الكريهة، وسوف تتساقط بتلات الوردة الوحيدة، داخل مزهريتها الضيقة، على مفرش الطاولة الأبيض، وهو يجرع بعض الشاي شديد الحلاوة ويستمر في تلقّي الغذاء الأثيريّ من حقنته.

بعد ليلة من الأرق، كان دائماً يُمضي الساعات الممتدَّة من الخامسة والنصف وحتى الثامنة متقوقعاً بعيداً عن هدير الحياة المتراكم. وفي لندن، عندما يُلطِّخ ضوء الفجر الشاحب السقف فوق عمود الستارة، يُصغي مع إحساسٍ برعبٍ هائل إلى صرير ودمدمة قِوى ماحقة نائية، ومن ثم إلى الأنين القريب لعربة توزيع الحليب، وأخيراً أصغى إلى صفق أبواب السيارات التي تنقل الأطفال إلى المدرسة، أو إلى رجالٍ حقيقيّين يعملون في مصانع ومصارف.

الساعة تقترب من الحادية عشرة في لندن. يستطيع أنْ يُبدِّد الوقت حتى حلول موعد الإفطار ببعض المكالمات الهاتفيّة. سوف يتّصل بجوني هول، المتوقَّع منه أنْ يتعاطَف مع حالته الذهنيّة.

ولكن عليه أولاً أنْ يتناول خلطة صغيرة تُعينه على الاستمرار. وكما استطاع أنْ يُفكِّر في الإقلاع عن تعاطي الهيروين بعد أنْ تناول جرعه منه تواً، في وسعه أيضاً أنْ يبرأ ممّا يُسببه الهيروين من تخريب بتعاطي المزيد منه.

بعد تناول خلطة معتدلة أثارتْ إعجابه بقدر ما أثارت ضَجَرَه، جمع باتريك بضع وسائد واستقرَّ بارتياح بجوار الهاتف.

«جوني؟»

وَصَلَه همسٌ متوتّر من الجانب الآخر من الخط، «نعم».

«أنا باتريك»

«كم الساعة الآن؟»

«الحادية عشرة»

«في هذه الحالة أنا لم أنمْ أكثر من ثلاث ساعات»

«أتريد مني أنْ أتصل بك في وقت آخر؟»

«كلا، لقد تسبّبتَ في الأذى وانتهى الأمر. كيف حالك؟»

«أوه، أنا بخير. لقد أمضيتُ ليلة صعبة»

لهثَ جوني، «أكدتَ تموت، إلى آخره؟»

«نعم»

«وأنا أيضاً. كنتُ أتعاطى بعض البضاعة الرديئة، أعدَّها كيميائيّ خرّيج فاشل بيد مرتجفة وزجاجة من الحمض الهيدركلوريّ. وهو من النوع الذي يفوح برائحة أنابيب الاختبار المحترقة عندما تغرز الإبرة، ومن ثم تدفعك إلى العطاس كرهاً، وتبثُّ في قلبك اضطرابات متخبطة تُذكِّرُ بأسوأ الفقرات في قصائد باوند *Cantos*».

«ما دامت لغتك الصينيّة جيدّة فأنت بخير»

«ليست لديّ أيّة معرفة بها»

«أنا لدي معرفة. بالطب، يا رجل، بالطب»

«أنا آتٍ إليك»

«إلى نيويورك؟»

«نيويورك! حسبتُ أنَّ نوعيّة الصوت الهامسة، المتردِّدة لكلامك هي مزيج من هلوساتي الصوتيّة وكسلك المُشين. شيء مُحبِط أنْ أعلم أنَّ لها سبباً *حقيقيّاً*. ماذا تفعل هناك؟»

«لقد توفيَ والدي هنا، لذلك أتيتُ لأستلم رفاته»

«تهانينا! لقد أنجزتَ موقعَ نصف – يتيم. هل يرفضون تسليم جثمانه؟ هل يطلبون منك أنْ تضع مقدار ثقله ذهباً على الكفّة المقابلة للميزان لكي يضمنوا إرسال الشحنة الثمينة؟»

«لم يُحاسبوني عليه بعد، ولكن إنْ كان هناك أدنى قدر من المبالغة، فسوف أتركه عندهم حتى يتعفَّن»

«فكرة صائبة. هل أنت مبتئس ولو قليلاً؟»

«أشعر كأنني مسكون»

«نعم، أتذكَّر أنني شعرتُ كأنَّ الأرض من تحتي أقلّ ثباتاً من ذي قبل، إنْ صحَّ هذا الكلام، وبأنَّ رغبتي في الموت، إنْ صحّ التعبير، أكبر من السابق»

«نعم، شعرتُ بالكثير من مثل هذا. بالإضافة إلى أنَّ ألماً ممضَّاً انتابني في كبدي، وكأنَّ حفّار قبور غرز رفشاً تحت أضلعي وغرزه بقوة»

«حتى ما خُلِقَ كبدك ليتحمل، ألم تكن تعلم؟»

«كيف تسأل هذا السؤال؟»

«هذا صحيح. سامحني. إذن متى سنتقابل نحن المَهيَبين؟»

«حسن، سوف أعود غداً مساءً. هلّا أمددتني ببعض الحماس، وعندئذٍ سوف آتي إليك مباشرة من المطار، من دون أنْ أُضطرّ إلى مقابلة براين المُخيف»

«طبعاً. بمناسبة الحديث عن الأناس المُخيفين، في إحدى الليالي القريبة وجدتني في شقة بعض الإيطاليين الحمقى حقاً، ولكن كان لديهم بعض الكوكايين الوردي الصافي كالكريستال يُصدِرُ صوتاً يُشبه رنين العصي الموسيقيّة عندما تسقط إلى الملعقة. على أي حال، سرقتُ الكمّية كلها وأقفلتُ الباب على نفسي في غرفة الحمّام. وكما تعلم يستغرق كثيراً من الوقت لإثارة الهدوء الأبله لأولئك الشياطين الحمقى الإيطاليين بعيونهم الشبيهة بعيون أنثى الظبي، لكنّهم غضبوا حقاً، وهم يضربون الباب ويصرخون، «أخرج أنتَ هناك، أيها الرجل اللعين، وإلّا قتلناك. أليساندو، أجبره على الخروج!»»

«يا الله، كم هذا مُضحك»

«والمحزن في الأمر هو أننا افترقنا إلى الأبد، وإلّا كنتُ أحضرتُ بعضاً منه. لقد كان حقاً من النوع الجدير بأن تتعاطاه قبل أنْ تدفع بسفينة فايكنغ تحترق إلى المياه الرماديّة للمرة الأخيرة»

«أنتَ تُثير حسدي»

«حسن، قد ينتهي بنا الأمر في نهاية المطاف إلى قتل نفسينا ليل الغد»

«حتماً. احرص على أنْ تُحضِر الكثير»

«نعم»

«حسن. أراك مساء غد»

«وداعاً»

«وداعاً الآن»

وضع باتريك سمّاعة الهاتف راسماً ابتسامة خفيفة على شفتيه. كان

الحديث مع جوني هاتفياً يبهجه دائماً. وفي الحال قام بالاتصال بعدد من الأرقام واسترخى على الوسائد.

«ألو؟»

«كيه؟»

«حبيبي! كيف حالك؟ انتظر لحظة، سوف أقوم فقط بخفض صوت الموسيقى»

فجأةً سكتْ صوت عزف آلة تشيللو موحِش غاضب، وعادتْ كاي إلى الهاتف. سألته من جديد «إذن كيف حالك؟»

«لم أنجح في الحصول على قدرٍ كافٍ من النوم»

«هذا لا يُفاجئني»

«ولا أنا، لقد تناولتُ حوالي أربعة غرامات من الكوكايين»

«أوه، يا إلهي، هذا فظيع. وهل كنتَ تتناول معه الهيروين؟»

«كلا، كلا، كلا. لقد تخلّيت عنه. تناولت فقط القليل من المُهدِّئات»

«حسن، هذا إنجاز، ولكنْ لِمَ تواظب على تعاطي الكوكايين؟ فكِّر في أنفك المسكين. لا يمكنك أنْ تتركه يسقط عنك»

«سوف يكون أنفي بخير. لكنني شعرتُ فقط باكتئابٍ شديد»

«يا حبيبي المسكين، أنا متأكِّدة من أنك كنتَ كذلك. إنَّ وفاة والدك هي أسوأ ما يمكن أنْ يحدث لك. لم تُتَح لك الفرصة أبداً لحلّ الأمور»

«ما كان يمكن لنا أنْ نفعل»

«هذا ما يشعر به الأبناء كلّهم»

«ممم...»

«لا أحبّ أنْ أتخيلك وأنتَ وحدك هناك. هل تقابل شخصاً لطيفاً الآن، أم أنك فقط تقابل الحانوتيّة؟»

سأل باتريك باكتئاب، «هل تلمّحين إلى أنَّ الحانوتيّة لا يستطيعون أنْ يكونوا لطفاء؟»

«يا إلهي، كلا، أعتقد أنهم يُنجزون عملاً رائعاً»

«لا أعلم حقاً. يجب أنْ أستلم بعض الرماد، وإلّا فأنا حرّ كالرياح. ليتكِ تكونين هنا»

«وأنا أيضاً أتمنى ذلك، ولكن سأراك غداً، أليس كذلك؟»

«حتماً. سوف آتي مباشرة من المطار» وأشعلَ باتريك سيجارة، « - كنتُ أفكِّر طوال الليل»، ثم تابع بسرعة، « - إنْ كنتِ تسمّين ذلك تفكيراً - فيما إذا كانت الأفكار تنبع من الحاجة المُستمرَّة إلى التحدُّث، والتحرُّر أحياناً من حضور الناس الآخرين الذي يشلّ القِوى، أو فيما إذا كنا ببساطة نُدرك عبر الكلام ما فكَّرنا فيه أصلاً». كان يأمل في أنْ يُلهي هذا النوع من الأسئلة كاي عن الحديث حول التفاصيل الدقيقة لرحلة عودته.

ضحكتْ «لا ينبغي لهذا أنْ يُبعِد النوم عن جفنيك. سوف أُعطيكم الجواب غداً مساءً. متى ستأتي؟»

قال باتريك، مُضيفاً بضع ساعات لموعد وصوله، «عند حوالي العاشرة»

«إذن هل أراك عند حوالي الحادية عشرة؟»

«عظيم»

«باي، حبيبي. أحبّك كثيراً»

«وأنا أحبّك أيضاً. وداعاً الآن»

ترك باتريك سماعة الهاتف وأعدَّ لنفسه خلطة صغيرة من الكوكايين لدعمه. كان قد تناول آخر خلطة في وقت قريب جداً وكان عليه أنْ يتمدَّد على السرير قليلاً، ويتصبّب عرقاً، قبل أنْ يُجري المكالمة التالية.

«ألو؟ ديبي؟»

«حبيبي. لم أجرؤ على الاتصال بك لئلا تكون نائماً»

«لم تكن هذه مشكلتي»

«حسن، أنا آسفة، لم أكن أعلم هذا»

«أنا لا أتّهمكِ بأي شيء. ولا داعي لتتخذي موقفاً دِفاعيّاً»

ضحكتْ ديبي «أنا لا أتخذ موقفاً دِفاعيّاً، كنتُ فقط قلقة عليك. هذا شيء سخيف. ما عنيتُ هو فقط أنني أمضيتُ الليل كلّه وأنا قلقة بشأنْ أحوالك»

«أعتقد أنَّ هذا سُخف»

«أوه، أرجوك لا داعي للعودة إلى الجدال. أنا لم أقُلْ إنك *أنتَ* سخيف. كنتُ أعني أنَّ الجِدال سُخف»

«في الواقع، أنا كنتُ أُجادل، وإذا كان الجدال سُخفاً فأنا سخيف. انتهى عرض قضيتي»

«أيّة قضيّة؟ أنتَ دائماً تظن أنني أهاجمك. نحن لسنا في قاعة محكمة. وأنا لستُ خصمك أو عدوّك»

صمت. كان رأس باتريك يضجّ من الجهد الذي بذله في منع نفسه من معارضتها. أخيراً سألها «وماذا فعلتِ ليلة أمس؟»

«في الحقيقة، كنتُ أحاول أنْ أحتفظ بك مدة طويلة، ومن ثم ذهبتُ إلى حفل عشاء غريغوري وريبيكا»

«إنَّ المُعاناة تبدأ بينما شخص آخر يتناول الطعام. مَنْ قال هذا؟»

ضحكت ديبي «يمكن أنْ يكون أي شخص تقريباً»

«إنها فقط برزت في ذهني»

«مم، يجب أنْ تحاول أنْ تُحرِّر بعض الأشياء التي خطرتْ فجأة في بالك»

«حسن، لا عليك من ليلة أمس، ماذا ستفعلين غداً ليلاً؟»

«لقد دُعينا إلى تناول طعام صينيّ، ولكن لا أعتقد أنكَ تريد أنْ تأكل وتُعاني في الوقت نفسه». ضحكتْ ديبي على طُرفتها، كعادتها، بينما واصل باتريك سياسته الصارمة بعدم الضحك على أي شيء تقوله، من دون الشعور في هذه المناسبة بأي أثر لخسّة.

قال من دون حماس «يا لها من عبارة بارعة. لن أرافقك، ولكنْ لا شيء يمكن أنْ يُقنعني بمنعك من الذهاب»

«كفاك سُخفاً، سوف ألغي الدعوة»

«يبدو أنّه كان ينبغي ألّا أكون سخيفاً، وإلّا لن تتعرّفي عليّ. كنتُ أنوي أنْ أحضر وأقابلك من المطار مباشرة، ولكن سآتي بعد أنْ تعودي من المطعم الصينيّ. عند الساعة الثانية عشرة أو الواحدة»

«حسن، لا بأس، ولكن يمكنني أنْ ألغيها إذا شئت»

«كلا، كلا، لا يمكن أنْ أفعل ذلك أبداً»

«يُستحسَن ألّا أذهب وإلّا استخدمتَ ذلك ضدي لاحقاً»

قال باتريك ساخراً «نحن لسنا في قاعة محكمة. أنا لستُ خصمكِ أو عدوّكِ»

صمت. انتظرتْ ديبي ريثما تبدأ بداية جديدة، في محاولةٍ لتجاهل مطالب باتريك المتناقضة بصورة مُستحيلة.

سألتْ بإشراق «هل تُقيم في فندق بيير؟»

«إذا كنتِ لا تعرفين الفندق الذي أنزل فيه، فكيف اتّصلتِ بي؟»

«لقد خمَّنتُ أنكَ في فندق بيير، لكنني لم أتيقّن لأنك لم تجد من المناسب أنْ تُخبرني»، وتنهّدتْ ديبي، «هل الغرفة جميلة؟»

«أظنّ أنها ستعجبك. هناك الكثير من المساحيق المُعطِّرة في الحمّام وجهاز هاتف بجوار المرحاض، وهكذا لن تفوتك أيّة مكالمة مهمّة – دعوة على عشاء في مطعم صينيّ، على سبيل المثال»

«لِمَ أنتَ بغيض إلى هذه الدرجة؟»

«أأنا كذلك؟»

«سوف ألغي الدعوة غداً»

«كلا، كلا، *أرجوك* لا تفعلي. كانت مجرد نكتة. حالياً أشعر بأنني مجنون»

ضحكتْ ديبي. «أنتَ دائماً تشعر بأنكَ مجنون»

«حسن، لقد تصادفَ أنَّ والدي قد توفي، وهذا يجعلني أشعر بأنني مجنون بشكلٍ خاصّ»

«أعلم، يا حبيبي، وأنا آسفة»

«ثم أنني تناولت كمية هائلة من الكوكايين»

«أكانت تلك فكرة جيدة؟»

نبح باتريك ساخطاً، «طبعا لم تكن جيدة»

«أتعتقد أنَّ وفاة والدك سوف تجعلك أقلّ شَبَهاً به؟» وتنهدتْ ديبي من جديد.

«باتَ عليّ الآن أنْ أقوم بعمل رجلَين»

«يا إلهي، أمتأكّد أنت من أنّك لا تُفضّل أنْ تنسى الأمر برمّته؟»

قال باتريك ساخراً «طبعاً أفضّل لو أنسى الأمر كلّه، لكنَّ هذا ليس خَياراً»

«حسن، على كل شخص أنْ يتحمَّل عبأه»

«أحقاً؟ وما هو عبؤك؟»

ضحكتْ ديبي، «أنت»

«حسن، انتبهي، وإلّا سرقّه أحد منكِ»

قالت ديبي بحب «سوف يواجهون معركة»

قال باتريك بعذوبة، حاملاً جهاز الهاتف بين كتفه وأُذُنه وجالساً على حافة السرير، «هذا جميل»

سألته ديبي «أوه، حبيبي، لِمَ دائماً نتجادل؟»

قال باتريك، بلا تفكير، «لأننا غارقَان في الحب»، وفتح عبوة الهيروين على طاولة جانب السرير. غمس إصبعه الصغير في المسحوق، ثم أقحمه في أحد منخريه واستنشقَ بهدوء.

«سيكون ذلك تفسيراً غريباً لو أعطاه أي شخص آخر»

قال باتريك بلهجة طفل صغير، وهو يقوم بالغمس والاستنشاق مرّاتٍ عِدَّة، «حسن، آمل ألّا تحصلي عليه من أي شخص آخر»

ضحكتْ ديبي «لن يجرؤ أحد على إعطائه، إذا كان يتصرَّف مثلك»

همس باتريك، وهو يتكئ من جديد على الوسائد، «كل ما في الأمر أنني في حاجة ماسّة إليك. يُصبح الأمر مُخيفاً إذا أدمنتِ على الاستقلال كما حصل معي»

«أوه، إذن هذا ما أنتَ مُدمنٌ عليه؟»

«نعم، وكل ما عدا هذا أوهام»

«وأنا وهم أيضاً؟»

«كلا! لهذا السبب نُكثِرُ من الجِدال. ألا تفهمين؟»، بدا ذلك ممتعاً له.

«لأنني عقبة حقيقيّة في طريق استقلالك؟»

قام باتريك بشهامة بتصحيح كلامها، «بل في طريق رغبتي الحمقاء المُضلِّلة في الاستقلال»

ضحكتْ ديبي. «حسن، أنتَ حتماً تعلم كيف تمدح الفتيات»

نعقَ باتريك، وهو يغمس إصبعه من جديد في المسحوق الأبيض، «ليتكِ كنتِ معي هنا»

«وأنا أيضاً أتمنى، لا بُدَّ أنكَ تقضي وقتاً فظيعاً. لِمَ لا تذهب لزيارة ماريان؟ سوف تعتني بك»

«فكرة جيدة. سوف أتصل بها لاحقاً»

تنهدتْ ديبي «يُستحسَن أنْ أذهب الآن. يجب أنْ أخضع لحديث صحفيّ تُجريه معي صحيفة سخيفة ما»

«لِمَ؟»

«أوه، بخصوص أناس يُكثرون من التردُّد على الكثير من الحفلات. لا أعلم لِمَ وافقتُ على ذلك»

قال باتريك «لأنكِ شديدة اللطف وتحبّين المُساعدة»

«ممم... سوف أتّصل بك لاحقاً. أعتقد أنكَ شجاع جداً وأنا أحبّك»

«وأنا أيضاً أحبّك»

«باي، حبيبي»

«باي الآن»

أغلقَ باتريك خط الهاتف وألقى نظرة سريعة على ساعة الحائط. إنها السادسة وست وثلاثين دقيقة. طلب وجبة كنديّة مؤلَّفة من اللحم المُقدَّد، والبيض المقلي، والخبز المُحمَّص، والعصيدة، والفاكهة المطبوخة، وعصير البرتقال، والقهوة، والشاي.

سألت المرأة المرحة ذات الصوت الرنّان التي تتلقّى الطلب، «أهذا إفطار لشخصَين؟»

«كلا، لشخص واحد فقط»

قهقهت. «وووه، سوف تتناول حتماً إفطاراً دسماً، يا عزيزي»

«إنها أفضل طريقة لبدء النهار، ألا ترين هذا؟»

وافقت «طبعاً!»

- 9 -

ملأتْ رائحة الطعام الفاسد جو الغرفة بسرعة مُفاجئة. كان إفطار باتريك قد فسُدَ قبل أنْ يأكله. كان انبعاجٌ في العجينة الرماديّة للعصيدة يضمّ ثمرة إجاص مطبوخة مأكولاً نصفها؛ وثمة شرائح رقيقة من اللحم المُقدَّد تتدلّى من حافة طبق مُلطّخة بصفار البيض، وفي الصلصة الغزيرة كان عقبا سيجارتين مُشبّعان بالقهوة. وحملَ مثلثٌ من الخبز المُحمَّص المُهمَل أثراً نصف دائريّ لأسنانه، وكان سكَّر يتلألأ منثوراً في كل مكان على مفرش الطاولة. وحدهما عصير البرتقال والشاي كانا قد استُهلكا بالكامل.

على شاشة التلفزيون يصطدم وايل إ. القيوط[1]، المندفع بتسارُع كالصاروخ، بجانب جبل وينفجر كالقذيفة، بينما طائر الجوّاب Road Runner يختفي داخل نفق، ثم يخرج من الطرف الثاني، ويغيب داخل غمامة من الغبار. وتذكَّر باتريك، وهو يُشاهد طائر الجوّاب والشكل الدائريّ المنتفخ للغبار في إثره، الأيام البريئة الأولى لتعاطيه المخدرات، عندما اعتقد أنَّ مخدر الـ LSD سوف يكشف له شيئاً آخر غير هيمنة تأثيراته الخاصّة على وعيه.

وبفضل كراهيته للهواء المُكيَّف أصبح جو الغرفة باطراد حاراً ورطباً. واشتاق باتريك إلى أنْ يقود عربة الإفطار بنفسه في الخارج، لكنَّ خطرَ مقابلة شخص ما في الرواق جعله يستسلم للرائحة الكريهة المتفاقمة. كان قد تناهى إلى سمعه حديث يدور عنه بين خادمتين، وعلى الرغم من أنّه قبِلَ،

1- وايل إ. القيوط: شخصية كرتونيّة في سلسلة Road Runner وفيها يُحاول ذئب القيوط أنْ يضع الفخاخ للطائر Road Runner الذي يُطارده ويقع هو نفسه (القيوط) ضحيتها - المترجم.

نظريّاً، أنّه كان مجرد هلوسة، لم تسنح له قوّة عقله أنْ يختبر هذا المسار من الانفصال إلى درجة فتح الباب. فقبل كل شيء، ألم تقُل إحدى الخادمتين للأخرى، «قلتُ له: «سوف تموت، يا فتى، إذا استمررتَ في تناول تلك القذارة»، وأجابت الأخرى، «يجب أنْ تستدعي الشرطة لكي تحميك، لا يمكنك الاستمرار في العيش هكذا»»

ولج غرفة الحمّام، رافعاً كتفه الأيمن لكي يُخفِّف من الألم المتمركز تحت عظمة الكتف. اقترب من المرآة، بارتياب وبشكلٍ لا يُقاوَم، ولاحظَ أنَّ أحد جفنيه يرتخي أكثر من الآخر، يرتخي فوق عينٍ مُلتهبة ودامعة. وعندما شدَّ الجلد على أسفل رأى اللون الأصفر القاتم المألوف لمُقلتَي عينيه. لسانه أيضاً كان أصفر اللون ومكسواً بطبقة سميكة. فقط الأخاديد الأرجوانيّة تحت عينيه تخلَّصَتْ من شحوب الموتى لبشرته.

حمداً لله أنَّ والده قد توفي. فمن دون والدَين مُتَوَفَّيَيْن لا عذر حقاً لأنْ يبدو شنيعاً هكذا. وتذكَّر أحد الشِعارات الهادية في حياة والده: «إياك أنْ تعتذر، إياك أنْ تبرِّر»

تمتمَ باتريك، وهو يفتح صنبور حمّامه ويُمزق غلاف إحدى العبوات بأسنانه، «وأي شيء لعين آخر في استطاعته القيام به؟». وبينما كان يصبّ السائل الأخضر اللزج في الماء المُدوِّم سمعَ، أو خُيِّلَ إليه أنّه سمع، رنين جرس الهاتف. أهو المدير يريد أنْ يُحذّره من أنَّ الشرطة في طريقها إليه؟ وكائناً مَنْ كان، كان العالم الخارجيّ يصطدم بجوّه الخاصّ، ويملأه بالخوف. أغلقَ الصنابير وأصغى إلى الرنين الصافي للهاتف. لِمَ ينبغي أنْ يُجيب؟ ومع ذلك لم يستطع أنْ يتحمَّل عدم الردّ عليه؛ ربما سينجو.

جلس باتريك على كرسي المرحاض، لا يثِق في صوته الخاص، ورفع سماعة الهاتف وقال «ألو؟»

وصَله صوت متشدِّق من الطرف الآخر، «باتريك، عزيزي»

«جورج!»

«أهو وقت غير مناسِب للاتصال؟»

«لا، أبداً»

«كنتُ أتساءل إنْ كنتَ تودّ أنْ تتناول الغداء معي. ربما هذا آخر ما يخطر في بالك القيام به، طبعاً. لا بُدَّ أنّه ينتابك شعور مخيف. في الواقع، إنها صدمة رهيبة، يا باتريك، وكلنا ينتابنا الشعور نفسه»

«إنني حقّاً أشعر بأنني مُضطرب، ولكن أحبّ أنْ أتناول وجبة الغداء»

«يجب أنْ أُحذِّرك، لقد دعوتُ أناساً آخرين. أناساً رائعين، طبعاً، ألطف نوع من الأميركيين. وواحد منهم أو اثنان قابلا والدك وأحبّاه حبّاً جمّاً»

قال باتريك، رافعاً عينيه نحو السقف ومُكشّراً، «يبدون رائعين»

«إنني أقابلهم في نادي كي. هل تعرفه؟»

«كلا»

«أعتقد أنكَ ستجده مُسلياً على طريقته. إنَّ المرء يلجأ إليه هرباً من ضجيج نيويورك وتلوّثها، وإذا بك فجأة تجد نفسك بصورة ما في منزل ريفيّ إنكليزيّ. يعلم الله أيّة عائلة سكنته – أعتقد أنَّ بعض الأعضاء أقرضوه لهم – لكنَّ الجدران مُغطّاة باللوحات، والأثر الذي تتركه فاتن حقاً. وتوجد فيه كل الأشياء الاعتياديّة التي يمكن للمرء أنْ يتوقّعها، كعجينة[1] «**ذائقة الرجل المحترم**» على سبيل المثال، والغريب في الأمر أنَّ بعض الأشياء التي يصعبُ العثور عليها هذه الأيام في إنكلترا، هي قذارة جيدة. واتفقنا أنا ووالدك على أننا لم نقابل قذارة جيدة مثلها منذ سنين»

«تبدو فاتنة»

«دعوتُ بالانتاين مورغان. لا أعلم إنْ كنتَ قد قابلته. وأخشى أنني لستُ متيقّناً إنْ كان شخصاً مُملّاً جداً، لكنَّ سارة مُعجبة به كثيراً وأصبح المرء يتعوّد على ظهوره في كل مكان إلى درجة أنني دعوته على الغداء»، وقال جورج بكآبة، «والغريب في الأمر أنني ذات يوم تعرَّفتُ على شخصٍ يُدعى مورغان بالانتاين، وكان شخصاً رائعاً حقا؛ لا بُدَّ أنَّ بينهما صِلةَ قرابةٍ من نوع ما، لكنني لم أفكّر في الأمر كثيراً حقاً»

قال باتريك «ربما سنكتشف ذلك هذه الليلة»

1- عجينة تتألّف من سمك الأنشوفة والزبد وتشكيلة من البهارات – المترجم.

«في الواقع، لستُ متأكّداً من أنني أستطيع أنْ أدعوه ثانية. أشعر بأنّني سبق أنْ دعوته، ولكنْ من الصعب التأكُّد لأنَّ المرء يواجه صعوبة في الإصغاء إلى أجوبته»

«متى سنتقابل؟»

«عند حوالي الساعة الواحدة إلّا ربع في البار»

«عظيم»

«حسن، وداعاً، يا عزيزي»

ابتعد صوت باتريك وهو يقول «وداعاً الآن. أراك عند الواحدة إلّا ربعاً»

أعاد فتح صنابير المياه في الحمام من جديد وتجول في غرفة النوم لكي يُعدَّ لنفسه كأساً من البوربون. كان الاستحمام من دون مشروب يُشبه – يُشبه الاستحمام من دون مشروب. أهناك حاجة للتفصيل أو للمقارنة؟

تكلَّم صوتٌ صادر عن التلفزيون بحماس عن مجموعة كاملة مهمّة من سكاكين التقطيع، مصحوبة بقدرٍ كبير من المعدن الصينيّ، ومجموعة من أوعية السلطة، مع كتابٍ يضم وصفات أطباق يسيل لها اللعاب، وإذا لم يكن هذا كافياً، ثمة آلة لتقطيع الخضروات بأشكال متنوعة. لمعتْ عينا باتريك وهو يُحدِّق إلى الجزر يُقطَّع إلى شرائح، وإلى قِطعٍ صغيرة، ويُفرَم، ويُقطَّع على شكل مكعبات.

كان عصير البرتقال الذي وصله على هيئة ركام من الثلج المبشور قد ذاب تماماً، فقام باتريك بنوبة من الإحساس بخيبة الأمل برفس عربة الإفطار وأرسلها لكي ترتطم مع صوت مكتوم بالجدار. غمره اليأس بعد أنْ توقَّع أنْ يكون مشروبه خالياً من قطع الثلج. ما فائدة الاستمرار في الحياة؟ إنّ كل شيء خاطئ، كل شيء مُخفِق بلا ألم. جلس على حافة السرير، عاجزاً ومهزوماً، مُمسِكاً زجاجة البوربون بارتخاء بإحدى يديه. كان قد تخيَّلَ كأساً مُثلِجاً من البوربون يستقرّ بهيئة الاستعداد على حافة المغطس، وراهنَ بآماله كلها عليه، لكنّه وجد أنَّ الخطّة كلها قد أُحبِطَتْ، ولم يعد هناك ما يحولُ بينه وبين الإفلاس التامّ. شربَ جرعة من الزجاجة مباشرة ووضعها على الطاولة الجانبيّة. فلسعَ حنجرته وأشاع الرعشة فيه.

أشار عقربا الساعة إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة. يجب أنْ ينشَط ويستعدّ لعمل اليوم. لقد حان الوقت لأخذ جرعة مُخدِّر وشرب الكحول. يجب أنْ يتخلّى عن الكوكايين، وإلّا أمضى طوال فترة الغداء في المرحاض يتلقّى الحقن، كالمعتاد.

نهضَ عن السرير وفجأة ضرب مظلّة المصباح بيده، وأرسل المصباح ليرتطم على السجادة. ومشى عائداً، وزجاجة البوربون بإحدى يديه، إلى الحمّام، حيث وجد الماء يفيض برفق من جانب المغطس ويُغرِق الأرضيّة. رفضَ أنْ يستولي عليه الرعب أو أنْ يُبدي أيّة دهشة، وأقفل ببطء جريان الماء ثم أخذ يُحرِّك ممسحة الحمّام المنقوعة بالماء حول المكان بقَدَمِه، ناشراً الماء إلى الزوايا التي لم يكن قد وصل إليها بعد. تجرَّدَ من ملابسه، بعد أنْ تبلَّل بنطلونه، ورمى بها من خلال الباب المفتوح.

كان المغطس حارّاً جداً ولكن كان عليه أنْ ينزع القابس ويفتح صنبور الماء البارد قبل أنْ يتمكن من ولوجه. وحالما تمدَّد داخله، بدا شديد البرودة من جديد. مدّ يده وتناول زجاجة البوربون التي كان قد وضعها على الأرض بجوار المغطس، وأخذ يصبّ البوربون، من دون أي سبب واضح، وهو يحمل الزجاجة عالياً في الهواء، ويجرعه في أثناء انتشاره ثم سيلانه على وجهه.

سرعان ما فرغت الزجاجة، فأغرقها في الماء وأخذ يراقب الفقاقيع تخرج من عنق الزجاجة ومن ثم يُحرّكها في أرجاء قاع المغطس كغواصّة تُطارد خِلسة سفن العدو.

عندما نظر إلى أسفل، لمح ذراعيه فشهَقَ بحِدَّة ولا إراديّاً. فبين الرضوض الصفراء المتلاشية، والخيوط الورديّة للندوب القديمة، تجمّعت تشكيلة جديدة من الجراح الأرجوانيّة حول أوردته الرئيسيّة وفي نقاط متفرقة على طول ذراعه. وفي مركز هذه اللوحة غير الصحيّة برز الانتفاخ الأسود الذي تسبَّبَتْ به الحقنة الخاطئة في الليلة السابقة. صُدِمَ باتريك فجأة بفكرةِ أنَّ هذه هي ذراعه، وجعلته يرغب في البكاء. أغمضَ عينيه وغاص تحت سطح الماء، وأخذ يُخرِج أنفاسه بعنف من أنفه. لم تستحق التفكير فيها.

عندما ظهر من تحت الماء، فوجئ باتريك، عندما أخذ ينفض عنه الماء بهزّ رأسه من جانب إلى آخر، لسماعه من جديد رنين هاتف.

خرج من المغطس، ورفع سمّاعة الهاتف بجوار المرحاض. كانت أجهزة الهاتف الموجودة في غرف الاستحمام مُفيدة حقاً - لعلها تشاينا تدعوه إلى العشاء، وترجوه أنْ يُعيد النظر في قراره.

تشدَّقَ قائلاً «نعم؟»

قال صوت لم يُميِّزه من الجانب الآخر، «هيه، باتريك؟»

«ماريان! ما أجملك اتصالك هذا»

قالت ماريان بصوتٍ مُتردِّد لكنّه ينمّ عن ثقة عميقة في النفس، يهمس لكنّه أجشّ، «أنا غاية في ***الأسف*** لسماعي خبر وفاة والدك»، وكأنه لا يصدر عن جسمها باتجاه العالم، بل يجذب العالم إلى داخل جسمها؛ لم تتكلَّم بقدر ما كانت تبتلع بصوت مسموع. وكل مَنْ يُصغي إليها يُضطر إلى تخيُّل نحرها الناعم والطويل، وشكل جسمها الأنيق الشبيه بحرف S، الذي يبدو مُبالَغاً فيه بسبب الالتواء الغريب لعمودها الفقريّ الذي يجعل ثدييها ينتفخان أكثر نحو الأمام ويبرز نصفها السفلي أكثر نحو الخلف.

لِمَ لم يُضاجعها قط؟ لقد لعب امتناعها عن إبداء أية دلالات على رغبتها فيه دوراً غير مفيد، ولكن يمكن عزو ذلك إلى علاقة الصداقة التي تربطها بديبي. قال باتريك في نفسه، وهو يُلقي نظرة على نفسه في المرآة، ولكن كيف قاومت إغراءه أصلاً.

اللعنة. سوف يُضطر إلى الاعتماد على شفقتها.

قال ساخراً «حسن، أنتِ تعلمين كيف هو الحال. أيّها الموت، أين قرصتك؟[1]»

«إنَّ الموت، من بين شرور العالم كلها الأكثر شرّاً، هو الأشدّ براءة من هذه التهمة»

قال باتريك «قول ممتاز في هذه القضيّة. مَنْ قال هذا على أية حال؟»

1- هذا السؤال مُستعار من «رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس» (15:55). العهد الجديد - المترجم.

أفشَتْ ماريان قائلة، «إنه الأسقف تيلر في كتابه«*القواعد الصحيحة للموت المقدَّس*»»

«أهو كتابكِ المُفضَّل؟»

شهقَت بخشونة «إنه كتاب عظيم جداً؛ أُقسِم بالله، وأجمل ما قرأتُ من نثر»

كانت شديدة البراعة، وهو شيء لا يُطاق حقاً؛ ويجب أنْ يُضاجعها.

سألها باتريك «هل تقبلين دعوتي على العشاء؟»

شهقتْ ماريان «أوه، يا الله، بل أتمنى... ولكن يجب أنْ أتناول وجبة العشاء مع والديّ. أتريد أنْ تنضمَّ إلينا؟»

قال باتريك، منزعجاً لأنه لن يستأثر بها، «سيكون ذلك رائعاً»

قالت بنعومة «عظيم. سوف أُبلِّغ والديّ بهذا. تعال إلى شقّتهما عند حوالي الساعة السابعة»

قال باتريك «عظيم»، ثم أضاف، بتهوّر، «أنا أعبدك»

قالت ماريان بصورة غامضة، «هيه! أراك لاحقاً»

أغلق باتريك خط الهاتف. كان عليه أنْ يُضاجعها، عليه أنْ يُضاجعها حتماً. لم تكن هي فقط آخر شيء التصقَت به رغبتُه النهمة في أنْ يتم إنقاذُه؛ كلا، بل كانت المرأة التي سوف تنقذه. المرأة التي سوف يحرِف ذكاؤها الفائق وتعاطفها العميق وجسمها السماويّ، نعم، جسمها السماويّ، يحرف بنجاح انتباهه عن مهوى بئر مشاعره الكئيب وتأمّله في ماضيه.

إذا ضاجَعها فسوف يُقلِع عن تعاطي المُخدّرات إلى الأبد، أو على الأقلّ يُحضِر شخصاً جذّاباً حقاً ليتعاطاها معه. قهقه بعنف، وهو يتدثّر بمنشفة ويخطو عائداً إلى غرفة نومه بحيويّة متجدّدة.

صحيح أنّه يبدو في أسوأ حال، لكنَّ الجميع يعلمون أنَّ قيمة النساء الحقيقيّة، بمنأى عن الكثير من المال، تكمن في رقّتهن وظرفهن. إنَّ الرقّة ليست من اختصاصه، وهو لا يشعر بأنّه ظريف حقاً، لكنَّ هذا الأمر يتعلّق بالقَدَر: يجب أنْ يُضاجعها وإلّا فسوف يموت.

لقد حان الوقت ليكون عمليّاً، ليتناول مخدراً ومن ثم يُقفِل على

الكوكايين في حقيبة سفره. أخرجَ كبسولة من سترته وابتلعها بفعاليّة مُثيرة للإعجاب. وعندما خبّأ الكوكايين لم يجد سبباً يمنعه من أخذ خلطة أخيرة. فقبل كل شيء، هو لم يتناول أيّ خلطة منذ قُرابة أربعين دقيقة ولن يتمكن من أخذ أخرى قبل مرور ساعتين. ولما كان من فرط الكسل بحيث يقوم بكل تلك الإجراءات، غرز الحقنة في وريد سهل المنال يقعُ في ظاهر يده وقام بالحقن.

لاحظَ أنَّ الآثار تُصبح حتماً أضعف، وكان لا يزال قادراً على المشي في المكان، وإنْ مع قليل من الاهتزاز، وكتفاه مرفوعان إلى أعلى على جانبي أُذنيه، وفكّه مُشدود بإحكام.

لا شك في أنَّ التفكير في كونه بعيداً عن الكوكايين مدة طويلة لا يُطاق، ولكن لن يستطيع التحكُّم في نفسه إذا حمل مؤونة منه معه. وأعقل ما كان يمكن أنْ يفعل هو أنْ يُحضِّر خلطتين، واحدة بالحقنة القديمة المُتعبة التي كان يستخدمها طوال الليل، وأصبح مكبسها المطاطيّ يلتصق بجوانب أسطوانته، والأخرى بالحقنة الثمينة التي لم يلمسها أحد. وكما يضع بعض الرجال منديلاً في جيب صدر الجاكيت تحسُّباً إذا ما بكت امرأة، أو عَطَسَتْ، كذلك كان يُخفي حقنتين داخل الجيب نفسه لكي يواجه الإحساس المتجدِّد الأبديّ للفراغ الذي يجتاحه. بيب! بيب! كنْ مُستعداً!

عندما بدأ باتريك يُعاني من هلوسة سمعيّة أخرى، تناهى إلى سمعه حوار يدور بين رجل شرطة وعضو في إدارة الفندق.

«هل هذا الرجل زبون مواظِب؟»

«كلا، إنه من النوع الذي يأتي مرَّة كل حين في الإجازة»

تمتم باتريك بنَزَق، «كلا، كلا». لم يكن من السهل إخافته.

ارتدى قميصاً أبيضَ نظيفاً، وبزَّة ثانية، بتقاطعات رماديّة غامقة، وانتعل حذاءه في الوقت نفسه الذي وضع أزرار ردف الكُمّ الذهبيّة. كانت ربطة عنقه الفضيّة والسوداء، والوحيدة التي في حوزته لسوء الحظ، مُنقّطة بالدم، لكنّه نجح، عبر ربطها بشكل قصير، في إخفاء هذه الحقيقة، على الرغم من اضطراره إلى دسّ الشريط الأطول داخل القميص، وكان يكره فعل ذلك.

كان حل مشكلة عينه اليُسرى أقلّ سهولة، فقد أضحتْ الآن مُغمَضَة تماماً، ما عدا بعض الارتعاشات العصبيّة التي تصدر عنها بين حين وآخر. كان في استطاعته أنْ يفتحها، بكثير من الجهد، ولكن فقط برفع حاجبيه إلى وضعيّة التعبير عن السخط الشديد. وفي طريقه إلى نادي كي، عليه أنْ يُعرِّج على الصيدليّة ليُحضِر رقعة تغطي عينه.

كان جيب صدريته عميقاً بما يكفي ليُخفي المكبسَين المرتفعين للحقنتين، وكان هناك حيِّز مناسب لعلبة الهيروين داخل جيب البطاقة[1] في الجاكيت. كان كل شيء تحت السيطرة التامة، ما عدا أنّه كان يتصبب بالعرق كخنزير عالِق ولم يستطع أنْ يتخلَّص من إحساسه بأنّه نسيَ شيئاً حاسِماً.

نزع باتريك سلسلة الباب وألقى خلفه نظرة حنين إلى العماء المُظلِم النتن الذي كان يتركه خلفه. كانت الستائر لا تزال منسدلة، والسرير غير مُرتَب، والوسائد والملابس مُبعثرة على الأرض، والمصباح مقلوباً، وعربة وجبة الإفطار الذي يتعفَّن في الجو الدافئ، وغرفة الاستحمام الغارقة بالماء والتلفزيون، الذي كانت صورة رجل يصرخ «تعالوا إلى إيدي المجنون! الأسعار عندنا مجنونة» لا تزال تخفق على شاشته.

حالما خرج باتريك إلى الرواق لم يسعه إلّا أنْ يُلاحظ رجل شرطة واقفاً خارج باب الغرفة المُجاورة.

معطفه! هذا ما نسيَ. ولكن إذا عاد أدراجه ألن يبدو كأنه مُذنب؟

تلكّأ عند ممرّ الباب، ومن ثم تمتمَ بصوت مرتفع، «أوه نعم، يجب أنْ...» جاذباً بذلك انتباه رجل الشرطة إليه وهو يمشي مذعوراً عائداً إلى غرفته. ماذا تفعل الشرطة هناك؟ أيمكن أنْ يكتشفوا ما كان يفعل؟

شعر بالمعطف ثقيلاً وأقلّ بثّاً للطمأنينة من المعتاد. لا ينبغي أنْ يتأخّر طويلاً لكيلا يتساءلوا ما الذي يفعل هناك.

قال رجل الشرطة مع ابتسامة، «سوف تُشوى وأنتَ ترتدي هذا المِعطف»

1- جيب البطاقة: جيب يقع فوق الجيب الجانبي للجاكيت، وهو أصغر منه ويقع فوقه – المترجم

سأله باتريك، بلهجة عِدائيّة أكثر مما كان ينوي أنْ تكون، «أهي جريمة؟»

قال رجل الشرطة بجدّية ساخرة، «في المعتاد، ينبغي إلقاء القبض عليك»، ثم أضاف وهو يهزّ كتفيه استسلاماً، «لكننا منهمكون في مهمة أخرى»

سأله باتريك بأسلوب عضو البرلمان التأسيسي، «ماذا حدثَ هنا؟»

«ثمة شخص توفي متأثّراً بنوبة قلبيّة»

قال باتريك مع إحساس سرّي بالسرور، «وانتهت الحفلة»

سأل الشرطي فجأةً بدافع الفضول «أكانت هناك حفلة ليلة أمس؟»

«كلا، كلا، كنتُ فقط أعني...» شعر باتريك بأنه قادم من عددٍ كبير من الجهات دفعة واحدة.

«ألم تسمع أي ضجيج، أو صراخ، أو أي شيء غير عادي؟»

«كلا، لم أسمع أيّ شيء»

استرخى رجل الشرطة، مرّر يده على فروة رأسه الصلعاء بقدر كبير. «أنتَ من إنكلترا، صحّ؟»

«هذا صحيح»

«أدركُ هذا من لكنتك»

قال باتريك بمرح صاخب «قريباً سوف تُصبح مُحققاً». لوَّحَ بيده وهو ينطلق على طول السجادة الطويلة التي رُسِمَت عليها قدور مُدجَّجة بالأزهار ذات الألوان الزهريّة، والخضراء الفاقعة، متخيّلاً أشعة عينيّ رجل الشرطة تحرق ظَهره.

- 10 -

ارتقى باتريك دَرَج نادي كي قفزاً بشوقٍ غير معهود، وأعصابه تتلوّى ككتلة من اليرقات رُفِعَ عنها الحجر الذي يحميها وعرَّضها لهجوم السماء المفتوحة. هرعَ ممتنّاً، واضعاً رقعة على عينه، إلى ردهة النادي الكئيبة، وقميصه مُلتصق بظَهره المتعرِّق.

تناول خادم الردهة معطفه منه بدهشة خرساء وقاده على طول الرواق الضيِّق، المكسّوة جدرانه بنُصُب تذكاريّة لكلاب رائعة، وأحصنة، وخَدَم، وشخصيّة أو اثنتين من الشخصيات الكرتونيّة شاهدة على غرابة أطوارٍ ضعيفةٍ ونُسيَتْ منذ زمن بعيد لعدد من أعضاء النادي الموتى. لقد كان بحقّ بمثابة معبد للمزايا الإنكليزيّة كما كان جورج قد وعد.

اقتاده إلى غرفة كبيرةٍ جدرانها من ألواح الخشب مملوءة بأرائك من الجلد البنّي والأخضر على الطراز الفيكتوريّ، وبلوحات فنيّة لامعة لكلابٍ تُمسِك بأفواهها المُطيعة طيوراً، وشاهد باتريك في الركن جورج، وقد انهمكَ فعلاً في حديث مع رجلٍ آخر.

«باتريك، عزيزي، كيف حالك؟»

«مرحباً، جورج»

«أهناك خطبٌ في عينك؟»

«مجرد التهاب خفيف»

قال جورج بصدق، «أوه، يا إلهي، حسن، آمل أنْ تُشفى منه»، ثم سأله، وهو يستدير نحو رجل ضئيل ذي عينين زرقاوين حسيرتين، وشَعرٍ أبيض أنيق، وشارب حَسَن التشذيب، «هل تعرف بالانتاين مورغان؟»

قال بالانتاين، مُصافحاً إيّاه بيد قويّة، «مرحباً، باتريك». لاحظَ باتريك أنّه يضعُ ربطة عنق من الحرير الأسود وتساءلَ إنْ كان في حالة حِداد لسببٍ ما.

قال بالانتاين «أنا شديد الأسف على وفاة والدك. لم أكن أعرفه شخصيّاً، ومن خلال كل ما أخبرني به جورج يبدو أنّه كان شخصيّة إنكليزيّة محترمة وعظيمة»

قال باتريك في نفسه، يا يسوع المسيح.

سأله جورج مؤنّباً «ماذا كنتَ تقول له؟»

«فقط كم كان والده رجلاً استثنائيّاً»

قال باتريك «نعم، يسرّني أنْ أقول إنه كان استثنائيّاً. ولم أُقابل أبداً شخصاً مثله»

تشدّقَ جورج قائلاً «كان يرفض الحلول الوسط. ماذا كان يقول؟ «لا شيء إلّا الأفضل، أو ابقَ من دونه»»

قال بالانتاين بسُخف «لطالما شعرتُ أنا نفسي بهذا»

سأل جورج، «ماذا تريد أنْ تشرب؟»

«أريد كأساً من المشروبات التي تحدثتَ عنها بشغف في هذا الصباح»

قهقه بالانتاين «بشغف»

«حسن، هناك بعض الأشياء يفكِّر فيها المرء بشغف». ابتسم جورج، وهو ينظر إلى عامل البار ويرفع قليلاً سبّابته، وتابع قائلاً «سوف أشعر باليُتم من دون والدك. والغريبَ في الأمر هو أنّه كان من المُفترَض أنْ نتناول الغداء هنا في يوم وفاته. وفي آخر لقاء لنا ذهبنا إلى مكان استثنائيّ بكل معنى الكلمة له ترتيب معيَّن مُشترَك – لا أصدِّق أنه ترتيبٌ متبادَل – مع نادي ترافلرز في باريس. حيث اللوحات على الأقل أكبر من الحجم الطبيعي بأربع مرّات – وضحكنا كثيراً حول هذا – كان في أحسن حالاته، على الرغم من أنّه كان هناك دائماً، طبعاً، خيبة أمل مُستترة في والدك. وأعتقد أنّه استمتع كثيراً في تلك الزيارة الأخيرة. ولا ينبغي أنْ تنسى، يا باتريك أنّه كان شديد الافتخار بك. وأنا متيقّن من أنكَ تعلم هذا. كان فخوراً حقاً»

شعر باتريك بالاشمئزاز.

بدا الضجر على بالانتاين، كما يحدث مع الناس عندما يدور نقاشٌ حول شخصٍ لا يعرفونه. كانت يتمتع برغبة فِطريّة للتحدُّث عن نفسه، لكنّه شعر بأنَّ فترةً وجيزةً من الصمت مطلوبة.

قال جورج لنادله «نعم، نريد كأسين من البولْشَتْ و...» ومال على بالانتاين مُستفهماً.

قال بالانتاين «أنا أريد كأساً أخرى من المارتيني»

قال باتريك بضجر وهو يتلفَّتْ حوله في الغرفة، «يا لها من مجموعة كبيرة من كلاب الصيد المُخلِصة»

قال جورج «أعتقد أنَّ الكثير من الأعضاء هم من الرماة المتحمّسين. وبالانتاين هو أحد أمهر الرُماة في العالم»

احتجَّ بالانتاين «مهلاً، مهلاً، مهلاً، أنا كنتُ أفضل رامٍ في العالم» ومدَّ يده ليتلقّى سيلاً من تهنئة الذات، لكنَّ ذلك لم يكنْ أكثر فعاليّة من الملك كانيوت في مواجهة قُوَّة أخرى من قِوى الطبيعة العُظمى[1]. ولم يستطع إّلا أنْ يشير إلى أنَّ «ما لم أخسره هو تشكيلة من البنادق هي ربما الأعظم في العالم»

عاد النادل من المشروبات.

سأله بالانتاين، «هل لكَ أنْ تُحضِر لي الكتاب الذي عنوانه «*تشكيلة بنادق مورغان*»؟»

قال النادل، بصوت أوحى بأنّه سبقَ أنْ تعامل مع هذا الطلب من قبل، «حاضر، سيد مورغان»

تذوَّق باتريك المشروب ووجد نفسه يبتسم لا إراديّاً. شرب نصفه جرعةً

1- الإشارة هنا إلى فشل الملك كانيوت العظيم في وقف المدّ البحري. وتقول الحكاية التي سُجِلَتْ في القرن الثاني عشر، إنَّ حاشيته كانت تعتقد أنّه يتمتع بقِوى خارقة، في حين أنّه نفى ذلك وقال إنَّ الله هو القوة الأسمى، وحين فشل في وقف المدّ البحري خاب أملهم فيه. – المترجم

واحدة، ثم تركه برهة، ثم رفعه من جديد، وقال لجورج، «كنتُ مُحقّاً بشأن هذا المشروب» وشرب ما تبقّى منه.

سأله جورج «أترغب في كأس أخرى؟»

«أعتقد أنني أرغب، إنّه لذيذ»

انساب النادل عائداً إلى الطاولة حاملاً مُجلَّداً أبيضَ ضخماً. على غلافه الخارجيّ، كما بدا من بعيد، ظهرتْ صورة فوتوغرافيّة تبيِّن مُسدسين مُطعَّمَين بالفضّة.

قال النادل «ها هو، سيد مورغان»

قال لبالانتاين، وهو يتناول المجلّد، «آه - ها»

قال جورج «ونريد مشروباً آخر، من فضلك»

«حاضر، سيدي»

حاول بالانتاين أنْ يكبتْ تكشيرة افتخار. قال، وهو يربت على الغلاف الخارجيّ للكتاب، «هذان المسدسان هنا هما مُسدسا مبارزة إسبانيان من القرن السابع عشر وهما أثمن سلاح ناريّ في العالم. إذا أخبرتك أنَّ تبديل المقداحين يُكلّف أكثر من مليون دولار، فسوف تتكوَّن لديك فكرةٌ بسيطة عمّا أعني»

قال باتريك «هذا يكفي للتساؤل إنْ كان الأمر يستحق المبارزة»

قهقه بالانتاين. «إنَّ فرشاة التنظيف وحدها تكلِّف أكثر من ربع مليون دولار، لذلك لن ترغب كثيراً في استخدامهما في المبارزة»

بدا جورج متألِّماً وشارداً، ولكن كان مستحيلاً إيقاف بالانتاين عن قيامه بدور المُعبِّر عن انتصار الحياة، بقيامه بمهمته القيِّمة لإلهاء باتريك عن حزنه الشديد. وضعَ نظارة هِلاليّة الشكل من عظم ظهر السلحفاة، وشمخ برأسه، ونظر إلى كتابه بتنازُل، وهو يُقلِّب صفحاته.

قال، متوقفاً عن تقليب الصفحات ورافعاً الكتاب المفتوح في اتجاه باتريك، «هذه هنا. هذه أول بندقيّة وينتشستر ذات إطلاق متكرِّر صُنِعَتْ في العالم»

تنهّد باتريك «شيء مُذهل»

اعترفَ بالانتاين، «عندما كنتُ أصطاد في إفريقيا، قتلتُ أسداً بهذه البندقيّة. لم أستهلك منها أكثر من بضع طلقات – إنها لا تتصِف بعيار سلاح حديث»

اقترحَ باتريك «لا بُدَّ أنكَ ممتنّ أكثر لآليّة الإطلاق المُتكرِّر»

قال بالانتاين راضياً «أوه، لقد ساعدني في ذلك اثنان من الصيّادين الموثوقين. وقد وصفتُ الحادثة في الكتاب الذي ألّفتُه عن رحلات الصيد في إفريقيا»

عاد النادل مع مشروب باتريك الثاني، ويتأبّطُ كتاباً آخر ضخماً.

«لقد رأى هاري أنكَ ربما ترغب في هذا الكتاب أيضاً، يا سيد مورغان»

قال بالانتاين بخُنّةٍ عاميّة، وهو يتراجع إلى الخلف على كرسيه ويبتسم بإشراق للنادل، «أرغبُ حتماً. ها أنا آتي على ذِكر الكتاب وإذا به يسقط في حجري. هذا ما أسمِّيه الخدمة الممتازة!»

فتح الكتاب الجديد باستمتاع مألوف. شرحَ بصوتٍ لم يبدُ أنّه مرتبك كما نوى أنْ يكون، «لقد كان بعض أصدقائي من الكياسة بحيث قالوا إنني صاحب أسلوب ممتاز في كتابة النثر. أنا لم أتعمّد أنْ يكون كذلك، لقد دوّنته كما هو. وأسلوبي في الصيد في إفريقيا هو أسلوب في الحياة لم يعُد موجوداً الآن، وقد أخبرتُ حقيقة ما حدث، هذا كل ما في الأمر»

تشدَّقَ جورج قائلاً «نعم، إنَّ الصحفيين ومَنْ شابههم يكتبون الكثير من الهراء عمّا يُسمّونه «موقع الوادي السعيد». في الواقع، لقد ذهبتُ إلى هناك مرات عديدة في ذلك الوقت، وأستطيع أنْ أؤكّد أنه لم يكن هناك تعاسة أكثر من المعتاد، ولا ثمالة أكثر من المعتاد، والناس يتصرّفون كما يفعل أهالي لندن أو نيويورك»

مال جورج وانتقى ثمرة زيتون. ثم أضاف وهو يتفكَّر، «كنا نتناول طعام العشاء ونحن نرتدي البيجامات، وأعتقد أنَّ هذا التصرُّف كان ***فعلاً*** تصرّفاً شاذاً قليلاً. ولكن ليس لأننا رغبنا في أنْ ينام كلٌ منا مع الآخر، على الرغم من أنَّ الكثير من مثل ذلك التصرُّف كان يجري، كما يحدث دائماً؛ الأمر ببساطة هو أنّه كان علينا أنْ نستيقظ في اليوم التالي عند الفجر لكي نباشر

الصيد. وعندما نرجع بعد الظهر، نتناول نخباً يتألَّف من الويسكي الصودا، أو أي شيء ترغبه. ومن ثم يقولون «الحمّام، يا سيد، حان وقت الاستحمام» ويُحضِّر الحمّام. وبعد ذلك نتناول العشاء ونحن نرتدي البيجاما. إنَّ الناس يتصرّفون كما يفعلون في أي مكان آخر، ولكن يجب أنْ أقول، إنهم يُسرفون في الشراب فعلاً، يُسرفون كثيراً»

قال باتريك «كأنها الجنّة»

قال بالانتاين«في الحقيقة، يا جورج، الشرب يتلاءم مع أسلوب الحياة. وتتخلَّص مما تشرب عبر التعرُّق»

قال جورج «نعم، هذا صحيح»

قال باتريك في نفسه، لستَ مُضطراً إلى الذهاب إلى إفريقيا لكي تتعرَّق بغزارة.

قال بالانتاين، وهو يُناول باتريك الكتاب الثاني «هذه صورة فوتوغرافية لي مع تيس جبليّ من تنجانيقا. وقد قيل لي إنه آخر تيس فحل من نوعه، لذلك لا أستطيع مقاومة المشاعر المُضطربة التي تنتابني لهذه الحقيقة»

قال باتريك في نفسه، وهو ينظر إلى صورة بالانتاين اليافع، مُعتمراً قبعة الكاكي، ويركع بجوار جثّة تيس، يا الله، إنه حسّاس أكثر مما ينبغي.

قال بالانتاين بلهجة عَرَضيّة، «لقد التقطتُ الصورة بنفسي. وتوسّل إليّ العديد من المُصورين الفوتوغرافيين المُحترفين لكي أُفشي لهم «سرّي»، ولكن كان لا بُدَّ لي من أنْ أُخيِّب أملهم - السر الوحيد هو أنْ تحصل على موضوع مُذهل وتصوّره بأفضل طريقة تعرفها»

تمتمَ باتريك «مُذهل»

تابعَ بالانتاين، «أحياناً وبدافعِ أحمق من الشعور بالافتخار، كنتُ أشترك في إطلاق النار وأسمح لأحد الشبان بالضغط على الزناد - إنهم يُحسنون فعل ذلك»

قال جورج بحيويّة غير متميِّزة، «آه، ها هو توم»

شقَّ رجل، طويل القامة بصورة خارقة ويرتدي بزّة مُخطَّطة زرقاء اللون،

طريقه بين الطاولات. كان شعره خفيفاً لكنّه شائب ومُشوَّش، وله عينان متدليتان جديرتان بكلب اقتفاء الأثر.

أغلق بالانتاين الكتابَين ووضعهما على رُكبتيه. لقد اكتملت دورة تفاهته الشنيعة. كان يتحدث عن كتابٍ أتى فيه على ذِكر الصور الفوتوغرافيّة التي التقطها للحيوانات التي اصطادها ببنادق من مجموعته الرائعة، مجموعة التقط لها صوراً (خُسارة، لم يلتقطها بنفسه) وأوردها في الكتاب الثاني.

قال جورج «هذا توم تشارلز، وهذا باتريك»

قال توم بصوت أجشّ وجاف «أرى أنكما كنتما تتحدثان مع رجل عصر النهضة. كيف حالك، بالانتاين؟ أكنتَ تزوّد السيد ميلْروز بمعلومات عن إنجازاتك؟»

قال بالانتاين بتذمُّر «في الواقع، رأيتُ أنّه ربما لديه اهتمام بالبنادق»

نعقَ توم «إنَّ الفكرة التي لم تخطر في باله هي أنَّ لا أحد يمكنْ *أنْ يهتمّ* بالبنادق. يؤسفني سماعي خبر وفاة أبيك، أعتقد أنكَ تشعر بالاشمئزاز من أعماقك»

قال باتريك، وقد فقد توازنه، «أعتقد ذلك. إنه وقت عصيب على أي شخص. ومهما كان شعورك، فإنه يكون قويّاً، وتتوافد عليك المشاعر كلها»

سأل جورج «هل ترغب في مشروب، أم تريد أنْ نتوجه مباشرة إلى تناول الغداء؟»

قال توم «فلنأكل»

نهضَ الرجال الأربعة، ولاحظَ باتريك أنَّ كأسَي المشروب اللذين شربهما جعلاه يشعر بأنه أكثر ثباتاً. وتبيَّنَ أيضاً النبض الصافي والثابت لمفعول المُخدِّر. ربما يستطيع أنْ يُعدَّ لنفسه خلطة سريعة قبل تناول وجبة الغداء.

«أين تقع المراحيض، يا جورج؟»

قال جورج «أوه، فقط اخرج من ذلك الباب الذي في الركن. وسوف نكون في قاعة الطعام، في أعلى الدرج الذي على اليمين»

«سأراكم هناك»

انفصلَ عن المجموعة وتوجه نحو الباب الذي أشار إليه جورج. وعلى الجانب المقابل وجد الغرفة الكبيرة الباردة ذات الرخام الأبيض والأسود، والتجهيزات الكروم اللامعة، وأبواب خشب الماهوغاني. وعلى أحد طرَفَي صفٍ من المغاسل كانت أكوام من البياضات المنشورة التي خيطت عبارة «نادي كي» عند زواياها بقطن أخضر اللون، وبجانب ذلك، ثمة سلَّة من الأماليد المجدولة تُرمى فيها المناشِف المُستعمَلة.

تناول إحدى المناشِف، بفاعليّة مُفاجئة وخلسة، وملأ كأساً بالماء، وانسلّ إلى إحدى مراحيض خشب الماهوغاني.

لم يكن أمامه الكثير من الوقت يُبدِّده وبدا كأنَّ باتريك قام بوضع الكأس، وترك المنشفة، وخلع السترة، كل ذلك بحركة واحدة.

جلسَ على مقعد المرحاض ووضع الحقنة بحرص على المنشفة التي على حجره. ثم رفع كُمْ قميصه حتى عضلة أعلى الساعد وشدّه هناك لكي يكون بمثابة وسيلة ارتجاليّة لوقف النزف، وبينما كان يشدّ قبضته ويرخيها بحركة مسعورة، رفع غطاء الحقنة بإبهام يده الأخرى.

كانت أوردته تُصبح خجولة جداً، ولكن مع طعنة محظوظة في عضلة أعلى الساعد، تحت الكُمّ المرفوع مباشرة، ظهر المشهد السارّ لسحابة الدم الشبيهة بنبات الفِطر وهي تنفرِش داخل أسطوانة الحقنة.

ضغط المكبس بقوة نحو الأسفل وأرخى كُمّ القميص بأسرع ما في استطاعته ليسمح للمحلول بحريّة المرور خلال مجرى الدم.

مسح باتريك الدم المتسرِّب من ذراعه وسالَ من الحقنة، وتلقّى أيضاً المحلول الزهريّ المنبجس بالمنشفة.

كانت خيبة الأمل كبيرة. وعلى الرغم من أنَّ يديه كانتا ترتعشان ونبضات قلبة تضرب بقوة، قاومَ ذلك الإحساس المتلاشي الممتع، تلك اللحظة التي تسحق القلب، المضغوطة كسيرة ذاتية لرجلٍ يغرق، لكنها مُراوغة وحميمة كعطر زهرة.

ما الفائدة اللعينة لتعاطي الكوكايين إذا لم يحصل على الدفق المُنشِّط

المناسِب؟ كان شيئاً لا يُطاق. شعر باتريك بالسخط وبالقلق بشأن العواقب، فأخرج حقنة ثانية، وجلس من جديد على مقعد المرحاض، ورفعَ كمَّه. والغريب في الأمر هو أنَّ دفق النشاط بدا أنّه يقوى، وكأنه حُصِرَ في وجه كُمّ قميصه واستغرقَ فترة طويلة جداً ليصل إلى دماغه. على أيّة حال لقد التزم الآن بتناول خلطة ثانية، ومع مزيج من إثارة ارتخاء الأمعاء والخوف، حاولَ أنْ يضع الإبرة من جديد في البقعة السابقة نفسها بالضبط.

وبينما كان يُنزِل الكُمّ هذه المرَّة، أدركَ أنّه ارتكبَ خطأً فادحاً. كانت مُغالاة مُسرِفة. والمغالاة المُسرِفة وحدها هي الكافية. لكنَّ هذا كان أكثر من كافٍ.

أعاد الغطاء إلى الحقنة الجديدة الثمينة وتركها تسقط على الأرض، لأنه كان من شدة الانبهار بحيث لم يستطع شطفها داخل المرحاض. تراخى من جديد مُستنداً على جدار المرحاض، ورأسه متدلٍ على أحد جنبيه، يلهثُ وينتفض كرياضيّ اجتاز خط النهاية بعد خسارته السباق، ووخزُ العَرَق الحيّ ينضح من كامل سطح جلده، وعيناه مُغمضتان بحزم بينما سلسلة سريعة من المشاهد تومضُ عبر بصره الداخلي: نحلة ترتطم سكرى بمِدقّات زهرة مُثقلة بحبوب الطلع؛ وتصدعات تنتشر عبر سدٍّ يتحطَّم؛ وشَفرة طويلة تقتطع شرائح من اللحم من جثّة حوت ميّت؛ وبرميل من العيون الجاحظة تسقط لزجة بين أسطوانتي عصر الخمر.

أجبرَ عينيه على البقاء مفتوحتين. كانت حياته الداخليّة *تتدهور* حتماً وسوف يتطلَّب ارتقاء الدَّرَج إلى الطابق العِلويّ ومواجهة التأثيرات المُربِكة للآخرين من الحذر أكثر مما يتطلّبه الغوص أطول من ذلك في هذه البؤرة من الصور السريّة والعنيفة.

لم تكن الهلوسات السمعيّة التي أغارتْ على باتريك وهو يتلمَّس طريقه على طول الجدار نحو صف المغاسل قد نُسِّقَتْ بعد على شكل كلمات، بل كانت تتألَّف من مسارات ملتوية من الصوت والإحساس الغريب بالفراغ، كصوتِ تنفُّسٍ مُضخَّم.

مسحَ وجهه وأفرغَ كأس الماء الداميّ في الحوض. وتذكَّر الحقنة الثانية،

فحاول أنْ يُنظِّفها بسرعة، وأخذَ يراقبُ انعكاس صورة الباب في المرآة تحسُّباً لمجيء أحدهم. ارتعشتْ يداه ارتعاشاً شديداً حتى صعُبَ عليه حمل الإبرة تحت الحنفية.

لا بُدَّ أنَّ وقتاً طويلاً مرَّ على تركه الآخرين. لعلهم الآن يطلبون لائحة الطعام. فقام بإعادة الحقنة المُبلَّلة إلى جيب صدريته، لاهثاً، ولكن بإلحاحٍ مجنون، وأسرعَ عائداً خلال البار، ومنه إلى الردهة، وارتقى الدَّرَج الرئيس.

في قاعة الطعام شاهد جورج، وتوم، وبالانتاين لا يزالون يقرأون لائحة الطعام. كم من الزمن أبقاهم ينتظرون، ويُرجئون بكل أدب وجبة الغداء؟ تحرَّك بشكلٍ أخرق متقدِّماً نحو الطاولة، ومسارات الصوت المنحنيّة والمقوّسة تلوي الفضاء من حوله.

رفعَ جورج بصره.

سأل «زيـووو... زيووو... زيـووو...»، وقال بالانتاين، مُقلِّداً طائرة مروحيّة، «تشوك - تشوك - تشوك»

اقترحَ توم «أيواه، أيواه»

ما الذي يُحاولون أنْ يُخبروه بحق الله؟ جلس باتريك ومسحَ وجهه بفوطة بلون زهريّ فاتح.

قال بهمسٍ طويل ممطوط «سوت»، فأجابه بالانتاين «تشوك - تشوك - تشوك»

كان جورج يبتسم، لكنَّ باتريك أصغى عاجزاً أمام الأصوات التي انسابتْ مارّة من أمامه كصورة فوتوغرافيّة لأضواء مكابح في شارع رطب.

«زيو.. زيو... زيو... أيو. أيو. تشوك - تشوك - تشوك»

جلس مُندهِشاً أمام لائحة الطعام، وكأنه لم ير واحدة في حياته. كانت هناك صفحات لجثث ميّتة - أبقار، قريدس، خنازير، أصداف، حملان - مُمدَّدة على طولها كأنها لائحة بالضحايا، مصحوبة بوصفٍ موجَز للطريقة التي يجب أنْ تُعامَل بها منذ أنْ ماتت - أنْ توضع على السيخ، وتُشوى، وتُدخَّن، وتُطبَخ. يا يسوع، إنْ كانوا يظنّون أنّه سوف يأكل من هذه الأشياء فلا بُدَّ أنهم مجانين.

رأى الدم الداكن يتدفَّق من عنق خروف إلى العشب. والذباب المُحتشد. ورائحة فضلات الذبيحة النتنة. وسمع الجذور تتمزَّق وهو ينتزع جزرة من الأرض. أي رجل حيّ يجلس القرفصاء على ركام من الفساد، والقسوة، والقذارة، والدماء.

ليت جسمه يتحول إلى لوح من الزجاج، الفاصل الخالي من اللحم بين مساحتين، يعرف كليهما لكنّه لا ينتمي إلى أيٍ منهما، فعندئذٍ سوف يتحرَّر من الدَين الفادح والوحشيّ الذين يُدين به لباقي الطبيعة.

سأل جورج «زيو... زيو... وان؟»

«أوم... سوف... أوم، إيه فقط». شعر باتريك كأنَّه بعيد جداً عن صوته، كأنه نابع من قدميه. «سوف... أوم، إيه، تناول... مشروباً... آخر... إفطار متأخِّر... إيه... لستُ جائعاً حقاً»

الجهد الذي بذله ليقول هذه الكلمة جعله يلهث.

اعترضَ بالانتاين «تشوك – تشوك – تشوك – تشوك». أجابَ توم «أيوا طبعاً. أيوا زيو؟»

لماذا كان يقول «زيو»؟ كان السيل يُصبح مُعقّداً أكثر فأكثر. وقريباً سوف يقول جورج «تشوك» أو «أيوا»، وحينئذٍ كيف سيُصبح موقفه؟ كيف سيُصبح موقف أي منهم؟

شهقَ باتريك «فقط جرعة واحدة[1]، حقاً»، وهو يمسح جبينه من جديد، وثبّتَ نَظَرَه على عنق كأس النبيذ الذي عندما وصلته أشعّة الشمس، أرسلَ ضوءاً يشبه شظيّة من العِظام إلى مفرش الطاولة الأبيض، كصورة بالأشعة السينيّة لإصبع مكسور. كانت الأصداء الملتوية للأصوات المنبعثة من حوله قد بدأت تتلاشى حتى الهسيس الواهن لضجيج جهاز تلفزيون مُشوَّش. لم يعُد عدم الفهم بل ما يشبه الحزن، أو كآبة ما بعد المُضاجعة مُضخَّمة بدرجة هائلة، هو الذي فَصَلَه عمّا كان يجري من حوله. كان بالانتاين يقول «أخبرتني مارثا بوينغ بأنها كانت تعاني من نوبات دوار وهي تقود السيارة إلى

1- قال الكلمات الثلاث كأنها كلمة واحدة – المترجم.

نيوبورت وأنَّ طبيبها أمرها بأنْ تتناول من قطع الجبن الفرنسيّ الصغيرة في أثناء رحلتها – من الجليّ أنّها كانت مُصابة بنوع من نقص البروتين»

قال توم «لا أستطيع أنْ أتخيَّل أنَّ نقص التغذية عند مارثا حادّ جداً»

علَّقَ جورج بدبلوماسيّة، «في الواقع، ليس كل شخص مُضطر إلى قيادة السيارة إلى نيوبورت كثيراً كما تفعل هي»

قال بالانتاين بقدر من الكبرياء، «لقد ذكرتُ القصّة لأنني عانيتُ من الأعراض نفسها»

سأل توم «في الرحلة نفسها؟»

شدَّدَ بالانتاين «في الرحلة نفسها بالضبط»

قال توم «حسن، هكذا ترى أنتَ نيويورت، تمتصّ البروتين منك. الرياضيون وحدهم يستطيعون قطع تلك المسافة من دون مساعدة طبيّة»

قال بالانتاين بصبر، «لكنَّ طبيبي *الخاص* أوصاني بتناول زبدة الفول السوداني. لقد كانت مارثا مُرتابة قليلاً بهذا الشأن، وقالتْ إنَّ ذلك النوع من الجبن الفرنسيّ عظيم لأنه يمكن تقشير القطع ووضعها مباشرة في فمك. وأرادتْ أنْ تعرف كيف يمكن أكل زبدة الفول السوداني. فقلت «بالملعقة، كما تأكلين الكافيار»». قهقه بالانتاين، وختم بانتصار، «في الواقع، لم تستطع إعطاء جواب على هذا، وأعتقد أنها سوف تنتقل إلى تناول زبدة الفول السوداني»

قال توم «على أحدهم أنْ يأخذ حَذَرَه من زبدة» صن – بات «للفول السوداني»

تشدَّقَ جورج قائلاً «نعم، يجب أنْ تحذر، وإلّا فسوف تبدأ بالاتّجار بزبدة الفول السوداني. إنَّ سكّان نيوبورت حالما يتعوّدون على شيء، فلا سبيل إلى منعهم عنه. وأتذكّرُ أنَّ بروك ريفرز سألني أينَ أُفصِّلُ قمصاني، وفي المرة التالية التي طلبتُ تفصيل بعضٍ منها قيل لي إنَّ عليّ أنْ أنتظر دوري على لائحة تمتد حتى عامين. قالوا لي إنَّ هناك حشداً من الطلبات من زبائن أميركيين. وطبعاً، عرِفتُ مَن فعل ذلك»

جاء نادل ليجمع الطلبات فسأل جورجُ باتريكَ إنْ كان متأكِّداً تماماً من أنّه لا يرغب في تناول «شيء صلب».

أجابَ باتريك «كلّ التأكُّد. لا أريد شيئاً صَلباً»

قال جورج «لم أعلم عن والدك أنّه كان يفقِد شهيّته»

«كلا، كانت السِمة الوحيدة فيه التي يُعتَمَدُ عليها»

احتجَّ جورج «أوه، لو كنتُ مكانك لما تماديتُ إلى هذا الحد. لقد كان عازف بيانو بارعاً جداً»، وشرح للآخرين، «كان يُبقينا يقظين طوال الليل وهنو يعزف الموسيقى الآسرة»

قال باتريك في نفسه، ألحاناً مُختارة ومُحاكاة ساخرة وأيدٍ تتلوّى كجدع فروع نبات كرمة عجوز

ثم قال بصوتٍ مرتفع «نعم، كان في وسعِهِ أنْ يكون مُثيراً للإعجاب في العزف على البيانو»

أضاف جورج «وفي الحديث»

قال باتريك «مم... الأمر يعتمد على ما تعتبره مُثيراً للإعجاب. إنَّ بعض الناس لا يُحبّون أنْ يُقاطَعوا بفظاظة، كما سمعت»

«ومَن هم أولئك الناس؟» سألَ توم، متلفّتاً حوله في الغرفة مع تعبير ذعر ساخر.

قال جورج «صحيح أنني اضطررتُ مرةً أو مرَّتين إلى أنْ آمره بالكفّ عن الجِدال»

سأله بالانتاين، وهو يُبرِز ذقنه إلى الأمام لكي يُخرِج أكبر قدر من رقبته خارج الياقة، «وماذا فعلَ؟»

أجابَ جورج بإيجاز «أمرني بأنْ أغرب عن وجهه»

قال بالانتاين، منتهزاً فرصة إبداء الحِكمة والدبلوماسيّة، «اللعنة، في الواقع، إنَّ الناس يُجادلون في أشدّ الأشياء تفاهة. في الحقيقة، لقد أمضيتُ عطلة أسبوعٍ كاملة وأنا أحاول أنْ أقنع زوجتي بتناول طعام العشاء في مطعم مورتيمر في ليلة عودتنا إلى نيويورك. وظلت تُردِّد «لقد سئمت التردُّد على مطعم مورتيمر، إلا نذهب إلى مكان آخر؟»، وطبعاً لم تقُل إلى أين»

قال توم «طبعاً هي لا تستطيع ذلك، لأنها لم ترَ داخل أيَّ مطعم آخر منذ خمسة عشر عاماً»

كرَّر بالانتاين، بسخطٍ مشوبٌ بقدر من الفخر لأنه تزوج من مثل تلك المرأة الأصيلة، «سئمت التردُّد على مطعم مورتيمر».

وصل الكركند، وبعض السلمون المُدخَّن، وسلطة السلطعون، والمشروب. رفعَ باتريك المشروب بنهم إلى شفتيه ومن ثم تجمّدَ، لدى سماعه خوار هستيري لبقرة، مرتفع كأنه صادر عن مسلخ داخل السائل الموحِل في كأسه

تمتمَ، وهو يجرع جرعة كبيرة، «اللعنة»

سرعان ما كوفئ تحدّيه بصورة خياليّة رأى فيها حافر حيوان يُحاول أنْ يشق طريقه إلى خارج بطنه. تذكّرَ، وهو في الثامنة عشرة، أنّه كتبَ رسالة لأبيه من جناح الأمراض النفسيّة، مُحاولاً فيها شرح أسباب وجوده هناك، ومن ثم تلقّى رسالة قصيرة ردَّ فيها على ذلك، مكتوبة بالإيطاليّة كان والده يعلم أنّه لا يفهمها، واتّضحَ، بعد القيام ببعض البحث، أنها مُقتَطَف من كتاب دانتي «*الجحيم*»: «فكِّر في هبوطك / أنتَ لم تُخلّق لتعيش بين الحيوانات / بل لكي تسعى وراء الفضيلة والمعرفة». وما بدا في حينه رداً سامياً بصورة مُحبِطة، فاجأه بإحساسٍ جديد بأنه وثيق الصِلة بالموضوع الآن بعد أنْ سمع الخوار، و شمَّ رائحة ماشية وشعر، أو خُيِّلَ إليه أنّه شعر، بضربة أخرى على الجدار الداخليّ لبطنه.

مع ازدياد سرعة نبضات قلبه من جديد ونَضْحِ موجة جديدة من العَرق من جلده، أدركَ باتريك أنّه سوف يتقيّأ.

قال، «عّذراً»، ونهضَ على عَجَل.

قال جورج «هل أنت بخير، يا عزيزي؟»

«أشعر بالغثيان»

«ربما ينبغي أنْ نُحضِر لك طبيباً»

قال بالانتاين «لدي أفضل طبيب في نيويورك. فقط اذكر له اسمي و...»

شعرَ بمذاق موجة من المرارة تنبع من معدته، فابتلعه بعناد وهرعَ، من

دون أنْ يُتاح له الوقت لكي يشكر بالانتاين على عرضِهِ اللطيف، خارجاً من قاعة الطعام.

على الدَّرَج أجبر باتريك مقدار ملء فم من القيء على النزول إلى جوفه، وكان قِوامه أكثر صلابة من المقدار الأول. كان الأوان يفوت. وموجة بعد أخرى من الغثيان تجيش في محتويات بطنه نحو فمه بسرعة أكبر. وشعر بالدوار، وزاغ بصره من دمع عينيه، وأخذَ يتلمّس طريقه على طول الرواق، مرتطماً بإحدى لوحات الصيد بشكلٍ منحرف بكتفه. ومع وصوله إلى ملاذ المراحيض الرخاميّ المنعش، كانت وجنتاه قد انتفختا كوجنتي نافخ بوق. وجد أحدُ أعضاء النادي، الذي كان يتأمّل نفسه بتلك الجديّة المُخصَّصة للمرايا، أنَّ إزعاج مُقاطعته العاديّة سرعان ما استُبدِلَ بذُعرِ كونهِ شديد القُرب من رجلٍ كان جليّاً أنّه موشكٌ على التقيُّؤ.

بعد أنْ يئسَ باتريك من بلوغ المرحاض، تقيَّأ في حوض المغسلة المجاور له، فاتحاً الصنبورين في الوقت نفسه.

قال العضو «يا يسوع، كان في استطاعتك أنْ تفعل هذا في المرحاض»

قال باتريك، «إنّه بعيد جداً»، وتقيَّأ للمرة الثانية.

كرّر الرجل «يا يسوع»، وهو يُغادر مُسرِعاً.

ميَّزَ باتريك آثار بقايا عشاء الليلة السابقة وعلِمَ، بعد أنْ أضحى بطنه فارغاً، أنّه سوف يلفظ تلك المرارة الصفراء الحامضة التي تُسيء إلى سُمعة التقيُّؤ.

لكي يُشجِّع الاختفاء الأسرع للقيء أخذ يُدير إصبعه في فتحة المغسلة ويزيد من تدفُّق الماء بيده الأخرى. وتاق إلى الفوز بخلوة أحد المراحيض قبل أنْ تنتابه نوبة غثيان أخرى. ترك الحوض الذي لم يُصبح بعد نظيفاً تماماً، شاعراً بالغثيان وبالحرّ، وأخذ يتمايل مقترباً من أحد مراحيض خشب الماهوغاني. لم يكد يتوفرّ له الوقت الكافي لإغلاق قفل الباب حتى مال فوق حوض المرحاض وبدأ يتشنَّج بلا طائل. وعجز عن التنفُّس أو الابتلاع، ووجد نفسه يُحاول أنْ يتقيَّأ باقتناع أشدّ مما فعل لكي يتجنَّب التقيّؤ قبل ذلك بضع دقائق.

حالما أوشكَ على الإغماء جرّاء فقدان الهواء نجحَ في استجماع كتلة من تلك المرارة الصفراء التي كان قد توقَّعَ جيشانها برعبٍ شديد.

أخذ يسبّ، منزلقاً على طول الجدار، «اللعنة على الجحيم». ومع تكرار فعله ذلك، لم يفقد زخمُ غثيانه مقدرتَه على إدهاشه.

أخذ يهتزّ من عزم اقترابه الشديد من الاختناق، وأشعل سيجارة ودخّنها من خلال القذارة المُرَّة اللزجة التي غلَّفَتْ فمه. وكان السؤال الآن، طبعاً، هو هل تعاطي بعض الهيروين سوف يُساعده على الهدوء.

الخطر يكمن في أنّه قد يتسبَّب له في المزيد من الغثيان.

مسح العرَق عن يديه، وفتح مُغلَّف الهيروين بحذرٍ شديد فوق حجره، وغمسَ إصبعه الصغير فيه، وتنشّقَ من خلال كلا منخريه. ولمّا لم يشعر في الحال بأيّة آثار سيئة، كرّر الجرعة.

أخيراً نال السكينة. أغمضَ عينيه وتنهَّد. أما الآخرون فليذهبوا إلى الجحيم. لن يعود إليهم. سوف يطوي جناحيه (تنشَّقَ مرّة أخرى) ويسترخي. إنَّ منزله هو حيث يستطيع أنْ يتناول المخدّر، وغالباً ما يكون مستنقع شخص غريب.

كان مُرهَقاً؛ إنّه في حاجة ماسّة إلى النوم. أنْ يحصل على قسطٍ من النوم. أنْ يطوي جناحيه. ولكن ماذا لو أنَّ جورج والآخرين أرسلوا شخصاً للبحث عنه وعثروا على الحوض الملوَّث بالقيء وأخذ يضرب باب المرحاض بقوة؟ ألن يحظى بالسلام، أو بمكان للراحة؟ طبعاً لن يحظى. يا له من سؤال عبثيّ.

- 11 -

قال باتريك للشاب الذي يرسم ابتسامة عريضة وصاحب الفكّ الكبير وكتلة من الشعر الكستنائي اللامع، «لقد جئتُ لكي آخذ رفات ديفيد ميلْروز»

قال بتأمُّل، وهو يُقلِّب صفحات سِجلٍّ كبيرٍ من الجلد، «السيد... ديفيد... ميلْروز»

مال باتريك عبر حافة المنضدة، الشبيهة بمنبر أرضيّ أكثر منها بطاولة مكتب، ورأى، بجوار السجلّ، دفتر تمارين رخيصاً مكتوب عليه «شبه ميّتْ». هذا هو الملفّ المطلوب؛ ويمكن أنْ تنطبق عليه المواصفات مباشرة.

هرب من نادي كي ووجد نفسه مُبتهجاً بصورة غريبة. وبعد أنْ قضى ساعة من الزمن في المراحيض، خرج منتعشاً لكنه عاجز عن مواجهة الآخرين. تسلَّل متجاوزاً حارس البوابة كمجرم، وانعطفَ بسرعة عند الزاوية إلى إحدى الحانات، ثم تابع طريقه إلى صالون العزاء. ولاحقاً سوف يُضطر إلى الاعتذار لجورج. سوف يكذب ويعتذر كما يفعل دائماً وأراد أنْ يفعل بعد أي اتّصال بأي مخلوق بشريّ.

قال موظف الاستقبال مُشرقاً، عندما عثر على الصفحة المطلوبة، «آه، نعم، السيد ديفيد ميلروز»

أعلنَ باتريك وهو يضرب الطاولة بطريقة مسرحيّة، «أنا لم آتِ إلى هنا لأمدحه، بل لأدفنه»

تلعثمَ موظف الاستقبال، «لتد - فنه؟ لقد حسبنا أنَّ ذلك الشخص سوف يُحرَق»

«كنتُ أتكلَّم مجازاً»

ردَّدَ الشاب «مجازاً، لكنه لم يطمئن. هل هذا يعني أنَّ الزبون سوف يُقاضيه أم لا؟»

سأله باتريك «أين الرماد؟»

قال موظف الاستقبال «سأحضره لك، يا سيدي»، ثم أضاف، ولم يعُد واثقاً من نفسه كما بدا في أول الأمر، «لقد أجرينا تخفيضاً مقابل العلبة»

قال باتريك «هذا صحيح. لا معنى لتبديد المال مقابل جرَّة. فالرماد سوف يُنثَر في كل الأحوال»

قال موظف الاستقبال بمرح متردِّد «صحيح»

ألقى نظرة جانبيّة وقام بسرعة بتعديل نبرة صوته. قال بصوت مُغرِّد عالي النبرة مُصطنَع ومُداهِن، «سوف أهتم بهذا الأمر في الحال، يا سيدي»، وانطلقَ على عَجَل نحو باب مُستتر بين ألواح الجدران.

نظر باتريك خلفه ليرى ما الذي أثار لهفته الجديدة، فرأى شخصاً طويل القامة تعرَّفَ عليه من دون أنْ يتمكن على الفور من وضعه في موقعه الدقيق.

قال ذلك الرجل شبه المألوف مازحاً «نحن في مجال يتطابق فيه العرض والطلب»

خلفه وقفَ مدير أصلع له شارب كان قد قادَ باتريك إلى جثمان والده في اليوم السابق. بدا كأنه يجفل ويبتسم في وقتٍ واحد.

قال الرجل الطويل، باستمتاع ظاهر، «لدينا المورد الذي لن ينضب أبداً»

رفع المدير حاجبيه ووجّه نظره نحو باتريك.

قال باتريك في نفسه، طبعاً، إنّه ذلك الرجل الشنيع الذي كان قد قابله في الطائرة.

همسَ إيرل هامر، وقد تعرَّفَ إلى باتريك ملروز «اللعنة، أعتقد ما زال أمامي شيء أتعلَّمه عن العلاقات العامة»، وهتفَ، عبر الردهة ذات الأرضيّة الرخام المُربّعة، «بوبي!»

قال باتريك «اسمي باتريك»

قهقه إيرل قائلاً، وقفز إلى جوار باتريك، «بادي! طبعاً. رقعة العين تلك

لم تكن مألوفة لديّ. ماذا ألمَّ بك على أي حال؟ أهي لكمة تلقّيتها على عينك من إحدى السيدات؟»

قال باتريك «إنه فقط التهاب بسيط، لا أستطيع أنْ أرى بشكل جيد بتلك العين»

قال إيرل «هذا شيء مؤسف حقاً. ولكن ماذا تفعل هنا؟ عندما أخبرتك ونحن في الطائرة أنني أنوِّع اهتماماتي العمليّة، أراهن على أنّكَ لم تُخمِّن أنني في سبيلي إلى امتلاك أول صالة مآتم في نيويورك»

اعترفَ باتريك «لم أُخمِّن هذا أبداً، ولا أعتقد أنكَ خمّنتَ أنني قادم لأتلقّى رُفات والدي من صالة مآتم نيويورك الأولى»

قال إيرل «اللعنة، يؤسفني أنْ أسمع هذا. أراهن على أنّه كان رجلاً ممتازاً»

قال باتريك «كان مثالياً في أسلوبه»

قال إيرل، بالرصانة السريعة التي ميَّزها باتريك من نقاشه حول آمال الآنسة هامر المعقودة في لعبة الكرة الطائرة، «تعازيّ»

عاد موظف الاستقبال مع صندوق خشبيّ بسيط بطول قَدَم واحد وارتفاع ثمانية بوصات.

علَّقَ باتريك «إنّه أشدّ متانة بكثير من التابوت، ألا تعتقد ذلك؟»

أجاب «لا ريب في ذلك»

سأل باتريك موظف الاستقبال، «هل لديكم حقيبة؟»

«حقيبة؟»

«نعم، حقيبة خفيفة، حقيبة من الورق البنيّ، من ذلك النوع»

«سأتحرّى عن هذا»

قال إيرل، كأنّه يُفكِّر قليلاً في الأمر، «بادي، أريد أنْ أُجري لك تخفيضاً بنسبة عشرة في المئة»

قال باتريك، بسرور حقيقيّ، «شكراً لك»

قال إيرل «عفواً»

عاد موظف الاستقبال مع كيس من الورق البنيّ كان مُجعّداً أصلاً، وتخيّلَ أنّه اضطر إلى إفراغه من البقاليّة على عَجَل لكيلا يخذل مُستخدمه.

قال باتريك «عظيم»

سأل إيرل «هل نتقاضى ثمناً لهذه الحقائب؟»، ومن ثم، وقبل أنْ يتمكّن موظف الاستقبال من إعطاء جواب، أضاف «لأنَّ هذه الحقيبة على حسابي»

«إيرل، لا أدري ماذا أقول»

قال إيرل «لا شيء يستحق الذكر. الآن لديّ اجتماع، ولكن سوف يُشرّفني أنْ تشاركني شرب كأس لاحقاً»

سأل باتريك، رافعاً الحقيبة، «هل أستطيع أنْ أُحضِر والدي معي؟»

قال إيرل، ضاحكاً، «طبعاً»

«ولكن، جديّاً، أخشى أنني لا أستطيع ذلك. سوف أخرج لتناول العشاء هذه الليلة ثم ينبغي أنْ أطير عائداً إلى إنكلترا غداً»

«هذا شيء مؤسف حقاً»

قال باتريك مع ابتسامة باهتة، وهو يتوجه مُسرعاً نحو الباب، «حسن، إنها خسارة كبرى لي»

قال إيرل، مع تلويح كبير باليد، «وداعاً، يا صديقي القديم»

قال باتريك، وهو يرفع طرف ياقة معطفه قبل أنْ يُغامِر بالغوص في شارع ساعة الذروة، «وداعاً مؤقّتاً»

في الردهة المصقولة باللكّ الأسود، قبالة أبواب المصاعد المفتوحة، حدَّقَ قِناعٌ إفريقيّ من الطاولة المُثبّتة إلى الجدار ذات السطح الرخاميّ. ومنحت المرآة الإنكليزيّة ذات شكل قفص الطيور المُذهَّب فرصةً أخيرة ليُلقي نظرة رعب إلى الوجه الذي يبدو سقيماً بصورة لا تُصدَّق قبل الالتفات نحو السيدة بانكس، والدة ماريان النحيلة، التي وقفتْ كمصَّاص الدماء وسط الكآبة الأنيقة.

فتحت ذراعيها بحيث انتشر ثوبها الحرير الأسود من رسغيها وحتى رُكبتيها، كجناحَي خفّاش، ومدّتْ رأسها قليلاً جانباً، وهتفتْ بتعاطُف متوجِّع، «أوه، باتريك، نحن غاية في الأسى لسماعنا النبأ»

قال باتريك، وهو يربت على الصندوق الذي يتأبّط تحت ذراعه، «حسن،

أنتِ تعرفين كيف يكون الوضع: من الرماد وإلى الرماد، من التراب وإلى التراب. ما يُعطيه الرب يأخذه الرب. بعد كل ما أعتبره، في هذه الحالة، تأخيراً طويلاً جداً»

سألتْ السيدة بانكس، وهي تحدِّق بعينين جاحظتين إلى كيس الورق البنيّ، «أهذا هو...؟ »

أكّدَ باتريك «والدي»

قالت مع ضحك يُشبه اللآلئ الأنيقة، «يجب أنْ أُخبر أوغيلفي بأنَّ لدينا ضيفاً إضافياً على مائدة العشاء». كانت نانسي بانكس تهيمن على كل شيء، كما كانت المجلات تشير غالباً بعد إظهار صور فوتوغرافيّة لغرفة جلوسها، بجرأة شديدة ولكن عن *استحقاق*.

قال باتريك، وهو يضع الصندوق بحزم على طاولة الردهة، «إنَّ بانكو لا يأكل اللحم»

تساءلتْ نانسي، بصوتها الداخليّ الأجشّ الذي خُلِقَ، حتى في أعماق حميميّة أفكارها، لمُخاطبة جمهورٍ مفتون كبير، «لماذا قال بانكو؟». هل يشعر، بطريقة مجنونة، بأنه مسؤول عن وفاة والده؟ لأنه غالباً ما تمنّاها في مخيلته؟ يا الله، كم أضحتْ بارعة في هذا بعد سبعة عشرة عاماً من التحليل. فقبل كل شيء، وكما قال الدكتور موريس في معرِض حديثهما عن علاقتهما، ما المُحلّل النفسيّ إلّا مريضٌ سابق لم يستطع أنْ يفكِّر في أي عمل أفضل يمكن أنْ يقوم به؟ في وقتٍ من الأوقات اشتاقتْ إلى جيفري. وسمحَ لها بالاتصال به خلال «عمليّة التحرُّر» التي انتهتْ بسرعة بانتحاره. من دون حتى أنْ يترك رسالة قصيرة! هل كانت حقاً تواجه تحديات الحياة، كما كان جيفري قد وعدها؟ ربما كانت عملية «تحليلها النفسيّ ناقصة». كان التفكير في هذا مُرعباً.

تمتمت بلهجة تعزية وهي تقود باتريك إلى غرفة الجلوس الخالية «إنَّ ماريان شديدة الشوق إلى رؤيتك». حدَّقَ إلى طاولة الكتابة ذات الطراز الباروكيّ بملاءتها المُنمَّقة.

ثم أضافتْ «في لحظة وصولك تلقَّتْ مكالمة هاتفيّة ولم تتمكَّن من تفادي الردّ عليها»

قال باتريك «لدينا الأمسية كلّها...». وأضافَ في نفسه بتفاؤل، وطوال الليل أيضاً. كانت غرفة الجلوس بحراً من أزهار الليلك القرنفليّة، ومِدقّاتها[1] المشعة تتّهمه بالشبق، كان ممسوساً بصورة خطِرة، ممسوساً بدرجة خطرة. وأفكاره، كمزلجة تكتنفها جدران من الثلوج، لا تُغيِّر مسارها إلى أنْ يتحطَّم أو يبلغ خط النهاية. جفَّفَ يديه المُبلَّلتين بالعَرَق على بنطلونه، وهو مذهول لعثوره على شيء يشغله أقوى من مفعول المخدرات. هتفَتْ نانسي «آه، ها هو إدي»

ولجَ السيد بانكس الغرفة مرتدياً قميصاً ذا مربعات وبنطلوناً فضفاضاً. قال بكلامه السريع والمبهم قليلاً، «مرحباً، يؤثفني كثيراً أنْ أثمع[2] عن وفاة والدك. تقول ماريان إنه كان رجلاً رائعاً»

قال باتريك «كان ينبغي أنْ تسمع التعليقات»

سألتْ نانسي مُشجِّعة «هل كانت صِلاتك به صعبة؟»

أجاب باتريك «نعم»

سأل إيدي، وهو يستقرّ على المخمل البرتقالي باهت اللون للأريكة مقوّسة السيقان، «متى بدأ الاضطراب؟»

«أوه، في التاسع من حزيران، الساعة السابعة وست دقائق مساءً، في يوم مولده»

ابتسمَتْ نانسي، «هكذا سريعاً؟»

«حسن، نحن لن نحلّ مشكلة ما إذا كانت مشكلاته خِلقيّة أم لا، على الأقل ليس قبل العشاء؛ ولكن حتى إذا لم تكن كذلك، فسرعان ما اكتسبها. وحسب معلوماتنا، حالما بدأ يُحسن الكلام كرَّسَ مهاراته الجديدة كلّها لإيذاء الناس. ومع بلوغه سن العاشرة حُرِمَ من دخول منزل جدّه لأنه كان يؤلِّب الناس بعضهم ضد بعض، ويتسبَّب في وقوع الحوادث، ويُجبِر الناس على القيام بما يكرهون فعله»

قالت نانسي بارتياب «إنكَ تجعله يبدو شريراً بأسلوب عتيق الطراز. ذلك الطفل الشيطان»

1- مِدقّات؛ جمع مِدقَّة: العضو الأنثوي في النبات - المترجم.
2- من المُفترَض أنّه كان يلفظ بعد الأحرف والكلمات بطريقة مُشوَّهة - المترجم.

قال باتريك، «إنها وِجهة نظر. عندما كان يحضر، كان الناس دائماً يتساقطون عن الصخور، أو يغرقون، أو ينفجرون بالبكاء. كانت حياته تتألَّف من اكتساب المزيد والمزيد من ضحايا ضغينته ومن ثم يخسرها من جديد»

قالت نانسي «لا بُدَّ أنّه كان ساحراً أيضاً»

قال باتريك «كان قطة صغيرة أليفة»

سأل إيدي «ولكن ألن نقول الآن إنه كان مجرد شخص مُضطرب؟»

«وماذا إنْ كان كذلك؟ عندما يكون الأثر الذي يُحدِثه شخص مُدمِّراً بقدرٍ كافٍ يُصبح السبب فضولاً نظريّاً. هناك بعض الأشرار جداً في العالم ومن المؤسِف أنْ يكون أحدهم هو والدك»

«لا أعتقد أنَّ الناس في هذه الأيام يعرفون الكثير عن أسلوب تربية الأطفال. وفي جيل والدك كان هناك الكثير من الآباء لا يعرفون كيف يُعبّرون عن حبّهم»

قال باتريك «إنَّ القسوة هي نقيض الحب، وليست مجرد نسخة غير مُعبَّر عنها عنه»

قال صوتٌ أجشرُ صادرٌ عن ممر الباب «هذا الكلام صحيح»

قال باتريك، وهو يدور حول نفسه على كرسيه، وقد شعر فجأة بالخجل في حضور ماريان، «أوه، مرحباً»

انسابتْ ماريان في اتجاهه خلال غرفة الجلوس المُعتِمة، وألواح خشب الأرضيّة تصرّ تحت قدميها، وجسمها يميل إلى الأمام بزاوية خطرة كشكل الرأس الموضوع على مقدّمة سفينة.

نهضَ باتريك وطوّقها بذراعيه بنهم ويأس.

قالت، تعانقه بحرارة، «هيه، باتريك»، وكرّرت مُهدِّئة عندما بدا عليه التردُّد في الانطلاق، «هيه، أنا شديدة الأسف. آسفة حقاً، حقاً»

قال باتريك في نفسه، أوه، يا إلهي، هنا أُريدُ أنْ أُدفَن.

لثغَ إيدي «كنا فقط نتحدث عن كيف أنَّ الآباء لا يعرفون أحياناً كيف يُعبِّرون عن حبّهم»

قالت ماريان مع ابتسامة ظريفة «في الواقع، أعتقد أنني أنا لا أعرف كيف أعبِّر»

مشتْ، وظهرها منحنٍ كظهر امرأة زنجيّة، نحو صينية المشروبات برشاقة خرقاء ومتردِّدة، وكأنها حوريّة بحر زُوِّدَتْ مؤخّراً بساقين إنسانيتين، وانتقت كأساً من الشمبانيا.

تلعثمتْ، وهي تشرئب بعنقها إلى الأمام مع قليل من التجهُّم، وكأنَّ السؤال قد يحتوي أعماقاً مُستترة، «هل يرغب أحدٌ في كأس من هذا؟»

رفضَت نانسي. وفضَّلَتْ الكوكايين. ومهما قيل عن الكوكايين، فهو لا يتسبَّب في السُّمنة. وقبِلَ إدي العَرض وقال باتريك إنه يريد الويسكي.

قالت نانسي لكي تحثّ الحديث قليلاً، «إنَّ إدي لم يستطع أنْ يتجاوز محنة وفاة والده هو»

شرحَ إيدي قائلاً، وهو يبتسم لماريان بينما كانت تناوله كأس الشمبانيا، «أنا لم أُعبِّر أبداً لوالدي عن مشاعري»

قال باتريك «ولا أنا. ربما حالتك تشبه حالتي»

قالت ماريان، وهي تنظر إليه بإمعان بعينيها الزرقاوين القاتمتين، «ماذا كنتَ ستقول له؟»

«كنتُ سأقول... لا أستطيع أنْ أقول... كان باتريك مرتبكاً ومنزعجاً لأنه تناول السؤال بجديّة، وغمغم: لا يهمّ»، وصبَّ لنفسه بعض الويسكي.

رأتْ نانسي أنَّ باتريك لم يكن يبذل مجهوداً كافياً للانخراط في الحديث.

تنهّدتْ. «لقد أفسدوا حياتك. لم يقصدوا أنْ يفعلوا ذلك لكنهم فعلوا»

دمدم باتريك «مَنْ قال إنهم لم يقصدوا؟»

قالت نانسي، مع ضحك قصير مُقتضَب «فيليب لاركن[1]»

سأل باتريك إيدي بتهذيب «ولكن ما الذي في والدك لا تستطيع تجاوزه؟»

«كان بالنسبة إليّ بطلاً. كان دائماً يعرف ما ينبغي أنْ يفعل في وضعٍ معيَّن، أو على الأقلّ ما كان يريد أنْ يفعل. كان يعرف كيف يتعامل مع النقود ومع

1- فيليب لاركن: شاعر إنكليزي (1922-1985) - المترجم.

النساء؛ وعندما كان تعْلَقْ سمكة راموح وزنها ثلاثمائة رطل في صنارته، كانت السمكة دائماً تخسر. وعندما يتقدَّم لشراء لوحة فنيّة في مزاد، يحصل عليها».

قالتْ نانسي مازحة «وعندما كنتَ ترغب *أنت* في بيعها من جديد كنتَ دائماً تنجح»

تلعثمت ماريان قائلة لوالدها «حسن، أنتَ بطلي *أنا*، ولا أريد أنْ أتجاوز هذا»

قال باتريك في نفسه، ما الذي يفعله أولئك الناس طوال يومهم، بحق الجحيم اللعين، أيكتبون سيناريوهات لحلقات المسلسل التلفزيونيّ *The Brady Bunch?* إنّه يكره العائلات السعيدة بتشجيعها المشترك، واستعراضها لعواطفها، والانطباع التي تُعطيه بأنَّ أفرادها يُقدّر أحدهم الآخر أكثر من تقديرهم للآخرين. كان شيئاً مُقزّزاً بكل معنى الكلمة.

سأل باتريك ماريان بسرعة «هل سنخرج معاً لتناول العشاء؟»

ابتلعتْ لعابها، وتعبير متجهم صغير يُخيِّم على وجهها، قالت «يمكننا تناول العشاء هنا»

أصرَّ «هل سيكون خروجنا أمراً فظاً إلى درجة مريعة؟ أحبّ أنْ نتحدث»

كان الجواب بكلِ وضوح هو نعم سوف يكون فظاً، بالنسبة إلى نانسي. كانت كونسويلا تُعدُّ السكالوب في تلك اللحظة. ولكن في الحياة، كما في عالم الترفيه، على المرء أنْ يكون مرناً ورشيقاً، وفي هذه الحالة، يجب أنْ يضعوا في الحسبان مُصيبة باتريك. كان من الصعب ألّا تشعر بالمهانة بالتلميح إلى أنها تعاملت مع الأمر بصورة سيئة، إلى أنْ اعتبر أحدهم أنَّ حالته العقليّة شبيهة بالجنون المؤقّتْ.

همهمت «طبعاً لا»

سألَ باتريك «إلى أين سنذهب؟»

اقترحتْ ماريان «آه... هناك مطعم أرمنيّ صغير أحبّه جداً جداً»

كرّر باتريك بشكل مباشر «مطعم أرمنيّ صغير»

ابتلعت ماريان جرعتها وقالتْ «إنه عظيم جداً».

- 12 -

تحت قبّة السماء اللازورديّة المُنقّطة بنجوم ذهبيّة كليلة قرأت ماريان وباتريك، في مقصورة من المخمل الأزرق خاصّة بهما، لائحة طعام مطعم شواء بيزنطة المكسّوة بالبلاستيك. اهتزَّ الهدير المكتوم للقطار النفقيّ تحت الأقدام والمياه واهتزَّتْ قطع الثلج، التي دائماً تصل بوفرة وبسرعة كبيرة، داخل الكؤوس الكبيرة المُضلّعة. قال باتريك في نفسه، كل شيء يهتزّ، والجُزيئات ترقص على سطح الطاولة. والإلكترونات تدوِّم، والإشارات وأمواج الصوت تتحرَك داخل خلاياه، خلايا تخفق بالموسيقى الريفيّة وإذاعات الشرطة، وسيارات نقل القمامة الهادرة والزجاجات المُبعثرة؛ وجمجمته تهتز كجدار يُثقَب، وكل إحساس يلسع كالصلصة الحريفة لحمَه الرقيق الشاحب.

رفسَ نادلٌ عابر صندوق رماد باتريك، فتلفّتَ حوله واعتذر. رفضَ باتريك عَرضَه بأنْ «يتفقّد الصندوق بالنيابة عنه» وزلقه أكثر بقدمه تحت الطاولة.

ينبغي على الموت أنْ يُعبِّر عن الكيان الأعمق لا أنْ يُمثّل المناسبة من أجل أداء دور جديد. مَنْ قال هذا؟ إنّه رعب النسيان. ومع ذلك ها هو نادل يرفس والده. إنّه دورٌ جديد، دور جديد بكل معنى الكلمة.

لعلّ جسد ماريان يُمكّنه من نسيان جثمان والده، لعلّه يحتوي نقطة ارتباط يتبادل عندها هوسه بموت والده وموته هو مساريهما ويندفع ذلك الجسد بعنف نحو غايته الجنسيّة الجديدة بكل حماسته المَرَضيّة القديمة. ماذا ينبغي أنْ يقول؟ ماذا في وسعه أنْ يقول؟

قال باتريك في نفسه، وهو يتظاهر بقراءة لائحة الطعام لكنَّ عينيه كانتا

مُثبّتين على المخمل الأخضر الذي بالكاد يضمّ ثديَي ماريان، إنَّ الملائكة، طبعاً، يمارسون الجنس من دون إعاقة طَرَف أو مِفْصَل، ولكن وسط ذروة إحباط ممارسة الجنس الإنسانيّة، فإنَّ الاستبدال الذي يُثير السخط للدغدغة بالالتحام، والدافع المتجدد دائماً لتجاوز مصبّ النهر إلى البحيرة الهادئة حيث يتمُّ الحبلُ بنا، سيكون هناك تعبيرٌ وافٍ عن فشل الكلمات لشرح الفوضى والكثافة اللتين شعر بهما إبّان وفاة والده.

ثم إنَّ عدم نكاحه لماريان كان أشبه بقراءة «*الإلياذة*» - كان شيئاً آخر ينوي أنْ يقوم به منذ وقت طويل.

أصبحت حاجته إلى أنْ يُفهَم، ككُمٍّ علِقَ في آلةٍ عنيدة صمّاء، تكمنُ في جسدها المُبارِك ولكنْ اللامبالي بصورة خطرة. سوف يُجرّ خلال هوسٍ ساحق ويلفظ الطرف الآخر بعيداً عن اضطراب نبضها أو عن أفكارها المتنقّلة بين دروبها المُختارة.

وبدل أنْ يُنقذه جسدُها من جثمان والده، سوف تتضافر أسرارهما؛ لقد تشكّل نصف أُفُقِهِ من شَفَته المجروحة، والنصف الآخر بشفتيها المُحكمتين. وهذا الأفق المتقلِّب، الشبيه بمسقط ماء يُطوّقه، سوف يُبعِده عن الأمان، وكأنه يقفُ فوق عمودٍ ضيِّق من الصخر يُراقبُ المياه الجارفة تكتنفه بنعومة، وتبدو ساكنة وهي تتحول إلى مسقط، تنهمر في كل مكان.

قالت ماريان في نفسها، يا إلهي، لماذا وافقتْ على تناول العشاء مع هذا الرجل؟ إنّه يقرأ لائحة الطعام وكأنّه يُحدِّقُ إلى وهدٍ من جسرٍ مرتفع. إنها لا تتحمل طرح سؤالٍ آخر عليه حول والده، ولكن يبدو من الخطأ دفعه إلى الكلام عن أمرٍ آخر.

يمكن للأمسية برمّتها أنْ تتحول إلى عائق كبير. يكفي الفتاة أنْ تشعر بالذنب لكونها تتّصفُ بجاذبيّة طاغية. لقد حاولتْ أنْ تتجنّبَ هذا، ولكنها بدّدتْ قدراً كبيراً من حياتها في الجلوس قبالة رجال خجولين لا تتقاسم معهم أي شيء، وعيونهم تحترَق من شدّة الشعور بالخزي، والحديث طويل وجامد وتفه، وكأنه استُمِدَّ من ماضٍ سحيق جداً داخل الثلاجة، كشيءٍ لا بُدَّ أنَّ المرء أُصيبَ بالجنون حتى يستحضره أصلاً.

أوراق الكرمة والحمّص، ولحم الغنم المشويّ، والأرز، ونبيذ أحمر.

على الأقل تستطيع أنْ تأكل. إنَّ الطعام هنا جيد حقاً. لقد أحضرها سايمون إلى هنا أولاً. إنّه موهوب في العثور على أفضل المطاعم الأرمنيّة في أيّة مدينة في العالم. إنَّ سايمون شديد البراعة. لقد كتبَ قصائد عن طيور التم وعن الثلج والنجوم، ومعرفة ما حاول أنْ يقول أمر صعب، لأنها قصائد غير مباشرة من دون أنْ تكون موحيّة كثيراً. لكنّه عبقريّ في اللباقة الاجتماعيّة، خاصة في مجال المطاعم الأرمنيّة. وذات يوم قال سايمون لها بلكنة بروكلن خفيفة، «إنَّ لدى بعض الناس انفعالات معيَّنة. ليست موجودة عندي»، هكذا ببساطة. لا طيور تمّ، لا ثلج، لا نجوم، لا شيء.

كانا قد مارسا الجنس مرة واحدة وحاولتْ أنْ تستوعب جوهر عبقريته المراوغة، الوقحة، ولكن بعد الانتهاء ذهبَ إلى الحمّام لكي يكتب قصيدة، واستلقَتْ هي على السرير شاعرة كأنها بجعة سابقة. وطبعاً إرادة تغيير الناس شيء خاطئ، ولكن أيّ شيء آخر يمكن أنْ ترغب في فعله معهم؟

أثار باتريك حماساً إصلاحيّاً شبيهاً بالقصف الأرضيّ، تينك العينان الضيقتان والشفتان المتموجتان، وذلك الأسلوب العِدائيّ الذي قوَّسَ به حاجبيه، والوضعيّة المنحنية شبه الجنينيّة، وميلودراما حياته الحمقاء المُدمِّرة للذات - أيٌّ من هذه الأشياء لا يمكن التخلُّص منه بسعادة؟ ولكن ماذا سيتبقّى إذا رميت المادة المتعفّنة؟ كأنك تحاول أنْ تتخيَّل خبزاً من دون عجين.

ها هو، يتأمّلها بشبق من جديد. بالثوب المخمل الأخضر الذي يُحقِّقُ نجاحاً ساحقاً بكل وضوح. كان التفكير في ديبي يُغضِبها، ديبي الرثّة والعاشقة بجنون لهذا المخلوق القذر والمُقرِف (كانت ماريان قد ارتكبتْ خطأً نعتِهِ في البداية بالـ«الضلال المؤقَّت»، لكنَّ ديبي غفَرَتْ لها الآن بعد أنْ تمنَّتْ لو أنَّ ذلك صحيح)، التفكير في ديبي التي كوفئت بهذه الخيانة المُدَّعية، وهي بلا أدنى شك شيء معروف على نطاق واسع كمعرفة شهيّته التي لا تشبع إلى المخدرات.

إنَّ المشكلة في القيام بأمر لا تحبّه هو أنّه يجعلك تعي كل الأشياء الأخرى التي ينبغي أنْ تقوم بها بدلاً عنه. حتى ارتياد دور السينما لحضور العروض الأولى بعد الظهر فشل في إثارة الإحساس بالإلحاح الشديد الذي شعرت به

الآن. الصور التي لم تُلتقَط، ونداء الغرفة المُظلِمة، ووخز رسائل الشكر التي لم تُكتَب وجعلتها حتى الآن بعيدة عن الاضطراب، هذا كلّه احتشدَ وأضفى سِمة أكثر حماساً على الحديث الذي كانت تُجريه مع باتريك.

أحياناً كانت ترغب، هي المُتَّهمة بعادة رفض الرجال، (خاصة في هذه الليلة)، في ألّا تُثير انفعالات تعجز عن إرضائها. وطبعاً كان هناك جزء *ضئيل* منها أراد أنْ يُنقِذ أولئك الرجال، أو على الأقلّ يمنعهم من المحاولة بإلحاح.

كان على باتريك أنْ يعترف بأنَّ الحديث يتطوّر تطوّراً سيئاً. كان كلما رمى حبلاً إلى جانب الرصيف ينزلق عائداً ثقيلاً إلى المرفأ القذر. وقد تعطيه ظهرها، ولكن لا شيء كان يُثيره أكثر من أنْ تُدير ظهرها له. كانت كل استغاثة خرساء، مُستترة بلغة مبتذلة بأشدّ ما يمكن تخيّله، تجعله يعي مدى ضآلة تجربته في قول ما يعني. لو كان في استطاعته أنْ يُكلِّمها بصوتٍ آخر، أو بانتباه آخر - لكي يخدعها أو يسخر منها، على سبيل المثال - لاستيقظَ من هذا الكابوس الأخرس.

وصلت القهوة، كثيفة، مع سكر ومن دونه. كان الوقت ينفد. ألا ترى هي ما الذي يجري؟ ألا تقرأ ما بين السطور؟ وماذا لو أنها تقرأ؟ ربما تحبّ أنْ تراه يُعاني. ربما لا تحبّ حتى هذه الصِفة فيه.

تثاءبتْ ماريان واشتكتْ من التعب. قال باتريك في نفسه ساخراً، عند هذه النقطة كل الدلائل تبدو جيدة. إنها تذوب شوقاً للممارسة، *تذوب* شوقاً. نعم يعني نعم، وربما يعني نعم، ولعلّ يعني نعم، وطبعاً كلا يعني نعم أيضاً. كان يعرف كيف يقرأ دخيلة النساء كأنهن كتاب مفتوح.

في الخارج وهما في الشارع، قبّلته ماريان قبلة الوداع، وحمّلته حبّها لديبي، ثم استقلّتْ سيارة أجرة.

اندفع باتريك مسرعاً على جادة ماديسون متأبِطاً والده. كان كيس الورق البُنّي يرتطم أحياناً بأحد المارّة الغافلين الذين لا يبتعدون عن الدرب.

مع وصوله إلى الشارع الواحد والستين، أدركَ باتريك أنها المرة الأولى التي ينفرد فيها بوالده منذ أكثر من عشر دقائق من دون أنْ يتعرَّض للاغتصاب، أو للضرب، أو للإهانة. لقد اضطرَّ الرجل المسكين أنْ يقتصر على توجيه

الضربات والإهانات على مدى السنوات الأربع وعشرين الأخيرة، وعلى توجيه الإهانات على مدى السنوات الست الأخيرة.

إنَّ مأساة التقدُّم في السن تكمنُ في أنْ يُصبح الرجل من الضَّعف بحيث يعجز عن ضرب ابنه. ولا عَجَب أنّه مات. حتى فظاظته كانت تقترب من نهايتها، وقد أُجبِرَ على إضفاء نبرة رثاء ذات كريهة لمواجهة أيّ هجوم مُضاد.

زمجر باتريك، وهو يمرّ بحارس باب الفندق، «إنَّ مشكلتك هي أنني لستُ مريضاً عقلياً»

غمغمَ، وهو يهزّ حبوب مرض قلبٍ وهميّة داخل راحة يد مضمومة وملتوية، «لا ينبغي أنْ تقول مثل هذه الأشياء لوالدك العجوز المسكين»

ابن الحرام. لا يجوز أنْ يفعل هذا أي شخص لأي شخصٍ آخر.

لا تأبه، لا تُخبر أحداً.

كُفَّ عن التفكير فيه في الحال.

قال باتريك بصوت مرتفع «في الحال»

موت ودمار. أبنية تبتلعها النيران في أثناء مروره. نوافذ تتهشَّم في لمح البصر. وصراخ أخرس يكاد يمزّق الأوداج. لا سجناء.

تمتم «موت ودمار». يا يسوع، لقد أصبحَ قلقاً حقاً الآن، ***قلقاً جداً جداً***.

تخيَّلَ باتريك منشار سلسلة ينزلق خلال عنق عامل المصعد. موجة بعد موجة من الخزي والعنف، خزي وعنف لا يمكن السيطرة عليهما.

إذا أهانكَ رأسك، اقطعه. احرقه وطأه حتى يغدو رماداً. لا سجناء، لا شفقة. خيمة تيمورلنك السوداء. لونيَ المُفضَّل! إنه أنيق جداً.

«أي طابق، يا سيدي؟»

إلَامَ تُحدِّق، يا ذا الوجه القذر؟

«التاسع والثلاثين»

خطوات. تداعي أفكار غزيرة سرعة فائقة، تسكين الألم. مِبضَع. مدَّ باتريك يده. المُخدِّر أولاً، حقاً، يا دكتور؟

حقاً: كلمة يستخدمها رجل بلا حجّة. المِبضع أولاً، والمخدّر، تالياً. أسلوب الدكتور موت. أنت تعلم أنّه منطقيّ.

مَنْ هو صاحب فكرة وضعه في الطابق التاسع والثلاثين؟ ماذا كانوا يُحاولون أنْ يفعلوا؟ أنْ يدفعوه إلى حافة الجنون؟ اختبئ تحت الأريكة. يجب أنْ تختبئ تحت الأريكة.

لا أحد يستطيع أنْ يعثر عليّ هناك. ماذا لو أنَّ أحداً لم يعثر عليّ هناك؟ ماذا لو أنهم فعلوا ذلك؟

اندفعَ باتريك إلى داخل الغرفة، وأسقطَ كيس الورق البنيّ، وارتمى على الأرض. وتدحرجَ باتجاه الأريكة، واستلقى على ظهره، وحاولَ أنْ يتسلَّل تحت حافة الأريكة.

ماذا يفعل؟ إنّه ينجرف نحو الجنون. لم يعُد يستطيع أنْ يندسّ تحت الأريكة. أصبح الآن ضخماً جداً. ستة أقدام وإنشين. لم يعد طفلاً؟

اللعنة على هذا. رفعَ الأريكة في الهواء ودسَّ جسمه تحتها، وأخفضها من جديد على صدره.

تمدَّد هناك وهو بمعطفه ورقعة عينه، والأريكة تغطّيه حتى عنقه، كأنها تابوت صُمِّمَ لتتلاءم مع رجل أضأل حجماً.

الدكتور موت: «هذا هو نوع الحوادث التي نأمل في تفاديه. مبضع، مُخدِّر» ومدَّ باتريك يده.

ليس هذا من جديد. بسرعة، بسرعة، جرعة من المُخدِّر.

المزيد من أقراص المُخدِّر يجب إذابتها داخل معدته. هناك تفسير لكل شيء.

«ليس هناك في العالم صندوق قمامة لا يقبل أنْ يستقبلك مجاناً» وتنهّدَ بصوت قيِّم مستشفى حنون لكنه كاذب، وهو يتلوّى خارجاً من تحت الأريكة وينهض ببطء على رُكبتيه.

خلع معطفه الذي كان عندئذٍ قد أضحى مُجعّداً ومُغطّى بالزغب وزحفَ باتجاه صندوق الرماد على أربع، وهو يُراقبه بعناية وكأنه يمكن أنْ يقفز.

كيف يمكن أنْ يدخل إلى الصندوق؟ يدخلَ إلى الصندوق، ويُخرِج الرماد ويُفرِغه في المرحاض. وأي مكان آخر للراحة يناسِبُ والده أكثر من مجاري مدينة نيويورك، بين الحياة البريّة الشاحبة وأطنان البراز؟

تفحَّصَ خشب الصنوبر المائل بحثاً عن فجوة أو لولب يتمكّن من خلاله أنْ يفتح الصندوق، لكنه لم يعثر إلا على صفيحة رقيقة من الذهب مثبّتة على القاعدة من دون خط التحام بينهما مُغلَّفة بكيس بلاستيك صغير.

قفز باتريك، ملؤه الحنق والإحباط، واقفاً على قدميه وأخذ يقفز إلى أعلى وإلى أسفل على الصندوق. لقد كان مصنوعاً من أمتن ما يمكن تصوّره من أنواع الخشب ومن دون إصدار أي صرير. هل يأمر بإحضار منشار سلسلة من غرفة الخدمات؟ وتذكَّر أنّه لم يُذكَر أي شيء عن هذا على لائحة الطعام.

هل يرمي الصندوق من النافذة ويراقبه وهو يتهشَّم على أرض الرصيف؟ قد يتسبَّب بقتل أحدهم من دون أنْ يتأثّر الصندوق نفسه.

قام باتريك بمحاولة أخيرة برفس الصندوق المنيع عبر الأرضيّة، فارتطمَ بسلّة المهملات الورقيّة المعدنيّة وأصدر رنيناً أجوف ثم استقرّ.

أعدَّ باتريك عمليّة حقن الهيروين ونفّذها بنعومة وفعاليّة مُثيرتين للإعجاب. وأغمضَ جفنيه. ثم فتحهما نصف فتحة من جديد، شاعراً بالسكينة والخمول.

ليت العمليّة تكون دائماً هكذا، كهدوء الضربة الافتتاحيّة[1]. ولكن حتى وسط هذه السكينة الكاريبيّة الحسّية كان هناك الكثير من الأشجار المكسورة والأسقف المقشورة بحيث لا يتبقّى له وقت للراحة. كان هناك دائماً جدال ينبغي الفوز فيه، أو شعور ينبغي مكافحته. ألقى نظرة على الصندوق. لاحِظْ كل شيء. فكِّر دائماً في نفسك. لا تدع الآخرين يتخذون قرارات مهمّة بالنيابة عنك.

أخذ باتريك يهرش نفسه بكسل. حسن، على الأقلّ هو لا يُبدي الكثير من الاهتمام،

1- الإشارة هنا إلى لعبة البيسبول

- 13 -

حاول باتريك أنْ ينام، لكنَّ آثار بقايا المُخدِّر كانت لا تزال تؤثِّر على وعيه وتدفعه قُدُماً. عركَ عينيه لا إرادياً، ممسوساً بالتهاب الجفن الذي كان يدغدِغُ مُقلته مع كل رفّة جفن. والهلام الذي قدّموه له في الصيدليّة كان طبعاً بلا أيّة فائدة. ومع ذلك، عَصرَ كمية كبيرة منه في عينه فغشيَ بصره كأنه عدسة تصوير يكسوها الشحم. وكانت رقعة العين قد تركت انبعاجاً على شكلٍ منحرف عبر جبينه، ولم يكفّ عن عرك عينه لكي يهرش الانبعاج بالهيجان اليائس نفسه. أراد أنْ يهرش عينه حتى ينزعها ويكشط وجهه لكي يقضي على الحكاك الفظيع الذي تسبَّبَت به محاولته الفاشلة في النوم، لكنه علِمَ أنَّ هذا فقط العبث السطحيّ لقلقٍ أعمق: مسحوق الحكاك في أول كأسين من المشروب، ووجوه ضاحكة حول سرير المستشفى الخفيف.

نهضَ عن السرير، وحلَّ ربطة عنقه. كان جو الغرفة حاراً وخانقاً، لكنّه كان يكره البرودة التي تكمش اللحم المنبعثة من مُكيِّف الهواء. ماذا كان هو؟ جيفة مُعلَّقة من خطّاف؟ أم جثّة في مسلخ؟ الأفضل ألّا أسأل.

كان الوقت قد حان ليتفقّد عقاقيره، لاستعراض قوّاته ويرى أيّة فرصة مُتاحة له ليُمضي ليلة أخرى ويلحق بالطائرة في صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة والنصف.

جلس على طاولة المكتب، وأخرج الهيروين والحبوب من جيوب معطفه والكوكايين من مُغلَّف في حقيبة سفره. كان في حوزته حوالي غرام ونصف من الكوكايين من أصل سبعة، وحوالي خُمس غرام من الهيروين، وقرص من الكوالود وقرص من بلاك بيوتي. وإذا كان لن ينام بل يستسلم لتعاطي الكوكايين، فهناك فقط ما يكفي لساعتين أو ثلاث. كانت الساعة حينئذٍ الحادية

عشرة وحتى مع اتّصافه بضبط النفس النموذجي، كائناً ما كان، فلن يتبقّى له إلّا ألم الانهيار في أحلك نقطة من الليل. لم يكن هناك إلّا ما يكفي، بالكاد، من الهيروين. كان لا يزال يشعر بتحسُّن الحقنة التي أخذها بعد العشاء. فإذا أخذ حقنة عند الساعة الثالثة صباحاً وأخرى قبل ركوب الطائرة مباشرة، فقد يمتد أثرها حتى وصوله إلى منزل جوني هول. شكراً لله على وجود طائرة الكونكورد. ومن ناحية أخرى، فإنَّ تناول المزيد من الكوكايين يعني المزيد من الهيروين للسيطرة على خطر التعرُّض لنوبة قلبيّة أو للجنون، ولهذا عليه أنْ يُحاول تجنّب التعاطي من جديد، وإلّا سوف يفلت الأمر من يده ولن يستطيع التعامُل مع الجمارك.

كان الأمر المعقول الواجب القيام به هو محاولة تقسيم كمية الكوكايين إلى قسمَين، وتناول الأول الآن والثاني بعد خروجه إلى نادٍ ليليّ أو إلى حانة. سوف يُحاول أنْ يبقى في الخارج حتى الساعة الثالثة ويتناول المُخدِّر قُبيل العودة، بحيث أنَّ النشاط الذي سيستمده من المُنشِّط سوف يُغطي على زوال الكوكايين بعد ثوان من أخذ الحقنة الثانية. كان عقار «بلاك بيوتي» يدوم حوالي خمس عشرة ساعة، أو ربما عشرين ساعة في اليوم التالي، مما يعني أنَّ الأثر سوف يتلاشى عند حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر بتوقيت نيويورك - الساعة الثامنة بتوقيت لندن؛ في الوقت الذي يتوقَّع أنْ يصل إلى منزل جوني ويحصل على المزيد من الدعم.

رائع! عليه حقاً أنْ يكون مسؤولاً عن شركة متعدِّدة الجنسيات أو عن جيش مُحارب ليعثر على منفذ لمهارات التخطيط تلك. كان عقار الكوالود عاملاً حرّاً، في استطاعته أنْ يستخدمه لمواجه ملل رحلة طيران، أو أنْ يُعطيه لإحدى الفتيات في نادي مَدْ لكي يتوصل إلى مُضاجعتها. لم يترك له حادث ماريان إلّا الألم، ككأسٍ من كوكتيل مارتيني. وأراد أنْ يردّ الصاع صاعَين لجنس النساء وأيضاً لكي يُشبع الرغبات التي أجّجتها ماريان.

إذن، يمكنه أنْ يتناول جرعة من الكوكايين الآن. نعم، نعم، نعم. جفَّفَ يديه الرطبتين ببنطلونه، وبدأ يُحضِّر المحلول. تراخت أحشاءه لمجرد التفكير في هذا، وأغار عليه كل الشوق الذي يمنحه رجلٌ لامرأة تخونه، والتي تُعمِّقُ خيانتها من شوقه إليها وتستعبده كما لم يستطع إخلاصها أنْ يفعل، وكل نزق

انتظار ذبول الأزهار التي في يديه ويأسه. لقد كان حبّاً، وليست هناك كلمة أخرى تصِفه.

طعن باتريك أوردته، كما يعجز مُصارِع ثيران غير كفؤ عن العثور على الزاوية المناسبة لتسديد الطعنة القاتلة، من دون أنْ يجعل الدم يلج أسطوانة الحقنة. وحاول أنْ يهدأ، وأخذ يتنفّس بعمق وغرز الإبرة في ذراعه، حرّكها ببطء في اتجاه حركة عقارب الساعة لكي يعثر على الزاوية التي ستخترق جدار الوريد من دون اختراق الجانب الآخر. وبعد أنْ قام بحركة القوس هذه، ضغط المكبس إلى أعلى بإبهامه.

أخيراً قفز خيطٌ رفيع من الدم إلى داخل الأسطوانة ودار حول نفسه. أبقى باتريك الحقنة ثابتة قدر استطاعته ودفع المكبس إلى أسفل. كانت الآليّة ثابتة وفي الحال أرجع المكبس إلى الخلف، وشعر بألمٍ حادّ في ذراعه. لقد أضاع الوريد! أضاع الوريد اللعين. لقد غرز العضل. وبعد عشرين ثانية فقط تخثّر الدم ومن ثم سوف يحقن كتلة دم متخثّر يوقِف القلب في مجرى دمه. ولكن إذا لم يحقنه فسوف تضيع خلطة المحلول سُدى. ويمكن للحرّ أنْ يُميع الدم من جديد بصورة مُعجزة داخل محلول الهيروين، لكنّه سيُفسِد مفعول الكوكايين. كاد باتريك يبكي من فرط الشعور بالإحباط، ولم يدرِ أيدفع الإبرة أعمق أم يسحبها. جازفَ، وسحب الحقنة قليلاً وجعلها أفقيّة في الوقت نفسه. وانبجسَ المزيد من الدم إلى داخل الأسطوانة وضغط المكبس إلى أسفل بأقوى ما استطاع، من دون الإحساس بكثير من الامتنان. كان من الجنون إفراغ المحلول بسرعة كبيرة، لكنّه لم يستطع أنْ يُجازف بجعل الدم يتخثّر. وعندما حاولَ أنْ يسحب المكبس مرة أخرى ليتيقّن من الحصول على الكوكايين الكامن في الأسطوانة كلّه، وجد الآليّة تعلَق وأدركَ أنّه انزلقَ خارج الوريد من جديد.

أخرجَ الإبرة من ذراعه، وبعد أنْ كافح دفق الصفاء المُشوَّش، حاولَ أنْ يملأ الأسطوانة بالماء قبل أنْ يجفّ الدم. ارتعشَتْ يداه بشدَّة إلى درجة أنْ الحقنة ارتطمتْ بجدار الكأس، يا إلهي، لقد كانت قويّة، وحالما امتصَّ الماء، ترك الحقنة، لأنه كان من فرط الانتشاء بحيث عجز عن إفراغها.

قبضَ على ذراعه بحيث أصبحت قبضة يده مدسوسة تحت ذقنه، وأخذ يهتز إلى الخلف والأمام على حافة كرسيه وحاول أنْ يُشتِّت الألم. لكنّه لم

يتمكّن من التخلُّص من الإحساس بالانتهاك الحميم الذي كان يُرافق كل جرعة فاشلة.

كانت جدران أوردته تُثقَب مرة بعد أخرى بالفولاذ الرفيع الذي يعلَق داخلها، ويُعذِّب جسمه إرضاءً لعقله.

كان الكوكايين يغزو جسمه كله، كقطيع من الذئاب البيضاء، تنشر الرعب والدمار. حتى فورة الحيوية الوجيزة تلاشت من خوفه من أنْ يكون قد حقن كتلة من الدم المتخثِّر. وفي المرة التالية سوف يحقن نفسه على ظاهر يده حيث يمكنه أنْ يُشاهد الأوردة بوضوح. والألم القديم الجيد جرّاء اختراق ذلك الجلد المتين وينفذ في العِظام الصغيرة والرقيقة كان أقلّ إثارة للخوف من رعب عدم اختراق الأوردة اللا مرئيّة. على الأقل هو لا يتلقى الحقنة في عورته. إنَّ الحفر في البقعة من دون جدوى بين تلك الأوردة المراوغة قد يدفع المرء إلى التساؤل حول كامل أسلوب امتصاص المخدرات ضمن الأوردة.

في الحقيقة، في أوقاتٍ كتلك، إبّان الفشل في اختراق الأوردة، وتناول جرعات زائدة، والنوبات القلبيّة الثانويّة، ونوبات إغماء، كان إدمانه الخبيث على تلقّي الحقن، بمنأى عن العقاقير المُخدِّرة، يجعله يرغب في ليّ الإبر ورمي الحقن في مصارف المياه. فقط اليقين بأنَّ تلك المُشاجرات كانت دائماً خاسرة ولا تدفعه إلّا إلى تكريس نفسه للبحث المُملّ عن أعمالٍ جديدة، أو إلى مذلَّة استخراج القديم منها من تحت مناديل كلينكس الورقيّة الرطبة، وأوعية اللبن الرائب اللزجة، وقشور البطاطا الرخوة من كيس الزبالة، هو الذي منع باتريك من تدمير حقنه مباشرة.

حمّى الإبر هذه لها حياة نفسيّة خاصة بها. وأيّة طريقة أفضل من أنْ تكون الفاعل والمفعول به، الجارّ والمجرور، العالِمْ والتجربة، في محاولة تحرير الروح من الجسد المُستعبَد؟ وأي شكل آخر للانقسام الذاتيّ أكثر بلاغة من العِناق الخنثويّ للحقن، حيث تُحاصِر إحدى الذراعين الإبرة داخل الذراع الأخرى، مُكرِّسة الألم لخدمة المتعة ومُجبِرة المتعة في المقابل على خدمة الألم؟

حقنَ نفسه بالويسكي، وراقبَ وريده المحترق يتحول إلى اللون الأسود من تحت الجلد، فقط لكي يُرضي حمّى حقن الإبر. وكان قد أذاب الهيروين

في مياه معدنيّة لأنَّ الحنفيّة كانت بعيدة جداً بالنسبة إلى رغبته المهيبة. إنَّ الدماغ أشبه بوعاء من أرز كريسبيز - ينكسر! يُقرمش! ويُفرقع! وفوران مُقلِق في صمّامات قلبه. وأفاق بعد أنْ غاب عن الوعي طوال ثلاثين ساعة، والحقنة، التي كانت ما تزال ممتلئة حتى منتصفها بالمُخدِّر، تتدلّى من ذراعه، وباشر من جديد، بتلك الإرادة الباردة الساحقة، أداء الطقسَ الذي كاد يقضي عليه.

لم يسع باتريك إلّا أنْ يتساءل، بعد فشله في أسر ماريان، إنْ لم تكن الحقنة هي الوسيط الأفضل من حديثه. وقد أثار عواطفه قولُ ناتاشا بهمسها الخشن، «حبيبي، أنت بارع جداً، ودائماً تُصيب الوريد»، وأيضاً سيلٌ رفيع من الدم القاني يتدفّق من ذراعها الشاحبة وهي تتدلّى من حافة الكرسيّ.

في لقائهما الأمر أسكتها. كانت قد جلستْ على الأريكة ورُكبتاها مرفوعتان، وقدَّمَت ذراعها بكل ثقة. وجلسَ إلى جوارها على الأرض، وعندما أعطاها حقنة المحلول، تباعدتْ رُكبتاها، وتجمَّع ضوء الشمس في التضاعيف الكثيفة لبنطلونها الحرير الأسود وفاضَ منه الحنان عندما انطرحتْ على ظهرها وتأوّهتْ، وأغمضَت عينيها وتوهَّجَ وجهها وهي تقول «هذا كثير... المتعة... هذا كثير»

ما الجنس بالمقارنة مع هذا العنف المشبوب؟ هذا النوع من العنف وحده يمكن أنْ يفتح عالماً مُقيَّداً بآلات تصوير الوعي والغرور.

بعد ذلك، تدهورتْ علاقتهما من الحقن إلى النكاح، ومن الإدراك المنبهر إلى الحديث الحميم. قال باتريك في نفسه، ولا يزال منبهراً بالأغراض التي تبدو صلبة من حوله، وهو ينهض عن الكرسي ويخرج من حالة النشوة، إنَّ عليه أنْ يؤمن بأنّه في مكان ما توجد فتاة مستعدة للمتاجرة بجسدها في مقابل كأسين من المشروب وقرص مُخدِّر. وسوف يبدأ بحثه في نادي مَدْ. بعد أخذ جرعة محلول أخرى سريعة.

بعد ذلك بساعة، نجح باتريك مع بعض الصعوبة في مغادرة الفندق. تمدَّد على ظهره في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة وهي تنطلق في قلب المدينة. أقلام الرصاص الفولاذيّة تلك، ومراوح الكروم، وأبراج الكريستال التي يبدو كأنها تنفجر كأنغام طبقة صوت سوبرانو تصدر عن وجهٍ شنيع لمُغنية أوبرا أولى،

غشاها الظلام. أحاجي الكلمات المتقاطِعة التي تُشكّلها مكاتب مُضاءة وغير مُضاءة انسابت عابرة بإبهام. مكتبان مُضاءان عمودياً - فلتكن «لا» - وخمسة منها أفقياً. كلمة من خمسة أحرف تبدأ بـ «أ». أوران... أحد... أمر. فلتكن أمر. لا أمر. المبنى يختفي في النافذة الخلفيّة. هل مارس كل شخص لعبته؟ أرض الأحرار ووطن الشجعان، حيث لا يقوم الناس إلّا بالأمر الذي يقوم به أيضاً كل شخص آخر. هل سبَقَ له أنْ فكَّر في هذا؟ هل سبقَ له أنْ قال هذا؟

كالمعتاد، ثمة حشدٌ متجمّعٌ خارج نادي مَدْ. تسلَّل باتريك إلى المقدِّمة حيث وقف رجلان أسودان ورجلٌ بدين خلف حبل أحمر ملتوٍ وكانوا يُقرّرون مَنْ يُسمَح له بالدخول. حيّا الحرّاس بلهجة مُتعبة متبجّحة. كانوا دائماً يسمحون له بالدخول. ربما لأنه كان يفترِض أنهم سيسمحون له؛ أو لأنه لم يكن يأبه حقاً إذا سمحوا؛ أو، طبعاً، لأنه يبدو ثريّاً ويمكن أنْ يطلب الكثير من المشروبات.

توجّه باتريك من فوره إلى الطابق العِلويّ، وبدل الموسيقى الحيّة التي كانت تنبعث صاخبة عن خشبة مسرح صغيرة في الطابق الأرضيّ، كانت تُدار أشرطة باستمرار بينما أشرطة فيديو تعرض أحداثاً مُبهِرة ولكن مألوفة - أزهاراً تنمو فجأة بالحركة السريعة، هتلر يضرب ضربات مكتومة على المنصّة في نورمبرغ ومن ثم يُعانقُ نفسه في نشوة استحسان، ومحاولات مبكِّرة للطيران الإنساني تُخفِق، تهاوٍ وهبوط عن جسور - صور تشعّ من عددٍ من شاشات التلفزيون نحو كل ركن من المكان المُظلِم. وقُبيل أنْ يدخل، انسابت فتاة نحيلة متجهّمة قصيرة ذات شَعر أبيض وتضعُ عدسات لاصقة بنفسجيّة اللون وتجاوزته لتهبط الدَّرَج. جعلتها مساحيق التجميل البيضاء، وملابسها السوداء بالكامل، وقَسَمات وجهها المتناسقة والمُستاءة، تبدو كدمية مُدمِنة. بل كانت تُحيط أعلى ساعديها برباط لحبس الدم من الحرير الأسود. عظيم! راقبها. لم تكن تغادر، بل تنتقل بين الغرف. سوف يتفحّصها لاحقاً.

كانت فرقة «توكينغ هيدز» تلعلعُ بأغنية من كل مكبرات الصوت. شهقَ ديفيد بيرن[1] قائلًا «المركز مفقود»[2]، ولم يسع باتريك إلّا أنْ يتّفق معه. كيف استطاعت الفرقة أنْ تعرف بالضبط بما يشعر؟ كان شيئاً مُخيفاً.

1- ديفيد بيرن: هو المغني الأساسي في الفرقة المذكورة - المترجم.

2- جملة مأخوذة من إحدى أغاني الفرقة التي عنوانها «Overload» - المترجم.

لقطة تمثّل القردة شيتا وهي تلاحق أيلاً خلال أدغال إفريقيا ظهرتْ على الشاشات كلّها دفعة واحدة. ضغط باتريك نفسه على الجدار وكأنّ قوّة الغرفة المدوّمة النابذة دفعته إلى الخلف. شعرَ بأمواج من الضعف والإرهاق عندما اخترقتْ حالته الجسديّة الحقيقيّة حرّاس المُخدرات. آخر جرعة من الكوكايين كانت قد تلاشتْ خلال رحلة هبوطه وقد يُضطر إلى تناول قرص «بلاك بيوتي» قبل الموعد المُحدَّد.

وقع الأيل وسط سحابة من الغبار. ارتعشتْ قوائمه برهة بينما القرد ينهش عنقه. في أول الأمر بدا أنَّ الحادثة قد تَشَتَّتَتْ وتبعثرتْ بين الشاشات كلها، ومن ثم، عندما أصبحت اللقطة مُقرَّبة، تضاعفَ القتل واكتسبَ زخماً. وظلَّت الغرفة تبدو لباتريك أنّها تدفعه إلى الخلف، وكأنَّ الرفض والإقصاء، رفيقا أي تواصُل اجتماعي، تحوّلا إلى قوة بدنيّة. أحياناً كان الرضا المُذهل الذي يولِّده دفق الهيروين يدفعه إلى تصديق أنَّ العالمَ لا مبالٍ وليس عِدائيّاً، ولكن كان متوقَّعاً الآن أنْ يتعرَّض هذا الاعتقاد المؤثِّر للخيانة وأنْ يبدو نائياً بعيداً، حالما استقرّ وراحتا كفّيه مبسوطتان على جدار الغرفة.

طبعاً، كان لا يزال يفكِّر في نفسه بصيغة الشخص الثالث، كشخصيّةٍ في كتاب أو في فيلم سينمائيّ، لكنّه بقيَ على الأقلّ شخصاً ثالثاً مُفرداً. لم تخطر في باله صيغة الجمع بعد هذه الليلة، جرثومة الأصوات التي احتلّتْ الليلة السابقة. وفي حضور الغياب، وغياب الحضور، وتويدلدي تويلدلدَم. الحياة تُقلِّدُ نقداً أدبيّاً رديئاً. إنْ/ حـِ/ لال. مُرهق ومحموم.العمل من جديد. عمل غريب كالمعتاد.

ابتعد باتريك عن الجدار، كرجلٍ داخل برميل ملاهي يتدحرج، بعد بذل جهد. وتحت ضوء أجهزة التلفزيون الأزرق الخفّاق، تمدَّدَ الزبائن المسترخون بشكلٍ غير مُريح على مقعد من الوسائد الوثيرة الرماديّة الموزَّعة حول حواف الغرفة. مشى باتريك نحو البار بحذر سائق سيارة يُحاولُ أنْ يُقنِع رجل شرطة بأنه يقِظ.

قال رجلٌ ثخين الرقبة، رجل مزوح يتكئ على البار، «قال الطبيب إنَّ كبده يبدو أشبه بخريطة مُجسَّمة لجبال روكي»

أجفلَ باتريك وفي الحال شعر بوخز إبرة حادّة في جنبه. هذا تأثُّر سريع

بصورة سخيفة، وينبغي أنْ يحاول أنْ يهدأ. وفي مُحاكاة ساخرة للانفصال، أدار عينيه حول رجاء الغرفة بأسلوب الحركات المتقطِّعة القصيرة لعظاءة مفترسة.

على الوسائد الأقرب إلى البار تمدَّدَ رجلٌ يرتدي تنورة اسكتلنديّة حمراء وصفراء، ويضع حزاماً مُرصّعاً بالمسامير، وينتعل حذاءً عسكريّاً طويل الرقبة، ويرتدي سترة من الجلد الأسود، مع أقراط على شكل صاعقة. وبدا كأنه أفرطَ في تناول المُهدّئات. وفكَّر باتريك في الومض الأسود لدفق المُهدِّئ، الذي يحرق الذراع كأنه مسحوق لاسع؛ إنه إجراء لحالة الطوارئ حصراً. وفوجئ بالشكل عتيق الطراز؛ فقبل كل شيء، لقد مرّتْ ست سنوات منذ صيف عام 76 الأرعن عندما جلس على دَرَج الحريق في المدرسة في عزّ الحرّ، يُدخّنُ الحشيش، ويستمع إلى أغنية «White Riot»[1]، ويصرخ «دمّروا» من فوق الأسطح. وإلى جوار المتمرِّد ذي التنورة جلستْ سكرتيرتان عصبيّتان من نيو جيرزي على حافة مقعديهما ببنطلونين ضيِّقَين يشدّان على بطنَيهما الناعمَين. ونقلتا أحمر شِفاهِهما إلى أعقاب سجائرهما البيضاء بالكامل بحماس واعد، لكنهما كانتا شنيعتين إلى درجة أنّه لا يمكن أنْ تقوما بمهمة عزائه على لامبالاة ماريان. كان هناك سمسار سلع ببزَّة قاتمة اللون (أم هل كان تاجر لوحات فنيّة؟)، يُعطي ظهره جزئياً لهما، يتحدث مع رجل يُعوِّض عن شبه حالة الصلع عنده بستارة من كتّة كثيفة طويلة من الشَعر الأبيض تنبت من آخر الخلايا الكيسيّة في خلفيّة الجمجمة. بدوا كأنهم يُحافظون على اتصالهم بحالة يائسة من الشباب، يراقبون أولاد الموجة الجديدة، ويتبيّنون آخر انعكاسات الموضة المتمرِّدة.

على الجانب المقابل من الغرفة، كانت هناك فتاة جميلة بمظهرٍ بائس شائع، ترتدي سترة صوفيّة سوداء فوق تنورة بسيطة مُستعملة، تُمسك بيدَي رجل يرتدي قميصاً رياضيّاً وبنطلون جينز. حدّقا طائعين إلى إحدى شاشات التلفزيون، وعند أقدامهما كان هناك كأسان من البيرة. وخلفهما، كانت مجموعة من ثلاثة أشخاص يتحدثون بحماس. رجل منهم يرتدي بزَّة زرقاء بلون الكوبالت ويضع ربطة عنق رقيقة، وآخر يرتدي بزَّة يطغى عليها اللون الأحمر ويضع ربطة عنق رقيقة، يُحيطون بفتاة بأنف معقوف وذات شَعر أسود

1- أغنية للفريق الإنكليزي The Clash - المترجم.

طويل وترتدي بنطلون ركوب خيل من الجلد. ومن الطرف القصيّ من الغرفة تبيَّنَ باتريك بريق سلاسل.

لا أمل، لا أمل على الإطلاق. الفتاة الوحيدة التي تحلَّتْ بقدرٍ ضئيل من الجمال في الغرفة كانت ملتصقة جسديّاً برجلٍ آخر. بل إنهما لم يكونا يتجادلان. كان شيئاً مُثيراً للاشمئزاز.

فتّشَ جيوبه من جديد، وهو يرسم على نفسه إشارة الصليب بورع. الهيروين، والمحلول، النقود، وأقراص الكوالود. إنَّ المرء لا يفرِط أبداً في ارتيابه - أم هل يُفرِط؟ كان الكوكايين في الفندق مع بطاقات الائتمان. طلبَ مشروب البوربون مع ثلج، وأخرج عقار «البلاك بيوتي»، وابتلعه مع أول جرعة. قبل موعد تناوله بساعتين، ولكن لا بأس. إنَّ القواعِد وُضِعَتْ لكي تُكسَر. وهذا يعني، إنْ كانت هذه قاعدة، أنّه يجب أحياناً المُحافظة عليها. العقل يستمرّ في قول كلام مُختَلَط. تفكير دائريّ. إنّه مُرهَق.

لقطة تبيِّن المغني ديفيد بوي جالساً وهو سكران أمام ضفّة مكتظّة بشاشات التلفزيون تومضُ على شاشات التلفزيون في النادي، استُبدِلَتْ بلقطة شهيرة لأورسون ويلز يمشي خلال قاعة من المرايا في قلعة تشارلز فوستر كين في فلوريدا. مُضاعفة عدد صور عن مُضاعفة العدد.

تنهد باتريك، كأستاذ مدرسة خائب الأمل، «أعتقد أنكَ ترى أنَّ هذه براعة»

«عفواً؟»

التفتَ باتريك. كان المتكلِّم هو الرجل ذو ستارة الشعر الرمادي الطويل.

تمتمَ «أنا فقط أُكلِّمُ نفسي. كنتُ أفكِّر في أنَّ الصور التي تظهر على الشاشة فارغة ولا سيطرة عليها»

قال الرجل برصانة «ربما الصور تعبِّر عن الفراغ عن عمد. أعتقد أنَّ هذا ما يلمسه أولاد هذه الأيام»

سأل باتريك «كيف يمكنك أنْ تلمس الفراغ؟»

«بالمناسبة، اسمي ألان»، ثم قال لنادل «أريد عبوتين من بيرة بكس. وأنت؟»

«أنا أريد بوربون»

«أقصد ما اسمك»

«أوه، إه، اسمي باتريك»
مدَّ ألان يده. «مرحباً». صافحه باتريك على مضض. سأله ألان وكأنه لغز «ما هذه الأضواء الأماميّة المُبهِرة القادمة على الطريق؟»
هزَّ باتريك كتفيه استخفافاً.
أجابَ ألان بهدوء مُثير للإعجاب «هي أضواء أماميّة مُبهرة على الطريق»
قال باتريك «هذا مُريح»
«إنَّ كل شيء في الحياة رمزٌ بحدّ ذاته»
قال باتريك «هذا ما كنتُ أخشاه، ولكنْ لحُسن الحظ فإنَّ الكلمات مراوغة وتعجز عن التعبير عن هذا»
أكَّدَ ألان «بل ينبغي أنْ تُعبِّر عن هذا. تماماً كما عليك وأنتَ تنكح أنْ تفكِّر في الشخص الذي تنكحه»
قال باتريك بارتياب «أعتقد ذلك، ما دمتَ تضعها في أوضاع مختلفة»
«إنْ كانت هذه الشاشات تبيِّن أساليب صُنع الصور، يمكنكَ أنْ تُسمّي الشاشات الأخرى، والمرايا، وآلات التصوير، فراغاً يعكس الذات أو يمكن أنْ تُسميّه صِدقاً. إنّه يُعلِنْ أنّه لا يستطيع أنْ يعكس إلّا نفسه»
قال باتريك «ولكن ماذا عن الرجل الوطواط؟ إنّه لا يمثّل طبيعة مجال التلفزيون»
«إنه يُمثلها على مستوى معيَّن»
«في مكان ما داخل كهف الوطاويط»
قال ألان مُشجِّعاً «هذا صحيح، في مكان ما داخل كهف الوطاويط. هكذا يشعر الكثير من الأولاد: بالفراغ الثقافيّ»
قال باتريك «سوف أقبل ما تقول»
قال ألان، وهو يرفع عبوتَي البيرة، «أعتقد أنّه لا زالتْ هناك أخبار عن الوجود تستحق الذِكر. إنَّ حب ويتمان أنفس من المال» وأشرقَ وجهه.
قال باتريك في نفسه، اللعنة.
«هل ترغب في الانضمام إلينا؟»
قال باتريك «كلا، في الواقع كنتُ سأغادر، أشعر بالإرهاق شديد»
قال ألان بهدوء، «حسن»

«إلى اللقاء»

شرب باتريك آخر ما يحتوي كأسه من بوربون لكي يُقنِع ألان بأنّه مُغادرٌ حقاً، وتوجّه إلى غرفة الطابق السفليّ.

لم يكن في أحسن حال. فهو ليس فقط فشل في انتقاء فتاة، بل اضطرَّ إلى تفادي هذا اللوطي المعتوه. يا له من مسار، «إنَّ حبّ ويتمان أنفس من المال». أطلق باتريك ضحكة قصيرة قوية وهو على الدَّرَج. على الأقلّ هنا قد يتمكّن من تتبُّع أثر تلك المتنمِّرة ذات العينين الفاتنتين. يجب أنْ يحصل عليها. إنها بلا أدنى شك المحظوظة المُقدَّر لها أنْ تشاركه سريره في الفندق خلال الساعات القليلة الأخيرة السابقة لمغادرته البلد.

كان الجو السائد في الطابق السفليّ يختلف كليّاً عن جو البار المفروش بالسجاد في الطابق العلويّ. وعلى خشبة المسرح، كان الموسيقيّون بقمصانهم الرياضيّة السوداء وبنطلونات الجينز المُمزَّقة يُصدرون جداراً من الضجيج المُرتَجَل حاول صوت المُغني الأول أنْ يضبطه بلا طائل. والغرفة الطويلة العارية، والتي كانت ورشة ذات يوم، كانت خالية من الزينة أو من الأضواء المُبهِرة، ولا تضم إلّا حساً بطوليّاً بعُريها. ووسط ذلك الظلام الصارخ، ميَّزَ باتريك وجود شعر شائك أزرق وورديّ، وصوراً مطبوعة لحمار وحش، وفهد ونمر، وبنطلوناً أسود ضيّقاً وحذاءً مُدبَّباً، وأشخاصاً غرباء وعاهرات يتكئون على الجدران، يشمّون المُخدّراتْ، وراقصين وحيدين يُغمضون عيونهم ويومئون برؤوسهم، وأزواجاً كالأناس الآليّين، ومجموعات صغيرة من الأجساد القافزة والمشدودة إلى بعضها تقترب من خشبة المسرح.

وقفَ باتريك على أطراف أصابع قدميه مُحاولاً أنْ يعثر على الدمية الرخيصة ذات العينين الفاتنتين. لم يجدها في أي مكان، ولكن سرعان ما لفتَ انتباهه ظهرُ فتاة شقراء ترتدي ثوباً من الشيفون المصنوع في البيت مع سترة سوداء من الجلد. تمشّى أمامها بحركة عفوية ثم تلفّتَ حوله، وتمتمَ بحماس «لا بُدَّ أنكِ تمزحين». شعر بالغضب وبأنّه تعرَّضَ للخيانة، كأنَّ وجهها عهدٌ منكوس.

كيف أصبح خائناً للعهد إلى تلك الدرجة؟ كان يُلاحِقُ الدمية الرخيصة ذات العينين الفاتنتين. وكانت ديبي ذات مرَة قد صرختْ في وجهه في وسط

جِدال، «هل تعرف ما هو الحب، يا باتريك؟ هل لديك أدنى فكرة عنه؟»، فقال بسأم، «ما هي الخيارات المتوفّرة لي؟»

استدار باتريك وعاد إلى الوراء، وبعد أنْ نظر إلى الجانبَين، واجتاز الغرفة، وقفَ عند الجدار.

ها هي! تستند إلى عمود ويداها خلفها، وكأنها مربوطة إلى وتد، وتنظر إلى الموسيقيين بفضول موقّر. ركّزَ باتريك انتباهه بجنون وتخيّلها تنزلق عبر أرض الغرفة نحو الحقل المغناطيسيّ لصدره وبطنه. ونشرَ على جسدها، وهو متجهِّم بشراسة، شبكة خلايا عصبيّة وأمسك بها بقوة ككتلة ثقيلة. وطوّق العمود الذي تقفُ بجواره بأنشوطة ذهنيّة، وجذبها وهي تترنَّح عبر أرض الغرفة كجارية موثوقة. وأخيراً، أغمضَ عينيه، وحلّقَ، وسلّطَ شعاع رغبته خلال الغرفة، غامراً عنقها وثدييها بالقُبلاتْ.

عندما فتحَ عينيه كانت قد اختفَتْ. ربما كان ينبغي أنْ يبدأ حديثاً معها. تلفَّتَ حوله بسخط. إلى أين ذهبتْ بحقّ الجحيم؟ كانت قِواه الخارقة تخذله، ومع ذلك كان تجدُّد أثر الحقنة يمنح عجزه قوة متجدِّدة.

يجب أنْ يحظى بها. يجب أنْ ينالها، وإلّا حظيَ بها شخص آخر. كان في حاجة إلى التواصُل، جسداً إلى جسد، عضلاً إلى عضل. وفوق كل شيء، كان في حاجة إلى لحظة الاختراق المنسيّة عندما سيتمكّن، للحظة، من الكفّ عن التفكير في نفسه. إلّا إذا، وكما يحدث غالباً، أطلقَ شخصٌ حميم المزيد من التحرُّر وخصوصيّة أعمق. لا عليك من هذا. وحتى إذا حكمَ الجنسُ عليه بمنفى يحتوي الغضبَ الإضافيّ الذي يُثيره التأنيب الغبيّ لشخص آخر، بالإضافة إلى الكآبة المعتادة، فمن المتوقع أنْ يكون الغزو مُثيراً. أم لن يكون كذلك؟ مَنْ بقيَ له؟ النساء الجميلات كنَّ دائماً في صحبة أحد، إلّا إذا تصادفَ أنْ عثرتَ عليهنّ خلال جزء من اللحظة بين خسارةٍ لا تُعوَّض وعزاءٍ، أو في سيارة أجرة تنقلهنّ من عشيقهن الأساسيّ إلى أحد العشّاق الثانويين. وإذا كانت لديكَ امرأة جميلة، فإنّهنّ دائماً يجعلنكَ تنتظر، ويبقينك في حالة شكّ، لأنها المرَّة الوحيدة التي يتيقنَّ فيها من أنّكَ تفكّر فيهنّ.

بعد أنْ وصل إلى حالة من المرارة، تقدَّم من البار.

قال لعامل البار «كأسٌ من ويسكي جاك دانييلز مع ثلج». بعد أنْ تراجع

تفحَّصَ باتريك الفتاة الجالسة إلى يساره. كانت ممتلئة قليلاً، سوداء الشعر، وتتمتَّع بقدر ضئيل من الجمال. بادلته النظر بنظرة ثابتة، دلالة جيدة.

سألته «ألا تشعر بالحر وأنت ترتدي هذا المعطف؟ نحن في شهر أيار، كما تعلم»

اعترفَ باتريك مع شبه ابتسامة، «إنه حارّ بصورة لا تُطاق، لكنني أشعر بأنني مسلوخ الجلد من دونه»

سألتْ الفتاة «كأنّها آليّة دِفاع»

تشدَّقَ باتريك قائلاً «نعم»، شاعراً بأنها لم تُدرِك الرهافة والحِدَّة التي يمثّلها معطفه. سألها بطريقةٍ بذل جهداً في جعلِها عارضة، «ما اسمكِ؟»

«راشيل»

«واسمي باتريك. هل تسمحين لي بأنْ أقدِّم لك مشروباً؟». يا إلهي، لقد بدا كأنّه يُحاكي بسخرية شخصاً يفتحُ حديثاً. كل شيء كان يأخذَ شكل التهديد أو الفكاهة مما يجعل من الأصعب بكثير التخلّي عن موقع المُراقِب. لعلّها ستمرّ بتجربة البلادة الساحقة بوصفها طقساً مُطمئناً.

«طبعاً. أريد بيرة. ماركة دوس إكويس»

قال باتريك، مُلفِتاً انتباه عامل البار، «عظيم»، ثم تابعَ، مُشمئزاً بالمعنى الحرفيّ من بذل مجهود في فتح حديث عاديّ ومُتظاهراً بالاهتمام بشخصٍ آخر، «وما هو نوع عملك؟»

«أنا أعمل في صالة عرض لوحات»

قال باتريك «أحقاً؟»، آملاً في أنْ يبدو مُهتمّاً. وبدا أنّه فقد كل سيطرة على صوته.

«نعم، لكنني أرغب حقاً في أنْ أفتح صالة عرض خاصة بي»

قال باتريك في نفسه، ها قد بدأنا من جديد. النادل الذي يعتقد أنّه ممثّل، الممثّل الذي يعتقد أنّه مُخرج، سائق سيارة الأجرة الذي يعتقد أنّه فيلسوف. كل المؤشرات جيّدة عند هذه النقطة، تكاد الصفقة تتم، هناك الكثير من الاهتمام تُبديه شركات الأسطوانات... مدينة ممتلئة بأخيلة عِدائيّة زائفة، وطبعاً، ببعض الأشخاص الكريهين حقاً من أصحاب النفوذ.

تنهدتْ «ولكن، ينقصني الدعم الماليّ»

سألها، مُبدياً اهتمامه ومُشجّعاً، «لِمَ تريدين أنْ تستقلّي بنفسك؟»
قالتْ راشيل «لا أعلم إنْ كنتَ مُلِمّاً بالحركة الموضوعيّة الجديدة في الفن، لكنّني أعتقد أنها سوف تسود. وأعرفُ العديد من الفنانين وأريد أنْ أدعم مسيرتهم الفنيّة في وقتٍ ما زال الجميع يتجاهلونهم»
«أنا واثق من أنَّ هذا لن يدوم طويلاً»
«لذلك ينبغي أنْ أتحرّك بسرعة»
قال باتريك بجديّة «أحبّ أنْ أشاهد بعضاً من أعمال حركة الموضوعيّة الجديدة»
قالت راشيل، وهي تنظر إليه بعينٍ جديدة، «سوف أرتّبُ هذا الأمر». أيكون هذا هو مصدر الدعم الماليّ الذي كانت تنتظره؟ قد يكون معطفه غريب الشكل، لكنّه يبدو غالي الثمن. وقد يكون شيئاً حَسَناً أنْ يدعمها شخص إنكليزيّ غريب الأطوار ولا يعدّ عليها خطواتها.
كذب باتريك قائلاً «إنني أجمع بعض الأعمال. وبالمناسبة، هل ترغبين في تناول قرص من الكوالود؟»
قالتْ راشيل، وهي تُجعِّد أنفها، «إنني لا أتعاطى المخدرات»
قال باتريك «ولا أنا. لقد تصادفَ مرة واحدة عابرة أنْ تناولتُ قرصاً أعطاني إيّاه شخص قبل زمن بعيد»
قالتْ راشيل بهدوء «لستُ في حاجة إلى النشوة لأقضي وقتاً ممتعاً»
قال باتريك في نفسه، إنها مستعدّة لتعاطيه، إنها حتماً مستعدة لتعاطيه. قال «أنتِ على صواب، إنه يُفسِد المتعة – يجعل الناس وهميِّين». تسارع نبض قلبه؛ يُستحسَن أنْ يتشبَّث بالصفقة. «هل تريدين أنْ نعود إلى الفندق الذي أُقيم فيه؟ إنني أُقيم في فندق بيير»
قالت راشيل في نفسها، فندق بيير؛ كل الدلائل جيدة، «طبعاً»، وابتسمتْ.

– 14 –

كانت الساعة الثانية والنصف وِفقاً لساعة الحائط التي بجوار ميداليّة القديس كريستوفر. وهذا يمنحه مدة خمس ساعات. وهي أكثر من كافية، أطول من عمرٍ كامل من الحديث مع راشيل. ابتسم لها ابتسامة غامضة. ماذا يمكن أنْ يقول لها؟ إنَّ والده قد مات قريباً؟ وإنه مُدمن مخدرات؟ وإنّه سوف يتوجّه إلى المطار في غضون خمس ساعات؟ وأنَّ صديقته لا تُمانع حقاً؟ إنّه لم يرغب حقاً في طرح المزيد من الأسئلة عليها عن نفسها. ولا أراد أنْ يسمع وِجهات نظرها عن نيكاراغوا.

قالت راشيل بانزعاج، «إنني أشعر بالجوع»

«الجوع؟»

«نعم، إنني مشتاقة إلى صلصة الفلفلِ الحارّ»

قال باتريك، الذي كان يعلم جيداً أنَّ صلصة الفلفل الحارّ غير موجودة على قائمة أطعمة فندق بيير الليليّة وكان سيعترض لو وُجدَ عليها، «حسن، أنا واثق من أنَّ في استطاعتنا أنْ نعدّ لك بعضه عبر خدمة الغرفة»

قالتْ راشيل، وهي تعتدل في جلستها بتشوُّق، «ولكنَّ هناك مطعماً صغيراً يُعدّ أفضل صلصة فلفل حارّ في العالم، وأتوقُ حقاً إلى الذهاب إلى هناك»

قال باتريك بصبر «حسن. ما العنوان؟»

«عند تقاطع الجادّة الحادية عشرة مع الشارع الثامن والثلاثين»

قال باتريك للسائق «أنا آسف على هذا، ولكن غيَّرنا رأينا. هل في استطاعتنا أنْ نذهب إلى الجادّة الحادية عشرة والشارع الثامن والثلاثين بدل ذلك؟»

كرّرَ السائق «الحادية عشرة والثامن والثلاثين؟»

«نعم»

كان المطعم الصغير عبارة عن عربة كبيرة مُغطّاة مُضلّعة فضيّة اللون وفي الخارج لافتة بأضواء النيون تقول «**جرِّب شطائرنا مع الصلصة الحارَّة الشهيرة**». كان عَرضاً لم تقوَ راشيل على رفضه. وثمة رسم لفلفل أخضر حارَ بأضواء النيون يومض بصورة جميلة بجوار قبعة سومبريرو صفراء.

عندما وصل الطبق البيضاويّ العملاق باللحم المفروم المُتبَّل بالفلفل الحارّ، مع البقول المسحوقة، وسلطة الأفوكادو، والكريما الحامضة، وفوق ذلك كلّه جبن التشدر برتقاليّ اللون مع كعك التورتيلا الأصفر المُنقَّط، أشعل باتريك سيجارة لكي يُرسِل غمامة من الدخان الأزرق الرقيق وينشرها فوق كتلة الطعام المُتبَّل ذات القمّة المُستدقّة. رشفَ رشفة أخرى من القهوة التفهة واسترخى قدر استطاعته في زاوية المقعد المُلبَّس بالبلاستيك الأحمر. كان جليّاً أنَّ راشيل من النوع الشرِه العصبيّ، تحشو نفسها قبل أنْ يحشوها هو، أو ربما، وبشكلٍ مُقنِع جداً، أنّها تُحاول أنْ تُبعِد تفكيره في الجنس كلّه بتدمير جهازها الهضميّ، وإشباع أنفاسها بالرائحة الكريهة للجبن والفلفل الأحمر.

قالت راشيل مُستحسنة «يا سلام، يعجبني هذا الطعام»

رفع باتريك حاجبه قليلاً لكنّه لم يُعلِّق.

سكبت صلصة الفلفل الحارّ فوق كعك التورتيلا، ووضعت فوقها بعض مسحوق البقول مع ضربات من الكريما الحامضة بظهر شوكتها. وختاماً، تناولتْ مقداراً ضئيلاً من جبن التشدر بين أصابعها ورشّته على القمّة.

انشقَّت كعكة التورتيلا وتدفّقتْ صلصة الفلفل الحارّ على ذقنها. قهقهتْ ورفعت الصلصة بإبهامها وأعادتها إلى فمها قسراً.

علَّقتْ «لذيذة»

قال باتريك متجهّماً «تبدو مُقرِفة»

«يجب أنْ تتذوّق بعضاً منها»

مالتْ فوق الطبق وعثرتْ على زوايا بارعة لكي تنهش منها الكعكة المتهاوية. عركَ باتريك عينيه. كانتا تُسببان له الحكّة العنيفة من جديد. حدَّقَ من النافذة لكنّ أفكاره أعادته إلى منطقتها. ذكَّرته مقاعد البار الخالية

من الظهر بلون التوليب الأحمر القائمة على ساق من الكروم، والباب المؤدّي إلى المطبخ، والرجل العجوز ينحني فوق فنجان القهوة وأيضاً، طبعاً، راشيل الشبيهة بخنزير في الجرن، ذكَّرته بلوحة فنيّة لرسّامٍ مجهول الهويّة. إنَّ ذاكرته تتلاشى. إنّه رعب نسيان كل شيء. هووبر... هبر. فهم. الحياة هي كلبٌ عجوز.

سألَ باتريك «هل انتهيتِ؟»

قالتْ راشيل بوقاحة، وما تزال تمضغ بضجيج مسموع آخر لُقمة من صلصة الفلفل الحارّ، «إنهم يُعدّون أفضل حلوى موز هنا»

قال باتريك «لا تحرمي نفسك من أي شيء. هل طلب واحد يكفي؟»

«ألا ترغب أنت أيضاً في تناولها؟»

قال باتريك بأبّهة «كلا، لا أرغب»

سرعان ما وصلَ طبقٌ طويل من الزجاج يحتوي كميات من مُثلجات الشوكولاتة، والفانيليا، والتوت البرّي يُحيط بها نصفا ثمرة موز، مدفونان بطبقات متموجة من الكريما مُزينة بحبّات من السكاكر الزهريّة والخضراء. وفي المنتصف سال عصير الكرز كصفٍ من الأزرار الملوّنة.

كانت ساق باتريك تنتفض إلى أعلى وإلى أسفل بحركة لا إراديّة وهو يراقب راشيل تنبش قِطعاً من الموز من كتلة الكريما ذات الألوان الفاقعة.

قالتْ «لقد تخلّيتُ عن تناول منتجات الألبان، لكنني أسمح لنفسي أحياناً بمثل هذه الأشياء المرحة»

قال باتريك بجفاف «هكذا يبدو»

اجتاحه إحساس بالاشمئزاز والامتعاض. لقد أُفلِتَ عيار الفتاة كلّياً. وفي حين أنَّ المخدرات كانت على الأقلّ عُرضةً للدعاية: الحياة عند منتهاها، اكتشاف الأراضي المجهولة الداخليّة، قلب الظلام، التحديق في وجه الموت، العودة مع ندوب وميداليات من معرفة مُذهلة، كولريدج، بودلير، ليري...؛ وحتى إنْ بدتْ هذه الدعاية زائفة بصورة مُريعة لأي شخص تعاطى المخدرات بجديّة، إلّا أنّه لم يكن من الممكن حتى أنْ يتظاهر بوجود أي شيء بطوليّ في مشكلة الأكل. ومع ذلك كان هناك شيء مألوف بصورة مُشوِّشة في نهم راشيل المهووس وكذبها الشائن.

قال باتريك ساخراً «هلّا ذهبنا الآن؟»
قالت راشيل بخوف «نعم، طبعاً»
طلبَ فاتورة الحساب، وقبل أنْ تصل رمى ورقة نقديّة بعشرين دولاراً، وخرج من المقصورة. قال في نفسه، سائق سيارة أجرة لعين آخر.

تذمّرتْ راشيل، في أثناء ركوبهما مصعد الفندق، قالتْ «أشعر كأنني سأتقيّأ»
قال باتريك بقسوة «لا عَجَبَ في ذلك، وأنا أشعر بالغثيان وكنتُ فقط أراقب»
«هيه، أنتَ شديد العِدائيّة»
قال باتريك «أنا آسف. أنا مُرهَق». يُستحسَن ألّا يخسرها الآن.
قالت راشيل «وأنا أيضاً»
فتح باتريك الباب بالمفتاح، وأدار مفاتيح الأضواء.
«آسف على الفوضى السائدة»
«يجب أنْ ترى شقّتي»
قال باتريك «قد أفعل، وأشاهد كل تلك اللوحات من حركة الموضوعيّة الجديدة في الفن»
قالت راشيل «حتماً. هل لي أنْ أزور الحمّام؟»
«طبعاً»
قال باتريك في نفسه، وهو يسمع القفل ينزلق ويُغلَق على باب الحمّام، حان وقت إعداد حقنة سريعة. أخرج الكوكايين من حقيبته والهيروين من جيبه الداخليّ الأيسر، وأخرجَ الملعقة من خلفيّة الدرج السفليّ، واستخرج ملء نصف زجاجة من ماء إيفيان كان قد أخفاها، بحذرٍ لا لزوم له، خلف الستارة. قد لا تُتاح الكثير من الفُرَص، ومن الأفضل له أنْ يُعدّ محلولاً قويّاً لكي يُقلِّل عدد مرات تعاطي الحقن إلى أدناها. ومزج الهيروين مع الكوكايين معاً، وأذابهما وسحب المحلول بالحقنة.
أصبحَ مستعداً، ولكنْ بعد كم من الوقت سوف تعود راشيل من الحمّام؟ أرهفَ سمعه، كمَنْ يُصغي إلى وقع خُطاه على دَرَجٍ يصرّ، وركّزَه على

الأصوات الصادرة عن الحمّام. طمأنه ضجيج تقيّؤ مكبوت، تبعه قليل من السعال الحادّ، بأنَّ أمامه وقتاً كافياً لإعداد المحلول.

لم يُجازِف، وغرز الإبرة داخل الوريد الغليظ على ظاهر يده. أغارتْ عليه رائحة الكوكايين وشعر كأنَّ أعصابه تتمدَّد كأوتار البيانو. تبعَ ذلك الهيروين كرذاذ ناعم من مطارق اللبّاد[1] التي تضرب عموده الفقريّ وتُدمدم على جمجمته.

أنَّ راضياً وحكَّ أنفه. كان شيئاً ممتعاً جداً، ممتعاً لعيناً. كيف يمكن أنْ يتخلّى عن ذلك؟ إنّه حب. إنّه العودة إلى الوطن. إنّه إيثاكا[2]، خط نهاية رحلاته وسط العواصِف العاتية. أسقَطَ الحقنة داخل الدرج العُلويّ، واجتاز أرض الغرفة مترنحاً، وتمدَّد على طوله على السرير.

أخيراً حصل على السلام. رموش العينين نصف المُغمضتين المتشابكة، الرفيف البطيء المتردِّد لجناحَين منطويين؛ جسده يضجّ بضرب مطارق اللبّاد، والنبض يتراقص كحبّات رمل على طبل؛ الحب والسُمّ يُفرِغان أنفاسه بزفير بطيء وطويل، متلاشياً داخل خصوصيّة لم يتذكّرها كثيراً، ولم ينسها لحظة واحدة. خَفَقَتْ أفكاره كجدول متردِّد، متجمِّعاً في بركٍ من صور سريّة وحيويّة.

تخيَّلَ قدميه تخوضان ساحة لندن الرطبة، وحذاءه يختم أوراق النبات القاتمة على أرض الرصيف. في الساحة عطّرَ الحرّ المنبعث من أوراق النبات التي تحترق الهواءَ، وكتل الدخان الأصفر شوَّهتْ ضوء الشمس كدولاب مكسور، تبعثرتْ أشعّته بين الأشجار العاديّة التي تتجرَّد من أوراقها. وكان المرج مكسوّاً بالأغصان الميّتة، وراقبَ من الدرابزين المراسِم الحزينة واللاذعة، وعيناه تحرقانه بفعل الدخان.

عادَ باتريك بطرفة عين إلى الحاضر، وهو يعرك عينيه. ثبَّتَ انتباهه على لوحة تمثّل مشهد على ساحل النورمندي كانت مُعلّقة فوق طاولة مكتبه. لِمَ لم تخض النساء بأثوابهن الطويلة والرجال بقبعات القشّ داخل البحر؟

1- مطارق اللبّاد: المطارق التي تضرب أوتار آلة البيانو - المترجم.

2- إيثاكا: جزيرة في اليونان، هي موطن البطل عوليس في ملحمة هومر «الأوديسة» - المترجم.

أهو جو المرح الصِرف الذي تشيعه المظلات النسائيّة هو الذي أبقاهم على الشاطئ، أم جُملة عليهم أنْ يُكملوها قبل أنْ يتعرّوا في المياه اللامبالية؟

كان كل شيء يحتضر، وكل حجر مرفوع يكشِف عن كتلة من يرقات بيضاء وعمياء. يجب أنْ يُغادر الأرض العفنة والرطبة والبحر الذي يبتلع كل شيء، ويتوجّه إلى الجبال. وأخذ ينشد بصوت منخفض «أحييكِ أيتها الجبال! الشامخة! المتوحّدة! الهادئة! الصالحة للقفز من فوقها!»

قهقه باتريك بصوت مكبوت. بدأ الكوكايين يُعطي مفعوله. بدأ فعلاً ينتابه شعور مُريع. لم يتبقَّ معه إلّا ما يكفي حقنتين أُخريين من الكوكايين وبعد ذلك سوف يُحكَم عليه بمُعاناة الشعور بالإحباط. ربما خفَّفَ الهيروين مؤقتاً فقط من المفعول، ولكن مع ذلك فإنَّ أداءه سوف يقلّ بعد أنْ يستيقظ بوقت طويل. وأفضل ما يمكن القيام به في وضع كهذا، عندما يُصبح الجسم ساحة قِتال مغطّاة بأشلاء حروب داخليّة في مُدمني المُخدرات، هو أنْ يتناول آخر قرص كوالود رفضَتْه راشيل بترفُّع، ويُحاول أنْ يأخذ إغفاءة على متن الطائرة. وكان هناك من دون أدنى شك نزاع حول أخذ قسط من النوم؛ أي، عندما يستيقظ سوف يكون تأثير المخدِّر قد أضحى أقوى مفعولاً.

كالمعتاد، شعر بأوجاع في كبده وكأنه تلقّى ضربة من كرة راغبي تحت قَفَصِهِ الصدريّ. كانت رغبته في المخدرات، أشبه بثعلبٍ مُختبئ تحت رداء إسبرطيّ، ينهش أحشاءه. والرؤية المُزدوِجة التي تصيبه إذا لم ترفّ عينيه باستمرار قد ساءت، وازدواج صورة أي شيء كان يتباعد أكثر.

هذه الشكاوى والشعور العامّ بأنَّ جسده مُشدود معاً بملاقط للورق وبدبابيس وبأنّه سوف ينهار عند تعرّضه لأوهى توتّر، ملأته بشعور الندم والرعب. كانت دائماً تنتابه في بداية اليوم الثالث، رغبة مُثيرة للاشمئزاز في الكفّ عن تعاطي المخدرات، لكنّه كان يعلم أنَّ أول بوادر صفاء الذهن والتخلّي عن تناول المُخدِّر سوف تُسبِّب رُعباً أكبر من غيابها.

دُهِشَ باتريك من رؤية راشيل واقفة وِقفة بائسة عند نهاية سريره. كانت قد زالتْ بسرعة من ذاكرته في أثناء تقيّؤها في الحمّام، ففقدَتْ فرديّتها وأصبحتْ بكل بساطة هي الناس الآخرون، هي الشخص الذي يمكن أنْ يُعيق عملية حقن نفسه بالمحلول، أو تفكيره في نشوة الجرعة.

تذمّرتْ، وهي تقبضُ على بطنها، «أشعر بأنني غير متوازنة»
نعقَ باتريك قائلاً «لِمَ لا تستلقين؟»
غاصتْ راشيل في السرير وزحفتْ إلى الطرف القصيّ منه، وأخذتْ تئنّ وهي تنهار على الوسائد.
قال باتريك بصوتٍ أملَ في أنْ يكون صوتاً رقيقاً، «تعالي إلى هنا»
تقلَّبَتْ راشيل قليلاً واستلقت على جنبها. مال عليها، آملاً في أنْ تكون قد نظَّفَتْ أسنانها ومتسائلاً متى نظَّفَ هو أسنانه، وقبَّلها. كانت الزاوية الصعبة تعني أنَّ أنفيهما ارتطما معاً ومن ثم، وسط رغبتهما السريعة في التغلُّب على هذا الوضع المُربِك، ارتطمتْ أسنانهما أيضاً.
قال باتريك «يا يسوع، وكأننا في سن الثانية عشرة»
قالتْ راشيل «أنا آسفة»
اعتدل في جلسته ورأسه يرتكز على يده واليد الأخرى على ثوب راشيل الأبيض المحبوك. بدتْ مُنهكة وعصبيّة. كان هناك انتفاخ في الجزء السفليّ من بطنها لم يكن ظاهراً عندما كانت واقفة. مرَّرَ باتريك ظاهر أصابع يده برفق حول الانتفاخ وحفّها على وركها وفخذها.
كرّرتْ راشيل القول «أنا آسفة. لا أستطيع أنْ أتحمّل هذا. أنا شديدة التوتّر. ربما نستطيع أنْ نقضي بعض الوقت معاً، لكي يتعرَّفَ كلٌّ منا على الآخر»
سحب باتريك يده وعاد إلى السرير.
قال بفتور، وهو يلقي نظرة إلى ساعة بجوار السرير، «طبعاً». إنها الرابعة وخمسين دقيقة. أمامهما حوالي ساعتين وأربعين دقيقة لكي «يتعرَّف كلٌّ منهما على الآخر».
قالت راشيل منتحبة «عندما كنتُ أصغر سناً كنتُ أضاجع أي رجل، لكنَّ النتيجة كانت دائماً الشعور بالفراغ»
قال باتريك «حتى بعد تناول طبق من صلصة الفلفل الحارَ وحلوى الموز؟». إذا لم يكن ينوي أنْ يُضاجعها، فيمكنه أيضاً أنْ يُعذّبها.
قالتْ راشيل «أنت حقاً شخص عِدائيّ، أتعلمُ هذا؟ هل لديك مشكلة في التعامل مع النساء؟»

قال باتريك «مع الرجال، والنساء، والكلاب: أنا لا أُميِّز بينهم، كلهم يُثيرون أعصابي»

خرج من السرير وانتقل إلى طاولة المكتب. لماذا أحضرَ هذه الكتلة المُملِّة من الشحم إلى غرفته؟ كان شيئاً لا يُطاق، كل شيء كان لا يُطاق.

قالت راشيل «اسمع، لا أريد أنْ أتشاجر معك. أعلمُ أنكَ خائب الأمل، أنا فقط أحتاج إلى مُساعدتي على الاسترخاء»

قال باتريك، وهو يضع الكوكايين والملعقة في جيب بنطلونه ويمدّ يده إلى خلفيّة الدُّرج لكي يعثر على الحقنة الثانية، «الاسترخاء ليس من اختصاصي»

نهضَتْ راشيل عن السرير واقتربت من جوار باتريك.

قالتْ «نحنُ، الاثنين، مرهَقان»؛ ثم أضافتْ بحياء، «فلنأوِ إلى السرير ونَنَلْ قسطاً من النوم. لعلَّ الأمور في الصباح تبدو بصورة مختلفة»

سألها باتريك «هل ستبدو كذلك؟». كانت يدها تتحرَّق اشتياقاً وهي على ظهره. لم يكن يريد أنْ تلمسه هي أو أي شخص آخر. تملَّصَ مبتعداً، في انتظار أنْ تسنح له الفرصة لمغادرتها.

سألته راشيل، مع جهد مُتجدِّد لبثّ المرح، وهي تلمس العلبة التي فوق جهاز التلفزيون، «ماذا يوجد في هذا الصندوق؟»

«رماد رفات والدي»

غصَّتْ، وهي تسحب يدها، قالت «رماد والدك. هذا يُشعِرني بالقشعريرة»

قال باتريك «إنه لا يُقلقني. أعتقد أنّه أشبه بمتاع يُحمَل باليد، ألا تعتقدين ذلك؟»

قالت راشيل «أظن ذلك»، وقد حيَّرها هذا التحوُّل في مسار النقاش، «يا الله، ما أعني هو أنّه ينتابني شعور مُريب حول هذا. وجود والدك في الغرفة معنا. ربما سبق أنْ شعرتُ بهذا من قبل»

«مَنْ يدري؟ على أيّة حال، يمكنه أنْ يبقى معك بينما أنا في الحمّام. قد أغيب بعض الوقت»

قالت راشيل، وهي تفتح عينيها واسعاً، «هذه مهمّة ثقيلة»

«لا داعي للخوف. لقد كان رجلاً فاتناً، حسب قول الجميع»

تركَ باتريك راشيل في غرفة النوم وأقفل باب الحمّام خلفه. جلسَتْ على حافة السرير تنظر بقلق إلى العلبة، وكأنها تتوقع منها أنْ تتحرَّك. وانتهزتْ تلك الفرصة الذهبية لكي تمارس تمارين التنفُّس التي لم تكد تتذكرها من درسَي اليوغا اللذَين تلقّتهما، ولكن بعد مرور دقيقتين تولاها الضجر وبقيَتْ راغبة في الرحيل. المشكلة هي أنها كانت تُقيم في مكانٍ قصيّ في بروكلن. وركوب سيارة أجرة سوف يُكلِّفها من عشرة دولارات إلى اثني عشر، ولن تصل إلّا قبل ساعتين من صراعها لبلوغ معرض اللوحات عبر القطار النفقيّ. وإذا مكثَتْ هنا فقد تحظى ببعض النوم وبوجبة إفطار. وضمَّتْ إليها لائحة الطعام بكل ودّ، وبعد الإحساس الأوليّ بالإثارة والشعور بالذنب لرؤية العديد من الأشياء الرائعة التي ستأكلها، تغلَّبَ عليها الإحساس بالتعب.

تمدَّد باتريك في حوض الاستحمام، وإحدى ساقيه تتدلّى من حافته، والدم يسيل من ذراعه. كان قد وضع كل ما لديه من كوكايين في الجرعة الأخيرة، وعندما أغار عليه دفق النشوة، سقطَ عن حافة المغطس. والآن هو يُحدِّق إلى سياج الدش المصنوع من الكروم وإلى السقف الأبيض الصقيل، ويتنفّس تنفّساً قصيراً من خلال أسنانه المشدودة معاً، وكأنَّ عارضة خشبيّة انهارتْ على صدره. وتبقَّعَ قميصه بلطخ داكنة من العرق، وتلوّث مِنخراه بمسحوق الهيروين. كان قد ضغط المظروف مباشرة على أنفه، والآن المظروف مُلقى مُجعداً وفارغاً على عنقه.

سحقَ بيده اليُسرى إبرة الحقنة على جانب المغطس. لقد اضطرَّ إلى التوقّف عن الحقن – خاصة الآن بعد خلو وِفاضه من المخدِّر.

أغار عليه كل الأذى الذي ارتكبه دفعة واحدة، كجيشٍ من الملائكة الساقطة في لوحة من القرون الوسطى، ينخسه نحو الجحيم بمذراة حامية، ووجوههم الخبيثة التي تضحك ضحكاً مكبوتاً تُحيطه بالقُبح وباليأس. وشعر برغبة لا تُقاوَم في اتّخاذ قرار أبديّ، في قطع وعد مُخلِص ومستحيل بألّا يتعاطى المخدر بعد ذلك. فإذا نجا الآن، إذا سُمِحَ له بالنجاة، فلن يحقن نفسه بعد الآن.

وسط هذه الورطة الخطيرة، رجحَتْ كفّة حماسته على كفّة معرفته

بكذبه، على الرغم من أنَّه تبيَّنَ أصلاً، كأنه بندقيّة إطلاق نار عن بُعد، الشعور المُزعِج بأنَّ ثمة شيئاً ناقصاً. كان قد خلا وفاضه من المُخدِّر. لقد فسُدَتْ إحدى الحقنتين والأخرى سُدَّت بالدم. كان هذا أفضل، لكنّه كان شيئاً مُحزِناً حتماً. وقريباً جداً سوف تصرخ أعصابه المتشابكة كأطفال جياع، وكل خليّة في جسده سوف تؤلمه بصورة مُثيرة للأسى.

حرَّكَ باتريك ساقه بتردُّد نحو الأسفل وانتصبَ واقفاً. كاد يموت من جديد. دائماً يتلقّى جسمه صدمة. الأفضل أنْ يتناول قرص كوالود، وتمايل وهو ينتصب، كاد يغيب عن الوعي، متكئاً بتثاقُل على الجدار كرجلٍ عجوز، وخطا بحذر خارج المغطس. كان معطفه مُلقى على الأرض (لطالما فكَّرَ في أنْ يطلب من خيّاطه أنْ يضع لساناً على كُمّيه) فرفعه ببطءٍ شديد، وببطءٍ شديد أخرج قرص الكوالود، ووضعه في فمه، وأتبعه بقليل من الماء.

جلس باتريك، مذهولاً، على كرسي المرحاض ورفع سمّاعة الهاتف، وطلب 555-1726.

سمع «لا أستطيع أنْ أقترب من الهاتف الآن، ولكن إذا تركتَ...» اللعنة، إنه ليس موجوداً.

كذبَ قائلاً «بيير، أنا باتريك. لقد اتّصلتُ لأودّعك. سوف أتصل بك *حالما* أعود إلى نيويورك. وداعاً الآن»

بعد ذلك، اتصلَ بجوني هول في لندن لكي يتيقَّن من أنَّ هناك شيئاً سوف يكون في انتظاره لدى وصوله. رنَّ الهاتف مرات عِدَّة. ربما استطاع جوني أنْ يُقابله في المطار. رنَّ عدّة مرات أُخر. يا يسوع المسيح، هو أيضاً ليس موجوداً. شيء لا يُطاق.

حاول باتريك أنْ يُعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، وأخطأ مرات عِدَّة قبل أنْ يضعها في موقعها. كان ضعيفاً كطفل. وعندما لاحظَ أنَّ الحقنة لا تزال داخل المغطس التقطها بوهن، ولفّها بورقة مرحاض ورماها في سلّة نفاية ورق المرحاض التي تحت حوض المغسلة.

في غرفة النوم، وجد باتريك راشيل مرتمية على السرير، تغطّ بصورة غريبة. قال في نفسه، لو كان عاشقاً. لكنّه لم يتمكّن من إكمال الجملة. عبثَ اللهب في المياه المُضطربة تحت منحنى الجسر، صدى مكتوم، قُبلة. ثلج

ينزلق عن حذائه طويل الرقبة أمام المدفأة، يتجمَّع الدم عائداً إلى أطراف أصابعه. لو كان عاشقاً.

نظرتْ إلى باتريك كحوتٍ جنح إلى الشاطئ، كانت بيضاء البطن وأنفاسها ثقيلة.

يكون حزم الأمتعة أمراً سهلاً إذا لففتَ كلّ شيء في حزمة واحدة، وحشرتَها داخل حقيبة السفر، وجلستَ عليها، ورفعت السحّاب. واضطرَّ أنْ يفتح السحّاب من جديد لكي يُقحِم كتاب فيكتور إلى الداخل. قال بصوت رفيع بلكنة بيير الفرنسيّة، «أعتقد أنني بيضة، ولذلك أنا بيضة. وبعد أنْ ارتدى آخر قميصٍ نظيفٍ لديه، عاد إلى غرفة الحمّام لكي يتّصل بموظف الاستقبال.

تشدَّقَ قائلاً «ألو؟»

«نعم، يا سيدي، كيف أستطيع أنْ أخدمك؟»

أضافَ بأسلوب الأطفال «أريد سيارة ليموزين عند الساعة السابعة والنصف، من فضلك. سيارة كبيرة لها نوافذ سوداء»

«سوف أدبِّر هذا الأمر، يا سيدي»

«وهلّا أحضرتَ لي الفاتورة؟»

«حاضر، سيدي. هل أُرسِل إليك خادم الفندق لكي يحمل أمتعتك؟»

«بعد حوالي ربع ساعة، شكراً لك». كان كل شيء تحت السيطرة. وأكمل ارتداء ملابسه، ووضع رقعة عينه، وجلسَ على الأريكة في انتظار العامل ليحمل حقيبته. هل يترك رسالة قصيرة لراشيل؟ تقول «لا أعتقد أنني سوف أنسى أمسيتنا التي قضيناها معاً»، أو «فلنجتمع من جديد في وقت قريب». أحياناً يكون الصمت أبلغ من الكلام.

سُمِعَ طرق خفيف على الباب. كان عامل الفندق رجلاً في حوالي الستين من العمر، ضئيل الجسم، أصلع، ويرتدي زي الفندق الرسميّ بنّيّ اللون شديد البساطة.

«هناك فقط حقيبة واحدة»

قال بلكنةٍ أيرلنديّة «حاضر، سيدي»

سارا على طول الرواق، وباتريك محنيّ الظهر قليلاً لكي يحمي كبده، ومائل إلى جنبه جرّاء الألم الذي في ظهره.

قال باتريك من باب فتح حديث «الحياة ليست مجرد حقيبة من القذارة، بل وتُسرِّب ما فيها. ولا تستطيع أنْ تتجنّب التلوُّث بها، ألا تعتقد ذلك؟»

أجاب الرجل الآخر بنبرة صوت مرحة وممتعة «أعتقد أنَّ هذا هو شعور الكثير من الناس بها». ومن ثم توقفَ وحطَّ حقيبة باتريك على الأرض.

قال مرتّلاً «وسوف تُسفَك أنهرٌ من الدماء. وسوف يغرق الأشرار، ولن تنجو الأماكن المرتفعة»

سأل باتريك بدماثة «أهذه إحدى تنبؤاتك؟»

قال عامل الفندق «هذا ما يقوله الكتاب المقدس، وسوف تنهار الجسور» وعدَ بهذا وهو يُشير بإصبعه إلى السقف ومن ثم سدَّد ضربة قوية إلى ذبابة خفيّة. «وسوف يهتف الناس بأنَّ نهاية العالم ستحلّ عليهم»

قال باتريك «وسوف يكونون على صواب، ولكن عليّ أنا أنْ أسرع بالمغادرة»

قال عامل الفندق، ومازال متحمساً، «أنت على صواب. سوف أقابلك في مكتب الاستقبال» وهرع مبتعداً نحو مصعد الخدمات. قال باتريك في نفسه، وهو يستقلّ المصعد الآخر، حاولْ قدرَ استطاعتك أنْ تعيشَ على الحافّة، لا معنى للتنافُس مع أناسٍ يُصدّقون ما يُشاهدون على شاشة التلفزيون.

كانت الفاتورة التي بلغت قيمتها ألفين ومئة وثلاثة وخمسين دولاراً أكبر حتى مما توقع باتريك. كان مسروراً في سِرِّه. كان تآكُل رأس المال طريقة أخرى لتبديد ثروته، لكي يُصبح نحيلاً وخاوياً كما شعر، لكي يُخفِّف من عبء حُسن حظ غير مُستحقّ، ويُنفِّذ انتحاراً رمزيّاً بينما لا يزال يتردَّد في تنفيذ انتحار حقيقيّ. وضمرَ أيضاً الوهم المُضاد القائل إنه عندما يُصبح فقيراً مُعدماً سوف يكتشف هدفاً برّاقاً تولَّدَ من حاجته إلى جَني المال. وبالإضافة إلى قيمة فاتورة الفندق، لا بُدَّ أنّه أنفقَ ألفين آخرين أو ألفين ونصفاً من الدولارات على سيارات الأجرة، والمخدرات، والمطاعم، بالإضافة إلى ستة آلاف مقابل تكلفة الانتقال بالطائرة. وهذا جعل المبلغ الإجماليّ يفوق العشرة آلاف دولار، وتكاليف الجنازة سوف تُضاف لاحقاً. شعرَ كأنه رابح في برنامج مُسابقات. كم كان سيكون شيئاً مُزعجاً لو أنَّ المبلغ ثمانية آلاف ونصف أو تسعة. لقد أنفقَ

عشرة آلاف في غضون يومين. لا أحد يستطيع أنْ يقول إنّه لا يعرف كيف يستمتع بوقته.

رمى باتريك بطاقته الائتمانيّة على الطاولة من دون أنْ يُزعج نفسه من التحقُّق من قيمة الفاتورة.

تثاءب وقال «أوه، بالمناسبة، سوف أوقِّع على الاستمارة، ولكن هل تستطيع أنْ تترك المبلغ الإجماليّ مفتوحاً؟ ما زالت صديقة لي موجودة في الغرفة. قد ترغب في تناول وجبة إفطار»، ثم أضاف بسخاء؛ «في الحقيقة، أنا متأكِّد من أنها سوف ترغب في ذلك»

تردَّد موظف الاستقبال قائلاً «حسَناً»، متسائلاً إنْ كان ينبغي أنْ يُثير مشكلة بسبب تلك الإقامة المزدوجة، «وهي ستترك الغرفة بحلول الظهيرة، أليس كذلك؟»

قال باتريك كما لو أنَّ ذلك وضعٌ استثنائيّ «أعتقد ذلك. في الواقع إنَّ لديها عملاً تؤدّيه». ووقَّعَ على استمارة البطاقة الائتمانيّة.

«سوف نرسل نسخة عن المبلغ الإجماليّ إلى عنوان منزلك»

قال باتريك، متثائباً من جديد، «أوه، لا أنصحك بفعل هذا». لاحظَ أنَّ عامل الفندق واقف في الجوار حاملاً الحقيبة. ابتسمَ. «مرحباً، أنهارٌ من الدماء، هه؟» نظر عامل الفندق إليه بإبهام ذليل. ربما تخيّل الأمر كله. ربما الحصول على قسطٍ من النوم فكرة سديدة.

قال موظف الاستقبال، وهو يسلِّم باتريك نسخة من الفاتورة داخل مظروف، «آمل أنْ تكون قد استمتعت بالإقامة معنا»

قال باتريك راسماً أجمل ابتساماته، «كلمة استمتاع ليست كافية. بل أحببتها». رفضَ استلام المظروف مع تجهُّمٍ قليل. وهتفَ فجأة «أوه، يا إلهي، لقد نسيتُ شيئاً في الغرفة». واستدار نحو عامل الفندق، «هناك صندوق من الخشب على أعلى جهاز التلفزيون؛ هلّا صعدتَ وأحضرته إليّ؟ وكيس الورق البنيّ سوف يكون مفيداً أيضاً»

كيفَ نسيَ الصندوق؟ لا داعي للاتصال بفيينا لتقديم تفسير. تُرى ماذا فعلوا عند مصب النهر الكئيب في كورنويل حيث كان والده قد طلبَ أنْ يُنثر رماده؟ لقد اضطرَّ أنْ يرشو مِحرقة محليّة لكي تُعطيه بعضاً من البقايا.

عاد عامل الفندق بعد عشر دقائق. سحقَ باتريك عقب سيجارته وتناول كيس الورق البنيّ منه. وسار الرجلان معاً نحو الأبواب الدوّارة.

قال عامل الفندق «لقد سألتني السيدة الشابة إلى أين أنتَ ذاهب»

«وماذا قلتَ؟»

«قلتُ إنني أظنّ إنكَ ذاهب إلى المطار»

«وماذا قالتْ؟»

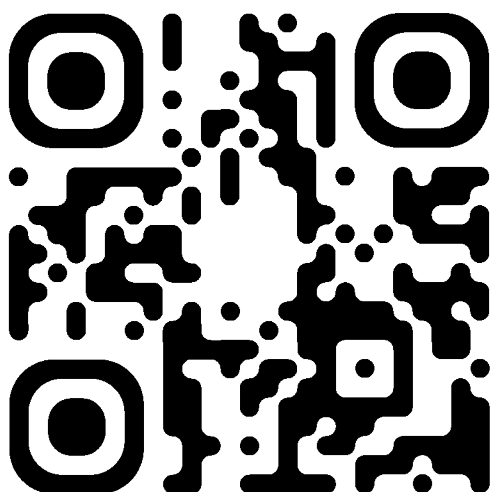
قال عامل الفندق باحترام «لا أستطيع أنْ أردِّد ما قالت، يا سيدي»

قال باتريك، وهو يدور خارجاً من الباب، «يكفي هذا». اضرب. احرِق. وتابع طريقك. في الضوء المُبهِر في الخارج، وتحت السماء الأوسع والأكثر شحوباً، ثُقِبتْ مُقلتا عينيه كما في تمثال رومانيّ.

على الطرف المقابل من الشارع شاهد رجلاً، ذراعه اليُسرى مقطوعة من الرسغ، وفي موقع بروز في العظم كان هناك جلد مسلوخ، ولحيته طويلة عمرها أربعة أيام، ووجهه ينمّ عن مرارة، وعدستا عينيه صفراوان، وشفتاه ملتويتان، وشعره خفيف، ومعطف مطريّ مُبقَّع. ارتعشت الجدعة نحو الأعلى بحركة رشيقة لا إراديّة. إنه مُدمن على التدخين. وكاره للعالم. *Mon semblable* (يُشبهني). كما يقول الآخرون.

مع ذلك، هناك بعض الفروق المهمّة. وزّع باتريك بعض الأوراق الماليّة على حارس الباب وعلى عامل الفندق. فتحَ السائق الباب له فركب في المقعد الخلفيّ حاملاً كيسه الورقيّ البنيّ. تمدَّد عبر المقعد الجلديّ الأسود، وأغمضَ عينيه، وتظاهر بالنوم.

النهاية



خماسيّة باتريك ميلْروز

بعض الأمل



روايـــة

Author: **Edward St Aubyn** | اسم المؤلف: إدوارد سينت أوبين

Title: **Patrick Melrose – Some Hope** | عنوان الكتاب: باتريك ميلروز-بعض الأمل

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al–mada for media, culture and arts

بغـداد: حي أبـو نـؤاس – محلـة 102 – شـارع 13 – بنايـة 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشـامون – شـارع المدارس

Beirut: Bchamoun – Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 961 175 2616

دمشـق: شـارع كرجيـة حـداد- متفـرع مـن شـارع 29 أيـار

Damascus: Karjieh Haddad Street – from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

بعض الأمل

-III-

ترجمة: أسامة منزلجي



الإهداء

إلى أمي، وأختي

-1-

استيقظ باتريك عالِماً أنّه كان يحلم ولكن لم يتذكَّر محتوى حُلمه. شعرَ بالوجع الاعتياديّ الناجم عن محاولة تقصّي شيء اختفى تواً عن حافة الوعي ولكن ما زال في الإمكان الاستدلال عليه من غيابه، كدوّامة من قُصاصات الورق تسبَّبَ بها مرور سيارة مُسرعة.

كانت الشظايا الغامضة لحُلمِه، الذي بدا أنَّ أحداثه جرتْ بجوار بحيرة، قد اختلطَتْ مع عرضٍ لمسرحيّة «*واحدة بواحدة*»[1] كان قد شاهده في الليلة السابقة مع جوني هول. وعلى الرغم من اختيار المُخرِج محطّة حافلات موقعاً لأحداثها، لم يتمكّن أيّ شيء من إزالة صدمة سماع كلمة «رحمة» مراتٍ عديدة في ليلة واحدة.

قال في نفسه، مع دفقٍ وجيزٍ من الإثارة مكّنه من إزاحة أغطية السرير جانباً والتفكير في النهوض، ربما نشأتْ مشكلاته كلّها من استخدام المفردات الخطأ. وتحرَّكَ في عالم كانت كلمة «إحسان» فيه، الشبيهة بامرأة جميلة يشكّ زوجها الغيور فيها، تُخفَّف دائماً بكلمات مثل «غداء»، «لجنة»، أو «كرة». أما كلمة «شفقة» فلا أحد كان لديه الوقت ليُكرِّسه لها، في حين تكرَّرَ ظهور كلمة «اللِّين» على هيئة شكاوى حول أحكام قصيرة الأمد بالسجن. ومع ذلك، علِمَ أنَّ متاعبه كانت أعمق من ذلك.

كان قد أُنهِكَ بسبب حاجته الدائمة إلى أنْ يتواجد في مكانَين في وقتٍ واحد؛ داخل جسده وخارجه، على السرير وعلى دعامة الستارة، في الوريد وفي ماسورة الحقنة، عينٌ خلف الرقعة وعينٌ تنظر إلى الرقعة، محاولاً

1- مسرحية لوليم شكسبير، *Measure for Measure* – المترجم

الكفّ عن المُراقبة بالغياب عن الوعي، ومن ثم يُضطرّ إلى مراقبة حواف اللاوعي وجعل الظلام مرئيّاً؛ مُلغياً كل جهد، ولكنْ مُفسِداً اللامبالاة بالقلق؛ منجذباً إلى التلاعُب بالألفاظ ولكن مُبتعداً عن فيروس الإبهام؛ مائلاً إلى الجُمَل المُنقسمة إلى نصفَين، وجاعلاً مِحورها معنى كلمة «ولكن»، ولكن مشتاقاً إلى مدّ لسانه الملفوف كلسان أبو بريص لالتقاط ذبابة بعيدة بمهارة لا تتزعزع؛ توّاقاً إلى الفرار من التدمير الذاتي للمفارقة الساخرة وإلى أنْ يقول ما يعني حقّاً، أي فقط ما يمكن للمفارقة الساخرة أنْ تنقله.

قال باتريك، وهو ينقل ساقه خارج السرير، بالإضافة إلى المكانَين اللذَين يرغب في التواجد فيهما هذه الليلة: في حفلة بريدجت *وليس* في حفلة بريدجت. لم يكن في مزاج يسمح له بتناول العشاء مع أناس يحملون اسم بوسينغتون-لين. سوف يتصل هاتفياً بجوني ويرتِّب أمر تناول العشاء معه وحدهما. واتّصل بالرقم ولكنه سرعان ما قَطَعَ الخط، وقرَّرَ أنْ يُعاوِد الاتّصال بعد أنْ يُعدّ بعض الشاي. وما إنْ أعاد السماعة إلى مكانها حتى رنَّ جرس الهاتف. كان المُتَّصِل هو نيكولاس برات ليؤنّبه لعدم تلبيته دعوته إلى تشيتلي.

قال نيكولاس برات «لا داعي لشكري على دعوتي لك على هذه المناسبة البرّاقة هذه الليلة. إنني أدين بها لوالدك لكي أحرص على جعلك تنخرط في مجرى الأحداث»

قال باتريك «إنني غارقٌ فيها. على أيّة حال، أنتَ مهّدتَ السبيل للحصول على دعوة لي إلى تشيتلي بجلب بريدجت إلى لاكوستْ عندما كنتُ في الخامسة من العمر. وحتى حينئذٍ كان معروفاً أنّه مُقدَّرٌ لها أنْ تتبوّأ ذُرى المجتمع»

قال نيكولاس «لقد كنتَ سيئ السلوك إلى درجة أنكَ لم تلاحظ أيَّ شيء مهمٍّ *كهذا*. وأتذكّرُ ذات مرّة في فيكتوريا رود أنكَ سدّدتَ إليّ رفسة قويّة على قَصَبَة ساقي، ورحتُ أقفز في أرجاء القاعة، مُحاولاً إخفاء ألمي لكيلا أُزعِج أمّك الملائكيّة. بالمناسبة، كيف حالها؟ لم نعُد نراها في هذه الأيام»

«أمر مُذهل، أليس كذلك؟ يبدو أنّها تعتقد أنَّ هناك أشياء أفضل يجب القيام بها من ارتياد الحفلات»

قال نيكولاس بحِكمة «لطالما رأيتُ أنّها غريبة الأطوار قليلاً»

قال باتريك «حسب ما أعلم فهي تنقل بالسيارة وديعةً من عشرة آلاف حقنة إلى بولندا. ويُقال إنَّ هذا تصرّف رائع منها، لكنني ما زلتُ أعتقد أنَّ الإحسان يبدأ من المنزل. كان في استطاعتها أنْ توفِّر على نفسها القيام بالرحلة بجلب الحُقن إلى شقّتي»

قال نيكولاس «ظننتُ أنكَ سوف ترمي هذا كلّه خلفَ ظهرك»

«خلف ظهري، أو أمامي. من الصعب التفريق بينهما، هنا في المنطقة الرماديّة[1]»

«هذا الأسلوب في الكلام وأنتَ في سن الثلاثين يُعتبَر ميلودراميّاً»

تنهّدَ باتريك، «في الحقيقة، لقد تخلَّيتُ عن كل شيء، لكنني لم أتبنَّ أي شيء بدلاً عنه»

«كان يمكن أنْ تبدأ بمرافقة ابنتي إلى تشيتلي»

قال باتريك كاذباً، ولم يكن يُطيق أماندا برات، «أخشى أنني لا أستطيع، سوف يقلّني شخص آخر»

قال نيكولاس «أوه، حسن، سوف تراها في منزل آل بوسينغتون-لين. وسوف نتقابل في الحفلة»

كان باتريك قد تردَّد في قبول دعوته إلى تشيتلي لأسبابٍ شتّى. أحدها هو أنَّ ديبي سوف تكون هناك. وبعد سنين طويلة من محاولة إبعادها عنه، حيَّره نجاحه المُفاجئ في فعل ذلك. ومن ناحية أخرى، بدا أنها كانت تستمتع في الابتعاد عن إقامة علاقة حبّ معه أكثر من استمتاعها بأي شيء آخر في علاقتهما طويلة الأمد. فكيف يضع اللوم عليها؟ وتوجَّعَ من آلام الاعتذار الذي لم يجهر به.

خلال السنوات الثماني التي تلتْ وفاة والده، تسرَّبَ شباب باتريك منه من دون أنْ تحلّ محلّه أيّة علامات للنضج، ما عدا ميله إلى الحزن والإرهاق

1- المنطقة الرمادية: هي حالة نفسيّة من التشوّش وانعدام الإحساس بالاتجاه - المترجم

اللّذين غطيا على كراهيته وجنونه ويمكن تسميته بـ «النضج». وقد استُبدِلَ الإحساس بتعدُّد البدائل وتشعُّب الطُرُق بأسى رصيف الميناء، وتأمُّل لائحة طويلة من القوارب المفقودة. كان قد شُفيَ من إدمان المخدرات بعد الترَدُّد على عدد من المستشفيات، متخلياً عن العلاقات الجنسيّة المتعدّدة وارتياد الحفلات لكي يتابع حياة مُشوَّشة، كقوات فقدتْ قائدها. وقد حفظه ماله، الذي كان يتضاءل بسبب الإسراف وفواتير العلاج الطبيّ، بعيداً عن الفقر لكنّه لم يدفع الضجر عنه. ومؤخراً أدركَ مرتعباً أنَّ عليه أنْ يجد عملاً. ولذلك فكَّر في أنْ يُصبح مُحامياً، آملاً في أنْ يجد بعض المتعة في إبقاء المجرمين أحراراً أطول مدة ممكنة.

أوصله قراره بدراسة القانون إلى درجة أنْ يستأجر فيلم «*اثنا عشر رجلاً غاضباً*»[1] من محل بيع أشرطة الفيديو. وكان قد أمضى عدة أيام وهو يجتهد لكي يدحض الشهود الوهميين بملاحظات مُدمِّرة، أو يميل فجأة فوق قطعة أثاث ليقول باحتقارٍ متزايد، «إنني أبيِّن لكم أنَّه في ليلة الـ...» إلى أنْ يتراجع، وبعد أنْ يتحوَّل إلى الضحيّة التي تخضع لاستجوابه هو، إذا به ينهار في نوبة من النشيج الهستيريّ. وكان قد اشترى عدداً من الكتب، على غرار «*مفهوم القانون*» و «*مرافعة ستريت حول قضيّة تورت*»، و «*مرافعة تشارلزوورث حول الإهمال*»، وذلك الركام من كتب القانون تتنافس على الحظوة بانتباهه مع كتب مُفضّلة قديمة مثل «*أفول الآلهة*»[2] و «*أسطورة سيزيف*»[3].

وبعد انتهاء تأثير المخدرات، قبل ذلك بعامَين، كان قد بدأ يُدرك معنى أنْ يكون صافي الذهن طوال الوقت، ومرور فترة ممتدَّة من الوعي، كنفقٍ أبيض، فارغ ومُعتِم، كعَظْمَةٍ أُفرِغَتْ من نقيها. ويجد نفسه يُتمتم وسط أداء إحدى مهامّه العاديّة، وقد جرفه مُنزَلَق الندم في أثناء غلي الماء في إبريق

1- فيلم أميركي من إنتاج عام 1957، ويحكي عن هيئة مُحلفين تتألّف من 12 رجلاً في قاعة محكمة يُحاولون التوصّل إلى حكم إدانة لمُتّهم بجريمة قتل، ويوشكون على اتخاذ ذلك القرار بالإجماع لولا أنّ أحد أولئك المُحلّفين يُبدي شكّه في صحّة تلك الإدانة – المترجم

2- كتاب لفريدريك نيتشه – المترجم

3- كتاب لألبير كامو – المترجم

الشاي أو قفز قطعة الخبز من المحْمَصة، «ليتني أموت، ليتني أموت، ليتني أموت».

في الوقت نفسه، كان الماضي يمتد أمامه كجثّة تنتظر مَنْ يُحنّطها. كان يستيقظ في كل ليلة إثر كوابيس وحشيّة تنتابه؛ ويُصبح شديد الخوف من النوم، يزيح عنه الأغطية المُشبَّعة بالعَرَق ويُدخّن السجائر إلى أنْ يزحف الفجر إلى صفحة السماء، شاحباً وقذراً كطبقات نبات فِطر مسموم. كانت شقّته التي تقع في إنيسمور غاردنز ممتلئة بأشرطة فيديو عنيفة مبعثرة على الأرض تعبِّر تعبيراً مُبهماً عن سلسلة لا تنتهي من العنف الذي يُمارَس في ذهنه. كان يسير على أرضٍ تميدُ ببطء كبلعوم يبتلع، ويقفُ على الدوام على حافة الهلوسة.

وأسوأ من ذلك كلّه، ومع النجاح المُستمر لصراعه ضد المخدرات، وجدَ أنَّ هذا الصراع كان يحجب صراعه لكيلا يُصبح نسخة عن والده. وبدا له الادّعاء بأنَّ كل رجل يقتل الشيء الذي يحبّ بمثابة تخمين عشوائيّ مقارنةً بشبه يقين رجلٍ يتحوَّل إلى شيءٍ يكرهه. وطبعاً هناك أناسٌ لا يكرهون أيّ شيء، لكنهم شديدو النأي عن باتريك بحيث لا يستطيع أنْ يتخيَّل مصيرهم. كان تأثير ذِكرى والده لا يزال كالنوم المغناطيسيّ تجذبه كالسائر في نومه نحو حافة هاوية المُحاكاة غير المرغوبة. وبدا التهكُّم، والغطرسة، والقسوة والخيانة أقلّ إثارة للغثيان من مشاعر الرعب التي توجِدها. وماذا في وسعه أنْ يفعل خلاف أنْ يتحوّل إلى آلةٍ تحوِّل الرعبَ إلى احتقار؟ كيف يستطيع أنْ يُخفِّف من حَذَره عندما لا تسمح له أشعة الطاقة العصبيّة، كالمصباح اليدويّ الذي يتنقّل ضوؤه في أرجاء زنزانة سجن، بالتفكير بالفرار، أو لأيّة ملاحظة أنْ تصدر من دون تفحّصها.

إنَّ السعي إلى ممارسة الجنس، والافتتان بجسدٍ ما، والنشوة القصيرة لرعشة جنسيّة، الأضعف بكثير وتتطلّب من الجهد أكثر من نشوة المخدرات، ولكنّها شبيهة بتأثير حقنة، تُكرَّر باستمرار لأنَّ دورها في الأساس مُسكِّن – كل هذا كان إلزامياً بقدرٍ كافٍ، لكنَّ تعقيداته الاجتماعيّة عُظمى: الخيانة، خطر الحمْل، وخطر الإصابة بمرض، والاكتشاف، ومُتَع السرقة، والتوترات التي تنشأ ممّا يمكن في حالة أخرى أنْ يكون ظروفاً مملّة جداً؛ والطريقة

التي يمتزج بها الجنس مع النفاذ إلى الحلقات الاجتماعيّة التي تزيد باطراد الثقةَ في النفس حيث قد يجد استراحةً له، وحياةً تعادل الحميميّة والطمأنينة اللتين يوفرهما عناق المُخدرات الشامل.

حالما مدَّ باتريك يده ليتناول سجائره، رنَّ جرس الهاتف من جديد.

قال جوني «كيف حالك؟»

قال باتريك «إنني عالِقٌ في أحد أحلام اليقظة الجدليّة. ولا أعلم لماذا أعتقدُ أنَّ الذكاء يتألَّف من إثبات قُدرتي على إثارة شجار مع نفسي، ولكنْ سيكون أمراً ممتعاً التشبُّث بشيٍ ما على سبيل التغيير»

قال دوني إنَّ *واحدة بواحدة* «مسرحيّة جدليّة»

قال باتريك «أعلم هذا، وانتهى بي الأمر إلى القبول نظريّاً بأنَّ على الناس أنْ يغفروا على أساس مقولة «لا تحكم لكيلا يُحكَم عليك»، ولكنها لا تتمتَّع بأيّة سُلطة شعوريّة، على الأقلّ ليس في تلك المسرحيّة»

قال جوني «بالضبط، إذا كان التصرُّف السيئ يُشكِّلُ سبباً وجيهاً لغفران السلوك السيئ، لكنّا جميعاً ننضح بالشهامة»

سأل باتريك «ولكن ما هو تعريف السبب الوجيه؟»

«لا تسألني. إنني أقتنع أكثر فأكثر بأنَّ الأمور تحدث فقط، أو لا تحدث فقط، وليس في وسع المرء أنْ يفعل أي شيء حيال حثّها على الإسراع». كان جوني فقط يُقلِّب هذه الفكرة في ذهنه ولم يكن مُقتنعاً بها البتّة.

قال باتريك «إنَّ النضج هو كل شيء»

قال جوني «نعم، بالضبط، وهذه مسرحيّة أخرى تماماً»

قال باتريك «من المهمّ أنْ تُقرِّر في أيّة مسرحية سوف تمثّل قبل أنْ تغادر السرير»

«لا أعتقد أنَّ أحداً سمعَ بالمسرحيّة التي نمثّلها هذه الليلة. مَنْ هم آل بوسينغتون–لين؟»

سألَ باتريك «هل دعوك أنت أيضاً لتناول العشاء عندهم؟ أعتقد أننا سوف نُضطر إلى أنْ نقول إنَّ سيارتنا تعطّلتْ على الطريق السريعة، أليس

كذلك؟ ونتناول وجبة العشاء في الفندق. من الصعب مواجهة أشخاص غرباء من دون تناول مخدِّر»

على الرغم من أنَّ باتريك وجوني كانا يتغذيان على الأطعمة المشويّة والمياه المعدنيّة، إلّا أنهما كانا يشعران بحنين إلى حياتهما السابقة.

أشار جوني قائلاً «ولكن عندما كنا نتناول المخدرات في الحفلات، لم نكن نرى إلّا داخل المراحيض»

قال باتريك «أعلم هذا. وفي هذه الأيام عندما ألج المراحيض أقول لنفسي، «ماذا تفعل هنا؟ أنت لم تعُد تتعاطى المخدرات!». ولا أُدرِك إلّا بعد أنْ أسرع بالخروج أنني كنتُ أريد أنْ أتبوَّل. وبالمناسبة، هلّا ذهبنا معاً بالسيارة إلى تشيتلي؟»

«طبعاً، ولكن عليَّ أنْ أحضر اجتماع أميركا الشماليّة عند الساعة الثالثة»

قال باتريك «لا أعلم كيف تتحمَّل تلك الاجتماعات. أليست ممتلئة بأناس شنيعين؟»

قال جوني «طبعاً، ولكن هذا هو حال أيّ مكان مزدحم»

«ولكنْ على الأقلّ ليس مطلوباً مني أنْ أؤمن بالله لكي أنضمّ إلى الحفلة هذه الليلة»

ضحك جوني وقال «أنا واثق من أنّه لو كان مطلوباً منك ذلك فسوف تجد طريقة ما للدخول. إنَّ ما يُرهِق الأعصاب هو إجبارك على اتّباع السلوك القويم وأنتَ مُجبَر على التغنّي بمحاسنه»

«ألا يُثبط النِفاق همّتك؟»

«لحُسن الحظ، لديهم شِعار بهذا الخصوص: «نافِق لكي تنجح»»

أصدر باتريك ضجيج تقيُّؤ. «لا أعتقد أنَّ جعل البحّار العجوز[1] ضيفَ عُرسٍ هو حلّ المشكلة، ما رأيك؟»

«الأمر ليس هكذا، بل هو أقرب شَبَهاً بغرفة ممتلئة بالبحّارة العجائز يُقيمون حفلة خاصة بهم»

1- يقصد The Ancient Mariner قصيدة كولريدج الشهيرة – المترجم

قال باتريك «يا إلهي! إنها أسوأ مما ظننتُ»

قال جوني «أنتَ الذي يرغب في ارتداء ملابس ضيف عرس. ألم تخبرني بأنك في آخر مرّة ضربتَ رأسك بالجدار وتوسّلتَ لتحريرك من عذاب إدمانك، كنتَ دائماً تردِّد تلك الجملة حول هنري جيمس: «كان مُدمناً على تناول الطعام في الخارج واعترفَ بأنّه تلقّى مائة وخمسين دعوة في شتاء عام 1878 أو ما شابه ذلك؟»

قال باتريك «ممم»

سأل جورج «على أيّة حال، ألا تجد الإقلاع عن تعاطي المخدرات أمراً صعباً؟»

قال باتريك «طبعاً صعب، إنه كابوس مُريع». وبما أنّه كان يمثّل الموقِف الرواقيّ ضد تلقّي العلاج، فلم يكن ينوي أنْ يُضيِّع فرصة زيادة الضغط العصبيّ الذي كان يتعرَّض له.

همسَ «إمّا أنْ أستيقظ في المنطقة الرماديّة، وقد نسيتُ كيف أتنفّس، وقدماي بعيدتان كثيراً عني ولستُ متيقّناً من قُدرتي على دفع تكاليف الهواء؛ أو وسط سلسلة لا نهاية لها من عمليات قطع الرؤوس الكسول، ورضفات[1] سَرقَتْها حركة المرور تجري أمامي، وكلاب تتعارك حول الكبد الذي أريد بقوة أنْ أستعيده. ولو أنَّ فيلماً يُصنَع عن حياتي الداخليّة، فلن يتقبّله الجمهور. وسوف تصرخ الأمهات، «أعيدوا عرض فيلم «*مذابح تكساس بالمنشار الآليّ*»، لكي نحصل على تسلية عائليّة لائقة!». وتلك المتع كلها مصحوبة بالخوف من أنني سوف أنسى كل ما حدث لي، وأنَّ كل الأشياء التي شهدتُها سوف تضيع، كما تقول النسخة المُطابِقة[2] في ختام فيلم «*Blade Runner*»، «كالدموع تحت المطر»»

قال جوني، الذي طالما سمع باتريك يتدرَّب على إلقاء مقاطع من هذا الخطاب، «نعم، نعم. إذن لِمَ لا تتابع طريقك؟»

1- الرضَفات؛ جمع رضْفة: الجزء المتحرك من رأس الركبة (بالعاميّة: صابونة الركبة) – المترجم

2- النسخة المُطابِقة: اسم شخصيّة آليّة في الفيلم المذكور – المترجم

قال باتريك «بسبب مزيج من الكبرياء والإحساس بالرعب»، ومن ثم، بعد أنْ قام بسرعة بتغيير الموضوع، سأل متى سينتهي اجتماع جوني. واتّفقا على مغادرة شقّة باتريك عند الساعة الخامسة.

أشعل باتريك سيجارة أخرى. لقد أثار حديثه مع جوني أعصابه. لِمَ قال، «مزيج من الكبرياء والرعب». أما زال يعتقد أنَّ من غير اللائق أنْ يُظهِر أدنى قدر من الحماسة، حتى أمام أقرب أصدقائه؟ لِمَ عليه أنْ يكمِّم المشاعر الجديدة بعادات قديمة في الكلام؟ قد لا يكون هذا جلياً لأي شخص آخر، ولكنه كان يتوق إلى الكفّ عن التفكير في نفسه، والكفّ عن نبش ذكرياته، وإيقاف دفق استبطان أفكاره واستعادتها. لقد أراد أنْ ينطلق إلى عالم أرحب، أنْ يتعلَّم شيئاً، لإحداث فرق. وفوق ذلك كله، أراد أنْ يكفّ عن التصرُّف كالأطفال من دون اللجوء إلى القِناع الرخيص بأنْ يُصبح أباً.

تمتم باتريك، بعد أنْ غادر أخيراً السرير وارتدى بنطلوناً، «هذا لا يعني أنَّ في هذا خطراً جسيماً». لقد ولتْ تقريباً الأيام التي كان خلالها ينجذب إلى نوع الفتيات اللواتي يهمسن، «احذَر، إنني لا أضعُ مانعاً للحمل»، وهو يلجهنّ. ويتذكّر أنَّ إحداهنّ كانت تتحدث بحماس عن العيادات التي تُجري عمليات الإجهاض، «إنَّ المعاملة ممتازة طوال فترة المكوث هناك. فالأسرَّة مريحة، والطعام جيّد، ويمكن البوح بالأسرار للفتيات الأخريات، لأنَّ المرأة لن تقابلهن بعد خروجها من هناك. حتى العملية التي تُجرى ممتعة. ولا تُصاب بالاكتئاب إلّا لاحقاً».

دفنَ باتريك السيجارة في المنفضة وانتقل إلى المطبخ.

لِماذا هاجمَ اجتماعات جوني؟ إنها مجرد أماكن للتشاور. لماذا جعل كل شيء يبدو فظاً وصعباً؟ ومن ناحية أخرى، ما فائدة الذهاب إلى مكانٍ ما للاعتراف إذا لم تكن تنوي أنْ تبوح بأهم شيء؟ كانت هناك أشياء لم يُخبِر بها أحداً ولن يُخبر بها أحداً.

-2-

تهادى نيكولاس برات، ولا يزال يرتدي بيجامته، عائداً إلى غرفة النوم في منزله في كلابون ميوز، وهو يشدّ على الرسائل التي جمعها عن ممسحة الباب ودقَّقَ النظر في خط اليد الذي على المُغلّفات ليرى كم دعوة «جادّة» تحتوي. كان قد «أحسن المُحافظة» على جسمه وهو في السابعة والستين بقدر ما «طال انتظار» مذكّراته. لقد قابل «كل شخص»، وأصبحت لديه «ذخيرة هائلة من القصص»، لكنَّ التعقُّل دفعه إلى وضع إصبعه الأنيق على شفتيه نصف المنفرجتين ولزم الصمت ولم يُباشِر في تأليف الكتاب الذي كان يُشاع على نِطاقٍ واسع أنّه يعمل على كتابته، ولم يكن أمراً مُستغرَباً في العالم المُسمّى بالـ«العالم الكبير»، أي بين أوساط الآلاف الثلاثة من الأثرياء الذين يعرفون اسمه، أنْ يسمع رجالاً ونساءً قلقين «يخافون أنْ يفكّروا» في كيف أتى ذِكرهم في «كتاب نيكولاس».

انهارَ على سريره، حيث بات هذه الأيام ينام وحده، وأوشكَ أنْ يختبِر نظريّته القائلة إنه لم يتلقَّ أكثر من ثلاث رسائل تستحق أنْ يفتحها، وإذا برنين الهاتف يُقاطعه.

تثاءبَ «ألو»

قال صوت رشيق لامرأة «ني-كو-لا؟» ناطقة الاسم كأنّه اسمٌ فرنسيّ، «أنا جاكلين دالانتور»

تكلّفَ نيكولاس المرح في لكنته الفرنسيّة الرديئة، «*Quel bonneur*» (يا للمفاجأة السارَّة)

«كيف حالك، عزيزي؟ لقد اتصلتُ بك من جديد لأنَّنا جاك وأنا ننزل

في شيت-ليه للاحتفال بعيد ميلاد سوني، وفكَّرتُ في أنكَ ربما أنتَ أيضاً ستكون هناك»

قال نيكولاس بصرامة «طبعاً سأكون موجوداً. في الحقيقة، بوصفي القديس الشفيع للانتصار الاجتماعي الذي حقّقته بريدجت، فإنَّ وجودي هناك حتميّ. وأنا، قبل كل شيء، الذي قدَّمَ الآنسة الصغيرة واتسون-سكوت، كما كانت حينئذٍ، إلى المجتمع الراقي، كما كان يُسمّى حينئذٍ، وهي لم تنسَ دَينها للعم نيكولاس»

قالتْ جاكلين «ذكِّرني، هل كانت إحدى السيدات اللائي تزوجتهن؟»

قال نيكولاس «لا تكوني سخيفة»، متظاهراً بأنّه أُهين، «لا داعي إلى اختلاق المزيد من الزيجات لمجرّد أنني مُنيتُ بست زيجات فاشلة»

«ولكن أنا جادّة يا ني-كو-لا، لقد اتصلتُ بك لأسألك إنْ كنتَ ترغب في مرافقتنا بالسيارة. لدينا سائق من السفارة. سوف يكون الأمر ممتعاً أكثر - أليس كذلك؟ - إذا نزلنا معاً إلى هناك، أو صعدنا معاً - إنَّ تعبير «فوق» و «تحت» باللغة الإنكليزيّة[1] *C'est vraiment* (حقاً) لا يُطاق»

كان نيكولاس رجلاً مُجرِّباً بما يكفي بحيث يعلم أنَّ زوجة السفير الفرنسيّ ليست مُحبّة كثيراً للغير. كانت تعرضُ عليه الركوب معها لكي تصل إلى تشيتلي برفقة صديق حميم لبريدجت. ونيكولاس، من ناحية أخرى، سوف يُضفي رونقاً جديداً على تلك العلاقة الحميمة بوصوله مع آل ألانتور. سوف يدعم ذلك فخامة الطرَفَين.

قال نيكولاس «يسعدني أنْ أرافقكما إلى أعلى وإلى أسفل»

جلسَ سوني غريفسند في المكتبة في تشيتلي ليتصل برقم بيتر بورلوك المألوف على هاتفه اللاسلكيّ. وكانت المعادلة الغامضة بين الملكيّة والشخص والتي لطالما دعمَتْ شخصيّة سوني المغمورة تُبجَّل في تشيتلي بحماس أكثر من أي مكان آخر. وكان بيتر، ابن جورج واتفورد الأكبر، هو الصديق الأقرب إلى سوني والشخص الوحيد الذي يثِقُ فيه ثقة عمياء

1- بالإنكليزيّ، تعبيرا going down و going up لهما معنى واحد - المترجم.

عندما يحتاج إلى نصيحة مضمونة حول الزراعة أو حول الجنس. جلس سوني مسترخياً على كرسيه في انتظار أنْ يشقّ بيتر طريقه خلال غرف منزل ريتشفورد الرحبة نحو أقرب جهاز هاتف. نظر إلى الموقد، الذي عُلِّقَتْ فوقه اللوحة التي استغرق من روبن باركر وقتاً طويلاً ليُثبتْ أنها لوحة أصليّة للرسام بوسّان. كانت لوحة لبوسان عندما اشتراها الإيرل الرابع وبقيتْ كذلك، حسب معلومات سوني. ومع ذلك، كان ينبغي الحصول على «رأي أحد الخبراء»

صاح بيتر «سوني؟»

ردّ عليه سوني هاتفاً «بيتر! آسف لأنني أقاطعكَ من جديد»

«على العكس، يا صديقي العزيز، لقد أنقذتني من مرافقة أعضاء راكبي الدراجات المثليين في لندن الذين أرسلهم أستاذي القديم لكي يُحدّقوا إلى السقوف»

قال سوني «إنّ الكدح المعتاد لا يزيده سوءاً إلّا قراءة الهراء الذي ظهر في صحف صباح هذا اليوم: «عشرة آلاف فدان... وخمسمائة ضيف... والأميرة مارغريت... وحفلة العام»، إننا نبدو وكأننا مصنوعون من المال، في حين أنَّ حقيقة أصحابك راكبي الدراجات المثليين في لندن، التي لا أحد يعرفها أفضل منك، هي أننا لم نكفّ عن الكدّ اتّقاءً للمطر»

«أتعلم ماذا قال أحد النزلاء لي قبل أيام بعد ظهوري الشهير في المقصورة؟»، وتلبَّسَ بيتر لكنته القرويّة التقليديّة، «لقد شاهدتك في التلفزيون، يا سيدي، في حالة فقرٍ مُدقِع، كالمعتاد». «وقاحة صِرف!».

«في الحقيقة، شيء مُضحك جداً»

قال بيتر «في الواقع، هو شخص رائع حقاً. كانت عائلته تسكن عندنا طوال ثلاثمائة عام»

«لدينا بعض من أمثالهم. مكثتْ مجموعة منهم بيننا طوال عشرين جيلاً»

قال بيتر بخبث «في ظل الظروف التي وفرناها لهم يُبدون افتقاراً مُذهلاً إلى المبادرة»

قهقه الرجلان، واتّفقا على أنَّ ذلك هو بالضبط ما لا ينبغي على المرء أنْ يقوله خلال فترات ظهوره الشهيرة على شاشة التلفزيون.

قال سوني، بجديّة أكبر، «إنَّ ما اتصلتُ بك بشأنه هو العمل مع سيندي. إنَّ بريدجت لم ترغب في قبولها طبعاً، على أساس أننا لا نعرفها، لكنّني تحدثتُ مع ديفيد وينفول في صباح هذا اليوم، ولمّا كانت زوجته مريضة، وافقَ على ضمّ سيندي. وآمل أنْ يُبقي الأمر سريّاً».

قال بيتر «ديفيد وينْفول؟ لا بد أنكَ تمزح!»

«أعلم ما تعني، لكنني اكتشفتُ أنني أتوقُ إلى أنْ أقابلها، على عكس الحقيقة، أي أنَّ كل اجتماعاتي في رابطة المنازل التاريخيّة ومنظمة الحِفاظ على إنكلترا الريفيّة كانت مُضاجعة واحدة طويلة مع سيندي»

قال بيتر بحِكمة «أنا سعيد لأنك لم تُخبره بهذا»

«الحقيقة هي، ولستُ في حاجة إلى أنْ أطلب منكَ أنْ تُبقي الأمرَ سرّاً، الحقيقة هي أنَّ سيندي حُبلى»

«أمتأكّد أنت أنّه منك؟»

قال سوني «من الواضح أنّه لا ريب في هذا»

قال بيتر بولاء «أعتقد أنها تبتزّك»

قال سوني، منزعجاً، «كلا، كلا، كلا، الأمر ليس كذلك أبداً. الأمر هو أنّه لم تكن تربطني «صِلات زيجيّة» ببريدجت لبعض الوقت، ولستُ متيقّناً على أيّة حال، مع الأخذ بالاعتبار سنّها، من أنَّ محاولة إنجاب طفل آخر فكرة جيّدة، ورأيتُ أنَّه إذا أنجبتْ سيندي صبيّاً...» تلكّأ سوني، غير متيقّن من ردّة فعل بيتر.

قال بيتر «يا إلهي، لكنكَ سوف تُضطر إلى الزواج منها إذا كان سيرث»، ثم أضاف بنبرة رواقيّة نبيلة، «وهذه إحدى عقوبات كونك نبيلاً».

اعترفَ سوني قائلاً «أعلمُ أنّ إخراج بريدجت في هذه المرحلة من اللعبة يدل على الجشع البشع، وطبعاً سوف يُساء فهمه واعتباره افتتاناً جنسيّاً، لكنَّ المرء يشعر بأنَّ بعض المسؤوليّة يقع على تشيتلي»

قال بيتر، الذي كانت لديه شكوك جديّة حول إمكانيّة اللجوء إلى الطلاق في الوقت المناسِب، «ولكنْ فكّر في التكاليف. ثم، هل سيندي هي الفتاة المناسِبة بالنسبة إلى غشاشين؟»

قال سوني بمرح «سوف تكون بمثابة نفحة هواء منعشة، وكما تعلم، كل الأمور في أيدٍ أمينة»

قال بيتر بنبرة السلطة المحسوبة التي يتميَّز بها مُستشار ينصح مريضه بإجراء عمليّة جراحيّة، «أعتقد أنّه يُستحسَن أنْ نتناول الغداء في محل بَكْ في الأسبوع القادم»

قال سوني «فكرة صائبة. أراك هذه الليلة»

قال بيتر «إنني أتوق بشدّة إلى ذلك اللقاء. أوه، وبالمناسبة، كل عام وأنت بخير بمناسبة عيد مولدك»

استلقتْ كيتي هارو على السرير، في منزلها الريفيّ، تكتنفها الوسائد من كل جانب، وكلابها من نوع الملك تشارلز تندسّ بين تضاعيف غطاء السرير المتموّجة، وصينيّة تحمل وجبة إفطار غنيّة متروكة إلى جوارها كعاشق مُرهَق. وتحت ظِلَّة مصباح من الساتان الورديّ، احتشدتْ زجاجات من الأدوية المتناقضة على السطح المُطعَّم للطاولة المجاورة لسريرها. استقرَّتْ يدها على جهاز الهاتف الذي كانت تستخدمه من دون توقف في صباح كل يوم بين الساعة الحادية عشرة ووقت الغداء، أو، كما في هذه المناسَبة، إلى أنْ يصل مُصفِّف الشَعر عند الساعة الثانية عشرة لكي يُعيد تشكيل تلك الكتل من الشَعر الشائب الذي ارتمى العديد من مُحدثي النِعمة عليه من دون طائل. وعندما وجدتْ اسم روبن باركر في دفتر العناوين الكبير الأحمر الجلديّ الذي كان مفتوحاً على حِجرها، طلبتْ رقمه وانتظرت بصبرٍ نافِد.

أجاب صوتٌ برِم «ألو»

غرَّدتْ كيتي «روبن، حبيبي، لِمَ لمْ تصل بعد إلى هنا؟ لقد فرضَت بريدجت عليّ حفنة من الأشخاص المُريعين بكل معنى الكلمة، وأنت، حليفي الوحيد، ما زلتَ في لندن»

قال روبن متصنّعاً المرح «لقد اضطررتُ ليلة أمس إلى تلبية دعوة إلى حفلة مشروبات»

احتجّتْ كيتي، «حفلة في لندن في ليلة يوم جمعة! إنّه أسوأ ما سمعت

عن السلوك اللا اجتماعي. أعتقد أنَّ الناس غير مُراعين لمشاعر غيرهم، إذا لم أقُل إنهم قُساة»، ثم أضافَت، بنبرة صوت حقيقيّة مُثيرة للشفقة، «إنني في هذه الأيام لا أذهب إلى لندن أبداً بالمعنى الحرفيّ للكلمة، ولذلك أعتمد بشكل شنيع على عطل نهاية الأسبوع»

قال روبن «حسن، أنا قادم لنجدتك. يجب أنْ أغادر إلى محطة بادينغتون في غضون خمس دقائق»

تابعتْ قائلة «شكراً لله، سوف تحضر إلى هنا لتحميني. لقد تلقّيتُ مكالمة هاتفيّة غامضة ليلة أمس»

تنهّد روبن «لن يحدث هذا بعد الآن»

أسرَّتْ له كيتي قائلة «لقد قام بأشد الإيحاءات إثارة للتقزُّز. وقبل أنْ أضع سماعة الهاتف قلتُ له، «أيها الشاب، ينبغي أنْ أرى وجهك أولاً قبل أنْ أسمح لك بأنْ تفعل أيّاً من تلك الأشياء!». وبدا كأنه اعتقدَ أنني أشجّعه، وفي الدقيقة التالية عاود الاتّصال. في أوقات المساء أنا أصرُّ على الرد على المكالمة بنفسي: ليس عدلاً أنْ يحدث ذلك للخدم»

حذَّرها روبن قائلاً «وليس عدلاً أنْ يحدث معك أيضاً»

هدرتْ كيتي قائلة، «كنتُ ممسوسة بما أخبرتني عن تلك القضبان الذكريّة وعن البابوات المحتشمين الذين حُذِفوا من بين التماثيل الكلاسيكيّة وخُزّنوا في أقبية الفاتيكان. لستُ واثقة من أنَّ *تلك* المكالمة الهاتفيّة لم تكن فاحشة»

ضحك روبن ضحكاً مكبوتاً. «ذلك كان تاريخ الفن»

قالتْ كيتي «أنتَ تعلم كم أنا مفتونة بعائلات الناس. حسن، الآن، كلما أفكّر فيهم، وفي الأسرار الغامضة التي يُخفونها تحت السطح، لا يسعني إلّا أنْ أتخيَّل تلك الصناديق المُخبّأة في أقبية الفاتيكان»، ثم أعلنتْ، «لقد أفسدتَ مخيّلتي. هل تعلم كم لك من تأثير مخيف في الناس؟»

هدَّدَ روبن قائلاً «هذا المساء سوف يكون حديثي محتشماً تماماً. ولكن عليّ حقاً أنْ أتوجّه إلى المحطة الآن»

هدلتْ كيتي «وداعاً»، لكنَّ حاجتها إلى أنْ تتكلَّم استولَتْ عليها إلى درجة أنها أضافَتْ بلهجة تآمريّة، «هل تعلم ما أخبرني به جورج واتفورد

ليلة أمس؟ - على الأقل كان هو وجهاً مألوفاً. قال إنَّ ثلاثة أرباع الناس المُثْبَتة عناوينهم في دفتره ماتوا. فطلبتُ منه ألّا يتصرَّف بطريقة مَرَضيّة. على أيّة حال، هذا سلوك طبيعيّ لِمَنْ كانوا في مثل سِنّه: إنّه طاعنٌ في ثمانينيات عمره»

قال روبن «يا عزيزي، سوف يفوتني قِطاري»

قالت كيتي مُراعية ظروفه، «كنتُ في الماضي أعاني من حمّى القِطارات، إلى أنْ أعطاني طبيبي الرائع قِرصاً سِحريّاً، والآن صرتُ أستمتع بالسفر بالقطار»

صرخَ روبن «حسن، سوف أُضطرّ إلى العدو لألحق بالقطار»

قالت كيتي «وداعاً، يا عزيزي، لن أؤخِّرك أكثر من ذلك. أسرع، أسرع، أسرع»

شعرت لورا بروغلي بأنَّ العزلة تُهدِّد وجودها. أصبح ذهنها «فارغاً بالمعنى الحرفيّ»، كما كانت قد أخبرتْ باتريك ميلْروز خلال فترة علاقتهما التي دامت أسبوعاً. كانت تقضي خمس دقائق وحيدة، أو بعيدة عن الهاتف، إلّا إذا قضتها بصُحبة مرآة والكثير من مساحيق التجميل، بمثابة فراغ بالمعنى الحرفيّ الذي لا يُطاق.

وقد استغرقَ منها تجاوز ارتداد باتريك عن الإدمان وقتاً طويلاً. وهذا لا يعني أنّها كانت تكنّ له إعجاباً خاصّاً - لم يخطر في بالها أبداً أنْ تُعجَب بالناس في أثناء استغلالها لهم، وبعد أنْ تنتهي من استغلالهم، يكون من السُخف البدء بالإعجاب بهم - لكنَّ الحصول على عشيق جديد كان أمراً مُملّاً. وكون المرء متزوجاً يُبعِد الناس عنه، إلى أنْ توضِّح أنَّ ذلك لا يُشكّل عائقاً من وِجهة نظرها. كانت لورا متزوجة من أنغوس بروغلي، الذي أهّلته التقاليد الاسكتلنديّة العريقة بأنْ يُسمّي نفسه «البروغليّ الكبير». وكان في وسع لورا، على الأساس نفسه، أنْ تُسمّي نفسها «مدام بروغلي»، ونادراً ما مارستْ هذا الحقّ.

وأخيراً، بعد مرور أسبوعَين كاملَين من دون عشيق، نجحتْ في إغواء

جوني هول، صديق باتريك الحميم. لم يكن جوني بجودة باتريك لأنه يعمل خلال النهار. ومع ذلك، وبوصفه صحفياً كان في استطاعته غالباً «أنْ يكتب مقالاً في المنزل»، حيث في وسعهما أنْ يقضيا النهار كلّه في السرير.

تأكَّدَ بعد القيام باستفسارٍ دقيق أنَّ جوني لم يكن قد علِمَ بعد بأمر علاقتها بباتريك، وقد أقسَمَتْ لجوني بكتمان أمر علاقتهما الخاصّة. لم تدر هل ينبغي أنْ تشعر بالمهانة جرّاء صمت باتريك أم لا، لكنّها قرّرتْ أنْ تُعلِم باتريك بأمر علاقتها بجوني عندما قد يُسبِّب له ذلك أقصى اضطراب. كانت تعلم أنَّ باتريك لا يزال يجدها مُثيرة جنسيّاً، حتى وإنْ كانت لديه بعض التحفّظات على شخصيتها. بل لقد كانت لديها هي نفسها تحفّظات على شخصيتها.

عندما رنَّ جرس الهاتف، رفعتْ لورا رأسها وتلوَّتْ عبر السرير.

أنَّ جوني «لا تُجيبي»، لكنّه علم أنَّ موقفه ضعيف، بعد أنْ غادرتْ الغرفة باكراً لتتحدث مع باتريك. وأشعل سيجارة.

التفتتْ لورا إليه وأبرزتْ له لسانها، ورفعت أطراف شَعرها إلى خلف أُذنيها ورفعتْ السمّاعة. قالت، وقد أضحتْ فجأة جديّة، «ألو»

«مرحباً»

شهقَتْ لورا، وهي تضغطْ على أنفها بإبهامها وسبّابتها وترفع عينيها نحو السقف، «تشينا! يا إلهي، لقد كانت حفلتكِ عظيمة *جداً*». كانت قد قامتْ تواً مع جوني بتحليل مدى فشل تلك الحفلة.

سألتْ تشينا بارتياب «أحقاً تعتقدين أنها كانت ناجحة؟»

قالت لورا، وهي تكشّر في وجه جوني، «طبعاً كانت ناجحة، يا عزيزتي، الجميع أحبّوها»

أنَّتْ تشينا، «لكنَّ الجميع علِقوا في غرفة الطابق السُفليّ. كم كرهتُ هذا»

قالت لورا متعاطِفة، وهي تتمدَّد على ظهرها وتتثاءب بعنف، «إنَّ المرء دائماً يكره الحفلات التي يُقيمها»

ناشدتها تشينا، «ولكن عديني بأنها أعجبتكِ حقاً»

قالت لورا، وهي تلفّ إصبعاً حول إصبع[1]، وتضعُ ساقاً فوق ساق،

1- أي أنها تكذب وترجو من الله أنْ يُسامحها - المترجم

وأخيراً جعلتْ عينيها في وضعيّة الحَوَل، «أعِدكِ». وفجأة انتابتها نوبة ضحك أخرس، فرفعتْ ساقيها في الهواء وأخذت تهتز على السرير.

راقبها جوني، مذهولاً بتصرفاتها الصبيانيّة، وممتعضاً قليلاً من المؤامرة الساخرة التي تورَّطَ فيها، لكنَّه افتُتِنَ بالتواءات جسمها العاري. وغاصَ بظَهره على الوسائد، مُستعرِضاً التفاصيل التي يمكن أنْ تقدِّم شرحاً، لكنها لم تعمل إلّا على توكيد غموض هاجسه: بالخال القاتم الصغير على المنحدر الداخليّ لعَظْمة وركها، والشعر الذهبي الكثيف بصورة مُدهِشة على عضلة أعلى ساعدها، والتقوُّس المرتفع لقَدَميها الشاحبتين.

تنهّدتْ تشينا. «هل أنغوس معك؟»

«كلا، سوف ينتقل مباشرة من اسكتلندا إلى الحفلة. وسوف أقلّه من تشلتنام. وهذا شيء مُملّ، ولا أفهم لِمَ لا يستقلّ سيارة أجرة»

قالت تشينا «إنه التوفير، التوفير – التوفير»

قالت لورا «إنّه يبدو جيداً على الورق، ولكن عندما يتعلّق الأمر بهذا الشيء، ترينه مهووساً تماماً بما إذا كان في الإمكان استعادة قيمة بطاقة الانتقال الرخيصة بالقطار إذا لم تستخدم نصفها، وبمشكلات مذهلة أخرى من هذا النوع. إنها تدفع المرأة إلى الاشتياق إلى عاشق متهوّر». وسمحت لإحدى رُكبتيها بالتدلّي إلى جانب السرير.

أخذَ جوني سحبة طويلة من سيجارته وابتسمَ لها.

تردَّدتْ تشينا ومن ثم، حثّتها على الاستمرار فكرة أنَّ مَدْح لورا لحفلتها قد لا يكون صادقاً تماماً، فقالت «في الواقع هناك شائعة تدور مفادها أنكِ تقيمين علاقة مع باتريك ميلْروز»

قالت لورا، وكأنها تُردِّدُ اسم مرض قاتل، «لا بدّ أنكِ تمزحين»، ورفعتْ حاجبيها في وجه جوني وبعد أنْ وضعتْ يدها على فوهة التكلُّم في السماعة همستْ، «يبدو أنني أُقيمُ علاقة مع باتريك»

رفع أحد حاجبيه وأطفأ سيجارته.

سألتْ تشينا «مَنْ أخبركِ بهذا؟»

«في الحقيقة لا ينبغي أنْ أخبرك، لكنه ألكسندر بوليتسكي»

«هو، إنني حتى لا أعرفه»

«في الحقيقة، هو يعتقد أنّه يعرفك»

قالت لورا «هذا يُثير الشفقة. إنه فقط يريد أنْ يُقيم علاقة معك بتظاهره بأنّه يعرف كل شيء عن أصدقائك». ركعَ جوني أمام لورا، وبعد أنْ قبض على كلا قدميها، باعدَ ما بين ساقيها.

أصرّت تشينا قائلة «قال إنه علِمَ من آلي مانتيغيو»

شهقَتْ لورا بعمق. تنهدتْ قائلة «حسن، هذا يُبرهن على كذبه»، ثم أضافتْ، وهي تغرز أظافر يديها في ذراعيّ جوني، «على أيّة حال، إنني حتى لستُ مُعجبة بباتريك ميلْروز»

ختمتْ تشينا بالقول «أوه، حسن، أنتِ تعرفين أكثر مني إنْ كانت لك علاقة معه أم لا. أنا سعيدة لأنك لا تقيمين تلك العلاقة، لأنني شخصيّاً أجده مُخادِعاً جداً...»

رفعتْ لورا سماعة التلفون في الهواء لكي يتمكّن جوني من الاستماع. وتابعت تشينا، «ثم إنني لا أُطيقُ الطريقة التي يُعامل بها ديبي»

أعادتْ لورا السمّاعة إلى أُذُنها. قالت، وهي تُكشِّر في وجه جوني، الذي مال لكي يعضّ عنقها، «كان شيئاً مُثيراً للاشمئزاز، أليس كذلك؟»، ثم سألتها، وهي تعلم أنَّ تشينا سوف تذهب وحدها، «ولكن مع مَنْ ستذهبين إلى الحفلة؟»

قالتْ تشينا بلكنة أميركيّة غير مُقنِعة لكي تنطق الاسم، «لن أذهب مع أحد، ولكنَّ هناك شخصاً يُدعى مورغان بالانتاين سوف يحضر، وأنا شديدة الإعجاب به. ومن المُفترَض أنّه ورثَ تواً مئتين وأربعين مليون دولار»، ثم أضافَتْ بصورة عفويّة، «ومجموعة مُذهلة من البنادق، ولكن ليس هذا هو المهمّ، أقصد، إنّه ظريف *حقاً*»

سألتْ لورا، التي كانت قد مرَّتْ بتجربة مريرة حول المدى الذي يمكن لمثل أولئك الأشخاص أنْ يكونوا مُضلِّلين، «قد يُساوي مئتين وأربعين مليون دولار، ولكن هل سيُنفقها؟ هذا هو السؤال الحقيقيّ». قالت هذا ودعمَتْ نفسها لكي ترتفع على مِرفقها، متجاهلة بسهولة المُداعبات التي كانت قد وجدتْ قبل ذلك بلحظات أنّها تحبس الأنفاس. توقفَ جوني عن

ذلك ومال فوقها، من ناحية بدافع الفضول، ولكن أيضاً لكي يُخفي حقيقة أنَّ جهوده الجنسيّة لا تُقارَن بذِكر مقدار ذلك المبلغ الضخم من المال.

اعترفتْ تشينا «لقد قال فعلاً شيئاً شريراً قبل أيام»

قالت لورا بلهفة «ماذا قال؟»

«حسن، قال «أنا فاحش الثراء ولذلك لا أُقرِضُ مالاً». كان أحد أصدقائه قد أفلسَ، أو ما شابه»

قالتْ لورا، بصوتها ذي النبرة الجدّية الخاصة، «لا تقتربي منه. هذا هو الكلام الذي يقوله أمثال أنغوس. تعتقدين أنَّ الحياة معه سوف تكون كلها طائرات خاصّة، ومن ثم تكتشفين أنّه يطلب بقايا الطعام من المطعم، أو يُلمِّح لك بأنَّ عليكِ *أنتِ* أنْ تقومي بالطبخ بنفسك. إنَّ الحياة معه كابوس»

قالت تشينا، وقد انزعجتْ لأنها أدركتْ أنها باحتْ بالكثير، «بالمناسبة، بعد أنْ غادرتِ في تلك الليلة لعبنا لعبة رائعة. كان على الجميع فيها أنْ يُفكّروا في الأشياء التي لا يرغب الناس في البوح بها، وقام أحدهم بتوجيه سؤال إلى أنغوس: هل أنتَ واثق من أنكَ لن تتناول الكركند؟»

قالت لورا بجفاف «شيء ممتع جداً»

سألتْ تشينا «بالمناسبة، أين تُقيمين؟»

«مع أناسٍ من عائلة بوسينغتون-لين»

هتفَتْ تشينا «وأنا أيضاً. هل تقلّينني؟»

«طبعاً. تعالي عند حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ويمكننا أنْ نخرج لتناول طعام الغداء»

قالتْ تشينا «عظيم. أراكِ لاحقاً»

قالت لورا بوهن «إلى اللقاء، يا عزيزتي». ثم قالت، بعد أنْ أعادت السماعة إلى مكانها، «بقرة حمقاء»

طوال حياة سيندي والرجال يتهافتون عليها، كسكّان بلاد الليليبوت[1]

1- الليليبوت: هم سكان بلاد الأقزام في قصة جوناثان سويفت «رحلات غاليفر» الذين يوثقون غاليفر إلى الأرض بالخيوط بوصفه أسيرهم - المترجم

ببكرات خيطانهم، ويُحاولون أنْ يوثقوها لكيلا تُدمِّر حياتهم الصغيرة، أما الآن فهي تفكِّر في أنْ توثق نفسها إلى الأرض طواعية.

هرَّتْ بلكنتها الناعمة الخاصة بأهل كاليفورنيا، «ألو؟ هل لي أنْ أتكلَّم مع ديفيد ويندفول، من فضلك؟»

قال ديفيد «أنا ديفيد»

«مرحباً، أنا سيندي سميث. أعتقد أنَّ سوني قد حدَّثك عن حفلة هذه الليلة»

قال ديفيد، وقد احمرَّ وجهه على غير المعتاد، «لقد فعل حقاً»

قالت سيندي بصراحةٍ مُهدِّئة «آمل أنْ تكون قد تلقّيتَ بطاقة دعوة سوني وبريدجت، لأنّه ليس لدي واحدة»

قال ديفيد «بطاقتي موجودة في المصرف. الحَذَرُ دائماً واجب»

قالت سيندي «نعم، هذه نقطة قيِّمة»

قال ديفيد «أنتِ تعلمين أنك سوف تتظاهرين بأنكِ زوجتي»

«إلى أي مدى يجب أنْ أتمادى في هذا»

لجأ ديفيد، وهو يرتعش، ويتعرَّق، ويحمرّ خجلاً في وقتٍ واحد، إلى الخِداع الذي يشتهر به. قال «فقط ريثما نجتاز رجال الأمن»

أجابت سيندي بخنوع «كما تشاء. أنت أعلمُ مني»

سألها ديفيد «أين سنتقابل؟»

«لدي جناح في فندق ليتل سودينغتون هاوس. يقع في غلوسيسترشير، أتعرفه؟»

قال ديفيد، بفخامة لم يتعمّدها، «آمل ذلك حتماً، إلّا إذا كانوا قد نقلوه»

قهقهت سيندي. قالت «لم يُخبرني سوني أنك فكِه إلى هذه الدرجة. في وسعنا أنْ نتناول العشاء معاً في الفندق الذي أنزل فيه، إذا أحببت»

قال ديفيد، وكان يُخطِّط للتخلُّص من حفل العشاء الذي ورَّطته بريدجت فيه، «عظيم. نلتقي في الثامنة؟»

***

كان توم تشارلز قد أمر سيارة الأجرة أنْ تأخذه إلى الريف. كان ذلك إسرافاً، لكنّ سنّه الطاعن منعه من التعامُل مع القطارات والأمتعة. كان ينزل، كالمعتاد، في فندق كلاريدج، وأحد أجمل الأشياء فيه كان موقد الحطب الذي تخمدُ ناره المشتعلة في أثناء تناوله وجبة إفطاره الاقتصاديّة المؤلَّفة من الشاي وعصير الكريب فروت.

كان في سبيله إلى النزول ضيفاً على هارولد غرين، صديقه القديم من أيام صندوق النقد الدوليّ. وقد طلب منه هارولد أنْ يجلب معه سترة العشاء لأنهما كانا سيحضران حفلة عيد ميلاد أحد الجيران. كان يعرف كل شيء عن الجار، ولكن كل ما تذكّره توم عنه هو أنّه كان أحد أولئك الإنكليز ذوي «الماضي الحافل» وأنَّ حاضره خالٍ من الأحداث. فإذا لم تتأثّر كثيراً بتلك الأنماط ذات «الماضي الحافل» قالوا عنك «غير مهتمّ»، ولكن في الحقيقة لا شيء كان يجعلك تشعر بأنكَ أقلّ «اهتماماً» من التأمّل في حياةٍ هدرْتها في الثرثرة، والسُكر، والعلاقات الجنسيّة السريّة.

لم يكن هارولد هكذا أبداً؛ بل كان حيويّاً ونشِطاً. كان على لائحة مُتلقّي بطاقات عيد الميلاد من الرؤساء الممتنّين وأعضاء مجلس الشيوخ الودودين - على غِرار توم - ولكن كأي شخص على هذه الجزيرة غزيرة الأمطار كان هو أيضاً مولعاً بالأنماط ذات «الماضي الحافل».

رفع توم سمّاعة الهاتف لكي يتّصل بآنْ أيزن. كانت آنْ صديقة قديمة وكان يصبو إلى التوجّه إلى منزل هارولد برفقتها، ولكن كان ينبغي أنْ يعرف متى يجب أنْ يُرسِل السيارة لتقلّها. كان رقم هاتفها مشغولاً فأعاد توم السمّاعة إلى مكانها بحزم وتابع قراءة ركام الصحف الإنكليزيّة والأميركيّة التي كان قد طلب إحضارها مع وجبة الإفطار.

-3-

كان توني فاولز ما تسمّيه بريدجت بـ «العبقريّ الكامل» فيما يتّصِل بالألوان وبالأقمشة. واعترفَ بأنه «مولع بالألوان الرماديّة في الوقت الراهن»، ووافقتْ على أنْ يكون لون داخل الخيمة هو الرماديّ. وقد أزالت إشارة توني إلى أنَّ جاكلين دالانتور، زوجة السفير الفرنسيّ، كانت «دقيقة إلى درجة أنها لم تكن أبداً على *صواب*»، مآخذها الأوّليّة على هذه الفكرة الجريئة.

تساءلتْ بريدجت إلى أي مدى يمكن للمرء أنْ يكون غير دقيق من دون أنْ يكون على خطأ، وفي تلك المنطقة الرماديّة أصبح توني مُرشِدها، وزاد من اعتمادها عليه إلى درجة أنّها أصبحت لا تستطيع أنْ تُشعِل سيجارة من دون مُساعدته، وكانت قد تشاجرت للتو مع سوني حول رغبتها في أنْ يجلس توني إلى جوارها على مائدة العشاء.

قال سوني «الرجل الضئيل المُريع لا ينبغي أنْ يأتي أبداً، ناهيك عن أنْ يجلس إلى جوارك. ولا داعي إلى أنْ أُذكِّرك بأنكِ سوف تستقبلين الأميرة مارغريت على مائدة العشاء وأنَّ كل فردٍ من الرجال يحقّ له أنْ يُطالب بالجلوس إلى جوارك أكثر من ذلك...»، وهنا تلعثم سوني، «ذلك المتبجِّح»

ماذا يعني بالمُتبجِّح على أيّة حال؟ كائناً ما كان يعني، لم يكن مُنصِفاً، لأنَّ توني كان مُرشِدها ومُهرّجها. والذين عرفوا كم هو مُسلٍّ – ويكفي سماع قصته عن ركضه في شوارع مدينة ليما حاملاً كمّية من الأقمشة في أثناء حدوث أعمال شغب بسبب الخبز حتى يكاد المرء يموت من شدَّة الضحك – ربما لم يُدركوا كم كان أيضاً حكيماً.

ولكن أين كان توني؟ كان من المُفترَض أنْ يُقابلها عند الساعة الحادية عشرة. لقد كان محبوباً لأسبابٍ شتّى، لكن دقّة المواعيد ليست من بين تلك الأسباب. تلفّتتْ بريدجت حولها إلى امتدادات المخمل الرماديّ الذي يُبطِّن داخل الخيمة؛ فمِن دون توني تتداعى ثقتها في نفسها. كانت تحتلُ أحد أطراف الخيمة خشبةُ مسرح بيضاء شنيعة تجمّعت عليها فرقة موسيقيّة من أربعين شخصاً، جاؤوا من أميركا بالطائرة، وسوف تعزف لاحقاً «موسيقى جاز تقليديّة من نيو أورلينز» يُفضّلها سوني. كانت السخانات الصناعيّة التي تهدر في كل ركن ما تزال لا تؤثّر في الجو الشديد البرودة.

كان سوني مولعاً بقول «طبعاً، كنتُ أفضّل أنْ يكون مولدي في شهر حزيران بدل شهر شباط العجوز والكئيب، لكنَّ المرء لا يستطيع أنْ ينتقي موعد مولده»

كانت صدمةُ عدمِ وضعِهِ خطّةً لتحديدِ موعدِ مولدِهِ قد أثارت لدى سوني رغبة متعصّبة في وضع خطّة لكل شيء آخر. وقد حاولتْ بريدجت أنْ تُبعِده عن الخيمة على أساس أنّها يجب أنْ تكون «مفاجأة»، ولكنْ لمّا كانت هذه الكلمة توازي بالنسبة إليه تقريباً تعبير «هجوم إرهابيّ»، فإنها فشِلتْ في محاولتها. من ناحية أخرى، نجحتْ في أنْ تُخفي أمر التكاليف الباهظة للمخمل، التي أخبرها بها سلون ذو الصوت المرتفع والحادّ والضحكة الشبيهة بفحيح الموت، الذي قال إنها بلغَتْ «أربعين ألفاً، بالإضافة إلى الشيء المُرعب». واعتقدتْ بريدجت أنَّ «الشيء المُرعِب» هو تعبيرٌ مُنمَّق إلى أنْ شرحَ لها توني أنه ضريبة القيمة المُضافة.

وقال أيضاً إنَّ أزهار الزنبق البرتقاليّ سوف تثير «ثورة في الألوان» أمام الخلفيّة الرماديّة الناعمة، ولكن الآن بعد أنْ قام فريق من السيدات بملابس العمل الزرقاء المُربّعة بإعداد ذلك، لا يسع بريدجت إلّا أنْ تعتقد أنَّ الأزهار تشبه جمرات خامدة وسط ركام هائل من الرماد.

حالما دارت هذه الفكرة المُهرطقة في ذهنه، اندفع توني إلى الخيمة مرتدياً سترة صوفيّة بألوان التراب، والرماد، والعنب، وبنطلون جينز مكويّاً بصورة جميلة، وجورباً أبيض، وينتعلُ حذاءً خفيفاً بُنيّ اللون ذا نعل سميك

بشكلٍ مُفاجئ. وأحاط عنقه بوشاحٍ أبيض من الحرير بعد أنْ شعرَ، أو ظنَّ أنّه شعر، بوخز البرد. وتجرّأت بريدجت على الإشارة قائلة، «توني! أخيراً وصلت»

نعقَ توني، واضعاً يده على صدره ومُتجهّماً بشكل مُثير للشفقة، «أنا آسف، أعتقد أنني سأنقل إليك خبراً سيئاً»

قالت بريدجت «أوه، يا إلهي، آمل ألّا تكون مريضاً ولن تحضر حفلة هذه الليلة»

أجاب «ما كانت لتفوتني حتى لو اضطروا إلى حملي على آلة إنقاذ. أنا أعلم أنّ من المُفترَض بالفنان أنْ يقفْ بعيداً عن عمله الإبداعيّ، وهو يُشذِّب أظافره»، قال هذا وهو ينظر إلى أظافره بلامبالاة متكلّفة، «لكنني لا أشعر بأنَّ عملي الإبداعيّ قد اكتمل إلّا إذا كان ممتلئاً بالنسيج الحيّ»

سكتَ وحدَّقَ إلى بريدجت بتركيز مُنوِّم مِغناطيسيّ، كأنه راسبوتين يوشك أنْ يُنقل إلى زوجة القيصر آخر إلهام هبط عليه. وطمأنها «الآن، أنا أعلم بما تفكّرين. لا يوجد ما يكفي من الألوان!»

شعرتْ بريدجت كأنَّ ضوء مصباح كهربائيّ مُسلَّطٌ إلى حنايا روحها. اعترفت قائلة، «لم تغيِّر الأزهار المشهد كما اعتقدتُ أنّها ستفعل»

قال توني، مُشيراً إلى مجموعة من المُساعدين كانوا ينتظرون بخنوع ريثما يتم استدعاؤهم للتقدُّم، «ولهذا جلبتُ معي هؤلاء». كانوا مُحاطين بعلب كبيرة من الكرتون.

سألتْ بريدجت، متوجسة، «مَنْ هؤلاء؟»

باشر المُساعدون في فتح أغطية الصناديق. قال توني، الذي كان دائماً متأهّباً لشرح أعماله الإبداعيّة، «لقد فكّرتُ في الخيام، وفكّرتُ في السواري، وفكّرتُ في الأشرطة»، ثم أخذ يشرح، ولم يعُدْ يقوَ على كبح حماسته، «وهكذا وصلتني بطلبٍ خاصّ. إنها نوع من تنفيذ فكرة عمود نوّار. وهي أخّاذة على الخلفيّة الرماديّة بلون اللؤلؤ»

علِمَتْ بريدجت أنَّ عبارة «طلب خاص» يعني أنّ الكلفة باهظة. قالت، وهي تنظر إلى داخل أحد الصناديق، «تبدو أشبه بربطات عنق»

قال توني بلهجة انتصار، «بالضبط. لقد شاهدتُ سوني يضع ربطة عنق مُبهرة باللونين الأخضر والبرتقاليّ، وأخبرني أنها ربطة عنق نظاميّة فقلتُ في نفسي، هذا هو المطلوب: اللون البرتقاليّ يتناسب مع أزهار السوسن ويبثّ الحيوية في الغرفة بأكملها». تحرّكتْ يدا توني إلى أعلى ونحو الخارج. «سوف نربط الشرائط بقمّة السارية ونمدّها على جانبَي الخيمة». وهذه المرّة تدفّقت يداه نحو الخارج وإلى أسفل.

تلك الإيماءات الرشيقة والأنيقة كانت كافية لإقناع بريدجت بأنّه ليس أمامها خَيار.

قالتْ «يبدو ذلك رائعاً. ولكن يجب أنْ تُسرِع في تركيبها، ليس أمامنا الكثير من الوقت»

قال توني بهدوء «دعي الأمر لي»

دخلتْ خادمة لتُخبر بريدجت بأنَّ ثمة مُكالمة هاتفيّة لأجلها. لوَّحتْ بريدجت بيدها لتوني مودِّعة، وهرعتْ خارجة من الخيمة خلال النفق المفروش بسجادة حمراء الذي يؤدي إلى المنزل من جديد. وقام مُنسّقو أزهار مبتسمون بإحاطة أطواقٍ معدنيّة خضراء تدعم قماش القنَّب بأكاليل من اللبلاب.

كان أمراً غريباً، وهم في شهر شباط، ألّا تُقام الحفلة داخل المنزل، لكنَّ سوني كان مُقتنعاً بأنَّ «أشياءه» سوف تتعرَّض لخطر ما سمّاه «أصدقاء بريدجت القادمين من لندن». كان ممسوساً بشكوى جَدِّه من أنَّ جَدَّته قد ملأتْ المنزل بـ«الطفيليين، واللوطيين، واليهود»، ولمّا كان يعرِف باستحالة إقامة حفلة مُسلّية خالية من نماذج من تلك الفئات، لم يكن في نيّته أنْ يأتمنهم على «أشيائه».

اجتازتْ بريدجت غرفة الجلوس العارية، ورفعت سمّاعة الهاتف.

«ألو؟»

«عزيزتي، كيف حالك؟»

«أورورا! شكراً لله لأنه أنت. كنتُ أقوم بإخافة شخص غريب حقيقيّ آخر يتوسّل لكي يُحضِر كامل أفراد عائلته إلى الحفلة»

قالت أورورا دونْ بذلك الصوت المُتنازِل الذي تشتهر به «أليس الناس فظيعين؟». كانت عيناها الواسعتان اللامعتان وبشرتها الناعمة تُضفي عليها الجمال الناعم الذي تتميَّز به أبقار شاروليه، لكنَّ ضحكها المكبوت، المُخصَّص لملاحظاتها الخاصّة، كان أقرب شبَهاً بصوت ضبع. كانت قد أضحتْ أفضل صديقات بريدجت، تمنحها ثقة كئيبة ومتزعزعة في النفس في مقابل حُسن ضيافة بريدجت الضافية.

قالتْ بريدجت، وهي تستقرّ على كرسي متعهّد الحفلة الطويل والنحيل والذي حلَّ محل أحد أشياء سوني، «لقد كان كابوساً. لا أُصدِّق مدى وقاحة أولئك الناس»

قالت أورورا «لستِ في حاجة إلى إخباري بهذا. آمل أنَّ لديك عناصِر أمن جيدين»

قالتْ بريدجت «نعم، لقد أحضر سوني رجال شرطة، من المُفتَرَض أنْ يحضروا مُباراة في كرة القدم هذا اليوم، لكنهم جاؤوا إلى هنا بدل ذلك وتفحّصوا كل شيء. كان هذا بمثابة تغيير ممتع بالنسبة إليهم. سوف يُطوّقون المنزل. زيادة على ذلك، وضَعنا الحرس المعتادين عند الباب، في الحقيقة، ثمة شخص يُدعى» رجل أمن غريشام «ترك جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به بجوار الهاتف»

قالت أورورا «إنهم يُثيرون الكثير من الضجيج حول الولاء»

زمجرتْ بريدجت «كفى. علينا أنْ نتخلّى عن غرفتين من أفضل غرفنا للتحرّي الخاصّ وللوصيفة. إنه هدر للمكان»

قاطع ضجيج صراخ صادر عن الصالة كلام بريدجت.

صرخَتْ امرأةٌ بلكنة اسكتلنديّة قويّة، «يا لك من فتاة صغيرة قذرة! ولستِ أكثر من عبء على والديك! ماذا ستقول الأميرة إذا علِمَتْ أنكِ لوَّثتِ ثوبك؟ أيتها الطفلة القذرة!»

قالت بريدجت لأورورا «أوه يا إلهي، أتمنّى ألّا تكون المُربّية قد عاملت بيليندا بمثل هذه المعاملة الفظيعة. شيء رهيب، لكنني لم أجرؤ على قول أي شيء لها»

قالت أورورا متعاطفة معها «أعلم هذا، إنني مرتعبة إلى أقصى مدى من مربّية لوسي. أعتقد أنَّ السبب هو أنّها تُذكِّر المرء بإحدى مُربياته»

لم تكن بريدجت، التي لم تحصل على مُربيّة «لائقة»، تنوي أنْ تكشِف عن هذه الحقيقة بمُعارضتها. كانت قد بذلَتْ جهداً خاصّاً، على سبيل التعويض، من أجل الحصول على مُربيّة لائقة من الطراز القديم لترعى شؤون بيليندا ذات السنوات السبع. وقد أبدت وكالة المُستخدَمين ابتهاجها عندما عثروا على وظيفة جيدة لمثل تلك المرأة العجوز الشريرة التي كانت مُدرَجة على قوائم المُستخدَمين عندهم منذ سنين.

قالت بريدجت «الشيء الآخر الذي أخشاه هو أنَّ أمي قادمة هذه الليلة»

قالتْ أورورا «والأمهات يمكن أنْ يكنَّ شديدات الانتقاد، أليس كذلك؟»

قالت بريدجت، التي كانت في الواقع تجد أنَّ أمّها من النوع الذي يتوق إلى الحصول على الرضا بصورة مُضجِرة، «بالضبط»، ثم أضافَتْ مع تنهيد الشعور بالواجب، «أعتقد أنني يجب أنْ أنطلق لأعامل بيليندا بلطف»

هَدَلَتْ أورورا «ما أجمل هذا!»

شعرتْ بريدجت بالامتنان لتخلّصها من أورورا. «أراكِ هذه الليلة، يا عزيزتي». كان أمامها مليون عمل وعمل تقوم به ثم إنَّ أورورا، بدل أنْ تمنحها تلك الجرعات من الثقة في النفس التي كانت شبه مُستخدَمة (فقد كانت مُفلِسة) لإعطائها، كانت قد أخذَتْ مؤخّراً تُلمِّح إلى أنّه كان في وسعها أنْ تقوم بترتيبات الحفلة أفضل مما فعلتْ بريدجت.

نظراً إلى أنّه لم يكن في نيّتها أنْ تذهب لرؤية بيليندا كان سلوكاً خبيثاً جداً منها أنْ تستغلّها ذريعة لإنهاء الحديث. كان الوقت نادراً ما يتوفّر لبريدجت لرؤية ابنتها. ولم تُسامح نفسها لكونها فتاة وتُثقِل كاهل سوني بالقلق حول عدم إنجابه وريثاً. وبعد أنْ أمضَتْ أوائل عشرينيات عمرها في إجهاض نفسها، أمضَتْ بريدجت السنوات العشر التي تلتْ في الفشل في تثبيت أي حمل. كان النجاح في الإنجاب مسألة مُعقّدة من دون إنجاب طفل من الجنس غير المرغوب. وقد أخبرها الطبيب أنَّ من الخطر أنْ تجرِّب الحمل من جديد، وفي سن الثانية والأربعين أصبحتْ

تستسلم لفكرة إنجاب طفل واحد، خاصة في ظل تردُّد سوني في النوم معها في سرير واحد.

على امتداد السنوات الثلاثة عشرة الأخيرة من زواجها تدهور مظهرها حتماً. فغَشَتْ عينيها الزرقاوين الصافيتين غمامة، وتشوّهتْ بشرتها المتوهجة الوضّاءة ولم يعُد في الإمكان إعادة الضياء إليها جزئياً إلّا باللجوء إلى كريما التظليل، وتشوّهت منحنيات جسمها، التي خلقَتْ العديد حالات الهوس في زمن ازدهارها، بتراكمات عنيدة من الشحم. ولما لم ترغب في خيانة سوني، وكانت عاجزة عن جذبه إليها، سمحتْ بريدجت لنفسها بالانحدار إلى تدهورٍ جسديّ يُثير الغثيان، مُنفِقة المزيد والمزيد من الوقت في التفكير في أساليب أخرى لإرضاء زوجها - أو بالأحرى لعدم إثارة نفوره منها، بما أنّه كان يتقبّل جهودها بداهة لكنّه كان يولي انتباهه كلّه لأقل فشل.

كان عليها أنْ تواصل الاستعدادات التي كانت تعني، في حالتها، القلق، بما أنَّ العمل كلّه أوكِلَ إلى عهدة شخص آخر. وأول ما قلِقَتْ بشأنه كان جهاز الإرسال اللاسلكيّ الموضوع على الطاولة بجوار سريرها. فمن الواضح أنَّ أحد رجال الأمن الفاشلين قد أضاعه. رفعَتْ بريدجت الآلة، وشغّلتها بدافع الفضول. صدر هسيسٌ مرتفع ومن ثم عواء مذياع غير مُدوزَن.

وبدافع اهتمام بريدجت بمعرفة إنْ كان في وسعها أنْ تفهم أيّ شيء من ذلك الضجيج الصاخب، نهضَتْ وأخذت تتمشّى في أرجاء الغرفة. بدأتْ الأصوات تتراوح بين الارتفاع والانخفاض، وأحياناً كانت تشتدّ حتى تغدو صريراً، ولكن في أثناء اقترابها من النوافذ، التي ازدادت قتامة بفعل جانب السرادق الذي نهضَ رطباً وأبيض تحت سماء الشتاء الخاملة، سمعتْ، أو اعتقدتْ أنّها سمعَتْ، صوتاً. وعندما ضغطَتْ أُذنها على جهاز الاتصال اللاسلكيّ ميَّزتْ صوت طقطقة، وحديث بالهمس.

قال الصوت من الجانب الآخر، «الموضوع هو أنني لم أُقِم علاقة زوجيّة مع بريدجت منذ بعض الوقت...»، ثم تلاشى من جديد. هزَّت بريدجت جهاز اللاسلكي بحركة يائسة، واقتربتْ أكثر من النافذة. لم تفهم ما يجري.

كيف يمكن أنْ يكون المتكلِّم الذي سمعت صوته هو سوني؟ ولكنْ مَنْ غيره يمكن أنْ يدّعي أنّه لم يُقِم معها «علاقة الأزواج» منذ بعض الوقت؟

تمكّنتْ من جديد أنْ تميِّز الكلمات، وضغطت الجهاز أكثر على أُذنها بفضول وخوف مُضاعَفَين.

«إنَّ نبذ بريدجت في هذا... يمكن أنْ... لكنَّ المرء يشعر ببعض المسؤوليّة نحو...». من جديد أخمد صوت دخيل الحديث. وتدفّقت من جسمها موجة واخزة من الحرارة. يجب أنْ تسمع ما يقولان، والخطّة الشنيعة التي يُدبّرانها. مع مَنْ يتحدث سوني. لا بدّ أنّه بيتر. ولكن ماذا لو لم يكن هو؟ ماذا لو أنّه يتكلَّم هكذا مع كل شخص، كل شخص ما عداها؟

سمعتْ «كل الأشياء طيّ الكتمان»، ومن ثم قال صوت آخر: «الغداء... الأسبوع القادم». نعم، إنه بيتر. ثم المزيد من الطقطقة، ثم، «كل عام وأنت بخير»

غاصتْ بريدجت في مقعد النافذة. رفعتْ ذراعها وكادت تُطيح بجهاز اللاسلكيّ إلى الجدار، لكنها أخفضتها من جديد ببطء إلى أنْ ارتختْ إلى جانبها.

-4-

كان جوني هول يواظِب على حضور اجتماعات مُدمني المُخدّرات المجهولين منذ أكثر من عام. وفي نوبة من الحماس والمهانة كان يصعُب عليه تفسيرها، غامرَ بإعداد الشاي والقهوة في لقاء الساعة الثالثة من يوم السبت. وتعرَّفَ على العديد من الأشخاص الذين انتقوا أحد الأكواب البلاستيكيّة البيضاء التي ملأها بأكياس الشاي أو بقليل من حُبيبات القهوة الفوريّة، وكافحَ ليتذكَّر أسماءهم، وشعر بالحَرَج لأنَّ العديد منهم تذكّروا اسمه.

بعد إعداد الشاي اتخذ جوني له مقعداً في الصف الأخير، كالمعتاد، على الرغم من عِلمه من أنَّ ذلك سوف يجعل من الصعب عليه أنْ يتكلَّم، أو أنْ «يُشارك»، كما كان يُلحّ عليه أنْ يقول في الاجتماعات. كان يستمتع بكونه مغموراً وهو جالس في أقصى مكان ممكن عن المُدمن الذي «يُترأس الاجتماع». انهال عليه «التمهيد» - وهو طقس قراءة منتخبات من «المادة المطبوعة»، التي تشرح طبيعة الإدمان والمدمنين المجهولين - من دون أنْ يُلاحظ ما ورد فيه. حاولَ أنْ يرى إنْ كانت الفتاة الجالسة في الصف الأول جميلة، لكنّه لم يرَ ما يكفي من جانب وجهها ليُعطي حكمه.

طلب السكرتير من امرأةً اسمها أنجي أنْ تترأس الجلسة. كانت ساقاها القصيرتان والبدينتان تتدثّران ببنطلون بهلوان، وكان شَعرها يُخفي ثُلثيّ وجهها المُشوَّش والمُرهَق. لقد استُدعيَتْ من كيلبرن لكي تُضيفَ لمسة من العزم إلى اجتماع تشيلسي الذي كان يُركِّز في الغالب على عار سرقة المرء منزل والديه، أو على صعوبة العثور على فسحة لإيقاف السيارة.

قالتْ أنجي إنها بدأتْ «تستعمل»، أي تتعاطى المُخدرات، في حقبة

الستينيات، لأنَّها كانت «تجربة ممتعة». لم ترغب في التركيز على «أيام زمان السيئة»، ولكن كان عليها أنْ تُخبر المجموعة قليلاً عن إدمانها لكي تضعهم في الصورة. وبعد مرور نصف ساعة، كانت لا تزال تصِفُ عشرينيات عمرها الجامحة، ومع ذلك كان سيمرّ بكل وضوح وقت آخر قبل أنْ يستمتع مُستمعيها بالبصيرة التي استمدَّتها من حضورها المُنتَظَم للاجتماعات على مدى العامَين الأخيرَين. وختمتْ كلامها ببعض الملاحظات المُنتقِصة من ذاتها حول كونها ما زالت «مُشوّشة بالعيوب». وبفضل الاجتماعات اكتشفَتْ أنها مجنونة تماماً ومُدمنة على أنواع المُخدرات كلها. وكانت أيضاً «متواكلة إلى أقصى مدى»، وفي حاجة مُلحّة إلى الاستشارة الشخصيّة لكي تتعامل مع الكثير من «أحداث طفولتها». وقد اكتشفَ «مَنْ تُقيم معه علاقة»، أي صديقها، أنَّ العيش مع مُدمنة قد يتسبَّب بنشوب الكثير من المُشاحنات الكبيرة، وهكذا قرَّر الاثنان أنْ يحضرا «جلسة استشارة ثُنائيّة». وكانت تلك أحدث إثارة في حياةٍ زاخرة بعمليات المُعالجة، وكانت هي مُفعمة بالأمل فيما يتّصل بالفوائد المُرتجاة.

كان السكرتير شديد الامتنان لأنجي. قال، إنَّ الكثير مما تقاسمته كان وثيق الصِلة به أيضاً. فقد «تطابقَ مئة بالمئة»، ليس مع إدمانها لأنَّ حالته مختلفة كثيراً – فهو لم يلجأ إلى الحقن أو إلى الإدمان على الهيروين أو الكوكايين – بل مع «المشاعِر». ولم يتذكَّر جوني أنجي وهي تصِف مشاعرها، لكنّه حاول أنْ يُخرِس الشكّ الذي جعل من الصعب عليه بمكان أنْ يُشارك في الاجتماعات، حتى بعد إقدامه على التبرّع بإعداد الشاي. وتابع السكرتير قائلاً إنَّه هو أيضاً استعاد الكثير من أحداث عهد الطفولة، واكتشفَ مؤخّراً أنّه على الرغم ن أنّه لم تقع له أحداثٌ مؤلمة في طفولته، إلّا أنّه وجد نفسه مُختنقاً برعاية أبويه الرقيقة وأضحى التخلّص من فهمهما له وكرمهما معه قضيّة حقيقيّة بالنسبة إليه.

بهذه الكلمات الرنّانة افتتحَ السكرتير الاجتماع، وهي اللحظة التي كان جوني دائماً يجدها مُزعجة لأنها تُعرِّضه لضغط «المُشاركة». والمشكلة، بمنأى عن خجله الشديد ومقاومته للغة «الشِفاء»، كانت تكمن في أنَّ من المُفترَض بالمُشاركة أنْ تقوم على أساس «التطابُق» مع شيءٍ قاله الذي

يترأس الجلسة، ونادراً ما كان جوني يتذكّر بوضوح ما قيل. وقرَّر أنْ ينتظر ريثما يتطابق تطابُق شخصٍ آخر بالنيابة عنه مع تفاصيل خطاب أنجي. كان ذلك إجراءً خطيراً لأنّ الناس في الغالب يتطابقون مع شيءٍ لم يُذكَر في الجلسة في الحقيقة.

أول المتكلمين من القاعة قال إنّه اضطرَّ إلى أنْ يتربّى على «رعاية الطفل في داخله». وأمِلَ بعون الله - المرجِع الذي كان دائماً يجعل جوني يُجفِل - وبعون الرفاق، أنْ ينمو الطفل داخله في «بيئة آمنة». وقال إنّه هو أيضاً يواجه مشكلات في علاقته، وكان يعني صديقته، وإنه يأمل، إذا قام بخطوته الثالثة «وتخلّصَ منها»، فإنَّ كل شيء سيُصبح على ما يرام في نهاية الأمر. وهو لم يكن مسؤولاً عن النتائج، بل فقط عن «التحرُّك»

المتكلِّم الثاني تطابقَ مئة في المئة مع ما قالت أنجي عن أنَّ أوردتها «مصدر حسد في كيلبرن»، لأنَّ أوردته كانت مصدر حسد في ويمبلدون. كان يسود جو مرِح. ومع ذلك، تابع المتكلِّم يقول إنّه عندما يُضطرَّ إلى الذهاب إلى الطبيب في هذه الأيام لسبب طبّي معقول، فإنّه لا يعثر على أي وريد في أي موقع من جسده، ويقوم بالخطوة الرابعة، «عمليّة مسح أخلاقيّ مُتقصٍ ولا يعرف الخوف»، وقد أثارتْ الكثير من المسائل التي تحتاج إلى النظر فيها. وسمعَ إحدى المجتمِعات تقول إنها تخشى النجاح ورأى أنّه ربما هذه أيضاً هي مشكلته. كان يُعاني من آلام مبرحة في الوقت الراهن لأنه كان يُدرك أنَّ الكثير من «مشكلات علاقته» هي نتيجة «عجز عائلته القيام بوظيفتها». وانتهى به الأمر إلى شعوره بأنه غير محبوب وبالتالي بأنّه عاجز عن الحب، وأخذ جاره يُدلِّك له ظَهره مواسياً، عندما تبيَّن له إنه في حضرة مشاعر جيّاشة.

رفع جوني بصره نحو الأضواء المُشعّة ونحو سقف البوليسترين الأبيض للطابق التحتيّ القذر الشبيه بقاعة كنيسة. واشتاق لسماع أحدهم يتكلَّم عن تجاربه بلغة عاديّة، وليس بهذه اللغة السوقيّة السخيفة والغامضة. كان يلج خشبَة مسرح الاجتماع عندما توقفَ عن حلم اليقظة وازداد قلقه حول ما إنْ كان يجب أنْ يتكلَّم. ركَّبَ جُملاً افتتاحيّة، وتخيّلَ أساليب أنيقة للربط بين ما قيل وما أراد أنْ يقول، ومن ثم فشل، بقلبٍ خفّاق، في إعلان اسمه بالسرعة الكافية ليفوز بحقّ التكلُّم. كان مُضطرباً بشكلٍ خاصّ بعد عَرض

الهدوء الذي كان دائماً يشعر بأنَّ عليه أنْ يُقدّمه أمام باتريك. كان التكلُّم مع باتريك يُفاقم من تمرّده ضد المفردات الحمقاء التي يستخدمها المُدمنون المجهولون، ويزيد من حاجته إلى هدوء البال الذي بدا أنَّ الآخرين اكتشفوه من خلال استغلالهم لذلك الهدوء. وندم لأنه وافق على تناول طعام العشاء وحده مع باتريك، الذي كان انتقاده المُزعج وحنينه إلى المخدرات ويأسه المنتظم غالباً ما يدفع جوني إلى الشعور بالاضطراب وبالتشوُّش.

المتكلِّم الحالي كان يقول إنه قرأ في مكان ما في مجال الأدب أنَّ الفرق بين «كون المرء راغباً» و «كونه مُستعداً» هو كاستطاعته أنْ يجلس على أريكة ورغبته في أنْ يغادر المنزل، لكنه لا يكون مُستعداً بصورة تامة إلّا بعد أنْ يعتمر قبعته ويرتدي معطفه. وأدرك جوني أنَّ المتكلِّم يُنهي كلامه، لأنه كان يستخدم تفاهات رفاقه، في محاولة ليُنهي كلامه بنبرة «متفائلة»، كما كانت عادة المُدمن المُطيع الذي يسير على درب الشفاء، ودائماً يدّعي أنّه يضع في حسبانه «وافدين جُدُداً» وحاجتهم إلى التكلُّم بنبرة متفائلة.

يجب أنْ يفعل ذلك، يجب أنْ يقتحم الآن، وأنْ يُفضي بما عنده.

هدر قائلاً، حتى قبل أنْ ينتهي المتكلِم السابق من كلامه، «اسمي جوني، وأنا مُدمن»

أجابت المجموعة بصوت واحد «أهلاً بك، جوني»

قال بجرأة «يجب أنْ أتكلَّم، لأنني سأنضمّ إلى حفلةٍ ستُقام هذه الليلة، وأعلمُ أنّه سيوزَّع الكثير من المخدرات. إنها حفلة كبيرة وأشعر بأنني أتعرَّض للتهديد. لقد أردتُ أنْ أحضر هذا الاجتماع لكي أُشدِّد على رغبتي في أنْ أبقى نظيفاً من المخدرات هذا اليوم. شكراً لكم»

ردَّدت المجموعة «شكراً لك، جوني»

لقد نجح؛ أفضى بما كان يقضّ مضجعه حقاً. إنه لم ينجح في أنْ يقول شيئاً فكِهاً، وحاذقاً أو مُثيراً للاهتمام، لكنّه علِمَ أنّه مهما كانتَ تلك الاجتماعات سخيفة ومُملّة، فإنَّ الاشتراك في أحدها يمنح المرء، بصورة ما، القدرة على الامتناع عن تعاطي المخدرات في حفلة هذه الليلة وسوف يتمكّن من الاستمتاع أكثر قليلاً.

أصغى جوني، وقد توهَّجَ بالرضا بعد أنْ تكلَّمَ، إلى بيت، المتكلِّم التالي، بتعاطُفٍ أكبر مما كان في مقدوره أنْ يحشُد في بداية الاجتماع.

كان أحدهم قد وَصَفَ الشِفاء لبيت بأنّه «أنْ تضع ربطة العنق حول عنقك وليس حول ذراعك». وسُمِعَ ضحكٌ مكبوت. وعندما كان بيت يتعاطى المُخدرات، كان سهلاً عليه أنْ يجتاز الشارع لأنه لم يكن يأبه ما إذا ضربته سيارة أم لا، ولكن خلال فترة الشِفاء المبكِّرة أصبح يرتعب بصورة لعينة من حركة المرور (ضحك مكبوت) ويسير أميالاً وأميالاً بحثاً عن ممرّ للمُشاة. وأمضى أيضاً فترة شِفائه المُبكِّرة في رسم خطوط من مسحوق الخردل والتساؤل إنْ كان قد وضع مقداراً مُبالَغاً فيه في الملعقة (ضحكة واحدة متقطّعة). كان في ذلك الوقت «مُضطرباً» لأنه كان قد انفصل عن صديقته. لقد أرادتْ منه أنْ يُصبح صائد سمك تروت، وهو أراد منها أنْ تُصبح ممرضة عند طبيبٍ نفسيّ. وعندما غادرتْ قالتْ إنها لا تزال تعتقد أنّه «أفضل مخلوق يسير على ساقَين». وانتابه القلق عندما وقعتْ في حبّ خنزير (ضحك). أو أم أربعة وأربعين (المزيد من الضحك). كلام حول النقر على وتر عاره! في ذلك اليوم كان قد وصل إلى «نداء الخطوة الثانية عشرة»، وهذا يعني أنه كان في زيارة لمُدمِن ناشِط اتصل هاتفياً بمكتب المُدمنين المجهولين، وكان الرجل في حالة مُريعة، لكنّ بيت اعترف صراحةً بأنه أراد ما لدى الشخص الآخر أكثر مما أراده الشخص الآخر مما لديه هو. ذلك كان الجنون الذي يُسبّبه المرض! ختم بيت بنبرة أشدّ وَرَعاً، «لقد أتيتُ إلى هذا البرنامج زحفاً على رُكبتَي، واقترحوا عليّ أنْ أبقى راكعاً» (همهمة عارفة، ومُحبِّذة، «شكرا لكَ، بيت»)

الفتاة الأميركيّة التي تكلَّمتْ بعد بيت كان اسمها سالي، قالتْ إنه في أول عهدها في استعادة الوعي «كان النوم في الليل والبقاء يقظة خلال النهار يُعتبَر قضيّة كبرى» بالنسبة إليها. وما أرادته من البرنامج هو الحصول على «حريّة كاملة»، وكانت متأكّدة من قُدرتها على تحقيق ذلك بمعونة «قوة مُحبِّة أعلى». وكانت في عيد الميلاد ذهبتْ لمُشاهدة عرض إيمائيّ «احتفاءً بالطفلة التي في داخلها». ومنذ ذلك الحين وهي تسافر مع عضوٍ آخر من الجماعة لأنه، كما يُقال في الولايات المتحدة، «عندما تمرضون معاً، تتكاتفون معاً»

بعد أنْ شكرت الجماعةُ سالي، قال السكرتير إنه حان «وقت الوافد

الجديد» وإنه يُحبِّذ أنْ يحترم الناس هذا. هذا الإعلان كانت دائماً تتبعه فترة صمت وجيزة من أجل الوافد الجديد الذي إمّا لا وجود له، أو يكون من فرط الرعب بحيث يعجز عن الكلام. والدقائق الخمس الأخيرة بعد ذلك تنتزعها يد شخص عجوز كان «مُضطرباً» أو «أراد فقط أنْ يشعر بأنّه جزء من الاجتماع». ولكن في هذه المناسَبة كان هناك وافد جديد حقيقيّ في الغرفة، وتجرّأ على فتح فمه.

كان ديف، وهذا اسمه، يحضر اجتماعه الأول ولم يفهم كيف يمكن أنْ يمنعوه عن تعاطي المُخدرات. في الحقيقة كان قد أوشك على المغادرة، ومن ثم أتى أحدهم على ذِكر الخردل والملعقة وصنع خطوط المُخدِّر، وكما اعتقد كان هو الشخص الوحيد الذي فعل ذلك، وسماع شخص آخر يأتي على ذِكره كان أمراً غريباً. لم يكن يمتلك أي نقود، ولم يستطع أنْ يخرج لأنه كان يُدين بالمال لأناسٍ كثيرين: والسبب الوحيد لعدم إدمانه هو أنه لم تعد لديه الطاقة على السرقة. كان لا يزال يحتفظ بجهاز التلفزيون، ولكن كان لديه ذلك الشيء الذي يتحكَّم فيه، وأصبح يخشى مشاهدته الآن لأنه في الليلة السابقة انتابه القلق لأنه كان يتجنب الشاب الذي يظهر على شاشة التلفزيون بالتحديق إليه. لم يكن يعلم ماذا يفعل غير ذلك.

شكره السكرتير بصوته ذي نبرة التملُّق الخاصّة التي يستخدمها مع الوافدين الجُدُد الذين يُشكل حزنهم غذاءه الروحيّ الخاصّ، وهي فرصة قيِّمة للـ «بوح» و «تمرير الرسالة». ونصح ديف بالمكوث بعد انتهاء الاجتماع والحصول على بعض أرقام الهواتف. فقال ديف إنَّ خط هاتفه قد قُطِع. ابتسم السكرتير بثبات لديف، خشية أنْ تنحدر تلك «المشاركة» السِحريّة لتغدو مجرد حديثٍ عادي، وسأله إنْ كان هناك أي قادمين جُدُد.

وجد جوني نفسه، بقدرٍ من الدهشة، متعاطِفاً مع ما حدثَ لديف. بل إنه، في الحقيقة، أمِلَ حقاً في أنْ يجمع أولئك الناس، من أمثاله الذين يعتمدون بصورة ميؤوس منها على المخدرات، والمهووسين بها، والعاجزين عن التفكير في أيّ شيء آخر منذ سنين، أنْ يجمعوا شتات حياتهم. فإنْ كانوا مُضطرين إلى استخدام تلك اللغة السوقيّة المُبهمة ليفعلوا ذلك، فهذا أمر مؤسِف لكنّه ليس سبباً للأمل في أنْ يفشلوا.

قال السكرتير إنّه إذا لم يتوفّر شخصٌ في حاجة ماسّة إلى المُشاركة، فسوف ينفد وقتهم. ولم يتكلّم أحد، لذلك نهضَ واقفاً وطلبَ من أنجي أنْ تساعده في إنهاء الاجتماع. ووقف الجميع أيضاً وقدَّموا يد المُساعدة.

طلبَتْ أنجي «هلّا انضممتم إليّ في صلاة السكينة واستعمال كلمة «الله» كما تفهمونه، هو أو هي أو كائناً ما كان»، ثم قالتْ لكي تبدأ الصلاة، «إنَّ الله»، ومن ثم عندما أصبح الجميع على استعداد للانضمام إلى الصلاة، كرّرتْ القول «الله أنعمَ عليّ بالسكينة لقبول الأشياء التي لا أستطيع تغييرها. وبالشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، وبالحِكمة لمعرفة الفرق».

وكالمعتاد، تساءل جوني لِمَنْ سيتوجَّه بصلاته. أحياناً وهو يتسامر مع «رفاقه من المُدمنين» يعترف بأنّه «عالِق عند الخطوة الثالثة». كانت الخطوة الثالثة تشير بوضوح إلى أنّ يضع إرادته وحياته بين يديّ الله «كما يفهمه هو».

في ختام الاجتماع، اقتربتْ أماندا برات، التي لم يكن قد لاحظ وجودها حتى تلك اللحظة. كانت أماندا في الثانية والعشرين من العمر، ابنة نيكولاس برات من زوجته شديدة الحساسيّة، ابنة الجنرال التي تضع عقود اللؤلؤ البسيطة وذات اللون الأزرق الضبابيّ والتي كان يحلم بكآبة بالزواج منها عندما كان يواعِد بريدجت.

لم يكن جوني يعرف أماندا معرفة جيدة، لكنّه كان يعرف بصورة ما قصَّة والديها. كانت تصغره بثماني سنوات، وبالنسبة إلى جوني لم تكن مُدمنة مُخدرات على الإطلاق، بل كانت فتاة عُصابيّة تعاطَتْ القليل من الكوكايين أو الهيروين ليُساعدها في حِميتها، وبضعة أقراص مُنوِّمة لتساعدها على النوم، والأسوأ من ذلك كله، عندما بدأتْ تلك الممارسات السيئة المُثيرة للشفقة تُصبح مزعجة، توقفت عن تعاطيها. وكان جوني، الذي أمضى كامل فترة عشرينيات عمره في تكرار هذه الأخطاء نفسها، ينظر بتنازُل إلى أي شخص وصل إلى آخر مداه قبله، أو لأسباب أقلّ أهميّة.

قالت أماندا بصوت مرتفع أكثر مما كان يُحبّ، «إنَّ مُشاركتك خبر ذهابك إلى حفلة كبرى هذه الليلة كان أمراً غريباً جداً، وكنتُ أعلم أنها ستُقام في تشيتلي»

سألها جوني، وكان يعرف جوابها مُسبقاً، «هل ستذهبين؟»

قالتْ أماندا «أوه، طبعاً. إنَّ بريدجت هي عمليّاً زوجة أب، لأنها كانت تواعدُ أبي قبل أنْ يتزوج من أمي»

نظر جوني إلى أماندا وتعجَّبَ من جديد من ظاهرة الفتيات الجميلات اللواتي لسنَ مُثيرات جنسيّاً على الإطلاق. كان يكتنفها شيء فارغ، مركز مفقود، منعها من أنْ تكون جذّابة.

قال جوني، آملاً أنْ يُنهي ذلك الحديث، «حسن، سوف نلتقي هذه الليلة»

سألته أماندا، غير متأثّرة بالنبرة الختاميّة لصوته، «أنت صديق لباتريك ميلْروز، ألستَ كذلك؟»

قال جوني «نعم»

قالت أماندا بسخط «حسن، أعتقد أنّه يقضي الكثير من الوقت في الانسحاب ببطء من الجماعة»

تنهد جوني، وهو ينظر إلى ما خلف أماندا ليرى إنْ كان ديف ما يزال في الغرفة، قال «هل تلومينه؟»

قالت أماندا «نعم، ألومه. في الحقيقة أعتقد أنّه أمر مُثير للشفقة، ويُبيِّن مدى مرضَه: لو لم يكن مريضاً، لما احتاج إلى الانسحاب من الجماعة»

قال جوني، وقد استسلم للحشو المألوف حول «الشِفاء»، «لعلكِ على صواب. ولكن اسمعي، يجب أنْ أرحل الآن، وإلّا لن أتمكّن من الذهاب إلى الريف»

قالت أماندا بمرح «أراك هذه الليلة. قد أحتاج إليك لعقد اجتماع طارئ!»

قال جوني «أوممم، يسعدني أنكِ ستكونين هناك»

-5-

ارتعبَ روبن باركر عندما رأى، من خلال نظارات البلّور الصخريّ التي كانت تساعده على تمييز لوحات بوسّان الزائفة من الأصليّة، لكنها، للأسف، لم تجعل منه سائق سيارة يقود بأمان، أنَّ امرأة عجوزاً قد انتقلتْ إلى مقصورته «هو» في أثناء المحنة التي كان قد مرَّ بها تواً بإحضار مقدار ضئيل من مشروب الجِنّ مع شرابٍ مقوٍّ بنفسه من المائدة المفتوحة المُزرية. كان كل شيء في القطار يُشعِره بالمهانة: «الكأس» البلاستيكيّة، والتنجيد باللونين القرمزيّ والفيروزيّ، ورائحة الديزل والجلد المحروق، والآن إغارة شخص يفتقر إلى الجاذبيّة ويرتدي مِعطفاً لا يمكن إلّا للملكة أنْ تأمل في أنْ تجرؤ على ارتدائه على مقصورته. زمَّ شفتيه وهو يحشر نفسه في أثناء اجتيازه حقيبة سفر مربّية لونها أزرق باهت ضخمة كانت المرأة العجوز قد تركتها تُقعقع على الأرض. وتناول نسخته من صحيفة *السبكتاتور*، ترسُ برسيوس في مقابل ميدوزا العصر الحديث، كما كان قد قال أكثر من مرَّة، وانزلقَ إلى حلم يقظة طار سرّاً إلى غلوسيسترشير من زيوريخ أو ربما من دوفيل، مع شخص رائع حقاً. وبينما هو يتظاهر بالقراءة، في أثناء مروره بتشارلبيري وموريتون-إنْ-مارش، تخيّلَ الأشياء البارعة والمُرهفة التي كان يمكن أنْ يقولها عن لوحات بن نيكلسون[1] المُعلَّقة على جدار الكوخ.

نظرتْ فيرجينيا واطسون-سكوت بعصبيّة إلى حقيبة سفرها، وهي تعلم أنها تقفُ عائقاً في طريق كل شخص. في آخر مرة استقلت قطاراً، رفع شابٌ

1- بن نيكلسون (1894 - 1982): رسّام إنكليزيّ، معروف خاصة بلوحاته التجريديّة وأشكاله الهندسيّة - المترجم

لطيف الحقيبةَ إلى رفّ الأمتعة من دون أنْ يُفكِّر كيف ستتمكَّن من إنزالها من جديد. كانت من فرط التهذيب بحيث لم تقُل أيّ شيء، لكنّها تذكّرتْ أنها ترنّحتْ تحت عبء ثِقلها عندما دخل القطار محطة بادينغتون. ومع ذلك، كان يمكن للسيد المحترم ذي المظهر العجيب الجالس قِبالتها على الأقلّ أنْ يعرِض عليها المُساعدة.

في النهاية قرَّرتْ ألّا تضع في الحقيبة ثوبها المخمل الخمريّ الذي أحضرته معها من أجل ارتدائه في الحفلة. كانت قد فقدَتْ أعصابها، وهو أمر ما كان يمكن أنْ يحدث في حياة رودي، واستغرقت في مُشاهدة فيلم قديم كان سوني وبريدجت قد شاهداه مائة مرة من قبل، أو يمكن أنْ يُشاهداه مائة مرَّة أخرى إذا دعياها لزيارة تشيتلي مرات أكثر.

كانت تعرف فحوى الأمر، طبعاً: لقد سبَّبَتْ الحرج لبريدجت. وتصرَّفَ سوني بشهامة نوعاً ما وفي الوقت نفسه كان فظّاً، كان ممتلئاً بمجاملات عتيقة الطراز فشِلَتْ في إخفاء امتعاضه الكامن. لم تأبه به، ولكنها تأذَّتْ من التفكير في أنَّ ابنتها لا ترغب في وجودها. إنَّ العجائز دائماً يقولون إنهم لا يريدون أنْ يشكلوا عبئاً على أحد. في الواقع، هي ترغب في أنْ تشكِّل عبئاً. هذا لا يعني أنّها سوف تحتل آخر غرفة متبقّية، بل فقط أحد أكواخ سوني. ولطالما تباهى بعددها الكبير وبالمسؤوليّة التي تتطلّبها.

كانت بريدجت فتاة صغيرة لطيفة جداً. ونيكولاس الفظيع هو الذي غيَّرها. كان من الصعب وصفها، لكنّها بدأتْ تنتقد كل شيء في المنزل، وتنظر إلى الذين عرفتهم طوال حياتها بتكبُّر. ولم تقابل فيكتوريا نيكولاس إلّا مرة واحدة، والحمد لله، وذلك عندما رافقها هي ورودي لمشاهدة الأوبرا. وكانت قد قالت لرودي لاحقاً إنَّها لا تحب أمثال نيكولاس، لكنَّ رودي قال إنَّ بريدجت فتاةٌ حسّاسة وأصبحتْ الآن راشدة وتستطيع أنْ تتخذ قراراتها الخاصّة بنفسها.

قالتْ كارولاين بورلوك «أوه، تفضّلي. لقد وعدنا بأنْ نصل باكراً ونقدِّم الدعم المعنويّ»

قال بيتر بورلوك في نفسه، ولا يزال مذهولاً جرّاء حديثه مع سوني في صباح ذلك اليوم، إنَّ الدعم المعنويّ هو حقاً ما يحتاج إليه مكان كتشيتلي.

ساروا على الممر من أمام أيل هادئ وأشجار سنديان عتيقة. وقال بيتر في نفسه إنّه أحد أولئك الإنكليز الذين في استطاعتهم حقاً أنْ يدَّعوا أنَّ بيتهم هو قلعتهم، وتساءلَ إنْ كان هذا ما ينبغي قوله خلال ظهوره الشهير على شاشة التلفزيون. وبعد تدبُّر قرَّر، بينما كارولاين تُدخِل سيارة السوبارو من خلال دعامتَي البوابة بلونهما العسليّ، أنه ربما لا.

استرخى نيكولاس في المقعد الخلفيّ لسيارة آل ألانتور. قال في نفسه، هكذا ينبغي أنْ يُنظَر إلى العالم: من خلال حاجز الزجاجيّ لسيارة ليموزين.

كان لحم الغنم ممتازاً، والجبن الذي جُلِبَ بالطائرة من فرنسا في صباح ذلك اليوم كان لذيذاً، والنبيذ الفرنسي أو-بريون، «*tres buvable*» (قابل للشرب)، حسب تعبير السفير المتواضع.

سألتْ جاكلين، عائدة إلى موضوع بريدجت، لكي يستمتع زوجها بتفاصيل خلفيتها الاجتماعيّة، «*Et la Comtesse, est-elle bien nee?*» (والكونتيسة، هل هي من أصل كريم؟).

أجاب نيكولاس بلكنة إنكليزيّة قويّة، «*Pas du tout*» (كلا على الإطلاق).

هتفَ جاك دالانتور، متباهياً ببراعته في نطق الإنكليزيّة المحكيّة، «ليستْ بالضبط من قمّة السُلَّم الاجتماعيّ!»

قال نيكولاس في نفسه، إنَّ جاكلين نفسها ليستْ بالضبط من قمة السلَّم الاجتماعيّ، وهذا ما منح افتتانها بالمركز الاجتماعيّ تلك السِمةَ النهمة. فقد كانت أمّها ابنة تاجر أسلحة لبنانيّ، وتزوجتْ من فيليب دو تان، وهو بارون مُفلِس ومغمور لم يستطع أنْ يُدلّلها كما فعل والدها، ولا أنْ يُنقِذها من التدليل. لم تولَد جاكلين كما كان مُقرَّراً لها، في مكان ما في اتحاد المصارِف السويسريّة. وببشرتها الشاحبة قليلاً وفمها المنحدر نحو الأسفل اللذين ورثتهما عن أمّها، كان يمكن أنْ تستغني عن أنفها البارز بصورة مُخيفة الذي

تركه والدها لها؛ ولكنْ لمّا كانت مشهورة بكونها وريثة منذ بداية حياتها، فإنها بدتْ لغالبيّة الناس صورة فوتوغرافيّة بُثَّتْ فيها الحياة، وإسْماً جُعِلَ لحماً، ورصيداً مصرفيّاً مُجسَّداً.

ضايقته جاكلين بسؤالها «ألهذا السبب لم تتزوج منها؟»

أجابَ نيكولاس بفخامة «إنني *bien ne* (كريم النسب) بقدر كافٍ بالنسبة إلى شخصَين. ولكن، كما تعلمين، أنا لم أعُدْ متكبِّراً كما كنتُ من قبل»

رفعَ السفير إصبعه ليُصدِرَ حُكمه. أعلنَ، وعلى وجهه تعبيرٌ بارع، «أصبحتَ متكبِّراً بصورة أفضل»

قالتْ جاكلين «هناك تشكيلات كثيرة من التكبُّر، ولا يمكننا أنْ نمدحها كلّها»

قال نيكولاس «إنَّ التكبُّر هو أحد الأشياء التي على المرء أنْ يكون شديد التمييز بشأنها»

قالتْ جاكلين «إنَّ بعض الأشياء، كعدم تحمُّل الأغبياء من الناس، أو عدم دعوة خنازير إلى مائدة طعامك، لا تنمُّ أبداً عن تكبُّر، بل تعبِّر بكل بساطة عن حسّ سليم»

قال السفير بمكر «ومع ذلك، أحياناً من الضروري دعوة خنازير إلى مائدتك»

قال نيكولاس في نفسه، إنَّ الدبلوماسيين الذين لطالما كانوا مُسهبين عبر المكالمات الهاتفيّة، ما زالوا يُحافظون على أساليب سلوك الرجال الذين يتعاملون مع شؤون الدولة الكبرى. وذات مرة شاهد جاك دالانتور يطوي معطفه ويضعه على الدرابزين ويُعلن بكل الحزم الذي يتَّصِف به رجل يرفض أنْ يتنازل بشأنْ مشكلة التوريث الإسبانيّ[1]، «سوف أضعُ مِعطفي *هنا*»، ثم وضع قبّعته على كرسيّ قريب وتابع قائلاً بهيئة مُنتهى الرهافة، «أما

1- حرب التوريث الإسبانيّ: اندلعت في عام 1700 إبّان وفاة الملك تشارلز الثاني، آخر ملوك عائلة هابسبيرغ في إسبانيا من دون أنْ يخلِّف وريثاً للعرش، ولم يتبقَّ من الورثة إلّا أفراد من عائلة هابسبيرغ في النمسا وعائلات بوربون الفرنسيّة. وأدّى الصراع على احتلال عرش إسبانيا بين العائلتين إلى تزعزع توازن القِوى في أوروبا – المترجم

قبّعتي فسوف أضعها *هنا*. وإلّا وقعتْ!»، وكأنّه يُشير إلى أنّه من ناحية أخرى يمكن الوصول إلى اتّفاق بشأنْ الشروط الدقيقة للزواج.

ختمتْ جاكلين متسامحة قائلة، «إذا اجتمعوا حول مائدة أحدهم، لا يعودون خنازير على الإطلاق»

***

برضوخ سوني للقانون القائل إنَّ الذين يمقتون دائماً الذين يُثبتون خطأهم، وجد نفسه نفوراً من بريدجت بعد حديثه مع بيتر بورلوك، وابتعد حتى وصل غرفة الحضانة لكي يتفاداها.

سألتْه أماندا «بابا! ماذا تفعل هنا؟»

قال سوني باندفاع «أتيتُ إلى هنا لأرى طفلتي المُفضّلة»

هدلتْ المُربيّة «يا لكِ من فتاة محظوظة لأنَّ رجلاً كثير الأعمال كوالدك يأتي ليراك في يومٍ كهذا!»

قال سوني «لا بأس، سوف أحلّ محلّك»

قالتْ المُربيّة متملّقة «حاضر، سيدي»

قال سوني، وهو يدعَكْ يديه معاً، «حسن، ماذا كنتما تفعلان؟»

«كنا نقرأ في كتاب!»

سألها سوني «وعمَّ تدور القصّة؟»

قالتْ بيليندا بشيٍ من الحياء، «عن رحلة مدرسيّة»

«وإلى أين تتوجّه؟»

«إلى متحف الشمع»

«متحف مدام توسّو؟»

«نعم، وأساء توم وجين التصرّف وتخلّفا واختبأا، وعندما هبط الليل عاد كلُ قاطني المتحف إلى الحياة، وأخذوا يرقصون معاً كأنهم أناسٌ حقيقيّون، وأصبحوا أصدقاء للطفلَين. هلّا قرأتها لي، بابا، أرجوك؟»

قال سوني، مرتبكاً «لكنكِ قرأتها تواً»

ناشدته بيليندا «إنها قصّتي المُفضّلة، وسوف تبدو أفضل إذا قرأتها أنت. *أرجوك*»

قال سوني مع انحناءة قصيرة، وكأنها تطلب منه أنْ يُلقي خطاباً في معرض زراعيّ،«طبعاً سأقرأها. يسعدني ذلك». وبما أنّه موجود في غرفة الحضانة يمكنه أيضاً أنْ يُعطي انطباعاً جيداً. ثم لقد كان شديد الكَلَف ببيليندا ولا ضرر في إبراز هذه الحقيقة. كان التفكير بهذه الطريقة شيئاً بغيضاً، ولكن يجب أنْ يكون عملياً وأنْ يُخطِّط مُقدَّماً وأنْ يفكِّر في تشيتلي. سوف تكون المُربّية شاهد عيان مفيداً إذا ما أُثير لغط حول الوصاية. وعلى المرء أنْ يكون متأكّداً من أنَّ هذا الانقضاض المُفاجئ على غرفة الحضانة سوف يرْسَخ في ذاكرتها. استقرَّ سوني على أريكة عتيقة متداعية وجلستْ بيليندا، تكاد لا تُصدِّق حُسن حظّها، على حجره وأراحتْ رأسها على نسيج الكشمير الناعم لسترته الحمراء البرّاقة.

قال سوني باندفاع «ابتهج الأطفال في صف توم وجين بحماسٍ شديد، لأنهم كانوا ذاهبين في رحلة إلى لندن...»

قال ديفيد ويندفول لزوجته، وهو يدسّ واقيَين ذكريَّين في جيب سترة العشاء الداخليّة، تحسّباً للطوارئ، «من المؤسِف أنكِ لن تتمكني من المجيء»

شهقتْ جين، توّاقة إلى رحيله، «استمتع بوقتك، حبيبي»

قال ديفيد، متسائلاً إنْ كان يكفي واقيان، «لن أستمتع من دونك»

«كفاك سُخفاً، حبيبي، سوف تنساني وأنت في الطريق إلى هناك»

لم يُزعج ديفيد نفسه بمُخالفة هذه الحقيقة المؤكَّدة.

لكنّه بدل ذلك قال «آمل أنْ تتحسّني غداً. سوف أتصّل بك في الصباح الباكر»

قالتْ زوجته «أنتَ ملاك. تمهّل في القيادة»

كان جوني قد اتّصل ليقول إنّه سيستقل سيارته الخاصّة، وهكذا غادر

باتريك لندن وحده، مرتاحاً لأنه هربَ قبل حلول الظلام. وتعجَّبَ من الحماس المحموم الذي كان في استطاعته ذات يوم أنْ يُظهِرَه عندما يذهب إلى إحدى الحفلات. كان أساس ذلك هو الأمل، الذي لم يتحقَّق بعد، في أنْ يتوقّف عن القلق وعن الشعور بأنه عديم الأهميّة حالما يظهر شريط حياته بمظهر الرونق الصافي. ولكن، لكي يتحقَّق هذا، سوف يتوجب عليه أنْ يسمح لوجهة نظر شخص غريب يتصفَّح صفحات ممتلئة من مفكّرته أنْ تُغطّي على وِجهة نظره، وسوف يتوجّب عليه أنْ يؤمن، وهذا بعيد جداً عن القضيّة، بأنّه إنْ كان يتمتَّع بقدر كافٍ من المجد المنبعث منه فيمكن أنْ يوفِّر ذلك عليه عناء البحث عن أيّة وجهة نظر خاصّة به. ومن دون هذه الحمّى المتكبِّرة سوف يجنح تحت مروحة السقف الدائرة لوعيه الخاصّ، وهو يتنفّس أنفاساً قصيرة لكي يحصل على أقلّ قدر ممكن من الأكسجين يُغذّي به عقلاً يبدو أنّه غير قادر على إنتاج أيّ شيء غير الخوف والندم.

أعاد باتريك تشغيل أغنية إيغي بوب «المُسافر» للمرة الثالثة. اندفعَتْ سيارته أسفل التلّ نحو الجسر الممتد بين المصانع ومنازل هاي وايكومب. وبعد أنْ تحرّر من نشوة الموسيقى، استعاد جزءاً من الحلم الذي كان قد نسيه في صباح ذلك اليوم. كان في وسعه أنْ يتخيَّل كلباً ألزاسيّاً بديناً يندفع على بوابة موصَدة، ويتخيّل سماع قعقعة البوابة. كان يسير على طول درب مُجاور لحديقة، وثمة كلب ينبح عليه من خلال أسلاك قنّ دجاج أخضر اللون الذي غالباً ما يُعتبَر حدود الحديقة الفرنسيّة في الضواحي.

ارتقتْ سيارته التل من الجهة المُقابلة من الجسر بينما الأنغام الافتتاحيّة للأغنية تنساب من خلال مُكبرات الصوت. لوى باتريك قَسَمات وجهه، استعداداً لمشاركة إيغي بوب الغناء، وبدأ يصرخ بالكلمات المألوفة ويسبق الإيقاع قليلاً. انطلقَتْ السيارة الممتلئة بالدخان والخالية من الموسيقى بسرعة تخترقُ الظلام المتكاثر.

***

كان أحد التحفّظات التي لدى لورا حول شخصيّتها هو أنه أحياناً ينتابها ذلك الشيء بخصوص ترْك شقّتها. فلم يكن في استطاعتها أنْ تمرّ

من الباب، أو إذا استطاعت ذلك تُضطر إلى العودة، كانت ببساطة **تُضطر** إلى ذلك. وحالما تعود إلى الداخل تظهر في حقيبة يدها أغراضٌ كانت قد ضاعتْ ونُسيَتْ. وازداد الوضعُ سوءاً منذ أنْ ماتت قطّتها. كان حرصها على أنْ تحصل القطة على كفايتها من الماء والطعام قبل أنْ تخرج، وحرصها على ألّا تسمح لها باللحاق بها إلى الرواق، يُساعدها كثيراً.

كانت قد أرسلتْ تشينا تواً لإحضار السيارة بذريعة أنَّ الأمتعة ضخمة جداً ولا يمكن حملها مسافة طويلة، لكنَّ السبب الحقيقيّ هو لكيلا تشهد تشينا طقس الاستعطاف الذي مكَّنَ لورا من الخروج من الشقّة. كان عليها أنْ تسير إلى الخلف - تصرّفٌ سخيف، كانت تعلم إنه سخيف - وأنْ تلمس أعلى إطار الباب في أثناء مرورها. كان هناك دائماً خطر رؤية أحد الجيران لها وهي تسير إلى الخلف خارجة من شقّتها على أطراف أصابع قدميها وذراعاها ممدودتان، وهكذا تلقي أولاً نظرة إلى طول الرواق لتتيقّن من أنّه خال.

قالت تشينا «سوف نمارس لعبة في السيارة، اسمها آخر شخص ترغبين في أنْ يجلس إلى جوارك على مائدة العشاء»

تذمَّرتْ لورا قائلة «لقد سبقَ أنْ لعبناها من قبل»

«ولكن يمكننا أنْ نلعبها من وِجهة نظر أناسٍ آخرين»

قالت لورا «أوه، لقد فكّرتُ في هذا»

قالت لورا في نفسها وهي تقفل بابها الأماميّ، على أيّ حال، لقد كان جوني عشيق تشينا السابق ولذلك في استطاعتها على الأقلّ أنْ تحصل على بعض المتعة وهي في الطريق، وتستفسر عن عاداته وعن مدى اشتياق تشينا إليه.

ربما كان ألكسندر بوليتسكي، الذي استمدَّ سلوكه الإنكليزيّ الممتاز من كونه روسيّاً، هو آخر رجل في إنكلترا يستخدم عبارة «الحبّة العجوز»[1] بصدق. وكان أيضاً واسع الاطلاع بحيث يمتلك أفضل مجموعة من الأحذية

1- هذه الترجمة الحرفيّة لعبارة التحبُّب التي يتبادلها الأصدقاء الحميمون، وتعني «صديقي العزيز» - المترجم

في البلد. حذاء لوب المُخصَّص لركوب الخيل يعود عهده إلى ما قبل الحرب العالميّة الأولى أهداه إليه «مُتردِّدٌ مواظِبٌ عجوز رائع على جادّات باريس ومثليّ *صارخ* كان صديقاً لوالدي» لا يُمكن شراؤه إلّا في مناسبات خاصّة عندما يُثار عفواً موضوع الأحذية الثقيلة أو الخفيفة في أثناء الحديث.

كان يوصِل آلي مونتيغيو بالسيارة إلى منزل آل بوسينغتون-لين، حيث ينزلان كلاهما. وقد وصفه آلي وزوجته، وكان يعرف بيل وسينغتون-لين منذ أربعين عاماً، بأنهما «من الأشخاص الذين لا يُشاهدهم في لندن. لأنهما لا يُسافران كثيراً».

كان أحدهم قد سأل بيل إنْ كان لا يزال يمتلك منزل عزبته الجميل. فقال «تقول منزل العزبة الجميل؟ بل ما نزال نمتلك المزبلة القديمة، إنْ كان هذا ما تعني». تابع آلي كلامه «وبالمناسبة، هل رأيتَ ذلك الشيء في ديسمتر هذه الليلة؟ فبعد كل الهراء المعتاد عن أفضل مسابقة للصيد في إنكلترا، وعشرة آلاف فدّان والأميرة مارغريت، كان هناك قول بريدجت» لقد دعوت فقط عدداً قليلاً من الأشخاص من أجل الاحتفال بعيد ميلاد زوجي «. إنها لا تعي الأمر جيداً، أليس كذلك؟»

تأوه ألكسندر «أوف، لا أطيقُ تلك المرأة. أعني، أكاد لا أمانع أنْ تعاملني الأميرة مارغريت بتنازُل، ولا شك في أنّه هذه الليلة -»

قاطعه آلي «لا بدّ أنك محظوظ جداً. أتعلم، إنني *أُفضِّل* الحفلات التي يُقيمها أناس لا أحبّهم»

تابع ألكسندر، بهدوء، «ولكن لا أقبل أنْ تعاملني بريدجت غريفسند، واسمها الأصليّ واطسون-سبوت أو كائناً ما كان الاسم، بتنازُل»

ضحك آلي. قال «واطسون-سبوت. والغريب في الأمر أنني كنتُ أعرفُ الأب معرفة سطحيّة في وقت سابق. كان اسمه رودي واطسون-سكوت، كانَ أحمقَ بدرجة مُخيفة ومرحاً ويبيع سيارات مُستعملة، لكنه ظريف. وكما تعلم أنا لستُ *متكبّراً*، ولكن ليس ضروريّاً أنْ يكون المرء مُتكبِّراً ليتخلّى عن مثل ذلك الرجل»

قال بوليتسكي «حسن، كما تقول. لا أريد أنْ أُعامَل بتنازُل من قِبَل ابنة

بائع سيارات مُستعملة. على أي حال، كانت عائلتي قادرة على أنْ تمشي من موسكو إلى كييف على أرضٍ تمتلكها»

قال آلي «لا فائدة من إخباري عن تلك الأماكن الأجنبيّة. أخشى أنني لا أعرف أين تقع كييف»

قال ألكسندر بجفاف «كل ما عليك معرفته هو أنها مكان بعيد جداً عن موسكو. على أي حال، يبدو كأنَّ بريدجت سوف تنال عِقابها عبر علاقة سيندي سميث العاطفيّة»

قال آلي «إنَّ ما لا أفهمه هو لِمَ أحبّت سيندي سوني»

«إنّه مفتاح العالم الذي تريد أنْ تلجه»

قال آلي «أو أنْ يلجها»

ابتسم الرجلان.

سأل ألكسندر بنبرة عاديّة «بالمناسبة، هل تنتعل حذاءً خفيفاً هذه الليلة؟»

قامت آنْ أيزن بدعك نافذة سيارة الجاغوار الخلفيّة بقبضة يدها ولكن من دون طائل؛ بقيَ الضباب القذر على حاله على الطرف المقابل.

ألقى السائق نظرة إلى مرآة المشهد الخلفي مُستنكراً.

سألَ توم «هل تعرفين أين نحن؟»

قالتْ آنْ «طبعاً. نحن مجنونان» ونطقت الكلمات متباعدة ببطء وبإيقاعٍ متساوٍ. «هذا هو وضعنا. نحن في طريقنا لمشاهدة الكثير من القِطع الفنيّة في متحف، ومقابلة متكبّرين عِدوانيين، وحمقى، ومُلاكٍ إقطاعيين للبراري...»

«إنَّ هارولد يُخبرني بأنَّ الأميرة مارغريت قادمة»

«والكرنب السميك المُخمَّر». أضافَتْ آنْ هذه المادَّة الأخيرة إلى لائحتها برضا.

انعطفتْ سيارة الجاغوار يساراً وتقدَّمتْ ببطء حتى نهاية الممشى الطويل

حيث كانت أضواء منزل على الطراز الإليزابيثيّ تتوهج من خلال الضباب. ها قد وصلا إلى منزل هارولد غرين، مضيفهما خلال عطلة نهاية الأسبوع.

قالتْ آنْ «واو! انظر إلى هذا: خمسون غرفة، وأراهن على أنها كلها مسكونة بالأرواح»

لم يتأثّر توم بكلامها، ورفع حقيبة الجلد البالية عن الأرض. قال «إنه منزل على طراز هارولد. سوف أعطيك هذا. كان يمتلك واحداً يُشبهه تماماً قبل سنين عديدة في آرلينغتون، عندما كنا صِغاراً وننقذ العالم»

-6-

كانت بريدجت قد طَلَبَتْ من أمّها أنْ تُحضِر سيارة أجرة إلى المحطة وألّا تقلق لأنها هي التي ستدفع الأجرة، ولكن عندما وصلَتْ فيرجينيا واطسون-سكوت إلى تشيتلي شعرتْ بحرج شديد من طلب النقود لذلك دفعت الأجرة من جيبها، على الرغم من أنْ سبعة عشر جنيهاً بالإضافة إلى جنيه للسائق لم يكن مبلغاً يُستهان به.

عندما ولجتْ بريدجت غرفة الجلوس الصغيرة كان توني فاولز يقول «لو كان في استطاعة أزهار السحلبيّة أنْ تكتب روايات، لكتبت روايات تشبه روايات إيزابيل»

تنهدتْ بريدجت، وهي تنهض عن الأريكة حيث كانت تستمتع بسماع كلام توني، قالت «أوه، مرحباً، ماما». لقد ساعدت أقراص الفاليوم على إخماد تأثير استراق سماعها مكالمة سوني الهاتفيّة، وصُعِقَتْ بريدجت قليلاً لكنّها سُرَّتْ بمقدرتها على الاستغراق في نشوة العادة وبتأثير حديث توني الذكي المُسلّي. ومع ذلك صَدَمَها حضور أمها الزائد والثقيل بصورة جائرة.

شرحَتْ لأمها قائلة، «حسبتُ أنني شديدة التنظيم، ولكن ما زال لديّ مليون عمل وعمل أقوم به. هل تعرفين توني فاولز؟»

نهضَ توني واقفاً وتصافحا. قال «يُسعدني لقاؤك»

قالت فيرجينيا، وقد وتَّرها الصمت، «جميل أنْ أكون في الريف اللائق. أصبحَ يكتنفني من كل جانب»

قال توني «أعلم ما تعنين. أنا أحبّ مشاهدة الأبقار، وأنتِ؟ إنها تتصرف بصورة طبيعيّة جداً»

قالت فيرجينيا «آه نعم، الأبقار جميلة»

اعترفَ توني «مشكلتي هي أنني شديد التعلُّق بالجمال. أريد أنْ أندفع إلى الحقول وأقوم بتنسيقها. ومن ثم أُثبّتها في أماكنها لكي تبدو مِثاليّة من المنزل»

قالت فيرجينيا «مسكينة الأبقار، لا أعتقد أنّها تحبّ ذلك»، ثم سألتْ بريدجت «أين بيليندا؟»

قالت بريدجت «أعتقد أنها في غرفة الحضانة. إنَّ الوقت ما زال مُبكِّراً، ولكن ما رأيك ببعض الشاي؟»

أجابت فيرجينيا، متذكّرة أنَّ بريدجت قد طلبَتْ منها المجيء في وقت شرب الشاي، «أحبّ أولاً أنْ أرى بيليندا»

قالتْ بريدجت «حسنٌ، سوف نذهب ونشرب الشاي في غرفة الحضانة. على أي حال أخشى أنَّ غرفتكِ تقع في الطابق الذي فيه غرفة الحضانة – إنَّ المكان شديد الازدحام بسبب حضور الأميرة مارغريت ما إلى ذلك – وهكذا يمكنني أنْ أدلّكِ على غرفتكِ في الوقت نفسه»

قالتْ فيرجينيا «إلى الأمام». كان تعبيراً يستخدمه رودي دائماً وكان يُزعجها كثيراً،

لم تقوَ على كبح نفسها وهي تئن قائلة «أوه، أرجوكِ لا تستخدمي هذا التعبير»

«يبدو أنني استعرته من رودي!»

قالت بريدجت «أعلمُ هذا». كان في وسعها أنْ تتخيَّل والدها بسترته الرياضيّة الفضاضة وبنطلون الفرسان المُخطَّط يقول «إلى الأمام» وهو يرتدي قفّاز القيادة. وكان دائماً لطيفاً معها، ولكنْ عندما تعلَّمتْ ذات يوم أنْ تشعر بالحرج منه بقيَتْ كذلك، حتى بعد أنْ توفي.

تنهدتْ بريدجت. «إذن، هيا بنا نرتقي إلى الطابق العِلويّ»، وناشدتْ توني، «هلّا أتيتَ معنا؟»

قال توني، مُرحِّباً، «هيا بنا، هيا بنا، هيا بنا، أم ليس مسموحاً لي أنْ أقول هذا؟»

قادتْ بريدجت الطريق إلى غرفة الحضانة. وانطلقَت المُربّية، التي كانت

منهمكة في تأنيب بيليندا «بسبب فرط حماستها»، لتعدّ الشايّ في المطبخ المُلحَق بغرفة الحضانة، وهي تغمغم، «كلا الوالدين في يومٍ واحد» بمزيجٍ من الرهبة والاشمئزاز.

قالت بيليندا، التي كانت تحبّ جدّتها، «جدَّتي! لم أكنْ أعلم أنكِ هنا!»

سألتْ فيرجينيا،«ألم يُخبرك أحد؟» وقد غمرها السرور برؤية بيليندا بحيث تجاوزت هذا السهو.

انتقل توني مع بريدجت إلى الأريكة العتيقة المتهرّئة عند الطرف القصيّ من الغرفة.

قال توني مؤنِّباً، وهو يجلس، «ورد»

سألتْ بريدجت، وهي تراقب بيليندا الجالسة على رُكبتَي فيرجينيا، «أليستا جميلتين وهما معاً؟»، ونظرتْ داخل حقيبة الجدَّة لترى إنْ كانت تحتوي أيّة سكاكر. وتذكرتْ بريدجت في الحال نفسها وهي في الموقِف نفسه وشعورها بالسعادة.

شدَّدَ توني «جميلتان أو سكاكر[1] لا فرق»

قالت بريدجت «أيها الساخر العجوز»

رسم توني تعبير البراءة الجريحة على وجهه، وأنَّ قائلاً «أنا لستُ ساخراً. هل خَطَئِي أنَّ الناس يُحفِّزهم الجشع والحسد؟»

سألته بريدجت «وما الذي يُحفّزك أنت؟»

قال توني بحياء «الأسلوب الراقي»، ثم أضاف، وهو يربت برقّة على رسغ بريدجت، «وحب أصدقائي»

قالت بريدجت «لا تحاول أنْ تتملّقني»

شهقَ توني «مَنْ الذي يسخر الآن؟»

قالت بيليندا «انظرا ماذا أحضرت جدَّتي لي»، وحملتْ كيساً من سكاكر الليمون، المُفضّلة لديها.

1- هناك تلاعب في الألفاظ بين الكلمتين المتشابهتين sweet وsweets - المترجم

سألتْ أمّها «أترغبين في واحدة؟»

قالت بريدجت لفيرجينيا «لا ينبغي أنْ تعطيها سكاكر. إنَّ تأثيرها سيئ جداً على أسنانها»

قالت فيرجينيا «لم أشترِ أكثر من ربع رطل. كنتِ تحبينها كثيراً وأنتِ طفلة»

سألتْ بريدجت، مُستغلّة عودة المربّية مع صينيّة الشاي، «إنَّ المُربّية تستنكر ذلك بشدَّة، أليس كذلك، يا ناني؟»

قالت المُربّية، التي في الحقيقة لم تسمع ما كانتا تناقشانه، «أوه نعم»

قالت بريدجت «السكاكر تنخر أسنان الفتيات الصغيرات»

صرخت المُربّية، وقد تمكّنت أخيراً من التركيز على العدوّ، وهدرتْ «سكاكر! ممنوع إدخال السكاكر إلى غرفة الحضانة ما عدا في أيام الأحد!»

هرعت بيليندا تخرج من باب غرفة الحضانة ومنه إلى الرواق. قالت بكلام مُنغَّم، «لم أعد في غرفة الحضانة الآن»

وضَعَت فيرجينيا يدها على فمها لكي تبيِّن أنها تكبت ضحكها. قالت «لم أرغب في إثارة أيّة مشكلة»

قالت المُربّية بمكر، بعد أنْ رأتْ أنَّ بريدجت تُبدي إعجابها سرّاً بتمرُّد بيليندا، «أوه، إنها حيويّة»

لحقتْ فيرجينيا ببيليندا إلى الخارج ومن ثم إلى الرواق. وألقى توني نظرة منتقدة إلى التنورة الجوخ العتيقة التي كانت ترتديها. لم تكن حديثة الطراز. وشعر بأنه مسموح له بناءً على موقف بريدجت من إبداء امتعاضَه من فيرجينيا، من دون أنْ يُفوِّت على نفسه الاستمتاع بإبداء الامتعاض من بريدجت لأنها ليست موالية لأمها، أو لا تتبع الموضة الحديثة بحيث تكون أفضل منها.

قال مُقترِحاً «يجب أنْ تخرجي مع أمك وتشتري لها تنورة جديدة»

قالتْ بريدجت «لا تكن فظّاً»

اشتمَّ توني رائحة الضعف في سخطها. أصرّ قائلاً «تلك المربّعات الحمراء الداكنة تُسبِّب لي الصداع»

اعترفت بريدجت قائلة «إنها شنيعة»

أحضرَت المُربّية كوبين من الشاي، وطبق يحتوي كعك يافا.

قالت بيليندا، عائدة إلى غرفة الحضانة، «سوف تحتفظ جدَّتي بالسكاكر لأجلي. وعليَّ أنْ أطلبَ منها واحدة عندما أشاء»

شرحَتْ فيرجينيا قائلة «لقد بدا لنا ذلك تسوية جيّدة»

قالت بيليندا «وسوف تقرأ لي قصة قبل العشاء»

قالت بريدجت بشرود «أوه، يجب أنْ أخبركِ بأنكِ مدعوَّة إلى العشاء في منزل آل بوسينغتون–لين. لم أتمكن من الرفض، لقد أثاروا الكثير من الضجيج حول حاجتهم إلى المزيد من النساء. سوف يُصبح الجو خانقاً ،هنا بسبب حضور الأميرة مارغريت، وسوف ترتاحين أكثر بكثير وأنتِ هناك. إنهم جيراننا، ولطفاء جداً»

قالت فيرجينيا «أوه، حسن، إذا كانوا في حاجة إليّ فأعتقد...»

سألتها بريدجت «لا أظنكِ *تعترضين*، أليس كذلك؟»

قالت فيرجينيا «أوه كلا»

«أعني، رأيتُ أنّه سيكون ذلك شيئاً لطيفاً أكثر، أفضل لك»

قالت فيرجينيا «نعم، أنا متأكّدة من أنني سأكون أفضل حالاً»

«أعني، إنْ كنتِ حقاً لا تريدين قبولها أعتقد أنّه ما زال في وسعي أنْ أُلغيها، على الرغم من أنّهم سوف يغضبون غضباً شديداً في هذه المرحلة»

قالت فيرجينيا «كلا، كلا، أحبّ أنْ أذهب، لا ينبغي أنْ تلغيها الآن. يبدون مهّذبين جداً»، ثم أردفَت، وهي تنهض وتفتح الباب المؤدي إلى الغرف الأخرى فلي طابق غرفة الحضانة، «هلّا عذرتني لحظة؟»

سألتْ بريدجت توني «هل أحسنتُ معالجة ذلك الأمر؟»

«تستحقين عليه جائزة أوسكار»

«ألا تعتقد أنّه كان تصرّفاً فظّاً مني؟ كل ما في الأمر أنّه لا أعتقد أنَ في وسعي أنْ أتعامل مع الأميرة مارغريت وسوني ***وأيضاً*** أمّي كلهم دفعة واحدة»

طمأنها توني «لقد قمتِ بالأمر الصائب. فقبل كل شيء، ما كان في إمكانك أنْ ترسلي أياً من **هؤلاء** إلى منزل آل بوسينغتون–لين»

«أعلم هذا، ولكن أعني أنني كنتُ أفكّر في صالحها أيضاً»

قال توني «أنا متأكّد من أنها ستكون أسعد حالاً وهي هناك. تبدو امرأة ظريفة لكنها ليست...» وأخذ يفتش عن الكلمة المناسبة، «... اجتماعيّة كثيراً، ألا ترى ذلك؟»

قالت بريدجت «كلا، أعلم أنَّ كل ما سيُثار حول الأميرة مارغريت سوف يوتّر أعصابها إلى آخر مدى»

سألتْ بيليندا، وهي تقترب لتجلس بجوار أمّها، «هل جدَتي مُنزعجة؟»

«ما الذي يدفعك إلى قول هذا بحقّ الله؟»

«عندما غادرتْ بدت حزينة»

قالت بريدجت مُبتكرة «هكذا تبدو عندما ترتاح قَسَمات وجهها»

عادتْ فيرجينيا إلى غرفة الحضانة، وهي تحشر منديلها داخل كُمّ سترتها الصوفيّة.

قالت بمرح «دخلتُ إحدى الغرف برهة فوجدتُ حقيبتي هناك. هل سأنام هناك؟»

قالت بريدجت، وهي ترفع كوب الشاي وترشف منه ببطء، «هممم، أنا آسفة لأنها ضيّقة وغير أنيقة، وعلى أي حال لن تقضي فيها أكثر من ليلة واحدة»

ردَّتْ فيرجينيا «فقط ليلة واحدة»، وكانت تأمل في أنْ تقضي فيها ليلتين أو ثلاث.

قالت بريدجت «إنَّ المنزل ممتلئ عن آخره. وهذا يُشكّل ضغطاً على... على الجميع» وابتلعتْ بلباقة كلمة «الخدم» في حضور المُربّية. «على أي حال، رأيتُ أنكِ تحبّين أنْ تكوني قريبة من بيليندا»

قالت فيرجينيا «أوه، طبعاً. يمكننا أنْ نُقيم وليمة في منتصف الليل»

غمغمتْ المربّية التي لم يعد في طاقتها أنْ تتحمّل أكثر من ذلك، «وليمة في منتصف الليل. لن يحدث هذا في **غرفتي** هذه!»

قال توني بنزق لاسع «حسِبتُ أنها غرفة حضانة بيليندا»

لهَثَت الممرضة «وأنا المسؤولة هنا ولن أسمح بإقامة ولائم في منتصف الليل»

تذكّرت بريدجت وليمة منتصف الليل التي كانت أمّها قد أقامتها لكي تبثّ الفرح فيها في الليلة السابقة لالتحاقها بالمدرسة الداخليّة. وقد تظاهرت أمّها بأنَّ عليهما أنْ تختبئا بعيداً عن عينيّ والدها، لكنَّ بريدجت اكتشفَتْ لاحقاً أنه كان يعلم بالأمر كله وخرج ليشتري الكعك بنفسه. وقد أخمدتْ تلك الذِكرى العاطفيّة مع تنهيد ونهضَتْ واقفة عندما سمعَتْ ضجيج سيارات أمام المنزل. مدَّتْ عنقها من إحدى النوافذ الصغيرة في زاوية غرفة الحضانة.

قالتْ «أوه يا إلهي، إنهم آل ألانتور. أعتقد أنّه ينبغي أنْ أنزل وأُرحِّب بهم»، ثم سألتْ، «توني، هلّا كنتَ ملاكاً وساعدتني؟»

قال توني «إذا أتحتِ لي الوقت لكي أرتدي ملابس الحفلة من أجل الأميرة مارغريت»

سألتْ فيرجينيا «ألا أستطيع أنْ أفعل شيئاً؟»

قالت بريدجت «كلا، شكراً لك. ابقي أنتِ هنا وأخرجي الأمتعة. وسوف أطلبُ لك سيّارة أجرة لتوصِلك إلى منزل آل بوسينغتون-لين. عند الساعة السابعة والنصف»، مُعتبرة أنَّ الأميرة مارغريت لن تكون قد جاءتْ لتتناول مشروباً، ثم أضافت «على نفقتي، طبعاً»

قالت فيرجينيا في نفسها، أوه يا إلهي، سوف أهدر المزيد من النقود.

-7-

كان باتريك قد حجز غرفته في وقتٍ متأخِّر ولهذا وضعوه في مُلحَق فندق ليتل سودينغتون هاوس. وكانت الإدارة قد أرفقتْ رسالة التأكيد على حجزه كرّاسة تبيِّن أنّها غرفة واسعة تضمّ سريراً بأربعة أعمدة، وموقداً طويلاً من الرخام، ومشربيّة تنفتح على مناظر شاسعة من منطقة كوتسوالد الفاتنة. عُرِضَتْ الغرفة على باتريك، بسقفها المنحدر وإطلالتها على فناء المطبخ، الذي يتباهى بمجموعة كاملة من أدوات صنع الشاي، وأكياس القهوة الفوريّة، وقدور صغيرة من حليب يُطيل العمر. ورسوم الأزهار المُنمنمة على سلال نفاية الأوراق المتشابهة، والستائر، ومفارش الأسرَّة، والوسائد، ووعاء المناديل الورقيّة بدا أنها تتغيَّر وتومض.

أخرجَ باتريك سترة العشاء من بين الأمتعة ورماها على السرير، وارتمى هو بعدها. كانت ملاحظة مكتوبة موضوعة تحت الكأس على الطاولة المجاورة للسرير تقول: «تفادياً لخيبة الأمل، يُنصَح النزلاء بالحجز في المطعم مُسبقاً». وباتريك، الذي لطالما حاول أنْ يتفادى خيبة الأمل في حياته، لعنَ نفسه لأنه لم يكتشِف هذه النصيحة في وقت مُبكِّر.

أما من طريقة أخرى ليتوقف عن أنْ يخيب أمله؟ كيف يستطيع أنْ يعثر على أرضيّة صلبة تبدأ عليها هويّته بالانحلال وتستمر بمزيد من الانحلال؟ ولكن ربما كامل نموذج الهويّة هذا قد أُسيء فهمه. ربما الهوية ليست بناء على المرء أنْ يضع له أُسُساً، بل هي سلسلة من تجسيد الشخصيات تلتحم معاً بفعل ذكاء مركزيّ، ذكاء يعرف تاريخ تلك السلسلة من الشخصيّات ويُلغي الفرق بين الفعل والتمثيل.

نخر باتريك قائلاً «التجسيد، يا سيدي»، وأبرز بطنه إلى الخارج وتهادى نحو غرفة الحمّام، وكأنّه كان الرجل البدين نفسه، «هو عادة لا أستحسنها، كانت السبب في دمار المسيو إسكوفييه...» توقف.

كان الاشمئزاز من الذات الذي أصابه في تلك الأيام يتَّصِف بركود مُستنقع ينشر مرض الملاريا، وكان أحياناً يشتاق إلى مجموع الشخصيات الساخرة التي رافقت عمليات الانحلال الكبرى التي وقعتْ في أوائل عشرينيات عمره. وعلى الرغم من قُدرته على استحضار بعض من تلك الشخصيات، إلّا أنّه بدا كأنها فقدَتْ طاقتها، كما أنّه سرعان ما نسيَ ألم كونه دمية المتكلِّم من بطنه وبدَّله بإحساسٍ بالحنين إلى فترة زمنيّة عوَّضَتْ عن بعضٍ من سِمتها المُزعجة بكثافتها.

«كنْ مُطلَقاً من أجل الموت»، هذه عبارة غريبة مأخوذة من مسرحيّة «*واحدة بواحدة*»، تذكّرها بينما كان يُبرِز أسنانه لكي يفتح كيس هُلام مادة الاستحمام بتمزيقه. ربما كان في هذه الفكرة نصف الضحلة، نصف العميقة، شيء يقول إنَّ على المرء أنْ ييأس من الحياة لكي يُحيط بقيمتها الحقيقيّة. ولكن أيضاً، ربما ذلك الشيء غير موجود. وقال في نفسه، وهو يعصر المادة اللزجة الخضراء من الكيس ويُحاول أنْ يعود إلى مسار تفكيره السابق، ولكن على أي حال، ما هو ذلك الذكاء المركزيّ، وما مدى ذكائه؟ ما الخيط الذي يجمعُ معاً الحبّات المتناثرة للخبرة إنْ لم يكن ضغط التأويل؟ لقد كان معنى الحياة هو أي معنى يفرضه المرء كُرهاً على نفسه.

أين كان فيكتور أيزن، الفيلسوف العظيم، عندما احتاج إليه حاجة ماسّة؟ كيف تخلّى عن منشور *الوجود، والمعرفة، والحُكم* (أم هل كان عنوانه *التفكير، والمعرفة، والحُكم*؟) الرائع بلا أدنى شك وتركه في نيويورك عندما أعطته آنْ أيزن بكل سخاء نسخة منه في أثناء رحلة إحضار جثمان والده؟

في أثناء زيارته الأحدث لنيويورك، عاد إلى صالون العزاء الذي شاهد فيه، قبل سنوات طويلة، جثمان والده. لم يكن المبنى يُشبه على الإطلاق ما تذكّره. فبدل الواجهة الحجريّة الرماديّة، شاهدَ آجراً بنيّاً خفيفاً. والبناء كان أصغر حجماً بكثير مما توقَّع وعندما ولجه بدافع الفضول وجد أنّه لا توجد

أرضيّة من الرخام المُربَّع باللّونَين الأبيض والأسود، ولا طاولة استقبال حيث توقَّع وجودها. ربما أُجريَ عليه تغيير، ولكن مع ذلك، لم تكن كفّتا الميزان متساويتين، كالأماكن التي نتذكّرها من عهد الطفولة وينكمش حجمها مع مرور الزمن.

والغريب في الأمر هو أنَّ باتريك رفَضَ أنْ يُغيِّر صالون العزاء كما تذكّره. لقد وجدَ أنَّ الصورة التي طوّرها عبر السنين أشدّ سِحراً من الحقائق التي واجهها في زيارته الجديدة للمكان. هذه الصورة كانت مُناسِبة أكثر للأحداث التي وقعَتْ داخل المبنى المُخيِّب للآمال. والشيء الذي ينبغي أنْ يبقى وفيّاً له هو جهد التأويل، الخيط الذي حاولَ أنْ ينسِّق عليه الحبّات المتناثرة.

حتى الذاكرة اللاإراديّة كانت مجرد إبراز للقصّة القديمة، شيئاً كان ذات يوم حتماً قصّة. والانطباعات سريعة الزوال التي لا يمكن تسميتها قِصصاً لا تحمل أيّ مغزى. وخلال الزيارة نفسها إلى نيويورك مرَّ بقمعٍ أحمر وأبيض موضوع بجوار بعض أعمال الحفر في الطريق، ينفثُ بُخاراً إلى الهواء البارد. جعله ذلك يشعر بحنين وبأنه ذو شأن، لكنّه تركَه في حالة من الانقباض المُبهَم، لا يعرف هل تذكَّر صورةً من فيلمٍ سينمائيّ، من كتاب، أم من حياته الخاصّة. وخلال الزيارة نفسها نزل في فندقٍ رتْ كان قد أقام فيه ذات مرَّة ووجدَ أنّه لم يعُد فندقاً. الشيء الذي كان يتذكَّره لم يعُد له وجود لكنّه استمرّ، غافلاً عن البهو الذي تمَّ تجديده، بتخيُّل الإيطاليّ ذي ربطة العنق الشبيهة بالسيف المعقوف وهو يتِّهمه بمحاولة دفع صديقته ناتاشا إلى ممارسة الدعارة، وبتخيُّل ورق الجدران الجنونيّ الممتلئ بخطوط حمراء عشوائيّة كشرايين دم بالية في عيون مُرهَقَة.

ماذا عساه يفعل خِلاف أنْ يقبل المدى المُزعِج الذي كانت فيه ذاكرته وهميّة وأنْ يأمل في أنْ يعمل الوهم في خِدمة حقيقة مثّلَتْها بصورة أقلّ ثراءً الحقائقُ الأصيلة؟

أصبح منزل لاكوست، الذي أمضى فيه باتريك مُعظم عهد طفولته، منفصلاً الآن عن الضاحية القذرة ببضع نباتات كرمة. وبيعَ أثاثُه القديم وسُدَّتْ البئر وخُتِمَتْ. حتى ضفادع الأشجار، بلونها الأخضر البرّاق

واللزجة مقارنة باللحاء الرماديّ الأملس لأشجار التين، اختفتْ، تسمَّمَتْ، أو حُرِمَتْ من أرضيّة توالدها. ويقفُ باتريك على المصطبة المُشقَّقة، مُصغياً إلى أنين طريق سريعة جديدة، يحاولُ أنْ يستحضِر خليطاً من الوجوه التي كانت تبرز من الدفق المُلفَّع بالدخان لحجارة علامات الطريق، لكنّها بقيت مُستترة بعناد. ومن ناحية أخرى، كانت سحالي أبو بريص ما تزال تومض من فوق الأسقف ومن تحت إفريز السطح، وارتجاجُ عنفٍ لم يُحلّ كان دائماً يُعكِّر صفو أجواء العُطل، كاهتزاز آلة يرجّ رافعة على سطح سفينة نائية. إنَّ بعض الأشياء لا تخذله أبداً.

رنَّ جرس الهاتف، فرفع باتريك السمّاعة، ممتنّاً لأنه قوطِعَ. كان جوني يقول إنه قد وصل، ويقترح أنْ يتقابلا في البار عند الساعة الثامنة والنصف. وافقَ باتريك، مُتحرِّراً من عذاب أفكاره، ونهضَ لكي يقفل صنبور مغطس الحمّام.

بعد أنْ خرج ديفيد ويندفول من حمّامه متورّداً وحارّاً، حشر نفسه داخل بنطلون سترة العشاء الذي بدا أنّه يُشدّ كغلاف السجق جرّاء ضغط فخذيه. تفصَّدتْ حبّات من العرق باستمرار فوق شَفَتَه العُليا ومن جبينه. مسحها، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة؛ وعلى الرغم من أنّه بدا أشبه بفرس نهر مُصاب بضغط الدم إلّا أنّه كان راضياً كل الرضا.

كان سيتناول وجبة العشاء مع سيندي سميث. كانت معروفة على نطاق واسع بأنها جذّابة وفاتنة، لكنَّ ديفيد كان خائفاً لأنه كان ساحراً وراقياً وأيضاً، حسن، إنكليزيّاً. كان آل ويندفول على مدى قرون يتركون تأثيرهم في كومبريا قبل أنْ تظهر الآنسة سميث على مسرح الأحداث، وطمأنَ نفسه وهو يُثبِّتُ أزرار القميص شديد الضيق حول عنقه الذي ينضح بالعرق منذ الآن. كان من عادة زوجته أنْ تشتري له ياقات قياس سبع عشرة بوصة ونصف البوصة على أمل أنْ يُصبح أشدّ نحافة بحيث تصلح له. هذه الحيلة أثارتْ سخطه حتى أنّه قرَّر أنّها تستحق أنْ تمرَض وتغيب وتتعرَّض للخيانة، إذا سار كل شيء على ما يُرام.

لم يكن قد أخبر بعد السيدة بوسينغتون-لين بأنه لن يحضر حفل عشائها.

وقرَّرَ، وهو يخنق نفسه بربطة عنقه، أنَّ أفضل وسيلة للتعامُل مع الأمر هي مُلاقاتها في الحفلة ادّعاء أنَّ سيارته تعطّلتْ. كان فقط يأمل في ألّا يتناول شخص آخر يعرفه العشاء في الفندق. قد يُحاول أنْ يستغلّ خوفه من أجل إقناع سيندي بتناول العشاء في غرفته. وتسارعتْ أفكاره متفائلة.

كانت سيندي سميث هي التي احتلَّتْ غرفة النوم التي ظهرتْ في إعلان ظهر في كراس الفندق. كانوا قد أخبروها بأنه جناح، لكنها كانت مجرد غرفة نوم شبه كبيرة من دون وجود منطقة منفصلة للجلوس. تلك المنازل الإنكليزيّة العتيقة لم تكن مُريحة البتّة. وهي لم ترَ إلّا صورة فوتوغرافيّة لعزبة شيتلي من الخارج، وبدتْ كبيرة جداً، ولكن كان من الأفضل وجود تدفئة تحت المبنى وعدد كبير من الحمّامات الخاصّة، وإلّا لما تمكّنتْ من مواجهة خطّتها الخاصّة لتُصبح الكونتيسة السابقة لغريفسند ذات الثروة المستقلّة.

كانت تفكر على المدى الطويل، وتنظر إلى الأمام على مدى سنتين أو ثلاث. نظرات لا تدوم كثيراً ولم تكن مستعدة بعد للدين. وكان المال نوعاً من التسوية الجيدة، يقعُ بين مواد التجميل والأبديّة. ثم إنها كانت مُعجَبَة بسوني، إعجاباً حقيقيّاً. كان ظريفاً، ليس في المظهر، يا إلهي كلا، بل ظريفاً أرستقراطيّاً، ظريفاً على الطراز القديم كما يظهر في الأفلام.

في العام السابق في باريس كانت الموديلات الأخريات كلهن قد عدنَ إلى جناحها في فندق لوتي – ذاك كان جناحاً حقيقيّاً – وكل واحدة منهنّ، ما عدا اثنتين خافتا، قامت بأداء الرعشة الجنسيّة المُفتَعَلَة، واختيرتْ سيندي كأفضل مؤدّية للرعشة الجنسيّة المُفتعلة. وكنَّ قد تظاهرنَ بأنَّ زجاجة الشمبانيا هي جائزة أوسكار وألقتْ خطاب قبول الجائزة وشكرتْ كل الرجال الذين من دونهم لما تمَّ الحدث. من المؤسِف أنّها أتتْ على ذِكر سوني، متذكّرة كيف أنها كانت ستتزوج منه. وووبس!

كانت قد أفرطتْ كثيراً في الشرب ووضعت اسم والدها أيضاً على اللائحة، وربما هذا خطأ لأنَّ الصمتَ رانَ على الفتيات الأخريات وبعد ذلك ساءت الأمور.

وصل باتريك إلى الطابق السفليّ قبل جوني، وطلبَ كأساً من المياه المعدنيّة عند البار. جلس زوج في منتصف العمر على طاولة قريبة. والشخص الآخر الوحيد على البار، وكان رجلاً متورّد الوجه يرتدي سترة العشاء، من الواضح أنّه سيلتحق بحفلة سوني، جالساً معقود الذراعَين، ينظر باتّجاه الباب.

حمل باتريك مشروبه إلى فجوة في ركن الغرفة تصطفّ رفوفٌ من الكتب على جدارها. وبعد أنْ استعرضَ الرفوف وقعتْ عينه على كتاب عنوانه *يوميات رجل مُحبَط*، وإلى جواره كتاب آخر بعنوان *المزيد من يوميات رجل مُحبَط*، وأخيراً، ومن تأليف الكاتب نفسه، كتاب ثالث عنوانه *الاستمتاع بالحياة*. كيف يمكن لرجل بدأ حياته المهنيّة بداية واعدة كتلك أنْ ينتهي به الأمر إلى تأليف كتاب بعنوان *الاستمتاع بالحياة*؟ تناول باتريك الكتاب المُهين عن الرفّ وقرأ أوّل جُملة وقع نظره عليها: «لا ريب في أنَّ طيران النورس رائع كجبال الأنديز!»

تمتمَ باتريك «لا ريب في ذلك»

«مرحباً»

قال باتريك، رافعاً بصره عن الصفحة، «مرحباً، جوني. لقد عثرتُ على كتابٍ يُدعى *الاستمتاع بالحياة*»

قال جوني، وهو يجلس على الجانب المقابل من الفجوة، «رائع»

«سوف آخذه إلى غرفتي وأقرأه غداً. قد يُنقِذ حياتي. وبالمناسبة، لا أعلم لماذا يُركِّز الناس كثيراً على السعادة، إنَّ ذلك يُضلِّلهم دائماً، في حين يتوفَّر العديد من التجارب المُنعِشة، كالغضب، والغيرة، والاشمئزاز، وما إلى ذلك»

سأله جوني «ألا ترغب في أنْ تكون سعيداً؟»

ابتسم باتريك. قال «نعم، عندما تعبِّر عنه *هكذا*»

«في الحقيقة أنتَ كأي شخص آخر»

حذَّره باتريك «لا تستعجل قَدَرَك»

سألَ النادل «هل ستتناولان طعام العشاء معنا، أيّها السيدان؟»

أجابَ جوني، ممسِكاً بلائحة الطعام، ومُعطياً واحدة لباتريك الذي كان يجلس عميقاً داخل الفجوة وبعيداً عن متناول النادل، «نعم»

اعترفَ باتريك، الذي كان يشعر باضطراب مطّرد بشأنْ قراره بإخبار جوني بالحقائق التي أبقاها سرية على مدى ثلاثين عاماً، قال، «حسبتُ أنّه قال: هل ستموتان معنا؟»

قال جوني «ربما قال هذا. نحن لم نقرأ لائحة الأطعمة بعد»

تنهّد باتريك، مُستعرِضاً لائحة الأطعمة، «أعتقد أنَّ «الشبّان» سوف يتعاطون المخدرات هذه الليلة»

قال جوني «عقار النشوة: الذي لا يؤدي إلى الإدمان»

صرخ باتريك متبجّحاً «سمِّني دقّة قديمة، لكنني لا أحبّ وقع عبارة عقار لا يؤدي إلى الإدمان»

شعر جوني بأنّه مُحاط بمُزاحِهِ عتيق الطراز بشكلٍ مُحبِط مع باتريك. ذلك هو نوع «الرفاق القُدامى» الذي كان يُفترَض به أنْ يبتره، ولكن ماذا في وسعه أنْ يفعل؟ لقد كان باتريك صديقاً عظيماً وأراد أنْ يُخفّف من بؤسه.

سأله جوني، وقد استقرَّ على تناول السلمون المُدخَّن، «لِمَ في اعتقادك نحن مُستاؤون؟»

قال باتريك كاذباً، «لا أعلم، لا أستطيع أنْ أختار بين حساء البصل وسلطة جبن الماعز الإنكليزيّة التقليديّة. ذات يوم أخبرني مُحلِّل نفسيّ أنني أعاني من «كآبة متراكمة»»

قال جوني، وهو يُغلِق لائحة الأطعمة، «في الواقع، على الأقل أنتَ موجود على قمة الكآبة الأولى»

ابتسم باتريك «بالضبط. لا أعتقد أنَّ المرء يمكن أنْ يتفوَّق على خائن ستراسبورغ الذي كان آخر طلب له هو أنْ يُعطي بنفسه الأمر إلى فرقة إعدامه بإطلاق النار»، ثم هتفَ فجأة في دفقٍ شبه حزين من الإثارة، «يا إلهي! انظر إلى تلك الفتاة!»

«إنّها ما اسمها، الموديل»

قال باتريك «أوه، نعم. حسن، على الأقلّ الآن يمكن أنْ تستحوذ عليّ فكرة مُضاجعة لم أنلها. إنَّ الاستحواذ يطرد الكآبة: هذا هو القانون الثالث من الديناميّكا النفسيّة[1]»

«وما هي القوانين الأخرى؟»

«إنها تفيد بأنَّ الناس تشمئز من الذين أثبتوا خطأهم، وأنهم يحتقرون ضحايا سوء الحظ، وأيضاً... سوف أتذكر المزيد منها في أثناء تناول العشاء»

قال جوني «أنا لا أحتقر ضحايا سوء الحظ، أنا قلقٌ من أنَّ سوء الحظ مُعدٍ، لكنني لستُ مُقتنعاً في سرّي بأنّ أحداً يستحق سوء الحظ»

قال باتريك «انظر إليها، تتنقّل بثوبها من طراز فالانتينو، توّاقة إلى أنْ يُطلَق سراحها لتعود إلى بيئتها الطبيعيّة»

قال جوني «اهدأ، قد تكون باردة»

قال باتريك «لا يهمّ حتى وإنْ كانت كذلك. إنني لم أمارس الجنس منذ زمن بعيد بحيث لم أعُد أعرف الإحساس به، ما عدا أنّه يتمّ في تلك المنطقة الرماديّة النائية تحت العنق»

«إنها ليستْ رماديّة»

«حسن، ها قد بدأتَ، إنني حتى لا أتذكَّر شكلها، لكنني أحياناً أرى أنّه سيكون شيئاً ممتعاً أنْ أُقيم علاقة مع جسدي لا تقوم على أساس المرض أو الإدمان»

سأله جوني «وماذا عن العمل والحب؟»

قال باتريك مؤنِّباً، «أنتَ تعلم أنّه ليس من العدل أنْ تسألني عن العمل، لكنَّ تجربتي في الحب تتجلّى في أنكَ تنتعش عندما تفكِّر في أنَّ شخصاً ما يمكن أنْ يرأب قلبك الكسير، ومن ثم تغضب عندما تُدرك أنّه لا يستطيع ذلك. إنَّ نوعاً من الاقتصاد يزحف إلى العمليّة وتُستبدل الخناجر المُرصّعة

1- الديناميكا النفسيّة: عِلم يُعنى بعلاقة القِوى أو العمليات العقليّة أو العاطفيّة الناشئة خاصّة من فجر الطفولة وبأثرها في السلوك والأوضاع العقليّة – المترجم

بالأحجار الكريمة التي استُخدِمَتْ في طعن قلبك بسكاكين جيب كليلة أكثر منها»

«هل توقّعتَ من ديبي أنْ ترأب قلبك الكسير؟»

«طبعاً، لكننا كنا أشبه بشخصَين يستخدمان ضماداً واحداً بالدور – وأخشى أنْ أقول إنَّ مدَّة استخدامها له كانت أقصر بكثير. لم أعُد أضع اللوم على أحد – إنني دائماً ألوم نفسي في الغالب وعن استحقاق...» سكتَ باتريك. «شيء مُحزِن أنْ تستهلك وقتاً طويلاً في معرفة شخص وتبرير نفسك له، ومن ثم لا تستفيد من تلك المعرفة»

سأله جوني «هل تفضِّل أنْ تشعر بالحزن أم بالمرارة؟»

قال باتريك «في حالات قليلة، يستغرق مني بعض الوقت لأشعر بالمرارة. كنتُ أعتقد أنني أرى الأمور بوضوح عندما نخرج معاً. أقول في نفسي، هي مُشوَّشة وأنا مُشوَّش، لكنني على الأقلّ أعرفُ نوع التشوُّش الذي ينتابني»

قال جوني «الكثير من التشوُّش»

تنهّد باتريك «بالضبط. نادراً ما يعرف المرء ما إذا كانت المُثابرة شيئاً نبيلاً أم أحمق إلّا بعد فوات الأوان. ومعظم الناس يندمون على مكوثهم مع شخص ما فترة أطول مما ينبغي، أو يندمون على فقدانه بسهولة شديدة. إنني أنجح في الشعور بالحالتين في وقتٍ واحد حيال الشيء نفسه»

قال جوني «تهانينا»

رفع باتريك يديه، كأنّه يطلب تخفيف هدير التصفيق.

سأله جوني، وقد فوجئ بسلوك باتريك المكشوف، «ولكن ما سبب انكسار قلبك؟»

قال باتريك، متجاهلاً السؤال، «بعض النساء يُزوّدنكَ بمُسكِّن، إنْ كنتَ محظوظاً، أو بمرآة تراقبُ نفسك فيها وأنت تتّخذ قرارات خرقاء، لكنَّ معظمهنّ يقضين وقتهن في نَكْء جراح قديمة». تناول باتريك جرعة كبيرة من الماء المعدني. قال «اسمع، أريد أنْ أخبرك شيئاً»

أعلنَ نادل بحيوية «المائدة جاهزة، أيها السيدان. يمكنكما أنْ تتبعاني إلى غرفة الطعام».

نهضَ جوني وباتريك وتبعاه إلى غرفة الطعام المفروشة بسجاد بُنّيّ اللون ومُزيَّنة بلوحات تصوِّر سك سلمون يُنيره ضوء الشمس وزوجات رجال محترمين يضعن قلنسوات، وكل طاولة تومض بضياء شمعة واحدة ورديّة اللون.

أرخى باتريك ربطة عنقه وحلَّ الزر العُلويّ من قميصه. كيف يمكنه أنْ يُخبِر جوني؟ كيف يمكنه أنْ يُخبِر أيّ شخص؟ ولكنْ إذا لم يُخبِر أحداً، فسوف يبقى منعزلاً إلى الأبد ومُنقسِماً ضد نفسه. كان يعلم أنَّ تحت العشب الباسق لِمُستقبلٍ غير مُنسَّق بكل وضوح تمتد خطوط الخوف والعادة الفولاذيّة. وما لم يتحمّله فجأة، بكل خليّة من جسمه، هو أنْ يتصرَّف بدافعٍ من قَدَرٍ أعدَّه ماضيه له، وينزلِق طائعاً على طول تلك الخطوط، متأمِّلاً مع شعورٍ بالمرارة كل الدروب التي كان يمكن أنْ يطرق.

ولكنْ ما هي الكلمات التي يمكن أنْ يستخدم؟ لقد تعوَّدَ طوال حياته على اللجوء إلى الكلام لكي يُشتت الانتباه عن هذا الإبهام العميق، هذا الانفعال العصيّ على التعبير والذي عليه الآن أنْ يلجأ إلى الكلام لكي يصِفه. كيف يمكنهما أنْ يتفاديا الضجيج وانعدام اللياقة، كجماعة من الأطفال تضحك تحت نافذة غرفة نوم رجل يحتضِر؟ أوَلَيس من الأفضل أنْ يُخبر امرأة، ويُحيط نفسه بعناية فائقة كأنّها من أمّ، أو أنْ يسمح لهوس جنسيّ أنْ يلسعه؟ نعم، نعم، نعم. أو أنْ يُخبِر طبيباً نفسيّاً، يكاد يكون مُلزِماً بأنْ يُقدِّم له مثل هذا العرض، على الرغم من أنّه قاومَ هذا الإغواء طويلاً. أو أنْ يُخبر أمّه، تلك السيدة جيليباي[1] التي أنقذ حبّها الشديد للبشريّة العديد من الأيتام الأثيوبيين في حين أنَّ طفلها سقط في النار. ومع ذلك أراد باتريك أنْ يُخبر شاهداً لا يتلقّى أجراً، بلا نقودٍ، بلا جنس،

1- السيدة جيلْباي: إحدى شخصيات رواية تشارلز ديكنز «بيت كئيب» Bleak House، التي كانت تحب البشرية إلى درجة أنّها بَعَثَت إرساليّة إلى إفريقيا لإنقاذ الأطفال هناك بينما هي تُهمل عائلتها وبيتها - المترجم

وبلا لوم، فقط كائنٌ بشريٌّ عاديّ. ربما عليه أنْ يُخبِر النادل: على الأقلّ لن يراه بعد الآن.

كرَّر قائلاً، بعد أنْ جلسا وطلبا الطعام، «ثمة أمرٌ يجب أنْ أخبركَ به». توقفَ جوني كما هو متوقَّع، وترك كأس الماء بدافعٍ من حدسٍ مفاده أنَّ من الأفضل عدم الشرب أو المضغ خلال الدقائق القليلة التالية.

غمغمَ باتريك «أنا لستُ مرتبكاً. بل إنَّ الأمر هو أنني أرغب في أنْ أُحمِّلك عبء شيءٍ لا شأنَ لك به على الإطلاق»

قال جوني «تابع»

«أنا أعلم أنني أخبرتُك عن طلاق والدَيّ وعن إدمان الخمر والعنف والعجز... وليس هذا هو الموضوع البتّة. وما أدور حوله وأتفادى البوح به هو أنني وأنا في سن الخامسة –»

قال النادل، الذي جلبَ الأصناف الأولى من الطعام متباهياً، «ها هو الطعام، أيّها السيدان»

قال جوني «شكراً لك. تابع»

انتظر باتريك ريثما يبتعد النادل. يجب أنْ يحاول أنْ يكون بسيطاً قدر استطاعته.

«عندما كنتُ في الخامسة من العمر، قام والدي «بإساءة معاملتي»، كما كان يُطلَب منا أنْ نصف ذلك العمل في تلك الأيام –» فجأة ران الصمت على باتريك، وعجز عن تحمُّل السِمة العفوية التي بذل مجهوداً ليُحقّقها. لقد عادت شفرات الذاكرة التي كانت بارزة طوال حياته إلى الظهور وأخرسته.

سأله جوني بارتياب «ماذا تعني بـ «إساءة المُعاملة»؟». أصبحَ الجواب واضحاً بصورة ما وهو يُصيغ السؤال.

«أنا...». عصيَ الكلام على باتريك. مفرش السرير المُجعّد بما عليه من رسوم طيور العنقاء الزرقاء، وبركة القذارة الباردة في قعر عموده الفقريّ، والعدو على حجارة الآجر. هذه هي الذكريات التي لم يكن مُستعداً للتحدث عنها.

أمسك شوكته وغرز أسنانها بحذر ولكن بقوة شديدة في جانب رسغه، مُحاولاً إجبار نفسه على العودة إلى أرض الواقع وإلى مسؤوليات الحديث التي كان قد أهملها.

تنهّد، وقد هزّته الذاكرة، «كنتُ...»

بعد أنْ كان جورج قد راقبَ باتريك وهو يشقّ طريقه متشدّقاً بسلاسة خلال كل أزمة، صُدِمَ عندما وجد أنّه عاجز عن الكلام، ورأى عينيه تلمعان بطبقة رقيقة من الدموع. تمتم «أنا شديد الأسف»

قال باتريك، بشبه همس، «لا يحقّ لأي إنسان أنْ يفعل ذلك بأي إنسان آخر»

قال النادل بمرح «هل حظيَ كل شيء برضاكما، أيّها السيدان؟»

قال باتريك بسخرية لاذعة، بعد أنْ استعاد فجأة نبرة صوته، «اسمع، هل تعتقد أنَّ في وسعك أنْ تدعنا وشأننا خمس دقائق لكي نجري حديثنا؟»

قال النادل بمكر «آسف، يا سيدي»

قال باتريك، متلفّتاً حوله في غرفة الطعام بعِدائيّة، «لا أطيق هذه الموسيقى اللعينة». وأخفَضَ موسيقى شوبان ذات الإيقاع المتهادي المألوف حتى حافة السمع.

زمجر قائلاً، «لِـمَ لا يُسكتون تلك الموسيقة اللعينة، أو يرفعون ضجيجها؟»، ثم أضاف بنَزَق، «تقول ماذا أعني بإساءة المُعاملة؟ أعني الإساءة الجنسيّة»

قال جوني «يا إلهي، أنا آسف. لطالما تساءلتُ عن سبب كراهيتك لوالدك كل ذلك الكره»

«وها أنت تعرف الآن. الحادثة الأولى كانت مُستترة على هيئة عِقاب. كانت تتَّسِم بسِحر كافكاويّ: لم تُسمّ الجريمة باسمها ولذلك اتّخذَتْ شكلاً وكثافة عامَّين جداً»

سأل جوني «وهل استمرَّ هذا الوضع؟»

قال باتريك على عجل «نعم، نعم»

قال جوني «ابن الحرام»

قال باتريك «بهذا كنتُ أصِفه على مدى سنين طويلة. أما الآن فنالني الإرهاق من فرط كراهيتي له. لا أستطيع أنْ أستمرّ هكذا. لقد ربطتني الكراهيّة بتلك الأحداث ولا أريد أنْ أعود طفلاً بعد الآن». كان باتريك قد عاد إلى مزاجه الصحيح من جديد، وتحرَّرَ من الصمت بعادات التحليل والتأمُّل.

قال جوني «لا بدّ أنَّ ذلك قسَّم العالم إلى قِسمَين بالنسبة إليك»

بوغِتَ باتريك بدقَّة ذلك التعليق.

«نعم. نعم. أعتقد أنَّ هذا بالضبط ما حدث. كيف عرِفتَ ذلك؟»

«بدا واضحاً جداً»

«شيءُ غريب أنْ أسمعَ شخصاً يقول إنه أمر واضح. لطالما بدا لي سريّاً ومُعقَّداً». سكتَ باتريك. شعرَ بأنّه على الرغم من أنَّ ما قاله كان مهمّاً بالنسبة إليه أهميّة بالغة، فقد كان هناك جوهر من الإبهام لم يكن قد أغارَ عليه بعد. لم يولِّد عقله إلّا المزيد من الفروق أو قام بتحديد الفروق بصورة أفضل.

قال «لطالما اعتقدتُ أنَّ الحقيقة سوف تُحرّرني، لكنَّ الحقيقة دفعتني فقط نحو الجنون»

«قد يُحرّرك قول الحقيقة»

«ربما. لكنَّ معرفة الذات وحدها عقيمة»

ناقشه جوني قائلاً «في الواقع، هي تمكّنكَ من أنْ تعاني بصفاء أشدّ»

«أوه، نعم، لا يمكن أنْ أفوّت هذا أبداً»

قال جوني «في نهاية المطاف ربما السبيل الوحيد للتخفيف من البؤس هو أنْ تنفصل أكثر عن نفسك وتلتصِق أكثر بشيءٍ آخر»

ضحك باتريك «هل تقترح عليّ أنْ أتّخذ هواية؟ كأنْ أنسج سِلالاً أو أخيطَ حقائب بريد؟»

قال جوني «في الحقيقة، كنتُ أحاولُ أنْ أفكِّر في طريقة لتجنّب هذين العملَين»

احتجَّ باتريك «ولكن إذا تحرَّرتُ من حالتي النفسيّة المريرة والبغيضة، ماذا سيتبقّى لي؟»

اعترفَ جوني «ليس الكثير، ولكنْ فكِّر فيما يمكن أنْ تضع مكانهما»

«أنتَ تُسبِّب لي الدوار... والغريب في الأمر أنّه ذُكِرَ شيء عن سماع كلمة رحمة في مسرحيّة *«واحدة بواحدة»* ليلة أمس دفعني إلى تخيُّل وجود مسار ليس مريراً ولا زائفاً، شيء يتجاوز النقاش. ولكنْ إنْ كان موجوداً حقاً فلا أستطيع الإحاطة به؛ وكل ما أعرف هو أنني مُتعَب من وجود تلك الفراشي[1] الفولاذيّة التي تدور داخل جمجمتي»

سكتَ الرجلان بينما النادل يُزيل أطباقهما في صمت. تحيَّرَ باتريك من سهولة إخبار شخص آخر عن أشد الحقائق خِزياً وسريّة في حياته. ومع ذلك شعر بعدم رضا؛ فالتطهُّر من الاعتراف ضلَّله. وربما كان شديد الإبهام. لقد أصبح «والده» يمثّل الاسم السرّي لمجموعة من متاعبه النفسيّة الخاصّة ونسيَ الرجل الحقيقيّ، بخصلات شَعره الأبيض المُجعّدة وصَدره الذي يُصدر أزيزاً ووجهه الأبيّ، والذي بذل جهوداً خرقاء خلال سنوات عمره الأخيرة لكي يُحبِّب نفسه لأولئك الذين خانوه.

عندما نجحتْ إلينور أخيراً في استجماع شجاعتها لتتطلَّق من ديفيد، كان قد بدأ يدخل في حالة انحدار. كمُعذِّب شائن ماتت ضحيّته، لعنَ نفسه لأنه لم يُجارِ قسوته بصورة أفضل، ولعنَ الشعور بالذنب ورثاء الذات اللذَين تنافسا على الهيمنة على مزاجه. كان ديفيد يُعاني من إحباط آخر هو تحدّي باتريك الذي، في سن الثامنة، وبإلهامٍ من انفصال أبويه، رفضَ ذات يوم أنْ يرضَخ لاعتداءات والده الجنسيّة. لقد حطَّم تطويرُ باتريك لنفسه من دميةٍ إلى شخصٍ والدِه، الذي أدركَ أنَّ باتريك لا بدّ عرِفَ ما كان يُمارَس عليه.

خلال تلك الفترة الزمنيّة العصيبة، قام ديفيد بزيارة نيكولاس برات في مستشفى سيستر أغنس، حيث كان يقضي فترة نقاهة ليبرأ من آلام عمليّة جراحيّة أُجريَتْ له في أمعائه إبّان فشل زواجه الرابع. وديفيد، الذي كان مُضطرباً من طلاقه المتوقَّع، وجدَ نيكولاس متمدداً على السرير يشربُ

1- فراشي: جمع فرشاة.

شمبانيا هرَّبها له أصدقاءٌ مخلصون، وعلى أتمّ الاستعداد لمناقشة موضوع كيف ينبغي عدم الوثوق بامرأة لعينة.

قال ديفيد، الذي كانت إلينور تعرِضُ عليه بناء منزل صغير قريب بصورة مُفاجئة من منزلها الخاص في لاكوست، «لا أريد أنْ أطلَّ بعد الآن على العالم اللعين»

غمغمَ نيكولاس، الذي أصبح كلامه في وقتٍ واحد مُبهَماً ومتقطِّعاً وهو في الحالة الضبابيّة التي تلي إجراء عمليّة جراحيّة، قال «إنَّ مشكلة العالم الوحيدة هي البشر الذين يسكنونه. هلّا أعطيتني ورقة الكتابة تلك، من فضلك؟»

بينما ديفيد يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، هازئاً بقوانين المستشفى بتدخينه سيجاراً، أخذ نيكولاس، الذي كان يحبّ أنْ يُفاجئ أصدقاءه بأنّه يهوى وضع رسوم تخطيطيّة، ينفِّذُ رسماً تخطيطيّاً جديراً بنشوة ديفيد الكارهة للبشر.

بعد أنْ انتهى رمى الرسم عبر مفرش السرير وقال «ابقَ بعيداً عن اللوطيين»

أخذه ديفيد فرأى منزلاً خماسيّ الشكل وخالياً من النوافذ المُطلّة إلى الخارج وثمّة فناء مركزيّ زرعَ فيه نيكولاس بصورة شاعريّة شجرة سرو، تتوهَّجُ من فوق السقف المنخفض كلهبٍ أسود.

شعر المهندس المعماري الذي وصله هذا الرسم التخطيطيّ بالرثاء لديفيد وأضافَ نافذة واحدة إلى الجدار الخارجيّ لغرفة الجلوس. أوصدَ ديفيد مصراع النافذة وحشر نسخاً مسحوقة من صحيفة *التايمز* داخل الفتحة، لاعناً نفسه لأنه لم يطرد المهندس المعماريّ في زيارته الأولى له في منزله الريفيّ الذي يقع بجوار إكس ويضمّ بركة سباحة مختنقة بالطحالب وأجرى عليه تغييرات كارثيّة. ضغط على النافذة وأغلقها على الصحيفة ومن ثم ختمها بالشريط اللاصق الأسود السميك الذي يُفضّله الذين يرغبون في تسميم أنفسهم بالغاز بطريقة فعّالة. وأخيراً أُسدِلَت ستارة على النافذة ولم تُرفَع إلّا على أيدي الزوار النادرين الذين سرعان ما كانوا يدركون خطأهم بثورة غضب ديفيد.

شجرة السرو لم تزدهر أبداً وتلوّى جذعها المجدول واللحاء الرمادي المتقشّر بمُحاكاة ساخرة كئيبة لرؤيا نيكولاس النبيلة. وكان نيكولاس نفسه، بعد أنْ صمَّم المنزل، من شديد الانشغال بحيث رفض أيّ دعوة. كان يقول لأناس في لندن «لم تعد صحبة ديفيد ميلْروز ممتعة هذه الأيام». وكانت تلك طريقة مُهذَّبة لوصف حالة الاضطراب العقليّ التي انحدر إليها ديفيد. وفي كل ليلة عندما كانت توقظه كوابيسه الصارخة، يبقى متمدّداً على السرير طوال الوقت وبقيَ على ذلك الحال على مدى حوالي سبعة أعوام، مرتدياً تلك البيجاما الصفراء والبيضاء، التي كانت قد تهرَّأتْ عند المِرفقَين، وكانت الشيء الوحيد الذي ورثه عن والده، والفضل في ذلك يعود إلى التدخُّل الكريم لأمّه التي رفضَتْ أنْ تراه يترك الجنازة صِفر اليدين. والشيء الحماسيّ الوحيد الذي كان في وسعه أنْ يقوم به هو أنْ يدخّن سيجاراً، وهي عادة كان والد ديفيد أوّل مَنْ شجّعه عليها، ومن ثم انتقلَتْ إلى باتريك، من بين عدد غفير من العادات السيئة الأخرى، كعصا انتقلَتْ من جيل لاهث إلى التالي. وعندما يخرج ديفيد من منزله كان يرتدي ملابس جديرة بمتشرِّد، يكلّمُ نفسه وهو في أسواق مركزيّة ضخمة في ضواحي مارسيليا. أحياناً في الشتاء كان يتجول في أنحاء المنزل واضعاً نظارات قاتمة، ويرتدي مبذلاً يابانيّاً يجرُّه وراءه، ويحملُ كأساً من الخمر الفرنسيّ، ويتفقّد مراراً وتكراراً جهاز التدفئة ليرى إنْ كان مُغلقاً تفادياً لإهدار المال. والاحتقار الذي أنقذه من بلوغ الجنون التام دَفَعَه إلى الجنون التامّ. وعندما خرج من حالة الاكتئاب كان قد أضحى شبحاً، ليس متطوراً بل منعدماً، يحاول إغواء الناس بالمكوث في المنزل الذي صُمِّمَ لصدّ غزوهم المُستبعَد.

أقام باتريك في هذا المنزل خلال فترة المراهقة، كان يجلس في الفناء، ويرمي بذور الزيتون من فوق السطح لكي تتحرَّر أخيراً. وجلسات جداله مع والده، أو بالأحرى جلسة الجدال الوحيد والمتقطِّعة، وصَلَتْ إلى نقطة حاسِمة عندما قال باتريك شيئاً مُهيناً بعمق لديفيد يتجاوز ما قاله ديفيد له، فمدّ ديفيد يده إلى جيبه، عالِماً أنّه أضحى أبطأ حركة وأضعف في حين أنَّ ابنه يُصبح أسرع حركة وأشد قذارة، لكي يُخرِج أقراص مرض القلب، وبعد

أنْ هزَّها بيديه اللتين تعانيان الروماتيزم، قال بهمسٍ كئيب، «لا ينبغي أنْ تقول مثل هذه الأشياء لوالدك العجوز»

اصطبغَ انتصار باتريك بإيمانٍ مشوبٍ بإحساسٍ بالذنب لأنَّ والده شارفَ على الموت بنوبة قلبيّة. ومع ذلك، لم تعُد الأمور كما كانت، خاصّة عندما أصبح باتريك قادراً على التفضّل على والده المحروم من الميراث بدخلٍ ضئيل، ويُقلِّل من قدره بماله كما كانت إلينور قد حطَّتْ من قدره ذات يوم بمالها هي. وخلال تلك السنوات الأخيرة كان رعب باتريك قد غطّى عليه بدرجة عالية إحساسٌ بالشفقة، وأيضاً بالضجر وهو في صحبة «والده العجوز المسكين». كان أحياناً يحلم بأنَّ من الممكنِ أنْ يدور بينهما حوار صادق، ولكنَّ لحظةً واحدةً بصحبة والده كانت تبيِّن أنَّ ذلك لن يحدث أبداً. ومع ذلك شعر باتريك بأنَّ ثمة شيئاً مفقوداً، شيئاً لم يعترف به لنفسه، ناهيك عن أنْ ينقله إلى جوني.

احتراماً لصمت باتريك، التهم جوني معظم نصيبه من كمية الدجاج المحشو بالذرة قبل أنْ يستأنف باتريك الكلام.

«فماذا في وسع المرء أنْ يقول عن رجلٍ يغتصب ولده؟»

اقترح جوني اقتراحاً ضعيفاً، «أعتقد أنّه يمكن أنْ يُساعدك على أنْ تعتبر أنّه مريض وليس شريراً»، ثم أضاف، «لا أستطيع أنْ أتجاوز هذا، إنّه شيء فظيع حقاً»

قال باتريك «لقد جرَّبتُ ما اقترحتَه، ولكن، ما هو الشرّ إنْ لم يكن مَرَضاً يحتفي بنفسه؟ عندما كان والدي يتمتّع بأي قدر من القوة لم يُظهِر أيّ قدر من الندم أو كبح النفس، وعندما أصبحَ مسكيناً ومخذولاً اكتفى بإبداء الاحتقار والسلوك المَرَضيّ»

«ربما في وسعك أنْ ترى الشرَّ في أفعاله، وأنْ تراه هو مريضاً. ربما لا يستطيع المرء أنْ يُدين شخصاً آخر، بل فقط أنْ يُدين أفعاله...» تردَّد جوني، كارهاً أنْ يقوم بدور مُحامي الدفاع. «ربما لم يتمكّن من منع نفسه بقدر ما لم تتمكَّن أنت من منع نفسك من تعاطي المُخدّرات»

قال باتريك «ربما، ربما، ربما، لكنني لم أُسبِّب الأذى للآخرين بتعاطي المُخدرات»

«أحقاً؟ وماذا عن ديبي؟»

اعترفَ باتريك «إنها راشدة، وتستطيع أنْ تختار. لا شك في أنني تسبّبتُ لها بالكثير من المتاعب، لا أعلم، لقد حاولتُ أنْ نتناقش في إقامة هدنة من نوعٍ ما بيننا، ولكنني واجهتُ ذلك الغضب العصيّ على النقاش» ودفع باتريك طبقه إلى الخلف وأشعلَ سيجارة. «لا أريد أي نوع من الحلوى، أترغب أنت؟»

«كلا، فقط قهوة»

قال باتريك للنادل الذي كان حينئذٍ يشدّ على شفتيه بطريقة مسرحيّة، «اثنين قهوة، من فضلك. آسف لأنني صرختُ بك قبل قليل، لقد كنتُ منهمكاً في محاولة قول شيء دقيق»

قال النادل «كنتُ فقط أحاول أنْ أؤدي عملي»

قال باتريك «طبعاً»

سأل جوني «أتعتقد أنَّ في وسعك أنْ تغفر له؟»

قال النادل «أوه، نعم. لم يكن الأمر بهذا السوء»

ضحك جوني «كلا، لستَ أنت المقصود»

قال النادل «آسف لأنني تكلّمت»، وانطلقَ ليُحضِر القهوة.

«أقصد، والدك»

قال باتريك «إنْ كان في وسع ذلك النادل السخيف أنْ يُسامحني، فمَنْ يدري أي سلسلة متفاعلة من الغفران سوف تحدث؟ ولكن لا الانتقام ولا الغفران يُغيِّران ما حدث. إنهما شيئان ثانويّان، والغفران بينهما هو الأقلّ جاذبيّة لأنه يمثّل تعاوناً مع مُضطهدي المرء. لا أعتقد أنَّ الغفران هو أوّل ما فكّر فيه الناس الذين سُمِّروا إلى صليب إلى أنْ ظهر يسوع على مسرح الأحداث، الذي إذا لم يكن أول رجل حمل عقدة المسيح فهو ما زال الأكثر نجاحاً. ربما الذين استمتعوا بممارسة القسوة لم يؤمنوا بقَدَرِهم وانطلقوا يُروّجون الوهم القائل إنَّ ضحاياهم لا يمكن أنْ تُحَقِّق راحةُ بالِهم إلّا بالغفران لهم»

سأل جوني «لا أظنكَ تعتقد أنها الحقيقة الروحية الأعمق؟»

نفخ باتريك وجنتيه. «ربما هي كذلك، ولكن بالنسبة إليّ، إنَّ الشيء الذي يُفتَرَض به أنْ يُظهِر المزايا الروحيّة للغفران إنما يُظهِر في الواقع المزايا النفسيّة للاعتقاد بأنكَ ابن الله»

سأل جوني «إذن كيف تتحرَّر؟»

قال باتريك «لا تسألني. من الواضح، وإلّا ما كنتُ أخبرتُكَ، أنني أعتقد أنَّ الأمر يتعلَّق بقول الحقيقة. إنني فقط في البداية، ولكن ربما عند نقطةٍ معيَّنة سوف ينال منك الضجر من البوح بها، وتلك النقطة تتزامن مع «تحرّرك»»

«وبدل أنْ تغفر سوف تحاول أنْ تبوح بها»

قال باتريك بدماثة «نعم، إنَّ ما أسعى إليه هو التعب من السرد. إن كان العلاج بالكلام هو دِيننا الحديث فيجب أنْ يكون التعب من السرد هو تمجيدٌ له»

«لكنَّ الحقيقة تتضمَّن تفهُّم والدك»

«لم أتمكن من تفهُّم والدي أكثر مما فعلت وما زلت أكره ما فعل»

«طبعاً تكرهه. ربما ليس هناك ما يمكن قوله إلّا «يا له من ابن حرام». لقد كنتُ فقط أتلمّسُ للعثور على بديل لأنكَ قلتَ إنَّك تعبتَ من طول الكراهية»

«هو كذلك، لكنني في اللحظة الراهنة لا أستطيع أنْ أتخيَّل أي نوع من التحرُّر خلاف اللامبالاة الختاميّة»

قال جوني «أو الانفصال. لا أعتقد أنكَ سوف تُصبح يوماً لامبالياً»

قال باتريك، الذي لم يُمانع في أنْ تُصحَّح له مفرداته في هذه المناسبة، «نعم، الانفصال. لكنَّ كلمة لامبالاة تبدو ألطف»

شرب الرجلان قهوتهما، وجوني يشعر بأنه جُرَّ بعيداً جداً عن بوح باتريك الأصلي بحيث يسأل «ما الذي حدث حقاً؟»

وباتريك، من ناحيته، شكَّ في أنْ يكون قد غادر تربة تجربته الخاصة، حيث ما زالت الدبابير تنهش رأسه ذا السنوات الخمس، لكي يتفادى إزعاجاً يكمن أعمق حتى من إزعاج اعترافه. كانت جذور مخيّلته تضرب في عمق

الجنوب الوثنيّ وفي التحرُّر غير المناسِب الذي أحدثته في والده، لكنَّ النقاش بقيَ بصورةٍ ما في تلال كوتسوولدز بعد أنْ سرَّبته أشباح أشجار الدرداء البريّة في إنكلترا. وتلاشت الفرصة لأداء إيماء فخم وقول «ذلك الشيء المُظلِم هو أنا»، وتحوّلتْ إلى مناظرة في الأخلاق.

قال جوني «شكراً لك لأنك أخبرتني بما أخبرتني به»

«لا داعي للتصرُّف كأحد أبناء كاليفورنيا، أنا متأكِّد من أنّه ليس أكثر من عبء»

قال جوني «ولا داعي للتصرّف كإنكليزيّ. لقد تشرَّفتُ *حقاً* بذلك. أنا مستعد للإصغاء إليك كلما رغبتَ في البوح»

شعر باتريك برهة بالعجز وبحزنٍ لا حدود له. قال «هلّا ذهبنا إلى تلك الحفلة البائسة؟»

خرجا معاً من غرفة الطعام، وتجاوزا ديفيد ويندفول وسيندي سميث.

كان ديفيد يقول «كان هناك تخبُّط غير متوقَّع في سِعر الصرف. وأصاب الرعب الجميع إلى درجة الجنون، ما عدا أنا، والسبب في ذلك هو أنني كنتُ أتناول وجبة غداء وأنا ثملٌ إلى أقصى حد مع سوني في ناديه. وفي نهاية اليوم كسبتُ مبلغاً ضخماً من المال من دون أنْ أبذل أي مجهود بينما نالت الآخرين كلهم خسارة فادحة. وفرح رئيسي فرحاً غامراً»

سألتْ سيندي التي لم تهتم بالأمر البتّة، «هل علاقتك جيدة برئيسك؟»

قال ديفيد «طبعاً جيدة. أنتم الأميركيون تسمّونها» شبكة العمل الداخليّة «، ونحن نسميها ببساطة حُسن سلوك»

قالت سيندي «يا الله»

قال باتريك، وهو يجتاز البار مع جوني، «قد أرغب في المغادرة باكراً»

قال جوني «حسن، أراك هناك»

-8-

دائرة سوني الخاصّة، الضيوف الأربعون الذين كانوا يتناولون العشاء في تشيتلي قبل الالتحاق بالحفلة، تسكّعوا في أرجاء الغرفة الصفراء، لأنهم لا يستطيعون أنْ يجلسوا قبل أنْ تجلس الأميرة مارغريت.

سألتْ بريدجت، وهي تُدخِل نيكولاس برات في الحديث الذي كانت تُجريه مع الأميرة مارغريت، «هل نؤمن بالله، يا نيكولاس؟»

أدار نيكولاس مُقلتَي عينيه في مِحجريهما بضجر، وكأنَّ أحداً حاولَ أنْ يُنعِش فضيحة قديمة مُتعبة.

«إنَّ ما يُحيّرني، يا عزيزتي، هو إنْ كان هو ما يزال يؤمن *بنا*. أم هل سبّبنا لمدير المدرسة السامي انهياراً عصبيّاً؟ في كل الأحوال، أعتقد أنَّ أحد أفراد عائلة بيبيسكو قال: بالنسبة إلى رجل مُجرِّب، الكون هو منطقة في الضاحية»

قالت الأميرة مارغريت، وهي تُجعِّد أنفها، «لا أحبّ ما يقوله صاحبك بيبيسكو. كيف يمكن للكون أنْ يكون منطقة في الضاحية؟ هذا قول غاية في السُخف»

أجابَ نيكولاس «أعتقد أنَّ ما يعنيه، يا سيدتي، هو أنّه أحياناً تكون أكبر الأسئلة هي الأشد سُخفاً، لأنه من المستحيل الإجابة عنها، في حين أنَّ الأسئلة التي تبدو سخيفة، كأنْ تقولي أين يجب أنْ يجلس المرء على مائدة العشاء»، أعطى هذا المِثال وهو يرفع حاجبيه في وجه بريدجت، «هي الأشد روعة»

كذبت الأميرة قائلة «أليس الناس غريبي الأطوار؟ إنني لا أجد مكانَ جلوس شخص شيئاً رائعاً على الإطلاق»، ثم أردفَتْ، «ثم، كما تعلمون،

إنَّ أختي هي رئيسة كنيسة إنكلترا، ولا أحبّ أنْ أُصغي إلى آراء مُلحِدة. إنَّ الناس يظنون أنهم بارعون، لكنَّ ذلك لا يُبيِّن إلّا افتقاراً إلى التواضُع». بعد أنْ أسكتت الأميرةُ نيكولاس وبريدجت باستنكارها، تناولت جرعة من كأس الويسكي الخاصّ بها، وقالت بإبهام «من الواضح أنَّ هذا في ازدياد»

سألها نيكولاس «ما هو، يا سيدتي؟»

قالتْ الأميرة «الإساءة إلى الأطفال. في الأسبوع الفائت كنتُ أحضر حفلاً موسيقياً لصالح الجمعيّة الوطنيّة لمكافحة القسوة في معاملة الأطفال، فقالوا لي إنها في ازدياد»

قال نيكولاس «ربما كل ما في الأمر أنَّ الناس أشدّ ميلاً إلى تنظيف ملابسهم القذرة علناً هذه الأيام. بصراحة أجدُ ذلك الميل أشدّ إثارة للقلق من كل ذلك الضجيج حول إساءة معاملة الأطفال. ربما الأطفال لا يُدركون أنه تُساء معاملتهم إلا عندما يُشاهدون ذلك على شاشة التلفزيون في كل ليلة. وأعتقد أنهم في أميركا بدأوا يُقاضون آباءهم لأنهم أنشأوهم نشأة سيئة»

قهقهت الأميرة «أحقاً؟ يجب أنْ أخبر الماما، سوف تُذهَل»

انفجر نيكولاس ضاحكاً. «ولكن لنكن جديين، يا سيدتي، إنَّ ما يُقلقني ليس مسألة إساءة معاملة الأطفال هذه، بل الطريقة المُرعبة التي يُدلِّل بها الناس أطفالهم في هذه الأيام»

شهقتْ الأميرة «أليس هذا مريعاً؟ إنني أرى المزيد والمزيد من الأطفال يفتقرون تماماً إلى الانضباط. شيء مُخيف»

شدَّد نيكولاس «بل مُرعب»

قالت الأميرة، وهي تنشر بسخاء نحو نيكوس دائرة الضوء التي تشعّ من حضورها، «لكنني لا أعتقد أنَّ أعضاء الجمعية الوطنية لمكافحة القسوة في معاملة الأطفال كانوا يتحدثون عن عالمنا **نحن**. وهذا يُبيِّن حقاً خواء الحلم الاشتراكيّ. إنهم يعتقدون أنَّ كل مشكلة يمكن حلّها بتخصيص مبالغ مالية لها، لكنَّ هذا بكل بساطة غير صحيح. قد يكون الناس فقراء، لكنهم سعداء لأنهم يعيشون في تجمّعات حقيقيّة. تقول أمي إنّه عندما كانت تقوم بزيارة

لايست إند في أثناء القصف العنيف[1] قابلت المزيد من الناس الذين يشعرون بالكرامة الحقيقيّة أكثر مما يمكن توقّعه في كامل الهيئة الدبلوماسيّة».

قال بيتر بورلوك لروبن باركر وهما يتوجهان نحو قاعة الطعام، «إنَّ ما أجده في النساء الجميلات هو أنّه بعد أنْ ينتظر المرء زمناً طويلاً، يصلن كلّهن في الحال، كما يُفترَض بالحافلات أنْ تصل. وهذا لا يعني أنّه سبقَ لي أنْ انتظرتُ وصول حافلة، ما عدا في ذلك «الإرث البريطاني»[2] الذي في واشنطن. هل تتذكَّر؟»

قال روبن باركر، وعيناه تسبحان جيئة وذهاباً، كالسمكة الذهبيّة ذات اللون الأزرق الفاتح، من خلف عدستَي نظارته السميكتين، «نعم، طبعاً. لقد استأجروا حافلة بطابقَين لنقلنا»

قال بيتر «وقال بعض الناس «كنقل الفحم إلى نيوكاسل»[3]، لكنني كنتُ سعيداً جداً برؤية ما اشتقت إليه طوال سنين عديدة»

كان في جعبة توني فاولز الكثير من الأفكار المُسلّية والطائشة. كوجود تلك الصناديق في الأوبرا حيث يمكنكَ أنْ تسمع الموسيقى لكنك لا ترى أفعالاً، قال إنّه ينبغي أنْ تكون هناك صناديق لا تنقل الصوت حيث لا تسمع الموسيقى ولا ترى الفعل، بل فقط تنظر إلى الناس الآخرين عبر نظارات مُقرّبة دقيقة جداً.

ضحكتْ الأميرة بمرح. شيءٌ ما في سُخف توني العقيم جعلها تشعر بالارتياح، ولكن سرعان ما انفصلتْ عنه وجلست بجوار سوني في الطرف القصيّ من المائدة.

1- الإشارة هنا إلى القصف الليليّ المنتظم الذي قامت به القوات الجويّة الألمانيّة على بريطانيا خلال عامَي 1940-41 - المترجم

2- الإرث البريطاني: هي جمعيّة تهتم بالعناية بما خلّفه البريطانيون من آثار ونُصُب تذكاريّة في كل مكان بالترويج لها - المترجم

3- أي كنقل الفحم إلى موطن استخراجه. أي أنهم ذاهبون إلى مكان يُشبه المكان الذي هم فيه - المترجم

قال جاك دالانتور، وهو يرفع إبهاماً حكيماً، «تقليديّاً، يجب أنْ يكون عدد الضيوف في حفلة عشاء خاصّة أكبر من عدد آلهة الجمال وأقلّ من عدد مُلهمات الشِعر! ولكن هذا»، ومدَّ يديه وأغمضَ عينيه وكأنَّ الكلمات توشك أنْ تخذله، «هذا شيء خارق بكل معنى الكلمة»

قليلون هم المتعودون أكثر من سفير على النظر إلى مجموعة من أربعين شخصاً حول مائدة عشاء، لكنَّ بريدجت ابتسمتْ بإشراق له، وهي تحاول أنْ تتذكَّر عدد آلهة الشِعر المُفترَضة.

سألت الأميرة مارغريت سوني «هل تتبنّى أيّة آراء سياسيّة؟»

قال سوني بافتخار «مُحافِظة، يا سيدتي»

«هذا ما افترضتُ. ولكن هل أنتَ مهتّم بالسياسة؟ من ناحيتي لا يهمّني مَنْ تضمّ الحكومة ما داموا يُحسنون الأداء الحكوميّ. وما ينبغي أنْ نتفادى بأي ثمن هم ماسحو زجاج السيارات[1]: من اليسار إلى اليمين، من اليسار إلى اليمين»

ضحك سوني باعتدال من فكرة ماسحي زجاج السيارات في السياسة.

أجاب «أخشى أنني لا أهتمّ إلّا بالمستوى المحليّ جداً، يا سيدتي. بالطريق الفرعية في قرية ليتل سودينغتون، أو ما شابه. أحاول أنْ أحرص على ألّا تظهر دروب المُشاة في كل مكان. يبدو أنَّ الناس يعتقدون أنَّ الريف هو مجرد متنزه ضخم مُخصَّص لعمّال المصانع لكي يرموا أوراق السكاكر فيه. حسن، والذين يعيشون هنا منا لديهم رأي آخر بهذا الشأنْ»

قالت الأميرة مارغريت مُطمئنة، «يحتاج الأمر إلى شخص مسؤول عن الاهتمام بالشؤون المحلّيّة. إنَّ العديد من الأشياء التي تدمّرتْ هي أماكن نائية قليلاً لا يلاحظ وجودها المرء إلّا بعد أنْ تُدمَّر. ويمرّ بها ويقول لا بدّ أنّها كانت أماكن جميلة ذات يوم»

اتفقَ سوني معها «أنتِ على صواب تام، يا سيدتي»

1- أي المنافقون والمتملّقون في السياسة – المترجم

سألتْ الأميرة «أهذا لحم غزال؟ من الصعب تمييزه وسط هذه الصلصة القاتمة»

قال سوني بعصبيّة «نعم، هو غزال. أنا شديد الأسف بشأن الصلصة. كما تقولين، إنها مُقرفة جداً». وتذكَّرَ أنّه عرِفَ من سكرتيرتها الخاصة أنَّ الأميرة تحب لحم الغزال.

دفَعَتْ طبقها بعيداً وتناولت ولاعة السجائر. قالتْ باعتداد بالنفس«لقد تلقّيتُ أيلاً أسمر من متنزّه بارك. يجب أنْ يضعوا اسمك على القائمة. لقد قالت الملكة لي «ضعي نفسك على القائمة» ففعلت»

تكلَّف سوني الابتسام. «هذا شعور جميل جداً، يا سيدتي»

اعترفَ جاك دالانتور لكارولاين بورلوك، «إنَّ لحم الغزلان هو الوحيد الذي لا أطيقه حقّاً، لكنني لا أريد أنْ أتسبَّب في حادث دبلوماسي، ولذلك...» ورمى بقطعة من اللحم إلى فمه، راسماً على وجهه تعبيراً مسرحيّاً لشهيد وَصَفَته كارولاين لاحقاً بأنّه «مُبالغٌ فيه قليلاً»

قالت الأميرة مارغريت وهي تميل قليلاً نحو المسيو دالانتور الجالس إلى يمينها، «هل أعجبك؟ أعني لحم الغزال»

قال السفير «كثيراً، إنه شيء رائع إلى أقصى مدى، يا سيدتي، لم أكن أعلم أنّه يمكن العثور على مثل هذا النوع من الطعام في بلدك. إنَّ الصلصة ممتازة جداً» وضيَّقَ عينيه لكي يُعطي انطباعاً بالرهافة.

سمحَتْ الأميرة لآرائها حول الصلصة أنْ تختفي خلف ابتهاجها بسماع وصفٍ لإنكلترا بأنّها «بلدُك»، اعتبرته اعترافاً بشعورها بالانتماء، إذا لم يكن من الناحية الشرعيّة، فبمعنى أعمق بكثير، إلى عائلتها الخاصّة.

وسط قلقه بشأنِ حبّه للحم غزال إنكلترا العجوز المرحة، رفع السفير شوكته بإيماء استحسان مُبالغ فيه حتى أنّه نثر حبيبات صغيرة بنيّة اللون برّاقة وَمَضَتْ على مُقدّمة ثوب الأميرة من قماش التول الأزرق.

هتفَ، شاعراً بأنّه على شفا التورّط بحادث دبلوماسيّ، «إنني مُنهَكٌ بالرعب!»

زمَّتْ الأميرة شفتيها وشدَّت زاويتَي فمها نحو الأسفل، لكنها لم تقُل شيئاً. تركت حامل السيجارة الذي كانت تُدخِل فيه سيجارة، وشدَّت على الفوطة بين أصابعها وأعطتها للمسيو دالانتور.

قالتْ ببساطة مُخيفة «امسح!»

دفع السفير كرسيه إلى الخلف وركعَ على رُكبتيه طائعاً، وقام أولاً بغمس زاوية الفوطة في كأسٍ من الماء. وبينما كان يمسح بقع الصلصة عن ثوب الأميرة أشعلتْ سيجارتها والتفتت نحو سوني.

قالت بمكر «حسبتُ أنني لن أكره الصلصة أكثر عندما كانت على طبقي»

قال سوني، الذي كان وجهه قد احتقنَ بمزيد من الدماء، «لقد كانت الصلصة فظيعة. لا أعرف كيف أعتذر لك يا سيدتي»

قالت «لستَ *أنتَ* الذي في حاجة إلى الاعتذار»

خشيَتْ جاكلين دالانتور من أنَّ زوجها يمثّل دوراً يتنافى مع هيبة فرنسا، ونهضَتْ ودارت حول الطاولة. تظاهر نصف الضيوف بأنهم لم يُلاحظوا ما كان يجري ولم يزعج النصف الثاني نفسه بالتظاهُر بذلك.

قال نيكولاس برات، الذي كان جالساً إلى يسار بريدجت على الطرف المقابل من المائدة «إنَّ ما يُثير إعجابي بالأميرة مارغريت هو الطريقة التي تبثّ بها الارتياح في كل شخص»

قرَّر جورج واتفورد، الجالس على الجانب الآخر من بريدجت، أنْ يتجاهل مقاطعة برات ويستمر في محاولة شرح الهدف من رابطة الكومنويلث للضيفة.

قال بحزن «أخشى أنَّ الكومنويلث غير مؤثّرة على الإطلاق. وليس بيننا أي شيء مُشترَك، ما عدا الفقر»، ثم أضاف، وهو ينظر نحو آخر المائدة إلى الأميرة مارغريت، «ومع ذلك، فهي تمنح الملكة بعض السرور، وهذا السبب كافٍ للحفاظ على تلك الرابطة»

ذُهِلَتْ جاكلين، ولا تزال غير مُدركة ما حدث، إذْ وجدتْ زوجها قد غاص أعمق تحت الطاولة وكان يدعك بغضب ثوب الأميرة.

همسَتْ جاكلين، «*Mais tu es completement cingle*» (ولكن أنت مجنون تماماً). لم يكن لدى السفير الذي يتصبّب عَرَقاً وقت ليرفع نظره.

أعلن «لقد ارتكبتُ فعلاً لا يُغتَفَر. لقد رششتُ هذه الصلصة الرائعة على ثوب جلالتها»

قالتْ جاكلين للأميرة، من امرأة لأخرى، «آه، يا سيدتي، إنه شديد الارتباك! دعيني أساعدك»

قالتْ الأميرة «إنني سعيدة جداً لجعل زوجك يقوم بهذا. هو الذي تسبّب به، وعليه أنْ يمسحه ويزيله! في الحقيقة، أشعر بأنّه كان يمكن أنْ يكون له مستقبل باهر في تنظيف الملابس لو لم يخرج عن مساره». قالت ذلك بخبث.

قالت جاكلين بصوت منخفض، شاعرة كأنَّ مخالب تبرز من أطراف أصابعها، «يجب أنْ تسمحي لنا بإحضار ثوب جديد لك، يا سيدتي. هيا، جاك، يكفي هذا!» وضحكتْ.

قالت الأميرة مارغريت بنبرة دكتاتوريّة «ما زالت هناك بقعة هنا»، وأشارتْ إلى بقعة صغيرة على الحافّة العليا من حِجرها.

تردَّد السفير.

«هيا، امسحها!»

غمسَ جاك زاوية الفوطة في كأس الماء الخاص به، وانقضَّ على البقعة بضربات صغيرة وسريعة.

قالت جاكلين بحِدَّة «*Ah, non, mais c'est vraiment insupportable*» (آه، كلا، هذا شيء لا يُطاق حقاً)

قالت الأميرة بلكنة فرنسيّة ذات خنّة، «إنَّ الـ «*insupportable*» هو أنْ يُرشّ المرء بهذه الصلصة المُقزِّزة. لا حاجة إلى تذكيرك بأنَّ زوجك هو سفير إلى بلاط سينت جيمس[1]». قالت هذا وكأنَّها تتحدث مع خادمتها الشخصيّة.

1- بلاط سينت جيمس: هو المقرّ الأساسي للقصر الملكيّ البريطاني حيث تجتمع كل الوفود والسفراء - المترجم

ارتعشتْ جاكلين قليلاً ومشتْ عائدة إلى مكانها، ولكن فقط لكي تقبض على حقيبتها وتسير بخُطى واسعة إلى خارج المكان.

ولكنْ هذه المرَّة ران الصمت على المائدة.

أعلنتْ الأميرة مارغريت، «أوه، لقد ساد الصمت. يُعجبني الصمت»، ثم استدارت نحو سوني وقالت «لو أنَّ نويل[1] كان هنا، لدفعنا إلى ضحك لا نستطيع مقاومته»

سألها سوني، وقد شلَّه الرعب وعجز عن التفكير بوضوح، «نول، يا سيدتي؟»

أجابتْ الأميرة «بل كوارد، أيها الأبله. يمكنه أنْ يدفع المرء إلى الضحك على مدى ساعات طويلة»، ثم قالتْ، وهي تنفثُ بحساسيّة دخان سيجارتها، «إنَّ الناس هم الذين يدفعون المرء إلى الضحك، وهم الذين يفتقدهم حقاً»

حينئذٍ كان سوني، الذي خذله وجود لحم الغزال على المائدة، غاضباً من غياب نويل. وكون نويل مات قبل زمن بعيد لم يُخفّف إحساس سوني بالفشل، وكان يمكن أنْ يغرق في كآبة خرساء لو لم تنقذه الأميرة، التي وجدتْ نفسها في مزاجٍ رائق تماماً بعد أنْ فَرَضَتْ هيبتها ورسَّختْ بأسلوبٍ ممتاز كونها الشخصيّة الأهمّ في المكان.

قالت مازحة «ذكِّرني، يا سوني، هل لديك أطفال؟»

«لديّ، طبعاً، يا سيدتي، لديّ ابنة»

سألتْ الأميرة بإشراق «كم عمرها؟»

قال سوني «أكاد لا أُصدّق أنَّ عمرها بلغ السابعة في اعتقادي»، ثم أضاف بتشاؤم، «وقريباً سوف تصل إلى عمر ارتداء الجينز»

همهمت الأميرة، راسمة تعبيراً مُستنكراً على وجهها، تكويناً عضليّاً كلَّفها بذل بعض الجهد، «أوه، أليس الجينز شيئاً مُريعاً؟ إنه يشبه زي العمل الرسميّ. ويُسبِّب الحكّ. لا أتخيّل سبب رغبة أي شخص في أنْ يشبه كل شخص آخر. لا أعلم حقاً»

1- هي تقصد الكاتب المسرحي والممثل ومؤلِّف الموسيقى الإنكليزيّ نويل كوارد (1899 – 1973) – المترجم

قال سوني «معك كل الحق، يا سيدتي»

أسرَّتْ الأميرة له «عندما بلغ أولادي تلك المرحلة قلت لهم، «إكراماً لله، لا ترتدوا بناطيل الجينز الفظيعة تلك»، وبكل عقلانيّة خرجوا واشتروا بعض البناطيل الخضراء»

كرّر سوني بعدها «تصرُّف عقلاني جداً»، وكان ممتنّاً بصورة هستيريّة لأنَّ الأميرة قرَّرتْ أنْ تكون ودودة معه.

عادتْ جاكلين بعد خمس دقائق، وكلها أمل في أنْ تُعطي الانطباع بأنها فقط غابت لأنَّ، حسب تعبير سيدة ذات سلوك مُعاصِر، «بعض الأعمال الجسديّة يُفضَّل أنْ تؤدَّى خِفية». في الحقيقة كانت قد تمشَّتْ في أرجاء غرفة نومها حانقةً إلى أنْ توصّلتْ إلى قرارٍ على مضض هو أنَّ إظهار الخفّة سوف يكون في نهاية المطاف أقلّ مهانة من إظهار السخط. ولعِلمها أيضاً بأشدّ ما يُخيف زوجها، وقضى حياته المهنيّة وهو يتفاداه بفطنة، هو التورّط في مشكلة دبلوماسيّة، سارعتْ إلى وضع بعض أحمر الشِفاه من جديد وعادت برشاقة إلى قاعة الطعام.

عندما رأى سوني أنَّ جاكلين قد عادتْ اجتاحته موجة جديدة من القلق، لكنَّ الأميرة تجاهلتها تماماً وباشرتْ بإخباره بإحدى قصصها عن «أناس بلدها العاديين» الذين تضع فيهم «ثقتها العمياء» اعتماداً على خليط من التجاهل التامّ لحياتهم والثقة العمياء في تعاطفهم المُخلِص.

باشرتْ بالقول بنبرة صوت أغوتْ سوني بإبداء الدهشة من جُرْأتِها، «ذات مرَّة كنتُ في سيارة أجرة». رفع حاجبيه بشكلٍ كافٍ بما أمِلَ في أنْ يكون خليطاً لبقاً من الدهشة والإعجاب. «فقال توني للسائق، «خُذنا إلى فندق رويال غاردن» الذي، كما تعلمون، يقع في أسفل سُلَّم اهتمامنا. فقال السائق –» وهنا مالت الأميرة إلى الأمام لكي تصل إلى ذروة الحكاية باهتزاز قصير ومُقتَضَب من رأسها، بما يمكن لرجلٍ صينيّ أنْ يرتكب خطأ اعتباره لَكْنَةً سوقيّة – «أنا أعرفُ أين تقطن هي»، وكشّرتْ في وجه سوني. وقالت بصوت حادّ ومرتفع «أليسوا أناساً رائعين؟ أليسوا أناساً مدهشين؟»

أمال سوني رأسه إلى الخلف وضجَّ بالضحك. وشهقَ «حكاية ممتازة، يا سيدتي. أناس رائعون»

استرختْ الأميرة على كرسيها برضا تامّ؛ لقد سَحَرَتْ مضيفها وأضفَت لمسة ذهبيّة على الأمسية. أما الفرنسيّ الأخرق الجالس على الجانب الآخر منها، فلم تكن تنوي أنْ تتركه وشأنه بسهولة. فقبل كل شيء، إنَّ ارتكاب خطأ في حضور أخت الملكة شيء لا يُستهان به. والدستور ذاته يقوم على أساس احترام التاج، ومن واجبها (أوه، كم تمنَّتْ أحياناً لو تستطيع أنْ تتفادى الأمر كلّه! بل كم فعلتْ ذلك أحياناً في الحقيقة، فقط لكي تقرِّع بقسوة أكبر الذين ظنَّوا أنّها جادّة)، نعم، من *واجبها* أنْ تحافِظ على ذلك الاحترام. إنّه الثمن الذي ينبغي أنْ تدفعه مقابل ما اعتبره أناسٌ آخرون بحمق امتيازاتها الكبرى.

إلى جوارها بدا السفير كأنه في حالة نشوة، ولكن تحت مظهره الأبله كان يُدبِّجُ تقريره، بفصاحة كاتبٍ عادي يؤدي مهمة عاجلة، ليُرسله إلى كواي دورسيه[1]. إنَّ مجد فرنسا لم يزُل بسبب هفوته الصغيرة. والحقيقة هي أنّه حوَّلَ ما كان ربما حادثة خرقاء إلى عرض انتصار للشهامة والذكاء. وهنا سكتَ السفير قليلاً لكي يُفكِّر في شيءٍ يدلّ على البراعة ربما قاله في ذلك الوقت.

بينما ألانتور يفكِّر، فُتِحَ باب غرفة الطعام ببطء، وأطلتْ بيليندا، حافية القدمين، وبمنامتها البيضاء، من حافة الباب.

هدر نيكولاس قائلاً «أوه، انظروا، طفلة صغيرة جافاها النوم»

التفتتْ بريدجت بسرعة فرأتْ ابنتها تنظر مُناشِدة إلى داخل الغرفة.

سألتْ الأميرة سوني «مَن هذه؟»

أجابَ سوني، ناظراً بغضب إلى بريدجت، «أخشى أنها ابنتي، يا سيدتي»

قالت بحِدَّة «أما زالت مستيقظة؟ كان ينبغي أنْ تكون في السرير. هيا، ضعها في السرير في الحال!»

1- كواي دورسيه: حيث مقرّ وزارة الخارجيّة في فرنسا على ضفاف نهر السين – المترجم

كان في الطريقة التي قالت بها «ضعها في السرير» شيء دفعَ سوني إلى أنْ ينسى برهة سلوكه المتملِّق وتنتابه مشاعر الحماية اتجاه ابنته. حاول من جديد أنْ ينظر مباشرة في عينيّ بريدجت، لكنَّ بيليندا كانت قد وَلَجَتْ الغرفة واقتربَتْ من أمّها.

سألتها بريدجت «لِمَ ما زلتِ يقظة، يا حبيبتي؟»

قالت بيليندا «لم أستطع النوم. شعرتُ بالوحشة لأنَّ الجميع كلهم هنا في الأسفل»

«لكنَّ هذا عشاء مُخصَّص للبالغين»

سألتْ بيليندا، متجاهلة شرح أمّها «أيُّهم الأميرة مارغريت؟»

اقترحَ نيكولاس بهدوء، «لِمَ لا تدعي أمّك تُقدِّمك إليها؟ ومن ثم تعودين إلى السرير كأي فتاة صغيرة مُطيعة»

قالت بيليندا «حسن، هل يمكن أنْ يقرأ لي أحدٌ قصّة؟»

قالت أمّها «ليس هذه الليلة، يا حبيبتي. ولكن سوف أقدِّمكِ إلى الأميرة مارغريت»، ونهضَتْ وقطَعَت مسافة طول الطاولة نحو الأميرة مارغريت. مالتْ بريدجت قليلاً، وسألتْ إنْ كان في استطاعتها أنْ تقدِّم ابنتها.

قالت الأميرة «كلا، ليس الآن، لا أعتقد أنَّ هذا عمل صائب. كان ينبغي أنْ تكون في السرير، وسوف تزداد إثارة»

قال سوني «أنت على صواب تامّ، طبعاً. صدقاً، يا حبيبتي، يجب أنْ تؤنّبي المربّية لأنها تركتها تهرب»

قالت بريدجت ببرود «سوف آخذها إلى الطابق العِلويّ بنفسي»

قال سوني، «فتاة مُطيعة»، بغضب عارم بحيث أنّه كان على المُربّية، التي يُكلِّف استخدامها ثمن قنبلة كاملة، أنْ تفضحه أمام الأميرة.

قالت الأميرة، وهي ترسم ابتسامة واسعة لمضيفها، حالما أُغلِقَ الباب بحزم بعد خروج زوجته وابنته، «أنا مسرورة جداً لسماعي أنك سوف تستقبل أسقف تشلتنام من أجلنا غداً»

قال سوني «نعم. لقد بدا دمثاً جداً عبر الهاتف»

سألتْ الأميرة «أتعني أنكَ لا تعرفه؟»

قال سوني، متراجعاً خشية نيل المزيد من السخط الملكيّ، «ليس بقدر ما أودّ»

قالت الأميرة بدفء، «إنّه قديس. إنني أعتقد حقاً أنّه قديس. وفقيه رائع: لقد قيل لي إنّه يَستحسِن التحدُّث باليونانية أكثر من الإنكليزيّة. أليس هذا شيئاً ممتازاً؟»

قال سوني «أخشى أنَّ لغتي اليونانيّة ضعيفة في مثل هذا الموقف»

قالت الأميرة «لا تقلق، إنه أشدّ رجال العالم تواضعاً، ولا يمكن أنْ يفضحك؛ إنه ببساطة يغيب في نشوة يونانيّة. وبينه وبين نفسه ما زال يتسامر مع الرُسُل، ويستغرق منه بعض الوقت ليلاحظ ما يُحيط به. أليس هذا شيئاً مُذهلاً؟»

غمغم سوني «بل خارق»

قالت الأميرة «طبعاً، لن يكون هناك أي تراتيل»

احتجَّ سوني «ولكن يمكن أنْ ننشد بعضها إذا شئت»

«إنه عشاء ربّاني، أيّها الأحمق. وإلّا لجعلتكم جميعاً تنشدون بعض التراتيل لأنتقي أفضلها. إنَّ الناس دائماً يستمتعون بسماعها، وهي توفّر للمرء عملاً يؤدّيه بعد العشاء في أيام السبت»

قال سوني «على أي حال لن نتمكّن من فعل هذا هذه الليلة»

قالتْ الأميرة «أوه، لا أعلم، قد نذهب إلى المكتبة ضمن مجموعة صغيرة» وأشرقتْ في وجه سوني، مُدرِكة الشرف الذي تمنحه له بهذا الإيحاء الدالّ على ودّ أعمق. لم يكن هناك شكّ حول هذا: عندما تُصمِّم على شيء تُصبح أشدّ نساء العالم سِحراً.

تابعتْ «إنَّ إنشاد التراتيل مع نويل أمرٌ ممتع. سوف يبتكر كلمات جديدة وسوف نموت من الضحك. نعم، سوف يشيع جوّ أليف في المكتبة. كم أكره الحفلات الكبرى».

-9-

صفق باتريك باب السيارة ونظر عالياً نحو النجوم، تلمعُ من خلال فُرجة في الغيوم كآثار حديثة لدربٍ في شِعاب الليل الزرقاء القاتمة. قال في نفسه، كانت تجربة مُذلّة، تجعل مشكلات المرء الطبيّة الخاصة تبدو شديدة التفاهة.

كان صفّان من الشموع المُثبّتة على كلا جانبَي مسار السيارة يُحدّدان الطريق من موقف السيارات إلى دائرة واسعة من الحصى أمام المنزل. كانت واجهته المُعمَّدة الرماديّة مغمورة بصورة مسرحيّة بفيضٍ من الأضواء، وبدتْ أشبه بقطعة من الكرتون الرطب، مُبقّعه بطبقة من المطر المتجمِّد الذي تشكَّلَ في وقتٍ مبكّر من بعد الظهيرة.

في غرفة الجلوس العارية، كان الموقد مملوءاً بالحطب المُفرقع. والشمبانيا التي صبّها عامل البار المتورِّد تفيض من حواف الكؤوس واستقرّت من جديد على شكل قطرة. وبينما باتريك يسير على طول نفق مطوَّق بقماش القنّب يؤدي إلى الخيمة، سمعَ هدير الأصوات يرتفع، وأحياناً الضحك، كذروة موجة تُلاطِم الرياح، وتتناثر على كامل الغرفة. وقرَّر أنها غرفة ممتلئة بحمقى غامضين، ينتظرون تعقيداً عاطفيّاً أو نكتة سمجة لتَحرّرهم من تنقّلاتهم الخرقاء. ولدى ولوجه الخيمة رأى جورج واتفورد جالساً على كرسيّ إلى يمين المدخل مباشرة.

«جورج!»

قال جورج، مُجفِلاً وهو ينهض على قدميه «عزيزي، يا لها من مفاجأة سارّة. إنني جالسٌ هنا لأنني لا أسمع أيّ شيء هذه الأيام عندما يكون هناك الكثير من الضجيج»

هتفَ باتريك «حسبتُ أنَّ من المُفترَض أنْ يعيش الناس حياة من اليأس *الهادئ*»

ردَّ جورج بهتاف مع ابتسامة باهتة «ليست هادئة كثيراً»

قال باتريك، وهو يجلس بجوار جورج، «أوه، انظر ها هو نيكولاس برات هناك»

قال جورج «هو كذلك، معه على المرء أنْ يتناول الأمور بهدوء. ويجب أنْ أعترف بأنني لم أشارك أبداً والدك في حماسه لصالحه. في الواقع، إنني أشتاق إلى والدك، يا باتريك. لقد كان رجلاً ذكيّاً، ولكنْ أعتقد أنه لم يكن أبداً سعيداً»

قال باتريك «إنني أكاد لا أفكِّر فيه في هذه الأيام»

سأل جورج «ألم تعثر على عمل تستمتع بأدائه؟»

قال باتريك «نعم، لكنّه لا يصلح أنْ يُشكِّل مستقبلاً مِهنياً»

قال جورج «على المرء حقاً أنْ يحاول المُساهمة. أستطيع أنْ أنظر خلفي برضى معقول إلى تشريعٍ أو اثنين ساعدتُ في تمريرهما إلى مجلس اللوردات. وساعدتُ أيضاً في الحِفاظ على استمرار شركة ريتشفيلد إلى الجيل التالي. هذا هو نوع الأشياء التي تبقى للمرء ليتعلَّقَ بها بعد أنْ يزول كل المرح والألعاب. لا يمكن للإنسان أنْ يكون جزيرة – على الرغم من أننا شهِدنا عدداً مُدهشاً ممَّن يمتلكون جُزراً. عدد مُدهش حقاً، وليس فقط في اسكتلندا. ولكن ينبغي أنْ نحاول المشاركة»

تنهّد باتريك. «أنت على حق طبعاً». لقد أفزعه صدق جورج. ذكَّره بالمناسبة المُربِكة عندما كبَّلَ والده ذراعيه، وقال له، من دون أي نيّة عِدائيّة كما بدا، «إنْ كنتَ تتمتَّع بأي قدر من الموهبة، استخدمها. وإلّا سوف تبقى بائساً طوال حياتك»

«أوه، انظر، إنّه توم تشارلز، هناك يتناول مشروباً من النادل. إنّه يمتلك جزيرة جميلة في ولاية مين». هتفَ جورج «توم! هل رآنا يا تُرى. لقد كان ذات يوم رئيس صندوق النقد الدوليّ، وأنجزَ عملاً رائعاً في منصبٍ شديد الصعوبة»

قال باتريك «قابلته في نيويورك. أنتَ عرّفت بعضنا على بعض في ذلك النادي الذي ارتدناه بعد وفاة والدي»

قال جورج «أوه، نعم. كلنا تساءلنا ماذا حدث لك. لقد تركتنا في موقف حرِج مع ذلك المُمِل إلى أقصى حدّ بالانتاين مورغان»

قال باتريك «لقد غلبتني مشاعري»

«أعتقد أنَّ الاضطرار إلى الإصغاء إلى حكاية أخرى من حكايات بالانتاين شيء فظيع. وابنه موجود هنا هذه الليلة. أخشى أنَّ هذا الشبل من ذاك الأسد، كما يُقال «ثم هتفَ من جديد» توم!»

تلفَّتَ توم تشارلز حوله، غير متأكّد إنْ كان قد سمعَ مَنْ يُنادى عليه. لوّحَ جورج بيده له من جديد. رآهما توم، وتبادل الرجال الثلاثة التحيات. ميَّزَ باتريك قَسَمَات وجه توم الشبيهة بوجه كلب شرس. كان صاحب أحد تلك الوجوه التي تشيخ قبل الأوان وبعد ذلك يبقى على حاله إلى الأبد. ويمكن أنْ يبدو شاباً بعد مرور عشرين عاماً أخرى.

قال توم «لقد سمعت عن حفلة العشاء التي أقمتها. يبدو أنّها كانت حَدَثاً فخماً»

قال جورج «نعم، أعتقد أنها تبيِّن من جديد أنَّ الأعضاء الصِغار في العائلة الملكيّة يجب أنْ يُحسّنوا سلوكهم وعلينا جميعاً أنْ نصلّي من أجل الملكة خلال هذه الأوقات العصيبة»

أدركَ باتريك أنّه لم يكن يمزح.

سأل جورج «كيف كان عشاؤك في منزل آل مورغان؟»، ثم تابع شارحاً لباتريك، «لقد وُلِدَ هارولد غرين في ألمانيا. وأراد وهو فتى صغير أنْ ينضم إلى صفوف شبيبة هتلر – يُحطِّم النوافذ ويرتدي كل تلك الملابس الرسميّة المُثيرة: كان ذلك حلم كل فتى – لكنَّ والده أخبره بأنّه لن يستطيع فعل ذلك لأنه يهوديّ. ولم يتمكّن هارولد من تجاوز خيبة الأمل تلك، وهو في الحقيقة مُناهِض للساميّة يتلبَّس طبقة رقيقة من الصهيونيّة»

قال توم «أوه، لا أعتقد أنَّ ذلك مُنصِف»

قال جورج «في الواقع، لا أعتقد ذلك، ولكن ما فائدة بلوغ هذه السن المتقدِّمة بصورة سخيفة إذا لم يتمكّنْ المرء منْ أنْ يُصبح غير مُنصِف؟»

«لقد دار الكثير من الكلام على مائدة العشاء حول ادِّعاء المُستشار كول أنّه «صُعِقَ بقوة» عندما اندلعت حرب الخليج»

تدخّل جورج «أعتقد أنها كانت صاعقة بالنسبة للألمان المساكين لأنهم لم يشعلوها هم أنفسهم»

تابع توم «كان هارولد يقول على مائدة العشاء إنه مُندهِش لأنه لا توجد مُنظّمة أُمم متحدة تُدعى «منظّمة لا فائدة تُرجى منها على الإطلاق»»

قال جورج، مُبرِزاً ذقنه، «ما أريد أنْ أعرف هو كيف يمكن أنْ نقارِع اليابانيين ونحن نعيش في بلدٍ تعني فيه عبارة «الفعل الصناعيّ» الخروج في إضراب. أخشى أنني عشتُ أطول مما ينبغي. ما زلتُ أتذكّر عندما كانت لهذا البلد قيمة»، ثم أضاف، «كنتُ أقول لباتريك تواً، مُعيداً إيّاه بأدب إلى الحديث، إنّه على المرء أنْ يُساهم في الحياة. هناك في هذه الغرفة عدد كبير من الناس ينتظرون موت علاقاتهم لكي يذهبوا لقضاء عُطل تُكلِّف غالياً. والأمر المُحزِن هو أنني أعتبر كنّتي من بينهم»

زأر توم «يا لهم من عصبة من الصقور. يُستحسَن أنْ يذهبوا لقضاء تلك العُطل قريباً. إنني لا أرى أنَّ النظام المصرفيّ يصمد، إلّا على نوعٍ من أساسٍ دينيّ»

قال جورج «إنَّ العملة النقديّة دائماً تقوم على أساس الإيمان الأعمى»

قال توم «لكنَّ الوضع لم يكن كذلك من قبل. لم يحدث أبداً أنْ كان عدد كبير جداً من الناس يُدينون بالكثير جداً من المال لفئة قليلة جداً»

قال جورج «لقد تقدَّمتُ في السن إلى درجة أنني لم أعُد أهتم بأي شيء. أتعلمون، كنتُ أفكِّر في أنني إذا ذهبتُ إلى الجنّة، ولا أعرف سبباً يمنعني من ذلك، أتمنى أنْ أجد هناك كينغ، الساقي الذي كان يعمل عندي»

اقترحَ باتريك «لكي يعتني بأمتعتك؟»

قال جورج «أوه، كلا. أعتقد أنّه قام بما يكفي من مثل هذا العمل وهو هنا.

على أي حال، لا أعتقد أنَّ أحداً يأخذ معه أمتعة إلى الجنّة، أليس صحيحاً؟ يبدو ذلك أشبه بقضاء عطلة مثاليّة، من دون أمتعة»

وقفَ سوني بثبات، كصخرة في قلب المرفأ، بجوار مدخل الخيمة مُلزِماً ضيوفه بإلقاء التحيّة عليه لدى دخولهم.

قال جاك دالانتور بنبرة صوت واثقة، مادّاً كلتا يديه لكي يُطوِّق الخيمة بأكملها، «ولكن هذا شيء رائع حقاً». وكأنما رداً على تلك اللفتة بدأتْ فرقة الجاز الكبيرة في الطرف القصيّ من المكان بالعزف في الوقت نفسه.

قال سوني باعتداد بالنفس «في الواقع، لقد بذلنا أقصى جهدنا»

قال السفير، الذي كان يعلم عِلم اليقين أنَّ ذلك صحيح وكان قد تدرَّب على إلقاء المقتَطَف الذي استعان به مرّاتٍ عِدَّة قبل أنْ يُغادر باريس، واستخرجه له سكرتيره، «أعتقد أنَّ هنري جيمس هو الذي قال: إنَّ هذا العالم الإنكليزيّ شديد الرُقيّ، حيث يُرى الحاضرُ دائماً من مسقط وجهه الجانبيّ، ويُرى الماضي حاضراً بوجهه كاملاً»

قال سوني «لا فائدة لي من القطاف من أولئك المؤلفين الفرنسيين. فهو لا يعلق في ذهني. ولكن، نعم، إنَّ الحياة الإنكليزيّة ثريّة وراقية – ولكنها ليس كما كانت بعد أنْ بدأتْ كل تلك الضرائب تنهش نسيج منزل المرء نفسه»

تنهد المسيو دالانتور متعاطفاً، «أه، لكنّك تتلبَّس «وجهاً شجاعاً» هذه الليلة»

اعترف سوني «لقد مررنا بلحظات حرجة. مرَّتْ بريدجت بمرحلة جنونيّة من الاعتقاد أننا لا نعرف أحداً، وراحت تدعو كل مَنْ هبَّ ودبّ. لديك، على سبيل المثال، ذلك الرجل الهندي الضئيل هناك. إنه يكتب سيرة حياة كرويدن. لم أكنْ قد رأيته أبداً قبل أنْ يأتي يطلع على بعض الرسائل التي كتبها كرويدن إلى والدي، وفوجئت ببريدجت تدعوه إلى الحفلة ونحن نتناول الغداء. وأخشى أنني بعد ذلك فقدتُ أعصابي في وجهها، ولكن كان ذلك حقاً شيئاً مُبالَغاً فيه».

قال نيكولاس لآلي مونتيغيو «مرحباً، يا عزيزي، كيف كان عشاؤك؟»

قال آلي «ريفيٌّ جداً»

«أوه، يا إلهي. حسن، كان عشاؤنا حقاً *tous ce qu'il y a de plus chic* (أشدّ أناقة)، لولا أنَّ الأميرة مارغريت وبَّختني لأنني عبَّرتُ عن «وجهات نظر مُلحدة»»

قال آلي «حتى أنا كان يمكن أنْ يحدث لي تحول دينيّ في ظل تلك الظروف، ولكن كان سيكون منافِقاً بحيث أذهب إلى جهنم»

قال نيكولاس «ثمة شيء واحد أنا متأكّد منه وهو لو أنَّ الله غير موجود لما لاحظَ أحدٌ أيَّ فرق»

قالت آلي «أوه، كنتُ أفكِّر فيك قبل قليل. فقد تناهى إلى سمعي كلام رجلين عجوزَين بدا على كليهما كأنهما تعرَّضا لعدد من حوادث الركوب. قال أحدهما، «أفكِّر في تأليف كتاب»، فأجاب الآخر، «فكرة جيدة»، قال المؤلِّف المزعوم «يُقال إنَّ كل شخص يحمل كتاباً داخله». أجاب صديقه «هممم، قد أقوم أنا أيضاً بتأليف كتاب»، فقال الأول، بغضبٍ حقيقيّ، «ها أنت تسرق فكرتي». وطبعاً تساءلتُ كيف يسير العمل على كتابك. أعتقد أنّه كان سيكون الآن قد أشرف على الانتهاء من تأليفه»

قال نيكولاس متهكّماً «من الصعب جداً أنْ تنتهي من تأليف سيرة ذاتيّة وأنت تعيش حياة مُثيرة كحياتي. إنَّ المرء يعثر دائماً على معلومات جديدة يجب إضافتها، كعيّنة من محادثتك، يا عزيزتي»

قالت كيتي هارو بلهجة العارفة «هناك دائماً عنصر من التنسيق في سِفاح القُربى. أعلمُ أنّ من المُفترَض أنْ يكون مُحرَّما إلى أقصى مدى، ولكن طبعاً دائماً يحدث»، ثم أضافت برضا، وهي تلمس حافة شعر أزرق–رماديّ يُتوِّج جبينها الضيّق، «وأحياناً بين أفراد أحسن العائلات. أتذكّر والدي أنا واقفاً خارج باب غرفة نومي يهمس «لا أمل يُرجى منكِ، أنتِ تفتقرين تماماً إلى المخيلة الجنسيّة»»

قال روبن باركر «يا إلهي!»

«كان والدي رجلاً رائعاً، شديد الجاذبيّة» هزّتْ كتفيها وهي تقول هذا. «كان الجميع يعبدونه. وهكذا، كما ترى، أنا *أعلم* عمّا أتحدث. إنَّ الأبناء يمنحون شعوراً جنسياً هائلاً: يعملون على غواية آبائهم. لقد قيل لي إنَّ هذا الكلام كلّه قاله فرويد، على الرغم من أنني لم أقرأ كتبه. وأتذكّر أنَّ ابني كان دائماً يُريني انتصابه الصغير. لا أعتقد أنَّ على الآباء أنْ يستغلوا تلك المواقف، لكنني أفهم تماماً أنهم ينجرفون، خاصة وسط حشدٍ من الظروف التي يتسلَّق كل شخص على كتفيّ الآخر»

سأل روبن باركر «هل ابنك موجود هنا؟»

أجابتْ كيتي بحزن «كلا، إنّه في أستراليا. لقد ناشدته أنْ يتولّى إدارة مزرعة المواشي هنا، لكنّه مفتون بالخراف الأستراليّة. وقد قمتُ بزيارته مرّتين، لكنني لا أتحمّل ركوب الطائرات. وعندما أصل إلى هناك لا أُحبِّذ أسلوب الحياة ذاك على الإطلاق، حيث أقفُ وسط سحابةٍ من دخان شواء اللحم تُضجرني حتى الموت زوجةُ جزّاز الخِراف - بل لا يوجد جزّاز خِراف. وصحبني فيرغوس إلى الساحل *وأجبرني* على الغطس تحت الماء. كل ما أستطيع قوله هو أنَّ الحيد البحريّ العظيم هو أشدّ ما رأيت سوقيّة. إنّه أسوأ كوابيس المرء، مملوء بالألوان الصارخة المُخيفة، أزرق الطواويس، وأطياف اللون البرتقاليّ الفظيعة كلها مُشوّشة بفوضى مختلطة ثم امتلأ القناع الذي أضعه بالماء»

«قبل أيام كانت الملكة تقول إنَّ أسعار العقارات في لندن مرتفعة إلى درجة أنها لا تعرف كيف ستتمكّن من العيش من دون قصر بكنغهام». هذا ما قالت الأميرة مارغريت للمتعاطِف معها بيتر بورلوك.

سأل نيكولاس باتريك «كيف حالك؟»

قال باتريك «في أمسّ الحاجة إلى مشروب»

تثاءبَ نيكولاس «إنني أتعاطف معك إلى أقصى مدى. لم يحدث أبداً أنْ أدمنتُ على تعاطي الهيروين، ولكنني اضطررتُ إلى الامتناع عن تدخين

السجائر، وكان لها أسوأ الأثر عليّ. أوه، انظر، ها هي الأميرة مارغريت. على المرء أنْ يأخذ جانب الحذر الشديد وألّا يشتبك معها. أعتقد أنكَ سمعتَ بما وقعَ على مائدة العشاء»

«الحادث الدبلوماسي»

«نعم»

قال باتريك برصانة «حادث صاعِق جداً»

قال نيكولاس، وهو ينظر نحوها بتنازُل، «يجب أنْ أعترف بأنني مُعجَب بالأميرة مارغريت. لقد استغلَّت حادثة صغيرة لكي تنتزع من السفير أكبر قدر من المذلّة. كان على شخصٍ ما أنْ يدعم كبرياءنا الوطنيّة خلال سنوات ضعفها، ولا أحد غيرها فعل ذلك باقتناع أكبر»، ثم أضاف بنبرة صوت مُدمِّرة أكثر، «وألفتُ انتباهك، *entre nous* (بيني وبينك)، بما أنني أعتمد عليهما للعودة بالسيارة إلى لندن، لا أعتقد أنَّ فرنسا تمَّ تمثيلها بصورة بطوليّة هكذا منذ حكومة فيشي. كان ينبغي أنْ ترى كيف خرَّ ألانتور على رُكبتيه. وعلى الرغم من إخلاصي المُطلَق لزوجته التي يكمن خلف أناقتها الزائفة تلك شخص خبيث حقيقيّ يمكن أنْ يستمد منه المرء الكثير من المتعة، لطالما رأيتُ أنَّ جاك يتّصف بشيء من الحمق»

قال باتريك وقد رأى السفير يقترب من الخلف «تستطيع أنْ تُخبره هذا بنفسك»

قال نيكولاس، وهو يستدير برشاقة «*Mon cher* جاك، في رأيي أنكَ غاية في الذكاء! إنَّ الطريقة التي تعاملتَ بها مع تلك المرأة المُملّة لا تشوبها شائبة: لقد بيَّنتَ برضوخك لمطالبها السخيفة مدى سُخف تلك المطالب. هل تعرف صديقي الشاب باتريك ميلْروز؟ كان والده صديقي الحميم»

تنهّدتْ الأميرة. «لقد كان رينيه بولينغر شخصاً رائعاً. كان سفيراً عظيماً حقاً، وكلّنا أحببناه حبّاً جمّاً»، ثم أضافَتْ، وهي تلوّح بسيجارتها نحو الثنائي ألانتور، اللذين كان باتريك يودّعهما، «وهذا يجعل من الصعب بمكان تحمُّل ابتذال هذين الاثنين»

قالت جاكلين «آمل ألّا نكون قد تسبّبنا في مغادرة صديقك الشاب. لقد بدا عصبيّاً جداً»

قال نيكولاس «في وسعنا أنْ نستغني عنه حتى وإنْ كنتُ مُناصِراً كبيراً للتنوُّع»

ضحكتْ جاكلين «أنتَ؟»

أجابَ نيكولاس «بلا أدنى شك، يا عزيزتي. إنّني قويّ الإيمان بأنَّ على المرء أنْ يكون لديه أوسع تشكيلة ممكنة من المعارف، بدءاً بالعائلة المالكة وحتى أبسط بارونة في البلاد»، ثم أضاف، كأنه طاه شهير يُضيفُ نوعاً نادراً ولكن لاذعاً من البهارات إلى طبخه، «وطبعاً، مع عدد قليل من نجوم المجتمع، قبل أنْ يتحولوا، كما يحدث دائماً، إلى ثقوبٍ سوداء»

قالت جاكلين، مبتهجة باستعراض نيكولاس، «*Mais il est vraiment* (لكنَّ هذا حقاً) مُبالغة»

تابع نيكولاس قائلاً «الأفضل للمرء أنْ يحمل لَقَباً على أنْ يحمل اسماً مُجرّداً من اللقب. إنَّ بروست، كما أعتقد أنكِ تعلمين جيداً، يكتب بأسلوب غاية في الجمال حول هذا الموضوع، فيقول إنه حتى أشدّ العامّيين أناقة سوف يُنسى بسرعة كبيرة، في حين أنَّ حامل لقبٍ عظيم سوف يُخلَّد حتماً، على الأقلّ في عيون أسلافه»

قالت جاكلين بقليل من التردُّد «ومع ذلك، كان هناك أشخاص مُسلّين جداً ولا يحملون ألقاباً»

قال نيكولاس، وهو يقبض على ساعدها، «عزيزتي، ماذا سنفعل من دونهم؟»

ضحكا ضحكاً بريئاً لشخصَين متكبِّرين يقضيان فترة إجازة من تلك الحاجة إلى الظهور بمظهر المُتسامحين والمنفتحَين فكريّاً التي تشوِّه ما كان نيكولاس لا يزال يُسمّيه «الحياة المُعاصِرة»، على الرغم من أنّه لم يعرف أبداً أي نوع آخر من الحياة.

قال جاك منزعجاً، «أشعر بأنَّ حضور شخصيّة مَلكيّة يرزح ثقيلاً علينا. أعتقد أنَّ المسار الدبلوماسي هو أنْ نكتشف أعماق الحفلة»

قال نيكولاس «يا صديقي العزيز، أنتَ تمثِّل أعماق الحفلة. لكنني أتّفقُ معك تماماً على أنك لا ينبغي أنْ تُعرِّض نفسك للمزيد من وقاحة تلك المرأة السخيفة»

همستْ جاكلين «*Au revoir*»

قال جاك «*A bientot*»، وانسحب آل ألانتور وانفصلا، حاملين عبء بريقهما إلى جزأين مختلفين من الغرفة.

لم يكد نيكولاس يبرأ من خسارة آل ألانتور حتى اقتربتْ الأميرة مارغريت وكيتي هارو ووقفتا إلى جانبه.

تجهّمتْ الأميرة. «تجتمع مع الأعداء»

قال نيكولاس ساخطاً «لقد أتوا إليّ طلباً للتعاطُف، يا سيدتي، لكنني أخبرتهم بأنهم جاؤوا إلى المكان الخطأ. وبيَّنت له أنّه أحمق أخرق. أما زوجته السخيفة، فقلتُ لها إننا اكتفينا مما نلناه من وقاحتها هذه الليلة»

قالت الأميرة، مبتسمة بلباقة، «أوه، حقاً؟»

غرّدتْ كيتي «أحسنتَ فعلاً»

قال نيكولاس متفاخراً، «كما رأيت، لقد رحلا مخذولَين. قال لي السفير «يجب أنْ أخفِّف من حضوري»، فأجبته «إنَّ غيابك متحقِّق أصلاً»»

قالتْ الأميرة «أوه، رائع. إنكَ تُحسِن استخدام لسانك اللاذع، وهذا يُعجبني»

قالت كيتي «أعتقد أنَّ هذا سوف يُضاف مباشرة إلى كتابك. نحن جميعاً ينتابنا الرعب، يا سيدتي، مما سيذكره نيكولاس عنا في كتابه»

سألتْ الأميرة «هل سيأتي ذِكري فيه؟»

قال نيكولاس مُحتجّاً «لا يمكن أنْ أحلم بإيراد ذِكرك فيه، يا سيدتي. إنني شديد التكتُّم ولا يمكن أنْ أفعل هذا»

قالت الأميرة «أنا أسمح لك بإيراد ذِكري فيه ما دمتَ ستقول عني كلاماً جميلاً»

قالت بريدجت «إنني أتذكّرك عندما كنتَ في الخامسة من العمر. كنتَ لطيفاً جداً، ولكن شديد التحفّظ»

قال باتريك «لا أتخيل سبب ذلك. أتذكّر أنني رأيتكِ تركعين على رُكبتيك على المصطبة فور وصولك. كنتُ أراقبُ من خلف الأشجار»

قالت بريدجت بصوتٍ حادّ «أوه يا إلهي، لقد نسيت ذلك»

«لم أفهم ما كنتِ تفعلين»

«كان شيئاً صاعقاً جداً»

قال باتريك «أنا لا أُصعَق»

«حسن، إنْ كان لا بدّ لك أنْ تعرف، فإنَّ نيكولاس كان قد أخبرني عن أمر قام به والداك: فقد أجبر والدك والدتك على أكل التين عن الأرض، وكنتُ بكل خبث أمثِّل ما أمرني بفعله. لقد غضب مني بصورة مُخيفة»

قال باتريك «جميلٌ منكِ أنْ تذكري أنَّ والديّ كانا يمرحان»

قالتْ بريدجت، التي نادراً ما كانت تغوص عميقاً في عِلم النفس، «أعتقد أنَ الأمر كان يتعلَّق بممارسة السلطة»

قال باتريك، «يبدو هذا الكلام معقولاً»

قالت بريدجت «أوه يا إلهي، ها هي أمي، تبدو شديدة الارتباك. هلّا كنتَ ملاكاً وتحدثت معها قليلاً؟»

قال باتريك «طبعاً»

تركتْ بريدجت باتريك مع فيرجينيا، مُهنِّئة نفسها لأنها حلَّتْ مشكلة أمّها بكياسة شديدة.

قال باتريك، مُحاولاً فتح حديث على قاعدةٍ آمنة، «كيف وجدتِ تناول العشاء هنا؟ أعتقد أنَّ الأميرة مارغريت تلوّثتْ بالصلصة البنيّة. لا بدّ أنَّ تلك اللحظة كانت مُثيرة»

قالتْ فيرجينيا «أنا لا أعتبر الأمر مُثيراً. أعلم كم يمكن أنْ يكون الوضع مزعجاً عندما تظهر بقع على ثوبك»

قال باتريك «إذن فأنتِ لم تشاهدي ما حدث»

قالت فيرجينيا «كلا، كنتُ أتناول العشاء مع آل بوسينغتون–لين»

«حقاً؟ كان من المُفترَض أنْ أكون هناك. كيف كان الجو؟»

تنهدتْ فيرجينيا «لقد تهنا ونحن في الطريق إلى هناك. كانت السيارات كلها منهمكة بنقل الناس من المحطة، لذلك اضطررتُ إلى أخذ سيارة أجرة. توقفنا عند كوخ اتضحَ أنّه يقع في آخر ممشى منزلهم وسألنا عن الطريق. وعندما قلتُ للسيد بوسينغتون–لين «لقد اضطررنا إلى الاستدلال على الطريق من جيرانكم في الكوخ ذي النوافذ الزرقاء»، قال لي، «هذا ليس جاراً لنا، إنه نزيل، وزيادة على ذلك هو مُستأجِر ومزعج لعين»»

قال باتريك «الجيران يمكن أنْ تدعوهم على العشاء»

ضحكتْ فيرجينيا. «على هذا الأساس، فأنا أُعتبَر جارة له. وأنا أُقيم في كينت. لا أعلم لِمَ أخبرتني ابنتي أنهم في حاجة إلى سيدات إضافيات، ولم تكن هناك إلّا سيدات إضافيات. وقد أخبرتني السيدة بوسينغتون–لين تواً أنها تلقَّتْ اعتذارات من السادة الأربعة الذين لم يحضروا كلهم، وكلهم قالوا إنّه حصل لديهم أعطال على الطريق العامّة. كانت شديدة الارتباك، بعد كل ما تكبّدَتْ من عناء، لكنّني قلت «يجب أنْ تُحافظي على روحك المعنويّة»»

قال باتريك «أعتقد أنها بدت غير مقتنعة عندما أخبرتِها بأنّ السيارة تعطّلتْ على الطريق العامة»

قالت فيرجينيا، وهي تضع يدها على فمها، «أوه، لا بدّ أنك واحدٌ منهم. لقد نسيت أنك قلت إنه من المُفترَض أنْ تتناول العشاء هناك»

ابتسم باتريك. «لا عليك. إنني فقط أتمنى لو قارّنا بين أعذارنا قبل أنْ نخبرها كلنا العذر نفسه»

ضحكتْ فيرجينيا. كرّرت القول «ينبغي أنْ تحافظ على روحك المعنويّة»

سألتْ أورورا دَنْ، «ما الأمر، يا عزيزتي؟ تبدين كأنك رأيتِ شبحاً»

تنهدتْ بريدجت «أوه، لا أعلم. لقد رأيتُ تواً سيندي سميث مع سوني – وأتذكّر أنني قلتُ إننا لم نستطع أنْ نطلب منها لأننا لم نكن نعرفها، ورأيتُ

أنَّ من الغريب أنْ يُضخِّم سوني الأمر - والآن ها هي هنا وثمة شيء مألوف في وجودهما معاً، ولكن ربما أعاني من الارتياب»

لم تتردَّد أورورا، التي كان أمامها خيار إخبار صديق حقيقة مؤلمة لن تُريحها، أو تُطمئنها، في انتقاء المسار الأول إكراماً للـ «الصدق»، وللسرور بمشاهدة فساد استمتاع بريدجت بحياتها الباذخة، التي لطالما قالت أورورا لنفسها إنها سوف تتعامل معها بشكل أفضل.

قالتْ أورورا «لا أعلم إنْ كان ينبغي أنْ أخبرك بما يلي، ربما لا ينبغي»، وتجهّمتْ وهي تنظر إلى بريدجت.

ناشدتها بريدجت قائلة «ماذا؟ يجب أنْ تخبريني»

قالتْ أورورا «كلا، لن يعمل ذلك إلّا على إزعاجك. كانت حماقة مني أنْ أفتح هذا الموضوع»

قالت بريدجت بيأس «بل يجب أنْ تخبريني الآن»

«حسن، أنتِ طبعاً آخر مَنْ يعلم - دائماً يجد المرء نفسه في مثل هذه المواقف، ولكن بات معروفاً...». توقفَتْ أورورا بشكلٍ موحٍ عند كلمة «معروف» التي لطالما كانت مولعة باستخدامها، «أنّه تربط سوني والآنسة سميث علاقة غراميّة منذ بعض الوقت»

قالت بريدجت «يا إلهي، إذن هذا هو الأمر. كنتُ أعلم أنَّ ثمة شيئاً يجري...» وفجأة شَعَرَتْ بالإرهاق وبالحزن، وبدا كأنها توشك أنْ تبكي.

قالتْ أورورا «أوه، عزيزتي، لا تبكي»، ثم أضافت مواسيةً، «ابتهجي»

لكنَّ بريدجت كانت مضطربة وصعدتْ مع أورورا إلى غرفة نومها وأخبرتها كل شيء عن المكالمة الهاتفيّة التي تناهت إلى سَمعها في صباح ذلك اليوم، طالبة منها أنْ تُقسِم على الحِفاظ على السرّ وهو القَسَم الذي طلبت أورورا من عدد آخر من الناس تقديمه قبل أنْ تنتهي الأمسية. ونصحتْ أورورا صديقتها بريدجت أنْ «تستمر في خِصامها»، مُعتقدة أنَّ تلك هي السياسة التي سوف تنسج أكبر عدد من الحكايات المُسلّية.

قالت تشينا التي كانت جالسة مع أنغوس بروغلي وأماندا برات. ولم تكن تلك المجموعة هي التي يرغب باتريك في الانضمام إليها.

شرحت قائلة، «إننا نضع لائحة بكل الأشخاص الذين آباؤهم ليسوا آباءهم الحقيقيين»

تأوه باتريك «همم، سوف أفعل أيّ شيء لكي أكون فيها. على أي حال، سوف يستغرقُ وضعها وقتاً طويلاً جداً ولن تكفي أمسية واحدة»

هرعَ ديفيد ويندفول، مدفوعاً برغبة متعصِّبة لتبرئة نفسه من تهمة إحضار سيندي سميث وإثارة غضب مُضيفته، إلى أقرانه من الضيوف ليشرح لهم أنّه فقط يُطيع الأوامر، وأنها ليست في الحقيقة فكرته هو. وأوشكَ أنْ يُلقي الخِطاب نفسه على مسمع بيتر بورلوك عندما أدرك أنَّ بيتر، بوصفه أفضل أصدقاء سوني، قد يعتبر الخطاب موهِناً للقلب، لذلك كبحَ نفسه وأشار بدل هذا إلى «موقع التعميد المُريع ذاك» حيث اجتمعوا آخر مرَّة.

أكَّدَ بيتر «كان مُريعاً. ما الغرض من المجلس الكنَسي إنْ لم يكن مكاناً لرمي الأطفال المواليد كما تُرمى المظلّة وما إلى ذلك؟ لكنَّ القسّ طبعاً أراد أنْ يذهب كل الأطفال إلى الكنيسة. إنه أشبه بطفل يبيع الأزهار في الشوارع يؤمن بخدمات التأرجح[1]، لكنَّ الهدف من كنيسة إنكلترا هو أنْ تكون كنيسة إنكلترا. إنها تمثّل قوّة التلاحم الاجتماعي. وإذا أرادتْ أنْ تُصبح بروتستانتيّة فلا نريد أنْ تكون لنا أي صِلة بها»

قال ديفيد «اسمعوا - اسمعوا»، ثم أضاف، عاجزاً عن الخروج عن الموضوع، «أعتقد أنَّ بريدجت منزعجة جداً لأنني أحضرتُ سيندي سميث»

ضحك بيتر «إنها حانقة جداً. وقد تشاجرت بعنف مع سوني في المكتبة، كما قيل لي: يبدو أنَّ الشجار كان مسموعاً فوق ضجيج عزف الفرقة الموسيقيّة والجلَبَة. مسكين سوني، لقد سُجِنَ هناك طوال الأمسية» ورسم بيتر ابتسامة عريضة، وهو يومئ برأسه نحو الباب. «تسلَّلَ إلى هناك لكي يُجري ***حديثاً***

1- خدمات التأرجُح: خدمات طبيّة بهزّ المرضى على أرجوحة.

حميماً، أو بالأحرى *مُضاجعة* حميمة، كما أتخيَّل، مع الآنسة سميث، ثم اندلع الشِجار، وها هو الآن عالق مع روبن باركر يُحاول أنْ يُدخِل البهجة إلى قلبه بتأصيل لوحة بوسّان. والمطلوب منك هو أنْ تلتزم برواياتك. لقد قابلتَ سيندي، والزوجة لم تأتِ، فطلبتَ منها أنْ تمكث بالنيابة عنها، وارتكبتَ حماقة ولم تحجز مكاناً، والأمر لا صِلة له بسوني. كلام من هذا القبيل»

قال ديفيد الذي كان قد أخبر تواً عدداً من الأشخاص القصّة المُضادة، «طبعاً»

«في الحقيقة بريدجت لم ترهما، وأنتَ تعلم كيف تتصرف النساء في مثل تلك المواقف: إنّهنّ يُصدّقن ما يُردن تصديقه»

قال ديفيد «هممم» وكان قد أخبر بريدجت تواً إنه إنما يُنفِّذ الأوامر. وأجفلَ عندما شاهد سوني يظهر من غرفة المكتبة المجاورة. هل علِمَ بما كان قد أخبر به بريدجت؟

قال ديفيد بصوت حادّ «سوني!». كان صوته ينزلق ليغدو عالي النبرة.

تجاهله سوني، وقال لبيتر بصوت هادر «إنها لوحة بوسان أصيلة!»

قال بيتر، وكأنَّ سوني هو الذي رسمها بنفسه، «أوه، أحسنت. إنَّ أفضل هدية يمكن تقديمها في عيد ميلاد هي اكتشاف أنّها أصيلة وليست فقط «من مدرسة كذا»—»

قال روبن، وهو يدسّ يده برهة داخل سترة العشاء، «الأشجار لا ريب بشأنها»

سألَ سوني روبن، وما زال يتجاهل ديفيد «هلّا أذِنتَ؟ أريد أنْ أقول كلمة مع بيتر وحدنا»، وتوجّه سوني وبيتر إلى غرفة المكتبة وأغلقا الباب.

قال سوني «لقد كنتُ أحمقَ لعيناً. ليس فقط لأنني وضعتُ ثقتي في ديفيد ويندفول. وهذه آخر مرَّة أستقبله فيها تحت سقف منزلي. والآن لديّ أزمة زوجة بين يديّ»

قال بيتر ولم يكن في حاجة إلى ذلك، «لا تقسُ على نفسك»

قال سوني، بعد الأخذ باقتراح بيتر مباشرة، «حسن، في الواقع، لقد

دُفِعتُ إلى ذلك. أعني، كون بريدجت بلا ابن وصعوبة كل شيء إلى أقصى مدى. ولكن عندما يتعلَّق الأمر بموقف حرِج لستُ واثقاً من أنَّني سأحب الحياة هنا من دون الفتاة الكبيرة التي تُدير المكان. إنَّ لدى سندي بعض الأفكار المُميَّزة. لا أعرف ما هي، ولكن أستطيع أنْ أشعر بها»

قال بيتر «المشكلة هي أنَّ الأمور كلها تعقّدتْ كثيراً. والمرء لا يعرف أين موقعه من النساء. أعني، كنتُ أقرأ عن دليل الزواج الروسيّ في القرن السادس عشر، وهو ينصَحك بضرب زوجتك بحبّ لكيلا تبقى دائماً عمياء وصمّاء. وإذا قلتَ مثل هذا الكلام في هذه الأيام فسوف تُشنَق. ولكن، في الواقع، هناك الكثير من الحِكمة فيه، طبعاً بشكلٍ مُعتدل أكثر. وكما يقول المثل القديم عن الحمّالين المحليين: «اضربهم من دون أي سبب ولن يعطوك سبباً لتضربهم»»

بدا سوني مرتبكاً قليلاً. وكما قال لبعض أصدقائه لاحقاً، «عندما كان الجميع يُساهمون في حل أزمة بريدجت، أخشى أنَّ بيتر لم يُحرِّك ساكناً. واكتفى بالتكلُّم بإبهام عن الكتيبات الروسيّة في القرن السادس عشر»

قالت كيتي، «قال القاضي المحبوب ملفورد ستيفنس لمُغتصِب «لن أرسلك إلى السجن بل سأعيدك إلى ميدلاندز، وهذا بحد ذاته عقاب كافٍ». أنا أعلم أنّه ليس من المُفترَض أنْ يقول المرء مثل هذا الكلام، لكنه كلام رائع، أليس كذلك؟ أعني أنَّ إنكلترا كانت ممتلئة بهذا النوع من الشخصيات الغريبة والرائعة، أما الآن فالجميع أشخاص باهتون ويدّعون الورع»

قال سوني، مكافحاً للحِفاظ على مظهر المُضيف المرح، «إنّني أبغض هذا الجزء إلى أقصى مدى. لماذا قدَّمَ قائد الفرقة الموسيقيّة الموسيقيين، كأننا نريد أنْ نعرف أسماءهم؟ أعني، إنَّ المرء لا يُعلن أسماء ضيوفه، فلِمَ ينبغي الإعلان عن أسماء أولئك الأشخاص؟»

قال ألكسندر بوليتسكي، «إنني أتفق معك تماماً، أيها الصديق. في روسيا، العائلات الكبيرة لديها فرقها الموسيقيّة الخاصة بها، ولم يعد أحد

يُقدِّم أعضاءها تماماً كما لم يعد أحد يُقدِّم مُساعد الطاهي للدوق الأكبر. وعندما خرجنا للصيد كان علينا أنْ نجتاز نهراً بارداً، مدَّ مُثيرو الطرائد أجسادهم على الماء لكي يُشكّلوا ما يُشبه الجسر. ولا أحد شعر بأنه مُضطر إلى معرفة أسمائهم لكي يسير فوق رؤوسهم»

قال سوني «أعتقد أنَّ في هذا بعض المُغالاة. أعني، السير على رؤوسهم. ولكن، في الحقيقة لهذا السبب لم تحدث عندنا ثورة»

قال ألكسندر «إنَّ السبب في عدم حدوث ثورة، يا صاحبي، هو لأنَّ لديك اثنين منها: الحرب الأهليّة والحرب المجيدة[1]»

قال جو مارتن، قائد الفرقة الموسيقيّة، «وعلى آلة البوق «تشيلي ويلي» واطسون!»

ثار فضول باتريك، الذي لم يولِ المقدِّمات أي انتباه، لدى سماعه الاسم المألوف. لا يمكن أنْ يكون تشيلي ويلي المعروف في نيويورك. لا بدّ أنّه قد مات. تلفّتَ باتريك حوله لكي يلقي نظرة على الرجل الواقف في الصف الأماميّ لكي يؤدي مقطعه القصير في العزف. وبوجنتيه المُنتفختين وسترة العشاء التي يرتدي لم يكن ممكناً إلّا أنْ يكون المُدمِن المتشرِّد الذي رآه باتريك في ألفابيت سيتي. كان تشيلي ويلي جامع قمامة أمردَ غائر الخدّين، يتسكّع على حافة النسيان، يقبض على بنطلونه الفضفاض بصورة مُبالغ فيها بالنسبة إلى هيكله الهزيل. وعازف موسيقى الجاز هذا كان حيويّاً وموهوباً، وأسود اللون حتماً، في حين أنَّ تشيلي، المُصاب باليرقان والشاحب، على الرغم من كونه بكل وضوح رجلاً أسود، نجح في أنْ يبدو أصفر اللون.

انتقل باتريك نحو حافة موقع الفرقة الموسيقيّة ليُلقي نظرة عن قُرب. ربما هناك آلاف النسخ من تشيلي ويلي ومن السُخف الاعتقاد بأنَّ هذا هو «المقصود». كان تشيلي قد جلس من جديد بعد أنْ أدّى عزفه المنفرد ووقفَ

1- أو الثورة المجيدة: وقعت في إنكلترا عام 1688، وهي مؤامرة عائلية قامت فيها ميري الثانية مع زوجها وليم الثالث بإقصاء والدها جيمس الثاني ثم جيمس السابع – المترجم

باتريك أمامه متجهماً بفضول، كطفلٍ في حديقة الحيوان، شاعراً بأنَّ الكلام يُشكِّل حاجزاً لا يستطيع تجاوزه.

قال تشيلي ويلي، من فوق هدير البوق، «مرحباً»

قال باتريك «عزف منفرد جميل»

«شكراً لك»

«ألستَ أنت... كنتُ أعرفُ شخصاً في نيويورك يُدعى تشيلي ويلي!»

«أين كان يقيم؟»

«في الشارع الثامن»

قال تشيلي «أها-ه. وماذا كان يعمل؟»

«في الحقيقة، كان... يبيع... في الواقع كان يجوب الشوارع... لهذا السبب عرِفتُ أنّه لا يمكن أنْ يكون أنت. على أي حال، كان أكبر سناً»

ضحك تشيلي «تذكّرتك! أنت الإنكليزيّ ذو المعطف، صحيح؟»

قال باتريك «هذا صحيح! أهو أنت! يا إلهي، تبدو في أحسن حال. لم أتعرَّف عليك أبداً. عزفك جيد جداً»

«شكراً لك. لطالما كنتُ عازفاً، ثم...» وقام تشيلي بحركة انحدار إلى أسفل بيده، وهو يُلقي نظرة جانبيّة إلى رفاقه من الموسيقيين.

«ماذا حدث لزوجتك؟»

قال تشيلي بحزن «ماتت بجرعة زائدة»

قال باتريك، متذكّراً حقنة الحصان التي كانت قد أخرجتها بعناية من ورقة المرحاض وأخذتْ ثمنها منه عشرين دولاراً، «أوه، أنا آسف»، ثم أضاف «حسن، إنَّ بقاءك حيّاً معجزة»

قال تشيلي «نعم، كل شيء معجزة، يا رجل. إنَّها معجزة لعينة أننا لا نذوب في أثناء الاستحمام كقطعة من الصابون»

قالت كيتي هارو «لطالما كان لدى آل هربرت نقطة ضعف حيال الحياة الوضيعة. انظر إلى شكسبير»

قال نيكولاس «لقد كانوا يكشطون البرميل معه حتماً. كان المجتمع

يتألَّف من بضع مئات من العائلات وكلها تعرف إحداها الأخرى. أما الآن فهو يتألَّف من عائلة واحدة: عائلة غينيس. لا أعلم لِمَ لا يصنعون دفتر عناوين يضم حرف غين ضخمة جداً»

ضحكت كيتي ضحكاً مكبوتاً.

قال آلي لنيكولاس «أوه، حسن، أرى أنك مُقاول *manque* (فاشل)»

قال آلي مونتيغيو للورا وتشينا، «حفل العشاء ذاك في منزل آل بوسينغتون–لين تفوّقَ على كل شيء. لقد علِمتُ أننا في مشكلة عندما قال مُضيفنا «إنَّ أعظم شيء في إنجاب البنات هو أنَّ في استطاعتك أنْ تجعلهن يكدحن بالنيابة عنك». وعندما عادت ابنته الضخمة الشبيهة بالحصان قالتْ «لا يمكنكم أنْ تجادلوا والدي، لقد كان يتمتَّع بالضبط بمواصفات محمد علي الحيويّة نفسها، ما عدا أنَّه كان أقصر قامة بمقدار قَدَم ونصف القَدَم»»

ضحكتْ لورا وتشينا. لقد كان آلي مُحاكياً بارعاً.

قالت لورا «لقد أُصيبَت أمي برعب هائل لأنَّ إحدى صديقات شارلوت ذهبت إلى «الميتروب» لكي تتقاسم شقّة مع فتاتين من ولاية أخرى، وفي الأسبوع الأول وقعَتْ في حب شخص يُدعى «جون الشرير»!»

وضجَّ الجميع بالضحك.

قال آلي «إنَّ ما يُثير رعب السيد بوسينغتون–لين حقاً هو أنْ تحصل شارلوت على التعليم»

قالت لورا «الفرصة ضئيلة»

«كان يشتكي من ابنة جاره التي حصَلَت «عمليّاً على عدد غير معقول من الأصفار»»

اقترحَتْ تشينا «كم، ثلاثة؟»

«أعتقد أنها كانت خمسة وكانت تستمر لكي تحصل على درجة عالية في مادة تاريخ الفن. وسألتُه إنْ كان الفنّ يدرّ أي قدر من المال، فقط لكي يُعينه على العيش»

سألتْ تشينا «وماذا قال؟»

أبرز آلي ذقنه وحشر يده داخل جيب سترة العشاء ووضعَ إبهامه على الحافة.

هدَرَ قائلاً «مال؟ معظمهم لا يدرّونه. ولكن كما تعلمين، إنَّ المرء يتعامل مع أناس منهمكين في الكفاح حول معنى الحياة إلى درجة أنهم لا يقلقون بمثل هذا الأمر. وهذا لا يعني أنَّ المرء لا يُصارع نفسه أبداً!»، فقلتُ إنني أعتقد أنَّ معنى الحياة يتضمَّن دخلاً ماليّاً ضخماً. فقال «ورأس مال».

رسمتْ لورا ابتسامة عريضة، «الابنة لا تُطاق. لقد حكتْ لي حكاية مُملّة جداً لم أُزعج نفسي بالإصغاء إليها، ومن ثم ختمَتْها بالقول، «أتتخيّلين شيئاً أسوأ من سرقة حصّتك من السجق المشويّ؟»، فقلت «نعم، وبسهولة»، فأصدرتْ صوتاً مرتفعاً فظيعاً وقالت «في الواقع، طبعاً أنا لا أعني بالمعنى *الحرفيّ* للكلمة»»

قالت تشينا باستفزاز «ومع ذلك، لطيفٌ منهم أنْ يدعونا إلى المكوث عندهم»

سألَ آلي وعلى وجهه تعبير متكبِّر لكي يُبالِغ في صدمة الجواب الذي كان يوشك أنْ يُعطي، «أتعلمين كم أحصيت من عدد تحف الخزف الفظيعة تلك في غرفتي؟»

سألتْ لورا «كم؟»

«مائة وسبعاً وثلاثين»

شهقَتْ تشينا «مائة وسبعاً وثلاثين»

قال آلي «وطبعاً، يبدو أنها تعلم إذا حرَّكَ أحدٌ أياً منها»

«في إحدى المرّاتْ أمرتْ بتفتيش أمتعة كل شخص لأنَّ إحدى تلك الحلي نُقِلَتْ من غرفة نومها إلى غرفة الحمّام أو من الحمّام إلى غرفة النوم، واعتبرتْ أنها سُرِقَتْ»

قالت لورا «إنَّ هذا يُغوي بتهريب إحداها إلى الخارج»

قال آلي، مُسرِعاً للانتقال إلى الشيء التالي الدالّ على نفاذ البصيرة،

«وتلك المرأة المُسنّة ذات الوجه اللطيف وترتدي ثوباً أزرقَ شنيعاً هي والدة بريدجت»

قالت لورا «مستحيل! ولِمَ لم تنضم إلى مائدة العشاء هنا؟»

قال آلي «كانت مُحرَجة»

قالتْ «ما أفظع هذا»

قال آلي «بالمناسبة، أنا أعلم ماذا تعني. إنَّ الأم *حقاً* من سكان سري باينز[1]»

قال جوني «لقد رأيتُ ديبي»

سأل باتريك «حقاً؟ كيفَ بدتْ؟»

«جميلة»

قال باتريك «هي دائماً تبدو جميلة في الحفلات الكبرى. يجب أنْ أتحدث معها ذات يوم. من السهل نسيان أنها مجرد كائن بشري عادي، لها جسد ووجه ومعها دائماً تقريباً سيجارة، وأنّها ربما لم تعُد الشخص نفسه الذي كنتَ أعرفه»

سأل جوني «كيف تشعر بعد انتهاء العشاء؟»

«شعوراً غريباً قبل أي شيء، لكنني سعيد لأننا تحدثنا»

قال جوني «عظيم». شعر بالحرج لأنه لم يعرف ماذا يقول أكثر من هذا عن حديثهما السابق، لكنّه لم يرغب في التظاهر بـأنّه لم يجرِ أبداً. قال بإشراقٍ مُفتَعَل «أوه، لقد تذكّرتك في أثناء اجتماعي. كان هناك ذلك الرجل الذي اضطرَّ أنْ يُقفِل جهاز التلفزيون ليلة أمس لأنه اعتقدَ أنّه بذلك يتخلَّص من مُقدّمي البرامج»

قال باتريك «أوه، كان يحدث هذا معي. فبعد أنْ توفي والدي في نيويورك أجريتُ أطول حواراتي (إنْ كان استخدام ضمير «أنا» صحيحاً هنا) مع جهاز التلفزيون»

1- أي أنها ثرية ومن أسرة راقية – المترجم

قال جوني «أتذكّر أنكَ أخبرتني عن هذا»

ران الصمتُ على الرجلَين وحدّقا إلى الحشد الذي يعجّ تحت فيافٍ من المخمل الرماديّ بالهذيان نفسه ولكن بحركة محدودة كما تتكاثر الجراثيم تحت العدسة المُكبِّرة.

قال باتريك «إنَّ إنتاج إحساس تافه ووامض بالهويّة يستلزمُ مائة من هذه الأشباح. وهذا النوع من الناس هو السائد منذ عهد طفولتي: أناس مملّون قُساة يبدون راقين جداً لكنهم لا يقلّون جهلاً عن طيور البجع»

قال جوني بصورة غير متوقّعة «إنهم آخر الماركسيين، آخر الذين يؤمنون بأنَّ الطبقة تفسِّرُ كلّ شيء. وبعد أنْ تمَّ التخلّي عن هذا المُعتَقَد في موسكو وبكين بوقتٍ طويلٍ سوف يستمر بالازدهار تحت إشراف نبلاء إنكلترا. وعلى الرغم من أنَّ مُعظمهم يتحلّون بشجاعة نصف دودة»، ثم تابعَ، وقد زاد حماسه لهذا الموضوع، «وبحيويّة فكريّة جديرة بخروف ميت، فإنهم الورثة الحقيقيّون لماركس ولينين»

قال باتريك «من الأفضل أنْ تذهب وتُخبرهم بهذا. أعتقد أنَّ معظمهم يتوقعون بدل ذلك أنْ يرثوا جزءاً من غلوسيسترشير»

قال سوني بلهجة لاذعة «إنَّ لكل رجل سِعره. ألا توافق، يا روبن؟»

قال روبن «أوه، نعم، ولكن ينبغي أنْ يتيقّن من أنَّ سِعره ليس بخساً جداً»

قال سوني، متسائلاً عمّا سيحدث إذا ابتزّه روبن، «أنا واثق من أنَّ الناس شديدو الحرص على فعل ذلك»

قالت جاكلين دالانتور «ولكن ما يُفسِد الناس ليس المال فقط. كان لدينا سائق سيارة رائع اسمه ألبرت. كان إنساناً شديد العذوبة، ولطيفاً، وكان يحكي أشدّ ما يمكن أنْ تتخيّل من الحكايات تأثيراً في النفس وتدور حول تعامله مع سمكته الذهبيّة. وذات يوم، ذهب جاك ليصطاد الطرائد، ومرضَ مُلقِّم سلاحه الناريّ فقال «سوف أُضطر إلى أخذ ألبرت معي»، فقلتُ «ولكنك لا تستطيع ذلك، سوف يتسبَّب في قتل نفسه، إنّه مولع بالحيوانات، ولن يتحمّل مشهد كل ذلك الدم». لكنَّ جاك أصرّ، وهو رجل شديد العناد، ولم

يسعني أنْ أفعل أيّ شيء. وبعد إطلاق النار على عدد من الطيور، ملأ الألم ألبرت المسكين». وغطّتْ جاكلين وجهها بحركة مسرحيّة، «ولكن بعد ذلك بدأ اهتمامه يزيد»، فباعدتْ ما بين أصابع يديها وحدّقتْ من خلالها. قالتْ، بعد أنْ أنزلت يديها إلى أسفل، «والآن، يشترك في صحيفة «*شوتينغ تايم*»، ويحصل على كل ما يمكن تخيّله من أنواع المجلات المختصة بالبنادق. أصبح شيئاً خطراً جداً ركوب السيارة معه، لأنه كلما مرَّ بحمامة، وفي إنكلترا تجدها بعد كل مترين، يقول، «مسيو دالانتور سوف يُصيب هذه». وعندما نجتاز ساحة ترافالغار، لا ينظر أبداً إلى الطريق، بل يُحدقُ فقط إلى السماء، ويُصدر أصوات إطلاق نار»

قال سوني مُشكّكاً، «لا أعتقد أنَّ عليك أنْ تأكل من حمام لندن»

سألَ باني وارن، الذي لم يكد باتريك يتذكّر شكله، لكنَّ اسمه طافَ في أرجاء طفولته في وقتٍ كان لا يزال لوالديه حياةٌ اجتماعيّة، قبل أنْ يتطلّقا، «باتريك ميلْروز؟ أيمكن أنْ تكون أنتَ ابن ديفيد ميلْروز؟»

«نعم»

عبرَ وجه باني المتغضِّن، كوجه سلطانة مفعم بالحيويّة، عددٌ من تعبيرات الدهشة والبهجة. «إنني أتذكّركَ وأنت طفل، كنتَ تُسدِّد عدّة رفسات إلى خصيتَي كلما أتيتُ إلى فيكتوريا رود لأتناول مشروباً»

قال باتريك «آسف لحدوث هذا. والغريب في الأمر، أنّ نيكولاس برات كان يتذمّر حول أمر مُشابه في صباح هذا اليوم»

قال باني مع ضحك خبيث، «أوه، حسن، في هذه الحالة...»

شرحَ باتريك قائلاً «كنتُ أصل إلى السرعة المطلوبة عندما أنطلق من منبسط الدَرَج والهبوط بسرعة مطلع الدَرَج الأول. ومع بلوغي الرواق أنجح في تحقيق رفسة جيدة»

قال باني «لستَ مُضطراً إلى إخباري»، ثم تابع بنبرة صوت أكثر جديّة، «أتعلم أنَّ من الغريب أنّه لا يمرّ يوم لا أفكّر فيه في والدك»

قال باتريك «يحدث الشيء نفسه معي، ولكن أنا لديّ عذر جيد»

قال باني «وأنا كذلك. لقد قدَّم لي يد المُساعدة في وقتٍ كنتُ خلاله في أسوأ حال»

قال باتريك «لقد ساعد في وضعي في أسوأ حال»

اعترفَ باني «أنا أعرف كثيراً من الناس كانوا يجدونه صعب المراس، وربما كان أولاده يتلقّون منه أسوأ معاملة – هذا ما يفعله الناس في المعتاد – لكنني رأيتُ جانباً آخر من شخصيته. فبعد وفاة لوسي، خلال فترة من الوقت لم أتحمّلها أبداً، اعتنى بي ومنعني من قتل نفسي عبر إدمان الخمر، وأصغى إليّ بقدر هائل من الذكاء إلى ساعات من اليأس المُطلَق، ولم يستخدم ما أفشيتُ به له ضدي»

«إنَّ ذِكركَ أنّه لم يستخدم أي شيء قلتَه ضدك هو فعل شرير بقدر كافٍ»

قال باني بفظاظة «يمكنكَ أنْ تقول ما تشاء، لكنَّ والدك ربما أنقذَ حياتي». ثم قدَّمَ عُذراً غير مسموع وابتعد بسرعة.

فجأة شعر باتريك، وهو وسط ضغط الحفلة، بحاجة قلقة إلى تجنّب فتح حديث آخر، وغادر الخيمة، منشغلاً بما كان باني قد قاله عن والده. بينما هو يتوجّه مُسرِعاً ليدخل غرفة الجلوس المزدحمة، لمحتْه لورا، التي كانت واقفة مع تشينا ورجل لم يتعرَّف باتريك عليه.

قالت لورا «مرحباً، عزيزي»

قال باتريك، الذي لم يرغب في أنْ يُفاجأ، «مرحباً»

قالت تشينا «هل قابلتَ بالانتاين مورغان؟»

قال باتريك «مرحباً»

قال بالانتاين، وهو يُصافح باتريك بحزمٍ مُزعِج، «مرحباً»، ثم تابع قائلاً، «كنتُ أقول تواً إنني كنتُ محظوظاً لأنني ورثت ربما أعظم تشكيلة بنادق في العالم»

قال باتريك «حسن، أنا أعتقد أنني كنتُ محظوظاً برؤية كتاب يتحدث عن هذا عَرَضَه عليّ والدك»

قال بالانتاين «أوه، إذن أنت قرأتَ كتاب *تشكيلة مورغان من البنادق*»

«في الواقع، لم أقرأه كلّه، ولكن قرأتُ ما يكفي لمعرفة كم هو شيء خارق أنْ يمتلك المرء أعظم تشكيلة من البنادق في العالم وأنْ يكون صيّاداً ماهراً، ويكتب عن الموضوع كلّه بأسلوب جميل»

قال بالانتاين «وكان والدي أيضاً مُصوّراً مُبدعاً جداً»

قال باتريك «أوه، نعم، وكنتُ أعلم أنني نسيتُ شيئاً»

قال بالانتاين «لقد كان حتماً شخصاً مُتعدِّد المواهِب»

سألَ باتريك «متى توفي؟»

قال بالانتاين «مات متأثراً بمرض السرطان في العام الفائت»، ثم أضاف بافتخار مُبرَّر، «وعندما يتوفى رجلٌ يمتلك ثروة والدي متأثّراً بالسرطان، تعلم أنّه لم يعثر على علاج»

قال باتريك بضجر «إنَّ كونكَ وصيّاً على ذِكراه يمنحك شرفاً عظيماً»

قال بالانتاين «أكرِم أباك وأمّك طوال حياتك»

شدَّد باتريك قائلاً «هذه بالضبط هي سياستي»

اقترحت تشينا، التي شعرتْ بأنَّ حتى دخل بالانتاين الضخم قد يزول بسبب سلوكه الأحمق، أنْ يُباشروا الرقص.

قال بالانتاين «يسرّني ذلك»، ثم أضاف موجّهاً كلامه إلى لورا وباتريك، «عذراً».

قالت لورا «يا له من رجل بغيض»

قال باتريك «كان يجب أنْ تقابلي والده»

«ليته فقط يُخرِج ملعقة الفضّة تلك من فمه –»

قال باتريك «حينئذٍ سوف يُصبح أشدّ تفاهة مما هو أصلاً»

سألتْ لورا «على أي حال، كيف حالك، يا عزيزي؟ أنا مسرورة برؤيتك. إنَّ وطأة الحفلة تضغط على أعصابي حقاً. كان الرجال يُخبرونني كيف يستخدمون الزبد لدعمهم في ممارسة الجنس، والآن يُخبرونني كيف يُلغونه من نظام حِميتهم»

ابتسم باتريك. قال «عليكِ أنْ ترفسي الكثير من الأجساد قبل أنْ تعثري

على جسد حيّ. هناك عاصفة من الحماقة الملموسة تنبعث من مُضيفنا، تُشبه فتح باب حمّام السونا. وأفضل طريقة لمُعارضته هي تركه يتكلَّم»

قالتْ لورا «يمكننا أنْ نصعد إلى الطابق العِلويّ»

ابتسم باتريك. قال «لِمَ بحقّ الله؟»

«يمكننا أنْ نتضاجع ببساطة. بلا ضوابط»

قال باتريك «حسن، لا بأس بهذا العمل»

قالت لورا «شكراً لك»

قال باتريك «كلا، كلا، إنني متحمِّس حقاً. على الرغم من أنّه لا يسعني إلّا أنْ أراها فكرة فظيعة. ألن نضطرب؟»

قالت لورا، وهي تأخذه إلى الرواق، «قلنا بلا ضوابط، أتذكُر؟»

كان هناك حارس أمن واقف في أسفل الـدّرَج، قال «آسف، ممنوع الصعود إلى الطابق العِلويّ»

قالتْ لورا «إننا نُقيم هنا»، وكان في نبرة صوتها شيء عِدائيٌ غامض دَفَعَ رجل الأمن إلى التنحّي جانباً.

تبادل باتريك ولورا القُبَل، وهما يتكئان على جدار العلّية التي عثرا عليها.

سألتْ لورا وهي تنفصل عنه، «خمِّنْ مع مَنْ كنتُ أُقيم علاقة غراميّة؟»

غمغمَ باتريك وهو يعضّ أُذُنها «أخاف أنْ أُخمِّن. على أي حال، لماذا ترغبين في مناقشة هذا الموضوع الآن بالذات؟»

«لأنه شخص تعرفه»

تنهّد باتريك الذي شعر بانتصابه يرتخي، «استسلمت»

«إنه جوني»

قال باتريك «حسن، إنَّ هذا يُثير اشمئزازي»

«حسبتُ أنكَ ربما تريد أنْ تستعيدني»

«أُفضّلُ أنْ أبقى وجوني صديقَين. لا أريد المزيد من السخرية والمزيد من التوتّر. أنتِ لم تفهمي هذا حقاً، أليس كذلك؟»

«أنتَ تحب السخرية والتوتّر، عمَّ تتحدث؟»

«وأنت تتنقلين وتتخيّلين أنَّ الجميع يشبهونك»

قالت لورا «أوه، اغرب عن وجهي، أو كما يقول لورنس هارفي[1] في فيلم «**عزيزتي**»، «امحُ عن وجهك غلاف بنغوين لمؤلفات فرويد»»

قال باتريك «اسمعي، من الأفضل أنْ نفترق الآن، ألا تظنين هذا؟ قبل أنْ نتشاجر»

قالت لورا «يا إلهي، أنتَ مزعج»

قال باتريك «فلننزل كلٌّ على حِدة». رمى لهب سيجارته الوامض ضوءاً مُعتِماً خفّاقاً على الغرفة. انطفأتْ الولّاعة، لكنَّ باتريك عثر على مقبض الباب النحاسيّ، وبعد أنْ فتح الباب بحذر، سمحَ لمقطع من الضوء أنْ يجتاز ألواح الأرضيّة الخشبيّة المُغبرَّة.

همسَ، وهو يمسح الغبار عن خلفيّة ثوبها، «اخرجي أنتِ أولاً»

قالت باقتضاب جافّ «وداعاً»

1- لورنس هارفي (1928 – 1973). ممثل إنكليزي، يهودي من أصل ليتواني. من أفلامه «*في العبوديّة الإنسانيّة*» و«*ألامو*» و «*عزيزتي*» – المترجم

-10-

أغلقَ باتريك الباب ممتناً وأشعل سيجارة. منذ حديثه مع باني لم يتوفّر له الوقت للتفكير، أمّا الآن فإنَّ الطبيعة المزعجة لملاحظات باني علِقَتْ في ذهنه وأبقته في العلّيّة.

حتى عندما ذهبَ إلى نيويورك لكي يُحضِر الرفات، لم يكن باتريك مُقتنِعاً كل الاقتناع بالحلّ البسيط المتمثّل في بغض والده. لقد جعل ولاء باني لديفيد باتريك يُدرك أنَّ مشكلته الحقيقيّة قد تكمن في الاعتراف بالمشاعر نفسها التي يكنّها.

ما الذي كان في والده يستحق الإعجاب؟ أهي الموسيقى التي رفَضَ أنْ يُخاطِر بتسجيلها؟ ومع ذلك كان الاستماع إليها يتسبَّب أحياناً في انقباض قلب باتريك. أهي البصيرة النفسيّة التي كان في المعتاد يستخدمها ليُعذِّب أصدقاءه وعائلته، ولكن التي ادّعى باني أنّها أنقذتْ حياته؟ إنَّ فضائل ديفيد ومواهبه كلها كانت ذات حدَّين، ولكن مهما كان خسيساً فإنّه لم يكن مُضلِّلاً، في مُعظَم الوقت، وقبِلَ مع قدرٍ من الرزانة مُعاناته التي استحقّها.

لا الإعجاب الجدير بتصالُحه مع والده، ولا حتى حبّ الأطفال لآبائهم المشهور بعناده، كان قادراً على النجاة من أقدارٍ أسوأ بكثير من أقدار باتريك. لقد سكَنَت مُخيّلته الوجوهُ المُخضرّة لأولئك الغرقى المتشبّثين بحافة طوف من سفينة «*ميدوزا*»[1]، ولم يكن دائماً يتخيّلهم من *على* الطوف، بل غالباً بكونهم أقرب بصورة تُثيرُ الحَسَد إلى الطوف منه هو. كم منهم اختنق

1- الإشارة هنا إلى اللوحة الفنيّة للرسّام الفرنسي تيودور جيريكو «طوف الميدوزا» وتمثل جماعة من الناجين من الغرق على متن طوف وسط عاصفة عاتية - المترجم

وهو يلعن؟ كم منهم انزلقَ إلى الأعماق بصمت؟ كم منهم نجا مدة أطول بالتمسُّك بأكتاف الغرقى الآخرين؟

ثمة شيء عمليّ أكثر دفعه إلى التفتيش بدقّة عن سببٍ لعقد السلم. لقد استمدّ باتريك قِواه في مُعظمها، أو ما تخيَّلَ أنّها قِواه، من صراعه ضد والده، ولم يستفِد منها إلّا بانفصاله عن أصلها المُلوّث.

ومع ذلك لم يفقد سخطه على الطريقة التي احتال بها والده عليه وسرقَ راحة باله، وكان يعلم أنّه مهما بذل من عناء لإصلاح نفسه، كمزهريّة كانت ذات يوم مكسورة تبدو سليمة من خارجها المُزيَّن بالرسوم ولكن في داخلها الشاحب تبدو الخطوط الرفيعة الداكنة للترميم، فإنه لن يستطيع أنْ يُعطي أكثر من وهم كونها سليمة.

لقد ارتطمَتْ محاولات باتريك في المُسامحة بسخطه الخانق بينما، من ناحية أخرى، ارتطمت كراهيته بتلك اللحظات المُحيِّرة، العابرة ودائماً الفاسدة، التي بدا والده خلالها عاشقاً للحياة ويستمتع بأي تعبير عن الحريّة، أو العبث، أو الذكاء. ربما كان عليه أنْ يستقرّ على فكرة أنّه لا بدّ أنَّ الأسوأ من أنْ يتمثّل بوالِدِه هو أنْ يتمثّل بشخصٍ حاول والده أنْ يُدمّره.

كان التبسيط أمراً خطِراً وسوف ينتقم لاحقاً. وفقط عندما استطاع أنْ يوازِن بين حقده وحبّه الجسور، بعدم النظر إلى والده بعين الشَفَقة أو الرعب بل ككائن بشريّ عادي لم يُحسِن التعامل مع شخصيته؛ وفقط إنْ استطاع أنْ يعيش التضارب بين ألّا يغفر أبداً لوالده ما ارتكبَ من جرائم بل سمح أنْ تحلّ به التعاسة التي سبّبتْ تلك الجرائم بالإضافة إلى التعاسة التي نتجَتْ عنها، يمكنه ربما حينئذٍ أنْ يتحرَّر نحو حياة جديدة تمكّنه من العيش بدل الاكتفاء بالنجاة. بل قد يستمتع بالحياة.

نخرَ باتريك بعصبيّة. يستمتع بحياته؟ لا ينبغي أنْ يدع تفاؤله يجرفه معه. كانت عيناه قد تأقلمتا مع الظلام وأصبح قادراً عندئذٍ على أنْ يتبيَّن الصناديق والعلب التي تكتنف بقعة الأرضيّة الصغيرة التي كان يمشي حولها. عَكَسَ نصفُ نافذةٍ ضيقةٍ تطل على السطح والميزاب الوهجَ البُنيّ المُعتِمَ للأضواء الغامرة لواجهة المنزل. أشعلَ سيجارة أخرى ودخّنها، متكئاً على حافة

النافذة. شعرَ بالرعب المعتاد من الحاجة إلى أنْ يكون في مكان آخر، وفي هذه الحالة في الطابق السُفليّ حيث لم يسعه إلّا أنْ يتخيّل السجّاد يُنظَّف وشاحنات نقل الأطعمة تُحمَّل، على الرغم من أنَّ الساعة لم تكن قد تجاوزت حوالي الواحدة والنصف عندما صعد إلى الطابق العِلويّ مع لورا. لكنّه لزِمَ العليّة، مخدوعاً بأدنى قدرٍ من التحرُّر من الفتور الذي رقدتْ فيه روحه لاهثةً مدة طويلة.

فتحَ باتريك النافذة لكي يرمي سيجارته إلى السطح الرطب. وبعد أنْ أخذ النَفَس الأخير من الدخان، ابتسمَ لفكرة أنَّ ديفيد ربما يُشاركه في وِجهة نظره بشأن علاقتهما. كانت خدعة من النوع الذي جعلت منه عدوّاً ماكراً، أما الآن فقد تُساعده على أنْ يُنهي معركتهما. نعم، كان جديراً بوالده أنْ يَستحسِن تحدّي باتريك ويتفهَّم جهوده للفرار من المتاهة التي وضع نفسه داخلها. وفكرة أنه كان يمكن أنْ يريد منه أنْ ينجح دفعت باتريك إلى البكاء.

كان خلف الإحساس بالمرارة وباليأس شيءٌ حادّ، شيء وجدَ أنَّ الاعتراف به أصعب من الاعتراف بالحقائق حول قسوة والده، الشيء الذي لم يتمكّن من البوح به لجوني: أي أنَّ والده أراد، من خلال فترات كآبته القصيرة، أنْ يُحبّه، وأنّه أراد أنْ يتمكّن من أنْ يُحبّ والده، على الرغم من أنّه لن يفعل ذلك أبداً.

ولماذا استمرَّ، وهو في خضم هذا الأمر، في مُعاقبة أمّه؟ فكل ما فعلتْ هو أنها فشلتْ في أنْ تفعل أيّ شيء، لكنّه جعلَ نفسه بعيداً عن متناولها، متشبّثاً بالتباهي المُراهق بشجاعة التظاهر بأنها شخص لا يربطه به أي قاسم مُشترك، وتصادفَ أنَّها أنجبته؛ وبأنَّ علاقتهما هي حادث جغرافيّ، كحادث كونه جاراً لشخص ما. لقد خيَّبَتْ أمل زوجها برفضها مُضاجعته، لكنَّ باتريك سوف يكون آخر شخص يلومها على هذا. وربما من الأفضل لو أنَّ النساء اللائي حُبسنَ داخل طفولتهن لم يُنجبن أطفالاً كارهين للزواج ومثليين جنسيّاً ويشتهون الأطفال جنسيّاً، وقال باتريك في نفسه، ولكنْ لا شيء مثاليّاً في هذا العالم الأرضيّ، ونظر بورَع عالياً إلى القمر الذي كان طبعاً مُستتراً، كحال باقي مساحة السماء خلال فصل الشتاء الإنكليزيّ، بكتلةٍ من الغيوم القذرة. لقد كانت أمّه امرأة طيبة حقاً،

ولكن كأي إنسان آخر وجدتْ أنَّ بوصلتها تدور ضمن حقل العلاقة الحميمة المغناطيسيّ.

بات من الضروري حقاً الآن أنْ ينزل إلى الطابق السُفليّ. كان باتريك، المهووس بدقّة المواعيد ويُلازمه حسٌّ بالاستعجال يُسبب ضيقاً في القلب، ما يزال عاجزاً عن الاحتفاظ بساعة يد. فقد تُهدِّئ ساعة اليد من توتّره بتحدّي هوسِه وتشاؤمِه. سوف يحصل حتماً على ساعة يد في يوم الإثنين. وإذا لم تنزل عليه لحظة تجلٍ يحملها معه من العلّية، فقد يمثِّل الوعدُ بالحصول على ساعة يد على الأقلّ بصيص أمل. أليست هناك في الألمانيّة كلمة واحدة تفيد معنى «بصيص أمل»؟ ربما هناك كلمة ألمانيّة واحدة تعني «التجدُّد عبر دقّة المواعيد، وبصيص أمل، واستمداد المتعة من سوء حظ الآخرين». ليته يعلم ما هي.

هل يمكن أنْ يحصل المرء على لحظة تجلٍ تُحرِّر من الزمن، لحظة تجلٍ من دون إدراك حدوثها؟ أم أنَّ تلك اللحظات دائماً يُرافقها نفير الملائكة ويسبقها عمى مؤقَّتْ، هكذا راح باتريك يتساءل وهو يسير على طول الرواق بالاتجاه الخطأ.

انعطف عند الزاوية، فرأى أنّه في جزءٍ من المنزل لم يره قط من قبل. كانت سجّادة بالية بنيّة اللون ممدودة على طول الرواق الذي انتهى داخل الظلام.

سبَّ قائلاً «كيف يمكن بحق الجحيم الخروج من هذا المنزل؟»

«أنتَ في الاتجاه الخطأ»

نظر باتريك إلى يمينه فرأى فتاة بقميص نوم أبيض جالسة على مطلع دَرَج قصير.

قال «لم أقصد أنْ أسبّ. أو بالأحرى، قصدتُ ذلك، ولكن لم أكنْ أعلم أنكِ ستسمعينني»

قالتْ «لا عليك. إنَّ والدي يسبّ طوال الوقت»

«أأنتِ ابنة سوني وبريدجت؟»

«نعم، أنا بيليندا»

سألها باتريك، وهو يجلس على الدَرَج إلى جوارها، «ألا تستطيعين النوم؟». هزّتْ رأسها نفياً. «ولِمَ لا؟»

«بسبب الحفلة. قالت المربية إنني إذا تلوتُ صلواتي فسوف أنعس، لكنني لم أنعس»

سألها باتريك «هل تؤمنين بالله؟»

قالت بيليندا «لا أعلم. ولكنْ إنْ كان هناك إله فإنه ليس بارعاً جداً في عمله»

ضحك باتريك. سألها «ولكن لماذا لم تنضمّي إلى الحفلة»

«لم يُسمَح لي. من المُفترَض أنْ أنام عند الساعة التاسعة»

قال باتريك «هذا يدل على خِسّة. أترغبين في أنْ أجعلك تتسلّلين إلى أسفل؟»

«سوف تراني أمي. وقالتْ الأميرة مارغريت إنَّ عليّ أنْ أنام»

«في تلك الحالة يجب حتماً أنْ أجعلك تنزلين خِلسة. أو يمكنني أنْ أقرأ عليك قصة»

قالتْ بيليندا «أوه، سيكون هذا شيئاً جميلاً»، ثم وضعَتْ أصابعها على فمها وقالتْ «ششش، هناك شخص قادم»

في تلك اللحظة ظهرتْ بريدجت عند منعطف الرواق ورأتْ باتريك وبيليندا معاً على الدَرَج.

سألتْ باتريك «ماذا تفعل هنا؟»

«كنتُ أحاولُ أنْ أعثر على طريق العودة إلى الحفلة وصادفتُ بيليندا»

«ولكن ماذا كنتَ تفعل هنا أصلاً؟»

قاطعتها بيليندا «مرحباً، ماما»

قالت بريدجت، وهي تمدّ يدها، «مرحباً، عزيزتي»

شرحَ باتريك «صعدتُ إلى هنا مع إحدى الفتيات»

قالتْ بريدجت «أوه يا إلهي، أنتَ تجعلني أشعر بالبرد الشديد. إنَّ الأمن ضعيف»

«كنتُ أوشك أنْ أقرأ قصة لبيليندا»

قالت بريدجت «شيء جميل. كان ينبغي أنْ أفعل هذا منذ سنين»، وحملتْ بيليندا بين ذراعيها. تذمّرت قائلة، وهي تبتسم لباتريك بحزم، ولكن توحي له بالانصراف، «أصبحتِ ثقيلة جداً هذه الأيام»

قال باتريك، وهو ينهض عن الدَرَج «حسن، تصبحين على خير»

تثاءبت بيليندا «تصبح على خير»

قالت بريدجت، وقد انطلقَتْ حاملة بيليندا على طول الرواق، «لدي شيء أريد أنْ أُفضي به إليك. سوف تبقى الماما في منزل الجدَّة هذه الليلة، ونريد منكِ أنْ تأتي معنا. ولكن لن يكون هناك مكان للمربّية»

«أوه عظيم، أنا أكره المربّية»

قالت بريدجت «أعلمُ، يا عزيزتي»

«ولكن لماذا سنذهب إلى منزل الجدّة؟»

لم يعُد في وسع باتريك أنْ يسمع ما كانتا تقولان بعد أنْ انعطفتا عند زاوية الرواق.

كان جوني هول متشوّقاً إلى مقابلة بيتر بورلوك منذ أنْ أخبرته لورا بأنَّ بيتر قام بدون أي سبب بتسديد تكاليف عمليات الإجهاض التي أجرتها. وعندما قدَّمت لورا كل منهما إلى الآخر، لم يُضيِّع بيتر أي وقت وجعل جوني يُقسِم على الحِفاظ على سرّية «العلاقة بين سيندي وسوني»

باشر بالقول «طبعاً أنا أعرف بأمرها منذ زمن بعيد»

قاطعه ديفيد ويندفول «بينما لم تكن لديّ أدنى فكرة، حتى عندما طلب سوني مني أنْ أُحضِرها»

قالت لورا «أمر غريب. حسبتُ أنَّ الجميع يعلمون»

قال بيتر بفخر «ربما بعض الأشخاص اشتبهوا بالأمر، ولكن لا أحد عرِف التفاصيل»

قالت لورا ساخرة «ولا حتى سوني وسيندي»

انطلقَ ديفيد، الذي كان قد علِمَ أصلاً بأمر معرفة بيتر المتفوقة، وتبعته لورا.

بقيَ جوني وحده، وحاولَ بيتر أنْ يُصحِّح أي تعبير عن الطيش خرج منه عندما قال كم هو قلق على «والده المريض» الذي لم يُزعج نفسه بقول كلمة واحدة له طوال الأمسية. سأله «هل ما زال والداك حيَّين؟»

قال جوني «ويضجّان بالحياة. كان يمكن لأمي أنْ تنجح في إبداء تعبير معتدل عن خيبة الأمل لو أنني أصبحتُ أصغر رئيس وزراء بريطاني سنّاً، لذلك يمكنكَ أنْ تتخيّل شعورها حيال صحفي حقّقَ نجاحاً معتدلاً. إنها تُذكّرني بقصّة عن هنري ميللر وهو يقوم بزيارة أمّه المُحتضِرة مع صديق له يعمل ربّاناً اسمه فينسنت. نظرتْ المرأة العجوز إلى ابنها ومن ثم إلى فينسنت وقالت «ليت لديّ ابناً يشبهك، يا فينسنت»»

سألَ بيتر «اسمع، لا أظنك سوف تُسرِّب أيّ شيء مما قلته إلى الصحافة، أليس كذلك؟»

قال جوني بامتعاض «خسارة أنَّ الصفحات الافتتاحيّة لصحيفة *التايمز* لم تُخصَّص بعد بأكملها لفضائح العلاقات الغراميّة»

غمغم بيتر «أوه، صحيفة *التايمز*. حسن، أعلم أنَّ ما سأقول بعيد كل البُعد عن التفكير السائد، لكنني ما زلتُ أعتقد أنَّ على المرء أنْ يُمارس ولاء الأبناء. كان الأمر شديد السهولة بالنسبة إليّ: كانت أمي كالقديسة وكان والدي غاية في الدماثة ويتمنى المرء أنْ يُقابله»

ابتسم جوني بغموض، متمنياً لو أنَّ لورا أثقلتْ كاهل بيتر.

قالت الأميرة مارغريت القلقة «بيتر!»

قال بيتر، وهو يحني رأسه قليلاً، «أوه، سيدتي، لم أركِ»

«أعتقد أنكَ يجب أنْ تذهب إلى الصالة. أخشى أنَّ والدك ليس في أحسن حال، وقد جاءت الإسعاف ونقلته»

قال بيتر «يا إلهي، اعذريني أرجوك، يا سيدتي. سوف أذهب في الحال»

تأثّرت الأميرة بطيبتها، وكانت قد أعلنتْ في القاعة أنّها سوف تنقل الخبر إلى بيتر بنفسها، وأجبرتْ وصيفتها على أنْ توقِف المتمنين له الشِفاء الآخرين في المهمّة نفسها.

سألتْ جوني بأشدّ الأساليب كياسة «ومَنْ أنت؟»

قال جوني، ماداً يده، «أنا جوني هول»

كان طابع الإلغاء الجمهوريّ[1] لكلمة سيّدتي، والدعوة المرفوضة للمُصافحة، كافيَين لإقناع الأميرة بأنَّ جوني رجل لا أهميّة له.

قالتْ بتأمُّل «لا بدّ أنَّ حمل الاسم نفسه كالعديد من الناس الآخرين شيء غريب. أعتقد أنَّ هناك مئات من جوني هول في طول البلاد وعرضها»

قال جوني بلهجة عاديّة «إنَّ هذا يُعلِّم المرء أنْ يبحث عن التميُّز في مكان آخر وألّا يتّكل على حادث الولادة»

قالتْ الأميرة، وهي تزمّ شفتيها «هنا يرتكب الناس الخطأ، لأنَّ المولِد ليس مجرد حادثة»

وواصلتْ طريقها قبل أنْ تُتاح الفرصة لجوني لإعطاء جواب.

هبطَ باتريك إلى الطابق الأول، ازداد صخب الهرج والمرج في الحفلة في أثناء هبوطه ماراً بلوحات فنيّة لليلي[2] ولورنس[3] وحتى صورة زوج، تحتل كامل منبسط دَرَج الطابق الأول، للرسام رينولدز. كان الرضا المُعجِز الذي انتقلت به جينات غريفسند من جيلٍ إلى جيل، من دون الفترات المعتادة من الجنون، وانعدام الثقة أو التميُّز، قد تحدّى مهارات أولئك الرسّامين كلهم، وعلى الرغم من شهرتهم، لم يستطع أيٌّ منهم أنْ يُنجِز أي عمل جذّاب من الجفون المرتخية وتعبيرات الوجه العِدائيّة بصورة غبيّة للجالسين.

طَفَقَ باتريك يهبط الدَرَج وهو نصف واعٍ، ويفكِر في بيليندا، كما كان يفعل في لحظات التوتّر وهو في مثل سنّها، عندما كان يضع قَدَماً أولاً ثم يضع الأخرى بثبات إلى جوارها على الدَرَجة نفسها. ومع اقترابه من الصالة شعرَ بإلحاح غامر بالانكفاء على وجهه على الأرضيّة الحجريّة، لكنّه بدل

1- أي ضد السلوك الملكي، حيث ينبغي مُخاطبة الشخصية الملكيّة بـ «سيدتي»، وحيث على الشخصيّة الملكيّة أنْ تبادر بمد يدها - المترجم

2- بيتر ليلي (1618 - 1680): رسّام هولندي عاش في بريطانيا - المترجم

3- سير توماس لورنس (1769 - 1830): رسام لوحات شخصيّة إنكليزيّ - المترجم

ذلك تمسَّكَ بالدرابزين، مفتوناً بذلك الحافز الغريب، الذي لم يستطع تفسيره في الحال.

كانت إيفيت قد أخبرته مرّات عديدة عن اليوم الذي سقط فيه على الدَرَج في لاكوست وتسبّب في جرح يده. وكانت قصّة صراخه والكأس المكسورة وخشية إيفيت من أنْ يكون قد قطع وَتَراً قد ترسّخَتْ في لوحة طفولته بوصفها أمثولة مقبولة، أمّا الآن فاستطاع باتريك أنْ يشعر بعودة الحياة إلى الذكرى نفسها: تذكّرَ تخيّله أُطُر اللوحات تطير على طول الرواق وتضرب صدر والده، وتقطع رأس نيكولاس برات. شعر بالإلحاج اليائس للقفز إلى أسفل الدَرَج لكي يُخفي إحساسه بالذنب لأنه كسر عنق الكأس بالضغط عليها بقوة. وتوقفَ على الدَرَج وتذكَّر كل شيء.

نظر حارس الأمن إليه بارتياب. كان يشعر بالقلق منذ أنْ سمحَ لباتريك ولورا بالصعود إلى الطابق العِلويّ. وقد فاقمَ شكّه هبوط لورا وحدها وادّعاؤها أنّ باتريك لا يزال في غرفتهما. والآن باتريك يتصرَّف بصورة غريبة، يجرّ إحدى ساقيه في أثناء هبوطه الدَرَج، ويُحدِّقُ إلى الأرض. قال حارس الأمن في نفسه بغضب، لا بدّ أنّه تحت تأثير المخدرات. ولو أنَّ الأمر بيده لألقى القبض على باتريك وعلى كل العاهرات الثريات اللواتي يعتقدنَ أنهنَّ فوق القانون.

عندما لاحظ باتريك التعبير العِدائيّ على وجه حارس الأمن، عادَ إلى الزمن الحاضر، وابتسم بوهن، وهبط الدَرَجات القليلة الأخيرة. وعلى الطرف المقابل من الصالة، ومن خلال النوافذ على كِلا جانبَي الباب الأمامي المفتوح، شاهد ومض ضوء أزرق.

سألَ باتريك «هل رجال الشرطة هنا؟»

قال حارس الأمن بحزن «كلا، إنها ليست الشرطة. بل الإسعاف»

«ماذا حدث؟»

«أُصيبَ أحد الضيوف بنوبة قلبيّة»

قال باتريك «أتعرف مَنْ يكون؟»

«لا أعرف اسمه، كلا. إنه سيد أبيض الشَعر». تسرَّبَ هواء بارد إلى

الصالة من خلال الباب المفتوح. كان الثلج يتساقط في الخارج. وعندما لاحظَ باتريك توم تشارلز واقفاً في ممر الباب، اقتربَ إلى جواره.

قال توم «إنه جورج. أعتقد أنّه أُصيبَ بسكتة دماغيّة. كان شديد الوهن، ولكن كان لا يزال يستطيع الكلام، وآمل أنّه على ما يُرام»

قال باتريك، الذي كان يعرف جورج طوال حياته وفجأة أدركَ أنّه سوف يفتقده إذا مات، «وأنا أيضاً». لطالما كان جورج ودوداً معه، ورغب بإلحاح أنْ يشكره. «أتعلم إلى أي مستشفى سوف يأخذونه؟»

أجاب توم «إلى مستشفى تشلتنهام لقضاء هذه الليلة. أراد سوني أنْ ينقله إلى إحدى العيادات، لكنَّ سيارة الإسعاف تلك جاءتْ من المستشفى، وأعتقد أنَّ الأولويّة هي إبقاؤه على قيد الحياة بدل توفير غرفة باهظة الثمن»

قال باتريك «بالضبط»، ثم أضاف، «حسن، آمل ألا يقوم كينغ بحلّ أمتعته بالنيابة عنه هذه الليلة»

قال توم «لا تنس أنّه مُسافر بلا أمتعة. إنَّ السماء هي المكان الأمثل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بلا أمتعة»

ابتسم باتريك. «فلنذهب لعيادته غداً قبل الغداء»

قال توم «فكرة جيدة. أين تُقيم؟»

قال باتريك «في فندق ليتل سودينغتون هاوس. هل أكتبه لك؟»

قال توم «كلا، لا يمكن أنْ أنسى اسماً كهذا»

اقترحَ جاك دالانتور، متجهّماً قليلاً قبل أنْ يُلقي مُقتطفه المُفضَّل، «أعتقد أنَّ تاليران هو الذي قال»، ثم سكت، «إنَّ عدم فعل أي شيء أو قول أي شيء هما قوتان هائلتان، ولكن لا ينبغي إساءة استخدامهما»

قالت بريدجت «في الواقع، لا أحد يستطيع أنْ يتّهمكَ بفعل أو قول أيّ شيء هذه الليلة»

استأنفَ قائلاً «ومع ذلك، سوف أتحدث مع الأميرة حول هذا الموضوع، وآمل ألّا تتحول إلى «*قضيّة ألانتور*»». وقهقه. «وأتمنّى أنْ نتمكن من حلّها»

قالت بريدجت «افعل ما تشاء. أنا لم أعد أهتم»

قام مسيو دالانتور، الذي كان مسروراً بخطّته إلى درجة أنّه لم يُلاحظ لامبالاة مُضيفته، بالانحناء باحترام واستدار على عقبيه.

كانت الأميرة مارغريت تشرح لكيتي هارو بكل رضا، «عندما تكون الملكة غائبة، أُصبحُ وصيّة على العرش ورئيسة مجلس الشورى»

قال مسيو دالانتور، الذي نجح، بعد طول تفكير، في وضع الصيغة المثاليّة لاعتذاره، «سيدتي».

قالتْ الأميرة «أوه، ما زلتَ هنا»

قال السفير «كما ترين...»

«حسن، أما كان ينبغي أنْ تكون قد رحلتَ الآن؟ أمامك رحلة طويلة جداً»

احتجَّ قائلاً «لكنني أُقيم في المنزل»

قالت الأميرة، وهي تعطيه ظهرها، «في هذه الحالة سوف نتقابل كثيراً غداً من دون أنْ نقضي الأمسية كلها في المُسامرة»

سألتْ كيتي «مَنْ ذلك الرجل الذي هناك؟»

قالتْ كيتي «إنّه آلي مونتيغيو، يا سيدتي»

قالتْ الأميرة مارغريت، وهي تنطلق في اتجاه آلي، «آه، نعم، تذكّرتُ الاسم. يمكنكِ أنْ تُقدميه إليّ»

وقفَ السفير مذعوراً وصامتاً بينما كيتي تُقدِّم آلي مونتيغيو إلى الأميرة مارغريت. كان يتساءل إنْ كان يواجه حادثة دبلوماسيّة أخرى أم فقط امتداداً للحادثة الدبلوماسيّة السابقة.

قال آلي مونتيغيو بجرأة، «أوه، أحبّ الفرنسيين. إنهم خونة، وماكرون، ومراؤون – لستُ مُضطراً إلى بذل أي مجهود في هذا المجال، أنا ببساطة في مكاني المناسب. وفي إيطاليا، الناس جبناء أيضاً، لذلك أُحرِزُ هناك نجاحاً أفضل»

نظرتْ الأميرة إليه بخبث. من جديد كانت في مزاج رائق وقرَّرتْ أنَّ آلي مُسلٍ.

لاحقاً بحثَ ألكسندر بوليتسكي عن آلي لكي يُهنّئه على «حُسن معاملته الأميرة مارغريت»

قال آلي بدماثة «أوه، لقد حصلتُ على نصيبي العادل من العائلة المالكة. بالمناسبة، أنا لم أنجح كثيراً مع أماندا برات المُريعة. أنتَ تعلم كم أصبح أولئك القوم كلهم شنيعين عندما انضمّوا «إلى البرنامج»[1] وحضروا كل تلك الاجتماعات. طبعاً هم ينقذون حقاً أرواح الناس»

تنشّقَ ألكسندر ونظر بوهن إلى مسافة متوسطة. اعترفَ قائلاً «أنا أيضاً حضرتها»

احتجَّ آلي «لكنكَ لم تُعان من مشكلة إدمان الخمر»

قال ألكسندر «أنا أحبّ الهيروين، والكوكايين، والمنازل الجميلة، والأثاث الجيّد والفتيات الجميلات، ولديّ منها الكثير. ولكنها في الواقع لم تمنحني السعادة»

«يا إلهي، ألستَ بهذا صعب الإرضاء؟»

«بصراحة، في أول مشوار النجاح ظننتُ أنني سوف أبرز كبنطلون جينز في لوحة لغينسبورو[2]، لكنني اكتشفتُ حبّاً أكثر أصالة ورقّة في تلك الاجتماعات مما عرِفتُ في كل غرف الاستقبال الراقية في لندن»

قال آلي «حسن، هذا لا يعني الكثير. يمكن أنْ تقول الشيء نفسه عن سوق بيلينغسْغيت لبيع السمك»

قال ألكسندر، وهو يشدّ كتفيه نحو الخلف ويُغمضُ عينيه، «ليس هناك أحد بينهم، بدءاً بلحّام يضعُ وَشَماً فصاعداً، يمكن أنْ أمتنع عن نقله بالسيارة إلى إيفرْنس في الساعة الثالثة صباحاً لأمدّ له يد المُساعدة»

1- يقصد جلسات معالجة الإدمان – المترجم

2- توماس غينسبورو (1727 – 1788): أحد أعظم رسامي إنكلترا في القرن الثامن عشر – المترجم

سأله آلي «إلى إيفرْنس؟ من أين؟»

«من لندن»

هتفَ آلي «يا إلهي، ربما ينبغي أنْ أجرِّب أحد تلك الاجتماعات، في المرة التالية التي أكون فيها حرّاً في المساء. لكنَّ المشكلة هي، هل ستدعو صاحبك الجزّار ذا الوشم إلى العشاء؟»

قال ألكسندر «طبعاً لن أفعل. ولكن فقط لأنه لنْ يستمتع بذلك»

قال باتريك «آنْ! لم أتوقَّع أنْ أراك هنا»

قالت آنْ أيزن، وهي تقبّله بحرارة، «أعلم، إنه ليس المكان المناسب لي. إنني أتوتّر في الريف الإنكليزيّ حيث لا يدور الحديث إلّا عن قتل الحيوانات»

قال باتريك «أنا متأكّد من أنّه لا يوجد مثل هذا الشيء في الجزء الذي يعيش فيه سوني من العالم»

قالتْ آنْ «تقصد أنه لا يوجد أي كائن حيّ على امتداد النظر حولك. إنني موجودة هنا لأنَّ والد سوني كان رجلاً متحضِّراً نسبيّاً – لقد لاحظَ وجود مكتبة في المنزل بالإضافة إلى غرفة للاجتماع وقبو. كان ما يُشبه الصديق لفيكتور، وكان يدعونا أحياناً إلى المكوث عنده خلال عطل نهاية الأسبوع. كان سوني مجرد ولد صغير في تلك الأيام ولكن حتى حينئذٍ كان سافلاً منفوخاً»، وتنهدتْ آنْ، وهي تستعرض الغرفة، «يا إلهي، يا لهم من جماعة كئيبة. أتظن أنهم يُجمّدونهم في شركة تعيين الممثلين الثانويين ومن ثم يُزيلون عنهم الجليد في المناسبات الكبرى؟»

قال باتريك «ليتهم يفعلون. لسوء الحظ أعتقد أنهم يمتلكون مُعظم البلد»

قالتْ آنْ «لقد أصبحوا أكثر من مستعمرة نمل، لكنهم لا يفعلون أيّ شيء مفيد. أتذكر ذلك النمل في لاكوست، كان دائماً يُرتِّب المسطبة بالنيابة عنك. بمناسبة الحديث عن فعل شيء مفيد، ماذا تنوي أنْ تفعل بحياتك؟»

قال باتريك «هممم»

قالتْ آنْ «يا إلهي! أنتَ مُتَّهم بأسوأ الذنوب قاطبة»

«وما هو؟»

أجابتْ «هدر الوقت»

قال باتريك «أعلم. لقد صُدِمتُ بقوة عندما أدركتُ أنني أطعنُ في السنّ ولم تعد أمامي أي فرصة لأموت شاباً»

انتاب آن السخط فغيَّرتْ الموضوع، سألتْ «هل ستذهب إلى لاكوست في هذا العام؟»

«لا أعلم. كلما مرَّ المزيد من الوقت أكره أكثر ذلك المكان»

قالت آنْ «لطالما نويتُ أنْ أعتذر لك، لكنكَ تكون مُخدَّراً إلى درجة أنكَ لا تحبّذ اعتذاري. لقد شعرتُ بالذنب على مدى أعوام طويلة لأنني لم أفعل أيّ شيء عندما كنتَ تنتظر على الدَرَج ذات أمسية خلال إحدى حفلات عشاء والدَيك الشنيعة، وقلتُ إنني سأستدعي أمك لتعتني بك، لكنني لم أتمكَّن، وكان ينبغي أنْ أعود إليك، أو أنْ أقف في وجه ديفيد، أو ما شابه. لطالما شعرتُ بأنني خذلتك»

قال باتريك «هذا ليس صحيحاً البتّة. على العكس، إنني أتذكر معاملتك الطيبة. وعندما يكون المرء صغيراً تشكِّل مقابلةُ أناسٍ طيبين فرقاً، وإنْ كان ذلك أمراً نادراً. وتعتقدين أنكِ مدفونة تحت روتين من الرعب، لكنَّ الأحداث الدالّة على الطيبة في الواقع تنشر ارتياحاً حادّاً»

سألتْ آنْ «هل نسيتَ والدك؟»

«الأمر الغريب هو أنكِ فاجأتني في الليلة المُناسِبة. وقبل أسبوع كان يمكن أنْ أكذب أو أنْ أقول شيئاً رافضاً، ولكن في أثناء تناول العشاء كنتُ فقط أصِفُ بالضبط ما كان عليَّ أنْ أغفر لوالدي عليه»

«ثم؟»

قال باتريك «حسن، في أثناء تناول العشاء كنتُ ضد الغفران، وما زلتُ أعتقد أنَّ ما سيُحرِّرني هو الانفصال وليس الاسترضاء، ولكن إنْ كان في وسعي أنْ أتخيَّل رحمةً إنسانيّة صِرفاً، وليست قائمة على أساس أنها «**أعظم حكاية في العالم**»، فقد أبسطُها حتى تصل إلى والدي لأنه كان شديد

التعاسة. لكنني لا أستطيع أنْ أفعل ذلك بدافع الشفقة. إنَّ التجارب التي مررتُ بها واقتربتْ من الموت تكفيني إلى آخر حياتي، ولم يحدث *ولا مرة واحدة* أنْ رحّبَ بي شخص يتسربل برداء أبيض ظهر في آخر النفق – أو حدث ذلك مرة واحدة واتَّضحَ أنه طبيب مبتدئ مُرهَق في قسم الطوارئ من مستشفى تشارينغ كروس. وربما حتى هذا اليوم هناك بعض الأهميّة في هذه الفكرة القائلة إنَّ عليكَ أنْ تكون مكسوراً لكي تُرمَّم، لكنَّ الترميم لا يتألَّف بالضرورة من العديد من المُصالحات الزائفة!»

قالتْ آنْ «وماذا عن المُصالحات الحقيقيّة؟»

«إنَّ ما يُلفِتُ انتباهي أكثر من الخرافة البغيضة القائلة إنَّ عليّ أنْ أدير خدّي الأيسر، هو التعاسة الشديدة التي عاش بها والدي. فقد عثرتُ مُصادفة على مفكّرةٍ كانت أمّه قد كتبتها في أثناء الحرب العالمية الأولى. وبعد صفحات طويلة من الثرثرة وفقرات طويلة عن نجاحهم الباهر في الحِفاظ على المعايير في منزلٍ ريفيّ كبير، وتحدّيهم القيصر بشطائر الخيار المثاليّة، وردَتْ جملتان قصيرتان: «جُرِحَ جيفري من جديد»، قاصدة بذلك زوجها وهو في الخنادق، و «أُصيب ديفيد بكساح الأطفال»، وتقصد به ابنها وهو في المدرسة الإعداديّة. يبدو أنّه لم يكن فقط يُعاني من سوء التغذية، بل من تعرِّضه للاغتصاب من أساتذة مدرسة مُشتهين للأطفال وللضرب على أيدي صِبية أكبر منه سناً. وهذا المزيج التقليديّ من البرودة الأبويّة والانحراف الرسميّ ساعدا على أنْ يجعلا منه الرجل الرائع الذي آل إليه، أما من أجل الغفران لشخص ما، على المرء أنْ يقتنع بأنَّ عليه أنْ يبذل بعض الجهد ليُغيِّر المسار الكارثيّ الذي حدَّدته له جيناته، وطبقته الاجتماعيّة، أو نشأته».

قالتْ آنْ «لو أنّه غيَّرَ المسار لما احتاجَ إلى الغفران. هذه هي قضيّة الغفران كلها. على أي حال، أنا لا أقول إنكَ أخطأتَ في عدم الغفران له، ولكن لا يمكنك أنْ تبقى على كراهيتك هذه»

اتفقَ باتريك معها. قال «لا فائدة من البقاء على هذا الحال. ولكنَّ الفائدة الأقلّ تكمن في التظاهُر بالحريّة. إنني أشعر بأنني على شفا تحوُّلٍ عظيم، قد يكون بسيطاً بساطة اهتمامي بأشياء أخرى»

قالتْ آنْ «ماذا؟ سوف تتخلّى عن كراهية أبيك؟ وعن المخدرات؟ وعن العجرفة؟»

شهقَ باتريك «إلى الأبد. وبالمناسبة، في هذه الليلة انتابتني هلوسة مفادها أنَّ العالم حقيقيّ...»

«يجب أنْ تكون شاعراً كبوب[1]، بقولك «هلوسةً مفادها أنَّ العالم حقيقيّ»»

تابعَ باتريك «حقيقيّ وليس فقط يتألّف من سلسلة من التأثيرات – كالأضواء البرتقاليّة المنعكسة على رصيف رطب، وورقة نبات متشبّثة بحاجب الريح، وصوت الامتصاص الصادر عن إطارات دواليب سيارة أجرة في شارع يهطل عليه المطر»

قالتْ آنْ «تأثيرات شتويّة جداً»

قال باتريك «حسن، نحن في شباط. على أي حال، بدا العالم، للوهلة الأولى، صلباً وموجوداً ويتألّف من أشياء»

قالت آنْ «هذا هو التقدُّم. كنتَ في السابق تنتمي إلى مدرسة «العالم هو عرضٌ سينمائيّ خاصّ»»

«لا يمكنكِ أنْ تتخلّي عن الأشياء بعد أنْ تبدأ بخذلك. لقد تخلّيتُ عن المخدرات عندما أصبحت المتعة والألم متلازمَين وكان يمكن أنْ أتعاطى حُقناً من زجاجة تحتوي دموعي. أما بالنسبة إلى الإيمان الساذج بأنَّ الأثرياء أشدّ إثارة للاهتمام من الفقراء، أو بأنَّ ذوي الألقاب أهمّ ممَّن لا يحملون ألقاباً، من المستحيل أنْ يصمد إذا لم يؤمن الناس أيضاً بأنهم يُصبحون أشدّ إثارة للاهتمام إذا ارتبطوا بشيءٍ ما. إنني أشعر بغصّات موت ذلك الوهم، خاصة وأنا أتنقّل في هذه الغرفة الممتلئة بصور المناسبات وأشعر بعقلي يعتصره الضجر»

«هذا خَطَؤُك أنت»

قال باتريك، متجاهلاً تعليق آنْ، «بالنسبة إلى كراهيّة والدي، فقد فكّرتُ فيه هذه الليلة من دون التفكير في تأثيره عليّ، بل فقط كعجوز مُتعَب أفسدَ

1- ألكسندر بوب (1688 – 1744): شاعر إنكليزي – المترجم

حياته، يلهثُ آخر سنوات حياته مع أزيز مسموعٍ وهو بذلك القميص الأزرق الباهت الذي يرتديه في الصيف. تخيّلته جالساً في فناء ذلك المنزل الفظيع، يحلّ لغز الكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز، وفوجئتُ بأنّه أشدُّ إثارة للشفقة *وعاديٌّ* أكثر، وفي الختام أقلّ استحقاقاً لجذب الانتباه»

قالتْ آن «هذا ما أشعر به حيال أمي العجوز الرهيبة. وخلال فترة الكساد الاقتصادي، التي لم تنته أبداً بالنسبة إلى بعضنا، كانت تجمع القطط الضالة وتُطعمها وتعتني بها. وكان المنزل يمتلئ بالقطط. وكنتُ مجرد طفلة، ولذلك من الطبيعي أنني أحببتُها، ولعبتُ معها، ولكن بعد ذلك في فصل الخريف أخذتْ أمي العجوز المجنونة تتمتم، «لن تتمكن من البقاء حيّة خلال الشتاء، لن تتمكن من تحمُّل فصل الشتاء». والسبب الوحيد الذي كان سيمنعها من تحمُّل فصل الشتاء هي أنّها كانت تغمس منشفة في محلول التخدير ثم تضعها في الغسّالة النحاسيّة القديمة وتضع معها القطط بعد ذلك، وبعد أنْ «تستغرق في النوم» تُشغل الغسّالة وتُغرِق الحيوانات المسكينة. وأصبحت حديقتنا كلها مقبرة للقطط، وأينما تحفر حفرة أو تلعب لعبة يظهر هيكل عظميّ لقطة صغيرة. كنتَ تسمع صوت خربشة مخالب رهيب وهي تُحاول أنْ تخرج من الغسّالة. وأتذكّر أنّ أمي كانت تقفُ بجوار طاولة المطبخ – لم يكن طول قامتي يزيد عن علوّ طاولة المطبخ – وتحشرها في الغسّالة وأقول «لا تفعلي، أرجوك لا تفعلي»، فتغمغم «لن تعيش حتى نهاية الشتاء». كانت مخيفة ومجنونة بكل معنى الكلمة، وبعد أنْ كبرتُ رأيتُ أنّ أسوأ عِقاب نزل بها هو أنْ تكون نفسها ولم أُضطر إلى فعل المزيد»

«لا عَجَبَ أنّكِ تُصبحين عصبيّة في الريف الإنكليزيّ عندما يبدأ الناس يتحدثون عن قتل الحيوانات. ربما هذا هو كل ما تعنيه الهويّة: رؤية منطق تجربتك الخاصة والإخلاص لها. ليت فيكتور كان معنا!»

قالتْ آنْ تُذكّر باتريك مع ابتسامةٍ ساخرة، «أوه، نعم، فيكتور المسكين. لكنّه كان يبحث عن مدخل لا نفسيّ إلى الهويّة»

اعترفَ باتريك، «لطالما حيَّرني هذا. بدا أشبه بالإصرار على درب برّيّ يمتدّ من إنكلترا إلى أميركا»

قالتْ آنْ «إنْ كنتَ فيلسوفاً، فهناك طريق بريّة تمتدّ من إنكلترا إلى أميركا»
«أوه، بالمناسبة، هل سمعتَ أنَّ جورج واتفورد أُصيبَ بسكتة دماغيّة؟»
«نعم، يؤسفني سماع هذا. أتذكّرُ أنني قابلته في منزل والديه»
قال باتريك «إنها نهاية عصر»
قالتْ آنْ «وهي أيضاً نهاية حفلة. انظر، الفرقة الموسيقيّة تغادر»

عندما سأل روبن باركر سوني إنْ كان في وسعهما أنْ يتبادلا «كلمة على انفراد» في المكتبة، شعر سوني ليس فقط بأنّه أمضى كامل حفلة عيد مولده في إجراء مقابلات في تلك الغرفة البائسة، بل شكَّ أيضاً (ولم يسعه إلّا أنْ يتوقف هنا لكي يُهنئ نفسه على حِدَّة ذهنه)، في أنَّ روبن سوف يبتزُّه ليحصل على المزيد من المال.

قال بفظاظة، وهو يجلس من جديد على طاولة مكتب المكتبة، «حسن، ما الأمر؟»

قال روبن «إنها ليستْ لوحة أصيلة لبوسّان، لذلك لا أريد حقاً أنْ أتحقَّق من أصالتها. قد يعتقد أناسٌ آخرون، حتى الخبراء، أنّها كذلك، لكنني *متأكّد* من أنها ليستْ كذلك». تنهّدَ روبن. ثم قال، واضعاً مُغلَّفَين على الطاولة، «أريد استعادة رسالتي وطبعاً سوف أُعيد الـ... أجر»

سأله سوني، مُضطرباً، «عمَّ تُثرثر؟»

قال روبن «أنا لا أُثرثر»، ثم أضاف، بحماسة غير متوقّعة، «إنّه ليس عدلاً بحقّ بوسّان، هذا كل ما في الأمر»

هَدَرَ سوني «ما دخل بوسّان بالأمر؟»

«لا شيء، هذا فقط ما أعترضُ عليه»

«أظنّ أنكَ تريد المزيد من المال»

قال روبن «أنت مُخطئ. أنا فقط لا أريد لجزء من حياتي أنْ يتعرَّض للشبهة». ومدَّ يده بشهادة الأصالة.

أخرج سوني، حانقاً، مفتاحاً من جيبه ثم فتح الدرج العُلويّ من طاولة مكتبه، ورمى الرسالة نحو روبن. شكَرَه روبن وخرجَ من الغرفة.

غمغم سوني «رجلٌ قميء مملّ». لم يكن ذلك اليوم في صالحه. لقد فَقَدَ زوجته، وعشيقته، ولوحة بوسّان. قال لنفسه، ابتهج، يا صاح، ولكن كان عليه أنْ يعترف بأنّه شعر بتوتّر شديد.

كانت فيرجينيا جالسة على كرسيّ ذهبيّ هشّ بجوار باب غرفة الاستقبال، تنتظر بقلق هبوط ابنتها وحفيدتها إلى الطابق السفليّ والبدء برحلة العودة الطويلة إلى كينت. كانت كينت بعيدة جداً، لكنّها تفهَّمتْ تماماً رغبة بريدجت في الخروج من هذا الجو الفاسد، وشجّعتها على جلب بيليندا معها. لم تتمكن من الاختباء من نفسها، على الرغم من أنّها شعرتْ قليلاً بالذنب لهذا السبب، لأنها أحبّتْ كثيراً أنْ *يحتاج* أحدٌ إليها، وأنْ تكون بريدجت قريبة منها من جديد، حتى وإنْ تطلَّب الأمر أزمة كالتي تمرّ الآن. كانت قد أحضرتْ معطفها وأغراضها الأساسيّة؛ حقيبتها ليست شيئاً مهمّاً، وكانت بريدجت قد قالتْ إنَّ في وسعهن أنْ يرسلن في طلبها لاحقاً. لم ترغب في أنْ تجذب الانتباه إلى شخصها: كان المعطف يُثير ما يكفي من الشبهة.

كانت الحفلة تتلاشى وبات من المهمّ المغادرة قبل أنْ يُصبح عدد الناس قليلاً جداً، وإلّا بدأ سوني يُضايق بريدجت. إنَّ أعصاب بريدجت ليست قويّة أبداً، ولطالما كانت خائفة قليلاً وهي فتاة صغيرة، ولم ترغب أبداً في أنْ يسيطر عليها الخوف، وما شابه، أشياء لا تعرفها إلّا الأم. قد تخاف بريدجت وتفقد قرارها إذا كان سوني موجوداً ويصرخ في وجهها، لكنّها كانت تعلم أنَّ ما تحتاج ابنتها إليه، بعد قضية سيندي سميث تلك، هو فترة راحة مفيدة وتفكير سديد. وكانت قد سألتْ بريدجت إنْ كانت تريد أنْ تستعيد غرفتها القديمة – كان رودي مولعاً بقول: مدهشٌ كيف يعمل العقل الإنسانيّ – لكنَّ ذلك لم يعمل إلّا على إزعاج بريدجت، التي قالتْ، «صدقاً، يا أمي، لا أعلم، سوف نفكّر في هذا لاحقاً». وبعد تفكير، ربما كان من الأفضل إعطاء تلك الغرفة لبيليندا، ووضع بريدجت في الغرفة الإضافيّة الجميلة مع حمّام مُلحقٍ بها. أصبح هناك الآن الكثير من الغرف بعد أنْ أصبحت وحدها.

أحياناً تكون الأزمة صالحة لعقد زواج، ليس طوال الوقت طبعاً، وإلّا

لن تكون حقاً أزمة. وقد حدثتْ مع رودي مرة واحدة. لم تكن قد قالتْ أيّ شيء، لكنَّ رودي علِمَ أنها علمَتْ، وهي علِمَتْ أنه علِمَ أنّها علِمتْ، وكان هذا كافياً ليُنهي الأمر. اشترى لها ذلك الخاتم وقال إنه خاتم خطبتهما الثاني. لقد كان حقاً مُخنّثاً عجوزاً. يا إلهي، ها هنا رجل يتهالك عليها. لم تكن تعرف عنه أيّ شيء ولكن من الواضح أنّه كان ينوي أنْ يُكلِّمها. كان ذلك آخر شيء أرادته.

كان جاك دالانتور من فرط الشعور بالعذاب بحيث عجز عن النوم، وعلى الرغم من أنَّ جاكلين حذَّرته من أنّه شرب قدراً كافياً، إلّا أنّه كان شديد الكآبة بحيث لم يُقاوم شرب كأسٍ أخرى من الشمبانيا.

كان السِحر من اختصاصه، كان ذلك معروفاً لدى الجميع، ولكن منذ «قضيّة دالانتور»، كما أصبح الآن يُسمّيها، دخل في متاهةٍ دبلوماسيّة بدا أنّها تتطلَّب من السِحر واللباقة أكثر مما يمكن طَلَبُهُ من كائن بشري واحد بقدر معقول. ولعبتْ فيرجينيا، التي كانت قبل أي شيء والدة مضيفتهن، دوراً واضحاً نسبيّاً في الحملة التي أطلقها لكي يستعيد رضا الأميرة مارغريت.

قال مع انحناءة احترام عظيمة «أسعدتِ مساءً، سيدتي العزيزة»

قالت فيرجينيا في نفسها، يا للسلوك الأجنبي. إنه ما تعوَّدَ رودي أنْ يُسمّيه «أسلوب تقبيل يد أمك». «هل أنا مُصيب في افتراضي أنكِ والدة مضيفتنا الفاتنة؟»

قالت فيرجينيا «نعم»

«أنا جاك دالانتور»

قالت فيرجينيا «أوه، أهلاً بك»

سألَ السفير «هل أُحضِرُ لك كأساً من الشمبانيا؟»

«كلا، شكراً لك، لا أحبّ أنْ أشرب أكثر من كأسين. على أي حال، أنا في حالة حِمية»

سأل المسيو دالانتور، منتهزاً الفرصة ليُثبت للعالم أنّ مهاراته الدبلوماسيّة لم تمُتْ بعد، «حِمية؟»، ثم كرَّر مع حيرة وعدم تصديق، «حِمية؟ ولكن لما-ذا؟» وتلكّأ عند الكلمة، لكي يُشدِّد على دهشته.

قالت فيرجينيا بجفاف «للسبب نفسه الذي عند كل شخص، في اعتقادي»

جلسَ المسيو دالانتور إلى جوارها، ممتناً لتخفيف العبء عن كاهله. لقد كانت جاكلين مُصيبة، لقد أفرط في شرب الشمبانيا. لكنَّ الحملة يجب أنْ تستمرّ!

قال، وقد تراخت شهامته قليلاً، لكنَّ فصاحته لم تفسُد، بعد سنين من إلقاء الخطاب نفسه (وحقَّقَ نجاحاً كبيراً مع زوجة السفير الألمانيّ في باريس)، «عندما تُخبرني سيدة بأنها في حالة حِمية، أقبضُ على ثدييها هكذا» وقرَّبَ يديه المضمومتين على شكل تجويفين اقتراباً مُهدِّداً من صدر فيرجينيا المرعوبة وهو يقول، «ولكنني الآن أعتقد أنكِ بالضبط صاحبة وزنٍ صحيح!»، واستأنفَ قائلاً «وإذا أردتُ أنْ أُطبِّق هذا عليك، هل ستُصدَمين؟»

ازدردتْ فيرجينيا لعابها، «إنَّ كلمة صَدْمة ليست هي الكلمة الدقيقة. بل سوف -»

قاطعها المسيو دالانتور «في الواقع، هذا شيء طبيعي جداً!»

قالتْ فيرجينيا «أوه، يا إلهي، ها هي ابنتي»

قالت بريدجت «هيا بنا، ماما، بيليندا تنتظر في السيارة، ولا أريد أنْ أقابل سوني»

«أعلم هذا، يا ابنتي. كنتُ قادمة تواً»، ثم وجهتْ كلامها للسفير بجفاف، وهي تلحق بابنتها مُسرعة، «لا أستطيع أنْ أقول إنَّ رؤيتك سرّتني»

كانت حركة المسيو دالانتور بطيئة جداً ولم يتمكن من اللحاق بالمرأتين، بل وقف يُتمتم، «إنني لا أُحسِن التعبير... عن أعمق عواطفي... إنه اجتماع مُميَّز جداً»

تحرَّكتْ بريدجت أسرع بكثير من ضيوفها بحيث لم يُتَح لهم الوقت لمدحها أو لمهاجمتها. بعضهم ظنَّ أنها تلحق بجورج واتفورد إلى المستشفى، والجميع قالوا إنَّ أمامها عملاً مهمّاً.

عندما ولجتْ السيارة، السوبارو ذات الدواليب الأربعة، والتي أقنعَتْها كارولاين بورلوك بشرائها، ورأتْ أنَّ بيليندا نائمة وحزام الأمان مربوط

حولها، وأمّها جالسة إلى جوارها راسمة ابتسامة دافئة ومُطمئنة، شعرتْ بريدجت بموجة من الارتياح والندم تغمرها.

فجأة قالتْ لأمها، «في بعض الأحيان كنتُ أسيءُ معاملتها، بعجرفة»

قالتْ أمها، بتأثُّر ولكن بنبرة عمليّة، «أوه، كلا، يا عزيزتي، أنا أتفهَّم»

«لا أعلمِ ماذا ألمَّ بي عندما دعوتكِ إلى العشاء مع أولئك الأشخاص الشنيعين. إنَّ كل شيء ينقلب رأساً على عقب. لقد كنتُ شديدة الشوق إلى التلاؤم مع حياة سوني الحمقاء، المتكبِّرة، التي خرج منها كل شيء آخر. على أي حال، أنا سعيدة لأننا نحن الثلاثة معاً»

ألقتْ فيرجينيا نظرة خلفها إلى بيليندا لتتيقَّن من أنّها نائمة.

قالتْ، وهي تشدّ على يد بريدجت، «يمكننا أنْ نتبادل حديثاً طويلاً في الغد، ولكن ربما علينا أنْ نبدأ الآن، فأمامنا طريق طويلة علينا أنْ نقطعها»

قالتْ بريدجت التي شعرتْ فجأة بميلٍ إلى البكاء لكنّها شَغَلَتْ نفسها بتشغيل السيارة والانضمام إلى طابور الضيوف المُغادرين الذين علقوا في طريقها، «أنتِ على صواب»

كان هطل الثلج الرقيق لا يزال مُستمراً عندما غادر باتريك المنزل، وأنفاسه المتبخّرة تتلوّى حول ياقة معطفه المقلوبة. تقاطعتْ آثار أقدام في دربه، وشعَّتْ رقائق الحصى السوداء والبُنيّة رطبة بين بقع الثلج البرّاقة. تردَّد صدى هدير ضجيج الحفلة في أُذنَي باتريك ودمعتْ عيناه، المُحمرّتان بفعل الدخان والتعب، في الهواء البارد، ولكن عندما وصل إلى سيارته رغبَ في الاستمرار في المشي مسافة أخرى، وهكذا قفز من فوق بوابة قريبة ومنها انتقلَ إلى حقلٍ من الثلج غير المكسور. امتدت بحيرة مُزخرفة باللون القصديريّ بعد آخر الحقل، وغابت ضفّتها النائية داخل ضباب كثيف.

ازداد بلل حذائه الرقيق وهو يطحن مُجتازاً الحقل وسرعان ما شعرت قدماه بالبرد، ولكن بمنطق حُلُمٍ مُبهمٍ جذَبَته البحيرة إلى شاطئها.

بينما وقفَ أمام القَصَب النامي في الياردات القليلة الأولى من الماء،

يرتجف ويتساءل هل يُدخّن آخر سيجارة معه، سمعَ صوت رفرفة أجنحة برزت من الجانب المقابل من البحيرة. برز طائرا بجع من قلب الضباب، وقد اتَّضحَ بياضهما وشكلهما، وأخمد الثلج المتساقِط توهّج أجنحتهما، كبياض قفازات في أيدٍ تُصفِّق.

قال باتريك في نفسه، مخلوقات شريرة.

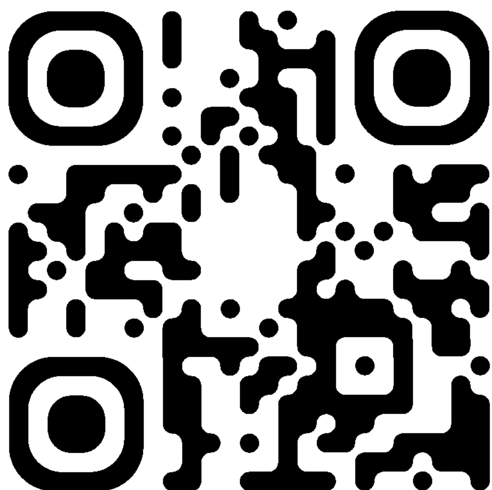
طارت البجعتان، غير مُباليتين بأفكاره، فوق الحقول التي جدَّدها الثلج وغطّاها بالصمت، وانعطفتا عائدتين فوق شاطئ البحيرة، تمدّان أطرافهما الوتريّة ثم استقرتا بثقة في الماء.

دخَّنَ باتريك سيجارته الأخيرة وهو واقف بحذائه المُشبّع بالماء. وعلى الرغم من شعوره بالتعب ومن سكون الهواء التامّ، شعر بروحه، التي لم يكن يعتبرها إلّا جزءاً من عقله الذي لم تهيمن عليه الحاجة إلى التكلُّم، تتموَّج وتتلوّى كطائرة من ورق تتوق إلى إطلاق سراحها. ومن دون تفكير التقطَ غصناً ميّتاً عند موطئ قَدميه وأطلقه عالياً وهو يدور مبتعداً إلى أقصى مدى نحو قلب البحيرة الرماديّ الكليل. وهزَّ تموُّجٌ خفيفٌ عيدان القصَب.

بعد أنْ قامت البجعتان برحلتهما العقيمة انسابتا بفخامة عائدتين إلى قلب الضباب. وعلى مسافة أقرب وبضجيج أوضح طارت مجموعة من طيور النورس بحركة دائريّة فوق الرؤوس، وصراخها الحادّ يُثير مياهاً أبعد وشطآناً أوسع.

رمى باتريك سيجارته إلى الثلج، وقفل عائداً، لا يعلمُ بالضبط ماذا حدث، إلى سيارته مع شعورٍ غريب بالتيه.

– انتهى –



خماسيّة باتريك ميلْروز

حليب الأم

رواية 

Author: **Edward St Aubyn** | اسم المؤلف: إدوارد سينت أوبين

Title: **Patrick Melrose – Mother's Milk** | عنوان الكتاب: باتريك ميلروز–حليب الأم

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al–mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

+ 964 (0) 790 1919 290 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار | بيروت: بشامون - شارع المدارس

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street | Beirut: Bchamoun – Schools Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 | + 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272 | + 961 175 2616

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

حليب الأم

-IV-

ترجمة : أسامة منزلجي



الإهداء

إلى لوسيان

آب عام 2000

-1-

لماذا تظاهروا بقتلِهِ عندما وُلِد؟ كانوا يُبقونه يقظاً على مدى أيام، ويضربون رأسه مراراً تكراراً على عنق رحم مُغلَق؛ ويلفّون الحبل حول عنقه ويخنقونه؛ يعضّون تجويف بطن أمّه بمجزٍّ بارد؛ يشدّون رأسه ويلوون عنقه من جانب إلى جانب؛ يجرّونه إلى خارج بيته ويضربونه؛ يُسلّطون الأضواء على عينيه ويقومون بتجارب؛ يُبعدونه عن أمّه وهي متمددة على الطاولة، شبه ميّتة. ربما كان الهدف من ذلك تدمير حنينه إلى العالم القديم. أولاً الحجز لجعله توّاقاً إلى الحيِّز، ثم يتظاهرون بقتله لكي يُصبح ممتنّاً للحيِّز عندما يحصل عليه، حتى هذه الصحراء المدوّية، حيث لا شيء غير ضمادات ذراعَي أمّه تلتفّ حوله، لم يعد الشيء كلّه، الشيء الدافئ كلّه الذي يكتنفه، كونه كل شيء.

كانت الستائر تزفرُ ضوءاً إلى داخل غرفة المستشفى. تنتفخُ من الجو الحارّ، ومن ثم تتراجعُ إلى النوافذ الفرنسيّة، مُخفِّفة من الوهج في الخارج.

فتحَ أحدهم الباب فقفزت الستائر عالياً وتموّجتْ حوافها؛ وحفَّ الورق السائب، وابيضَّتْ الغرفة وازداد قليلاً هدير الأشغال في الطريق. ثم قعقع الباب وتنهّدتْ الستائر وأعتمتِ الغرفة.

قالتْ أمّه «أوه، كلا، لا أريد المزيد من الزهور»

استطاع أنْ يشاهد كل شيء من خلال الجدران الشفّافة لمهده الشبيه بحوض سمك. كانت عين زهرة زنبق متفتّحة لزجة ترنو إليه. وأحياناً كان النسيم ينفخ عليه رائحة أزهار الفريزيّة اللاذعة وشعر برغبة في العطاس وإبعادها عنه. ثمة على رداء نوم أمّه بقعٌ من الدم ممتزجة بآثار غبار طلع برتقاليّ قاتم.

كانت تضحك من الضعف والإحباط. «إنهم أناسٌ لطفاء... أعني، هل هناك مُتَّسع في غرفة الحمّام»

«في الحقيقة لا يوجد، لقد وصلتك أزهار وُضِعَتْ هناك مع أشياء أخرى»

«أوه، يا ربي، لا أتحمّل هذا. هناك أصلاً مئات من الأزهار قُصَّتْ وحُشِرَتْ داخل هذه المزهريات البيضاء، فقط لإسعادي». لم تتمكَّن من كبح ضحكها. كانت الدموع تجري على وجنتيها. «كان ينبغي أنْ تُترَكَ حيث كانت، في حديقةٍ في مكان ما»

نظرتْ الممرضة إلى الجدول.

قالتْ «حان الوقت لتتناولي مُخفِّف الآلام. يجب احتواء الألم قبل أنْ يستشري»

ثم رفعَتْ الممرضة نظرها إلى روبرت فقابل عينيها الزرقاوين في العتمة اللاهثة.

«إنه شديد الحذر. إنّه يتفحّصني»

قالتْ أمّه، وقد انتابها الرعب فجأة، «سوف يكون على ما يُرام، أليس كذلك؟»

فجأة تملّك الرعبُ روبرت أيضاً. لم يعودا معاً كما كانا من قبل، ولكن ما زال يجمع بينهما الضعف. لقد جنحا على شاطئ ناءٍ. كانا من فرط الإرهاق بحيث لم يتمكّنا من الزحف على الشاطئ، ولم يقويا إلّا على الاسترخاء وسط هدير وانبهار وجودهما هناك. ولكن عليه أنْ يواجه الحقائق؛ لقد انفصلا. بات يفهم الآن أنَّ أمّه أضحتْ في الخارج. بالنسبة إليها هذا الشاطئ النائي هو دور جديد، وبالنسبة إليه هو عالمٌ جديد.

الأمر الغريب هو أنّه شعر كما لو أنّه زار ذلك المكان من قبل. كان يعلم طوال الوقت أنَّ هناك خارجاً. كان يعتقد أنّ هناك عالماً محصوراً تكتنفه المياه وأنّه يعيشُ في قلب الأشياء. والآن انهارتْ الجدران وبات في مقدوره أنْ يُدرك الفوضى التي كان يتخبّط فيها. كيف استطاع أنْ يتفادى الخوض في فوضى جديدة في هذا المكان البرّاق بشكلٍ موجِع؟ كيف استطاع أنْ يرفس ويدور كما كان يفعل في هذا الجو الثقيل حيث يخِزُ الهواء جلده؟

بالأمس ظنَّ أنّه يحتضِر. ربما كان على صواب وكان هذا ما حدث. كل شيء كانت عليه علامة استفهام، ما عدا حقيقة أنّه انفصل عن أمّه. والآن باتَ يُدركُ أنَّ هناك فرقاً بينهما، أصبحَ يحبّ أمّه بقوة جديدة. كان في السابق قريباً منها. أما الآن فأصبح يشتاق إلى أنْ يكون قريباً منها. كان المذاق الأوليّ للاشتياق هو أشد ما يمكن اختباره حُزناً في العالم.

قالتْ الممرضة «أوه، يا إلهي، ما الخطب؟ أنحن جياع، أم أننا نحتاج فقط إلى عناق؟»

رفعته الممرضة عن السرير الصغير الشبيه بحوض أسماك، وحملته عبر الشقّ الذي يفصله عن السرير واستودعته ذراعَي أمّه المُصابتين.

«حاولي أنْ تمنحيه بعض الوقت على ثديك ومن ثم حاولي أنْ ترتاحي قليلاً. كلاكما مررتما بالكثير خلال اليومَين الأخيرَين»

كان حُطاماً لا يمكن مواساته. لم يتمكن من الاستمرار في العيش مع الكثير من الشك والكثير من الضيق. تقيّأ اللبن الأول على أمّه ومن ثم في لحظة الفراغ المُبهمة التي تَلَتْ، لمَح الستائر تنتفخ بالضوء. أسَرتْ انتباهه. هكذا تجري الأمور هنا. يأسرونك بالأشياء لكي يدفعوك إلى نسيان عمليّة الفصل.

ومع ذلك، لا يريد أنْ يُبالِغ بشأنْ انحداره. في العالم القديم كانت الأشياء تزدحم. ومع اقتراب النهاية أصبح شديد التوق إلى الخروج، لكنّه تخيَّلَ أنّه يتمدَّد عائداً إلى المحيط اللا محدود لشبابه، ولم يعُد منفيّاً في هذه الأرض القاسية. ربما كان في استطاعته أنْ يقوم بزيارة أخرى للمحيط في أحلامه، لو لا حجاب العنف الذي يفصله عن الماضي.

كان ينجرف نحو حدود النوم اللذيذة، لا يعلم إنْ كانت ستحمله إلى العالم الهائم أو تُعيده إلى مسلخ غرفة الولادة.

قالت أمّه، وهي تمسّد عليه، «مسكين صغيري، ربما كان يُراوده حلم مزعج». وبدأ بُكاؤه يتلاشى ويخفت.

قبّلته على جبينه وأدركَ أنّه على الرغم من أنهما لم يعودا يتقاسمان جسداً واحداً، فإنهما ما زالا يحملان الأفكار نفسها وتنتابهما المشاعر نفسها. ارتعشَ ارتياحاً وحدَّقَ إلى الستائر، وراقب الضوء يتدفّق.

لا بُدَّ أنّه نام قليلاً، لأنَّ والده وصلَ وانهمكَ على الفور في شيء. ولم يتوقّف عن الكلام.

«لقد عاينتُ المزيد من الشُقق اليوم وأخبرك أنّ ما رأيته كان مُحبِطاً. إنَّ عقارات لندن لا ضابط لها. سوف أعود إلى الخطّة البديلة»

«أي خطّة بديلة؟ لقد نسيتها»

«أنْ نبقى حيث نحن ونقتطع غرفة نوم من مساحة المطبخ. إذا قسَّمناه إلى قسمَين فسوف تتحول خزانة المكنسة إلى خزانة لدُماه ويوضَع السرير في موقع البرّاد»

«وأين سنضع المكانس؟»

«لا أعلم – في مكان ما»

«والبرّاد؟»

«يمكن وضعه في الخزانة بجوار آلة غسل الأطباق»

«لن يتَّسِع لها المكان»

«ما أدراك؟»

«أعرف»

«على أي حال... سوف نحلّ المشكلة. إنني فقط أحاول أنْ أكون عملياً. كل شيء يتغيَّر عندما يُصبح لديك طفل»

اقترب والده، هامساً، «اسكتلندا مستعدة دائماً لاستقبالنا»

كان مُضطراً إلى أنْ يكون عملياً. كان يعلمُ أنَّ زوجته وابنه يغرقان وسط الفوضى والحساسيّة وسوف يعمل على إنقاذهما منها. واستطاع روبرت أنْ يشعر بما شعر به.

قال والده «يا إلهي، إنَّ يديه صغيرتان جداً. والحقيقة هذا مناسب حقاً»

رفع يد روبرت بإصبعه الصغير وقبَّلَها. «هل يمكنني أنْ أحمله؟»

رفعته نحو والده. «انتبه إلى عنقه، إنه رخو جداً. يجب أنْ تدعمه»

كلهم شعروا بالتوتّر.

«هكذا؟» ودعمتْ يد والده عموده الفقريّ، وتناوله من أمّه، ثم مدّ يده إلى رأس روبرت. حاول روبرت أنْ يُحافِظ على هدوئه. لم يرغب في إزعاج والديه.

«تقريباً. أنا نفسي لا أعرف»

«أه... كيف يُسمَح لنا بفعل هذا من دون ترخيص لنا بذلك؟ لا يمكن الاحتفاظ بكلب أو بجهاز تلفزيون من دون رخصة. ربما في إمكاننا أنْ نتعلَّم من الممرضة المُختصّة بالأمومة – ما اسمها؟»

«مارغريت»

«بالمناسبة، أين ستنام مارغريت في الليلة السابقة لانتقالنا إلى منزل أمّك؟»

«تقول إنَّ النوم على الأريكة الطويلة يناسبها تماماً»

«أتساءل إنْ كانت الأريكة مُريحة أيضاً»

«لا تكن خسيساً، إنها تتَّبع «حِمية كيميائيّة»[1]»

«شيء مُثير. أنا لم أرها ونحن في تلك الإضاءة»

«إنها صاحبة تجربة واسعة»

«ألسنا كلنا كذلك؟»

«أقصد في مجال العناية بالأطفال»

«أوه، الأطفال». حكَّ وَجْنَة روبرت بذقنه غير الحليقة وأطلقَ صوت قُبلة في أُذنه.

قالتْ أمّه وعيناها مبللتان بالدموع، «لكننا نحبّه حبّاً جمّاً. ألا يكفي هذا؟»

«يحبّه أبوان تحت التمرين في منزل غير مناسِب؟ شكراً لله لأنه يحصل على دعم جَدَّةٍ في حالة عطلة دائمة، وجدَّة أخرى منهمكة في إنقاذ الكوكب ليكون مسروراً كل السرور بهذا الضغط الإضافي على موارده. ومنزل والدتي مزدحم أصلاً بقعقعة أعمال السِحر والحيوانات مانحة الطاقة وأطفال الداخل ولا يمكن أنْ تستقبل شيئاً بحجم طفل»

قالت أمّه «سوف نتصرَّف. نحن لم نعُد طفلَين، نحن أبوان»

قال والده «نحن الاثنان، هذه هي المشكلة. أتعلمين ماذا قالت أمي لي قبل أيام؟ إنَّ طفلاً يولَد في أمّةٍ متطورة سوف يستهلك مئتين وأربعين مرة من

1- الحمية الكيميائيّة: أساسها خسارة كمية كبيرة من الحريرات بسرعة – المترجم.

المصادر أكثر مما يستهلكه طفل وُلِدَ في بانغلادش. ولو أننا نتصِف بضبط النفس ونحصل على مئتين وتسعة وثلاثين طفلاً من بانغلادش، لاستقبلتنا استقبالاً حارّاً، أما هذا الغربيّ الضخم، الذي سوف يحتاج التخلُّص من حفّاضاته إلى مساحات شاسعة من مقالب القمامة، وسرعان ما سوف يُثير الضجيج طالباً حاسوباً شخصيّاً قوياً بما يكفي لإطلاق رحلة فضائيّة إلى كوكب المريخ وهو يلعب التيك-تاك-تو مع صديقٍ افتراضيّ يسكن في دوبروفنيك، فمن المُستبعَد أنْ يحظى بموافقتها». سكتَ والده. ثم سأل «هل أنتِ بخير؟»

قالتْ أمّه، وهي تمسح وجنتيها اللامعتين بظاهر يدها، «لم أكن مرّة أسعد حالاً مما أنا الآن. لكنني أشعر بفراغ هائل»

وجَّهَتْ رأس الطفل نحو حلمة ثديها وبدأ يرضع. ملأ سيلٌ رفيع من منزله القديم فمَه ومن جديد اجتمعا معاً. وأحسّ بنبض قلبها. وضمّتهما السكينة كأنها رحمٌ جديد. ربما كان مكاناً صالحاً للسكن، ولكن من الصعب ولوجه.

كان هذا كل ما استطاع روبرت أنْ يتذكّره من الأيام الأولى من حياته. لقد عادتْ الذكريات إليه في الشهر السابق عندما وُلِدَ أخوه. لم يتيقّن من أنّ بعض الأشياء لم تُذكَر في الشهر السابق، ولكن حتى لو أنهم قالوها، فقد ذكَّروه بها عندما كان في المستشفى؛ ولذلك فإنَّ الذكريات تخصّه هو حقاً.

كان روبرت ممسوساً بماضيه. هو الآن في الخامسة من العمر. في الخامسة من العمر، وليس طفلاً وليداً كتوماس. في استطاعته أنْ يشعر بتحلُّل طفولته الأولى، وبين صيحات التهاني التي رافقَتْ كل خطوة صغيرة للمواطنة الكاملة سمع همس الخسارة. ثمة أمر بدأ يحدث مع بدء رغبته في الكلام. كانت ذكرياته المُبكِّرة تتفكَّك، كقطع الصخور من تلك الجروف البرتقاليّة التي خلفه، وتنهار إلى البحر الذي يبتلع كل شيء والذي اكتفى بتبادُل التحديق معه عندما حاول أنْ ينظر إلى أعماقه. كانت مرحلة طفولته قد طَمَسَتْها طفولته الأولى. وأراد أنْ يستعيدها، وإلّا استولى توماس على كل شيء.

كان روبرت قد ترك والديه، وأخاه الصغير ومارغريت، خلفه، وسار متعثراً بين الصخور متوجهاً نحو حجارة الشاطئ السُفليّ المُقعقعة، حاملاً بإحدى يديه الممدودتين دلواً بلاستيكيّاً بالياً مُزيّناً برسوم دلافين تقفز. لم تعُد الحصى البرّاقة، التي كانت تبهتُ وهو يركض عائداً ليعرضها متباهياً، تخدعه. إنَّ ما يبحث عنه الآن هي الحُبيبات الشفّافة أو قطع الزجاج المُثلَّمة المدفونة تحت دفق الحصى الدقيقة السوداء والذهبيّة على الشاطئ. حتى وهي جافة كانت تتوهج توهجاً مخدوشاً. وقد أخبره والده، وهما في منتصف طريق العودة إلى حيث انطلقا، بأنَّ الزجاج يُصنَع من الرمل.

حينئذٍ كان روبرت قد وصلَ إلى خط الشاطئ. تركَ دلوه على صخرة مرتفعة وبدأ بحثه عن زجاج غَسَلَه موج البحر. أثار الماء حول كاحلَيه الزَبَد ومع عودته إلى الشاطئ مرَّ على الرمل المُرصَّع بالحصى. ودُهِشَ إذ رأى شيئاً تحت أول موجة، ليس فقط واحدة من الحبيبات البيضاء الضبابيّة أو الخضراء الفاتحة، بل دُرَّة صفراء نادرة. استخرجها من الرمل، وغسل عنها الحبيبات بالموجة التالية ثم رفعها نحو الضوء، كان بين أحد أصابعه وإبهامه ما يُشبه حجر كهرمان صغير. نظر على طول الشاطئ بحثاً عمَّنْ يُشاركه فرحه، لكنَّ والديه كانا يضمّان الطفل، وكانت مارغريت تنقّبُ في إحدى الحقائب.

أصبحَ الآن يتذكَّر مارغريت جيداً بعد أنْ عادتْ. كانت قد اعتنتْ به وهو طفل رضيع. كان الوضع مختلفاً حينئذٍ لأنه كان طفل أمّه الوحيد. وكانت مارغريت تحبّ أنْ تقول إنها «ثرثارة في كل شيء» لكنَّ الحقيقة هي أنَّ موضوعها الأثير الوحيد كان نفسها. وقد قال والده إنها خبيرة في «نظريّة الحِمية». لم يكن متيقّناً من فحواها ولكن بدا أنّها جعلتها شديدة البدانة. وتوفيراً للمال لم يكن والداه ينويان هذه المرّة أنْ يجلبا ممرضة حضانة لكنّهما غيَّرا رأيهما قُبيل المجيء إلى فرنسا. وكادا يتراجعان عن تراجعهما عندما قالت الوكالة إنَّ مارغريت هي الوحيدة المتوفّرة في الحال. فقالتْ أمّه «أعتقد أنّها ستشكِّل عمالة زائدة». وقال والده «ليتهما لم يكن لديهما فمٌ زائد»

كان روبرت قد قابل مارغريت للمرة الأولى عندما عاد من المستشفى بعد ولادته. واستيقظَ في مطبخ والديه، وهو يهتز في كل اتجاه.

قالتْ «لقد غيّرتُ حفاض جلالته لكي تبقى مؤخرته جافة ونظيفة»

قالت أمّه «أوه، شكراً لك»

شعر في الحال بأنَّ مارغريت تختلفُ عن أمّه. كانت الكلمات تتدفق منها كتدفّق المياه من حوضٍ غير مسدود. ولم تكن أمّه تحبّ الكلام حقاً ولكن عندما تتكلّم تبدو كأنَّ ثمّة ما يُعيقها.

قالتْ مارغريت «هل يُحبّ مَهدَه؟»

«لا أعلمُ حقاً، في الليلة الفائتة كان معنا في السرير»

خرج من مارغريت هرير هادئ. قالتْ «هممم، عادات سيئة»

«لقد رفض أنْ يهدأ وهو في مهده»

«إذا أخذته معك في السرير فلن يقبل سريره أبداً»

«كلمة «أبداً» تعني وقتاً طويلاً. لقد حملتُه داخلي حتى مساء يوم الأربعاء؛ وغريزتي تقول لي أنْ أحتفظ به معي مدة أطول – أنْ أُنفِّذ الأمور بالتدريج»

قالت مارغريت، وهي تبصق الكلمة في لحظة تشكّلها في فمها، «في الواقع، لا أحبّ أنْ أُشكِّك في غرائزك، يا عزيزتي، ولكن بعد أربعين عاماً من خبرتي تعاملتُ مع أمّهات شكرْنني مراراً وتكراراً لأنني كنتُ أترك الطفل في مهده. وإحدى الأمّهات، وهي أمٌّ عربيّة، في الواقع، لطيفة جداً، اتّصلتْ بي في وقتٍ قريب في بوتلي وقالتْ، «ليتني أصغيتُ إليك، يا مارغريت، ولم آخذ ياسمين معي في السرير. لم أعد أستطيع أنْ أتحكّم فيها الآن». وأرادتْ أنْ تُعيدني إلى خدمتها، لكنني قلت، «آسفة، يا عزيزتي، لكنني سأباشر عملاً جديداً في الأسبوع القادم، وسوف أنتقل إلى جنوب فرنسا لقضاء شهر تموز مع جدَّة الطفل»»

شمختْ مارغريت برأسها وأخذ تتنقّل في أرجاء المطبخ، ودفقٌ من فُتات الخبز يخِزُ وجه روبرت. لم تفعل أمّه أيّ شيء، لكنَّ مارغريت تابعت الثرثرة.

«لا أعتقد أنَّ هذا عدل في حق الطفل، بغضّ النظر عن أي شيء آخر – إنَّ الأطفال يريدون أنْ يكون لهم سريرهم الصغير الخاص. طبعاً، كنتُ المسؤولة الوحيدة. وفي المعتاد *أنا* التي تعتني بهم في أثناء الليل»

دخل والده الغرفة وقبَّلَ روبرت على جبينه.

قال «صباح الخير، مارغريت. آمل أنْ تكوني قد حظيتِ بقدرٍ من النوم، لأنَّ لا أحد منا نحن الباقون حظيَ بالنوم»

«نعم، شكراً لك، في الحقيقة إنَّ أريكتكم مُريحة جداً؛ وهذا لا يعني أنني سأُعارِض إذا حصلتُ على غرفة خاصّة بي في منزل أمّك»

قال والده «آمل أنْ تحصلي عليها. هل حزمتم جميعاً أمتعتكم وأصبحتم مُستعدّين؟ سوف تصل سيارة الأجرة الخاصة بنا في أي دقيقة»

«في الحقيقة، لم يُتَح لي الوقت لأُفرِغ الحقائب، أليس كذلك؟ ما عدا قبعتي الشمسيّة. لقد أخرجتها في حال كان الجوّ قائظاً في الطرف المقابل»

«إنَّ الجو يكون دائماً قائظاً في الطرف المقابل من العالم. وأمي لن تُدافع عن أي شيء أقلّ من كارثة الاحتباس الحراري»

«هممم، في بوتلي يمكننا أنْ نتحمّل القليل من الاحتباس الحراري»

«لو كنتُ مكانك لما أدليتُ بمثل هذه الملاحظة إذا أردتِ أنْ تحصلي على غرفة جيدة في المؤسّسة»

«وما هذا، يا عزيزي؟»

«أوه، لقد أسّستْ أمي «مؤسسة لا شخصيّة»»

«إذن لن يكون المنزل ملكك؟»

«كلا»

قالت مارغريت، «أتسمع هذا؟»، وشحوبها الشمعيّ ينعكس على روبرت وينثرُ الغُربَة على وجهه بحيويّة متجدِّدة.

استطاع روبرت أنْ يشعر بغضب والده.

قالتْ أمّه «إنه شديد الهدوء ولا يقلق حول هذا كلّه»

بدأ الجميع يتحرّكون في وقتٍ واحد. كانت مارغريت تعتمر قبعة الشمس، ووالدا روبرت يُصارعان الأمتعة في الخلف. سوف يأخذونه إلى الخارج من حيث يأتي الضوء. كان مذهولاً. كان العالم غرفة ولادة تضجّ بحياة طموح. الأغصان ترتقي، وأوراق الأشجار تتلألأ، وجبال من السحب

المتراكمة تنجرف، تتلوّى حوافها الذائبة في السماء المغمورة بالضوء. شعر بأفكار أمّه، وشعر بأفكار أبيه، وشعر بأفكار مارغريت.

قالتْ أمّه «إنّه يحبّ الغيوم»

قالتْ مارغريت «إنه لا يستطيع أنْ يرى الغيوم، يا عزيزتي. الأطفال في مثل سنّه لا يستطيعون التركيز»

قال والده «ومع ذلك ربما ينظر إليها من دون أنْ يراها كما نراها»

زمجرتْ مارغريت وهي تلج سيارة الأجرة الهادرة.

كان يستلقي بسكون في حجر والدته، لكنَّ الأرض والسماء كانتا تعبران بانسياب خارج النافذة. اعتقدَ أنّه إذا انهمكَ في مشهد الحركة فسوف يتحرّك هو أيضاً. وَمَضَ الضوء على زجاج نوافذ المنازل المارَّة، وانهالتْ عليه الاهتزازات من كل الجهات، ومن ثم انفتح وادي الأبنية وسقط مقطع من ضوء الشمس على وجهه، مُحوّلاً جفنيه إلى اللون البرتقاليّ الزهريّ.

كانوا في طريقهم إلى منزل جدَّته، إلى المنزل نفسه الذي يسكنان فيه الآن، بعد مرور أسبوع على ولادة أخيه.

-2-

كان روبرت جالساً على عتبة نافذة غرفة نومه، يلعب بالحجارة التي جمعها من الشاطئ. كان يُرتّبها في كل التركيبات الممكنة. وخلف شبكة الناموس (بالشق المُلصَق عليها) كانت كتلة من الأوراق اليانعة تخصّ شجرة دلب كبيرة على المصطبة. عندما تهبّ الريح وتتغلغل بين الأوراق تُصدر صوتاً يُشبه تلمُّظ الشِفاه. وإذا اندلعت النار، يخرج من النافذة ويهبط منها إلى أسفل تلك الأغصان الملائمة. ومن ناحية أخرى، يمكن لمُختَطِف أنْ يرتقيها. لم يكن يفكِّر أبداً في الاحتمال الثاني؛ أصبحَ الآن يفكِّر فيه طوال الوقت. لقد أخبرته أمّه أنه عندما كان طفلاً وليداً كان يحبّ أنْ يتمدَّد تحت شجرة الدلب تلك وهو في مهده. وتوماس هو الذي يستلقي هناك الآن، بين والديه.

كانت مارغريت ستغادر في اليوم التالي - شكراً لله، كما قال والده. وقد منحها والداه يومَ إجازة إضافيّاً، لكنّها كانت قد عادتْ تواً من القرية، وهرعت إليهما حاملة خبراً مشؤوماً. تهادى روبرت قاطعاً أرض الغرفة متظاهراً أنّه مارغريت ثم قفل عائداً إلى النافذة. وقال الجميع إنّه يؤدي مُحاكاةً مُذهلة؛ وتمادى أستاذه في المدرسة وقال إنها «موهبة قاتلة بالكامل آمل أنْ يستخدمها استخداماً بنّاءً». وكان صحيحاً أنّه حالما يأسره وضع، كما كان حاله مع مارغريت عندما عادتْ مع عائلته، يستطيع أنْ يستوعب كل ما يُريد. وضغط نفسه على شبكة الناموس لكي يحصل على رؤية أفضل.

قالت مارغريت وهي تُهوّي نفسها بمجلّة مختصة بالحبك، «أووه، الجو شديد الحرارة. لم أعثر على أي محل يبيع جبن الكوخ في باندول. وهم لا

يتكلّمون أي كلمة بالإنكليزيّة في السوبرماركت. قلت، مُشيرة إلى منزلٍ يقع على الطرف المقابل من الشارع، جبن الكوخ. الكوخ، كما تعلم، كالمنزل، ولكن أصغر حجماً، ولكن مع ذلك لم يفهموا أيّ شيء مما قلت»

قال والده «يبدون أغبياء بصورة لا تُصدَّق، بعد كل تلك الإشارات المُساعِدة»

قالت مارغريت، وقد جلسَتْ على جدار منخفض وتنهّدتْ، «همم. وأخيراً اضطررتُ إلى إحضار بعض الجبن الفرنسي. كيف حال الطفل؟»

قالتْ أمّه «يبدو مُتعباً جداً»

قالت مارغريت «ليس شيئاً مُفاجِئاً في مثل هذا الحرّ. أعتقد أنني أُصِبتُ بضربة شمس ونحن على متن تلك السفينة، بصراحة. لقد احترقت. أعطه الكثير من الماء، يا عزيزتي. إنها الوسيلة الوحيدة لتبريده. إنه لا يتعرَّق في مثل هذا السن»

قال والده «خطأ مذهل آخر. لا يستطيع التعرُّق، أو المشي، أو القراءة، أو قيادة السيارة، ولا يستطيع التوقيع على شيك. إنّ المهر يقف بعد ولادته ببضع ساعات. لو أنَّ الخيول تنخرط في مجال المصارف، لأصبح لديها حد اعتماد أقصى مع نهاية الأسبوع»

قالتْ مارغريت «لا حاجة للخيول إلى المصارف»

قال والده، مُرهقاً، «كلا»

في لحظة من الغِناء المُنتشي أغرقَ صريرُ زيز الحصاد صوتَ مارغريت، وشعرَ روبرت بأنَّ في استطاعته أنْ يتذكّر بالضبط كيف كان الوضع في السرير الصغير، وهو مستلقٍ تحت أشجار الدلب في الظل الأخضر المنعش، يُصغي إلى انهيار جدار صرير الزيز ليغدو نداءً موحِشاً ومن ثم يتصاعد من جديد حتى يُصبح سُعراً جافاً. لقد ترك الأشياء تستقرّ حيث تسقط، الأصوات، المشاهد، الانطباعات. كانت الأشياء تحلّ نفسها بنفسها في ذلك الظل الأخضر المنعش، ليس لأنه كان يعرف كيف تعمل، بل لأنه كان يعرف أفكاره ومشاعره الخاصّة من دون الحاجة إلى شرحها. وإذا أراد أنْ يعبث بأفكاره، لا أحد يستطيع أنْ يمنعه. وهو متمدِّد هناك في مهده، لم يتمكنوا

من معرفة إنْ كان يقوم بأي عمل خطِر. أحياناً كان يتخيَّل أنّه الشيء الذي ينظر إليه، وأحياناً أخرى يتخيَّل أنّه في المسافة بينهما، أمّا الأفضل فهو عندما يكتفي بالنظر، من دون أنْ يكون أي شخص مُعيَّن أو أنْ ينظر إلى أي شيء معيَّن، ومن ثم طفا في النظر، كنسيم يهبّ من دون الحاجة إلى وجنتين ليهبّ عليهما أو أي وِجهة معيَّنة يذهب إليها.

ربما كان أخوه يطفو الآن وهو على سرير روبرت الصغير. والبالغون لا يعرفون شيئاً عن الطفو؛ هذه هي مشكلة البالغين؛ إنهم دائماً يريدون أنْ يكونوا في مركز الاهتمام، مع ذخيرتهم من الطعام، وعاداتهم في النوم، وهوسهم بجعلك تتعلم ما يعرفون وأنْ تنسى ما نسوا. كان روبرت يخاف النوم. قد يفقد شيئاً: شاطئاً من الحجارة الصغيرة الصفراء، أو أجنحةَ جندبٍ كشراراتٍ تتطاير من قدميه وهو يمشي ساحقاً العشب الجافّ.

لقد أحبَّ هذا المكان في منزل جدَّته. وعائلته لا تأتي إليه إلّا مرَّة في العام، لكنّها كانت تأتي في كل عام منذ أنْ وُلِد. كان بيتها «مؤسّسة غير شخصيّة». لم يفهم بالضبط معنى هذا، ولم يبدُ أنَّ أحداً كان يفهم، حتى شيموس دورك الذي كان يُديرها.

كان قد أخبر روبرت، وهو ينظر إليه بعينيه الضعيفتين البرّاقتين، «إنَّ جدَّتك امرأة رائعة. لقد ساعدتْ أناساً كثيرين على التواصُل»

سأل روبرت «مع مَنْ؟»

«مع الواقع الآخر»

أحياناً لم يكن يسأل البالغين عمّا يعنون لأنه يرى أنَّ ذلك سوف يجعله يبدو أحمق؛ وأحياناً لأنه يعلم أنهم هم الحمقى. وهذه المرة كان الشيئان معاً. فكَّرَ فيما قاله شيموس ولم يفهم كيف يمكن وجود أكثر من واقع. يمكن فقط وجود أفكار مختلفة عن الواقع تضمّها كلها معاً. هذا ما قاله لأمّه، وقالت «أنت شديد الذكاء، يا عزيزي»، لكنّها في الحقيقة لم تنتبه إلى نظرياته كما كانت تفعل سابقاً. الآن أضحت شديدة الانهماك في العمل. وما لم يفهموا هو رغبته الشديدة في معرفة الجواب.

بالعودة إلى ظلال شجرة الدلب، كان أخوه قد بدأ يصرخ. وتمنّى روبرت

لو أنَّ أحداً يُسكِته. كان يشعر بطفولة أخيه الأولى تنفجر كقنبلة الأعماق داخل ذاكرته، فصراخُ توماس ذكّرَ روبرت بعجزه الخاصّ: بألم لثّته الخالية من الأسنان، وارتعاش أعضائه غير الإراديّ، ورقّة قمّة رأسه، التي لا تعلو بأكثر من مقدار طول إبهام عن دماغه الذي ينمو. شعر بأنَّ في استطاعته أنْ يتذكَّر موادَّ من دون أسماء وأسماءً من دون مواد تنهال عليه طوال النهار، ولكنْ كان هناك شيء لم يشعر به إلّا بإبهام: عالم ما قبل الابتذال الجامح لعهد الطفولة، قبل أنْ يُضطر إلى أنْ يكون أول المندفعين إلى الخارج ويُفسِد الثلج، قبل حتى أنْ يتحوّل إلى مُشاهد يُحدِّقُ إلى المشهد العامّ الأبيض من خلال نافذة غرفة نوم، عندما كان عقله صريحاً مع حقولٍ من الكريستال الصامت، ولا يزال ينتظر انبعاج ثمرة علّيق ساقطة.

رأى عينَي توماس تعبّران عن حالات ذهنيّة لم يكن ليستطيع أنْ يبتكرها لنفسه. برزت من الصحراء العجفاء لتجربته كأهرامات وجيزة. من أين أتت؟ أحياناً يكون حيواناً صغيراً يتشمَّم ومن ثم، بعد ذلك بلحظات، إذا به يشعّ هدوءاً عميقاً، ويتصالح مع كل شيء. شعر روبرت بأنّه حتماً لا يُلفِّق تلك الحالات الذهنيّة المُعقّدة، ولا توماس فعل ذلك. كل ما في الأمر أنَّ توماس لم يدرك ما يعرف إلّا بعد أنْ بدأ يحكي لنفسه قصةً حول ما جرى له. والمشكلة هي أنّه كان طفلاً رضيعاً، ولم تكن قد توفَّرتْ له بعد فسحة للانتباه ليحكي لنفسه قصة. وأوشكَ روبرت أنْ يحكيها بالنيابة عنه. إذ ما وظيفة الأخ الأكبر إذا لم تكن هذه؟ كان روبرت قد علِقَ أصلاً في دائرة الحكاية، لذلك كان يمكن أيضاً أنْ يأخذ أخاه معه. فقبل كل شيء، وبصورة ما، كان توماس يُساعد روبرت في تركيب قِطع الحكاية معاً.

في الخارج، سمعَ مارغريت من جديد، تتحدّى زيز الحصاد وتهيمن.

باشرت بالقول بعقلانيّة كافية «مع التغذية من الثدي عليك أنْ تهتمي بنفسك. أليس لديك بسكويت هاضم؟ أو شاي غنيّ؟ يمكننا إحضار بعض منها في الحال، حقاً. ومن ثم تحتاجين إلى تناول وجبة غداء كبيرة ودسمة، غنيّة بالكربوهيدرات. ولا تُكثري من الخضروات، فهي تُسبِّب إطلاق الريح. فلتكن شريحةً من اللحم المشوي وكعكة يوركشير، هذا جيد، مع

البطاطا المشويّة، ومن ثم شريحةً أو اثنتين من الكعكة الإسفنجيّة في وقت شرب الشاي»

قالت أمّه المُرهقة، والنحيلة، والأنيقة، «يا إلهي، لا أعتقد أنني سأتمكن من تناول هذا كله. في الكتاب الذي بحوزتي يقولون سمك مشوي وخضروات مشويّة»

قالت مارغريت بتذمُّر «**بعض** الخضروات مسموح بها. ولكن ليس البصل ولا الثوم، أو أي شيء كثير البهارات. عرفتُ أُمّاً تناولت الكَري في يوم عطلتي! وعندما رجعت كان الطفل يصرخ بأعلى صوته. «أنقذيني، يا مارغريت! لقد أشعلتْ أمي النار في أحشائي!». أنا دائماً أقول، «أسمحُ بتناول اللحم ونوعَين من الخضروات، ولكن الخضروات ليست ضروريّة جداً»»

كان روبرت قد حشرَ وسادة تحت قميصه الرياضيّ وأخذ يمشي مترنّحاً حول الغرفة متظاهراً بأنّه مارغريت. فما إنْ يمتلئ رأسه بكلام شخص ما حتى يرغب في التخلُّص منه. وقد اندمجَ في أدائه التمثيليّ إلى درجة أنّه لم ينتبه إلى دخول والده إلى الغرفة.

سألَ والده، وهو شبه عالِم بالأمر، «ماذا تفعل؟»

«أتظاهرُ بأنني مارغريت»

«هذا ما ينقصنا – مارغريت أخرى. انزلْ واشرب بعضِ الشاي»

قال روبرت، وهو يربت على الوسادة، «إنَّ بطني ممتلئ. أبي، عندما تغادر مارغريت، سأبقى هنا لكي أعطي أمي نصائح حول كيفيّة الاعتناء بالطفل. ولن يُكلِّفك ذلك أيّ شيء»

قال والده، مادّاً يده لكي يرفع روبرت عالياً، «الأشياء تنظر عالياً». تأوه روبرت وترنّحَ وهو يجتاز أرض الغرفة وتوجه الاثنان إلى الطابق السُفليّ، يتقاسمان مزحتهما السريّة.

بعد شرب الشاي رفضَ روبرت الانضمام إلى الآخرين في الخارج، لأنهم لا يتكلمون إلّا عن أخيه وعن حالته الذهنيّة. وفي أثناء الارتقاء إلى الطابق العُلويّ، أصبحَ قراره أشدّ ثقلاً مع كل دَرَجة، مع بلوغه المنبسَط كان

قد أصبحَ مُشوّشاً. وأخيراً، غاصَ إلى الأرض ونظر إلى أسفل من خلال الدرابزين، متسائلاً إنْ كان والداه سوف يلاحظان رحيله الحزين والكسير.

في الصالة، امتدتْ كتلُ ضوء المساء بزوايا حادّة ومائلة على الأرضيّة وارتقت الجدران. كانت إحدى حزم الضوء، المنعكسة على المرآة، قد تكسّرتْ وارتعشَتْ على السقف. كان توماس يُحاول أنْ يُعلِّق. حملته أمّه، التي كانت تفهم ما يجول في رأسه، واقتربَتْ من المرآة وأرته إلى أين انعكس الضوء من الزجاج.

خرج والده إلى الصالة وأعطى مارغريت كوباً من مشروب أحمر برّاق.

قالت مارغريت «أووه، شكراً جزيلاً. ما كان ينبغي حقاً أنْ أقلق بشأن إصابتي بضربة شمس. بصراحة، إنَّ هذا أشبه بقضاء عطلة بالنسبة إليّ من كونه أداء عمل، بانهماكك الشديد وما إلى ذلك. أوه، انظر، الطفل مُعجَب بصورته في المرآة»، وأمالتْ الإشراق الورديّ لوجهها نحو توماس.

«لا تستطيع أنْ تميز إنْ كنتَ هنا أم هناك، أليس كذلك؟»

قال والد روبرت «أعتقد أنّه يعرف أنّه داخل جسمه وليس ملتصقاً بقطعة من الزجاج. إنه لم يقرأ بعد مقالة لاكان عن مرحلة المرآة[1]، فهناك يبدأ التشوُّش الحقيقي»

قهقهتْ مارغريت، وشربت جرعة من السائل الأحمر، قالت «أووه، حسن، إذنْ يجب أنْ تبقى عند مرحلة الأرنب بيتر»

قال والده «كنتُ أرغب كثيراً في الانضمام إليكم في الخارج، ولكن لديّ الكثير من الرسائل المهمّة ينبغي أنْ أجيب عليها»

قالتْ مارغريت، وهي تزفر الرائحة الحمراء في وجه توماس، «أووه، البابا سوف يُجيب على رسائله المهمّة. أما أنت فيجب أنْ تكتفي بمارغريت وبالماما»

مشتْ تتمايل باتجاه الباب الأماميّ. اختفى الشكل المُعيَّن للضوء عن السقف ومن ثم عاد يخفق. تبادل والدا روبرت النظرات بصمت.

1- مرحلة المرآة: يقول الفيلسوف الفرنسي جاك لاكان إنَّ الطفل الوليد يستطيع أنْ يُميِّز نفسه أو أي رمز يُثير إعجابه في المرآة منذ الشهر السادس من عمره - المترجم.

حالما خطوا إلى الخارج، تخيَّلَ أخاه يستشعر المسافة الممتدّة من حوله.

تسلَّل هابطاً الدَّرَج ونظر من خلال ممرّ الباب. كان ضوء ذهبيّ يتبوَّأ ذُرى أشجار الصنوبر والحجارة البيضاء بلون العِظام في كرم الزيتون. مشتْ أمّه، ولا تزال حافية، على العشب وجلسَتْ تحت شجرة الفلفل الأثيرة لديهم. وبعد أنْ وَضَعَتْ ساقاً فوق ساق ورفعت رُكبتها قليلاً، وضعتْ أخاه على الأرجوحة التي شكّلتها من تنّورتها، وظلّتْ تحمله بإحدى يديها وتُداعب جنبه بالأخرى. كان وجهها مُبرقشاً بظلال أوراق الشجر الصغيرة البرّاقة المتدلّية من حولهم.

تجوّلَ روبرت بتردُّد في الخارج، لا يعرف بالضبط إلى أين ينتمي. ولمّا لم يُناد عليه أحد انعطفَ عند ركن المنزل وكأنّه لطالما قرّر أنْ يهبط إلى البركة الثانية وينظر إلى السمك الذهبيّ. وإذا به يرى أمامه العصا ذات الدواليب المتلألئة التي كانت مارغريت قد اشترتها لأخيه من عرض الملاهي الصغير الذي أُقيم في لاكوست. كان طرف العصا مغروزاً في الأرض بالقرب من شجرة الفلفل، والدواليب تدور في وجه الريح، بألوان الذهبي والورديّ والأزرق والأخضر. وعندما اشترتها مارغريت قالت، «إنَّ الأطفال يُحبون الألوان والحركة». وكان قد انتزعها من زاوية عربة أخيه وأخذ يجري في أنحاء المعرض، جاعلاً الدواليب تدور. وبينما كان يُحرّكها بقوة في الهواء انكسرتْ العصا وغضبَ منه الجميع بالنيابة عن أخيه الأصغر لأنه لم تُتَح له الفرصة للاستمتاع بطاحونة الهواء اللامعة قبل أنْ تنكسر. كان والد روبرت قد طرح عليه الكثير من الأسئلة، أو بالأحرى الأسئلة نفسها بطرُقٍ متعددة، وكأنَّ اعترافه بأنّه قد كسرها عن عمد سوف يُريحه. أتعتقد أنكَ غيور؟ أتعتقد أنكَ غاضب لأنه يحظى بالاهتمام كلّه والدُمى الجديدة؟ أتعتقد؟ أتعتقد ذلك؟ أتعتقد؟ حسن، لقد أقرّ تواً بأنها مجرد حادثة ولن يتراجع. لقد كانت فعلاً حادثة، ولكن تصادفَ أيضاً أنّه كره أخاه، وتمنّى لو أنّه لم يكرهه. هل يتذكر والداه كيف كان الوضع عندما لم يكن هناك غير ثلاثتهم؟ كان كل منهم يُحب الآخر إلى درجة أنهم كانوا يتألمون عندما يخرج أحدهم من الغرفة. لِمَ لم يكتفيا به وحده؟ أليس هو كافٍ؟ أليس هو طيب بقدرٍ كافٍ؟ كانوا يجلسون على المرج، حيث أخوه جالسٌ الآن، ويرمي كل منهم الكرة

الحمراء للآخر (كان قد أخفاها؛ وتوماس لن يحصل عليها أيضاً) وسواء تلقّفها أو تركها تسقط، كانوا يضحكون كلهم وكان كل شيء على أحسن ما يُرام. فكيف يُفسدان ذلك؟

ربما أصبح هو كبيراً جداً في العمر. ربما الأطفال الصغار جداً أفضل. فالأطفال الذين وُلِدوا حديثاً يفرحون بكل شيء. على سبيل المثال بركة السمك التي يرمي الحصى عليها. لقد شاهد أمّه تحمل توماس إلى حافة البحيرة وتشير إلى السمك، قائلة «سمك»، ومثل ذلك التصرف لم يعُد ذا فائدة مع روبرت. ولم يسعه إلّا أنْ يتساءل كيف يمكن لأخيه أنْ يعرف إنْ كانت تعني البحيرة، أم الماء، أم الأعشاب البريّة، أم صورة الغيوم المنعكسة على سطح المياه، أم السمك، إنْ كان يراها. بل كيف في وسعه أنْ يعرف إنْ كان «السمك» هو شيء وليس لوناً أو عملاً تقوم به؟ أحياناً، عندما تُفَكِّرُ في الأمر، ترى أنّه عمل يجب القيام به.

عندما تتوفّر الكلمات تظن أنَّ العالم هو كل ما يمكن وصفُه، لكنّه أيضاً ما لا يمكن وصفه. وبصورة ما كانت الأشياء أفضل بكثير عندما لا تستطيع أنْ تصِفَ أيّ شيء. وحصول روبرت على أخ دفعه إلى التساؤل كيف كان الحال عندما لم تكن لديه إلّا أفكاره الخاصّة ترشده. فما إنْ تُسجَن داخل لغة ما، فإنَّ كل ما في استطاعتك أنْ تفعل هو أنْ تجرّ معك حزمة اللغة اللزجة المؤلَّفة من بضعة آلاف من الكلمات التي استخدمها ملايين من الناس من قبل. قد تمرّ لحظات قصيرة من النضارة، ليس لأنَّ حياة العالم تُرجِمَتْ بنجاح بل لأنَّ حياةً جديدة صُنِعَتْ من هذه المادّة الفكريّة. ولكن قبل أنْ تختلِط الأفكار بالكلمات، هذا لا يعني أنَّ تألّق العالم لم يتفجَّر في سماء انتباهه.

فجأة، سمع أمّه تصرخ.

صرخت قائلة «ماذا فعلتِ له؟»

اندفع بسرعة عند منعطف المصطبة وقابل والده يهرع نحو الباب الأمامي. كانت مارغريت متمددة على المرج، ممسكة بتوماس المستقرّ على صدرها.

قالت مارغريت «لا بأس، يا عزيزتي، لا بأس. انظري، لقد كفَّ عن

البكاء. لقد تلقَّفتُه، أترين، على صدري. إنني أتدرّب على هذا. أعتقد أنني ربما كسرتُ إصبعي، ولكن لا حاجة للقلق على مارغريت السخيفة العجوز ما دام لم ينل الطفل أذى»

قالتْ الأم، التي لم تقل أبداً أي شيء مُسيء، «هذا أول كلام معقول أسمعه منك». ورفعتْ توماس من حضن مارغريت وراحتْ تُقبِّل رأسه مراراً. كانت متوترة وغاضبة، لكنّها وهي تُقبّله بدأ الحنان يطغى عليهما.

سأل روبرت «أهو بخير؟»

قالت أمّه «أعتقد ذلك»

قال روبرت، وهم يمشون عائدين معاً إلى المنزل، تاركين مارغريت تتحدث مع الأرض، «لا أريد له أنْ يتأذّى»

في صباح اليوم التالي، كانوا جميعاً يختبئون بعيداً عن مارغريت داخل غرفة نوم أبويه. واضطرّ والد روبرت إلى أنْ يوصِل مارغريت بالسيارة إلى المطار بعد ظهيرة ذلك اليوم.

قالتْ أمّه، وهي تقفل زر رداء توماس، وترفعه إلى ذراعيها، «أعتقد أننا يجب أنْ ننزل إلى تحت»

صاح والده، مرتمياً على السرير، «كلا»

«لا تتصرَّف كالأطفال»

«إنَّ إنجاب طفل يجعل تصرفات المرء أكثر صبيانيّة، ألم تلاحظي هذا؟»

«ليس لدي وقت لأكون أكثر صِبيانيّة، هذا امتياز مُخصَّص للآباء»

«سوف يتوفر لديك الوقت إذا حظيتِ بمساعدة كافية»

قالت والدة روبرت، مادة يدها الحرَّة إلى والده، «هيا بنا»

قبضَ عليها بقوة لكنّه لم يتحرَّك.

قال «لا أستطيع أنْ أُقرِّر أيُّهما أسوأ، التحدث مع مارغريت، أم الإصغاء إليها»

أدلى روبرت برأيه «الإصغاء إليها. ولهذا سوف أقوم بتقليد مارغريت وأسخر منها طوال الوقت الآن بعد أنْ رحلتْ»

قالتْ أمّه «شكراً جزيلاً. انظر، حتى توماس يبتسِم لهذه الفكرة المجنونة»

دمدمَ روبرت «هذا ليس ابتساماً، يا عزيزتي؛ إنه ريح يُعذِّب أحشاءه الصغيرة»

طفقَ الجميع يضحكون ومن ثم قالتْ أمّه «ششش، قد تسمعنا»، لكنَّ الأوان كان قد فات، وصمَّم روبرت على تسليتهم. أخذ يرجِّح جسده بحركات جانبيّة تسهيلاً للتقدُّم إلى الأمام، وارتمى بقوة إلى جوار أمّه.

قال «لا فائدة من إغراقي بالتعبيرات العِلميّة، يا عزيزتي. أنا أعلم أنّه لا يُحبّ تركيبة الحليب التي تزوّدينه بها، حتى وإنْ كانت من ماعز عضويّ. عندما كنتُ في المملكة العربية السعوديّة – في الحقيقة، المرأة كانت أميرة – قلتُ لهم: لا أستطيع أنْ أعمل مع هذه التركيبة، يجب أنْ توفّروا الحليب العضويّ المُعتَرَف به. فقالوا لي: مع خبرتك الواسعة، يا مارغريت، نحن نثقُ فيك ثقة عمياء، وأحضروا بعضاً منه من إنكلترا بطائرتهم النفّاثة الخاصة.

سألتْ أمّه «كيف تتذكّر هذا كلّه؟ إنه مُرعِب. لقد أخبرتُها بأننا لا نمتلك طائرة نفّاثة خاصّة»

تابعَ روبرت، وقد أمال رأسه قليلاً إلى الخلف بكبرياء، «أوه، إنَّ المال ليس مشكلة بالنسبة إليهم. وذات يوم علَّقتُ، كما تعلمون، بنبرة ***عاديّة جداً***، معبِّرة عن إعجابي بجمال خفّ الأميرة، وإذا بي أجد خِفّاً في انتظاري في غرفة نومي. والأمر نفسه حدث مع آلة تصوير الأمير. في الحقيقة كان شيئاً مُحرِجاً جداً. وفي كل مرة فعلتُ هذا، كنتُ أقول لنفسي: مارغريت، يجب أنْ تتعلَّمي كيف تُمسكين لسانك»

هزَّ روبرت إصبعه في الهواء، ومن ثم جلسَ على السرير بجوار والده وتابعَ مع تنهيد حزين.

«ولكن كان الأمر يحدث من جديد، كما تعلمون: «أووه، هذا وشاح جميل، يا عزيزتي؛ نسيج جميل وناعم»، وفي الحال أجد واحداً ممدوداً على سريري في المساء. وأخيراً اضطررتُ إلى إحضار حقيبة جديدة»

كان والداه يُحاولان ألّا يُثيرا الكثير من الضجيج، ولكنهما لم يتمكّنا من كبح ضحكهما. وطوال فترة أداء مُحاكاته لم يوليا توماس أي انتباه.

قالتْ أمّه، بعد أنْ انضمّت إليهما على السرير، «الآن أصبح نزولنا إلى الطابق السُفليّ أصعب بكثير»

قال والده، «بل مستحيل، هناك حقل قوة رابض حول الباب»

هرع روبرت إلى الباب برهة ومن ثم عاد أدراجه قفزاً. صرخ «آه، إنه حقل قوة مارغريت. لا سبيل إلى المرور، أيها القائد»

أخذ يتدحرج قليلاً على الأرض ومن ثم ارتقى عائداً إلى السرير وانضمَّ إلى والديه.

قال والده «نحن أشبه بضيوف العشاء في فيلم «*ملاك الإبادة*»[1]. قد نبقى هنا على مدى أيام طويلة. وقد نُضطر إلى اللجوء إلى قوات الجيش لإنقاذنا»

قالت أمّه «يجب أنْ نحافظ على هدوئنا. يجب أنْ نحاول إنهاء زيارتها بكل لطف»

لم يُحرّك أي منهم ساكناً.

سأل والده «لِمَ في اعتقادكما نجد صعوبة في المغادرة؟ أتعتقدان أننا نستخدم مارغريت كبشَ فِداء؟ إننا نشعر بالذنب لأننا عاجزون عن حماية توماس من معاناة الحياة الأساسيّة، لذلك نتظاهر بأنَّ مارغريت هي السبب - أو ما شابه»

قالتْ أمّه «دعونا لا نُعقّد الأمر، يا عزيزي. إنها أشدّ مَنْ قابلنا في حياتنا إثارة للملل وهي ليست مؤهّلة للاعتناء بتوماس. ولهذا السبب لا نريد أنْ نراها بعد الآن»

ران صمت. كان توماس قد استغرقَ في النوم، ولذلك ساد اتّفاق شامل على أنْ نلزم الصمت. واستقرّوا جميعاً على السرير. تمدَّدَ روبرت على طوله وأراحَ رأسه على يديه المضمومتين، وهو يستعرض أشعة الضوء على

1- «**ملاك الإبادة**»: فيلم سريالي إسبانيّ (تحوّل إلى مسرحيّة)، إنتاج عام 1962، من إخراج لوي بانيول. تتحدث القصة عن مجموعة من الأثرياء الأرستقراطيين، يُدعَون إلى حفل عشاء باذخ، لكنهم يجدون أنفسه بعد ذلك غير قادرين على المغادرة. القصة مملوءة بالمواقف الساخرة التي تكشِف عن الدوافع الإجراميّة والأسرار الفاضحة التي يُخفيها أولئك الأرستقراطيون - المترجم.

السقف. برزتْ أشكالٌ من البقع والعُقَد المألوفة من الحفريات الخشبيّة. أولاً رجّحَ أنّه رأى جانب وجه رجل ذي أنف مُدبَّب ويضع خوذة، ولكن سرعان ما رفضَ الشكل أنْ يذوب عائداً إلى البذرة، مُكتسباً عينين وحشيتين ووجنتين غائرتين. كان يعرف تفاصيل السقف عن ظهر قلب، لأنه كان يتمدَّد تحته عندما كانت تلك غرفة نوم جدَّته. وقد انتقل والداه إليها بعد نقل جدَّته إلى مأوى العجزة. وما زال يتذكر الصورة الفوتوغرافيّة القديمة ذات الإطار الفضيّ التي كانت موضوعة على طاولة مكتبها. كان فضوليّاً بشأنها لأنها التُقِطَتْ عندما كان عمر جدَّته لا يتجاوز بضعة أيام. كانت الطفلة في الصورة مدفونة داخل جلود وقماش ساتان وأربطة، ورأسها مُحاطاً بعمامة مُزيَّنة بخرز. وكانتْ تطلّ من عينيها قسوة متعصّبة بدتْ له أشبه برعب من أنْ تُدفَن داخل الكمّ الهائل من مشتريات أمّها.

كانت جدَّته قد قالتْ له «إنني أحتفظ بها هنا لكي تُذكّرني بنفسي عندما خرجتُ تواً إلى العالم وكنتُ قريبة من المنبع»

سأل «أي منبع؟»

قالت بحياء «أقرب إلى الله»

قال «لكنكِ لا تبدين سعيدة جداً»

«أعتقد أنني أبدو كأنني لم أنسَ بعد. ولكن بصورة ما أنت على صواب، لا أعتقد أنني تعوّدتُ أبداً على كوني على متن الطائرة الماديّة»

«أي طائرة ماديّة؟»

قالتْ «الأرض»

سألها «هل كنتِ تفضّلين العيش على سطح القمر؟»

ابتسمتْ وداعبت وجنته وقالت «سوف تفهم ذات يوم»

الآن، بدلاً عن الصورة الفوتوغرافية، كانت هناك على طاولة المكتب حشيّة لتغيير حفاض الطفل عليها، مع كمية كبيرة من الحفاضات إلى جوارها وطاس من الماء.

وبقيَ على حبّه لجدَّته، حتى وإنْ لم تكن تنوي أنْ تورثّهم المنزل. كان

وجهها مكسواً بشبكة من التجاعيد اكتسبتها من محاولاتها الحثيثة لتكون صالحة، ومن القلق بشأنْ أشياء ضخمة حقاً كالكوكب، والكون، أو ملايين الناس المتألّمين الذين لم تقابلهم قط، أو بشأنْ رأي الله بالشيء التالي الذي ينبغي عليها أنْ تقوم به. كان يعلم أنَّ والده لا يعتقد أنّها صالحة، وينتقص من رغبتها الشديدة في أنْ تكون كذلك. كان دائماً يقول لروبرت إنَّ عليهم أنْ يُحبّوا جدّته «على الرغم من كل شيء». هكذا علِمَ روبرت أنَّ والدَه لم يعُد يُحبّها.

سأل روبرت، وهو يُحدِّق إلى السقف، «هل سيتذكّر تلك السقطة حتى آخر حياته؟»

قال والده «طبعاً لا. لا يمكنكَ أنْ تتذكَّر ما وقع لك وأنت في عمر بضعة أسابيع»

قال روبرت «بل نعم أستطيع»

قالتْ أمّه، مُغيِّرة الموضوع كما لو أنها لا تريد أنْ تشير إلى أنَّ روبرت يكذب، «يجب علينا جميعاً أنْ نطمئنه». لكنّه لم يكن يكذب.

قال والده «إنه لا يحتاج إلى مَنْ يُطمئنه. فهو لم يتأذّ، لذلك لا يستطيع أنْ يقول إنّه لا ينبغي أنْ يخرج من جسم مارغريت المتخبِّط. نحن الذين ذُعِرنا، لأننا نعلم كم كان الأمر خطِراً»

قالتْ أمّه «لهذا السبب يحتاج إلى مَنْ يُطمئنه، لأنه يستطيع أنْ يُدرِك أننا اضطربنا»

وافقَ والده قائلاً «نعم، على هذا المستوى، ولكن في العموم فإنّ الأطفالَ المولودين حديثاً يعيشون في عالم ديموقراطيّ من الغرابة. والأمور تحدث للمرة الأولى طوال الوقت – والمُدهِش أنَّ الأحداث تقع من جديد»

قال روبرت في نفسه، إنَّ الأطفال مخلوقات عظيمة. يمكن اختلاق أي شيء تقريباً عنهم لأنهم لن يُقدّموا ردّاً على ذلك.

تنهّد والده «إنها الساعة الثانية عشرة»

كلهم عانوا من التردُّد، ولكن بدا أنَّ محاولتهم الحثيثة للهرب كانت

تغوص بهم أعمق فأعمق داخل الرمالِ المتحرّكة للفراش. وأراد أنْ يُعيق والديه قليلاً.

بدأ يقول بصوت مارغريت الحالم، «أحياناً عندما ألازم المنزل فترة من الوقت بين عملَين، أشعر بحكّة في أصابعي، أرغبُ بشدّة في وضع يدَي على طفل آخر». وقبضَ على قَدَم توماس وأصدر صوت التهام.

قالت والدة روبرت «برفق»

قال والده «ولكنّه على صواب، إنها متعوّدة على التعامُل مع الأطفال، وتحتاج إليهم أكثر من حاجتهم إليها. والأطفال المولودون حديثاً يُسمح لهم بأنْ يكونوا غير واعين ونهمين، ولذلك هي تستخدمهم كتمويه»

بعد كل المجهود الأخلاقي الذي بذلوه للتنازل عن ساعة أخرى من حياتهم لمارغريت، شعروا بأنهم خُدِعوا عندما اكتشفوا أنها لم تكن تكمنُ لهم في الطابق السُفليّ. توجّهتْ أمّه إلى المطبخ وجلسَ هو مع والده على الأريكة الكبيرة وتوماس بينهما. خيَّمَ الصمت على توماس وانهمكَ في التحديق إلى الصورة المُعلَّقة فوق الأريكة مباشرة. وحرَّكَ روبرت رأسه إلى أسفل ليُصبح بجوار رأس توماس وعندما نظر عالياً فهِمَ من تلك الزاوية أنَّ توماس لا يستطيع أنْ يرى الصورة نفسها، بسبب الزجاج الذي يحميها. وتذكّرَ أنّ الشيء نفسه فتَنَهُ وهو طفل حديث الولادة. وبينما كان ينظر إلى الصورة المنعكسة على الزجاج، جَذَبَته أعمق داخل المساحة التي خلفه. في الصورة المنعكسة رأى فتحة الباب، كانت نسخة مُنمنمة رائعة ومثاليّة، ومن خلال فتحة الباب بدتْ في الخارج، بحجمٍ أصغر، لكنها في الواقع أكبر حجماً، شجيرةُ دفلى، وأزهارها الصغيرة الورديّة تشعّ على سطح الزجاج. تركّزَ انتباهه في اتجاه النقطة المتلاشية للسماء بين أغصان الدفلى، ومن ثم امتدّت مُخيّلته داخل السماء الحقيقيّة خلفها، بحيث أصبح عقله أشبه بقُمعَين يلتقي رأساهما. كان هناك مع توماس، أو بالأحرى، كان توماس هناك معه، يمتطي متن تلك البقعة الصغيرة من الضوء نحو الأبديّة. ثم لاحظَ أنَّ الأزهار اختَفَتْ وملأتْ صورةٌ جديدة فتحة الباب.

قال «وصلتْ مارغريت»

استدار والده بينما راقب روبرت كتلتها الكئيبة تتدحرج نحوهما. توقفتْ على مسافة بضعة أقدام منهما.

سألتْ، بشبه سؤال، «لم يحدث أذى»

قال والده «يبدو بخير»

«هذا لن يؤثّر على سلطتي، أليس كذلك؟»

سأل والده «أيّ سلطة؟»

قالتْ مارغريت، ما بين التأذّي والغضب، وبكامل هيبتها، «أوه، فهمت»

قال والده «هلّا تناولنا الغداء؟»

قالتْ مارغريت «لستُ في حاجة إلى أي غداء، شكراً جزيلاً لك»

اتجهتْ نحو مطلع الدَّرَج وبدأتْ ترتقيه مع بذل جهد.

فجأة، لم يعُد روبرت قادراً على التحمُّل.

قال «مسكينة مارغريت»

قال والده «مسكينة مارغريت. ماذا سنفعل من دونها؟»

-3-

كان روبرت يُراقبُ نملة تختفي خلف زجاجة النبيذ الأبيض التي تنضح بالعرق وموضوعة على الطاولة الحجريّة. وفجأة جرى الماء المتكثِّف أسفل جانب الزجاجة، ماسِحاً في طريقه حبّات العرق على السطح. عادتْ النملة إلى الظهور، بشكلٍ مُكبَّر من خلال الزجاج الأخضر، وأطرافها تتشابك بحركة هستيريّة وهي تأخذ عيِّنة من حبّة سكَّر لامعة خلَّفتها جوليا عندما كانت تُحلّي قهوتها بعد تناول الغداء. كان صرير زيز الحصاد يعلو من حولهم على فترات وظلّة المصباح من قماش القنّب المترهّلة ترفرف فوق رؤوسهم. كانت أمّه تقضي فترة قيلولتها مع توماس، وكانت لوسي تشاهد شريط فيديو، لكنه مكثَ، على الرغم من أنَّ جوليا أجبرته تقريباً على الانضمام إلى لوسي.

كان والده يقول للوسي، «إنَّ غالبية الناس ينتظرون موت آبائهم بمزيج من الحزن الشديد وخُطط لتصميم بركة سباحة جديدة. وبما أنني سوف أُضطَرُّ إلى التبرُّؤ من بركة السباحة، رأيتُ أنني يمكن أنْ أتخلَّص من الحزن أيضاً»

قالت جوليا «ولكن ألا تستطيع أنْ تتظاهر بأنكَ كاهن يُعالج بالسِحر وتحتفظ بهذا المكان؟»

«للأسف، أنا أحد القِلَّة على سطح هذا الكوكب التي لا تمتلك أيّ قُدرات على الشِفاء. أنا أعلم أنَّ كل شخص آخر قد انفصل عن طاقاته السِحريّة الداخليّة، لكنني بقيتُ حبيس مفهومي الماديّ للكون»

قالت لوسي «هناك شيء يُدعى نِفاق، كما تعلم. هناك محل تجاري قريب اسمه درب قوس قُزح، يمكنني أنْ أُحضِر لك منه طبلاً وبعض الريش»

قال والده، متثائباً، «أستطيع منذ الآن أنْ أشعر بالطاقة تندفع إلى أطراف أصابعي. أنا، أيضاً، أتمتع بموهبة خاصة أُقدِّمها للقبيلة. ولم أكنْ أدرك حتى الآن أنَّ لديّ طاقات روحيّة خارقة»

قالت جوليا مُشجِّعة «ها أنت توشك أنْ تُدير المكان قريباً جداً»

«لقد عانيت ما يكفي من المتاعب جرّاء الاعتناء بعائلتي من دون أنْ أُنقذ العالم»

قالت جوليا، مبتسمة لروبرت بصرامة، «يمكن للاعتناء بالأطفال أنْ يكون وسيلة ذكيّة للاستسلام. إنهم يُصبحون المُكتملين، الأصحّاء، السعادة المؤجَّلة، الذين لن يُدمنوا الخمر، أو يستسلموا، أو يلجؤوا إلى الطلاق، أو يُصابوا بمرض عقليّ. إنَّ الجزء من الذات الذي يُكافح الفساد والاكتئاب يتحوَّل لحمايتهم من الفساد والاكتئاب. وفي تلك الأثناء يُصاب بالفساد والاكتئاب»

قال والده «لا أوافق على هذا. عندما لا تقاتلين إلّا من أجل نفسك فهذا موقف دِفاعيّ ومقيت»

قاطعته جوليا «إنها صِفات مفيدة. ولهذا من المهمّ ألّا نغالي في حُسن معاملة الأطفال – وإلّا لن يتمكنوا من خوض المنافسة في العالم الواقعيّ. إذا أردتَ لأولادك أنْ يُصبحوا مُنتجين في التلفزيون، على سبيل المِثال، أو مدراء مُنفّذين، فلا فائدة من ملء رؤوسهم الصغيرة بأفكارٍ عن الثقة وقول الحقيقة والثقة. وإلّا انتهى الأمر بأحدهم إلى أنْ يُصبح سكرتيراً لشخصٍ ما»

قرَّرَ روبرت أنْ يسأل أمّه إنْ كان هذا صحيحاً، أو إنْ كانت جوليا تُصبح – جوليا. كانت في كل عام تأتي لتُقيم مع لوسي، ابنتها المتكبِّرة المغرورة التي تكبُر روبرت بعام. كان يعلم أنَّ أمّه ليستْ مولعة بجوليا، لأنها كانت عشيقة سابقة لوالده. كانت تغار منها قليلاً، ولكن أيضاً كانت تجدها مملّة قليلاً. لم تعرف جوليا كيف تتوقف عن التوقُّع من الناس أنْ يعتقدوا أنها بارعة. فقالت له أمّه «إنَّ الأشخاص الماهرين حقاً لا يفكرون إلّا بصوتٍ مرتفع. وجوليا تفكِّر في نفسها»

كانت جوليا دائماً تحاول أنْ تجمع بين روبرت ولوسي. وفي اليوم

السابق، حاولتْ لوسي أنْ تُقبّله. ولهذا السبب لم يرغب في مُشاهدة شريط الفيديو معها. كان يعتقد أنَّ أسنانه الأماميّة لن تنجو من حادث تصادُم آخر كذاك. وكانت الفكرة القائلة إنّ من الأفضل له أنْ يقضي وقته مع أطفالٍ في مثل سنّه، حتى وإنْ لم يُحبهم، لها أساس راسخ. هل سيدعو والده امرأةً إلى شرب الشاي لمجرد أنها تبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً؟

كانت جوليا تعبث بالسُكَّر من جديد، تغرف منه بالملعقة من الوعاء وإليه.

قالتْ «منذ طلاقي من ريتشارد بدأتْ تنتابني تلك اللحظات الرهيبة من الدوار. فجأةً أشعر كأنني غير موجودة»

قال روبرت، فرحاً لأنهم انتقوا موضوعاً يعرف شيئاً عنه، «أنا أعرفُ هذا!»

قالت جوليا «أعتقد أنَّ هذا، في مثل سنّك، يُعتبَر ادّعاءً. هل أنت واثق من أنكَ لم تسمع البالغين يتحدثون عنه؟»

قال، منبهراً بالصوت الجائر، «كلا. حصلتُ عليه بنفسي»

قال والده لجوليا «أعتقد أنكِ لستِ عادلة. لطالما تمتَّعَ روبرت بمقدرة على إثارة الرعب بشكلٍ يفوق سنّه بكثير. وهذا لا يتعارَض مع كونه طفلاً سعيداً»

صحَّحَ معلومات والده «بل يتعارَض، في الواقع، عندما يستمر»

وافق والده مع ابتسامة رقيقة. «نعم، عندما يستمر»

قالتْ جوليا، وأراحت يدها على يد روبرت، «فهمت. في هذه الحالة، أهلاً بك إلى نادينا، يا عزيزي»

لم يرغب في أنْ يكون عضواً في نادي جوليا. وشعرَ بوخز في أرجاء جسمه كلّه لأنه أراد أنْ يسحب يده بعيداً ولكن لم يرغب في أنْ يكون فظّاً.

قالت جوليا، وهي تُبعِد يدها وتضعها على ساعد والده، «لطالما رأيتُ أنَّ الأطفال أشدّ بساطة منا. نحن أشبه بكاسري الثلج نشقّ طريقنا بتحطيمه نحو موضوع رغبتنا التالي»

سأل والده «ما هو الشيء الأشدّ بساطة من شقّ الطريق بالتكسير نحو موضوع الرغبة التالي؟»

«هو عدم شقّ الطريق بالتكسير نحو الهدف»

«هذا نكران ذات – وليس بسيطاً كما يبدو»

قالتْ جوليا «يكون نكراناً للذات فقط إذا كانت لديك الرغبة أصلاً»

قال والده «إنَّ لدى الأطفال الكثير من الرغبة أصلاً، ولكن أعتقد أنكِ على صواب، هي في الأساس رغبة واحدة: الاقتراب من الذين نحبهم»

قالتْ جوليا «الأسوياء منهم يرغبون في أنْ يُشاهدوا أيضاً فيلم *Raiders of the Lost Arc*»

قال والده، متجاهلاً ملاحظتها الأخيرة، «نحن نتبلبل بسهولة أكبر، ونتعوَّد أكثر على ثقافة البديل، ونضطرب بسهولة أكبر فيما يتعلَّق بمَن هو الذي نحبّ بالضبط»

قالت جوليا، مبتسمة، «أهكذا نحن، حقّاً؟ شيء لطيف»

قال والده «بقدرٍ ما»

لم يفهم بالضبط عمّا كانا يتحدثان، ولكنْ بدا أنَّ جوليا فرحتْ. بدا أنَّ البديل شيء رائع حقاً. وقبل أنْ تُتاح له الفرصة للسؤال عن معنى الكلمة، هتفَ صوتٌ، بلكنةٍ أيرلنديّة لطيفة.

«أما مِن أحد؟ أما مِن أحد؟»

تمتمَ والده «أوه، يا ربي، إنّه المُعلِّم»

قال شيموس بودّ، وهو يتقدَّم منهما، مرتدياً قميصاً مُزيَّناً برسوم أشجار نخيل وأقواس قُزح، «باتريك!»، ثم رحبَ به، وهو يعبث بشَعره بحيويّة، «روبرت». ثم قال لجوليا، مُثبِّتاً عينيه الزرقاوين الصريحتين عليها ومُصافحاً إيّاها بقوة، «سعيد بمقابلتك». لا أحد كان يمكن أنْ يتّهمه بأنّه ليس ودوداً.

قال «أوه، هذه البقعة جميلة. جميلة. كنا دائماً نجلس هنا في الخارج بعد إحدى الجلسات، ويضحك الجميع أو يبكون، أو فقط يكتفون بحضورهم، كما تعلم. إنّ هذه حتماً نقطة جذب، مكان يتّصِف بقُدرة هائلة على التحرير. هذا صحيح»، تنهّدَ، وكأنّه يتّفق مع نظرة ثاقبة لشخص آخر، «لقد رأيتُ الكثير من الأشخاص هنا تحرّروا من الكثير من أعبائهم»

«بالحديث عن «التحرُّر من الكثير من الأعباء»»، أعاد والده العبارة إلى

شيموس، ممسِكاً بطرفها كأنها منديل قذر لشخصٍ آخر، «عندما فتحتُ درج الطاولة المجاورة لسريري وجدته ممتلئاً بكرّاسات «الطبل الشافي» بحيث لم يتبقَّ مُتَّسعٌ لوضع جواز سفري. وكان هناك أيضاً بضع مئات من نُسخ» ***كيف تُصبح كاهناً شافياً*** «في خزانة ملابسي تشكِّل عائقاً في طريق أحذيتي»

قال شيموس، وهو يُطلِق ضحكاً هادراً صاخباً صحيّاً، «في طريق الأحذية». هذه العبارة تصلح أنْ تكون عنواناً جيداً لكتابٍ يدور حول الثبات في المكان، كما تعلم»

تابعَ والده ببرودة، وبسرعة، «أتعتقد أنَّ تلك اللافتات عن الحياة الدستوريّة يمكن إزالتها قبل أنْ نأتي إلى هنا في العطلة؟ فقبل كل شيء، أمي تريد أنْ يعود المنزل في كل شهر آب إلى سابق عهده كتجسيدٍ لمنزل العائلة»

قال شيموس «طبعاً، طبعاً. أنا أعتذر، يا باتريك. هذا عمل كيفين وأنيت. وهما يخوضان مسيرة شخصيّة قوية جداً، في الواقع، ومن ثم سيعودان إلى أيرلندا ليقضيا العطلة، ومن الواضح أنهما لن يكونان متهيّئين تماماً لجعل المكان جاهزاً لاستقبالكم»

سأل والده «هل ستعود أنتَ أيضاً إلى أيرلندا؟»

قال شيموس «كلا، سوف أُقيم في الكوخ طوال شهر آب. لقد طلبتْ مني دار النشر بيغاسوس بريس أنْ أؤلف كتاباً صغيراً عن أعمال الكهنة الشافين»

قالتْ جوليا «أوه، حقاً. شيء رائع. هل أنتَ نفسك كاهن شاف؟»

قال والده «لقد ألقيتُ نظرة على الكتاب الذي كان يقفُ عائقاً في طريق أحذيتي، فبرزتْ في ذهني بعض الأسئلة الواضحة. هل أمضيتَ عشرين عاماً وأنت تلميذ لطبيب مُشعوذ من سيبيريا؟ هل جمعتَ نباتات نادرة تحت ضوء القمر البدر خلال فترة فصل الصيف الوجيزة؟ هل دُفِنتَ حيّاً ومُتَّ في نظر العالم؟ هل دمعتْ عيناك بسبب دخان نار المُخيَّم وأنتَ تتلو صلوات للأرواح التي يمكن أنْ تساعدك في إنقاذ رجلٍ يحتضر؟ هل شربتَ بول أيل الرنّة الذي رعى من فطر الـ *Amanita muscaria* السطحي وسافرت إلى عوالم أخرى لكي تحلّ لغز تشخيص صعب؟ أم أنّكَ درستَ في البرازيل مع متعاطي نبات الهلوسة *ayahuascaras* في حوض الأمازون؟»

قال شيموس «في الواقع، لقد تدرّبت لأكون ممرّضاً مع منظمة الصحة الوطنيّة الأيرلنديّة»

قال والده «أنا واثق من أنَّ ذلك كان بديلاً كافياً لدفنكَ حيّاً»

«بقيتُ أعمل في مأوى للعجزة على مدى سنين عديدة، أقوم بالأمور الأساسيّة، كما تعلم: أُحمِّم المرضى، المُلوّثين بغائطهم وببولهم؛ وأُطعمُ العجائز الذين لم يعُد في مقدورهم أنْ يُطعِموا أنفسهم بأنفسهم بالملعقة»

قالتْ جوليا «كفى من فضلك، لقد انتهينا تواً من تناول الغداء»

قال شيموس «ذلك كان وضعي في تلك الأيام. وأحياناً أتساءل لماذا لم ألتحق بالجامعة وأحصل على المؤهلات الطبيّة، ولكن عندما أعود بذاكرتي أشعر بالامتنان لتلك السنين التي قضيتها في مأوى العجزة – لقد ساعدتني على تأسيس نفسي. وعندما اكتشفتُ المعالجة الذاتيّة بالتنفّس وذهبتُ إلى كاليفورنيا لكي أدرس مع ستان غروف، قابلتُ مجموعة كبيرة من المرضى، في الواقع. وأتذكّر سيدةً بعينها، ترتدي ثوباً ملوّناً بألوان الغروب، ونهضَتْ واقفة وقالتْ: «أنا تامارا من جهاز فيغا، وقد أتيتُ إلى الأرض لكي أُشفي وأُعلِّم». حسن، عند هذه النقطة، فكّرتُ في العجائز في مأوى العجزة في أيرلندا وشعرتُ بالامتنان لهم لإبقاء قدميّ راسختين»

سألتْ جوليا «هل مؤسسة هولو... مهما كان اسمها، لها صِلة بالمعالجة الروحيّة؟»

«كلا، ليس بالضبط. هذا ما كنتُ أقوم به قبل أنْ أنخرط في المُعالجة الروحيّة، لكنها كلها مرتبطة معاً، في الواقع. إن الأمر يجعل الناس على اتصال بذلك الشيء على الطرف الآخر، بذلك البُعد الآخر. وعندما يُحقق الناس هذا، سوف يُحدِثُ تغيّراً جذرياً في حياتهم»

قالت جوليا «ولكن لا أفهم لماذا يُعتبَر هذا عملاً خيريّاً. إنَّ الناس يدفعون نقوداً لكي يأتوا إلى هنا، أليس كذلك؟»

قال شيموس «يدفعون، يدفعون، لكننا نعيد تدوير الأرباح، في الواقع، لكي نوفّر للطلاب مِنحاً دراسيّة كما فعلنا مع كيفين وأنيت اللّذين يتعلّمان المعالجة الكهنوتيّة. وقد بدأا يجلبان مجموعات من أطفال قلب المدينة

من عِزب في دبلن. ونحن نسمح لهم بحضور الدورات الدراسيّة مجّاناً، في الواقع، ومراقبة التحولات التي تحصل أمرٌ رائع. إنهم يُحبّون موسيقى النشوة وقرع الطبول. ويأتون إليّ ويقولون: شيموس، هذا شيء لا يُصدَّق، إنه أشبه بالتعثّر في المشي من دون تعاطي المخدرات، ويحملون هذه الرسالة في رحلة عودتهم إلى قلب المدينة ويبدؤون في تشكيل مجموعات روحيّة خاصة بهم»

سأل والده «وهل يحتاج التعثُّر في المشي تقديم إحسان؟ من بين أمراض العالم كلها، تبدو حقيقة وجود عدد قليل من الناس لا يتعثّرون في المشي أشبه بحفرة هائلة يجب ردمها. ثم، إذا أراد الناس أنْ يتعثّروا في المشي، لِمَ لا نُعطيهم جرعة قوية من المُخدِّر، بدل قرع الطبول؟»

قال شيموس بشكل مُحبَّب «يمكن تخمين أنّه مُحامٍ»

قال والده «إنني أشجِّع كثيراً أنْ يكون للناس هوايات. وأعتقد أنَّ عليهم أنْ يكتشفوها وهم مُرتاحون في منازلهم»

قال شيموس «من المُحزن، يا باتريك، أنَّ بعض المنازل ليست مُريحة كثيراً»

قال والده «أعرف هذا الشعور. بالمناسبة، هل تظن أنَّ في استطاعتنا أنْ نزيل بعضاً من تلك الكتب، والإعلانات، والكرّاسات، والأشياء الأخرى»

قال شيموس «طبعاً، طبعاً»

نهضَ والده وشيموس استعداداً للمغادرة وأدركَ روبرت أنّه سوف يُترَك وحده مع جوليا.

قال، وهو يتبعهما عند منعطف المصطبة، «سأساعدكما». تقدّم والده الطريق إلى القاعة ثم توقف فجأة تقريباً.

قال «هذه الأوراق المُرفرفة، التي تعلن عن مراكز أخرى، ومؤسسات أخرى، وحلقات معالجة، ودورات قرع طبول متقدِّمة - كلها هُدِرَتْ لأجلنا»، ثم تابعَ، وهو ينزعها عن الجدار، «في الحقيقة، على الرغم من جاذبيّة سطح لوحة الإعلانات المصنوع من الفلّين هذا كلّه، ودبابيس التثبيت متعدِّدة الألوان، فلا فائدة منها هنا»

قال شيموس، مُعانقاً لوحة الإعلانات، «لا مشكلة»

على الرغم من أنَّ سلوك والده بقيَ مُنضبطاً إلى أقصى مدى، إلّا أنَّ روبرت شعر بأنه محتقن بالحنق وبالامتعاض. وبدا الاكتئاب على شيموس عندما حاول روبرت أنْ يتبيَّن مشاعره، ولكنه في نهاية الأمر تلمَّسَ طريقه نحو بلوغ نتيجة رهيبة مفادها أنَّ شيموس يُشفِقُ على والده. وبعد أنْ علِمَ شيموس أنّه أصبح هو المسؤول، باتَ في وسعه أنْ يستمتع بغضب طفل تعرَّضَ للخيانة. وقد أنقذته شفقته البغيضة من إحساسه بتأثير غضب باتريك، لكنَّ روبرت وجد نفسه عالقاً بين المطرقة والسندان، ولمّا شعر بالذعر وبأنّه عديم الفائدة، تسلّل خارجاً من الباب الأمامي، بينما تابع والده تقدُّم شيموس نحو الإهانة التالية.

في الخارج، كان ظلّ المنزل يمتدّ حتى مساكب الأزهار على حافة المصطبة، مُشيراً إلى جزء خامل من عقله وصلَ منتصف الظهيرة إليه. وانتشر زيز الحصاد. واستطاع أنْ يرى من دون أنْ ينظر، وأنْ يسمع من دون أنْ يُصغي؛ كان يُدركُ أنّه لا يفكِّر. كان انتباهه، الذي في المعتاد يقفز من شيءٍ إلى آخر، ساكناً. وضغط عليه لكي يختبر مقاومته لكنَّ الضغط لم يكن شديداً جداً، لعِلمِهِ أنَّ في استطاعته ربما أنْ يجعل نفسه كرة من جديد إذا حاول ذلك. أخذ عقله يعكس الصور، كسطح بِركَة يُكرِّر بنعاس تشكيل السماء.

الغريب في الأمر هو أنّه بتخيّله بركة بدأ يُشوِّش النشوة التي قورنت بها. والآن أراد أنْ يذهب إلى البركة التي في أعلى الدَّرَج، وكانت عبارةً عن شكلٍ نصف دائريّ يقع بعد نهاية الممشى، حيث تختبئ السمكة الذهبيّة تحت حجاب من الانعكاس. هذا صحيح؛ لم يرغب في أنْ يدور حول المنزل مع والده وشيموس، بل أراد أنْ ينثر قطعاً من الخبز على الماء ليرى إنْ كان في استطاعته أنْ يدفع تلك السمكة المنزلقة البرتقاليّة بلون دولاب الهواء إلى الظهور على السطح. فهرع إلى المطبخ وأخذ قطعة من الخبز البائت وارتقى بسرعة الدَّرَج المؤدي إلى البركة.

كان والده قد أخبره أنَّ النبع في فصل الشتاء ينبثق من أنبوب ويتدفق بقوة بين السمك المتحرك بنشاط؛ ويفيض إلى البرك المنخفضة وأخيراً إلى

الجدول الذي يجري على طول عمق الوادي. وتمنّى لو يُشاهد ذلك ذات يوم. وبحلول شهر آب يهبط مستوى البركة حتى منتصفها. ويقطر الأنبوب المكسو بالطحالب ماءً أخضر اللون. وتعجّ الدبابير وما شابهها واليعاسيب فوق سطحها المُغبرّ الدافئ، وتستقرّ على كتل سوسن الماء لكي تشرب بأمان. وكان السمك الذهبي لا يُرى إلّا إذا أغويَ بالطعام. وأفضل طريقة كانت حكّ قطعتين من الخبز البائت معاً حتى تتفتتا إلى كِسَر جافة صغيرة. ولا تغوص إلّا حُبيبات الخبز، أمّا الكِسَر فتبقى عائمة على السطح كالغبار. والسمكة الأجمل، التي رغبَ حقاً في رؤيتها، كانت تحمل على جلدها بقعاً حمراء وبيضاء. أما الباقون فيكسوهم اللون البرتقالي، ما عدا عدد قليل من السمك الأسود الصغير الذي إمّا سيستحيل إلى اللون البرتقالي لاحقاً، أو يموت، لأنه لم يكن هناك سمك أسود اللون.

كسرَ رغيف الخبز وأخذ يحكّ النصفَين معاً، وراقبَ هطل سيل من الكِسر الخفيفة يستقرّ على الماء ومن ثم ينتشر. لم يحدث أي شيء.

الحقيقة هي أنّه لم ير دوران السمك حول نفسه إلّا مرة واحدة، ومن ثم إما لا يحدث أي شيء أو تقوم سمكة واحدة بالأكل تحت الكِسر المهتزّة الغارقة.

«أيّها السمك! أيّها السمك! أيّها السمك! تعال! أيّها السمك! أيّها السمك! أيّها السمك!»

قال صوت خلفه «أتنادي على طاقتك الحيوانيّة؟»

سكتَ على الفور والتفتَ بسرعة. كان شيموس واقفاً هناك، يبتسم له بتسامُح، وقميصه الاستوائيّ يتوهّج تحت أشعّة الشمس.

هتف شيموس «أيها السمك! أيّها السمك! أيّها السمك!»

غمغم روبرت «كنتُ فقط أُطعمه»

سأله شيموس، وهو يميل مُقترباً منه، «أتشعر بأنَّ بينك وبين السمك صِلة خاصة؟ هذا ما يُسمّى الطاقة الحيوانيّة، في الواقع. وهي تساعدكَ في رحلتك على طريق الحياة»

قال روبرت «أنا فقط أحبّه لكونه سمكاً. ولا يحتاج إلى أنْ يزوّدني بأي شيء»

هزَّ شيموس يده في الهواء. «إنَّ السمك، على سبيل المثال، يحملُ إلينا رسائل من الأعماق، من تحت سطح الأشياء»، وقال دافعاً مِرفقيه إلى الخلف ومُديراً رأسه من طرف إلى طرف وعيناه مُغمضتان، «آه، الأرض هنا سحريّة. إنَّ مركز قوتي الشخصيّة في الواقع، يقع هناك في الغابة الصغيرة، بجوار حمّام العصافير. أتعرف تلك البقعة؟ كان جدُّك هو أوّل مَنْ أخبرني عنها، كان مكاناً خاصّاً بالنسبة إليه أيضاً. وفي أول رحلة لي إلى هنا تواصلتُ مع الواقع غير-العاديّ»

فجأة أدرك روبرت أنّه يبغض شيموس، ومع إدراكه هذا تبيَّن له أنّه أمرٌ حتمي.

ضمَّ شيموس يديه معاً على شكل بوق وضعه على فمه وصاح، «أيّها السمك! أيّها السمك! أيّها السمك!»

ودَّ روبرت لو يقتله. ولو كانت لديه سيارة لدهسه بها. ولو كانت لديه فأس لشقّه بها.

سمع الباب العُلويّ في المنول يُفتَح، ومن ثم صرَّ باب الوقاية من الناموس وفُتِحَ أيضاً وخرجت أمّه، حاملة توماس بين ذراعيها.

قالت أمّه بتهذيب «أوه، هذا أنت، مرحباً شيموس. كنا شبه نيام، ولم أفهم ما الذي يدفع بائع سمك متنقّل إلى الصياح هكذا في الخارج»

قال شيموس، «في الواقع، كنا نستدعي السمك»

هرع روبرت إلى أمّه، وجلستْ معه على الجدار المنخفض حول حافّة البركة، بعيداً عن موقع وقوف شيموس، وأمالتْ توماس لكي يتمكن من رؤية الماء. وتمنّى روبرت حقاً ألّا يخرج السمك إلى السطح الآن، وإلّا اعتقد شيموس ربما أنه هو الذي دفعه إلى الظهور بفعل قُدراته الخاصة. مسكين توماس، قد لا يُتاح له أنْ يرى السمك البرتقالي يدور حول نفسه، قد لا يرى أبداً السمكة الكبيرة ذات البقع الحمراء والبيضاء. كان شيموس يعمل على سرقة البركة والغابة وحمّام العصافير والمشهد الطبيعي كلّه منه. في الحقيقة، عند التفكير في الأمر، ترى أنَّ توماس تعرَّضَ للهجوم من جدَّته هو منذ لحظة ولادته. فهي لم تكن جدَّة قط؛ بل أقرب إلى زوجةِ الأب في

حكايةٍ خرافيّة، لعنته وهو في مهده. كيف دلَّتْ شيموس إلى حمّام العصافير في الغابة؟ وربتَ على رأس توماس كأنّه يحميه. وبدأ توماس يضحكُ، ضَحِكَهُ المُقرقر العميق المُدهِش، وأدركَ روبرت أنَّ أخاه لا يعرفُ حقاً هذه الأشياء التي تدفع روبرت إلى حافة الجنون، وأنّه ليس في حاجة إلى معرفتها، إلّا إذا أخبره روبرت.

مكتبة -4-

كان جوش باركر تلميذاً في صف روبرت في المدرسة. وقد قرَّرَ (قراراً خاصّاً به) أنهما صديقَان حميمَان. لا أحد غيره كان قادراً على فهم سبب كونهما لا يمكن أنْ يفترقا، وحتماً ليس روبرت بالذات. ولو كان في استطاعته أنْ يُنهي صِلته بجوش مدة كافية لقام حتماً بعقد صداقة أخرى مع صديقٍ حميم، لكنَّ جوش كان يتبعه في كل أرجاء باحة المدرسة، وينسخ عنه اختبارات الهجاء، ويجرُّه إلى منزله لشرب الشاي. وكل ما كان جوش يفعله خارج المدرسة هو مشاهدة التلفزيون. كان لديه خمسٌ وستون قناة، في حين أنّه لم تكن لدى روبرت أكثر من ثلاث قنوات. وكان والدا جوش فاحشَي الثراء، لذلك كان غالباً ما يمتلك دُمى مُذهلة قبل أنْ يسمع أي شخص آخر بها. وقد نال في عيد مولده الأخير سيارة جيب كهربائيّة حقيقيّة، مع مُشغل DVD وجهاز تلفزيون صغير الحجم. كان يقود السيارة في أرجاء الحديقة، ساحقاً الأزهار وحاول أنْ يدهس آرني، كلبه. وأخيراً ارتطمَ بشجيرة وجلسَ هو وروبرت تحت المطر يُشاهدان جهاز التلفزيون الصغير. وعندما جاء إلى شقّة روبرت قال إنّ مجموعته من الدُمى بائسة وعبَّر عن إحساسه بالضجر. وحاول روبرت أنْ يبتكر ألعاباً معه لكنّه لم يعرف كيف يبتكر أشياء. كان فقط يتظاهر بأنّه شخصيّة تلفزيونيّة مدة ثلاث ثوانٍ، ومن ثم يسقط ويصرخ، «لقد متُّ».

كانت والدة جوش، جيلي، قد اتصلتْ هاتفيّاً، قبل ذلك بيوم، وقالتْ إنها وجيم استأجرا منزلاً رائعاً في سان تروبيه من أجل قضاء شهر آب بأكمله، ولماذا لا تنضمّ عائلة روبرت إليهما لقضاء يوم من المرح واللعب. قال والداه إنَّ قضاء يوم مع شخصٍ ما، في مثل سنّه، شيء مفيد له. قالا إنها

ستكون بمثابة مغامرة بالنسبة إليهما أيضاً، لأنهما لم يُقابلا والدَي جوش إلّا مرة واحدة، في اليوم الخاصّ بممارسة الألعاب الرياضيّة في المدرسة. وحتى حينئذٍ كان جيم وجيلي منهمِكَين في إعداد أفلامٍ منافِسةٍ لسباقات يشتركُ فيها جوش بحيث لم يتكلّما كثيراً. وأرتهما جيلي كيف تستطيع آلة تصوير الفيديو أنْ تعرض الفيلم كله بالسرعة البطيئة، ولم يكن ذلك ضرورياً حقاً لأنَّ جوش جاء ترتيبه الأخير.

الآن بما أنهما كانا في الحقيقة على الطريق، بدأ والد روبرت يتبجَّح وهو يقود السيارة. بدا أشدّ تذمّراً بكثير بعد أنْ غادرتْ جوليا. لم يكد يُصدِّق أنهما يقضيان يوماً من عطلتهما النفيسة وسط حركة المرور المزدحمة، في موجة الحرّ، يزحفان في هذه «البلدة التي تُعتبَر نكتة العالم الشهيرة»

كان روبرت جالساً بجوار توماس الذي جلس في كرسي الأطفال الصغار الخاصّ به مواجهاً الاتّجاه الخطأ، لا يوجد ما يُسلّيه إلّا دُمية القماش المُبقّعة التي على المقعد الخلفيّ. أصدر روبرت صوت نباح كلب وهو يرتقي ساق توماس مُستعيناً بكلب دُمية صغير. ولم يُثِر ذلك أي اهتمام لدى توماس. تساءلَ روبرت، ولِمَ يهتمّ؟ إنّه لم يرَ كلباً حقيقيّاً بعد. وأُلفِتُ انتباهكَ إلى أنّه إنْ كان لا يهتمّ إلّا بأشياء سبقَ له أنْ رآها، فسوف تأسره مع ذلك دوّامة أضواء غرفة الولادة.

عندما عثرا أخيراً على الشارع الصحيح، كان روبرت هو الذي لمح العبارة المكتوبة بأحرف مائلة «*Les Mimosas*» مكتوبة على رقعة بسيطة من الآجرّ. سارا ببطء على الأرضيّة الإسمنتيّة المُشقّقة نحو موقف للسيارات كان مزدحماً أصلاً بمعرض سيارات جيم الخاصة الفارهة: سيارة رينج روفر سوداء، وسيارة فيراري حمراء وسيارة ذات غطاء قابل للطيّ قديمة بلون الكريم بمقاعد من الجلد المُشقَّق ورفارف دواليب منتفخة من الكروم. عثر والده على حيِّز لتوقف سيارتهما البيجو بجوار نبتة صبّار ضخمة، تبرز ألسنتها ذات الأشواك في كل اتّجاه.

قال والده «إنها دارة على الطراز الروماني الحديث زخرفها تلميذ لغوغان بمشهد غسق ورديّ اللون»، ثم قال بصوته الذهبيّ الخبير في الإعلانات،

«ماذا يمكن للمرء أنْ يطلب أكثر من هذا؟ يقع وسط مجتمع سان ترو-بيه الرائع المُسيَّج بالبوابات، الذي لا يبعد أكثر من ست ساعات من قيادة السيارة من مقبرة الحيوانات الشهيرة الخاصّة ببريجيت باردو –»

قاطعته أمّة «حبيبي»

كان هناك ربتٌ على النافذة.

قال والده بودّ، وهو يُنزِل زجاج النافذة، «جيم!»

قال جيم، بعد أنْ أنزلَ آلة تصوير الفيديو التي كان يُصوِّر بها وصولهم، «كنا ذاهبين تواً لشراء بعض الأغراض القابلة للطيّ لنضعها حول البركة. هل يرغب روبرت في الانضمام إلينا؟»

ألقى روبرت نظرة على جوش الجالس بارتخاء في الكرسي الخلفي لسيارة رينج روفر. وعرِفَ أنّه يلعب لعبة GameBoy.

قال «لا، شكراً. سوف أساعد في إخراج الأغراض من السيارة»

قال جيم «لقد أحسنتَ تدريبه، أليس كذلك؟ إنَّ جيلي هي عند طرف البركة، تتشمّس. فقط اتبعوا درب الحديقة»

ساروا خلال ممرٍّ مُعمَّد مبيَّض بالجير ومرسوم عليه لوحات جداريّة للمحيط الهادئ، ثم انتقلوا إلى مرجٍ كالإسفنج يؤدي إلى البركة، المُستترة بأكملها تحت أسطول صغير من الزرافات القابلة للنفخ، وأجهزة إطفاء، وكرات القدم، وسيارات السباق والهامبرغر، والشخصيات الكرتونيّة ميكي، ومينيز وغوفي، وكان والده مائلاً إلى جنبه تحت عبء كرسي الطفل الذي كان توماس لا يزال نائماً عليه، وأمّه أشبه ببغل، منتفخة على جنبيها بحمل الحقائب. كانت جيلي متمددة بسكون على كرسي التشمُّس، يحدّها من الجانبين شخصَان غريبان لامعان، والثلاثة يضعون سماعات الموسيقى مزوّدة بهوائيات الهواتف المحمولة. جعل ظل والده الذي امتدَّ على وجه جيلي المسفوع بالشمس إلى النهوض.

قالتْ، وهي تنزع سماعات الأُذُن «مرحباً! أنا آسفة، كنتُ مستغرقة في عالمي الخاصّ»

نهَضَتْ لكي تحيّي الضيوف، ولكن سرعان ما تراجعت بحركة مترنحة، وهي تُحدّق إلى توماس، ويدها ممدودة على قلبها.

شهقتْ «أوه، يا إلهي، ابنكم الجديد جميل. أنا آسفة، يا روبرت»، وغرزَت أظافرها الطويلة اللامعة في كتفيه لكي تُعينه على الثبات. «لا أريد أنْ أُثير لهب المنافسة بين الأطفال، لكنَّ أخاك الصغير استثنائيّ»، ثم قالت، وهي تنساب نحو الأسفل إلى توماس، «كم أنتَ استثنائيّ!»، ثم حذَّرَتْ أمّه، «سوف يُثير غيرتك القاتلة عندما سترتمي الفتيات عند قدميه. انظري إلى رموش العينين تلك! هل ستنجبين طفلاً آخر؟ لو كان طفلي سيأتي جميلاً هكذا، فسوف أُنجبُ على الأقلّ ستة. أبدو طمّاعة، أليس كذلك؟ ولكن لا حيلة لي، إنّه غاية في الجمال. لقد جعلني أنسى نفسي، أنا لم أعرفّكم بعد على كريستين وروجر. وكأنهما يأبهان. انظري إليهما، إنهما في عالم خاصٍ بهما. هيا، استيقظا!» وتظاهرتْ برفس روجر. وقدّمتهما، «روجر هو شريك جيم في العمل، وكريستين من أستراليا. إنها حبلى بأربعة أشهر»

هزَّتْ كريستين لتوقظها.

قالتْ كريستين «أوه، مرحباً، هل وصلوا؟»

قامت جيلي بتقديم الجميع.

قالتْ تشرح لكريستين «كنتُ أخبرهم تواً عن حَمْلك»

قالت كريستين «أوه، نعم. في الواقع، أعتقد أننا في حالة إنكار تام له. أشعر بأنني أثقل وزناً بقليل، لا أكثر، وكأنني شربت أربعة ليترات من المياه المعدنيّة، أو ما شابه. أعني، إنني لا أشعر حتى بالغثيان في الصباح. قبل أيام قال روجر «هل ترغبين في الذهاب للتزلج في شهر كانون ثاني؟ لأنني سأكون في سويسرا في عمل على أي حال»، فقلت «طبعاً، ولِمَ لا؟»، ونسينا كلانا أننا في ذلك الأسبوع من المُفترَض بي أنْ ألِدْ!»

هَدَرَت جيلي بالضحك وأدارت عينيها باتجاه السماء.

قالت كريستين «أعني، أيُسمّى هذا شروداً، أم ماذا؟ وبالمناسبة، إنَّ الحَبَل يؤثِّر على العقل»

قالت جيلي، مُشيرة إلى والدة ووالد روبرت، «انظري إليهما، إنهما مذهولان - إنهما أبوان مُحبّان»

احتجَّتْ كريستين «وكذلك نحن. أنتِ تعلمين كيف نعامل ميغان»، ثم شرحتْ للضيوف، «ميغان في عمر السنتين. تركناها مع والدة روجر. لقد اكتشفت الغضب تواً – أنت تعلمين كيف يكتشفون الانفعالات ومن ثم يلجؤون إليها باستمرار، إلى أنْ ينتقلوا إلى التي تليها»

قال والد روبرت «شيء مُدهِش. إذن أنتِ لا تعتقدين أنَّ للانفعالات أي صِلة بمشاعر الطفل – أي أنّها مجرد طبقات في حفريات جيولوجيّة. ومتى يكتشفون الفرح؟»

قالت كريستين «عندما تأخذهم إلى مدينة الألعاب»

انتعشَ روبرت منتشياً، وأمسك بسمّاعتَي الأُذُن.

«أو، مرحباً. آسف، لديّ مكالمة»

نهَضَ واقفاً وأخذ يقطع أرض المرج.

سألتْ جيلي «هل أحضرتم مربّيتكم؟»

قالت والدة روبرت «ليست لدينا مُربّية»

قالت جيلي «هذه شجاعة منكما. لا أعلم ماذا سأفعل من دون جو. لم يمضِ على وجودها معنا أكثر من أسبوع ومع ذلك أصبحتْ فرداً من العائلة. يمكنكِ أنْ تعتمدي عليها في كل شيء، إنها رائعة»

قال أماه «نحن نحب أنْ نعتني بهم بأنفسنا»

هتفتْ جيلي «جو! جو-و-ي!»

قال روجر «أخبريهما بأنه منصب من الراحة المختلطة. لا تُعطيهما المزيد من التفاصيل في هذه المرحلة»

كررتْ جيلي الهتاف «جو! يا لها من عاهرة كسول. إنها تهدر اليوم بأكمله في التحديق ببلاهة إلى مجلة» *هالو!* «وفي أكل المثلجات. يمكن القول إنها تشبه قليلاً مُستخدمها، إحم-إحم، لكن ذلك يُكلّفني ثروة، في حين أنها هي التي تتلقّى أجراً»

قال روجر «لا يهمني ماذا أخبروا نايجل، فهذا ليس من شأنهم اللعين. ويجب أنْ يكفّوا عن التدخُّل في الأمر»

جاء جيم قاطعاً المرج بخُطى واسعة، متوهّجاً بإنجازه تسوُّقاً ناجحاً. ومن خلفه جوش القصير والبدين، أشبه بكتلة من القدمين تتقدمان جرّاً. أخرجَ جيم منفاخاً لكرة القدم وفرشَ المادة البلاستيكيّة لغرض آخر على بلاط الأرضيّة المجاور للبركة.

سألتْ جيلي، مُحدِّقة بغضب إلى المنزل، «ماذا أحضرتَ له؟»

قال جيم، وهو يُبرِز قمعاً من مثلجات بنكهة الفريز، «أنت تعلمين كم هو مولع بالمثلجات. لذلك أحضرتُ له مثلجات لايون كينغ»

قال جوش متحذلقاً، «ومدفعاً رشّاشاً»

قال جيم لوالد روبرت، وهو يهزّ ذقنه باتجاه روجر، «إنَّ هيئة الدخل العام تلاحقه. قد يحتاج إلى نصيحة قانونية في أثناء تناول وجبة الغداء»

قال والده «أنا لا أعمل في أثناء قضاء عطلتي»

قالت والدة روبرت «أنت لا تعمل كثيراً خارج أوقات العُطل»

قال جيم، وهو يُصور ذوبان قرن مثلجات الفريز على الأرض بآلة التصوير، «أوه، بل إلهي، هل أتبيَّن خِلافاً زوجيّاً؟»

زعقتْ جيلي «جو!»

هتفتْ فتاة ضخمة الجثة ذات نمش وترتدي بنطلوناً قصيراً من الكاكي ظهرتْ من المنزل، «أنا هنا». رقصَتْ على صدر قميصها الرياضيّ وهي تقفز على المرج عبارة «مستعدٌ لها».

استيقظ توماس وبدأ يزعق. مَنْ يستطيع أنْ يلومه؟ آخر شيء كان يتذكّره هو وجوده في السيارة مع عائلته الحبيبة، وها هو الآن مُحاط بغرباء ذوي عيون مُطفأة يصرخون؛ قطيع متوتر من الوحوش تتلاطم مشرقة في الهواء العبِق برائحة الكلور، وكان هناك آخر ينتفخ عند قدميه. وروبرت أيضاً لم يتحمّل المشهد.

قالت جو، مائلة فوق توماس، «مَنْ هذا الشاب الجائع؟»، وقالتْ لوالدة روبرت «أوه، أليس جميلاً؟ إنّه صاحب روح حكيمة، هذا واضح»

قالت جيلي «اجعلي هذين الاثنين يشاهدان شريط فيديو، لكي نحصل على بعض السكينة والهدوء. وأرسلي غاستون مع زجاجة نبيذ روزيه»،

ثم وجّهتْ كلامها إلى والدة روبرت، «سوف تحبّين غاستون. إنّه عبقريّ. طاه فرنسيّ حقيقيّ من الطراز القديم. لقد زاد وزني حوالي ثلاثة أحجار[1] منذ وصولنا، وهذا فقط قبل أسبوع واحد. لا عليك. سوف يأتي هاينريش لنجدتنا بعد الظهيرة – إنه المُدرِّب الشخصيّ، فحلٌ ألمانيّ ضخم الجثّة، يُعطيك تمارين رياضيّة مناسِبة. يجب أنْ تنضمي إليّ، سوف يُساعدك على استعادة قوامك بعد الإنجاب. وهذا لا يعني إنكِ لا تبدين رشيقة»

سألتْ أمّه روبرت «أهذا ما تريد، أنْ تشاهد شريط فيديو؟»

قال، مع توقٍ شديد إلى الابتعاد، «نعم، طبعاً»

اعترفَ والده «من الصعب تخيُّل أنّه يسبح، مع وجود كل ذلك الطعام القابل للنفخ[2] في البركة»

قالت جو، مادّة يداً نحو كل جهة، «هيا بنا!». بدا أنها تعتقد أنَّ كلاً من جوش وروبرت سيُمسك بإحدى يديها ويرتقيان التل معها.

صاحت جو، في نوبة من مُحاكاة الانتحاب، «ألن يُمسك أحد بيدي؟»

أمسك جوش يدها بيده البدينة، لكنَّ روبرت نجح في البقاء حرّاً، ولحقَ بهما من مسافة قصيرة، مفتوناً بمؤخرة جو البارزة التي ترتدي الكاكي.

قالت جو، مُصدرة أصواتاً مُخيفة، «ها نحن نلج كهف الفيديو. حسن! ماذا ترغبان أنتما الاثنين في المُشاهدة؟ ولا أريدكما أنْ تتشاجرا»

صاح جوش «أريد مشاهدة «*مغامرات السندباد*»»

قالت جو «مرة أخرى! يا إلهي!»، ولم يسع روبرت إلّا أنْ يتّفق معها. كان يحب أنْ يُشاهد شريط فيديو جيداً خمس مرات أو ستّ، ولكن لمّا كان يحفظ الحوار عن ظهر قلب وكانت كل لقطة أشبه بدُرج ممتلئ بجوارب متشابهة، بدأ يشعر بوخز النفور. أمّا جوش فكان الأمر معه مختلفاً. كان يبدأ بما يُشبه النهم المتجهِّم لمشاهدة فيديو جديد ولا يتولّد عنده حماس

1- الحجر: وحدة وزن بريطانيّة تعادل 14 رطلاً إنكليزيّاً – المترجم.

2- المقصود هنا الدُمى البلاستيكيّة التي على شكل أنواع من الأطعمة القابلة للنفخ ويستخدمها الأطفال في العوم في الماء – المترجم.

حقيقيّ إلّا بعد مشاهدته للمرة العشرين. كان الحب، العاطفة التي لم يكن يتعامل معها باستخفاف، مُخصّصاً لمشاهدة «*مغامرات السندباد*»، الذي شاهده حتى الآن أكثر من مائة مرة، وشاهده مع روبرت في قسم كبير منها. كانت مشاهدة أشرطة الفيديو هي بمثابة أحلام يقظة جوش، أما حلم يقظة روبرت فكان العزلة؟ كيف يمكن أنْ يهرب من كهف الفيديو؟ عندما تكون طفلاً لا أحد يدعكَ وشأنك. إذا فرَّ الآن، فسوف يُرسلون فريقاً للبحث عنه، سوف يُحاصرونه ويقومون بتسليته حتى الموت. ربما يستطيع أنْ يبقى هناك ويفكّر بينما مُخيّلة جوش المُستعارَة تومض على الجدار. كان أنين دوران العرض يُصبح بطيئاً وكان جوش قد انهارَ داخل الحفرة التي أحدثتها وجبة إفطار المُشاهدة واستأنفَ مضغ فطائر الجبن البرتقاليّة البرّاقة المُبعثرة على الطاولة المجاورة له. بدأتْ جو عرض الشريط، بعد أنْ أطفأتْ الأنوار وغادرت خلسة. لم يكن جوش مُخرِّباً سريعاً: فلم يكن يُسمَح للتحذير حول قرصنة الفيديو، والإعلانات عن أفلام سبقَ له أنْ شاهدها، والإعلانات عن عروض شراء دُمى كان قد تخلّى عنها أصلاً، ورسالة سلطة معايير عرض الفيديو - لم يكن يُسمَح لها بالمرور من أمامه كمرور العديد من مشاهد الضواحي القبيحة من أمام قطار ينطلق داخل الكآبة البليدة للريف الواقعيّ؛ كانت بحدّ ذاتها مُثيرة للإعجاب، وتتصِف بهيبتها الخاصّة، وتناسب روبرت كثيراً، بما أنَّ التفاهة التي تتدفّق الآن من الشاشة مألوفة إلى درجة أنّها لم تؤثّر على انتباهه البتّة.

أغمضَ عينيه وترك جحيم ما يجري حول البركة يتلاشى. وبعد مرور بضع ساعات أمضاها مع أناسٍ آخرين، كان عليه أنْ يتخلّص من أكوام الانطباعات بطريقة ما؛ بأداء شخصيات، أو بمعرفة كيف تجري الأمور، أو فقط بإفراغ ذهنه. وإلّا تراكمتْ الانطباعات لديه بكثافة خطرة وشعرَ كأنه يوشك أنْ ينفجر.

أحياناً، وهو متمدِّد على السرير، تخترقُ كلمةٌ كـ «خوف» أو «أبديّة» سقف المنزل وتسحبه إلى قلب الليل، مروراً بالنجوم التي اتّخذَتْ شكل دبة ومحاريث، ثم إلى قلب ظلام دامس انعدَمَ فيه كل شيءٍ ما عدا الإحساس بالعدم. ومع انحلال بذرة الذكاء الصغيرة، استمرَّ بالشعور بحوافها المحترقة،

وبقشرتها المُمزّقة، وبعد أنْ تجزّأتْ البذرة كان هو الأجزاء المتناثرة، وعندما تحولت القطع الصغيرة إلى ذرّاتْ أصبحَ هو الأجزاء المتناثرة نفسها، تكتسب قوّة بدل أنْ تتلاشى، كطاقةٍ شريرةٍ تتحدّى تلاشي كل شيء وتتغذّى على النفايات، وسرعان ما يُصبح الفضاء كلّه اندفاعاً يتغذّى على النفايات ولا يتبقّى فيه حيِّز للعقل الإنسانيّ؛ ولكن ها هو، ما زال يشعر.

سوف يقطع الرواق المؤدي إلى غرفة نوم أبويه، يكاد يختنق. سوف يفعل كل ما من شأنه أنْ يوقِفَ ذلك، سوف يوقِّع أي عقد، ويتعهّد بأي شيء، لكنه كان يعلم أنَّ لا فائدة من ذلك، كان يعلم أنّه رأى شيئاً صحيحاً، وأنه لا يستطيع تغييره، يستطيع فقط أنْ يتجاهله فترة من الوقت، أنْ يبكي بين ذراعَي أمّه، ويدعها تُعيد السقف إلى مكانه وتُعرِّفه إلى بعض الكلمات الأشدّ رقة.

هذا لا يعني أنّه كان تعيساً. كل ما في الأمر أنّه شاهد شيئاً كان أحياناً صحيحاً أكثر من أيِّ شيءٍ آخر شاهدَه أوّل مرة عندما أُصيبتْ جدّته بسكتة دماغيّة. لم يرغب في التخلّي عنها ولكنها كانت عاجزة عن الكلام وهكذا أمضى الكثير من الوقت يتخيّل ما تشعر به. الجميع قالوا إنَّ عليكَ أنْ تكون وفيّاً، ولذلك التزم بهذا. هو لم يحبّ ذلك لكنّه لم يتخلّ عنه. وأدركَ أنّها خائفة. كانت عيناها مُعتمتين. وكان جزءٌ منها مرتاحاً: لطالما واجهتْ صعوبة في التواصُل، والآن لا أحد توقّعَ منها أنْ تبذل أيّ مجهود. وكان جزءٌ منها قد انتهى، عاد ربما إلى المنبع، أو على الأقلّ أضحى بعيداً عن المستوى الماديّ الذي انتابتها حوله شكوكٌ مُزمنة. والذي استطاع أنْ يقترب منه هو الجزء الذي تبقّى منها ليتساءل، الآن بعد أنْ لم يعُد في استطاعتها أنْ تحتفظ بكل تلك الأسرار، إنْ كانت ترغب في الاحتفاظ بتلك الأسرار أصلاً. لقد شتَّتها المرض شذراً كتطايُر بذور من قرص زهرة الهندباء الدوّار. وتساءلَ إنْ كان سينتهي به الأمر إلى مثل تلك النهاية، إلى حفنة من البذور تلتصق بفرعٍ مكسور.

قال جوش، المبتلي بالحب، «هذا هو الجزء المُفضّل لدي». كان القراصنة يرتقون سفينة السندباد. وطار ببغاء السفينة في وجه القرصان بتقاطيعه الخسيسة. تمايل ودار لا يعرف كيف يتوجّه وقام رجال سندباد بدفعه بكل سهولة خارج السفينة. ثم لقطة تبيِّن الببغاء يزعق مسروراً.

قال روبرت «هممم. اسمع، سوف أعود بعد قليل»

لم يولِ جوش أيّ اهتمام لمغادرته. وقام روبرت بالبحث عن جو على طول الرواق، لكنّه لم يجدها. واقتفى أثر الدرب الذي جاؤوا منه، وعندما وصل إلى باب الحديقة، وجد أنَّ البالغين كلهم قد انفضّوا من حول البركة. فتسلّل إلى الخارج وتسلَّل إلى خلفيّة المنزل. كان المرج المجزوز قد تحول إلى سجادة من إبر الصنوبر مع حاويتَي قمامة كبيرتين. جلسَ وأسند ظهره إلى اللحاء المُضلَّع لشجرة صنوبر، لا يُراقبه أحد.

تساءلَ مَنْ الذي كان يُبدِّد مُعظم الوقت بقضاء يوم مع آل باكر، بالإضافة إلى أفراد آل باكر أنفسهم الذين كانوا دائماً يهدرون من الوقت أكثر من أي شخص آخر، وغالباً كان في حوزتهم فيلم سينمائيّ يُثبت ذلك. لم يكن عمر توماس يتجاوز الستين يوماً، لذلك كان هذا أكبر هدر للوقت بالنسبة إليه، لأنَّ يوماً واحدة يُشكِّل سُدس حياته، في حين أنَّ والده، البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، كان يُبدِّد أقلّ نسبة من حياته. حاول روبرتْ أنْ يحسِب النسبة التي يُشكّلها يومٌ واحدٌ من حياة كلٍ منهم. كان صعباً عليه أنْ يحتفظ بالحسابات في ذهنه، لذلك تخيّلَ أحجاماً متنوّعة من الدواليب في ساعة حائط. ثم تساءلَ كيف يضمّ إليها حقائق مُضادة: حقيقة أنَّ ما زال أمام توماس الحياة بأكملها، في حين أنَّ القسم الأكبر من حياة أبويه أصبح خلفهما، بحيث أنَّ يوماً واحداً لا يُشكِّل هدراً بالنسبة إلى توماس لأنَّه تبقّى لديه الكثير من الأيام. وهذا أوجدَ مجموعة جديدة من الدواليب - حمراء وليس فضيّة - دولاب والده يدور ودولاب توماس يدور مع تكّة مهيبة غير مُنتَظَمَة. كان لا يزال عليه أنْ يُضمِّن السِمات المتنوعة للمعاناة والفوائد المتنوعة لكلٍ منها، لكنَّ هذا جعل آلته شديدة التعقيد وهكذا قرَّر، بحركة واحدة صحيّة، أنهم جميعاً يُعانون على قَدَم المُساواة، وأنَّ لا أحد منهم حصل على أي شيء من ذلك، مما يجعل قيمة يوم واحد صفراً مُطلَقاً. وشعر بارتياح هائل وعاد يتخيّل القضبان التي تصل بين مجموعتَي الدواليب. وبدا كل شيء أشبه بآلة بخاريّة ضخمة في متحف العِلم، ما عدا أنه خرج من طرفها ورقة دُوِّنَ عليها رقم وحدات النفاية. واتّضحَ، عندما قرأ الأرقام، أنه كان يهدر من الوقت أكثر من أي شخص آخر. وارتعبَ من

النتيجة، ولكن في الوقت نفسه فرح كثيراً. ثم سمِعَ صوت جو المُخيف يهتفُ باسمه.

للوهلة الأولى جمد في مكانه مرتبكاً. كانت المُشكلة هي أنَّ الاختباء سوف يجعل فريق البحث أشد توتراً وغضباً. وقرَّر أنْ يتصرَّف بطريقة عاديّة وينعطف بتمهُّل عند الزاوية بالضبط في الوقت الذي صرخت جو باسمه للمرة الثانية.

قال «مرحباً»

«أين كنت؟ بحثتُ عنكَ في كل مكان»

قال «هذا غير صحيح، وإلّا كنتِ عثرتِ عليّ»

قالت جو «لا تحاول أنْ تدّعي الذكاء معي، أيّها الشاب. هل تشاجرتَ مع جوش؟»

قال «كلا. كيف يمكن لأي شخص أنْ يتشاجر مع جوش؟ إنه مجرد لطخة»

قالت جو «إنّه ليس لطخة، إنّه صديقك الحميم»

قال «كلا، هو ليس كذلك»

قالتْ جو «إذن كنتَما *حقاً* تتشاجران»

أصرَّ «لم نتشاجر»

«حسن، على أي حال، لا يمكنك أنْ تخرج هكذا»

«ولِمَ لا؟»

«لأننا كلنا قلقنا عليك»

علَّقَ «إنني أقلق على والديّ عندما يسافران، لكنَّ ذلك لا يمنعهما من السَّفَر. ولا ينبغي أنْ يحدث هذا»

كان حتماً يُحقق فوزاً في المناقشة. وفي الحالة الطارئة، يمكن لوالده أنْ يُرسل روبرت إلى المحكمة بالنيابة عنه. وتخيَّل نفسه يضع الشَعر المُستعار، ويجعل هيئة التحكيم تنحاز إلى وِجهة نظره، ولكنَّ جو جلستْ القرفصاء أمامه وأخذتْ تُدقِّق النظر في عينيه.

سألته «هل يُسافر أبواك كثيراً؟»

قال «ليس كثيراً»، ولكن قبل أنْ يتمكّن من أنْ يُخبرها بأنهما أبداً لم يغيبا معاً عن المنزل لأكثر من حوالي ثلاث ساعات، وجد نفسه يرتمي بين ذراعيها ويضغط نفسه على عبارة «مُستعدٌ لها»، من دون أنْ يفهم بدقّة معناها. وقد اضطرّ إلى إدخال قميصه إلى مكانه من جديد بعد أنْ أخرجته من بنطلونه بتدليكها المواسي لظهره.

سألها بعد أنْ استعاد أنفاسه، «ماذا يعني «مُستعدٌ لها»؟»

قالتْ، بعينين مندهشتين، «لا عليك. هيا! الغداء جاهز!»

قادته إلى المنزل. لم يعُد يستطيع أنْ يرفض الإمساك بيدها الآن بعد أنْ أصبحا عمليّاً عاشقَين.

كان هناك رجل واقف بجوار مائدة الغداء يلبس مئزراً.

قالت جو مؤنِّبة، «غاستون، إنكَ تُفسِدنا بتدليلنا. لقد ازداد وزني بمجرّد النظر إلى هذه الكعكات. يجب أنْ يكون لك برنامجك التلفزيونيّ الخاصّ بك. إنَّ ظهورك على شاشة التلفزيون، يا غاستون، سوف يجلب لك الكثير من النقود. رائع!»[1]

كانت المائدة زاخرة بزجاجات النبيذ الورديّ، اثنتان منها فارغتان، وبتشكيلة من كعك القستر تحتوي على قطع صغيرة من البصل، كعكة قستر تعلوها قطع بندورة وكعكة قستر تعلوها قطع من صفوة الخضروات.

وحده توماس كان آمناً، يتغذّى من صدر أمّه.

قالت جيلي «إذن جمعت الضالين». ومسحتْ الهواء بيدها وراحت تغني. «اجمعهم! أحضرهم! يا روو-هايد!»

شعر روبرت بوخز الارتباك يجتاح جسده كله. لا بُدَّ أنَّ كون المرء شبيهاً بجيلي شيء مُربك.

قالت جو متحدية أمّه، «إنه متعوّد على أنْ يكون وحده كثيراً، أليس كذلك؟»

قالتْ أمّه، غير مُدركة أنَّ جو تعتقد أنّه وكأنّما يُقيم في ميتم، «نعم، عندما يرغبُ في ذلك»

1- قالت الجملة الأخيرة بخليط من الإنكليزيّة والفرنسيّة الركيكة - المترجم.

قالتْ جيلي، وهي تملأ الأطباق بالطعام، «كنتُ أخبر والديك تواً بأنَّ عليهما أنْ يأخذاك لمشاهدة بابا نويل الحقيقيّ. بطائرة كونكورد من غاتويك في الصباح، إلى لابلاند، حيث عربات الثلج تنتظر، وووش تنزلق، وبعد ذلك بعشرين دقيقة تصبح في كهف بابا نويل. إنه يمنح الأطفال هدايا، ثم تعود على متن الكونكورد وتكون في المنزل في موعد العشاء بالضبط. إنه، كما تعلم، في الدائرة القطبيّة، وهذا يُضفي عليه سِمةً أكثر واقعيّة من السخرية منه في مخازن هارود»

قال والده «يبدو ذلك مُثقِّفاً، ولكنْ أعتقد أنَّ رسوم المدرسة ستكون لها الأولويّة»

قال جيم «سوف يغتالنا جوش إذا لم نأخذه»

قال والده «لا يُفاجئني هذا»

أصدر جوش ضجيج انفجار هائل وسدَّد لكمة للهواء.

صرخ «كسر حاجز الصوت»

سألتْ جيلي روبرت «أي نوع من هذه الكعكات يُعجبك؟»

بدا الاشمئزاز على الجميع بقدر متساوٍ.

ألقى نظرة سريعة إلى أمّه التي كان شَعرها النحاسيّ ينهمر مباشرة فوق توماس الذي يرضع، وشعر كأنهما يمتزجان معاً كطمي مُبلَّل.

قال «أريد ممّا يحصل عليه توماس». لم يقصد أنْ يقول ذلك بصوتٍ مرتفع، لكن الكلام أفلتَ منه.

نهقَ جيم، وجيلي، وروجر، وكريستين، وجو وجوش كقطيعٍ من الحمير. بل إنَّ روجر بدا أشدّ غضباً وهو يضحك.

قالت جيلي، رافعة كأسها وهي سكرى، «نوعي المُفضَّل هو حليب الثديّ»

ابتسم والداه له متعاطفَين.

قال والده «أخشى أنكَ الآن أصبحتَ تقتات على المواد الصلبة، أيها الرجل الكبير. لقد تعوّدتُ على أنْ أتمنى لو أنني أصغر سناً، لكنني لم أتوقَّع منك أنْ تبدأ تَمَنِّي هذا منذ الآن. فما زال متوقّعاً منك أنْ تتمنّى لو أنكَ أكبر سناً»

تركته أمّه يجلس على حافة كرسيها وقبّلته على جبينه.

طمأنتْ جو أبويه، اللذين كانت تعلم أنهما لم يريا طفلاً من قبل، «هذا شيء طبيعي تماماً. في المعتاد هما لا يتصرّفان بشكلٍ مُباشَر بهذا الشأن، هذا كل ما في الأمر» وسمحتْ لنفسها بإطلاق آخر دفعة من الضحك.

أشاح روبرت بوجهه بعيداً عن الضحك الدائر حوله وحدَّق إلى أخيه. كان فم توماس ينهمك ثم يهدأ ثم ينهمك، يرضع الحليب من ثدي أمّه. ووَدَّ روبرت لو كان في مكانه، ملتفاً حول نفسه في قلب أحاسيسه، قبل أنْ يتعرَّف على أشياء لم يرها أبداً من قبل - طول نهر النيل، وحجم القمر، وما يرتدي الناس في حفلات الشاي في بوسطن - قبل أنْ يُقصَف بإعلانات البالغين، ويقيس تجربته على أساسها. أراد أنْ يكون هناك أيضاً، لكنّه أراد أنْ يُقاسِمه إحساسه بذاته، والمشاهدة المختلسة للشيء نفسه الذي ليس عليه شهود. وتوماس لم يكن يشاهد نفسه وهو يقوم بما يقوم به، كان فقط يقوم به. كان الانضمامُ إليه هناك حيث وقفَ روبرت حينئذٍ مهمّةً مستحيلة، كأداء حركة الشقلبة والوقوف بثبات في وقتٍ واحد. ولطالما تأمّلَ عميقاً في تلك الفكرة وعلى الرغم من أنَّ الأمر لم ينته به إلى الاعتقاد بأنَّ في استطاعته أنْ يقوم بذلك، إلّا أنّه شعرَ بأنَّ الاستحالة تتراجع مع ازدياد توتر عضلات مُخيّلته، كغطّاسٍ يقفُ على الحافة القُصوى للوح الخشب قبل أنْ يقفز. كان هذا كل ما في استطاعته أنْ يفعل: أنْ يغوص في الجو المُحيط بتوماس، ويترك رغبته في الملاحظة تزول مع اقترابه أكثر من الأرض التي يُقيم توماس عليها، وحيث كان هو أيضاً قد أقام ذات يوم. ولكن بات من الصعب القيام بذلك الآن، لأنَّ جيلي عادتْ إليه من جديد.

اقترحتْ قائلة «لِمَ لا تُقيم معنا هنا، يا روبرت؟ يمكن لجو أنْ تعيدك بالسيارة غداً. سوف تستمتع أكثر باللعب مع جوش من الذهاب إلى منزلك والشعور بالغيرة العمياء من أخيك المولود الجديد»

قام بالشدّ على ساق أمّه من فرط اليأس.

أخيراً عاد غاستون، وشتَّتْ انتباه جيلي بحلوى بعد الطعام، بكتلة القستر اللزجة وسط بقعة من الكراميل.

اشتكت جيلي، وهي تضرب رسغه القويّ، الذي يخفق البيض، «غاستون، أنتَ تدمّرنا»

مال روبرت مقترباً من أمّه، وهمس في أُذنها، «أرجوك دعينا نرحل من هنا»

ردّتْ عليه همساً «بعد الغداء مباشرة»

قالت جيلي، وهي تجعّد أنفها، «هل يناشدك؟»

قالت أمّه «في الواقع نعم»

أصرّت جيلي «هيا، دعيه يقضي الليلة هنا»

قالتْ جو، وكأنَّ هذا الكلام غير مألوف، «سوف نعتني به»

قالت أمّه، «أخشى أننا لا نستطيع. يجب أنْ نذهب لزيارة جدَّته في مأوى العجزة الذي تنزل فيه»، من دون أنْ تذكر أنهم سيذهبون إلى هناك بعد ثلاثة أيام.

قالت كريستين «أمر غريب. لا يبدو أنَّ ميغين تشعر بالغيرة حتى الآن»

قال والده، «امنحيها فرصة. إنها لم تكتشف الغضب إلّا حديثاً»

ضحكتْ كريستين. «نعم. ربما لأنني لا أمتلك حقاً أمر حملي»

تنهّد والده «ينبغي أنْ يكون هذا عاملاً مُساعداً». فهمَ روبرت أنَّ والده أصبح يشعر بضجر شديد. وفور انتهاء تناول وجبة الغداء، أسرعوا بمغادرة آل باكر بصورة نادراً ما تُشاهَد إلّا في فرقة الإطفاء.

قال، وهم يلجون سيارتهم ويبتعدون، «أكاد أموت جوعاً»

وانفجروا كلهم ضاحكين.

قال والده «لن أحلم بانتقاد اختيارك لأصدقائك، ولكن أما كان من الأفضل لنا أنْ نُحضِر شريط الفيديو بدلاً عنه»

قال روبرت مُحتجّاً «أنا لم أختره، هو الذي... تمسّك بي»

لمحَ مطعماً على جانب الطريق تناولوا فيه غداءً متأخّراً يتألّف من نوع ممتاز من البيتزا مع السلطة وعصير البرتقال. واضطرَّ المسكين توماس إلى شرب الحليب من جديد. هذا كل ما كان يحصل عليه، حليب، ثم، حليب، ثم حليب.

قال والد روبرت «المُفضَّل لدي هو خطاب مقرّ البرلمان. «وتلبَّسَ صوتاً شديد السُخف، لا يُشبه كثيراً صوت جيلي لكنّه يمثّل موقف جيلي»» عندما اشتريناه بدا هائل الحجم، ولكن بعد أنْ أفردنا جنَاح الضيوف وغرفة التمارين وحمّام الساونا وغرفة المكتب ومقر العرض السينمائي، كما تعلمون، لم يتبقَّ الكثير من المساحة.

سأل والده، مذهولاً، «مساحة من أجل ماذا؟ مساحة للمساحة. هذه هي المساحة للمساحة، من أجل الحصول على مساحة. في المرة التالية التي نرتقي علّاقة المعاطف في لندن لكي ننام كما تفعل الخفافيش، فلنشكر الله على أننا لسنا بعيدين عن الحضارة الحقيقيّة بأكثر من بضع غرف نوم، لكننا نبعُد بمقدار مساحة عن المساحة»[1].

تابع والده مُحاكياً جيلي بسخرية، «قلتُ لجيم، «آمل أنْ نتمكن على دفع تكاليف هذا، لأنني أحبّ أسلوب الحياة – المطاعم، والعُطل، والتسوُّق – ولن أتخلى عن هذه الأشياء. وقد طمأنني جيم بأننا نستطيع أنْ نتحمّل تكاليف كليهما»»

قال والده – وكان هذا أشدّ ما يُثير الضحك – «إنه يعلم أننا إذا لم نتمكن من تحمُّل التكاليف، فسوف أطلب الطلاق منه . ولا يمكن تصديقها. بل إنها حتى ليستْ جذّابة»

قالتْ أمّه، «إنها مُذهلة. لكنني شعرتُ وسط أسلوبهم الهادئ أنَّ كريستين وروجر سوف يدفعان مبالغ طائلة. وعندما قلتُ إنني في المعتاد أتحدث مع أطفالي عن حملي، قالت – وتلبَّسَت أمّه لكنة أستراليّة حادة – «مهلاً! إنَّ الطفل وُلِدَ تواً. ولن أتحدث مع حملي. يمكن لروجر أنْ يقتلني إذا فعلت»»

تخيَّلَ روبرت أمّه تتحدث معه وهو ما زال حبيس رحمها. طبعاً ما كان يمكن أنْ يفهم معنى كلماتها، لكنّه كان متيقّناً من أنّه سيشعر بتيارٍ يتدفّق بينهما، تقلُّصُ الخوف، وامتداد التصميم. كان توماس لا يزال قريباً من تحوّلاتِ الشعور تلك؛ أما روجر فكان يحصل على شروح بدل ذلك. كان

1- في هذه الفقرة هناك تلاعب ساخر من كلمة Room، فبالإضافة إلى أنها تعني «غرفة» هي تعني أيضاً «حيِّز ومساحة» – المترجم.

توماس لا يزال يعرف كيف يفهم لغة الصمت التي فقدها تقريباً روبرت عندما رضَخَتْ الهوامش الجامحة لعقله لهيمنة الإمبراطوريّة اللفظيّة. كان واقفاً على حافة شاهقة، يوشك أنْ يندفع إلى أسفل التلّ، وتزداد سرعته، وطول قامته، ويحصل على المزيد من الكلمات، وعلى شروحٍ أكبر فأكبر، ويبتهج طوال الوقت. الآن دفعه توماس إلى النظر برهة إلى الخلف وإنزال سيفه عندما لاحظ أيضاً كل ما كان قد فَقَدَه. لقد انهمكَ بعمق في بناء الجُمل حتى كاد ينسى الأيام الهمجيّة عندما كان التفكير في أثنائها أشبه برذاذ من الألوان ينتشر على صفحة من الورق. وعندما استعاد الماضي، كان لا يزال يتذكّر: العيش فيما كان يمكن أنْ يبدو الآن فترات توقف؛ عندما تفتح الستائر أول مرَّة وترى المشهد العام كلّه مكسوّاً بالثلوج وتحبس أنفاسك وتتوقف قبل أنْ تستعيد أنفاسك من جديد. لم يتمكّن من استعادة الماضي كلّه، ولكن ربما لن يندفع إلى أسفل التل بعد، ربما سوف يجلس ويتأمّل المشهد.

قال والده، وهو يُبعِد عنه فنجان القهوة الصغير، «فلنخرج من هذه البلدة التعيسة»

قالتْ أمّه، وهي تلملمُ حقيبة يد منتفخة مرسوماً عليها أرانب زرقاء بلون السماء، «عليّ أولاً أنْ أُغيِّرَ له»

نظر روبرت إلى توماس، المتراخي على كرسيه، يُحدِّقُ إلى صورة تمثّل قارباً شِراعياً، لا يعلم ما هي اللوحة ولا يعلم ما هو القارب الشراعيّ، واستطاع أنْ يشعر بدراما كونه عملاقاً محبوساً داخل جسد صغير غير مُناسِب.

-5-

بينما كان يمشي على طول الأروقة الطويلة، المغسولة بلا جِدال لمأوى العجزة الذي تُقيم فيه جدَّته، جعل صريرُ أسفل حذاء المُمرّضة المطاطيّ صمتَ عائلته يبدو أشدّ هستيريّة مما كان عليه. مرّوا من باب غرفة الاستراحة المفتوح حيث كان هدير جهاز التلفزيون يُغطّي على نوعٍ آخر من الصمت. كان النزلاء الرابضون، البيض بلون الورق، يجلسون ضمن صفوف. ما الذي يؤخِّر الموت كثيراً هكذا؟ بدا بعضهم خائفين أكثر منهم ضجرين، والبعض الآخر ضجرين أكثر من كونهم خائفين. كان روبرت لا يزال يتذكَّر من زيارته الأولى الهندسةَ البرّاقةَ التي تزيِّن الجدران. وتذكّرَ أنّه تخيَّل ذروة طرف مُدبَّب لمُثلَّث طويل أصفر اللون يطعنه في صدره، والحافّة الحادّة لنصف الدائرة الأحمر ذاك تحزّ عنقه.

في هذا العام أخذوا توماس ليشاهد الجدّة للمرَّة الأولى. لن تتمكَّن من قول الكثير من الكلام، ولكن توماس أيضاً لن يتمكّن من ذلك. وقد يسير كل شيء على ما يُرام.

عندما ولجوا الغرفة، كانت الجدَّة جالسة على أريكة بجوار النافذة. والخارج، شديد القُرب من النافذة، كان عبارة عن شجرة حور ضخمة مُصفرَّة قليلاً، وسياجٌ من أشجار السرو المائل لونها إلى الزرقة يُخفي جزءاً من موقف السيارات. وعندما انتبهت الجدّة إلى وصول عائلتها، أعادت ترتيب وجهها بابتسامة، لكنَّ عينيها بقيتا منفصلتين عن العمليّة، بقيَتا جامدتين وسط الحيرة والألم. ومع افترار شفتيها رأى أسنانها المسودَّة والمكسورة. ولم يبدُ أنَّ في استطاعتها أنْ تتعامل مع أي شيء

صلب. وربما هذا هو السبب في أنَّ جسمها بدا أشدّ هَرَماً مما كان عليه في آخر مرّة رآها.

كلهم قبّلوا وجه جدَّته الناعم، المشعِر. ثم قرَّبَتْ أمّه توماس من جدّته وقالتْ «هذا توماس»

تبدَّل تعبير وجه جدَّتِه وهي تحاول أنْ تنقله من استغراب وجوده إلى الودّ الحميم. ودفعت عيناها روبرت إلى الشعور كأنها تعدو عبر سماء غائمة، تخترقُ برهة مساحة صافية ومن ثم تعود لتخترق حُجُباً تزداد سُمكاً وتغدو غيماً من العمى الأبيض. لم تكن تعرف توماس وهو لم يكن يعرفها، ولكن بدا أنَّ لديها إحساساً بأنَّ ثمة رابطاً يجمعها به. ولكن كان يختفي باستمرار وكانت تُضطر إلى أنْ تكافح لكي تستعيده. وعندما كادتْ تتكلَّم، خذلها الجهد الذي بذلته لتنجح في قول ما تريد قوله في مثل تلك الظروف الخاصّة. ولم تتمكن من تذكُّر صِلة القرابة التي تربطها بكل الأشخاص الموجودين في الغرفة. لم تعُد القُدرة على التذكُّر تعمل؛ وكلما تمسّكتْ بالفكرة أكثر، ابتعدتْ عنها أكثر.

وأخيراً، شدَّتْ أصابعها حول شيء ما، بحركة متردِّدة، ورفعت بصرها إلى والده وقالت، «هل... هو... يحبّني؟»

قالت والدة روبرت في الحال «نعم»، كما لو أنَّ هذا هو السؤال الأشدّ بديهيّة في العالم.

قالتْ الجدَّة، «نعم»، وانتشرتْ بقعة اليأس التي في عينيها وعادتْ إلى باقي وجهها. لم يكن ذلك هو السؤال الذي قَصَدَتْ أنْ تطرحه، لكنّه خرج منها فجأة. وغاصَتْ عائدة إلى كرسيها.

بعد ما كان قد سمعَه روبرت في صباح ذلك اليوم فوجئ بسؤالها، وبكونه بدا كأنّه موجَّه إلى والده. ومن ناحية أخرى، لم يُفاجأ بأنَّ أمّه هي التي أجابت عن السؤال بدلاً عنه.

في صباح ذلك اليوم كان يلعب في المطبخ بينما أمّه في الطابق العِلويّ تعدّ حقيبة من أجل توماس. لم يكن قد لاحظَ أنَّ المرقاب لا يزال دائراً، إلى أنْ سمعَ توماس يستيقظ مع بضع صرخات قصيرة، ودخلتْ أمّه إلى

غرفة نوم توماس وكلَّمته بنعومة. وقبل أنْ يتمكّن من تحديد إنْ كانت تعامل توماس بعذوبة أشدّ في أثناء غيابه، وصله صوت والده يهدر عبر السمّاعة.

«لا أصدِّق هذه الرسالة اللعينة»

سألتْ أمّه «أيّ رسالة؟»

«إنَّ ذلك القذر المدعو شيموس دورك يُحاول أنْ يدفع إلينور إلى جعل هِبة هذه الملكيّة مُطلَقَة خلال حياتها. لقد عملتُ على جعل المحامي يضعها في حالة دَين طويل الأمد. وفي وصيّتها تم التخلّي عن الدَين وانتقلتْ ملكيّة المنزل بلا رجعة إلى الجهات الخيريّة، ولكن في أثناء حياتها أقرضَتْ الجهات الخيريّة قيمة هذه الملكيّة، وإذا استردّتْ الدَين يعود المكان إليها. ووافقَتْ على ترتيب الأمور على أساس أنّها قد تمرض وتحتاج إلى النقود لكي تُعينها، ولكن لا حاجة إلى القول إنني آمل أنْ تعود إلى رشدها وتُدرك أنَّ تلك الجهات الخيريّة الزائفة تُسبِّب الكثير من الأذى لنا ولا تقدِّم أي خير لأي شخص آخر، ما عدا لشيموس. بمناسبة الحديث عن حظ الأيرلنديين. ها هو، يعمل ممرّضاً في منظمة الصحّة الوطنيّة يُغيِّر أغطية الأسرَّة في مقاطعة ميث، إلى أنْ نقلته أمي بالطائرة من جزيرة إميرالد وجعلت منه المُستفيد الوحيد من الدخل الضخم المُعفى من الضرائب من فندق نيو إيج على شكل إحسان. وهذا يُثير اشمئزازي، اشمئزازي التام»

كان والده حينئذٍ يصرخ.

قالت أمّه «حبيبي، أنتَ تصرخ، وهذا يُفزِع توماس»

قال والده «يجب أنْ أصرخ. لقد اطّلعتُ تواً على هذه الرسالة. لطالما كانت أمّاً سيئة، لكنني ظننتُ أنها يمكن أنْ تحظى بإجازة وهي في آخر حياتها، وتشعر بأنّها أنجزتْ ما يكفي عبر الخيانة والإهمال، وأنَّ الوقت قد حان لتأخذ فترة راحة، وتلعب مع أحفادها، ولنبق نحن في المنزل، أو ما شابه. وما يُخيفني حقاً هو إدراكي مدى امتعاضي منها. وعندما قرأتُ هذه الرسالة، حاولتُ أنْ أحلّ أزرار قميصي لكي أتمكَّن من التنفُّس، ومن ثم أدركتُ أنّها محلولة بقدرٍ كافٍ، وشعرتُ كأنَّ أنشوطة تلتفّ بإحكام حول عنقي، أنشوطة الامتعاض»

قالتْ والدة روبرت «إنها مجرد امرأة عجوز مُشوّشة»

«أعلم»

«وسوف نزورها في وقتٍ لاحق من هذا اليوم»

«أعلم»، قال والده، بهدوء أكثر هذه المرّة، حتى كاد لا يُسمَع. «إنَ ما يُثير امتعاضي حقاً هو السُمّ الذي ينتقل من جيلٍ إلى جيل. لقد شعرتْ أمي بأنها حُرِمَتْ من ميراثها لأنَّ زوج أمّها يحصل على كل أموال أمّها، والآن، بعد مرور ثلاثين عاماً من وِرَش استنهاض الضمير وبرامج تطوير الشخصيّة، وجدتْ أنَّ شيموس دورك يحلّ محلِ زوج أمها. إنّه بحقّ ليس أكثر من أداة لا وعيها الراغبة بصورة لا تُصدَّق. إنَّ الرتابة هي التي تدفعني إلى الجنون. وأنا أفضّل أنْ أحزّ عنقي على أنْ أُنزِل الشيء نفسه بأولادي»

أجابتْ أمّه «لن يحدثَ هذا»

«إنْ كان في استطاعتك أنْ تتخيّلي أي شيء...»

كان روبرت قد مال ليكون أقرب إلى المرقاب، مُحاولاً أنْ يُميِّز صوت والده المتلاشي، ومن ثم يعلو أكثر خلفه بينما والداه يهبطان إلى الطابق السُفليّ.

كان والده يقول «...والنتيجة ستكون أمي»

ضحكتْ أمّه «الملك لير والسيدة جيليباي[1]»

قال والده «على المرج، مُضاجعة سريعة بين الطاغية الواهن والمُحسِنة المتعصّبة»

كان قد هرب من المطبخ، غير راغبٍ في أنْ يعرفَ والداه أنّه سمعَ محادثتهما عبر المرقاب. كتمَ أمر معرفته طوال فترة الصباح، ولكن عندما حدَّقَتْ جدّته في والده، وكأنها كانت تتحدث عنه، وسألتْ «هل يُحبّني؟» لم يستطع روبرت أنْ يُقاوم الفكرة المجنونة حول أنّها سمعت المحادثة كما سمعها هو.

1- السيدة جيليباي: شخصيّة ساخرة في رواية تشارلز ديكنز «*منزل كئيب*»، المُحسِنة التي تكرِّس كل وقتها وطاقتها لمساعدة أطفال إفريقيا في حين أنّها تُهمل العناية بأطفالها – المترجم

على الرغم من أنّه لم يفهم كل ما قال والده في صباح ذلك اليوم، إلّا أنّه فهم ما يكفي ليشعر بشرخٍ ينفتح في الأرض. والآن، وسط الصمت الذي تبعَ سؤال جدّته اللاذع وغير المقصود، شعر ببؤسها، وشعر برغبة أمّه في التألُّف، وشعر بالتوتّر الكامن في ضبط النفس الذي مارسه والده. أراد أنْ يفعل شيئاً ليجعل الأمور كلها تستقيم.

كان يستغرقُ من جدّته حوالي النصف ساعة لتسأل إنْ كان توماس قد عُمِّدَ أم لا.

قالتْ الأم «كلا، لم نقُم بعمادة رسميّة. المشكلة هي أننا لا نعتقد حقاً أنَّ الأطفالَ منغمسون في الإثم، وأنَّ الكثير من المراسِم يبدو أنّه يقوم على أساس فكرة أنّهم خطّاؤون ويحتاجون إلى الخلاص»

قالتْ جدّته «نعم، كلا»

بدأ توماس يهز دميته الفضيّة الصغيرة التي اكتشفها من جديد في تضاعيف كرسيه. كانت تُصدر رنيناً غريباً رفيعاً وهو يُلوّح بها ويهزّها فوق رأسه. وسرعان ما ضربها بقوة على جبينه. وبعد فترة تأخير بدا خلالها أنّه يُحاول أنْ يفهم ما حدث، طفقَ يبكي.

قال والد روبرت «إنّه لا يعرف إنْ كان ضرب نفسه أم أنَّ الدمية هي التي ضربته»

انحازتْ أمّه ضد الدمية وقالت «دمية خبيثة»، وقبَّلَتْ جبين توماس.

ضرب روبرت جانب رأسه وسقط عن سرير جدَّته بحركة مسرحيّة. لم يتسلَّ توماس كما توقَّع منه.

مدَّتْ الجدَّة ذراعيها بتعاطُف متوسّل، وكأنَّ توماس كان يُعبِّر عن شيء شعرت هي به أيضاً، لكنها لم ترغب في أنْ تتذكّره. رفعَتْ والدة روبرت توماس برفق إلى حجر جدّته. فتوقف توماس عن البكاء، وقد أغواه وضعه الجديد، ونظر إلى جدّته متفحّصاً. وبدا أنّها هدأتْ بحضوره. جلس على حجرها، مانحاً إيّاها ما كانت في حاجة إليه، وغاصا معاً في تضامنٍ أخرس. وخيَّمَ الصمت أيضاً على باقي أفراد العائلة، غير راغبين في فضح اللَّذَين لا يتكلّمان. وشعر روبرت بوالده يحوم فوق جدّيه، مُقاوماً الرغبة في التعبير

عمّا يدور في خَلَده. وفي النهاية كانت الجدَّة هي التي تكلَّمتْ، ليس بسلاسة ولكن بشكل أفضل بكثير من قبل، وكأنَّ كلامها تخلّى عن طريق الشوق المسدود بالكامل وتسلَّل خارجاً تحت جنح الظلام والصمت.

قالتْ «أريد منكم أنْ تعرفوا أنني شديدة... التعاسة... لأنني عاجزة عن التواصُل»

مدَّتْ أمّه يدها ولمسَتْ رُكبتها.

قال والده «لا بُدَّ أنَّه شيء مُريع بالنسبة إليك»

قالتْ جدّته، مُحدِّقة إلى الأرض البعيدة جداً، «نعم»

لم يعرف روبرت ماذا يفعل. كان والده يكره أمّه. لم يستطع أنْ يُشاركه في ذلك ولم يستطع أنْ يُدينه. لقد ارتكبتْ جدَّته خطأً في حقّ عائلتها، لكنّها تعاني مُعاناة شديدة. ولم يسع روبرت إلّا أنْ يتذكّر كيف كانت عليه الأمور قبل أنْ تُهيمن عليها خيبة أمل والده. في تلك الأيام الصافية عندما كان من المُفترَض به خلالها أنْ يُحبّ جدّته؛ لم يكن متيقّناً من أنّه كان لها أي وجود، لكنّ المؤكّد هو أنّه لا وجود لها الآن. كان لا يزال من الظلم المُجحِف التكاتُف ضد جدَّته الخائفة، حتى وإنْ كانت ستتخلّى عن المنزل لشيموس.

قفز عن السرير وجلسَ على ذراع كرسي جدَّته، وأمسك بيدها، كما كان يفعل في أول مراحل مرضها. بتلك الطريقة يمكن أنْ تخبره أشياء من دون أنْ تضطر إلى الكلام، وتفيض أفكارها عليه على هيئة صور.

لقد احترقَتْ الجسور وانكسرتْ، وكل ما أرادتْ جدّته أنْ تقول تجمَّعَ على جانب وهد، بلا شكل، وبلا حركة. شعرتْ بضغطٍ متواصل، بحكّة خلف مُقلتَي عينيها، ككلب يناشد السماح له بالدخول، بامتلاء لا يمكن الإفلات منه إلّا بالدموع والتنهدات وبالإيماءات الخشنة.

تحت رضوض الشعور كانت هناك غريزة وحشيّة تدفعه إلى البقاء على قيد الحياة، كثُعبان سُحِقَ على طريقٍ حارّة، أو كجذورٍ عمياء تضخّ نسْغاً داخل جدعةٍ تنزف.

لماذا عذّبوها؟ لقد وضعوها داخل كيس ورموها إلى قعر قارب،

وربطوا قدميها بالسلاسل. لا بُدَّ أنّها ارتكبتْ عملاً شنيعاً جداً حتى ضايقها المُجذّفون وحملوها بالقارب إلى الخليج. عمل شنيع جداً لم تتذكّره.

حاول أنْ يبتعد. كان شيئاً لا يُطاق. لم يترك يدها، لكنّه حاولَ أنْ ينفصل عنها، ولكن كان مستحيلاً قطع الاتّصال بالكامل.

لاحظَ أنَّ جدّته تبكي. وضغطتْ على يده.

«أنا... لا»، ولم تستطع أنْ تُكمِل. تحرَّرتْ فكرةٌ موثقة وتبعثرتْ على الأرض. ولم تتمكّن من استعادتها. وتشبَّثَ بها شيء مُبهَم طوال الوقت. كان رأسها موضوعاً داخل كيسٍ مقفَلٍ قذر من البلاستيك؛ أرادتْ أنْ تمزقه لكنَّ يديها كانتا موثقتين.

حاولتْ من جديد «أنا... شجاعة. نعم»

كان ضوء المساء على الجانب المُقابل من المبنى وكانت الغرفة تزداد عتمة. خانهم الكلام كلّهم، ما عدا توماس الذي لم يكن لديه ما يخسر. مال على ذراعَي جدّته، يرنو إليها بنظرته الموضوعيّة الهادئة. وأضفت وضعيته توازناً على الجو. جلسوا في الضوء المتلاشي للغرفة التي تسودها السكينة، شاعرين بالتعاطُف وبقليل من الضجر. غاصَتْ جدّة روبرت في حزن أكثر هدوءاً، كأنها تغوص داخل نوابض مكسورة لكرسي، تراقب عاصفة ترابيّة تكسو العالم بطبقة رماديّة كليلة رقيقة.

بعد القرع على الباب وعدم انتظار جواب، دخلتْ ممرضة مع صرير تجرّ عربة تحمل طعاماً ووضعتْ صينيّة مُقعقعة على الطاولة المتحركة المجاورة للسرير. رفعتْ والدة روبرت توماس بين ذراعيها من جديد، بينما جرّ والده الطاولة إلى وضعيّة صحيحة ورفع الغطاء عن الطبق الرئيس. كان جديراً بطبق السمك الرماديّ المُبلَّل بالعرق وطبق الخضار المطبوخ الرطب أنْ يجعلا رجلاً نهماً يتوقف برهة، أما بالنسبة إلى جدَّته، التي تفضّل الموت جوعاً، فكل أنواع الطعام كانت مرفوضة، وهكذا ضغطتْ على يد روبرت للمرة الأخيرة وقطعت الاتصال الذي أثار العديد من الصور العنيفة في مخيّلته، وأمسكتْ بشوكتها بانصياع اليأسَ الغريبَ والصريح. وناورتْ شريحة رقيقة من السمكة بشوكتها وبدأتْ ترفعها إلى فمها. ثم توقفتْ وأنزلَتْ الشوكة من جديد، وحدَّقَتْ إلى والده.

قالتْ بدقّة الطوارئ «لا أستطيع... أنْ أجد فمي»

بدا الإحباط على والده، كأنَّ أمّه عثرتْ على خدعة لمنعه من الغضب منها، لكنَّ والدة روبرت رفعت الشوكة في الحال وابتسمتْ وقالتْ، «هل أساعدك، يا إلينور؟» بأشد أسلوب عفويّة.

تداعى كتفا جدّته أكثر قليلاً عندما وجدتْ أنَّ الأمر وصلَ إلى هذا الحد. أومأتْ برأسها إيجاباً وباشرت إطعامها، ولا تزال تحمل توماس على الذراع الأخرى. عاد والده إلى رشده، بعد أنْ تجمّد قليلاً، وتناول توماس من والدة روبرت.

بعد أنْ تناولت جدّته بضع لُقَم هزّتْ رأسها رفضاً وقالت «كلا»، ومالتْ إلى الخلف على كرسيها مُرهَقَة. ووسط الصمت الذي تلا ذلك، أعادَ والده توماس إلى أمّه وجلسَ بجوار جدّته.

قال والده، وهو يُخرِج رسالة من جيبه، «إنني أتردَّد في فتح هذا الموضوع»

قالتْ أمّه بسرعة «أعتقد أنّه ينبغي أنْ تستمر في تردّدك»

قال لها «لا أستطيع أنْ أتردَّد أكثر من ذلك»، وعاد إلى جدَّة روبرت. «لقد كتب لي مكتب براون وستون للمُحاماة قائلاً إنكِ تنوين أنْ تهبي سان-نازير للمؤسّسة. أريد فقط أنْ أقول إنني أعتقد أنَّ ذلك سوف يجعلك مكشوفة جداً. إنكِ تكادين لا تقدرين على تكاليف إقامتك هنا وإذا احتجتِ إلى المزيد من العناية الطبيّة فسوف تُفلسين سريعاً جداً»

رأى روبرت أنّه لا يمكن لجدّته أنْ تبدو أشد تعاسة مما بدتْ حينئذٍ، ولكن كيف نجحتْ قَسَمات وجهها في رسم تعبير رعب جديد.

«أنا... حقاً... أنا... حقاً... لا»

غطَّتْ وجهها بيديها وصرخت.

ولولتْ «أنا حقّاً أعترض...»

أحاطتْ والدتُه كَتِفَي جدّتِه بذراعِها من دون أنْ تنظر إلى والده. أعادَ والده الرسالة إلى جيبه ونظر إلى حذائه باحتقارٍ تامّ.

قالتْ أمّه «لا بأس. إنَّ باتريك يريد فقط أنْ يُساعدك، فهو قلِق من مُبالغتكِ في الهِبة وتتهوّرين، ولكن لا أحد يشكّ في حقك في أنْ تفعلي ما

تشائين بالمؤسسة. كل ما في الأمر أنَّ المُحامين أخبروه بأنكِ طلبتِ منه أنْ يُساعدك في الماضي»

فقالتْ جدّته «أنا... أحتاج... إلى الراحة الآن»

قالتْ أمّه «إذن، سوف نغادر»

«نعم»

تنهّدَ الوالد. «أنا آسف لأنني أزعجتك. أنا فقط لا أرى داعٍ للاستعجال؛ على أي حال إنَّ سان-نازير سوف تؤول إلى المؤسّسة وِفقاً لوصيتك»

قالت زوجته «أعتقد أننا يجب أنْ نُغلِق هذا الموضوع»

وافق «عظيم»

سمحت جدَّة روبرت لنفسها بتلقّي القُبَل من كل واحد بدوره. وكان روبرت هو آخر مَنْ ودَّعها.

قالتْ «لا... تتركني»

سألَ، مرتبكاً، «الآن؟»

استسلمتْ «كلا... لا تتركني... لا»

قال «لن أتركك»

لم يكونوا يُناقشون زيارتهم لمأوى العجزة إلّا مُصادفة، وقد بدأوا رحلة عودتهم بالسيارة إلى المنزل بالصمت. ولكنْ سرعان ما تغلَّبَ قرار والده على فتح الموضوع. حاول أنْ يكون كلامه عامّاً، وحاول أنْ يبتعد عن الخوض في موضوع أمّه.

قال «إنَّ المستشفيات أماكن مريعة جداً، ممتلئة بالحمقى المخدوعين المساكين الذين لا يبحثون عن الشهرة التي بلا أساس أو إلى مبالغ فاحشة من المال، بل يعتقدون أنَّ الغاية من الحياة هي مُساعدة الآخرين. من أين حصلوا على تلك الأفكار؟ يجب أنْ نرسلهم للانضمام إلى ورش أسبوعيّة ودّيّة مع آل باكر»

ابتسمتْ والدة روبرت.

قال والده، مدفوعاً رُغماً عنه خارج موضوعه، «أنا متأكّد من أنَّ في استطاعة شيموس أنْ يتدبَّر الأمر. وبالمناسبة، على الرغم من أنَّ المستشفيات

ربما تعجّ بالقديسين المرحين، فإنني أفضّل أنْ أطلق النار على رأسي على أنْ أختبر تآكل النفس الذي شهدناه هذا اليوم»

قالتْ أمّه «أنا رأيتُ أنَّ إلينور في وضعٍ جيّد. وقد تأثّرتُ كثيراً عندما قالتْ إنها شجاعة»

قال والده «إنَّ ما يدفع الرجل إلى حافة الجنون هو أنْ يُجبَر على أنْ ينتابه انفعال مُحرَّم عليه في الوقت نفسه. إنَّ خيانة أمي أجبرتني على الغضب، لكنَّ مَرَضَها أجبرني بدل ذلك على الإحساس بالشفقة. والآن يدفعني تهوّرها من جديد إلى الغضب ولكن من المُفترَض أنْ تكظِمَ شجاعتُها غضبي بإثارة إعجابي؟ حسن، أنا إنسان بسيط، لكنَّ الواقع هو أنني أبقى على *غضبي اللعين*»، قال هذا، وضرب بقوة على مقود السيارة.

سألَ روبرت من المقعد الخلفي، «مَنْ هو الملك لير؟»

سألتْ أمّه «أسمعتَ محادثتنا في هذا الصباح؟»

«نعم»

قال والده «كنتَ تسترق السمع»

اعترضَ «كلا لم أفعل. أنت تركتِ المرقاب دائراً»

قالتْ أمّه «أوه، نعم، أنا فعلتُ ذلك. على أي حال، لم يعُد الأمر يهمّ الآن، أليس كذلك، يا حبيبي؟» طرحتْ هذا السؤال بعذوبة على والده، «بما أنكَ تصرخ بأنك «*غاضب لعين*» بأعلى صوتك»

قال والده «الملك لير هو طاغية فظ في مسرحية شكسبير يهبُ كل شيء ثم يُفاجأ بابنتيه غونيريل وريغان – أو شيموس دورك، كما أُفضَل أنْ أرى فيهما – تنكران عليه الرعاية التي يحتاجها وتطردانه»

«ومن تكون السيدة جيليبين؟»

«اسمها جيليباي. إنها فاعلة خير بالإكراه تكتبُ رسائل ناقمة عن أيتام إفريقيا، بينما أولادها من صُلبها يسقطون في موقد النار في الطرف المقابل من غرفة الجلوس»

«وما هو النزو؟»

«حسن، الفكرة هي أنكَ إذا جمعتَ بين هاتين الشخصيتين تحصل على شخص يُشبه إلينور قال روبرت «أوه، الأمر شديد التعقيد»»

قال والده «نعم، المهم هو أنَّ إلينور تحاول أنْ تحجز لها مقعداً في الصف الأمامي في الجنّة بوهب مالها كله لـ «أعمال الخير» ولكنّها، كما يمكن أنْ ترى، حجزتْ لنفسها مكاناً في جهنم»

قالتْ أمّه «لا أعتقد أنَّ من الذكاء أنْ أقلب روبرت ضد جدَّته»

«ولا أعتقد أنّه كان ذكاءً منها جعل الأمر حتميّاً»

«أنتَ الذي يشعر بأنّه تعرّضَ للخيانة - إنها أمّك»

أصرَّ والده «لقد كذبَتْ علينا كلنا. لقد أخبرتني عند كل مرحلة أنَّ هذا الشيء أو ذاك سيؤول إلى روبرت، لكنَّ تلك التنازلات الصغيرة لمشاعر العائلة تم التراجع عنها واحداً بعد آخر وغابت في مجهول المؤسّسة»

تركتْ والدة روبرت بعض الوقت يمرّ في صمت ومن ثم قالتْ «حسن، على الأقلّ نحن لم ندعُ أمي *أنا* على الإقامة عندنا في هذا العام»

قال والده «نعم، لقد أصبْتِ، يجب أنْ نكون ممتنّين»

استقرت الأجواء قليلاً بعد هذه البرهة من التناغُم. وتقدموا على طول الزقاق نحو المنزل. كان الغروب في ذلك المساء هادئاً، خالياً من الغيوم على شكل جبال وغرف ومطالع دَرَج، إلّا مِن ضوءٍ ورديٍّ صافٍ يُحيط بقِمم التلال، وحافةِ القمر المُعلَّقة في السماء التي تزداد حلكة. وبينما هم يتقدمون على طول الممر الوعر، شعر روبرت بحسّ المنزل الذي كان يعلم أنَّ عليه أنْ يتعلَّم التخلّص منه. لماذا تُسبِّب جدَّته كل تلك المشكلات؟ لقد بدا ذلك السعي إلى حجز مقعد أمامي في الجنّة مُكلِفاً بصورة لا تُحتَمَل. ونظر إلى توماس على كرسي الأطفال وتساءلَ إنْ كان أقرب للـ «منبع» من بقيّتهم، وإنْ كان ذلك شيئاً جيداً. وفجأة ملأته لهفةُ جدّته إلى الانغماس من جديد في مجهول وضّاء بلهفةٍ مُقابلة: للعيش حياة مُميَّزة قدر استطاعته قبل أنْ يؤدي به مرور الزمن إلى سرير مستشفى ويقطع لسانه.

آب 2001

-6-

خلال النهار، عندما سمع باتريك نباح كلبٍ حزين يتردَّد صَداه على الجانب الآخر من الوادي، تخيَّل كلب جاره الألزاسيّ المُشعث الشَعر يركض جيئة وذهاباً على طول سياج عيدان القصب للفناء الذي حوصِرَ داخله، أما الآن، في قلب الليل، أخذ يفكِّر بدل ذلك في كل المساحة التي كانت حلقات النباح تنتشر عبرها وتتلاشى. وكثَّفَ المنزل المزدحم من إحساسه بالوحشة. ليس هناك مَنْ يلجأ إليه، ما عدا ربما، أو بالأحرى من المستحيل، (أو ربما، من الممكن) إلى جوليا، التي عادت بعد مضيّ عام.

كالمعتاد، كان من فرط التعب بحيث يعجز عن القراءة ومن فرط القلق بحيث يعجز عن النوم. بدا أنَّ أكوام الكتب على الطاولة المُجاورة لسريره تساعده في كل مزاج، ما عدا اليأس الغاضب الذي كان دائماً يسيطر عليه. كان كتاب «*الكون الأنيق*» يُثير أعصابه. لم يرغب في القراءة عن تقوُّس الفضاء وهو يراقب السقف ينتقل من مكانه ويزيغ تحت تحديقه المُرهَق. ولم يرغب في التفكير في النيوترينات[1] التي تتدفق في جسمه - الذي كان ضعيفاً أصلاً. كان قد بدأ قراءة «*اعترافات*» روسّو ولكنّه اضطرَّ أخيراً إلى تركها. كان لديه كل هوس الاضطهاد الذي يمكن أنْ يتحمّله من دون جلب المزيد منه. وثمّة رواية تدّعي بأنها مفكّرة لأحد ضباط الكابتن كوك خلال رحلته الأولى إلى هاواي تقوم على البحث الدقيق بحيث باتت أبعد ما يكون عن الحياة. وكان باتريك قد بدأ يشعر، تحت وطأة التشكيلة الصغيرة من الرموز على بسكويت قسم المؤن، بالكآبة، ولكنْ عندما قُدِّمَتْ رواية ثانية،

1- النيوترينو: كتلة دقيقة أصغر من كتلة الإلكترون - المترجم.

دوّنها سليل الراوي الأول، يُقيم في بليموث في القرن الواحد وعشرين ويقضي عطلة في هونولولو، وكانت نظيراً ساخراً للرواية الأولى، اعتقد أنّه سيُجنّ. وتنافس عملان تاريخيّان، أحدها تاريخ الملح والآخر تاريخ العالم بأكمله منذ عام 1500 قبل الميلاد لاحتلال مكان في قعر الركام.

وأيضاً كالمعتاد، كانت ميري قد أوتْ إلى النوم مع توماس، تاركة باتريك منقسِماً بين الإعجاب والاستسلام. كانت ميري أمّاً متفانية لأنها تعرف ما هي الحياة، وكان يُضطر أحياناً، بوصفِهِ مُستفيداً سابقاً من اندفاع ميري كأم، إلى تذكُّر أنّه لم يعُد طفلاً، وإلى أنْ يُبرهن على أنَّ هناك أطفالاً حقيقيّين في المنزل، لم يتدرّبوا بعد على الرعب؛ وأحياناً كان يُضطر إلى تعنيف نفسه. ومع ذلك، كان ينتظر عبثاً آثار الأبوَّة التي تنضُج. وكونه مُحاطاً بالأطفال عمل فقط على تقريبه من طفولته الخاصّة. شعر كمَنْ يخشى مُغادرة المرفأ، لعِلمِهِ أنّه تحت سطح متن يخته لا يوجد إلّا آلة ثنائيّة النبض صغيرة وقذرة: هي الخوف والرغبة، الخوف والرغبة.

كانت كيتل، والدة ميري، قد وصلتْ بعد ظهيرة ذلك اليوم، وكالمعتاد، عثرت على الفور على منبع للخِلاف مع ابنتها.

سألتْ ميري بتهذيب «كيف كانت رحلة الطائرة؟»

قالت كيتل «مُريعة. كانت هناك امرأة فظيعة جالسة إلى جواري في الطائرة شديدة الافتخار بثدييها، ولم تتوقف عن إبرازهما من أجل طفلها»

قالت ميري «هذا يُسمّى الرضاعة الطبيعيّة، يا أمي»

قالتْ كيتل «شكراً لك، عزيزتي، أعلم أنّها الموضة السائدة هذه الأيام، ولكن عندما كنتُ أُنجب الأطفال كان الكلام الرائج هو عن كيفيّة استعادة القوام. كانت المرأة الذكيّة هي التي تذهب إلى حفل وهي تبدو كأنها لم تحبل أبداً، وليس تلك صاحبة الثديين المتدليين نحو الخارج، على الأقلّ ليس من أجل الإرضاع الطبيعي»

كالمعتاد، كانت زجاجة الأقراص المُنوّمة على الطاولة المجاورة لسريره. كانت لديه مُشكلة بلا أدنى شك مع أقراص المنوِّم، أي، أنها ليست قويّة المفعول كما ينبغي. وآثارها الجانبيّة هي، فقدان الذاكرة، والتجفاف، وتتبع

تعاطيها آثار بغيضة، واحتمال معاناة كابوسيّة عند التوقف عن تناولها، وكتان هذا يحدث بأكمله. الشيء الوحيد الذي كان مفقوداً هو النوم. واستمر في ازدراد الأقراص لكي يتجنّب مواجهة آثار ما بعد التوقف عن تعاطيها. وتذكّرَ أنّه كانت هناك، في الماضي البعيد، تنصح بعدم المواظبة على تناول هذا النوع من الأقراص المنوّمة لأكثر من ثلاثين يوماً متواصلاً. وكان هو يتناولها في كل ليلة منذ ثلاثة أعوام بجرعات تتزايد باطراد. كان الناس يقولون إنه سيكون «في قمّة السعادة» عندما يعنون العكس، أنّه «سوف يُعاني الأمرَّين»، ولكن لم يبدُ أنّه كان يجد الوقت الكافي لذلك. فإما أنْ يكون في عيد مولد أحد الأطفال، أو يمْثُل أمام المحكمة، وهو يُعاني من آثار المنوِّم، أو يؤدي أحد الواجبات الضخمة التي تتطلَّب غياب الهلوسة والقلق الأقصى. وغداً، على سبيل المثال، سوف تأتي أمّه لتناول طعام الغداء. سوف تحضر الأمّان معاً؛ وهي مناسبة لا يمكن إضافة الاضطراب العقلي إليها.

ومع ذلك ما زال يضمر ذكرى حسنة عن الأيام التي كان يُعتبَر الاضطراب العقلي الزائد خلالها أفضل تزجية للوقت بالنسبة إليه. وقد أمضى السنة الدراسيّة الثانية في جامعة أكسفورد يراقب الأزهار تنبض وتدور. وخلال صيف ذلك العام من التجارب المُخيفة قابل جوليا. كانت الأخت الصُغرى لرجل مملّ يُقيمُ في الطابق نفسه من مبنى ترينيتي. وبينما باتريك، وهو في خضم تعاطي المخدرات، يرفض على عجل دعوته إلى الشاي، شاهد من خلال الباب الموارِب فتاة جميلة تُدير الرؤوس تحضن ركبتيها على حافة النافذة. غيّرَ اتجاهه ليتناول «كوباً سريعاً من الشاي» وأمضى الساعتين التاليتين مُحدِّقاً بصورة غبيّة إلى جوليا الجميلة بشكلٍ جائر، ذات الوجنتين الورديتين والعينين الزرقاوين القاتمتين، وترتدي قميصاً رياضيّاً بلون الفريز يُظهِرُ حلمتَي ثدييها، وبنطلون جينز باهت اللون متهرِّئ ومفتوح عند الرُكبتين. وأقسم بينه وبين نفسه على أنّه عندما سيصل إلى السن المناسبة سوف يغويها، لكنها سبقته وقَضَتْ على قراره الجبان بغوايته في الأمسية نفسها. وقامت بينهما علاقة حب طويلة الأمد، بطيئة الإيقاع وغير شرعيّة تقنيّاً (لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة في الأسبوع الذي تلا). غرقا في العلاقة، اختفيا في أماكن سريّة، وراقبا الزمن يتراجع، وهربا من رجال

شرطة لم يكونوا يُلاحقونهما. وعندما ذهبا إلى اليونان ساعدها في إخفاء المخدرات في مخبئه المُفضَّل؛ بين ساقيها. اعتقد أنَّ الأشياء سوف تنهمر من مغامرة إلى أخرى، أما الآن فبدت النشوة المتعثّرة لممارستهما الجنس أشبه بمعجزة حريّةٍ تنتمي إلى عالمٍ ضائع. وتذكّرَ أنه لم يحدث بعد ذلك أي شيء حميم وعفويّ، وحتماً لم يدُرْ أيُّ حديث مع جوليا الأشدّ قسوة وجفافاً من التي تُقيم معه الآن. ومع ذلك، ها هي، جالسة في الرواق، مُتألّمة ولكن ما زالت جميلة. هل يُباشر؟ هل يُخاطِر؟ هل يستعيدان الماضي معاً؟ هل سيعود الزخم حالما يتلاحم جسداهما؟ كانت الفكرة مجنونة. كان عليه أنْ يتخطّى روبرت، المهووس بالمراقبة والمُصاب بالأرق، ويتخطّى كيتل الضارية، وميري، التي تُحلِّق كيعسوب فوق سطح النوم لكيلا يفوتها أقلّ ثنية في ألم طفلها، ومن ثم ينتقل إلى غرفة جوليا (كانت زاوية بابها تحك الأرض)، التي ربما غزتها قبله ابنتها لوسي. شلّته، كالمعتاد، قِوى مُضادة ومُعادِلة.

كل شيء كان عاديّاً. هذه هي الكآبة: أنْ يكون عالقاً، مُلتصقاً بنسخة عفا عليها الزمن من نفسه. في أثناء النهار، عندما لعبَ مع الأطفال، كان شديد القُرب من كونه كما يبدو عليه، أباً يلعب مع أطفاله، ولكن في الليل إمّا أنْ يتوجَّع من الحنين أو يتلوّى من نكران الذات. كان قد أمضى شبابه منتعلاً حذاء التدرّب الرياضيّ (وحدها كيتل كانت ما تزال تنتعل في شبابها صندلاً مُجنّحاً)، يُخلِّف وراءه دوّامة من الغبار وتشكيلة من الأشكال الأثريّة الزائفة. حاول أنْ يتذكّر كيف كان شبابه حقاً، ولكن كل ما استطاع تذكّره كان فيض الجنس والإحساس الضمنيّ بالعَظَمة، وعندما اقترب المشهد من الحاضر، حلَّ محلّه ظهور الجنس والإحساس بالأمل المفقود. الخوف والرغبة، الخوف والرغبة. ربما يجب أنْ يتناول عشرين ميليغراماً أخرى من المنوِّم. بل أربعين ميليغراماً، ما دام يشرب الكثير من النبيذ الأحمر على العشاء، أحياناً يفوز بساعتين من النوم؛ لا تمثّلان الغياب الرائع الذي يتوقُ إليه، بل النوم المُضطرب، مع عرقٍ غزير، مُزخرف بالكوابيس. كان النوم، في الحقيقة، هو آخر شيء يريده إذا كان سيؤدي إلى تلك الأحلام: حيث يرى نفسه موثقاً إلى كرسيّ في ركن غرفة يراقبُ أطفاله يتعرّضون للتعذيب وهو يكيل السباب

صارخاً في وجه المُعذِّب، أو يتوسّل إليه أنْ يكفّ عن تعذيبهم. وكانت هناك نسخة مُختزلة، الكابوس الخفيف، وفيه يرتمي أمام ابنيه في الوقت المناسب لكي يتلقّى جسمه وابل الرصاص، أو تقطّع أوصاله حركة مرور مجنونة. وعندما لا توقظه تلك الصور الصادمة، يغفو بلا أحلام، ليستيقظ بعد ذلك ببضع دقائق، يلهثُ طلباً للهواء. إنَّ الثمن الذي دفعه مقابل المُهدِّئ الذي احتاج إلى التخلّي عنه، هو ضيق تنفّسه، إلى أنْ أرسلتْ وَحدة الطوارئ التي في خلفيّة دماغه سيارة إسعاف زاعقة إلى شحمتَي أذنيه الأماميتين وهزّته حتى استعاد وعيه.

كانت أحلامه، المُخيفة بحدّ ذاتها، تصحبها دائماً تقريباً أجزاءٌ تالية دِفاعيّة مُحلِّلة. وكان جوني، صديقه المُعالِج النفسي للأطفال، قد قال إنَّ ذلك «حلم صاف»، يَعرِفُ الحالمُ فيه أنّه يحلم. ممَّ كان يحمي طفليه؟ من إحساسه الخاصّ بالعذاب، طبعاً. إنّ الحلقات الدراسية حول الحلم داخل الحلم دائماً تصل إلى نتائج معقولة.

صحيح أنّه كان ممسوساً بإيقاف تدفّق السُمّ من جيلٍ إلى الذي يليه، لكنّه شعر مُقدَّماً بأنّه فشل. وصمَّم على ألّا يبتلي ولديه بأسباب مُعاناته، فهو لم يتمكّنْ من حمايتهما من عواقبها. لقد دفنَ باتريك والده قبل عشرين عاماً ومنذ ذلك الحين يكاد لا يفكّر فيه. وكان ديفيد وهو في ذروة رقّته فظّاً، وبارداً، ومتهكّماً، ويشعر بالضجر بسهولة؛ كان يُضطر إلى رفع الحاجز في اللحظة الأخيرة ليتأكّد من أنَّ باتريك سوف يكسر عَظْمتَي ساقيه. كان شيئاً فظيعاً بالنسبة إلى باتريك أنْ يُصبح أباً شنيعاً، أو أنْ يُطلِّق زوجته، أو أنْ يحرم ولديه من الميراث؛ بدل ذلك كان عليه أنْ يتعايش مع عاقبة تلك الأشياء المثيرة للحنق والتي تحرمه من النوم. كان يعلم أنَّ روبرت ورِثَ عنه جينة معاناة القلق الليليّ ورفضَ أنْ يُصدِّق وجود جينة معاناة قلق الليل وشكَّلَ ذلك أساس شرحه. وتذكَّر أنّه كان يتكلَّم مطوّلاً عن أرقه في وقتٍ كان روبرت يرغب في تقليده في كل شيء. وشاهد أيضاً، بمزيجٍ من الإحساس بالذنب وبالرضا وبإحساس بالذنب من إحساسه بالرضا، أنَّ الانتقال التدريجيّ الذي يحدث لروبرت من التعاطُف والولاء إلى الكراهيّة والامتعاض نحو إلينور ونحو قسوتها المُحبّة للبشر.

مصدر الارتياح الأكبر كان أنهم لن يروا آل باكر في ذلك العام. فقد أُخرِجَ جوش من المدرسة لمدة ثلاثة أسابيع وفقد عادة الادّعاء أنّه صديق روبرت الحميم. وخلال تلك الفترة من الحريّة المنطلقة، صادفَ روبرت وباتريك جيلي وهولاند بارك واكتشفا أنها سوف تحصل على الطلاق من جيم.

اعترفتْ قائلة «لقد فقدَ الحجر الكريم لمعانه»، ثم أضافَتْ بصيحة انتصار قصيرة، «ولكن على الأقلّ سوف أحتفظ بالحجر الكريم. إنَّ إيداع روجر السجن شيء مريع. ألم تسمع؟ إنه سجن مفتوح، أحد السجون الأنيقة. ومع هذا، فهو ليس بالشيء الجيد، أليس كذلك؟ لقد قبضوا عليه بتهمة الاحتيال والتهرُّب من دفع الضرائب. والتهمة، في الأساس، هي بأنه يفعل ما يفعله الجميع، لكنه لم يفلِت منها. وكريستين محطَّمة، معها طفلان وكل المشكلات. إنها غير قادرة حتى على تكاليف استخدام مربّية. وقلتُ لها،«احصلي على الطلاق، سوف تشعرين بتحسّن». بالمناسبة، لقد نسيتُ أنها لن تحصل على مبلغ تسوية ضخم. لا أعلم كم يكون الأمر مُفرِحاً من دون ثروة تدعمه. أبدو شريرة، أليس كذلك؟ ولكن على المرء أنْ يكون واقعياً. إنَّ الطبيب هو الذي وصفَ لي تلك الأقراص؛ لا أستطيع التوقف عن الكلام. والأفضل لك أنْ تبتعد عني، وإلّا جعلتك تبقى هنا تُصغي إلى ثرثرتي طوال النهار. لكنَّ الأمر الغريب هو أننا في العام الفائت كنا جالسين حول البركة في سان تروبيه، نستمتع بأجمل أيامنا، وها نحن الآن قد تفرّقنا وذهب كلٌّ في طريقه. ومع ذلك، أنجبنا أطفالاً، أليس كذلك؟ هذا أهمّ شيء»، ثم هتفَتْ قبل أنْ تغادر، «لا تنسَ أنَّ جوش ما زال صديقك المُقرَّب».

كان توماس قد بدأ يتكلَّم على امتداد العام السابق. أول كلمة نطقها كانت «ضوء»، وبعد ذلك مباشرة نطق كلمة «كلا». تلك الأجواء كلها تبخّرتْ واستُبدلَتْ بصورة مُقنعة، حتى بات صعباً أنْ تتذكَّر البداية، عندما لم يكن يتكلَّم كثيراً إلى درجة أنْ يحكي حكاية بل أنْ يختبر الخروج من حالة الصمت إلى النطق بالكلمات. وحلّت الرغبة تدريجيّاً محل الذهول. على سبيل المثال، لم تعد الرؤية تُذهله، بل رؤية ما يُريد رؤيته. كان يلمح مكنسة على مسافة مئات الياردات في الشارع، حتى قبل أنْ يرى أيٌّ منا سترة

الكنّاس المتوهجة. ولا فائدة من إخفاء المكنسة الكهربائيّة خلف الأبواب؛ فالرغبة منحته مقدرة خارقة على الرؤية. ولا أحد يستطيع أنْ يلبس حزاماً مدة طويلة إنْ كان موجوداً في الغرفة، كان الحزام يُكره على المُشاركة في لعبة مُبهمة يقوم توماس، بكل جديّة، بالتحرُّك في كل اتّجاه مُشيراً إلى الإبزيم، ويُهمهم كآلة تدور. وإذا خرجوا من لندن، كان الوالدان يشمّان الأزهار ويُبديان إعجابهما بالمشهد العام، ويبحث روبرت عن شجرة تصلح لتسلّقها، أما توماس، الذي لم يكن بعد قد ابتعد كثيراً عن الطبيعة بحيث يُحولها إلى طقس ديني، فيندفع عبر المرج نحو خرطوم ماء ملتفّ حول نفسه بارتخاء غير مرئيّ داخل العشب النامي.

في أول حفلة عيد ميلاد له في الأسبوع الفائت، تعرَّضَ توماس للهجوم للمرَّة الأولى من صبي اسمه إليوت. وفجأة لفت هياجٌ انتباه باتريك إلى الجهة المقابلة من غرفة الجلوس. كان توماس، الذي يسير بخُطى غير ثابتة مع أرنبه الخشبيّ المشدود بخيط، قد تعرَّض للمُضايقة من ولد فظ من مجموعة من صِبية يلعبون وانتزع منه الدمية. فأطلق صرخة استهجان ومن ثم انفجر باكياً. ابتعد الفظّ يتبختر بانتصار والأرنب يتموّج ويُقعقع خلفه على دواليب غير مستوية.

اندفعتْ ميري ورفعتْ توماس عن الأرض. وتقدَّمَ روبرت ليتفحّصه ويرى إنْ كان بخير، وهو في طريقه ليستعيد الأرنب.

جلس توماس على حجر ميري وسرعان ما كفّ عن البكاء. بدا عليه التأمّل العميق، وكأنه يُحاول أنْ يُضيف حادث تعرّضه للهجوم إلى مجموعة مراجعه. ثم نزل عن ركبة ميري وعاد إلى الأرض.

قال باتريك «مَنْ كان ذلك الصبي المُخيف. لا أعتقد أنني رأيت مثل ذلك الوجه الخبيث. إنّه يُشبه نسخة مُصطنعة من الرئيس ماو»

قبل أنْ تتمكن ميري من إعطاء جواب، جاءت والدة الصبي الفظ.

قالتْ «أنا آسفة على ما حدث. إنَّ إليوت يُحبّ المنافسة، ويُشبه والده كثيراً. وأكره أنْ أكبت فيه ذلك الدافع وتلك الطاقة»

قال باتريك «أنتِ تعتمدين في ذلك على النظام الجزائيّ»

قال روبرت، مُمارِساً تحركاته الفنيّة العسكريّة، «عليه أنْ يحاول مُصارعتي»

قال باتريك «دعونا لا نُضخِّم من شأن دمية الأرنب تلك»

قالت والدة الصبي الفظّ، بنبرة صوت زائفة خاصّة، «إليوت، أعِد إلى توماس دميته»

زمجر إليوت «كلا»

قالت أمّه، سعيدة بعناده، «أوه، عزيزي»

كان توماس قد حوّلَ تركيز انتباهه إلى ملقط الموقد الذي كان يجرّه مع ضجيج إلى خارج الدلو. ولما اقتنعَ إليوت بأنّه قد سرق الشيء الخطأ. تخلّى عن الأرنب وتوجه نحو الملقط. رفعتْ ميري الأرنب من الخيط وسلّمته لتوماس، تاركة إليوت يحوم حول الدلو، غير قادر على تقرير ما الذي عليه أنْ يُقاتل من أجله. قدَّمَ توماس خيط الأرنب لإليوت الذي رفضه ومشى نحو والدته مع صيحة ألم.

قالت مُلاطفة «ألا تريد الملقط؟»

ودَّ باتريك لو يتعامل بمزيد من الحِكمة مع توماس أكثر مما فعل مع روبرت، وألّا يورّطه بهمومه ومشاغله. كانت العوائق دائماً تبرز في اللحظة الأخيرة. كان حينئذٍ يشعر بتعب شديد. فالعوائق دائماً تبرز... طبعاً... ويشعر الآن... كأنه يُلاحِق ذيله الخاصّ... كان الكلب ينبح في الجانب المقابل من الوادي... العالمان الداخليّ والخارجيّ يتداخلان... يكاد يستغرق في النوم... وربما يحلم... اللعنة على هذا. اعتدلَ في جلسته وأنهى تفكيره... نعم، حتى أشدّ أنواع العناية المفيدة له ظَلَّ..ّ. حتى جوني (والذي رغم كونه اختصاصيّاً بطبّ نفس الأطفال) لامَ نفسه لدفعه أطفالَه إلى الشعور بأنّه فَهِمَهم فعلاً، بأنه عرِفَ شعورهم قبل أنْ يعرفوا هم أنفسهم ذلك، وبأنَّ في استطاعته أنْ يقرأ دوافعَهم اللّا واعية. لقد عاشوا داخل سجن تعاطفه وخِبرته الشامل. سرقَ حياتهم الداخليّة. وربما كان أطيب ما يمكن لباتريك أنْ يفعله هو أنْ يفرِط عقد عائلته، لكي يُقدِّم لأطفاله كارثة صلبة وفظّة. إنَّ الأطفال كلهم يتحرّرون في نهاية المطاف. فلِمَ لا نمنحهم

جداراً صلباً يرتطمون به، أو منصّة مرتفعة لكي يقفزوا منها. يا الله، إنّه حقاً في حاجة إلى فترةٍ من الراحة.

بعد منتصف الليل، لم يكن الدكتور زيمبلاروف بعيداً عن أفكاره، وهو بلغاريّ كان يُمارس مهنته في قريته المحليّة، ويتكلَّم إنكليزيّة ذات لكنة ثقيلة وبسرعة قُصوى. يقول، وهو يوقِّع بخطٍ دقيق، «في ثقافتنا، لدينا فقط هذا، *La pharmaclogie*. ولو أننا كنا نعيش في منطقة الـ*Pacifique*، لأمكننا أنْ نرقص، ولكنْ بالنسبة إلينا ليس هناك غير المعالجة الكيميائيّة. وعندما سأعود إلى بلغاريا، على سبيل المثال، سوف أتناول عقار الـ *l'amphetamine*، وأقود السيارة، وأقود، وأقود، وأزور عائلتي، وأقود، وأقود، وأقود، ثم أعود إلى لاكوست». وفي المرة التالية التي طلب فيها باتريك بتردُّد المزيد من أقراص تامازيبان، عنّفه الدكتور زيمبلاروف على حيائه المفرِط. «*Mais il faut toujours demander*، سوف آخذها بنفسي عندما أسافر. إنَّ الـ *L'administraiation* تريد أنْ تُحدِّد لنا ثلاثين يوماً، لذلك سوف أضع «قرصاً في مساء كل يوم وقرصاً آخر في الليل»، وطبعاً هذا غير صحيح، لكنه سوف يُجنّبك التردُّد كثيراً إلى هنا. سوف أُعطيك أيضاً أقراص ستيلْنوكس، وهي من زمرة أخرى - زمرة المنوّمات!»، ثم أضاف مع ابتسامة مُستحسِنة، وقلمه الحبر يحوم فوق الورقة، «ولدينا أيضاً زمرة الباربيتيوريت».

لا عَجَبَ أنَّ باتريك كان دائماً يشعر بالتعب، ولا يُساهم في رعاية الطفل إلّا على فترات قصيرة. واليوم، كان توماس يشعر بالألم. كانت بعض الأسنان تشقّ طريقها خلال لثّته المتقرّحة، ووجنتاه كانتا حمراوين ومتورمتين وكان يندفع متحرّكاً في المكان بحثاً عمّا يُلهيه. وفي المساء، ساهم باتريك أخيراً في القيام بجولة سريعة في المنزل. كانت نقطة توقفهما الأولى عند مقبس الكهرباء في الجدار تحت المرآة. نظر توماس إليها بتوق ومن ثم سبق والده بالقول، «كلا، كلا، كلا، كلا، كلا». هزَّ رأسه نفياً برصانة، مُضيفاً أكبر عدد من الـ «كلا» لتحول بينه وبين المقبس، ولكن سرعان ما أزالتِ الرَّغبة سدّ الضمير الصغير، واندفعَ نحو المقبس، مُرتجلاً مأخذاً بأصابعه الصغيرة الرطبة. أبعده باتريك بحركة سريعة ورفعه عن قدميه ودفعه بعيداً على طول الرواق. صرخَ توماس محتجّاً، مُسدِّداً رفستين قويتين إلى خِصيتَي والده.

شهقَ باتريك، «هيا بنا نرى السلَّم»، شاعراً بأنَّ من الظلم أنْ يُعطيه أي شيء أقلّ خطورة بكثير من الإعدام بالصعقة الكهربائيّة. تعرَّف توماس على الكلمة وهدأ، عالِماً أنَّ سُلَّم الألومنيوم الهشّ، المُبقَّع بالدهان في غرفة المرجل يتصِف بقُدرته الخاصّة على التسبُّب بالجراح وبالموت. حمله باتريك بحزم من خصره وهو يرتقي الدَّرَج بحركات بهلوانيّة، يكاد يجعل السلّم ينهار فوقهما. وعندما أعاد توماس إلى الأرض، اندفع راكضاً كالسكران شاقّاً طريقَه بسرعة نحو المِرجَل. أمسكَ باتريك به ومنعه من الارتطام بصهريج المياه. كان حينئذٍ قد أصبحَ مُرهَقاً تماماً. لقد ناله ما يكفي. وهذا لا يعني أنّه لم يُساهم في العناية بالطفل. والآن هو في حاجة إلى عطلة. وعاد يترنّح إلى غرفة الجلوس، حاملاً ابنه المتلوّي.

سألتْ ميري «كيف حالك؟»

قال باتريك «هلكت»

«لستُ متفاجئة، أنتَ معه منذ دقيقة ونصف»

هرع توماس إلى أمّه، فتعثَّرَ في الدقيقة الأخيرة. التقطته ميري قبل أنْ يرتطم رأسه بالأرض وأوقفته من جديد على قدميه.

قالت جوليا «لا أعلم كيف تتدبّران أموركما من دون مربّية»

«بل لا أعرف كيف أتدبَّر أمري مع واحدة. لطالما أردتُ أنْ أعتني بأطفالي بنفسي»

قالتْ جوليا «إنَّ الأمومة تأخذ بعض الناس في هذا الاتّجاه. ويجب أنْ أعترف بأنها لم تفعل ذلك معي، ولكنني كنتُ صغيرة جداً عندما أنجبتُ لوسي»

لكي تبيِّن أنها هي أيضاً تصرّفَتْ بجنون وهي في الجنوب الغارق في أشعة الشمس، جاءتْ كيتل إلى مائدة العشاء مرتدية سترةً من الحرير الفيروزيّ وبنطلوناً من الكتّان الأصفر الليمونيّ. أما باقي أهل المنزل فكانوا ما يزالون يرتدون قمصانهم المُبقّعة بالعَرَق وبنطلوناتهم الكاكي، وتركوها حيث أرادتْ أنْ تكون، شهيدة معاييرها الراقية الوحيدة.

حالما دَخلَتْ صفعَ توماس وجهَه بيديه.

قالتْ كيتل «أوه، ما أجمل هذا. ماذا يفعل؟»

قالتْ ميري «يختبئ»

أبعد توماس يديه وحدَّقَ إلى الآخرين فاغراً فمه. تراجعَ باتريك بحركة سريعة، كأنما ضربته صاعقة جرّاء ظهوره من جديد. كانت تلك لعبة توماس الجديدة. بدا لباتريك أنّها أقدم لعبة في العالم.

قال باتريك «شيءٌ مُريحٌ جداً جعلُه يختبئُ حيث يمكننا جميعاً أنْ نراه. إنني أخافُ اللحظة التي سيشعر فيها بأنَّ عليه أنْ يُغادر الغرفة»

قالتْ ميري «إنه يعتقد أننا لا نراه لأنه هو لا يستطيع أنْ يرانا»

قالت كيتل «يجب أنْ أعترف بأنني أتعاطف مع هذا الكلام. إنني أتمنى من الناس أنْ يروا الأشياء بالضبط كما أراها»

قالت ميري «لكنكِ تعلمين أنهم لا يفعلون ذلك»

قالت كينل «ليس دائماً، يا عزيزتي»

«لستُ متأكّداً من أنّها قصة الطفل الذي يركِّز على ذاته والصبي البالغ المتكيِّف». أخطأ باتريك بالتنظير. «إنَّ توماس يعلم أننا لا نرى الأشياء كما يراها هو، وإلّا لما ضحكَ. النكتة تكمن في تغيير زاوية النظر. إنه يتوقّع منا أنْ ننضمَّ إلى وِجهة نظره عندما يُغطّي وجهَه، ومن ثمّ أنْ نعود إلى وِجهة نظرنا عندما يرفع يديه عن وجهه. نحن العالقون»

تذمّرتْ كيتل «صدقاً، يا باتريك، أنتَ دائماً تحوّل كل شيء إلى فِكر. إنّه مجرد صبي صغير يمارس لعبة»، ثم قالتْ، كمَنْ يتولى قيادة سيارة بالنيابة عن شخص ثمل، «وفيما يتعلَّق بالاختباء. أتذكّر أنني ذهبتُ مع دادي إلى البندقيّة قبل أنْ نتزوج. حاولنا أنْ نُبقي الأمر سرّاً لأنَّ المرء في تلك الأيام كان يُتوقَّع منه أنْ يبذل مجهوداً. حسن، طبعاً كان أول ما حدث لنا هو أننا قابلنا مُصادفة سينثيا ولودو في المطار. فقرّرنا أنْ نتصرَّف كما فعل توماس ونتظاهر بأننا لا ننظر إليهما وأنهما لا يريياننا»

سأل باتريك «وهل نجحت المحاولة؟»

«بل فشلتْ فشلاً ذريعاً، فقد هتفا باسمينا عبر أرض المطار وبأعلى

صوتيهما. وأعتقد أنّه كان جليّاً جداً أننا لم نرغب في أنْ يرانا أحد، لكنَّ اللباقة لم تكن يوماً نقطة قوة لودو. على أي حال، أثرنا كل الضجيج المناسِب»

قالت ميري «لكنَّ توماس رغِبَ فعلاً في أنْ نراه، وهذه هي اللحظة الكبرى»

قالتْ كيتل، مع قليل من لمسة من الغضب، «أنا لا أقول إنه بالضبط الموقف نفسه»

كان روبرت قد سأل باتريك وهما في الطريق إلى العشاء «ما هو» الضجيج المناسِب «؟»

أجاب، آملاً جزئيّاً في أنْ تسمعه، «هو أي شيء يصدر عن كيتل»

لم ينفع كون جوليا لا تُطيق ميري، ولا كان سينفع لو أنها صديقة لها. وولاؤها لميري لم يكن هو القضيّة (أم كان كذلك؟)؛ القضية هي هل يستطيع أنْ يتحمّل لحظة واحدة أخرى من دون ممارسة الجنس. وخِلافاً لشهوات عهد المُراهقة الفائرة، كان لأشواقه الحاضرة لمسة مأساويّة، كانت أشواقاً إلى الشهوات، أشواقاً عارمة، والرغبة في الرغبة. والقضية الآن هي إنْ كان يستطيعُ أنْ يُطيل أمد انتصاب، وليس إنْ كان يستطيع أنْ يتخلّص من ذلك الشيء اللعين. وفي الوقت نفسه على الأشواق أنْ تنمّي البساطة، يجب أنْ تنهارَ وتُصبحَ موضوع الرغبة، لكي تُخفي طبيعتها المأساويّة. وهي لم تكن أشواقاً إلى أشياء يستطيع أنْ يحصل عليها، بل إلى قُدُرات لن يستعيدها أبداً. ماذا سيفعل إذا نال جوليا فعلاً؟ سوف يعتذر لأنه مُرهَق، طبعاً. سوف يعتذر لأنه عاجز. كان (أزِحها عن صدرك، يا عزيزي، فسوف ترتاح) يمرّ بأزمة منتصف العمر، ومع ذلك لا يمرّ بها، لأنَّ أزمة منتصف العمر هي عبارة مُبتذلة، مادة لفظيّة لها تأثير المُنوِّم تعمل على تنويم الخبرة، والخِبرة التي كان يكتسبها ما زالتْ يقظة تماماً – عند الساعة الثالثة والنصف اللعينة صباحاً.

لم يقبل أيّاً من هذا: أي الآفاق المُختزلَة، والقُدُرات المتلاشية. ورفضَ أنْ يشتري نظارات البلّور الصخري التي كان بَصَري الحسير يتوق إليها. كان يكره العفن الذي بدا كأنّه اجتاح مجرى دمه، جاعلاً كل شيء يبدو ضبابيّاً. وانطباع الحِدَّة الذي دائماً يُعطيه للآخرين كان زائفاً. كان كلامه أشبه بلغز

القِطع المبعثرة الذي حلّه مئات المرّات من قبل، كان فقط يتذكَّر ما كان قد فعله من قبل. كان قد كفّ عن عقد صِلات جديدة. كان ذلك كلّه قد انتهى.

سمع من آخر الرواق توماس وقد باشر البكاء. هزَّ ذلك الصوت أعصابه. أراد أنْ يواسي توماس. وأراد من جوليا أنْ تواسيه. أراد لميري أنْ تستمدّ المواساة من مواساتها لتوماس. وأراد أنْ يكون الجميع بخير. لم يعُد يتحمّل. أزاح أغطية السرير جانباً وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً.

سرعان ما هدأ توماس، لكنّ بكاءه أثار ردّة فعل لم يعُد في استطاعة باتريك أنْ يتحكَّم فيها. سوف يذهب إلى غرفة جوليا. سوف يُحوِّل نصيبه الضئيل من الحياة إلى حقلٍ من الخشخاش المتوهّج. فتحَ الباب ببطء، رافعاً إياه على مفاصله لكيلا يصرّ. ثم أغلقه من جديد بخفض المقبض إلى أسفل لكيلا يُقعقع. وحرَّر لسان القفل ببطء ليدخل في الثلم. كان الرواق يتوهّج بضوء ودود كطفل. كان برّاقاً كفناء سجن. مشى عليه، واضعاً قَدَمَه بدءاً بالعقب وحتى الأصابع، طوال الطريق وحتى نهايته، وحتى باب غرفة لوسي الموارب. أراد أولاً أنْ يتيقّن من أنّها ما تزال في غرفتها. نعم، عظيم. عادَ أدراجه إلى باب غرفة جوليا. كان وجيب قلبه يخفق بقوة. شعر بأنّه حيّ بصورة مُخيفة. مال أكثر نحو الباب وأصغى.

ماذا سيفعل بعد ذلك؟ ماذا ستفعل جوليا إذا ولجَ غرفتها؟ تتصل بالشرطة؟ تجرّه إلى سريرها وتهمس له، «لِمَ تأخّرتَ هكذا؟» ربما من غير اللائق إيقاظها في الساعة الرابعة صباحاً. ربما عليه أنْ يُحدِّد موعداً من أجل الليلة التالية. كانت قدماه تزدادان برودة، وهو واقف على حجر الآجر سُداسيّ الشكل.

«بابا»

التَفَتَ فرأى روبرت، شاحباً ومتجهّماً عند ممر باب غرفة نومه.

همس باتريك «مرحباً»

«ماذا تفعل؟»

قال باتريك «سؤال وجيه. حسن، لقد سمعتُ توماس يبكي...»، كان ذلك صحيحاً جداً، «وتساءلتُ إنْ كان بخير»

«ولكن لماذا تقف خارج باب غرفة جوليا؟»

شرح له باتريك «لم أرغب في إزعاج توماس إنْ كان قد عاد إلى النوم».

كان روبرت شديد الذكاء ولم يُصدق ذلك الهراء، ولكنْ ربما كان ما يزال أصغر سناً من أنْ يعرف الحقيقة. بعد سنتين يمكن لباتريك أنْ يُقدِّم له سيجاراً ويقول «إنَّ ذلك الشيء الأخرق الـ *mezzo del camin* (المُثير) يحدث معي، وأحتاج إلى إقامة علاقة سريعة لإسعادي» وسوف يصفعه روبرت على ظهره ويقول «إنني أفهمك تماماً، أيّها العجوز. حظاً سعيداً وصيداً وافراً». وحتى ذلك الحين، هو ما زال في السادسة من العمر ويجب إخفاء الحقيقة عنه.

أطلقَ توماس نواح ألم آخر، وكأنما بُغية إنقاذه من ورطته.

قال باتريك «أعتقد أنني يجب أنْ أدخل. مسكينة الماما ظلّتْ يقظة طوال الليل»

ابتسم لروبرت ابتسامة خالية من المشاعر. قال، وهو يُقبّله على جبينه، «يجب أنْ تحظى بقدرٍ من النوم»

عاد روبرت إلى غرفته، غير مُقتنع.

نشرتْ شمعةُ الأمانَ في غرفة توماس التي يملأها الضجيج وهجاً برتقاليّاً ضعيفاً في أرجاء الأرضيّة. تقصّى باتريك طريقه نحو السرير الذي تنقلُ ميري إليه توماس في كل ليلة من سريره الصغير المكروه، وانخفضَ نحو الفراش، مُبعِداً عدداً كبيراً من الدُمى اللينة إلى الأرض. تلوّى توماس وتقلّبَ، محاولاً أنْ يتّخذ وضعاً مُريحاً. تمدَّد باتريك إلى جواره، متأرجحاً على حافة السرير. لم يكن حتماً سيحظى بأي قدر من النوم على علبة السردين المتقلقلة تلك، ولكن ليته فقط يستطيع أنْ يزيحه قليلة، فقد ينال قسطاً من الراحة؛ ليته ينعس؛ ويفوز بانسياب الأحلام من دون طغيانها، سوف يكون ذلك رائعاً. سوف ينسى حادثة جوليا. ما هي حادثة جوليا؟

ربما لن يُصبح توماس مُحطَّماً عندما يكبُر. ماذا يمكن أنْ يطلب أفضل من هذا؟

كان قد بدأ ينساب بأنصاف أفكار... أرباع أفكار، والعدد ينقص... وينقص.

شعرَ باتريك برفسة قوية تُسدَّد إلى وجهه. فاض دفق الدم الحادّ على أنفه وعلى سقف حلقه.

قال «يا إلهي، أعتقد أنني أُصِبتُ بنزيف في الأنف»

غمغمت ميري «يا مسكين»

همسَ، متراجعاً إلى الأرض، «الأفضل أنْ أعود إلى غرفتي». أعاد حرّاس توماس الليّنين إلى أماكنهم ونهضَ واقفاً على قدميه. شعر بألم في رُكبتيه. ربما أُصيبَ بالتهاب المفاصل. قد ينتقل هو أيضاً إلى مأوى العجزة الذي تنزل فيه أمّه. أليس هذا شيئاً ممتعاً؟

عاد يمشي مترهّلاً على طول الرواق، ضاغطاً فتحة أنفه ببرجمة سبّابته. كانت هناك بُقعٌ من الدم على منامته: كفى إشارة إلى الخشخاش. أصبحت الساعة الآن الخامسة صباحاً، تأخّر الوقت كثيراً بالنسبة إلى أحد نصفَي الحياة وما زال باكراً بالنسبة إلى النصف الآخر. لا أمل في النوم. وقد ينزل إلى الطابق السُفليّ، ويشرب مقداراً كبيراً من القهوة العُضويّة الصحيّة ويُسدِّد قيمةَ بعض الفواتير.

-7-

كانت كيتل جالسةً على طاولة حجريّة، تضع نظارات قاتمة وتعتمر قبعة ضخمة من القش. أغلقَتْ نسختها من سيرة حياة الملكة ميري من تأليف جيمس-بوب هينيسّي، مُستخدمة بطاقة إقامة فاتَ أوانها كمؤشّر كتاب ووضعتْه بجوار طبق طعامها.

قال باتريك، مُعدّلاً كرسي أمّه المتحرك ليُصبح في الموقع الصحيح، «كأنني في حلم وأنتما الاثنتان معاً في وقتٍ واحد»

قالت، مُعمِّمة، «كأنّه.... حلم»

سألتْ كيتل، بكثير من اللا مبالاة، «كيف حالك، يا عزيزتي؟»

«أنا...»

الجهد الذي بذلته إلينور لكي تقول، بعد مرور بعض الوقت، وبنبرة صوت عالية، «بخير»، أعطى انطباعاً مختلفاً تماماً، وكأنها هي نفسها مندفعة نحو «الجنون» أو «البؤس» وبالكاد نجحتْ في الإفلات في اللحظة الأخيرة. كشفَتْ ابتسامتها المُشرقة عن فجوة في أسنانها لطالما ناشدها باتريك أنْ تردمها. ولكن عبثاً: لن تُبدِّد النقود للإنفاق على نفسها في الوقت الذي ما زالت تنفق على الأعمال الخيريّة. والمبلغ الضئيل المتبقّي من دخلها كانت تُخصّصه لصهاريج الحسّ-والحرمان الخاصّة بشيموس. وفي تلك الأثناء كانت قد قطعتْ شوطاً في طريقها لحرمان نفسها من حسّ الأكل. وتلوّى لسانها وتمعّجَ بين الصخور المتكسِّرة، باحثاً وسط الحرمان عن سن كامل. كانت هناك أماكن عِدَّة مُحرَّمة حسّاسة اتجاه الطعام ولا يمكن ولوجها.

قال باتريك النادم، المُكبَّل بالواجب، منطلقاً عبر المرج كسبّاح يندفع إلى السطح بعد أنْ غاصَ وقتاً طويلاً، «سوف أساعد في إعداد الغداء»

كان يعلم أنَّ ما يحتاج إلى الهرب منه ليس أمّه بل مزيج الملل والحنق القاتل الذي ينتابه كلما فكَّر فيها. لكنَّ ذلك كان مشروعاً طويل الأمد. حذَّرَ نفسه بصوتٍ رقيق مُتكلِّف، «قد يستغرق الأمر أطول من حياة كاملة». وبعد أنْ استعرضَ الدقائق القليلة التالية، وجد أنّه يحتاج إلى أنْ يُضيف أطول مساحة حرفيّة-واقعيّة ممكنة بينه وبين أمّه. وفي صباح ذلك اليوم وجدها، في مأوى العجزة، جالسة بجوار الباب وحقيبتها على رُكبتيها، كأنها مُستعدة منذ ساعات. سلَّمته ملاحظة قصيرة مكتوبة بقلم رصاص باهت. تقول فيها إنها تريد أنْ تنقل ملكيّة سان-نازير إلى المؤسسة مباشرة وليس، كما هي العادة، بعد موتها. لقد نجحتْ في تأجيل الإجراءات في العام الفائت، ولكن ألا يستطيع أنْ يتدبَّر الأمر من جديد؟ وذكرتْ في الملاحظة أنها «تحتاج إلى إنهاء الأمر» وتريد مُساعدتَه و «مباركتَه». كانت آثار لغة شيموس المُنمّقة ظاهرة في كل أرجاء الرسالة. ولا ريب في أنّه وضع خطّة مراسم إنهاء الأمر، سوف تضع رقصةَ نشوة الهنود الحمر نهايتها الخاصّة بكونٍ أكبر وكونٍ أصغر، السماء الأب والأرض الأم، الرمزيّة والواقعيّة، والطرد الفوريّ والأبديّ لباتريك وعائلته من سان-نازير. وفي قلب النزاع الشرس للانفعالات المُضادة، كان في استطاعة باتريك أحياناً أنْ يلمح اشتياقه للتخلُّص من ذلك المكان اللعين. وعند نقطة معيَّنة سوف يُضطر إلى ترك الأمر كلّه، سوف يُضطر إلى العودة إلى سان-نازير لقضاء عطلة نهاية أسبوع للعلاج بقرع الطبول على طريقة الهنود، ليطلب مساعدة شيموس للتحرُّر من منزل طفولته، والمُشاركة في كل ما هو شديد الخصوصيّة.

عندما عبر باتريك من المصطبة إلى كرم الزيتون تخيّل أنَّه يُمجِّد أمام جماعة من ممارسي طقوس الهنود والوافدين الجُدُد إليها ما تنطوي عليه عودته إلى العقار من حسنات وتحدٍّ ومن «عدم تصديق أنَّها ممكنة، ولكن ينبغي أنْ أستخدم كلمة «جمال» تلك العودة، من أجل إنجاز عمليّة التخلّي عن العقار وإنهائها (تنهدات الاستحسان). وفي وقتٍ من الأوقات شعرتُ بالاشمئزاز وأيضاً، نعم، يجب أنْ أعترف، بكراهية شيموس والمؤسّسة وأمي

نفسها، لكنَّ بغضي تحوّل بفعل معجزةٍ إلى امتنان، وأستطيع بكل صدق أنْ أقول (شعر بغصّة صغيرة في حنجرته) إنَّ شيموس لم يكن فقط مُعلّماً رائعاً وقائد قرع طبول، ولكن أيضاً صديقي الأفضل (بعض التصفيق والهرج)»

أزاح باتريك صورته المتخيّلة الصغيرة بإصدار صوت ساخر وجلس على الأرض وظهره للمنزل، متكّئاً على الجذع الرمادي المُدجَّج بالعُقد لشجرة زيتون عتيقة ذات فرعَين التي لطالما استخدمها طوال حياته للاختباء وللتفكير. كان عليه أنْ يتذكَّر أنَّ شيموس لم يكن مُخادعاً صريحاً غشَّ سيدة عجوز وسلبَ نقودها. لقد أفسدَ إلينور وشيموس كلٌّ منهما الآخر بالمبالغة في حُسن نواياهما. ربما استمرَّ شيموس في أداء بعض أعمال الخيِّر، بتغيير نونيّة السرير في نافان - البلدة الوحيدة في أيرلندا التي يمكن نطق اسمها بالعكس وتبقى كما هي - وكان يمكن لإلينور أنْ تعيش في ريفيتا وأنْ تهِبَ دخلها للعمي، أو للبحث الطبّي، أو لضحايا التعذيب، لكنهما بدل ذلك تكاتفا ليصنعا نُصُباً يمثّل الغرور والخيانة. كانا معاً سينقذان العالم. ومعاً سيزيدان الوعي ويُخرسان جمهور الناخبين الأخرس أصلاً بصورة خطِرة. والجزء الطيب من شيموس دمَّره كَرَم إلينور المَرَضيّ، والجزء الطيب في إلينور دمّره خيال شيموس التافه.

ما الذي حوّلَ إلينور إلى مخلوق منافق دَعِيّ؟ لقد شعر باتريك بأنَّ بُغض إلينور يكمن في أعماق حبّها الإيثاريّ المُفرِط في طموحه. وكانت إلينور قد أخبرته قصّة أمها التي أخذتها إلى أول حفلة كبيرة، والتي أُقيمَتْ في روما بُعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية. كانت إلينور ذات الأربعة عشر ربيعاً قد عادتْ من مدرستها الداخليّة في سويسرا لقضاء العطل. وكانت أمّها، المرأة الأميركيّة الثريّة والمتكبِّرة الصارمة، قد تطلّقتْ من والد إلينور الفاحش، والفاتن والمُجرَّد من الألقاب، وتزوجتْ من دوق فرنسيّ قزم وسَيِّئ الطِباع، جان دو فالانسي، المهووس بمسائل المكانة وسلسلة النَسَب. وعلى الرغم من اقتراب المرحلة البالية من الجمهوريّة شبه الشيوعيّة واعتماده الكليّ على تمويل زوجته صاحبة الثروة الصناعيّة الحديثة، كان يصرّ أكثر على عراقة سلسلة نَسَبه. وفي ليلة الحفلة، جلستْ إلينور في سيارة أمّها الهيسبانو-سويزا الضخمة، المتوقفة بجوار مبنى مُدمَّر، عند المنعطف بالقرب من

نوافذ منزل الأميرة كولونا. وكان زوج أمّها قد مرِضَ فجأة لكنه أخذَ عهداً من زوجته، وهو واهن على سرير مُزخرف من عصر النهضة امتلكته عائلته منذ أنْ اشترته زوجته منه قبل شهر، على ألّا تدخل منزل الأميرة إلّا بعد الدوقة دي دينو، التي لها الأسبقيّة. وقد اتَّضحَ أنَّ الأسبقيّة تعني أنّه يحقّ لأمها أنْ تصل متأخّرة. وانتظرتا في السيارة. على المقعد الأمامي، إلى جوار السائق، جلس خادم، كان يُرسَل على فترات لكيّ يتفقّد إنْ كانت الدوقة الأدنى مرتبة قد وصلَتْ. كانت إلينور فتاةً خجولاً ومثاليّة، يُسعدها أنْ تتحدّث مع الطبّاخة أكثر من الحديث مع الضيوف الذين يُقدَّم إليهم الطبخ، لكنّها كانت لا تزال شديدة التوق والفضول فيما يتعلَّق بالحفلة.

«ألا نستطيع أنْ ندخل وكفى؟ نحن لسنا حتى إيطاليين»

قالتْ أمّها «سوف يقتلني جان إذا فعلت»

قالت إلينور «لا يستطيع»

تجمّدتْ أمّها من فرط الغضب. وندمتْ إلينور على ما قالت، لكنها شعرتْ أيضاً بوخز الفخر المراهِق لإعطاء الأسبقيّة للصدق بدل اللباقة. نظرتْ إلى خارج القفص الزجاجيّ لسيارة أمّها فرأتْ أحد المُشرَّدين يتقدَّم منهم بخُطى متعثرة مرتدياً ملابس بنيّة ممزّقة. ومع اقترابه، ميَّزتْ حِدَّة تقاطيع وجهه الشبيه بالجمجمة، والجوع الهائل يطلّ من وجهه. جرَّ قَدَميه مقترباً من السيارة وربتَ على زجاج النافذة، مُشيراً إلى فمه متوسلاً، ورافعاً يديه مُصلياً، ومُشيراً من جديد إلى فمه.

نظرتْ إلينور إلى أمّها. كانت تُحدِّقُ أمامها مباشرة، في انتظار سماع اعتذار.

قالتْ إلينور «يجب أنْ نمنحه بعض النقود. يكاد يموت جوعاً»

قالتْ أمّها، من دون أنْ تدير وجهها «وأنا كذلك. إذا لم تصل تلك المرأة الإيطاليّة قريباً، فسوف أُجنّ»

ربتَتْ على الزجاج الفاصل بينها وبين المقعد الأمامي ولوّحت بيدها بنزق للخادم.

عندما ولجتا المنزل في نهاية المطاف، أمضَتْ إلينور الوقت في الحفلة

بأول دفق من الحمّى الخيِّرة. التحمَ رفضُها لقيَم أمّها مع فِكرها هي المثاليّ لإنتاج صورة مُسكِرة لنفسها على هيئة قديسة حافية؛ كانت تنوي أنْ تُكرّس حياتها لمساعدة الآخرين، ما داموا لا يمتّون إليها بصِلة. وبعد مضيّ بضع سنوات، حثّتْ الأم إلينور للسير على درب نكران الذات عبر السماح لنفسها أنْ تتعرَّض للتنمُّر، وهي راقدة تحتضر متأثّرة بمرض السرطان، ودفْعِها إلى ترك ثروتها الشاسعة كلها تقريباً مباشرة لزوج أمّ إلينور. وكان قد احتجَّ على أنَّ الوصيّة الأصليّة، التي تقول إنه يحقّ له الاستفادة من ثروتها فقط في أثناء حياته، تشكِّل إهانة لشرفه لأنها تشير ضمناً إلى أنَّه يمكن أنْ يغشّ بنات زوجته بحرمانهن من الميراث. قام هو، بدوره، بنكث وعده الذي قطعه لزوجته المُحتضرة وترك الغنيمة لقريبهِ. حينئذٍ كان وضع إلينور شديد التعقيد بسبب سعيها الروحيّ بحيث لم تعترف بمدى تشوّشها بما يتعلّق بخسارتها كل تلك الثروة. وانتقل الاحتقار إلى باتريك، الذي حافظ عليه بحرص كأنّه إحدى التُحَف الأثريّة التي كان جان يُحبّ أنْ يجمعها على حساب زوجته. وكانت أمّها تحب حاملي لقب دوق في حين أنَّ إلينور كانت تميل إلى الأطباء المُشعوذين المُدَّعين، ولكن بغضّ النظر عن الانحدار الاجتماعيّ بقيَتْ الصيغة الأساسيّة هي نفسها: انهبي الأطفال من أجل تحسين صورتك العامة، صورة الليدي الفخمة، أو الحمقاء المُقدّسة. كانت إلينور قد دفعَتْ إلى الجيل التالي الأجزاءَ من خبرتها التي رغبتْ في التخلُّص منها: الطلاق، الخيانة، كراهيّة الأم، والحرمان من الميراث، وتشبّثتْ بفكرة كونها جزءاً من خلاص العالم، عصر برج الدلو، وعودة المسيحيّة البدائيّة، وإحياء المذهب الشاماني[1] - لقد تغيَّر المُصطلح عبر السنين، لكنَّ دور إلينور بقيَ على حاله: بطولياً، متفائلاً، مثاليّاً، فخوراً باتّضاعه. ونتيجة نفسيتها العنصريّة كانت تجمّد الأجزاء المنبوذة والطموح معاً من نفسها. وفي ليلة تلك الحفلة الرومانيّة، اقترضَتْ بعض المال من صديقٍ للعائلة واندفعتْ إلى الخارج لتفتِّش عن المتشرّد الجائع الذي سوف تُنقذ حياته. بعد مسافة

1- الشامانيّة: مذهب ديني بدائيّ من أديان شمالي آسيا وأوروبا ويقوم على الاعتقاد بوجود عالَم محجوب، وله آلهته وشياطينه وأرواح أسلافه الخاصة، ويتبنّاه خاصة الهنود الحمر - المترجم.

قصيرة، وجدتْ أنَّ الشوارع لم تستردّ عافيتها بسرعة بعد حرب دامت ست سنوات وتعود مصدراً للمرح كما كانت قد تركتها. ولم تستطع مقاومة الشعور بأنَّ وجودها شاذّ بين الجرذان والحطام، وهي ترتدي ثوب الاحتفال الأزرق السماويّ وتقبض بيدها التواقّة على مبلغ ضخم من الأوراق الماليّة. وأخذَتْ الظلال تتنقّل عند أحد الأبواب، وأعادتها دفقة من الخوف وهي ترتعش إلى سيارة أمّها.

بعد ذلك بخمسة وخمسين عاماً، لم تكن إلينور قد عثرتْ بعد على طريقة واقعيّة تُنفِّذ بها رغبتها في أنْ تكون خيِّرة. وهي ما زالت تشتاق إلى الوليمة من دون أنْ تُخفِّف المجاعة. وعندما كانت الأمور تسوء، وهذا ما كان يحدث دائماً، لم يكن يُسمَح للتجارب السيئة بتعليم المُراهِق التوّاق إلى المعرفة؛ كانت تُنفى إلى قمامة التجارب السيئة. وازداد النصف الخفيّ من إلينور مرارة وارتياباً، لكي يتمكّن النصف المرئيّ من البقاء ساذجاً ومتلهّفاً. وقبل أنْ يظهر شيموس كان هناك موكبٌ طويل من الحلفاء. سلّمتْ إلينور حياتها لهم بثقة تامّة ومن ثم، بعد مرور بضع ساعات على آخر لحظة من كمالهم، رُفِضوا فجأة، ولم تعُد تذكرهم أبداً. ولم يُعرَف ما الذي فعلوه بالضبط لكي يستحقوا النفي. كان المرض يُنتِج اتّحاداً مُخيفاً بين ذاتين تكبّدتْ إلينور عناءً ثقيلاً للحفاظ على انفصالهما. كان باتريك شديد الرغبة في معرفة إنْ كانت دورة الثقة والنبذ سوف تبقى سليمة. فقبل أي شيء، إذا انتقل شيموس إلى عالم الأشباح، فقد ترغب إلينور في حلّ المؤسّسة بحماس يُعادل رغبتها في تأسيسها. ربما كان في استطاعته أنْ يُؤخِّر مجرى الأمور لمدة عامٍ آخر. ها هو ما زال يأمل في أنْ يتمسّك بالمكان.

يتذكّر باتريك أنّه كان يتجول بين غرف وحدائق منازل جدّته النموذجية العديدة. وشهد انهيار ثروة عالميّة ومسخها إلى ثروة متواضعة استمتعت بها أمّه وخالته نانسي وصلتْ إليهما عبر إرث صغير نسبيّاً استلمتاه قبل أنْ تستسلم أمّهما لأكاذيب زوجها الثاني وتنمّره. وبدت إلينور ونانسي ثريتين لبعض الناس، بعيشهما في منازل راقية، واحدة في لندن والأخرى في نيويورك، وكل منهما تسكنان في الريف، ولم تحتج أيٌّ منهما إلى العمل، أو في الحقيقة إلى التسوُّق، والغسيل، والاعتناء بالحديقة أو الطبخ لنفسيهما،

ولكن في تاريخ عائلتهما كانوا يعيشون بنقود قليلة. كانت نانسي، التي ما زالتْ تُقيم في نيويورك، تنقّب في كرّاسات مزادات المنازل العالميّة بحثاً عن صور أغراض كان ينبغي أنْ تمتلكها. وفي المناسبة الأخيرة التي قام خلالها باتريك بزيارتها في الشارع التاسع والستين، بالكاد قدَّمتْ له كوباً من الشاي قبل أنْ تعرض عليه كرّاساً أسود صقيل الورق من مزاد كريستي، في جنيف. كان قد وصلها توّاً وفي داخله كانت هناك صورة فوتوغرافيّة لاثنين من أشهر البستانيين مُزيّنة بنحل ذهبيّ يكاد يُسمَع وهو يطنّ بين الأغصان الفضيّة المُزهِرة. كان قد صُنِعَ من أجل نابوليون.

قالتْ نانسي بمرارة «لم نكن متعودين على التعليق عليها. هل تفهم ما أقول؟ كانت هناك أشياء عديدة جميلة. كانوا فقط يجلسون على المصطبة تحت المطر. مليون ونصف المليون دولار، هذا ما أنفَقَه نسيبنا الصغير على أحواض حديقة أمي. أعني، ألا ترغب في الحصول على بعضٍ من هذه الأشياء لكي تعطيها لولديك؟». قالتْ هذا وهي تحمل إليّ مجموعة من ألبومات الصور الفوتوغرافيّة والكرّاسات، لكي تختصر سعر البيع بإضفاء مغزى عاطفياً على ما ضاع.

تابعتْ تخفيف سُمّ استيائها وتقدّمه له طوال الساعتين التاليتين.

كان بين حين وآخر يُشير إلى أنَّ «هذا وقع قبل ثلاثين عاماً»

زمجرتْ دفاعاً عن هوسها «لكنّ النسيب الصغير يبيعُ شيئاً من أغراض أمي في كل أسبوع»

جعل استمرار دراما الخِداع وخِداع النفس باتريك في حالة من الكآبة العنيفة. ولم يشعر بسعادة حقيقيّة إلّا عندما رحّبَ به توماس لأول مرة بفيضٍ من الحب التلقائيّ، فاتحاً ذراعيه مُرحّباً. وفي وقتٍ مُبكّرٍ من صباح ذلك اليوم، كان قد حمل توماس وتجول به في أرجاء المصطبة، باحثاً عن أبو بريص خلف مصاريع النوافذ. قبَض توماس على كل مصراع في أثناء مرورهما، إلى أنْ رفع القفل فانفتح مع صرير. أحياناً كان أبو بريص يندفع مرتقياً الجدار نحو ملجَأ في الطابق الأعلى. وأشار توماس إليه، وفمه فاغر من الدهشة. كان أبو بريص هو مفتاح الحَدَث الحقيقيّ، ولحظة الإثارة المُشتركة. أمال باتريك رأسه جانباً

إلى أنْ أضحت عيناه في مستوى واحد مع عينَي توماس، وهو يُسمّي الأشياء التي يُقابلانها، قال باتريك، «الناردين... السفرجل اليابانيّ... شجرة التين». لزم توماس الصمت إلى أنْ قال فجأة، «ريك!». حاولَ باتريك أنْ يتخيّل العالم من منظور توماس، لكنها كانت مهمّة عقيمة. في أغلب الوقت، لم يكن قادراً حتى على تخيّل العالم من وِجهة نظر نفسه. واعتمد على هبوط الليل ليمنحه دورة تدريبيّة سريعة في اليأس الحقيقيّ الكامن تحت مسار الأيام التفهة، البعيدة، الممتعة على فترات متفاوتة. وقد كان توماس هو المادة المُضادة للاكتئاب، لكنَّ الأثر سرعان ما تلاشى عندما بدأ الجزء السفليّ من ظهره يؤلمه واستسلم لرعبه من الموت المُبكِّر، من الموت قبل أنْ يكبر الطفلان بالقدر الكافي ليكسبا لقمة عيشهما، أو ليتعاملا مع موت شخص عزيز عليهما. لم يكن لديه سبب ليُصدِّق أنّه سوف يموت قبل الأوان؛ كانت تلك الطريقة الأشد فظاعة ولا يمكن التحكُّم فيها لخذل طفليه. لقد أصبح توماس رمزاً للأمل، ولم يترك أي شيء لأي شخص آخر.

حمداً لله لأنَّ جوني سيأتي في وقت متأخّر من الشهر. وشعر باتريك بأنه متيقّن من أنّه يفتقد شيئاً يمكن لجوني أنْ يبيِّنه له. كان سهلاً معرفة معنى المرض، ولكن من الصعوبة بمكان معرفة معنى الصحّة التامة.

«باتريك!»

كانوا يُلاحقونه. سمعَ جوليا تهتف باسمه. ربما تنضمُّ إليه خلف شجرة الزيتون، وتُداعب قضيبه قليلاً، لكي يشعر بأنّه أخفّ وزناً وأشدّ هدوءاً خلال تناول الغداء. فكرة عظيمة. الوقوف خارج باب غرفتها ليلة أمس. وخزُ الإحساس بالخزي وبالخيبة. نهضَ واقفاً على قدميه. ركبتاه تخذلانه. التقدُّم في السن والموت. السرطان. بعيداً عن منطقته الخاصّة ونحو فوضى الآخرين، أو بعيداً عن فوضى منطقته الخاصة ونحو السلطة السهلة لارتباطه بالآخرين. لم يعرف أبداً الاتّجاه.

«جوليا، مرحباً، أنا هنا»

قالت جوليا، وهي تسير بحذر على أرض أكثر وعورة من كرم الزيتون، «لقد أرسلوني لأبحث عنك. هل أنت مختبئ؟»

قال باتريك، «ليس عنك. تعالي واجلسي هنا قليلاً»

جلستْ جوليا إلى جواره، وظهراهما يستندان إلى الجذع المتشعِّب.

قالتْ «هذا مُريح»

قال باتريك «إنني أختبئ هنا منذ أنْ كنتُ طفلاً. إنني مُندهِش لعدم وجود انخفاض في الأرض». سكت وأخذ يُخمِّن مخاطر إخبارها.

«ليلة أمس وقفتُ خارج باب غرفتك عند الساعة الرابعة صباحاً»

قالتْ جوليا «لِمَ لَم تدخل؟»

«أكنتِ ستسعدين برؤيتي؟»

قالتْ، وهي تميل عليه وتُقبّله قُبلة سريعة على شفتيه، «طبعاً»

شعر باتريك بدفقٍ من الإثارة. وتخيّلَ أنّه يتظاهر بأنّه شاب، يجري بين الحجارة الحادّة والأغصان الصغيرة الساقطة، ويضحك بشجاعة بينما البعوض يقتات على لحمه العاري.

سألته جوليا «ما الذي منعك؟»

«روبرت. لقد وجدني أقفُ متردداً في الرواق»

«في المرة التالية يُستحسن ألّا تتردَّد»

«وهل ستكون هناك مرّة ثانية؟»

«لِمَ لا؟ أنتَ تشعر بالضجر وبالوحدة؛ وأنا أشعر بالضجر وبالوحدة»

قال باتريك «يا الله. إذا اجتمعنا معاً فسوف تكون الحصيلة كميّة مُخيفة من الضجر ومن الوحدة في الغرفة»

«أو ربما يمتلكان شحنتين كهربائيتين متناقضتين وكل منهما سيلغي الآخر»

«هل أنتِ ضجرة سلبيّة أم إيجابيّة؟»

قالتْ جوليا «إيجابيّة. وأنا أشعر بوحدة إيجابيّة مُطلقة»

ابتسم باتريك «إذن، ربما تتفوقين عليّ في هذا. فثمة شيء سلبيّ جداً يتّصِفُ به ضجري *أنا*. سوف نضطر إلى إجراء تجربة في ظل ظروف صارمة لنرى إنْ كنا سنُنجِز إزالة تامة للضجر أو لإحساس مفرط بالوحدة»

قالتْ جوليا «يجب أنْ أجرّك الآن حقاً لكي نتناول الغداء، وإلّا اعتقدَ الجميعُ أنَّ بيننا علاقة»

تبادلا القُبل. باللسانين. كان قد نسي استعمال اللسان في القُبَل. شعر كأنّه مُراهق يختبئ خلف شجرة، يُجرِّب القُبَل الحقيقيّة. كان الشعور بأنّه حيّ شيئاً مُربِكاً، يكاد يكون مؤلِماً. شعر باشتياقه المكبوت إلى القُرب يتدفّق من خلال يده وهو يضعها بحذر على بطنها.

قالتْ «لا تجعلني أندفع الآن، هذا ليس عدلاً»

نهضا واقفين على أقدامهما وهما يتأوهان.

قالتْ جوليا، وهي تنفض الغبار عن ثوبها، «لقد وصل شيموس توّاً وجئتُ لكي أُحضرك. كان يشرح لكيتل عما جرى خلال ما تبقّى من العام»

«وماذا قرّرت كيتل بهذا الشأن؟»

«أعتقد أنّها قرّرتْ أنْ تعتبر شيموس رجلاً ساحراً لكي تستفزّكما أنت وميري»

«طبعاً فعلتْ هذا. فقط لأنكِ أربكتني إلى درجة أنني لم أحلّ هذا الأمر بعد»

وتوجها إلى المائدة الحجريّة، مُحاولَين ألّا يُكثرا من الابتسام أو أنْ تبدو عليهما الرصانة الزائدة. وشعرَ باتريك بأنّه ينزلق عائداً إلى التعرُّض لتركيز انتباه العائلة عليه. ابتسمتْ ميري له. وفتحَ توماس ذراعيه مُرحّباً. وحدَّقَ روبرت إليه بعينيه الخائفتين، الذكيتين. رفعَ توماس وابتسم لميري، مُفكّراً، «يمكن للرجل أنْ يبتسم وأنْ يكون نذلاً». ثم جلسَ بجوار روبرت، شاعراً كما كان قد شعر عندما دافع عن زبون مُذنب بلا ريب أمام قاضٍ معروف عنه الصرامة. لاحظَ روبرت كل شيء. وأُعجِبَ باتريك بذكائه، ولكنَّ روبرت لم يُخفِّف من كآبته كما حصل مع توماس، بل جعله يعي أكثر التماسُكَ المرهف للتأثير المُدمِّر الذي يُمارسه الآباء على أولادهم – التأثير الذي مارسه على ولديه. وحتى إنْ كان أباً مُحبّاً، حتى لو لم يكن يرتكب الأخطاء الفادحة التي ارتكبها والداه، فإنَّ الحَذَر الذي وظَّفه في المهمّة أوجدَ مستوى آخر من التوتّر، التوتّر الذي اختاره روبرت. مع توماس سوف يختلف

الوضع – سوف يكون أكثر حريّة، وسهولة، إنْ كان في وسع المرء أنْ يكون حرّاً ومرتاحاً وهو يشعر بأنّه ليس حراً ولا مرتاحاً. كان الوضع كلّه ميؤوساً منه. إنَّ عليه حقاً أنْ يحظى بليلة من النوم الكافي. وصبَّ لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر.

قال شيموس، وهو يُدلِّك له ظهره، «يُسعدني لقياك، يا باتريك»

شعر باتريك برغبة في لكمه.

قالتْ كيتل «كان شيموس يُخبرني كل شيء عن ورشه. ويجب أنْ أعترف بأنها تبدو مُذهلة حقاً»

قال باتريك «لِمَ لا تشترك في أحدها؟ إنها الطريقة الوحيدة لترى المكان في فصل الكرز»

قال شيموس «آه، شجيرات الكرز. إنها رائعة حقاً. لطالما أقمنا طقوساً حول شجيرات الكرز – كما تعلم إنها ثمار الحياة»

قال باتريك «يبدو قولاً عميقاً جداً. هل يكون مذاق الكرز أطيب إذا اعتبرته ثمار شجرة الكرز؟»

قالت إلينور «الكرز... نعم... كلا...»، ونفضَتْ عنها الفكرة بسرعة بكلتا يديها.

قال شيموس، وهو يقبض على يد إلينور مُطمئناً، «إنها تحبّ الكرز. إنها ثمار عظيمة، أليست كذلك؟ كثيراً ما أحضرتُ لها مِلْءَ وعاء كبير منها وهي في مأوى العجزة، طازجة، طبعاً»

قال باتريك، راشفاً القطرات الأخيرة من كأس النبيذ، «إيجارها ضخم»

قالت إلينور، وقد انتابها الذعر، «كلا، لن نستأجر»

أدركَ باتريك أنّه يُزعج أمّه. بل إنه لم يستطع أنْ يستمر في تهكّمه. لقد سُدَّت في وجهه كل السُبُل. وصبَّ لنفسه كأساً أخرى من النبيذ. ذات يوم سوف يُضطر إلى التخلّي عن الأمر كلّه، ولكن الآن سوف يستمر في القِتال؛ لا يستطيع أنْ يتوقف. ولكن، يتقاتل مع مَنْ؟ ليته لم يتكبّد عناء جعل حمق والدته قابلاً للتطبيق شرعيّاً. لقد أوكلتْ إليه، من دون أيّ حس ساخر، مهمّة

حرمان نفسه من الميراث، وقد نفّذها بعناية. أحياناً كان يفكّر في إحداث عيب ما في الأساسات. لقد حضرَ الاجتماعات متعدّدة السلطات مع *notaires* (كتّاب العدل) ومحامين، وناقشوا أساليب تجنّب حرمان الميراث القسريّ في الدستور النابوليونيّ، والطريقة المُثلى لوضع أساسٍ خيريّ، ونتائج الضريبة وإجراءات دفتر المُحاسبة، وهو لم يفعل شيئاً خِلاف تهذيب الخطّة لجعلها أقوى تأثيراً وفعاليّة. والمخرج الوحيد كان حزمة الديون المرنة التي تقترح إلينور تخفيضها. في الحقيقة هو قدَّمها من أجل حمايتها. وحاول تنحية الأمل في أنْ تستفيد منها، أما الآن وقد أوشك أنْ يفقد ذلك الأمل، أدركَ أنّه كان يكنّه في سرّه، ويستخدمه ليُبقيه على مسافةٍ قصيرةٍ ولكن قاتلةٍ من الحقيقة. قريباً سوف تضيع سان-نازير إلى الأبد وليس في وسعه فعل أي شيء بهذا الخصوص. إنَّ أمّه حمقاء لا ماديّة وزوجته تركته مع توماس. ما زال لديه صديق موثوق واحد، أخذ ينشج ببكاء صامت، ويصبّ المزيد من النبيذ الأحمر في كأسه. وسوف يسكر حتماً ويُسيء إلى شيموس، أو ربما لن يحدث له هذا. في الختام، إنَّ إساءة السلوك أصعب من حُسن السلوك. هذه هي مشكلة ألّا يكون مُضطرباً عقليّاً. لقد سُدَّتْ كلُّ السُبُل.

كانَ ثمَّة مشهدٌ يتكشَّف من حوله، بلا أدنى شكّ، لكنَّ انتباهه كان غائباً تماماً إلى درجة أنّه لم يُميِّز ما يجري. إذا شقَّ طريقه بصعوبة إلى أعلى مهوى بئر زلقة، فماذا سيجد على أي حال؟ خِلاف كيتل وهي تُطري أساليب الملكة ميري في تنشئة الطفل، أو شيموس يشعّ سِحراً كلتيّاً[1]؟ نظر باتريك عبر الوادي، ثمة شكل قفّاز من الذاكرة وتداعي الأفكار. في وسط المشهد هناك منزل آل مودْوي الريفيّ القبيح، شجرتا الأكاسيا الكبيرتان هناك ما زالتا ناميتين في الفناء الأماميّ. عندما كان طفلاً كان دائماً يلعب مع مارسيل مودْوي الشبيه بسمكة المجداف. كانوا يُشكّلون رِماحاً من القَصَب الأخضر الفاتح الذي ينمو على كلا ضفّتَي الجدول في قعر الوادي. كانوا يرمون بها الطيور الصغيرة التي تنجح في الفرار قبل بضع دقائق من ارتطام القصب بالغصن الذي تركوه. وعندما كان باتريك في السادسة من العمر دعاه صديقه

1- الكلتيّ: ينتمي إلى شعوب قديمة سكنت اسكتلندا وويلز وأيرلندا قديماً.

القديم مارسيل لمشاهدة والده وهو يقطع رأس دجاجة. هنفَ مارسيل، ليس هناك ما هو أشد غرابة وتسلية من مشاهدة دجاجة تدور حول نفسها بحركة سريعة ضمن دوائر سخيفة بحثاً عن رأسها. يجب أنْ تشاهدها بنفسك. وانتظر الصبيّان تحت ظلال شجرتَي الأكاسيا. كانت فأس قديمة مغروزة في زاوية قريبة عند تقاطع ضربات على سطح جدعة شجرة دلب يميل لونها إلى البُنّي. رقصَ مارسيل ضمن دائرة كأحد الهنود يحمل فأساً، متظاهراً بأنّه يضرب أعناق أعدائه. سمعَ باتريك عن بُعد الرعب السائد داخل قنّ الدجاج. ومع وصول والد مارسيل، قابضاً على عنق دجاجة وجناحا يضربان بطنه الواسع بلا جدوى، بدأ باتريك يقفُ في صفّها. أراد لهذه الدجاجة أنْ تنجو. كان متيقناً من أنها تعرف ما يجري معها. وضعها على جنبها، وعنقها محشور على حافة الجدعة. ثم انهال المسيو مودوي بالفأس وقطع عنقها بسهولة فسقط بهدوء عند قدميه. ثم أعاد ما تبقّى منها بسرعة إلى الأرض، وربتَ عليها مُشجّعاً، وأطلقها لتندفع بحركة مسعورة سعياً إلى الحرية، بينما مارسيل يصرخ ساخراً ويضحك ويُشير إليها. وفي موقع آخر، كانت عينا الدجاجة تُحدِّقان إلى السماء وكان باتريك يُحدِّق إلى عينيها.

مع شرب كأسه الرابعة من النبيذ، وجد باتريك أنَّ مخيلته قد بدأتْ تتحول إلى ميلودراما فيكتوريّة. مشاهد قاتمة تتشكّل بملء إرادتها، لكنّه لم يفعل شيئاً لمنعها. رأى الشكل المُنتفخ لشيموس الغريق عائماً في نهر التيمز. وبدا كرسي أمّه المتحرك كأنّه فقد السيطرة وكان يقفز على طول الدرب الساحليّ نحو جرف دورسيت. ولاحظَ باتريك الستارة الخلفية لمصرف الائتمان الوطنيّ الرائع وأمّه تنحدر إلى الأمام وتندفع عبر الحافّة. وذات يوم عليه حقاً أنْ يتخلّى عن كل شيء، كن واقعيّاً، كُنْ مُعاصِراً، اقبل الحقائق، ولكن حالياً فقط، سوف يستمر في تخيُّل نفسه يضع اللمسات الأخيرة على الوصيّة المُفبرَكَة، بينما جوليا، الجالسة على حافة طاولة مكتبه، تُسلّيه بتشكيلتها المُعقّدة من ملابسها الداخليّة. حاليّاً فقط، سوف يشرب جرعة أخرى صغيرة من النبيذ.

مال توماس إلى الأمام وهو على حجر ميري، وبحدسها المثاليّ المعتاد، ناولته في الحال قطعة بسكويت. غاصَ إلى الخلف على صدرها مقتنعاً، كما

كان حالة مائة مرة في اليوم، بحيث إنه لا يحتاج أبداً إلى أي شيء إلّا ويُعطى له. بحث باتريك في نفسه عن الغيرة، لكنّه لم يجدها. وجد هناك الكثير من الانفعال المبهم ولكن لا روح تنافُس مع ابنه الصغير. وكانت الخدعة هي أنْ يُحافظ على مستوى عالٍ من اشمئزازه من أمّه، من دون أنْ يترك لحيِّز الشعور بالغيرة من توماس مجالاً ليكتسب الأساس الصلب الذي افتقرَ إليه والده. مال توماس إلى الأمام للمرة الثانية، وبغمغمة مستفهمة مدَّ يده بقطعة البسكويت إلى جوليا، عارضاً عليها أنْ تتناول قضمة. نظرتْ جوليا إلى قطعة البسكويت المُثلَّمة والرطبة، وقطّبت وجهها وقالت «لا، شكراً جزيلاً»

فجأة أدركَ باتريك أنّه لا يستطيع أنْ يُمارس الجنس مع شخص لا يتفهَّم كرم توماس فهماً صحيحاً. أم هل يستطيع؟ وعلى الرغم من ردّة فعله القويّة، شعر بشَبَقِهِ يتخبَّط، كتخبُّط الدجاجة المقطوع رأسها. لقد حقَّقَ الآن الانفصال الزائف للثمالة، كالرابية الصغيرة أمام مستنقعات رثاء الذات وفقدان الذاكرة. اكتشفَ أنَّ على وضعه أنْ يتحسّن حقاً، لا يمكن أنْ يستمر على هذا المنوال. ذات يوم سوف يتخلّى عن كل شيء، ولكنه لا يستطيع أنْ يفعل هذا إلّا عندما يصبح مُستعدّاً له. ولكن يستطيع أنْ يستعد ليكون مُستعداً. وغاص إلى الخلف على كرسيه ووافقَ على الأقلّ على ذلك: إنَّ مهمته حتى آخر الشهر هي أنْ يستعدّ لكي يُصبح مُستعداً ليكون على ما يرام.

-8-

سأل جوني، وهو يُشعِل سيجاراً رخيصاً، «وكيف حالك؟»

أدخلَ عود الثقاب المتوهج بقعة من اللون إلى المشهد الطبيعيّ الأسود والأبيض الذي بيَّنه ضوء القمر. كان الرجلان قد خرجا بعد تناول العشاء لكي يتحدثا ويُدخنا. نظر باتريك إلى الكأس الرماديّة ومن ثمّ إلى سماءٍ منكمشة من النجوم بفعل عنف الظهيرة. لم يعرف كيف يبدأ. كان قد نجح بصورة ما في الأمسية السابقة في تصعيد حادثة «الاشمئزاز»، والتسلُّل إلى سرير جوليا بعد منتصف الليل والبقاء هناك حتى الساعة الخامسة صباحاً. كان قد ضاجع جوليا في جو ضبابيّ تأمّليّ أخفقَ تهوّره وجشعه في محوه. كان من فرط الانشغال بحيث لم يتساءل كيف يشعر وهو يزني، كاد ينسى أنْ يُلاحظ كيف يشعر وهو مع جوليا. وتساءل عن شعوره وهو يلج امرأة من جديد، امرأة كانت فوق كل شيء، وبغضّ النظر عن الحقيقة الواهنة نسبيّاً لأعضائها وبشرتها، مصدراً للحنين إلى الماضي. وما لم تكن تعنيه حتماً هو استعادة الزمن. لقد اتَّضحَ أنَّ كون المرء خنزيراً داخل جرن انفعالٍ شائن لا يرقى إلى مستوى انعدام الزمن العفويّ لذكرى لا إراديّة وتفكير مترابط. أين حجارة الرصف غير المتساوية والملاعق الفضيّة وأجراس الأبواب الفضيّة لحياته الخاصة؟ إذا قابلها مُصادفة، هل ستقفز الجسور الطافية وتخرج إلى الوجود، بكل جلالها الغريب، لا تنتمي إلى الأصليّ ولا إلى المُكرَّر، لا إلى الماضي ولا إلى الحاضر سريع الزوال، بل إلى نوعٍ من الحاضِر المُتجدِّد القادر على اكتناف الزمن ذي الاتّجاه الواحد؟ ليس لديه أي سبب ليعتقد ذلك. وشعر بأنّه مُجرَّدٌ ليس فقط من السِحر العادي للمخيّلة المُكثّفة، بل ومن السِحر الأقلّ من عادي لانغماسه في حواسّه الجسديّة. لم يكن ينوي أنْ يؤنّب نفسه على

افتقاره إلى الفرادة في اختبار متعته الجنسيّة. إنَّ الجنس كلّه إباحيّ للاثنين اللذين يُمارسانه، ليس دائماً بالمعنى التجاريّ، بل بالمعنى الأصليّ والأعمق للكلمة بحيث يعنيان شيئاً آخر. وكون هذا يحدث أحياناً بفعاليّة شديدة بحيث تمر أسابيع أو أشهر يبدو خلالها أنَّ موضوع الرغبة والشخص الذي يتصادف أنَّ المرء يُضاجعه متطابقين لا يمنع نموذج الرغبة الكامن من البدء بالانجراف مبتعداً، عاجلاً أو آجلاً، عن بيته الوهميّ. وغرابة قضيّة جوليا تكمنُ في أنها تحلّ محل نفسها، كما كانت قبل عشرين عاماً، كعشيقة مرحلة قبل الانجراف.

قال جوني، مُدركاً أنَّ باتريك لم يرغب في إعطاء جواب على سؤاله، «أحياناً يكون السيجار مجرد سيجار»

قال باتريك «متى يكون ذلك؟»

«قبل أنْ تُشعله – وبعد ذلك، يصبحُ رديفاً لعملٍ شفوي مُكرَّر»

قال جوني «أنا أفهمك تماماً»

قال باتريك «إنَّ أحد أعباء طبيب نفس الأطفال هو أنّه إذا سأل أحداً عن حاله، يعطيكَ جواباً. وبدل أنْ أقول أنا بخير، يجب أنْ أعطيك الجواب الحقيقيّ: أنا *لستُ* بخير»

«ألستَ بخير؟»

«بل في حال سيئة، يسودها العماء، مُرعبة. وحياتي العاطفيّة تبدو كأنها تنهمر إلى انعدام العالم في كل اتّجاه، ليس فقط لأنَّ توماس لم ينطق الكلمات بعد ولأنَّ الكلمات خذلتْ إلينور منذ الآن، ولكنني أيضاً أشعرُ، داخليّاً، بأنَّ وهنَ كل ما أستطيع التحكُّم فيه يكتنفه الكمّ الهائل لكل ما لا أستطيع التحكُّم فيه. الأمر شديد البدائيّة والقوة. لم يتبقَّ خشب لإشعال النار التي تجعل الحيوانات الضارية في حالة دفاع عن النفس، أو ما شابه. ولكن أيضاً أشعر بشيءٍ أشدّ تشويشاً – هو أنَّ الحيوانات الضارية تشكّل الجزء الفائز مني. لا أستطيع أنْ أمنعها من تدميري من دون أنْ أدمّرها، ولكن لا أستطيع أنْ أدمّرها من دون أنْ أدمِّر نفسي. وحتى هذا يجعل الأمر يبدو شديد التنظيم. إنّه أقرب شَبَهاً بفيلم صور متحركة عن قطط تتقاتل: هو سوادٌ يدور مع علامات استفهام تتطاير في كل اتّجاه»

قال جوني «تبدو كأنك تُحيط إحاطة تامة بما يجري»

«يجب أنْ يكون هذا موطن قوة، ولكن بما أنني أحاول أنْ أعبِّر عن مدى ضآلة إحاطتي بما يجري، فهو يشكّل عائقاً»

«إنّه ليس عائقاً في طريق إخباري عن العماء. بل يكون عائقاً إذا حاولتَ أنْ تُبرِزه»

«ربما أريد حقاً أنْ أُبرِزه، لكي يتّخذ شكلاً صلباً، بدل هذه الحالة الذهنية الشنيعة»

«أنا واثق من أنّه يتّخذُ شكلاً صلباً»

«ممم...»

استعرَضَ باتريك الأشكال الصلبة، الأرق، إدمان الخمر، نوبات الافراط في الأكل، التوق المُستمرّ إلى العزلة التي، إنْ تحقّقتْ، تجعله شديد الرغبة في الصحبة، بالإضافة إلى (أم هل ينبغي أنْ أذكره؟ لقد شعرَ بالحقل المغناطيسيّ القوي للاعتراف يكتنف جوني من كل جانب) حادث الزنا في الليلة السابقة.

تذكَّر أنّه قبل ساعات قليلة انتهى إلى أنَّ ذلك خطأ، وبدأ يتخيّل النقاش الناضج الذي كان ينوي أنْ يُجريه مع جوليا. والآن مع ارتفاع نسبة الكحول من جديد، ها هو يقتنع أكثر فأكثر بأنّه ببساطة ضاجع الموقف الخطأ. يجب أنْ يكون أفضل من ذلك. سوف يُحسِّن أداءه.

قال باتريك «يجب أنْ أُحسِّن أدائي»

«تؤدي ماذا بشكلٍ أفضل؟»

قال باتريك بغموض «أوه، كل شيء»

لم يكن حتماً ينوي أنْ يخبر جوني، ويضع شهواته الملتهبة في سياق مَرَضيّ ما أو، وهذا أسوأ، ضمن برنامج علاجيّ. ومن ناحية أخرى، ما جدوى صداقته مع جوني إذا لم يكن أساسها الصدق؟ إنهما صديقان منذ ثلاثين عاماً. كان والداه يعرفان والديه. وكلٌّ منهما يعرف حياة الآخر بعمق. فإن تساءلَ باتريك إنْ كان عليه أنْ ينتحر، فإنه يطلب رأي جوني. قد يُحوّل مجرى الحديث من الخوض في صحّته العقليّة إلى أحد مواضيعه المُفضّلة:

كيف يطحن ذلك العصر جيلهما. كان اختصارهما لهذه العملية بمثابة «الانسحاب من موسكو»، والفضل في ذلك يعود إلى الصورة الحيّة التي حمّلها كلٌّ منهما للناجين التائهين من الجيش النابوليونيّ وهم يعرجون، مُلطّخين بالدماء وحُفاة، يخوضون فيافيَ مغطاةً بالأحصنة المتجمّدة والرجال المُحتضرين. وبدافعٍ من الفضول المهنيّ، حضرَ جوني مؤخراً عشاءً للمّ شمل زملائهم من صفهم في المدرسة. ونقل وقائعه لباتريك. كان قائد لاعبي[1] الكتيبة 11 قد أصبح الآن معتوهاً. والطالب الأشدّ ذكاءً في صفهم دُفِنَ وسط المراتب الوسطى للخدمة العامة. وغاريث وليامز لم يتمكن من الحضور لأنه كان في مصح عقلي. ورفيقهم الذي حقّقَ أكبر «نجاح» أصبح رئيس مصرف تجاريّ وكان، حسب قول جوني، قد «فشل في أنْ يُسجَّل على قائمة الموثوقين». وتلك كانت القائمة التي اهتمّ جوني بها، القائمة التي كانت ستحدِّد إنْ كان سينتهي به الأمر، في نظره، على الرصيف أم لا.

قال جوني، قبل أنْ يتمكن باتريك من وضعه على الأرض الآمنة لخيبة الأمل، والإفلاس والخسارة مجتمعة «يؤسفني أنْ أسمع أنك في حالة سيئة»

قال باتريك «ضاجعتُ جوليا ليلة أمس»

«هل جعلك ذلك تشعر بتحسّن؟»

«لقد دفعني إلى التساؤل إنْ كنتُ أشعر بالتحسُّن. ربما كان أمراً عقلياً أكثر مما ينبغي»

«هذا ما ينبغي أنْ تُحسِن التعامل معه»

«بالضبط. لم أعلم هل أخبرك أم لا. ظننتُ أنني ربما يجب أنْ أتوقف إذا أدركنا بالضبط ما الذي يجري»

«لقد أدركتَه تواً»

«إلى درجة ما. أنا أعلم أنَّ توماس يدفعني إلى القيام بزيارة أخرى لعهد طفولتي بطريقة لم يفعلها روبرت. وربما بروز تلك الدعامة القديمة، أي الأم

1- هذه الكتيبة تمثّل أفضل 11 لاعب في رياضة ما، ككرة القدم - المترجم.

التي تحتاج إلى رعاية، هو الذي أضفى الكثير من الأصالة إلى هذا الإحياء. وبمعنى ما، ثمة إحساسٌ عميق بالكآبة السَلفيّة يجوس الليل، وأنا أُفضِّل أنْ أقضيه مع جوليا التي تمنح موتَ الشباب غير الضارّ نسبيّاً، بدل العماء البدائيّ الذي أشعر به وحدي»

«إنَّ هذا كله يبدو مجازاً – هذا الكلام عن العماء البدائيّ وموت الشباب. أحياناً تكون المرأة مجرّد امرأة»

«هذا قبل أنْ تُشعلها»

قال جوني «كلا، كلا، هذا مجرد سيجار»

«صدقاً، ليست هناك أجوبة سهلة. فحالما تعتقد أنكَ فهمتَ شيئاً ما...»

سمعَ باتريك طنين بعوضة في أُذنه اليُمنى. أدارَ رأسه ونفخَ الدخان في اتجاهها. فسكت الطنين.

تابعَ باتريك قائلاً «من الواضح أنني أحبّ أنْ أحصل على تجارب حقيقيّة، مُجسَّدة، حاضرة بأكملها – خاصة في الجنس، ولكن، كما أشرتَ، أنا ألجأ إلى عالم المجاز حيث يبدو أنَّ كل شيء يمثّل أعراضاً معروفة أو نزاعاً. وأتذكّر أنني اشتكيتُ لطبيبي من الآثار الجانبية لمُضادٍّ فيروسيّ وَصَفَه لي. فقال بهدوءٍ هائل، غير مُعدٍ، «أوه، نعم، هذا معروف». وأُلفتُ انتباهك إلى أنني عندما أخبرته عن أثر جانبي غير معروف، رفضه قائلاً «أنا لم أسمع عنه من قبل». أعتقدُ أنني أحاول أنْ أكون مثله، أنْ أُحصِّنَ نفسي ضد التجربة بالتركيز على الظاهرة. إنني لا أني أقول لنفسي، «هذا معروف» عندما أشعر بالعكس، وإنّه شيء غريب وخطير ولا يمكن التحكُّم فيه».

شعر باتريك بقرص حادّ. قال، صافعاً خلفيّة عنقه بقوة مفرطة، «اللعنة على البعوض. إنه يلتهمني حيّاً»

قال جوني بارتياب، «أنا لم أسمع عن هذا البتّة»

أكّدَ باتريك له «أوه، إنّه **معروف**. وهو سائد بين سكان المرتفعات في بابوا غينيا الجديدة. والسؤال الوحيد هو ما إذا كانوا يُجبرونك على أنْ تأكل نفسك وأنت حيّ»

سمح جوني لهذا الاحتمال بالمرور في صمتْ.

قال باتريك، وهو يميل إلى الأمام، ويتكلَّم بسرعة أكبر من ذي قبل، «اسمع، ليس لديّ أي شك حقيقيّ في أنَّ كل ما أمرُّ به في الوقت الراهن له صِلة بطبيعة فترة طفولتي بصورة ما. وأنا واثق من أنَّ القلق الذي ينتابني في منتصف الليل يُشبه سقوطاً حرّاً شعرتُ به وأنا على سريري الصغير في طفولتي الأولى عندما فعل أبواي، لصالحي، ولإنقاذي من أنْ أتحول إلى وحش صغير مُتلاعب، فعلاً ما يناسبهما حصراً وتجاهلاني. وكما تعلم، فإنَّ أمي تُعبِّد فقط الطريق إلى الجحيم بأفضل النوايا، لذلك نستطيع أنْ نفترض أنَّ والدي كان المُدافع عن مزايا التنشئة المُحطِّمة للإرادة التي تبني الشخصيّة. ولكن كيف لي أنْ أعرف حقاً وما الفائدة التي سأجنيها من تلك المعرفة؟»

«حسن، بدايةً، أنتَ لا تستخدم قُدُراتك على الإقناع لإبعاد ميري عن توماس. سوف تُصبح من دون أدنى شك بلا أي إحساس بالصِلة بطفولتك الخاصة. صحيحٌ أنَّ الخرائط الأصعب على الرسم هي تلك المبكِّرة جداً، خلال السنتين الأوّليتين. نحن نستطيع فقط أنْ نعمل باللجوء إلى الاستنتاجات. فإذا كان شخصٌ ما، على سبيل المِثال، يتمتَّع بمقدرة تحمّل حادّة على الانتظار، وشعرَ بجوعٍ دائمٍ حوّلهُ الأكلُ إلى يأسٍ متضخِّم، وأُبقيَ يقظاً بحذرٍ فائق....»

قال باتريك وهو ينشج «كفى! كفى! هذا كلّه صحيح»

تابع جوني قائلاً، «فإنَّ ذلك سوف يعني ضِمناً سِمة خاصة لتلقّي العناية المُبكِّرة، تختلف عن نوع من العالم الوهمي المُهيمن الذي تريد إلينور أنْ تجعله أبديّاً بـ «واقعيتها غير العاديّة» وبـ «حيواناتها القويّة». نحن دائماً «الحُجُب التي تحجبنا عن أنفسنا»، ولكن عند النظر إلى طفولتنا، الخالية من الذكريات ومن الإحساس الراسخ بالذات، نرى أنها ***كلها حُجُب***. فإذا كان الحرمان سيئاً بالقدر الكافي، فلا أحد يتمتَّع بالبصائر. إنها مسألة دعم أفضل ذاتٍ زائفةٍ يمكنكَ العثور عليها – إنَّ مشروع الأصالة ليس خياراً. ولكن هذه ليست قضيّتك. أعتقد أنَّ في استطاعتك تحمُّل فقدان السيطرة، واختيار السقوط الحرّ. لو كان في نيّة الماضي أنْ يُدمّرك لبدأ في فعل ذلك»

«ليس بالضرورة. كان سينتظر اللحظة المناسبة. إنَّ الماضي لديه الوقت كلّه. المستقبل وحده ينقضي بسرعة»

أفرغَ ما تبقّى من النبيذ في الزجاجة في كأسه.

وأردفَ قائلاً «والنبيذ أيضاً»

قال جوني «إذن، سوف تحاول أنْ «تُحسِّن أداءك» هذه الليلة؟»

«نعم. إنَّ ضميري لا يتمرّد بالطريقة التي أريد. إنني لا أحاول أنْ أعاقب ميري بمُضاجعة جوليا – أنا فقط أبحث عن قليلٍ من الحنان. أعتقد أنَّ ميري سوف ترتاح لذلك إذا عرفت بأمر العلاقة. وعدم قدرة امرأة مثلها على إعطائي ما أريد يُشكّل عبئاً على كاهلها».

قال جوني «إنكَ في الحقيقة تقدِّم لها معروفاً»

قال باتريك «نعم، ولا أريد أنْ أتباهى بذلك، لكنني أساعدها في حل مشكلتها. إنها ليست في حاجة إلى الإحساس بالذنب بشأنْ التخلّي عني»

قال جوني «ليت المزيد من الناس يتمتعون بمثل حسّكَ هذا بالسماحة»

قال باتريك «أعتقد أنَّ الكثير من الناس يتمتعون به. على أي حال، إنَّ تلك الدوافع المُحبّة للبشر من سِمات عائلتنا العريقة»

قال جوني «إنَّ كل ما أرغب في قوله هو أنّه لا جدوى من سقوطك الحرّ إلّا إذا أنتجَ بعض البصيرة. وهذا هو الوقت المناسب لتوماس لتنميةِ تواصُلٍ آمن. وإذا استطعتَ أنْ تتحمّل حتى بلوغه سن الثالثة من دون أنْ تُدمِّر زواجك أو أنْ تتسبَّب في تعاسة ميري، فسوف يكون ذلك إنجازاً عظيماً. أعتقد أنَّ روبرت قد أصبحَ راسخ القدم. على أي حال، إنه يتمتع بتلك الموهبة المُذهلة في المُحاكاة الساخرة التي يُطبّقها على كل مَنْ يجده ثقيل الظل»

قبل أنْ يُتاح الوقت لباتريك ليُجيب، سمعَ ستارة الباب تتحرّك وتنفتح ومن ثم تعود إلى وضعها من جديد. خيَّم الصمتُ على الرجلَين وانتظرا معرفة الذي خرج من المنزل.

قال باتريك «جوليا»، حالما ظهرتْ، تحفّ بالعشب الرمادي وهي تتقدَّم، «تعالي وانضمي إلينا»

قالتْ جوليا «كلنا كنا نتساءل ماذا تفعلان. أتنبحان في وجه القمر، أم تحلّان لغز مغزى الحياة؟»

قال باتريك «لا هذا ولا ذاك، هناك ما يكفي من النباح في الوادي أصلاً، وقد حللنا لغز مغزى الحياة منذ سنين عديدة: إنه «امشِ مرفوع الرأس وابصق على قبور أعدائك». أليس هذا هو؟»

قال جوني «كلا، كلا. بل هو: «أحبّ جارك كما تحبّ نفسك»»

«أوه، حسن، بالنظر إلى مقدار حبّي لنفسي، فإنَّ النتيجة متعادلة»

قالتْ جوليا، وهي تضع يديها على كتفيّ باتريك، «أوه، حبيبي، هل أنتَ أسوأ أعداء نفسك؟»

قال باتريك «آمل ذلك حقاً. إنني أخاف أنْ أفكِّر فيما يمكن أنْ يحدث إذا ظهر شخصٌ آخر أفضل مني في هذا المجال»

سحَقَ جوني سيجاره وهو يتفتَّتْ، ويتصدَّع في المنفضة.

قال «قد ألجأ إلى السرير بينما تُقرر أنتَ على قبر مَنْ ستبصُق»

قال باتريك «إيني، ميني، ميني، مو[1]»

«أتعلم أنَّ جيل لوسي لم يعُد يقول «أمسك الزنجي من إصبع قَدَمه»؛ بل يقول، «أمسك النمر من إصبع قدمه»، أليس هذا جميلاً؟»

سألَ باتريك «هل أعادوا كتابة عبارة «هزّي المهد، يا حبيبتي» أيضاً؟ أم أنّه ما زال يُسمح للمهد بالسقوط؟»، ثم أضاف، وهو ينظر إلى جوني، «يا إلهي، لا بُدَّ أنَّ من الصعبِ سماع تكسُّر شخص فقدَ وعيه في كل جُملة»

قال جوني «أحاول ألّا أسمعه في أثناء قضاء العطلة»

«لكنّك لا تنجح في هذا»

ابتسم جوني. «لا أنجح»

سألَ باتريك «هل أوى الجميع إلى النوم؟»

أجابتْ جوليا «الجميع ما عدا كيتل. تريد أنْ تجري حديثاً صريحاً؛

1- عبارة يقولها الأطفال الصغار في ألعابهم عندما يريدون انتقاء شخص بينهم – المترجم.

أعتقد أنها تحب شيموس. لقد دُعيَتْ إلى شرب الشاي في كوخه على مدى اليومين السابقَين»

قال باتريك «ماذا *تقولين*؟»

«لم تعُد تتكلَّم عن ترمُّل الملكة ميري وباشرت الكلام عن«انفتاح المرء على كامل قُدُراته»»

قال باتريك «يا له من ابن حرام. سوف يُحاول أنْ يحرم ميري أيضاً من الميراث. سوف أُضطَرّ إلى قتله»

سألتْ جوليا «أليس قتل كيتل قبل أنْ تغيِّر وصيتها تصرّفاً أكثر فعاليّة؟»

قال باتريك «فكرة جيدة. إنَّ عواطفي تتحكم في إصدار حُكمي»

قال جوني «ما هذا؟ أهي أمسية مع آل ماكبث؟ وما رأيكما في أنْ نتركها منفتحة أمام كامل إمكاناتها؟»

قال باتريك، «يا إلهي، لِمَنْ كنتَ تقرأ مؤخراً؟ حسبتُ أنك واقعيّ، وليس أحمق يحمل فكراً خيِّراً يدّعي أنّه عثر على أرض الإبداع المفقودة في تركيب كل زهرة. حتى بين يدَي مُعالِج نفسي عبقريّ، سوف تكون قمة سعادة كيتل هي أنْ تنضم إلى دورة تعلُّم رقص التانغو في تشلتنام، أما مع شيموس فإنَّ «كامل إمكاناتها» هي أنْ تُجرَّد من كل ما تملك»

قال جوني«أما الإمكانيّة التي لم تدركها كيتل - وهي ليست وحدها في ذلك، لا صِلة لها بالهوايات، أو حتى بإنجازاتها، بل لها صِلة بقدرتها على الاستمتاع بأي شيء مهما كان»

قال باتريك، «أوه، يا لتلك الإمكانيّة. أنت على صواب، طبعاً، علينا جميعاً أنْ نعمل على حلّ هذا الأمر»

داعبتْ جوليا فخذه سرّاً بأظافر أصابعها. شعر باتريك بنصف انتصاب يزحفُ شاقاً طريقه نحو الوضعيّة غير المناسِبة على الإطلاق بين طيّات سرواله الداخليّ. وهذا لا يعني بالضبط أنه أراد أنْ يتعارك مع بنطلونه أمام جوني، وانتظر متحدِّياً اختفاء المشكلة. ولم ينتظر طويلاً.

نهضَ جوني واقفاً وألقى تحيّة المساء على باتريك وجوليا.

ثم أضاف، متوجهاً إلى خارج المنزل، «تصبحان على خير»

قال باتريك بالنسخة السريعة لصوت كيتل، «قد يكون المرء منشغلاً بالانفتاح على كامل إمكاناته»

حالما سمعا جوني يدخل إلى المنزل، اعتلتْ جوليا حجر باتريك منفرجة الساقين، وواجهته ويداها تتدليان برشاقة عبر كتفيه.

سألته «أهو يعلم؟»

«نعم»

«أهذه فكرة جيّدة؟»

«لن يُخبِر أحداً»

«ربما، أما الآن فقد فات الأوان لكيلا نُخبِر أحداً. لا أصدِّق أننا تورطنا فيما نفعل، هذا كل ما في الأمر. إننا لم نتضاجع إلّا مرة واحدة وها نحن واقعان في مشكلة معرفة أمرنا»

«إنَّ المشكلة دائماً هي معرفة الأمر»

«لِمَ؟»

«بسبب وجود هذه الحديقة، أليس كذلك؟ وشجرة التفاح[1] هذه...»

«أوه، صِدقاً، ليس لهذا أي دخل. هذا نوع آخر من المعرفة»

«لقد اجتمعا معاً. وفي غياب الله، ليس لدينا إلّا معرفة الثرثرة اللا محدودة لكي ننشغل بكشف الفضائح»

«في الحقيقة أنا لستُ منشغلة بالفضائح، أنا منهمكة بمعرفة شعور كل منا اتجاه الآخر. وأعتقد أنكَ تريد أنْ يتعلّق الأمر بالمعرفة لأنكَ تشعر بألفة أكثر مع عقلك وليس مع قلبك. على أي حال، لم تكن مُضطراً إلى إفشاء الأمر إلى جوني»

قال باتريك، وقد نضبَ مَعِيْنُه فجأة من أيّ رغبة في إثبات نقطة أو في الفوز بنقاش، «على أي حال، لطالما أعتقد أنه يجب أنْ يكون هناك بطل خارق يُدعى «على أي حال». وليس بطل أعمال مُثيرة على غرار الرجل الخارق أو الرجل العنكبوت، بل بطل خامل، بطل مُستسلم»

1- إشارة إلى آدم وحواء وشجرة المعرفة المُحرَّمة - المترجم.

«هل هناك فاصلة بين «رجل» و «على كل حال»؟»

«فقط عندما يُزعجه أحد ويدفعه إلى الكلام، وصدّقيني، هذا لا يحدث إلّا نادراً. وعندما يصرخ أحدهم، «هناك مُذنّب يتوجّه مباشرة نحونا! إنها نهاية الحياة على الأرض!»، يقول، «لا يهمّ، يا رجل»، مع فاصلة بين الكلمتين. ولكن عندما يُستَفَزّ، في أثناء عمليّة تطهير عِرقيّ أو انفصام شخصيّة ارتيابيّ، كما في عبارة «هذا عمل جدير *برجل على كل حال*»، بكلمة واحدة»

«هل لديه رداء كتفَين[1]؟»

«يا إلهي، كلا. إنه يواظب على ارتداء بنطلون الجينز نفسه والقميص الرياضي منذ سنين»

«وهذا الوهم كله في خدمة عدم اعترافكَ بأنكَ مُخطئ في إفشاء الأمر لجوني»

قال باتريك «هو أمر خاطئ إذا أزعجك. ولكنْ إذا سألني صديق حميم عمّا يجري، فإنَّ إخفاء أهم حقيقة عنه يُعتبَر زلّة لسان»

«يا حبيبي المسكين، أنت شديد –»

قاطعها باتريك «الأصالة. لطالما كانت هذه مشكلتي»

سألته جوليا، وهي تميل إلى الأمام وتُقبّل باتريك قبلة طويلة وبطيئة، «لِمَ لا تجلب بعضاً من تلك الأصالة إلى الطابق العِلويّ؟»

شعر بالامتنان لأنها منعته من إعطاء جواب على سؤالها. لم يكن سيعرف بماذا يُجيب. أكانت تسخر من حضوره المنفصل الضحل في الليلة الفائتة؟ أم أنّها لم تلاحظ؟ إنها مشكلة العقول الأخرى. يا إلهي، ها هو يبدأ من جديد. كانا يتبادلان القُبَل. منهمكين. أو يتخيّل أنّه منهمك. كلا، لا يتخيّل، بل هو منهمك فعلاً. كائناً ما كان معنى هذا. مَنْ يقول إنَّ الأصالة تكمن في إغفال الجانب التأمّليّ من العقل؟ كان يتأمّل. لماذا يكبتُ هذا لمصلحة ما كان، في نهاية المطاف، مجرد تخيُّل للأصالة، صورة مُبتَذَلة للانهماك فيها؟

قطَعَتْ جوليا القُبلة.

سألته «إلى أين شردتَ؟»

1- يقصد كما يرتدي سوبرمان وباتمان.

اعترفَ «لقد تهتُ داخل عقلي. أعتقد أنَّ طلبك مني أنْ أُحضِر أصالتي معي إلى الطابق العُلوي شوّشني – إنني شديد الاضطراب، ولستُ متيقّناً من استطاعتي الخروج من ذلك»

قالت جوليا «سوف أساعدك»

انفصلا وعادا إلى داخل المنزل، يمسك كل منهما بيد الآخر، كمراهقَين حالمَين.

عندما وصلا إلى منبسَط الدَّرَج وأوشكا أنْ يلجا غرفة نوم جوليا، سمعا ضحكاً مكبوتاً صادراً عن غرفة نوم لوسي، تبعه انحدار إلى الصمت. فسارا على طول الرواق، بعد أنْ انتقلا من عاشقَين مختلسَين إلى أبوين جادّين، وقد تلبّسا هيبة جديدة. قرعتْ جوليا الباب برفق ودفعته في الحال وفتحته. كانت الغرفة مُظلمة، لكنَّ ضوءاً منبعثاً من الرواق سقط عبر سرير مزدحم. كانت دُمى لوسي اللينة التي لا تستغني عنها، أرنبها الأبيض وكلبها أزرق العينين وأيضاً، وهذا لا يُصدَّق، السنجاب المُخطَّط الذي كانت تمضغه باجتهاد منذ أنْ بلغت الثالثة من العمر، كانت مبعثرة بأوضاع ملتوية مختلفة عبر غطاء السرير، وحلّ محلها، داخل السرير، صبيّ حيّ.

قالت جوليا «عزيزتي؟»

لم يُصدر الطفلان أي صوت.

«لا فائدة من الادّعاء بأنك نائمة. سمعناك ونحن في الرواق»

قالت لوسي، وقد اعتدلتْ في جلستها فجأة، «حسن، نحن لا نرتكب أي فعل شائن»

قالت جوليا «نحن لم نقُل إنكما تفعلان ذلك»

قال باتريك «هذه أشدّ الحبكات الثانويّة فظاعة. ومع ذلك، لا أرى مانعاً في أنْ يناما معاً إذا كان هذا ما يريدان»

سألَ روبرت «ما معنى حبكة ثانويّة؟»

قال باتريك «أي جزء آخر من القصة الأساسيّة، يُنظَر إليها بطريقة فاضحة أكثر، بصورة أو بأخرى»

سألَ روبرت «ولماذا **نحن** اللذان نمثّل حبكة ثانويّة؟»

قال باتريك «لستما كذلك. أنتما حبكة أساسيّة وحدكما»

قالتْ لوسي «لدينا الكثير من الحديث نتبادله، ولا نستطيع أنْ ننتظر حتى الغد»

سأل روبرت «ألهذا السبب ما زلتما يقظَين؟ لأنَّ لديكما الكثير من الكلام. ألهذا قلت إننا نشكّل حبكة ثانويّة؟»

قال باتريك «اسمع، انسَ كل ما قلتُ»، ثم أضاف، مُحاولاً أنْ يُربِك روبرت قدر استطاعته، «إنَّ كل طرف منا حبكة ثانوية بالنسبة إلى الطرف الآخر»

قال روبرت «كدوران القمر حول الشمس»

«بالضبط. إنَّ كل شخص يعتقد أنّه على سطح الأرض، حتى عندما يكون على سطح قمر شخص آخر»

قال روبرت «لكنَّ الأرض تدور حول الشمس. فمَنْ الذي على سطح الشمس؟»

قال باتريك، مرتاحاً لأنهما ابتعدا كثيراً عن الدافع الأصلي لتعليقه، «الشمس غير صالحة للسكن. وحبكتها الوحيدة هي إبقاؤنا في حركة دوران مُستمرة»

بدا الاضطراب على روبرت وهمَّ بطرح سؤال آخر لكنَّ جوليا قاطعته.

سألتْ «هلّا عُدنا إلى كوكبنا الخاص لحظة؟ أعتقد أنني لا أُمانع أنْ تشتركا في السرير، ولكن تذكّرا أننا ذاهبون إلى أكوالاند غداً، لذلك يجب أنْ تناما مباشرة»

قالت لوسي، وبدأتْ تضحك بصوت مكبوت «وأي شيء آخر يمكن أنْ نفعل؟ نتبادل القُبل؟»

أخذت هي وروبرت يُصدران صوت اشمئزاز مُبالَغ به وانهارا في كتلة من الأطراف والضحكات.

-9-

أمر باتريك بإحضار مقدارٍ مضاعفٍ من قهوة الإسبريسّو وراقب النادلة تعود أدراجها متهادية إلى البار، وثبّتها برهة بتخيّلها وهي متمددة على إحدى الطاولات، وتقبض على حافتيها بينما هو ينكحها من الخلف. كان شديد الوفاء بحيث لم يُطِل انبطاحه فوق النادلة عندما كان منهمكاً أصلاً بتخيُّل الفتاة بالمايوه البكيني الأسود في الناحية المقابلة للمقهى، بعينيها المُغمضَتين وساقيها المتباعدتَين قليلاً، تستوعب أشعة شمس الصباح، ساكنة كعظاءة. قد لا ينسى أبداً مظهرها شديد الجدّيّة الذي تفحّصَتْ به نوع تصميم المايوه البكّيني الذي كانت ترتديه. كان جديراً بامرأةٍ عاديّة أنْ تحتفظ بتعبير الوجه ذاك لكي تنظر إلى نفسها به في مرآة الحمّام، لكنّها كانت مِثالاً للانغماس في الذات، وهي تُمرِّر إصبعها على طول الحافة الداخليّة للمايوه البكينيّ، وترفعه وتعيد تسويته ليكون أقرب إلى المركز، بحيث لا يتدخّل إلّا بأقلّ قدرٍ ممكن في العُري الكامل الذي كان هدفها الحقيقيّ. وكأنَّ مجموع الذين يقضون عطلتهم على شاطئ برومينيد روز، المتدافعين لكي يحتلوا البقع الصغيرة على طول الشاطئ، لا وجود لهم؛ كانت شديدة الافتتان ببشرتها التي لفحتها أشعة الشمس، وبسطحها الشمعيّ، وبحواف خصرها، ومنغمسة بحب نفسها بحيث لم تلاحظ وجودهم. هو أيضاً عشقها. سوف يموت إذا لم ينلها. وإذا كان لا بُدَّ له من أنْ يضيع، وهذا ما بدا أنّه سيحدث، فليكن ذلك وهو يلِجها، فليغرق في البركة الصغيرة لحبّها لنفسها - إنْ كان هناك حيِّز.

أوه، كلا، ليس ذاك. أرجوك. كان رجلٌ يمثّل النموذج الحيّ للرياضيّ قد تقدَّم تواً من طاولتها، ووضع علبته من سجائر مارلبورو الحمراء وهاتفه

النقّال إلى جوار هاتفها النقّال وسجائرها مارلبورو لايت، وقبّلها على شفتيها وجلس، إنْ كانت هذه هي العبارة الصحيحة لوصف كتل العضلات الضخمة التي استقرّ بها أخيراً على الكرسي المجاور لها. تحطُّم القلب. الاشمئزاز. الغضب العارم. انزلقَ باتريك على أرض انفعالاته الفوريّة ومن ثم أجبر نفسه على الارتقاء إلى سماء الاستسلام الكئيبة. طبعاً سبقَ أنْ طُلِبَتْ ملايين المرات. ومسك الختام كان شيئاً جيداً. لا يمكن أنْ يدور أي حوار حقيقيّ بين الذين ما زالوا يعتقدون أنَّ الزمن في صالحهم والذين أدركوا أنهم يتدلّون من أنيابه، على غرار أبناء الإله نبتون، على وشك أنْ يُلتَهَموا. والتُهِموا. إنه يشعر بذلك: بالفعاليّة المملّة لحشرة فرس النبي تُصلّي وهي تمزِّق مساحات شاسعة من اللحم عن حشرات مَنٍّ حيّة وقد قبضَت عليها بقوائمها الأماميّة؛ بالعَرَج الدائريّ لحيوان النوّ[1]، الذي يُقاوم الوقوع أرضاً مع الأسد المتشبِّث بكل ثقة بعنقه. السقوط، الغبار، الرعشة الأخيرة.

نعم، في النهاية كان الحصول على فتاة البكيني شيء جيد. كان يفتقر إلى الصبر الملتزم وإلى النوع الخاص من التفاهة التي يمكن أن تؤهّله للحل الرخيص ليكون مصّاص دماء شابّ. وجوليا هي التي جعلته يتعوّد على ممارسة الجنس خلال فترة مكوثها مدة أسبوعَين، وينبغي أنْ يبحثَ عن عشيقات بين لاجئات جيلها الفاسد. وطبعاً مع استثناء مُحتَمَل هو النادلة التي كانت عندئذٍ تشق طريقها عائدة إليه. كان في صدق ابتسامتها الذي أفسده العمل شيء يُناسب مزاجه. أم هل كان التجهُّم العنيد الثابت لشفتيها الذي شكّله بنطلون الجينز؟ هل يجب أنْ يشرب جرعة من البراندي ليغطّي على الإسبريسو؟ لم تكن الساعة قد تجاوزتِ العاشرة والنصف صباحاً، ولكن كان هناك العديد من كؤوس البيرة الباردة الغبشة تتوهج بين الطاولات المستديرة. لم يتبقَّ له أكثر من يومين من فترة العطلة ويمكن أيضاً أنْ أقضيهما في الفسق. وطلبَ البراندي. على الأقلّ بهذه الطريقة سوف تعود قريباً. هكذا يحبّ أنْ يفكِّر فيها، تتهادى جيئة وذهاباً من أجله، تسهر بلا كلل على راحته الفظّة.

1- النوّ: حيوان إفريقيّ، له رأس ثور وقرنان معقوفان وذيل طويل – المترجم.

التفتَ نحو البحر، لكنَّ التلألؤ الخشن للمياه بهر بصره، وبينما كان يقي عينيه من أشعة الشمس، وجدَ نفسه يتخيّل كل أولئك المحتشدين على تلك الرمال الشقراء المُكدَّسة بالأجساد، يشعّون بالمساحيق الواقية، يلعبون بالمضارب والكرات، يتسكعون في الخليج الرائق، ويقرؤون وهم متمددون على مناشفهم وفرشهم، والريح الشرسة تهبّ عليهم مُشكّلة حجاباً رقيقاً جداً من الرمال المتلألئة، وتسكت الغمغمة الجماعيّة، التي تتخللها صرخات عالية وهتافات حادّة.

يجب أنْ يندفع على طول ذلك الشاطئ لكي يحمي ميري والطفلَين من الدمار، ويمنحهم بضع ثوانٍ أُخَر من الحياة بدرع جسمه المتحلِّل. كافحَ بقوة للتخلُّص من القيام بدوريه كأب وكزوج، فقط لكي يشتاق إليهما حالما ينجح في ذلك. لم يكن هناك ترياق أفضل لإحساسه الهائل بالعقم من الإحساس الهائل بالهدف الذي أضفاه ولداه إلى المهام العقيمة بكل وضوح، كصبّ دلاء من مياه البحر في حُفرٍ في الرمال. وقبل أنْ ينجح في التخلُّص من عائلته، أحبَّ أنْ يتخيّل أنّه حالما ينفرد بنفسه سوف يُصبح حقلاً مفتوحاً من الانتباه، أو مُراقباً منعزلاً يُدرِّب منظاره ثُنائي العينين على أنواع نادرة من البصيرة تُخفيها في المعتاد كتلة من الالتزامات تظهر أمامه كحشدٍ من طيور الزرزور المُسقسقة. على أرض الواقع تُحدِّد العزلة أدوارها الخاصّة، التي لا تقوم على أداء الواجب بل على الجوع. أصبح مُراقِباً للمقهى، يثمل بالشهوة، أو آلة حاسبة مُلزمة بتقدير عدم كفاية دخله.

هل هناك أي نشاط لا يتجمَّد على شكل أداء دور؟ هل يستطيع أنْ يُصغي من دون أنْ يكون مُصغياً، وأنْ يفكِّر من دون أنْ يكون مُفكِّراً؟ لا شك في أنَّ هناك عالماً يفيض بالأحداث الجارية، بالإصغاء وبالتفكير، تندفعُ معه، لكنّها تشكّل جزءاً من السِمة المجازيّة الكئيبة من عقليّته بحيث إنّه جلس مُعطياً ظهره لهذا السيل المتلألئ، مُحدِّقاً إلى عالمٍ من الحجارة. حتى علاقته الجنسيّة مع جوليا بدا أنّها تتّصِف بـ*أحزان الزنا* محفورة على قاعدتها. وبدل أنْ تُبهجه بتهوّره، ذكّرته بضآلة ما خلّفه. وبعد أنْ بدأا يتضاجعان، أصبح يقضي أيّامه متمدداً على كرسي طويل بجوار بركة السباحة، شاعراً بأنّه كان يمكن أيضاً أنْ يتمدَّد داخل خندق على جانب الطريق، يُثبِّط همّة بعض

الجرذان الجائعة، بدل أنْ يرفض تلبية طلبات ولديه الرائعين. وكانت نوبات ممارسة السِحر التي غذّاها الإحساس بالذنب مع ميري شنيعة كنقاشاته التي تُثير الشِجار. وهامش الحريّة الذي حصل عليه مع جوليا سرعان ما امتلأ بإسمنت أداء دور آخر. هي كانت خليلته، وهو عشيقها المتزوج. كانت تكافح لدفعه إلى الهرب، وهو يكافح لكي يُبقيها في خانة العشيقة من دون أنْ يُمزِّق أوصال عائلته. كانا في وضع راسخ، باهتمامات متناقضة تماماً. عمْلته الخِداع: خِداع ميري، وخِداع كلٍ منهما للآخر، وخِداع نفسيهما. وفقط وسط الجشع الآنيّ في السرير كانا يجدان قاسماً مشتركاً بينهما. كان مذهولاً بكميّة الهزيمة والإزعاج التي اكتنفتْ علاقته السريّة بجوليا. والفعل العاقل الوحيد كان إنهاؤها فوراً، واعتبارها مجرد علاقة صيف عابرة وعدم تحويلها إلى علاقة حب. والأمر الرهيب هو أنّه كان قد فقدَ فعلاً السيطرة على الوضع. ولم يكن يشعر بتحسّن إلّا عندما يجتمعان معاً في السرير، عندما يلجها، عندما يعمل على ولوجها. كان الركوع على الأرض شيئاً ممتعاً، وهي جالسة على الأريكة ورُكبتاها مرفوعان وساقاها ممدودتان. وليلة العاصفة الرعديّة، والهواء مشحون، عندما وقفتْ عند النافذة، تشهق كلما حدث برق، ووقفَ هو خلفها و... وهنا وصل طلبه من البراندي، شكراً لله.

ابتسم للنادلة. ما هي الترجمة الفرنسيّة لعبارة «ما رأيك فيه، يا عزيزي؟». إنها كذا، ثم كذا، ثم كذا **يا شيري**. يُستحسَن أنْ يلتزم بالترجمة الفرنسيّة لجملة «الطلب نفسه» - ابقَ على الجانب الآمن. نعم، لقد ضاع لأنه أحبَّ كل شيء في جوليا: رائحة التبغ في أنفاسها، ومذاق دمها الحيضيّ. لم يتمكن من الاتّكال على الاشمئزاز من أي نوع لتحريره. كانت لطيفة، وكانت حذرة، وكانت مُجاملة. سوف يُضطرّ إلى الاتّكال على آلة وضعهما لكي تطحنهما، كما كان يعلم أنّه سيحدث.

هتفَ للنادلة «*Encore la meme chose*» (أريد الطلب نفسه)، وهو يُدير إصبعه على الكأس الفارغة وكانت تضع محتويات الصينية على طاولة مجاورة. أومأتْ برأسها إيجاباً. كانت هي النادلة، وهو كان المنتظر الذي ينتظر النادلة. إنَّ لكلّ شخص دور.

يستطيع أنْ يشعر بـ *fin de saison* (انتهاء الموسم)، بتراخي حركة

الشواطئ والمطاعم، وبأنَّ وقت العودة إلى المدارس وإلى مراكز العمل قد حان، والعودة إلى المدن الكبرى؛ وبتلاشي الحرّ بين المُقيمين، الذين ارتاحوا لانخفاض أعداد الناس. كان ضيوفه كلهم قد غادروا سان- نازير. وغادرتْ كيتل منتصرة، لعِلمها أنها سوف تكون أول العائدين. كانت قد اشتركت في ورشة شيموس لدورة المعالجة الشامانيّة الشعائريّة الروحانيّة الأساسيّة ومن ثم، بما يُشبه حماسة متسوّقة، قررتْ أنْ تمدّ فترة مكوثها لحضور دورة تشي غونغ التي يُديرها فنان عسكري يضع ذيل فرس وكانت تتأمّل صورته الفوتوغرافيّة كلما كان هناك مَنْ يُراقبها. وكان شيموس قد أعطاها كتاباً عنوانه «*قوة الحاضر*»، كانت تضعه مقلوباً على وجهه بجوار كرسي الشاطئ، ليس لتقرأه، طبعاً، بل بوصفه وسام إخلاصها للسلطة التي باتت تُدير عزبة سان - نازير الآن. كانت قد قبِلته لسببٍ بسيط هو أنّه الشيء الأشد إزعاجاً أمكنها أنْ تقوم به. كان يشغل وقتها عندما لا تنتقد ميري على طريقتها في تنشئة ولديها. وقد تعلّمت ميري أنْ تبتعد، أنْ تغيب أحياناً نصف كل يوم. ولم تكن كيتل تعلم ماذا تفعل بفترات الراحة تلك إلى أنْ قرّرت أنْ تُصبح إحدى المُعجبات بمؤسسة شيموس المتعالية. ولم يختفِ كتاب «*قوة الحاضر*» إلّا بعد أنْ تحدثت معها آنْ ويلينغ، وهي صديقة قديمة لكيتل، وتعتمر قبعتها القشّ الضخمة مع وشاح طويل يُشبه وشاح إيزادورا دنكن وهي تجرّه خلفها بطريقة خطرة[1]، من أحد محال بيع الجملة حديثية الطراز على الساحل. كان عجزها التام عن الإصغاء إلى أي شخص آخر يقترن بشكلٍ مزعج باهتمامٍ هستيريّ برأي الآخرين بها. وعندما بدأ توماس يتمتم بفرح لميري حول الخرطوم الملتف بجوار منزل البركة، قالتْ آنْ، «ماذا يقول؟ ماذا يقول؟ إنْ كان يقول إنَّ أنفي ضخم، فسوف ألتزم». هذه الكلمة المُختَصَرَة الساحرة، التي لم يكن باتريك قد سمعها من قبل، دفعته إلى تخيُّل مقالات مُلطّخة بالدماء عن خوف الرجال من الالتزام. هل يلتزم بزواجه؟ أم يلتزم بجوليا؟ أم فقط يلتزم؟

كيف يستمر في الشعور بهذا الاضطراب الشديد؟ وكيف يتوقف عن

1- إيزادورا دنكن (1878 - 1927): راقصة باليه أميركية شهيرة، ماتت مختنقة بوشاحها الطويل الذي علقَ بدولاب السيارة التي كانت تقودها بنفسها - المترجم.

ذلك؟ إحدى الطرق الواضحة الكفيلة بإسعاده هي سرقة لوحة من أمه الخرِفة. كانت آخر لوحتين ثمينتين تمتلكهما من رسم بودان[1]، وتمثلان مشهدين مُتمِّمَين لشاطئ دوفيل، وتُقدَّر قيمتهما بحوالي مئتي ألف جنيه. وكان عليه أنْ يؤنِّب نفسه على افتراضه أنّه سوف يرث لوحتَي بودان «وِفق المجرى العادي للأحداث». وقبل ثلاثة أيام فقط، مباشرة بعد أنْ ودَّعَ كيتل بابتهاج، استلم رسالة قصيرة أخرى من رسائل إلينور المكتوبة بقلم رصاص باهت اللون، وبذلتْ فيها جهداً كثيراً، قالت فيها إنها تريد أنْ تبيع لوحتَي بودوان وأنْ تستخدم المال في بناء مُلحقٍ لبناء شيموس للمحرومين من الإحساس. فالأمور لم تكن تسير بالسرعة الكافية بالنسبة إلى قبلاي خان في هذه العوالم المُجرَّدة من العقل.

تخيّلَ نفسه في موقع بعيد من الماضي مُعتقداً أنَّ عليه «أنْ يُبقي لوحتَي بودوان ضمن ممتلكات العائلة»، وفاضتْ عواطفه بشأنْ تلك السُّحُب المُتراكمة، وجو عالم ضائع ولكن حاضر بحيويّة، والأشعة الثقافيّة الرفيعة المنبعثة من شواطئ نورماندي. الآن يمكن للوحتين أنْ تكونا جالبتين للمال وهما مُعلقتان على جدار مأوى العجزة حيث تنزل أمّه. وإذا كان عليه أنْ يبتعد عن سان -نازير، فسوف تحثّه على ذلك معرفة أنَّ بيع اللوحتين وبيع شقّة لندن والاستعداد للانتقال إلى كوينز بارك سوف يسمح له بإنقاذ توماس من خزانة الأدوات المنزليّة القابلة للتحويل[2] التي ينام فيها الآن ويُقدِّم له غرفة نوم للأطفال بالحجم الطبيعيّ في منزلٍ ذي مصطبة يقع على الشارع العامّ، لا يبعد أكثر من مدة ساعتين من الزحام عن مدرسة أخيه. على أي حال، إنَّ آخر ما يحتاج إليه هو مشهد لشاطئ على الطرف المقابل من فرنسا في حين يستطيع بكل سهولة أنْ يستمتع بالجحيم المُسرطن لليه لاك من خلال العدسة الكهرمانيّة لكأسه الثانية من الكونياك. تمتمَ لنفسه، وقد بدأ يشعر بخفّة في رأسه، «هنا أيضا يجتمع البحر مع السماء، شكراً جزيلاً لك، مسيو بودان».

1- أوجين بودوان (1824 – 1898): رسّام فرنسي، متخصّص في رسم مشاهد طبيعية على شاطئ البحر – المترجم.

2- أي أنَّ خزانة الأطباق حُوِّلَتْ إلى غرفة نوم للطفل.

هل علِمَ شيموس بأمر الرسالة؟ هل كتبها بنفسه؟ وفي حين كان باتريك سيتجاهل بكل سهولة طلب إلينور لجعل هِبة سينت-نازير هِبة أبديّة في أثناء حياتها، كان سيقوم بعمليّة رفض أشدّ تعنّتاً في أمر بيع لوحتَي بودان: بسرقتهما. وإذا لم يكن في حوزة شيموت دليلٌ مكتوب على أنَّ إلينور أرادتْ أنْ تهبَه لوحتَيها لمصلحة المؤسّسة، فإنَّ أي سِباق سوف ينتهي إلى مواجهة بين كلمته وكلمة شيموس. ولحُسن الحظ، بدا توقيع إلينور الذي وضعته بعد إصابتها بسكتة دماغيّة أشبه بعملية تزييف غير مكتملة. وشعر باتريك بثقة باستطاعته أنْ يلجأ إلى القضاء في التعامل مع الأيرلندي صاحب الرؤى، حتى وإنْ لم يستطع أنْ يربح معركة الشعبيّة أمامه عندما يكون الحَكَم هو أمّه. وطمأنَ نفسه، عندما طلبَ برشاقة «*آخر كأس كونياك*»، كرجلٍ لديه أمور كثيرة يقوم بها أفضل من أنْ يفقد وعيه من السُكر قبل موعد الغداء، بأنَّ الأمر في الحقيقة يتعلّق فقط بكيفية إنزال تينك اللوحتين الزيتيتين المُربحتين عن الجدار.

انهمر الضوء المُسلَّط على شاطئ برومنيد روز عليه كرذاذ من الإبر الحارّة. حتى من خلف نظارته القاتمة آلمته مُقلتا عينيه. لقد كان حقاً... القهوة والبراندي... صفير محرِّك نفّاث صغير. «أمشي على الشواطئ / أنظر إلى ثمار الخوخ/ نا. نا-نا، نا-نا نا-نا». من أين أتته هذه الأبيات؟ من الصحافة المُستعادة. لا شيء يحدث، كالمعتاد. من جيرارد مانلي هوبكنز[1]؟ ضحك بعنف.

يجب أنْ يحصل على سيجار. يجب، يجب، يجب، على أساس قاعدة الوجوب. متى كان السيجار مجرد سيجار؟ قبل الحصول عليه.

إذا حالفه قليل من الحظ، سوف أنْ يعود إلى شاطئ تاهيتي (بلكنة أيرلنديّة) في الوقت المناسب للاشتراك في معركة النبيذ المسفلسة. أضاف بورع، مُصدِراً ضجيج التقيّؤ عند قاعدة أسفل عمود نور، «بارك الله شيموس». تورية لفظيّة: أعراض انفصام الشخصيّة.

ها هو *التبغ*. والشكل الأسطواني الأحمر. ووويس. «*Pardon,*

1- جيرار مانلي هوبكنز (1844 - 1889): شاعر وكاهن إنكليزي - المترجم.

«*Madame*». ما بال تلك النسوة الفرنسيات، المُجعدات، الضخمات، ببشرتهن السمراء بفعل الشمس وكتل المجوهرات الذهبيّة، والشعر البرتقاليّ وكلاب البودل بلون الكراميل؟ إنهن ***في كل مكان***. افتح خزانة الكؤوس الزجاجيّة. «*Celui-la*» مُشيراً إلى زجاجة أويو دو مونتيري. المقصلة الصغيرة. سنيب. أليس لديكم شيئاً أفضل في خلفيّة المحل؟ *Un vrai guillotine. Non,non, Madame, pas pour les cigars, pour les clients!*

سناب.

المزيد من الإبر الحارّة. أسرع إلى البقعة التالية من ظل شجرة الصنوبر. ربما ينبغي أنْ يحصل على جرعة صغيرة جداً من البراندي قبل أنْ يعود إلى عائلته. ميري والولدان، كم يُحبهم، حتى يكاد يبكي.

توقف عند محل لو دوفان. قهوة، كونياك، سيجار. فقط لكي يزيح أيضاً تلك المهام الروتينيّة من الطريق، بعد ذلك سوف يُصبح حراً في الاستمتاع بما تبقّى من النهار، أشعلَ سيجاره وبينما الدخان الكثيف يتسرّبُ من فمه شعرَ كأنه يرى شكلاً، أشبه بسجادة تُمدّ داخل محل بيع السجاد. كان قد أخذ ميري، المرأة الطيبة، وحوّلها إلى أداة تعذيب، ونسخة غريبة الأطوار من إلينور قبل أربعين عاماً: التي لا يجدها، ودائماً مُرهَقَة جرّاء تكرّسها لمشروعٍ إيثاريّ لا يُشكّل هو جزءاً منه. لقد أنجزَ ذلك بالأداة الساخرة لرفض نوعيةَ النساء اللواتي لهنّ أمهات سيئات، على غرار إلينور، واختيار امرأة تكون أماً طيبة إلى درجة أنّها لا تدع قطرة واحدة من حبّها تُخطئ أولادها. إنه يُدرك أنَّ هوسه بعدم حصوله على ما يكفي من المال ما هو إلّا تجسيد ماديّ لحرمانه العاطفيّ. لقد عرِفَ هذه الحقائق منذ سنين، ولكن في تلك اللحظة بالذات شعر بأنَّ إحاطته بها يتّصِف برهافة وصفاء خاصّين وأنَّ فهمه جعله يسيطر سيطرة كاملة على الوضع. وانسابت في الهواء سحابة أخرى كثيفة من الدخان الكوبيّ الأزرق. لقد انتشى بإحساسه بانفصاله الخاص، وكأنما تحرَّر على يد خبير غريزيّ، كطائر بحريّ اندفع طائراً قُبيل أنْ تتحطَّم موجة على الصخرة التي كان يجثم عليها.

زال الشعور. تناول عصير برتقال على الإطار، وفناجين قهوة الإسبريسّو

الستة وكؤوس البراندي الأربع في معدته كأنها تتشاجر في حانة. ماذا كان يفعل؟ توقف عن التدخين. ورمى السيجار إلى المجرور. ووبس. «*Pardon, Madame*». يا إلهي، إنها المرأة نفسها، أو تكاد تكون نفسها. قد يُضرِم النار في كلبها. إنَّ عناوين الصحف الرئيسة لا تقول أي شيء عن *incendie de caniche...... Anglais intoxique*.

يجب أنْ يتّصل بجوليا. إنَّ في استطاعته أنْ يعيش من دونها ما دام أنّه علِمَ أنها لا تستطيع أنْ تعيش من دونه. ذاك كان الاتّفاق الذي أبرمه الأضعف بصورة مُثيرة للغضب بين شعورهما الدائم بخيبة الأمل وتسلياتهما المؤقّتة. نظر إلى ذلك بشيءٍ من الاشمئزاز لكنه أدركَ أنّه سوف يوقّع العقد في كل الأحوال. يجب أنْ يتيقّن من أنّها كانت في انتظاره، تفتقده، تشتاق إليه وتتوقّع وصوله إلى شقّتها في ليلة يوم الإثنين.

كان أقرب كشك هاتف، بلا باب مع سلّة مهملات تفوح بعبق البول، يحترق تحت أشعة الشمس في ذروتها عند المنعطف التالي. أحرقَ البلاستيك الأزرق يده وهو يُدير رقم الهاتف.

«لا أستطيع أنْ أقترب من جهاز الهاتف في الوقت الحاضر، ولكن اترك رسالة من فضلك...»

«ألو؟ ألو؟ أنا باتريك. هل تختبئين خلف آلتك؟... حسن، سوف أتصل بكِ غداً. أحبّك». كاد ينسى أنْ يذكر هذا.

إذن، هي غير موجودة. إلّا إذا كانت في السرير مع رجلٍ آخر، تضحك ساخرة من مكالمته الهاتفيّة المتردّدة. إنْ كان لديه شيء واحد يقوله للعالم، فهو: إياك، ثم إياك أنْ تنجب طفلاً من دون أنْ تحصل أولاً على عشيقة موثوقة. ولا تدع الآمال الزائفة تخدعك - «عندما تنتهي فترة رضاعته من الصدر؛ عندما يقضي الليل بأكمله في سريره الخاص؛ عندما يلتحق بالجامعة». وكقطيعٍ من الجياد الهاربة، تحمل الوعود الفارغة الرجلَ إلى حجارة متكسّرة ونباتات صبّار عملاقة وهو يدعو الله أنْ تنفك كتلة المشاعر المتشابكة. لقد انتهى الأمر، لا راحة في الزواج، ليس هناك غير الواجب والالتزام، غاصَ على المقعد الأقرب إليه، إنّه في حاجة إلى فترة توقف قبل

أنْ يرى عائلته من جديد. لاحت له الأكواخ اللازورديّة ومظلات شاطئ تاهيتي، تمتد عميقاً داخل ذاكرته. عندما ذهب إلى هناك للمرة الأولى كان في مثل سن توماس وكان في مثل سن روبرت عندما أضحت ذكرياته أشدّ كثافة: ركوب القوارب التي تدور بتحريك دواسة التي توقَّعَ أنْ يستعملها على شواطئ إفريقيّة؛ والانطلاق على قلاع من رمال بناها شبان أجانب؛ والسماح له بطلب مشروباته الخاصة ومثلجاته حالما يشبّ عن الطوق. في سن المراهقة كان يأخذ معه كتباً إلى الشاطئ. كانت تساعده على إخفاء أعضائه التناسلية المنتفخة بينما يُحدِّق من خلف ظلال عباءته إلى أول فتاة عارية الصدر ورديّة تتشمّس على الرمال الشاحبة لليه لاك. ومنذ ذلك الحين أصبح عدد مرتادي شاطئ تاهيتي يقلّ أكثر فأكثر، إلى أنْ أصبح الشاطئ كلّه يحتلّه البحر. وفي عشرينيات عمره، كان قد شهِدَ إعادة بنائه على يد البلديّة باستخدام آلاف الأطنان من الحصى المستورد. وفي عيد الفصح في كل عام كان الرمل يُجرّ من الخليج ويُنشَر على امتداد الشاطئ المُصطنع عبر فريق من الجرافات، وفي الشتاء كانت العواصِف تُعيده إلى مياه الخليج.

مال إلى الأمام وأراح ذقنه على يديه. كان تأثير شرب القهوة والبراندي قد بدأ يتلاشى، ولم يتبقَّ له إلّا طاقة عصبيّة محكوم عليها بالفناء، كحجر مقذوف يقفز فوق سطح المياه بضع مرات قبل أنْ يغرق تحت السطح. نظر بتعب إلى الصورة الزائفة للشاطئ الأصليّ، إنْ كانت كلمة «أصليّ» هي المناسِبة لوصف الشاطئ الذي عرفه عندما كان في مثل سن أطفال هذه الأيام. وترك هذا التعريف المحلّي الذي يبعث على الرثاء يذوب، وعاد أدراجه خلال زمن جيولوجي إلى الضجر المُطلَق الذي كان يُثيره الشاطئ الأول في النفس، ببركِهِ الصخريّة الخالية وجزيئاتها البسيطة لا تعرف ماذا تفعل بنفسها منذ مليارات لا تنتهي من الزمن. هل يستطيع أحد أنْ يفكر في أي شيء يتعدّى التسكع في المكان؟ وصفوف من الوجوه الخالية من المشاعر، كأنهم مجموعة من الأصدقاء القُدامى تطلب منهم أنْ يقترحوا عليك مطعماً جديداً في ليلة يوم أحد. عند النظر إلى ظهور الحياة الإنسانيّة من هذا الشاطئ البدائيّ تبدو أشبه بلوحة الرسام جيريكو «*راكبو طوف الميدوسا*»، وأشباحها بلونهم المائل إلى الأخضر وهم يغرقون في محيط الزمن اللامبالي.

كان في حاجة ماسّة إلى مشروب آخر ليتخلّص من عماء مخيّلته. وإلى بعض الطعام. وبعض الجنس. كان في حاجة إلى الثبات، كما يمكن لشيموس أنْ يقول. كان في حاجة إلى الانضمام من جديد إلى صفوف نوعه، إلى صفوف وصفوف من الحيوانات المتجشّئة على الشاطئ التي لا تفصل بينها وبين وجلد حيوان كبير وسميك إلا شفرة موسى أو شمع إزالة الشعر؛ إنّه يدفع ثمن وِقفته المعتدلة المُدَّعية ألم ظهر موجِع، لكنه يتوق في سرّه إلى السير بعرج وجرّ براجمه على الرمال، يصرخ وينخر، ويُقاتل وينكح. نعم، كان في حاجة إلى أنْ يكون حقيقيّاً. لا تمنعه عن تسديد ضربات إلى عضلات صدره المشدودة وإطلاق خِوار محلّي إلّا مُراعاة مشاعر أمّه العجوز ذات الشعر الأبيض والكاحلين المتورِّمين تحت المقعد، إلّا مُراعاة المشاعر وأيضاً، طبعاً، إحساسه المتنامي بالكآبة الشديدة وآثار السُكر في عزّ النهار.

نهضَ وشقَّ طريقه قاطعاً المسافة الأخيرة المتبقية قبل الوصول إلى شاطئ تاهيتي. وعلى أرضيّة الاسمنت المُسلّح الصقيل واللون الورديّ تقدَّمت نحوه فتاة شبه عارية بثديين ضخمين مثاليين وعلى سُرّتها يستقرّ حجرٌ كريم، مُثبِّتة عينيها في عينيه وتبتسم، رافعةً كلتا ذراعيها، ظاهريّاً لكي تُلملم شعرها الأشقر الطويل على شكل كعكة رخوة فوق قمة رأسها، ولكن في الحقيقة لكي تحاكي وضعيّة الاستلقاء على السرير وذراعاها إلى الخلف. أوه، يا الله، لِمَ الحياة مُشوَّشة هكذا؟ لِمَ لا يستطيع أنْ يرفعها إلى غطاء سيارة حارّ ويُمزّق عنها تلك الذريعة ذات اللون الفيروزيّ التي تدّعي أنّها مايوه بيكيني؟ هي تريد ذلك، وهو يريد ذلك. حسن، على أي حال، هو أراد ذلك. ربما هي أرادت بالضبط ما لديها، أي القدرة على تشويش كل رجل ذي ميول جنسيّة طبيعيّة - ثم أضاف بمسحةٍ رسميّة، ولا ننسى هنا زميلاتنا السحاقيات - اللواتي كانت تمرّ بهنّ وهي تتمشّى جيئة وذهاباً بين صديقها الذي يبعث على الكآبة وسيارتها الصغيرة الرشيقة. مرّتْ به، استمر هو بالترنّح. كان في استطاعتها أيضاً أنْ تبتر أعضاءه التناسليّة وترميها على الرمال. شعر بالدماء تجري على طول ساقيه، وسمع الكلاب تتشاجر حول اللحم غير المتوقَّع. أراد أنْ يجلس من جديد، أنْ يستلقي، أنْ يدفن نفسه عميقاً تحت الأرض. لقد انتهى أمره كرجل. وشعر بالحسد من ذَكَرْ

العنكبوت الذي التهمتْه الأنثى بعد أنْ خصّبَها، بدل أنْ تأكله قطعةً قطعةً كما يحدث مع نظيره الإنسانيّ.

توقف عند أعلى السُلَّم الأبيض العريض المؤدي أسفلاً إلى شاطئ تاهيتي. وشاهد روبرت يركض جيئة وذهاباً حاملاً دلواً، يحاول أنْ يملأ خندقاً يتسرَّب منه الماء. وكان توماس مستلقياً بين ذراعَي أمّه، يمصّ إبهامه، حاملاً دميته ويراقب روبرت بتحديقه الموضوعيّ الغريب. كانا سعيدَين لأنهما حظيا بانتباه أمّهما الكامل، وهو كان تعساً لأنه يحظى بعدم انتباهها الكامل. على الأقل، هذا كان السبب المحلّي، لكنه ليس شاطئ تعاسته الأصليّ. لا عليك من الشاطئ الأصليّ. كان عليه أنْ يهبط إلى هذا الشاطئ وأنْ يكون أباً.

قالت ميري، «مرحباً، حبيبي»، مع تلك الابتسامة المُرهقة دائماً التي لا تشاركُ عيناها بها. كانوا يسكنون عالماً أشدّ صعوبة تحاولُ فيه أنْ تنجو من الطلبات التي لا تنتهي لابنيها، ومن الأثر المُدمِّر لقضاءِ سنين من دون توفّر لحظة من العزلة على طبيعة منعزلة.

قال باتريك «مرحباً. هلّا تناولنا طعام الغداء؟»

«أعتقد أنَّ توماس يوشك أنْ يستغرق في النوم»

قال باتريك «حسن»، وغاصَ في كرسي الاسترخاء. كان دائماً يتوفَّر سبب وجيه لإحباط رغباته.

قال روبرت، وهو يُري باتريك تورُّماً على جفن عينه، «انظر. لقد لسَعَتْني بعوضة»

تنهّدَ باتريك «لا تقْسُ على البعوض. وحدهنّ الإناث الحبالى يشتكين، بينما النساء لا يتوقفن عن الشكوى، حتى بعد أنْ يُنجبن العديد من الأطفال»

لماذا قال هذا؟ يبدو اليوم أنّه مُترع بالكراهيّة الحيوانيّة للنساء. إنَّ كان هناك مَنْ يتذمّر فإنه هو. وهذا الكلام لا ينطبق حتماً على ميري. إنه أحد الذين عانوا عدم الثقة الشديد بالنساء. وليس لدى ولديه سبب لمشاركته هذه السِمة. يجب أنْ يحاول أنْ يستجمع قِواه. وأقلّ ما في استطاعته أنْ يفعل هو أنْ يكبح كآبته.

قال «أنا آسف. لا أعلم لِمَ قلتُ هذا. إنني أشعر بإرهاقٍ شديد»
وزَّعَ ابتسامة اعتذار حوله.

اقترحَ على روبرت، الذي كان يرفع دلواً آخر، «يبدو أنكَ في حاجة إلى بعض المُساعدة لملء ذلك الخندق»

أخذا ينتقلان جيئة وذهاباً، يصبّان ماء البحر على الرمال إلى أنْ استغرقَ توماس في النوم وهو بين ذراعَي أمّه.

آبْ 2002

-10-

من بركة اللهو الزرقاء حيث كان توماس يلعب راضياً قبل برهة، اندفع فجأةً عبر الرمال، وهو ينظر خلف كتفيّ والده ليرى إنْ كانت أمّه تتبعه. دَفَعَتْ ميري كرسيّها إلى الخلف واندفعتْ تتبعه. أَصبحَ الآن سريعاً جداً، ويزداد سرعة في كل يوم. كان قد وصل إلى الدَّرَجة العليا ولم يتبقَّ أمامه إلّا أنْ يجتاز برومينيد روز لكي يصل إلى حركة المرور. أخذتْ تثبُ ثلاث دَرَجات دفعة واحدة وبالكاد أمسَكَتْ به حالما وصل إلى زاوية السيارة المتوقفة التي أخفتْه عن أعين السائقين المندفعين على طول الطريق المُحاذية للبحر. وبدأ يرفس ويتلوّى عندما رفعَته في الهواء.

قالتْ، تكاد تبكي، «إياك أنْ تفعل ذلك. إياك أنْ تفعل ذلك. إنه خطِر جداً»

غرغر توماس ضاحكاً ومتحمّساً. لقد اكتشفَ هذه اللعبة الجديدة بالأمس عندما وصلوا عائدين إلى شاطئ تاهيتي. وفي العام الفائت كان يعود أدراجه إذا ابتعد عنها أكثر من ثلاث ياردات عنها.

عندما حملته ميري من حافة الطريق إلى المظلة انتقل إلى نمط آخر، إلى مصّ إبهامه ومُداعبة وجهها براحة يده بحبّ.

«هل أنتِ بخير، ماما؟»

«لقد انزعجتُ من هربك مني إلى الطريق»

قال توماس بفخر «سوف أقوم بعمل خطر جداً. نعم، سوف أفعل»

لم يسع ميري إلّا أنْ تبتسم. إنَّ توماس رائع جداً.

كيف تقول إنها حزينة عندما تُصبح سعيدة في الدقيقة التالية؟ كيف تقول إنها سعيدة عندما ترغب في الدقيقة التالية في الصراخ؟ ليس لديها وقت لترسم شجرة عائلة لكل انفعال ينتابها. لقد أمضَتْ وقتاً طويلاً وهي في حالة من التعاطُف المُرهِق، في التناغُم مع أمزجة طفليها المتقلّبة. أحياناً تشعر أنها توشك أنْ تنسى وجودها الخاصّ تماماً. كان عليها أنْ تبكي لكي تسترد ذاتها. والذين لم يفهموا اعتقدوا أنَّ دموعها هي نِتاج كارثة دنيويّة طالَ أمد كبتها، أو إحساسها النهائي بالإرهاق، أو سحبْها مبالغ ضخمة من رصيدها أو زوجها الخائن، لكنَّ دموعها في الحقيقة كانت دورة سريعة في الأنانيّة الضروريّة لشخصٍ احتاج إلى استعادة ذاته لكي يُضحّي بها من جديد. لطالما كانت هكذا. حتى وهي طفلة كان يكفي أنْ ترى طائراً يستقرّ على غصن حتى يحل نبض قلبه العنيف محل نبض قلبها هي. أحياناً كانت تتساءل إنْ كان إيثارها ميزة أم مرضاً. ولم تحصل على جواب نهائي على هذا السؤال أيضاً. كان باتريك هو الذي يعمل في عالمٍ ينبغي أنْ تصدر فيه الأحكام والآراء بنبرة قوية.

أجلسَتْ توماس على الكراسي البلاستيك المتراكمة في مكان جلوسه على الطاولة.

قال توماس، وهو يهبط ويبتسم بخبث ثم ينطلق من جديد نحو الدَّرَج، «كلا، ماما، لا أريد أنْ أجلس على الكراسي المتراكمة». أمسكتْ به ميري في الحال من جديد ورفعته وأعادته إلى الكراسي.

«كلا، ماما، لا أريد أنْ ترفعيني، إنه شيء لا يُطاق حقاً»

ضحكتْ ميري. «من أين أتيتَ بهذه التعبيرات؟»

اقتربت ميشيل، مالكة المكان، حاملة سمك الحفّار المشويّ ونظرتْ إلى توماس مؤنّبة.

عنّفته «*C'est dangereux, ca*» (هذا شيء خطير)

كانت ميشيل قد قالت بالأمس إنها كانت ستضرب أطفالها لو أنهم ركضوا باتجاه طريق عامة هكذا. كانت ميري دائماً تتلقّى نصائح عقيمة. إذ لا يمكن لها أنْ تضرب توماس في ظل أي ظرف من الظروف. وبغَضّ النظر

عن الاشمئزاز الذي شعرتْ به من تلك الفكرة، رأتْ أنَّ إزالة العقوبة هي الوسيلة الأمثل للتنكُّر للدَّرسِ الذي مِنَ المُفتَرَض إعطاؤه؛ إنَّ كل ما يتذكّره الطفل هو العنف، ويستبدل حزن الأبوين المُبرَّر بحزنه الشخصيّ.

كانت كيتل هي المصدر الأسمى للنصيحة العقيمة، التي تُغذّيها الآبار العميقة لعُقمها كأمّ. ولطالما حاولتْ أنْ تخنق كيان ميري المستقلّ. وهذا لا يعني أنّها عاملتْ ميري كأنها دُمية – لقد كانت شديدة الانهماك في أنْ تكون هي نفسها دمية ولم يتوفر لديها الوقت لتعاملها كذلك – بل كمصدرٍ للمال وللمُغامِرة: كشخص هو في الأصل تافه، ولكن يمكن ذات يوم أنْ يُعوّضها عن ذلك، إذا تزوجتْ من رجل ذي نسب عريق واسم شهير. لقد وضّحت أنَّ الزواج من محامٍ يوشك أنْ يخسر منزلاً متوسط الحجم لا يرقى إلى الكنز الذي تتخيّل. وخيبة أمل كيتل في ميري الراشدة كان مجرّد رديف لخيبة الأمل التي شعرتْ بها عند ولادتها. فميري ليست ذَكَراً. والفتيات اللواتي لسن ذكوراً هنَّ بمثابة خذلان. وتظاهرتْ كيتل بأنَّ والد ميري كان راغباً رغبة يائسة في الحصول على صبي، في حين أنَّ اليأس الحقيقي كان من نصيب والد كيتل، الجنديّ الذي كان يفضِّلَ خوض حرب في الخندق على صحبة أنثى ولم يوافق على التواصل بأدنى قدر ممكن مع الجنس الأضعف إلّا بأمل إنتاج وريث ذَكَر. وبعد إنجاب ثلاث إناث اعتصمَ في غرفة مكتبه.

أما والد ميري، على العكس، فابتهج بها كما هي. وانضم حياؤه إلى حيائها بصورة حرّرتهما معاً. ميري، التي لم تكد تتكلّم على مدى العشرين عاماً الأولى من حياتها، أحبّته لأنه لم يدفعها إلى الشعور بأنَّ صمتها كان دليلاً على الفشل. وقد فهِمَ إنّه ناشئ عن نوعٍ من الضغط الشديد، ووفرة الانطباعات المُفرطة. وقد كان البون بين حياتها العاطفيّة والعُرف الاجتماعي شاسعاً وعجزتْ عن عبوره. وكان هو يُشبهها عندما كان شاباً، لكنّه تعلَّم بالتدريج أنْ يُقدِّم إلى العالم شيئاً لا يمثّله. وقد أعادته أصالة ميري إلى جوهره الخاصّ.

كانت ميري تتذكره بحيويّة شديدة لكنَّ ذكرياتها غلَّفها موتُه المُبكِّر. كانت في الرابعة عشرة عندما توفي متأثراً بمرض السرطان. وقد «حماها» من مَرَضِه تكتُّمٌ عقيمٌ جعل الوضع أشدّ إثارة للقلق مما كان فعلاً. كان التكتُّم

هو من مُساهمات كيتل، وبديلها عن ذلك كان التعاطُف. وبعد وفاة هنري، طَلَبَتْ كيتل من ميري أنْ «تتحلّى بالشجاعة». والتحلّي بالشجاعة كان يعني ألّا تطلب التعاطُف الآن أيضاً. إذ لا فائدة من طلبه، حتى وإنْ كانت الفرصة لا تزال سانحة. في الأساس كانت تجاربهما مختلفة. كانت ميري ضائعة تماماً في الضياع، ضائعة في تخيُّل مُعاناة والدها، ضائعة في جنون معرفة أنّه وحده كان يمكن أنْ يفهم مشاعرها بشأنْ موته. وفي الوقت نفسه، وبشكلٍ مُضطرب، كانا قد أمضيا قسماً كبيراً من علاقتهما في تواصُلٍ صامت بحيث لم يتوفّر أي سبب لانتهائها. وحدها كيتل بدا أنّها تتقاسم معها حزن فقدان عزيز عليها. في الحقيقة كانت تتألم من آخر مصدر لإحساسها الحتمي بخيبة الأمل. كان شيئاً غير مُنصِف أبداً. كانت صغيرة جداً على كونها أرملة، وأكبر سنّاً من أنْ تبدأ من جديد بشروطٍ مقبولة. وإثر وفاة والدها أدركتْ ميري إدراكاً كاملاً مدى عقم أمّها العاطفي وتعلّمت أنْ تمقتها. وكميّة الشفقة التي تشكّلتْ منذ ذلك الحين تضاءلتْ بعد أنْ أنجبتْ أطفالها. والآنْ أضحتْ مُعرَّضة دائماً للتمزُّق بفعل نوبات جديدة من الغضب العارم.

كان أحدث مُساهمات كيتل هي اعتذارها لأنها لم تجلب هديّة لتوماس في عيد مولده الثاني. لقد بحثت «في كل مكان» (المعنى: اتصلتْ بمحلات هارودز) «عن تلك الأعنّة الرائعة التي يحصل عليها المرء وهو طفل». وبعد أنْ خذلتها محلات هارودز، كانت هي أيضاً قد ملّتْ البحث عن أي شيء آخر. قالت «سوف تصبح رائجة من جديد»، وكأنما يمكن أنْ تمنح توماس عِناناً وهو في سن العشرين أو الثلاثين، أو عندما يعود العالم إلى رشده ويبدأ بتخزين أعِنّة الأطفال من جديد.

قالتْ لتوماس «أعتقد أنَّ الجدَّة خذلتك كثيراً لأنها لم تجلب لك أي عِنان»

قال توماس، الذي تعوّدَ أنْ يُعارِض بانتظام آخر تقرير يسمعه، «كلا، لا أريد أي عِنان». ودُهِشَتْ كيتل لرفضه لأنها لم تكن تعلم ذلك.

استأنفت قائلة «كانت الجدّة تثقُ بها»

قالت ميري «وأنا كنتُ أسبّها»

قالتْ كيتل «في الحقيقة، أنتِ لم تفعلي. إنك خلاف توماس، كان ممنوعاً عليك أنْ تسبّي كبحّار ثمل»

كان صحيحاً أنَّ توماس قال، في آخر مرة قاموا بزيارة كيتل في لندن، «أوه، كلا! لعنة الله على غسّالتي، لقد اشتغلتْ من جديد»، وتظاهر بأنّه يوقِفها بالضغط ثم فصل الجرس المجاور لموقد الجدَّة.

كان قد سمِعَ باتريك يقول «لعنة الله» في صباح ذلك اليوم، بعد أنْ قرأ رسالةً وصلتْه من معرض ثوسبي للوحات. لقد رفضوا لوحتَي بودان لأنهما زائفتان.

قال باتريك «يا خسارة الجهد المعنويّ»

«إنها ليست خسارة. أنتَ لم تكن تعلم أنهما زائفتان قبل أنْ تُقرِّر أنْ تسرقهما»

«أعلم، انتهينا: لو أنني كنتُ أعلم لكان القرار سهلاً جداً. كنتُ سأصرخُ في البداية، «أسرقُ أمي؟ مستحيل!»، بدل أنْ أقضي عاماً وأنا أتساءل هل أُصبح نوعاً من روبن هود الأجيال، أُصحِّح اختلال التوازن بارتكاب جريمتي الفاضلة». قال باتريك، قابضاً بقوة على رأسه بيديه، «لقد نجحتْ أمي في جعلي أكره نفسي لأنني جدير بالاحترام. كم كان ذلك مُتضارِباً؟ ولم يكن ضرورياً أبداً»

سأل توماس «عمَّ يتحدَّث البابا؟»

«أنا أتحدث عن لوحتَي جدّتك اللعينة الزائفتين»

قال توماس، هازّاً رأسه برصانة، «كلّا، إنها ليستْ جدّتي اللعينة»

«ليس شيموس هو أول مَنْ خدعها وسلبها النقود القليلة التي تركتها لها جدَّتي *أنا*. فقد كان أحد تجّار اللوحات الفنيّة في باريس قد دبَّرَ بنجاح تلك الخدعة السهلة قبل ثلاثين عاماً»

قال توماس «كلا، إنها ليست جدّتكَ اللعينة، إنها جدَّتي أنا اللعينة»

كانت مسألة الملكيّة هي الشيء التالي الذي بدأ توماس يهتم به مؤخراً. كان قد مرّ وقت طويل لم يهتمّ خلاله بامتلاك الأشياء، والآن أضحى كل شيء ملكه.

أمضَتْ ميري أوّل أسبوع من شهر آب مع توماس وحدها. كان باتريك مُحتجَزاً في لندن بسبب قضيّة صعبة رأتْ ميري أنها يجب أنْ تُسمّى قضيّة جوليا في مواجهة ميري، لكنّها تظاهرتْ بأنها تُسمّى شيئاً آخر. كيف تقول إنها تغارُ من جوليا بينما في اللحظة التالية لا تشعر بأنها كذلك؟ في الحقيقة، كانت أحياناً تشعر بالامتنان لها. لم ترغب في أنْ يأخذ أحدٌ منها باتريك، ولا اعتقدتْ أنّه سيؤخَذ منها. كانت ميري غيوراً بطبيعتها ومُتساهلة بطبيعتها. والطريقة الوحيدة التي كان يمكن لهذين الجانبين فيها أنْ يتعاونا هي تنمية التساهُل. بتلك الطريقة لم يرغب باتريك في تركها، وهكذا أشبعَت غيرتها أيضاً. وبدا برنامج الأعمال بسيطاً جداً، ما عدا تعقيدَين آنيين. أولهما، كان أحياناً يغمرها إحساس بالحنين إلى الحياة الجنسيّة التي كانا قد تشاركا فيها قبل أنْ تُصبح أمّاً. كان شغفها يبلغ ذروته، طبعاً، عندما يُعِدّ انطفاءه الخاص، في الوقت الذي كانت تحاول خلاله أنْ تحبل. وثانياً، انتابها الغضب عندما شعرتْ بأنَّ باتريك يتعمَّد إفساد علاقتهما لكي يُنشِّط ممارسته الزنا. هذه هي الحقيقة: هو في حاجة إلى الجنس، وهي لا تستطيع توفيره له، وسوف يفتش عنه في مكان آخر. كانت الخيانة مسألةً تقنيّة، أما الغدر فيثير شكّاً عميقاً، يخلقُ جوّاً ختاميّاً.

كانت المرة الأولى التي يغيب فيها روبرت عن المنزل أكثر من ليلة واحدة. كان مُرتاحاً بصورة مُدمِّرة في أمسيته الأولى في منزل صديقه جيريمي عندما اتصلا بالهاتف. طبعاً هي مسرورة، وطبعاً كان ذلك دلالةً على ثقته في حُبِّ أبوَيه حتى أنّه شعر بأنَّ الحبَّ كان حاضراً هناك في أثناء غيابهما. ومع ذلك، كان غيابه عنها شيئاً غريباً. إنها تتذكّره وهو في سِنِّ توماس، عندما كان لا يزال يهرب لكي يُلاحقه أحدٌ ويبقى مُختبئاً لكي يعثروا عليه. وحتى حينئذٍ كان أشدّ تفحّصاً لأفكاره من توماس، ويحمل أعباءً أكثر. من ناحية، كان يقطن جنّة أصليّة لا يمكن لتوماس أنْ يعرفها، ومن ناحية أخرى، كان طرازاً أصليّاً. توماس استفاد من التعلُّم من الأخطاء واستفاد أكثر من الآمال المُحدَّدة التي تلتها.

قال توماس، وقد بدأ ينزل عن الكراسي، «لقد اكتفيت حتى الآن»

لوّحتْ ميري بيدها لميشيل لكنّها كانت تقوم على خدمة زبون آخر.

كانت قد احتفظَتْ بطبقٍ من رقائق البطاطا والسمك من أجل هذه اللحظة. لو أنَّ توماس رأى تلك الرقائق قبل ذلك فلم يكن يأكل السمك، وإذا رآها الآن لبقيَ جالساً خمس دقائق أخرى. ولم تستطع ميري من لفت انتباه ميشيل وتابع توماس هبوطه.

«أترغب في رقائق البطاطا والسمك، يا حبيبي؟»

«كلا، ماما، لا أريد»، ثم صحَّح كلامه، «نعم، أريد بعض الرقائق»

انزلقَ وضرب ذقنه بأعلى الطاولة.

قال، وهو يمدّ ذراعيه إلى الأمام، «ماما، ارفعي أنتَ»

رفعته وأجلسته على حجرها، وأخذتْ تهزّه برفق. كان كلما ناله أذى يُشير إلى نفسه بـ «أنتَ»، على الرغم من أنّه اكتشف الاستخدام المناسِب لصيغة المُتكلِّم المفرد قبل ذلك بستة أشهر. وكان حتى ذلك الحين، كان يُشير إلى نفسه بـ «أنت» على الأساس المنطقيّ جداً القائل إنَّ كل شخص آخر خاطبه بهذه الصيغة. وكان أيضاً يُشير إلى الآخرين بـ «أنا»، على الأساس المنطقيّ جداً القائل إنَّهم هكذا يُشيرون إلى أنفسهم. ثم في أحد الأسابيع يقول «أنتَ تريد هذا» إذا به يتحول إلى «أنا أريد هذا». وكل ما كان يفعل في اللحظة الراهنة - الافتتان بالخطر، الإصرار على المُلكيّة، وممارسة طقس المُعارضة، والرغبة في القيام بالأشياء بنفسه - وقع ضمن دائرة الانتقال المُدوّي من كونه «أنت» إلى كونه «أنا»، ومن النظر إلى نفسه من خلال عينَي والديه إلى النظر من خلال عينيه هو. ولكن الآن، بدأ يُعاني من فترة ارتداد نحويّ، وأراد أنْ يعود من جديد «أنت»، مخلوق أمّه.

كانت سالي في الليلة السابقة قد قالت «الأمر غاية في الصعوبة لأنَّ إرادتكَ هي ما يُعينك على الاستمرار في الحياة. فلماذا تريدين أنْ تقضي على إرادة ابنك؟ هذا ما أرادت أمهاتنا أنْ يفعلنه. هذا كان معنى أنْ يصبح المرء «صالحاً» - أنْ ينكسر».

سالي هي صديقة ميري الأميركيّة، وحليفتها الكبرى؛ وكانت أيضاً أمّاً تُمطِر الآخرين بوابل نصائحها العقيمة، وصمّمتْ أيضاً على أنْ تُقدِّم لأولادها دعماً غير محدود، وأنْ تزيح عائق التنشئة التي تربّت عليها من الطريق لكي

ينطلقوا بحريّة. وكان يُحيطُ بهذه المُهمّة تعليقٌ عِدائيّ: كُفّي عن أنْ تكوني ممسحة للأقدام؛ لا تكوني عبدة لأولادك؛ استعيدي قوامك الجميل؛ اسعدي زوجك؛ عودي «إلى المجتمع»؛ ارتادي الحفلات؛ إنَّ قضاءك وقتك كلّه مع أولادك يدفعكِ إلى حافة الجنون بالمعنى الحرفيّ؛ زيدي من احترامك لنفسك بإيكالك أمر أولادك إلى شخص آخر واكتبي مقالة قولي فيها إنه لا ينبغي على المرأة أنْ تشعر بالذنب فيما يتعلّق بإيكال أمر تربية أولادها إلى شخص آخر؛ لا تُفسدي أولادك بمنحهم ما يطلبون؛ اتركي أولئك الطُغاة الصِغار يبكون حتى يناموا، وعندما يُدركون أنَّ البكاء لا طائل من ورائه سوف يسكتون؛ على أي حال، إنَّ الأطفال يُحبون القيود. وتحت هذه الطبقة تأتي الإشاعات المُزعجة: لا تتناولي أقراص الباراسيتامول، استخدمي دائماً باراسيتامول، إنَّ الباراسيتامول يمنع عمل المُعالجة المثليّة[1]، إنَّ المعالجة المثليّة لا تفيد، المعالجة المثليّة تفيد في بعض الأشياء ولا تفيد في أشياء أخرى؛ قِلادة الكهرمان تكافح آلام الأسنان؛ ذلك الطفح يمكن أنْ يتحسَّس من حليب البقر، ويتحسَّس من الحنطة، ويمكن أنْ يتحسّس من نوعيّة الهواء، ولندن أصبحتْ خلال السنوات العشر الأخيرة أشد تلوُّثاً؛ لا أحد يعلم حقاً السبب، قد يزول من تلقاء نفسه. ثم هناك المقارنات الحاسدة والأكاذيب الساذجة: ابنتي تنام طوال الليل؛ لم تحتج إلى مشروب قوي المفعول منذ أنْ كانت في الثالثة من العمر؛ ظلّتْ أمّه ترضعه من ثديها إلى أنْ بلغ الخامسة من العمر؛ نحن محظوظون جداً، كلاهما حظيا بمراكز مضمونة في جامعة أكون؛ كانت صديقتها المُفضّلة في المدرسة هي جَدَّة المغنية سيلا بلاك.

بعد أنْ تمكنت ميري من تجاهل هذه الأشياء المُربكة، حاولتْ أنْ تجتاز الغابة الميّتة لتداعي أفكارها، والإفراط في التعويض عن شيء ضائع، والإرهاق والاستفزاز والرعب، والتوتّر القائم بين الاتّكال والاستقلال الذي كان حيّاً فيها كما في أولادها، واضطرَّتْ إلى ملاحظته ولكن لم تتمكّن من تخصيص أي وقت له، وإلى العودة، ربما، إلى جذور غريزة الحب، ومحاولة البقاء هناك والعمل من هناك.

1- المعالجة المثليّة: المقصود بها إعطاء المريض جرعات صغيرة من دواءٍ لو أُعطيَ لشخصٍ سليم لأحدَثَ عنده مثل أعراض المرض المُعالَج.

شعرتْ بأنَّ سالي مُقيَّدة إلى المنحدر نفسه كحالها، وبأنَّ في استطاعة كلٍ منهما أنْ تتكل على الأخرى. وفي الليلة السابقة كانت سالي قد أرسلتْ فاكساً ولكنْ لم يُتَح الوقت لميري بعد لتقرأه. فقد نزعته عن جهاز الفاكس وحشرته في حقيبة ظهرها. وربما بعد أنْ ينام توماس، عندما ينام، في اللحظة التي من المُفترَض بباقي العالم أنْ يكون مُكتظّاً بصورة بارعة. ومع عودته إلى صوابه، تكون في المعتاد شديدة التوق إلى النوم لكي تنفصل عن إيقاع توماس وتقوم بعملٍ مختلف.

كانت الرقائق قد فقدتْ قدرتها على التأثير في توماس وكان ينزل عن الكراسي. فأمسكت ميري بيده وقادته ليعود إلى الدَّرَج الذي كان قد اندفع يرتقيه قبل قليل. وتمشّيا في برومينيد روز معاً يمسك كل منهما بيد الآخر.

قال توماس «السير على قدميّ شيء ممتع وسهل. أوه»، وفجأة توقَّف أمام صفّ من نبات الصبّار الذابل، «ما اسم هذا؟»

«إنه نوع من الصبّار، يا حبيبي. لا أعرف اسمه الخاصّ»

قال توماس «ولكنْ أريد أنْ أعرف اسمه الخاصّ»

«حسن، يجب أنْ أبحث عنه في كتابي عندما نعود إلى المنزل»

«نعم، ماما، سوف نبحث... أوه! ماذا يفعل ذلك الصبي؟»

«إنه يلعب بمسدس ماء»

«لكي يسقي الأزهار»

«يعني، نعم، سوف يكون ذلك استعمالاً جيداً له»

أبلغها «إنّه من أجل سقي الأزهار»

أرخى قبضة يده ومشى حتى تقدَّمها. وعلى الرغم من أنهما كانا دائماً معاً، إلّا أنها غالباً لم تكن تنظر إليه طوال ساعات طويلة. كان إمّا شديد القُرب منها بحيث لا تراه بشكلٍ كامل، أو كانت تُركّز على العناصِر الخطرة من الموقف ولا يُتاح لها الوقت لاستحسان ما تبقّى منه. الآن هي تراه بأكمله، من دون قلق، يبدو رائعاً بقميصه الرياضيّ الأزرق بما عليه من رسوم الأطواق والبنطلون الكاكي ومشيته الحازمة. كان وجهه ذا جمال مُذهل.

أحياناً كان ينتابها القلق من نوع الانتباه الذي يجذبه، ومن نوع الأثر الذي سوف يتعوّد على تركه. وتذكّرتْ أول مرّة فتح عينيه في المستشفى. كانت تومضان مع حسٍّ مبهم بالانتباه؛ ودافعٍ إلى جعل العالم ذا معنى، من أجل أنْ يضمّ نوعاً من المعرفة يحظى بها سَلَفاً. كان روبرت قد وصل بسيماء مختلفة تماماً، بحسٍّ من الانفعال الشديد، بمشكلةٍ تتطلّب حلّاً.

قال توماس وهو يُشير بيده «أوه، ماذا يفعل ذلك الرجل المضحك؟»

«إنه يضع قِناعاً وأنبوب التنفُّس الخاصّ به»

«إنه قِناعي وأنبوب تنفّسي»

«حسن، جميل منك أنْ تسمح له باستخدامه»

قال توماس «أنا سمحتُ له باستخدامه. ويستطيع أنْ يستخدمه، ماما»

«شكراً لك، حبيبي»

تابع السير. لقد أصبح كريماً الآن، ولكن في غضون عشر دقائق سوف تنهار طاقته وسوف يبدأ كل شيء بالاضطراب.

«هلّا رجعنا إلى الشاطئ لنرتاح قليلاً؟»

«لا أريد راحة قليلة، بل أريد أنْ أذهب إلى باحة اللعب. أنا أحبّ باحة اللعب كثيراً» قال هذا، وأفلتْ منها ليركض.

كانت باحة اللعب في ذلك الوقت من النهار مُقفِرة، وهيكل الارتقاء الخطِر يؤدي إلى منزلق معدنيّ ساخن يصلح لقلي بيضة. وإلى جواره، مهر من البلاستيك يُصدر صريراً لا يُطاق على نابض ملتف حول نفسه. عندما وصلا إلى البوابة الخشبيّة. مدَّتْ ميري يدها وفتحته لكي يمرّ توماس منه.

قال مع أنين مُفاجئ تعبيراً عن البؤس. «كلا، ماما، أنا سأفتحه»

قالت ميري «حاضر، حاضر»

قال توماس «كلا، أنا سأفتحه»، وهو يسحب مع بعض الصعوبة البوابة التي أضحتْ أثقل وزناً بوجود لوحةٍ معدنيّة تبيِّن ثماني قواعد لاستخدام باحة اللعب، أكثر بأربع قواعد من تلك الخاصّة بركوب المهر. انتقلا إلى سطح من المطاطورديّ اللون يُخفي بقعة من الإسفلت. ارتقى توماس

القضبان المنحنية إلى المنصّة التي تعلو المنزلق، ومن ثم اندفع إلى الباب التالي، المواجِه لعمود رجل الإطفاء الذي لم يكن في استطاعته أنْ يهبط عليه وحده. هرعتْ ميري ملتفّة حول إطار الارتقاء لمُلاقاته. هل سيرتطم؟ هل سيُخطئ في تقدير قُدُراته إلى ذلك الحد؟ هل هي تضخّ الخوف إلى موقف لا يتطلّب إلّا اللعب؟ هل توقُّع الكارثة شيءٌ غريزيّ، أم أنَّ كلَّ أمٍّ أخرى في العالم أكثر استرخاءً منها؟ هل يستحق الأمر ادّعاء الاسترخاء، أم أنَّ الادّعاء دائماً شيء سَيِّئ؟ حالما وقفتْ ميري بجوار عمود رجل الإطفاء، تراجعَ توماس نحو المنزلق وبسرعة اندفعَ إلى الأسفل. وعند المرحلة الأخيرة من ركضه تعثّر وضرب رأسه على الحافّة. اختلطت الصدمة مع شعوره بالإرهاق وأنتجا برهة طويلة من الصمت؛ ثم احمرَّ وجهه وأطلقَ صرخة طويلة، وارتعشَ لسانه الورديّ داخل فمه، وسرعان ما اكتظّت عيناه بالدموع. وكالمعتاد، شعرتْ ميري كأنَّ رمحاً اخترقَ صدرها. رفعته بين ذراعيها وضمّته بشدّة إلى صدرها، ليطمئن الاثنان.

أجهشَ قائلاً «الدمية ذات العلامة». أعطته دمية هارينغتون التي لا تزال تحمل العلامة. ودمية بلا علامة لا تواسي بل تُزعج بشكل مُضاعَف بسبب تشابهها المُعذِّب بتلك التي ما زالتْ تحمل علامات،

عادتْ بسرعة إلى الشاطئ، وهي تحمله بين ذراعيها. ارتعش وهدأ، قابضاً على الدمية وماصّاً إبهامه باليد نفسها. وانتهت المغامرة، ووصلت رحلة الاستكشاف إلى ختامها وانتهتْ بالطريقة الوحيدة الممكنة، لا إرادياً. مدَّدته على فراش تحت المظلّة وانطوت حول نفسها إلى جواره، مُغمضة عينيها ومتمددة بسكون تامّ. سمعته يمصّ إبهامه بشدّة أكثر بعد أنْ استقرّ. وبعد ذلك أدركتْ من تغيُّر تنفّسه أنّه استغرقَ في النوم. ففتحتْ عينيها.

الآن بقيَت أمامها ساعة، وربما اثنتان، لكي تردّ خلالهما على الرسائل، وتدفع قيمة ضرائبها، وتبقى على تواصل مع أصدقائها، وتنعش عقلها، وتمارس بعض التمارين، وتقرأ كتاباً مفيداً، وتفكّر في مشروع لامع يدرّ مالاً، وتهتم باليوغا، وتشاهد عمليّة تقويم عِظام، وتزور طبيب الأسنان وتحظى بقدرٍ من النوم. النوم، تذكّري النوم؟ كانت هذه الكلمة تُشير ذات يوم إلى أقبية اللا وعي الهائلة، إلى مدة ست، أو ثماني، أو تسع ساعات؛

الآن أصبحت تكافح للحصول على فترات قصيرة من عشرين دقيقة من الراحة المُضطربة، راحة ذكّرتها بأنها مُرهقة تماماً. وفي الليلة السابقة بقيتْ يقظة بفعل رعب طاغٍ من أذى سوف ينزل بتوماس إذا ما استغرقتْ في النوم. بقيتْ طوال الليل مشدودة بفعل المُقاومة، كخفير حراسة يعلم أنَّ الموت هو عِقاب النعاس في أثناء القيام بالحراسة. والآن عليها أنْ تحصل على بعض النوم المُشوَّش، الشبيه بآثار السُكر، المُشبَّع بالأحلام المزعجة، ولكن سوف تقرأ أولاً فاكس سالي، كدلالةٍ على استقلالها، الذي لطالما شعرتْ بأنّه أقلّ رسوخاً من استقلال توماس، بما أنّه ليس في استطاعتها أنْ تختبر حدوده بجموحٍ كما يفعل هو. كان فاكساً ذا طابعٍ عمليّ، كما حذَّرتها سالي، مُزوّداً بمواعيد وأوقات وصولها إلى سان-نازير، ولكنّ سالي أضافت في الختام قائلة، «بالأمس قرأتُ مُصادفة المُقتَطَف التالي من ألكسندر هرتزن، «إننا نعتقد أنَّ الهدف من الطفل هو أنْ يكبر لأنه يكبر فعلاً. لكنَّ الهدف منه هو أنْ يلعب، ويستمتع بحياته، أنْ يكون طفلاً. وإذا اكتفينا بالنظر إلى آخر العمليّة، فالهدف من الحياة هو الموت»»

نعم، هذا ما أرادتْ أنْ تقول لباتريك عندما كانا وحدهما مع روبرت. كان باتريك مهتمّاً كثيراً بتشكيل عقل روبرت، بإعطائه جرعة من روح الشكّ، حتى أنّه أحياناً كان ينسى أنْ يدعه يلعب، ويستمتع بحياته وأنْ يكون طفلاً. لقد ترك توماس يمشي في طريقه هو، من ناحية لأنه كان منهمكاً في نجاته النفسيّة الخاصة، ولكن أيضاً لأنَّ رغبة توماس في المعرفة بزّتْ أيَّ طموح لدى والديه. وهي معه فكّرتْ، مُغمِضةً عينيها بعد إلقاء آخر نظرة على وجه توماس النائم، أنَّ من الواضح جداً أنَّ اللعب والاستمتاع بالحياة يتطابقان مع تعلُّم معرفة العالم من حوله.

-11-

قال توماس، وهو مستلقٍ على منشفته بعد الاستحمام، «أين ذهب تبعي؟»

قالت ميري: «اختفى»

قال، مُباعداً ساقيه، «أوه، ها هو، ماما»

قالت ميري «هذا شيء مُريح»

قال توماس «هو مُريح حقاً»

بعد اللهو في الحمّام تردَّد في العودة إلى خليّة المنامة الوثيرة. البيجاما، الدلالة المُخيفة على اقتراب موعد النوم، أحياناً تضطر إلى الانتظار ريثما ينام ومن ثم تُلبِسه إياها. وأيّ إحساس بأنَّ ميري في عجلة من أمرها كان يجعل عملية وضعه في السرير تستغرق ضعف الوقت.

قال توماس «أوه، لا! تبعي اختفى من جديد. أنا قلقٌ حقاً بشأنه»

قالت ميري، وقد لاحظتْ أنّه يتدرَّب على العبارة التي كانت قد استخدمتها في اليوم السابق عندما رمى بكأس على أرضيّة المطبخ، «أحقاً، حبيبي؟»

«نعم، ماما. إنه يدفعني إلى الجنون»

سألته ميري «أين يمكن أنْ يكون قد ذهب؟»

قال، «أكاد لا أصدِّق»، وسكت تاركاً لها المجال لكي تُقدِّر حجم الخسارة. «أوه، ها هو!» ولجأ إلى المُحاكاة المثاليّة للابتهاج المُطمئن الذي تكتشف به من جديد زجاجةَ حليب أو حذاءً ضائعاً.

بدأ يقفز في كل مكان ومن ثم سقط في السرير، متدحرجاً بين الوسائد.

قالت ميري، وهي تراقبه يقفز في موقعٍ شديد القُرب من الحاجز المعدنيّ المُحيط بحافة السرير، «انتبه»

كان أمراً صعباً الاستعداد لتلقّفه فجأة، للبحث باستمرار عن زوايا حادّة وحواف قاسية، لدفعه إلى آخر حدود مغامرته. كانت ترغب حقاً الآن في أنْ تتمدَّد، لكنَّ آخر شيء كان عليها أنْ تقوم به هو أنْ تُبدي أي علامة على السخط أو ضيق الصدر.

قال توماس، مُحاولاً أنْ يتدحرج إلى الأمام لكنّه انقلب. «أنا بهلوان في سيرك. ماما، قولي «انتبه، أيّها السعدان»»

كرّرت ميري طائعة «انتبه، أيّها السعدان». يجب أنْ تُحضِر له كرسيَّ مُخرِج وبوقاً[1]. إنّه دائماً يتلقّى الأوامر بما ينبغي أنْ يفعل، والآن جاء دوره لإصدار الأوامر.

شعرت بأنها مُستنزفة بعد يوم طويل، والسبب الأول لذلك قيامها بزيارة إلينور في مأوى العجزة. كانت ميري قد حاولتْ أنْ تُخفي إحساسها بالصدمة عندما وصلتْ مع توماس إلى غرفة إلينور. كانت أسنان إلينور العليا كلها مفقودة من أحد طرفيّ فمها وفي الطرف المقابل لم يتبقّ إلّا ثلاثة منها تتدلّى كهوابط سوداء. وشَعرها، الذي كانت تغسله مرة كل يومين، اختُزِلَ إلى كتلة عشوائيّة لزجة تلتصق بجمجمتها التي أضحتْ الآن وعرة. وبينما ميري تنحني لتُقبِّل إلينور، أغارت عليها رائحة كريهة جعلتها ترغبُ في اللجوء إلى رقعة تغيير ملابس الطفل التي تحملها داخل حقيبة ظهرها. يجب أنْ تكبح دافع الأمومة عندها، خاصة في حضور بطلة حقيقيّة في ضبط النفس الأموميّ.

كان أساس انهيار إلينور هو خسارتها مُساواتها بتوماس. ففي العام السابق، لم يكن أي منهما يُحسِن الكلام بشكل مفهوم أو المشي بخُطى ثابتة؛ كانت إلينور قد فقدَت عدداً من أسنانها بحيث لم يتبقَّ لديها إلّا بقدر ما اكتسبَ توماس منها؛ وحاجتها الجديد إلى استخدام حفاض لإخراج السبيلين كانت تُعادلُ حاجتَه الماسّة إلى الحفاض. وفي العام الحالي، تغيَّر كلُّ شيء لم يعُد

1- البوق هو مُكبِّر الصوت الذي يستخدمه مخرج السينما لإصدار توجيهاته للممثلين – المترجم.

توماس يحتاج إلى الحفاضات فترة طويلة، أما إلينور فأصبحت تحتاج من الحفاضات إلى أكثر مما كانت تستخدمه حالياً؛ فقط أضراسه الخلفيّة تنتظر أنْ تشقَّ طريقها للبروز، أما أضراسها الخلفيّة فقريباً لن يتبقّى لديها غيرها؛ هو كان يُصبح سريعاً إلى درجة أنَّ أمّه تكاد لا تقوى على اللحاق به، وإلينور تكاد لا تستطيع رفع نفسها عن الكرسي وقريباً سوف تُصبح طريحة الفراش. توقفتْ ميري على قمّة المنحدرات الثلجيّة لحديث مُحتَمَل. والافتراض المتوتر أصلاً القائل إنهما اشتركا في الحماس للتقدُّم الذي أحرزه توماس بدا أشبه بإهانة مُقنَّعة. ولا فائدة من تذكيرها بروبرت أيضاً، حليفها السابق، وأضحى الآن تلميذَ عدائيّة والده.

قال توماس لإلينور «أوه، لا! لقد سرق ألابالا هالوبالوم خاصتي»

كان توماس، الذي غالباً ما يعلَق مع البالغين وسط فوضى من المقاطع الصوتيّة المُبهمة، يُجيب أحياناً بلغة صغيرة خاصّة به. وتعودتْ ميري على هذا الانتقام العذب وأيضاً افتُتِنَتْ بظهور الألابالا، الإبداع الحديث الذي بدا أنه يقع في خانة الدور الكلاسيكيّ للقيام بأمور خبيثة لتوماس أو من أجله، وكان يرافقه ضميره، شخصٌ يُدعى فيلان. رفعَ بصره إلى إلينور مع ابتسامة. ولم تردّ عليه بمثلها. حدَّقَتْ إلينور إلى توماس برعبٍ وبشكّ. ما رأته لم يكن براعةَ طفلٍ بل نذيراً بأسوأ خوف يمكن أنْ ينتابها: ألّا تتمكن قريباً، في ذروة كونها عاجزة عن جعل كلامها مفهوماً، من فهم أي شخص آخر. وأسرعت ميري إلى التدخُّل.

قالت «إنّ كلامه ليس كلّه هراء. إنّها إحدى العبارات المُفضّلة لديه في الوقت الحال – أعتقد أنكِ سوف تلاحظين تأثير باتريك عليه –»، وجرَّبَتْ إحدى الابتسامات المتآمرة، «هي» شيء لا يُطاق أبداً[1].

مال جسم إلينور قليلاً إلى الأمام. وقبضَتْ على ذراعَي كرسيها ونظرتْ إلى ميري بتركيزٍ حانق.

1- تقصد ميري أنْ تقول إنَّ جملة الطفل غير المفهومة «ألوبالا هالوبالوم» تُشبه في نُطقها العبارة المُفضّلة لدى باتريك «absolutely unbearable» أو (شيء لا يُطاق أبداً) – المترجم.

قالت كأنها تبصق، «شيء لا يُطاق أبداً»، ومن ثم تراخت إلى الخلف، وأضافت كلمة «نعم»، عالية وواهنة.

التفتتْ إلينور من جديد نحو توماس، ولكن هذه المرَّة نظرتْ إليه بنوع من الجشع. وقبل برهة، بدا كأنه يُعلِن عن انقضاض عاصفة من الكلام المُبهَم سوف تَغلّفها قريباً، أما الآن فأعطاها جملةً فهمَتْها فهماً تاماً، جملةً ما كان يمكن أنْ تفهمها وحدها، تصِف بدقّة ما شعرتْ به.

حدث أمرٌ مُشابه عندما سردتْ ميري لائحة بأسماء كتب سمعيّة ربما رغبتْ إلينور في أن تُرسَلَ إليها من إنكلترا. وأسلوب إلينور في اختيار الكتب لم يبدُ أنَّه يمتّ بأيّ صِلة لمؤلفيها أو بأي تصنيف. سردتْ ميري بصوتٍ مُنغَّم عناوين أعمال جين أوستن وبروست، وجيفري آرتشر وجيل كوبر، من دون أي تُبدي إلينور أي دلالة على الاهتمام. ثم قرأتْ عنوان «*محنة البراءة*»[1] فبدأتْ إلينور تومئ برأسها وتُحرِّك يديها رغبة في الاقتناء، وكأنها ترشّ ماءً على صدرها. وعنوان «*حصاد الغبار*»[2] أخرج منها موجات الإثارة نفسها. أثار هذان العنوانان صِلة غير متوقعة بإلينور وتذكّرتْ الرسالة التي كانت قد كتبتها في وقتٍ سابق، وسلَّمتها لميري بيدها المرتعشة، المُصابة ببقع الكبد.

تبيَّنتْ ميري كلمات باهتة، مكتوبة بقلم رصاص وأحرف كبيرة، «*لِمَ لَمْ يأتِ شيموس؟*»

خمَّنتْ ميري السبب، لكنها لم تصدِّقه. فهي لم تتوقَّع أنْ يكون شيموس أثيماً إلى تلك الدرجة. كانت طبيعته الانتهازيّة دائماً تبدو ممتزجة بوهمٍ حقيقيّ بأنّه رجلٌ طيِّب، أو على الأقلّ برغبة قويّة في أنْ يُظَنّ بأنه كذلك. ومع ذلك ها هو، لم يمرّ أكثر من أسبوعَين على الانتقال النهائيّ لملكيّة سان-نازير إلى المؤسّسة، إذا به يتخلّى عن المُحسِنة إليه وكأنها حقيبة الهارب.

تذكّرتْ ما كان باتريك قاله عندما استخدم أخيراً سلطة المحامي التي

1- «محنة البراءة»: رواية للكاتبة أغاثا كريستي - المترجم.

2- «حصاد الغبار»: رواية لأدولفوس. أ. وارد - المترجم.

منحتَها له أمُّه فيما يخصُّ المنزل: «إنَّ الذين يريدون أنْ يزحفوا خِفافاً إلى قبورهم لا ينجحون في ذلك. فليست هناك فترة طفولة ثانية، ولا إجازة لانعدام المسؤوليّة». وبعد ذلك شربَ حتَّى أصبح ثمِلاً حتى العمى.

نظرتْ ميري إلى وجه إلينور، فرأتْ أنّه مَعجونٌ بالبؤس. كانت عيناها مغشيَّتَين كعينَي سمكة ماتت حديثاً، ولكنْ في حالتها بدا أنَّ الغشاوة تنشأ من الجهد الذي تبذله للبقاء منفصلة عن الواقع. أصبحتْ ميري الآن تُدرك أنَّ الأسنان المفقودة ترمز في الحقيقة إلى ميل إلى الانتحار، مع السلبيّة العنيفة التي يتَّصِف بها الإضراب عن الطعام. كان يمكن بسهولة استبدال تلك الأسنان، ولا بُدَّ أنَّ البقاء داخل دوامة نكران الذات يتطلَّب عناداً عظيماً، أسبوعاً بعد أسبوع، وهي تسقط، واحداً إثر آخر، متجاهلة مهنة الطب، ومُضادات الاكتئاب، وملجأ العجزة وما تبقّى من رغبتها في الحياة.

شعرتْ ميري بإحساس مأساويّ يخترقها. ها هنا امرأة تخلَّتْ عن عائلتها من أجل حلم ومن أجل رجل، وها هو الرجل الآن والحلم أيضاً قد تخلّيا عنها. وتذكّرتْ قول إلينور لها، عندما كان لا يزال في استطاعتها أنْ تتكلَّم بسلاسة، إنها وشيموس تعرَّفا على بعضهما في «حياة سابقة». وقد وُجِدَتْ إحدى تلك الحيوات السابقة في شيءٍ يُدعى «سكيليغ» وهو نوع من الرابية الساحليّة الأيرلنديّة، كان شيموس قد أخذ إلينور لمشاهدتها في مرحلة مُبكِّرة من تودّده إلى مالها، في ذلك اليوم العاصِف، الذي لا يُنسى، عندما أمسك بيدها وقال، «إنَّ إيرلندا في حاجة إليكِ». وحالما أدركتْ إلينور، في «ذكرى حياةٍ سابقة»، أنّها عاشتْ بوصفها زوجة لشيموس على الرابية نفسها التي زاراها، خلال عصور الظلام، عندما كانت أيرلندا منارة المسيحيّة وسط تلك الفوضى من السلب والنهب والنزوح، بدأتْ عائلتها المباشرة، التي لم يكن يربطها بها إلّا ماضٍ ضحل، تغيب عن ذاكرتها. وحالما زار شيموس سان-نازير، أدركَ أنَّ فرنسا في حاجة إليه أكثر من حاجة أيرلندا إلى إلينور. وفي القرن السابع عشر كان المنزل ديراً، وقد أثبتت «ذكرى حياة سابقة» ثانية أنَّ إلينور كانت فيه (بدا ذلك جليّاً حالما عُرِف) الأم الكبرى. وتذكّرتْ ميري أنّها اعتقدتْ أنَّ اللقب ظلَّ مُلتصقاً بها منذ ذلك الحين. والمُذهل أنَّ شيموس كان في ذلك الوقت نفسه رئيس دير محلّي. وهكذا اجتمعا معاً من

جديد، وهذه المرّة في «علاقة صداقة روحيّة» أُسيءَ فهمها وأثارتْ فضيحة في المنطقة.

عندما أخبرتها إلينور بهذا كلّه، بأسلوب مُحاكاة ظالمة لحديث الفتيات، قرّرتْ ميري ألّا تجادلها. كانت إلينور تُصدِّق كل شيء بصورة أو بأخرى، ما دام غير صحيح. وكان من صُلب طبيعتها الخيِّرة أنْ تصدِّق بسرعة ما لا يمكن تصديقه، كالإسعافات الطارئة. كانت بكل وضوح في حاجة إلى أنْ تسكن تلك الروايات التاريخيّة لكي تعوِّض عن خيبة أمل علاقة عاطفيّة لم تنجح في غرفة النوم (كانت متطورة كثيراً بحيث لم تنجح في هذا) لكنّها كانت تقضي وقتاً ممتعاً بالقدر الكافي في مكتب تسجيل العقارات. لقد بدا الأمر كله لميري سخيفاً في ذلك الوقت؛ أما الآن فتمنَّتْ لو أنّها تعيد طبيعة إلينور في السذاجة إلى سابق عهدها. كانت تكمن تحت الصدق الفظيع للاعتراف الأصليّ تلك الحاجة إلى مَنْ يحتاج إليها ولاحظتْ ميري وجودها بوضوح.

قالتْ، وهي تغطي يد إلينور برفق بيدها، «سوف أسأله». وعلى الرغم من أنها لم تره بعد، كانت تعلم أنَّ شيموس موجود في كوخه. «ربما هو مريض، أو موجود في أيرلندا»

همستْ إلينور «أيرلندا»

عندما مشيا عائدين إلى السيارة، توقَّفَ توماس وهزَّ رأسَه رفضاً. قال «أوه، يا إلهي. إنَّ إلينور ليست بخير»

كانت ميري تحبّ تعاطُفَه الصريح مع الألم. لم يكن قد تعلَّم بعد كيف يتظاهر بأنه لن يدوم، أو أنْ يضعَ اللومَ على الشخص الذي يُعانيه. وفي السيارة شعر بالنعاس فقرّرتْ أنّه ربما يمكنها أيضاً أنْ تتوجّه مباشرة إلى كوخ شيموس.

قال شيموس «في الواقع، هذا أمر مُريع. حسبتُ أنَّ إلينور مع وجود العائلة هنا وما إلى ذلك، قد لا ترغب كثيراً في رؤيتي. ولكي أكون صريحاً معكِ يا ميري، إنَّ دار بيغاسوس للنشر تلحّ عليّ، وتريد أنْ تُدرِج كتابي على قائمة منشورات الربيع. وفي رأسي الكثير من الأفكار، لا يتطلّب الأمر إلّا تدوينَها. هل تعتقدين أنَّ تعبير «*قرع طبل قلبي*» أم «*نبض قرع طبلي* أفضل»؟»

قالتْ ميري «لا أعلم. أعتقد أنَّ الأمر يتوقف على ما تعني»

قال شيموس «هذه نصيحة جيدة. وبمناسبة الحديث عن الطبول، لقد سعِدنا كثيراً بالتقدُّم الذي أحرزته أمّك. لقد تعودت على عملية استعادة الروح كتعوُّد البط على المياه. وقد استلمتُ رسالة إلكترونيّة توّاً منها تقول فيها إنها تريد أنْ تحضر نشاطات الخريف»

فقالت ميري «شيء مُذهل». كانت متوترة لأنَّ المرقاب لا يعمل. الضوء الأخضر يخفق كالمعتاد، لكنّها لم تستخدمه قَطّ مِن قَبْل في السيارة.

قال شيموس «أعتقدُ أنَّ إلينور يمكن أنْ تستفيد استفادةً جمّة من استعادة الروح. يخطر هذا في بالي الآن حالاً»، ودار حول نفسه على كرسيه بحماس وحجب عن ميري مشهد امرأة عجوز نحيلة من سكان الإسكيمو، وغليون يتدلّى من فمها، تتوهَّج صورتُها مِن شاشة كومبيوتره. «إذا قُيِّض لأمِّك أنْ تترأَس مراسم تجلس خلالها إلينور في منتصف الدائرة، سوف يكون لذلك مفعول قويّ جداً بوجود كل وسائل الاتّصال تلك، كما تعلمين»، ونشر أصابع كلتَي يديه وشبكها معاً برقّة.

قالت ميري في نفسها، مسكين شيموس، لم يكن رجلاً شريراً حقاً، بل كان أحمق بكل معنى الكلمة. أحياناً تُصبح في حالة تنافُس مع باتريك حول مَنْ مِنْ أمّيهما هي الأكثر إزعاجاً. كيتل لم تكن تهب أيّ شيء، وإلينور تهبُ كل شيء؛ والنتائج غامضة بالنسبة إلى العائلة، ما عدا أنَّ ميري لديها «توقعات»، أضحتْ بعيدة المنال إلى أقصى مدى بفعل فظاظة أمّها الأنانية الموسوسة، التي لا تفكّر إلّا في راحتها، وتهرع إلى الطبيب كلما عطَسَتْ و «تعالج» نفسها بأخذ فترة عطلة مرة كل شهر لكي تتغلَّب على خيبة أملها في الشهر السابق. وقد حثَّ باتريك حرمانه من الميراث قُدُماً للدخول في رِهان مع الأم السيئة، ولكن ربما كان شيموس يُخطّط لإلغاء تلك الميزة بالاستيلاء على مال كيتل أيضاً. هل كان، قبل كل شيء، رجلاً شريراً حقاً يُجسّد بصورة لامعة شخصاً أبله؟ من الصعب معرفة ذلك. إنَّ الصِلات التي تربط بين الحمق والخبث شديدة التشابُك والتعقيد.

قال شيموس، وهو يلوي أصابعه حول بعضها، «إنني أرى المزيد والمزيد

من الصِلات. ولكي أكون صادقاً معك، يا ميري، لا أعتقد أنني سأؤلف كتاباً آخر. إنه يُرهِق العقل»

قالت ميري «لا شك في هذا. أنا لم أستطع حتى أنْ أبدأ بتأليف كتاب»

قال شيموس «أوه، أنا أنجزتُ البداية. في الحقيقة، لقد أنجزتُ الكثير من البدايات. لعلَّ كل ما كتبتُ كان مجرد بدايات، أتفهمين ما أعني؟»

قالت ميري «مع كل نبضة قلب جديدة، أو قرع طبل»

قال شيموس «هذا صحيح، هذا صحيح»

انطلق بكاء استيقاظ توماس من خلال المرقاب. شعرتْ ميري بالارتياح لعِلمها أنها ضمن نطاق سماعه.

«أوه، يا إلهي، يجب أنْ أذهب»

قال شيموس، وهو يُرافقها حتى باب كوخه، «سوف أحاول من دون أدنى شك أنْ أزور إلينور خلال الأيام القليلة القادمة. وأحبِّذ ما قُلتِهِ عن نبض القلب وعيش اللحظة – لقد أمدّني بالكثير من الأفكار»

فتحَ الباب، مُحدِثاً رنيناً رفيعاً. نظرتْ ميري إلى أعلى فرأتْ ثلاث لوحات من الكتابة الصينيّة تكتنف قضيباً متدلياً من النحاس.

قال شيموس «السعادة، السلام، والرخاء. إنها متلازمة»

قالت ميري «يؤسفني أنْ أسمع هذا. كنتُ أفضّل أنْ أحصل على الاثنين الأوَّلَين فقط»

قال شيموس، وهو يمشي معها نحو السيارة، «آه، ولكن ما هو الرخاء؟ في المُطلَق، هو الحصول على بعض الطعام عندما تجوعين. هذا هو الرخاء الذي كان مُحرَّماً في أيرلندا، على سبيل المِثال، خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، وما زال يُحرَم منه ملايين الناس حول العالم»

قالت ميري «يا إلهي، ليس في وسعي أنْ أفعل الكثير من أجل أيرلنديّي أربعينيات القرن التاسع عشر. ولكن في استطاعتي أنْ أمنح توماس «رخاءه المُطلَق» – أم هل أستمرّ في تسميته «وجبة غداء»؟»

شمخَ شيموس برأسه إلى الخلف وأطلقَ قهقهة من الضحك الصادر من القلب.

قال، وهو يُدلِّك ظهر ميري بشكل مُنفِر، «أعتقد أنَّ ذلك سيكون أشدّ بساطة»

فتحتِ الباب وأخرجَتْ توماس من مقعده في السيارة.

قال شيموس «كيف حال الرجل الصغير؟»

قالتْ ميري «هو بخير. لقد أمضى وقتاً ممتعاً هنا»

قال شيموس، وكانت يده حينئذٍ تحرقُ ظهر قميصها الرياضيّ وتُحدِثُ فيه ثُقباً، «حسن، أنا واثق من أنَّ هذا يعود إلى أدائك الممتاز لدور الأم. ولكنني أودّ أيضاً أنْ أقول إنه مع عمل الروح، من المهمّ جداً خلق بيئة آمنة. هذا ما نفعله هنا. والآن، ربما توماس يتعلّم هذا، بصورة ما، عند مستوى معيَّن»

قالت ميري، كارهة أنْ تحرم توماس المديح، حتى وإنْ كان شيموس يقصد به نفسه، «أعتقد أنه يتعلَّم. إنه بارع جداً في التقاط الأشياء»

نجحتْ في الابتعاد عن نطاق مجال شيموس، حاملة توماس بين ذراعيها.

قال شيموس، وهو يُحيط بهما معاً ضمن ما يُشبه هلالَين كبيرين، «آه، نموذج الأم وطفلها. وهذا يجعلني أفكِّر في أمي. كان عليها أنْ ترعانا نحن أولادها الثمانية. في الوقت الذي أعتقد أنني انهمكتُ بأساليب صغيرة للحصول على أكثر من نصيبي العادل من الانتباه». ضحك بتسامح على ذكرى تلك الذات الأصغر سناً، والأقلّ وعياً. «كان ذلك حتماً شيئاً كبيراً مُحرِّكاً في حياتي، ولكن عندما أعود بذاكرتي من حيثُ أقف الآن، فإنَّ ما يُذهلني هو كيف استمرّتْ في العطاء والعطاء. وفي الواقع، يا ميري، لقد توصّلتْ إلى نتيجة مفادها أنها كانت تصبّ في منبع عالميّ، في طاقة نموذج الأم والابن. أتفهمين ما أعني؟ أريد أنْ أُضمِّن كتابي شيئاً كهذا. إنَّ هذا كلّه يتوافق مع ممارسة الطقوس الروحيّة – بمستوى ما. الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تدوينه. وأنا أرحّب بأيّة أفكار حول هذا: إنَّ اللحظات التي تشعرين فيها بأنّ ثمة ما يدعمك يقع ما بعد مستوى التضحية الشخصيّة»

قالت ميري، وقد أدركتْ فجأة من أين تعلَّم شيموس أساليبه الصغيرة

لإقناع الأمهات بمنْحِهِ مواردهم الماليّة، «دعني أفكّر في الأمر. وحتى ذلك الحين، عليّ حقاً أنْ أعدَّ لتوماس وجبة غداء»

قال شيموس «طبعاً، طبعاً. حسن، كان الحديث معك شيئاً رائعاً، يا ميري. إنني أشعر حقاً بأنه أصبح بيننا تواصُل»

قالت ميري «وأنا أيضاً أشعر بأنني تعلَّمتُ الكثير»

الآن باتت تعلم، على سبيل المثال، أنَّ وعده الواهي بـ «محاولة زيارة إلينور خلال الأيام القليلة القادمة» يعني أنّه لن يزورها في هذا اليوم، أو غداً، أو بعد غد. لِمَ يُبدِّد «أساليبه الصغيرة» على امرأة لا تمتلك أكثر من لوحتين زائفتين لبودان باسمها؟

حملتْ توماس إلى المطبخ ووضعته على النضد. أخرجَ إبهامه من فمه ونظر إليها مع تعبير ذكيّ على وجهه تراوحَ بين الجديّة والضحك.

قال «إنَّ شيموس رجل مُضحك جداً، ماما»

طفقتْ ميري تضحك.

قالت، وهي تُقبّله على جبينه، «هو كذلك فعلاً»

قال توماس، متأثّراً بضحكها، «إنه حتماً رجل مُضحك جداً!». ثم زمَّ عينيه لكي يضحك بمزيد من الجديّة.

لا عَجَبَ في أنها تعبت بعد مقابلة إلينور وشيموس في وقت واحد، ولا عَجَبَ في أنه كان صعباً انتزاع المزيد من الحَذَر من جسمها المتوجِّع ومن عقلها الشاحب. لقد حدث أمرٌ هذا اليوم؛ لم تعرف حجمه بدقّة، لكنّه كان أحد انفجارات السدود المُفاجئة التي شكّلتْ الطريقة الوحيدة لإنهاء فترة طويلة من النزاع. لم يكن لديها وقت لحلّها بينما توماس ما زال يقفز عارياً وسط السرير.

قال توماس، واقفاً على قدميه من جديد، «كانت هذه قفزة كبيرة جداً. وأنتِ حتماً أُعجِبتِ بها، ماما»

«نعم، حبيبي. ماذا تحب أنْ أقرأ لك هذه الليلة؟»

توقفَ توماس لكي يُركّز على مُهمّة صعبة.

قال، مُستشهداً بعبارة من من كتاب قديم من كتب باتريك التي بقيَتْ في سان-نازير «دعينا نتحدث بعقلانيّة عن المصّاص»

«الدكتور فوق والدكتور تحت؟»

«كلا، ماما، لا أريد هذه»

تناولتْ ميري كتاب «*بابار والبروفسور غريفتن*» عن الرف وعبرتْ من فوق الحاجز إلى السرير. كان لديهما عادة مراجعة أحداث النهار، وطرحتْ ميري السؤال المعتاد، «ماذا فعلنا في هذا اليوم؟». توقف توماس عن القفز كما أمِلتْ أنْ يفعل.

أخفَضَ توماس صوته وهزَّ رأسه برصانة.

قال «الأرنب بيتر كان يأكل عنبي»

قالت ميري، مصعوقة، «كلا!»

«السيد ماكغريغور سوف يغضب كثيراً من شيموس»

«لماذا شيموس؟ حسبتُ أنّه الأرنب بيتر هو الذي سرق العنب»

«كلا، ماما، بل هو شيموس»

كائناً ما كان ما «اكتسبه» توماس، فهو ليس الحسّ بـ «البيئة الآمنة» التي كان شيموس قد تباهى بتوفيرها من أجل «عمل الروح». بل هو جوّ السرقة. إنْ كان شيموس ليس مستعداً لأن يُقيم مراسم تُذكَر لإلينور، عندما قَرَعَتْ ناقوس الرخاء في حياته بهدير مدوٍ، فلِمَ يُزعج نفسه بتنفيذ وعودها لمنافسيه المهزومين؟ كانت مُخيّلته تعجّ بأطفالٍ مُتنافسين، وقد تبنّى باتريك وميري من أجل الانتصار عليهما في مسابقةٍ عريقة لم يتلقّيا منه أي تدريب عسكريّ من أجل خوضها. ما فائدة امرأة عجوز ليس في استطاعتها أنْ تشتري له حوض الإعاقة الحسّية؟ وما فائدة أقربائها الذين يحتشدون في مؤسسته خلال شهر آب؟

-12-

قال روبرت وهو يرى ميري تحزم الأمتعة، «ولكن لا أفهم. لماذا يجب أنْ نغادر؟»

قالت ميري «أنت تعرف السبب»

جلسَ على حافة السرير، وكتفاه معتدلان ويداه محشورتان تحت فخذيه. لو توفّر لديها وقت لجلستْ إلى جواره وضمّته إلى صدرها ودفعته إلى البكاء من جديد، ولكن عليها أنْ تستمر في حزم الأمتعة بينما توماس لا يزال نائماً.

لم تنمْ ميري طوال اليومين الأخيرين، يُعذّبها جو الخسارة والاشتياق إلى المغادرة. منازل، لوحات فنيّة، أشجار، أسنان إلينور، طفولة باتريك وفترات عُطل ولديها: بدت كلها لعقلها المُرهَق كأنها أكوام حُطام جرفها فيضان. لقد أمضَتْ الأعوام السبعة الأخيرة تراقبُ طفولة باتريك كأنها حبلٌ يتقدَّم ببطء خلال أيديهما المتماسكة. والآن تريد أنْ تغادر هذا المكان. لقد تأخّر الوقت على منع روبرت من التطابق مع إحساس باتريك بالظلم، ولكن ما زال في استطاعتها أنْ تنقذ توماس من التورّط في دراما الحرمان من الميراث. لقد انقسمتْ العائلة نصفين ولا يمكن رأب انقسامها إذا غادروا.

كان باتريك قد ذهب لكي يودّع إلينور. فقد وَعَدَ بألّا يُلقي أي خُطَبٍ تنطوي على مرارة لا يمكن التراجع عنها في حال لم يرها بعد ذلك. وإذا جاءه تحذير كاف بقرب وفاتها، فسوف يطير من دون أدنى شك إليها لكي يُمسك بيدها، ولكن من غير الواقعيّ الاعتقاد أنَّ بقيتهم سوف تنزل في الغراند أوتيل دو بان لكي تعدّ سهرة صلاة على فراش الاحتضار في ملجأ

العجزة. وكان لا بُدَّ لميري أنْ تعترف بأنها تصبو إلى خروج إلينور من حياتهم إلى الأبد.

سألَ روبرت «هل نحصل على المنزل إذا قتلنا شيموس؟»

قالت ميري «كلا، سوف تنتقل ملكيته إلى مدير المؤسّسة»

قال روبرت «هذا ليس عدلاً. إلّا إذا أصبحتُ أنا المدير. نعم! أنا عبقريّ!»

«إلّا إذا اضطررتَ إلى إدارة المؤسّسة»

قال روبرت «أوه، نعم، هذا صحيح. حسن، ربما يندم شيموس»، وتلبَّسَ صوته لكنة أيرلنديّة ثقيلة. «أستطيع فقط أنْ أعتذر، يا ميري. لا أعلمُ ماذا ألمَّ بي، وأنا أحاول سرقة المنزل منكِ ومن ولديك الصغيرَين، لكنني عدتُ إلى صوابي الآن وأريد منكِ أنْ تعلمي أنّه حتى إنْ استطعتِ أنْ تسامحيني من قلبك على ما سبّبته لكم من ألم، فلن أستطيع أنْ أسامح نفسي». وانهار وأخذ يجهشُ بالبكاء.

كانت تعلم أنَّ بُكاءه الزائف يقترب من الحقيقة. ولأول مرة منذ ولادة توماس شعرتْ بأنَّ روبرت هو الأشدّ حاجة إليها. وموطن قوته كان أنه يهتمّ بالعبث بما يجري من أحداث أكثر من اهتمامه بهدر الوقت في محاولة التحكُّم فيها - على الرغم من أنّه قام بكثير من تلك المحاولات أيضاً. وانهار عَبَثَه بضعة أيام واستُبدِلَ بأكمله بالتمنّي وبالاشتياق وبالندم. والآن ها هي تراه يعود من جديد. لا يمكن أنْ تتعوَّد على أسلوبه في تجميع قِطع التشخيص من أشياء تناهتْ إلى سمعه. وأصبحَ شيموس هو آخر ما استحوذ عليه، ولا عَجَبَ في ذلك. كانت من فرط الإرهاق بحيث أنَّ كل ما فعلت هو أنها ابتسمتْ له ابتسامة مُتعبة وطوتْ ملابس السباحة التي كانت قد أخرجتها قبل أقلّ من أسبوع. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة. كان باتريك، في يوم وصوله مع روبرت، قد وجد رسالة قصيرة تسأل إنْ كان يمكن لكيفين وأنيتْ أنْ يحصلا على «مكان لهما» في المنزل. كان شيموس قد عرَّجَ في صباح اليوم التالي على مائدة الإفطار لكي يحصل على جواب.

هتفَ «آمل ألّا أكون متطفلاً»

قال باتريك «أبداً. جميلٌ منك أنْ تُسرِع في المجيء. أترغب في شرب القهوة؟»

«كلا، شكراً لك، يا باتريك. كنتُ أعمل مؤخراً على إساءة استخدام الكافيئين في محاولة لكي أستمرّ في الكتابة، كما تعلم»

«حسنٌ، آمل ألّا تُمانع في أنْ أقوم بإساءة استخدام بعض الكافيئين من دونك»

قال شيموس «تفضّل»

سأل باتريك، ككلب صيد أُفلِتَ عقاله، «أهذا أنا؟ أم أنكَ حقاً ضيفي خلال هذا الشهر من العام؟ هذا هو جوهر المسألة. أنت تعلم أنَّ شروط هِبة والدتي تتضمَّن السماح لنا أنْ نمتلك المنزل خلال شهر آب، ولن نقبل بأنْ تفرِض علينا أصدقاءك»

قال شيموس «في الحقيقة، إنَّ كلمة «شروط» هي تعبير قانوني جداً لوصف الأمر. وليس هناك أي شيء مكتوب يُشير إلى أنَّ على المؤسّسة أنْ تمنحكم فترة عطلة مجّانيّة. إنني أكنّ تعاطفاً صادقاً مع مدى صعوبة قبولك رغبات أمك. ولهذا كنتُ مستعداً لتحمُّل الكثير من النكران من جانبك»

«نحن لا ننتقش الصعوبة التي واجهتها مع رغبات أمي، بل الصعوبة التي تواجهها أنت مع تلك الرغبات. دعنا من الخوض في هذه المسألة»

«الأمران متلازمان»

«لا داعي لتحويل المسألة إلى قضية شخصيّة. إنهما متلازمان لأنهما يعتمدان على معرفة ما تريد إلينور»

«إنَّ ما تريد واضح. أما ما ليس واضحاً فهو ما إذا كنتَ تستطيع أنْ تتقبَّل الجزء الذي لا يُناسبك»

«حسن، إنَّ حُلمي أكثر شموليّة، يا باتريك. إنني أنظر إلى المسألة من المنظور الكليّ. أعتقد أنَّ علينا جميعاً أنْ نجد الحل معاً، أنت وعائلتك، وكيفين وأنيتْ، وأنا. ربما يحب أنْ نقيم شعائر تعبِّر عمّا جلبنا لهذه المجموعة وما نتوقَّع أنْ نأخذه منها»

«أوه، كلا، لن نُقيم شعائر أخرى. ما بالكم أيها الناس والشعائر؟ لِمَ لا نُجري حديثاً؟ عندما أمضيتُ سنوات مراهقتي فيما تسمّيه الان كوخك، كانت هناك غرفتا نوم. لِمَ لا تجعل أصدقاء يشغلون غرفتك الإضافيّة؟»

«إنها الآن غرفة مكتبي ومكتبتي»

«معاذ الله أنْ يغيروا على غرفتك الخاصة»

تلوّى توماس وتملَّصَ من بين ذراعَي ميري وبدأ يقوم باستكشافاته. ورغبته في الحركة جعل ميري أشدّ وعياً بمقدار الشلل الذي حلَّ بالبقيّة. لم تكن تستمتع برؤية باتريك متجمّداً داخل ما يُشبه مراهقة خريفيّة: عقائديّاً وساخراً، يشمئزّ من أعمال أمّه، وما زال يفكّر سراً في كوخ شيموس بوصفِهِ عرين عهد المراهقة الذي أمضى فيه فصول صيف عديدة في شبه استقلال. وحده توماس، ولأنه لم يُمنَح أي رتبة متساوية وسط هذه الشبكة، استطاع أنْ ينزلق إلى الأرض ويدع ذهنه يتدفّق إلى حيث يريد. وقد منحتْ رؤية ميري له وهو يبتعد مسافةً عن المشهد الذي يؤديه باتريك وشيموس، على الرغم من شعورها بالعنف العنيد المنبعث من دماثة شيموس التافهة المعتادة.

قال باتريك، مُخاطباً شيموس من جديد، «هل تعلم أنّه بين رعاة غزلان الرنّة في لابلاند، يشرب الحكيم الأكبر بول الرنّة التي أكلتْ من الفطر السِحريّ، ويشرب مُساعده بول الحكيم الأكبر نفسه، وهلم جرا، حتى صاحب أدنى مرتبة الذي يزحف على الثلوج، وينزف من أجل الحصول على رشّة من بول الجيل الثاني عشر؟»

قال شيموس بفتور «لم أكن أعلم هذا»

قال باتريك، متفاجئاً، «اعتقدتُ أنَّ هذا هو اختصاصك. على أي حال، المفارقة هي أنَّ النِتاج الأول، القِطاف الأول، هو الأشدّ سُمّيَّة. ويتدحرج الحكيم الأكبر المسكين ويتصبَّب عَرَقاً، ويُحاول أنْ يلفظ السُمّ كله، في حين أنَّ أكباد بضعة آخرين تتلف، والبول لا يكون مؤذياً إلّا إذا فقدَ قُدرته على تسبيب الهلوسة. إلى هذه الدرجة يرتبط البشر بوضعٍ ما بحيث أنَّهم يُضحّون براحة بالهم ويُبددون وقتهم الثمين لكي يشقّوا طريقهم نحو ما يتَّضِح أنّها تجربةٌ سامّة»

قال شيموس «هذا شيء ممتع جداً، لكنني لا أفهم صِلته بمشكلتنا الراهنة»

«فقط ما يلي: أنّه بدافع ما أعترفُ بأنّه كبرياء، لستُ مستعداً أنْ أكون في قاع الترتيب الهَرَميّ البوليّ في هذه «الجماعة»»

قال شيموس بهدوء «إذا كنتَ لا ترغب في أنْ تكون جزءاً من هذه الجماعة، فلستَ مُجبَراً على البقاء»

سادت فترة صمت.

قال باتريك «عظيم. والآن بتنا نعرف على الأقلّ ما الذي تريده حقاً»

هتفَ روبرت «لِمَ لا ترحل *أنت*. فقط دعنا وشأننا. هذا منزل جدَّتي الكبرى، ولنا الحقّ أكثر منك في البقاء هنا»

قالت ميري، ويدها تستقرّ على كتف روبرت «فلنهدأ. لن نُغادر ونحن في منتصف عطلة الولدَين، سواء أتينا إلى هنا في العام القادم أم لم نأت. ربما يمكننا أنْ نتوصّل إلى تسوية بشأن أصدقائك. إذا ضحّيتَ بغرفة مكتبك مدة أسبوع، في وسعنا أنْ ندعهم ينزلون فيها خلال الأسبوع الأخير من إقامتنا. يبدو هذا حلاً عادلاً»

تردَّد شيموس بين زخم غضبه ورغبته في أنْ يبدو عاقلاً.

قال «أنا مُضطر إلى أنْ أعود إليك في هذا الشأن. ولكي أكون صادقاً معك، سوف أُضطَرّ إلى أنْ أتعامل مع بعض المشاعر السلبيّة لديّ في اللحظة الراهنة، قبل أنْ أتوصّل إلى اتّخاذ قرار»

قال باتريك، وهو ينهض واضعاً خاتمة للحدث، «افعل هذا. تفضّل. قُم بطقسك»

دار حول الطاولة، ومدَّ ذراعيه وكأنّه يسوق شيموس إلى خارج المنزل، لكنّه توقّف.

قال، ومال مُقترباً منه، «بالمناسبة، تقول لي ميري إنكَ تخلّيتَ عن إلينور الآن بعد أنْ تخلَّتْ لك عن المنزل. أصحيحٌ هذا؟ بعد كل ما فعلَتْ من أجلك، تتخلّى عنها»

قال شيموس «لستُ في حاجة إلى أي محاضرة منك حول أهميّة صداقتي مع إلينور»

قال باتريك، «اسمع. أعلم أنَّ صحبتها ليست بالشيء الممتع، لكنَّ هذا لا يُشكّل إلّا جزءاً من أشياء ثمينة تشتركان فيها»

قال شيموس، وقد احتقنَ وجهه،«لقد نلتُ ما يكفي من موقفك العِدائيّ. لقد حاولتُ أنْ أكون حليماً –»

قاطعه باتريك، «حليماً؟ لقد حاولتَ أنْ تفرض علينا تلك الضربات الجانبيّة ورميتَ بإلينور إلى القمامة لأنها الطريقة الوحيدة للتخلُّص منها. وأي شخص يعتقد أنَّ «الحلم» هي الكلمة المناسبة لوصف ذلك الشيء إنما يُقدِّم اللغة الإنكليزيّة كلغة أجنبيّة وليس كشخصٍ مُقبلٍ على توقيع عقد تأليف كتاب»

قال شيموس «لستُ مُجبّراً على تحمُّل هذه الإهانات. لقد أقمنا أنا وإلينور المؤسّسة، وأنا أعلم أنها لا ترغب في أنْ يتسبَّب أي شيء في نسف نجاحها. والمأساوي في الأمر، في رأيي، هو أنكَ لا تُدرك مدى أهميّة المؤسّسة بالنسبة إلى هدف حياة أمك، ولا تُدرك كم هي امرأة خارقة»

قال باتريك «أنتَ مُخطئ كل الخطأ. أنا لا يمكن أنْ أتمنى أماً خارقة أكثر منها»

قالتْ ميري «بات جليّاً جداً إلى ما يوصلنا هذا كله. فلنأخذ بعض الوقت لنهدأ. لا أرى أيّة فائدة في المزيد في الحِدَّة»

قال باتريك «ولكن، يا حبيبتي، إنَّ الحِدَّة هي كل ما تبقّى لنا»

لا شك في أنّها كل ما تبقّى. كانت تعلم أنَّ إنقاذ العطلة من الدمار الذي أحدثه ازدراء باتريك يقع على عاتقها. وتوقَّع أنْ تكون واسعة الحيلة لا تكلّ وفي الوقت نفسه متعاطفة كليّاً مع باتريك هو أمر لم تستطع أنْ تتحمّله ولا أنْ تخذله.

عندما رفعتْ توماس بين ذراعيها، شعرتْ من جديد كم أحدثتْ أمومتها من دمار لعزلتها. كانت ميري قد عاشتْ وحدها طوال سنوات عشرينيات عمرها واحتفظَتْ بشقّتها الخاصّة بعناد إلى أنْ حملتْ بروبرت. كانت في حاجة مُلحّة إلى النأي بنفسها عن زحام الآخرين. والآن نادراً ما تنفرد بنفسها، وإذا فعلتْ، تحتل التزاماتها العائليّة أفكارها. وتتراكم المعاني المُهمَلة كرسائل لم تُفتَح. كانت تعلم أنها تحتوي المزيد من التهديدات تُذكّرها بأنَّ حياتها خارج اهتمامها.

كانت مُضطرة إلى تقاسُم عزلتها مع توماس في الوقت الحاضر. تذكَرتْ عبارة اقتطفها جوني ذات يوم عن كون الطفل «وحيداً في حضور أمّه».

وظلّتْ عالقة في ذاكرتها، وشعرت ميري، وهي جالسة مع توماس بعد انتهاء الشجار الذي احتدمَ بين باتريك وشيموس، وهو يلهو بخرطوم الماء المُفضَّل لديه، يوجّهه جانباً ويُراقبِ قوس الماء الفضيّ يتناثر على الأرض، شعرتْ بإلحاح تشجيعه على أنْ يكون ذا فائدة، أنْ يسقي النباتات وأنْ يمنع الوحل من تلويث بنطلونه، لكنها لم تستسلم لذلك الإلحاح، عندما لاحظتْ نوعاً من الحريّة في خلوّ لعبه من الفائدة. لم يكن يفكّر في النتيجة، في أي مشروع أو ربح، هو فقط أحبَّ مراقبة تدفّق الماء.

كان يسعدها أنْ تُفرِد حيِّزاً للحنين إلى الماضي الآن بعد أنْ أضحى الرحيل الذي تاقتْ إليه حتمياً، لكنّها وجدتْ نفسها تنظر إلى الحديقة وإلى المشهد الطبيعي والسماء الصافية بعينٍ باردة. لقد حان وقت الرحيل.

عادا إلى المنزل، وولجتْ غرفتها الخاصّة لترتاح قليلاً، فوجدتْ باتريك متمدداً على ظهره وكأس من النبيذ الأحمر إلى جواره.

قال «لم تكوني ودودة جداً هذا الصباح»

قالتْ ميري «ماذا تعني؟ أنا لم أكن غير ودودة. كنتَ منهمكاً في مُجادلة شيموس»

قال باتريك «حسن، ها قد خفتَ صليل المعركة»

جلستْ على حافة السرير وداعبتْ يده بشرود.

«أتتذكّرين، في الأيام الأخيرة، عندما كنا نلجأ إلى السرير بعد الظهيرة؟»

«لقد نام توماس تواً»

«أنتِ تعلمين أنَّ هذا ليس السبب الرئيس. نحن لا نصرّ على أسناننا من الإحساس بالإحباط، ونحن نعِدُ بأنْ نقفز إلى السرير حالما تسنح لنا الفرصة: لم يكن ذلك حتى ممكناً»، وأغمضَ باتريك عينيه. قال «أشعر كأننا نطلق النار انصطاد نَفَقاً أبيضَ مُضيئاً...»

قالت ميري «هذا كان بالأمس، ونحن في طريقنا من المطار»

لاحظَ باتريك «عظْمة امتصَّ أحدهم نقيها. لا شيء يعود كما كان من قبل، مهما كرّرت هذه العبارة السِحريّة للنادلة في بار الكوكتيل»

قالتْ ميري «لم أفعل هذا أبداً، في حالتي»

قال باتريك «تهانينا»، وخيَّمَ عليه الصمت، وعيناه ما زالتا مُغمضتين.

أكانت غير ودودة؟ هل تداعب له قضيبه من باب الإحسان؟ شعرتْ بأنَّ هذه المُناشدات لجذب الانتباه مستحيلة في هذا الوقت، لكي تُبقيه خائناً راضياً عن نفسه. يمكن لباتريك أنْ يُصاب بالرعب إذا ما حاولتْ أنْ تُضاجعه. أم هل سيُصاب بذلك فعلاً؟ كيف يمكن أنْ تعرف وهي عاجزة عن أخذ أيّ مُبادرة جنسيّة؟ بالنسبة إليها كل شيء مات، ولا تستطيع أنْ تضع اللوم على علاقته غير الشرعيّة في انهيار علاقتها به. فقد بدأتْ حالما وُلِدَ توماس. ولم يسعها إلّا أنْ تتعجّب من قوة الانفصال. كانت له سطوة الغريزة، وحوَّلَ مواردها من باتريك المُنهَك، الضعيف، المعطوب، إلى المستقبل المُفرِح لابنها الجديد. والأمر نفسه حصل مع روبرت، لكنَّ الأمر لم يدُم أكثر من بضعة أشهر. هذه المرة كانت حياتها الجنسيّة جزءاً من علاقتها الحميمة بتوماس. كانت علاقتها بباتريك قد انتهتْ، مع إحساس بالذنب وبالواجب ظهرا في الجنازة. غاصتْ على السرير بجواره، وحدّقَتْ إلى السقف خلال بضع لحظات من التوتر الفارغ ومن ثم أغمضتْ عينيها هي أيضاً. استلقيا معاً على السرير، عائمَين على نومٍ ضحل.

قالت ميري لروبرت، وهي تنهض عن الأرض، حيث كانت تركع بجوار الحقيبة المفتوحة، «أوه، يا إلهي. أنا لم ألغِ بعد موعد غراني وسالي»

قال روبرت، مُحاكياً صوت كيتل، «يجب أنْ أقول إنها خيبة أمل مُخيفة»

قالت ميري، «فلنرَ إنْ كنتَ على صواب»، وجلستْ بجواره لكي تتصل برقم هاتف أمها.

قالتْ كيتل «حسن، يجب أنْ أقول إنها *حقّاً* خيبة أمل»، مما دفع ميري إلى تغطية فوهة الكلام في الهاتف وهي تحاول أنْ تكبت ضحكها. وهمستْ لروبرت «بالضبط». ورفع ذراعيه علامة الانتصار.

قالتْ ميري لأمها «لِمَ لا تأتين في كل الأحوال؟ يبدو أنَّ شيموس يستمتع بصُحبتك حتى أكثر منّا»، ثم أضافت بعد فترة صمت طويلة، «وهذا يعني الكثير»

قالتْ سالي إنها سوف تزورهم كلهم في لندن بدل ذلك، ومن ثم رأتْ أنّها «أخبار عظيمة».

«هذا المكان بالنسبة إلى شخص غريب يبدو أشبه بناقوس جميل بعد أنْ أُفرِغَ من الهواء. يجب أنْ تخرج قبل أنْ تنفجر»

قالت ميري «إنها سعيدة لأجلنا»

قال روبرت «حسن، يا الله. آمل أنْ تفقد منزلها لكي نكون سعداء من أجلها»

عندما عاد باتريك، وضعَ قطعة من الورق على أعلى حقيبة السفر. كانت ميري تكافح لكي تُغلِقها وغاصتْ على الكرسي المجاور للباب. رَفَعَتْ الورقة فوجدتْ أنها إحدى رسائل إلينور القصيرة المكتوبة بقلم رصاص باهت اللون.

لقد انتهى عملي هنا. وأريد
أنْ أعود إلى المنزل. أرجوك هلّا وجدتَ لي مأوى
للعجزة
في كينسينغتون؟

أعطتْ الرسالة القصيرة إلى روبرت.

قال باتريك «من الصعب معرفة أي جُملة تُسعدني أكثر. إنَّ مخزون إلينور القليل من المال من خارج أعمال السِحر سوف يتبدَّد خلال أقلّ من عام إذا انتقلتْ إلى كينسينغتون. بعد ذلك، إذا ما كانت تفتقر إلى الذوق الراقي سوف تبقى حيّة، خمّني مَنْ المُنتَظَر منه أنْ يُبقيها تعيش حياة كسول في الرويال بورو؟»

قالت ميري «أعجبتني علامة الاستفهام»

«إنَّ عبقريّة إلينور الحقيقيّة تكمن في وضع دوافعنا العاطفيّة والأخلاقيّة في حالة من النزاع. وكم من مرة جعلتني أكره نفسي لأنني قمتُ بالأمر الصائب، إنها تجعل من الفضيلة عِقاباً»

«أعتقد أننا يجب أنْ نحميها من رعب معرفة أنَّ شيموس لم يهتمّ حقاً إلّا بمالها»

قال روبرت «لماذا؟ إنها تستحق ذلك»

قال باتريك «اسمع، إنَّ ما رأيته اليوم كان شخصاً يتولّاه الخوف. إنها تخاف الموت وحيدة. تخاف أنْ تتخلّى عائلتها عنها، كما فعل شيموس. تخاف أنْ تُخدَع، أنْ تسير في نومها خلال نسخة طبق الأصل من سلوك أمّها. تخاف عقم معتقداتها في مواجهة المعاناة الحقيقيّة، تخاف كل شيء. وإذا رضخنا لمطلبها، تستطيع أنْ تنتقل من حب البشرية إلى حب عائلتها. في الأساس، لم يعد أيٌ منهما يفيد، لكنَّ التغيير قد يمنحها بعض العزاء قبل أن تستقرّ في الجحيم»

لم يفُه أحد بكلمة.

قالت ميري «فلنأمل أنْ يكون مطْهراً وليس جحيماً»

قال باتريك «أنا لستُ مهتماً كثيراً بمثل هذه الأشياء، ولكنْ إنْ كان المَطْهَر هو مكان يُهذِّبكَ فيه الألمُ بدل أنْ يهينك، فأنا لا أرى أي أثر له»

«حسن، ربما هو مَطْهَر لنا على الأقلّ»

قال روبرت «لا أفهم. هل ستأتي جدّتي لنعيش معنا؟»

قالت ميري «ليس في الشقّة، بل في مأوى للعجزة»

«وسوف ندفع نحن تكاليفها؟»

أجابتْ «ليس الآن»

قال روبرت «ولكن بهذه الطريقة يكون شيموس هو الفائز بكل شيء. هو يحصل على المنزل ونحن نحصل على العاجزة»

قالتْ ميري «إنها ليست عاجزة. إنها مريضة»

قال روبرت «أوه، آسف. وهذا يُشكِّل الفرق كلّه. كم نحن محظوظون»، وتلبّسَ صوته المتآمر. «الفائزون المحظوظون هذا اليوم هم، عائلة ميلْروز من لندن، سوف يستقبلون في بيتهم الجائزة الأولى الرائعة. إنَّ هذه *المريضة* المُذهلة لا تُحسن الكلام، ولا المشي *وأيضاً* لا تستطيع التحكُّم في خروج برازها». وحاكى روبرت ضجيج التصفيق الحارّ، ومن ثم انتقل إلى نبرة

صوت رصينة ولكن مُواسية. قال، وهو يُحيط بذراعه مُنافِساً وهمياً، «حظ سيئ، يا شيموس. لقد أحسنتَ اللعب، ولكن في الختام، هزموك في جولة الموت البطيء. ولكن لن تعود إلى بيتك خالي الوفاض، لأننا سنهديك هذه القرية الجبليّة الخاصّة في جنوب فرنسا، مع ثلاثين إكر من أرض الغابة الرائعة، وبركة سباحة هائلة وعدداً من بقع الحديقة لكي يلعب فيها الأطفال...»

قالت ميري «كان ذلك مُذهلاً. من أين أتيتَ بهذا كلّه؟»

قال باتريك «لا أعتقد أنَّ شيموس علِمَ به بعد. لقد جعلتني أقرأ بطاقة بريديّة تقول إنه كان ينوي أنْ يأتي ويراها بعد مغادرة العائلة. إذن هو لم يزُرها بعد»

«وهل بدا أنّها قد تغيِّر قرارها؟»

قال باتريك «كلا، بل ابتسمتْ عندما أعطتني الرسالة القصيرة»

«الابتسامة المُصطنعة، أم الابتسامة المُشرِقة؟»

قال باتريك «المُشرقة»

قالت ميري «إنَّ الأمر أسوأ مما اعتقدنا. إنها ليست فقط تهرب من حقيقة دوافع شيموس، بل وتقدِّم تضحية أخرى. إنَّ الشيء الوحيد المتبقّي لديها لتُعطيه إياه هو غيابها. إنّه الحب غير المشروط، الشيء الذي يحتفظ به الناس من أجل أطفالهم، هذا إنْ فعلوا ذلك أصلاً. وفي هذه الحالة يكون الأطفال هم الأضحية»

قال باتريك «هناك رائحة دينيّة كريهة أيضاً في الأمر. كونها مُفيدة وتشديدها على تفاهتها في الوقت نفسه - كله في خدمة الكبرياء الجريحة. إذا نزلتْ عندنا فسوف تُضطر إلى ملاحظة خيانة شيموس، ولكننا بهذه الطريقة نكون نحن الذين تعرّضنا للخيانة، لا أستطيع تحمُّل عنادها. لا شيء يُضاهي تنفيذ إرادة الله لجعل الناس عنيدين»

قالت ميري «إنها عاجزة عن الكلام أو الحركة، ولكن انظر كم هي قويّة»

قال باتريك «نعم، إنَّ كل الثرثرة التي تدور في أثناء ذلك لا شيء بالمقارنة

مع البكاء والتأوّه الذي يصدر على كلا طَرَفيّ الحياة. إنها تدفعني نحو الجنون: إنَّ طاغية بعد آخر يتحكمون بنا من دون أنْ يتفوّهوا بكلمة واحدة»

سأل روبرت «ولكن إلى أين سوف نذهب في فترات العطلة في العام القادم؟»

قال باتريك «يمكننا أنْ نذهب إلى أي مكان. لم نعُد سجناء هذه المثاليّة الريفيّة. نحن نقفز خارج البطاقة البريديّة، وننطلق على طريقنا». وجلسَ إلى جوار روبرت على السرير. «إلى بوغوتا! أو بلاكبول! أو رواندا! أطلق عِنان مخيلتك. تخيّل صيف ألاسكا القصير ينبلج بين أخاديد سهول التوندرا. تيرا دل فيوغو جميلة في مثل هذا الوقت من العام. لا توجد منافسات على الشواطئ هناك، ما عدا بين أسود البحر البدينة المترهّلة، المُضحكة. لقد سئمنا مسرّات البحر المتوسط المتوقّعة، بزوارقها التي تُدار بدواليب و *pizzas au feu de bois* (بيتزا على نار الحطب). إنَّ العالم هو محارتنا»

قال روبرت «أنا أكره المحار»

قال باتريك «نعم، لقد زلَّ لساني»

سألتْ ميري «حسن، إلى أين تريد أنْ تذهب؟ يمكنكَ أنْ تختار أي مكان تشاء»

قال روبرت «أميركا. أريد أنْ أذهب إلى أميركا»

قال باتريك «ولِمَ لا؟ إلى هناك يذهب الأوروبيون في المعتاد عندما يُطرَدون»

قالتْ ميري «نحن لم نُطرَد؛ لقد تحرَّرنا أخيراً»

آب 2003

-13-

هل ستكون أميركا كما تخيّلها؟ كان روبرت قد عاش مُعظم أيام حياته تحت تأثير وابل من الصور الأميركيّة. ربما هناك مَنْ تخيَّل المكان بالنيابة عنه وهو لا يستطيع أن يرى أي شيء.

أول انطباع صادفَه، بينما الطائرة ما زالت على أرض المطار في هيثرو، كان إحساساً بنعومة هستيريّة. وتعطّلَ سيل المُسافرين في أثناء تدفّقهم بين المقاعد بسبب امرأة حمراء الشَعر ركبتاها غير مُستقرتين تحت عبء ثقل وزنها.

لهثَتْ قائلة «لا أستطيع أنْ أصل إلى هناك. لا أستطيع أنْ أدخل إلى هناك. ليندا تريد مني أنْ أجلس بجوار النافذة، لكنَّ ذلك المقعد لا يتّسع لي»

قال والد العائلة ضخم الجثّة «ادخلي، ليندا»

قالتْ ليندا، التي يتكلَّم حجمها عن نفسه، «أبي!»

بدا ذلك المشهد نموذجاً لشيء سبقَ له أنْ شاهده في مواقع سياحيّة في لندن: نوع خاص من البدانة الأميركيّة الرقيقة؛ ليس شحم خبير الأطعمة والمشروبات الذي تجمَّعَ بصعوبة، أو الجسم الساحق لسائق شاحنة، بل الشحم المتوجّس لأناسٍ قرروا أنْ يُشكّلوا هم أنفسهم نظام الكيس الهوائيّ الخاص بهم في عالمٍ خطِر. ماذا لو أنَّ الحافلة اختُطِفَتْ على يد شخص مُضطرب عقليّاً لم يجلِب معه فولاً سودانيّاً؟ يُستحسن الحصول على بعض منه الآن. إنْ كان سيقع حادث إرهابيّ، لِمَ نجوع ونحن نعلو فوق كل شيء آخر؟

أخيراً استقرّت أكياس الهواء في مقاعدها. لم يكن روبرت قد شاهد مثل تلك الوجوه المُبهمة، الرسوم الأوّلية المُستقرَّة على الكتل الهائلة لأجسادهم. حتى القَسَمات البارزة نسبيّاً للوالد بدتْ أشبه ببقايا شمعة ذائبة. وبينما هي

تحشر نفسها داخل مقعدها، التفتتْ السيدة كيس الهواء نحو الطابور الطويل للمسافرين الذين يسدّون الطريق، ولطخة بنيّة من التعب تشعّ من عينيها بلونهما البندقيّ الباهت.

تأوّهتْ «شكراً لكم على صبركم»

قال والد روبرت «لطفٌ منها أنْ تشكرنا على شيءٍ لم نمنحها إيّاه. ربما ينبغي أنْ أشكرها على سرعة خاطرها»

رمتْ والدة روبرت ابنها بنظرة مُحذِّرة. لقد اتَّضَحَ أنهم يقفون في طريق صف من أكياس الهواء خلفهم.

حذَّرَ والد ليندا ابنته «سوف تضطرين إلى إنزال مسنديّ المقعد استعداداً للإقلاع»

قهقهت ليندا «أنا وأمي نتقاسم هذين المقعدين، ومؤخرتانا تتمدَّدان!»

نظر روبرت من خلال فجوة في المقاعد. لم يرَ كيف سيُنزلون مساند المقاعد.

بعد أنْ قابل روبرت أكياس الهواء، انتشر إحساس روبرت بالنعومة في كل مكان. حتى القسوة المرتسمة على بعض الوجوه التي شاهدها في يوم الوصول الدافئ والشاحب ذاك، وسط الشقوق المعدنيّة حيث تنتشر الأعلام في قلب حي مانهاتن، بدَتْ له أشبه بالنعومة التي تنطوي على مرارة وتبدو على أطفالٍ تعرَّضوا للخيانة طُلِبَ منهم توقُّع كل شيء. وبالنسبة إلى المُستعدّين للتسلية كان هناك دائماً شيء يؤكَل؛ هناك كشك بيع البسكويت، وعربة بيع المثلجات، وخدمة توصيل الأطعمة، ووعاء من البندق على النضد، وآلة بيع وجبة خفيفة على طول الرواق. شعرَ بإلحاح الانجراف نحو عقليّة الماشية التي ترعى، ليس ماشية عاديّة بل ماشية صناعيّة، لم تُصنَع لتنتظر ولا يُسمَح لها بذلك.

في بار أوك، شاهد روبرت صفّاً من رجال شاحبين ومنتفخين كثمار الفِطر. كلهم واقفون على السيقان العريضة لبنطلوناتهم الكاكي أمام كشك بيع السيجار، بدوا كأنهم يمثّلون كونهم رجالاً. كانوا يضحكون ضحكاً مكبوتاً ويتهامسون، كأولاد مدارس يتوقّعون أنْ يجدوا أنفسهم في موقف حرِج، ويُجبرون على إزالة الوسائد التي وضعوها تحت قمصانهم فاتحة

الألوان ذوات الياقات بأزرار، وعلى نزع القلانس البلاستيكيّة التي جعلتهم يبدون كأنهم صُلع أصلاً. ودفعتْ مشاهدتهم روبرت إلى الشعور بأنه راشد وناضج. وشاهد السيدة العجوز الجالسة على الطاولة المُجاورة تلوي شفتيها المُضمّختين بالبودرة وتضعهما على حافة كأس الكوكتيل وتمتصّ السائل الزهريّ إلى فمها بطريقة خبيرة. بدتْ أشبه بجمل يُحاول أنْ يُخفي مشبكه. وفي الانعكاس المُحدَّب لوعاء الخزف الأسود الموضوع في النافذة شاهد الناس يتحركون جيئة وذهاباً، وسيارات أجرة صفراء تندفع وتنساب، والدواليب الدائرة لعربات المتنزّه تقترب إلى أنْ تُصبح صغيرة بحجم دواليب ساعة اليد، ثم تختفي.

كان المتنزَّه برّاقاً ودافئاً، مُزدحماً بأثوابٍ بلا أكمام وبسترات موضوعة على الأكتاف. شعرَ روبرت بحذر الوصول المتزايد يخفّ، وبجِدَّة نيويورك التي يغشاها إحساسٌ بأنه سبقَ أنْ شاهد هذا المكان الجديد من قبل آلاف المرات. وفي حين أنَّ متنزهات لندن التي عرفها بدتْ أنها تصرّ على الطبيعة، فإنَّ متنزّه سنترال بارك أصرَّ على الابتكار. كانت كل بوصة فيه مُصمّمة لتمنح السرور. كانت ممرات نفايات المعادن تتلوّى بين التلال الصغيرة والسهول، مروراً بحديقة الحيوان وحلبة تزلّج، ومناطق هادئة، وباحات الألعاب الرياضيّة والكثير من الملاعب. وكان المتزلجون الذين يضعون سمّاعات الموسيقى يستمعون إلى موسيقاهم الخاصة. ومراهقون يتوازنون فوق ركام من الصخور باللونين الرمادي والبرونز. وعازف فلوت يُرسِل انسياباً من الموسيقى يتردَّد صداها الكئيب تحت قوس الجسر. ومع تلاشيها خلفهم، حلَّ محلّها صفير دوّامة خيل ميكانيكي حادّ.

قال توماس «انظري، ماما، دوّامة خيل! أريد أنْ أركبها. لا أستطيع مقاومة هذا، حقّاً»

قال والد روبرت مع تنهيد يتفادى انفجار نوبة غضب، «حاضر»

قال توماس «هل هذا حصان حقيقيّ؟»

قال روبرت «نعم، إنه حصان أميركيّ بريّ ضخم»

قال توماس «كُنْ ألابالا وقُل إنه حصان أميركيّ برّي»

أطاع روبرت أخاه.

قال توماس بحِدَّة، هازاً سبّابته، «كلا، ألابالا! إنه حصان دوّامة»

قال روبرت عندما بدأتْ الدوامة بالدوران، «ووويس، آسف»

سرعان ما انطلقتْ بسرعة، بل وبسرعة كبيرة. لا شيء في دوامة لاكوست أعدَّه لهذه الأحصنة التي تصهل وتشبّ على قوائمها الخلفيّة، بأنوفها المدهونة باللون الأحمر وأعناقها الثخينة تشرئب بقوة نحو المتنزّه. لقد أصبح شخصاً مختلفاً تماماً. وبدا أنَّ الموسيقى العالية بصورة مُخيفة تُثير جنون كل المهرجين على البرميل المركزي، ووجد أنّه بدل إخفاء القضبان المدهونة بطبقة سميكة من الشحم برسم سماء مُرصّعة بالنجوم كانت تلك القضبان تدور فوق الرؤوس. وبالإضافة إلى عنف الركوب، فوجئ بأنَّ هذه الآلة المكشوفة أميركيّة بالمعنى النموذجيّ. لم يعلم السبب بدقّة. ربما كل شيء في أميركا يكشِف في الحال عن هذه العبقريّة في كونه نموذجيّاً. وكما أنَّ جسمه خُدِعَ بيوم آخر، كانت كل مفاجأة مُجلَّلة بإحساس بأنّها نموذجيّة.

حالما غادروا دوامة الخيل، صادفوا امرأة في منتصف العمر تضجّ بالحيويّة تميل على كلبها المُدلَّل.

سألته، وكأنها يجب أنْ تكون غواية كبرى، «أترغب في شرب الكابوتشينو؟ هل أنت مستعد لشرب الكابوتشينو؟ هيا! هيا!» وصفَّقَتْ بيديها بنشوة.

لكنَّ الكلب تراجع بتوتّر على طول لجامه، ولسان حاله «أنا داندي دنمونت، ولا أشرب الكابوتشينو»

قال والد روبرت «أعتقد أنَّ هذا رفض صريح»

قال روبرت «هسسس...»

قال توماس، مُخرِجاً إبهامه من فمه ومتكئاً على عربته، «أعني، أعتقد أنَّ هذا رفض صريح» وقهقه ضاحكاً، «أعني، إنّه شيء لا يُصدَّق. إنَّ الجرو لا يرغب في شرب الكابوتشينو!» وأعاد إبهامه إلى فمه وأخذ يعبث بالرقعة الطريّة لدميته.

بعد مرور خمس دقائق أخرى أصبح والداه مستعدين للعودة إلى الفندق، لكنَّ روبرت لمحَ بعض الماء فاندفع إلى الأمام قليلاً.

«انظروا، بحيرة»

خلقَ المنظر الطبيعي الانطباع بأنَّ الشاطئ النائي من البحيرة يلمسَ قاعدة ناطحة السحاب ويست سايد ذات البرجين. وتحت تأثير تحديق هذا الجرف المثقوب، سحب رجال بقمصان رياضيّة قوارب معدنيّة من أمام جُزُر ينمو عليها القَصَب وثمة صديقات يتبادلن التقاط الصور بين المجاذيف، وأطفال لا يتحركون منتفخون بسترات نجاة زرقاء.

قال روبرت، غير قادر على التعبير بدقّة عن مدى دهشته لأنَّ كل شيء يبدو نموذجيّاً، «انظروا»

قال توماس «أريد أنْ أذهب إلى البحيرة»

قال والد روبرت «ليس اليوم»

زعقَ، وفي الحال تشكّلت قطرات الدموع على جفنيه، «لكنني أريد أنْ أذهب»

قال والد روبرت قابضاً على عربة الطفل مندفعاً على طول جادّة من تماثيل البرونز، «هيا بنا نركض»، وتدريجيّاً استبدلَ توماس تعبيرات الاحتجاج بصرخات «أسرع!»

حالما لحقوا به، كان والد روبرت قد انطوى على نفسه فوق مقبض عربة الأطفال، وبدأ يستردّ أنفاسه.

تنهّد قائلاً، مومئاً برأسه نحو تمثالين عملاقين للشاعر روبرت بيرن والكاتب والتر سكوت، منحنيين تحت وطأة عبقريتهما، «لا بُدَّ أنَّ لجنة الانتقاء كان مقرّها إدنبره[1]». وبعد مسافة قصيرة نهضَ شكسبير بمرح وبحجم أصغر بكثير مرتدياً زيّ العصر.

كان فندق تشرشل الذي نزلوا فيه خالياً من خدمة الغرف، لذلك خرج والد روبرت ليشتري إبريقاً وبعض «المؤن الأساسيّة». وعندما عاد، شمَّ روبرت رائحة ويسكي حديثة العهد تفوح من أنفاسه.

قال والده، مُخرِجاً صندوقاً من داخل حقيبة التسوُّق، «يا إلهي، يخرج المرء ليشتري إبريقاً ويعود جالباً معه لا أقلّ من صانع قهوة من أحدث طراز»

1- يقصد أنَّ الكاتبين المذكورَين هما من اسكتلندا – المترجم.

بدا أنَّ العبارات مُرشّحة لاحتلال أوسع مساحة ممكنة، على غرار مؤخّرتي ليندا وأمّها الضخمتين. راقبَ روبرت والده يُخرِج الشاي والقهوة وزجاجة من الويسكي من كيس من الورق البُنّيّ. وكان أحدهم قد شرب منها أصلاً.

قال والده، عندما رأى أنَّ روبرت يحسب مقدار الفارغ من الزجاجة، «انظر إلى هذه الستائر القذرة. إنَّ السبب في أنَّ باقي سكان نيويورك يتنفّسون هواءً نقيّاً هو لأنَّ لدينا تلك المُرشِّحات الخاصّة للتلوُّث في غرفتنا التي تمتص كل القذارة من الجوّ. لقد قالت سالي إنَّ الزخرفة في هذا المكان «تنمو على حسابك» – وهذا بالضبط ما يُقلقني. حاول ألّا تلمس أياً من الأسطح»

بدأ روبرت ينظر بريبة إلى الأشياء المُحيطة به، وكان فرحاً للنزول في أي فندق مهما كان. وكانت السجادة الصينيّة ذات لون بطن الفأر الزهريّ، وفي منتصفها شكل الرصيعة الرمزيّة، قد أفسحتْ المجال للتنجيد الفرنسيّ الريفيّ الدهنيّ للأريكة والكنبة. وفوق الأريكة، على جدران رسوم الحوذان، ثمة تطريزات هنديّة تمثل امرأة ترقص برصانة بجوار بئر، مع بعض الأبقار في المُقدِّمة تقفُ قِبالة لوحة كبيرة لراقصتَي باليه، واحدة بتنورة رقص باليه صفراء والأخرى ورديّة. وكان الحمّام مُدوّراً كما القمر. كان الكروم قد استحال لونه على الصنابير إلى الرماديّ وأصبح طلاء المينا مُبقَّعاً. وإذا لم تكن تحتاج حقاً إلى الاستحمام قبل أنْ تدخل إليه، فسوف تحتاج إليه بعد أنْ تدخل. والمشهد الذي أطلَّ عليه من نافذة غرفة والديه، حيث كان توماس يقفز على السرير ويهتف «انظر إليّ! أنا رائد فضاء!»، هو نظام تكييف هواء صدئ يضجّ على مسافة بضعة أقدام أسفل النافذة سيئة التركيب. وغرفة الجلوس، حيث كان سينام على سرير الأريكة مع توماس (أو، حسب عِلم توماس، حيث كان والده سينام بعد أنْ احتل توماس سرير أمّه)، كانت تطل على مشهد مِثاليّ لسطحٍ صخريّ غطّى ناطحة السحاب المجاورة.

قال والده، وهو يصبّ مقدار بوصتين من الويسكي في الكأس، «كأننا نُقيم في مقلع للحجارة». ومشى بخُطى واسعة إلى النافذة وأسدلَ الستارة البلاستيك الرماديّة. انهارتْ العارضة التي تحمل الستارة على وحدة جهاز تكييف الغرفة مع صوت تحطُّم أجوف.

قال «اللعنة»

انفجرتْ والدة روبرت ضاحكة. قالتْ «لن نقضي هنا إلّا بضع ليالٍ. فلنخرج لنتناول وجبة العشاء. إنَّ توماس لن يعود إلى النوم إلّا بعد وقتٍ طويل. لقد أمضى ثلاث ساعات على متن الطائرة»، ثم قالت لروبرت «وأنت، حبيبي؟»

«أريد أنْ نخرج. هل أستطيع أنْ أشرب كوكا كولا؟»

فقالت أمّه «كلا، أنت حيويّ أصلاً بما فيه الكفاية»

تمتم والد روبرت، مُستمراً في إخراج مواد التسوُّق، «نكهة التفاح والقرفة. لم أعثر على أي شوفان له مذاق شوفان أو تفاح له طعم التفاح، وجدتُ فقط شوفاناً بطعم التفّاح. وقرفة، طبعاً، من أجل مزجها بمعجون الأسنان. إنَّ رجلاً أقلّ سُكراً يمكن أنْ ينتهي به الأمر إلى تنظيف أسنانه بالشوفان، أو تناول طبق كبير من معجون الأسنان على الإفطار – من دون أنْ ينتبه. إنّه كافٍ لجرفك نحو حافة الجنون. وإذا لم تكن هناك أي إضافات فإنهم يتفاخرون بهذا أيضاً. لقد رأيتْ عبوة من شاي البابونج مكتوب عليها» خالٍ من الكافائين «. كيف يمكن للبابونج أنْ يحتوي كافائين؟» وأخرجَ آخر عبوة.

قالت والدة روبرت «رعود الصباح. ألا تكفينا رعود توماس الصباحيّة؟»

«هذه هي مشكلتك، يا حبيبتي، تظنّين أنَّ توماس يمكن أنْ يكون بديلَ أيّ شيء: الشاي، والقهوة، والعمل، والحياة الاجتماعيّة...»، وترك اللائحة تستمر في الصليل في صمت، ومن ثم بسرعة دفنَ ملاحظته بالمزيد من التعليق العامّ. «رعود الصباح تعبير أدبيّ جداً، وله مُقتطفات أخرى». تنحنح وقرأ بصوتٍ مرتفع، «***غالباً ما يولَد تحت سماءٍ أخرى، ويوضَع وسط مشهد لا يتوقف عن الحركة، ويجرفه هو نفسه سيلٌ لا يمكن إيقافه يكتنفه من كل جانب، إنَّ الأميركي لا وقتَ لديه للارتباط بأي شيء، إنه ينشأ فقط على التعوُّد على التغيير، وينتهي به الأمر إلى اعتباره الحالة الطبيعيّة للإنسان. إنه يشعر بحاجته إليه، ويحبّه باستمرار؛ لأنَّ التقلُّب، بدل أنْ يعني بالنسبة إليه كارثة، يبدو أنّه يُنتِج فقط المعجزات من حوله***» – هذا ما قاله ألكسيس دو توكفيل.

قال، عابثاً بشَعر روبرت «وهكذا كما ترى، الرغبة في «الحركة» تتناسب تماماً مع مزاج هذا البلد، على الأقلّ هذا ما كان في عام 1840، أو نحوه»

تسلق توماس بمشقّة إلى طاولة كانت دائرة حمايتها الزجاجيّة بعرض يقلّ بمقدار قَدَم عن عرض الطاولة نفسها، تاركة مفرش الطاولة البوليستر الأرجواني مكشوفاً عند الحواف.

قالتْ والدة روبرت، وهي تحمله بين ذراعيها «فلنخرج إلى أحد المطاعِم»

في المصعد شعر روبرت بما يُشبه الصمت العنيف، حصيلة الأشياء التي لم يكن والداه يقولها كلٍ منهما للآخر، ولكنْ أثاره أيضاً عبقُ مرضٍ عقليّ يكتنف عامل المصعد ذا الرأس المُكوَّر الذي أبلغهم بفخر، بدل تقديم الاعتذارات التي شعر روبرت بأنها مُستحقَّة، أنَّ المصعد أُنشئ في عام 1926. كان روبرت يحبّ بعض الأشياء القديمة – كالديناصورات، على سبيل المثال، أو الكواكب – لكنّه أراد أنْ تكون المصاعِد جديدة. كانت رغبة العائلة في الفرار من القفص المخمليّ الأحمر مُلحَّة. فبينما الرجل المجنون يهزّ عتلة من النحاس إلى الأمام والخلف، اهتزّ المصعد ومال بالقرب من الطابق الأرضيّ واستقرَّ أخيراً على بُعد بوصة أو اثنتين تحت مستوى البهو.

مشوا على ضوء الغسق، على أرصفة تتلألأ، وسيل من الماء يتدفّق من مصارف ماء عند الزوايا ومن مُصبّعات عملاقة حلّتْ محل بلاط الأرصفة على امتداد مسافات طويلة محمومة. ورفضَ روبرت أنْ يستسلم إلى جُبنِ تجنُّبها كلها، بل مشى عليها على مضض، مُحاولاً أنْ يجعل نفسه أكثر رشاقة. ولم تبدُ قوة الجاذبيّة شديدة الخطورة.

سأَلَ «لِمَ تتلألأ الأرصفة؟»

قال والده «الله أعلم. ربما بسبب الحديد المُضاف إليها، أو المُقتطفات المسحوقة. أو ربما أُستُخلِصَ منها الكافائين»

بالإضافة إلى بضع مقالات صُحُف مُصفرَّة ظهرت على الواجهة، ولافتة كُتِبَتْ بخط اليد تقول *فليبارك الله قواتنا*، لم تُعطِ بيتزا فينوس أي إشارة إلى الطعام المُثير للاشمئزاز الذي يُحضَّر خلف الأبواب. بدا أنَّ مكوِّنات أنواع السلطة والبيتزا تناسِب فترة انعدامِ التفكير التي كان روبرت يُلاحظها منذ مغادرة مطار هيثرو. كانت لائحة الطعام تبدأ بشكل معقول بجبنة الفيتّا والبندورة ومن ثم الانتقال إلى الأناناس والجبن السويسريّ. وبرز لحم الدجاج المُدخَّن

فجأة وسط ما بدا أنّه حفلة ثمار البحر، و «كل ما سبق» قُدِّمَ مع مقليات فرنسيّة وحلقات من البصل.

قال روبرت «إنَّ كل شيء «يسيل اللعاب». ما معنى هذا؟ أيعني أنَّ المرء في حاجة إلى شرب كأس كبيرة من الماء لكي يُزيل المذاق؟»

انفجرت أمّه بالضحك.

تذمَّر والده، وتمتم باللكنة الأميركيّة، «الأمر يشبه تقرير الشرطة حول ما عثروا عليه في منفضة شخص ما غير السمك. من الواضح أنَّ المُشتبه فيه مهووس بالثمار الاستوائيّة بالإضافة إلى ولعه بالجبن المملّح وبالمحار»

قال روبرت «حسبتُ أنَّ اسم المقليات الفرنسيّة أصبح الآن مقليّات الحريّة»

قال والده «إنَّ كتابة عبارة *فليبارك الله قواتنا* أرخص تكلفة من طباعة مائة قائمة طعام. شكراً لله أنَّ إسبانيا انضمَّتْ إلى ائتلاف الراغبين، وإلّا لقلنا أشياء على غرار «أنا أطلب طبق عجّة المحكمة العليا مع بعض مقليات الحريّة إلى جانبه». ربما كانت فطائر موفن الإنكليزية نجتْ من عمليّة التطهير، لكني لن أخرج لأسأل عن القهوة التركيّة بعد الأسلوب الذي تصرفوا به. أنا آسف». غاص والد روبرت في مقعده. «كنتُ أحبّ أميركا حبّاً حمّاً، وأعتقد أنَّ شكلها الحال خذلني. طبعاً هي مجتمع مُعقَّد مترامي الأطراف، ولديّ إيمان راسخ في قُدُراتها على تصحيح نفسها. ولكن أين هي تلك القُدرات؟ ماذا حدث للشغب؟ للهجاء؟ لنزعة الشك؟»

«مرحباً!». كانت النادلة تضعُ رقعة عليها اسم «كارين». «هل اخترتم يا جماعة ما ستأكلون؟ أوه»، تنهدّتْ، وهي تنظر إلى توماس، «أنتَ رائع»

تسمَّرَ روبرت بتأثير من سلوكها الودود الأجوف الغريب. أراد أنْ يحلّها من التزامها بأنْ تكون مرحة. واستطاع أنْ يستشف أنها في الحقيقة تريد أنْ تعود إلى بيتها.

ابتسمتْ أمّه لها وقالتْ «هلّا أحضرتِ لنا دجاج فيزوفيو من دون رقائق الأناناس أو الدجاج الرومي المُدخَّن أو...» وطفقتْ تضحك بانطلاق «أنا آسفة...»

قال روبرت، وبدأ يضحك بدوره، «ماما!»

عرك توماس عينيه وأخذ يهتز إلى الأمام والخلف، غير راغب في أنْ يُترَك وحده. قال «أعني، هذا لا يُصدَّق»

قال والد روبرت «ربما ينبغي أنْ نبدأ بداية مختلفة. هلّا أحضرتِ لنا بيتزا مع بندورة، مع سمك الأنشوفة والزيتون الأسود»

قال روبرت «كالبيتزا التي أكلناها في ليه لاك»

قال والده «سوف نرى»

حاولتْ كارين أنْ تُسيطر على ارتباكها جرّاء ضعف المكوّنات.

«ألا ترغبون في جبن الموتزاريلا؟»

«كلا، شكراً»

«وما رأيكم في القليل من زيت الريحان؟»

«لا نريد زيتاً، شكراً لك»

قالت «حسن»، وقد أصبحتْ أقسى بسبب عنادهم.

انزلقَ روبرت عبر سطح الطاولة الصقيل وأراحَ جانب رأسه على وسادة ذراعيه المعقودَين. شعر بأنه وقع في فخ النقاش مع جسده طوال النهار: احتُجِزَ في الطائرة عندما كان مستعداً للركض في المكان، وهو يركض في المكان الآن بينما عليه أنْ يأوي إلى السرير. في الركن كان هناك جهاز تلفزيون أُخفِضَ صوته بحيث لم يعُد مسموعاً، ولكنّه لم يصمتْ تماماً، وشعَّ ضَوءُه بزاوية قطريّة داخل الغرفة. لم يكن روبرت قد شاهد أي مباراة في البيسبول قط، لكنه شاهد أفلاماً انتصرتْ فيها الروح الإنسانيّة على الشِّدة في مجال لعبة البيسبول. وتذكَّر إحدى المباريات حاول في أثنائها بعض الأوباش أنْ يجعلوا نجماً في اللعبة يخسر مباراة عن عمد، ولكن في اللحظة الأخيرة، عندما أوشك أنْ يخسر كل شيء وعبَّرتْ تأوهات خيبة الأمل التي صدرتْ عن الحشود عن استياءٍ شامل في عالمٍ لم يتبقَّ فيه شيء يستحقّ الإيمان به، دخلَ في حالة من النشوة وتذكّر أول مرّة رمي بها الكرة مسافة طويلة، إلى قلب حقل قمح في وسط أميركا. لم يستطع أنْ يخون ذلك الشعور المُذهل بطيء الحركة الذي بلغ عِنان السماء من عهد الطفولة، ولم يستطع أنْ يخون أمّه التي كانت دائماً ترتدي مئزراً وأمرته

بألّا يكذب، وهكذا ضرب الكرة خارج الملعب، وبدا على الأوباش ما كان قد بدا على كارين عندما نقلتْ طلب البيتزا، ولكن مع غضبٍ أشدّ، أمّا حبيبته فبدتْ فخورة به، على الرغم من أنَّ الأوباش كانوا واقفين على كِلا جانبيها، لأنها كانت في الأساس أشبه بأمّه ولكنها ترتدي ملابس بلون المشمش وأغلى ثمناً بكثير، وجنّ جنون الجمهور لأنه استعاد شيئاً يمكنه الإيمان به. ومن ثم كانت هناك مُطاردة بالسيارات تحطّمت في أثنائها سيارة الأوباش وانفجرتْ، هم الذين لم تُشحذ ردود أفعالهم على مدى عمرٍ كامل أمضوه في مجال الرياضات وتحولتْ شخصياتهم السيئة إلى قيادة سيئة للسيارات.

في المباراة التي عُرِضَتْ على شاشة التلفزيون بدا أنَّ الأوباش يُحرزون الكثير من النجاح ولم تكد الكُرة تتلقّى أي ضربة. وكانت الإعلانات التجارية تُقاطِع اللعب كل بضع دقائق ومن ثم تظهر عبارة *السلسلة العالمية* بأحرف ذهبيّة ضخمة تبرز من كل مكان وتلمع على الشاشة.

قال والده «أين نبيذنا؟»

صحّحتْ له والدة روبرت قوله «بل نبيذك أنت»

شاهد والده يشدّ على فكيّه ويبتلع تلك العبارة. وعندما وصلت كارين حاملة زجاجة النبيذ الأحمر، باشر والده الشرب بإصرار، وكأنَّ العبارة التي لم ينطقها كانت عالقة في بلعومه. أعطتْ كارين روبرت وتوماس كأسين من الثلج مُلوّثين بعصير التوت البرّي. رشفَ روبرت من مشروبه بفتور. لقد طال النهار بصورة لا تُطاق. ليس فقط بسبب التكيُّف مع الضغط الجويّ التفه السقيم في رحلة الطيران، بل أيضاً من إجراءات الهجرة الرسميّة. ونجح والده، الذي قال مازحاً إنه سوف يصِف نفسه بأنه «سائح عالميّ» على غرار نطق الرئيس بوش لعبارة «الإرهابيّ العالميّ»، في مقاومة هذه الغواية. مع ذلك، قادته موظفة هجرة سوداء إلى غرفة جانبيّة بعد ختم جواز سفره.

في سيارة الأجرة شرح قائلاً «لم تفهم السبب في أنَّ محامياً إنكليزيّاً وُلِدَ في فرنسا. وأمسكت رأسها وقالتْ» إنني فقط أحاول أنْ أفهم مفهوم حياتك، سيد ميلْروز «، فقلتُ لها إنني أحاول أنْ أفعل الشيء نفسه وإنّه إنْ حدث وكتبتُ سيرتي الذاتيّة فسوف أُرسِل إليها نسخة منها»

قالتْ والدة روبرت «أوه، إذن لهذا السبب انتظرنا نصف ساعة إضافيّة»

«في الحقيقة، كما تعلمين، عندما يكره الناس طبقة الموظفين الرسميين، فإنهم إمّا أنْ يُصبحوا جبناء أو فكهين»

«جرِّب الجبن في المرّة التالية، فمفعوله أسرع»

عندما وصلت البيتزا أخيراً وجد روبرت أنها رديئة. فهي سميكة كالحفّاضات، ولا تتطابق مع اختزال تسعين بالمئة من المكونات. أزال روبرت البندورة كلها وسمك الأنشوفة والزيتون إلى إحدى الزوايا وتناول لقمتين من حجم البيتزا الصغير جداً. إنها لا تُشبه في أي شيء البيتزا اللذيذة، الرقيقة، المحترقة قليلاً التي أكلوها في ليه لاك ولكنْ، لأنه اعتقد أنها ربما تكون مثلها، فتح بصورة ما باباً خفيّاً يؤدي إلى أوقات صيف حظيَ بها ولن يحظى بها بعد الآن.

سألتْ أمّه «ماذا ألمَّ بك؟»

أغار عليه إحساس بالظلم وباليأس. «فقط أريد بيتزا كالتي أكلناها في ليه لاك»، ولم يرغب حقاً في البكاء.

قالت، وهي تلمس يده،«أوه، حبيبي، أنا أفهم، أعلمُ أنَّ هذا يبدو بعيد الاحتمال في هذا المطعم الجنونيّ، ولكن سوف نقضي وقتاً ممتعاً في أميركا»

قال توماس «لماذا بوبي يبكي؟»

«إنّه منزعج»

قال توماس «ولكن لا أريد له أنْ يبكي. لا أريد له ذلك!» صرخ بهذا، وطفق هو نفسه يبكي.

قال والد روبرت «اللعنة. كنتُ أعلم أننا ينبغي أنْ نذهب إلى مطعم رامسْغيتْ»

في طريق العودة إلى الفندق، استغرقَ توماس في النوم وهو في عربته.

قال والد روبرت «فلنفكر في الأمر المهمّ، ولا ندّعي بأننا سننام في سرير واحد. خذي أنت الصبيِّين إلى غرفة النوم وأنا سأنام على سرير الأريكة»

قالت والدة روبرت «عظيم، إنْ كان هذا ما تريد»

«لا داعي لاستخدام كلمات مُستفزّة كـ «تريد». إنَّ الأمر يتعلّق بما أراه واقعيّاً»

استغرقَ روبرت في النوم في الحال، لكنّه استيقظَ من جديد عندما أشارتْ الأرقام الحمراء على الساعة التي بجوار السرير إلى الثانية وإحدى عشرة دقيقة. كانت أمّه وتوماس لا يزلان نائمَين لكنّه سمع صوتاً مكبوتاً صادراً عن غرفة الجلوس. وجد والده جالساً على الأرض أمام جهاز التلفزيون.

قال، وهو يقوم بحركات رياضيّة بكتفيه وذراعيه وظلَّ وركاه مُثبّتين على السجادة، «لقد تسبَّبْتُ بالأذى لظهري وأنا أنشر سرير الأريكة اللعين»

كانت زجاجة الويسكي على الطاولة الزجاجيّة بجوار، فارغة بمقدار ثلاثة أرباعها وإلى جوارها رقعة مُشوّشة من مكافحة ألم الظهر.

قال الأب «آسف بشأن بيتزا فينوس. بعد أنْ ذهبنا إلى هناك، والتسوّق في محل كارنيغي فودز ومشاهدة شبكة البرامج التلفزيونيّة المنتهكة للقانون بضع ساعات، وصلتُ إلى نتيجة تقول إنه ربما علينا أنْ نصوم خلال فترة عطلتنا هنا. إنَّ إنتاج الحيوانات لا ينتهي في المسلخ، بل في مجاري دمائنا، قبل أنْ تنطلق قذائف أطعمة هنري فورد من أقفاصها إلى الأفواه الفاغرة وتنحلّ هرموناتها التي تساعد على النموّ ووجباتها المُعدَّلة جينيّاً داخل أجسادنا التي تزداد وَهَناً. وحتى عندما لا تكون الوجبات «سريعة»، فإنَّ تسديد الفاتورة فوريّ، وترمي بالآكل الكسول من جديد إلى الشوارع المُكدَّسة بالوجبات السريعة. وفي النهاية، نجد أنفسنا على شريط جهاز نقل الجثث نفسه الذي تُنقَل عليه جثث الدجاج منتوف الريش وأُعدِمَ بالصدمة الكهربائيّة»

وجد روبرت والده مُخيفاً بصورة مُبهمة، بعينيه الدمويتين وبقع العَرَق على قميصه، وهو يفتح سدّادة حديثه الخاصّ. وأدرك روبرت أنّه لم يكن يتواصل مع والده وهو يُلقي خُطبه بل يُسمَح له بالإصغاء إليها. وطوال فترة نومه كان والده يذرع أرض قاعة المحكمة الذهنيّة، ويُصدر أحكامه.

قال روبرت «أحبّ المتنزّه»

وافق والده «المتنزّه جميل، لكنَّ باقي البلد لا يضمُّ إلّا أناساً يركبون سيارات ضخمة ويتساءلون ماذا يأكلون بعد ذلك. عندما نستأجر سيارة سوف ترى أنها في الحقيقة عبارة عن قاعة طعام متنقّلة، ومزوّدة بطاولات صغيرة موزّعه في كل مكان مع سُقاة. إنه بلد الأطفال الجياع الذين يحملون مُسدسات حقيقيّة. وإذا لم تقتلك قنبلة، فسوف تقتلك بيتزا فينوس. شيء مُرعب إلى أقصى مدى»

قال روبرت «اسكتْ أرجوك»

«أنا آسف. إنني فقط أشعر...». فجأة بدا له والده تائهاً. «إنني فقط لا أستطيع النوم. المتنزّه عظيم. وجمال المدينة يحبس الأنفاس. المشكلة تكمنُ فيَّ أنا»

«هل سيكون الويسكي جزءاً من برنامج الصيام؟»

قال والده، مُحاكياً الأسلوب الخبيث الذي يحبّ توماس أنْ ينطق به الكلمة، «للأسف، إنَّ الويسكي شيء *شديد* النقاء وليس من العقل إقحامه في الحرب المُعلنة ضد الفساد»

قال روبرت «أوه»

«أو الحرب *على* الفساد، كما يقولون هنا. الحرب على الإرهاب؛ الحرب على الجريمة؛ الحرب على المخدرات. وأعتقد أنكَ إذا كنتَ تنادي بالسلام هنا فعليكَ أنْ تشنّ حرباً على الحرب، وإلّا فلن يُلاحظ أحدٌ وجودك»

حذَّره روبرت «أبي»

قبَض على جهاز التحكُّم عن بُعد. «أنا آسف، أنا آسف. دعونا نتخلَّص من هذا الهراء المُدمِّر للعقل ونقرأ قصة»

قال روبرت، وهو يقفز إلى سرير الأريكة، «عظيم». شعر بأنّه يتظاهر بأنّه أكثر مَرَحاً مما هو عليه، بأنه يُشبه قليلاً كارين. لعل هذا شيء مُعدٍ، أو شيء موجود في الطعام.

-14-

قالت الخالة نانسي، وهي تُقلِّب صفحات ألبوم الصور الفوتوغرافيّة، «أوه، باتريك، لِمَ لمْ يُخبرونا بأنَّ الحياةَ الجميلة التي عشناها سوف تنتهي؟»

قال باتريك «ألم يُخبروك بهذا؟ شيء يبعثُ على الجنون. ولكن أعود فأقول، إنها لم تنته بالنسبة إلى الذين كان يمكن أنْ يُخبروك. لقد دمَّرتْ أمك الحياة بوضع ثقتها في زوجها»

«أتعلم ما هو أسوأ شيء في ذلك - سوف أستخدم كلمة «شرير» -»

تمتمَ باتريك «كلمة شائعة هذه الأيام»

تابعَتْ، وقد أغمضَتْ جفنيها فترة وجيزة رفضاً للإذعان لعبارة باتريك المُربِكة، «تقصد رجلاً شريراً؟ كان يتحرّش بي في المقعد الخلفيّ لسيارة أمي وهي في المنزل تحتضر بتأثير مرض السرطان. حينئذٍ كان مُصاباً بمرض باركنسون، لذلك كان قبضته ترتعش، إنْ كنتَ تفهم ما أعني. وبعد أنْ توفيتْ أمي، قام فعلاً بطلب يدي للزواج. أتصدِّق هذا؟ واكتفيتُ بالضحك، لكنني أحياناً أعتقد أنه كان ينبغي أنْ أقبل عَرْضَه. ولم يعِش بعد ذلك أكثر من سنتين، وكنتُ وفّرتُ على نفسي مشهد عمّال النقل الذين استأجرهم النسيب الصغير وهم يحملون طاولة زينتي من غرفة نومي، وأنا ما أزال أستلقي على السرير، في صباح يوم وفاة جان. وقلت لأولئك الوحوش بملابس العمّال الزرقاء، «ماذا تفعلون؟ هذه فراشي الشعر الخاصّة بي»، فنخروا قائلين «لقد طُلِبَ منا أنْ نأخذ كل شيء»، ثم رموا بي خارج السرير، لكي يضعوه على السيارة الشاحنة»

قال باتريك «ربما كان الزواج من شخصٍ تمقتينه وتجدينه مُثيراً للاشمئزاز جسديّاً، أشدّ إيذاءً»

قالت نانسي، وهي تقلب إحدى صفحات الألبوم، «أوه، انظر، ها هي ضيعة فيرلي، حيث أمضينا بداية الحرب، بينما أمي لا تزال عالقة في فرنسا. كانت أجمل منازل لونغ أيلند. أتعلمْ أنَّ العم بيل كان يمتلك حديقة مترامية الأطراف. أنا لا أتحدث عن الغابات والحقول، فقد كان هناك الكثير منها أيضاً. في أيامنا هذه إذا امتلك الناس حديقة صغيرة في لونغ أيلند اعتقدوا أنهم الله الأعظم. وكان هناك أجمل عرش من الرخام الأزرق في وسط حديقة مُشذَبة بأجمل أسلوب حيث كنا نلعب لعبة خطوات جدَّتي. كانت تخصّ إمبراطور بيزنطة...» وتنهّدتْ «كلها ضاعتْ، كل الأشياء الجميلة»

قال باتريك «إنَّ مشكلة الأشياء هي أنها لا تني تضيع. فالإمبراطور أضاعَ عرشَه قبل أنْ يُضيِّع العم بيل أثاث حديقته»

«حسن، على الأقل قام أولاد بيل ببيع فيرلي»، ثم انفجرت قائلة، «ولم تُسرَق منهم»

قال باتريك «اسمعي، أنا أول المتعاطفين. وبعد ما فعلتْه إلينور، أصبحنا أشدّ المُتضررين مالياً من فرع العائلة»، ثم سألها، كأنما لكي يُعطي ملاحظة أكثر خِفّة، «منذ متى انفصلتِ عن أمّك؟»

«منذ أربع سنوات»

«أربع سنوات!»

«في الواقع، ذهبنا إلى أميركا قبل سنتين من نشوب الحرب. ومكثَتْ أمي في أوروبا في محاولة لقضاء أمتع الأوقات في فرنسا وإنكلترا وإيطاليا، ولم تعُد إلى أميركا إلّا بعد عامَينِ من اجتياح الألمان. هربتْ هي وجان عبر البرتغال وعندما وصلا أتذكّر أنَّ صندوق أحذيتها سقط عن قارب الصيد الذي استأجراه لكي يعبر بهما إلى نيويورك. وأعتقد أنّكَ إنْ استطعتَ أنْ تهرب من الألمان ولا تفقد خلال ذلك إلّا صندوق الأحذية الذي لا يحتوي إلّا الأحذية، فتأثير الحرب عليك ليس سيئاً جداً»

«ولكن كيف شعرتِ بشأنْ عدم رؤيتك لها طوال تلك الفترة؟»

«في الواقع، لقد دار بيني وبين إلينور أغرب حديث قبل أنْ تُصاب بالسكتة الدماغيّة بسنتين. قالتْ لي إنَّه عندما وصلت أمي وجان إلى منزل

فيرلي، جذّفت القارب إلى قلب البحيرة ورفضَتْ أنْ تكلِّمهم لأنها كانت شديدة الغضب لأنَّ أمي تخلَّتْ عنّا طوال أربعة أعوام. وصُعِقتُ لأنني لم أتذكَّر أي شيء عن ذلك. أعني، كان ذلك سيُشكل أمراً جللاً في حياتنا المبكِّرة. ولكن كل ما أتذكَّر هو أنَّ أحذية أمي ضاعتْ»

قال باتريك «أعتقد أنَّ كل شخص لا يتذكّر إلّا ما هو مهمّ بالنسبة إليه»

قالت نانسي «قالتْ لي إنها كرهت أمي. أعني، لم أكنْ أعلم أنَّ ذلك ممكن جينيّاً»

قال باتريك «ربما جيناتها تنحّتْ جانباً بفعل الرعب. والحكاية التي كانت إلينور دائماً تحكيها لي هي أنها كرهَتْ أمّك لأنها طردَتْ الشخصَين اللذَين أحبّتهما واعتمدتْ عليهما: والدها ومُربّيتها»

قالتْ نانسي بلهجة تنافسيّة، «عندما طُرِدَتْ المُربّية ربطتُ نفسي بالسيارة»

«حسن، ها أنتِ ذي – ألم تشعري بوخز تحدي الجينات...»

«كلا! أنا ألوم جان. فهو الذي أقنع أمي بأننا أصبحنا راشدين ولا نحتاج إلى مربّية»

«وماذا عن والدك؟»

«في الواقع، قالتْ أمي إنها لا تستطيع تحمّل تكاليف المحافظة عليه. كان في كل أسبوع يُثير جنونها بتبذيرٍ جديد. وقُبيل الذهاب إلى أسكوت، على سبيل المثال، لم يكتفِ بشراء جواد سباق، بل اشترى اسطبلاً كاملاً من جياد السباق، أتفهم ما أعني؟»

قال باتريك «كم كانت أياماً جميلة. أتمنّى لو أكون في وضعٍ يجعلني أغضب من ميري لشرائها عدداً من جياد السباق، بدل أنْ أُصاب برعبٍ شديد عندما يحتاج توماس إلى زوج جديد من الأحذية»

«أنت تبالغ»

«إنه التبذير الوحيد الذي أستطيع تحمُّل تكاليفه»

رنَّ جرس الهاتف، وجذبها إلى غرفة المكتب المجاورة لمكتبتها، وتركت باتريك على الأريكة غائصاً بفعل ثقل الألبوم الجلديّ الأحمر، الذي يحمل رقم العام 1940 مختوماً بالطلاء الذهبيّ على غلافه.

التحمتْ في مخيّلة باتريك صورة إلينور، وهي تجذّف القارب إلى منتصف البحيرة وترفض التحدث مع أحد، مع حالتها الحاضرة، طريحة الفراش ومنقطعة عن باقي العالم.

بعد مرور يوم على استقرارها في ضريح العجزة في كينسينغتن المُدجَّج بالسجّاد وذي التدفئة المُبالَغ فيها، اتصل المدير هاتفياً بباتريك.

«تودّ أمك أنْ تراك في الحال. إنها تعتقد أنها سوف تموت في هذا اليوم»

«أهناك أي سبب يجعلنا نُصدّق أنها على صواب؟»

«ليس هناك أي سبب طبّي بهذا الخصوص، لكنها تلحّ بشدّة»

اندفعَ باتريك خارجاً من شقّته وانطلقَ ليقابل إلينور. وجدها تبكي من فرط الإحباط لأنَّ لديها شيئاً غاية في الأهميّة يجب أنْ تُفضي به. وبعد نصف ساعة، نطقَتْ أخيراً بـ «سأموت اليوم» بكل الروعة المُذهلة للأمومة الحديثة. وبعد ذلك، لم يكن يمرّ يوم واحد إلّا ويخرج من فمها وعدٌ بالموت بعد نصف ساعة من الكفاح المُغمغم، والبكاء.

عندما نقل باتريك شكواه لكاثرين، الممرضة الأيرلنديّة المتغطرسة المسؤولة عن الطابق الذي تُقيم فيه إلينور، أمسكتْ بساعده وقالت بصوت كنعيب البوم، «قد تعيش بعدنا جميعاً. خذ عندك الدكتور ماكدوغال في الطابق التالي. عندما كان في السبعين من العمر، تزوج من سيدة تبلغ نصف عمره - كانت سيدة لطيفة، وودوداً جداً. وفي العام التالي، حدث أمر مأساويّ حقاً، أُصيب بألزهايمر وانتقلَ إلى هنا. كانت شديدة الوفاء له، وكانت تأتي لتزوره في كل يوم. مهما يكن، إلى أنْ أُصيبَتْ بسرطان الثديّ. وبعد مرور ثلاث سنوات على زواجهما ماتت، وما زال هو يقطن في الطابق العُلويّ، *قويّاً*»

بعد نعيب ختامي من الضحك، تركته واقفاً وحده في الرواق الخالي من الهواء المجاور للمستوصف الموصَد.

وما زاد من بؤسه أكثر من عدم دقّة توقّعات إلينور كان إصرارها على خِداع نفسها وغرورها الروحيّ. وفكرة أنّها كانت تتمتع ببصيرة خاصّة فيما يتعلّق بدقة توقيتها لموتها من مميزات أحلام اليقظة التي هيمنتْ على

حياتها. ولم تبدأ باتخاذ موقف أكثر واقعيّة بشأن درجة تحكّمها بموتها إلّا مع حلول شهر حزيران، بعد أنْ سقطتْ وكسرتْ وركها.

ذهبَ باتريك لزيارتها في تشيلسي وفي مستشفى ويستمنستر بعد سقوطها.

كانوا قد أعطوها مورفين مع وجبة الإفطار، لكنَّ اضطرابها لم يخفّ. وقد أدّت حاجتها اليائسة لترك السرير، التي تسبّبت لها بعدد من السقطات، والإصابة برضوض أرجوانية قاتمة في صدغها، وورماً واحمراراً في أنفها، وجعل جفن عينها اليُمنى أصفر اللون وأخيراً كسرَ وركها، إلى جعلها، حتى الآن، تمدّ يدها نحو القضيب الجانبي لسريرها الذي جلبته بمناسبة اليوبيل الفضيّ لإيفانز نيزبت لكي تنهض مُستعينة بتينك الذراعين الأبيضين المترهلين المُصابين برضوض جرّاء علامات كسر جديدة ولم يسع باتريك إلّا أنْ يحسدها عليها. وخرجت منها بضع عبارات واضحة كظهور جُذُر في المحيط الهادئ من بين محيط من الغمغمة والتأوّه بمقاطع صوتيّة لا معنى لها.

قالتْ، وهي تندفع من جديد نحو نهاية السرير «لديّ موعد»

قال باتريك، «أنا متأكّد من أنَّه كائناً مَنْ كان ذلك الشخص سوف يأتي إلى هنا، لعلمِه أنكِ لا تستطيعين التحرّك»

قالت، وهي تنهار برهة إلى الخلف على الوسائد المُلطّخة بالدماء، لكنها عادتْ لتندفع إلى الأمام من جديد وتولول، «لديّ موعد»

لم تكن تمتلك من القوة ما يُبقيها منتصبة مدة طويلة، وسرعان ما عادت إلى حركتها الملتوية البطيئة على السرير، وإلى سيل طويل من الهراء المُغمغم، المُلحّ. ومن ثم نطقت «لا أكثر»، غير مُرتبطة بأي شيء آخر. مرَّرتْ يديها إلى أسفل وجهها بسخط، تبدو كأنها تريد أنْ تبكي لكنَّ جسدها خذلها في هذا المجال أيضاً.

أخيراً نجحتْ.

قالتْ، وهي تقبض على يده بقوة مُفاجئة، «أريد منكَ أنْ تقتلني»

قال بانريك «أودّ لو أساعدك، ولكن لسوء الحظ هذا مُنافٍ للقانون»

صرختْ إلينور «لا أكثر»

قال بإبهام «إننا نقوم بأقصى ما في وسعنا»

حاول باتريك، بحثاً عن العزاء في النزعة العمليّة، أنْ يُعطي والدته رشفة من عصير الأناناس من الكأس البلاستيكيّة التي على الطاولة المُجاورة لسريرها. أراح يده تحت قمّة الوسادة ورفع رأسها، وأمال العصير برفق نحو شفتيها المتقشّرتين. شعر بأنّه تأثّر برقّة تلك الحركة. لم يحدق أبداً أنْ عاملَ أحداً بمثل تلك العناية ما عدا ولديه. لقد انعكس تدفّق الأجيال ووجد نفسه يضمّ والدته العاجزة، الخائنة، المُضطربة بقلقٍ مُرهَف. كيف ينبغي رفع رأسها، كيف يحرص على ألّا تختنق. راقبها وهي تُدير رشفة العصير داخل فمها، وعلى وجهها نظرة فزعة، منفصلة، ورغب في أنْ تنجح وهي تحاول أنْ تُذكِّر بلعومها كيف يبتلع.

مسكينة إلينور، مسكينة إلينور الصغيرة، لم تكن في حالة جيدة البتّة، كانت في حاجة إلى مُساعدة، في حاجة إلى حماية. ليس هناك عائق، لا شيء يُقاطِع رغبته في مساعدتها. وذُهِلَ لرؤية عقله المُجادِل، المُحبَط، يؤثِّر عليه فعلٌ جسديّ. مال عليها أكثر ليُقبِّل جبينها.

دخلتْ إحدى الممرّضات ورأتْ الكأس في يد باتريك.

سألته «هل أعطيتها بعضاً من الشراب المُكثّف؟»

«بعضاً ممَّ؟»

قالت «الشراب المُكثَّف»، وهي تربتْ على عبوة تحمل تلك العبارة.

قال باتريك «لا أعتقد أنَّ أمي ترغب في أي شراب مُكثَّف. هل لديكم عبوة تحمل اسم «قمامة»؟»

صُعِقَتْ الممرّضة، لكنَّ إلينور ابتسمتْ.

ردَّدت الكلمة، «قمامة»

تابعت الممرضة قائلة «لقد تناولت إفطاراً دسماً في هذا الصباح»

قالتْ إلينور «جبر»

اقترحَ باتريك «تقصدين أجبروك؟»

أدارت وجهها ذا العينين الضاريتين نحوه وقالت «نعم».

قال باتريك «عندما تعودين إلى مأوى العجزة، تستطيعين أنْ ترفضي أكله إذا شئت. سوف تتحكّمين أكثر في مصيرك»

همسَتْ، مُبتسمة، «نعم»

للمرَّة الأولى بدت مرتاحة. وكذلك باتريك. سوف يحمي أمّه من عيش المزيد من الحياة الفظيعة التي تُفرَض عليها. ها هنا أخيراً دور للابن يجب أنْ يقوم به.

نظر باتريك إلى ألبومات صور نانسي الفوتوغرافيّة الأخرى، المجلدات المتشابهة ذات التغليف الجلديّ الأحمر التي يفوق عددها المائة والمؤرَّخة من عام 1919 وحتى 2001، مُرتّبة على الأرفف أمامه مباشرة. وما تبقّى من الغرفة كانت تغطّي جدرانه صفوفٌ من كتل الكتب التزيينيّة ذات الأغلفة الجلديّة، وإلى الأسفل منها، كتبٌ ضخمة عن فن الزخرفة. حتى البابين، اللذين يؤدي أحدهما إلى الصالون والآخر إلى غرفة المكتب حيث كانت نانسي تتكلّم عبر الهاتف، لم يُؤثّرا على طابع المكتبة. وكان جانبهما الخلفيّ مزدحماً بكتب زائفة تستقر على أرفُف زائفة مرسومة على خط واحد مع الأرفف الحقيقيّة، بحيث عندما يُغلَق البابان تولِّد الغرفة إحساساً برهاب الأماكن المُغلقة. وزادتْ موجة الإحساس بالامتعاض والحنين اللذين انبعثا من نانسي، ولم يزولا منذ أنْ رآها آخر مرَّة قبل ثماني سنوات، من عزم باتريك على ألّا يعيش في عالم مضى وانقضى محفوظ في جدارٍ من الألبومات – ناهيك عن العيش في عالمٍ مُفترَض كان يمكن أنْ يوجَد حيث احترقَتْ مُخيّلة نانسي بشراسة أشدّ. لم يكن هناك فائدة من إلقاء مُحاضرة حماسيّة عليها حول قيمة البقاء مُعاصِرة في حين أنّها ترفض حتى أنْ تتمسّك بماضٍ كما كان، بل فضَّلَتْ نسخة نظيفة من الجور الذي مورِسَ عليها قبل نحو أربعينَ عاماً. لم يعد وهج عصر حُكم الأثرياء يَفتنه أكثر من افتتانه بكومة من الأطباق القذرة بعد انتهاء وجبة عشاء. ثمة شيء مات، وموته ارتبطَ برقّة شعرَ بها اتّجاه إلينور عندما ساعدها على الشرب من كأس عصير الأناناس تلك في المستشفى.

دفعه لقاؤه بخالته إلى التعجّب من جديد من مدى اختلافها عن أختها.

ومع ذلك كان لمواقفهما من الدنيويّة المتطرّفة والروحانيّة المتطرفة أصل مُشترك مع حسّ بالخيانة الأموميّة وخيبة الأمل الماليّة. ومن جديد وَضَعَت نانسي اللوم على زوج أمّها، بينما حاولتْ إلينور أنْ تصبّ حسّ الخيانة على باتريك. ولكن بلا نجاح، كما أحبَّ أنْ يعتقد، على الرغم من أنّه شعر بعد قضاء فقط بضع ساعات مع خالته كمَنْ يُقلِع عن شرب الكحول تلقى وعاءً لمزج الكوكتيل هديّة في عيد مولده.

كانت النوافذ الطويلة النظيفة تطلّ على مرج واسع ينحدر نحو بركة للزينة يمرّ فوقها جسرٌ ياباني من الخشب. واستطاع أنْ يرى من مكان وقوفه توماس يُحاول أنْ يتدلّى من جانب الجسر، وميري تمنعه برفق وهو يُشير إلى طائر ماء غريب الشكل يُحدِثُ أمواجاً رقيقة عبر دائرة المياه البرّاقة. أو ربما هناك سمكة زينة تُضفي عمقاً على المنظومة اليابانيّة. أو درع مُحارب ساموراي يلمع وسط الوحل. كان من الخطر الاستخفاف بجهد نانسي الذي بذلته في التزيين. وكان روبرت يكتب في مفكرته داخل المعبد الشرقيّ الصغير المُجاور للبركة.

انفتح عدد من الأرفف التي تحمل مؤلفات كلاسيكيّة لا تصلح للقراءة مُصدرة صريراً وخطَتْ نانسي عائدة إلى الغرفة.

«مَن المتكلِّم؟»

«هنري. يقول إنك ستذهب إلى جزيرته في الأسبوع القادم»

قال باتريك «هذا صحيح. نحن مجرد فقراء مساكين نرتمي على إحسان قريبنا الأميركي»

«يريد أنْ يعرف إنْ كان والداك مُهذَّبَين. فقلتُ إنهما لم يكسرا أي شيء حتى الآن. فسألني» منذ متى هم هنا؟ «. عندما قلت إنكم وصلتم قبل ساعتين، قال» أوه، إكراماً لله، نانسي، أي نوع من العينات هؤلاء؟ سوف أتّصل غداً لسماع تقرير كامل «. أعتقد أنّه ليس كل شخص لديه أهم مجموعة من تماثيل بلدة مايسن الصغيرة»

«ولا أعتقد أنّه هو أيضاً لديه، بعد تقرَّر أنْ توماس سوف يبقى»

قالت نانسي «لا تقُل هذا! الآنْ أنتَ تُثير أعصابي»

«لم أكنْ أعلم أنَّ هنري أصبح مغروراً إلى هذه الدرجة. إنني لم أره منذ على الأقلّ عشرين عاماً؛ إنّه كرم حقيقيّ منه أنْ يدعونا إلى بيته. عندما كان مراهقاً كان ينتمي إلى ذلك النوع المألوف، المتمرِّد الراضي. أعتقد أنَّ المتمرِّد هُزِمَ على أيدي جيش من تماثيل بلدة مايسن الصغيرة. مَنْ يستطيع أنْ يضع اللوم عليه لاستسلامه؟ تخيّلي حشوداً لامعة من تماثيل عاملات الملبنة الخزفيّة يُنظّفنَ سفح التل ويغمرنَ قعر الوادي، وهنري المسكين ليس في حوزته أكثر من ورقة بيان ملفوفة لكي يهزمهم»

قالت نانسي «إنكَ تغالي في الانجراف مع مخيلتك»

قال باتريك «آسف. لقد ترددتُ على قاعة المحكمة طوال ثلاثة أسابيع. والخطب تتراكم...»

«حسن، إنَّ خالتك العجوز يجب أنْ ترتاح الآن. سوف نذهب إلى آل والتر وآل بيث لنشرب الشايّ ويجب أنْ أكون في أبهى ملابسي لتلك المناسبة. لا تدع ولديك يمشيان حُفاة على العشب، أو أنْ يدخلا الغاية أبداً. أخشى أنَّ هذا الجزء من ولاية كونكتيكت هو بؤرة مرض لايم[1] الأصليّة، والقرّاد مخيف هذا العام. والبُستانيّ يحاول أنْ يزيل اللبلاب السامّ من الحديقة، لكنّه لا يستطيع السيطرة على الغابة. إنَّ مرض لايم رهيب. ويُعاود الظهور وإذا لم يوجَد له عِلاج يمكن أنْ يُدمِّر حياتك. هناك صبي صغير يعيش في القرية هنا وهو ليس في حالة جيدة على الإطلاق. يُصاب بنوبات عقليّة وما شابه. وبيث تتناول مُضادات حيوية على مدار الساعة. إنها «تداوي نفسها بنفسها». تقول إنَّ الأسلوب الآمن هو أنْ تفترِض أنكَ دائماً في خطر»

قال باتريك «وهو أساس نشوب حرب دائمة. *Tout ce qu'il y a de plus chic*» (هذا أكثر أناقة)

«حسن، إذا شئتَ أنْ تعبِّر عنه بهذه الطريقة»

«أعتقد أنني أفضِّل هذا. ولا أعني به حتماً وجهها»

1- مرض لايم: تتسبب به عضّة القرّاد. نشأ أصلاً في بلدة لايم في ولاية كنكتيكت واُعتبِرت هي بؤرة انتشاره – المترجم.

صرخت نانسي «الأصحّ أنْ تقول حتماً *ليس* وجهها. إنها أقدم صديقة لديّ، ثم هي أقوى نساء جادة بارك وإثارة غضبها ليست فكرة سديدة»

قال باتريك «لا يمكن أنْ أفعل هذا»

غادرتْ نانسي، واقترب باتريك من صينيّة المشروبات، ولكيلا يترك أي كأس قذرة، شرب عدة جرعات من البوربون من زجاجة ميكرز مارك. وغاصَ عائداً إلى الأريكة وحدَّق من النافذة. بدا ريف نيو إنغلند العسير على الاختراق جميلاً جداً، لكنّه في الحقيقة كان يعجّ بخطرٍ يفوق ما تتصِف به مستنقعات كمبوديا. كان في حوزة ميري عددٌ من الكرّاسات عن مرض لايم - المُسمّى باسم بلدة ولاية كنيكتيكت التي لا تبعد أكثر من بضعة أميال - ولذلك لم تكن هناك من حاجة إلى الإسراع وإبلاغ العائلة.

دفعته رغبة مُلحّة إلى قول، «الحل الأكثر أماناً افتراض أنكَ في خطر دائم. الأكثر أماناً افتراض أنكَ آمن إلّا إذا كنتَ في خطر»، ولكن سرعان ما تغلَّبَ عليه جنون الارتياب المقبول. على أي حال، إنه الآن يشعر بالخطر طوال الوقت. خطر الفشل الكلويّ، وانهيار زواجه، والخوف الختاميّ. ويقول لنفسه، من دون أنْ يُصدِّق كلمة واحدة مما يقول، إنَّ لا أحد يموت بتأثير شعورٍ ما وهو يشقّ طريقه بصعوبة خلال الشعور بأنه يموت من شدَّة الخوف. إنَّ الناس يموتون من المشاعر طوال الوقت، حالما يباشرون بتجسيدها وتحويلها إلى طلقات ناريّة وزجاجات وأورام خبيثة. كما حدث لشخصٍ مثله مُنظَّم، وصاحب أسس عشوائيّة تماماً، ومُثقَّف متطوّر جداً وليس لديه أي حالة وسطيّة في حاجة ماسّة إلى تطوير الأساس الوسطيّ. من دون هذا، ينقسم إلى عقل نهاريّ حذر، وطائر جارح يحوم فوق مشهد عام، وعقل ليليّ عاجز، وقنديل بحر يتخبَّط على سطح سفينة. إنّها قصّة «النسر وقنديل البحر»، القصة الخرافيّة التي لم يُزعج إيسوب نفسه بتأليفها. ضحك ضحكاً سريعاً، يدل على قليل من الخَرَف ونهضَ لكي يشرب جرعة أخرى من البوربون من الزجاجة. نعم، الأرض الوسطى تحتلها الآن بحيرة من الكحول. الجرعة الأولى ثبَّتته على مدى عشرين دقيقة ومن ثم استدعت الجرعات الباقية العقل الليليّ بسرعة من فوق المشهد العام كالجزء المظلم من خسوف القمر.

علِمَ أنَّ الأمر كلّه كان دراما أوديبيّة مُهينة. وعلى الرغم من الثورة السطحيّة التي حدثتْ لصِلاته بإلينور، والانتصار المحلّي للتعاطف على الامتعاض، فإنَّ الأثر الأساسيّ الذي تركته على حياته لم يتغيَّر. كان إحساسه الأعمق بوجوده أشبه بسقوطٍ حرّ، وخوف بلا حدود، ورهاب المساحات المفتوحة الذي يرهب الأماكن المُغلقة. من دون أدنى شك كانتْ هناك سِمة عالميّة في الخوف. لقد مرَّ ولداه، على الرغم من المعاملة الكريمة التي يتلقياها من ميري، بلحظات من الخوف، لكنها كانت عابرة، في حين أنَّ باتريك شعر بأنَّ الخوف هو الأرضيّة التي وقفَ عليها، أو الهوّة التي سقط فيها، ولم يسعه إلّا أنْ يربط هذا الاعتقاد بعجز والدته المُطلَق على التركيز على كائن بشريّ آخر. وكان عليه أنْ يتذكّر أنَّ السِمة المُحدِّدة لحياة إلينور هي العجز. لقد أرادتْ أنْ تنجب طفلاً وأصبحتْ أمّاً فاشلة؛ وأرادتْ أنْ تؤلِّف قصصاً للأطفال وأصبحت كاتبة فاشلة؛ وأرادتْ أنْ تُصبح مُحسِنة ووهبتْ مالها كلّه لمشعوذ يعمل لمصلحة نفسه. والآن أرادتْ أنْ تموت وفشِلتْ في هذا أيضاً. لم تستطع إلّا أنْ تتواصل مع أناسٍ قدّموا أنفسهم إليها على أنهم أبواب تؤدي إلى تعميم طنّان، كالـ «إنسانيّة» أو «الخلاص»، إلى شيء لا بُدَّ أنَّ باتريك الباكي، المتقيئ، كان عاجزاً عن فعله. وإحدى مشكلات كون المرء طفلاً هي صعوبة التمييز بين العجز والخبث، وهذه الصعوبة عادتْ إليه وسط الليل السكران. وكانت حينئذٍ قد بدأتْ تغزو أيضاً نظرته إلى ميري.

كانت ميري أمّاً متفانية لروبرت، ولكن بعد أنْ انغماسها في العام الأول عادتْ إلى الظهور كزوجة، وإنْ كان ذلك فقط لأنها أرادتْ إنجاب طفل آخر. ومع توماس بدتْ أنها واقعة في فخ دائرة قوة مريم العذراء والطفل، ربما لأنها علِمَتْ أنه طفلها الأخير، واحتفظّتْ بتخوم النقاء، بما فيها إعادة اكتشاف عُذريتها. وكان باتريك يقوم بدورٍ يوسف الذي لا يُحسَد عليه في مدينة بيت لحم هذه، الباقية، والفانية. وكلما أبعدتْ ميري انتباهها عنه أكثر بدا أنّه يظهر أكثر في ضوء المُنافِس الدجّال لعينَي ابنه الأصغر. والتفت إلى جهة أخرى، إلى جوليا، وبعد أنْ انهارت تلك العلاقة، التفتَ إلى عناق الكحول الذي يُنسي. يجب أنْ يتوقف. إنه وهو في هذه السن إمّا عليه أنْ

ينضمّ إلى المقاومة أو أنْ يُصبح متعاوناً مع الموت. لم يكن هناك حيِّز للعبَث مع تدمير الذات حالما يتبخّر وهمُ استحالة الدمار الصِبيانيّ.

أوه يا إلهي، لقد أحرز أكثر مما ينبغي من التقدُّم مع مشروب ميكرز مارك. والشيء المنطقيّ الواجب فعله كان حمل تلك الزجاجة إلى الطبق العُلويّ وصبّ ما تبقّى منها في زجاجة البوربون المُستنفدة والمُخبّأة في حقيبة ظهره، ومن ثم ينطلقْ إلى البلدة لشراء زجاجة أخرى من أجل طاولة مشروبات نانسي. وسوف يُضطر، طبعاً، إلى القيام بغزوات مُقنِعة على الزجاجة الجديدة بحيث تُصبح شبيهة بالزجاجة القديمة قبل أنْ يُنهيها، وعمليّاً كان أي شيء أقلّ تعقيداً من كونه مُدمِن كحول مُقنِعاً. قصف دول العالم الثالث – هذا هو العمل المناسِب للرجل الخالي من العمل. وتمتم، وهو يترنّح قاصداً غرفته، «لا بأس بهذا بالنسبة إلى البعض». كان ثملاً بمقدار قليل جداً بالنسبة إلى هذا الوقت من النهار بصورة قابلة للجدل. كانت أفكاره تتداعى، تُصبح مُتقطّعة، وتتعثر.

تفحَّصْ: العائلة في الحديقة. تفحّصْ: الصمتْ يلفّ الصالون. ارتقِ الدَّرَج بسرعة، أغلقْ الباب – أحضِرْ حقيبة الظهر، أفرِغ البوربون – على يده كلها. خبِّئ الفارغة في أعلى خزانة الكؤوس والأطباق. مفاتيح السيارة. ثم اهبِط واخرج. هل يُخبِر العائلة؟ نعم. كلا. نعم. كلا! اركبْ السيارة. دينغ دينغ دينغ. أمان سيارة أميركيّة لعينة دينغ دينغ. الأكثر أماناً ادّعاء موت عنيف فُجائيّ. الشرطة كلا أرجوك لا داعي للشرطة، أرجوووووك. تسلَّل وابتعد على المسار المفروش بالحصى المُغذّي المقرمِش. التحكّم بالسرعة، مُعطَّل. اقتراحات يمكن اقتراحها. اقفز على الدروب، اخرج عن ساحق الألفاظ ومنه إلى، إلى الريف الذي يكمن فيه الموت والمُضاء بأشعة الشمس. الأفضل تمهيد الدرب كله. حشود الأناس العاديين الغاضبة مع مناشير سلاسل وخلاطات إسمنت. «لقد عشنا في خوف طويلاً! ولنا الحق في حماية عائلاتنا! هذا ما يقوله الكتاب المُقدَّس، «الأماكن البريّة سوف تُروَّض. وسوف يُسيطر الناس على القرّاد»

كان يندفع بسيارة بيويك لو سابر الزرقاء الفضيّة، يصرخ بلكنة الريف الأميركيّ. لم يستطع التوقّف. لم يستطع أنْ يوقِف أيّ شيء. لم يستطع

إيقاف السيارة، ولم يستطع التوقف عن شرب الخمر، ولم يستطع إيقاف الكونكريت كلوكس كلان. مرّتْ إشارة توقّف حمراء برّاقة حالما انضمَّ بهدوء إلى الطريق العامة المؤدية إلى البلدة. أوقفَ السيارة عند محل فينو فيريتاس لبيع المشروبات. وبصورة ما أغلقتْ السيارة نفسها بنفسها، لتكون على الجانب الآمن. دينغ دينغ دينغ. المفاتيح ما زالت في موقع الإشعال. انحنى إلى الخلف في محاولة لتخفيف الألم الفاتر في الجزء السفليّ من ظهره. تآكُل في العمود الفقريّ؟ أم تورّم الكليتين؟ هدرَ قائلاً، بالنبرة الأنيقة لشريط الاعتماد على النفس، «يجب أنْ نفكّر في طريقة للخروج من صندوق توزّعنا المعتاد. الأمر ليس *إما* وضع العمود الفقري *أو* الكليتين، بل وضع *كِلا* الكليتين *وأيضاً* العمود الفقريّ. فكّر خارج الصندوق! كنْ خلّاقاً!»

وهنا، أمامه مباشرة، عبر سكة القطار، في الأسفل بين حقول اللعب، كان هناك وضعٌ آخر للـ*كِلا* و*أو*. كِلا السِمة العاطفيّة الحيويّة لحياة العائلة الأميركيّة المنتشرة بين ممرات ومنحدرات وأجنحة أرض ملعب بألوانها البرّاقة، ومواقع الهبوط الخشبيّة الرقيقة وأيضاً، على امتداد منطقة واسعة من العشب خلف سياج السلاسل، هناك رجلا شرطة ببطنين ضخمين يُدرّبان كلباً ألزاسياً على تمزيق أي مجرم لعين إرباً إذا فكّر في تعكير صفو السلام والرخاء في نيو ميلتن. أحد الشرطيين يُمسك بالكلب من ياقته، والآخر يقف على الطرف القصيّ من المرج مع واقٍ مُبطّن للذراع. الكلب الألزاسيّ ينطلق بسرعة عبر المرج، ويقفز إلى الذراع المُبطّنة ويهزّ رأسه بوحشيّة من جانب إلى جانب، وزمجرته مسموعة عبر الهواء الرطِب الذي تخترقه صرخات الأطفال والقلق الصوتي الذي تعبّر عنه سيارات تعي أمانها. هل يشعر الأطفال بأنهم أكثر أماناً، أم فقط يشعرون بأنهم أكثر أماناً إذا افترضوا أنهم دائماً في خطر؟ استمرت عائلة بأحجام شخصيات بوتيرو[1] تقضم كعكاً ليّناً جالسة على طاولة نزهة عند المنعطف، في متابعة النظر إلى الشرطيّ الأول يهرع عبر المرج ويحاول أنْ يفصل الكلب الأبزاسي الفتيّ العنيف عن ذراع

1- فرناندو بوتيرو (ولد عام 1932): رسام ونحّات كولومبي. تتميّز الشخصيات التي يرسمها ببدانتها المُفرِطة – المترجم.

زميله. كان الشرطي الثاني حينئذٍ يتخبّط على العشب يحاول أنْ يُقنِع الكلب بأنَّه ليس مجرماً أثيماً بل أحد الأشخاص الطيبين.

كان لدى محل فينو فيريتاس ثلاث عبوات من ميكرز مارك.اشترى باتريك الأنواع الثلاثة لأنه لم يكن يعلم أيّها يُفترَض به أنْ يُبدِّل.

شرحَ قائلاً للبائع «الأمان أفضل من الندم»

قال البائع بحماسة جعلتْ باتريك يقفز عائداً إلى موقف السيارات، «يُستحسَن أنْ تصدِّق هذا»

كان قد بلغ المرحلة التالية من السُكر. أصبح أشدّ نضحاً للعَرَق، وحُزناً، وأبطأ حركة. كان في حاجة إلى *معاً* إلى مشروب آخر *وأيضاً* إلى مقدار كبير من القهوة، لكي يتمكَّن من التوقف عند محلي والتر وبيث، أو في الواقع في أي مكان. ويمكن أنْ يعترف بأنّه كان في الحقيقة متيقّناً من أنَّ أصغر زجاجات ميكرز مارك ليست التي ينبغي استبدالها. لم يتمكّن من مقاومة شراء زجاجة الطفل لكي يُكمِل المجموعة. دينغ دينغ دينغ. أزال غطاء الختم الأحمر ورفع سدادة الزجاجة. وبينما البوربون يتسلل إلى بلعومه، تخيَّلَ شعاعاً من اللهب يتحطَّم مخترقاً طوابق البناء وأسقفه، ناشراً النيران والحطام. كم هذا مُريح.

اتّبع محل بيع القهوة شِعاره الذي يُثير الجنون، «الأفضل أنْ تتأخر على ألّا تصل أبداً». تجاوز باتريك الدعوة إلى تناول كوب كبير من البلاستيك الشفّاف من فانيلا فرابوتشينو مع القليل من الكراميل والكثير من الثلج الذي يُسيِّل اللعاب وكريما بطعم الفريز، وطلبَ قهوة سادة. وتابع طريقه على طول مكان التجمّع.

قال بيت، الوحش الأشقر عريض الفَكّين ذو المئزر، وهو يدفع بالقهوة عبر النضُد، «اقضِ يوماً عظيماً!»

كان باتريك راشداً بالقدر الكافي ليتذكَّر عندما بدأ قول عبارة «اقضِ يوماً جميلاً»، وأُصيبَ بالذعر من عبارة «اقضِ يوماً عظيماً» شديدة التضخُّم. إلى أين سينتهي هذا المرح المُتنمِّر الجدير بمدينة فايمار؟ تمتم بصوت منخفض وهو يرسم ابتسامة متكلِّفة وهو يبتعد مجتازاً أرض الغرفة مع إبريقه العملاق، «والآن اقضِ يوماً عميقاً ومُفعماً بالمعنى»، ثم قال بحِدَّة وهو يجلس إلى

إحدى الطاولات، «اقضِ وقتاً مُبارَكاً». ثم همس بلكنة جنوبيّة، «احرصوا جميعكم على أنْ تحصلوا على رعشة جنسيّة كاملة، ودعوها تدوم». لأنك تستحقها. لأنك تُدين بها لنفسك. لأنك شخص فريد من نوعه ومتميِّز. في النهاية، هناك الكثير يمكن أنْ تتوقّعه من كوب من القهوة ومن كعكة ليّنة غير صالحة للأكل. ليت بيت اقتصر على تحقيق الإنجازات الواقعيّة. «احصل على دشٍ بارد» أو «حاول ألّا تُحطِّم سيارتك».

عاد إلى حالة السُكر الملتهبة، المُشوّشة التي كان قد فَقَدَها في موقف السيارات الحارّ. نعم نعم نعم. بعد شرب مقدار بضعة أباريق كبيرة من القهوة لن يوقِفه أحد. في الطرف المقابل من الغرفة، كانت طالبة طب شهوانيّة ترتدي سترة من الصوف المحبوك زهريّة اللون وبنطلون جيمز باهت اللون تعمل على حاسوبها. كان هاتفها النقّال موضوعاً على الحافة الأردواز لموقد هيت أند غلو، بجوار جهاز شخصي للاستماع إلى الموسيقى والمشروب المُعقّد. كانت جالسة على كرسيها ورُكبتاها مرفوعتين وساقاها منفرجتين وكأنها أنجبت تواً حاسوبها الخاصّ، وكتاب *The Pathology of Disease* يسحق بعض الملاحظات المتفرّقة على حافة الطاولة. يجب أنْ ينالها، وِفق قاعدة حق الاقتناء. كان جسدها في حالة استرخاء تامّ. حدَّقَ إليها وبادلته النظر بتحديق متوازن وهادئ. ابتسمتْ. كانت مثاليّة بصورة مُخيفة. أشاح ببصره وابتسم بحياء وهو ينظر إلى صابونة ركبته. لم يتحمَّل كونها ودوداً. جعله ذلك يرغب في البكاء. كانت عمليّاً طبيبة، وربما في استطاعتها أنْ تُنقذه تماماً. في أول الأمر سوف يشتاق والده إليه، لكنهما سوف ينسيان أمره. على أي حال، يمكنهما أنْ يأتيا ويُقيما معه. من الواضح أنها شخص ودود ومُحبّ بصورة لا تُصدَّق.

لقد أوقعته الدوّامة الأوديبيّة كورقة نبات ميتة داخل دورانها الإجباريّ، بحاجته على الدوام إلى مواساة جديدة. بعض اللغات تفصل بين فكرتَي الشهوة والحرمان، لكنَّ الإنكليز حشروهما في لفظٍ واحد بعلاقة حميمة عارية: الرغبة. الرغبة في الحبّ. الرغبة في الحب لتهدئة الحرمان من الحبّ. الحرب على الحرمان مما يدفع المرء إلى الرغبة في المزيد. والويسكي لم يكن أفضل في العناية به مما كانت عليه أمّه، أو مما أصبحتْ عليه زوجته، أو مما ستؤول إليه صاحبة السترة الصوفيّة الزهريّة إذا ما قطع أرض الغرفة

نحوها، وخرَّ على رُكبتيه وناشدها أنْ ترحمه. لماذا أراد أنْ يفعل هذا؟ أين هو النسر الآن؟ لِمَ لا يُسجّل بهدوء الشعور بالانجذاب ويستوعبه على شكل حس بحالته الذهنيّة الحاليّة، أو أكثر من ذلك، على شكل الفكرة البسيطة التي هي أنكَ حيّ؟ لماذا يندفع بسذاجة نحو مواد أفكاره، في حين أنَّ في استطاعته أنْ يبقى عند منبعها؟ أغمضَ عينيه ونعسَ وهو على كرسيه.

إذن، ها هو وسط روعة العالم الداخليّ، لم يعُد يُلاحق السترات الصوفيّة الزهريّة وزجاجات بلون الكهرمان، بل يراقب أفكاراً تنفتح كعدد كبير من المراوح في غرفة مزدحمة. لم يعُد يقفز إلى مناظر مرسومة، بل يُلاحظ النقر السريع، يلاحظ الحرارة، يلاحظ أنَّ الثمالة تُضفي هيمنة معيَّنة على صور في عقله اللفظيّ المُهيمن أصلاً، يلاحظ أنَّ النتيجة التي يبحث عنها ليست فقدان الوعي والرعشة الجنسية، بل المعرفة والبصيرة الثاقبة. والمشكلة كانت أنه حتى عندما يتغيَّر موضوع السعي، فإنَّ ألم السعي يبقى. وجد نفسه يهرع نحو فراغ ولا يهرع هَرَباً منه. أمرٌ جلل. وفي الختام أصبح أفضل حالاً وهو يُهرول خلفَ سراب حلاوة نكاح حامٍ. فتحَ عينيه. كانت قد رحلتْ. رغبة في كلا الاتّجاهين. اتجاهات أوهام في كل حال. كونٌ من الرغبة. كآبة أبديّة.

الكرسي يصرّ. الوقت متأخر. العائلة. الشاي. حاول ألّا تفكّر. فكّر: لا تفكّر. جنون. دينغ دينغ دينغ. التحكُّم في التجوال، لا يمكن التحكُّم. أرجوكَ كفى تفكيراً. مَنْ الذي يسأل؟ ومَنْ المسئول؟

عندما اقتربَ من المنزل، كان الآخرون قد انتظموا حول سيارة نانسي ضمن لوحة من التأنيب والغضب.

قال، متسائلاً ماذا سيقول إذا سأله أحدهم، «لن تصدّقوا ماذا حدث لي في نيو ميلتن»

قالتْ نانسي «كدنا نغادر من دونك. إنَّ بيث لا تطيق الذين يتأخرون؛ لقد خرجوا تواً من لائحة ضيوفها»

قال باتريك «فكرة مائعة»، ثم صحَّح كلامه، «أعني فكرة الاتّزان[1]».

1- المقصود هنا الخلط بين لفظيّ كلمتَي slobbering و sobering المتقاربتين في اللفظ - المترجم.

والكلمتان لم تُسمعا فوق ضجيج سحق حصى الدرب وصفع الأبواب. صعد إلى مقعد سيارة نانسي الخلفيّ واسترخى إلى جوار توماس، وتمنّى لو أنّه جلب زجاجة ميكرز مارك الخاصّة بالأطفال لكي تسلّيه في أثناء شرب الشاي. وخلال الرحلة أغفى سطحيّاً إلى أنْ شعر بأنَّ السيارة أبطأتْ سرعتها ومن ثم توقّفتْ. عندما ترجّلَ وجد نفسه مُحاطاً بغابة ممتدة. وانتشرت تلال بيركشير في كل اتّجاه، كانتفاخ كبير في محيط أخضر وأصفر، وسفينة والتر وبيث الخشبيّة البيضاء تعلو أقرب موجة. وشعر في وقتٍ واحد بدوار البحر والخوف من اليابسة.

تمتم «شيء لا يُصدَّق»

قالتْ نانسي «أعلم. إنهم يمتلكون المشهد كلّه»

ظهرت حفلة الشاي لباتريك من مسافة متوسطة غير واضحة. في لحظةٍ شعر كأنما تغلّفه طبقة صقيلة شبيهة بحوض ماء يظهر على شاشة التلفزيون، وفي اللحظة التالية بأنّه يغرق. كانت هناك خادمات بزيّ رسمي ينتعلن أحذية بيضاء تُسبب ألماً في العيون. وساق إسبانيّ ضئيل الحجم. وشاي مُثلَّج مُحلّى مع القرفة بُنيّ اللون. وثرثرة جادّة بارك. وأناسٌ يضحكون حول شيءٍ قاله هنري كيسنجر على مائدة العشاء في يوم الخميس.

ثم بدأتْ جولة الحديقة. تقدّمهم والتر، أحياناً كان يُفلِتْ ذراعه من ذراع نانسي لكي يبتر بروزاً وقحاً لنبات بمقصّ يحمله بيده ذات بقفّاز من الجلد السويديّ. وحتماً ما كان ليقوم بأي أعمال بستنة لو لم تكن قد أُنجِزَتْ أصلاً. كانت صِلَته بالبستنة كصِلة عمدة بلدة بتطوير مسكن حين يقصّ فيه شريط التدشين. وجاءت بيث تتبعها ميري والطفلَين. كانت متواضعة باستمرار بشأن الحديقة وأحياناً تعبِّر عن عدم رضاها بكل وضوح. وعندما وصلتْ إلى أيلٍ مُشذَّب يقفُ على حافة مسكب من الأزهار، قالتْ، «كم أكرهه! يُشبه الكنغر. إنني أرشّه بالخلّ لعلّه يموت. إنَّ المناخ هنا فظيع: إننا نغرق في الثلوج حتى خصورنا حتى منتصف شعر أيار، وبعد مرور أسبوعين نُصبح كأننا نعيش في فيتنام»

سار باتريك بخُطى بطيئة خلف باقي حضور الحفلة، مُحاولاً أنْ يتظاهر بأنّه في حالة من النشوة من فن البستنة، يميل لكي يُحدِّق من دون أنْ يرى

زهرة بلا اسم، آملاً في أنْ يبدو أشبه بظلّ أندرو مارفل[1] وليس سكيراً مُبتذلًا يخاف أنْ يتورّط في حديث. وتحول المرج الشاسع إلى متاهة صغيرة، وحديقة حيوان مُشذَّبة (استُثنيَ منها الأيل الملعون) وأخيراً بستان ليمون.

قال توماس «انظر، بابا! *Sanglier* (خنزير برّيّ)»، مُشيراً إلى تمثال خنزير برّي كبير الخطم مُجعّد الشَعر من البرونز، بدتْ قوائمه من الرقّة بحيث تعجز عن حمل ثقل بطنه المُتدلّي ورأسه الضخم ذي النابَين.

قال باتريك «نعم، حبيبي»

لطالما كان الخنزير البرّي فرنسيّاً بالنسبة إلى توماس أيضاً وكان شديد الحزن لأنه فرنسيّ بالنسبة إلى توماس أيضاً. كيف استطاع أنْ يحفظ الكلمة لأكثر من عام؟ أكان يُفكِّر في الخنزير البرّي في سان-نازير وهو يتنقَّل عبر الحديقة ليأكل ثمار التين الساقطة، أم يتنشَّق بين أشجار الكرمة ليلاً، بحثاً عن العنب الناضج؟ كلا، لم يكن يفعل ذلك. كانت *Sanglier* مجرّد كلمة تصِفُ الحيوان في التمثال. وكان قد أدار ظهره للخنزير وانطلق يركض في بستان شجر الليمون مُتظاهراً بأنّه طائرة. كان قلب باتريك الجريح ملكاً خاصّاً له، وحتى هذا كان خاوياً. لم يعد يشعر بحنين مؤلم إلى سان-نازير؛ إنها خسارة بيَّنَتْ الفشل الحقيقيّ: أي أنه لا يستطيع أنْ يكون الأب الذي أراد أنْ يكون، الرجل الذي سما بفوضى نَسَبَه وقدَّم لولديه حبّاً بلا شغف. صنعه مما اعتبره المنطقة الأولى، حيث مُقدَّر للأب أنْ يدفع ابنه إلى اختبار أشدّ ما كره في حياته، لكنّه ما زال عالقاً في المنطقة الثانيّة، حيثُ أعماه التفادي المؤلِم للمنطقة الأولى وجعله يرتكب أخطاءً جديدة. وفي المنطقة الثانية كان العطاء قائماً على أساس ما افتقر إليه العاطي. لا شيء كان أشد استنزافاً من هذا الحماس المُعوَّض بقوة وحفَّزه العجز. وحلُمَ بالمنطقة الثالثة. شعر بأنَّها موجودة، فوق التلّ، كشائعة وجود وادٍ خصيب. ربما فوضاه الحاليّة الشاملة هي الرفض الختاميّ لطريقة واهنة للوجود. يجب أنْ يتوقف عن شرب الخمر، ليس غداً ولكن في مساء هذا اليوم عندما تسنح الفرصة التالية.

1- أندرو مارفل (1621 – 1678): شاعر إنكليزيّ وكاتب ساخر. كان يُهاجم الحكومة بكتاباته – المترجم.

استمرَّ باتريك في التخلُّف عن الآخرين متحمّساً بصورة غريبة بهذا القبس من الأمل. واستمرَّتْ الجولة. كان تمثال من الحجر لدايانا[1] قائماً عند الطرف القصيّ من البستان، تصطاد إلى الأبد الخنزير البرونزيّ عند الركن المُقابِل. وخلف المنزل، تلوّى درب ليِّن تكسوه قطع الخشب خلال الغابة المُحسّنة. وارتعشتْ بقعٌ من الضوء على الأرض المُجرّدة بين الجذوع الضخمة لأشجار السنديان والزان. وبعد الغابة مرّوا بحظيرة طائرات حيث كانت مراوح ضخمة، تستهلك من الكهرباء ما يكفي لتغذية قرية صغيرة، تُحافِظ على أزهار الحب دافئة خلال فصل الشتاء. وإلى جوار حظيرة الطائرات كان هناك خن للدجاج أكبر بصورة ما من شقة باتريك في لندن، ونظيف بصورة غريبة حتى لم يسعه إلّا أنْ يتساءل ما إذا كانت دجاجات مُحسَنة جينيّاً قد هُجِّنَتْ بالخيار لمنعها من التبرّز. مشتْ بيث فوق النشارة حديثة العهد، تحت مصابيح التدفئة الحمراء، واكتشفتْ ثلاث بيضات مُنقّطة باللون البُنّيّ في صناديق التفريخ. ولا بُدَّ أنَّ كل طبق من البيض المخفوق كلّفها بضعة آلاف من الدولارات. والحقيقة هي أنّه كان يكره فاحشي الثراء، خاصة وأنّه لن يُصبح واحداً منهم. كانوا غالباً مجرد نقطة في بحر ممتلكاتهم. ومن دون الأثر التحريريّ لعبارة «تحمُّل نفقات»، فإنَّ رغباتهم كانت تهيم على وجهها كمصادر إزعاج لا تتوقف، لا تلين، ومتقلِّبة في وقتٍ واحد. قد تخلع مظهر الكرم على أنواع الخسّة العاطفيّة كلها – «استعيروا المنزل الرابع الذي لم نستخدمه. نحن لن نكون موجودين، لكنَّ كارمن وألفونسو سوف يعملان على خدمتكم. كلا، حقاً، ليس في هذا أي مشكلة، ثم إنه حان الوقت لكي نحصل على خدمة مقابل نقودنا التي ندفعها لهذين الاثنين. إننا ندفع لهما مبلغاً كبيراً ولا يقومان مقابله بأي عمل»

قالتْ نانسي، التي كانت منزعجة بكل وضوح من سوء أداء باتريك كضيف يُبدي إعجابه، «بمَ تُتمتم؟»

قال باتريك «أوه، لا شيء»

حثّته قائلة «أليس خنّ الدجاج هذا رائعاً؟»

1- ديانا: إلهة الصيد والحيوانات في الميثولوجيا الرومانيّة – المترجم.

قال باتريك، مُدرِكاً بسرعة واجباته الاجتماعيّة، «إنَّ العيش هنا امتياز»

بعد انتهاء الجولة في الحديقة، مع هديه من البيض، انتهتْ أيضاً مدّة الزيارة. وفي طريق العودة إلى منزل نانسي، واجه باتريك قراره بألّا يستمر في معاقرة الخمر. وكان شيئاً حَسَناً أنْ يُقرِّر ألّا يشرب في حين أنّ ليس أمامه خَيار، ولكن في غضون بضع دقائق سوف يتمكّن من الذهاب إلى مخزن بَكْ لبيع الكحول. ماذا يهمّ إذا باشر التوقف غداً؟ كان يعلم أنّه بصورة ما يهمّ إلى أقصى مدى. إذا استمرَّ الآن فسوف يشعر بالضياع في صباح الغد وسوف يبدأ النهار بأكمله بإرثٍ سامّ. وزيادة على ذلك، أراد أنْ يُغذّي الأمل الواهي الذي تولّد عنده وهو في الحديقة. إذا توقّفَ غداً فسوف يكون ذلك من فرط الإحساس بالخزيّ، وبالسوء ومن انعدام الدافع الموثوق. ومن ناحية أخرى، ما هي المنطقة الثالثة؟ كان عقله متوقفاً من شدة التوتّر: لم يتمكّن من إعادة بناء الأمل.

في مكتبة نانسي، حدَّق من النافذة، شاعراً بأنَّ زجاجة البوربون التي استبدلها على صينيّة المشروبات تبادله التحديق. سيكون شيئاً أشدّ أناقة بكثير أنْ يُخفِض المستوى الذي بدأتْ منه الزجاجة الفارغة. وحالما أوشك أنْ يستسلم، ولجَتْ نانسي الغرفة وغاصت مع تنهيد مسرحيّ في الأريكة المقابلة له.

قالتْ «أشعر بأننا لم نتحدث حقاً عن إلينور. أعتقد أنني أشعر بالرعب من سؤالك لأنني صُعقتُ بعُنف عندما رأيتها آخر مرَّة»

«أسمعتِ عن حادث السقوط؟»

«كلا!»

«لقد كسرتْ وركها وحُمِلَتْ إلى المستشفى. وعندما ذهبتُ لأزورها طلبَتْ مني أنْ أقتلها. ولم تكف عن تكرار ذلك الطلب منذ ذلك الحين. وكلما ذهبت...»

قالتْ نانسي «أوه، كفى، لا أعتقد حقّاً أنَّ هذا مُنصِف! أعني، إنها سِمة إغريقيّة أكثر مما ينبغي. يجب أنْ تكون هناك آلهة مُنتقمة لمعاقبة الأطفال الذين يقتلون آباءهم»

قال باتريك «نعم، ديدان حقيرة»

قالتْ نانسي، وهي تدور حول نفسها على الكرسيّ، «أوه، يا الله، الأمر غاية في التعقيد. أعني، أعلم أنني لم أكنْ لأرغب في الاستمرار في العيش لو أنني أعجز عن الكلام، أو الحركة، أو القراءة، أو مشاهدة الأفلام السينمائيّة»

«ليس لديّ أي شك في أنَّ مُساعدتها على الموت هو أقوى تعبير عن الحب يمكن تقديمه لها»

«حسن، لا أريد أنْ تُسيء فهمي، ولكنْ ربما علينا أنْ نستأجر سيارة إسعاف ونحملها إلى هولندا»

قال باتريك «إنَّ الوصول إلى هولندا بحدّ ذاته سوف يؤدي إلى قتلها»

«أوه، أرجوك، دعنا من الكلام عن هذا أكثر من ذلك. إنني أجده مُزعجاً جداً. لن أتحمّل حقاً أنْ أنتهي نهاية مماثلة»

سألها باتريك «أترغبين في مشروب؟»

قالتْ نانسي «أوه، كلا. أنا لا أشرب. ألم تكن تعلم هذا؟ لقد شهدتُ دمار حياة والدي بسبب الخمر. ولكن تفضّل واشرب أنت إنْ كنتَ ترغب»

تخيَّلَ باتريك أحد ولديه يقول، «لقد شهدتُ دمار حياة والدي بسبب الخمر». ولاحظَ أنّه يميل إلى الأمام وهو على كرسيه.

قال وهو يستند بظهره إلى الخلف ويُغمضُ عينيه، «قد أُساعد نفسي إذا لم أشرب»

-15-

كادتْ ميري لا تُصدّق أنَّ باتريك وروبرت ينزلان في غرفة فندقٍ على الطريق العامة عارية إلّا من سجادة بالية وأنّها هي وتوماس ينزلان في أخرى، وزجاجها البلاستيكيّ مكسوّ بغلافٍ بلاستيكيّ، ومقاعد المراحيض مُعقَّمة بأحزمة حماية، وهناك آلة في الرواق ذكّرتها رُغماً عنها طريقةُ إنتاجها التي تُثير القشعريرة في الجسم بحالةِ زواجها. كان في استطاعتها تحمُّل الهمهمة المتواصلة للطريق العامة وهي تشتد في الصباح الباكر. كانت بمثابة الموسيقى التصويريّة للتدفُّق السلس والسريع لقلقها. وعند حوالي الساعة الرابعة صباحاً بدأتْ عِبارةٌ تتكُّ بانتظام كبندول الإيقاع كانت من فرط التعب بحيث لم تتمكن من مدّ يدها لتوقِفها: «حالة متداخلة – حالة داخليّة، حالة متداخلة – حالة داخليّة». كان الأرق هو الأساس المولِّد لتلك الأنغام الساخرة؛ آلة الزواج المُنتجِة للثلج؛ حالة متداخلة–داخليّة. كانت كافية لدفع المرء نحو الجنون. أم هل كانت كافية لمنعه من الاندفاع نحو الجنون؟ إقامة صِلات. لكنها لا تُصدِّق أنَّ عائلتها تنزف المزيد من الأموال لكي تقضي وقتاً مُريعاً في أحد المواقع الأميركيّة النائية المؤقّتة. الطريق طويلة جداً والأماكن قليلة جداً، وكثير جداً من الودّ والقليل جداً من الاتّصال الحميم، الكثير جداً من النكهة والقليل جداً من المذاق. اشتاقتْ إلى إعادة الأطفال إلى لندن، إلى إبعادهم عن زحام أميركا الخفيف والعودة إلى زحام حياتهم العاديّة.

لقد حافظ باتريك على تراث إبعادهم عن مكانٍ ممتع فترة طويلة قبل انتهاء العطل. العام الفائت ذهبوا إلى سان–نازير، وهذا العام إلى جزيرة هنري. طبعاً هي ابتهجتْ لأنه توقف عن شرب الخمر، لكنَّ الأثر خلال الأسبوع الأول جعله يتصرَّف كباقي الناس عندما يكونون في حالة متردّية

من السُكر: عنيفين، سريعي الغضب، يائسين. كل البثور ظهرت في الحال، أطباق الكبدة تفيض بما فيها. لقد كان هنري حتماً كابوساً، ولكن أيضاً تربطه به شبه صِلة قرابة، وفوق ذلك، هو مضيف يوفّر أرض ملعب للأطفال، لها مرفأها الخاص وشواطئها وقواربها الشراعيّة وقوارب بمحرّكات ومضخّة البترول الخاصة مما أثار ذهول توماس المُستمرّ.

«أعني، إنه شيء لا يُصدَّق، هنري يمتلك مضخة بترول خاصّة به!»، قالها توماس مراتٍ عِدَّة في النهار، فاتحاً راحتَي يديه وهازّاً رأسه. وكان روبرت في حالة هوس بإجراء إحصاء مساحات الأراضي وغرف النوم مُقدِّراً الحجم الضخم للمساحة التي يمتلكها هنري، لكنَّ كلا الصبيَّين كانا يقضيان وقتاً رائعاً باندفاعهما لفترات قصيرة في الماء المُثلِج وخروجهما بقوارب هنري السريعة وركوب الموجة التي تُثيرها خلفها قوارب النقل التي تخدم الجُزُر العامة.

والذي لم يسُر سيراً حَسَناً كان كل شيء آخر. وفي أثناء تناول وجبة الغداء الأولى طلبَ هنري من ميري أنْ تُبعِد توماس عن غرفة الطعام لأنَّ توماس قام بمُحاكاة ضجيج مضخّة البترول في أثناء كلام هنري عن الضرورة الأخلاقيّة لزيادة مقدرة إسرائيل على توجيه ضربة نوويّة.

كان هنري يقول بمرح «إنَّ السوريين يتأهّبون الآن ولهم الحق في أنْ يكونوا...»

قال توماس «بففففف، بففففف...»

قال هنري «أنا متأكّد من أنكِ تعرفين عبارة «الأطفال يجب أنْ يُشَاهَدوا لا أنْ يُسمَعوا»»

قالتْ ميري «ومَنْ لا يعرفها؟»

قال هنري، مُشرئبّاً بعنقه من ياقة قميصه لكي يُشدد على عبارته البارعة، «لطالما رأيتُ أنها متطرفة في ليبراليتها»

قالتْ ميري، وقد تولّاها الغضب فجأة «وهل تفضِّل ألّا تراه أيضاً؟». ورفعتْ توماس وحملته وخرجتْ من الغرفة على عَجَل، واستأنفَ هنري تدفّق حديثه الإفرادي الذي لم ينقطع بعد مغادرتها.

«بعد أنْ أتمَّ الأدميرال ياماموتشو هجومه على بيرل هاربر، كان يتحلّى بما يكفي من الحِكمة لكي يشعر بقلق الترقُّب وليس بالانتصار. قال «أيّها السادة، لقد أيقظنا تنيناً نائماً». وهذه الفكرة هي التي ينبغي أنْ تكون لها الأولويّة في عقول إرهابيي العالم والدول التي ترعاهم. وسوف ترسل إسرائيل بما لديها من ترسانةِ أسلحةٍ نوويّة تكتيكيّة، وليس فقط درعٍ نوويّ رادع، رسالةً واضحة إلى المنطقة مفادها أنها تقفُ جنباً إلى جنب...»

اندفعَتْ إلى المرج متخيّلة هنري كأحد تلك البالونات غير المربوطة التي كان توماس يحبّ أنْ يُراقبها وهي تدور مُفرِغة غازها في أرجاء المكان إلى أنْ يسقط رخواً على الأرض في حالة من الاستنزاف المُجعّد.

قال توماس، وهو يُدير يده ضمن دوائر مُحكمة، «إنني أُحرِّر البالون، ماما»

قالتْ ميري «كيف عرفتَ أنني أفكّر في البالون؟»

قال توماس، ورأسه مائل جانباً ويبتسم، «كنتُ أعرف هذا»

كانت ميري كثيراً ما تمرّ بتلك اللحظات غير المحدودة، وأصبحت تتعود عليها، لكنها لم تتمكن تماماً من التخلُّص من دهشتها من مدّى دقّتها.

ابتعد كلاهما في اتفاقٍ صامت عن المنزل القائم على الشاطئ الصخريّ الصغير عند أسفل المرج. جلستْ ميري على بقعة صغيرة من الرمال البيضاء الفضيّة بين صخورٍ تكتنفها أعشاب بحر سوداء عليها بذور.

سأل توماس، «هل ستعتنين بي مدّة طويلة؟»

«نعم، حبيبي»

«إلى أنْ أبلغ الرابعة عشرة؟»

قالتْ «قدر ما تشاء»، ثم أضافتْ «قدر استطاعتي...». وكان قد سألها قبل بضعة أيام إنْ كانت ستموت فقالتْ «نعم، ولكن ليس قبل مرور وقت طويل، كما آمل». وقد أزال اكتشافُه كونها فانيةً الغبارَ الذي كان يُخفي هذا التهديد داخل عقلها وجعلة يُحدِّق بشراسة في وجهها من جديد وعاد رعبه المتأصِّل كله. كانت تمقت الموت لأنه يجعلها تُخيِّب أمله. لِمَ لا يستطيع أنْ يلعب مدة

أطول؟ لِمَ لا يستطيع أنْ يشعر بالأمان مدة أطول قليلاً؟ كانت قد استعادتْ توازنها إلى حدٍ ما، وعَزَتْ اهتمامه بالموت إلى فترة انتقاله من الطفولة الأولى إلى الطفولة الثانية، ولكنَّها تساءلتْ أيضاً إنْ كان ضيق صدر باتريك من فترة الانتقال تلك يجعلها تحدث قبل أوانها. كان زوبرت قد مرَّ بالأزمة ذاتها عندما كان في الخامسة؛ أما توماس فمرَّ بها وهو لم يتجاوز الثالثة.

جلسَ توماس على حجرها وأخذ يمصّ إبهامه، ويُمرِّر إصبعه على رقعة دميته الرقيقة باليد الأخرى. كان قد اقتربَ كثيراً من النوم. استرختْ ميري مُستندة إلى عقبيّ قدميها ولزمتْ الهدوء. كان في استطاعتها أنْ تقوم بأشياء من أجل توماس لا تقوم بها من أجل نفسها أو من أجل أي شخص آخر، أو حتى من أجل روبرت. كان توماس في حاجة إليها لتحميه، وهذا أمر شديد الوضوح، لكنها كانت في حاجة إليه من أجل حسّ الفضيلة. عندما تشعر بالكآبة، كان يجعلها ترغب في أنْ تكون مرحة، وعندما تكون مُستنزفة يدفعها إلى اكتشاف منابع جديدة للطاقة، وعندما تكون ساخطة تفتش عن صبرٍ أعمق. جلستْ هناك ساكنة كالصخور المحيطة بها وانتظرت ريثما يغفو.

مهما ارتفعتْ حرارة النهار كان البحر هنا أشبه ببرّاد يُرسِل القليل من النسيم المريب. كانت تحب الإحساس بأنَّ ولاية مين في الأساس لا تحب الضيوف، وأنّها سرعان ما تتخلَّص من زوّارها الصيفيين، ككلبٍ على الشاطئ. وخلال فترة قصيرة بين فصليّ شتاء كانت تلمع الأضواء الشماليّة بنهم وتنعكس على البحر. تخيّلَتْها تمتد كرسْمٍ لقديس نحيل من تنفيذ إل غريكو. هذه الفكرة أنعشتْ رغبتها في الرسم من جديد. رغبت في ممارسة الجنس من جديد. أرادتْ أنْ تفكِّر من جديد، إنْ كانت ستبدأ بوضع لوائح، لكنها بصورة ما فَقَدَتْ استقلالها. كان وجودها ملتحماً بوجود توماس، كأنّما سُرِقَتْ ملابسها بينما كانت تسبح، الآن لا تعرف كيف تخرج من هذه البركة الجميلة المُضجِرة.

بعد أنْ نام توماس مدة خمس دقائق تمكّنت من الانتقال إلى وضعيّة مُريحة أكثر. جلستْ مُستندة إلى المقعد في أسفل المرج ووضعته بشكلٍ طوليّ بين ساقيها، وكأنه وُلِدَ تواً، وكأنه في وضعيّة مقلوبة. استخدمَتْ دميته كمِظلَّة لحمايته من أشعة الشمس، واستندتْ إلى ظهرها وأغمضَتْ

عينيها وحاولتْ أنْ تستريح، لكنَّ أفكارها عادت بكثافة إلى أسلوب كيتل النائي في الأمومة والدور الذي لعبته في التعريف بحضورها المتعصِّب. فكَّرتْ في مربّيتها، مربيتها الرقيقة، المتفانية، التي كانت تحلّ المشكلات الصغيرة واحدة بعد أخرى، وتسكنُ عالماً من الرعاية بلا جنس أو فن أو مشروبات مُسكِرة أو تبادل حديث، فقط الرقّة العمليّة والطعام. طبعاً رعاية طفل كانت تُشعِرها كأنها المربّية التي اعتنتْ بها عندما كانت طفلة. وطبعاً جعلها ذلك تُقرِّر أنْ تصبح خِلاف كيتل التي فشِلَتْ في رعايتها. كان اكتساب شخصيّة مُميَّزة بالنسبة إليها يبدو في وقتٍ واحد سخيفاً وإلزامياً: لقد بقيتْ سجينة فخَّها حتى وهي ترى من خلالها. لقد تشوّهتْ أفكارها عن الأمهات والرعاية الأموميّة، وتبعَتْ خيطَ عقدةٍ لم يستطعنَ حلّها.

لسببٍ ما، جعلها جلوسها على شاطئ ذلك البحر الأسود بنسيمه البارد قليلاً تشعر بأنَّ في استطاعتها أنْ ترى كل شيء بصفاء تامّ. كان توماس نائماً ولا أحد آخر يعرف بالضبط مكان وجودها. للمرة الأولى منذ أشهر لا أحد كان يعرف كيف يطالبها بالقيام بعملٍ ما وبذلك الغياب المُفاجئ للضغط كان في استطاعتها أنْ تُحبِّذ جو العائلة الاستوائيّ للاستقلاليّة غير المتعمَّدة. فإلينور أشبه بطفلة مريضة تناشد باتريك أنْ «يوقِف الألم»؛ وتوماس كحكَم مُباراة يُباعِد ما بين والديه إذا ما حاول باتريك أنْ يقترب من جَسَدَها اللامباليّ؛ وروبرت يحتفظ بمفكرته، ويبقى بعيداً. لقد كانت في عين العاصفة، وحاجتها إلى أنْ يكون هناك مَنْ يحتاج إليها يجعلها تظهر بمظهر المُكتفية ذاتيّاً أكثر مما هي عليه فعلاً. وعلى أرض الواقع، لم تستطع أنْ تعيش على مجد تلبية مطالب الآخرين غير المعقولة. كان شغفها بالتضحية بذاتها يجعلها أحياناً تشعر كأنها سجينة تحفرُ بصورةٍ تدعو إلى السخرية الخندقَ الذي ستُعدَم فوقه. وكان باتريك في حاجة إلى إشعال ثورة ضد طغيان الروح الاستقلاليّة، أما هي فكانت في حاجة إلى ثورة ضد طغيان التضحية بالذات. وعلى الرغم من أنّها كانت مُستَعمَرَة ومُحتكَرَة، فإنَّ الاحتكام إلى غرائزها لم يعمل إلّا على الغوص بها أكثر داخل فخّها. والاحتجاجات التي كان متوقَّعاً أنْ تصدر عن الطفل المُنافِس لروبرت صدرتْ بدل ذلك عن باتريك غير المتوازن نسبيّاً. ومن سوء الحظ أنّها شعرتْ بالاشمئزاز لأنها لم تشعر إلّا بإشارة

ضعيفة لحاجة باتريك إليها في وقتٍ كان لديه توماس بالإضافة إلى إلينور ليُثيرا حسّه بالعجز. واتّهمها باتريك بتدليل توماس، ولكنْ إذا كان توماس على استعداد للاستغناء عن بعض رفاهية الأم، فعلى باتريك أنْ يكون أكثر استعداداً في هذا المجال. ربما هو لم يعُد ناضجاً بل أصبحَ عفناً. ربما أُصيبَ بغرغرينا نفسيّة والرائحة التي نفّرتها كانت رائحة الفساد.

في تلك الأمسية اعتذرتْ عن حضور العشاء ومكثَتْ مع توماس، وتركتْ باتريك وروبرت لمواجهة التنين المهتاج لحديث مائدة هنري وحدهما. وحتى قبل العشاء، وبينما هي جالسة على الوسائد ذات اللون الزهري الباهت لمقعد النافذة، وزجاج نافذة المشربيّة من حولها ينزفُ دماً ويتلألأ ضياء المساء المنعكس على سطح البحر، عندما يتصرف الأطفال بشكلٍ جميل ويبتسم باتريك وهو يشرب كأساً من المياه المعدنيّة، علِمَتْ أنها لا تستطيع أنْ تتحمّل الإصغاء أكثر من خمس دقائق إلى خطاب هنري إلى الأمّة. كان يقوم بجولة طويلة من السياسة الخارجيّة، يتوجّه شرقاً بدءاً من إسرائيل، خلال البلدان الشرقيّة، وفي طريقه إلى الجمهوريات الشعبيّة. وانتابها شعور مخيف بأنّه تعمّدَ الذهاب إلى كوريا الشماليّة قبل موعد النوم. ولاشك في أنَّ لديه خطّة بارعة لضرب كوريا الشماليّة بالسلاح النووي قبل أنْ تقوم هذه الأخيرة بضرب كوريا الجنوبيّة واليابان بالسلاح نفسه. ولم ترغب في سماع حدوث ذلك.

بعد أنْ أخذ توماس حمّامه، أراد أنْ يرتقي إلى سريرها ولم يُطاوعها قلبها أنْ ترفض طلبه. انضمّا معاً وجلسا يقرآن قصة «*الريح تهب على أشجار الصفصاف*». استغرقَ توماس في النوم حالما بدأ رات ومول ينجرفان مع مياه النهر بعد قيامهما بنزهتهما. وعندما دخل باتريك الغرفة أدركتْ أنها هي أيضاً أغفتْ والكتاب لا يزال على حجرها ولا تزال تضع نظارتها.

قال باتريك، وهو يلج الغرفة بخطى واسعة وقبضتا يديه المشدودتان لا تزالان تبحثان عن غاية، «كدتُ أتشاجر تواً مع هنري»

سألتْ «أوه يا إلهي، ما الأمر هذه الأمسية؟»

كان باتريك دائماً يقول إنَّ حياتهما الجنسيّة، وأحاديثهما وحياتهما

الاجتماعيّة قد انتهتْ، وأنهما أصبحا مجرد أبوين بيروقراطييَّن. حسن، ها هي ذي، مُحطَّمة واستيقظتْ فوراً، لكنها متأهّبة لخوض حديث حيويّ.

«كوريا الشماليّة»

«كنتُ أعلم هذا»

«أنتِ دائماً تعرفين كل شيء. ولا عَجَبَ أنكِ شعرتِ بأنّ في استطاعتك تفويت العشاء»

كل ما قالت كان خطأً. ومهما فعلَتْ، كان باتريك يشعر بأنه مخذول. وحاولتْ من جديد.

«أعني، أنا فقط انتابني شعور قبل العشاء بأنَّ كوريا الشماليّة سوف تكون التالية»

«هذا ما يعتقد هنري: كوريا الشماليّة هي التالية. يجب أنْ تشكّلوا تآلُفاً»

«هل تجادلتما، أم أنكَ سوف تُضطر إلى مجادلتي بدل ذلك؟»

«لقد اعتمدنا اعتماداً كليّاً على حدوث معجزة ديمقراطيّة بالاتّفاق على عدم الاتّفاق. إنَّ هنري يكره حرية التعبير ولكنْ، نتيجة لهذا جزئيّاً، هو ليس حرّاً في أنْ يقول هذا. واستمرّ في الكلام عن مدى حُسن حظّنا لأننا لم نعِش في بلدٍ يمكن للمرء فيه أنْ يُعدَم رمياً بالرصاص لأنّه يعتنق آراءً خاطئة»

«إنه يريد أنْ يُطلق عليك الرصاص»

«بالضبط»

«عظيم. هذا سيجعل عطلتنا ممتعة أكثر»

«ممتعة أكثر؟ أليس من المُفتَرَض أنْ تستمتعي أصلاً بها لكي تستمتعي أكثر؟»

«أعتقد أنَّ الولدين يستمتعان»

قال باتريك بولاء جامد، «أوه، حسن، هذا أهمّ شيء»، ثم استأنفَ قائلاً، وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً عند أسفل السرير، «لقد نوّهتُ إلى هنري بأنني شعرتُ بأنَّ سياسة الإدارة الحاليّة الخارجيّة تتألَّف من البروز. وأنَّ أميركا هي الدولة الشريرة التي يُديرها رئيس متطرِّف، وتمتلك بضعة آلاف المرات من أسلحة الدمار الشامل أكثر مما في كل الدول الأخرى مُجتمعة، إلى آخره، إلى آخره»

«كيف انتهى هذا الأمر؟». أرادتْ ميري أنْ تحثّه على الاستمرار في الكلام، على إبقاء العِداء سياسيّاً.

«ضحكٌ لا يُصدَّق. الكثير من الأعناق المُشرئبّة. ابتسامات زائفة. ذكّرتني ب«حادث معيَّن لعبَ دوراً لا يُستهان في حياتنا هنا». قلت إنَّ حادث 9/ 11 كان أحد أشدّ الأشياء الصاعقة التي وقعتْ في التاريخ، لكنَّ استغلاله، وسوف أسمّيه 9/ 12، ليس أقل صعقاً على طريقته. والمسار المُحدَّد كان استخدام كلمة «حرب» في اليوم التالي. الحرب هي نشاط يجري بين الدول القوميّة. هي كلمة أمضَتْ الحكومة البريطانيّة ثلاثين عاماً في الحرص على تجنّبها خلال صراعها مع منظمة الجيش الجمهوريّ الأيرلنديّ. لماذا تنسب موقف دولة قوميّة إلى حفنة من المهووسين المجرمين، إلّا إذا كنتَ تنوي أنْ تستغلهم كذريعة للدخول في حرب مع دول قوميّة حقيقيّة؟ قال هنري «أعتقد أنّه امتياز سوف يضيع بمنحِهِ لأي أميركيّ عادي. كانت لدينا حرب علينا أنْ نقنع بها الجمهور الأميركيّ». وهذه هي مشكلة حديثنا - إنَّ اتّهاماتي هي ادّعاءاته، إقناع الجمهور الأميركيّ بحربنا، واختبار أسلحة جديدة، وحثّ المُركَّب العسكريّ-الصناعيّ، واستخدام المال العامّ لتدمير بلدٍ تستفيدُ شركاتٌ أثيرةٌ لدى الحكومة من إعادة إعمارها وما إلى ذلك. وأحبَّ هذا كلّه، لذلك لا يمكن الانتظار منه أنْ يُقدِّم اعتذارات جوفاء»

«كيف كان روبرت؟»

قال باتريك «إنه مُستشار صغير ممتاز. لقد أثبتَ أنَّ كلامه غير مترابط وتلاعبَ ببراعة شديدة مع فكرة «الأبرياء». وسأل هنري إنْ كانت البراءة صِفة أميركيّة حَصراً. ومن جديد، كانت المشكلة هي أنّ الجواب بالنسبة إلى هنري هو حقاً «نعم»، لذلك كان من الصعب التغلّب عليه. إنّه لا يأبه بالمُطالبة بالكثير، ما عدا ما يتعلّق بحريّة التعبير»

«بمَ أجاب روبرت؟»

«أوه، اكتفى بالقول إنَّ من الواضح أنني «درَّبته». ويبدو جليّاً أنّه يرى أننا نعمل كفريق من الجحيم. والشيء الذي أزعجه كان آخر حملة عنيفة شننتُها، وقلتُ فيها إنَّ الأمّة «المتطورة» حقاً، بوصفها نقيضاً لأمّة قويّة فقط،

قد تتخيّل التأثير الذي يُخلّفه اثنين في المائة من سكان العالم يستهلكون خمسين في المائة من موارده، والتأثير الذي يُخلّفه الانقراض السريع لكل أنواع الثقافة غير الأميركيّة وما إلى ذلك. وتماديتُ قليلاً وقلتُ أيضاً إنَّ موت الطبيعة هو الثمن الباهظ الذي ندفعه مقابل إضافة آخر الزخرفات المناسبة على حياة فاحشي الثراء»

قالتْ ميري «من المُذهل أنّه لم يرمنا إلى الخارج»

«لا تقلقي، سأقوم بمحاولة أخرى في الغد. سوف أنال منه في نهاية المطاف. صرتُ أفهم الآن ما الذي يُغضبه. إنَّ السياسة لعبة مُثيرة، لكنَّ المال مُقدَّس»

عرِفَتْ أنَّ باتريك جادّ. كان حسّه المتوتّر متطرفاً إلى درجة أنّه قد يُضطرّ إلى تحطيم أيّ شيء، وهذه المرَّة لن يُحطِّم نفسه.

«هلّا تفضّلتَ وامتنعت عن التسبُّب برمينا إلى الخارج عدة أيام؟ إنني بالكاد انتهيت من حلّ الأمتعة». حاولتْ أنْ تقول هذا بلطف.

قال باتريك «أنتِ مُستقرّة بكل ارتياح مع عشيقك كالمعتاد»

«يا الله، هذا كلام يصدر عن رجل يدّعي أنّه لا يُعاني من الغيرة...»

«أنا لا أعاني من الغيرة، بل من الحنق. إنّه أشدّ عُمقاً. إنَّ الخسارة تُنتِجُ الغضبَ أولاً، وبعد ذلك يأتي حبّ الامتلاك»

قالت ميري، شاعرة بأنها تعرف ما الذي تتحدث عنه، «وقبل الحنق، هناك القلق. على أي حال، أعتقد أنكَ مررتَ بالمراحل الثلاث كلها، حتى وإنْ كانت واحدة في المعتاد هي التي تُهيمن. إنَّ الأمر لا يُشبه التسوُّق، إنكَ لا تختار الحنق»

«سوف تُدهَشين»

«أنا أعلم أنكَ تفضِّل الغضب لأنكَ تعتقد أنّه أقلّ مهانة»

صاح باتريك «أنا لا أفضِّل الغضب، لكنني أحصل عليه في كل الأحوال»

«أعني أنكَ تُفضّله على الانفعالات الأخرى»

أزعجَ صياح باتريك توماس فتقلَّبَ على السرير وتمتمَ بشيء غير مسموع لنفسه.

قال باتريك، بمزيد من الهدوء «أنتِ تنحرفين عن الموضوع. وكالمعتاد لا نستطيع أنْ ننام معاً لأنكِ تتقاسمين السرير مع ابننا صاحب السنوات الثلاث»

تنهّدتْ ميري «نستطيع أنْ ننام معاً. سوف أحرِّكه نحو الحافة»

همسَ باتريك، همساً غير فعّال، «أريد أنْ أضاجع امرأةً، وليس كتلةً تتأوه من الشعور بالذنب والاستسلام»

اعتدل توماس في جلسته دامع العينين.

صاح «كلا، بابا، لا تقُل كلاماً سخيفاً! وأنتِ ماما، كفاكِ إزعاجاً لأبي!»

انهار إلى الخلف على الوسادة واستغرق من جديد في النوم، وقد أنجز عمله. وران الصمت على الغرفة، كان باتريك هو أول مَنْ كَسَرَه.

باشر بالقول «لم أكن أقول كلاماً سخيفاً...»

قالت ميري «أوه، إكراماً لله. لا داعي للفوز بالنقاش معه أيضاً. ألا تستطيع أنْ تكتفي بسماع ما يقول؟ إنه يريد منّا أنْ نكفّ عن المُجادلة، ليس لكي تبدأ بمجادلته»

قال باتريك فجأة بأسلوبه المُملّ، «حاضر، سوف أذهب لأنام في سريره، على الرغم من أنني لا أعلم لماذا أقول «سريره». وقد أكفّ أيضاً عن تسميته سريري»

«لستَ مُضطراً إلى ذلك...»

قال باتريك «كلا – لستُ مُضطراً»، وخرج من الغرفة.

لقد تخلّى عنها بسرعة، لكنّه فشلَ في نقل حسّه بالحرمان إليها. وشعرتْ بالارتياح، وبالغضب، وبالذنب، وبالحزن. كان الشكل الفنّي لتراكُم سُحُب حياتها العاطفيّة هادراً وسريعاً بحيث لم يكن في وسعها إلّا أنْ تُبدي إعجابها، وأحياناً حَسَدها، من الذين كانوا «بعيدين عن منال مشاعرهم». كيف نجحوا في فعل ذلك؟ في الوقت الحالي لا تمانع في أنْ تعرف.

كان في غرفة نومها مصطبة مُقامة فوق مشربيّة غرفة الجلوس حيث كانت تجلس قبل العشاء. تقدّمتْ من النوافذ ذات الطراز الفرنسيّ وتخيّلتْ نفسها تفتحها واسعاً، متأمّلة النجوم، في لحظة تجلٍ.

لن يحدث ما أراد. كان جسدها قد بدأ رحلة انحداره نحو النوم. ألقَتْ نظرة أخيرة من النافذة وتمنّتْ لو لم تفعل. كان هناك خط رفيع من السحب يعبر من أمام وجه القمر بصورة ذكَّرتها بمشهدٍ في فيلم «*الكلب الأندلسيّ*»[1] بين الصورة نفسها وشفرة موسى تشقّ مُقلة عين. كانت رؤياها هي نهاية الرؤية. هل بَهَرَها شيء لم تره، أم بهرتها رؤيةُ شيءٍ لم تتحمَّل النظر إليه؟ كانت مُرهَقَة ولم تتمكّن من تمييز أيّ شيء. كانت أفكارها مجرّد تهديدات، والنوم مجرد بقايا يقظة.

لجأتْ إلى السرير وتدثّرتْ بطبقة رقيقة من الراحة المُحطَّمة. بعد ذلك سرعان ما أزعجها سماع باتريك يتسلّل عائداً خِلسة إلى الغرفة. شعرتْ به يُحدِّقُ إليها ليرى إنْ كانت يقِظة. إنها لا تفشي شيئاً. أخيراً استقرَّ على الجانب المُقابل لتوماس الذي كان مُستلقياً في الوسط كاستقرار سيف بين غير المتزوجين في العصر الوسيط. لِمَ لا تستطيع أنْ تمدّ يدها نحو باتريك؟ لِمَ لا تستطيع أنْ تصنع عشّاً من الوسائد من أجل توماس على أحد جانبي السرير وتنفرد مع باتريك على الجانب المقابل؟ لم يكن لديها صَدَقَة تمنحها لباتريك. في الحقيقة، للمرة الأولى في زواجها استطاعتْ أنْ تتخيَّل نفسها تعيش وحدها مع طفليها في الشقّة بينما باتريك في مكان آخر بعيد، أي مكان، في حالة بؤس.

في اليوم التالي صُدِمَتْ من برودتها، لكنّها سرعان ما تعوّدتْ عليها.

لطالما عرِفَتْ أنها برودة بديلة للدفء الذي اعتبره الجميع نموذجيّاً جداً. والآن تقبّلتها كزاهد ينتقل إلى كهف. وقاومتْ دفقات سِحر باتريك العصبيّة بسهولة. كان الانتقال جيئة وذهاباً بين إيقاعات تقلّبات مزاجه العصبيّة شيئاً مُرهِقاً. كان يمكنها أيضاً أنْ تلزم مكانها. سوف تُدمِّر عطلتهم، ولكن أولاً سوف يدفعها إلى الموافقة على أنَّ تشاجره مع هنري كان علامة على استقامته الرائعة وليست غَضَباً جامحاً. ورفضَتْ ذلك. وبحلول تلك الأمسية أصبحَ جليّاً أنَّ موافقة باتريك على ألّا يتّفقا مع هنري باتت مُعرَّضَة للخطر.

1- فيلم سورياليّ من تنفيذ الفنان الإسبانيّ سالفادور دالي والمخرج مارسيل بانيول – المترجم.

قال هنري بأسلوبه المباشَر «سوف يكون إجراء حديث معك أمراً صعباً إذا لم تتوقف عن مهاجمة كل ما أقول. فلنلتزم بالحديث العائليّ»

قال باتريك مع إحدى ضحكاته القصيرة الشبيهة بالنباح، «تلك الصيغة المُجرَّبة للودّ والاتحاد»

قال هنري «أنتَ لا تقلّ سوءاً عن ياسر عرفات. تعتقد أنَّ السلام والهزيمة هما شيء واحد. إنني فقط أحاول أنْ أنشر جوّاً من حُسن الضيافة هنا. ولستَ مُضطراً إلى قبوله، إنْ كانت لديك مشكلة أيديولوجيّة مع ذلك». قهقه هنري لاستخدامه كلمة «أيديولوجيّة»، التي كانت بالنسبة إليه هزليّة في أصلها على غرار كلمة «مؤخّرة» بالنسبة إلى ولد حيويّ في الرابعة من العمر».

قال باتريك «هذا صحيح. لن نقبله»

أسرعتْ ميري إلى قول «لكننا نودّ ذلك»

قال باتريك «تكلَّمي عن نفسك»

قالتْ «هذا ما أفعل، وعلى عكسك أنا أحاول أيضاً أنْ أتكلَّم بالنيابة عن الطفلَين»

«أحقاً؟ في صباح هذا اليوم فقط كان توماس يقول إنَّ هنري «رجل مُضحك جداً»، وكما تعلمين، إنَّ هذا اللقب هو الذي يصِف به روبرت «هتلر». إنني أشكّ حتى في أنكِ تتكلَّمين عن نفسك بعد أنْ طُردتِ من غداء يوم أمس»

وبهذا انتهى الأمر. غادروا في صباح اليوم التالي. لقد توقّعت من باتريك أنْ يكون عنيداً وأبيّاً ومُدمِّراً، لكنّها لم تكن بعد قد غفرتْ له لأنه ضمَّنَ ولديه في اتّهامه المتفجِّر الأخير.

أنتجت آلة صنع مكعّبات الثلج في ردهة فندق الطريق العام وجبةً مهتزّة من المُكعبات على الجانب الآخر من جدار غرفة النوم الرقيق. وحلَّ طنين البعوض داخل الولاية محلّ أزيز الدبابير. تململَ توماس بجوارها ومن ثم اعتدل في جلسته وقال، بانتقاله السريع المعتاد إلى الرغبة الكاملة، «أريد منكِ أنْ تقرأي لي قصة». انتقَتْ طائعة نسخة من «*الرياح تهبّ على شجر الصفصاف*» التي كانا قد باشرا قراءتها في ولاية مين.

سألتْ ميري «أتتذكّر أين توقفنا؟»

قال توماس، مُديراً عينيه حول محجريهما في ذهول، «كان راتي يقول لمولي إنه مجرد خنزير عاديّ. لكنه في الواقع كان جرذاً»

ضحكتْ ميري «هذا صحيح». كان رات ومول في طريق عودتهما إلى ريفر بانك وسط الظلام المتزايد بعد ظهيرة أحد أيام شهر كانون أول. وكان مول قد اشتمَّ تواً آثار منزله القديم وغمره الشوق والجنين. وحثّ رات خُطاه نحو ريفر بانك، موطنه، مُفترِضاً أنَّ مول أيضاً سوف يرغب في الذهاب إلى هناك. ثم انهار مول وأخبر رات عن شعوره بالحنين إلى وطنه. أعادتْ ميري قراءة الجُملة التي توقفا عندها في الليلة السابقة.

«حدَّقَ رات أمامه مباشرة، ولم يقُل شيئاً، واكتفى بالربت على كتف مول برفق. وبعد قليل تمتم بكآبة «الآن فهمتُ كل شيء! كم كنتُ خنزيراً أبله! خنزير - أي أنا! مجرد خنزير!»»

باشر توماس بالقول «أعني...»

سُمِعَ قرع على الباب. فتركت ميري الكتاب وسألتْ عمَّنْ يقرع الباب.

قال توماس «بوبي! كنتُ أعلم أنّه أنت لأنه - يعني، لأنه أنت!»

جلسَ روبرت على السرير وكتفاه مرتخيان، متجاهلاً استنتاج أخيه.

قال «أنا أكره هذا المكان»

قالت ميري «أعلمُ هذا، لكننا سوف نرحل في صباح هذا اليوم»

أنَّ روبرت «من جديد، لقد نزلنا في ثلاثة نُزُل على الطريق منذ أنْ طردنا النائب العام من تلك الجزيرة الرائعة. يمكننا أيضاً أنْ نحصل على منزل متنقّل»

«سوف أتّصل بسالي بعد الإفطار وأسألها إنْ كان في وسعنا أنْ نذهب إلى لونغ أيلند قبل الموعد المُحدَّد ببضعة أيام»

قال روبرت «لا أريد أنْ أذهب إلى لونغ أيلند، أريد أنْ أعود إلى بيتنا»

قال توماس، مائلاً إلى الأمام لكي يدعم قضيّة أخيه، «يشمّ مولي رائحة منزله ويريد أنْ يذهب إليه»

واتّفقوا على أنهم إذا لم يتمكنوا من التوجّه مباشرة إلى لونغ أيلند، فسوف يُخبرون باتريك بأنهم يزيدون أنْ يعودوا إلى إنكلترا.

قال روبرت «لا نريد المزيد من سِحر الطريق المفتوحة، أرجوك»

عندما اتّصلتْ هاتفياً بسالي لم يُجبها أحد في لونغ أيلند. وأخيراً عثرتْ عليها في نيويورك.

«لقد اضطررنا إلى العودة إلى المدينة لأنَّ خزّان الماء انفجر وغمرت المياه الطابق السُفليّ من الشقّة. إنَّ الجيران يُقاضوننا، لذلك رفعنا دعوى على السبّاك الذي ركَّبَ الخزان قبل عامٍ فقط. والسبّاك يُقاضي الشركة التي صنعت الخزّان على سوء تصميمها للخزّان. والسكّان يُقاضون المبنى، على الرغم من أنهم جميعاً ذهبوا في عطلة، لأنَّ المياه قُطِعَتْ مدة يومين بدل أنْ تُقطَع فقط ساعتين، ممّا تسبَّبَ لهم بالكثير من الضغط النفسيّ في توسكانيا وفي نانتاكيت»

قالتْ ميري «يا إلهي، ما العيب في مسح الأرض واستبدال الخزّان بآخر جديداً؟»

قالتْ سالي، مبتهجة بفِكر ميري الرزين، «يا له من أسلوب إنكليزيّ نموذجيّ»

على مائدة الإفطار شرحتْ ميري قائلة إنه لا يوجد متَّسع في شقّة نيويورك، لكنَّ سالي قالتْ إنها ترحِّب بهم لكي يُحشَروا هناك بصورة ما.

قال روبرت «لا أريد أنْ أُحشَر هناك. أريد أنْ أرحل بالطائرة»

قال توماس، ناشراً ذراعيه كجناحين، «نحن الآن على متن طائرة، وألابالا في غرفة الطيّار!»

قال روبرت «أوه-أوه، ينبغي أنْ نلحق بالرحلة التالية»

قال توماس، مُندهِشاً كدهشة أي شخص واسع المعرفة بألابالا، «إنه على متن الرحلة التالية أيضاً»

قال روبرت «كيف فعل ذلك؟»

ألقى توماس نظرة جانبية سريعة بحثاً عن تفسير.

قال، مُثيراً ضجيج المقعد القاذف[1]، «لقد استخدم مقعده القاذف، ومن ثم استوقفَ فيلان الطائرة التالية ومن ثم ركب ألابالا!»

1- المقعد في الطائرة الذي يُقذَف بها إلى الجو إذا ما أوشكت الطائرة على الانفجار أو التعرّض لحادث مُفاجئ - المترجم.

قال باتريك «بقيتْ هناك مسألة صغيرة تتعلَّق ببطاقاتنا التي لا يمكن استعادة قيمتها»

قال روبرت «كان في وسعنا أنْ نبتاع بطاقات جديدة بالنقود التي أنفقناها في تلك النُزُل المُقزّزة على الطريق»

قالتْ ميري «لقد علَّمته أنْ يُجادل بصورة جيدة جداً»

قال باتريك «ليس هناك مَنْ نتجادل معه، أليس كذلك؟ أعتقد أننا أصبحنا كلنا نشمئز من أميركا»

-16-

بعد أنْ سقطتْ إلينور، أجبرتْ مُناشداتُها لطلب الموت باتريك على الاطّلاع على التزامات القتل الرحيم والمُساعدة على الانتحار. ومرة أخرى، كما حدث معه في حرمانه من الميراث، أصبح الخادم الشرعيّ لتلبية مطالب أمّه البغيضة. على السطح، كان هناك شيء أكثر جاذبيّة في التخلُّص من إلينور مما في خسارة سان-نازير، لكنَّ بشاعة ما طُلِبَ منه القيام به كانت ستخارق حاجز الإجراءات العمليّة بحيويّة. وحتى لو لم يكن مأوى العجزة هو مسرح الأحداث المعتاد لـ «*مأساة مُنتَقِم*»[1] فقد شعر بأخطار اغتصاب احتكار الله للانتقام بحِدَّة تعادل حِدَّة شعوره لو دخل سراديب مدافن قلعة إيطاليّة. حاول أنْ يتمالك نفسه، أنْ يتفحَّص دوافعه بتدقيق. إنَّ الموتى ليسوا عنيدين بالقدر الكافي ليُصبحوا أشباحاً من دون إحساس الأحياء بالذنب. كانت أمه أشبه بصخرة تسقط وتسدّ ممرّاً جبليّاً. ربما كان في استطاعته أنْ يزيحها من الدرب، ولكنْ إنْ كانت نواياه إجراميّة، فإنَّ شبحها سوف يسكن الممرّ إلى الأبد.

قرَّر ألّا يكون له أيّ دور في تنظيم موتها. كان طلبها مساعدته في موتها هو آخر وأسوأ خدعة لامرأة لطالما أصرَّتْ، منذ لحظة ولادته، على أنها الوحيدة التي تحتاج إلى الفرح. وبعد ذلك يزور إلينور من جديد ويُدرك أنَّ أقسى ما يمكن أنْ يفعل هو أنْ يتركها بالضبط حيث هي. قرَّر أنْ يبقى غاضباً

1- «*مأساة مُنتقِم*»: مسرحية للكاتب الإنكليزي توماس ميدلتون من العصر اليعقوبي (القرن السابع عشر، خلال فترة حكم الملك جيمس الأول في الربع الأول من ذلك القرن). وتتسِّم بأحداث كثيرة ومتداخلة - المترجم.

لكي يمنع نفسه من تقديم المساعدة، لكنَّ الشفقة عذَّبته أيضاً. كانت الشفقة أقسى على التحمُّل وتوصّل إلى اعتبار انتقامه حالة ذهنيّة طائشة نسبيّاً.

تمتمَ بينه وبين نفسه وهو يطلب رقم جمعيّة القتل الرحيم الطوعيّة، «هيا، قدِّم لنفسك معروفاً، وارتكب جريمة»

قبل أنْ يذهب إلى أميركا، أبقى بحثه طيّ الكتمان. لم يُخبر ميري لأنهما لا يُناقشان أي أمرٍ مهمّ إلّا ويتشاجران. ولم يُخبر جوليا لأنَّ علاقته العاطفيّة معها كانت في مراحل انهيارها النهائيّة. وعلى أي حال، كان الكتمان شيئاً أساسيّاً في بلدٍ يمكن أنْ يُعاقَب فيه مَنْ يُساعد شخصاً على الموت بالسجن أربعة عشر عاماً. وقد قرأ مقالات في الصحف عن ممرضاتْ أُرسِلنَ إلى السجن لإعطائهن حقناً قويّة. ومع ذلك لم تتمكن جمعية القتل الرحيم الطوعيّة من تقديم المُساعدة، على الرغم مما يعِد به اسمها. لقد كانت تنظِّم حملة من أجل تغيير التشريع. وتذكّر باتريك أنّه كان قد قرأ عن آرثر كوستلر[1] وزوجته أنهما استخدما أكياس بلاستيك زوّدتهما بها منظمة إكزيت ليخنقا بها نفسيهما في منزلهما في ساحة مونبلييه. والسيدة التي أجابت على الهاتف من مقرّ جمعيّة القتل الرحيم الطوعيّة لم تسمع بمنظمة تُدعى إكزيت. بل لم تتمكن حتى من التعليق على معظم أسئلته، لأنَّ نصيحتها يمكن أنْ تُفسَّر على أنها «استشارة» انتحار، وهي إثم يقع في الخانة نفسها التي تُعاقب على تقديم المُساعدة والعون. ولم تسمع أيضاً عن منظّمة تُدعى ديغنيتاس ولم تستطع أنْ تُخبره كيف السبيل إلى التواصُل معها. ومع اقتراب الحديث العقيم ببطء من نهايته لم يسع باتريك إلّا أنْ يعتقد أنَّ منظّمة «الأبديّة» ليست الوحيدة التي «عدَّلتْ مبدأه ضد قتل النفس». وبعد بضع دقائق أمدّه قسم التوجيهات الإرشاديّة برقم هاتف منظمة ديغنيتاس، متجاهلاً العواقب القانونيّة لذلك.

اتصل بسويسرا، وقلبه ينبض بقوة. الصوت الهادئ الذي أجاب على المكالمة بالألمانيّة اتّضحَ أنّه يتكلَّم الإنكليزيّة أيضاً، ووعد بإرسال بعض

1- آرثر كوستلر (1905 – 1983): روائي وصحافيّ إنكليزيّ من أصل هنغاريّ. انضمّ إلى الحزب الشيوعيّ، لكنه تركه بعد أنْ خاب أمله في الحكم الستالينيّ. أشهر رواياته «ظلام الظهيرة» – المترجم.

المعلومات. وعندما ألحَّ عليه باتريك بشأن النواحي القانونيّة، قال إنها ليست مسألة قتل رحيم، يُشرِفُ عليها طبيب، بل مُساعدة على الانتحار يُشرف عليها المريض. وسوف يوصَف عقار مُنوِّم إذا اقتنع طبيب أنّه مُجاز وأن الانتحار طوعي بكل معنى الكلمة. وإذا أراد باتريك أنْ يُحرِز أيّ تقدُّم في أثناء انتظار وصول استمارات العضويّة، يجب أنْ يحصل على رسالة موافقة من إلينور وتقريراً من الطبيب عن حالتها. وأشار باتريك إلى أنَّ أمّه لم يعُد في استطاعتها أنْ تكتب وعبَّر عن شكّه في أنْ تتمكن أيضاً من حقن نفسها بنفسها.

«أتستطيع أنْ توقِّع؟»

«بالكاد»

«أتستطيع أنْ تبتلع؟»

«بالكاد»

«إذنْ، ربما نستطيع أنْ نُقدّم المُساعدة»

شعرَ باتريك بموجة من النشاط تجتاحه بعد أنْ أجرى اتصاله بسويسرا. التوقيع والابتلاع، هما مفتاحا المملكة، وشِفرة إطلاق القذيفة. وقريباً جداً سوف تفقدهما إلينور. وخشيَ أنْ يسيل المنوِّم النفيس بلا فائدة على ذقنها. أما بالنسبة إلى توقيعها، فإنّه الآن يُشكّل مقطعاً جانبيّاً لجبال الألب يُذكِّر بالطعنات المُبكّرة لتوماس في محاولة الكتابة. أخذَ باتريك يذرع أرض غرفة الجلوس جيئة وذهاباً في شقّته. كان «يقوم بعمله من المنزل»، وكان قد انتظر حتى يذهب روبرت إلى المدرسة وتأخذ ميري توماس إلى متنزّه هولاند لكي يُباشر بَحْثَهُ السرّي. الآن أصبحت الشقّة كلّها له لكي يصول ويجول فيها؛ ليس هناك مَنْ يستلزم معاملته بكفاءة، ولا مَنْ يجب معاملته بودّ. ولكن مع ذلك، وبما أنّه لم يستطع أنْ يتوقف عن ذرع المكان، لم يتمكن من الكفّ عن ترديد، «توقيع وابتلاع، توقيع وابتلاع»، كأنه ببغاء مربوط بسلسلة في ركن غرفة مُكدَّسة بالأغراض. وشعر بتوتّر متزايد، واضطرَّ إلى التوقّف والتنفّس ولكن ببطء لكي يطرد إحساسه بأنّه يوشك أنْ يغيب عن الوعي. كانت حماسته تتّسِم بخاصيّة شريرة، تشبه شحذ الخناجر. كان ينوي أنْ يمنح إلينور ما أرادتْ. ولكن هل ينبغي أنْ يريده هو أيضاً بالقدر نفسه؟

ميَّز طابع أشواقه الإجراميّة وشعر باضطراب حقيقيّ. إنَّ ما بدا جديداً، ولكنه اعترفَ بعد ذلك بأنّه كان موجوداً طوال الوقت، فهو رغبته الخاصة في شرب كأس من المنوِّم باربيتوريت. «لكي ينتهي أمره مع حلول منتصف الليل من دون ألم» - وإذا أُعيد تركيبه قليلاً، فقد يتحوّل تقريباً إلى الاسم الكيميائيّ لذلك المشروب الختاميّ: سيسمينوبين.

زعقَ فجأة مع وصوله إلى آخر الرواق واستدار لكي يعود أدراجه، «أوه، يا إلهي! إنَّ لديّ زجاجة من السيسمينوبين! هل أستطيع أنْ أتناول بعضاً منه؟». كانت أفكاره مُبعثرة في أرجاء المكان كلّه، أو بالأحرى كانت في مكان واحد وتجذب كل شيء نحوها. وتخيّل مسيرة احتجاج صغيرة متواضعة، تنطلقُ من هامستيد مع بضعة رموز أخلاقيّة تحاول أنْ تحظر المعاناة غير الضروريّة، ومن ثم تتزايد أعدادها بسرعة مع تدفّقها نحو منطقة سويس كوتيج، وسرعان ما يُغلقُ كل متجر أبوابه وخلو كل مطعم من روّاده وتتعطّل حركة القطارات وتُترَك مضخات الوقود من دون عمّال، ويتوافد سكّان لندن كلهم حشوداً إلى وايتهول وساحة ترافالغار وساحة البرلمان، يلعنون المُعاناة غير المُبرَّرة ويصرخون مطالبين بعقار سيسميدنوبين.

ولولَ بنبرة مسرحيّة «لِمَ يحصل كلبٌ أو قطةٌ على الموت، وهي...» أجبر نفسه على السكوت. ثم قال «أوه، اخْرَس»، وانهار على الأريكة.

تملّقَ نفسه بصوت جديد «إنني فقط أحاول أنْ أساعد أمي العجوز. لقد تجاوزت قليلاً مدة صلاحيتها، بصراحة. لم تعُد تستمتع بالحياة كما كانت تفعل. بل إنها لم تعد قادرة على فتح بريدها في غوغل. لقد ذهب بصرها. ولا فائدة من القراءة لها، فذلك لا يُثير إلّا توتّرها. وأقلّ الأشياء تُثير خوفها، حتى ذكرياتها السعيدة. وضعٌ فظيع، حقاً»

مَنْ الذي كان يتكلَّم؟ مع مَنْ كان يتكلَّم؟ شعرَ بأنه ممسوس.

زفرَ ببطء. كان شديد التوتّر. سوف يتسبَّب لنفسه بأزمة قلبيّة، سوف يقضي على الشخص الخطأ بلا قصد. لقد أدركَ أنّه يتحطَّم إرباً لأنَّ بساطة وضعه - ابنٌ مطلوبٌ منه أنْ يقتل أمّه - لا تُطاق؛ وبساطة موقفها - امرأة تخشى كل لحظة من وجودها - لا تُطاق بدرجة أكبر. لقد حاول أنْ يتحمّلها،

أنْ يُفكِّر فيما لم يطق التفكير فيه: تجربة إلينور. وفجأة انفجر بالبكاء، لقد استنزفت وسائل تهرّبه كلها.

انتهت المنافسة بين الانتقام والحنوّ خلال صباح ذلك اليوم في شقّته، وتُرِكَ مع المزيد من الشوق الصريح إلى أنْ يتحرَّر كل فرد في عائلته، بمَن فيهم أمّه. وقرَّر أنْ يسعى إلى الحصول على تقرير طبّيّ قبل أنْ يقوم برحلته إلى أميركا. لا فائدة من تقديم طلب إلى رئيس مأوى العجزة، الذي كانت مهمّته كلها هي إبقاء المرضى أحياء على الرغم من توقهم إلى تناول الجرعة القاتلة. كان الدكتور فينيلون هو طبيب عائلة باتريك، لكنّه لم يكن قد اعتنى بإلينور من قبل. كان رجلاً عطوفاً وذكيّاً. لم تكن الكاثوليكيّة قد اعترضَتْ بعد طريق الوصفات الطبيّة المفيدة ومقابلات الاختصاصيين السريعة. كان باتريك في المعتاد يعتبره شخصاً ناضجاً وارتبك عندما سمعه يتكلَّم عن محاضراته في الأخلاق في أمبلفورث، وكأنّه سمح لكاهن أنْ يرشّ رسمه التخطيطي للعالم من عهد المراهقة بمادة مُثبِّتة مضمونة.

قال الدكتور فينيلون «ما زلتُ أعتقد أنَّ الانتحار إثم، لكنني لم أعُدْ أؤمن بأنَّ الذين يريدون الانتحار أغواهم الشيطان، لأننا بتنا نعلم الآن أنهم يُعانون من مرضٍ يُدعى الكآبة»

قال باتريك، مُحاولاً أنْ يبرأ بسرّية قُصوى من العثور على اسم الشيطان على قائمة الضيوف، «اسمع، عندما تعجز عن الحركة، وتعجز عن الكلام، وتعجز عن القراءة، وتعلم أنّكَ تفقد السيطرة على عقلك، وأنَّ الكآبة ليست مَرَضاً، بل هي فقط الاستجابة المعقولة الوحيدة. إنَّ المرح هو الذي يتطلَّب شرحه اختلالاً وظيفيّاً في الغدد، أو قوة خارقة»

تابع دكتور فينيلون قائلاً، «عندما يكتئب الناس نعطيهم مُضادات اكتئاب»

«إنها تتناولها الآن. وصحيح أنها تُضفي قدراً من الحماسة على كراهيتها للحياة. فبعد أنْ باشرت بتناولها بدأتْ تطلب مني أنْ أقتلها»

بدأ الدكتور فينيلون يقول «إنَّ التعامُل مع المحتضرين يمكن أنْ تكون له ميزة كبرى»

قاطعه باتريك «لا أعتقد أنّها سوف تبدأ بالتعامل مع الاحتضار. إنها لا

تستطيع حتى أنْ تقف على قدميها. إنْ كنتَ تعني أنها ميزة كبرى لك، فيجب أنْ أقول إنني أشدّ قلقاً بشأنْ نوعيّة حياتها هي وليس نوعيّة حياتك أنت»

قال الدكتور، باتّزان يفوقُ ما يمكنٍ أنْ يستحقّه تهكّم باتريك، «أعني، أنّه يمكن أنْ يكون للمُعاناة تأثير فعّال. إنَّ المرء يرى الناس ينتقلون، بعد كفاح هائل، إلى نوع من السكينة لم يعرفوه من قبل»

«يجب أنْ يكون هناك حسٌّ بالذات من أجل اختبار السكينة – هذا بالضبط ما تفتقده أمي»

استرخى الدكتور فينيلون على كرسيه الجلديّ ذي الأزرار بإيماء متعاطِف من الرأس، عارضاً الصليب الذي يحتفظ به على الرفّ خلفه. وكان باتريك قد لاحظَ وجوده من قبل، لكنّه الآن يبدو كأنّ الصليب يسخر منه بعكسه البارع لدلالة المجد والمعاناة، مُحوّلاً الشيء الذي من الطبيعي أنْ يُثير الاشمئزاز ليُصبح المعنى المركزيّ للحياة، ليس فقط المعنى الدنيويّ لإجبار شخص على التأمّل بمزيد من العمق، بل المعنى الغامض تماماً للعالم الذي تخلَّصَ من الإثم لأنَّ يسوع وقفَ على الجانب الخطأ من القانون قبل ألفيّ عام. ما معنى أنْ العالم تخلّصَ من الإثم؟ من الواضح أنّه لم يعنِ أنَّ الإثم قد قلَّ. وكيف كان من المفترَض بإعدام يسوع القذر، الغريب، أنْ يُعتبَر مسؤولاً عن هذا الخلاص الذي لم يحدث، حسب عِلم باتريك؟ كان حتى ذلك الحين قد أُصيبَ بالذهول من غياب المسيحيّة في حياته، أما الآن فوجد نفسه يحتقرها لأنها تُهدِّد بخداع إلينور بموت فوريّ. وبعد المزيد من ذكريات أيام المدرسة، وافقَ الدكتور فينيلون على وضع تقرير عن حالة إلينور. وطمأنَ نفسه بأنَّ الفائدة التي سيُقدّمها التقرير ليست من شأنه، وحدَّدَ موعداً للقاء باتريك في مأوى العجزة بعد ذلك بيومَين.

ذهب باتريك لكي يزفّ لأمّه النبأ الطيب ويُعدَّها لزيارة الطبيب.

صرختْ «أريد...»، وبعد ذلك بنصف ساعة، «سويس... را»

استجمع باتريك شجاعته لمواجهة نفاد صبر أمّه بنفاد صبره.

أجاب بهدوء «سوف يتمّ كل شيء بأسرع ما يمكن»

أخيراً نجحتْ إلينور في قول «إنكَ... تبدو... أشبه... بابني»

قال باتريك «هناك تعليل لهذا. أنا هو ابنك»

قالتْ إلينور، وقد بدتْ متأكّدة أخيراً، «كلا!»

غادر باتريك مع حسّ أشدّ إلحاحاً بأنَّ إلينور سوف تُصبح قريباً من فرط الخرف بحيث لا يمكن أنْ توافق.

عندما رافق الدكتور فينيلون في اليوم التالي إلى غرفة إلينور كريهة الرائحة، كانت في حالة من المرح الهستيريّ لم يرها من قبل لكنّه فهمها في الحال. لقد ظنّتْ أنَّ عليها أنْ تُبدي أفضل سلوك، لكي تفوز بإعجاب الطبيب، لكي تبيِّن له أنها فتاة مُطيعة وتستحق معروفاً. حدَّقَتْ إليه بولَه. إنّه مُحرِّرها، وملاك موتها. طلبَ الدكتور من باتريك أنْ يمكث، أنْ يُساعده على فهم كلام إلينور غير المترابط. لقد أُعجِبَ برُقيّ ردود أفعالها، وبغياب قرحة الفراش عن ظهرها وبالحالة العامّة لبشرتها. أشاح باتريك ببصره بعيداً عن بطنها المُجعّد الأبيض، شاعراً بأنّه لا ينبغي حقاً أنْ يُسمَح له بمشاهدة الكثير من جسم أمّه، وهو حتماً لم يرغب في ذلك. لقد جرفه توقها نحو حافّة الجنون. لِمَ لا يستطيع أنْ يُظهِر البؤس الذي أمضى سحابة الأسبوع الفائت يُكافح لكي يُصيغه في كلمات؟ إنها لا تملّ التخلّي عنه. وتخيّل التقرير المتفائل بصورة لا تُطاق الذي سوف يُمليه الدكتور فينيلون إبّان عودته إلى حجرة العمليات. في تلك الأمسية كتب رسالةَ موافقةٍ لكنه لم يقوَ على مواجهة رؤية أمّه من جديد على الفور. وعلى أي حال، لن يصِل تقرير فينيلون قبل أنْ تغادر العائلة لقضاء عطلتها الأميركيّة ولذلك عزم باتريك على أنْ يدع الأمر كله إلى حين عودته.

في أميركا حاول ألّا يفكِّر في وضعٍ لا يستطيع أنْ يُحرِز أي تقدّمٍ فيه، لكنّه علِمَ أنَّ سرّ مشروعه المُروِّع يُبعِده عن باقي عائلته. بعد أنْ صحا من سُكره، تشبّثَ برؤياه الثملة بالمنطقة الثالثة في حديقة والتر وبيث. وكان كلما حاولَ أنْ يُحدِّد المنطقة الثالثة، لا يفكِّر فيها إلّا كسخاء لا يقوم على أساس التعويض أو الواجب. وعلى الرغم من أنّه لم يتمكّن من وصفها بدقّة، إلّا أنّه تشبّثَ بذلك الحدْس الهشّ بما يمكن أنْ يعنيه أنْ يكون بصحّة جيدة.

لم يُخبِر ميري أخيراً بما يجري إلّا وهما على متن الطائرة في طريق

العودة إلى إنكلترا. كان توماس نائماً وكان روبرت يُشاهد فيلماً سينمائياً. في أوّل الأمر لم تفُه ميري بأي كلمة تتجاوز التعاطُف مع المشكلة التي يمرّ بها. لم تكن تعلم هل تعبِّر عن ريبتها في أنّ باتريك كان شديد الانهماك في تفحُّص دوافعه الخاصّة بحيث أنّه ربما لم يهتمّ كثيراً بدوافع إلينور. كانت الرغبة في الموت أحد أكثر الأشياء ابتذالاً في الحياة، أما الاحتضار فهو شيء آخر. لم تكن طلبات إلينور للمساعدة عرضاً لكي تزيح عن الطريق، بل كانت السبيل الوحيد لديها لكي تبقى في مركز اهتمام عائلتها. وهل فهِمتْ حقّاً أنه سوف يتوجب عليها أنْ تقوم بعمليّة القتل بنفسها؟ شعرتْ ميري بأنها متيقّنة من أنَّ إلينور كانت تتخيّل طبيباً غاية في الحِكمة يُحدِّق بعمق شبيه بعمق بحيرة جبليّة، يميل عليها لكي يُقبّلها قُبلة المساء القاتلة، وليس ليقدِّم لها كأساً من عقار مُنوِّم مُرّ المذاق عليها أنْ ترفعه إلى شفتيها. لقد كانت إلينور أشد شخصّ صبيانيّة عرفته ميري، بمَنْ فيهم توماس.

أخيراً قالت لباتريك «لن تفعلها. لن تبتلع العقار. سوف تُضطر إلى جلب طائرة إسعاف خاصّة، وتأخذها لترى أطباء سويسريين، وتُحضِر وصفة الدواء، ومن ثم لن تفعلها»

قال باتريك «إذا أجبرَتْني على نقلها إلى سويسرا من دون طائل، فسوف أقتلها»

قالت ميري «أنا واثقة من أنَّ ذلك يُناسبها تماماً. إنها تريد أنْ يؤخذ الموت من بين يديها، لا أنْ يوضَع بين يديها»

قال باتريك مع تنهيد نفاد الصبر، «مهما يكن، ولكن يجب أنْ أُعاملها وكأنّها كانت تعني حقاً الشيء الوحيد الذي نجحتْ في قوله»

قالتْ ميري «أنا متيقّنة من أنها صادقة بشأنْ رغبتها في الموت. أما ما لستُ متيقّنة منه فهو إنْ كانت مؤهّلة له»

شعر روبرت من داخل السمّاعتين بأنَّ والديه منخرطان في حديث ساخن. رفعَ السماعة وسألهما عمّا كانا يتحدثان.

قالتْ ميري «فقط عن الجدّة – وكيف نستطيع أنْ نساعدها»

أعاد روبرت السماعة على أذنيه. لقد كانت إلينور بالنسبة إليه مجرد

شخص لم يمُتْ بعد. لم يعُد والداه يأخذانه مع توماس لزيارتها لأنَّ ذلك كما قالا شيء مزعج جداً. كان يتطلَّب منه جهداً تذكُّر أنّه كان، قبل عهد بعيد، قريباً منها، وذلك الجهد لا يستحقّ البذل. وأحياناً، في حضور جدَّته الأخرى، كانت لا مبالاته بإلينور تتحول إلى دهشة، وفي مقابل أنانيّة كيتل الشديدة، كان يتذكَّر رقّة إلينور وأثر الألم العظيم الذي تنطوي عليه نواياها الحَسَنَة. ثم ينسى مدى الجور الذي ارتكبته إلينور بغشّهم بشأن سان-نازير ويشعر بمدى جور كون إلينور هي إلينور - ليس فقط ظروفها الرهيبة، بل كونها كما هي. وفي نهاية المطاف كان من الجور في حقّ الجميع أنهم ما هم عليه لأنه ليس في وسعهم أنْ يكونوا أشخاصاً آخرين. وحتى هو لم يرغب في أنْ يكون شخصاً آخر، لكنَّ الفكرة الرهيبة هي أنّه لا يستطيع أنْ يكون كذلك، في ظرفٍ طارئ. ونزع السماعة من جديد كأنّها هي الشيء الذي يُعيقه. على أي حال فإنَّ الملهاة التي تتحدث عن الكلب الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة ليست جيّدة. انتقلَ روبرت من القنوات التلفزيونيّة إلى الخريطة، التي بيَّنَتْ طائرتهم وهي تحوم بالقُرب من الشاطئ الأيرلنديّ، جنوب كورك. ثم امتدَّتْ لتبيِّن لندن وباريس وخليج بيسكاي. والمقياس التالي يتضمَّن الدار البيضاء وجيبوتي ووارسو. كم ستدوم هذه الوليمة من المعلومات؟ أين هم بالنسبة إلى القمر؟ إنَّ الشيء الوحيد الذي أراد أي شخص أنْ يعرفه ظهر أخيراً: بقيتْ اثنتان وخمسون دقيقة على الوصول. كانوا يطيرون منذ سبع ساعات كاملة، خلال مناطق زمنيّة مُظلمة. السرعة: العلوّ: درجة الحرارة؛ التوقيت المحلّي في نيويورك؛ التوقيت المحليّ في لندن. إنهم يُخبرونك بكل شيء، ما عدا التوقيت المحلّي على متن الطائرة. إنَّ ساعات اليد لا تستطيع أنْ تُجاري تلك الدقائق الملتويّة والخصبة. عليهم أنْ يديروا أرقامهم ويقولوا **الآن** إلى أنْ يعودوا إلى الأرض ويبدؤوا العدّ بوضوح من جديد.

هو أيضاً تاقَ إلى العودة إلى الأرض، وإلى منزلهم في لندن. لقد حوَّلَتْ خسارة منزل سان-نازير لندن إلى منزله الكامل. كان قد سمع عن الأطفال الذين تظاهروا بأنه تمَّ تبنّيهم وأنَّ آباءهم الحقيقيين أفخم وأشهر من الآباء الكئيبين الذين يعيشون معهم. وقد قام بأمرٍ مُماثل مع سان-نازير، عندما تظاهرَ بأنّه بيته الحقيقيّ. وبعد صدمة فقدانه، ارتاح بالتدريج لمعرفة أنّه

ينتمي حقاً إلى لوحات الإعلانات الرطبة وإلى أشجار الدلب العملاقة في المدينة التي وُلِدَ فيها. ومُقارنة بكثافة سكّان نيويورك، بدا أنَّ نظرة لندن الرجعيّة إلى الريف والسِمة الخصوصيّة لشوارعها تناقضُ وظيفتها كمدينة، ومع ذلك اشتاقَ إلى العودة إلى الوحل الأسود اللزج للمتنزهات، وإلى أراضي الملاعب التي أوقفت الأمطار مبارياتها وإلى مروج تدريب الخيول المغطاة بالأوراق الميتة، والنظر إلى زيّه المدرسيّ المخدوش في مرآة الردهة، وصوت إغلاق باب السيارة في الطريق إلى المدرسة. لا شيء بدا أشد غرابة من عمق تلك المشاعر.

قالت المُضيفة لميري إنَّ عليها أنْ توقظ توماس استعداداً لهبوط الطائرة. استيقظ توماس وأعطته ميري زجاجة الحليب. وعندما شرب نصفها أخرج المصّاصة من فمه وقال، «ألابالا موجود في حجرة الطيّار!» وأدار عينيه داخل ورفعهما عالياً نحو أخيه، «سوف يهبط بالطائرة!»

قال روبرت «أوه-أوه، لدينا مشكلة»

«يقول الربّان، «كلا، يا ألابالا، لا يُسمَح لك بالهبوط بالطائرة»، قال توماس هذا وهو يضرب فخذه،«ولكنْ يُسمَح لفليلان بأنْ يهبط بالطائرة»»

«هل فيلان موجود معه هناك أيضاً؟»

«نعم، موجود. إنه الربّان المُساعد»

«أحقاً؟ ومَنْ هو الرّبّان؟»

«سكوت تريسي»

«إذن هذه طائرة الإنقاذ العالميّة؟»

«نعم. يجب أنْ ننقذ بنتاتنتون»

«وما هو البنتاتنتون؟»

«حسن، في الحقيقة هو قنفذ، وقد سقط في النهر»

«في نهر التيمس؟»

«نعم! وهو لا يُحسِن السباحة، لذلك ينبغي على غوردن تريسي أنْ يُنقذه بغوّاصة ثندربيرد 4»

مدَّ توماس يده وحرّك الغوّاصة خلال مياه نهر التيمس الموحلة.

أخذ روبرت يهمهم باللحن المُميَّز لمُسلسل ثندربيردز، وهو يوقِّع بالضرب على مسند الذراع بينهما.

قال باتريك «ربما تستطيعين أنْ تدفعيها إلى التوقيع على رسالة الموافقة»

قال ميري «حسن»

«على الأقلّ نستطيع أنْ نجمع كل العناصِر...»

سألَ روبرت «أيّ عناصِر؟»

قالت ميري «لا عليك. انظر، نحن نوشك على الهبوط»، قالتْ هذا، مُحاولة أنْ تُشبِّع الحقول المتألّقة، والطرقات المزدحمة والتكتّلات الصغيرة من المنازل التي يميل لونها إلى الأحمر بالإثارة المُستبعَد أنْ تنبع من تلقاء ذاتها.

في يوم وصولهم، ظهرت استمارة عضويّة منظمة ديغنيتاس مع تقرير الدكتور فينيلون من بين كومة من الرسائل في الردهة. تمدَّد باتريك مُرهَقاً على الأريكة السوداء وأخذ يستعرض كرّاسات منظمة ديغنيتاس.

علَّقَ قائلاً «إنَّ الأشخاص في الحالات التي ذكروها عانوا من أمراض النهاية أو بالكاد استطاعوا أنْ يُحرّكوا جفناً واحدة. وأخشى ألّا تكون هي مريضة بالقدر الكافي»

قالتْ ميري «فلنجمع المعلومات كلها ونعرف رأيهم في حالتها»

أعطاها باتريك رسالة الموافقة التي كان قد كتبها قبل المغادرة إلى أميركا فحملتْها وانطلقَتْ إلى مأوى العجزة. في الرواق العُلويّ كانت عاملات التنظيف قد فتحنَ الأبواب واسعةً لتهوية الغرف. بدتْ إلينور من خلال فتحة الباب هادئة تماماً، إلى أنْ تبيَّنتْ شخصاً آخر يدخل الغرفة فحدَّقَت بما يُشبه تعبير وجه خالٍ من التعبير غاضِب في اتّجاه الوافد الجديد. وعندما أعلنتْ ميري عن هويتها، قبضَتْ إلينور بقوة على الحاجز الجانبيّ لسريرها ذي القضبان وحاولتْ أنْ ترفع نفسها، مُصدِرة غمغمات يائسة. وشعرتْ ميري بأنها قاطعتْ تواصُل إلينور مع عالمٍ وهميّ آخر ليستْ الأشياءُ فيه سيئة كما هي على كوكب الأرض. وفجأة شعرتْ بأنَّ كلا طَرَفَي الحياة كانا مُرعبين

إلى أقصى مدى، وبينهما امتداد مُخيف جداً. لا عَجَب في أنَّ الناس يبذلون أقصى ما في وسعهم لكي يهربوا.

لم تكن هناك أيّ فائدة من سؤال إلينور عن حالها، لا فائدة في محاولة إجراء حديث، وهكذا استغرقتْ في سرد مُلخَّص عمّا جرى بين بقيّتهم. بدا الرعب على إلينور لأنها وُضِعَتْ داخل أحداث عائلتها. وانتقلتْ ميري بسرعة إلى الغرض من زيارتها، واقترحَتْ عليها أنْ تقرأ الرسالة بصوتٍ مرتفع.

فقالت «إذا شعرتِ أنها تضمّ ما تريدين قوله، يمكنكِ أنْ توقّعي عليها»

أومأتْ إلينور برأسها مُوافقة.

نهضَتْ ميري وأغلقتْ الباب، بعد أنْ ألقتْ نظرة على الرواق لتتيقّن من عدم وجود ممرضات أثناء مرورهن. قرَّبَتْ كرسيها من سرير إلينور ووضعتْ ذقنها على طرف الحاجز، ممسكة بالرسالة باتجاه القضبان من جانب إلينور. وباشرتْ القراءة بعصبيّة مُفاجئة:

لقد أُصِبتُ بعدد من السكتات الدماغيّة على امتداد الأعوام القليلة الأخيرة، وكنتُ أشعر بعد كل واحدة بأنني مُحطَّمة أكثر من المرة التي سبقتها. أكاد أعجز عن الحركة أو الكلام. وأنا طريحة الفراش. وأشعر بألم متواصِل وبرعب وبإحباطٍ بسبب عجزي عن الحركة وعدم فائدتي. لا أملَ في أي تحسُّن، ليس هناك إلّا الانجراف نحو العَتَه، وهو أشدّ ما أخاف. إنني أشعر منذ الآن بأنَّ قُدُراتي تخونني. أنا لا أخاف الموت بل أتوقُ إليه. ليس هناك من سبيل آخر للتحرُّر من العذاب اليوميّ لوجودي. أرجوك ساعدني إنْ استطعت.

المُخلصة لك

سألتْ ميري، وهي تُقاوم البكاء، «أتظنّين أنَّ هذا عدل؟»

قالتْ إلينور بصعوبة بالغة «كلا... نعم»

«أعني وصفاً عادلاً»

«نعم»

أمسكتْ كل منهما بقوة بيد الأخرى برهة، من دون أنْ تتفوها بأي كلمة. نظرتْ إلينور إليها بنوعٍ من الجوع بعينين جافّتين.

«أتريدين أنْ توقّعي عليها؟»

قالتْ إلينور، وهي تبتلع بصعوبة، «أوقع»

عندما اندفعَتْ ميري خارجة إلى الشوارع، مع إحساسٍ بارتياحٍ جسديّ لابتعادها عن رائحة البول والملفوف المطبوخ، وعن جو غرفة الانتظار حيث كان الموت بمثابة قطار تأخّر في الوصول، شعرتْ بامتنانٍ لأنها تواصلَتْ برهة مع إلينور. شعرت عبر ذلك التماسُك بالأيدي ليس فقط باستغاثةٍ بل بعزمٍ دفعها إلى التساؤل إنْ كانت على صواب في شكّها في استعداد إلينور للانتحار. ومع ذلك كان هناك في إلينور شيء ضاع بأكمله، إحساس بأنها لم تنخرط في العالم الدنيويّ المؤلّف من العائلة والصداقة والسياسة والتملُّك، ولا هي انخرطتْ في عالم التأمُّل والإنجاز الروحيّ؛ هي فقط ضحّتْ بأحدهما من أجل الآخر. لو أنّها كانت تنتمي لقبيلةٍ تسمع باستمرار نداء الاختيار الغاوي الذي يوشكون أنْ يخسروه، فمن المؤكّد أنها كانت ستشعر بحاجة ماسّة إلى أنْ تبقى حيّة حالما تُنظَّم عمليّة الانتحار على أكمل وجه من أجلها. سوف يُصبح الخلاص دائماً في مكان آخر. وفجأة سوف يُصبح البقاء على قيد الحياة أشدّ روحانيّة – أي تعلُّم الصبر، والبقاء داخل نيران المُعاناة المُطهِّرة، أو ما شابه. سوف تُفرَض عليها المزيد من الحياة المُريعة وسوف يبدو حتماً أنَّ الموت أشدّ روحانيّة – أنْ تتّحد مع المنبع، وتتوقف عن أنْ تكون عبئاً، وتُقابل يسوع في آخر النفَق، أو مهما يكن. كان الروحانيّ مُعرَّضاً لتحوّلات لا نهائيّة من دون أنْ يفقد وضعه المركزيّ النظريّ، لأنها لم تُكرِّس نفسها له أبداً بفعاليّة أكثر من تكريسها لباقي الحياة.

عندما وصلتْ ميري إلى المنزل، خرج توماس إلى الردهة لكي يُرحِّب بها. أحاط فخذها بذراعيه مع بعض الصعوبة، بسبب كرة هوبرمان الكونيّة[1]، والإطار متعدد الأسطح والألوان، الذي سمحَ له أنْ ينطبق حول

1- كرة هوبرمان: دمية على شكل كرة كونيّة تتألّف من كريّات صغيرة موصوله معاً ويمكن طيّها إلى حجم أقل ومن ثم إعادة تشكيلها – المترجم.

عنقه ويعتمره كخوذة مُدبَّبة. كانت يداه تتدثران بفردتَي جورب وكان يحمل مروحة طائرة تعمل بالبطاريّة مزوّدة بأضواء صغيرة وامضة كان قد ربِحَها في أثناء زيارة سيرك الدولة الصينيّ في بلاكهيث.

«نحن على الأرض، أليس كذلك، ماما؟»

قالت ميري «مُعظمنا»، وهي تتذكّر النظرة التي لمحتْها على وجه إلينور من خلال باب غرفتها المفتوح.

قال توماس بحِكمة «نعم، كنتُ أعلم هذا. ما عدا روّاد الفضاء الذين في الفضاء الخارجيّ. إنهم يطفون في الفضاء لأنه لا توجد جاذبيّة!»

قال باتريك، وقد ظهر من ممرّ الباب، «هل وقَّعَتْ؟»

قالت ميري «نعم»، وسلَّمته الرسالة.

أرسل باتريك الرسالة مع استمارة العضويّة وتقرير الطبيب إلى سويسرا وانتظر يومين قبل أنْ يتّصل ليعرف إنْ كان طلب والدته قد قُبِل.

كان الجواب الذي تلقّاه «في هذه الحالة أعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ نقدِّم المُساعدة». ورفضَ بعناد أنْ يتورّط بانفعالاته، وابتعد عن الرعب والبهجة والرصانة واكتفى بالتعامُل معها من بعيد، متظاهراً بأنّه لم يتأثر. وساعدته في ذلك عاصفة من المطالب العمليّة التي اكتنفتْ عائلته خلال الأسبوع التالي. ونقلتْ ميري النبأ إلى إلينور وكان الجواب ابتسامة مُشرِقة. وأعدَّ باتريك رحلة طيران تنطلق في يوم الخميس التالي. وتلقّى مأوى العجزة نبأ مغادرة إلينور، ولم يُبلَّغ بالوجهة. وحُدِّدت جلسة استشارة مع طبيب في زيوريخ.

قال باتريك «في وسعنا جميعاً أنْ نذهب في يوم الأربعاء لكي نودّعها»

قالت ميري «ليس توماس. إنّه لم يرها منذ زمن بعيد وفي آخر مرَّة قال بكل وضوح إنّه انزعج. وروبرت ما زال يتذكَّرها عندما كانت بصحة تامة»

لم يكن في وسع أي من صديقات ميري أنْ يعتنين بتوماس في يوم الأربعاء وأخيراً اضطرَّت أنْ تطلب ذلك من أمّها.

قالتْ كيتل «طبعاً أنا مستعدّة أنْ أقوم بأي شيء لتقديم المُساعدة»، شاعرة بأنّه إنْ كان هناك أي وقت لإثارة أنواع الضجيج الصحيحة كلها فهو الآن.

«لِمَ لا تجلبينَهُ في وقت الغداء؟ يمكن لأمبارو أنْ تصنع له أصابع سمك لذيذة ويمكنكم جميعاً أنْ تأتوا لشرب الشاي بعد أنْ تودّعوا المسكينة العجوز إلينور»

عندما حلّ يوم الأربعاء جلبَتْ ميري توماس إلى باب شقّة أمّها.

قالت أمبارو «أمك ليست هنا»

قالت ميري، وقد فوجئت وفي الوقت نفسه تساءلتْ عن سبب تفاجئها، «أوه»

«خرجتْ لتشتري الكعك من أجل الشاي»

«لكنّها ستعود سريعاً...»

«لقد تناولت طعام الغداء مع أحد الأصدقاء ومن ثم سوف تعود، ولكن لا تقلقي، سوف أعتني بالصبي الصغير»

مدَّتْ أمبارو يديها المُتملّقتين، المتلهّفتين لحمل الطفل. لم يكن توماس قد قابلها قبل ذلك إلّا مرّة واحدة وسلّمتْه لها بشيء من التردُّد ولكن قبل أي شيء بإحساس بضجر ختاميّ. لن يحدث ذلك بعد الآن، لن تطلب من أمّها مرة أخرى أنْ تقدِّم لها مُساعدة. وبدا أنّه لا يمكن الرجوع عن القرار ومتأخِّراً كمنحدرٍ صخريّ سحيق يُفضي إلى البحر. ابتسمتْ لأمبارو وسلَّمتها توماس، من دون أنْ تُفرِط في طمأنته لئلا يجعله ذلك يعتقد أنَّ في ذلك الموقف شيئاً مزعجاً.

قال توماس في نفسه، ما ينبغي فعله ينبغي فعله، ومدَّ يده نحو الجرس المنفصِل بجوار المدفأة في غرفة الجلوس، كان يحبّ أنْ يقفَ على الكرسيّ الصغير ويضغط على الجرس ومن ثم يسمح بدخول القادم إلى باب الموقد. وحالما قالت أمبارو وداعاً لميري وتبعته، كان يُرحِّب بأحد الزائرين.

قال «إنّه بادجر!»

قالت أمبارو بذعر حذر «ومَن بادجر هذا؟»

قال توماس «إنّه السيد بادجر ليس متعوّداً على تدخين السجائر، لأنها تجعله أكبر حجماً وأصغر حجماً. لذلك هو يُدخّن سيجاراً!»

قالتْ أمبارو «أوه، كلا، يا حبيبي، لا ينبغي أنْ تدخّن. إنه يضرُّ بصحّتك»

ارتقى توماس الكرسيّ الصغير وضغط زر الجرس من جديد.

قال «اسمعي، هناك شخص بالباب»

وقفز هابطاً وأخذ يركض حول الطاولة. ثم عاد إلى الموقد، وشرح قائلاً، «إنني أهرع لأفتح الباب»

قالت أمبارو «انتبه»

قال توماس «إنها ليدي بينيلوب. سوف تقومين بدور ليدي بينيلوب!»

قالت أمبارو «هل تودّ أنْ تساعدني في استخدام المكنسة الكهربائيّة؟»

قال توماس متلبِّساً صوت باركر، «نعم، يا سيدتي. سوف تجدين ترمساً من الشوكولاتة الساخنة في صندوق قبعاتك». جأر بهذا مُستمتعاً وارتمى على وسائد الأريكة.

ولولتْ أمبارو «أوه، يا ربي، لقد رتّبتُ هذه تواً»

قال توماس «ابني لي منزلاً»، ورمى بالوسائد على الأرض، وصرخ عندما بدأتْ تُعيدها إلى أماكنها، «ابني لي منزلاً!»، وأخفضَ رأسه وتجهّمَ تجهّماً مُكفهرّاً. «اسمعي، أمبارو، هذا هو وجهي النكد»

رضخَتْ أمبارو لرغبته في بناء منزل وزحفَ توماس إلى المساحة الممتدة بين وسادتين وتحت سقف وسادة ثالثة.

علَّقَ حالما استقرَّ داخل الموقع، «لسوء الحظ، لقد توفيتْ بياتريس بوتر قبل زمن بعيد»

قالتْ أمبارو «أوه، أنا آسفة، يا حبيبي»

كان توماس يأمل في أنْ يعيشَ والداه أمداً طويلاً. أراد أنْ يُخلَّدا. كان قد تعلَّم هذه الكلمة من كتاب «*الأساطير اليونانية للأطفال*». لقد خُلِّدَتْ أدريان عندما حوّلها ديونيسوس إلى نجمة. وخُلِّدَتْ يعني أنها عاشتْ إلى الأبد – لكنّها كانت نجمة. لم يرد أنْ يتحول والداه إلى نجمتين. فما فائدة ذلك؟ سوف يتلألآن إلى الأبد.

قال بتوجّس «يتلألآن وفقط»

«أوه، يا ربي، تعال مع أمبارو إلى الحمّام»

لم يفهم لماذا أوقفته أمبارو بجوار كرسي المرحاض وحاولتْ أنْ تُنزِل بنطلونه إلى أسفل.

قال بصراحة «لا أريد أنْ أتبوّل»، وبدأ يمشي مبتعداً. والحقيقة هي أنَّ

أمبارو كانت صعبة المراس ولا يمكن الدخول في حديث معها. بدا أنّها لا تفهم أيّ شيء. وقرَّرَ أنْ يُتابع رحلة استكشافه. وهي خلفه، تثرثر.

قال، مُستديراً نحوها، «كلا، أمبارو، دعيني وحدي!»

«لا أستطيع أنْ أتركك وحدك، يا حبيبي. يجب أنْ يُرافقك شخص راشد»

قال توماس «كلا! أنتِ تُحبطينني!»

انطوتْ أمبارو على نفسها وهي تضحك. قالتْ «أو، يا ربي، أنتَ تعرف الكثير من المفردات»

قال توماس «يجب أنْ أتكلَّم، وإلّا سُدَّ فمي بقطع وشظايا من الكلمات»

«كم عمرك الآن، يا حبيبي؟»

قال توماس «أنا في الثالثة. كم كنتِ تظنين عمري؟»

«ظننتُ أنكَ على الأقل في الخامسة، أنتَ صبيّ بالغ»

قال توماس «همم»

رأى أنّه لا أمل في التخلّص منها وهكذا قرَّرَ أنْ يُعاملها كما يُعامله والداه عندما يُريدان أنْ يُسيطرا عليه.

قال «هل أحكي لكِ حكاية ألابالا؟»

كانا قد عادا إلى غرفة الجلوس. أرغمَ أمبارو على الجلوس على إحدى الأرائك وارتقى هو إلى مغارة وسائده.

بدأ بالقول «كان يا ما كان ألابالا في كاليفورنيا وكان يقود السيارة مع والدته ومن ثم وقع زلزال!»

قالتْ أمبارو «أتمنى أنْ تنتهي هذه القصة نهاية سعيدة»

قال توماسي «كلا! لا تقاطعيني!»، وتنهّدَ وبدأ من جديد، «وانشقّتْ الأرض وغرقَتْ ولاية كاليفورنيا في البحر، وهذا أمرٌ ليس ملائماً جداً كما يمكن أنْ تتخيّلي. وتشكّلتْ موجة مدٍّ عظيمة، وقال ألابالا لأمّه، «يمكننا أنْ نمارس التزلج على الأمواج في أستراليا!». وهكذا كان، وسُمِح لألابالا بقيادة السيارة». أخذَ يفتش السقف بحثاً عن إلهام ومن ثم أضاف قائلاً بأسلوب التذكُّر المفاجئ الطبيعيّ، «عندما وصلا إلى الشاطئ في أستراليا، كان ألان ريزور موجوداً هناك يُقيم حفلاً موسيقيّاً!»

سألته أمبارو، وقد تشوّشتْ تماماً، «مَنْ هو ألان ريزور؟»

قال توماس «إنه مؤلّف موسيقيّ. ويمتلك طائرات مروحيّة وآلات كمان وترومبيت وآلات ثقب، وألابالا يعزف في الفرقة الموسيقيّة»

«على أي آلة يعزف؟»

«على آلة المكنسة الكهربائيّة، طبعاً»

رجعتْ كيتل بعد تناول الغداء، ورأت أمبارو تُمسِك بخاصرتيها، فاعتقدتْ أنها تكاد لا تقوى على التحكّم في نفسها من فرط الضحك على فكرة أنَّ آلة المكنسة الكهربائيّة يُعزَف عليها في فرقةٍ موسيقيّة، لكنها في الحقيقية كانت تضحك بهستيريا لأنَّ فكرتها عمّا ينبغي أنْ يكون عليه الأطفال دمّرها انضمام توماس إليها.

لهثتْ وهي تقول «أوه، يا إلهي، إنّه حقاً صبي صغير مُذهل»

بينما المرأتان تكافحان للعناية به، أصبح توماس أخيراً قادراً على الانفراد بنفسه قليلاً. فقرّر أنّه لا يريد أنْ يُصبح راشداً أبداً. إنّه لا يحب شكل الراشدين. على أي حال، إذا أصبح راشداً فماذا سيحدث لأبويه؟ سوف يُصبحان عجوزَين، على غرار إلينور وكيتل.

رنَّ جهاز الاتصال الداخليّ فقفز توماس واقفاً على قدميه.

قال «أنا سأجيب!»

قالت كيتل «إنّه مرتفع جداً عليك»

«لكني أريد أنْ أجيب!»

تجاهلته كيتل وضغطتْ على زر الاتصال الداخليّ لكي تسمح للآخرين بدخول المبنى. وصرخ توماس في الخلفيّة.

عندما وصلتْ ميري إلى الشقّة قالت «ما سبب كل ذلك الصراخ؟»

قال توماس «لم تسمح لي الجدَّة بالضغط على الزرّ»

قالت كيتل «إنها ليس دمية للأطفال»

قالت ميري «كلا، ولكنه طفل يلعب. لِمَ لم تسمحي له باللعب بجهاز الاتّصال؟»

فكّرتْ كيتل في أنْ ترتفع فوق مستوى أسلوب ابنتها في التجادل، لكنّها قرّرت عكس ذلك.

قالتْ «إنني لا أُحسِنُ فعل أي شيء بشكلٍ صائب، لذلك يمكننا أيضاً أنْ نفترِض أنني على خطأ - حينئذٍ لن تكون هناك أي حاجة إلى الإشارة إلى ذلك. لقد وصلتُ تواً، لذلك أخشى أنَّ الشاي لم يُجهَّز بعد. لقد أسرعتُ بالعودة إلى المنزل بعد تناول الغداء الذي لم أتمكّن من التخلّص منه»

ضحكتْ ميري «نعم، لقد رأيناكِ تمعنين النظر من خلال واجهة المحل عندما كنا نحاول أنْ نوقِف السيارة. لا تقلقي، لنْ أطلب منكِ مرة أخرى أنْ تساعديني في رعاية الولدين»

قالت أمبارو، لكي توفّر لكيتل فُرصةً للمكوث مع عائلتها، «أنا أصنع الشاي، إذا شئت»

قالت كيتل بحِدّة «لا عليك. ما زلتُ قادرة على صنع إبريق من الشاي»

قال توماس، مُقترباً من والده «هل تصرفتُ بصبيانيّة؟»

قال باتريك «كلا، أنت صبيّ. وحدهم البالغون يتصرّفون بصبيانيّة، ويا إلهي، كم نستغلّ هذه الحقيقة»

قال توماس بحِكمة «فهمت»

كان روبرت مُسترخياً على كرسي أريكة شاعراً باكتئاب. كان قد نال من كلتا جدَّتيه ما يكفيه بحيث يدوم حتى آخر حياته.

عادتْ كيتل، ووضعتْ الصينيّة مع تأوه الارتياح.

سألتْ باتريك «إذن، كيف كان حال أمّك؟»

أجاب «لم تنطق إلّا كلمتين»

«وهل لهما أي معنى؟»

«بل معنى كاملاً، قالت «لا تفعل شيئاً»»

سألته كيتل، مُشددة على دستورٍ كانت تعلم أنَّ الأطفال مُستثنون منه، «تعني أنّها لا تريد... أنْ تذهب إلى سويسرا؟»

قال باتريك «هذا صحيح»

قالت كيتل «هذه ورطة»

شعرتْ ميري بالجهد الذي كانت تبذله لكي تتفادى استخدام كلمتها المُفضّلة: «إحباط»

قال باتريك «هذا شيء كلّنا مُعرَّضون للشعور حياله بالتشوّش. لقد شاهدت ميري الأمر كلّه. وأعتقد أنّها كانت أقلّ انغماساً في النتائج، أو فقط أشدّ وضوحاً. على أي حال، أنوي أنْ أتناول تصريحها الأخير هذا بجديّة تامة. لن أفعل شيئاً»

قال توماس «لا تفعل شيئاً؟ أعني، كيف تفعل لا شيء؟ لأنكَ إنْ فعلتَ لا شيء، فأنكَ تفعل شيئاً»

انفجر باتريك ضاحكاً. ورفع توماس ووضعه على رُكبته وقبَّلَ قُمّة رأسه.

قال باتريك «لن أقوم بزيارتها بعد الآن، ليس من باب النكاية، بل من باب الامتنان. لقد منحتنا هِبة ومن الفظاظة ألّا نقبلها»

قالت كيتل «هِبة؟ ألا ترى أنكَ تبالغ في تأويل تينك الكلمتين؟»

قال باتريك بفرح «ماذا في وسعنا أنْ نفعل غير أنْ نبالغ في تفسير الأشياء؟ أي عالم بائس، تافه، ومُملّ سوف نعيش فيه إذا لم نفعل هذا؟ ثم، هل هو ممكن؟ هناك دائماً من المغزى أكثر مما نستطيع أنْ نتوصّل إليه»

تشوّشتْ كيتل وسط تورّطها بأنواع متعددة من السخط في وقت واحد، لكنَّ توماس ملأ الصمت بالقفز عن رُكبة والده والهتاف «افعل لا شيء! افعل لا شيء!» وهو يهرول حول مائدة عامرة بالكعك وبالشاي.

ـ النهاية ـ



خماسيّة باتريك ميلْروز

أخيراً



روايــة

Author: **Edward St Aubyn** | اسم المؤلف: إدوارد سينت أوبين

Title: **Patrick Melrose – At Last** | عنوان الكتاب: باتريك ميلْروز–أخيراً

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al–mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street – from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

مكتبة

t.me/soramnqraa

إدوارد سينت أوبين

خماسيّة باتريك ميلْروز

أخيراً

-V-

ترجمة : أسامة منزلجي



الإهداء

إلى بو

-1-

قال نيكولاس برات «أفوجئتَ لرؤيتي؟»، وهو يغرز عصا المشي في سجادة المِحرقة[1] ويلقي على باتريك نظرة ثابتة تتَّسِم بقليل من تحدٍّ بلا هدف، وهي عادة لم تعُد مفيدة ولكن فات أوان تغييرها. «لقد أصبحتُ المُتسلِّل إلى المناسبات العامة. هذا ما يفعله مَنْ يصلون إلى مثل سنّي. لا فائدة من الجلوس في المنزل والقهقهة على الأخطاء الدالة على الجهل في أوراق النعي الصبيانيّة، أو الاستسلام للمتعة الرتيبة لعدِّ الحصّة اليوميّة للشخصيات المُعاصِرة المتوفّاة. كلا! على المرء أنْ «يحتفي بالحياة»: هذا أفضل شيء. يقولون إنّه خاضَ حرباً جيدة، لكنني أعرف أكثر من هذا! – إنَّ هذا الشيء، يضع الإنجاز كله في المنظور الصحيح. بالمناسبة، أنا لا أقول إنَّ الأمر كلّه ليس مؤثِّراً. هناك ما يُشبه تأثير الفرقة الموسيقيّة الضخمة في هذه الأيام الأخيرة. والكثير من الرعب، طبعاً. أقوم بجولاتي اليوميّة من سرير المُستشفى إلى مقعد التعزية ثم أعود من جديد، وأتذكّر ناقلات البترول التي تتحطَّم على الصخور كل بضعة أسابيع وتموت أسراب الطيور وتنجرف على الشواطئ وتلتصق أجنحتها معاً وعيونها الصفراء المذهولة تَطْرَف».

ألقى نيكولاس نظرة سريعة إلى الغرفة. غمغمَ «ليس الكثير من العناية»، وكأنّه يُحضِّر وصفاً لشيءٍ آخر. هل هؤلاء أصدقاء أمّك المُتدينون؟ إنهم شديدو الغرابة. ماذا تُسمّي لون تلك البزّة؟ أرجوانيّ غامق؟ *Aubergine a la crème d'oursin?* يجب أنْ أذهب إلى هنتسمان لكي يصنع لي واحدة.

1– المِحرقة، المقصود بها المركز الذي يتم فيه حرق جثث الموتى بطلبٍ منهم قبل موتهم – المترجم.

ماذا تعني، ليس لديك لون أرجواني غامق؟ كان الجميع يرتدون منه في جنازة إلينور مِيلْروز. سوف أطلب مقدار ميل من ذلك القماش في الحال!

«أعتقد أنَّ خالتك سوف تحضر قريباً. سوف تكون مألوفة جداً وسط المرتدين لون الأرجوانيّ الغامق. في الأسبوع الفائت رأيتها في نيويورك ويسعدني أنْ أقول إنني أول من نَقَلَ إليها النبأ المأساويّ عن أمّك. فانفجرتْ باكية وطلبَتْ شطيرة اللحم والجبن لكي تبتلعها مع الوجبة الثانية من أقراص الحِمية. ورثيتُ لحالها وجعلتُ آل بلاند يدعونها إلى العشاء. هل تعرف فريدي بلاند؟ إنّه أصغر أصحاب المليارات سنّاً على قيد الحياة. كان والداه قزمَين بالمعنى الحَرفيّ للكلمة، يُشبهان الجنرال توم ثمب والسيدة حَرَمُه[1]. كانا يدخلان الى المكان وسط هرج هائل ومن ثم يختفيان تحت طاولة مُثبّتة إلى جدار. كانت بيبي بلاند جدّيّة، كما يحدث لبعض الأشخاص في فترة انحدارهم نحو الخَرَف. وكانت قد قرّرتْ أنْ تؤلِّف كتاباً عن الحركة التكعيبيّة، من دون المواضيع السخيفة كلها. أعتقد أنَّ هذا يُشكِّل جزءاً من كونها زوجة مثاليّة. إنها تعرف الحالة التي تنتاب فريدي في عيد مولدها، ولكنْ بسبب هوايتها الجديدة، كل ما كان عليه أنْ يفعل الآن هو أنْ يجعل مزاد سوثبي يلفّ له لوحة مُثيرة للتقزّز تمثّل امرأة ذات وجه يشبه شريحة من البطيخ رسمها ذلك الخبيث المُزيَّف المدعو بيكاسو، وهو يعلم أنها سوف تطير من الفرح. أتعلم ماذا قالتْ بيبي لي؟ على مائدة الإفطار، إذا شئت، وأنا شبه أعزل»، وتلبَّسَ نيكولاس صوتاً متكلِّفاً:

«تلك الطيور الرائعة في الفن الباروكيّ المتأخِّر ليستْ في الحقيقة أكثر من ذريعة لوجود السماء».

فقلت، وقد شرقتُ مع أول رشفة قهوة، «ويا لها من ذريعة، إنها أفضل من آلة جزّ العشب أو من قبقاب. وهي تبيِّن أنّه متمكّنٌ كل التمكُّن من مواده».

«إنّه جادّ، كما ترى. إنّه مصير سوف أقاومه بكل ذرة من فكري، إلّا إذا تولّى الهر دكتور ألزهايمر زمام الأمر، وفي هذه الحالة سوف أُضطَرّ إلى

1- توم ثمل والسيدة حرمه: قزم شهير (1838-1883) كان يعمل في السيرك مع زوجته وكان يُعرَف بلقب الجنرال توم ثمب - المترجم.

تأليف كتاب عن الفن الإسلاميّ لكي أُبيِّن أنَّ أصحاب الرؤوس الملفوفة بالمناشِف لطالما كانوا أشدّ تحضّراً منا، أو إلى وضع مُجلّد ضخم عن قِلَّة ما نعرف عن والدة شكسبير وعن مذهبها الكاثوليكيّ السرّيّ. عن شيء جدّيّ».

«على أي حال، أخشى أنَّ الخالة نانسي ابتلتْ بآل بلاند. ولا بُدَّ أنَّ من الصعب أنْ يكون المرء اجتماعياً وليس لديه أي صديق في الوقت نفسه. مسكينة. ولكن هل تعلم ما الذي فاجأني، إلى جانب رثاء نانسي الشديد لذاتها، والذي كانت تتحلّى بما يكفي من الشجاعة لتتظاهر بأنّه حزن، ما فاجأني بشأنْ تينك الفتاتين، أمّك وخالتك، هو أنّهما، أو كانتا -لقد أمضيتُ حياتي أتذبذب بين صيغ الأفعال- أميركيتين بالكامل. وكانت صِلة والدهما مع آل هايلاند، ويجب أنْ نعترف بهذا، سلسة تماماً وبعد أنْ طرده جدَّك اختفى. أمضى فترة الحرب مع أولئك البلهاء آل ويندسور في ماسو؛ ثم انتقل إلى مونت كارلو بعد انتهاء الحرب، وأخيراً انهار في بار وايت. وكان، من بين الفئة التي تسكر إلى أقصى مدى في كل يوم من حياتها بدءاً بوقت الغداء وحتى يحين موعد النوم، هو الأشدّ سِحراً قاطبة، ولكن أعتقد أنّه كان مُخيِّباً للآمال كوالد. وعند ذلك المستوى من السُّكر يُحاول المرء في الأساس أنْ يُعانق رجلاً يغرق. والفورة العاطفيّة الغريبة التي كانت تنتابه خلال الدقائق العشرين وكان المشروب يدفعه نحوها لم تكن بديلاً عن الدفق الثابت لرقّة التضحية بالذات التي لطالما ألهمتْ جهودي الخاصّة كوالد. مع نتائج أعترفُ بأنها كانت متفاوتة. وأنا متأكِّد من أنكَ تعلم أنّ أماندا لم تكلِّمني طوال السنوات الخمس عشرة الأخيرة. وأنا أضع اللوم في ذلك على طبيبها النفسيّ لأنه ملأ رأسها الصغير غير الذكيّ أبداً بأفكار فرويديّة عن والدها الخرِف».

كان أسلوب نيكولاس الطنّان في الخطابة يتلاشى بالتدريج ليغدو همساً ملحاحاً، وكانت براجم يديه بعروقها الزرقاء بيضاء اللون جرّاء الجهد الذي بذله من أجل المُحافظة على انتصاب قامته. «حسن، يا عزيزي، سوف نتبادل حديثاً قصيراً آخر بعد المراسم. شيء رائع أنْ أجدكَ في أحسن حال. تعازيَّ وما إلى ذلك، على الرغم من أنّه إنْ كان هناك «تحرير رحيم»، فهو في حالة أمك المسكينة. لقد أصبحتُ أشبه بفلورنس نايتنغيل وأنا في سنٍ متقدِّمة،

ولكن حتى السيدة ذات المصباح اضطرّتْ إلى الفرار من وجه ذلك الدمار المُريع. إنّه يعمل عمل مكابح السيّارة في اندفاعي لكي أحصل على تطويبي لكنّني أُفضّل أنْ أقوم بزيارة أشخاص ما زال في استطاعتهم أنْ يستمتعوا بسماع ملاحظة قذرة وشرب كأس من الشمبانيا».

بدا كأنّه يوشك أنْ يغادر لكنه عاد أدراجه. «حاول ألّا تشعر بالمرارة لنقص المال. لقد انتهى الأمر بصديق أو صديقين من أصدقائي الذين عبثوا بذلك الجانب من الأشياء إلى الموت في أجنحة منظمة الصحة الوطنيّة ويجب أنْ أعترف بأنني تأثّرتُ كل التأثُّر بالنزعة الإنسانيّة للطاقم الأجنبيّ في مُعظمه. وبالمناسبة، ماذا يمكن أنْ تفعل بالمال خِلاف أنْ تنفقه عندما تحصل عليه أو أنْ تشعر بالمرارة إذا لم تحصل عليه؟ إنّه سلعة محدودة جداً يوظِّفُ الناسُ بها أرقى الانفعالات. وما أقصد حقاً أنْ أقول هو أنَّ عليك **فعلاً** أنْ تشعر بالمرارة فيما يتعلّق بالمال؛ إنه أحد الأشياء القليلة التي يستطيع أنْ يفعلها: أنْ يُسرِّب بعض المرارة. أحياناً كان بعض فاعلي الخير يشتكون من أنَّ لديّ أكثر ممّا ينبغي من الـ *betes noires* (الفزّاعات)[1]، لكنني في حاجة إلى فزّاعاتي لكي أتخلّص من «السواد» الذي في داخلي وأضعه في «الوحوش». ثم إنَّ ذلك الجانب من عائلتك عريق. ممَّ أصبحَت تتألّف الآن؟ من ستة أجيال وكل فرد من سلالتها، ليس فقط الأكبر سناً، خامل بطبعه. قد يتموّهون بالعمل، خاصة في أميركا حيث على كل شخص أنْ يحتلّ منصِباً، ولو فقط من أجل أنْ يجلس على كرسي مكتبه ويدور حول نفسه ويضع حذاءه على الطاولة مدة نصف ساعة قبل أنْ يحلّ موعد الغداء، وليس بدافع الحاجة. لا بُدَّ أنَّ من المُثير أنْ تنخرط في هذا المجال لصالحك وصالح أولادك، بعد هذه الفترة الطويلة من الاستثناء من التنافُس، على الرغم من أنني لا أستطيع أنْ أقول إنني أتكلّم من واقع التجربة. ويعلمُ الله ماذا كنتُ سأفعل بحياتي لو لم أوزِّع وقتي بين المدينة والريف، بين الوطن وخارج الوطن، بين الزوجات والخليلات. لقد قسّمتُ وقتي والآن قام الوقت بتقسيمي، ما رأيك؟ ينبغي

1- حرفيّاً تعني الوحوش السوداء - المترجم.

أنْ ألقي نظرة متفحِّصة على أولئك المُتطرفين المُتدينين الذين أحاطَتْ أمَّك نفسها بهم».

ابتعد نيكولاس وهو يعرج من دون ادّعاء بأنّه توقَّعَ أي جواب خِلاف الافتتان الصامتْ.

عندما استعاد باتريك ما جرى تذكَّر كيف مزَّقَ المرضُ والاحتضارُ أوهامَ إلينور الواهية في الممارسات الروحيّة، بدت له «الأوهام الدينيّة» أقرب شَبَهاً بالمتهرّبين الساذجين من الخدمة العسكريّة. وفي آخر حياتها انضمّتْ إلينور إلى دورة تعليمية سريعة لا ترحم في معرفة الذات، لا تحمل بإحدى يديها إلّا «طاقة حيوانيّة» وفي اليد الأخرى خشخيشة أطفال. وأُخضِعَتْ إلى أشدّ التمارين صعوبة: لا كلام، لا حركة، لا ممارسة جنس، لا تعاطي مخدرات، لا سَفَر، لا إنفاق، وأقلّ قدر من طعام؛ بل فقط وحدها في تأمّل صامت في أفكارها. إنْ كانت كلمة تأمُّل هي الكلمة الصحيحة. ربما شعرتْ بأنَّ أفكارها هي التي تتأمّلها، كوحوش ضارية جائعة.

قال صوتُ أيرلنديّ ناعم، «أكنتَ تفكِّر فيها؟». أراحتْ أنيت يدها الشافية على ساعد باتريك وأمالتْ رأسها المُتفهِّم على أحد الجانبَين.

قال باتريك «كنتُ أفكِّر في أنَّ الحياة هي مجرد تاريخ لِما نوليه انتباهنا. أما الباقي فاستعداد للرحيل».

قالتْ أنيت «أوه، أعتقد أنَّ هذا واضح وضوحاً صارخاً. وتقول مايا أنجيلو[1] إنَّ معنى حياتنا هو التأثير الذي نتركه على الآخرين، سواء أكان جيداً أم سيئاً. وكانت إلينور دائماً تجعل الآخرين يشعرون بالرضا، وكانت تلك إحدى هِباتها للعالم»، ثم أضافتْ بحماسة مُفاجئة، وهي تقبض على ساعد باتريك، «أوه، لقد أدركتُ هذا وأنا أدخل إلى هنا: نحن في مِحرقة مورتْليك لكي نودِّع إلينور، وخمِّنْ ماذا قرأتُ على مسمعها في آخر لقاء لي معها. لنْ تُخمِّن أبداً. قصيدة «*سيدة البحيرة*»[2]. إنها لغز بوليسي على نمط ملحمة الملك آرثر وفرسانه، وفي الواقع ليست جيدة كثيرة. ولكن هذا كل

1- مايا أنجلو: الشاعرة المعروفة.

2- قصيدة روائيّة للشاعر والروائيّ سير والتر سكوت - المترجم.

شيء، أليس كذلك؟ سيدة البحيرة – مورتْليك[1]. إذا أخذنا بعين الاعتبار صِلة إلينور بالماء وحبّها لأساطير الملك آرثر»

ذُهِلَ باتريك بثقة أنيت في الطاقة المُعزّية لكلماتها، وشعر بالغضب لأنَّ اليأس انتزعه. ما أفظع فكرة أنَّ أمّه اختارتْ أنْ تعيش بين أولئك الحمقى العنيدين. ما هي المعرفة التي كانت تصمِّم على تجنّبها؟

قال باتريك «مَنْ يستطيع أنْ يقول لماذا يجب أنْ تحمل مِحرقة ورواية سيئة اسمين متشابهين بصورة غامضة؟ شيء مُعذِّب أنْ يتجاوز المرء كثيراً التفكير العقلانيّ. سوف أخبرك مَنْ هو شديد الانفتاح على ذلك النوع من التواصُل: أترين ذلك العجوز الذي هناك ويُمسك بعصا للمشي. أخبريه. إنّه يُحبّ ذلك النوع من الأشياء. اسمه نِكْ». تذكّرَ باتريك بصورة مُبهَمَة أنَّ نيكولاس كان يبغض هذا الاسم المُختَصَر.

قالتْ أنيت، مُتقبّلة صرفها بمرح، «إنَّ شيموس يبعثُ إليك أفضل تمنياته»

أحنى باتريك رأسه، مُحاولاً ألّا يفقد سيطرته على إذعانه المُبالَغ فيه، «شكراً لك»

ما هذا الذي فعله؟ لقد أصبح ذلك كلّه من الماضي؟ الحرب مع شيموس ومؤسّسة أمّه انتهى أمرهما. والآن بعد أنْ أصبحَ يتيماً بات كل شيء في أحسن حال. كأنّه كان ينتظر طوال حياته هذا النوع من الكمال. كان كل شيء قد أضحى ممتازاً بالنسبة إلى كل أوليفر تويست في العالم، الذين بدأوا بالحالة التي يُحسَدون عليها واستغرق منه خمسة وأربعين عاماً ليُحقّقها، لكنَّ الرفاهيّة النسبيّة لكونه نشأ في كنف بمبل وفاغن[2]، وليس في كنف ديفيد وإلينور ميلْروز، كان من المتوقَّع أنْ تترك تأثيراً موهِناً على الشخصيّة. لقد جعل التحمُّل الصابر للتأثيرات المُحتَمَلة المُميتة من باتريك الرجلَ الذي هو عليه اليوم، يعيش وحيداً في شقّة مفروشة، ولم يمرّ أكثر من عام على زيارته الأخيرة لغرفة مُراقبة الانتحار في جناح المكتئبين من مستشفى الرهبان. بدا أنَّ الإصابة بهذيان الارتعاش الناشئ عن السُّكر تجري

1- مورتْليك: تعني حرفيّاً: بحيرة الموت – المترجم.
2- من أبطال رواية أوليفر تويست لتشارلز ديكنز.

في السلالة، وكذلك الرضوخ، بعد فترة شبابه العاصي كمُدمِن مخدرات، لعقوبة الإدمان على الخمر المُدمّرة. واليوم يتردَّد بوصفه مُحامياً في قتل نفسه بشكلٍ غير شرعيّ. بدت مشكلة الخمر عويصة، تجري مع تدفّق الدم. كان لا يزال يتذكّر، وهو في الخامسة من العمر، كيف كان يمتطي ظهر حمار بين أشجار النخيل والمساكب المكتظّة بأزهار حمراء وبيضاء من حدائق كازينو مونت كارلو، بينما جدّه يجلس على المقعد الأخضر يهتز بحركة لا إراديّة، تُثبّته أشعة الشمس، وثمة بقعة تنتشر ببطء على أرجاء بنطلون بزّته المُفصّلة بإتقان ذي اللون الرمادي - اللؤلؤيّ.

لأنَّ باتريك لم يكن لديه ضمان اضطرَّ إلى أنْ يُسدِّد تكاليف إقامته في المستشفى، مُستهلكاً موارده الماليّة كلها بمقامرة مدّتها ثلاثون يوماً لكي يبرأ. كانت مدة شهر، القصيرة بصورة غير مُفيدة من وِجهة نظر التحليل النفسيّ، لكنّها كانت مع ذلك مدة كافية بالنسبة إليه لكي يُفتَن في الحال بمريضة في العشرين من عمرها اسمها بيكي. بدتْ أشبه بفينوس لوحة بوتيتشيللي، حسّنتها تشكيلة دمويّة من ضربات متعاكسة من شفرة موسى على ذراعيها البيضاوين النحيلين. عندما رآها للمرة الأولى مسترخية في جناح المُكتئبين، أطلقَت تعاستها المُشعّة سَهماً ملتهباً إلى برميل بارود شعوره بالإحباط وبالفراغ.

قالتْ له «أنا مُصابة باكتئاب شديد وأتسبَّب بالأذى لنفسي، ويعطونني ثمانية أنواع مختلفة من الأقراص».

قال باتريك مُتعجّباً «ثمانية». كان هو يتناول ثلاثة: مُضاد الاكتئاب النهاريّ، ومُضاد الاكتئاب الليليّ، ومُهدئات «أوكسازيبام - اثنان وثلاثون» التي كان يتناولها لمعالجة هذيان الارتعاش الناتج عن السُّكر.

بمقدار قدرته على التفكير وهو تحت تأثير جرعة عالية من الأوكسازيبام، لم يكن يفكّر إلّا في بيكي. وفي اليوم التالي، نهضَ عن فراشه بصعوبة مع صرير ومشى مترهّلاً إلى جماعة دعم الكآبة آملاً في أنْ يراها من جديد، لكنَّ باتريك لم يستطع أنْ يتجنّب الانضمام إلى جماعة المُكتئبين المرتدين معاطف التدريب الثقيلة. تنهّدَ، وهو يرتمي على أقرب كرسيّ، «أما بالنسبة إلى الألعاب الرياضيّة، فلندع قدرتنا على التحمُّل تقوم بها بالنيابة عنّا».

استهلَّ أميركيّ اسمه غاري المُشاركة بالكلمات التالية «دعني أعطيك المُخطَّط العام: لنفرِض أنكَ أُرسِلتَ إلى ألمانيا من أجل العمل، ولنفرِض أنَّ صديقاً لم تسمع أخباره منذ زمن بعيد اتّصلَ بكَ هاتفيّاً وجاء ليزورك من الولايات المتحدة...»، وبعد أنْ انتهى من سرد حكاية تعجّ بقدر صاعق من الاستغلال والجحود، سأل المجموعة ماذا ينبغي أنْ يقول لهذا الصديق. قال تيري الجلف واللاذع، «أخرجه من حياتك. فمع وجود مثل هذا الصديق ما حاجتنا إلى الأعداء؟»

قال غاري، مُستمتعاً بوقته، «حسن، ولنفرض أنني أخبرتك أنَّ هذا «الصديق» كان أمّي، فماذا ستقول حينئذٍ؟ لِمَ سيكون الوضع مُختلفاً جداً»

سرى الرعب بين صفوف الجماعة. وقال أحد الرجال، كان يشعر «بنشاط تامّ» بما أنَّ أمّه كانت قد جاءت في يوم الأحد وأخذته معها لشراء بنطلون جديد، إنَّه لا ينبغي على غاري أنْ يتخلّى عن أمّه. ومن جهة أخرى، كانت هناك امرأة اسمها جيل خرجت «في مشوار طويل على طول النهر كدتُ لا أعود منه – حسن، بعبارة أخرى، لقد رجعت وأنا *مُبلّلة تماماً*، وقلتُ للدكتور باغاتزي، الذي أحبّ أنْ أعضّه، إنَّ للأمر صِلة بأمّي فقال، «إننا لن نذهب إلى هناك أصلاً»». قالتْ جيل إنَّ على غاري أنْ يفعل مثلها وألّا يورّط أمّه في الأمر. وفي ختام الجلسة، حاول رئيس الجلسة الاسكتلنديّ الحكيم أنْ يحمي المجموعة من سيل النصائح الأنانيّة هذا.

قال «ذات مرّة سألني أحدهم لماذا الأمهات بارعات جداً في تحفيزنا، وكان جوابي هو «لأنَّ هذه هي وظيفتهنّ أصلاً»».

أومأ الجميع برؤوسهم بكآبة، وتساءلَ باتريك، وليس للمرة الأولى، ولكن بيأسٍ مُتجدِّد، ما معنى أنْ أكون حرّاً، أنْ أعيش ما بعد طغيان التبعيّة والتكيُّف والاستياء.

بعد جماعة الدعم، رأى بيكي المُستسلمة، التي تُدخّن سرّاً، والحافية، تهبط الدَّرَج إلى ما بعد غرفة الغسيل. لحقَ بها فوجدها تنهار على الدَّرَج، وبؤبؤا عينيها الواسعَين يسبحان وسط بحيرة من الدموع. قالتْ «كم أكره هذا المكان. سوف يطردونني لأنهم يقولون إنَّ سلوكي سيّئ. لكنّني ألازم

السرير فقط لأنني شديدة *الكآبة*. لا أعلم إلى أين سأذهب، لا أستطيع أنْ أعود لأعيش مع والديّ»

كانت تصرخ طالبة المُساعدة. لِمَ لا يهرب معها إلى الغرفة المفروشة؟ لقد كانت إحدى القلائل الأحياء الأكثر ميلاً إلى الانتحار منه. يمكنهما أنْ يناما معاً على السرير، كراهبين لاجئين، واحد مُصاب بالتشنّج والآخر تعرَّضَ للضرب بالسياط. لِمَ لا يُعيدها ويدعها تُنهي العمل بالنيابة عنه؟ تضميد عروقها شديدة الزُرقة، وتقبيل شفتيها اللتين تُصبحان بيضاوين. كلا كلا كلا كلا كلا. إنّه في أحسن حال، أو على الأقلّ طاعن في السن.

في هذه الأيام لم يعُد يتذكّر بيكي إلّا بعد جهد متأنٍّ. وكثيراً ما كان يُراقب هواجسه تمرّ عليه كالعديد من مرّات احمرار الوجه، وراقبها وهي تتلاشى، بامتناعه عن عمل أي شيء بشأنها. كان تحوّله إلى يتيم معياراً حراريّاً يستمرّ هذا الحسّ الجديد بالحريّة بالارتفاع عليه، ليتَه كان يتحلّى بالشجاعة بحيث لا يشعر بالذنب حيال الفرصة التي أتاحها.

اقتربَ باتريك من نيكولاس وأنيتْ، يحدوه الفضول لرؤية نتيجة تدبير اجتماعهما.

سمعَ نيكولاس يرشد أنيتْ «قفي بجوار الفرن، وردّدي هذه الكلمات، «وداعاً أيها الشيء العجوز. سوف يموت أحدنا أولاً وأنا مُبتهجة لأنه كان أنت!». هذا هو تمريني الروحيّ، ونحن نرحب بك لكي تردّديه وتضعيه داخل «صندوق أدوات عدَّتك الروحيّة» المُثير للضحك»

قالتْ أنيت، عندما شاهدتْ باتريك يقترب «إنَّ صديقك لا يُقدَّر بثمن. وما لا يُدركه هو أننا نعيش في كونٍ مُحبّ»، وطمأنَتْ نيكولاس قائلة، وهي تضع يدها على كتفه الذي ارتدّ، «وهو يُحبّك أيضاً، يا نك»

قال نيكولاس بحِدَّة «لقد سبقَ أنْ اقتطفت من أقوال بيبيسكو[1]، وسوف أقتطفُ من جديد: «إنَّ الكون بالنسبة إلى الرجل المُجرِّب، هو مجرد ضاحية»».

1- إليزابث بيبيسكو (1897-1945): أو الأميرة إليزابث بيبيسكو. كاتبة بريطانيّة. ولها أقوال كثيرة معروفة. كانت ابنة رئيس وزراء وزوجة أمير رومانيّ - المترجم.

قالتْ أنيت «أوه، إنَّ لديه جواباً على كل شيء، أليس كذلك؟ أعتقد أنّه سوف يشقّ طريقه إلى السماء وهو يمزح. إنَّ القديس بطرس يحبّ الرجل الفكه».

قال نيكولاس، وقد هدأ بشكل مُفاجئ، «أحقّاً؟ هذا أفضل ما سمعت حتى الآن عن ذلك السكرتير الشخصيّ الأخرق. وكأنَّ الكائن السامي سوف يوافق على قضاء الأبديّة مُحاطاً بحشد من الراهبات والفقراء والمُبشّرين ذوي البشرة التي لوّحتها أشعّة الشمس، وحفلاته الموسيقيّة الجميلة تُفسدها قرقعة صناديق أدوات العِدَّة الروحيّة وصرخات المؤمنين، متباهين بصلبهم! كم هو مُريح أنْ يصل الأمر المُستنير أخيراً إلى بوّاب بيرلي غيتس[1]: «إكراماً لله، أرسلي إليّ مُحدِّثاً بارعاً!»».

نظرتْ أنيت إلى نيكولاس بتأنيب فكِه.

قال، مومئاً برأسه نحو باتريك «آه، لم يخطر في بالي أنني سوف أشعر بالامتنان لرؤيتي خالتك التي لا تُطاق» ورفعَ عصاه ولوَّحَ بها باتجاه نانسي. كانت واقفة عند ممر الباب يبدو عليها الإرهاق تحت وطأة غطرستها، وكأنَّ حاجبيها المرفوعَين قد لا يتحمّلان الشدّ أكثر من ذلك.

قالت لنيكولاس «ساعدني! مَنْ هؤلاء الناس غريبي الأطوار؟»

شرح نيكولاس، مادّاً ذراعيه نحو نانسي، «إنهم متمرّدون، وحالمون، وأطبّاء مُشعوذون، وإرهابيّون مُدّعون، وكل نوع من أنواع مجانين الدين. تفادي التواصُل معهم بالنظر، ابقي قريبة مني فقد تعيشين طويلاً لكي تحكي الحكاية».

رفعَتْ نانسي بصرها إلى أعلى بغضب عندما رأتْ باتريك. قالتْ «**لا تُقِم** الجنازة في هذا اليوم بالذات»

سأل مضطرباً، «لماذا؟»

«إنه يوم عرس الأمير تشارلز. الأشخاص الآخرون الوحيدون الذين يمكن أنْ يحضروا سوف يكونون في قصر ويندسور»

1- بيرلي غيتس: أو بوابة الجنّة - المترجم.

قال باتريك «أنا متأكِّد من أنكِ كنتِ ستذهبين إلى هناك، لو أنكِ دُعيتِ. لا تتردَّدي في الذهاب إلى هناك حاملة الراية البريطانيّة ومنظاراً من الكرتون إذا وجدتِ ذلك مُسلّياً أكثر»

أَنَّتْ نانسي قائلة «عندما أفكِّر في أسلوب تنشئتنا، أجدُ من السُخف التفكير فيما فعلته أختي بـ...» وخانتها الكلمات.

همهم نيكولاس، قابضاً بقوة أكبر على عصا المشي عندما ارتخت مُستندة عليه، «بدفتر العناوين الذهبيّ»

قالتْ نانسي «نعم، دفتر العناوين الذهبيّ»

-2-

راقبتْ نانسي ابن أختها الحانق وهو يتقدَّم من تابوت أمّه. لنْ يفهم باتريك أبداً الأسلوبَ الرائع الذي نشأتْ به هي وإلينور. لقد تمرّدتْ إلينور بغباء عليه، في حين أنّه انتُزِعَ من بين يدَي نانسي المضمومتين الورعتَين.

تنهّدتْ من جديد، وهي تشبك ذراعها بذراع باتريك. «دفتر العناوين الذهبيّ. أعني، على سبيل المِثال، لم يقع لأمي إلّا حادث سيارة واحد في حياتها كلها، ولكن حتى حينئذٍ، وهي مقلوبة رأساً على عقب وسط المعدن الملتوي، كانت تتدلّى معها ابنة عاهل إسبانيا»

قال نيكولاس «يجب أنْ أعترف بأنَّ هذا شديد الدقّة. يمكن لحادث سيارة أنْ يجعل المرء يتورّط مع أشخاص غامضين من كل الأنواع. تخيّلي الاضطراب الذي يمكن أنْ يسود كليّة هيرالدز إذا ما استقرَّتْ قطرة من دم أحدهم على حاجب سيارة شاحنة وامتزجتْ مع سوائل جسم كائن متوحش تهشَّمَ رأسه على عجلة القيادة»

قالت نانسي بحِدَّة «أينبغي أنْ تكون دائماً فكهاً؟»

قال نيكولاس «إنني أبذل أقصى جهدي، ولكن لا تستطيعين أنْ تتظاهري بأنَّ أمّك كانت مُعجَبَة بالرجل العاديّ. ألم تشتر شارعاً كاملاً في القرية يمتد على طول حدود جدار بافيون كولومب، لكي تُدمّره وتمدّ من مساحة الحديقة؟ كم كان عدد المنازل؟»

قالت نانسي، مبتهجة، «سبعة وعشرين. ولم تُدمَّر كلّها. بعضها تحوَّل إلى نوع الأطلال المناسِبة تماماً للمنزل. كانت هناك منازل باذخة بصورة حمقاء وكهوف اصطناعيّة، وأمرتْ أمي بصنع نسخة طبق الأصل من المنزل

الرئيس، ولكن أصغر حجماً بخمس عشرة مرَّة. كنا نتناول الشاي هناك، كان الجو هناك كأنّه مأخوذ من رواية «*أليس في بلاد العجائب*». واكفهرَّ وجه نانسي. «كان هناك رجل عجوز فظيع رفضَ أنْ يبيع، على الرغم من أنَّها دفعتْ له مبلغاً كبيراً جداً مقابل منزله الصغير الضيّق، ولذلك كان هناك تقعّر نحو الداخل على امتداد الجدار القديم، إذا تخيّلتَ ما أقول»»

قال نيكولاس «إنَّ كل جنّة تحتاج إلى أفعى»

قالت نانسي «لقد تعمَّد فعل ذلك لكي يُزعجنا، ورفع راية العلم الفرنسي على السطح وكان يُذيع أغاني إديث بياف طوال النهار. واضطررنا إلى خنقه بالنباتات»

قال نيكولاس «ربما كان يحب صوت إديث بياف»

«أوه، كفاك مُزاحاً! لا أحد يمكن أنْ يحبّ صوت إديث بياف بذلك الصوت المرتفع»

بدا كلام نيكولاس لأُذُن نانسي الحسّاسة فظّاً. وماذا لو أنَّ أمي لم تكن ترغب في أنْ يقترب الأناس العاديون كثيراً من ممتلكاتها؟ لا غرابة في أنَّ كل شيء آخر بدا رائعاً. كان الرسّام فراغونار قد رسم لوحة «*آنسات كولومب*» في تلك الحديقة، ومن هناك جاءت الحاجة إلى أنْ يحتوي المنزل على لوحات فراغونار. وكان المُلّاك الأصليون قد علّقوا لوحتين كبيرتين للرسام غواردي في غرفة الجلوس، وبالتالي حقّ لهم أنْ يستعيداهما.

لم يسعْ نانسي إلّا أنْ تُصبح ممسوسة بعَظَمَة ودمار عائلة أمّها. وكانت تنوي أنْ تؤلّف ذات يوم كتاباً عن أمّها وخالاتها، عن الأخوات جونسون الأسطوريات. كانت تجمع موادَّ أوّليّة منذ سنين، موادَّ متنوعة مذهلة لا تحتاج إلّا إلى تنظيم. وفي الأسبوع الفائت، طردَتْ من العمل باحثاً شابّاً لا أمل يُرجى منه –وهو رقم عشرة ضمن سلسلة من الأنانيين الجشعين أرادوا أنْ يتلقّوا أجورهم مُقدَّماً– وذلك بعد أنْ كَشَفَ آخر عبيدها النقاب عن نسخة عن شهادة مولد جدَّتها. ووِفقاً لتلك الوثيقة الطريفة الرائعة، تكون جدَّة نانسي قد «وُلِدَتْ في بلد هنديّ». كيف كان يمكن لابنة ضابط شاب في الجيش، وُلِدَتْ في ذلك المكان الغريب، أنْ تخمّن، وهي تتنقَّل بين الأسرَّة الصارَّة

ذات فُرُش القشّ والأحصنة المُضطربة في حصن بُنيَ من اللِّبن على الحدود الغربيّة، أنَّ بناتها سوف يتمشّين في أروقة قلاع أوروبيّة ويملأنَ منازلهن ببقايا سُلالات حاكمة فاشلة - يرششن الماء على أرجاء حمّام رخام ماري أنطوانيت الأسود، بينما كلابهنّ اللابرادور الصفراء تغفو على سجّاد جُلِبَ من قاعة عرش القصر الملكيّ في بكّين؟ حتى أحواض الحديقة الرصاصيّة على مصطبة بافيون كولومب كانت قد صُنِعَتْ من أجل نابوليون. ونحل ذهبيّ يفتش خلال براعم الأزهار الفضيّة، يقطر ماءً تحت المطر. لطالما اعتقدتُ أنَّ جان دفعَ أمّها إلى شراء تلك الأحواض لينتقم بصورة مُبهمة من نابوليون لأنه قال إنَّ سَلَفَه، دوق فالانساي الأكبر، كان «قطعة من القذارة ملفوفة بجورب من الحرير». وما أرادتْ أنْ تقول هو أنَّ جان حافظَ على تراث العائلة، ما عدا على الجورب الحرير. قبضَتْ نانسي على ذراع نيكولاس بشدّة أكبر، وكأنَّ زوج أمها الرهيب قد يُحاول أنْ يسرقه أيضاً.

ليت أمي لم تُطلِّق والدي. لقد عاشوا حياة بهيجة في صننينغ - هيل بارك، حيث نشأتْ هي وإلينور. كان أمير ويلز يُعرّج عليهم دائماً، ولم يكن يُقيم في المنزل أقلّ من عشرين شخصاً، ويقضون أحلى ما يمكن تخيّله من الأوقات. صحيح أنَّه كانت للأب عادة سيئة هي أنّه كان يشتري للأم هدايا غالية غلاءً فاحشاً، وكانت تُضطر إلى تسديد ثمنها من جيبها. وعندما تقول «أوه، حبيبي، ما كان يجب أنْ تشتريها» كانت صادقة في قولها. وتتوتر أعصابها جرّاء التعليق على الحديقة. وإذا قالتْ إنَّ الحدود تحتاج إلى المزيد من اللون الأزرق، إذا بها بعد يومين تجد أنَّ الأب قد جلب بالطائرة بعض الأنواع النادرة من الأزهار من التيبت تزهر مدة ثلاث دقائق وتُكلِّف ما يُعادل ثمن المنزل. ولكن قبل أنْ يحضر المشروب، كان الوالد قد أصبح وسيماً وودوداً ويضحك ضحكاً مُعدياً حتى أنَّ الطعام كان كثيراً ما يحضر وهو يهتزّ على الطاولة، لأنَّ الخادم يضحك ضحكاً مفرطاً بحيث لا يتمكّن من حمل الأطباق بثبات.

عندما حلَّ الانهيار الكبير، هرع المُحامون قادمين بالطائرات من أميركا ليطلبوا من آل كريغ أنْ يخرجوا بحلّ لفعل شيء. وفكّروا وأطالوا التفكير، ومن الواضح أنهم لم يتمكنوا من بيع صننينغ-هيل بارك، واضطروا إلى

الاستمرار في تسلية أصدقائهم. وطرد أحد الخدم سيكون شيئاً فظاً جداً ومزعجاً. فهم لا يستطيعون الاستغناء عن المنزل الكائن في شارع بروتون من أجل قضاء أسبوعَين في لندن. وكانوا في حاجة إلى سيارتَي رولز- رويس وإلى سائقَين لأنَّ الأب كان دقيقاً في مواعيده بصرامة والأم تتأخّر على الدوام. وفي الختام ضحّوا بإحدى الصُحُف الست التي كان كل ضيف يتلقاها مع وجبة إفطاره. ولانَ المُحامون. كانت بحيرات أموال جونسون عميقة إلى درجة لا يمكن عندها التظاهُر بأنَّ هناك أزمة؛ لم يكونوا مُضاربين في سوق البورصة، بل كانوا صناعيين ومالكين لقسم كبير من مدن أميركا. والناس دائماً يحتاجون إلى دهنٍ قاسٍ وسوائل للغسل على الناشف وإلى مكان يُقيمون فيه.

حتى إنْ كان الأب مُغالياً في إسرافه، وزواج الأم من جان حماقة لا يمكن تبريرها إلّا باللقب الناتج - فقد كانت حتماً غيورة من الخالة غيرتي لأنها تزوجتْ من دوق عظيم. وكان دور جان في قصة جونسون هو أنْ يجلب الخزي على نفسه، بوصفه كذّاباً ولصّاً، وزوجَ أمٍّ فاسقاً وزوجاً طاغية. وبينما الأم على سرير احتضارها متأثّرة بمرض السرطان، كان جان يثور غضباً، صارخاً بأنَّ وصيتها ترمي ظلاً من الشك على شَرَفِه. لقد تركتْ له منازلها ولوحاتها الفنيّة وأثاث منازلها ليستغلّها فقط في أثناء حياته وبعد ذلك تنتقل ملكيتها إلى أولادها، وكأنها لا تثقُ فيه في ترك أملاكها لهم بنفسه. كان يعلم جيداً أنها من أملاك جونسون... إلى آخره؛ ثم المورفين، الألم، الصراخ، والوعود الساخطة. وغيَّرتْ وصيتها وتراجع جان عن وعده ونقل كل شيء إلى ملكيّة نسيبه.

يا الله، كم أبغضَتْ نانسي جان! لقد مضى على وفاته حتى الآن حوالي أربعين عاماً، لكنّها أرادتْ أنْ تقتله في كل يوم. لقد سرقَ منها كل شيء ودمَّرَ حياتها. الصننينغ - هيل، والبافيون، والبالاتزو أريشل، كلها ضاعت. بل لقد ندمتْ على ضياع بعض من منازل جونسون التي ما كان يمكن أنْ ترثها، أي إلّا بعد أنْ يتوفّى العديد من الناس، وكان ذلك سيشكل مأساة، ولكن كانت على الأقلّ ستعرف كيف تعيش فيها حياة لائقة، وهذا أكثر مما يمكن أنْ يُقال عن بعض الناس الذين تعرفهم.

قالتْ نانسي «كل الأشياء الجميلة، كل المنازل الجميلة، أين ذهبت كلّها؟».

قال نيكولاس «ربما المنازل ما زالت حيث كانت دائماً، لكنّ أُناساً آخرين قادرين على تكاليفها يعيشون فيها»

«ولكن هذا كل ما في الأمر، سوف أتمكّن من تحمّل تكاليف العيش فيها!»

«لا تستخدمي صيغة الكلام الشرطيّة عندما يتعلّق الأمر بالمال»

لقد كان نيكولاس فظيعاً حقاً. إنها حتماً لنْ تُخبره بأمر كتابها. كان إرنست هيمنغواي قد أخبر والدها بأنّ عليه حقاً أنْ يؤلِّفَ كتاباً، لأنّه بارع في رواية قصص مضحكة حقاً. وعندما أبدى الوالد احتجاجه قائلاً إنّه لا يُحسِن الكتابة، أرسل هيمنغواي له آلة تسجيل. ونسيَ الوالد أنْ يوصِل الآلة بالكهرباء، وعندما لم تدُر البكرات، فقد أعصابه ورماها من النافذة. ولحُسن الحظ، لم تتّخذ المرأة التي وقعَتْ الآلة عليها أي إجراء قانونيّ، وحصل الأب على قصّة رائعة أخرى، لكنَّ الحادثة برمّتها جعلتْ نانسي متشائمة من آلات التسجيل. ربما عليها أنْ تستأجِر كاتباً شَبَحاً[1] يتولّى الكتابة بالنيابة عنها. أنْ يُخلِّصها شبح! سيكون ذلك شيئاً جديداً. ومع ذلك، يجب أنْ تمدّ الشبح المسكين بفكرة عن كيفيّة فعل ذلك. قد تمدُّه بفكرة بعد أخرى، أو عقداً زمنيّاً بعد آخر، لكنَّ ذلك بدا لها مدخلاً جديراً بمُدمن على القراءة واسع الثقافة متجهِّم. أرادتْ أنْ يتم الأمر بين أختٍ وأختها؛ فقبل كل شيء، كانت المنافسة بينهما بمثابة قوة دافعة.

كانت غيرتي، الأصغر سناً والأجمل من بين الأخوات جونسون الثلاث، هي حتماً الأكثر تنافساً مع الأم. تزوّجتْ من الدوق العظيم فلاديمير، وهو نسيبُ آخر قياصرة روسيا. وكان «العم فلاد»، كما كانت نانسي تُخاطبه، قد ساعد في اغتيال راسبوتين، بإعارة مُسدسه الإمبراطوريّ للأمير يوسوبوف لاستخدامه من أجل ما افتُرِضَ أنّها عمليّة القتل الأخيرة، ولكن اتَّضَحَ أنها

1- الكاتب الشبح: هي الترجمة الحرفيّة للكاتب الذي يتولّى الكتابة عن شخص آخر، مشهور في المعتاد – المترجم.

كانت المرحلة الوسطى ما بين تسميم الكاهن الحيويّ بالزرنيخ وإغراقه في نهر نيفا. ورغم العديد من المناشدات، نفى القيصرُ فلاديمير الدور الذي لعبه في عمليّة الاغتيال، وفوَّتَ عليه فرصة حضور قيام الثورة الروسيّة والتعرُّض للقتل، أو الشنق على أيدي سادة روسيا الجُدد البلاشفة. وحالما أصبح العم فلاد في المنفى استمر في اغتيال نفسه بشرب ثلاث وعشرين كأساً من المارتيني الصِرف قبل وجبة غداء كل يوم. وبفضل النزوة الروسيّة في تحطيم الكأس بعد شرب محتواها، لم تكن ترين على المنزل لحظة من الصمت. وكانت في حوزة نانسي نسخة الوالد من مُذكرات منسيّة كتبتها أخت العم فلاد، الدوقة الكبرى آنّا. كانت مكتوبة بحبرٍ أرجوانيّ وموجّهة «إلى صهري العزيز»، على الرغم من أنّه في الحقيقة كان زوج أخت زوجها. بدتْ الكتابة لنانسي نموذجيّة نوعاً ما وتدل على الشموليّة الوافرة التي مكَّنَتْ تلك العائلة المُذهلة من الإقامة في قارّتين، من كييف وحتى فلاديفستوك. وقبل زواج العم فلاد من غيرتي في بياريتز، كانت أخته قد مارست التبريك الذي كان يقوم به تقليديّاً أبواها. كانت لحظة خشياها لأنها ذكّرتهما بالسبب المُريع لغياب عائلتهما. ووصفَتْ الدوقة الكبرى مشاعرها في «*قصر الذاكرة*»:

شاهدتُ من خلال النافذة الأمواج العُظمى وهي تضرب الصخور؛ كانت الشمس قد غربَتْ، وبدا المُحيط لي في تلك اللحظة لا يعرف الرحمة ولا مبالياً كالقَدَر، ووحيداً إلى أقصى مدى.

قرَّرت غيرتي أنْ تتحول إلى الديانة الكاثوليكيّة الروسيّة، لكي تكون أكثر قُرباً من قوم فلاديمير. وتابعتْ آنّا:

كنتُ أنا ونسيبنا دوق ليختنبرغ عرّابين. كانت المراسم طويلة ومُملّة، وشعرتُ بالرثاء على غيرتي، التي لم تفهم أي كلمة قيلت فيها.

لو كان في استطاعة كاتبها الشبح أنْ يكتب بأسلوب جيّد كهذا، شعرتْ

نانسي بأنها متيقّنة من أنها كانت ستحصل على كتاب يلقى نجاحاً واسع الانتشار. كانت الأخت الكبرى لآل جونسون هي الأكثر ثراءً من الجميع: كانت الخالة إديث المُسيطرة والعمليّة. وفي حين أنَّ أختيها الطائشتين الأصغر سنّاً منها قفزتا إلى داخل صفحات كتاب تاريخ مُصوَّر، تُمسكان بأيدي ببعضهما بعضاً ممَّنْ تبقّى من كُبرى عائلات العالم، تزوّجتْ الخالة إديث العاقلة، التي فضَّلَتْ أنْ تصلها الآثار القديمة في صندوق، زيجة عزّزتها من رجل كان اسم والده، على غرار والدها، مُدرَجاً على قمة أغنى مائة رجل في أميركا عام 1900. وأمضَتْ نانسي العامَين الأوّلين من الحرب مع إديث، بينما حاولتْ الأم أنْ تُخزّن بعضاً من أثمن الأشياء حقاً لديها في سويسرا قبل أنْ تنضمّ إلى بناتها في أميركا. وقام زوج إديث، العم بيل، بخطوة فريدة من نوعها ودفع من جيبه ثمن الهدايا التي قدّمها لزوجته. وكانت إحدى هدايا عيد الميلاد عبارة عن منزل أبيض من ألواح الخشب له مصاريع نوافذ خضراء قاتمة وجناحان محفوران برقّة، قائم على مرجٍ منحدر يعلو بحيرة، في مركز مزرعة من عشرة آلاف فدّان. وأحبّت المنزل. كان مِنحةً من النوع المفيد الذي لا يقدّمونها لك في كتبٍ تُدعى «*فنّ العطاء*».

ألقى باتريك نظرة خاطفة إلى خالته التعسة، ولا تزال تشتكي لنيكولاس الواقف عند المدخل. لم يسعه إلّا أنْ يفكّر في القول المأثور المُفضَّل لرئيس مجلس مجموعة الاكتئاب، «الاستياء هو جرع السُمّ، ثم الأمل في أنْ يموت شخصٌ آخر». كان المرضى كلّهم يُجسّدون ذلك القول بلكنات اسكتلنديّة مُقنِعة بصورة ما على الأقلّ مرَّة في اليوم.

إنْ كان هو الآن واقفاً بجوار تابوت أمّه بانفصالٍ مُزعج، فذلك ليس تقديراً لـ «دفتر العناوين الذهبيّ» الخاصّ بخالته. والماضي بالنسبة إلى باتريك جثّة تنتظر مَنْ يحرقها، وعلى الرغم من أنَّ أمنيته كادتْ أنْ تتحقَّق حرفيّاً تقريباً، في فرنٍ لا يبعد أكثر من بضع ياردات عن مكان وقوفه، فإنَّ نوعاً آخر من النار كانت لازمة من أجل حرق المواقف التي كانت هاجس نانسي؛ التأثير النفسيّ للثروة الموروثة، والرغبة الضارية للتخلُّص منها والرغبة الحادّة في التمسُّك بها؛ والأثر المُربِك للحصول على ما كان كل شخص آخر تقريباً

يُضحّي بحياته الثمينة من أجل الحصول عليه؛ والترفُّع السرّيّ بصورة أو بأخرى والخزي السرّي بصورة أو بأخرى من كونه ثريّاً، يولّدان أقنعتهما المُميَّزة: الحلّ المُحبّ للبشريّة، والحل الكحوليّ، وقِناع غرابة الأطوار، والبحث عن الخلاص عبر الذوق الممتاز؛ والمهزوم، والخامل، واللعوب، وخصومهم، حاملو الرايات، كلهم يعيشون في عالمٍ تجعل البدائلُ شديدة اللمعان من الصعب على الحبّ والعمل أنْ ينفذا إليه. إنْ كانت هذه القيم بحدّ ذاتها عقيمة، فإنها تبدو أشدّ سُخفاً بعد مرور جيلين من الحرمان من الميراث. لقد أراد باتريك أنْ ينأى بنفسه عمّا اعتبره لا يخصّ خالته القاسية، ومع ذلك كان هناك افتتان بحالةٍ تسود سلالة أمّه في عائلته وعليه أنْ يفهمها.

تذكّرَ أنّه ذهب لزيارة إلينور بُعيد تأسيسها مشروعها الإنسانيّ الأخير، المؤسَّسة الإيثاريّة. كانت قد قرّرتْ أنْ تتخلّى عن إحباط كونها شخصاً يعمل لصالح الأمل المُثير في أنْ تُصبح إيثاريّة؛ أنْ تُنكِر جزءاً من كيانها، أيّ كونها ابنة عائلة مُشوَّشة وأمَّ عائلة أخرى، وأنْ تدّعي أنّها ليست ما هي عليه، شافية وقدّيسة. وأنتجَ تأثيرُ هذا المشروع المُراهِق على جسدها الذي يطعن في السنّ أولى الضربات العديدة التي عملتْ في نهاية المطاف على تدميرها. وعندما ذهب باتريك لزيارتها في لاكوست بعد إصابتها بالسكتة الدماغيّة الأولى، كانت ما تزال قادرة على التكلُّم بسلاسة كافية، لكنَّ عقلها كان قد أصبح مُرتاباً بالكامل. وحالما انفردا معاً في غرفة نومها، والستائر البالية تنتفخ حتى آخرها بفعل نسيمِ المساء، قبضَتْ بقوة على ذراعه وهمست له بإلحاح، «لا تُخبر أحداً بأنَّ أمي كانت دوقة».

أومأ برأسه موافقاً بحركة تآمُر. وأرختْ قبضتها وراحت تبحث في السقف عن مصدر قلقها التالي.

كانت تعليمات نانسي، حتى من دون أنْ تُصاب بسكتة دماغيّة تبرّرها، ستكون عكس ذلك تماماً. لا تُخبِر أحداً؟ بل أخبر الجميع! وخلف التباينات الهزليّة بين دنيويّة نانسي وعالم إلينور الآخر، بين كتلة جسد نانسي وهُزال إلينور، كانت هناك قضيّة مشتركة، ماضٍ يجب تزييفه، سواء بالكبت أو بالتمجيد الانتقائيّ. ما الأمر؟ هل إلينور ونانسي شخصان فردان، أم أنهما تشكلان جزءاً من بقايا مُميَّزة لطبقتهما الاجتماعيّة وعائلتهما؟

كانت إلينور قد أخذتْ باتريك لكي يُقيم مع عمّتها إديث في أوائل حقبة السبعينيات عندما كان في الثانية عشرة. وبينما باقي العالم كان يقلق بشأن أزمة منظّمة أوبيك، والتضخُّم، والقصف الكاسح، والتساؤل حول ما إذا كانت تأثيرات تعاطي مُخدر LSD دائمة، أبديّة أم مؤقّتة، وجدوا أنَّ إديث تعيش بأسلوبٍ لا يُقدِّم أي تنازُل للسنوات الخمسين التي سبقَتْ منحها ملكيّة لايف أوك. والخدم الأربعون من السود جعلوا العبيد في رواية «*ذهب مع الريح*» يبدون أشبه بممثلي كومبارس في موقع للتصوير السينمائيّ. وفي أمسية وصول باتريك وإلينور، سأل أحد الخدم، اسمه موسى، إنْ كان في وسعه أنْ يستأذن بالذهاب لكي يلتحق بجنازة أخيه. فرفضَتْ إديث طلبه. كان هناك أربعة أشخاص على مائدة العشاء وكانوا في حاجة إلى وجود موسى لكي يُقدِّم طبق البرغل. ولم يُمانع باتريك في أنْ يقوم الخادم الذي يُقدِّم طبق السمّان، أو الخادم الذي يوزِّع الخضروات، بتقديم طبق البرغل أيضاً، ولكن كان هناك نظام قائم وإديث لن تسمح بخرقه. وتقدَّم موسى بصمت، بقفّازه الأبيض ومعطفه الأبيض، والدموع تنهمر على وجنتيه، وقدَّم لباتريك البرغل الذي يتذوّقه للمرة الأولى. لم يكن يعلم أبداً إنْ كان سيحبّه.

لاحقاً، ثار غضب إلينور، وهي جالسة بجوار موقد النار المتوهجة، على قسوة عمّتها. كان المشهد الذي ظهر على مائدة العشاء بالنسبة إليها فاضحاً جداً؛ لم تستطع أنْ تفصل بين مذاق البرغل ودموع موسى، أو في الحقيقة بين ذائقة أمّها الممتازة ودموعها في عهد الطفولة. كان إحساس إلينور بأنَّ سلامة عقلها تنبع من جذور تهذيب الخدم يعني أنها سوف تقف دائماً في صف موسى. ولو أنها كانت فصيحة اللسان، لجعل منها هذا الولاء شخصيّة سياسيّة؛ والذي حدث هو أنّه جعل منها مُحسِنة. وكان غضبها في المقام الأول على الطريقة التي جعلتها عمّتها تشعر وكأنها ما تزال في الثانية عشرة من العمر، كما كانت وهي ضيفة متحمّسة ولكن صامتة في بداية الحرب، وتُقيم في فيرلي، منزل بيل وإديث في لونغ أيلند. كانت أمّها ممسوسة بذكرى كونها في مثل سن باتريك. ولطالما ألقى توقّف نموها العقليّ بظلّه بقسوة على جهوده المبذولة لينمو. وفي أول عهد طفولته كانت منهمكة بمعرفة مدى أهميّة المُربّية بالنسبة إليها، في حين فشلتْ في تزويده بنموذج مُشابه من الدفء والثقة.

رفعَ باتريك نظره عن تابوت أمّه، فرأى أنَّ نانسي ونيكولاس يُخططان للاقتراب منه من جديد، وموهبتهما في التسلسل الهرمي الاجتماعيّ تحوِّل ابناً محروماً من أمّه إلى شخصيةٍ بارزةٍ مؤقّتة في جنازة أمّه. ووضعَ إحدى يديه على تابوت إلينور، مُشكّلاً تحالفاً سريّاً ضد سوء الفهم.

قال نيكولاس، يبدو منتعشاً بخبرٍ مهمّ، «عزيزي، لم أكنْ أدرك، إلى أنْ أخبرتني نانسي، كم كانت أمّك متردِّدة مهمّة على الحفلات، قبل أنْ تتولّى القيام «بالأعمال الخيريّة»». بدا أنّه يُنحّي العبارة جانباً بعصا المشي، ويزيلها من طريقه. «أتذكّر إلينور الصغيرة الحييّة، المتديّنة في حفلة بيستغوي[1]! حينئذٍ لم أكنْ أعرفها، وإلّا لشعرت بأنني مُلزَم بحمايتها من تلك الفوضى العارمة من المهرجين». حرَّكَ نيكولاس يده الحرَّة في الهواء بطريقة فنيّة. «كانت مناسِبة سِحريّة، وكأنَّ المُتسكّعين بمظهرهم الخادع في إحدى لوحات واتّو أُطلِقَ سراحهم من سجنهم المسحور وأُعطوا جرعات كبيرة من المُنشِّط الهرمونيّ وأسطولاً من الطوربيدات»

صحَّحَتْ نانسي كلامه «أوه، لم تكن حييّة إلى هذه الدرجة، إذا فهمتَ ما أعني. كان لديها عددٌ لا يُحصى من العشّاق الوسيمين. وأنت تعلم أنّه كان في وسع أمّك أنْ تتزوج زيجة مُذهلة»

«ووفّرتْ عليّ عناء أنْ أولَدْ»

«أوه، لا تكن سخيفاً هكذا. كنتَ ستولَد في كل الأحوال»

«ليس بالضبط»

قال نيكولاس «عندما أفكّر في كل أولئك المحتالين الذين ادّعوا أنّهم حضروا تلك الحفلة الأسطوريّة، من الصعب تصديق أنني كنتُ أعرف شخصاً كان حاضراً هناك وقرَّرَ ألّا يذكر ذلك. والآن فات الأوان لتهنئتها على تواضعها». وربتَ على التابوت، كما يفعل مالك حصان على حصانه الرابح في السباق، «وهذا يُبيِّن عُقم ذلك الادّعاء بالذات».

1- تشارلي دو بيستغوي (1895-1970): مليونير إسبانيّ من أصل فرنسيّ غريب الأطوار، كان يُقيم حفلات باذخة بملابس وديكورات تعود إلى عصور سابقة. والحفل المُشار إليه هنا كان حفلاً متميزّاً أُقيم في مدينة البندقيّة في عام 1951 وما زالت تُسمّى بـ«حفلة القرن»، وكان يُلقّب بـ«الكونت دو مونت كريستو» - المترجم.

لمحتْ نانسي رجلاً أبيض الشَعر يرتدي بزَّة سوداء مُخططَّة ويضع ربطة عنق من الحرير الأسود يسير في الممر الفاصل بين المقاعد.

قالتْ، وهي تميل إلى الخلف بحركة مسرحيّة، «هنري! كنا في حاجة إلى بعض الدعم من آل جونسون». لقد أحبَّتْ نانسي هنري. كان فاحش الثراء. كان من الأفضل لو أنَّ المال آلَ إليها، لكنَّ فوز إحدى القريبات به كان الشيء الأفضل التالي.

حيَّته «كيف حالك، يا رأس الكرنب؟»

قبَّلَ هنري نانسي قُبلة الترحيب، من دون أنْ يبدو عليه الكثير من السرور لمُخاطبَته بـ«رأس الكرنب».

قال باتريك «يا الله، لم أتوقَّع أنْ أراك»، وشعر بموجة من الندم تغمره.

قال هنري «وأنا أيضاً لم أتوقَّع أنْ أراك. لا أحد يتواصَل مع أحد في هذه العائلة. سوف أبقى هنا بضعة أيام وأُقيم في كونوت، وعندما أحضروا لي صحيفة *التايمز* مع وجبة الإفطار في صباح هذا اليوم، علِمتُ أنَّ أمك قد توفيتْ وأنّه أُقيمَتْ مراسم هنا في هذا اليوم. ولحُسن الحظ، وفَّرتْ لي إدارة الفندق سيّارة في الحال وتمكّنتُ من الوصول».

قال باتريك، وقد قرَّر أنْ ينخرط في الحديث، «لم أركَ منذ أنْ تلطَّفتَ ودعوتنا للنزول في جزيرتك. أعتقد أنني كنتُ ضيفاً ثقيلاً. وأنا آسف على ذلك».

قال هنري «أعتقد أنَّ لا أحد يستمتع بتعاسته، لأنها دائماً تفيض. ولكن لا ينبغي أنْ نسمح لبعض الاختلافات في وجهات النظر في الشؤون الخارجيّة أنْ تقفَ عقبة في طريق الأشياء المهمّة حقاً».

قال باتريك، وقد فوجئ بمدى تهذيب هنري، «من دون أدنى شك. إنني سعيد جداً لأنكَ حضرتَ إلى هنا اليوم. لقد كانت إلينور شديدة الولع بك».

«في الحقيقة، لقد أحببتُ أمّك. وكما تعلم، مكثَتْ معنا في فيرلي مدة عامَين في بداية الحرب ومن الطبيعي أننا تقاربنا كثيراً. كانت تتَّصِف ببراءة جذّابة حقاً؛ تجذبكَ إليها وفي الوقت نفسه تُبقيك على مسافة معيَّنة منها. من الصعب شرح هذا، ولكن مهما كان شعورك نحو أمّك ونحو أعمال الخير

تلك التي تورّطتْ فيها، آمل أنْ تعلم أنها كانت طيّبة وتنطوي على أفضل النوايا».

قال باتريك، متقبّلاً برهة بساطة حب هنري، «أعتقد أنَّ كلمة «بريئة» هي الكلمة الصحيحة لوصفها». ومن جديد تعجَّبَ من تأثير الإبراز: كم كان هنري قد بدا له عِدائياً عندما كان باتريك عِدائيّاً مع كل شخص؛ وكم بدا الآن مُراعياً للمشاعر عندما لم يعمد باتريك إلى التجادُل معه. كيف سيبدو الأمر إذا توقفَ عن الإبراز؟ هل هذا ممكنٌ أصلاً؟

عندما أوشك هنري أنْ يستدير ويُغادر، مدَّ يده ولمسَ كتف باتريك.

قال، بلهجة رسميّة كانت حينئذٍ قد امتزجتْ مع المشاعر، «آسف على خسارتك». وأومأ برأسه لنانسي ولنيكولاس.

قال باتريك، وهو ينظر خلفه نحو مدخل المِحرقة، «عُذراً، يجب أنْ أرحّبَ بجوني هيل».

سألته نانسي، مع إحساسٍ مُبهم، «مَنْ يكون؟»

عبسَ نيكولاس «يمكنكِ أنْ تطرحي هذا السؤال. لو لم يكن الطبيب النفسيّ الخاص لابنتي، لكان مجرد نكرة. إنّه عفريت».

-3-

مشى باتريك مبتعداً عن تابوت أمّه، مُدرِكاً أنّه إذا لم يندفع عائداً بحركة هستيريّة، فإنه يكون بذلك قد وقفَ إلى جوارها للمرة الأخيرة. كان قد شاهد المحتويات الرطبة والباردة للتابوت في الليلة السابقة، عندما قام بزيارة صالون عزاء بنيون. كانت امرأة ودود ترتدي زيّاً أزرق اللون وذات شَعر أبيض قصير قد رحّبَتْ به عند الباب.

«مرحباً، يا عزيزي، لقد سمعتُ سيّارة أجرة وخمَّنتُ أنّه أنت»

قادته هابطة الدَّرَج. ثمة سجّادة على شكل حجر كريم باللونين الزهريّ والبُنيّ كالتي في بار فندق ريفيّ. وإعلانات سريّة عن خدمات خاصّة. وصورة فوتوغرافيّة لامرأة تركع بجوار صندوق أسود تتوقُ يمامةٌ إلى التحرُّر منه، والاندفاع باستقامة إلى أعلى وسط ضباب من الأجنحة البيضاء. هل عادتْ إلى برج حمام بنيون لكي يُعاد تدويرها؟ أوه، كلا، لن تعود إلى الصندوق الأسود من جديد. «يمكننا أنْ نُطلِق يمامة في يوم جنازتك». بدا أنَّ ثمة كتابة بالأسلوب القوطيّ تلتفّ حول كل رسالة مرّتْ من خلال باب صالون العزاء، وكأنَّ الموت هو قرية ألمانيّة. كانت هناك نوافذ بزجاجٍ ملوّن، وإضاءة بالكهرباء، من أعلى الدَّرَج وحتى الطابق تحت أرضي.

«سوف أتركك معها. إذا احتجتَ إلى أي شيء، فلا تتردَّد، سوف أكون في الطابق العِلويّ»

قال باتريك، مُنتظراً إياها لكي تنعطف عند الزاوية قبل أنْ تلج مُصلّى ويلو، «شكراً لك»

أغلقَ الباب خلفه ونظر برعبٍ إلى التابوت، وكأنَّ أمّه كانت قد أخبرته أنَّ التحديق تصرّفٌ فظّ. وكائناً ما كان ما نظر إليه، فإنّه لم يكن الـ«هي» التي كان

قد وُعِدَ بها بألفةٍ صارمة قبل ذلك ببضع دقائق. لقد أحدثَ الفرقَ غيابُ الحياة عن تلك الجثّة المألوفة، والقَسَماتُ الجامدة والمتيبّسة للوجه الذي كان قد عرِف من قبل أنّه يعرف وجهه هو. ها هنا مادة انتقاليّة إلى الطرف القصيّ من الحياة. وبدل الدميّة اللينة أو القماشيّة التي يلجأ إليها الطفل لكي يتسلّى في غياب أمّه، قدّموا له جثّة، تقبضُ أصابعها العجفاء على وردة بيضاء اصطناعيّة التَوَتْ بتلاتُها الحريريّة المتيبّسة فوق القلب المتوقف عن الخفقان. كانت تتصِفُ بسخريةٍ بقايا آثار، وأيضاً بمسيرةِ حياةٍ كِناية metonym. كانت ترمز إلى أمّه وإلى غيابها على قدم المُساواة. وفي كلا الحالتين، كان ذلك ظهورها الأخير قبل أنْ تتقاعد داخل ذاكرة الآخرين.

من الأفضل أنْ يُلقي نظرة أخرى، نظرة مُطوّلة، نظرة أكثر عمليّة، ولكن هل يستطيع أنْ يُركِّز تفكيره وهو في هذا الطابق التحتيّ المُربِك؟ لقد اتّضحَ أنَّ مُصلّى ويلو يقع تحت رصيفٍ يضجّ بالمُشاة، ويخترقه البريق الحماسيّ لحديثٍ عبر هاتفٍ محمول وينقر عليه وقعُ أعقاب الأقدام. ظهر هدير سيارة أجرة من بين حركة المرور العامة ورشّتْ مياهَ بركةٍ على حجارة الرصف على الركن القصيّ من السقف. وتذكَّر قصيدة لتنيسون لم تخطر على باله منذ أمدٍ بعيد، «متُّ، متُّ منذ أمد بعيد / منذ زمن بعيد / وقلبي حفنة من تراب / والدواليب تمرّ فوق رأسي / وعِظامي ترتعش من الألم / لأنها حُشِرتْ في القبر الضحل / تحت أرض الشارع بمقدار ياردة / وحوافر الأحصنة تضرب، تضرب / حوافر الأحصنة تضرب / تضرب رأسي ومخّي / ولا نهاية لسيل الأقدم المارَّة». وأدرك سبب اختيار مؤسسة بنيون اسم مُصلّى ويلو لهذه الغرفة وليس قبو الفحم أو القبر الضحل. تمتم باتريك «مرحباً، حبيبي، أمّك موجودة في قبو الفحم. يمكننا أنْ نُطلِق يمامة في القبر الضحل، ولكن لن تتمكّن من الهرب». جلسَ وأخذ يهزّ جذعه فوق ذراعيه المعقودَين. كان منخراه يتعذّبان، كما كانا منذ أنْ سمع نبأ وفاة أمّه قبل ذلك بثلاثة أيام. لا حاجة إلى عشرة أعوام من التحليل النفسيّ لكي يُدرِك أنّه شعر بأنه أصبح «نخراً». كان يفعل ما فعله دائماً وهو تحت الضغط، يُلاحظ كل شيء، يُثرثر مع نفسه بأصوات مختلفة، مُطوِّقاً المشاعر غير المقبولة، وهي في هذه الحالة مدفونة بارتياح داخل تابوت أمّه.

لقد غادرتْ العالم ببطءٍ صارخ، منزلقة إنشاً بعد إنش إلى عالم النسيان. في أول الأمر لم يسعه إلّا أنْ يستمتع بالهدوء النسبيّ لحضورها، ولكنه لاحظَ بعد ذلك أنّه يتشبّث بضوضاء المدينة التي في الخارج لكيلا ينجرف إلى حفرة الصمت العميقة في مركز الغرفة. يجب أنْ يُلقي نظرة عن كثب، ولكن عليه أولاً أنْ يُطفئ الأنوار التي كانت تسطع خلال مصبعة الكروم في السقف المنخفض المصنوع من البوليستيرين، وجعلت وهج الشموع الضخمة الأربع الموضوعة على حامل من النحاس في أركان التابوت يبهت. فقام بإعتام بقع الضوء وأعاد بعضاً من الأبّهة الكنسيّة إلى الشموع. كان هناك شيء واحد آخر عليه أنْ يتفقّده. إنها الستارة المخمليّة الزهريّة التي تقسم الغرفة؛ كان عليه أنْ يعرف ماذا خلفها قبل أنْ يولي انتباهه لأمّه. واتّضح أنها تُخفي منطقة تخزين مُكتظّة بالمعدات: عربة معدنيّة رماديّة اللون ذات دواليب كبيرة، وبعض الأنابيب المطاطيّة العمليّة وصليب ذهبيّ ضخم. كل ما يتطلَّب عمليّة تحنيط مسيحيّ. كانت إلينور قد توقّعتْ أنْ تُقابل يسوع في نهاية نَفَق بعد أنْ تموت. كان الرجل المسكين خادم المُعجبين به، في انتظار أنْ يعرِض أمام حشودٍ من الموتى المتلهفين الريفَ المُضاءَ بالنيون الممتد إلى ما بعد قنال الولادة الثانية للعَدَم الأرضيّ. لا بُدَّ أنَّ من الصعب أنْ يتمّ اختيار هذا العنوان بوصفِهِ عنواناً مبتذلاً للتفاؤل، والنور الذي يظهر عند الطرف القصيّ من النفق، يُهيمن على جيشٍ متلألئ من الكؤوس الممتلئة حتى منتصفها وعلى الغيوم بحدودها الفضيّة.

ترك باتريك الستارة تنسدل على مضض مُعترِفاً بأنَّ وفاضه قد خلا مما يصرِف الانتباه. اقتربَ بحذر من التابوت، كمَنْ يقترب من حافة جُرف. على الأقلّ كان يعلم أنَّ ذلك التابوت يضمّ جثْمان أمّه. وقبل عشرين عاماً، عندما ذهبَ لكي يجلب رُفات والده في نيويورك، دلّوه إلى الغرفة الخطأ. «في الذكرى الحبيبة لهرمان نيوتن». لقد بذل أقصى ما في مقدوره للتملُّص من إجراءات الحرمان من الأب تلك، لكنّه لن يتملّص من هذه. كان جزءٌ باردٌ وجافٌّ من عقله يُحاولُ أنْ يُعرِّض انفعالاته لتأثيرها الحكيم، لكنَّ الألم المُمضّ في أحشائه دمَّرَ طموحاته، وشوَّشَ دِفاعاته.

بينما كان يُحدِّق إلى التابوت، شعر بحيوان الحزن المهتاج جاثماً. أراد

أنْ يتلكّأ غير مُصدِّق عند الجثمان، ولا يزال يوليه بعض الانتباه الذي كان يتطلّبه في الحياة: ارتعاشاً، لمسة، كلمة، تحديقاً مُستفهماً. مدَّ يده ووضعها على صدرها وشعر بصدمة نحولها. ومال وقبّلها على جبينها وشعر بصدمة برودتها. تلك الأحاسيس الحادّة أضعفَتْ دفاعاته أكثر، وغمره دفق كاسح من التعاطُف مع الكائن البشريّ المُدمَّر الجاثم أمامه. وهذا الإحساس الشاسع بالحنان اختزلَ شخصيّة أمّه إلى شيء ضئيل، وقلَّصَ صِلته بها أكثر فأكثر.

جلسَ من جديد ومال إلى الأمام فوق ساقيه المتصالبتين وذراعيه المعقودتين لكي يمنح نفسه قدراً ضئيلاً من التخفيف من ألم معدته. ومن ثم أقام فجأة تواصُلاً شديد الغرابة، والتصميم - طبعاً. وهو في سن السابعة، كان يقوم بجولته الأولى في الخارج مع أمّه فقط، بعد طلاق والديه ببضعة أشهر. انطباعه الأول عن إيطاليا: رقع الأرقام البيضاء، السماء الزرقاء، والكنائس الصفراء. كانا ينزلان في فندق إكسيليسيور في نابولي، المُطلّ على واجهة مائيّة تضجّ بحركة دراجات ناريّة كأزيز الدبابير وبمرور الحافلات المزدحمة. ومن شرفة غرفتهما الرائعة، أشارت أمّه إلى أطفال الشوارع المُقرفصين على الأسقف، أو المتعلّقين بخلفيات الحافلات. وباتريك الذي ظنَّ أنهما كانا في نابولي لقضاء فترة إجازة، أُصيبَ بالرعب عندما سمع أنَّ إلينور جاءتْ لكي تُنقِذ أولئك الأطفال الفقراء. وكان هناك رجل رائع، كاهن اسمه الأب تورتيللي، لا يملّ جمع أطفال نابوليّ الضائعين وتوفير مأوى لهم في الملجأ الذي كانت إلينور تموّله من لندن. كانت حينئذٍ ستراه للمرة الأولى. أليس شيئاً مُفرِحاً؟ أليس إنجازاً رائعاً؟ وعَرَضَتْ على باتريك صورة فوتوغرافيّة للأب تورتيللي: كان رجلاً ضئيلاً، خشناً، في الخمسين من العمر يرتدي قميصاً أسود بدا أشبه بأحد مُلاكمي الحَلَبَة. كانت ذراعاه الضخمتان تطوّقان كتفين هشّتَين، عظامهما بارزة، لوّحتهما أشعة الشمس لصبيين يرتديان بزّتين بيضاوَين. كان الأب تورتيللي يحميهما من التشـرّد في الشـوارع، ولكن مَنْ الذي كان يحميـهم من الأب تورتيللي؟ ليس إلينور. هي كانت توفِّر له الوسائل لملء الملجأ بأعدادٍ تتزايد باستمرار من اليتامى والفارّين. وبعد تناول وجبة الغداء في ذلك اليوم، أُصيبَ باتريك بنوبة عنيفة من الالتهاب المعويّ، وبدل أنْ تتركه أمّه في إهمال مرقّه وتذهب

لتعتني بالأطفال الآخرين، عمدتْ إلى ملازمته والإمساك بيده بينما كان يصرخ من الألم المُمضّ في الحمّام الرخاميّ الأخضر.

الآن لا يمكن لأي كميّةٍ من ألم المعدة أنْ تدفعها إلى المكوث. هذا لا يعني أنّه كان يريد منها أنْ تمكث، ولكنْ كان لجسدهِ ذاكرةٌ خاصّة به استمرّتْ في السرد من دون الرجوع إلى رغباته الحاليّة. ما الذي دفعَ بإلينور إلى مدّ زوجها والأب تورتيللي بالأطفال، ولماذا كان الدافع قويّاً إلى درجة أنها قامت في الحال، بعد انهيار زواجها، باستبدال والد ابنها بالأب تورتيللي، استبدال طبيب بكاهن؟ لم يكن لدى باتريك أي شك في أنَّ دوافعها كانت غير واعية، غير واعية على غرار الذاكرة الجسديّة التي هيمنت عليه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. ماذا كان في وسعه أنْ يفعل خِلاف أنْ يستخرج تلك الصور المتفرّقة من الظلام ويعترف بها؟

بعد سماع قرع هادئ، فُتِحَ الباب ودخلت المُرافقة الغرفة.

همسَتْ «أردتُ فقط أنْ أتيقَّن من أنَّ كل شيء على ما يُرام»

قال باتريك «ربما هو كذلك»

اتّسمتْ رحلة العودة إلى شقّته بطابع الهلوسة المعتدلة، بالاندفاع خلال الليل الماطر على متن حافلة مُضاءة بأنوارٍ ساطعة، امتلأتْ حديثاً بالعديد من الانطباعات العنيفة والذكريات البعيدة. كان على متنها اثنان من شهود يهوه[1]، رجل أسود يوزّع منشورات وامرأة سوداء تعِظُ بأعلى صوتها. «توبوا عن آثامكم وضمّوا يسوع إلى قلوبكم، لأنه عندما ستموتون سيكون أوان التوبة قد فات وسوف تحترقون في نار جهنم...»

بدأ رجلٌ أيرلندي أحمر العينين يرتدي سترة رثّة من الجوخ بالصراخ ردّاً عليها من مقعدٍ في الخلف، «اخرسي أيتها العاهرة اللعينة. اذهبي ومصّي أير الشيطان. لا يُسمَح لك بفعل هذا، سواء أكنتِ مُسلِمة، أم مسيحيّة، أم

1- شهود يهوه: أي ينتمون إلى كنيسة مسيحيّة أميركيّة تؤمن بأنَّ نهاية العالم باتت وشيكة، وبأنَّ كل الكنائس المسيحيّة الأخرى والأديان الأخرى زائفة أو شريرة وبأنَّ كل حرب هي غير شرعيّة وبأنّه ينبغي مقاومة القانون المدني كلما تعارَضَ مع مبادئ تلك الكنيسة – المترجم.

شيطانيّة». عندما وصل الرجل الذي يوزِّع المنشورات إلى الطابق العُلويّ من الحافلة، ألحَّ، مُغلِّفاً لكنته بنبرة جنوبيّة ساديّة، قائلاً «أنا أراك، يا فتى. كيف تظنّ أنَّ منظرك سيكون عندما يُصبح رأسك تحت ذراعك، يا فتى. إذا لم تطلب من تلك العاهرة أنْ تخرس، فسوف أشوّه وجهك، يا فتى».

قال أحد الركّاب الساخطين «أوه، اخرس أنت»

لاحظَ باتريك أنَّ آلام معدته قد زالتْ. راقبَ الرجل الأيرلندي وهو يتمايل على مقعده، واستمرّتْ شفتاه في الجدال بصمت مع ثنائي شهود يهوه، أو مع أحد اليسوعيين من أيام شبابه. أعطنا فتى في سن السابعة وسوف نحتفظ به إلى الأبد. قال باتريك في نفسه، ليس أنا، لن تحصل عليّ أنا.

مع اقتراب الحافلة ببطء من غايتها، تذكَّرَ تلك الليالي القصيرة ولكن المحوريّة وهو في غرفة مراقبة الانتحار، يخلع قميصاً رياضيّاً مُشبّعاً بالعَرَق بعد آخر، ويزيل أغطية السرير الحارّة لكي يرتعش من صقيع غيابها؛ ويدير مفتاح نور المصباح ثم يُغلقه، متأذّياً من سطوع الضوء، فيخيفه الظلام؛ ويكمنُ صداعٌ قاتل حول جمجمته كالرصاص داخل حبّة بقول قافزة[1]. لم يشترِ أي مادة للقراءة ما عدا «*كتاب الموتى التيبتيّ*» آملاً في أنْ يجد أيقوناتها الغريبة سخيفة إلى درجة فشلها في القضاء على أي أوهام ربما ما زال يتعلَّق بها بشأن الوعي الذي يستمر حتى ما بعد الموت. وكما اتّضحَ، وجدَ أنَّ مخيلته تعرَّضَتْ للغواية من مقطع في مقدمة فصل «***رؤيا الآلهة الغاضبة***» تقول، «أوه يا ذا المنشأ النبيل، عندما ينفصل جسدك عن عقلك، سوف تلمح قبساً من الحقيقة الصِرف، المُرهفة، الوامضة، البرّاقة، المُبهِرة، المجيدة، والرائعة المُشرِقة، في مشهد يشبه سراباً يتحرَّكُ عبر منظرٍ عام في الربيع في سيل واحد متواصِل من الاهتزازات. لذلك لا تفزع، ولا تخف، ولا ترتعب. إنّه إشعاع طبيعتك الخاصة الحقيقيّة. تعرَّف عليه».

كان لتلك الكلمات تأثير مُخدِّر تغلَّبَ على العَدَم الماديّ الذي تاقَ إلى الإيمان به. وكافحَ لاستعادة إيمانه بنهائيّة الموت، ولكن لم يسعه إلّا أنْ يراها

1- نوع من البقول في أميركا الجنوبيّة يحتوي داخل حبّته حشرة تتحرّك وتُحرّكها – المترجم.

مجرد خرافة من الخرافات، وليست أكثر عقلانيّة من الأخريات. وفكرة أنَّ الحياة الآخرة اختُرِعَتْ من أجل طمأنة الذين يعجزون عن مواجهة نهائيّة الموت لم تكن مقبولة أكثر من فكرة أنَّ نهائيّة الموت اختُرِعَتْ من أجل طمـأنة الذين يعجزون عن مواجهة كابوس التجربة التي لا تنتهي. وتعاونَ رعاشُ السُكر مع شعراء كتاب الموتى من أجل إنتاج إحساس بالصعقة الكهربائيّة القوية وهو منطلق نحو مسلخ النوم، مرعوباً من أنْ يمدّه ذبحُ فكرهِ العقلانيّ بـ «لمحة من الحقيقة الصِرف»

لاحت له ذكريات وفِقرات واختفَتْ بسرعة كضِفاف من الضباب على طريقٍ في الليل. وهدَّدته الأفكار عن بُعد، لكنّها اختفَتْ مع اقترابه منها. «غارق في الأحلام وأتوقُ إلى زوالها». مَنْ قال هذا؟ إنها كلمـات أناسٍ آخرين. هل كـان يفكّر «بكلمـات الآخرين»؟ إنَّ الأشياء تبدو بعيدة جداً ومن ثم، بعد لحظة، تبدو مُكرَّرة. أكان الأمر أشبه بالضباب، أم أقرب إلى الرمال الحارة، أكان شيئاً كافح لتحقيقه وحاول ألّا يلمسه في الوقت نفسه؟ كيف يمكن ألّا يكون إلّا الأمرين؟ إنه تشابُه الأشياء المتنافرة – وهذه عبارة أخرى بدتْ كأنها تلاحق نفسها كنسخة مُصغَّرة من قطار يدور ضمن دائرة مُقفلة. أوقفه أرجوك.

ثمة مشهد لا يني يعود هادراً إلى أفكاره الهذيانيّة هو زيارته للفيلسوف فيكتور أيزن بعد مرور فيكتور بتجربة اقترابه من الموت. وكان قد وجد جاره القديم في سان – نازير في عيادة في لندن، لا يزال موصولاً بالآلات التي بيَّنتْ انتهاء حياته قبل أوانها ببضعة أيام. ظهرتْ ذراعا فيكتور الهزيلتان الصفراوان بارتخاء من رداء رسميّ، ولكن بينما كان يصِف ما حدث كان كلامه سريعاً وجازماً كعهده دائماً، مُشبّعاً بحصيلة عُمر كامل من الآراء الراسخة.

«وصلتُ إلى ضفّة نهر وعلى الجانب المُقابل كان هناك ضوءٌ أحمر يُهيمن على الكون بأسره. كان هناك شخصان يقفان على كلا ضفّتيه، وكنتُ أعلم أنهما إله الزمن وإله المدى. تواصلا معي مباشرة عبر أفكارهما، ومن دون استخدام أيِّ كلام. أخبراني أنَّ نسيج الزمن والمدى قد تمزَّق وأنَّ عليَّ أنْ أرمّمه، وأنَّ مصير الكون متوقّفٌ عليّ. وانتابني إحساسٌ قويٌّ بالفوريّة

وبالهدف وكنتُ في سبيلي إلى القيام بمهمّتي عندما شعرتُ بأنني أُجرُّ عائداً إلى جسدي ورجعتُ على مضض».

على مدى ثلاثة أسابيع غمر فيكتور إحساسٌ بالثقة رافق رؤياه، ولكن بعد ذلك جعلته عادات إلحاده المُعلَن والخوف من أنَّ تضعف الاختزالات المنطقيّة التي حُفِظَتْ داخل عمله الفلسفيّ، جعلته يُعيد بالقوة حسّه الجديد بالانفتاح إلى الأزمة البيولوجيّة التي كان يُعاني منها في ذلك الوقت. وقرَّر أنَّ المهمّة الملحاحة التي أوكل إليه سيد الكون القيام بها ترمز إلى المخّ الذي فقد الأوكسجين. كان عقله يضعف، لا يتوسَّع.

بينما هو مُستلقٍ ينضح بالعَرَق في تلك الغرفة الضيّقة، يفكِّر في حاجة فيكتور إلى أنْ يُقرِّر معنى كل شيء، تساءلَ باتريك إنْ كان في استطاعته أنْ يُضيء ذاته بقدرٍ كافٍ لكي يسترخي ولا يُضطرّ إلى وضع معنى للأشياء. كيف يكون الشعور بهذا؟

في تلك الأثناء، كانت غرفة ملاحظة الانتحار ترقى إلى مستوى اسمها الفخم. لقد رأى فيه أنّه لطالما شكَّلَ الانتحار الخلفيّة الحتميّة لوجوده. حتى قبل أنْ يتعوّد على حمل نسخة من كتاب «*أسطورة سيزيف*» في جيب معطفه، ويجعل من الجملة الأولى فيه شِعاره في أوائل عهد مراهقته، كان باتريك قد استقبل يومه بالسؤال الأساسيّ، «هل يستطيع أحد أنْ يُعطي سبباً وجيهاً لعدم قتل نفسه؟» وبما أنّه كان يعيش في ذلك الوقت في عزلة متكلِّفة، مكتظّة بأصواتٍ مجنونة ومتهكّمة، كان مُستبعداً أنْ يحظى بجواب جازم. وأفضل ما أمل في الحصول عليه هو إرجاءٌ مدروس، وفي النهاية تبيَّنَ أنَّ واجب الكلام أقوى من الرغبة في الموت. وخلال السنوات العشرين التالية خفتَ الكلام عن الانتحار إلى مستوى الهمس المتفرِّق على درب ساحليّ، أو داخل صيدليّ هادئ. وعندما كان يعود بزخم قويّ، كان يأخذ شكل حوار كئيب مع النفس وليس صخباً سرياليّاً. وجعلته البساطة النسبيّة لأحدث اعتداء يُدرك أنه لم يعشق الموت المُريح إلّا بصورة سطحيّة وأنّه كان مفتوناً بعمق أكثر بكثير بشخصيّته هو. كان الانتحار يلبس قِناع رفض الذات؛ ولكن على أرض الواقع لا أحد يتعامل مع شخصيته بجديّة أكثر من الشخص الذي كان يُخطِّط لقتل نفسه بتوجيهات منها. لا أحد كان عازماً

على البقاء مُمسِكاً بزمام الأمر بأيّ ثمن، أو على فرضْ أشدّ جوانب الحياة غموضاً على جدولها المهيب.

كان الشهر الذي أمضاه في مستشفى الدير فترة حاسمة من حياته، غيّرت الأزمة التي أدّتْ إلى انهيار زواجه وتفاقُم شربه للخمر. وكان التفكير في مدى اقترابه الشديد من الهرب بعد مرور ثلاثة أيام فقط شيئاً يُسبب الاضطراب، وحفّزته على ذلك مُغادرة بيكي. فقبل أنْ تغادر كانت قد وجدته في غرفة استراحة جناح الاكتئاب.

قالت بهمسٍ متهكِّم «إنني أبحث عنك. وليس من المُفترَض أنْ أتحدث مع أي شخص، لأنني قُدوة سيئة»

أعطته رسالة قصيرة مطويّة مع قُبلة صغيرة خفيفة على الشفتين قبل أنْ تهرع خارجة من الغرفة.

هذا هو عنوان أختي. إنها في الولايات
المتّحدة، لذلك أنا وحدي هنا، إذا رغبتَ
في الفرار من هذا المكان اللعين والقيام بعمل
مجنون. مع حبي. بيكي.

ذكّرته الرسالة القصيرة بأحرف كلمة **مجنون** المُسنّنة التي كان يخطّها بشكلٍ عشوائيّ على هوامش دفاتر الكيمياء المستوى العاديّ بعد تدخين الأفيون خلال فسحة استراحة الصباح في المدرسة. قال في نفسه، من المستحيل أنْ يزورها، وهو يستدعي سيارة أجرة صغيرة مُدرَجة في كشك الهاتف مدفوع القيمة الكائن تحت الدَّرَج الخلفيّ. أكان هذا هو المقصود بكلمة مُنهَكْ؟

تمتم، وهو يُغلق بحزم باب سيارة الأجرة الصغيرة التي ركبها لكي يُبدي مدى تصميمه على ألّا يسعى وراء مهرجان مُلطَّخ بالدماء من الاختلال الوظيفيّ، «فقط لا تذهب!». وأعطى السائق العنوان المُدوّن على رسالة بيكي.

قال السائق الأنيق «حسن، لا بُدَّ أنكَ سليم ما داموا قد سمحوا لك بالخروج»

«أنا سمحتُ لنفسي بالخروج. لم أتمكّن من تحمّل التكاليف»

«الأسعار مرتفعة، أليست كذلك؟»

لم يُجِبْ باتريك، وقد اجتاحته الرغبة والصراع.

سألَه السائق، وهو يتوجه إلى الممشى ويبتسم لمرآة المشهد الخلفيّ، «هل سمعتَ عن الرجل الذي ذهب إلى عيادة الطبيب النفسيّ؟ قال له، «إنني في حالة فظيعة، يا دكتور، طوال ثلاث سنوات وأنا أعتقد أنني فراشة، وليس هذا فقط، الأسوأ هو أنني طوال الأشهر الثلاثة الأخيرة ظننتُ أنني عثّة»، فقال الطبيب النفسي «يا إلهي، لا بُدَّ أنكَ مررتَ بوقتٍ عصيب. إذن، ما الذي دفعكَ إلى المجيء إلى هنا اليوم وطلب المُساعدة؟»، فقال الرجل، «في الحقيقة، لقد رأيت النور في النافذة وشعرتُ بانجذاب إليه، فطرت ودخلت»».

قال باتريك، وهو يغوص أعمق داخل عُريّ بيكي المُتخيَّل، ويتساءل كم سيدوم مفعول آخر جرعة من الأوكسازيبام. «نكتة جيدة. هل أنتَ متخصِّص في مرضى الدير بسبب مزاجك المُشرِق؟»

قال السائق «يمكنكَ قول هذا، ولكن في العام الفائت وطوال أربعة أشهر لم أتمكن بالمعنى الحرفي للكلمة من مغادرة سريري، وبالمعنى الحرفيّ لم أر فائدة في أي شيء»

قال باتريك «أوه، أنا آسف»

من هامرسميث برودواي وحتى منطقة شيباردز بوش، ظلّا يتحدثان عن البكاء غير المُبرَّر، وأحلام اليقظة حول الانتحار، والبطء المُعذِّب، وليالي الأرق والأيام البطيئة. ومع وصولهما إلى بيسووتر، كانا قد أصبحا صديقَين حميمَين والتفتَ السائق إلى باتريك وقال بكامل حيويّة مرحه المُستعاد، «في غضون بضعة أشهر سوف تستعيد ذكرى ما مررتَ به وتقول «*ماذا* كان سبب ذلك كلّه؟ ماذا كان سبب كل ذلك اللغط والمُبالغة؟»، هذا ما حدث معي»

نظر باتريك في رسالة بيكي القصيرة من جديد. كانت قد وقّعَتْ باسم

أحد أنواع البيرة. بيكس. وبدأ يهمس بينه وبين نفسه بصوت أجشّ، يُحاكي صوت مارلون براندو وفيتو كورليوني، «إنَّ التي تأتي إليك وتطلب منكَ لقاءً، وتحمل اسم إحدى ماركات البيرة الشهيرة - هي التي تريد لك أنْ تنتكس...»

لن يسمح للأصوات، لا ينبغي أنْ يدعها تنطلق. تنهّدتْ السيدة موب، «يبدأ المشهد بتجسّد الصغير مارلون براندو، وبعد ذلك...»

قاطعها باتريك «اخرسي!»

«ماذا؟»

«أوه، ليس أنت. آسف»

انعطفا نحو ساحة كبيرة في مركزها حديقة. اقترب السائق من مبنى من الجصّ الأبيض. مال باتريك جانياً وأطلَّ من النافذة. كانت بيكي تقطن في الطابق الثالث، جميلة، ومتوفّرة ومريضة عقليّاً.

فكَّر في الأشياء التي قام بها من أجل الحصول على القليل من التواصُل الحميم؛ تطاير التراب من فوق كتفيه وهو يحفر قبره الخاص. كانت هناك النساء الطيبات اللائي منحنه العناية التي لم يكن قد حصل عليها من قبل. واضطرَّ إلى تعذيبهن لكي يتخلين عنه، من أجل البرهان على أنهن لسن أهلاً للثقة. ثم كانت هناك النساء الشريرات اللواتي وفّرن الوقت بكونهن غير أهل للثقة مباشرة. في العموم تناوبَ بين هاتين الفئتين الواسعتين، مفتوناً بشيء مختلف أخفى لفترة وجيزة عقم الدفاع عن حصن شخصيّته المتهالك، وأمل في الوقت نفسه في أنْ تتكرَّم وتُعيد ترتيب نفسها وتُصبح معبداً للسلام والإنجاز. يأمل ويُنظِّف، وينظِّف ويأمل. بدت حياته العاطفيّة، مع قليل من الانفصال، أشبه بدمية طفل تعمل بشدّ الرقّاص صُنِعَتْ لكي تمشي مراراً وتكراراً على حافة طاولة المطبخ. إنَّ الرومانسيّة تكون حيث يتعرَّض الحب لأشد أنواع التهديد، وليس حيث يُحقِّق أقصى تعبير عنه. إذا كانت إحدى المُرشّحات بلا أي أمل، على غرار بيكي، فإنّها تتلبَّس جاذبيّة الشخص الهالك لا محالة. كان شيئاً مُحرِجاً أنْ يصبح المرء مخدوعاً هكذا، والمُحرِج أكثر كانت ردّة الفعل حيال الخداع، كالهارب من ظلّه البعيد.

قال باتريك مع الضحك، «أعلمُ أنَّ هذا يبدو **جنونيّاً** قليلاً، وأستخدمُ هذه الكلمة لأنني لا أجد كلمة أفضل، ولكنْ أتعتقد أنْ في استطاعتك أنْ تعود بي من حيث أتيت؟ لستُ مُستعداً بعد»

قال السائق، ولم يعُد متعاطفاً مع الراكب، «نعود إلى الدير؟»

فال باتريك في نفسه، إنه لا يريد أنْ يتعرَّف علينا نحن المُضطرون إلى العودة، وأغمضَ عينيه وتمدّد على المقعد الخلفيّ. «الكلام سوف يتكلَّم وسوف يتمادى في الازدراء... شيء، شيء... إنك لا تريد مستشفى للمجانين وكل ما تحتوي هناك». كل ما تحتوي هناك. يا للإبهام الرائع لهذا الكلام، يتمدَّد بالتهديد ويتقلَّص بالإلحاح المزعوم.

في طريق العودة بالسيارة، بدأ باتريك يشعر بآلام في الصدر لم يعُد في مقدور حتى عنف اشتياقه إلى علاقة رومانسيّة مَرَضيّة أنْ يُفسّره. كانت يداه ترتعشان وشعرَ بالعرَق يتفصَّد من جبينه. ومع وصوله إلى مكتب الدكتور باغاتزي، كان يُهلوس بشكلٍ معتدل وبدا كأنّه وقع داخل مساحةٍ من بُعدَين وبلا عمق، كحشرة تزحف حول لوح زجاج نافذة، بحثاً عن مخرج. أنَّبه الدكتور باغاتزي لأنه لم يتناول جرعة الساعة الرابعة من الأوكسازيبام، قائلاً إنه قد يُصاب بنوبة قلبيّة إذا امتنع عن تناولها بسرعة كبيرة. رفعَ باتريك الأنبوب البلاستيك الكليل بيده المرتعشة وتناول ثلاثة أقراص من الأوكسازيبام.

في اليوم التالي «تقاسَمَ» هروبه الوشيك مع مجموعة الاكتئاب. واتّضحَ أنهم جميعاً تقريباً قد هربوا، أو هربوا ومن ثم رجعوا، أو فكّروا في الهروب في معظم الوقت. ومن ناحية أخرى، خشي البعض المغادرة، لكنهم بدوا ظاهريّاً مُعارضين للّذين رغبوا في الهرب: كان الجميع ممسوسين بمقدار العلاج الذي يحتاجون إليه قبل أنْ يبدأوا «حياة طبيعيّة». دُهِشَ باتريك بمقدار الامتنان الذي شعر به لحسّ التضامُن مع باقي المرضى. وأطاحتْ موجة من النيّة الحَسَنة تجاه كل فرد في المجموعة.

جلسَ جوني هيل على مقعد متواضع بالقرب من الغرفة الخلفيّة. وشقَّ

باتريك طريقه حول الطرف القصيّ من مقاعد الكنيسة لكي ينضمّ إلى صديقه القديم.

قال جوني «كيف حالك؟»

قال بلتريك، وهو يجلس إلى جواره، «في أحسن حال. لديّ إحساسٌ غريب بالحماس لا أبوح به إلّا إليك وإلى ميري. في الأيام القليلة الأولى شعرت بالانهيار، ولكن بعد ذلك أصبح لدي ما يُسمّونه في مهنتك «بصيرة». مساء الأمس ذهبتُ إلى صالون العزاء وجلستُ مع جثمان إلينور. وتواصلتُ... سوف أخبرك لاحقاً»

ابتسم جوني له مُشجّعاً. قال، بعد فترة صمت، «يا يسوع، نيكولاس برات. لم أتوقّع أنْ أراه»

«ولا أنا. أنت محظوظ جداً لأنَّ لديك سبباً أخلاقيّاً لكيلا تكلّمه»

«أليس هذا حال الجميع؟»

«بالضبط»

قال جوني «أراك لاحقاً في أونسلو» وترك باتريك بين يدي المُرافِق الذي كان قد اقترب منه ووقف جانباً مُترقِّباً.

قال المُرافق، مُشيراً بصورة ما إلى طابور الجثث التي سوف تتراكم إذا لم تبدأ المراسِم في الحال، «نستطيع أنْ نباشِر حالما تُصبح مستعداً، يا سيدي»

استعرضَ باتريك الغرفة. كان هناك عدد من الأشخاص جالسين على المقاعد في مواجهة تابوت إلينور.

قال «عظيم. فلنباشِر في غضون عشر دقائق»

قال المُرافِق، كطفل صغير قيل له إنَّ في استطاعته أنْ يقوم بعمل مُشوّق حقاً عندما يبلغ سن العشرين، «عشر دقائق؟»

قال باتريك، «نعم، ما زال هناك أناس سيصلون»، مُلاحِظاً أنَّ جوليا واقفة عند مدخل الباب، كدفقٍ ذي نتوءات من السواد في وجه الصباح الراكد: خِمار أسود، قبعة سوداء، ثوب من الحرير الأسود المتيبِّس وتحته، كما تخيَّل، حرير أسود أكثر نعومة. وشعر في الحال بتأثير عقليّتها، بتلك الحساسيّة الشديدة ولكن الاستثنائيّة. كانت أشبه بشبكة عنكبوت، ترتعش

لأقل لمسة، لكنّها لا مبالية بالضوء الذي جعل خيوطه تشع على العشب الرطب.

قال باتريك، وهو يُقبِّل جوليا من خلال خِمارها الأسود الشائك، «لقد وصلتِ في اللحظة المناسبة»

«تعني أنني تأخّرت كالمعتاد»

«كلا؛ بل في اللحظة المناسِبة. نوشك أنْ نباشِر، إنْ كانت هذه هي العبارة التي أبحث عنها»

قالتْ، مع تلك الضحكة القصيرة الخشنة التي دائماً تؤثّر فيه، «ليست هي»

كان آخر لقاء بينهما قد تمَّ في الفندق الفرنسيّ حيث انتهت علاقتهما العاطفيّة. وعلى الرغم من الغرف الموصولة معاً، لم يكن لديهما ما يقولانه أحدهما للآخر. كانا يجلسان على امتداد وجبات طويلة الأمد، تحت قبّة سماء مُصطنعة، مرسوم عليها سُحُب باهتة اللون وأكاليل من الورود المتساقطة، حدّقا إلى مطالع الدَّرَج التي تهبط مؤدّية إلى مجموعة من سفن النقل في مرفأ خاصّ، وحبال تصرّ على مرابطها، مرابط حِبال تصدأ حتى تُصبح بلون الأرصفة الحجريّة؛ وكل شيء يتوق إلى الرحيل.

«الآن بما أنكَ لستَ مع ميري، لستَ في حاجةٍ إليّ. لقد كنتُ... حلّاً مؤقّتاً»

«بالضبط»

ربما كانت هذه الكلمة هي الوحيدة العارية أكثر مما ينبغي ولا يبزّها إلّا الصمت. كانت قد نهَضَتْ واقفة ومشتْ مبتعدة من دون أنْ تُدلي بمزيد من التعليق. انطلق طائر نورس عن الدرابزين القذر ورفرفَ بجناحيه شاقاً طريقه داخل البحر مع صراخ حادّ. أراد أنْ يُناديها كي تعود، لكنَّ الحافز مات على السجادة السميكة الممتدة بينهما.

قرَّرتْ جوليا وهي تنظر إليه الآن، هو الابن المكلوم حديثاً، أنّها شعرتْ بأنها منفصلة تماماً عن باتريك، عن رغبتها في أنْ يجدها لا تُقاوَم.

قال باتريك، وهو ينظر إلى شفتَي جوليا، الحمراوين تحت الشبكة

السوداء لخِمارها، «لم أركِ منذ أمدٍ بعيد». لقد بقيَ منجذباً بصورة غير لائقة إلى كل النساء تقريباً اللواتي ضاجعهن، حتى عندما كان يضمر بُغضاً شديداً لإحياء تلك العلاقات على كل الأُسُس الأخرى.

قالتْ جوليا «منذ عام ونصف. أصحيح أنكَ أقلعتَ عن شرب الخمر؟ لا بُدَّ أنَّ الوضع أصبح الآن صعباً»

«كلا على الإطلاق: إنَّ الأزمة تتطلَّب بطلاً. والكمين يأتي عندما تسير الأمور سيراً حَسَناً، أو هذا ما سمعت»

«إنْ كنتَ لا تستطيع أنْ تتكلَّم شخصيّاً عن كون الأمور تسير بصورة جيدة، فهي لم تتغيَّر كثيراً»

«لقد تغيَّرتْ، ولكن قد يستغرق بعض الوقت اللحاق بأنماط كلامي»

«أستطيع أنْ أنتظر»

«إنْ كانت هناك فرصة للجوء إلى السخرية...»

«فسوف تنتهزها»

قال باتريك «إنه أسوأ أنواع الإدمان قاطبة. دعكِ من الهيروين، فقط حاولي أنْ تتخلّي عن السخرية، عن تلك الحاجة الدفينة إلى أنْ تعني شيئين في وقتٍ واحد، أنْ تكوني في مكانين في وقت واحد، وألّا تكوني موجودة لمواجهة كارثة بمعنى مُحدد».

قالت جوليا «كفى! إنَّني أواجه ما يكفي من المتاعب في استعمال لصوق النيكوتين[1] وما زلت أدخّن في الوقت نفسه»، وناشدته، وهي تتشبّث به بحركة مسرحيّة متكلّفة، «لا تأخذ مني سخريتي، اترك لي قليلاً من التهكُّم»

«التهكّم لا يهمّ. إنّه لا يعني إلّا شيئاً واحداً: الاحتقار»

قالت جوليا «لطالما كنتَ مولعاً بالرقيّ. إنَّ بعضنا يحب التهكُّم»

لاحظتْ جوليا أنها تلهو مع باتريك. وشعرتْ بوخز قليل من الحنين إلى الماضي، لكنّها ذكّرتْ نفسها بجديّة بأنها قد تخلَّتْ عنه تماماً. ثم إنها على علاقة مع غونتر الآن، المصرفيّ الألماني الفاتن الذي يقضي منتصف

1- لصوق النيكوتين: لصوق يوضَع على الجلد يُساعد على الإقلاع عن التدخين – المترجم.

الأسبوع في لندن. صحيحٌ أنّه متزوج، كما كان باتريك، لكنه كان عكس ذلك من كل النواحي الأخرى: كان بارعاً، لائقاً، ثريّاً ومُهذّباً. كان في حوزته بطاقات حضور حفلات الأوبرا، وأماكن محجوزة في حانات الكافيار وعضويّة في نوادٍ ليليّة، يُنظّمها مُساعده. أحياناً يضرب بالحذر عرض الحائط ويرتدي بنطلون الجينز المكويّ وسترته الجلديّة ذات السحّاب ويأخذها إلى نوادي الجاز وإلى أنحاء غريبة من المدينة، ودائماً، طبعاً، بسيارة كبيرة، مُطمئنة، لا تُصدِر ضجيجاً، تنتظر في الخارج لتعيدهما إلى منطقة هيز ميوز، التي تقع مباشرة خلف ساحة بيركلي، حيث يمتلك غونتر، على غرار أصدقائه كلّهم، بركة سباحة في الطابق التحتيّ الأدنى في الجزء الجانبيّ المتحول من منزله ذي الاسطبلات الثلاث. كان يجمع أعمالاً فنيّة مُعاصِرة شنيعة بالسذاجة العشوائيّة لرجلٍ لديه أصدقاء في عالم الفن. كانت هناك صور فوتوغرافيّة فنيّة بالأبيض والأسود لحلمات نساء في غرفة تغيير ملابسه. لقد جعل جوليا تشعر بالرقيّ، لكنه لم يتمكن من جعلها ترغب في اللهو. ببساطة لم تكن تخطر الفكرة قط على بالها وهي مع غونتر. هو لم يُكافح للتخلّي عن التهكُّم. كان يعلم، طبعاً، أنَّ التهكّم موجود وسعى إليه بعناد بكل ما لديه من سُخف.

قال باتريك «يُستحسن أنْ نجد مقعداً. لستُ مُتيقّناً كثيراً مما يجري هنا؛ بل ليس لديّ وقت للنظر إلى نظام القدّاس»

«ولكن ألستَ أنتَ الذي نظَّمه؟»

«كلا. ميري فعلتْ»

قالتْ جوليا «رائعة! إنها دائماً تمدّ يد المساعدة، إنها أمٌّ أكثر من أمك أنت»

شعرتْ جوليا بنبض قلبها يتسارع؛ لعلها تمادتْ كثيراً. لقد أذهلها أنَّ تنافُسها القديم مع تلك التي كانت رمزاً للتضحية بالذات قد انبجس فجأة، الآن بعد أنْ عفا عليها الزمن.

قال باتريك بودّ «كانت كذلك، إلى أنْ أنجبَتْ أطفالها. وهذا ما أثار غضبي»

وخشية أنْ يشعر بالإهانة، وجدت جوليا نفسها تتمنّى أنْ يتخلّى عن هدوئه المُثير للجنون.

دبّتْ الحياة في هدير موسيقى الأرغن.

قال باتريك، مبتسماً برشاقة لجوليا، «صدّقي أو لا تصدّقي، يجب أنْ أحرق رفات الأم الوحيدة التي كانت لي»، وانطلقَ يجتاز الممر بين المقاعد نحو الصفّ الأول حيث حجزتْ ميري مقعداً لأجله.

-4-

جلستْ ميري على المقعد الأمامي من المِحرقة القريب من تابوت إلينور، تكبح لحظةً من التمرُّد. كانت تتساءل عن مكان باتريك عندما التفتتْ إلى الوراء ورأته يُمازح جوليا مُغازلاً. والآن عندما لم يعُد هناك أي شيء جادّ يعتمد على لامبالاتها المُهذَّبة، شعرتْ بصدمة من السخط. ها هي ذي من جديد، تمدّ يد المُساعدة، بينما باتريك في إحدى النوبات الشرعيّة لأزمته الدائمة، يولي انتباهه لامرأة أخرى. هذا لا يعني أنّها تُطالب بالمزيد من انتباهه، وكل ما أرادتْ من باتريك هو أنْ يحصل على المزيد من الحريّة، وأنْ يكون أقل وضوحاً بقليل. وللإنصاف، وكانت أحياناً تتمنّى أنْ تكفّ عن كونها مُنصِفة جداً، هذا ما أراده هو أيضاً. كان عليها أنْ تُذكِّر نفسها بأنَّ الانفصال قرَّبَ بينهما أكثر. وبما أنهما لم يعودا يتبادلان الضربات أو تُباعد بينهما ردود أفعالهما المعتادة، استقرّا ضمن مدار ثابت نسبيّاً حول الطفلَين وحول كلٍ منهما الآخر.

هدأ غضبها أكثر عندما ألقتْ نظرة ثانية إلى الخلف وتلقَّتْ ابتسامة جادّة من إراسموس برايس، الذي كان يمثّل استسلامها القليل لعزاء الزنى. كانت قد باشرت علاقتها معه في جنوب فرنسا، حيث أصرَّ باتريك على استئجار منزل خلال الفترة الختاميّة من فصم زواجهما، واضطر إلى العودة إلى المنطقة المُحيطة بمنزله في عهد الطفولة في سان - نازير. وأبدتْ ميري اعتراضها عبثاً على هذا الغلوّ؛ كان باتريك يمرّ بالمرحلة الأخيرة من إدمانه الخمر، ويتعثّر في أرجاء متاهة لا وعيه، وغير جاهز لخوض نقاش.

كان لآل برايس، اللذين كان زواجهما ينهار، ابنان في مثل سن روبرت

وتوماس تقريباً. وعلى الرغم من هذه التشابهات الواعدة، كان الانسجام غائباً عن العائلتين.

في اليوم التالي، قال باتريك «إنَّ مَنْ يُذهَل لأنَّ «مدة أسبوع هي فترة طويلة في السياسة»، عليه أنْ يُجرِّب ويدفع آل برايس إلى المكوث. لقد اتّضح أنها فترة طويلة لعينة كالأبديّة. أتعرفين من أين حصل على اسمه الغريب؟ كان والده يعمل على تحرير كتاب ***«الأعمال الكاملة لإراسموس***[1]» المؤلَّف من خمسة وستين مُجلداً ومن إصدار مطبوعات أكسفورد يونيفرسيتي بريس، عندما قاطعته أمّه بنبأ إنجابها صبيّ، فهتفَ، كمَنْ نزل عليه إلهام، «فلنسمِه إراسموس، أو لوثر، الذي كنتُ أعيد قراءة رسالته الحاسِمة إلى إراسموس في صباح هذا اليوم بالذات» ولما كان الخيار له...» وسكتَ باتريك.

تجاهلته ميري، لعِلمها أنه كان يورِد ذريعة ذلك اليوم من أجل المزيد من المُعاقرة العقيمة للخمر. وبعد أنْ غاب باتريك عن الوعي ولجأتْ إميلي برايس إلى السرير، بقيتْ ميري يقظة، تُصغي إلى مشكلات إراسموس.

في الأمسية الأولى قال، وهو يُحدِّق إلى كأس النبيذ القاتم، «بعض الناس يعتقدون أنَّ المستقبل يخصّهم وأنّهم يمكن أنْ يفقدوه، ولكنني لا أرى هذا أبداً. حتى عندما يسير العمل على أكمل وجه، لا يهمّني إنْ أنا متُّ في الحال وبلا ألم».

ما الذي يجذبها إلى ذلك النوع الكئيب من الرجال؟ بوصفه فيلسوفاً على غرار شوبنهاور، يمكن لإراسموس على الأقلّ أنْ يُحوِّل نظرته التشاؤميّة إلى وجهة نظر عالميّة. وابتهج لِذكر اسم الفيلسوف الألمانيّ.

«إنَّ ملاحظته المُفضّلة لديّ هي النصيحة التي نفحها لصديقٍ يحتضِر: «أنت لم تعُد شيئاً كان من الأفضل لك ألّا تكونه أبداً...» »

قالتْ ميري «لا بُدَّ أنَّ هذا القول ساعده»

همس بإعجاب «أنتِ اختصاصيّة في الحنين»

1- ديسيديريوس إراسموس (1466؟-1536): فيلسوف إنساني ألمانيّ. وفقيه عصر النهضة الأول في أوروبا الشماليّة. له مؤلفات كثيرة – المترجم.

بالنسبة إلى إراسموس كان من المستحيل ترميم زواجه؛ واللغز وفق رأي ميري كان حدوث ذلك الزواج أصلاً. وكان أمام إميلي برايس، بوصفها ضيفة، ثلاثة عوائق رئيسة: فهي عاجزة عن قول من فضلك، وعاجزة عن قول شكراً لك، وعاجزة عن قول أنا آسفة، وطوال الوقت تُثير صَخَباً جرّاء المُطالبة بهذه التعبيرات. وعندما شاهدتْ ميري تضع واقياً من أشعة الشمس على كتفَي توماس الرشيقتَين الشاحبتَين، هرعت متقدّمة منها وغَرَفَتْ الكريم الأبيض عن يد تجويف يد ميري، قائلة، «كلما رأيته لا يسعني إلّا أنْ آخذ بعضاً منه». وفي تقديرها، انتابها الهوس نفسه في أثناء وضعها ابنها الأكبر، «حالما رأيته، قلتُ في نفسي: *أريد ابناً آخر*»

كانت إميلي تشتكي من كمبريدج، ومن زوجها ومن أبنائها، ومن منزلها، ومن فرنسا ومن الشمس ومن الغيوم ومن أوراق الشجر ومن الريح ومن فوهات الزجاجات. لم تستطع أنْ تتوقف عن ذلك؛ كان عليها أنْ تُفرِغ فيض سخطها. أحياناً كانت تختلق أهدافاً وهميّة بشكواها؛ كانت كمبريدج كالجحيم، ولندن كانت عظيمة، ولكنْ عندما قدَّمَ إراسموس طلب وظيفة في جامعة لندن، دفعته إلى سحب الطلب. وفي ذلك الوقت، كانت قد قالتْ إنه شديد الجبن ولا يستطيع تقديم طلب، ولكن في أثناء قضاء عطلة مع آل ميلروز اعترفتْ بالحقيقة، «كل ما أردتُ هو الانتقال إلى لندن لكي أشتكي من نوعيّة الهواء ومن المدارس»

أخرجَ باتريك من ذهوله برهة تحدّي شخصيّة إميلي.

«في وسعها أنْ تمثّل مركز مؤتمرٍ كلاينيّ[1] - «تحدثي عن الأثداء السيئة»». وقهقه وهو يتصبب عرقاً على السرير بينما ميري تتجمَّل بالصبر. تنهّد وقال «لقد بدأتْ بداية صعبة في الحياة. لم تسمح لها أمّها باستخدام أقلام الحبر الجافّ في منزلهم، تحسّباً لنفاد الحبر عندهم». وسقط عن السرير من فرط الضحك، وارتطم رأسه بالطاولة المجاورة للسرير واضطرَّ إلى تناول مُخدِّر ليتحمّل ألم الارتطام.

1- نسبة إلى عالِمة النفس النمساويّة ميلاني كلاين (1882-1960) التي استقرّتْ في إنكلترا وكانت تُعنى بشؤون سلوك الطفل - المترجم.

عندما تخلّتْ ميري عن التحمُّل، فعلتْ ذلك بحماس. كان في وسعها أنْ تشعر بإحساس إميلي الكامن بالحرمان كأنها نفخة حارّة تهبّ من فرن، لكنّها نجحتْ بصورة ما في اتّخاذ قرار بالتخلّي عن التعاطف الذي يُميِّزها، لكي تُلازم العواقِب المزعجة ولكيلا تشعر بالأسباب التي تبعث على الكآبة لسلوك إميلي، خاصّة بعد تعليق إراسموس السمج، والذي لم ترفضه بالكامل، في أمسية الجلسة الثانية من حديثهما حول فشل الزواج. وطوال أسبوع ظلّا عائمَين مع حُطام زواجيهما الشخصيين. وإبّان عودتهما إلى إنكلترا استغرق منهما الاعتراف بعقم محاولتهما لبناء علاقة عاطفيّة من بقايا شظاياهما الرطبة شهرين – وهي مدة طويلة بقدرٍ كافٍ بالنسبة إلى ميري لكي تكافح بإخلاص لقراءة عمل إراسموس الأخير، «*ليس أكثر حِكمة: التطورات في فلسفة الوعي*».

كان وجود الكتاب على طاولة ميري المُجاورة للسرير هو ما حذَّرَ باتريك من وجود علاقة رومانسيّة في حياة زوجته.

خمَّنَ من خلال عينيه شبه المُغمضتين «لا يمكن أنْ تقرأ ذلك الكتاب إلّا إذا كانت على علاقة حب مع المؤلِّف»

«صدِّقني، كان الأمر مستحيلاً حقاً حتى في ذلك الوقت»

استسلم بالكامل لاسترخاء إغماض عينيه، وابتسامة غريبة مُرتسمة على شفتيه. وأدركتْ مع إحساس مُبهم بالاشمئزاز أنّه مسرور لأنّه خفَّف من ثقل خيانته الكبيرة بمساهمتها التافهة على الكفّة المُقابلة من الميزان.

بعد ذلك، مرّتْ ما يمكن لأمها أنْ تُسميها فترة «تُثير أقصى درجات الجنون»، عندما خرج باتريك من غرفته المفروشة الجديدة المُعتِمة لكي يوبّخها أو يستجوبها حول دراسات الوعي، أحياناً بالدقّة البطيئة الجامعة المانعة للثمالة، وتارة أخرى بالحمّى الخياليّة لتلك الثمالة، ألقاها كلها بالفصاحة المُسهِبة لرجلٍ متعوِّد على الترافع في قضيّة علناً.

«من أجل ولوج مجال العِلم، يجب أنْ يُصبح موضوع الوعي هو مادة الوعي، وهذا بالضبط ما لا يمكن أنْ يحدث، لأنَّ العين لا تفهم نفسها، لا تستطيع أنْ تقفز من مِحجرها بسرعة كبيرة كافية لتلقي نظرة على عدسة

العين. إنَّ لغة الخبرة ولغة التجربة تنفصلان كما الزيت والماء في أنبوب الاختبار نفسه، لا تمتزجان إلّا بعنف الفلسفة. عنف الفلسفة. هل توافقين؟ ووويس. لا عليكِ من ذلك المصباح، سوف أشتري لكِ واحداً جديداً».

«ولكن، جدّيّاً، أين موقفك من الأنابيب الدقيقة؟ من الآلات الموسيقيّة الأنبوبيّة الدقيقة. هل أنتِ مع أو ضد؟ هل تعتقدين أنَّ نظريّة تمدُّد العقل يمكن أنْ تقوم بثقة على أساس لا مركزيّة الكوانتوم؟ هل تصدّقين أنَّ ذرَّتين متّصلتين تتشكّلان في رحم الكوانتوم اللولبيّ الدافئ للأنابيب الدقيقة يمكنها أنْ تستمر في تبادل المعلومات وهي تندفع خلال الحقول الشاسعة من ظلام ما بين النجوم؛ وتبقى على تواصُل على الرغم من مظهر ***الانفصال الثلجيّ***؟ هل أنتِ مع، أم ضد؟ وما الفرق إذا عرفنا أنَّ تلك الذرات استمرّتْ تتواصل مع بعضها، بما أنها ليست الذرات التي نعرفها؟»

«أوه، إكراماً لله اسكتْ»

صرخ، كما فعل هنري الثاني وهو يطلب مَنْ يقتل كاهنه المُثير للمشكلات، «مَنْ يُخلّصنا من **الفجوة التفسيريّة**؟ وهل تلك الفجوة هي مجرد نِتاج حديثنا القائم على سوء الفهم؟» وتابع قائلاً «هل الواقع هو هلوسة لا إراديّة؟ وهل الانهيار العصبيّ في الحقيقة هو ***رفض التأقلُم***؟ تابعي، لا تخجلي، قولي لي ما هو رأيك؟»

«لِمَ لا تعُود إلى شقّتك وتغيب عن الوعي هناك؟ لا أريد لطفليّ أنْ يرياك وأنت في هذه الحالة»

«أي حالة؟ حالة الاستفهام الفلسفي؟ حسبتُ أنَّ هذا يحظى باستحسانك»

«يجب أنْ أُحضِر الصبيّين. من فضلك اذهب إلى بيتك»

«ما ألطفكِ لأنك تعتبرينه بيتي. إنني لستُ في ذلك الوضع السعيد»

غادرَ، وتخلّى عن مُناظرة الوعي لكي يصفع الباب. حتى عبارة «العاهرة اللعينة» تتسِم بمُباشَرَة الترحيب بعد استخدامه المُنحرِف للعبارات التجريديّة على غرار «ثُنائيّة الملكيّة» لكي يُعبِّر عن حسّة المُهشَّم بالمنزل. أصبح إحساسها بالذنب يقلّ أكثر فأكثر حيال مرات مغادراته العاصفة. وارتعبتْ عندما سألها روبرت وتوماس عن تقلّبات مزاج والدهما، وعن فترات صمته

الغاضبة، وعن انكفائه الذاتيّ الانفعاليّ، وعن مشهد سلوكه الأخرق وبؤسه. في الحقيقة إنَّ الطفلَين لم يرياه إلّا قليلاً. كان «مُسافراً بداعي العمل» خلال الشهرين الأخيرين من إدمانه على الخمر وشهر في الدير. وبموهبته الخارقة في المُحاكاة، كان روبرت لا يزال قادراً على تجسيد الهواجس التي ضمّنها إراسموس كتبه وكان باتريك يشنّ هجوماً مُبطّناً على زوجته.

تمتم، وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً مُفكِّراً، «مِنْ أين تأتي الأفكار؟ قبل أنْ تحرِّك يدك أين يُكمن القرار؟»

قال توماس، وهو يضحك ضحكاً مكبوتاً، «بصدق، يا بوبي، أتوقع من العقل أنْ يعرف»

فأفأ روبرت، وهو يقفز أعلى وأسفل أوتار وهميّة، «في الواقع، سيد تريسي، عندما تحرِّك يدك، يأمرك عقـ... عقلك بأنْ تحرّك يدك، ولكن مَنْ الذي أمر عقلك بأنْ يأمر يدك؟»

قال روبرت، مُنتقلاً إلى نبرة صوت السيد تريسي الجهيرة والعميقة، «هذا لغز كبير، يا عقل»

عاد على صوت العالم المُفأفئ، «حسن، سيد تريسي، لقد اخترعتُ آلة قد تتمكّن من حل ذلك اللغز. اسمها ثينكاترون[1]»

هتف توماس «شغّلها، شغّلها!» وهو يُلوِّح بدميته القماشيّة في الهواء.

أصدر روبرت همهمة عالية أخذتْ ازدادت بالتدريج تهديداً.

حذّره توماس «أوه كلا، سوف تنفجر! آلة الثنكارتون سوف تنفجر!»

ارتمى روبرت على الأرض مع صوت انفجار مُروِّع.

«يا إلهي، سيد تريسي، أعتقد أنني بالغتُ في شحن الدارات الرئيسية»

قال توماس بشهامة، «لا تقلق، أيها العقل، أنا واثق من أنك ستحلّ المشكلة»، ثم أضاف موجّهاً كلامه إلى ميري، «ولكن جديّاً، ما هي الـ «مناظرة الوعي» التي كان أبي غاضباً بشأنها؟»

قالت ميري،«أوه، يا ربي»، وهي تفتش حولها بيأس عن شخصٍ قريب

1- الاسم مُلفّق من كلمة يفكِّر أو Think – المترجم.

منها لا يرغب في التحدُّث عن الوعي. لقد اعتقدَتْ أنَّ في وسعها أنْ تُبعِد توماس عن الموضوع بجعلها الموضوع يبدو عصيّاً على الفهم. «إنه في الحقيقة المناظرة الفلسفيّة والعِلميّة حول ما إذا كان المخ والعقل متطابقين»

قال توماس مُخرِجاً إبهامه من فمه وفاتحاً عينيه واسعاً، «طبعاً ليسا كذلك. أعني، إنَّ المخ هو جزء من الجسد والعقل هو الشكل الخارجيّ للروح»

قالت ميري، منبهرة، «تماماً»

قال توماس «إنَّ ما لا أفهمه هو لماذا الأشياء توجد»

«ماذا تعني؟ أتعني لماذا يوجد شيء بدل لا شيء؟»

«نعم»

«لا أعلم، ولكن ربما هذا يستحق أنْ نبقى مُندهشين بشأنه»

«أنا مُندهِش بشأنه، ماما. أنا مُندهِش حقاً»

عندما أخبرتْ إراسموس حول ما قاله توماس عن كون العقل «الجزء الخارجيّ من الروح»، لم تبدُ عليه الدهشة كما حصل معها.

علَّقَ قائلاً، «إنها وِجهة نظر فات أوانها، على الرغم من أنَّه لا يمكن القول إنَّ وِجهة النظر الأكثر حداثة، القائلة بأنَّ الروح هو العقل الداخليّ، لم توصِلنا إلى أيّ نتيجة بمجرّد عكس العلاقة بين شيئين دالَّين مُبهَمَين»

قالت ميري «هذا صحيح. ومع ذلك، ألا تعتقد أنَّه شيءٌ خارق أنَّ تكون لدى ولد في السادسة من العمر فكرة واضحة عن ذلك الموضوع المشهور بصعوبته؟»

«غالباً ما يقول الأطفال أشياء تبدو خارقة لنا لأنَّ الأسئلة الكبيرة بالتحديد لم تُصبح بعد بالنسبة إليهم «مشهورة بصعوبتها». إنَّ أوليفر ممسوس في هذه اللحظة بفكرة الموت وهو أيضاً لم يتجاوز السادسة. إنه لا يتحمّلها، ولم تُصبح جزءاً من تساؤلاته؛ إنها ما زالتْ فضيحة، خطأً كارثيّاً؛ إنها تُدمِّر كل شيء. نحن تعوّدنا على حقيقة الموت – على الرغم من أنَّ التجربة غريبة غرابة مُطلَقة. أما هو فلم يعثُر على خُدعة تغطية رأس الجلّاد بقلنسوة،

وإخفاء التجربة بالحقيقة. إنّه ما زال يراها كتجربة صِرف. لقد وجدتُه يبكي على ذبابة ميّتة ممدَّدة على عتبة النافذة. ولمّا سألني لماذا ينبغي على الأشياء أنْ تموت كل ما استطعتُ أنْ أقدّمه له هو بعض الثرثرة: لأنَّ لا شيء يدوم إلى الأبد».

كانت حاجة إراسموس إلى تبنّي وِجهة نظر عامة ونظريّة حول كل وضع يُثير غيظ ميري أحياناً. كان كل ما تريد هو القليل من المديح لتوماس. حتى عندما قالتْ له أخيراً إنها لا ترى أي فائدة من استمرار علاقتهما، قبِلَ وضْعَها بهدوءٍ مُهين، ومن ثم اعترفَ بأنه كان «يلهو مؤخراً بمدخل بانسايكيّ[1]»، وكأنَّ هذا الكشف عن الجانب الجامح من عقله قد يُغويها بتغيير رأيها.

كانت ميري قد قرّرتْ ألّا تأخذ الولدين معها لحضور جنازة إلينور، بل أنْ تتركهما مع أمّها. لم يكن توماس يتذكّر إلينور وكان روبرت شديد الانغماس في حس والده بالخيانة بحيث كان من المُرجَّح أنْ تُحيي المناسبةُ عِدائيَّةً كانت خامدة بدل أنْ تُخفِّف حسّاً طبيعيّاً بالحزن وبالخسارة. كانوا قد اجتمعوا كلهم معاً آخر مرَّة قبل ذلك بحوالي سنتين في كيو غاردنز، في موسم أزهار الجريس، بُعيد عودة إلينور من سان - نازير لكي تعيش في لندن. وفي طريقهم إلى حدائق وودلاند ووك، دفعَتْ ميري كرسي إلينور المتحرّك خلال ممرات نُصُب رودونـدروم دل الملتوية التي تحفّ بها جدران من اللون الفاقع. وتوانى باتريك في الخلف، يعبّ من عبوة مُصغّرة من زجاجة ويسكي جوني ووكر العلامة السوداء في لحظات من الافتتان الزائف بالأزهار بألوانها الزهريّة أو البرتقاليّة المنتشرة في المكان، بينما روبرت وتوماس يستكشفان الشجيرات العملاقة النامية على المنحدرات على كلا الجانبين. وعندما ظهر طائر تدرج ذهبيّ على الدرب، بريشه الأصفر بلون الزعفران والأحمر الدمويّ يشعّ كطلاء المينا، أوقفَتْ ميري الكرسيّ المتحرّك، مندهشة. اجتاز طائر التدرج الرماد الساخن بالفخامة المتمايلة التي تتسم بها خطوة طائر، وثمن الموهبة المتكلّفة، كالرأس

1- البانسايكيّة أو Panpsychism، هو مذهب فلسفي يدّعي أنَّ لكل شيء عقل أو ما يشبه العقل - المترجم.

الشامخ لكلبٍ يسبح. حدَّقَتْ إلينور، المكوّمة على مقعدها، مرتدية بنطلوناً من الفانيلا الزرقاء الجديرة بطفل وسترة صوفيّة محبوكة بلون أحمر داكن لها أزرار كبيرة مُسطّحة مع ثقوب عند المِرفَق، حدَّقتْ إلى الطائر بامتعاض فزِع استقرَّ على قَسَمات وجهها المتجمّدة. أسرع باتريك بالعبور بسرعة، مُصمّماً على ألّا يتكلَّم مع أمّه، مُتمتماً بأنَّ «من الأفضل مُراقبة الطفلَين»

أومأتْ إلينور بحركة مسعورة لميري لكي تقترب منها ومن ثم نطقَتْ إحدى جُمَلِها الكاملة النادرة.

«لا أستطيع أنْ أنسى أنّه ابن ديفيد»

قالتْ ميري، «لا أعتقد أنَّ ما يشغل تفكيره في هذه الأيام هو والده»، وقد أدهشتها حِدَّة كلامها.

قالت إلينور«يشغل تفكيره...»

كانت ميري تدفع الكرسي المتحرّك خلال الأخاديد المُرقّطة لوودلاند ووك عندما تمكّنت إلينور من التكلُّم من جديد.

«هل... أنتِ... على... ما يرام؟»

أخذتْ تطرح عليها السؤال نفسه مراراً وتكراراً، باضطرابٍ متزايد، متجاهلة سديم أزهار الجريس، الممتزجة مع السيقان الصفراء للثوم البرّي، تحت الظلال المتنقّلة والمنتفخة لأشجار السنديان. كانت تحاول أنْ تنقذ ميري من باتريك، ليس بسبب معرفتها العميقة بظروفها، بل لتنقذ نفسها، بفعل بعض السِحر ذي المفعول الرجعي، من ديفيد. ومحاولات ميري لإعطاء جواب إيجابيّ عذَّبَت إلينور، بما أنَّ الجواب الوحيد الذي يمكن أنْ تقبل به هو، «كلا، لستُ على ما يُرام! إنني في جحيمٍ مُقيم مع طاغية مجنون، كما عِشتِ أنت، أيتها العزيزة المسكينة. ومن ناحيةٍ أخرى، إنني بكل صدق أعتقد أنَّ الكون سوف يُنقذنا، بفضل القِوى الروحيّة الهائلة التي يتمتَّع بها الشافي الجريح الذي هو في الحقيقة أنتِ»

لأسباب معيَّنة لم تكن ميري مُستعدّة لقول هذا، ومع ذلك بقيَتْ تربط بين المرأتين علاقة أخويّة مُضطربة. لقد تبيَّنتْ ميري بعض معالِم تنشئة إلينور بسهولة كبيرة: الحياء المُفرِط، والمُربيّة صاحبة اليد العليا، وعدم

الثقة في النفس، والانجذاب المازوشي إلى الرجال الصعبين. وكانت إلينور بمثابة الحكاية التحذيريّة[1] لتلك القِوى، التحذير من عقم التضحية بالذات عندما تكاد لا توجد ذات للتضحية بها، عقم التعامُل مع الضياع بمزيد من الضياع. وفوق ذلك كله، كانت طفلة، وليست «طفلة بالغة» كحال العديد من البالغين، بل طفلة صغيرة محفوظة جيداً داخل برطمان من المال، والكحول والوهم المُخلَّل.

منذ ذلك اليوم الذي أمضوه في كيو، لم يؤخَذ أي من الصبيَّن لزيارة الجدَّة في مأوى العجزة. وتوقف باتريك أيضاً عن زيارتها، بعد عبثها المؤلم بمساعدتها على الانتحار قبل ذلك بعامَين. وحدها ميري واظبت على زيارتها، أحياناً بدافع القليل من تذكّرها النابع عن إحساس بالواجب أنَّ إلينور هي، قبل كل شيء، حماتها؛ وأحياناً أخرى بدافع إيمانها الأكثر غموضاً بأنَّ صِلة إلينور بعائلتها غير متوازنة وبأنَّ عمليّة ضبط ذلك التوازن يجب أنْ تبدأ فوراً، سواء أكانت إلينور قادرة على المُشاركة في ذلك أم لا. كان شيئاً غريباً حقاً، مع مرور الأشهر، أنْ تتحدث مع الفراغ، وتأمل في أنَّ لذلك أي فائدة. وبينما إلينور تُحدِّق بجمودٍ أشدّ وبوجهٍ خالٍ من التعبير إلى السقف. ومع غياب أي حوار، كانت غالباً مل تجنح إلى امتعاضها من فشل إلينور في حماية طفلها.

تذكّرت ميري إلينور وهي تصِف الأسابيع الأولى بعد عودتها من المستشفى مع باتريك الطفل. كان ديفيد يتعذّب من سماع بكاء ابنه حتى أنّه أمرها بأنْ تُبعِد الطفل الصاخِب إلى أقصى غرفة في العليّة. وكانت إلينور تشعر أصلاً بأنها منفيّة وهي في كورنويل الأثيرة لدى ديفيد، في طرف امتدادٍ لليابسة في البحر يطلّ على مصب نهر كثيف الأشجار، ولم تكد تُصدِّق، وهي تُضطر إلى مغادرة غرفة نومها فجأة لكي تنتعل خفّها، أو لكي تُغطي الطفل بالملاءة، أنّه يوجد منفى أبعد منه، في غرفة صغيرة باردة في المنزل الكبير البارد. ذلك أنَّ المبنى الذي كانت تُقيم فيه كان في الأصل مُشبّعاً برعب الكآبة. كانت قد تزوجت من ديفيد في مكتب ترورو لتسجيل العقود

1- الحكاية التحذيريّة: حكاية تنطوي على نصيحة تحذيريّة - المترجم.

وهي مُثقلة بحملها بطفلتها الأولى. وكان قد شجّعها، مُغالياً بمهاراته الطبيّة، على إنجاب الطفلة في المنزل. توفيتْ جورجينا بعد ذلك بيومَين، في غياب المحضنة التي كانت تحتاج إليها. وخرج ديفيد بقاربه إلى مصبّ النهر، ودفنها في البحر، ومن ثم اختفى طوال ثلاثة أيام لكي يسكر. ولزمت إلينور السرير، وهي تنزف وحيدة، تُحدِّقُ إلى المياه الرماديّة من خلال المشربيّة التي في غرفة نومها. وبعد وفاة جورجينا، رفضَتْ أنْ تُضاجع ديفيد. وذات مساء سدّدَ إليها ضربة على خلفيّة رُكبتيها بينما كانت ترتقي إلى الطابق العُلويّ. وعندما سقطَتْ، لوى ذراعها إلى خلف ظهرها واغتصبها على مطلع الدَّرَج. وعندما بلغ أخيراً شعورها بالاشمئزاز أقصى مداه وأصبحتْ مستعدة لتركه، وجدتْ أنها حامل.

وهي في العليّة وطفل الاغتصاب بين ذراعيها، شعرتْ بصورة هستيريّة بعدم ثقة في نفسها. نظرتْ إلى السرير الضيِّق فتملّكها خوفٌ من أنهما إذا استلقيا معاً عليه، فسوف تتقلَّب وتخنقه، وهكذا انتقت كرسيّاً خشبيّاً في الركن، مُجاوراً للموقد الفارغ، وجلستُ بانتصاب عليه طوال الليل، متشبّثة به وهو بين ذراعيها. وخلال تلك الليالي التي أمضتها جالسة على الكرسيّ الخشبيّ، كانت تستغرق في النوم مراراً وتكراراً، ومن ثم تستيقظ بسرعة عندما تشعر بجسم الطفل ينزلق على طول مبذلها نحو حافة رُكبتيها. وتُمسِك به في اللحظة الأخيرة، فزعة من أنْ يتهشَّم رأسه الرقيق على الأرض؛ ومع ذلك لا تستطيع أنْ تلجأ إلى السرير الذي يتوقان معاً إلى الاستلقاء عليه، خشية أنْ تسحقه وتقتله.

أوقات النهار لم تكن أفضل. كانت ممرضة مستشفى التوليد تأتي لمساعدتها، ومُدبّرة المنزل تُثير الصخب في المطبخ، ومع وجود ديفيد خارج المنزل يُبحِر ويسكر، يسود المنزل جو من المرح المُصطنَع. تُثير النسوة الثلاث الجلبة حول باتريك وعندما تعود إلينور إلى غرفة نومها لترتاح تكون قد نسيت تقريباً تلك الليالي المُريعة؛ وتكاد تنسى موت جورجيا عندما تُغمض عينيها ولا تعود ترى امتداد المياه الرماديّة خارج نافذة غرفتها، وعندما تُرضِع الصبي من ثديها ومن ثم يستغرقان في النوم معاً، تكاد تنسى العنف الذي جاء عبره إلى العالم.

ولكن ذات يوم، بعد عودتهما من المستشفى بثلاثة أسابيع، مكثَ ديفيد في المنزل. كان في مزاج خطِر منذ البداية؛ شمَّتْ رائحة البراندي في قهوته وتبيَّنَتْ الغيرة الخانقة في نظراته. ومع حلول وقت الغداء، كان قد تسبَّبَ في إيذاء كل مَنْ في المنزل بتعليقاته الجارحة، وانتاب القلق نسوة المنزل كلّهن وهن يشعرنَ به يذرع المكان جيئة وذهاباً، مُنتظراً أنْ تُتاح الفرصة لإيذائهن وإهانتهنّ. ومع ذلك، دُهِشنَ عندما ولج المطبخ، حاملاً حقيبةً من الجلد المدبوغ ومُرتدياً منامة طبيب جرّاح خضراء فضفاضة. وأمرهنّ بإفساح مكان على طاولة خشب السنديان النظيفة، ومدّ منشفة، وأخرجَ صندوقاً خشبياً يضمّ أدوات العمليات الجراحيّة من الحقيبة وفتحه بجوار المنشفة. وطلب ملء مقلاة من الماء المغليّ، وكأنَّ كل شيء مُتَّفَقٌ عليه مُسبقاً وكأنَّ الجميع يعلمون ما الذي يجري.

قالتْ مُدبّرة المنزل، وكانت أول المُنتبهين من تأثير الذهول، «لِمَ هذا؟»

أجاب ديفيد بنبرةِ صوتِ رجلٍ يشرحُ شيئاً شديد الوضوح لشخص شديد الغباء، «من أجلِ تعقيم الأدوات. لقد آن الأوان لإجراء عملية الختان»، ثم أضاف، كأنّه يُخفِّف من أعمق مخاوفهن، «أؤكد، لكنّ إنها ليست لأسبابٍ دينيّة»، وسمح لنفسه برسم ابتسامة مُقتضَبة، «بل لأسبابٍ طبيّة»

صرختْ إليانور «كنتَ تشرب»

قال ساخراً، وقد أُصيبَ بقليل من الدوار من تأثير العمليّة الجراحيّة المُزمعة، «فقط مقداراً من الكحول الطبيّ»، ثم أضاف، وقد تخلّى عن المزاج المرِح، «أحضرنَ الصبي»

سألتْ ممرضة مستشفى التوليد «أواثقٌ أنت من أنَّ هذا لصالحه؟»

قال ديفيد، «إياك أنْ تشكّكي في خِبرتي»، مُضمِّناً كل شيء في الأمر: كونه الرجلَ الأكبر سناً، والطبيب، والمُستخدِم، وقروناً من إصدار الأوامر، ولكن أيضاً التأثير القويّ لحضوره النفسيّ، بحيث بدا أنَّ مُعارضته شيء يُهدِّد الحياة.

كانت سُمعته كقاتل راسخة في مُخيّلة إلينور. وفي وقت متأخِّر من الليل، عندما لا يُصبح لديه أكثر من مُستمِع واحد، بين الزجاجات الفارغة والسجائر

المسحوقة، كان ديفيد يحبّ أنْ يحكي حكاية رحلة صيد الخنازير بالرماح الهنديّة التي اشترك فيها في أواخر حقبة العشرينيات من القرن الماضي. كان يتحمّس لمواجهة إثارة خطر القفز خلال العشب الباسق حاملاً رمحاً، يُلاحقُ خنزيراً بريّاً يمكن لأنيابه أنْ تكسر قوائم حصان، ويرمي براكبٍ إلى الأرض ويتسبَّب في موته. وكان تطويق أحد تلك الخنازير القويّة والسريعة أيضاً متعة هائلة، وأشدّ إثارة من القتل عن بُعد. والشائبة الوحيدة في تلك الحملة كانت أنَّ أحد أفرادها عضّه كلبٌ برّي وظهرتْ عليه أعراض داء الكَلَب. كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من أقرب مستشفى، وكان الأوان قد فات لمساعدته، وهكذا قرَّر الصيّادون أنْ يحزموا صديقهم المُزبِد والمُضطرب في واحدة من الشِباك السميكة المُخصّصة في الأصل لنقل الخنازير النافقة، ثم رفعوه عن الأرض، وربطوا زوايا الشبكة إلى أغصان شجرة جاكاراندا ضخمة. كان من قبيل التحدّي، حتى بالنسبة إلى أولئك الرجال الأشدّاء، أنْ يستمتعوا بالإحساس بالاسترخاء العميق الذي يلي يوماً من ممارسة رياضة مُنشّطة مع وجود تلك الحزمة التي تعاني من آلام داء الكَلَب تتدلّى من شجرة قريبة. وبدا كأنَّ صفَّ المُصابيح على طول مائدة العشاء، وومضَ الفضّة الهادئ، والخدمَ المُدرَّبين جيداً، وانتصارَ الحضارة المُهيمنة على المدى الشاسع البرّي للّيل الهنديّ، قد أصبحوا موضع شكّ. وبالكاد انتبه ديفيد، أمام خلفيّة من الصراخ، إلى الحكاية الرائعة لآرتشي مونتكريف وهو يقود عربة خيل إلى قاعة فايسروي للرقص. حين ارتدى آرتشي رداء توغا[1] مُرتجلاً وأخذ يتلفّظ بعبارات بذيئة بـ «نوع غريب من اللاتينيّة السوقيّة»، وبدأ الفرس يلوث حلبة الرقص بروثه. ولو لم يكن والده صديقاً لأصحاب قاعة فايسروي لاضطرَّ إلى التخلّي عن تفويضه، لكنَّ ما حدث، باعتراف أصحاب قاعة فايسروي، سرّاً طبعاً، هو أنَّ آرتشي رفعَ من معنوياته في أثناء «أداء رقصة مملّة أخرى».

بعد انتهاء القصّة، نهضَ ديفيد عن الطاولة وهو يتمتم «هذا الضجيج لا يُطاق»، وولج خيمته لكي يُحضِر مُسدّسه. وتقدَّم من ضحيّة داء الكَلَب وأطلقَ

1- توغا: رداء رومانيّ طويل - المترجم.

الرصاص على رأسه. ثم عاد إلى الطاولة التي سادها الذهول، وجلس مع «إحساس بهدوء مُطلَق» وقال «إنّه أفضل ما يمكن فعله». وبالتدريج، انتقلتْ العبارة بين الأفراد الجالسين حول الطاولة: إنه أفضل ما يمكن فعله. كانوا رجالاً أثرياء وذوي نفوذ، وكان بعضهم ذوي مراكز رفيعة جداً في الحكومة، وأحدهم كان قاضياً، لم يسعه إلّا أنْ يتفق معه. وبعد إسكات الصراخ وشرب بضع كؤوس من الويسكي والصودا، ومع انتهاء الأمسية ساد الرأي العام بأنَّ ديفيد قام بعملٍ يتّسِم بشجاعة فائقة. بل إنَّ ديفيد ابتسم وهو يصِف كيف جمع كل الحاضرين حول الطاولة، ومن ثم وبنوبةٍ من الورع كان أحياناً يختم بالقول إنَّه عندما وقعتْ عينه على نسخة من *Gray's Anatomy* تذكّرَ حقاً ذلك الطلق الناري من المُسدس بوصفِهِ بداية «علاقته العاطفيّة مع الطب».

شعرتْ إلينور بأنها مُلزمة بتسليمه الطفل في المطبخ في كورنويل. وصرخ الطفل وصرخ. اعتقدتْ إلينور أنّه لا بُدَّ أنَّ هناك كلاباً تئن في أوجرتها على مسافة مائة ميل، وكان الصراخ مرتفعاً جداً وحادّاً. وتجمّعت النسوة معاً وهن يبكين وناشدنَ ديفيد لكي يتوقف ويأخذ جانب الحذر وأنْ يُعطي الطفل جرعة من المُخدر الموضعيّ. كنَّ يعلمنَ أنَّ تلك ليستْ عمليّة جراحيّة، بل هجوماً من رجل عجوز حانق على أعضاء ابنه التناسليّة؛ ولكن كما هو حال جوقة في مسرحيّة، فإنَّ كل ما كان في وسعهن عمله هو التعليق والنحيب، من دون أي قدرة على تغيير الحدث.

أخبرَتْ إلينور ميري، لكي تبيِّن كم كان في وسعها أنْ تكون شجاعة لو أنّها قالت أي شيء، «أردتُ أنْ أقول، «لقد سبقَ لكَ أنْ قتلتَ جورجينا والآن تريد أنْ تقتل باتريك». أردتُ أنْ أستدعي رجال الشرطة!»

كل ما استطاعتْ ميري أنْ تفكّر فيه هو، حسنٌ، لِمَ لَمْ تفعلي؟ لكنّها لم تقُل شيئاً عن عدم قول إلينور أيّ شيء؛ اكتفَتْ بهزّ رأسها واستمرّتْ في لعب دور المُستمعة الجيدة.

قالتْ إلينور «كان الأمر أشبه بـ... كان أشبه بتلك اللوحة لغوياً[1] التي

1- فرانشيسكو غويا (1746-1828): رسّام إسبانيّ. اشتهر برسم الشخصيات المشوّهة والمجانين والمشاهد القاسية - المترجم.

تمثّل ساتورن وهو يلتهم ابنه». لمّا كانت إلينور قد نشأتْ مُحاطة بلوحات فنيّة عظيمة، فإنها مرّتْ بتجربة التولّع بتاريخ الفن في أواخر فترة المراهقة، قضى عليه حرمانها من الميراث، واستُبدِلَ بميلٍ إلى كميات كبيرة من الرمزيّة المتفائلة. ومع ذلك، ما زالت تتذكّر، وهي في العشرين من عمرها، أنها كانت تقود سيارتها الأولى في أرجاء إسبانيا، وصُعِقَتْ، لدى زيارتها لمتحف برادو، بالرؤيا السوداويّة التي طغَتْ على لوحات غويا الأخيرة.

فوجئتْ ميري بالمُقارنة، لأنه لم يكن من المعتاد سماع إلينور تُجري مثل تلك الصِلة، وأيضاً كانت تعلم تلك اللوحة جيداً، وأمكنها أنْ تتخيّل بكل سهولة الفم الفاغر، والعيون المُحدِّقة والشَعر الأبيض المُشوَّش لإله الكآبة العجوز، المجنون من فرط الغيرة والخوف من اغتصاب عرشه، وهو يتغذّى على الجثّة الدامية مقطوعة الرأس لابنه. دفعَتْ مُشاهدة ميري لإلينور وهي تناشده أنْ يعتقه إلى إدراك أنَّ حماتها ما كان في مقدورها أنْ تحمي أي شخص آخر عندما كانت مبتهجة بهشاشتها، وتوّاقة إلى مَنْ يُنقذها. ولاحقاً بعد زواجها، نجحتْ إلينور في الحصول على حماية الشرطة. حدث ذلك في سان - نازير، بُعيد عِلمها بأمر وفاة أمّها، ولما لم تكن قد علِمَتْ بعد بمضمون الوصيّة، توقّعتْ أنْ تضع يدها على ثروة طائلة. وفي وقتٍ لاحق من صباح ذلك اليوم اضطرّتْ إلى الطيران إلى روما لحضور الجنازة، وجلسَ ديفيد قِبالتها على مائدة الإفطار، يُفكِّر في العواقب المُحتَمَلة لازدياد استقلال زوجته.

قال، يمشي بمسار دائريّ إلى جانبها من الطاولة، «إنك تتطلّعين إلى وضع يديك على كل ذلك الكم الكبير من المال». نهضَتْ واقفة، شاعرة بالخطر. أضاف، قابضاً عليها وضاغطاً إبهاميه بخبرة حول نحرها، «لكنكِ لن تفعلي، لأنني سأقتلك»

نجحت، بلا وعي تقريباً، بتسديد ضربة من رُكبتها على خِصيتيه بكل ما تبقّى لديها من قوة. وكردّ فعل على ألمه، أفلتها بقدرٍ كافٍ سمح لها أنْ تنزلق عبر الطاولة وتنطلق إلى خارج المنزل. لحقَ بها فترة قصيرة، لكنَّ فرق السنوات الاثنتين وثلاثين من العمر بينهما ظهر أثره على جسمه المُرهَق وفرّتَ إلى الغابة. ولما اقتنعَت بأنَّه سوفَ يلحق بها بالسيارة، كافحتْ لشقّ

طريقها خلال الشجيرات المنخفضة إلى مركز الشرطة المحليّة، ووصلتْ تملؤها الخدوش، وتنزف وتذرف الدموع. أعادها الشرطيان بالسيارة إلى المنزل ووقفا يحرسان ديفيد الفخور والمتجهم بينما كانت تحزم أمتعتها لترحل إلى روما. غادرتْ مرتاحة، ولكن من دون باتريك، الذي تركته تحت الحماية الواهية لمربّية مذعورة أخرى - كنَّ يدمن، في المتوسِط، حوالي ستة أسابيع. ربما أصبحتْ إلينور بعيدة عن مناله، ولكن حالما تكرَّمَ ومنح المربّية يوم عطلة، وأرسل إيفيت إلى منزلها، أصبح ديفيد يُعزّي نفسه بتعذيب ابنه من دون أيِّ تدخّل من الشرطة.

في النهاية، شكّلتْ خيانة إلينور لغريزة الأم التي هيمنَتْ على حياة ميري الخاصّة مانعاً صارماً في سبيل إعجابها بها. وتذكّرتْ ولديها هي وهما في سن ثلاثة أسابيع: تذكّرت رأسيهما الناعمَين والحارّين وهما يشقّان طريقهما عائدين إلى أمان جسمها لكي يُخففا من صدمة ولادتهما. وتطلَّبَ تفكيرها في تعاملها معهما، قبل أنْ يتمكن جلدهما من تحمُّل خشونة الصوف، أو أنْ تشقّه سكاكين رجلٍ شرِّيرٍ وقاسٍ، مستوى من الخيانة أعمى مُخيّلتها.

لا ريب في أنَّ ديفيد قام بتفتيش دقيق بين الحمقاوات والخنوعات بحثاً عن امرأة يمكنها أنْ تتحمَّل أمزجَته الخاصّة، ولكن حالما تبدّى فسقُه جليّاً، كيف كان يمكن لإلينور أنْ تفلتْ من اتّهامها بالتواطؤ مع ساديّ ومُغتصِب للأطفال؟ كانت قد دَعَت أطفالاً من عائلات أخرى لكي يقضوا فترات عُطلهم في جنوب فرنسا وكانوا، على غرار باتريك، قد تعرَّضوا للاغتصاب وأصبحوا ينتمون إلى عالمٍ سُفليّ من الخزي والسرّيّة، مدعوماً بتهديدات مُقنِعة بإنزال العقوبة وبالموت. وقُبيل إصابتها بالسكتة الدماغيّة الأولى، تلقَّتْ إلينور رسالة من طفلة من بين أولئك الأطفال، قالتْ فيها إنّها بعد سنوات طويلة من مُعاناة الأرق، وإيذاء الذات، والبرودة الجنسيّة، والعلاقات الجنسية غير الشرعيّة، والقلق المُستمرّ ومحاولات الانتحار، بدأتْ تعيش حياة طبيعيّة أكثر، والفضل في ذلك إلى ثماني سنوات من تلقّي العلاج، وإنها أصبحتْ أخيراً قادرة على مُسامحة إلينور على عدم حمايتها لها خلال فصل الصيف الذي أمضته مع آل ميلْروز. وعندما عَرَضَتْ الرسالة على ميري، ركّزتْ إلينور على جور كونها خُلِقَتْ لتشعر بالذنب بشأن صنف

من السلوك لم تكن تعلم بوجوده، على الرغم من أنّه كان يُمارَس في غرفة النوم المجاورة لغرفتها.

ومع ذلك أحقاً كانت تجهل ذلك؟ قبل عام من استلام الرسالة التي أقضَّتْ مضجع إلينور، كان باتريك قد استلمَ رسالة من صوفي، مُقيمة أجنبية شابة قديمة، كانت قد نزلتْ بشكلٍ بطوليّ عند آل ميلْروز لأكثر من عامين، وهي مدّة تزيد عشرين ضِعفاً عن مقدار التحمُّل الذي أبداه حشد من الشابات الأجنبيات اللواتي مررنَ على المنزل. وفي رسالتها اعترفَتْ صوفي بشعورٍ بالذنب استمرَّ عقوداً بشأنْ الوقت الذي كانت تقضيه في العناية بباتريك. كانت تسمعُ صراخاً على طول الرواق في منزل لاكوست، وعلِمَتْ أنَّ باتريك يتعرَّض للتعذيب، ليس فقط للعِقاب أو للشعور بالإحباط، لكنّها في ذلك الوقت لم تكن تتعدى التاسعة عشرة من العمر وتردَّدت في التدخُّل. واعترفَتْ أيضاً بأن ديفيد كان يُرعِبها، وعلى الرغم من ولعها الحقيقيّ بباتريك وبشعورها ببعض الشفقة على إلينور، إلّا أنّها رغبَتْ بشدَّة في الهرب من تلك العائلة غريبة الأطوار.

إنْ كانت صوفي قد علِمَتْ بأنَّ ثمة شيئاً رهيباً يجري، فكيف يمكن لإلينور ألّا تعلم؟ لقد كان شائعاً جداً تجاهُل ما كان يبدو أنّ من المستحيل تجاهله، لكنَّ إلينور تشبّثتْ بتجاهلها بعناد غير عاديّ. وخلال كل برامج اكتشاف الذات والعلاج الروحانيّ، كانت تتفادى الاعتراف بشغفها بتفادي الأشياء. ولو أنَّ ميري اكتشَفَتْ «حيوانات طاقتها» الحقيقيّة، لخمَّنتْ أنها القرود الثلاثة التي تشير إلى: لا أرى شرّاً، لا أسمع شرّاً، ولا أتكلَّم شرّاً. ورأتْ ميري أيضاً أنَّ تلك التحذيرات الكئيبة قَضَتْ عليها إحدى السكتات الدماغيّة، وغمرتها في الحال بشذرات من المعرفة كانت قد أبقتها مُخبّأة بعيداً عن عيون الآخرين، كأنها خلايا مُنظّمة سريّة. وفي مُحاكاةٍ للكلّ تجمَّعَتْ الشذرات بعد أنْ فات أوان تناسُقها.

كانت إلينور مُحتَجَزَة بالكامل داخل مأوى العجَزة خلال السنتين الأخيرتين من حياتها، ونادراً ما غادرتْ سريرها. وفي العام الأول، تابعت ميري ادّعاءها بأنَّ أحد الخيوط التي تربط إلينور بوجودها المُعذَّب كان قلقها بشأنْ عائلتها، واستمرَّتْ في طمأنتها بأنَّ العائلة بخير. ولاحقاً، بدأتْ تُدرك

أنَّ ما يُعيقُ إلينور حقاً ليس قوة صِلاتها، بل ضَعف تلك الصِلاتْ: بغياب كل ما هو أساسيّ للـ «تحرُّر» من العائق، لم يتبقَّ لها إلّا مقدرتها على التخلُّص من إحساسها بالذنب ومن فوضاها. كان جزءٌ منها يتوق إلى الموت، لكنّها لم تجد الوقت اللازم لذلك؛ لم تكن هناك فجوة بين الهواجس المتكاثرة؛ وفي الحال ارتطمتْ رغبتها في الموت بالخوف من الموت، الذي بدوره ولَّد رغبة متجدِّدة.

فيما يخص العام الثاني، لزمتْ ميري الصمت المُطبِق. توجهتْ إلى غرفتها وتمنَّت النوم الهانئ لإلينور. أي شيء آخر يمكن أنْ تفعل؟

آخر مرّة رأتْ حماتها كانت قبل أسبوعَين. حينئذٍ كانت إلينور قد توصّلتْ إلى سكينة لا تختلف في شيء عن الغياب التامّ. بدا وجهها، النحيل والمتغضِّن، عاجزاً عن إحداث أيِّ تغيير مقصود. وتذكّرتْ ميري أنَّ إلينور كانت قد أخبرتها، في أثناء أحد تلك الأحاديث السريّة التي تُشعِر بالغربة، أنَّها تعلم بالضبط متى سوف تموت. والمصدر الغامض لتلك المعلومة (أهو عِلم التنجيم؟ أم قنوات الاتصال؟ أم مُعلِّم روحاني مريض؟ أم جلسة قرع طبول؟ أم حلم متنبِّئ؟) لم يُكشَف عنه، لكنَّها أدلتْ بالنبأ بلمسة خفيفة من الصفاء المتفاخِر للخيال المحض. وشعرتْ ميري بأنَّ يقين الموت وعدم يقين توقيته ومغزاه هما حقيقتان أساسيتان في الحياة. ومن ناحية أخرى، كانت إلينور تعلم بدقّة متى ستموت وتعلم أنَّ موتها ليس نهائيّاً. ومع حلول النهاية، حسب قول ميري، تخلّى هذا اليقين عن إلينور، بالإضافة إلى كل التفاصيل الأخرى لشخصيّتها، وكأنَّ عاصفةً رمليّة هبَّتْ داخلها، مُمزِّقةً كل دلالة على الراحة، ومُخلِّفةً مشهداً صقيلاً وعقيماً تحت سماءٍ جافّة وصمّاء.

ومع ذلك، توفّيتْ إلينور في يوم أحد الفصح، وكانت ميري تعلم أنَّ لا شيء أكثر من ذلك يمكن أنْ يُسعدها. أو كان يمكن أنْ يُسعدها، لو كانت تعلم. ربما كانت تعلم، على الرغم من أنّه بدا أنَّ عقلها كان مُثبَّتاً على عالم وهميّ مُجرَّد من شيءٍ دنيويّ كالروزنامة. وحتى حينئذٍ لم يكن هناك من سبيل لمعرفة إنْ كان ذلك هو اليوم الذي توقّعتْ أنْ تموت فيه.

عدَّلتْ ميري من وضعيّة جلوسها على مقعد دار المِحرقة غير المُريح. أين توجَد نظريّة مُقنِعة وعمليّة للوعي عندما تحتاجها؟ نظرتْ خلفها بعد بضعة صفوف من المقاعد إلى إراسموس، ولكنه بدا مُستغرقاً في النوم. وعندما التفتت من جديد باتجاه التابوت أمامها ببضعة أقدام، انهارت أفكار ميري على الفور. وجدت نفسها تتخيَّل، بحيويّة لم تستطع تحمّلها طوال فترة دوامها، شعور إلينور في أثناء تينك العامَين الوحشيَّين الأخيرَين، بعد انعدام فرديّتها، مَلَكَة بعد مَلَكَة، وذكرى إثر ذكرى.

تغرغرت عيناها بالدموع.

همس باتريك، وهو يجلس إلى جوارها، «أأنت بخير؟»

قالت «كنتُ أفكِّر في أمّك»

تمتم باتريك، بصوت صاحب دكّان مُتملّق مُتذلِّل، «خَيار مناسب إلى أقصى مدى»

بدأتْ ميري لسببٍ ما بالضحك ضحكاً لا تستطيع ضبطه، وبدأ باتريك أيضاً يضحك، واضطرّا معاً إلى أنْ يعضّا على شفتيهما السفليتين ليمنعا أكتافهما من الاهتزاز بعنف.

-5-

أخذ باتريك يزفر ببطء، آملاً في أنْ يُسيطر على نوبة ضحكه المُغلَّفة بالحزن، وركَّزَ على التوتّر الراكد لانتظار بدء المراسم. تأوّهت آلة الأرغن، وكأنها ضجرة من البحث عن اللحن اللائق، ومن ثم تابع التلوّي مُستسلماً. يجب أنْ يستجمع شتاته: إنه هنا لكي يحزن على موت أمّه، وهي مهمّة جديّة.

ثمة عوائق في دربه. لطالما منعه شعوره بالجنون من تجاوز امتعاضه من إلينور. من دون منزل سان – نازير حُرِمَ جزءٌ بدائيّ منه من الاهتمام الخياليّ الذي حافظ على صحّة عقله وهو طفل. لقد كان شديد الارتباط بجمال المكان، لكنَّ ارتباطه الأعمق كان بحماية سريّة لم يجرؤ على إنكارها خشية أنْ تتركه مُدمَّراً تماماً. والوجوه المتنقّلة التي شكّلتها التصدعات، والبقع والحُفَر في الجبال الكلسيّة المواجهة للمنزل، كانت رفاقه. وكان صف أشجار الصنوبر على طول حافة الجبال أشبه بعمود من الجنود قادمين لنجدته. كانت هناك مخابئ لا أحد يستطيع أنْ يعثر عليه فيها؛ وثمة مصاطب من تعريشات الكرمة يمكن القفز إليها، ويمكن أنْ تمنحه إحساساً بأنَّ في وسعه أنْ يطير عندما يُضطر إلى الفرار. وكانت هناك بئر خطرة يمكنه أنْ يُسقِط فيها صخوراً وكتلاً من التراب، من دون أنْ يغرق هو نفسه. والصِلة الأشد بطولة بينها كلها كانت مع أبو بريص الذي تكفَّل بالعناية بروحه في لحظة الأزمة واندفع إلى السطح، طلباً للأمان وللمنفى. كيف سيعثر أبو بريص عليه من جديد، إذا لم يعُد لباتريك أيّ وجود؟

في آخر ليلة له في سان – نازير هبّتْ عاصفة هوجاء. ووَمَضَتْ امتدادات من البرق من خلف ضفاف غيمة مُمزَّقة، جاعلة حوض الوادي المُظلِم يهتزّ

من عنف الضوء. أولاً، أحدثَتْ قطرات مطر استوائيّة كبيرة حُفَراً في الأرض المُغبرَّة، ولكن سرعان ما جرتْ جداول خلال الدروب شديدة الانحدار، وتدفّقَتْ مساقط صغيرة من الماء من دَرَجة إلى دَرَجة. وتجوّل باتريك في الخارج تحت المطر الغزير والدافئ، شاعراً بأنّه مجنون. كان يعلم أنَّ عليه أنْ يُنهي عَقْدَه السِحريّ المُبرَم مع هذا المشهد العام، لكنَّ الهواء المُكهرَب والاحتجاج العنيف للعاصفة جدَّدا عقليّة الطفل القديمة، وكأنَّ أوتار البيانو الثخينة نفسها، التي كان الرعد والمطر الغزير يضربان عليها، تمتد خلال جسمه وخلال الأرض. ومع انهمار المياه على وجهه لم تعد هناك من حاجة إلى الدموع، ما من حاجة إلى الصراخ بوجود سماء تقصِف فوق الرؤوس. وقف على ممر العربات، بين بِركٍ بلون الحليب وغمغمة الجداول الجديدة ورائحة نبات إكليل الجبل المُبلَّل، إلى أنْ غاص إلى الأرض، تحت ثقل ما عجزَ عن التخلّي عنه، وجلس لا تندّ عنه أيّ حركة على الحصى والطين. استقرّ برقٌ متشعّب كقرون الوعول على الجبال الكلسيّة. ووسط ذلك الومض المُفاجئ، تبيَّنَ شكلاً على الأرض يقع بينه وبين الجدار الممتد على طول حافة ممر العربات. وفي أثناء تركيزه على الضوء الضبابيّ، رأى أنَّ شرغوفاً قد غامرَ بالخروج إلى العالم المائيّ الذي يقع خلف شجيرات الغار، حيث تخيَّلَ أنّه كان ينتظر طوال فصل الصيف هطول المطر، وهو الآن يستريح ممتنّاً على قضيب من الأرض الموحِلة بين بركتين. جلسا متقابلَين، في سكينة تامّة.

تخيّل باتريك الجثث البيضاء للشراغيف التي كان يراها في ربيع كل عام في قاع برك الحجارة. كانت تكتنف جثثها الهامدة مئات من فراخ الشراغيف السوداء الرقيقة المتشبّثة بالطحالب الخضراء - الرماديّة على الجدران، أو تتلوّى عبر البركة المفتوحة، أو تفيض إلى الأقنية التي تحمل المياه من بركةٍ إلى بركة، بين المنبع والسيل داخل شق الوادي. تنزلقُ بعض الأفراخ باضطراب إلى أسفل المنحدر، وتسبحُ أفراخ أخرى بحركة مسعورة ضد التيار. وكان روبرت وتوماس يقضيان ساعات طويلة في عطلة الفصح كل عام، يُزيلان السدود الصغيرة التي بُنيَتْ بين ليلة وضحاها، وعندما يُسدّ الجزء المُغطّى من القنال وتفيض الأعشاب حول البركة السفليّة، كانا يرفعان

الأفراخ الجانحة في الهواء داخل تجاويف أيديهما. وتذكّر باتريك أنّه فعل الشيء نفسه وهو طفل، وتذكّر إحساس الحنوّ الهائل الذي كان يجتاحه وهو يُطلِق سراحَها ويُعيدها إلى أمان البركة من خلال أصابعه الفائضة.

في تلك الأيام كانت تُسمَع هناك جوقة من الضفادع خلال ليالي الربيع، وخلال النهار، وهي جالسة على أكمام أزهار الزنبق في البركة هلاليّة الشكل، وذكور الضفادع تنفخ داخلها نحو الخارج كاللّبان؛ ولكن في نظام الحماية الوهميّ الذي كانت الأرض تمنحه إياه، كانت الضفادع المهمّة هي ضفادع الشجرة المحظوظة. لو أنّه استطاع أنْ يلمس إحداها، لأصبحَ كل شيء على ما يُرام. لقد كان العثور عليها صعباً. ووقوف تلك المخلوقات المدوّرة على أطراف أقدامها كان يعني أنَّ في مقدورها أنْ تتدلّى من أيِّ موقع على الشجرة، وتتموَّه باللون الأخضر البرّاق لورقة نبات جديدة أو ثمرة تين غير ناضجة. وعندما شاهد إحدى تلك الضفادع الصغيرة، مُتشبّثة باللحاء الرمادي الأملس، وجلدها اللامع ممتد على هيكل حادّ التقاطيع، بدتْ له أشبه بحجر كريم ينبض. ومدَّ إبهامه ولمسها لمساً خفيفاً استجلاباً للحظ الحَسَن. ربما لم يحدث ذلك إلّا مرة واحدة، لكنّه فكّر فيه ألف مرّة.

عندما تذكَّر تلك الإيماءة المشحونة والمتردِّدة، نظر الآن مع بعض الشك إلى رأس الشرغوف ذي الثآليل والمُشبّع بالماء الماثل أمامه. وفي الوقت نفسه، تذكّرَ نسخته الخاصة به للمستوى الأول إصدار دار آردن من مسرحية «*الملك لير*» المزوّدة بحاشية تشرح وجود الحجر الكريم في رأس الشرغوف، رمز الكنز المُخبّأ وسط تجربة بغيضة، ملوّثة بالوحل وبشعة. ذات يوم سوف يعيش من دون تطيُّر، ولكن ليس الآن. مدَّ يده ولمسَ رأس الشرغوف. شعر بالرعب نفسه الذي شعر به وهو طفل، لكنَّ تجدُّد ما كان يوشك أنْ يفقده منحه إحساساً قويّاً بإلغاء الذات. وخلقَ الاندماجُ المجنون للأساطير فيضاً من المعنى يمكن في أيّ لحظة أنْ ينتقل بسرعة إلى عالمٍ خالٍ من أيّ معنى. ابتعد وتبيَّنَ، كأنّه عائد إلى الأشياء الاعتياديّة المألوفةً في شقّته في المدينة بعد قيامه برحلة غريبة وطويلة، أنّه أصبح في منتصف العمر، جالساً بصورة غريبة الأطوار على ممر عربات موحِل وسط عاصفة رعديّة، يُحاول أنْ يتواصل مع شرغوف. نهضَ واقفاً بحركة متيبّسة ومشى

مترهّلاً عائداً إلى المنزل، شاعراً ببؤسٍ حقيقيّ، ولكن لا يزال يرفس برك الماء تحدّياً لنضجه العقيم.

كانت إلينور قد وهبتْ منزل سان-نازير، لكنها على الأقلّ وضعَتْ لذلك شروطاً في المقام الأول، وإنْ كان ذلك فقط كبديلٍ ضخم لنفسها، كأرضٍ أجداد وُجِدَتْ لتُغطّي على عجزها. كان جمال المنزل بمعنى ما خدعة، أغصان من زهر اللوز تمتد نحو السماء الصافية، أزهار سوسن لم تتفتّح، كفراشي ألوان غُمسَتْ في اللون الأزرق، كراتينج كهرمانيّ صافٍ ينزف من اللحاء الرماديّ القاتم لأشجار الكرز - ذلك كلّه كان خدعة، ويجب أنْ يكفّ عن التفكير فيه. إنَّ حاجة طفل إلى الحماية جديرة بتشكيل نظام من أي مواد أوّليّة متوافرة، مهما كانت شعائريّة أو غريبة. قد يكون عنكبوت داخل غرفة حفظ المكنسة، أو مظهر أحد الجيران يمر عبر أسفل مبنى من الشقق، أو عدد السيارات الحمراء بين الباب الأماميّ وبوابات المدرسة، التي تحمل عبء الحب والطمأنينة. وفي حالته، كان سفح تل في فرنسا. كان منزله يمتد من غابة الصنوبر المُظلِمة على قمة منحدَر، وحتى قصب البامبو الشاحب الذي نما بجوار أسفل الجدول. وبين هذا وذاك هناك مصاطب تمتد عليها تعريشات الكرمة من سيقان ملتوية أمضَتْ فصل الشتاء وهي تبدو أشبه بحديد صدئ، وأشجار زيتون تنتقل بسرعة من اللون الأخضر إلى الرمادي ومن الرمادي إلى الأخضر في وجه اندفاع الرياح. وعند منتصف طريق أسفل المنحدر كانت تجمّعات من المنازل ومن أشجار السرو وشبكة من البِرَك حيث عرِف أشدّ أنوع الرعب ومرّ بتجربة تأجيل غير متوقّع لخطر. حتى سفح الجبل شديد الانحدار المقابل لمنزله احتلّته مُخيّلته، وليس فقط بجيشٍ من الأشجار يمشي مشية عسكريّة على طول قمّته. ولاحقاً، أصبح رفض المُنحدر للتعدّي الإنسانيّ صورة لتحفّظه الخاص الأقلّ مِصداقيّة.

لا أحد يستطيع أنْ يقضي حياته كلها في مكان من دون أنْ يشتاق إليه بعد أنْ يُغادره. كانت المُغالطات المُحزِنة، والإسقاطات، وعمليات الاستبدال والإزاحة كلها تشكل جزءاً من حركة التنقلات الحتميّة بين أي عقل ومحيطه المعتاد، لكنَّ الكثافة المَرَضيّة التي أضفاها على هذه العمليات جعلت من الحيويّ بالنسبة إليه أنْ يرى من خلالها. كيف سيبدو العيش من دون سلوى،

أو من دون الرغبة في السلوى؟ لن يعرف الجواب أبداً، إلّا إذا اجتثّ نظام السلوى الذي بدأ على سفح التلّ في سان - نازير ومن ثم انتشر حتى وصل إلى كل صيدليّةٍ منزليّة، وسريرٍ وزجاجةٍ مرَّ بها منذ ذلك الوقت؛ بدائل تُستبدل ببدائل: لطالما كان النظام أهم من مضامينه، والفعل الذهني أكثر أهميّة. ماذا لو أنَّ الذكريات هي مجرد ذكريات، خالية من أي طاقة مُعزّية أو مزعجة؟ هل ستوجد أصلاً، أم أنَّ الضغط العاطفي هو الذي يستحضر صوراً مما كان ضمناً كل التجارب التي مرّتْ حتى ذلك الحين؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فيجب أنْ يكون هناك قيّمون على المكتبات وليس ذعر، واشمئزاز وحنين مُمزِّق من أجل التفتيش بين الأكوام المحتشدة والغامضة.

في حين أنَّ الكرم الاعتياديّ ينبع من رغبةٍ في إعطاء شيء لشخص ما، فإنَّ حب إلينور لعمل الخير نبعَ من رغبةٍ في إعطاء كل شيء لأي شخص. لقد كانت منابع الإكراه مُعقّدة. كانت هناك أعراض تكرار نمط الابنةِ المحرومةِ من الإرث؛ وهناك رفضٌ للنزعة الماديّة وعنجهيّة عالم أمّها؛ وهناك الشعور الأساسيّ بالخزي من امتلاك أي مقدار من المال، وهو دافع غير واعٍ بجعل قيمتها الصافية واحترامها لذاتها يتركّزان في نقطة الصِّفر؛ ولكن بمنأى عن كلّ هذه القِوى السلبيّة، كانت هناك أيضاً السابقة المُلهِمة لنمط خالتها الكبرى فيرجينيا جونسون. وبحماس نادر بالنسبة إلى سَلَف، كانت إلينور تُخبر باتريك كل شيء عن أعمال فيرجينيا الخيريّة البطوليّة الهائلة؛ كيف أحدثَتْ الكثير من الفرق في حياة العديدين؛ مُبديةً ذلك الإيثار المتحمس الذي يكون في الغالب أشدّ عناداً من الأنانيّة الصريحة.

عندما توفيَ زوجها في عام 1901، كانت فيرجينيا قد فَقَدَتْ حتى ذلك الحين اثنين من أبنائها. وعلى مدى السنوات الخمس والعشرين التي تلتْ أتلفَتْ نصف ثروة جونسون بأعمالها الخيريّة المؤسفة. وفي عام 1903 منحتْ صندوق توماس ج. جونسون التذكاريّ عشرين مليون دولاراً وخصَّصَتْ لذلك الصندوق في وصيتها مبلغ عشرين مليون دولاراً آخر، في وقتٍ كان ذلك المبلغ خرافياً وليس مجرد علاوة تقليديّة في عيد الميلاد لمدير ماليّ عادي. كانت أيضاً تجمع لوحات فنيّة لتيتيان، وروبنز، وفان دايك، ورامبرانت، وتينتوريتّو، وبرونتزينو، ولورينتزو دي

كريدي، وموريللو، وفيلاسكيز، وهالس، ولو برون، وغينسبورو، وروmني، وبوتيتشيللي، ثم تهبها لجناح جونسون في متحف الفن في كليفلاند. هذا الإرث الفنّيّ كان لا يُثير أي اهتمام لدى إلينور، ربما لأنه يُشبه كثيراً هوس الامتلاك الخاصّ الذي يجري في فرعها من عائلة جونسون. وما كان يُثير إعجابها حقاً هي أعمال الخير التي تقوم بها فيرجينيا، والمستشفيات وجمعيّة الشبيبة المسيحيّة التي أنشأتها، وفوق ذلك كلّه، البلدة الجديدة التي بنتها على موقع مساحته أربعمائة إكر، يحدوها أمل في أنْ تقضي على ظاهرة التشرّد في كليفلاند بتوفير مأوى مثاليّ للفقراء. وسمّتها الصداقة، على غرار اسم مقرّها الصيفيّ في نيوبورت. وعندما انتهتْ فيرجينيا من إنشائها في عام 1926، ألقت خطاباً «ترحيبيّاً» بأول الساكنين في «*رسول الصداقة*»:

أسعدتم صباحاً. هل الشمس أشدّ إشراقاً قليلاً، هناك في بلدة الصداقة؟ هل الهواء منعش أكثر؟ هل منزلكم أجمل قليلاً؟ هل أعمال المنزل أضحتْ أسهل قليلاً؟ والأطفال - هل تشعرون بأنهم في أمان أكثر؟ هل وجوههم أكثر تورّداً؛ هل سيقانهم أقوى قليلاً؟ هل يضحكون ويلعبون بأصوات أعلى في بلدة الصداقة؟ إذن فأنا راضية.

بالنسبة إلى إلينور كان هناك شيء مؤثّر بعمق في هذه الملكة فيكتوريا في أوهايو، المرأة الضئيلة ذات الوجه الأبيض المنتفخ، التي دائماً ترتدي الأسود، ودائماً متوحدة، لا تسعى وراء أيّ مجدٍ شخصيّ مقابل أعمال الخير، تحثّها قناعات دينيّة عميقة، وما زالت تُسمّي الشوارع بأسماء أبنائها الموتى وحتى النهاية - ابنها ألبرت أصبحتْ لديه جادّة باسمه وابنها شلدون أصبح لديه شارع باسم «أقرب» في ضواحي بلدة الصداقة الأكثر أماناً والمُحبّة للأطفال.

في الوقت نفسه، بيّنَ الوئام الذي ساد العلاقات بين الأخوات جونسون والعمّة فيرجينيا أنَّه حسب رأي قريباتها فإنها لم تُحقّق التوازن الصحيح بين العقليّة المدنيّة والعقليّة العائليّة، وشعرتْ الأخوات بأنه كان ينبغي عليهن،

وليس ابنة رجل دين مفلس، أنْ يتزوجن العم توماس. وفي وصيّة فيرجينيا تركت لكلٍ منهن مبلغ مائة ألف دولار. حتى صديقاتها حصلنَ على شيء أفضل. فقد منحتْ وديعة بقيمة مليونين ونصف المليون دولار تُصْرَف بموجبه مرتبات سنويّة لتسعة وستين من صديقاتها وحتى آخر حياتهنّ. وشكّ باتريك في أنَّ موهبة فيرجينيا في إزعاج والدة إلينور وقريباتها هي المصدر غير المُعترَف به لإعجاب إلينور بعمّتها الكبرى. كانت هي وفيرجينيا تنأيان بنفسيهما عن المطامح الأسريّة في الثروة. بالنسبة إليهما، كان المال وديعة من الله يجب استخدامه في عمل الخير في العالم. وكان باتريك يأمل في أنْ تكون إلينور، خلال فترة صمتها المسعور في مأوى العجزة، تحلم، أحياناً على الأقل، بالمكان الذي يمكن أنْ تحتله بجوار المُحسِن العظيم جونسون الذي رحل قبلها.

لا شكّ في أنَّ موقف فيرجينيا الخسيس من الأخوات جونسون عزَّزته معرفة أنَّ صهرها سوف يترك لكلٍ منهن ثروة طائلة.

ومع ذلك، بحلول جيلهن، كانت إثارة الثراء قد عكّرتها صدمات الحرمان من الإرث ومفارقات حب البشريّة. وقد حل انهيار عام 1929 الاقتصاديّ بعد وفاة فيرجينيا بعامين. وأصبح الفقير مُعدَماً، والطبقات الوسطى البيضاء التي أصبحت أشدّ فقراً مما كانت، فرّتْ من الدائرة الداخليّة إلى دفء بلدة الصداقة شبه الخشبيّة، على الرغم من أنَّ فيرجينيا كانت قد بنتها في ذكرى زوج كان «صديقاً لسلالة الزنوج».

كانت إلينور تعقد صِلة صداقة مع شيء أشدّ سوقيّة بصورة عامة من سلالة الزنوج. كان مُستبعَداً أنْ تُحرز «صديقةُ الحركة الروحيّة الجديدة لإحياء الأفول الكلتيّ» تقدّماً اجتماعيّاً ملموساً. وخلال فترة طفولة باتريك، كان تركيزها على الإحسان قد أصبح يُشبه كثيراً أعمال فيرجينيا الخيريّة، ما عدا أنها كانت مُكرَّسة بالكامل للأطفال. ولطالما تُرِكَ وحده مع والده بينما إلينور تحضر اجتماع إحدى اللجان بخصوص صندوق أنقذوا الأطفال. وقد خلقَ الاستبعاد المُطلَق للسخرية من قِناع شخصيّة إلينور الجديّ سوقاً سوداء للتهكُّم الأعمى من أفعالها. ولاحقاً، أصبح الأب تورتيللي وأطفال نابولي أهدافاً لإحسانها المُراوِغ. ولم يسع باتريك إلّا أنْ يعتقد أنَّ هذا الشغف إلى

إنقاذ كل أطفال العالم أولئك كان اعترافاً منها بأنها لم تستطع أنْ تنقذ طفلها هي. مسكينة إلينور، كم كانت خائفة. وفجأة رغِبَ باتريك في حمايتها.

مع نهاية مرحلة طفولة باتريك وتلاشي الأصداء المُبهَمة لطفولتها الخاصّة، توقفتْ إلينور عن دعم أعمال الخير الموجّهة للأطفال، واستقرَّتْ على فترة المراهقة الثانية في سعيها إلى عصرها الجديد. وأبدتْ العبقريّة نفسها في التعميم الذي ميَّز إنقاذها الأطفال، ما عدا أنَّ أزمة هويتها لم تكن فقط عالميّة، بل عمّتْ العوالم الأخرى والكونيّة، من دون أنْ تغرق ولو بمقدار ميليمتر داخل العمق الصلب لمعرفة الذات. وبقيتْ غريبة على نفسها، ولكن ليست غريبة على «طاقة الكون». ولم يستطع باتريك أنْ يدّعي بأنّه كان يمكن أنْ يرحّب بأي منحة خيريّة تتضمَّن ممتلكات أمّه كلها، ولكن حالما أصبح هذا حتميّاً، بات من المؤسِف أكثر أنها ذهبتْ كلها إلى المؤسّسة الإيثاريّة.

العمّة فيرجينيا أيضاً ما كانت لتوافق. لقد أرادتْ أنْ تجلب المزيد من الفوائد الحقيقيّة إلى أقرانها من البشر. كان تأثيرها على إلينور غير مباشَر لكنّه قويّ وأيضاً، على غرار كل تأثير قويّ آخر، كتأثير أمٍّ على ابنتها. كان رجال آل جونسون يبدون أحياناً لباتريك أشبه بذكور العناكب الصغيرة الذين يُسرعون بتنفيذ مسؤوليتهم المهمّة الوحيدة قبل أنْ تأكلهم الإناث الأكبر حجماً منهم بكثير. وقد أنجبَ ابنا المؤسِّسة أرملتين: فيرجينيا، أرملة الأعمال الخيريّة، وجدّة إلينور، أرملة زيجات جيّدة، والتي أمَّنَتْ لبناتها الثلاث من زواجها الثاني من ابن إيرل إنكليزيّ حياةً زوجيّة واجتماعيّة مُبهِرة. وعلِمَ باتريك أنَّ نانسي تنوي أنْ تؤلِّف كتاباً عن آل جونسون خلال الأعوام العشرين الأخيرة. وكانت قد قالت له، من دون أي عرضٍ مُملّ من التواضُع الزائف، «أعني، سوف يكون أفضل بكثير مما أنتجه هنري جيمس وإديث وارتون ومَنْ شابههما، لأنه يتحدث عن أحداث **حقيقيّة**»

إنَّ الرجال الذين تزوجوا من نساء آل جونسون لم يكن حظّهم أوفر بكثير من ابنَي المؤسِّسة. فقد كان والد إلينور وعمّها فلاديمير كلاهما مُدمنين على الكحول، ومُخصيِّين بحصولهما على الوريثة التي ظنّا أنهما يُريدانها. وانتهى بهما الأمر إلى الجلوس معاً في حانة وايت، يُعالجان جراحهما وهما يشربان

مشروبات فاخرة؛ مُطلَّقان، منبوذان، مُبعدان عن أطفالهما. وقد نشأتْ إلينور وهي تتساءل كيف يمكن لوريثة أنْ تتفادى تحطيم الرجل الذي تزوجته، إلّا إذا كان في الأصل فاسداً ولا داعي لتحطيمه، أو ثريّاً بما يكفي ليكون منيعاً. وعندما تزوجت ديفيد انتقَتْ من الفئة الأولى، ومع ذلك تعاظَمَ خبثُه وكبرياؤه، وكانا في الأصل ضخمين، بمذلّةِ اعتمادهِ على مال زوجته.

لم يكن باتريك أحد مخصيّي آل جونسون عبر الزواج، بل كان يعرف معنى أنْ يولَد في عالمٍ تحكمه الأم، ويتلقّى النقود من جدَّةٍ يكاد لا يعرفها، وعزلته أمٌّ ما زالتْ تتوقَّع منه أنْ يعتني بها. وقد زوّده التأثير النفسيّ لتلك النسوة القويّات، الكريمات من مسافة قريبة غير شخصيّة، والخائنات عن قُرب، بنموذجٍ أساسيّ واحد لِما ينبغي على المرأة أنْ تبدو عليه وكيف هي فعلاً. إنَّ موضوع الرغبة الذي نشأ من هذا المُركَّب هو هايسو بيتش – وهايسو تمثّل الأحرف الأولى من عبارة المجتمع الراقي وابتكرها أحد أصدقائه اليابانيّين. وكان الهايسو بيتش تجسيداً لإحدى الأختين جونسون: برّاقة، واجتماعيّة على مستوى واسع، وثريّة ثراءً فاحشاً تسعى وراء المتعة، تجلس بين ممتلكات جميلة. وكأنَّ هذا ليس كافياً (كأنَّ هذا ليس أكثر بكثير مما ينبغي) كان عليها أيضاً أنْ تكون شبِقة جنسياً ومنحرفة أخلاقيّاً. وصديقته الأولى كانت نسخة جنينيّة من هذا النوع. وظلَّ يفكِّر أحياناً في الركوع أمامها، وسط بقعة الضوء المنبعثة من مصباح القراءة، والتضاعيف المُشرقة لمنامتها السوداء الحرير متجمّعة بين ساقيها الممدودتين، وسيل رفيع من الدم يجري إلى أسفل ذراعها الممتدة، وشهقة المتعة، وهي تهمس «هذا كثير هذا كثير»، وغشاء من العَرَق يكسو وجهها المثلث الشكل، والحقنة في يدها، وكانت تلك جرعتها الأولى من الكوكايين. وبذل أقصى جهده لكي يجعلها تُدمن، لكنّها كانت مصّاصة دماء من نوعٍ مختلف، تتغذّى على الهاجس اليائس للرجال المُحيطين بها، تستنزف أكثر فأكثر المُعجبين الراسخين اجتماعيّاً وتأمل في أنْ تكتسب حسّهم بالانتماء، حتى وهي تجعلهم يستخفون به بجعل نفسها تبدو الشيء الوحيد الذي يستحق الاكتساب ومن ثم ترحل.

عندما كان في أوائل ثلاثينيات عمره جلبَ له بحثه المُكرَه عن خيبة الأمل إنيز، التي كانت بمثابة كنيسة سيستين بالنسبة إلى هايسو بيتش. وأصرَّتْ على

أنَّ كل فرد من عشّاقها الكُثُر كان استثنائيّاً بالنسبة إليها، وهو شرط لم تستطع أنْ تحصل عليه من زوجها، لكنها نجحتْ في انتزاعه من باتريك، الذي ترك المرأة العاقلة نسبيّاً والكريمة التي كان يعيش معها لكي يغوص في فراغ حب إنيز النهم. وقد حوّلتْ لا مبالاتها المُطلقة بمشاعر عشّاقها استجابتها الجنسيّة إلى نوعٍ من السقوط الحرّ. وفي الختام كان الجرف الذي سقط عنه مُسطّحاً كالجرفِ الذي دفع ابن غلوسيستر المُخلِص أباه إلى القفز عنه[1]: جرف العمى والإحساس بالذنب، الذي لا يوجد في أسفله صخر مُدبَّب. لكنها لم تكن تعلم ذلك ولا هو كان يعلم.

كانت إنيز، بشعرها الأشقر المُجعّد وأطرافها النحيلة وملابسها الجميلة، تغوي بأسلوب مكشوف، ومع ذلك كان من السهل جداً إدراك أنَّ عينيها الزرقاوين الجاحظتين قليلاً كانتا ستارين أجوفَين لحبّها لذاتها يُسمَح لمنتخبات قليلة من الانفعالات الزائفة أنْ تنعكس عليهما. كانت تظهر بأشكال عشوائيّة تمثّل شخصاً يرتبط بعلاقات مع الآخرين، واستناداً إلى أحاديث المتوددين إليها، وحِمية من أفلام هوليوود وإبراز حساباتها البارعة، قد تكون تلك التخمينات عاطفيّة أو قذرة، لكنّها كانت دائماً سوقيّة وميلودراميّة. ولما لم تكن تهتم البتّة بالحصول على جواب، كانت تميل إلى أنْ تسأل «كيف *حالك*؟» بوقار عظيم، عدداً من المرّات. كانت غالباً ما تشعر بالإرهاق من التفكير في مدى كَرَمها، في حين أنَّ الإرهاق نشأ في الحقيقة من توتّر كونها لا تَمنح أي شيء. وأعلنتْ ذات يوم «سوف أشتري ستة جياداً عربيّة أصيلة. ألا تعتقد أنّها فكرة جيدة؟»

سألها باتريك «هل ستة كافية؟»

«ألا تعتقد أنَّ ستة كافية؟ ألديك فكرة كم تُكلِّف؟»

وذُهِلَ عندما اشترت الجياد، ودُهِشَ أقلّ عندما احتفظَتْ بها لنفسها وشعر بالضجر عندما باعتها من جديد إلى الرجل الذي اشترتها منه. ومهما كانت مُثيرة للجنون كصديقة، إلّا أنها مواهبها برزت في معمعة الرومانسيّة.

كانت تقول بعمق مُضطرب «لم أشعر بمثل هذا من قبل. ولا أعتقد أنَّ

1- الإشارة هنا إلى أحداث وقعتْ في مسرحيّة وليم شكسبير «الملك لير» - المترجم.

أحداً فهمني حتى الآن. أتعلم هذا؟ أتدري كم أنتَ مهمّ بالنسبة إليّ؟» وتنبع الدموع من عينيها وتكاد لا تقوى على الهمس، ثم تقول وهي تستكين بين ذراعيه الرجوليتين القويتين «لا أعتقد أنني شعرتُ بأنني في منزلي حتى الآن»

بعد ذلك مباشرة يُترَك لينتظر أياماً طويلة في فندقٍ أجنبيّ حيث لم تُزعِج إنّيز نفسها بالحضور. كانت سكرتيرتها الاجتماعيّة تتصل مرتين في اليوم لتقول إنَّ ثمّة ما أخّر حضورها لكنّها في طريقها إليّ الآن حقاً. كانت إنّيز تعلم أنَّ هذا الغياب المُستفزّ هو الأسلوب الفعّال الذي يضمن ألّا يفكر في أي شيء غيرها، وفي الوقت نفسه يترك لها حريّة أنْ تفعل الشيء نفسه من مسافة آمنة. وإذا كانت مُستكينة بين ذراعيه وتقول كلاماً تافهاً، قد يشرد ذهنه إلى أي مكان، في حين لو كان يُلازم جهاز الهاتف، مُبدِّداً النقود ومتنازلاً عن كل مسؤولياته الأخرى، لفكَّر فيها باستمرار. وعندما تقابلا أخيراً، أسرعتْ إلى القول كم كان الأمر لا يُطاق بالنسبة إليها، مُحتكرةً بقسوة المُعاناة الناشئة عن خططها التي تنهار بلا انقطاع.

لِمَ يسمح أي شخص لهذه الضحالة بإبادته، إلّا إذا كانت تلك الضحالة صورةً مدفونةً لامرأة لا مبالية تتوق إلى اتخاذ شكلٍ خارجيّ؟ الوقتُ المتأخِّر، وخيبةُ أمل، والتوقُّ إلى ما لا يمكن نيله: تلك كانت الآليّات التي حوَّلَتْ مُحفِّزاً قوياً عند امرأة مُسيطرة إلى عامل مُحبِط قويّ عند أمّ. والوقت المتأخِّر المُشوِّش، على وجه الخصوص، أدخله مباشرة إلى يأسٍ في سنٍ مُبكِّرة، وهو ينتظر عبثاً على الدَّرَج مجيء أمّه، يُرعبه احتمال أنْ تكون قد ماتت.

فجأة اختبرَ باتريك تلك الانفعالات القديمة كأنها اضطهاد جسديّ. مرَّرَ أصابعه على طول الجهة الداخليّة من ياقته لكي يتيقَّن من أنّها لا تُخفي أنشوطة مشدودة. لم يعُد يتحمّل غواية خيبة الأمل، أو في هذا المجال غواية العزاء، إنهما توأمٌ سياميّ. عليه بصورة ما إنْ يتجاوزهما معاً، ولكن كان عليه أولاً أنْ يحزن على أمّه. وبمعنى ما كان يفتقدها طوال حياته. كان عليه أنْ يحزن على نهاية التوق إلى القُرب وليس على نهاية القُرب. لا بُدَّ أنَّ توقه كان عقيماً بحيث يدفعه إلى نثر نفسه على الأرض المُحيطة بمنزل سان – نازير. ولو أنّه حاولَ أنْ يتخيَّل أيّ شيءٍ أبعد من منزله القديم، لتخيَّل نفسه واقفاً

هناك، يُحاول جاهداً أنْ يرى شيئاً مُراوغاً، يُظلِّل عينيه ليُراقب يعسوباً يغوص داخل مياه تحترق عند الظهيرة، أو طيور زرزور تدور أمام مشهد الشمس الغاربة.

أصبحَ يُدرِك الآن أنَّ فقدان منزل سان - نازير لم يكن عائقاً أمام الحزن على أمّه بل كان الوسيلة الممكنة الوحيدة لفعل ذلك. وقد حرَّره تخلّيه عن العالم الوهميّ الذي رسمه لمنزلها من ذلك التوق العقيم وحمله إلى حزنٍ أعمق. لقد كان حرّاً في تخيُّل مدى رعب إلينور، بالنسبة إلى امرأة تحمل مثل تلك النوايا الطيّبة، بحيث تخلَّتْ عن رغبتها في حبّه، وهو ما لم يشكّ فيه، وقد اضطرَّ إلى أنْ يمرّ بدل ذلك على الكثير من الخوف والرعب. وأخيراً استطاع أنْ يُباشِر الحزن عليها من أجل نفسه، من أجل الشخص المأساويّ الذي كانت عليه.

-6-

لم يكن باتريك يعلم ماذا يتوقَّع من المراسِم. كان يقوم برحلة عمل إلى أميركا في وقت وفاة أمّه وتمنّى ألّا يُضطر إلى إعداد أي شيء ليقوله أو يقرأه، تاركاً الأمر لميري لتقوم بالترتيبات. كان قد عاد من نيويورك في اليوم السابق، في الوقت المناسب لإقامة صالون العزاء، والآن وهو جالس على مقعد في كنيسة بجوار ميري، أدركَ كم كان غير مستعدّ لرحلة استكشاف حياة والدته المُضطربة هذه. وعلى غلاف كُتيِّب صغير كانت صورةٌ فوتوغرافيّة لإلينور في حقبة الستينيات، مادَّة ذراعيها وكأنها تُعانق العالم، تضعُ نظارتها القاتمة بثبات ولم تكن نتائج اختبار نسبة الكحول في الأنفاس متوفّرة في الكتيِّب. تردَّدَ في النظر داخله؛ إنّه خليط، ركام من الحقائق والمشاعِر كان يُحاول أنْ يبرع في المناورة بها منذ نهاية محاولة إلينور الانتحار قبل عامَين. لقد ماتت شخصيتها قبل أنْ يموت جسدها، وحاولَ أنْ يتظاهر بأنَّ حياتها قد انتهتْ قبل أنْ تنتهي فعلاً، ولكنْ ما كان يمكن لأي قدرٍ من التوقُّع أنْ يخدع مطالب موتٍ فعليّ والآن مال إلى الأمام، بمزيجٍ من الارتباك والخوف والتملُّص، وأعاد برنامج الخدمة إلى الرف أمامه. قريباً جداً سوف يعرف محتواه.

كان قد ذهب إلى أميركا بعد أنْ تلقّى رسالة من شركة براون وستون القانونيّة المحدودة، المُحامون الذين يمثّلون شركة جون ج. جونسون، المعروفة بالاسم الرقيق «الثلاثي ج.». كانت «العائلة» قد أبلغتهم -أصبح باتريك الآن يشكّ في أنَّ هنري هو الذي أبلغهم- بأنَّ إلينور ميلْروز غير مؤهّلة لإدارة شؤونها، وبما أنّها المُستفيدة من وديعة وضعتها جدَّتها، وكان باتريك هو المُستفيد المُطلَق منها، فينبغي اتّخاذ الإجراءات لمنحه سلطة مُحامٍ أميركيّ لكي يقوم بإدارة المال بالنيابة عن أمّه. هذا كله كان مجرد

نبأ بالنسبة إلى باتريك وكان قد أُصيبَ حديثاً بالدهشة جرّاء قُدرة أمّه على حِفظ السرّيّة. ووسط ذهوله لم يسأل عن مقدار الوديعة واستقلّ الطائرة إلى نيويورك من دون أنْ يعلم إنَّ كان سيُعيَّن مسؤولاً عن عشرين مليون دولار أم مئتَي ألف دولار.

قابله جو ريتش وبيتر زيركوفسكي في أحد أصغر غرف الاجتماع في مكاتب شركة براون وستون ذات الطاولة البيضاويّة، والجدران الزجاجيّة، في جادّة ليكسنغتون. وبدل حزم الأوراق الصفراء الكبريتيّة التقليديّة التي توقّعها، وجد أوراقاً مُسطّرة بلون الكريم مع اسم الشركة مطبوع على أعلى كل ورقة بأناقة. قام أحد المُساعدين بتصوير جواز سفر باتريك فوتوكوبي، بينما تفحَّصَ جو رسالة الطبيب الذي شهدَ على عجز إلينور.

قال باتريك «لم تكن لدي أي فكرة عن تلك الوديعة»

قال بيتر مع ابتسامة كبيرة كسول «يبدو أنَّ أمّك كانت تحتفظ بها لتكون مفاجأة سارّة»

قال باتريك بتسامُح «ربما. إلى أين يذهب الإيراد؟»

«حالياً نحن نرسله إلى عنوان...»، وأعطاه بيتر صفيحة من الورق، الجمعيّة الإيثاريّة، «البنك الشعبيّ في الكوت دازور في لاكوست، فرنسا»

قال باتريك «حسن، يمكنكم إيقاف ذلك في الحال»

قال جو «واو، على رسلك. سوف يتوجب علينا أولاً أنْ نوفِّر لك سلطة مُحام»

قال باتريك «لهذا السبب لم تُخبرني هي بالأمر، لأنها تستمر في إرسال العون المالي إلى مشروعها الخيريّ الأثير في فرنسا بينما أُسدِّد أنا نفقات إقامتها في مأوى العجزة في لندن»

قال بيتر، الذي بدا مُصمِّماً على تزويد باتريك بصورة الأم المُحبَّة، «ربما كانت قد فقدتْ أهليتها قبل أنْ تُتاح لها الفرصة لتغيير تعليماتها»

قال جو «هذه الرسالة صالحة. سوف نجعلك توقِّع على بعض الوثائق ومن ثم نوثّقها»

سأل باتريك «كم المبلغ الذي نتحدث عنه؟»

قال جو «إنَّ إيداع جونسون ليس كبيراً وقد عانى من الخسارة في إصلاحات سوق البورصة الأخيرة»

قال باتريك «فلنأمل ألّا يتصرَّف بشكل سيئ من الآن فصاعداً»

قال بيتر، وهو ينظر إلى ملاحظاته، «آخر تقييم لدينا يقول إنّه 203 مليون دولار، مع إيراد يُقدَّر بثمانين ألفاً»

قال باتريك، مُحاولاً أنْ يبدو خائب الأمل قليلاً، «أوه، حسن، ما زال مبلغاً مفيداً»

قال بيتر بمُحاكاة سخيفة للَّكنة الإنكليزيّة، «يكفي لشراء كوخ! أعتقد أنَّ أسعار المنازل مرتفعة بصورة جنونيّة هناك»

قال باتريك، «يكفي لشراء غرفة ثانية»، مُنتزعاً قهقهة مُهذَّبة من بيتر، على الرغم من أنَّ باتريك لم يستطع أنْ يفكِّر في شيء يرغب فيه أكثر من أنْ يفصل بين كلمتَي غرفة ومفروشة.

بدأ باتريك، وهو يمشي في جادة ليكسنغتون باتجاه الفندق الذي يُقيم فيه في متنزّه غريماسي، يتأقلم مع ثروته الكبيرة والغريبة. سوف تقوم الذراع الطويلة لجدِّهِ الأكبر، الذي كان قد توفي قبل أكثر من نصف قرن من مولد باتريك، بانتزاعه من الحيّ السكنيّ المزدحم ووضعه في متَّسع تتوفر فيه ربما غرفة لطفليه ومكان لزيارة أصدقائه. وحتى ذلك الحين سوف يُسدِّد تكاليف إقامة أمّه في مأوى العجزة. كان التفكير في أنَّ هذا الشخص الغريب تماماً سوف يكون له تأثير قويّ على حياته، شيئاً مُحيِّراً. حتى المُحسِن إليه كان قد ورِثَ ماله. إنَّ والده هو الذي أسَّسَ شركة جونسون للشموع في كليفلاند، في عام 1832. وبحلول عام 1845 كانت قد أضحتْ واحدة من أكثر شركات إنتاج الشموع ربحاً في البلاد. وتذكّر باتريك أنّه قرأ الشرح المُملّ للمُؤسِّس لعوامل نجاحه: «كانت لدينا عمليّة جديدة لتقطير الشحوم الرخيصة. كان مُنافسونا يستخدمون الشحم الحيوانيّ ودهن الخنزير المُكلِفة. وبقيَتْ الشموع ممتازة وأرباحنا كبيرة على مدى عدد من السنين». لاحقاً، قام مصنع الشموع بتنويع إنتاجه وانتقل إلى البرافين، وعمليات معالجة الزيوت والتقسية، وطوّرَ مُركّباً مُرخَّصاً أصبحَ مادة لا غِنى عنها في التنظيف على

الناشِف في العالم. واشترت شركة جونسون أبنية ومواقع للبناء في سان فرانسيسكو، ودنفر، وكنساس سيتي، وتوليدو، وإنديانابوليس، وشيكاغو، ونيويورك، وترينيداد وبورتوريكو، لكنَّ الثروة الحقيقيّة كان أساسها عِناد المؤسِّس الذي «مات من فرط العمل»، وسقط من بابٍ سحري يؤدي إلى قبو في أحد مصانعه، وأيضاً جاءت من تلك «الشحوم الرخيصة» التي كانت لا تزال تُسهِّل حياة أحد أسلافه بعد اكتشافها بمئة وسبعين عاماً.

كان جون ج. جونسون الابن، جَدّ إلينور، قد بلغ الستين من العمر عندما تزوّجَ أخيراً. كان يُسافر إلى أرجاء العالم كله ليخدم أعمال العائلة المُزدهرة، وتمّ استدعاؤه من الصين إبّان وفاة نسيبه شلدون في حادث انزلاق في مدرسة القديس بولص. وكان نسيبه الأكبر، ألبرت، قد مات من مرض ذات الرئة في هارفرد في العالم السابق. ولم يتبقَّ ورثة لثروة جونسون، وأخبر والد شلدون الحزين، توماس، أخاه أنَّ من واجبه أنْ يتزوج. وقبِلَ جون مصيره، وبعد فترة قصيرة من ارتباطه بعلاقة عاطفيّة مع ابنة أحد الجنرالات، تزوج وانتقلَ إلى نيويورك. وأنجبَ ثلاث بنات بتسلسلٍ سريع، ومن ثم سقط ميتاً، ولكن ليس قبل أنْ يُكوِّن عدداً كبيراً من الودائع، أحدها كانت ستؤول إلى باتريك، كما اكتشفَ بعد ظهيرة ذلك اليوم.

ماذا يعني الودّ طويل الأمد هذا، وماذا قال عن العقد الاجتماعيّ الذي سمح لرجلٍ ثريّ أنْ يُحرِّر كل أبناء سلالته من الحاجة إلى العمل على امتداد حوالي قرنين؟ كان هناك شيء وضيع في أنْ يُنقذك أسلاف يبتعدون عنك باطراد. وعندما استنفد المال الذي وصله من جَدَّة يكاد لا يعرفها، وصل المال من جدّ أكبر ما كان يمكن أنْ يعرفه. ولم يشعر إلّا بامتنان مُبهَم نحو رجلٍ لم يكن يستطيع أنْ يُميِّزه من بين ركام من الصور الفوتوغرافيّة القديمة ذات لون غريب. ومفارقات حافز العائلة المالكة لا تقل ضخامة عن المُفارقات المُحبّة للبشر التي أحدثتها إلينور، أو قريبتها الكبرى فيرجينيا. لا شك في أنَّ جدَّته وجدَّه الأكبر كانا يأملان في تفويض عضواً في مجلس الشيوخ، وفي أنْ يزيدا مجموعتهما الفنيّة أو في تشجيع زواج مُبهِر، ولكن في الختام دعما بشكل رئيس الكسل، والسُكر، والخيانة والطلاق. فهل كانت مفارقات فرض الضرائب أفضل: من أجل جمع المال

لإنشاء المدارس والمستشفيات والطرقات والجسور، وإنفاقه على تفجير المدارس والمستشفيات والطرقات والجسور في حروبِ الهزائم الذاتيّة؟ كان صعباً الاختيار بين أنماط تحويل الثروة السخيفة بدرجات متفاوتة هذه، ولكن في الوقت الحالي فقط سوف يستسلم لمتعة الاستفادة من هذا الشكل الخاصّ للرأسماليّة الأميركيّة. فقط في بلدٍ متحرِّر من قمع حق البكورة[1] ومن إلغاء المُساواة يمكن للجيل الخامس من عائلة أنْ يبقى يتلقّى حزماً من المال من ثروةٍ جُمِعَتْ في الأساس في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وتعايشَ استمتاعه بسلام مع استهجانِه، وهو يُتابع طريقه إلى الفندق المُعتِم والعطِر، الذي يُشبه موقع تصوير فيلم في ماخور إسبانيّ مرفّه، خيطَتْ فيه أرقام الغرف على السجّاد، مع افتراض أنَّ الضيوف كلهم يجثمون على أطرافهم الأربعة بعد تعاطي جرعة شبه زائدة ولم يعُد في استطاعتهم العثور على غُرَفهم وهم يزحفون على طول الأروقة الغامضة.

كان الهاتف يرنّ عندما وصل إلى غرفته الشبيهة بعلبة مجوهرات من المخمل، وغمره ضوء مُعتِم بلون البول ينبعث من مظلات مصابيح نفيسة ومن أثر سُكر مُفتَرَض. تلمَّسَ طريقه نحو الطاولة المُجاورة للسرير، وارتطمت قصبة ساقه بالسيقان المنحنية لكرسيّ مُصمَّم ليُشبه السِمة المُخنّثة الذكورية لسترة مُصارع ثيران، مع كتفَين ضخمين يبرزان بكبرياء من أعلى الظهر المتيبِّس.

قال وهو يُجيب نداء الهاتف «اللعنة»

قالتْ ميري «أنت بخير؟»

«أوه، مرحباً، آسف، أهذا أنت. لقد ارتطمت بكرسي مُصارع الثيران اللعين هذا. إنني لا أرى أي شيء في هذا الفندق. يجب أنْ يعطونا قبعات عمّال المناجم في الاستقبال»

«اسمع، لدي نبأ مشؤوم» وسكتتْ.

استرخى باتريك على الوسائد مع حدسٍ واضح لِما تنوي أنْ تقول.

1- حق البكورة: حق الابن البكر في الإرث كله - المترجم.

«إلينور توفيتْ ليلة أمس. أنا آسفة»

قال باتريك بتحدٍ «يا له من خبر مُريح، من بين أشياء مريحة أخرى...»

قالتْ ميري «نعم، وأشياء أخرى أيضاً»، وأعطتْ الانطباع بأنها تتقبّلها كلها مُسبقاً.

اتّفقا على استئناف الحديث في الصباح. كانت لدى باتريك رغبة شديدة في أنْ يُترَك وحده لا تُضاهيها إلّا رغبته الشديدة في ألّا يُترَك وحده. فتح خزانة المشروبات الصغيرة وجلس على الأرض متشابك الساقَين، مُحدِّقاً إلى جدار المُنمنمات على الجانب الداخليّ من الباب، التي تشع بتأثير الضوء المُبهِر المنبعث من البرّاد الأبيض الصغير. وعلى الأرفف المُجاورة للأقداح وكؤوس النبيذ كانت الشوكولاتة، وحبوب الهلام، والجوز المُملَّح، الأشياء الطيبة والرشاوى من أجل الأجساد المُتعَبة والأطفال الساخطين. أغلقَ باب البرّاد وأغلق باب خزانة الأكواب وارتقى إلى أريكة المخمل الأحمر، متجنّباً كرسي مُصارع الثيران قدر استطاعته.

يجب أنْ يحاول ألّا ينسى أنّه قبل عامٍ فقط كانت الهلوسات تتفجّر داخل عقله العاجز كتفجّر صواريخ موجّهة على مدينة مُحاصَرة. تمدَّد على الأريكة، مُتشبّثاً بوسادة غنيّة بالتطريز على بطنه المتألِّم أصلاً، وانزلقَ بسهولة داخل الحالة العقليّة الهذيانيّة التي سادت الغرفة الصغيرة في الدير. تذكَّر كيف كان يسمع خدشَ طرفٍ معدنيّ مُدبَّب، أو رفرفة أجنحة عثّة على الباب المُستتر، أو حفيف سكين نحت وهي تُسنّ، أو قعقعة حصى في أثناء موجة في البحر، وكأنها موجودة معه في الغرفة، أو كأنه هو في مكان واحد معها. كانت هناك صخرة مكسورة تتخللها خطوط ذات لمعان كوارتز فاقع غالباً ما يجدها عند آخر سريره. وجراد بحر أزرق اللون يستكشِف حواف لوح خشب أسفل الجدار بهوائياتها الحسّاسة. وأحياناً كان يرى مشاهد كاملة. كان يتخيّل، على سبيل المثال، أضواء مكابح تتدفق على طريق مُبلّل، ودخاناً ينبعثُ من داخل سيارة، ونبض موسيقى مألوفة، وقطرة منتفخة من الماء تنزلقُ بسرعة إلى أسفل حاجب الريح، مُلتهمة القطرات الأخرى في طريقها، ويشعر بأنَّ هذا الجو هو أعمق ما عرفه في حياته. وجلبَ غياب السرد المتناسِق في

أحلام اليقظة الإجباريّة تلك إحساساً أشدّ سريّة بالتواصُل. وبدل أنْ يقطع بخُطى مُتعبة الأرض المُجدِبة للتسلسُل العادي، غاص في ليلٍ أوقيانيّ يُضيئه لهبٌ متفرِّق من التلألؤ الحيّ. وخرج من تلك الحالات، غير قادر على تخيُّل كيف يمكن أنْ يصِف قوتها الطاغية لجماعة الاكتئاب وتواق إلى تناول القرص المُهدِّئ على وجبة الإفطار.

كان في وسعه أنْ يستعيد ذلك كلّه في غضون بضعة أشهر من الانغماس في الشرب، ليس فقط مُستنقعات الزئبق التي تلت بدء التخلّي عن الشرب مع انعكاساتها السامّة، المتملّصة، المُحطِّمة، والهذيان الخفيّ الذي اتّسم به الأسبوعان التاليان، بل كامل علاج المجموعة. كان لا يزال يتذكّر، في يومه الثالث في مجموعة الكحول والإدمان، رغبته في القفز من النافذة عندما دخل أحد المعارف القدامى ليشارك في تجربته، وقوته والأمل مع المرضى المرتعشين في مرحلة الشِفاء المُبكرة. كان مُدمن خمر أنيقاً، ومدمناً سابق للمهدئات، أبيض الشعر وذا أصابع مُدخِّن برتقاليّة اللون، واقتطفَ حِكمة من شخصٍ أكبر سناً منه كان «في الغرف» في أول مرحلة «استعادة الوعي» تقول: «يقرع الخوف الباب» (فترة صمت قصيرة) «فتفتح الشجاعة الباب!» (فترة صمت قصيرة) «ولا تجد أحداً!» (فترة صمت طويلة). ويستطيع أيضاً أنْ يحصل على المزيد من الأخبار من القسّ الاسكتلنديّ من مجموعة الاكتئاب، بما يتصف به من ذاكرة حادة في مجال قوة التصوير الذي قال: «إنكَ تحصل على ما ترى وترى ما حصلتَ عليه». ثم هناك «أعمق أعماق» المرضى الآخرين التي يجب إعادة النظر فيها، كالرجل الذي استيقظَ ليجد نفسه إلى جوار صديقة له لم يتذكَّر أنّه ذبحها بسكين مطبخ في الليلة السابقة؛ وضيف العطلة الأسبوعيّة المُحاط بورق جدران مرسوم باليد لم يتذكَّر أنّه لطّخه بالبراز؛ والمرأة التي بُتِرَت ذراعها بعد أنْ التقطَتْ حقنة عن أرضيّة إسمنتية في شقّة صديق ومن ثم اتَّضحَ أنّها ملوّثة ببقّة خطرة آكلة لحوم؛ والأم التي تركتْ أولادها المذعورين في كوخ لقضاء العطل لكي تعود إلى بائع المخدرات في لندن، وقصص أخر لا حصر لها تعبِّر عن يأسٍ أقلّ إثارة – لحظات من الشعور بالخِزْي ينتج عنها «لحظات من الصفاء» في رحلة الشِفاء الطويلة.

في المُجمَل، انتهى محتوى خزانة المشروبات. والشهر الذي أمضاه في مستشفى الدير أعطى مفعوله. كان يعرف بعمق كمعرفته أي شيء أنَّ تسكين الآلام هو مقدّمة القلق، والإثارة مقدّمة الإرهاق والعزاء مقدّمة لخيبة الأمل، وهكذا تمدَّد على أريكة المخمل الأحمر ولم يقُم بأي شيء لإلهاء نفسه عن نبأ وفاة أمّه. بقيَ يقظاً طوال الليل شاعراً بخَدَرٍ غير مُقنِع. وعند الساعة الخامسة صباحاً، عندما قدَّرَ أنَّ ميري سوف تكون قد عادتْ من المدرسة التي تُديرها في لندن، اتّصل هاتفيّاً بشقّتها واتّفقا على أنْ تتولّى هي ترتيبات الجنازة.

سكتَ الأرغن، مُقاطِعاً حلم يقظة باتريك. تناول الكتيِّب من جديد من الرف الضيّق أمامه، ولكن قبل أنْ يُتاح له الوقت لينظر داخله، انطلقَتْ الموسيقى من مُكبّرات الصوت في أركان الغرفة. ميَّزَ الأغنية مباشرة قبل أنْ يصدح الصوت الأسود الجهور فوق أجواء المِحرقة:

أوه، لديّ الكثير من لا شيء،

واللا شيء كثير بالنسبة إليّ.

ليست لدي سيارة، ولا بغل، ولا أعاني البؤس.

الذين لديهم الكثير الكثير

لديهم قفل في الباب،

خشية أنْ يسرقهم أحد

وهم في الخارج يجمعون المزيد.

لِمَ؟

تلفَّتَ باتريك حوله وابتسمَ بخبث لميري. فردّت عليه بابتسامة. وفجأة شعر بالذنب بصورة غير عقلانيّة لأنه لم يُخبرها بعد عن الوديعة، وكأنّه لم يعُد مؤهّلاً للاستمتاع بالأغنية، الآن حين لم يعد لديه الكثير من «*اللا شيء*» كما كان من قبل، وقوله *المزيد/ لِمَ؟* يستحق أنْ يُردَّد كثيراً.

لديّ الكثير من لا شيء،
واللا شيء كثير بالنسبة إليّ.
لديّ الشمس، ولديّ القمر، ولدي البحر الأزرق العميق.
على الذين يملكون الكثير،
أنْ يُصلّوا طوال النهار.
يبدو أنَّ مَنْ لديه الكثير عليه أنْ يقلق
حول إبقاء الشيطان بعيداً
بعيداً.

تسلّى باتريك بإصرار بورغي على إثم الأغنياء. شعر بأنَّ إلينور والعمّة فيرجينيا جديرتان بأنْ توافقا على هذا. فقبل كل شيء، قبل أنْ يُصبحوا سادة الكون، خُصِّصَت للمُرابين الدائرة السابعة من جهنم. وتحت وابلٍ من النار، كانت أيديهم التي لا تكلّ أبداً بمثابة عقاب للأيدي التي لم تُنجِز أي عمل مفيد أو صالح في حياتهم، بل اكتفَتْ باستغلال كدّ الآخرين. حتى من الموقع الأقلّ إبهاجاً في كون المرء أحد «*الذين يملكون الكثير من الكثير*»، وعلى حساب تبنّي وهم أنَّ أصحاب «*الكثير من اللا شيء*» لم يُضطروا أيضاً إلى القلق بشأنْ إبقاء *الشيطان* بعيداً، كانت إلينور جديرة بأنْ توصي بوجهة نظر بورغي[1]. وجدَّدَ باتريك تركيزه على الجزء الأخير من الأغنية.

على المرء ألّا يُكافح
ليكون صالحاً، أو أنْ يكون طالحاً -
لا يهمّ! أنا سعيد
أنا حيّ.
أوه، أنا لديّ الكثير من لا شيء
واللا شيء هو كثير بالنسبة إليّ.

1- بورغي: شخصية في أوبرا «بورغي وبيس» للمؤلّف جورج غيرشوين (1898-1937)، والأغنية الواردة في النص مأخوذة من تلك الأوبرا - المترجم.

لديّ النعيم طوال النهار.

(لا فائدة من الشكوى!)

لديّ فتاتي، لديّ حبيبتي، لديّ أغنيتي!

همسَ باتريك لميري مع إيماء ممتن من الرأس «اختيار عظيم». أمسك بكتيِّب نظام المراسم من جديد، وقد أصبح أخيراً مُستعداً للنظر إلى ما يحتوي.

-7-

قال نيكولاس في نفسه، شيء مُثير للغثيان، يهوديّ[1] يُعبِّر عن عواطفه بالنيابة عن زنجيّ[2]: يا لكم من محظوظين، لديكم الكثير من لا شيء، بينما نحن نرزح تحت ثقل مال العالم كلّه وتلك الأغاني الرائجة البائسة التي تُنتجها مسرحيات هوليوود الغنائيّة. وقال نيكولاس لنفسه، من باب التدرُّب استعداداً لِما سيأتي لاحقاً، وعندما تتخبّط فكرة ما، يقوم كُتّاب الأغاني بإخراج الأجسام السماويّة. «الأشياء التي أُقدِّرها / كالنجوم التي في السماوات/ كلّها حرَّة». لا مفاجأة هنا – لا يمكن للمرء أنْ يتوقَّع الكثير من قنبلة هيدروجينيّة على بُعد عدة ملايين من السنوات الضوئيّة. كان صعباً جداً إقناع صاحب مصرف تجاري أنْ يدفع لشخص أجرة محترمة لمنزل الأرملة الملكة آن الجميل المُصنَّف درجة ثانية في شروبشير، من دون أنْ يطلب منه أنْ ينقله بالسيارة إلى القمر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. نتحدَّثُ عن مكان بعيد جداً عن لندن، وعن عدم وجود ما يفعله المرء عندما يصل إلى هناك، ما عدا أنْ يقفز في المكان بينما الأكسجين ينفد. كان هناك شيء يُدعى حال الدنيا. إنَّ ستين في المئة من ركّاب السفينة ***تايتانيك*** في الدرجة الأولى نجوا من الموت؛ وعشرون في المئة من ركاب الدرجة الثانية، ولم ينجُ أحد من ركاب الدرجة الرخيصة. ذلك كان حال الدنيا. ابتسم نيكولاس بينه وبين نفسه، «أنا حقاً ممتن، يا ريِّس، لقد حصلتُ على البحر الأزرق العميق»

أوه، يا ربي، ما الذي يحدث الآن؟ إنَّ «صندوق الأدوات الروحيّة»

1- جورج غيرشوين، مؤلِّف «بورغي وبيس» يهودي – المترجم.

2- أبطال أوبرا «بورغي وبيس» زنوج – المترجم.

المرعب يصعد إلى المِقرأ. يكاد لا يسمعه. ماذا يفعل هنا؟ في النهاية، كان عاطفياً بقدر ما كان السخيف العجوز أيرا غيرشوين[1]. لقد جاء من أجل ديفيد ميلْروز. كان ديفيد فاشلاً من نواحٍ متعددة، لكنَّ حضوره اتَّسَم بسِمة نادرة ونفيسة: كان مُثيراً مثالياً للاشمئزاز. تجاوز أخلاقيات الطبقة الوسطى بخُطى عملاقة. لقد بذل الآخرون جهداً مُضنياً ليفهموا الملاحظة الغريبة المتعصّبة، أما ديفيد فجسَّدَ الاشمئزاز المُطلَق من رأي العالم. ليس في وسع الإنسان إلّا أنْ يبذل أقصى جهده للحفاظ على التراث.

بالنسبة إلى إراسموس كانت أشدّ الأبيات إثارة للاهتمام هي بلا أدنى شك، «*على المرء ألّا يُكافح / ليكون صالحاً، أو طالحاً / لا يهمّ! أنا سعيد / أنا حيّ*». كان نيتشه حاضراً، طبعاً، وروسّو (حتماً)، ولكن هناك أيضاً «**سوترا الجوهرة**»[2]. من المُستبعَد أنْ يكون بورغي قد قرأ لأي منهم. ومع ذلك، كان مشروعاً التفكيرُ في التأثير المُضلِّل لفئة مُعيَّنة من الأفكار، وفي عدم الكفاح وفي الحالة الطبيعيّة التي سبقت الأخلاق القائمة على قواعِد وجعلتها بمعنى ما وافرة. ربما يستطيع أنْ يُقابل ميري بعد الجنازة. لطالما كانت منفتحة. أحياناً يفكِّرُ في هذا.

قالت جوليا في نفسها، شكراً لله لأنَّ هناك أناساً سعداء من دون أي شيء، لكي يتمكَّن أناسٌ مثلها (وكل شخص آخر قابلته في حياتها) من الحصول على *المزيد*. لقد كان مستحيلاً في الحقيقة التفكير في جُملة تستخدم كلمة «كافٍ» الفظيعة استخداماً إيجابيّاً، ناهيك عن جملة تبدأ بالهذيان عن «لا شيء». ومع ذلك، كانت الأغنية مُناسِبة بشكلٍ مثاليّ لوالدة باتريك الخرِفة، وتصلح أيضاً أنْ تكون نشيداً وطنيّاً متفائلاً للحرمان من الإرث. وكالمعتاد، تُرفَع القبعات احتراماً لميري، وتنهّدتْ جولياً بإعجاب. لقد افترَضَتْ أنَّ

1- أيرا غيرشوين: هو شقيق الموسيقار جورج غيرشوين وهو الذي وضع كلمات أوبرا «بورغي وبيس» المذكورة آنفاً - المترجم.
2- سوترا الجوهرة: أو كتاب الحِكمة البوذيّة - المترجم.

باتريك يشعر بأنّه «مجنون» إلى درجة يعجز معها عن تنفيذ أي شيء عمليّ، وأنّه طُلِبَ من الأم مريم أنْ تتدخّل.

قالت نانسي في نفسها، من السُخف حقاً اللجوء إلى الأخوَين غيرشوين في وقتٍ كان عرّاب المرء هو الرائع كول بورتر[1]. لماذا أهدرته أمي على إلينور بينما كان يمكن لنانسي، المُعجَبَة برونقه وذكائه، أنْ تستأثر به لنفسها؟ وهذا لا يعني أنَّه ليس لأوبرا «*بورغي وبيس*» جانبها المُبهِر. كانت قد ذهبتْ لمشاهدة العرض الافتتاحي في نيويورك مع هانسي ودينكي غوتنبرغ وأمضتْ أمتع وقت عرفته في حياتها، وانتقلتْ إلى الكواليس لكي تُهنّئ الجميع. ولم يُرهِب النجوم الحقيقيين أو يتلعثموا أنْ يُقابلوا أميراً ألمانيّاً وسيماً وسامة صاعقة، ولكن كان جليّاً أنَّ بعض فتيات الجوقة الصغيرات لم يدرين ماذا يفعلن، هل ينحنين باحترام، أو يُشعلنَ ثورة أم يضعن السُمّ لزوجته. سوف تُضمِّن كتابها حتماً هذا المشهد، سوف يكون تجميعاً لكل ما هو ممتع، على عكس هذه الجنازة الكئيبة. لقد كانت إلينور حقاً تخيِّب أمل العائلة وتُخيِّب أمل نفسها أيضاً.

ذُهِلَتْ أنيتْ، وهي تسير في الممر بين المقاعد باتّجاه المِقرأ، بالحضور المناسِب لتلك الأغنية الروحيّة، الرائعة، وبراعة انتقائها وتزامنها. بالأمس القريب كانت جالسة مع شيموس في نقطة طاقتهما المُفضّلة على مصطبة منزل سان-نازير (في الواقع كانا قد قرّرا أنَّ المكان هو مركز قوة القلب للعقار كلّه، وعند التفكير في الأمر تجد أنَّ ذلك صحيح بكل معنى الكلمة)، لكي يحتفلا بمواهب إلينور الفريدة بشرب كأس من النبيذ الأحمر، وأتى شيموس على ذِكر صِلتها القويّة جداً بالشعب الإفريقيّ-الأميركي. كان قد شرّفه أنْ يشهد العديد من انتكاسات إلينور في الحياة الماضية وقد اتّضحَ أنَّها كانت عبدة هاربة خلال الحرب الأهليّة الأميركيّة، وحاولتْ أنْ تشقّ طريقها إلى الشمال الذي ألغى الرقّ وهي تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها.

1- كول بورتر (1893-1964): مؤلّف موسيقيّ وكاتب كلمات مسرحيات غنائيّة - المترجم

ومن الواضح أنها قضَتْ وقتاً رهيباً جرّاء ذلك، كانت تتنقّل فقط في أثناء الليل، في عزّ الشتاء، تختبئ في الخنادق وتعيش حياتها في خوف. والآن، في اليوم التالي مباشرة، وفي جنازة إلينور، غنّى رجلٌ من الواضح أنّه كان من سلالة العبيد تلك الأبياتَ الشِعريّة الرائعة. وربما -هنا كادت أنيتْ تتوقف، وقد غمرتها آفاقٌ أبعد من المُصادفة السِحريّة- ربما كان هو نفسه الطفل الذي حملته إلينور نحو الحريّة خلال الخنادق والليل، وقد نما وأصبح رجلاً متألّقاً ذا صوت عميق ورنّان. كان جميلاً جمالاً يكاد لا يُحتَمَل، ولكن كانت أمامها مهمّة عليها إنجازها وانتزعتْ نفسها بحركة قوية نادمة من البُعد المُذهل الذي أوصلتها إليها سلسلة أفكارها، ووقفتْ مباشرة عند المِقرأ، تفتح الصفحات التي كانت تحملها في جيب ثوبها. لمستْ بأصابعها القِلادة ذات اللون الكهرمانيّ التي كانت قد اشترتها من محل الأم ميرا لبيع الهدايا عندما ذهبتْ لحضور مناسبة دينيّة مُجسّدة على هيئة بلدة تالهايم. ولما شعرت بقوة مُبهمة صادرة عن المرأة الهنديّة الصامتة التي كان تحديقها الذي ينمّ عن حبٍ غير مشروط تنفذ إلى روحها وأرشدتها إلى طريق الشِفاء الذي ما زالت تمشي عليه حتى هذا اليوم، خاطبتْ أنيت جموع المُعزّين بصوتٍ موزَّع بين التعبير عن الرقّة المتألّمة والحاجة إلى علوّ صوت مُناسِب.

«سوف أبدأ بقراءة قصيدة أعلمُ أنها كانت قريبة إلى قلب إلينور. وفي الحقيقة أنا التي عرَّفتها عليها، وأعلمُ كم تعني بالنسبة إليها. وأنا واثقة من أنَّ كثيرين منكم سوف يتعرَّفون عليها. إنها قصيدة *The Lake Isle of Innisfree* للشاعر وليم بتلر ييتس» وباشرتْ بالقراءة بهمسٍ مرتفع مرح:

سوف أنهض وأرحل الآن، وأذهب إلى إنّيسفري،
وأبني كوخاً صغيراً هناك، أصنعه من الطمي
وقضبان النبات؛
سوف أزرع تسعة صفوف من البقول، وأصنع خليّة
لجني عسل النحل،
وأعيش وحيداً في أرض تعجّ بطنين النحل.

قال نيكولاس في نفسه، في حين أنَّ طلبَ تسع محارات شيء يدل على الرقيّ، كان هناك شيء غاية في السُخف في زرع تسعة صفوف من البقول. المحار يأتي طبعاً بكميات محدودة -فهو حسب معلوماته ينمو في قاع البحر بكميات محدودة- لذلك فإنَّ طلب تسعة منها يُعتبَر شيئاً أنيقاً بصورة مفهومة. أما البقول، من ناحية أخرى، فينمو في حقولٍ مُبهمة وبكميات وافرة، ويجعل التحديد الدقيق للعدد تسعة شيئاً سخيفاً. على الأقلّ لقد أثارت القصيدة رؤيا مُشوَّشة لمساحة في المدينة لا يوجد فيها حيِّز لِطَمي أو لقضبان نباتيّة ولبقعة أرض تعجّ بطنين النحل. ولا شك في أنَّ صندوق الأدوات الروحيّة ظنَّ أنَّ بلدة «إنّيسفري» مثّلتْ ذروة موهبة ييتس، ولا شك في أنَّ الغسق الكلتيّ، ببراءته العنيدة وتأثيراته، كان مُناسِباً تماماً لوِجهة نظر إلينور العالميّة عن العالم الآخر، ولكن على أرض الواقع كان الشاعر الأيرلندي قد خرج تواً من ضبابٍ بنفسجيّ اللون يمكن نسيانه بالكامل عندما أصبح المتحدث بلسان المثل الأعلى الأرستقراطيّ. ***«لا شك في أنَّ بين مروج رجل ثريّ مُزهرة / وسط حفيف تلاله المزروعة / تفيض الحياة من دون معاناةِ آلامِ طموح / ويهطل المطَر على الحياة إلى أنْ يمتلئ الحوض»***. هذه كانت الأبيات الوحيدة من ييتس التي تستحق أنْ تُحفَظ غيباً، وهذا صحيح بما أنّها الأبيات الوحيدة التي تذكّرها. وهذه الأبيات كانت بداية تأمّل حول الرجال «الممتلئين بالمرارة وبالعنف» الذين حققوا إنجازات ضخمة وبنوا منازل عظيمة، وكانت سرداً لِما حدث لتلك العَظَمَة عندما تحولتْ مع مرور الزمن إلى مجرّد امتياز: ***«وربما الحفيد الأكبر لذلك المنزل / بكل ما فيه من برونز ورخام، ليس أكثر من فأر»***. كان بيتاً من الشِعر محفوفاً بالمخاطر لولا أنَّ كل المنازل الضخمة التي تعجّ بالفئران التي عرفها المرء. لهذا السبب كان شيئاً أساسيّاً، كما ألمحَ ييتس، أنْ يبقى المرء شاعراً بالمرارة وبالغضب، لكي يزيل تأثيرات المجد الموروث التي تضعف.

ضاعَفَ صوت أنيت من رقّته المُعذِّبة من أجل قراءة المقطع الشِعري الثاني:

وهناك سوف أحظى ببعض السكينة هناك، لأنَّ

السكينة تسقطُ ببطء،
تسقطُ من حُجُب الصباح
إلى حيث يصرّ الجُدجُد؛
هناك يكون منتصف الليل كله بريق، والظهيرة
وهجاً أرجوانياً،
والمساءُ مملوءاً بأجنحة طائر التفّاحي.

قال هنري في نفسه، ***السكينة تهبط ببطء***، ما أجمل هذا. الأبيات تطول مع تزايد السكينة، والإرهاق المتعمِّق، ورأسه يرتخي ببطء، يرتخي ببطء على صدره. كان في حاجة إلى قهوة إسبريسّو، وإلّا كفّنت حُجُب الصباح عقله بالكامل. إنه موجود هنا من أجل إلينور، إلينور على البحيرة في فيرلي، وحدها في زورق تجذيف، ترفض العودة، والجميع واقفون على الشاطئ يهتفون، «عودي! أمك هنا! أمك وصلتْ!». وعلى الرغم من أنها فتاة شديدة الحياء ولا تستطيع أنْ تواجه عينيك، يمكنها أنْ تكون عنيدة كبغل.

قال باتريك في نفسه، ***حيث يصرّ الجُدجُد***، هو المكان الذي تعيشين فيه مع شيموس في منزلي القديم. وتخيَّلَ الصرير الحادّ صادراً عن العشب والارتفاع التدريجيّ، عن زيز بعد زيز، على هيئة أمواج متواترة من الصوت، كحرارة سمعيّة تخفقُ فوق الأرض الجافّة.

ارتاحتْ ميري لأنَّ ***الكثير من لا شيء*** بدا أنه في مصلحة باتريك، وشعرتْ بأنَّ بساطة «إنّيسفري» الظاهريّة كانت تذْكِرة فاتنة بتوق إلينور إلى إقصاء تعقيدات الحياة القاتمة بأي ثمن. وما لم تسترح ميري له هو الخِطاب الذي طَلَبَتْ من أنيتْ أنْ تُلقيه. ولكن ماذا كان في وسعها أنْ تفعل؟ لا معنى في إنكار ذلك الجانب من حياة إلينور وقد كانت أنيتْ هي أفضل المؤهّلاتْ من أي شخص آخر في المكان للتحدث عن الأمر. على الأقلّ سوف يمنح باتريك شيئاً ليتحدث بمرح حوله على امتداد الأيام القليلة التالية. وأصغتْ

إلى إلقاء أنيتْ المُنغَّم، الشبيه بهزّ المهد، للمقطع الأخير من الـ «إنّيسفري» برعبٍ متزايد:

سوف أنهض الآن وأذهب، لأنني دائماً
ليلاً نهاراً
أسمع مياه البحيرة تترقرق بضجيج مُنخفض
على الشاطئ؛
وأنا واقف على الطريق، أو على
الرصيف الرمادي،
أسمعها في أعماق القلب.

أغمضَتْ أنيتْ عينيها ومدَّتْ يدها من جديد إلى قِلادتها الكهرمانيّة. تمتمت «أوم نامو ماتّا ميرا»، لتزوّد نفسها بمزيد من القوة من أجل الخطاب الذي توشك أنْ تلقي.

باشرتْ مع ابتسامة مُتفهِّمة «جميعكم تعرفون إلينور بأساليب مختلفة، والعديد منكم عرفها مدة أطول مما عرفتها أنا. وفي استطاعتي أنْ أتكلَّم فقط عن إلينور التي أعرف، وبينما أحاول أنْ أُنصِف تلك المرأة الرائعة، آمل في أنْ تضمّوا إلينور التي عرفتموها في ما يُسمّيه ييتس«***أعماق القلب***». ولكن في الوقت نفسه، إذا بيَّنتُ لكم الجانب الآخر منها الذي لم تعرفوه، فكل ما أطلب منكم هو أنْ تسمحوا لها بالدخول، تسمحوا لها بالدخول وتسمحوا لها بالانضمام إلى إلينور التي يحملها كلٌّ منكم في قلبه»

قال باتريك في نفسه، آه، يا يسوع، أخرجني من هنا. وتخيَّلَ نفسه يختفي داخل الأرض برفش مع بعض أسرة المبيت الخشبيّة، واللحن المُميِّز لفيلم «*الهروب الكبير*» يعمّ الجو. كان يزحف تحت المِحرقة خلال أنفاق هشّة. عندما شعر بصوت أنيتْ المُثير للجنون يجرّه إلى الخلف.

***

«قابلتُ إلينور للمرة الأولى عندنا دُعِيَتْ مجموعة منا من «دائرة طبل شفاء نساء دبلن» إلى سان - نازير، منزلها الرائع في مقاطعة بروفانس، الذي أنا واثقة من أنَّ العديد منكم يعرفه. وبينما كنا نسير على الممرّ ونحن في حافلتنا الصغيرة، لمحتُ للمرة الأولى إلينور جالسة على جدار البركة الكبيرة، ويداها مدسوستان تحت فخذيها، أمام العالم كلّه كأنها طفلة صغيرة وحيدة تُحدِّق نحو الأسفل إلى حذائها المتدلّي. ومع وصولنا أمام البركة رحَّبَتْ بنا بذراعين مفتوحتين واسعاً بالمعنى الحرفيّ للكلمة، ولكنني لا أنسى انطباعي الأول عنها، تماماً كما أعتقد أنّها لم تفقد تواصلها مع تلك السِمة الطفوليّة التي جعلتها تؤمن بشغف بأنه يمكن تحقيق العدالة، وبأنَّ الوعي يمكن أنْ يتحوّل وبأنَّ الخير موجود في كل شخص وفي كل موقف، مهما بدا خفيّاً للوهلة الأولى»

قال إراسموس في نفسه، طبعاً الوعي يمكن تحويله، ولكن ما هو؟ إذا جعلتُ تياراً كهربائياً مستمراً يسري في جسمي، أو دفنتُ أنفي في البتلات الرقيقة لوردة، أو تقمّصتُ شخصيّة غريتا غاربو، فإنني أحوِّل وعيي؛ في الحقيقة من المستحيل التوقف عن تحويل الوعي. إنَّ ما أعجزُ عن فعله هو أنْ أصِفَ *ماهيّته*: إنّه شديد القُرب مني بحيث لا أستطيع رؤيته، وموجود في كل مكان ولا أستطيع القبض عليه، وشديد الشفافيّة ولا أستطيع أنْ أشير إليه.

«لقد كانت إلينور واحدة من أشد مَنْ تشرّفتُ بمعرفتهم كَرَماً. كان يكفي أنْ تشيروا إلى أنكم في حاجة إلى شيءٍ ما فسوف توفّره لكم إذا كان ذلك في مقدورها، سوف تنتهز الفرصة بحماس يجعل الأمر يبدو وكأنَّه يُريحها أكثر مما يُريح الشخص الذي طَلَبَه»

تخيّلَ باتريك الحوار الساحر البسيط التالي:

شيموس: كنتُ أفكِّر في أنّه، إه، مما يرفع الوعي أنْ تمتلكي، على سبيل المثال، ضيعةً خاصّة مُحاطة بكروم العنب والزيتون، في مكان مُشمِس.

إلينور: أوه، شيء مُذهل! أنا لديّ واحدة منها. هل ستعجبك؟

شيموس: أوه، شكراً جزيلاً لكِ، أنا متأكّد من أنها ستعجبني. وقّعي هنا وهنا وهنا.

إلينور: كم هذا مُريح. الآن لم أعُد أملكُ أي شيء.

قالتْ أنيتْ «لا شيء كان صعباً عليها. كانت خدمة الآخرين هي هدفها في الحياة، وما يبحثُ الرهبة في النفس رؤية المدى البعيد الذي كان يمكن أنْ تصل إليه في سعيها إلى مُساعدة الآخرين في تحقيق أحلامهم. كان يصلها إلى المؤسّسة من جميع أنحاء العالم فيض من رسائل الامتنان والبطاقات البريديّة. وأحد تلك الأمثلة، عالِمٌ كرواتيّ شاب كان يعمل على برنامج «خليّة وقود بطاقة صِفر» - ولا تسألوني عن معنى هذا، ولكن كان من المُفترَض أنْ يُنقِذ الكوكب. وكان عالم آثار من البيرو قد كشفَ عن دليل مُذهل على أنَّ شعب الإنكا كانوا في الأصل من مصر وبقوا على تواصُل مع الحضارة الأمّ عبر ما سمّاه «لغة الشمس». وسيدة عجوز كانت تعمل طوال أربعين عاماً على وضع معجم كونيّ يضم رموزاً مُقدّسة وتحتاج إلى قليل من المُساعدة الإضافيّة لكي تُكمل العمل على ذلك المُعجم القيِّم بصورة لا تُصدَّق. وكلهم تلقّوا مُساعدات من إلينور. ولكن لا ينبغي أنْ تعتقدوا أنَّ إلينور كانت مهتمّة فقط بأرقى مجالات العِلم والروحانيات، بل كانت أيضاً شخصاً عمليّاً بصورة مُبهِرة يعرف قيمة مجال المطبخ بالنسبة إلى عائلة تنمو، أو قيمة سيارة جديدة بالنسبة إلى صديقٍ يعيش في أعماق البلد»

قالت نانسي في نفسها بتذمُّر، وماذا عن أختٍ تخْلو جيوبها من المال؟ أولاً أخذوا منها بطاقات ائتمانها، ومن ثم أخذوا دفتر شيكاتها، والآن بات عليها أنْ تذهب شخصيّاً لمقابلة مورغان غوارانتي في الجادة الخامسة لكي تتلقّى مصروف جيبها الشهريّ. قالوا إنَّ تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع تراكم ديونها، لكنَّ أفضل وسيلة لمنع تراكم ديونها كانت إعطاءها المزيد من المال.

تابعتْ أنيتْ قائلة «كان هناك رجلٌ محترمٌ يسوعيٌّ رائع. في الواقع، كان يسوعيّاً سابقاً، على الرغم من أننا ما زلنا نُطلِق عليه اسم الأب تيم. وقد توصّل إلى الاعتقاد بأنَّ المذهب الكاثوليكيّ شديد ضيق الأفق وبأنَّ علينا أنْ نعتنق كل التعاليم الدينيّة في العالم. وأخيراً أصبح أول إنكليزيّ يُقبَل كـ أياهواسيرا -شامان برازيليّ- وهي واحدة من أشدّ القبائل أصالة في أمازونيا. على أي حال، كتبَ الأب تيم لإلينور، التي كانت تعرفه خلال أيام إقامته في شارع فارم سابقاً، يقول إنَّ قريته تحتاج إلى قارب بمحرّك من أجل الانتقال إلى المحطة التجاريّة المحليّة، وطبعاً استجابت لطلبه بكرمها المتهوّر المعتاد، وأرسلت شيكاً في المقابل. ولن أنسى أبداً التعبير الذي ارتسم على وجهها عندما تلقّت ردّ الأب تيم. كان داخل المُغلَّف ثلاث ريش من طائر الطوقان ملونة وبرّاقة ورسالة قصيرة ملوّنة بالقدر نفسه يشرح فيها أنّه تعبيراً عن امتنانه بهِبتها لشعب أيوريو، تمّت إقامة شعائر في قرية الأب تيم النائية وأصبحتْ تُعرَف للقبيلة بأنها «مُحارب قوس قزح». وقال إنه أحجمَ عن ذِكر أنها امرأة، لأنَّ لدى شعب أيوريو وِجهة نظر «غير مُستنيرة نوعاً ما عن الجنس الناعم، وقد تبنّتْ الكنيسة الأم القديمة موقفاً مُشابهاً لها»، وإنّه سوف «يلقى مصير القديس سيباستيان» إذا «اعترفَ بخدعته». قال إنه قرر أنْ يعترف بها وهو على فراش موته، لكي يُساعد القبيلة على التقدُّم نحو حقبة جديدة من التناغُم بين مبادئ الذكر والأنثى، الضرورية جداً من أجل خلاص العالم»، ثم تنهدتْ أنيتْ، وقد لاحظتْ أنها انحرفَتْ عن مسار نصّها المكتوب، لكنّها اعتبرتْ ذلك دلالة على الإلهام،«على أي حال، كان مفعول ذلك على إلينور كمفعول السِحر بالمعنى الحرفيّ للكلمة. وظلتْ تضع ريش طائر الطوقان حول عنقها إلى أنْ بلي بصورة مُحزنة، وبقيتْ طوال بضعة أسابيع تُخبر القاصي والداني بأنها مُحارب قوس قُزح من قبيلة أيوريو. كانت بالنسبة إلى العالم أشبه بفتاة صغيرة ترتاد مدرسة جديدة وذات يوم تعود إلى المنزل وقد تحوّلتْ لأنها تعرَّفَتْ على صديق جديد»

على الرغم من حالة العطالة التي كان يعيشها جوني وأنّه أصبح متعوّداً على إغلاق أُذُنه كمُحلِّل نفسي عندما لا يعمل، إلّا أنّه لم يسعه إلّا أنْ يُدهَش

من تماسُك مقاومة إلينور الشديد للنمو. كان مُذنباً كأي شخص من الذين يقول عنهم صاحبنا إليوت الذي تُقتَطَف أقواله كثيراً، «إنَّ النوع البشريّ لا يستطيع أنْ يتحمّل الكثير من الواقع»، لكنّه شعر بأنَّ المُراوغة في مثل هذه الحالة كانت متواصلة. تذكَّر لقاءه الأول بإلينور عندما دعاه باتريك إلى سان - نازير لقضاء فترة العطلة المدرسيّة. حتى حينئذٍ كانت لديها عادة الانزلاق إلى حديث الأطفال، الذي يُسبِّب الكثير من الارتباك للمراهقين الذين ينأون بأنفسهم عن عهد الطفولة. وكانت المأساة تكمن في أنّه كان يمكن لخمسة أعوام أو ربما عشرة من التحليل النفسي خمسة أيام في الأسبوع أنْ تُخفِّف من وطأة المشكلة كثيراً.

قالتْ أنيتْ، مُدركة أنه سوف يحين الوقت قريباً لكي تُنهي تعليقاتها، «إلى هذه الدرجة بلغت طيبة إلينور في تعاملها مع الآخرين». وضعتْ جانباً ورقتين لم تتمكن من قراءتهما في أثناء ارتجالها الأمازونيّ[1]، ونظرتْ إلى الورقة الأخيرة لكي تتذكَّر ما كانت قد كتبتْ. وفوجئت بأنها بدتْ لها الآن مكتوبة بأسلوب رسميّ بعد أنْ لجأتْ إلى أسلوب أكثر توضيحاً، ولكن كان هناك شيء أو شيئان يكمنان في الفِقرة الأخيرة عليها أنْ تتذكّر أنْ تقولهما.

قال باتريك في نفسه، أرجوكِ انتهي من الأمر. كان تشارلز برونسون[2] يُعاني من نوبة ذعر وسط نفقٍ ينهار، والكلاب تنبح من خلف الأسلاك الشائكة، والأضواء الكاشفة تتحرّك فوق أرضٍ مُشقّقة، ولكن قريباً سوف يركض داخل الغابة، مرتدياً ملابس موظف كاتب في مصرف ألمانيّ متوجّهاً إلى محطة القطار مع بعض الأوراق الثبوتيّة زُيِّفَتْ على حِساب قوة بصر دونالد بليسانس. قريباً سوف ينتهي كل شيء، وكل ما عليه أنْ يفعل هو أنْ يواظب على التحديق إلى رُكبتيه لبضع دقائق أكثر.

1- أمازونيّ: أي أسلوب نسائيّ قوي، أو مُسترجل - المترجم.

2- تشارلز برونسون (1921-2003): ممثل أميركي، وهنا يصِف الكاتب عمليّة هروبه في مشهد من فيلمه «الهروب الكبير» -المترجم

قالتْ أنيتْ: «أودّ أنْ أقرأ عليكم فِقرة قصيرة من ريغ فيدا[1]. قفزَتْ فجأة عليّ بالمعنى الحرفي للكلمة عن الرفّ عندما كنتُ في المكتبة في المؤسّسة أبحثُ عن كتاب يستنهض بعضاً من أعماق إلينور الروحيّة المُذهلة». واستأنفَتْ إلقاءها بصوتٍ مُنغَّم:

إنها تقتفي خُطى أولئك الذين
مرّوا من قبلها، وهي الأولى في
سلسلة لا تنتهي من أوقات الفجر
الآتية – أوشا تتَّسِع جالبة ذاك
الذي يعيش، موقِظة شخصاً كان
ميتاً... ما هو هدفها عندما
تتناغم مع أوقات فجر أشرقَتْ
من قبل وتلك التي يجب أنْ تشرق؟
إنها تشتاق إلى أوقات صباح قديمة وإلى
إنجاز ضوئها؛ موجّهة نورها إلى الأمام
تخرج للانضمام إلى الباقين
الآتين.

«لقد كانت إلينور مؤمنة إيماناً راسخاً في التناسخ، وهي لم تكتفِ باعتبار المعاناة ناراً مُهذِّبة سوف تحرق العوائق لتحقِّق ارتقاءً روحياً أسمى، بل شرَّفها أنْ تحظى بشيءٍ نادر جداً: برؤيا عن كيف وأين ستتجسَّد. وفي المؤسّسة لدينا ما نُسمّيه «صندوق الأه–ها» لكي نضع فيه لحظات التجلّي القصيرة ولحظات البصيرة عندما نفكر في «آه–ها». كلنا نمرّ بها، أليس كذلك؟ لكنَّ المشكلة هي أنها تتسرب منا في سياق يوم من العمل الطويل وهكذا اخترع شيموس، «رئيس تيسير الأعمال في المؤسّسة» تعبير «آه–

1– ريغ فيدا: مجموعة من التراتيل الدينيّة الهندوسيّة المكتوبة بالسنسكريتيّة – المترجم.

هاه» لكي نتمكن من تدوين أفكارنا، ووضعها في الصندوق ونتشارك بها في الأمسية»

شعرتْ أنيتْ بإغواء الحكاية والاستطراد، قاومته بضع لحظات، ومن ثم استسلمتْ. «كان لدينا شخص يتدرّب ليكون شاماناً يتصِف بما يمكن تسميته شخصيّة «مُتحدّية»، وكان متعوّداً على قضاء عدّة لحظات من الـ «آه-ها» في اليوم. اتَّضح أنَّ العديد منها مُقنَّع، أو ليس مُقنّعاً كثيراً، بل هجوماً على أشخاص آخرين في المؤسّسة. حسن، ذات أمسية بعد أنْ اطّلعنا على الأقلّ على عشر من لحظات التجلي لديه، قال شيموس، بأسلوبه الفكه الفريد، أتعلم، يا دنيس، أنَّ إحدى لحظات الأه-ها عند شخص هي لحظة هو-هو بالنسبة إلى شخص آخر؟ وأتذكَّر أنَّ إلينور كادت تقع من فرط الضحك. أكاد أراها حتى الآن وقد غطَّت فمها لأنها رأتْ أنّه من غير اللائق أنْ تُبالغ في الضحك، لكنها لم تقوَ على كبح نفسها. ولا أعتقد أنَّ أياً من صور إلينور سوف تكتمل من دون تلك القهقهة الخبيثة وتلك الابتسامة الواثقة، السريعة».

قالتْ أنيتْ، مُستعيدة حسّها بالاتّجاه نحو الهجوم الأخير، «على أي حال، وكما كنتُ أقول: ذات يوم، بعد إصابتها بالسكتة الدماغيّة الأولى ولكن قبل أنْ تنتقل إلى مأوى العجزة الفرنسيّ، عثرنا على هذه الرسالة القصيرة المُذهلة من إلينور داخل صندوق الأه-ها. قالت في الرسالة إنها خرجت سعياً للبحث عن رؤيا ورأتْ أنّها سوف تعود إلى سان-نازير في حياتها التالية. سوف تعود كمريدة شابة لكاهن الشامان وأننا أنا وشيموس سوف نكون حينئذٍ قد طعنّا في السن، وسوف نُعيد المؤسّسة إليها كما كانت قد سلَّمتها إلينا فيما سمّتها «استمراريّة المتواصِلة». وأودّ أنْ أختم بالطلب منكم أنْ تحفظوا هذه العبارة «الاستمراريّة المتواصلة» غيباً، بينما نحن جالسون هنا بضع لحظات في صمت ونصلّي لإلينور كي تعود سريعاً»

أحنتْ أنيتْ رأسها، وهي واقفة خلف المِقرأ، وزفرتْ برصانة وأغمضَتْ عينيها.

-8-

رأتْ ميري أنَّ «العودة السريعة» سوف تستغرق وقتاً طويلاً. وألقَتْ نظرة عصبيّة إلى التابوت، وكأنَّ إلينور قد تفتح الغطاء وتقفز خارجة منه في أي لحظة، وتفتح ذراعيها واسعاً لكي تعانق العالم، بالأداء الاستعراضيّ الأخرق الذي تبدو فيه الصورة الفوتوغرافيّة التي تظهر على كتيِّب نظام المراسم. وعندما شعرتْ بارتباك باتريك المتوهج، ندمتْ لأنها طلبتْ من أنيت أنْ تُلقي الخطاب، ولكن كان صعباً التفكير في أي شخص آخر يمكن أنْ يحلّ محلّها. لقد دمّرتْ حياةُ إلينور الاجتماعيّة القائمة على أساس حرق الأرض[1] الاستمراريّةَ والصداقةَ العميقة، خاصة بعد سنوات الخبل الموحِشة والعلاقة المشروخة مع شيموس.

كانت ميري قد طلبَتْ من جوني أنْ يقرأ قصيدة وقامت بمحاولة يائسة لدفع إراسموس إلى قراءة فِقرة. وكانت نانسي، البديل الوحيد، تعاني هستيريا رثاء الذات وغير واضحة بشأن موعد وصولها من نيويورك. وقد حصل توازن بين الاختيار المتوتِّر للقرّاء (أو أصبح أسوأ) والفِقرات المألوفة التي قامت بانتقائها. بعد ذلك جاء دور إلقاء فِقرتين عظيمتين من الكتاب المقدَّس، وهنا شعرتْ بأنَّ انتقاءها لهما كان تصرّفاً مملاً بصورة لا تُطاق. ومن ناحية أخرى، لا أحد كان يعرف أيّ شيء عن الموت، خِلاف أنّه محتوم، وبما أنَّ كل شخص كان يشعر بالرعب من تلك الحتميّة المُبهَمة، فربما كانت روعة الكتاب المقدّس المُبهمة، أو حتى المفاهيم الآسيويّة الغامضة التي من

1- المقصود هنا السياسة الزراعية القائمة على القضاء على المزروعات طويلة الأمد من أجل مشروع زراعي ذي فائدة قصيرة الأمد - المترجم.

الواضح أنَّ أنيتْ تفضّلها، أفضل من عرضٍ جديد عنيد. ثم، إنَّ إلينور كانت مسيحيّة، بالإضافة إلى أشياء أخرى عديدة.

حالما جلستْ أنيت حان دور ميري لتحلّ محلّها في صدر المكان. والحقيقة هي أنها كانت تشعر بأنَّ بها مسّاً من الجنون. نهضَتْ على مضضٍ مُتستّرٍ ببراعة على هيئة شعور باستعجال لا يُحتمَل، ومرَّت من أمام باتريك بصعوبة من دون أنْ تنظر إليه مباشرة وشقّتْ طريقها إلى المِقرأ. وعندما أخبرتْ الناس بمدى شعورها بالتوتّر كلما خرجتْ إلى أي ظهور علنيّ، قالوا أشياء مزعجة بصورة لا تُصدَّق على غرار، «لا تنسي أنْ تتنفّسي». الآن باتت تعرف سبب ذلك. أولاً شعرتْ بأنها توشك أنْ تفقد وعيها ومن ثم، حالما بدأتْ تقرأ الفِقرة التي كانت قد تدرَّبتْ عليها مئة مرّة، شعرتْ بأنها تختنق أيضاً.

على الرغم من أنني أتكلَّم لغات البشر والملائكة،
ولم أقع في الحبّ، فإنني أصبحُ آلة نفخ نحاسيّة،
أو آلة صنج رنّانة. وعلى الرغم من أنني
أتمتّع بموهبة التنبّؤ، وأفهم كل الألغاز
وكل المعارف؛ وعلى الرغم من أنَّ إيماني كامل،
وفي استطاعتي أنْ أحرِّك الجبال من أماكنها،
ولم أقع في الحب، فأنا لا شيء. وعلى الرغم
من أنني وهبتُ كل ما لديّ لكي أُطعِم الفقراء،
وعلى الرغم من أنني وهبتُ جسدي لكي يُحرَق
ولم أقع في الحب، فأنا لم أربح شيئاً.

شعرتْ ميري بحُرقة في حنجرتها، لكنّها حاولتْ أنْ تتابع من دون أنْ تسعل.

لقد تألّم الحبّ طويلاً، وهو رقيق؛ الحب لا يعرف الحسد.
الحب لا يتباهى بنفسه، وليس مغروراً،
ولا يتصرَّف بوقاحة، وليس أنانيّاً، ولا

يُستَفَزّ بسهولة، ولا يضمر شرّاً، ولا يبتهج
للظلم، بل يبتهج بكل الأشياء، ويأمل في
كل شيء، ويتحمّل كل شيء. الحب لا يفشل أبداً.

تنحنحتْ ميري وأدارت رأسها جانباً لكي تسعل. الآن لقد أفسدتْ كل شيء. لم يسعها إلّا أنْ تشعر بأنَّ هناك صِلة نفسيّة بين هذا الجزء من الفِقرة ونوبة سعالها. وعندما أعادتْ قراءتها من جديد في صباح هذا اليوم، فوجئتْ بأنها ذروة في التواضُع الزائف: الحب يتباهى بأنّه لا يتباهى، الحب مسرور بنفسه بصورة لا تُصدَّق لأنه ليس مغروراً. حتى ذلك الحين، كان قد بدا أنّه تعبير عن أرقى المُثُل العليا، أما الآن فأصبحت من فرط الإرهاق والتوتر بحيث لم تتمكّن من التخلُّص من إحساسها بأنّه أحد أشدّ الأشياء الطنّانة التي كُتِبَتْ قاطبة. إلى أين وصلتْ؟ نظرتْ إلى الصفحة بما يُشبه الرعب العائم؟ ثم عثرتْ على الموقع الذي توقفتْ عنده، واستأنفتْ القراءة، شاعرة بأنَّ صوتها لا يخصّها:

ولكن إذا كانت هناك نبوءات، فسوف تفشَل؛
وإذا كانت هناك لغات، فسوف تموت؛
وإذا كانت هناك معرفة، فسوف تتلاشى.
فنحن نعلم جزئيّاً، ونتنبّأ جزئياً.
ولكن عندما يحلّ الكمال، حينئذٍ كل ما هو جزئيّ
سوف يموت.
وأنا طفل، تكلّمتُ كطفل،
وفهمت كطفل: ولكن عندما أصبحت
رجلاً، نحّيتُ جانباً الأشياء الصبيانيّة.
فالآن أصبحنا نرى من خلال الزجاج، بإبهام؛
ولكن وجهاً لوجه: الآن بتّ أعرف جزئيّاً؛
ولكنّني أعرفُ بقدر ما أنا معروف.

الآن أواجه الإيمان، والأمل، والحب، هذه الأشياء الثلاثة؛ لكنَّ أعظمها هو الحب.

لم يُصغِ إراسموس إلى قراءة ميري من رسالة بولص الرسول إلى أهل كورنيثيوس. فمنذ أنْ باشرتْ أنيت إلقاء خطابها غرقَ في التأمّل في مذهب التقمُّص والتساؤل إنْ كان يستحق أنْ يُوصَف بـ «الهراء الصِرف». هذا التعبير ذكّره بفيكتور أيزن، صديق عائلة ميلْروز الفيلسوف من حقبتَي الستينيات والسبعينيات. وفي النقاشات الفلسفيّة، وبعد سلسلة من البراهين القويّة، أصبحت عبارة «الهواء الصِرف» تتدفّق منه كتسرّب الملح من برميل للتخزين فَقَدَ غطاءه. وعلى الرغم من أنّه أصبح الآن شخصيّة باهتة الذِكر من دون أنْ يُخلِّف أي إنجاز يحمل اسمه، إلّا أنَّ أيزن كان خلال فترة شباب إراسموس شخصيّة مُثقفة عامة مُفوّهة ومُعجبة بنفسها. ووسط توقه إلى الإقصاء، الذي ربما أدّى في النهاية إلى إقصاء نفسه، اكتشفَ حتماً أنَّ التقمُّص «هراءٌ صِرف»: لقد فشِل سرد التقمُّص المتباين، بخلوّه من الدليل، والذاكرة، في إرضاء معيار بارفيت[1] للهويّة الشخصيّة. مَنْ الذي تمَّ تقمّصه؟ هذا هو السؤال المُدمِّر، إلّا إذا تصادفَ أنْ كان الشخص المسؤول بوذياً. بالنسبة إليه الجواب هو «لا أحد». لا أحد تمَّ تقمّصه لأنَّ لا أحد مُجسَّداً أصلاً. ثمة شيء أكثر انفلاتاً، كسيلٍ من الأفكار، اتّخذَ شكلاً إنسانيّاً. ليستْ هناك حاجة إلى روح أو إلى هويّة شخصيّة لتشكيل حياة إنسانيّة، بل فقط إلى حزمة من العادات متشبّثة بالمفهوم الفارغ عن الوجود المُستقلّ، كحشد من المُسافرين المتشبّثين الذين يُغرقون قارب النجاة الذي تخيّلوا أنّه سيُنقذهم. في الخلفيّة هناك الفرصة الحاضرة دائماً للانزلاق إلى المحيط المتلألئ للطبيعة الحقيقيّة التي ليست شخصيّة أيضاً. وانطلاقاً من وِجهة النظر هذه، فإنَّ برافيت وأيزن هما الهراء بالمعنى الحرفيّ. ومع ذلك، لم

1- بارفيت: الفيلسوف ديريك أنتوني بارفيت (1942-2017): فيلسوف بريطاني، متخصِّص في الهويّة الشخصيّة، والعقلانيّة والأخلاق. وما يأتي المؤلِّف هنا على ذكره هنا هو تلخيص لفكرة هذا الفيلسوف عن الهوية الشخصيّة - المترجم.

تكن لدى إراسموس أية مشكلة في رفض التقمُّص على أساس أنّه لا يوجد سبب وجيه لتصديق أنّه صحيح - ما دام أنَّ الناحية الجسديّة الضمنية لذلك الرفض مرفوضة أيضاً! فالعلاقة المتبادلة بين نشاط المخ والوعي يمكن أنْ تكون دليلاً، قبل كل شيء، على أنَّ المخّ هو مُستقبِل الوعي، كالترانزستور، أو المُرسِل المُستقبِل، وليس مولِّد عَرضٍ خاص داخل الجمجمة. الـ...

قاطعَ أفكارَ إراسموس إحساسٌ بأنَّ يداً استقرَّتْ على كتفه وهزّته برفق. أشار جاره، بعد أنْ ضمِن جذب انتباهه، إلى ميري، الواقفة في الممر الفاصل بين المقاعد تنظر إليه نظرة ذات مغزى. أومأتْ إليه برأسها إيماءة بدتْ له مُقتَضَبة نوعاً ما، مُذكِّرة إيّاه بأنَّ دوره قد حان ليقرأ. نهضَ مع ابتسامة اعتذار وشقَّ طريقه نحو صدر المكان، وهو يسحق أطراف أصابع قَدَميّ المرأة التي كانت قد هزّتْ كتفه. كانت الفِقرة التي سيقرأها مأخوذة من سِفر رؤيا يوحنّا - أو التشويش كما كان يُفضِّل أنْ يُسمّيه. عندما كان يراجع قراءته وهو على متن القطار القادم من كمبريدج، شعر برغبة غريبة في صُنع آلة زمن لكي يأخذ معه إلى كانط مؤلف«*نقد العقل المُجرَّد*» نسخةً من كتابه هذا.

وضع إراسموس نظارة القراءة، وفتح الصفحة على منحدر المِقرأ، وحاول أنْ يُسيطر على توقه إلى إبراز الافتراضات غير المدروسة التي تفسِّر الفِقرة الشهيرة التي أوشك على قراءتها. قد لا يتمكّن من شحن صوته بالإحساس المطلوب بالرهبة وبالعلوّ، لكنه يستطيع على الأقلّ أنْ يُلغي أي دلالة على الشك والسخط. ومع تنهيدة داخليّة لرجلٍ لا يريد أنْ يُلام على ما سيلي، باشر إراسموس أداء مهمّته:

ثم رأيتُ سماءً جديدة وأرضاً جديدة،
لأنَّ السماء الأولى والأرض الأولى
تلاشتا، ولم يعُد هناك بحر.

كانت نانسي لا تزال غاضبة من الأبله الأخرق الذي داسَ على أصابع قدميها والآن، فوق ذلك كلّه، يعتزم أنْ يزيل البحر. وإذا زال البحر يعني أنّه لن يعود هناك شاطئ بحر، ولا كيب دانتيب (على الرغم من أنّه قد دُمِّر)،

ولا بورتوفينو (التي لا تُطاق في الصيف)، ولا بالم بيتش (الذي لم يعُد كما كان).

ورأيتُ المدينة المقدّسة، أورشليم الجديدة،

قالتْ نانسي في نفسها، أوه، كلا، لا نريد أورشليم أخرى. ألا تكفينا واحدة؟

هابطة من السماء من عند الله،
مُستعدّة كعروس مُزَيَّنة من أجل
زوجها؛ وسمعتُ صوتاً هادراً من
العرش يقول، انظروا، إنَّ الله يسكن
مع البشر. سوف يسكن معهم وسوف
يكونون شعبه، والله نفسه سوف يكون
معهم؛ سوف يمسح الدموع عن
عيونهم، ولن يكون هناك موت،
ولن يكون هناك حزن ولا بكاء
ولا ألم بعد الآن، لأنَّ الأشياء
الأولى زالتْ واندثرتْ.

كل تلك التلاوات من الكتاب المقدَّس كانت تُثير أعصاب نانسي. لم ترغب في التفكير في الموت - إنه شيء كئيب. في جنازة لائقة هناك جوقات مُذهلة لا ترتّل في المعتاد في مناسبات خاصّة، وأصوات صادحة من المستحيل عمليّاً الحصول عليها، وتلاوات يؤديها ممثلون مشهورون أو شخصيات عامة بارزة. وتجعل المناسبة كلّها ممتعة والمقصود منها إبعاد تفكير المرء في الموت، مع أنَّ التلاوات تكون هي نفسها، لأنَّ المرء يُكافح ليتذكّر متى كان شخصٌ يبدو عليه التعب مُستشارَ خزانة الدولة، أو يتذكّر اسم آخر فيلم شاهده. تلك هي معجزة البريق. كلما فكّرتْ نانسي

في الأمر، ازداد غضبُها من جنازة إلينور الكئيبة. على سبيل المِثال، لماذا قرَّرتْ أنْ تُحرَق جثّتها؟ إنَّ النار مُخيفة. والمرء يؤمِّن على نفسه ضد النار. لقد كان المصريون على صواب بشأن الأهرامات. ماذا يمكن أنْ يكون أكثر بثّاً للارتياح من شيء ضخم ودائم يضم داخله أغراض المرء كلها (وأغراض أناس آخرين أيضاً! الكثير والكثير من الأغراض!) بناه آلاف من العبيد الذين أخذوا سرّ بنائه معهم إلى القبور المجهولة. واليوم على المرء أنْ يدفع مبالغ الضمان الاجتماعي المُحرّم لمجموعات من عمال البناء النقابيين. هذه هي الحياة الحديثة بالنسبة إليه. ومع ذلك فإنَّ صرحاً ضخماً أفضل بما لا يُقاس من جرَّة صغيرة تحتوي حفنة من التراب.

وقال الجالس على العرش،
«انظروا، لقد جعلت الأشياء كلّها جديدة» وقال أيضاً،
«دوّنوا هذا، لأنَّ هذه الكلمات موثوقة
وصحيحة». وقال لي،
«تَمَّ الأمر. أنا الأول والأخير،
البداية والنهاية. سوف أعطي الظمآن
ماءً بلا مُقابل من نبع ماء الحياة.
والغالب سوف يرث هذا الإرث، وسوف
أكون ربّه وسوف يكون ابني»

لم يسع جوني إلّا أنْ يتذكَّر بعد كل تلك التلاوات مقالةً كان قد كتبها في زمن شبابه العنيد، عنوانها ***«الوجود الكلّي ونكران الذات: غواية الإيمان الدينيّ»***. بيَّن فيها النقطة البسيطة القائلة إنَّ الدين يقلِب معنى كل ما نخاف في الوجود الإنسانيّ: كلنا سوف نموت (كلنا سوف نعيش إلى الأبد)؛ الحياة ظالمة ظلماً فادحاً (سوف تتحقَّق العدالة التامّة والمُطلَقة)؛ شيء فظيع أنْ يكون المرء مسحوقاً وعاجزاً (سوف يرث الحليمون الأرض): إلى آخره. والانقلاب يجب أنْ يكون كاملاً؛ لا فائدة من قول إنَّ الحياة كانت جائرة جداً لكنّها ليست جائرة كما بدتْ أحياناً. قد يكون شحوب مثوى الأموات

هو قدره: بعد القيام بقفزة الإيمان بأنَّ الوعي لم ينته بالموت، يبدو عالم من الأشباح القلقة الشرهة إلى الدم، والعضلات، والقتال والخمر بمثابة جائزة تافهة. قال آخيل إنَّ الأفضل أنْ يكون المرء عبداً على الأرض على أنْ يكون ملِكاً في العالم السُفليّ. بهذا النوع من المُصادقة تتّجه الحياة الآخرة إلى الفناء. وحده شيء مُستبعد تماماً يمكنه أنْ يضمن الولاء الشامل. وفي مقالته تلك ساوى جوني بين هذا الإنكار العجيب للأوجه المُثيرة للكآبة والخوف من الواقع وعمل اللا وعي عند المريض الفرد. وتابع يُجري المزيد من المقارنات المُفصّلة بين أشكال متنوعة من المرض العقليّ وما تخيَّلَ أنّه مُحادثتهم الدينيّة المتماثلة، مع ناحية سلبيّة هي أنّه لا يعرف أيّ شيء عن النصف الدينيّ من المُقارنة. ولشعوره بأنّه قد يكون في وسعه أيضاً أنْ يجد حلولاً لمشكلات العالم باستخدام اثني عشر ألف كلمة، ربطَ بين القمع السياسيّ والقمع الشخصيّ، وأبرز كل النقاط المعتادة بشأن الهيمنة الاجتماعيّة. وكان الافتراض الضمنيّ في المقالة هو أنَّ الأصالة هي المشروع الوحيد المهمّ وأنَّ الإيمان الدينيّ يقف بالضرورة عائقاً في طريقها. وهو الآن مُحرَج قليلاً من افتقاره إلى الرهافة وعدم الثقة في نفسه ذات التسعة وعشرين ربيعاً. ولمّا كان لا يزال في مرحلة التدرّب، لم يكن لديه مريض، ولذلك كان أشدّ ثقة فيما يخصّ عمل الروح الإنسانيّة مما هو اليوم.

كانت ميري قد طلبَتْ منه أنْ يُلقي قصيدة طويلة لهنري فون لم نسمع عنها من قبل. قالتْ له إنها تتناسب تماماً مع رأي إلينور في أنَّ الحياة هي منفى بعيد عن الله، وأنَّ الموت هو بمثابة العودة إلى المنزل. وبدتْ قصائدُ أخرى أكثرُ إمتاعاً بالمقارنة تقليديّةً أو لا تتلاءم مع الحدث، وكانت ميري قد قرّرت أنْ تبقى وفيّة إلى حنين إلينور الميتافيزيقيّ. وفيما يخص جوني، كان إضفاءُ وضعٍ دينيّ على تقلّبات الشوق مجردَ شكلٍ من المقاومة. والمكان الذي أتينا منه والمكان الذي سنذهب إليه (وما إذا كانت تلك الأفكار تعني أي شيء) كان هو الشيء المهمّ الكامن في المنتصف. وكما قال فيتغنشتاين، «الموت ليس حَدَثاً في الحياة: فنحنُ لا نعيش لكي نختبر الموت»

ابتسم جوني لإراسموس ابتسامة مُبهمة عندما تقاطع طريقاهما في ممرّ ما بين المقاعد. ركَّزَ نسخته من كتاب «*الشعراء الميتافيزيقيون*» على حافة

المِقرأ وفتحها على الصفحة التي كان قد علَّمها بإيصال سيارة أجرة. كان صوته وهو يقرأ قويّاً وواثقاً:

تلك الأيام المُبكِّرة كانت سعيدة، عندما
كنتُ أشرقُ في طفولتي الملائكيّة!
قبل أنْ أفهم أنَّ هذا المكان
مُخصَّص لسلالتي الثانية،
أو أنْ أُعلِّم روحي ألّا تتخيَّل
إلّا فكرة سماويّة بيضاء؛
عندما لم أكنْ قد ابتعدتُ أكثر
من ميل أو اثنين عن حبّي الأول،
ونظرتُ خلفي إلى المسافة القصيرة
فرأيتُ قَبساً من وجهه الوضّاء؛
عندما كان نظري يستقرّ مدّة ساعة
على غيمة مُذهّبة أو على زهرة،
وخلال لحظات المجد الأشدّ ضعفاً
لمحتُ بعض ظِلال الأبديّة؛
قبل أنْ أُعلّم لساني أنْ يجرح
ضميري بصوتٍ آثم،
أو أنْ أجعل الفن الأسود يوزّع
إثماً خاصّاً على كل معنى،
ولكن شعرتُ على رداء اللحم كله
فروعاً جديدة برّاقة للأبديّة تنبت.

كان نيكولاس قد بدأ يشعر بذلك الإحساس الخاصّ بالخوف من الأماكن المُغلَقة الذي ربطه بكونه مُحتَجَزاً داخل مُصلّى في مدرسة. وشابَتْ

إلقاءه الترتيليّ بصورة ماكرة موجة بعد موجة من العاطفة المسيحيّة من دون حتى عزاء الترجمة اللاتينيّة التي فات أوانها. وأدخلَ السرورَ إلى نفسه بنسخته الخاصة من القصة المسيحيّة: «لقد أرسل الله ابنه الوحيد المولود إلى الأرض لكي يُنقِذ الفقراء، وأخفقَتْ المهمة إخفاقاً تاماً، كمشاريع اشتراكيّة غير ناضجة؛ لكنَّ الكائن الأسمى عاد إلى صوابه وأرسل نيكولاس لكي يُنقِذ الأثرياء، وتصادفَ أنّه حقَّقَ *success fou نجاحاً ساحقاً*». ولا شك في أنَّ الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، بكل تاريخها المُستهجَن من التعذيب، ومحاكم التفتيش، والحروب الدينيّة، والعقيدة الساحقة، بالإضافة إلى تاريخها الذي يمكن غفرانه في المُجمَل في الممارسات الجنسيّة الشاذّة والانغماس في المتع الدنيويّة، سوف تَعتبِر هذا التطوّر هرطقة؛ لكنَّ الهرطقة ما هي إلّا مُقدّمة لنظام دينيّ بروتستانتيّ جديد. وسوف تجتاح «طريقةُ نيكولاس» جميع أرجاء ما سمّاه مُستشاره الأميركي الرهيب للاستثمار «المُجتمع ذو الأرباح العالية الصافية». وكالمعتاد دائماً، يبرز السؤال الكبير، عمّا يجب ارتداؤه. فبالنسبة إلى كبير بلوتوقراطيّ[1] كنيسة تخليص الأثرياء حديثي النِعمة على المرء أنْ يكون غاية في الأناقة. وعادت مُخيّلة نيكولاس به إلى زي الخادم الذي كان قد ارتداه وهو صبيّ في العاشرة في حفلِ زفافٍ مَلكيّ فخم جداً – البنطلون الحرير القصير، والأزرار الفضيّة، والحذاء ذو الإبزيم... ومنذ ذلك اليوم لم يشعر أبداً بمثل تلك الثقة بأهمّيته.

جدَّدَ جوني جهوده في تجويد المقطع الختامي من القصيدة:

أوه كم أشتاق إلى العودة إلى الماضي،
لأطأ من جديد ذلك الدرب القديم!
لكي أصل مرة أخرى إلى ذلك السهل
حيث تركتُ للمرة الأولى قطاري الرائع؛
من حيث تشاهد الروح المُضيئة
مدينة أشجار النخيل الغامضة تلك!

1- البلوتوقراطيّ: شخص متنفِّذ بفضل ثرائه الفاحش – المترجم.

ولكن آه! روحي سكرى بالمكوث الطويل
وتترنح وهي تمشي؛ -
بعض الرجال يحبّون التقدّم إلى الأمام
أما أنا فأحب العودة إلى الماضي،
وعندما يسقط ذلك التراب في الجرَّة الصغيرة
أعود إلى حيث كنت.

قال نيكولاس، إنها محض هراء، قاصداً بهذا فكرة أنَّ المرء يعود إلى المكان الذي أتى منه. كيف يمكن أنْ يبقى المكان على حاله بعد مُساهمة المرء الهائلة البرّاقة، وكيف يمكن أنْ يبقى موقفه منه هو نفسه بعد مروره خلال كل ذلك السيل من الدعوات والضحك الساخر؟ نظر في كتيِّب المراسم. بدا أنَّ تلك القصيدة التي ألّفها فون كانت آخر التلاوات. في أسفل الصفحة كانت هناك ملاحظة تدعو فيها الجميع إلى الانضمام إلى نادي أونسلو لتناول مشروب بعد انتهاء المراسم. سوف يُحب أنْ يُغادر المكان، ولكن في لحظةٍ من الكرم المتهوِّر كان قد وعدَ نانسي بأنْ يصحبها معه. وكان لديه أيضاً موعد عند الساعة الرابعة لعيادة صديقٍ يحتضر في تشيلسي وفي مستشفى ويستمنستر ولذلك كان المكان قريباً بصورة مُريحة في الواقع. شكراً لله لأنه حجز سيارة لمدة يوم؛ في مسافات كتلك (حوالي ستمائة ياردة) على المرء دائماً أنْ يتحمّل تقلبات أمزجة سائقي سيارات الأجرة الذين ينطلقون حول فولام رود وهم يحلمون بأجرة انتقال إلى غاتويك أو بينزانس. يجب أنْ يتمسّك بسيارته؛ وإلّا فإنَّ نانسي سوف تُخصّصها لقضاء حاجياتها. يمكنه بسهولة أنْ يُغادر المستشفى وهو يترنّح، ويُعاني «انعدام التعاطُف» الذي يعلم أنّه يُصيب أحياناً أشدّ الممرضات بطولة، ليكتشف أنَّ سيارته موجودة في ساحة بيركلي ونانسي تحاول أنْ تخدع مُستخدَماً عند صاحب المصرَف مورغان غوارانتي وتدفعه إلى إعطائها بعض المال. وكان نسيبها هنري، الذي وصل في ذلك اليوم فجأة، قد أخبره بأنه عندما كان هو ونانسي طفلين كانت تُعرَف بلقب «المهووسة بالسرقة». كانت أشياء صغيرة

تختفي -خاصة فراشي الشعر، ومجوهرات تافهة، وحصّالات على شكل خنزير- ثم تظهر في عش طائر العقعق في غرفة نوم نانسي. ويشرح الأبوان والمربيات، بحذلقة في أول الأمر ومن ثم بغضب متزايد، أنَّ السرقة حرام، لكنَّ الغواية كانت أقوى من مقاومة نانسي وطُرِدَتْ من عددٍ من المدارس الحكوميّة بتهمة السرقة وبالكذب. ومنذ أنْ تعرَّف نيكولاس عليها، وهي سجينة حالة من اشتهاء ما ليس لها، مع إحساسٍ بأنّه كان في استطاعتها أنْ تُحسن استخدام الممتلكات الثمينة التي كانت تخصّ أصدقاءها والعائلة بصورة أفضل، وبأنها تستحق أكثر بكثير. وقاومَتْ حَسَدَها كل ما يمتلكه أناسٌ لا تعرفهم، ولكن فقط لكي تنأى بنفسها عن خادمتها، التي تملأ المطبخ بالثرثرة السريعة عن حياة نجوم المسلسلات التلفزيونيّة. كان سردها لـ «مآسيهم» المُبتذلة يُخفِّف من الإثارة التي تسبّبها قصص سابقة عن الجوائز غير المُستحقَّة وأساليب الحياة المُضحِكة.

كانت الشخصيات الشهيرة ترضي العامّة من الناس، أما الأهمّ بالنسبة إلى نيكولاس فكان ما سمّاه «العالم الكبير»، أي العدد الصغير جداً من الناس الذين تجعلهم خلفيتهم، ومظهرهم، أو موهبتهم في التسلية يستحقون دعوتهم على العشاء. وكانت نانسي تنتمي إلى العالم الكبير بالولادة ولا يمكن نفيها من ذلك الفردوس بفعل شخصيتها الشنيعة المثاليّة. على المرء أنْ يكون موالياً لشيءٍ ما، وبما أنَّ ذلك يوفّر مدى أرحب للخيانة من أي شيء ما عدا السياسة، فإنَّ نيكولاس كان موالياً للعالم الكبير.

راقبَ نيكولاس باتريك بيقظةِ وحشٍ مفترس، أملاً في رؤية إشارة إلى أنَّ المراسم قد انتهت أخيراً. وفجأة، عادت مكبرات الصوت إلى الحياة باللحن الافتتاحي بالآلات النحاسية لأغنية «*طيري بي إلى القمر*».

طيري بي إلى القمر ودعيني ألهو

بين النجوم؛

دعيني أرى كيف يكون الربيع على

كوكب المُشتري والمرّيخ

قال نيكولاس في نفسه، ها نحن نبدأ من جديد، ننطلق إلى القمر اللعين. لقد دفعه صوت فرانك سيناترا، المنساب بنعومة بثقة سلسة، إلى الشرود، ذكَّره بنوع المرح الذي لم يعرفه في حقبتَي الخمسينيات والستينيات. ولا ريب في أنَّ إلينور تخيّلتْ أنها تستمتع عندما بدأتْ تدير أسطوانة فرانك سيناترا على المُشغِّل، على سرعة 45 دورة في الدقيقة، وغلافها المرميّ، بين كؤوس الجِنْ المُلطّخة بأحمر الشفاه ومنافض السجائر المُترعة، يُبيِّن صورة فوتوغرافيّة لذلك الوجه المُميَّز الماكر يرسم ابتسامة عريضة من أعلى البزّة الزرقاء السماويّة.

تابع تحديقه إلى باتريك وميري آملاً في أنْ يُغادرا. ثم أُصيبَ بالرعب عندما أدركَ أنّ ما يُغادر ليس ابن إلينور بل تابوتها، منزلقاً بحركة جانبيّة على دواليب من فولاذ نحو ستارة مزدوجة من المخمل الأرجوانيّ.

بعبارة أخرى: أمسكي يدي

بعبارة أخرى: قبّليني يا حبيبتي!

تراجع التابوت خلف الستارة المُنسدلة واختفى. أخيراً نهضَتْ ميري وقادتْ الطريق على الممر بين المقاعد، ولحق بها باتريك مباشرة.

املئي قلبي بأغنية، ودعيني أغني

إلى الأبد

أنتِ أقصى ما أصبو إليه، كل ما أبتهل إليه

وأعشق!

بعبارة أخرى: أرجوك أخلصي لي!

بعبارة أخرى: أحبّك.

عندما انفعلَ نيكولاس بصورة غير متوقّعة لمرأى تابوت إلينور يتمّ ابتلاعه بحركة آليّة، انطلقَ على عجل على طول ممر ما بين المقاعد، شاقّاً طريقه بين ميري وباتريك. تقدَّم وهو يعرج، وعصا المشي التي يحملها تمتد بلهفة أمامه، واندفع بقوة خلال ممر الباب إلى برودة ربيع لندن.

-9-

خطا باتريك نحو النور الشاحب، مرتاحاً لانتهاء مراسم جنازة أمّه، لكنه كان يشعر بضغط الحفلة التي ما زالت تنتظره. تقدَّمَ من ميري وجوني اللذين وقفا تحت شجرة كرز بالكاد بدأتْ أغصانها تُزهِر.

«منذ مدَّة لا أشعر بأي ميل إلى التحدُّث مع أحد –»، ثم أضاف بتهذيب، «ما عدا معكما، طبعاً»

قال جوني «ولستَ مُضطراً إلى التحدث معنا أيضاً»

قال باتريك «عظيم»

سألتْ ميري «لِمَ لا تتقدّما معاً أنت وجوني؟»

«حسن، إنْ كان لا بأس في هذا. أتستطيعين...»

اقترحت ميري «تقصد أنْ أُحسِن التعامل مع كل شيء»

«بالضبط»

تبادلا الابتسام، مستمتعَين بسلوكهما المثاليّ.

بينما باتريك يقترب من سيارة جوني، زأرتْ طائرة وصفَّرتْ فوق رؤوسهم. نظر خلفه إلى المبنى الإيطاليّ الذي غادره توّاً. برج الأجراس الذي يُغلِّفُ مدخنة الفرن، الأقواس المنخفضة للدير المبني من الآجر، المنامة التي تبرز من الحديقة، شجرة الصفصاف الباكية والأغصان المكسوّة بالطحالب، كلّها شكّلتْ تحفة فنيّة من الحياد الراقي.

قال باتريك «أعتقد أنني سأطلب أنا أيضاً إحراق جثّتي هنا»

قال جوني «لا داعي إلى الاستعجال»

«كنتُ سأنتظر ريثما أموت»

«فكرة جيّدة»

زعقتْ طائرة ثانية فوقهم، مُحفِّزة الرجلين إلى اللجوء إلى داخل السيارة المانع لاختراق الصوت. ومن خلال الدرابزين، وبجوار نهر التيمس، صمَّم مُهرولون وراكبو دراجات يتمايلون ويهتزون على البقاء أحياء.

قال باتريك «أعتقد أنَّ وفاة أمي هو أفضل ما حدث لي منذ... يعني، منذ وفاة والدي»

قال جوني «لا يمكن أنْ يكون الأمر بهذه السهولة، وإلّا لرأيتَ مجموعات مرحة من اليتامى تطفر فرحاً في الشارع»

ران الصمت على الرجلَين. لم يكن باتريك في مزاجٍ يسمح له بالمُزاح. شعر بحضور حيويّة جديدة يمكن بسهولة إلغاؤها بالعادة، بما فيها عادة الظهور بمظهر الماهر. وكأي شخص آخر، عاشَ في عالمٍ تبرز فيه أنماطُ الانفعال نفسها ويتكرَّر ظهورها مراراً وتكراراً على جدرانٍ غرفة خالية من الهواء، لكنّه شعر، برهة من الوقت فقط، بسُخف الاعتقاد خطأً بأنَّ ذلك المشهد الخفّاق هو الحياة. ما معنى شعورٍ كان قد انتابه قبل أربعين عاماً، ناهيك عن أنّه شعور رفَضَ هو أنْ ينتابه؟ والأزمة لا تكمن في الماضي بل في التشبُّث بالماضي؛ في أنْ يكون حبيسَ قصرٍ متهدِّم يقع في بوليفار صنسيتْ، مُجبَراً على مُشاهدة أفلام في المنزل نفَّذها نرجسيّ جريح. وفي هذه اللحظة بالذات تخيَّلَ نفسه يبتعد على أطراف أصابع قدميه عن غلوريا سوانسون[1]، متجاوزاً الساقي الرهيب[2]، ويخرج إلى هدير الشوارع المُعاصِرة؛ تخيَّل النظام برمّته ينهار، من دون أنْ يعلم ما الذي سيحدث إذا انهار.

في المنطقة المجاورة لبوابات المِحرقة، شاهد باتريك لافتة لمركز

1- الإشارة هنا إلى الممثلة المتميِّزة غلوريا سوانسون وفيلمها الشهير «صنسيت بوليفار» مع الممثل وليم هولدن، ويتحدث عن ممثلة شهيرة غابت عنها الأضواء لكنها بقيتْ تحلم، مع لمسة من الجنون، بأنَّ مجدها ما زال قائماً وبأنها سوف تعود إلى الأضواء من جديد وتستعيد مجدها، لكنها تذهب إلى الجنون المُطبق. بعد أنْ تقتل عشيقها الصحفيّ – المترجم.

2- شخصية في الفيلم المذكور آنفاً. شخصيّة غامضة، وكان الزوج السابق للممثلة المذكورة – المترجم

تاونميد رود لإعادة الاستخدام وإعادة التدوير. ولم يسعه إلّا أنْ يتساءل إنْ كان سيُعاد تدوير إلينور. مسكينة إلينور، لقد كانت في الأصل تتخبَّط من دون أنْ تتنقّل بين الأضواء الباهتة والأضواء المُبهِرة والرموز الهندوسيّة والبوذيّة متعدّدة الألوان للباردو[1]، لأنها تعرّضتْ لتحدّي حشد من الآلهة الغاضبة والأشباح الجائعة لكي تُحقِّق السموّ الذي فرّتْ منه في حياتها.

كان الطريق يمتد على طول درابزين مقبرة مورتليك الذي ينمو عليه النبات، مروراً بمقبرة هامرسميث وفولام، عبر جسر تشيزويك على الجانب المُقابل. مساحات ومساحات مترامية من شواهد القبور تسخر من طموحات أصحاب العقارات الذين يُطورون ضفّة النهر. لِمَ يحتلُّ الموت، من بين الأشياء العدميّة، كل تلك المساحة؟ من الأفضل أنْ يُحرَق المرء في الجو الأزرق الخالي بدل أنْ يُطالب بقطعة أرض على ذلك الشاطئ الذي لا تشرق عليه الشمس، المزدحم بالقبور على الأرض الوعرة، المُتشبّثة بجذور الأشجار والأزهار انتظاراً لبعثٍ غامض. ربما الذين تلقّوا رعاية جيدة من أمهاتهم انجذبوا إلى رحم الأرض الممتع، بينما الذين تعرّضوا للإهمال والخيانة تاقوا إلى أنْ تُنثَر رفاتهم في السماء قاسية القلب. قد يكون لدى جوني وِجهة نظر حِرفيّة. كانت الكآبة نوعاً مختلفاً من الدفن، تُحافِظ على الأذى في اللاوعي، كتمثال مدفون في رمال الصحراء، تبقى قَسَماته محميّة من تقلّبات التجربة العاديّة. وجوني أيضاً ربما لديه وِجهات نظر حول هذا، لكنَّ باتريك كان يُفضِّل أنْ يلزم الصمت. على أي حال، ما هو اللاوعي، في مقابل أي شكل آخر من أشكال الذاكرة، ولماذا يُمنَح سُلطة المادة المُحدَّدة، ويُحوّلُ إلى شيءٍ ومكانٍ في حين أنَّ بقيّة الذاكرة هي مقدرة شخصيّة وعمليّة جارية؟

ارتقتْ السيارة المعبر الضيِّق، المعطوب، الذي يصل ما بين أطرف المنطقة المُحيطة. وهو إجراء لم يتطوَّر، ويُنادي باستبداله منذ أنْ بدأ باتريك يتذكَّر. لعلّها وسيلة نقل مُعادلة للتدخين: لا يحين الوقت أبداً للإقلاع عنه – سوف يحدث زحامٌ شديد في صباح الغد... وعطلة نهاية الأسبوع قادمة...

1– الباردو فترة انتقالية بين الموت والتجسّد في حياة أخرى، في البوذيّة – المترجم.

فلنفعل هذا بعد انتهاء الألعاب الأولمبيّة... إنَّ رقم 2020 هو رقم مُستدير جميل، ويمثّل الوقت المثالي لبداية جديدة.

قال باتريك «معبر مراوِغ»

قال جوني «أعلمُ هذا. لطالما اعتقدتُ أنّه سوف ينهار»

لم يقصد أنْ يتكلَّم. لقد كسر حوار إفراديّ داخليّ السطح وخرج. الأفضل أنْ يغرق، الأفضل أنْ يبدأ من جديد.

إنَّ البدء من جديد هو بداية تفهة. إذ ليس ثمة ما يمكن فعله ولا شيء للبدء به، بل فقط خروج متواصل للمظاهر من المظاهر المُحتَمَلة، كخروج الكلام من حوار إفراديّ داخليّ. أنْ تكون على مستوى واحد مع ذلك النُطق: ذلك هو الشيء الجديد. يستطيع أنْ يشعر به في جسمه، وكأنه يمكن أنْ يفنى في كل لحظة، أو يستمر في الوجود، وأنّه باستمراره قد يتجدَّد.

قال باتريك «كنتُ فقط أفكّر في الكبتْ. ولا أعتقد أنَّ الأذى يكبَتْ، ما رأيك؟»

قال جوني «أعتقد أنَّ هذا الآن هو الرأي الصحيح. إنَّ الأذى من القوة والتطفُّل بحيث أنّه لا يُنسى. إنّه يؤدي إلى الانفصال والتشرذم»

سأله باتريك «إذن، ما الذي يمكن كبتُه؟»

«كل ما يتحدّى أسباب راحة الذات الزائفة»

«إذن ما زال أمامه الكثير من العمل يؤديه»

قال جوني «كثير جداً»

شاهد باتريك الواجهة الإسمنتيّة المألوفة والنوافذ الزرقاء بلون حوض الأسماك لمستشفى كرومويل.

«أتذكَّر أنني أمضيتُ شهراً هناك لمعالجة انزلاق في الديسك، بُعيد وفاة والدي»

«وأتذكّر أنني أحضرتُ لك مُسكّناً قوياً للآلام»

قال باتريك «إنني أُحيّي لائحة النبيذ الطموح الخاصة به والقنوات التلفزيونيّة العربيّة الممتلئة بأفلام الأكشن»، ولوّح بيده بحركة فخمة إلى اللوحة الفنيّة المرسومة بأسلوب ما بعد الوحشيّة.

تدفّقَتْ حركة المرور بسلاسة عبر غلوسيستر رود ونحو الأسفل إلى متحف التاريخ الطبيعيّ. وذكَّرَ باتريك نفسه بوجوب الالتزام بالصمت. لقد تعرَّضَ طوال حياته، أو على الأقلّ منذ أنْ بدأ يُحسِن الكلام، لإغواء إغراق الأوضاع الصعبة بالكلمات. وعندما فقدتْ إلينور القُدرة على الكلام ولم يكن توماس قد اكتسب تلك القدرة، اكتشفَ باتريك جوهر النطق في نفسه الذي رفضَ أنْ يُغرَق بالكلمات، والذي حاول أنْ يُغرِقه بدل ذلك بالكحول. ربما رأى في الصمت ما حاول باستمرار أنْ يطمسه بالكلام وبالمشروب. ما الذي لم يتمكَّن من الإفصاح عنه؟ لقد استطاع فقط أنْ يتلمَّس طريقه بحثاً عن حلول في ظلام العالم السابق للنُطق.

كان جسده مقبرة للانفعال المدفون؛ كانت أعراضه تتكتَّل حول الرعب الأساسي نفسه، أشبه بتلك السلسلة المتواصلة من المقابر التي مرّا بها تواً، متجمّعة حول نهر التيمس. المثانة المتوترة، والقولون المتشنِّج، وآلام أسفل الظهر، وضغط الدم المتذبذب الذي يقفز من العادي إلى العالي بصورة خطرة في غضون ثوانٍ، لسماع صرير في لوح خشب الأرضيّة أو لدى التفكير في فكرة ما، والأرق المُستبدّ الذي يُسيطر عليهم، كل هذا يدل على قلقٍ عميق إلى درجة تمزيقِ أحشائه والهيمنة على العمليّة الآليّة لجسده. يمكن تغيير السلوكيات، وتعديل المواقِف، وتغيير العقليات، ولكن من الصعب إجراء حوار مع عادات الطفولة الجسديّة. كيف يمكن لطفل أنْ يُعبِّر عن نفسه قبل أنْ تتكون لديه ذاتٌ يُعبِّر عنها، أو كلمات ليُعبِّر بها عمّا لم يتكوَّن لديه بعد؟ وحدها لغةُ الألم والمرض الخرساء كانت متوفِّرة بوفرة. هناك الصراخ طبعاً، إذا سُمِحَ به.

تذكَّرَ أنّه وهو في الثالثة من عمره كان واقفاً بجوار بركة سباحة في فرنسا ينظر إلى المياه بشوقٍ مترقِّب، يتمنّى لو أنّه يُحسِن السباحة. وفجأة شعر كأنّه ارتفع عن الأرض واندفع في الهواء. وبِبطء الرعب، عندما يجعلُ تسجيلُ العقلَ المُصاب بالرعب كثافةَ الانطباعات الزمنَ ثقيل الوطأة، استخدم كل الشكّ والفزع اللذين اندفعا إلى جسمه المهزوم لكي ينأى بنفسه عن السائل القاتل الذي كثيراً ما حذّروه من الوقوع فيه مُصادفة، ولكن سرعان ما غرقَ في البركة الغارقة، وأخذ يرفس المياه الضحلة ويضربها إلى أنْ طفا أخيراً

على السطح واستنشق بعض الهواء قبل أنْ يغوص من جديد. صارع للنجاة بحياته وسط عماءٍ من الاهتزاز وعبّ الماء، تارة يستنشق الهواء وتارة يعبّ الماء، إلى أنْ نجح أخيراً في جعل أصابعه تلمس الحافة الحجريّة الخشنة للبركة واستسلم للنشيج بأشدّ ما استطاع من هدوء، متقبّلاً يأسه، وعالِماً أنّه إذا أثار الكثير من الضجيج فسوف يقوم والده بعمل شديد العنف والقسوة.

جلسَ ديفيد واضعاً نظارته القاتمة ويدخّن سيجاراً، مُشيحاً وجهه عن باتريك، وأمامه على الطاولة سحابة صفراء من مشروب بنكهة اليانسون، مُطْرياً لنيكولاس برات أساليبه الثقافيّة: إثارة الغريزة لكي تبقى حيّة؛ تطوير الكفاءة الذاتيّة؛ ترياق لتدليل الأم؛ وفي الختام، كانت الفوائد بديهيّة إلى درجة أنَّ حمق وحياء القطيع وحدهما يمكن أنْ يفسّرا لماذا لا يُرمى كل طفل في الثالثة من العمر إلى الطرف العميق من بركة السباحة قبل أنْ يتعلّم السباحة.

حثّ فضولُ روبرت لمعرفة جَدِّه باتريك على إخباره قصّة درسه الأول في السباحة. لقد شعر بأنّه سيكون عبئاً ثقيلاً أنْ يُخبر ابنه عن ضرب جدّه له واعتدائه الجنسي عليه، ولكن في الوقت نفسه رغبَ في أنْ يُزوّد ابنه بلمحة عن قسوة جدّه. كانت الصعقة شديدة على ابنه.

قال «هذا شيء فظيع. أعني إنَّ حدوث هذا لولدٍ في الثالثة من العمر سوف يجعله يتمنّى الموت»، ثم أضاف، وهو يُعانق باتريك عِناقاً مُطمئناً، كأنّه أحسَّ بأنَّ التهديد لم ينته بعد، «في الحقيقة، كان يمكن أنْ تموت».

أثّر تعاطُف روبرت وغمره بحقيقة ما كان يعتبره حكاية غير ضارّة. لم يتمكّن من النوم وعندما كان ينام سرعان ما يوقِظه وجيب قلبه القويّ. كان دائم الشعور بالجوع لكنه لم يستطع أنْ يهضم أيّ شيء يأكله. لم يستطع أنْ يتقبّل حقيقة أنَّ والده أراد أنْ يقتله، وفضَّلَ أنْ يُغرِقه على أنْ يُعلِّمه السباحة، وكان يتباهى بإطلاق النار على شخص لأنه بالغَ في الصراخ، وكان يمكن أنْ يُطلق النار على رأس باتريك لو أنّه أثار الكثير من الضجيج.

لا شك في أنّه كان في وسع باتريك وهو في الثالثة أنْ يتكلّم، حتى وإنْ مُنِعَ من البوح بما يُعاني. وفي مرحلة مُبكِّرة أكثر، ومن دون عون من

السرد، تحلّلتْ ذاكرته النشطة واختفَتْ. وفي تلك الأجواء الأكثر قتامة كانت الحلول الوحيدة تكمن في جسده، وفي حكاية أو اثنتين أخبرته أمّه عن المرحلة المُبكِّرة جداً من حياته. هنا من جديد كان عدم تحمُّل والده للصراخ شيئاً محوريّاً، ونفى باتريك وأمّه إلى العلّيّة شديدة البرودة في منزل كورنويل خلال فصل الشتاء الذي وُلِدَ فيه.

غاص أعمق قليلاً في مقعد المُسافر. ولمّا أدركَ أنّه استمرَّ في توقّع أنْ يختنق أو يغرق، شعر باختناق ودوار التوقّعات نفسها، وتساءلَ إنْ كانت الطفولة هي قَدَر، وشعرَ باختناق السؤال وبدواره. شعر بثقل وزن جسمه وبالثِقَل الرازح على جسمه. كجدارٍ مانع، مُلتوٍ ويتصبَّب عَرَقاً تحت تأثير ضغط سفح التل الذي خلفه؛ إنّه الوسيلة الوحيدة للوصول، وفي الوقت نفسه هو الواقي الشرس ضد مآسي الطفولة التي لا شكل لها. وهذا ما يمكن لجوني أنْ يُسمّيه مشكلة ما قبل أوديبيّة، ولكن مهما كان الاسم الذي يُطلَق على الاضطراب الذي لا اسم له، شعر باتريك بأنَّ حيويّته الجديدة المتردّدة تعتمد على استعداد للغوص في ذلك الكمّ من الانفعال المدفون وترْكِهِ ينضمّ إلى دفق الشعور المُعاصِر. يجب أنْ يولي المزيد من الانتباه إلى الدليل الصغير الذي صادفه في طريقه. في الليلة السابقة أيقظه حلم غريب ومُقلِق، أما الآن فضاعَ منه ولم يتمكن من استعادته.

لقد فهم بالحدس أنَّ وفاة أمّه كانت أزمة قوية إلى درجة هزّ دفاعاته. والغياب المُفاجئ للمرأة التي جلَبَته إلى العالم كان فرصة عابرةً لجلبِ شيءٍ جديد قليلاً إلى العالم بدلاً عنه. كان من المهمّ أنْ يكون واقعيّاً: كان الحاضر بمثابة الطبقة العليا للماضي، وليس شيئاً جديداً ومبهرجاً يهتم به أناس من أمثال شيموس وأنيث: ولكن حتى شيء جديد بقدر ضئيل يمكن أنْ يشكِّل الطبقة التحتيّة لشيءٍ أكثر جِدَّة بقليل. لا ينبغي أنْ يُفوِّتْ فرصته، وإلّا أبقاه جسمه يعيش تحت توتّره البطوليّ المُضلَّل، كجنديّ يابانيّ لم يُخبره أحد بنبأ الاستسلام واستمرَّ في البقاء مُحصَّناً في بقعته الصغيرة داخل الغابة، ومُستعداً لنيل شرف الموت الذي سيجلبه على نفسه.

كان شيئاً مُقزّزاً للنفس أنْ يُجدِّد قسوة والده وينقلها «إلى الصف الأماميّ» في غرفة درس القتل، بل شعر بتردُّد أكبر في إنكار نظرته في عهد

الطفولة إلى أمّه بوصفها ضحيّة إضافيّة لخبث ديفيد العاصِف. والحقيقة الأعمق التي تقول إنّه كان دمية في العلاقة الساديّة-المازوشيّة بين والديه لم يكن، حتى الآن، يتحمّل التفكير فيها. وتشبّثَ بالحماية الواهية للتفكير في أنَّ أمّه كانت امرأة مُحبّة كافحَتْ لتلبّي حاجياته، بدل الاعتراف بأنّها استغلّته كامتداد لشبقها إلى المهانة. إلى أي درجة كانت مفيدة لها قصة العليّة الشديدة البرودة؟ لا شك في أنّها دَعَمَتْ صورة إلينور كلاجئة مُرافقة هاربة تحمل حروقاً على ظهرها وطفلاً وليداً بين ذراعيها بعيداً عن القنابل الحارقة لغضب ديفيد وتدميره لذاته. حتى عندما استجمع باتريك شجاعته وأخبرها بأنَّ والده قد اغتصبه، أسرعتْ إلى القول، «وفعلَ هذا معي أيضاً». وانطوتْ على نفسها لتظهر بمظهر الضحيّة. لقد بدتْ إلينور لا مبالية بالتأثير الذي يمكن لقصصها أنْ تتركه على أي مستوى آخر. مختنق، غارق، مولود نتيجة اغتصاب بالإضافة إلى أنّه وُلِدَ لكي يُغتَصَب-ماذا يهمّ، ما دام أنَّ باتريك أدركَ كم كان صعباً عليها وكم كانت بعيدة عن كونها تعاونتْ مع مُغتصبهما. وعندما سألها باتريك لماذا لم تُغادر، قالتْ إنها خشيَتْ أنْ يقتلها ديفيد، ولكنْ لمّا كان قد حاول حتى ذلك الحين مرّتين أنْ يقتلها عندما كانا يعيشان معاً، باتَ صعباً إدراك كيف يمكن أنْ يكون الأمر مُحتَمَلاً أكثر لو أنهما عاشا منفصلَين. والحقيقة، التي جعلتْ ضغط دمه يرتفع ارتفاعاً هائلاً باعترافه، هي أنها تاقتْ إلى العنف المتطرِّف لحضور ديفيد، وأنها أقحمتْ ابنها في الأمر. رغبَ باتريك في إيقاف السيارة والخروج منها والسير على قدميه؛ رغبَ في شرب كأس من الويسكي، وتناول جرعة من الهيروين، وتوجيه طلقة من مسدس إلى رأسه - اقتل الرجل الذي يصرخ، نفّذ الأمر، تولَّ الأمر. ترك هذه الحوافز تجتاحه من دون أنْ يوليها الكثير من الانتباه.

كانت السيارة تنعطف نحو كوينسبري بليس، بجوار ليسيه فرانسيه دو لوندر، حيث كان باتريك قد أمضى عاماً من التقصير في اللغات وهو في سن السابعة. وأثناء مراسم توزيع الجوائز في رويال ألبرت هول، كانت هناك نسخة من قصة[1] *La Chevre de Monsieur Seguin* على

1- قصة «عنزة المسيو سيغوان»: قصة قصيرة للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه - المترجم.

مقعده المخمل الأحمر. وسرعان ما أضحى مولعاً بقصّة المعزاة الصغيرة البطلة المحكوم عليها بالموت، التي استسلمت لغواية أزهار جبال الألب والانطلاق إلى الجبال العالية («*Je me languis, je me languis, je veux aller a la montagne*») (كم أشتاق، كم أشتاق إلى الذهاب إلى الريف). صمَّمَ المسيو سيغوان، الذي كان قد فقد حتى ذلك الحين ستاً من ماعزه أكلها الذئب، على ألّا يخسر معزاةً أخرى وأقفل باب الحظيرة على البطلة، لكنَّ المعزاة الصغيرة خرجت من النافذة وهربتْ، وأمضتْ يوماً من النشوة على المنحدرات التي تعجّ بالأزهار البرتقاليّة، والصفراء والزرقاء. ثم، ومع بداية غروب الشمس، لاحظتْ فجأة بين الظِلال التي تزداد طولاً الصورة الجانبيّة للذئب النحيل والجائع، جالساً بارتياح وسط الأعشاب الباسقة، يتأمّل فريسته. وعلى الرغم من عِلمها بأنها سوف تموت، صمّمت المعزاة على أنْ تُقاتل حتى طلوع الفجر («*pourvu que je tienne jusquia liaube*»)، (سأصمد قدر استطاعتي حتى بزوغ الفجر)، فأحنت رأسها واندفعَت نحو صدر الذئب. وقاتلت طوال الليل، مُهاجِمة مراراً وتكراراً، إلى أنْ انهارتْ أخيراً، مع طلوع الشمس وانتشار أشعتها على الجروف المُقابلة للجبل المُقابل، وتكوّمتْ على الأرض والتهمها الذئب. هذه القصة لم تفشل أبداً في ذرف دموع باتريك وهو يقرأها في كل ليلة في غرفة نومه في فيكتوريا رود.

طفح الكيل! حلم الليلة السابقة الغريب: شخص يضع قلنسوة على رأسه ويمشي بخُطى واسعة بين قطيعٍ من الماعز، يرفع رؤوسها إلى الخلف ويحزّ أعناقها. كان باتريك هو أحد أفراد الماعز على الحافة الخارجيّة من القطيع ومع حسٍّ بدنوّ الأجل والتحدّي الجدير ببطله في عهد الطفولة مدَّ يده وحزَّ عنقه بنفسه لكيلا يمنح القاتل متعة سماع صراخه. ها هنا شكل آخر من الصمت العنيف. ليت يتوفّر لديه وقت كافٍ لحلّ الأمر كلّه. ليته يتمكّن من الانفراد بنفسه، لحلّ خيوط كتلة هذه الانطباعات والأشياء المُتشابكة. كانت روحه تتحرّك؛ والأشياء التي رغبت في أنْ تبقى خفيّة أرادتْ الآن أنْ يتم كشف اللثام عنها. لقد كان الشاعر والاس ستيفنس على صواب: «الحريّة تشبه رجلاً قتل نفسه / في كل ليلة، يتواصل القتل، وتصبح السكين / أكثر

حِدَّة بالدم». كان يشتاق إلى روعة الصمت والعزلة، ولكن بدل ذلك كان متوجّهاً لحضور حفلة.

انعطفَ جوني إلى أونسلو غاردنز وانطلق بسرعة على الشارع الذي أضحى فجأة امتداداً خالياً.

قال، بعد أنْ أبطأ سرعته لكي يبحث عن فسحةٍ لإيقاف السيارة فيها تكون قريبة من النادي، «ها قد وصلنا».

-10-

كانت كيتل قد شرحتْ لميري موقفها المبدئي ضد حضور جنازة إلينور.

قالت لابنتها «كان سيكون محض نِفاق. إنني أبغض الحرمان من الميراث، وأعتقد أنَّ من الخطأ حضور جنازة شخص يغلي من فرط الحنق. أما الحفلة فمسألة أخرى: إنها تتعلَّق بدعمكِ ودعم باتريك. أنا لا أدّعي أنَّ كونها وشيكة الوقوع لا يفيد»

قالتْ ميري «في هذه الحالة يمكنكِ أنْ تعتني بالطفلَين. إنَّ رأينا بشأنْ مجيئهما إلى المِحرقة يشبه رأيك في الذهاب إليها. لقد انفصل روبرت عن إلينور قبل سنين وتوماس لا يعرفها معرفة حقيقيّة لكننا مع ذلك ما زلنا نرغب في أنْ يحضرا الحفلة، لكي نعوِّض عليهما ونجعل المناسبة أكثر خِفّة»

قالت كيتل، وقد قرَّرتْ في الحال أنْ تنتقم من تحمُّلها من المسؤوليّة المُزعجة ما يفوق تلك التي كانت تحاول أنْ تتفاداها، «أوه، حسن، طبعاً، يُسعدني أنْ أمدّ يد العون».

حالما أوصلت ميري الولدين إلى شقة كيتل، باشرت هذه الأخيرة بتطبيق خطّتها على روبرت.

قالت «شخصيّاً، لا أستطيع أنْ أُسامح جدَّتكما الأخرى لأنها فرَّطَتْ بمنزلكما الجميل في فرنسا. لا بُدَّ أنكما تفتقدانه كثيراً؛ لأنكما لن تستطيعا النزل هناك في أثناء العطل. لقد كان حقاً بمثابة وطنٍ لكما أكثر من لندن، في اعتقادي، بسبب وجوده في الريف وما شابه»

بدا روبرت أشدّ اضطراباً أكثر مما كانت تنوي أنْ تجعله.

قال روبرت «كيف تقولين هذا؟ إنه كلام فظيع»

قالتْ كيتل «كنتُ فقط أحاول أنْ أتعاطف معكما»

خرج روبرت من المطبخ وذهب لكي ينفرد بنفسه في غرفة الجلوس. لقد كره كيتل لأنها دفعته إلى الاعتقاد بأنَّه كان عليه أنْ يحتفظ بمنزل سان - نازير. إنّه لم يعُد يبكي على فقدانه، لكنّه ما زال يتذكَّر كل تفاصيله. يمكنهم أنْ يأخذوا المكان منهم لكنّهم لن يتمكنوا من أخذ الصور التي يحملونها عنه. أغمضَ روبرت عينيه وتذكّر عندما مشى عائداً إلى المنزل في وقتٍ متأخّر من إحدى الأمسيات مع والده عبر غابة بترفلاي والرياح القويّة تهبّ. حين تبدَّدَ ضجيج صرير الأغصان ونداءات الطيور وامتزجت مع هسيس أشجار الصنوبر. وعندما خرجا من الغابة كان الليل قد بدأ يحلّ، ولكن كان لا يزال في استطاعته أنْ يتبيَّن فروع نبات الكرمة تتسلَّل مخترقة التربة المحروثة، وشاهد أول شِهاب يحترق عند حافة السماء السوداء الصافية.

كانت كيتل على صواب: كان سان - نازير أقرب إلى الوطن من لندن. كان موطنه الأول، وليس للمرء أكثر من وطن واحد، لكنّه الآن يحمله معه في مخيّلته وكان أجمل من أي وقتٍ مضى. لم يرغب في العودة إليه ولم يرغب في استعادته، لأنه سيكون خيبة أمل.

كان روبرت قد باشر البكاء عندما ولَجَتْ كيتل برشاقة غرفة الجلوس يتبعها توماس.

«طلبتُ من أمبارو أنْ تُحضِّر فيلماً لكما. إذا كنتَ قد تجاوزتَ غضبك يمكنك أنْ تشاهده مع توماس؛ هي تقول إنَّ أحفادها يُحبونه كثيراً»

قال توماس، وهو يُسرع ليُري روبرت علبة الـ DVD، «إنه فيلم البساط السِحريّ»

كان روبرت حانقاً من كلمة «غضب» غير المُنصِفة، لكنّه كان يرغب كثيراً في مشاهدة الفيلم.

قال «لا يُسمَح لنا بمشاهدة الأفلام في فترة الصباح»

قالتْ كيتل «حسن، سوف تُضطران إلى إخبار والدكما بأنكما كنتما تلعبان السكربل، أو أي لعبة على مستوى عالٍ من الذكاء يمكن أنْ يُحبّذها»

قال توماس «ولكن هذا غير صحيح، لأننا سوف نشاهد الفيلم»

قالتْ كيتل «أوه، يا إلهي، إنني لا أُحسِن فعل أي شيء، أليس كذلك؟ سوف يُسعدكما أنْ تسمعا أنَّ الجدَّة العجوز السخيفة سوف تخرج وتغيب قليلاً. إذا كنتما تستطيعان أنْ تواجها المتعة التي تكبّدتُ عناء تنظيمها من أجلكما، فقط أخبرا أمبارو لكي تُشغّله لكما. وإلّا، فهناك نسخة من صحيفة «*تليغراف*» في المطبخ – أنا متأكّدة من أنّكما سوف تتمكنان من حل الكلمات المتقاطعة قبل أنْ أعود»

بصرخة الانتصار هذه، غادرتْ كيتل شقّتها، شهيدة حفيديها المُدلّلين المُفرطَي الحساسيّة. كانت ذاهبة إلى محل فاليري لبيع الحلويات لكي تشرب القهوة مع أرملة سفيرنا السابق في روما. والحقيقة هي أنَّ ناتاشا كانت شخصاً مملاً جداً، دائماً تُثرثر حول ما يمكن لجيمس أنْ يقول، وما يمكن لجيمس أنْ يعتقد، وكأنَّ ما زال لذلك أي أهميّة. ومع ذلك، كان من المهمّ أنْ يبقى المرء على تواصُل مع الأصدقاء.

كان الانتقال بسيارة فورد ليموزين يشكّل جزءاً من حزمة وكالة خدمة بنيان التي انتقتها ميري لتنظيم الجنازة. لا سيارات الرولز رويس الأربع لوكالة الخدمة البلاتينيّة، ولا الجياد السوداء الأربعة المُزيَّنة بالريش والعربة ذات الجوانب الزجاجيّة لخدمة وكالة هاي فيكتوريان، قدَّمتْ أي مُساهمة تُذكَر. كان هناك حيِّز لثلاثة أشخاص آخرين في سيارة فورد ليموزين. وكانت نانسي هي اختيار ميري الأول بدافع الواجب لكنَّ نيكولاس برات كانت لديه سيارة وسائق خاص به وعَرَضَ أنْ يوصِل نانسي. في الختام، تقاسمت ميري السيارة مع جوليا، عشيقة باتريك السابقة، وإراسموس عشيقها هي السابق، وأنيتْ، عشيقة شيموس السابقة. لم يفُه أحد بأي كلمة إلى أنْ انعطفتْ السيارة، بإيقاعٍ حزين، نحو الشارع العامّ.

قالتْ جوليا، وهي تنظر في المرآة التي في علبة البودرة الصغيرة، «كم أكره موت المُقرّبين. إنّه يُفسِد كحل العين»

سألتْ ميري، وهي تعلم أنَّ جوليا لا تأبه لها، «هل كنتِ مولعة بإلينور؟»

قالت جوليا، كأنها تُقرِّر حقيقة جليّة، «أوه، الأمر لا يتعلَّق بها. أنتِ تعلمين كيف تطفر الدموع من العين، وأنتِ تشاهدين فيلماً سخيفاً، أو في

جنازة، أو وأنتِ تقرأين خبراً في صحيفة؛ إنها لا تطفر حقاً بسبب الشيء الذي أثارها، بل بسبب حزنٍ متراكم، في اعتقادي، والحياة في العموم تدفع إلى الجنون»

قالتْ ميري «طبعاً، ولكنْ أحياناً يرتبط المُسبِّب والحزن معاً»

أشاحتْ بوجهها، مُحاولة أنْ تنأى بنفسها عن طيش جوليا التقليديّ بشأنْ موت الأقارب. لمحتْ أزهار المانيوليا تتنافر مع الواجهة البيضاء والسوداء شبه الخشبيّة لجانب الشارع بأسلوبه التيودوريّ الساخر. لماذا يتوجّه السائق إلى جسر كيو؟ هل يُعتبَر سلوك الطريق الأطول سِمة أرقى؟

قال إراسموس، بالفكاهة المُدقِّقة لشخص أكاديميّ، «أنا لم أضع الكحل على عيني هذا الصباح»

قالتْ أنيتْ، مُشتركة في الحوار، «تستطيع أنْ تستعير كحلي إذا شئت»

قالت ميري، ملتفتة إلى أنيتْ مع ابتسامة، «شكراً لك على ما قلته عن إلينور»

قالتْ أنيتْ «آمل أنْ أكون قد أنصفتُ سيدة استثنائيّة جداً»

قالتْ جوليا، وهي تعيد وضع كحلها بدقّة، «يا لله نعم، ليت هذه السيارة تتوقف عن الحركة»

قالت ميري «لقد كانت حتماً ترغب في فعل الخير، وهذه صِفة نادرة»

قال إراسموس، وكأنّه يُشير إلى مسقط مياه شهير ظهر فجأة من خلال زجاج نافذة السيارة، «آه، إنّها النيّة»

قالتْ جوليا، منتقلة إلى العين الأخرى مع قلم الكحل الأسود اللزج، «إنّه تعبيد الطريق إلى الجحيم»

باشر إراسموس بالقول «يقول الأكويني إنَّ الحب هو: اشتهاء الخير للآخر»

قاطعتْه جوليا «إنَّ مجرد اشتهاء الآخر هو عمل خير بالنسبة إليّ. طبعاً أنتَ لا تريد أنْ تصدمه سيّارة أو يُردى قتيلاً في الشارع – أو ليس غالباً، على أي حال. يبدو لي أنَّ الأكويني يُقرّ بما هو واضح، إنَّ كل شيء أساسه الشهوة»

«ما عدا الالتزام بالأعراف، والتقاليد، والإكراه، والتحريض المُستتر، والضرورة، والفوضى، والانحراف، والمبدأ». ابتسم إراسموس بحزن على كمية البدائل الهائلة.

«لكنها تُثير أنواعاً أخرى من الشهوة»

قال إراسموس «إذا صِغتِ كل معنى في كلمة واحدة، فإنك تحرمينها من كل معنى»

قالتْ جوليا «حسن، حتى وإنْ كنتَ تعتقد أنَّ الأكوينيّ عبقريّ بالمفهوم الكامل لأنه قال هذا، فلا أفهم كيف أنَّ «اشتهاء الخير للآخر» هو كاشتهاء الآخرين لكي تعتقد أنك إنسان فاضل»

قالتْ أنيتْ «إنَّ إلينور لم ترغب فقط في أنْ تكون خيِّرة، بل كانت خيِّرة فعلاً. لم تكن مجرّد حالمة كالعديد من أصحاب الرؤى، بل كانت بنّاءة وفاعلة وناشطة أحدثتْ تغييرات عمليّة في حياة الآخرين»

قالت جوليا، وهي تُغلِق علبة البودرة، «لقد أحدثتْ فعلاً فرقاً عملياً في حياة باتريك»

كاد ادّعاء جوليا بأنها أشدّ ولاءً لمصالح باتريك من أي شخص آخر يدفعها إلى حافة الجنون. وكان إخلاصها لخيانته هو فعل عدوانيّ ضد ميري ما كانت جوليا لتسمح لنفسها بالقيام به من دون حضور إراسموس وغياب باتريك. وقرَّرتْ ميري أنْ تلزم الصمت التامّ. كانوا قد وصلوا إلى هامرسميث وكانت حانقة بقدرٍ كافٍ ليدوم حتى بلوغ تشيلسي.

عندما دعتْ نانسي هنري للانضمام إليها في سيارة نيكولاس، أشار إلى أنَّ لديه سيارته الخاصة.

قال نيكولاس «اطلبي منه أنْ يتبعنا»

وهكذا تبعتْ سيارة هنري الخالية سيارة نيكولاس المزدحمة من المِحرقة وحتى النادي.

قال نيكولاس، مُسترخياً داخل فيض من الجلد الأسود المحشو وأمالَ بآليّة إلكترونيّة مقعد المُسافر نحو رُكبتي نانسي لكي يُخاطِب ضيوفَه

من زاويةٍ مناسِبةٍ أكثر، «إنَّ الإنسان يعرف من الموتى أكثر مما يعرف من الأحياء، وبلغة الأرقام وحدها، على الرغم من أنَّ الذين خُلِقوا كلّهم لا يمكنهم أنْ يُعادلوا الأعداد الغفيرة القذرة التي تتشبّث حالياً بسطح كوكبنا الذي كان ذات يوم جميلاً»

قال هنري «هذه إحدى مشكلات التقمُّص: مَنْ الذي يتمّ تقمُّصه إذا كان يوجد الآن من الناس أكثر من مجموع كل الذين خُلِقوا في المُطلَق؟ هذا لا معنى له»

قال نيكولاس، وقوَّسَ حاجبيه في وجه السائق ثم رمى هنري بنظرة تحذير، «يكون له معنى إذا كانت كُتلٌ من الإنسانيّة الأوّليّة تتساقط علينا لتعيش دورتها الأولى من الحضارة. أخشى أنَّ هذا مقبول أكثر مما ينبغي. هذه أول مرَّة تأتي فيها إلى هنا، أليس كذلك، يا ميغيل؟»

قال ميغيل، مع ضحكة مرحة لرجلٍ متعوِّد على أنْ يُهان من قِبَل مُستخدمه مراتٍ عِدَّة في اليوم بوصفِهِ شخصاً غريباً، «نعم، سيد نيكولاس».

«لا فائدة من إخبارك أنكَ كنتَ الملكة كليوباترا في حياةٍ أخرى، أليس كذلك؟»

قال ميغيل، عاجزاً عن كبح مرحه، «كلا، سيد نيكولاس»

تذمّرتْ نانسي قائلة «إنَّ ما يعصى عليّ فهمه عن التقمُّص هو لماذا كلّنا ننسى، أما كان ذلك ممتعاً أكثر لو أنَّ كلاً منا قال للآخر، عندما تقابلنا للمرة الأولى،» كيف حالك؟ أنا لم أركَ منذ تلك الحفلة الرهيبة بكل معنى الكلمة التي أقامتها ماري أنطوانيت في بيتي تريانو! «أو شيئاً من هذا القبيل، شيئاً مرحاً. أعني، إنْ كان التقمُّص صحيحاً، فإنّه يشبه الإصابة بالزهايمر إصابة متقدِّمة، في كل حياة كاللحظة الصغيرة التي نعيشها من القلق الحيّ. أعلمُ أنَّ أختي آمنتْ به، ولكن عندما أردتُ أنْ أسألها عن سبب نسياننا، كانت قد أُصيبَتْ **فعلاً** بالزهايمر، لذلك كان سؤالي سيفتقر إلى اللياقة، إذا فهمتَ ما أعني»

قال نيكولاس بحِكمة «إنَّ الولادة من جديد مجرد إشاعة عاطفيّة جُلِبَتْ من مملكة النبات. كلنا ننبهر بولادة الربيع من جديد، لكنَّ الشجرة لا تموت أبداً»

قال هنري بهدوء «لا يمكن أنْ تولد من جديد في أثناء حياتك. مُتْ من أجل شيءٍ ما وانتقل إلى مرحلة جديدة»

قال نيكولاس «لا تكلّمني عن الربيع. فمنذ أنْ كنتُ صبيّاً صغيراً، وأنا في ذروة كوني نفسي، وأنا مُصمِّم على مواصلة ملاحقة الفراشات خلال الأعشاب الباسقة إلى أنْ تحل النهاية السريعة والخالية من الألم. من ناحية أخرى، أنا أرى أنَّ بعض الناس، على غرار ميغيل، على سبيل المثال، يصرخون طلباً لإجراء فحص شامل ودقيق»

قهقه ميغيل وهزَّ رأسه غير مُصدِّق.

قالتْ نانسي «أوه، ميغيل، أليس هو فظيعاً؟»

«نعم، مدام»

قال نيكولاس «لا يُفترَض بك أنْ توافقها، أيها الأبله»

قال هنري، الذي كان يكره في نيكولاس تعذيبه للخدم، «كنتُ أعتقد أنَّ إلينور مسيحيّة. من أين أتتها كل تلك الطقوس الشرقيّة؟»

قالتْ نانسي «أوه، كانت متديّنة فقط بصورة عامّة»

قال نيكولاس «إنَّ غالبيّة الناس المسيحيين يمتازون على الأقلّ بأنهم ليسوا من الهندوس أو من الصوفيين، تماماً كما أنَّ الصوفيين يتميّزون بأنهم ليسوا مسيحيين، ولكن من الناحيّة الدينيّة، كانت إلينور أشبه بأحد مشروبات الكوكتيل الرائعة التي تدفعك إلى التساؤل ما نوع التصادم على الطريق العامة يمكن أنْ يكون قد مزج أولاً الجِنْ، والبراندي، وعصير البندورة، وكريم النعناع، والكوانترو لتكون مشروباً واحداً»

قال هنري بجرأة «حسن، لطالما كانت امرأة لطيفة، ولطالما حملتْ هموم الآخرين»

اعترفَ نيكولاس «يمكن لهذا أنْ يكون شيئاً جيداً، بالاعتماد على مَنْ هم الآخرون، طبعاً»

أدارتْ نانسي عينيها قليلاً داخل محجريهما في وجه نسيبها الجالس على المقعد الخلفيّ. شعرتْ بأنَّه يجب السماح للعائلاتْ بأنْ يقول كل منها للأخرى أشياء فظيعة، ولكن أولئك الدخلاء يجب أنْ يكونوا أشدّ حذراً.

ألقى هنري نظرة مطوّلة نحو الخلف إلى سيارته الخالية. حتى نيكولاس كان في حاجة إلى أنْ يأخذ قسطاً من الراحة بعيداً عن نفسه. وبينما سيارته تسرع متجاوزة مستشفى كرومويل غرقَ الجميع في النوم باتّفاقٍ مُشترك وأغمضَ نيكولاس عينيه، مُستجمعاً موارده لمواجهة محنة اجتماعيّة تنتظره.

بعد انتهاء عرض الفيلم، جلسَ توماس على إحدى الوسائد وتظاهرَ بأنّه يمتطي متن بساط طائر. أولاً قام بزيارة أمّه وأبيه، اللذين كانا يحضران جنازة جدّته. شاهد صوراً فوتوغرافيّة لجدّته الميتة دفعته إلى الاعتقاد أنّه يتذكّرها، ولكن بعد ذلك أخبرته أمّه أنَّ آخر مرة شاهدها فيها كان في الثانية من عمره وكانت تعيش في فرنسا وهكذا أدرك أنّه اخترع الذكرى من النظر إلى الصورة. إلّا إذا كان يحمل في الحقيقة ذِكرى مُبهمة جداً عنها وأنَّ الصورة نفخَتْ في الجمرة الصغيرة لصِلته بجدَّته، كوهجٍ برتقاليّ ضعيف وسط ركامٍ رماديّ اللون ناعم من الرماد، وقد تذكَّرَ برهة حقاً عندما جلس على حجر جدَّته وابتسم لها وربتَ على وجهها المُجعّد العجوز - قالتْ أمّه إنّه ابتسم لها وإنها سعدت كثيراً بذلك.

انطلقَ البساط الطائر قاصداً مدينة بغداد، وهناك قفز توماس مترجلاً ورفسَ الساحر الشرير جعفر عن الحافة إلى الخندق. وشعرت الأميرة بامتنانٍ شديد وأهدته فهدها المُدجَّن، وعمامةً يتوسّطها حجر ياقوت، ومصباحاً يُقيم داخله جنّي مُضحك قوي جداً. كان الجنّي قد بدأ يتمدَّد في الهواء فوقه عندما سمع توماس الباب الأمامي يُفتَح وسمع كيتل تُحيّي أمبارو في الردهة.

«هل كان الصبيّان عاقلَين؟»

«أوه، نعم، لقد أحبّا الفيلم، تماماً كما يُعجب حفيداتي»

تنهّدتْ كيتل. «حسن، على الأقلّ أحسنتُ في هذا التصرُّف. يجب أنْ نُسرِع؛ ثمة سيارة أجرة تنتظر في الخارج. كم أتعبتني شكوى صديقتي واضطررتُ إلى استدعاء سيارة أجرة حالما خرجتُ من محل الحلويات»

ثالت أمبارو «أوه، يا إلهي، أنا آسفة جداً»

قالت كيتل بموضوعيّة «لا حيلة لنا في هذا»

وجدتْ كيتل توماس يجلس القرفصاء على إحدى الوسائد بجوار الطاولة الكبيرة المنخفضة في وسط غرفة الجلوس وروبرت متمدداً على الأريكة الطويلة يُحدِّقُ إلى السقف.

قال توماس «أنا أمتطي متن البساط السحريّ»

«في هذه الحالة، لستما في حاجة إلى سيارة الأجرة القديمة السخيفة التي أحضرتُها لكي تقلّنا إلى الحفلة»

قال توماس بهدوء «كلا، أنا سأذهب على طريقتي الخاصّة»

مال إلى الأمام وقبضَ على الزوايا الأماميّة للوسادة، ثم مال جانباً لكي ينحدر إلى المنعطَف شديد الانحدار.

قالتْ كيتل، وهي تصفِّق بيديها بنزَق، «فلنتحرّك. إنَّ إبقاء سيارة الأجرة مُنتظرة يُكلِّفني ثروة»، ثم قالت بحِدَّة لروبرت، «ماذا تفعل بتحديقك هكذا إلى السقف؟»

«أفكِّر»

«كفاكَ سُخفاً»

تبعَ الصبيّان كيتل إلى المصعد المتهالك قديم الطراز الذي أنزلهم إلى الطابق الأرضيّ من المبنى. بدا أنها هدأتْ حالما طلبتْ من سائق سيارة الأجرة أنْ ينقلهم إلى نادي أونسلو، لكنَّ روبرت وتوماس معاً شعرا برغبة مُلحَّة في الكلام. ولمّا أحسّتْ كيتل بتردّدهما، أخذتْ تستجوبهما عن الأحوال في مدرستيهما. وبعد أنْ رمَتْ بعض الأسئلة المُملَّة في وجه صمتهما المتكبِّر، استسلمَتْ لغواية تذكُّر بعض أيام دراستها: معاملة الأخت بريدجت الفاتنة لأولياء الأمور، خاصّة الجدّات، ومعاملتها شديدة القسوة للبنات؛ والتقرير المُضحك جداً الذي ذَكَرَتْ الأختْ آنْ فيه أنَّ تحويل كيتل إلى متخصّصة في الرياضيات يتطلَّب «تدخّلاً من الإله».

استمرّتْ كيتل في استخفافها بذاتها برضا بينما سيارة الأجرة تنطلق على طول فولام رود. واستغرقَ الشقيقان في أفكارهما الخاصّة، ولم يخرجا منها إلّا مع وصولهم إلى النادي.

قال روبرت، مندفعاً خارج سيارة الأجرة ومتقدِّماً جدَّته، «أوه، انظري، ها هو أبي»

قالتْ كيتل بخبث «لا تنتظرني»

قال توماس، وهو يلحق بأخيه إلى الشارع ويهرع نحو والده، «كما تشائين»

قال، قافزاً بين ذراعَي باتريك، «مرحباً، بابا. خمِّنْ ماذا كنتُ أفعل؟ كنتُ أشاهد فيلم «*علاء الدين*»! ليس *بن* لادن بل علاء الدين». وقهقه بخبث، وهو يربت على وجنتَي باتريك في الحال.

طفقَ باتريك يضحك بقوة وقبّله على جبينه.

-11-

حالما وصل باتريك إلى مدخل نادي أونسلو، وتوماس لا يزال بين ذراعيه وروبرت يمشي إلى جواره، سمع صوت نيكولاس برات البعيد ولكن الواضح يلفظ فيضاً من آرائه على الرصيف خلفه.

هدرَ نيكولاس قائلاً «إنَّ الشخص المشهور في هذه الأيام هو شخص لم تسمع به أبداً، تماماً كما يهتف النادل *j'arrive* (أنا قادم) ويهرع مُبتعداً عنكَ في مقهى باريسيّ. إنَّ شهرة مارغو تنتمي إلى حقبة زمنيّة سابقة: إنَّها معروفة في الواقع! ومع ذلك، أنْ تؤلّف خمس سير ذاتيّة هذا كثير جداً. إنَّ الحياة هي الحياة والكتابة هي الكتابة وإذا كتبتَ كما تفعل مارغو، فإنَّ ذلك يشبه كأساً من الماء في يومٍ ماطر لا يعمل إلّا على تخفيف أثر ما **تعوّدتَ** أنْ تُحسِن عمله»

قال صوت نانسي مُبدية إعجابها «أنت فظيع»

استدار باتريك فرأى نانسي، وذراعها مشتبكة بذراع نيكولاس، وهنري الذي يبدو عليه الاضطراب يمشي إلى جانبها الآخر.

سأل توماس «مَنْ ذلك الرجل المُضحِك؟»

قال باتريك «اسمه نيكولاس برات»

قال توماس «يُشبه الشخص المتزلّف الخنوع وهو في *كل* حالات مزاجه النكد»

ضحك باتريك وروبرت معاً بقدر ما سمحت المسافة القريبة من نيكولاس.

تابع نيكولاس بصوته الحييّ المتكلّف، «قالتْ لي «أعلم أنّه كتابي

الخامس، ولكن دائماً يبدو أنَّ هناك المزيد ينبغي إضافته». إذا لم يقُل المرء أي شيء في الأصل، فهناك دائماً المزيد ينبغي قوله: هناك كل شيء ينبغي قوله. آه، باتريك» ولجم نيكول لسانه، «شيء مُثير أنْ أتعرَّف، وأنا في هذه السن، إلى نادٍ جديد». تمعَّنَ بفضولٍ مُبالَغ فيه الرقعة النحاسيّة المُثبَّتة على العمود الأبيض المُزخرف بالجصّ. «نادي أونسلو، لا أتذكَّر أنني سمعت عنه»

قال باتريك في نفسه، وهو يُتابع أداء نيكولاس بتجرُّد بارد، إنّه الأخير، آخر ممَّن تبقّى من أصدقاء والدي، آخر الضيوف الذين كانوا يقومون بزيارة سان – نازير وأنا طفل. لقد توفي جورج واتفورد وفيكتور أيزن وآنْ أيزن، حتى بريدجت، التي كانت أصغر سنّاً بكثير من نيكولاس، توفيتْ. وأتمنّى لو يموت هو أيضاً.

سحبَ باتريك بكسل رغبته المجرمة في التخلُّص من نيكولاس. كان الموت نوعاً من الهوس بالذات الصاخب لا يحتاج إلى تشجيع. ثم، إنَّ التحرُّر، مهما كان معنى ذلك، لا يمكن أنْ يعتمد على موت نيكولاس، أو حتى على موت إلينور.

ومع ذلك، أشار موتها إلى عالمٍ سابقٍ للأبوَّة حَجَبَه حضور نيكولاس. كان احتقاره المُتقَن بمثابة سلك متهرِّئ يصِل باتريك بالجو الاجتماعيّ الذي ساد في فترة طفولته. ولطالما احتقرَ باتريك حليفه الأكبر والوحيد خلال فترة شبابه المُضطربة نيكولاس. وشعرتْ آنْ، زوجة فيكتور أيزن، بأنَّ هالة الجنون التي تحيط بفساد ديفيد ميلْروز جعلت ذلك الفساد يبدو حتميّاً، في حين أنَّ انحطاط نيكولاس كان أشبه بخَيارٍ يتعلَّق بالأسلوب.

نهضَ نيكولاس واقفاً واستقبل الطفلَين.

«أهذان ولداك؟»

قال باتريك، «روبرت وتوماس»، مُلاحِظاً كرهاً قوياً من توماس الذي كان وزنه يزداد وطأة عليه للنزول إلى الرصيف إلى جوار آخر صديقٍ حيّ لوالده.

قال نيكولاس «من المؤسِف أنَّ ديفيد ليس موجوداً هنا ليستمتع بمرأى حفيديه. على الأقل كان سيحرص على ألّا يقضيا النهار بأكمله أمام شاشة

التلفزيون. كان ينتابه قلقٌ شديد بشأنْ هيمنة أنبوب أشعّة الكاثود[1]. وأتذكَّر بوضوح عندما شاهدنا بعض الأطفال يشهدون عمليّاً عمليّة إنتاج جهاز تلفزيون، قال لي: إنني أُصاب بالرعب عندما أفكِّر فيما تُسبِّبه كل تلك الإشعاعات لأعضائهم التناسليّة الصغيرة»

لم يعثر باتريك على كلمات مناسِبة.

قال هنري بحزم «فلندخل». ابتسمَ للصبيِّين وقاد المجموعة إلى الداخل.

قل لروبرت «أنا ابن عمك هنري. أنت أتيتَ لتتنزل عندنا في ولاية مين قبل بضع سنوات»

قال روبرت «على تلك الجزيرة. أتذكَّر. أعجبني المكان»

«يجب أنْ تأتي من جديد»

عجَّلَ باتريك بالتقدُّم مع توماس، بينما تبعه نيكولاس وهو يعرج، ككلب صيد مُعاق يُلاحقُ طائراً جريحاً، عبر أرضيّة القرميد البيضاء والسوداء لردهة المدخل. وقد أدركَ أنّه سبّب الاضطراب لباتريك ولم يرغب في أنْ تفوته فرصة تعزيز هذا الاضطراب.

قال نيكولاس وهو يلهث «لا يسعني إلّا أنْ أفكِّر في كم كان والدك سيستمتع بهذه المناسبة. ومهما كانت عيوبه كوالد، إلّا أنّه يجب الاعتراف بأنه لم يفقِد أبداً حسّه الفكِه»

قال باتريك، وقد ارتاح كثيراً لتمكّنه من الكلام من جديد لكي يتجنّب ارتكاب خطأ التورّط مع نيكولاس، «من السهل أنْ تخسر ما لم تملكه قط»

قال نيكولاس «أوه، أنا أختلفُ معك. لقد كان يرى الجانب الفكِه من *كل شيء*»

قال باتريك «كان لا يرى الجانب الفكِه إلّا في الأشياء التي ليس لها ذلك الجانب. وهذا ليس حسّاً فكِهاً، بل فقط شكلاً من أشكال القسوة»

قال نيكولاس، مكافحاً لكي ينزع عنه معطفه بجوار صف من الخطافات النحاسيّة على الجانب القصيّ من الردهة، «حسن، لطالما كانت القسوة والضحك متلازمين»

1- الذي يبثّ أشعة من شاشة التلفزيون تضرّ بعيون مشاهدي التلفزيون - المترجم.

قال باتريك «متلازمين من دون أنْ يمارسا السِفاح. على أي حال، يجب أنْ أتعامل مع الأشخاص الذين جاؤوا لكي يُعزّوا في أمي، حتى وإنْ اشتقتَ أكثر إلى الشقّ الثاني من أبويّ المُذهلَين»

انتهزَ باتريك فرصة تحوُّل معطف نيكولاس المُتشابك إلى ما يُشبه قميص المجانين، وقفل عائداً إلى مدخل النادي.

قال، وقد حرَّر أخيراً توماس وأنزله إلى الأرضيّة ذات المُربّعات، «آه، انظر، ها هي الماما»، وتبعه وهو يهرع نحو ميري.

قال باتريك، بلكنة سويديّة مُضحِكة، «أكره أنْ أبدو أشبه بغريتا غاربو[1] ولكن«أريد أنْ أنفرد بنفسي»[2]»

قالتْ ميري «من جديد! لِمَ لا تنتابك هذه المشاعر عندما تكون منفرداً بنفسك *حقاً*؟ أي عندما تتصّل بالهاتف لتشتكي من أنكَ لم تعد تُدعى إلى الحفلات»

«هذا صحيح، لكنني لا أعني بهذا الشطائر التي قُدِّمَتْ بعد انتهاء جنازة أمي. اسمعي، سوف أقوم بجولة في الجوار، وكأنني سأدخّن سيجارة، ومن ثم أعِدُ بأنْ أعود وأكون حاضراً بكل معنى الكلمة»

قالتْ ميري، مع ابتسامة متفهِّمة، «ما أكثر وعودك»

شاهد باتريك جوليا، وإراسموس، وأنيت قادمين خلف ميري وشعرَ بحصن المسؤوليّة الاجتماعيّة الحصين. ورغبَ أكثر من أي وقتٍ آخر في المغادرة ولكنّه أدركَ في الوقت نفسه أنّه لن يستطيع أنْ يفعل ذلك. ولمحتْ أنيتْ نيكولاس عبر الردهة.

قالت، وهي تهرع لنجدته، «مسكين نك، إنّه مرتبك تماماً مع معطفه»

«دعني أساعدكَ في هذا»، وأخذتْ تشدّ كُم نيكولاس وحرَّرتْ كتفه الملويّ.

قال نيكولاس «شكراً لك. لقد رأى ذلك العفريت باتريك أنني موثق كديك روميّ ومشى مبتعداً بكل بساطة»

1- الممثلة السويديّة.

2- من العبارات التي تردّدها في أفلامها.

قالتْ أنيتْ بتفاؤل «أوه، أنا واثقة من أنّه لم يقصد ذلك»

بعد أنْ أوقفَ جوني سيارته، دخل وزاد من عدد الضيوف الذين أجبروا باتريك على العودة إلى الردهة. وبينما كان باتريك يشقّ طريقه بصعوبة إلى الداخل بين الضغط المتزايد، شاهد امرأة شبه مألوفة بشعرٍ شائب تدخل النادي بسيماء تصميم فخم وتسأل خادم الردهة إنْ كانت هناك حفلة بمناسبة جنازة إلينور ميلروز.

وفجأة تذكّرَ أين رآها من قبل. لقد كانت معه في مستشفى الدير. قابلها عندما أوشكتْ أنْ تغادر في أثناء قيامه بزيارته المُخفِقة لبيكي. كانت قد اندفعتْ نحوه عند الباب الأماميّ، مرتديةً سترة صوفيّة بلون أخضر قاتم وتنورة من الجوخ، وبدأتْ تتكلَّم بطريقة مُلحّة ومألوفة جداً، مُعترِضة طريقه إلى المخرج.

سألتْ، من دون أنْ تنتظر جواباً، «أأنتَ مُغادر؟ يجب أنْ أقول إنني لا أحسدك. هذا المكان يُعجبني. إنني آتي إلى هنا لأقضي شهراً في كل عام، وهذا يفيدني أيّما فائدة، يُبعدني عن منزلي. في الحقيقة، أنا أكره أولادي. إنهم وحوش. وأكره والدهم كره العمى، لأنه لا يُهذّبهم، ولهذا يمكنكَ أنْ تتخيَّل المخلوقات الفظيعة التي تحوّلوا إليها. طبعاً أنا لدي دور أقوم به، أعني، أتمدد على السرير طوال عشرة أشهر من دون أنْ أنطق كلمة واحدة ثم حالما أبدأ بالكلام لا أستطيع أنْ أتوقف بسبب كل الأشياء التي تراكمتْ خلال الأشهر العشرة. لا أعلم بشكلٍ رسميّ سبب وجودك هنا، ولكن لديّ شعور. كلا، أصغ إليّ. إنْ كانت لدي نصيحة أسديها إليك فهي: عقار أميتريبتيلين. إنّه رائع بكل معنى الكلمة. المرة الوحيدة التي كنتُ فيها سعيدة هي عندما كنتُ تحت تأثير مفعوله. وأنا أحاول أنْ أحصل عليه منذ ذلك الحين، لكنَّ أولاد الحرام لا يعطوني إيّاه»

قال باتريك «المشكلة هي أنني أحاول أنْ أمتنع عن تناول أي شيء»

«كفاك حمقاً: إنّه أفضل العقاقير قاطبة»

تبعته حتى الدَّرَج الخارجي بعد وصول سيارته المُستأجَرَة. هتفَتْ، وكأنّه الشخص المطلوب لإخباره بهذا، «*أميتريبتيلين*، أيها المحظوظ!»

لم يُنفِّذ وصيتها الشرسة بتناول الأميتريبتيلين؛ في الحقيقة خلال الأشهر القليلة التالية كان قد تخلّى عن الأوكسازيبام ومُضادات الاكتئاب وتوقف عن شرب الكحول كلياً.

قال باتريك لجوني وهما يرتقيان الدرج إلى الغرفة المُخصَّصة لإقامة الحفلة، «أمر غريب، لقد وصلتْ تواً امرأةٌ كانت في مستشفى الدير في وقت وجودي هناك نفسه من العام الفائت. إنها مجنونة بالكامل»

قال جوني «أمر مُحتَمَل الحدوث في مثل تلك الأماكن»

قال باتريك «لم أعلم بهذا، بما أنني صحيح العقل تماماً»

قال جوني «ربما عاقل أكثر مما ينبغي»

قال باتريك، وهو يضرب قبضة يده على راحة اليد الأخرى، «كنتُ عاقلاً بكل معنى الكلمة»

قال جوني، بصوت طبيب أميركيّ أبويّ حكيم، «لحُسن الحظ، نستطيع أنْ نُساعدك في هذا المجال، والفضل في ذلك للإكسيوين، وهو عقار خارق لا يتألّف اسمه إلّا من الأحرف الأخيرة من الأبجديّة».

قال باتريك، منبهراً «هذا لا يُصدَّق!»

اندفعَ جوني يُدلي بإنكارٍ سريع: «إياك أنْ تتناول إكسيوين إذا كنتَ تستعمل ماءً أو أي مادة أساسها الماء. فربما تكون هناك آثار جانبيّة بما فيها الإصابة بالعمى، وفرط الشهوة الجنسيّة، وتمدُّد الأوعية الدمويّة، والفشل الكلويّ، والدوار، والطفح الجلدي، والاكتئاب، والنزيف الداخليّ، والموت الفُجائيّ»

ولولَ باتريك «لا يهمّني. أريده في كل الأحوال. وسوف أحصل عليه»

خيَّمَ الصمت على الرجلَين. منذ عقود وهما يرتجلان اسكتشات قصيرة، منذ أنْ كانا يُدخّنان السجائر ولاحقاً الحشيش على سُلَّم الحريق في أثناء فترات الاستراحة في المدرسة.

قال باتريك، حالما وصلا منبسَط الدَّرَج، «كانت تسأل عن هذه الحفلة»

«ربما كانت تعرف أمك»

وافقه باتريك «أحياناً التفسيرات الأشد بساطة هي الأفضل، على الرغم من أنّها قد تكون مهووسة بارتياد الجنازات وتقديم عرض مجنون»

ذكّر ضجيجُ فرقعةِ نزعِ سدّادات فلّين الزجاجات باتريك بأنّه لم يمرّ أكثر من عام على إجراء غوردون، الوسيط الاسكتلنديّ الحكيم، حديث معه قبل أنْ ينضم إلى مجموعة الاكتئاب لحضور جلسات يوميّة. ولفَتَ غوردون انتباهه إلى «المادة المُسكِرة في الكحول»

قال «يمكنك أنْ تستخلص البراندي من كعكة الفاكهة، ولكن تبقى لديك كعكة الفاكهة»

لم يكن باتريك، أمضى الليل في حالة من الهلوسة المُضطربة والقلق الكونيّ، في حالة تسمح له بالموافقة على أي شيء.

قال «لا أعتقد أنّه في الإمكان استخلاص البراندي من كعكة الفاكهة، أو البيض من السوفليه، أو الملح من البحر»

قال غوردون «كلامي كان مجرد مجاز»

صاح باتريك «**مجرّد** مجاز! إنَّ المجاز هو المشكلة برمّتها، هو أسّ الكوابيس. إنَّ في القلب الذائب للأشياء كل شيء متشابه: هذا هو الرعب»

ألقى غوردون نظرة إلى ورقة المعلومات الخاصّة بباتريك ليتيقَّن من أنّه قد تناول آخر جرعة من الأوكسازيبام.

تابع قائلاً «إنَّ سؤالي في الحقيقة هو ما سبب تناولك الدواء بنفسك، في آخر النهار، إذا لم يكن الاكتئاب؟»

قال باتريك مُقترِحاً إضافات معقولة، «الشخصيّة المتطرفة، الغضب النرجسيّ، الميول الفِصاميّة...»

زأر غوردون بضحكٍ عِلاجيّ. «ممتاز! لقد أبديتَ بعضاً من المعرفة الذاتيّة»

ألقى باتريك نظرة إلى أسفل الدَّرَج ليتيقّن من أنَّ امرأة الأميتريبتيلين ليست على مسافة قريبة.

قال لجوني «لقد رأيتها مرّتين، واحدة في بداية فترة إقامتي والثانية في

منتصف الفترة، عندما بدأتُ أتحسَّن. في المرة الأولى ألقتْ عليّ محاضرة عن متع الأميتريبتيلين، ولكن في المرة الثانية لم نتبادل حتى الكلام، فقط رأيتها تُلقي الخِطاب نفسه على مسمع شخص من مجموعة الاكتئاب»

«إذن، كانت بمثابة البحّار القديم في مجال الأميتريبتيلين»

«بالضبط»

تذكّر باتريك المرة الثانية التي شاهدها فيها بوضوحٍ تامّ، لأنَّها وقعَت في اليوم المحوريّ من فترة إقامته. كان الصّفاء الأوّليّ قد بدأ يظهر جرّاء ترك المخدرات وانتهاء هياج فترة الأسبوعَين الأوّلين من إقامته. أصبحَ يقضي المزيد والمزيد من الوقت وحده في الحديقة، غير راغبٍ في الغوص في ثرثرة المجموعة في أثناء تناول الغداء، أو في أنْ يُبدِّد المزيد من الوقت في غرفة نومه أكثر مما كان يفعل. وذات يوم كان جالساً على المقعد الأكثر انعزالاً في الحديقة وإذا به يبدأ فجأة بالبكاء. لم يكن هناك أي شيء في القطعة الصغيرة من صفحة السماء الشاحبة أو في المشهد الجزئيّ لشجرة يُبرِّر شعوره بالنعيم الجماليّ؛ لا حَمَام يُغمغم على غصن، ولا موسيقى نائية لأوبرا تنساب عبر المرج، ولا نبات زغفران يرتعش عند أسفل شجرة. و أغار شيءٌ غير مرئيّ ولا يتحرَّك على تحديقه المُثير للاكتئاب، وانتشر كحمّى الذهب في أرجاء أنقاض عقله المُتعَب. لم تكن لديه سيطرة على مصدر راحته المؤقّتة. لم يُعِد صياغة اكتئابه ولا ابتعد عنه؛ بل استسلمَ اكتئابه ببساطة لأسلوبٍ آخر في الوجود. كان يبكي من الامتنان ولكنْ أيضاً من الشعور بالإحباط لأنه لم يتمكَّن من تأمين مؤونة من هذه السلعة الجديدة والنفيسة. شعر بأعماق نزعته الماديّة النفسيّة الخاصّة ورأى بشكل مُبهَم أنّها تقفُ عائقاً في طريقه، لكنَّ عادة القبض على أي شيء يمكن أنْ يُخفِّف من وطأة بؤسه كانت شديدة الوطأة، واختفى الإحساس غير المُبرَّر بالجمال الذي خفقَ داخله عندما حاولَ أنْ يكتشف كيف يمكن أسره واستخدامه.

ومن ثم عادت امرأة الأميتريبتيلين إلى الظهور مرتدية السترة الخضراء والتنورة الجوخ نفسيهما اللتين شاهدها ترتديهما في المرَّة الأولى. وتذكَّرَ أنّه اعتقدَ أنها لا بُدَّ قد جاءت حاملة حقيبة صغيرة.

كانت تقول لجيل، العضو الباكي في مجموعة باتريك الخاصة بالاكتئاب، «لكنَّ أولاد الحرام رفضوا أنْ يعطوني أي...»

كانت جيل قد غادرتْ جلسة تلك المجموعة الصباحيّة وهي تجهش بالبكاء بعد أنْ استقبَلَت تيري التي تشعر بالمرارة والاضطراب اقتراحَها على المجموعة بأنْ تتعامل مع كلمة «الله» بوصفها تجميعاً للأحرف الأولى لعبارة «هِبة الاكتئاب» بقولها، «بعد أذنكم سأذهب لأتقيّأ»

لمّا كان باتريك توّاقاً إلى تجنّب التورّط في حديث بين امرأتين، اختبأ خلف الأغصان الجانبيّة القاتمة لشجرة أرز.

«يا لك من محظوظة...» استمرَّ خطابها حول الأميتريبتيلين على مساره المحتوم.

احتجّتْ جيل قائلة، شاعرة بكل وضوح بحضور الله، والدموع تنضح من عينيها من جديد، «لكنهم لم يعطوني أي مقدار منه»

قال باتريك يشرح لجوني، وهما يلجان غرفة لونها أزرق باهت ونوافذها الفرنسية عالية تشرف على حديقة مشاع هادئة، «في آخر مرّة رأيتها، علِقتُ خلف شجرة أرز طوال عشرين دقيقة. فعندما رأيتها قادمة، اندفعتُ خلف شجرة أرز بينما كانتا تجلسان على المقعد الذي كنتُ أحتلّه»

قال جوني «تستحق ما حصل لك لأنكَ تخلّيتَ عن رفيقك في مجموعة الاكتئاب»

«كنتُ أمرّ بلحظة تجلّ»

«أوه، حسن...»

«يبدو كأنَّ وقتاً طويلاً مرَّ على حدوث كل ذلك»

«تقصد لحظة التجلّي أم ما حدث في مشفى الدير؟»

قال باتريك «كليهما، أو على الأقلّ حدثا إلى أنْ ظهرتْ تلك المرأة»

«ربما تأتيك البصيرة عندما تحتاج إلى الخروج من دار المجانين. والمعتوهة التي في الطابق السفليّ قد تكون هي الحافز»

قال باتريك «أي شيء يمكن أنْ يكون حافزاً، أي شيء يمكن أنْ يكون دليلاً، ولا شيء يمكن أنْ يكون حلّاً. لا يمكننا أنْ نتحمّل تكاليف التخفيف من حَذَرنا»

انتقل جوني من جديد إلى تلبُّس صوت طبيبه الأميركيّ، «لحُسن الحظ نستطيع أنْ نقدِّم يد المُساعدة في هذا المجال، والفضل في ذلك يعود إلى الحارس، الذي يُحاربه طيارون مُقاتلون، ويترأس رؤساءنا، ويُرهِب الإرهابيّين، وهو العجلة الكامنة خلف مجال الأعمال في أميركا. *الحارس: «يبقي قادتنا عاملين على مدار الساعة»*». انتقل صوت جوني إلى غمغمة سريعة، «لا تتناول الحارس إنْ كنتَ تعاني من ارتفاع ضغط الدم، أو انخفاض ضغط الدم، أو ضغط الدم الطبيعيّ. استشِر طبيبك إذا شعرتَ بآلام في الصدر، أو تورّم جفنَي العينين، أو ازدياد طول الأذنين...»

توقفَ باتريك عن متابعة ما يقوله المُستنكِر وتلفّتَ حوله إلى الغرفة شبه الخالية. كانت نانسي منهمكة في تناول طبق من الشطائر على الطرف القصيّ من مائدة طويلة عامرة بأطيب الطعام من أجل حفنة صغيرة من المُعزّين. كان هنري واقفاً إلى جوارها، يتحدث مع روبرت. وخلف المائدة كانت نادلة فائقة الجمال، ذات جيد طويل وعِظام وجنتين عالية وشعر أسود قصير. نفحَتْ باتريك ابتسامة وديّة صريحة. لا بُدَّ أنّها ممثلة محترفة مُلهَمَة تظهر بين فترات الاستماع. كانت جذّابة جاذبيّة طاغية. أراد أنْ يأخذها ويخرجا في الحال. لماذا تبدو جاذبيتها لا تُقاوَم أبداً؟ هل مائدة الطعام الذي لم يلمسه أحد تقريباً تجعلها تبدو كريمة أيضاً جميلة؟ ما هو المدخل اللائق في مثل هذه المناسبة؟ أهو أنَّ أمي توفيتْ حديثاً وأحتاج إلى بعض المرح؟ أم أنَّ أمي لم تكن أبداً تمنحني مقداراً كافياً من الطعام لكنكِ تبدين أفضل منها بكثير؟ أطلقَ باتريك ضحكة عالية بينه وبين نفسه على سُخف تلك الدوافع المُستبدِّة، وعلى عمق اتّكاله، وعلى وهم إنقاذه، وعلى وهم تغذيته. هناك الكثير من وزن الماضي يُثقِلُ على انتباهه، ويغوص به تحت سطح الماء، ويغمره بدوافع بدائيّة، سابقة لعصر الكلام. تخيَّلَ أنّه ينفض عن نفسه لا وعيه، ككلبٍ خرجَ تواً من البحر. وتقدَّم من المائدة، وطلبَ منها كوباً من الماء المتلألئ، ونفحَ النادلة ابتسامة بسيطة لا مستقبل لها.

وشكرها واستدار مبتعداً بحركة جازمة. اتّسمَ أداؤه بشيء أجوف؛ ما زال يجدها تستحق العشق، لكنّه واجه الجاذبيّة على حقيقتها؛ وجوعه، من دون أي معانٍ ضمنيّة متبادلة.

تذكَّرَ جيل من مجموعة الاكتئاب، التي كانت قد اشتكتْ ذات يوم من «مشكلة في إحدى علاقاتي - في الحقيقة، المشكلة هي أنَّ الشخص الذي أُقيم علاقة معه لا يعلم أنَّ بيننا علاقة». هذا الاعتراف أثار جلجلة من الضحك الساخر من تيري.

قالتْ تيري «لا عَجَبَ أنكِ ترضخين للعلاج للمرة التاسعة»

هرعتْ جيل تغادر الغرفة وهي تجهش بالبكاء.

قال غوردون «سوف تُضطرين إلى الاعتذار لها على ما فعلته»

«لكنني كنتُ أعني ما قلت»

«ولهذا يجب أنْ تعتذري لها»

ألحّتْ تيري «ولكن إذا اعتذرتْ فهذا يعني أنني لم أقصد ما قلت»

قال غاري، الأميركيّ الذي كانت أمّه السائحة الانتهازيّة قد أثارتْ اضطراباً في أثناء الجلسة الأولى التي حضرها باتريك مع مجموعة الاكتئاب، «تظاهري بالاعتذار»

تساءلَ باتريك إنْ كان قد يتظاهر لكي يحظى بما يريد -هذه العبارة التي لطالما أثارت اشمئزازه- عندما أدار ظهره وابتعد بتصميم عن امرأةٍ كان يفضّل أنْ يغويها؟ كلا، كان يمكن للغواية أنْ تكون غير صحيحة، أنْ تكون عقدة كازانوفا التي تجبره على إخفاء أشواقه الصبيانيّة بمظهر سلوك راشد: الكياسة، الحديث، الجِماع، التعليق؛ الأدوات الدقيقة من أجل النأي بنفسه عن الطفل الصغير الضعيف الذي لا يتحمّل سماع صراخه. لقد كان مجد موت أمّه هو أنّها لن تستطيع بعد الآن أنْ تقفَ عائقاً في طريق غرائزه الموروثة عنها بحضورها الافتراضيّ كأمٍ وتمنعه من مُعانقة الحُطام الذي أخرجته إلى العالم ولا ينفع معه عزاء.

-12-

مع بدء امتلاء الغرفة، خرج باتريك من أفكاره الخاصّة وعاد إلى أداء دوره كمُضيف. مرَّ نيكولاس به بلا مبالاة مترفّعة لكي ينضمّ إلى نانسي عند الطرف القصيّ من الغرفة. واقتربتْ ميري وامرأة الأميتريبتيلين في عهدتها، يتبعهما عن كثب توماس وإراسموس.

قالت ميري «باتريك، يجب أنْ تقابل فلور، التي كانت صديقة قديمة لأمك»

صافحها باتريك بأدب، متعجّباً من اسمها الفرنسيّ الغريب. والآن بعد أنْ خلعَتْ معطفها تعرَّفَ على السترة الخضراء والتنورة الجوخ اللتين كان قد رآهما في مشفى الدير. وقد حدَّدَ أحمر الشِفاه شكل فم مُركّب على فم فلور الباهت، مع زيادة نصف بوصة إلى اليمين، مانحاً إياها تعبير مُهرِّج في سيرك وهو يُحاول أنْ يزيل المساحيق.

باشر باتريك القول «كيف علِمت...»

قال توماس، بحماسٍ شديد بحيث لم يسعه إلّا أنْ يُقاطعه، «بابا! إنَّ إراسموس فيلسوف حقيقيّ!»

قال إراسموس «أو على أي حال فيلسوف واقعيّ»

قال باتريك، وهو يعبث بشَعر ابنه «أعلم، يا عزيزي». لم يكن توماس قد قابل إراسموس منذ عام ونصف العام، ومن الجليّ أنَّ رتبة فيلسوف خلال تلك الفترة كانت قد اتَّضَحَتْ.

قال توماس، وهو يتّخذ هيئة فلسفيّة جداً، «أقصد، لطالما اعتقدتُ أنَّ مشكلة الله هي: مَنْ الذي خَلَقَ الله؟»، ثم أضاف، وقد وصل إلى ذروة الموضوع، «ثم، مَنْ خَلَقَ الذي خَلَقَ الله؟»

قال إراسموس بنبرة حزن «آه، إنها سلسلة لا تنتهي»

قال توماس «حسن، إذن، مَنْ خلق السلسلة التي لا تنتهي؟» ورفعَ بصره إلى والده لكي يتبيَّن إنْ كان يُناقِش بأسلوبٍ فلسفيّ.

منحه باتريك ابتسامة تشجيع.

قالتْ فلور «إنَّه ذكيّ ذكاءً مُخيفاً، أليس كذلك؟ يختلف عن أولادي: لقد ظلوا عاجزين عن تشكيل جُملة واحدة حتى وصلوا مرحلة المُراهقة، ومن ثم فعلوا ذلك فقط لكي يُهينونني - وأهانوا والدهم، الذي يستحق ذلك طبعاً. إنهم وحوش حقيقيّة»

تسلّلتْ ميري مع توماس وإراسموس مُبتعدين، تاركين باتريك عالقاً مع فلور.

قال باتريك، برقّة متعمَّدة «هذا ما يعنيه المراهقون بالنسبة إليك. إذن، كيف تعرَّفتِ إلى إلينور؟»

«كنتُ أعبد أمّك. وأعتقد أنها كانت واحدة من القلة القليلة من الطيبين الذين قابلتهم في حياتي. لقد أنقذتْ حياتي، حقاً -قبل حوالي ثلاثين عاماً- عندما منحتني عملاً في أحد المتاجر الخيريّة التي كانت تُديرها لصالح صندوق إنقاذ الأطفال»

قال باتريك، وقد لاحظ أنَّ فلور تستجمع زخمها ولا تريد أنْ يُقاطعها أحد، «أتذكَّر تلك المتاجر»

تابعت فلور بقوة «لقد ظنَّ بعض الناس، يعني، الجميع ما عدا أمّك في الحقيقة، أنني عاطلة عن العمل، بسبب ما حدث لي، ولكن في الحقيقة كان يجب أنْ أترك المنزل ***وأفعل*** شيئاً، لذلك كانت أمّك بلا أدنى شك بمثابة هِبة من الله. وفي الحال أوكلتْ إليّ حزم الملابس المُستعملة. كنا نُرسِلها إلى المتجر الذي نشعر بأنها سوف تُباع جيداً فيه، مُحتفظين بالملابس الجيدة حقاً في متجرنا الخاصّ في لونسيستون بليس، القريب من منزلنا»

أسرع باتريك إلى قول «نعم»

تذكّرتْ فلور «كنا نقضي وقتاً ممتعاً. كنا كتلميذتين في مدرسة، نحمل الملابس وتقول، «هذا إلى ريتشموند، أعتقد» أو «هذا إلى تشلتنهام حتماً».

أحياناً نهتف معاً «روتشديل!» أو، «هيميل همبستيد!» في وقتٍ واحد. أوه، كم ضحكنا. وأخيراً أصبحتْ أمك تثقُ فيّ إلى درجة تعييني عند الصندوق وتركْ أمر إدارة المتجر طوال النهار لي، وأخشى أنني هنا مررتُ بأحد تلك الحوادث. ففي صباح ذلك اليوم كان لدينا معطف من الفرو -في وقتٍ كان الذين يرتدونه يرشّه الناس بالدهان- معطف فرو سمّور مُذهل -وأعتقد أنَّ هذا ما قَلَبَ كياني. شعرتُ بحاجة مُلحَّة إلى فعل شيء برّاق حقاً، فأغلقتُ أبواب المحلّ وأخذتُ النقود من الصندوق وارتديتُ معطف فرو السمّور- لم يكن ذلك تصرّفاً معقولاً ونحن في قلب شهر حزيران، ولكن كان ينبغي أنْ أرتديه. على أي حال، خرجتُ واستدعيتُ سيارة أجرة وقلت «خذني إلى فندق الريتز!»

تلفَّتَ باتريك حوله في الغرفة بقلق، مُتسائلاً إنْ كان سيستطيع أنْ يُفلِت منها.

صاعدتْ فلور سرعتها «حاولوا أنْ ينزعوا مِعطفي عني - لكنني لم أسمح بذلك، وجلستُ في بالم كورت وسط كتلة من فرو السمّور، أشرب كؤوس كوكتيل الشمبانيا وأتكلَّم مع كل مَنْ لديه استعداد للإصغاء، إلى أنْ طلب مني رئيس النُدُل الطنّان بصورة مخيفة أنْ أغادر المكان لأنني «أُزعج الضيوف الآخرين»! أتتصوّر مدى فظاظة ذلك؟ حسن، على أي حال، اتَّضَحَ أنَّ النقود التي أخذتها من الصندوق لم تكن كافية لتسديد قيمة الفاتورة الضخمة لذلك أصرَّ الفندق البائس على الاحتفاظ بالمعطف، وقد تبيَّن أنّه تصرّف غير لائق أبداً لأنَّ السيدة التي منحته لنا عادتْ وقالتْ إنها غيَّرتْ رأيها...»

حينئذٍ كانت فلور مُصرّة على متابعة سرد أفكارها. وحاول باتريك أنْ تقع عينه على عين ميري، ولكن بدا أنّها كانت تتعمَّد أنْ تتجاهله.

«كل ما أستطيع قوله هو أنَّ أمك كانت شخصية رائعة بكل معنى الكلمة. وذهبتْ ودفعت قيمة الكفالة وأنقذتْ المعطف. قالتْ إنها تعوَّدَتْ على ذلك لأنها كانت دائماً تُسدد قيمة فواتير والدها في البار في أماكن فخمة، ولم تكن تمانع أبداً. كانت قديسة صِرفاً وسمحتْ لي بالاستمرار في إدارة المحل في

أثناء غيابها، قائلة إنها متأكّدة من أنني لن أُكرِّر المحاولة - ولكن يؤسفني أنْ أقول إنني كرّرتُها، وأكثر من مرَّة»

سألها باتريك، مستديراً إلى الخلف نحو النادلة باشتياقٍ متجدِّد، «أترغبين في مشروب؟». ربما كان عليه أنْ يهرب معها منذ البداية. ورغبَ في تقبيل موقع النبض في جيدها الطويل.

قالتْ فلور، من دون أنْ تتوقف عن متابعة الكلام، «لا ينبغي حقاً أنْ أشرب ولكن سوف أتناول جِنْ وتونيك. ينبغي أنْ تفخر بأمك. لقد قامت عملياً بكمٍ هائل من أعمال الخير، وهي أعمال الخير الوحيدة الموجودة حقاً -لقد غيَّرتْ حياة المئات، وانكبَّتْ على العمل في تلك المتاجر بطاقة هائلة- إنني أؤمن إيماناً راسخاً بأنّه كان في وسعها أنْ تعمل في مجال المقاولات، لو أنّها احتاجتْ إلى النقود - كما كانت تهرع لحضور معرض هاروغيت التجاريّ بكل اندفاع»

ابتسم باتريك للنادلة ومن ثم أطرقَ نظره إلى مفرش الطاولة بحياء. وعندما رفع بصره من جديد كانت تبتسم له متعاطفة وعيناها تضحكان. من الواضح أنها فهمت كل شيء. كانت ذكيّة ذكاءً فائقاً بالإضافة إلى كونها لذيذة. كانت فلور كلما أكثرتْ في الكلام عن إلينور، رغبَ هو في البدء بحياةٍ جديدة مع النادلة. تناول كوب الجِنْ والتونيك منها برقّة وأعطاه لفلور الثرثارة، التي بدا أنها تقول، «ماذا، ألا تشعر؟» لأسبابٍ لم يفهمها.

سألها «أشعر بمَ؟»

«بالفخر بأمّك؟»

قال باتريك «أعتقد ذلك»

«ماذا تقصد بأنك «تعتقد ذلك»؟ أنتَ أسوأ من أولادي. الوحوش الصِرف»

قال باتريك «اسمعي، لقد أسعدني كثيراً لقاؤك، وأتوقّع أنْ نتحدث من جديد، ولكن ربما ينبغي أنْ أقوم بجولة»

ابتعد عن فلور بحركة غير رسميّة ومشى، رغبةً منه في أنْ يبدو كأنه ينطوي على نيّة صارمة، مقترباً من جوليا، التي كانت واقفة وحدها بجوار النافذة تشرب من كأس من النبيذ الأبيض.

قال باتريك «أنجديني!»

قالتْ جوليا «أوه، مرحباً. كنتُ فقط أُحدِّق من النافذة من دون أنْ أرى شيئاً، ولكنْ ليس إلى درجة ألّا أراكَ تغازل تلك النادلة الجميلة»

«أغازل؟ أنا لم أنطق بأي كلمة»

«لم تكن مُضطراً، يا عزيزي. إنَّ الكلب لا يُضطر إلى قول أي كلمة عندما يجلس إلى جوارنا في غرفة الطعام ويُصدر أصواتاً مُغمغمة صغيرة بينما خيوط من اللعاب تتدلّى منه على السجادة؛ ومع ذلك نعلم ما يُريد»

«أعترفُ بأنني انجذبتُ إليها بصورة مُبهمة، لكنَّ ذلك لم يحدث إلّا بعد أنْ بدأتْ تلك المجنونة ذات الشعر الشائب تحدّثني إلى أنْ بدأتْ تبدو كأنها آخر شجرة باقية يُهدّدها هدير منحدر النهر المتدفِّق عليها»

«يا له من كلام شاعريّ. إنّكَ ما زلتَ تحاول أنْ تنقذ نفسك»

«هذا ليس صحيحاً البتّة: أنا أحاول ألّا أرغب في إنقاذ نفسي»

«إنكَ تحرز تقدّماً»

قال باتريك «تقدّماً بلا هوادة»

«ومَنْ تلك المجنونة التي أجبرتكَ على مغازلة النادلة؟»

«أوه، كانت تعمل في متجر أمي الخيريّ قبل سنين عديدة. وتجربتُها مع أمي تختلف كثيراً عن تجربتي، وقد جعلتني أدرك أنني لستُ مُلِمّاً بمغزى حياة أمي، وأنني مُضلَّل إذ أعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أتوصّل إلى نتيجة جازمة في هذا المجال»

«لا شك أنَّ في استطاعتك أنْ تتوصّل إلى نتيجة ما حول مغزاها بالنسبة إليك»

قال باتريك «إنني لستُ حتى واثقاً مما إذا كان هذا صحيحاً. في هذا اليوم كنتُ ألاحظ مدى اضطراب مشاعري اتجاه والديَّ. ليستْ هناك حقيقة نهائيّة؛ إنَّ الأمر أشبه بقدرتك على بلوغ طوابق مختلفة في مبنى واحد»

اشتكت جوليا قائلة «يبدو هذا مملّاً جداً. أليس أكثر بساطة أنْ تكرهها كليّاً؟»

انفجر باتريك بالضحك.

«كنتُ أعتقد أنني مُنفصل عن والدي. اعتقدتُ أنَّ الانفصال هو أعظم الفضائل، من دون التنازُل الأخلاقيّ القائم على أساس الغفران، لكنَّ الحقيقة هي أنني أشعر بكل شيء: بالاشمئزاز، والحنق، والرثاء، والرعب، والحنان، والانفصال»

«الحنان؟»

«لدى تفكيري في مدى التعاسة التي كان فيها. عندما أصبح لديّ أولاد من صُلبي وشعرتُ بقوة غريزتي لأحميهم، صُعِقتُ من جديد من قيامه عن عمد بإيذاء ابنه، ومن ثم عادت الكراهيّة»

«إذن تخلّيّتَ تماماً عن الانفصال»

«على العكس، أنا فقط عرفتُ مدى كثرة الأشياء التي يجب الانفصال عنها. إنَّ الكراهيّة المتوهّجة والرعب الصِرف يُضعفان الانفصال، يمنحانه فرصة للانتشار»

قالتْ جوليا «كشركة ستيرماستر[1] المتخصّصة بالانفصال»

«بالضبط»

قالتْ جوليا، وهي تفتح النوافذ الفرنسيّة وتخرج إلى الشرفة، «أتساءل إنْ كان يُسمَح لي بالتدخين هنا في الخارج». تبعها باتريك إلى الشرفة الضيقة وجلس على حافة الدرابزين الجصيّ الأبيض. بينما كانت تُخرِج علبة سجائر كاميل بلو، تابعَتْ عيناه المسقَط الجانبيّ الأنيق للوجه الذي لطالما أنعمَ النظر فيه من الوسادة المُجاورة، وهو الآن موجود أمام خلفيّة الوعد المُقيَّد للأشجار التي ما زالت بلا أوراق. راقبَ جوليا وهي تقبِّل قطعة الفيلتر من سيجارتها وتمتصّ اللهب الملتوي من ولّاعتها إلى التبغ المتراصّ. وبعد السحبة القوية الأولى، تدفّقَ الدخان من فوق شفتها العليا، ومن ثم عاد من خلال منخريها إلى الرئتين المتمددتين وأخيراً تحرَّر، أولاً بدفقٍ واحد سميك ومن ثم على دفعات قصيرة وحلقات غير متناسقة وجدران منسابة شكّلتْها كلمات دخانها.

1- شركة ستيرماستر: شركة لإنتاج آلات القيام بالتمارين الرياضيّة بغية تحقيق اللياقة البدنيّة - المترجم.

«إذن، هل كنتَ تبذل جهداً خاصّاً على برنامجك الخاصّ بك؟»

«لقد انتابني مزيجٌ غريب من التيه والسقوط الحرّ. هناك شيء مُريح وموضوعيّ في الموت يُشبه الخصوصيّة الوحشيّة للاحتضار الذي أجبرني مرضُ أمي على تخيّله على امتداد السنوات الأربع الأخيرة. وبمعنى ما أستطيع أنْ أفكّر فيها بكل وضوح للمرة الأولى، بعيداً عن دوامة التعاطُف الذي لم يكن شفوقاً ولا مفيداً، بل أشبه ببديل جاهز لرعبها الخاص»

قالتْ جوليا بعد جرعة ثانية ضعيفة من دخان السيجارة «أليس من الأفضل ألّا تفكّر فيها البتّة؟»

أجاب باتريك، وقد ثبّطه فجأة أسلوب جوليا الصقيل، «كلا، ليس هذا اليوم»

قالتْ جوليا، «أوه، طبعاً ليس اليوم – من بين الأيام كلّها. كنتُ أعني فقط في نهاية المطاف»

قال باتريك، بأسلوبِ المُرافعات الذي يلجأ إليه عندما يُدافع عن نفسه، «إنَّ الذين يطلبون منّا أنْ «نتجاوز الأمر» وأنْ «نتصالح معه» هم الأقلّ مقدرة على المرور بالتجربة المُباشَرة بحيث يوبّخون المُغرِقين في التأمُّل لأنهم يتفادونها. و «الأمر» الذي يتصالحون معه هو العودة المُريعة إلى تشريع عادات انعدام التفكير. إنَّ عدم التفكير في شيء هو الأسلوب الأكثر ضماناً للبقاء تحت تأثيره»

قالتْ دوليا، مرتبكة بصدق باتريك، «أفحمتني، يا سيدي»

«ما معنى أنْ يكون المرء عفويّاً، أنْ يستجيب للأشياء بلا شروط – لأي شيء؟ ليس أي منا في وضعٍ يؤهله معرفة الجواب، ولكن لا أريد أنْ أموت من دون أنْ أعرف»

قالتْ جوليا، التي بدا واضحاً أنّ مشروع باتريك المُبهَم لم يغوها، «هممم»

قال صوت من خلفهما، «عفواً»

نظر باتريك خلفه فرأى النادلة الجميلة. كان قد نسيَ أنّه عشقها، أما الآن فعاد إليه ذلك الشعور.

قال «أوه، مرحباً»

لكنّها لم تتعرَّف عليه، لكنّها ثبَّتت عينيها على جوليا.

قالت «آسفة ولكن لا يُسمَح بالتدخين هنا»

قالتْ جوليا، وهي تأخذ سحبة من سيجارتها، «أوه، يا إلهي. لم أكن أعلم. أمر غريب، لأننا في الخارج»

«في الواقع، من الناحية التقنيّة هو ما زال يشكّل جزءاً من النادي ولا يمكنك أنْ تدخّني في أي موقع من النادي»

قالت جوليا، وهي مُستمرّة في التدخين، «أنا أتفهَّم. حسن، إذن يُستحسَن أنْ أطفئها» وأخذت سحبة طويلة أخرى من سيجارتها التي كادتْ تنتهي، وأسقطتها على الشرفة وسحقتها تحت قدمها قبل أنْ تعود إلى الداخل.

انتظر باتريك النادلة كي تنظر إليه نظرة تعرُّف ومن باب التسلية، لكنها عادتْ إلى موقعها خلف المائدة الطويلة من دون أنْ تلقي أي نظرة في اتجاهه.

لم يكن للنادلة أي فائدة. ولم يكن لجوليا فائدة. وإلينور لم يكن لها فائدة. حتى ميري في نهاية المطاف لم تكن لها فائدة ولم تمنعه من العودة إلى غرفته المفروشة وحده ومن دون أي عزاء.

الخطأ ليس خطأ النساء؛ بل خطأ وَهْمه صاحب اليد الطولى: فكرة أنهنّ موجودات هناك لكي يكنَّ ذوات فائدة له في المقام الأول. يجب أنْ يحرص على أنْ يتذكَّر المرة التالية التي ستخذله فيها إحدى بنات الحرام التافهات. أطلقَ باتريك ضحكة أخرى. كان يشعر بأنّه مُصاب بقدرٍ من الجنون. كازانوفا، كاره النساء؛ كازانوفا، الطفل الرضيع الجائع. النَهَم في القلب العفن إلى المُبالغة. راقبَ الحجابَ المتواضع لاحتقار النفس يُسدَل على موضوع علاقاته مع النساء، مُحاولاً أنْ يمنعه من التعمُّق أكثر. كان احتقار الذات هو المخرج السهل، يجب أنْ يلجأ إليه ويسمح لنفسه بأن يبقى بلا عزاء. وتطلَّعَ إلى المطالب المتقشّفة لتلك الكلمة، كأنها مشروب بارد بعد واحةِ العزاءِ الجافّة. كان متلهِّفاً إلى العودة إلى غرفته المفروشة الخالية من العزاء.

كان الجو يزداد برودة على الشرفة ورغبَ باتريك في العودة إلى الداخل، ولكنْ مَنعَه عن فعل ذلك تردّده في الانضمام إلى كيتل وميري، الواقفتين على الجانب المقابل من النوافذ الفرنسيّة.

قالت كيتل، وهي ترمي نظرة حسَـد على حفيدها الذي يُطوِّق بكل ارتياح عنق أمّه، «أرى أنكما أنتِ وتوماس ما زلتما عمليّاً ملتصقَين معاً»

تنهدتْ ميري. «لا أحد يأمل في تجاهل أولاده تماماً كما كنتِ تفعلين»

«ماذا تقصدين؟ لطالما كنا... نتواصل»

«نتواصل! أتذكرين ما قلتِ لي عندما اتصلتِ بي هاتفيّاً لكي تُخبريني بأنَّ البابا قد مات؟»

«أعتقد أنَّ ذلك كان أمراً فظيعاً»

«لم أقوَ على الكلام من شدَّة اضطرابي، وطلبتِ مني أنْ *أبتهج. أبتهج!* أنتِ لم تعرفيني البتّة وما زلتِ لا تعرفينني»

أشاحت ميري بوجهها مع زمجرة السخط ومشتْ إلى الجهة المقابلة من الغرفة. استقبلتْ كيتل العاقبة الحتميّة لحقدها بتعبير عدم تصديق ودهشة على وجهها. تمشّى باتريك على الشرفة في انتظار أنْ تبتعد، لكنّه بدل ذلك راقبَ أنيتْ تقترب لكي تتحدث معها.

قالتْ أنيت «مرحباً، عزيزتي، كيف حالك؟»

«في الوقع، لقد تلقّيتُ تواً ضربة موجِعة على رأسي من ابنتي، وهكذا في اللحظة الراهنة أنا في حالة صدمة»

قالت أنيت بحِكمة «هذا هو حال الأمهات والأولاد. ربما علينا أنْ نُقيم ورشة عمل حول هذا الموضوع الحيويّ ونغويك بالعودة إلى المؤسّسة»

قال كيتل «إنَّ ورشة عمل حول الأمهات والأولاد سوف تغويني بالبقاء بعيداً. هذا لا يعني أنني في حاجة إلى الكثير من التشجيع للبقاء بعيداً؛ أعتقد أنني تخلّيت تماماً عن الممارسات الروحيّة»

قالتْ أنيتْ «بوركتِ. لن أشعر بأنني انتهيت من أمرها إلّا عندما أتواصل كليّاً مع منبع الحب غير المشروط الذي يسكن كلّ روح على هذا الكوكب»

قالتْ كيتل «حسن، أنا ثبّتُ نظري على هدف أكثر انخفاضاً. أعتقد أنني

مرتاحة لأنني لا أُثير جَلَبَة، وعيناي تدمعان بسبب كل ذلك الدخان الكثيف البائس»

أطلقَتْ أنيتْ عاصفة من الضحك المتسامح.

«حسن، أنا أعلم أنَّ شيموس سوف يُسعده أنْ يراكِ من جديد وأنّه اعتقد أنكِ استفدتِ بشكل خاص من ورشة «السير مع الإلهة»، «والانضمام إلى القوة النسويّة». سوف أشارك أنا فيها»

«كيف حال شيموس؟ أعتقد أنّه انتقل إلى المنزل الرئيسيّ الآن»

«أوه، نعم، إنه في غرفة نوم إلينور القديمة، ويُسيطر علينا جميعاً»

«غرفة النوم التي كان يشغلها باتريك وميري، وتطلّ على مشهد بساتين الزيتون؟»

«أوه، ذلك مشهد كئيب، أليس كذلك؟ بالمناسبة، أنا أحبّ غرفتي، إنها تطل على المصلّى»

قالتْ كيتل «تلك غرفتي أنا. كنتُ أُقيم في تلك الغرفة»

ضحكتْ أنيتْ «أليس غريباً كيف نتمسّك بالأشياء؟ ومع ذلك، في النهاية، حتى أجسادنا ليستْ مُلكنا؛ إنها تنتمي إلى التراب - إلى الإلهة»

قالت كيتل بحزم «ليس الآن»

قالتْ أنيتْ «اسمعي، إذا أتيتِ إلى ورشة الإلهة، تستطيعين أنْ تستعيدي غرفتك القديمة. لا أمانع في أنْ أتركها؛ أنا سعيدة في كل مكان. على أي حال، إنَّ شيموس دائماً يتحدث عن «الانتقال من نموذج الملكيّة إلى نموذج المُشاركة»، وإذا لم يُنفِّذ العناصِر المُسهّلة للأمور في المؤسّسة هذا، لا نستطيع أنْ نتوقَّع أنْ يتمكَّن أي شخص آخر من ذلك»

كان هدف باتريك الأول هو الخروج من الشرفة من دون أنْ يجذب الانتباه إليه، وهكذا كبتَ رغبته في الإشارة إلى أنَّ شيموس كان يتحرَّك في الاتجاه المُعاكس، من المُشاركة في أعمال إلينور الخيريّة إلى احتلال ملكيّتها.

كانت كيتل مُشوَّشة بكل وضوح من عرض أنيت اللطيف عليها أنْ تستعيد غرفة نومها القديمة. لم يكن من السهل هزّ ولاء أنيتْ لمزاجها السَيِّئ ومع ذلك كان صعباً أنْ تقدِّم أكثر من الشُكر لأنيتْ.

قالتْ قبل الانصراف «هذا لطفٌ صافٍ منك»

انتهزَ باتريك فرصته وغادر الشرفة على عجل، مارّاً من خلف ظهر كيتل بحركة حازمة حتى أنَّه جعلها ترتطم بكوب أنيت المُقعقع.

قالتْ كيتل بحِدَّة قبل أنْ ترى مَنْ الذي ارتطم بها، «انتبه»، ثم أضافَتْ عندما رأتْ المُتَّهم، «غير معقول، باتريك»

قالتْ أنيت «أوه، يا إلهي، لقد تلوّثت بالشاي»

لم يتوقّف باتريك واكتفى بالهتاف، «آسف»، من خلف ظهره وهو يجتاز الغرفة بخطوة سريعة. واستمر في السير حتى وصل مُنبَسَط الدَّرَج وأخذ يخبّ، من دون أنْ يعلم إلى أين هو ذاهب، هابطاً الدَّرَج وواضعاً يداً خفيفة على الدرابزين، كمَنْ استُدعيَ لأمرٍ عاجل.

-13-

ابتسمت ميري لهنري من الطرف المقابل للغرفة وباشرت بالسير في اتجاهه، ولكن قبل أنْ تصل إلى جواره اندفعَتْ فلور لتقف أمامها.

قالتْ «آمل ألّا أكون قد سبّبتُ المهانة لزوجك. لقد ابتعدَ عني على عَجَل والآن يبدو أنّه اندفعَ خارج الغرفة كلها»

قالتْ ميري، منبهرة بأحمر شفتَي فلور، الذي كانت قد وَضَعَتْ طبقة جديدة منه حول فمها ولكن أيضاً على أسنانها الأماميّة، «لقد مرَّ بيومٍ عصيب»

قالتْ فلور «هل كان يُعاني من مشكلات عقليّة؟ إنني أسأل فقط لأنني – يعلم الله!– نلتُ نصيبي منها وأصبحتُ أُحسِنُ معرفة متى سيُصاب الآخرون بالانهيار»

قالتْ ميري، تكذب كذباً أبيض، «تبدين في أحسن حال الآن»

قالتْ فلور «أمرٌ غريب أنْ تقولي هذا، لأنني في صباح هذا اليوم قلتُ في نفسي، «لا فائدة من تناول أقراصك وأنتِ تشعرين بأنك في أحسن حال». أشعرُ بأنني في حال جيدة جداً، في الحقيقة»

تراجعتْ ميري بحركة غريزيّة. قالتْ «أوه، عظيم»

تابعت فلور الكلام، «أشعر كأنَّ أمراً مُذهلاً سيحدث لي في هذا اليوم. لا أعتقد أنني أنجزتُ كل ما في طاقتي –أشعر كأنَّ في وسعي أنْ أقوم بأي عمل– كأنَّ في استطاعتي أنْ أُحيي الموتى!»

قالتْ ميري، مع ضحكة مرحة، «هذا آخر ما يمكن لأي شخص أنْ يتوقع في هذه الحفلة. اسألي باتريك أولاً إنْ كانت إلينور هي التي تفكّرين فيها»

قالت فلور، كأنها تُصادق على مُرشَّح ميري لكي يُبعَث حيّاً وتوشك أنْ تقوم بالعمليّة الضروريّة لذلك، «أوه، كم أحبّ أنْ أقابل إلينور من جديد».

قالتْ ميري «أوه، هل لي بالاستئذان. يجب أنْ أذهب وأتحدث مع نسيب باتريك. لقد قطع الطريق من أميركا إلى هنا ولم نكن نعلم حتى أنّه قادم»

قالت فلور «أحبّ أنْ أذهب إلى أميركا. في الحقيقة، قد أطير إلى هناك بعد ظهيرة هذا اليوم»

قالت ميري «على متن طائرة؟»

«نعم، طبعاً...»، ثم قاطعَتْ فلور نفسها «أوه، فهمتُ ما تعنين»

نشرَتْ ذراعيها، ومدَّتْ عنقها إلى الأمام وأخذتْ تتمايل من جانب إلى آخر، مع عاصفة من الضحك صاخبة إلى درجة أنَّ ميري شعرتْ كأنَّ كل شخص في المكان نظر في اتجاههما.

مدَّتْ يدها ولمسَتْ ذراع فلور الممدودة، مبتسمة لها لكي تبيِّن مقدار استمتاعها بتقاسمها نكتتها المضحكة، لكنّها أشاحتْ بوجهها بحزم لكي تنضم إلى هنري، الذي وقفَ وحده في ركن الغرفة.

قال هنري «إنَّ ضحكة تلك المرأة جمعتْ حشداً كبيراً»

قالتْ ميري، «إنَّ كل شيء فيها يجذب حولها حشداً، وهذا ما يُقلقني. أشعر بأنها قد تفعل شيئاً جنونيّاً قبل أنْ نعود إلى منازلنا»

«مَنْ تكون؟ تبدو غريبة»

لاحظَتْ ميري مدى وضوح رموش عينَي هنري أمام خلفيّة عينيه بلونهما الشاحب شبه الشفّاف.

«لا أحد منا قابلها. لقد ظهرتْ هكذا فجأة»

قال هنري، بشهامة شخص يؤمن بالمُساواة، «كما فعلتُ أنا»

قالتْ ميري، «ما عدا أننا نعلم مَنْ أنت ويسرّنا أنْ نراك، خاصّة وأنّه لم يحضر عدد كبير من الناس. لقد فقدَتْ إلينور تواصلها مع الناس؛ وتفكّكتْ حياتها الاجتماعيّة. كان لديها عدد من الأصدقاء، وكلٌ منهم يدّعي أنَّ هناك شيئاً مركزيّاً أكثر، ولكن في الواقع كان هناك شيء في الوسط. وطوال العامين الأخيرين، كنتُ الشخص الوحيد الذي زارها».

«وماذا عن باتريك؟»

«كلا، هو لم يزرها. وقد أضحتْ شديدة التعاسة عندما رأته. كان هناك شيء رغبتْ رغبة يائسة في قوله لكنها لم تتمكَّن من ذلك. لا أقصد فقط بالمعنى التقنيّ أنها لم تتمكن من الكلام خلال السنتين الأخيرتين. بل أقصد أنّه ما كان في إمكانها أنْ تقول ما أرادتْ أنْ تخبره به، حتى وإنْ كانت أشدّ الناس فصاحة في العالم، لأنها لم تكن تعرف ما هو، ولكن عندما مرضَتْ لم تشعر بوطأة ذلك»

قال هنري «شيء مُرعب. إنّه ما نخشاه كلّنا»

قالت ميري «لهذا السبب يجب أنْ نتخلّى عن دِفاعاتنا ما دام ذلك ما زال عملاً طوعيّاً، وإلّا فسوف تدمَّر تلك الدفاعات ويُهيمنُ علينا رعبٌ رهيب»

قال هنري «مسكينة إلينور، إنني أشعر بالأسى لأجلها»

خيَّمَ الصمت برهة عليهما.

قالتْ ميري، «عند هذه النقطة يقول الإنكليز في المعتاد، «حسن، هذا موضوع مُسلّ!» لكي يُغطّوا على شعورهم بالحَرَج لأنهم جادّون»

قال هنري مع ابتسامة لطيفة «فلنركّز على الحزن»

قالت «إنني حقاً سعيدة لمجيئك. إنَّ حبّك لإلينور شديد التعقيد، على خلاف حب أي شخص آخر»

قالتْ نانسي، وهي تقبض على ذراع هنري، باللهفة المُبالَغ فيها لمُسافِرة جنحتْ بها السفينة وتكتشف أنّها ليست العضو الوحيد في عائلتها الذي نجا بحياته، «رأس ملفوف، شكراً لله! أنقذني من تلك المرأة المُريعة ذات السترة الخضراء! لا أصدّق أنَّ أختي كانت تعرفها – من الناحية الاجتماعيّة. أعني، إنَّ هذا الاجتماع هو الأشدّ غرابة. لا أشعر أبداً أنها مناسبة لآل جونسون. عندما أفكّر في جنازة أمي، أو في جنازة خالتي إديث. لقد حضر ثمانمائة شخص جنازة أمي، ونصف أعضاء الحكومة الفرنسيّة، والآغا خان، وآل ويندسور؛ *الجميع* كانوا هناك»

قال هنري «إلينور انتقتْ مساراً مختلفاً»

قالت نانسي، وهي تدير عينيها في مِحجريهما، «إنه درب الماعز»

قال هنري، «شخصياً، لا آبه بمَنْ جاء إلى الجنازة»

قالتْ نانسي «هذا فقط لأنكَ تعلم أنّها ستعجّ بأعضاء من مجلس الشيوخ وبأناس مشهورين وبنساء يجهشن بالبكاء! ومشكلة الجنازات هي أنَّ كل شيء فيها يحدث في اللحظة الأخيرة. هنا يأتي دور إحياء الذكرى، طبعاً، ولكن الأمر ليس نفسه. هناك سِمة دراميّة في الجنازة، على الرغم من أنني لا أطيق تلك التوابيت المفتوحة. أتذكُرْ العم فلاد؟ ما زالتْ تراودني كوابيس يتراءى لي فيها مُسجّى هناك في ذلك الزيّ الذهبيّ والأبيض يبدو **هزيلاً** تماماً» وهتفَتْ نانسي، «أوه، يا إلهي، يا لشكل العربة، وما زلت أرى الغول الأخضر يُحدِّق إليّ!»

كانت فلور تشعر بما يُشبه المتعة والسلطة غير المسؤولتين وهي تستعرض الغرفة بحثاً عن شخص لم ينتفع بعد من حديثها. كان في استطاعتها أنْ تفهم كل التيارات السارية في الغرفة؛ كان يكفيها أنْ تُلقي نظرة سريعة على شخصٍ ما حتى ترى أعماق روحه. وبفضل باتريك مِيلْروز الذي كان يُلهي النادلة بأخذ رقم هاتفها، تمكّنتْ فلور من أنْ تُعدّ لنفسها مشروباً، كأساً مملوءة بالجِنْ مع رشّة من التونيك، بدل العكس. ماذا يهم؟ إنَّ المزيد من الكحول لا يُقلِّل من وعيها المتوهِّج. وبعد أنْ تناولتْ جرعة من كأسها المُلطَّخ بأحمر الشِفاه، اقتربَتْ من نيكولاس برات، مُصمِّمة على مُساعدته على فهم نفسه.

سألتْ نيكولاس، وهي توجِّه إليه تحديقاً ثابتاً جريئاً، «هل سبقَ لك أنْ عانيت من اضطرابات عقليّة؟»

قال نيكولاس، مُحدِّقاً ببرود إلى الشخص الغريب الواقف في طريقه، «هل سبقَ أنْ تقابلنا؟»

تابعتْ فلور قائلة «إنني أسأل فقط لأنَّ لديّ إحساساً خاصاً بهذه الأشياء»

تردَّدَ نيكولاس بين حافز تدمير هذه المرأة العجوز المجنونة بالسترة التي أكلها العثّ، وإغواء التباهي بصحّته العقليّة الهائلة.

ألحّتْ فلور «هل عانيتَ؟»

رفعَ نيكولاس عصا المشي قليلاً، كأنّه ينوي أنْ يلكز جانب فلور، لكنّه عاد فغرزها بقوة في السجادة واتّكأ عليها بكل ثقله. استنشق هواء الاحتقار شديد البرودة، والمُنشِّط، المتدفِّق من النافذة التي تهشَّمَتْ بسؤال فلور الوقِح؛ الاحتقار الذي كان دائماً يجعله أكثر فصاحة من المعتاد، على الرغم من أنّه طرحه على نفسه.

هدر قائلاً «كلا، لم أُعانِ من «مشكلات عقليّة». حتى في هذا العصر المنحطّ من الفوضى والشكوى لم ننجح في قلب الواقع بالكامل رأساً على عقِب. عندما تُصبّ المُفردات الفرويديّة المُبهَمة في كل محادثة، كصبّ الخلّ في صحيفة مملوءة برقائق البطاطا الرطبة، فإنَّ بعضنا يُقرِّر ألّا *يلتهمها*». مدَّ نيكولاس رأسه إلى الأمام وهو ينطق العبارة المألوفة.

تابع قائلاً «إنَّ المُثقفين يعتنون بـ «أعراضهم المَرَضيّة»، وحتى الأحمق صاحب أشد العقول بساطة يشعر بأنّه مُعرَّض للإصابة بـ «عقدة». وكأنّما كون كل طفل «موهوباً» ليس مُثيراً للسخرية بالقدر الكافي، فإنَّ عليهم الآن أنْ يكونوا مرضى أيضاً: قليل من أعراض أسبرغر[1]، والقليل من التوحّد، وانتشار عُسر القراءة؛ وتلك المخلوقات الصغيرة المسكينة الموهوبة تتعرَّض «للتنمُّر» في المدرسة؛ إذا كانوا لا يستطيعون الاعتراف بتعرّضهم للإساءة، فعليهم أنْ يعترفوا بأنهم يُسيئون إلى غيرهم»، ضحك نيكولاس مُهدَّداً، «حسن، يا سيدتي العزيزة -إنني أخاطبك بـ«عزيزتي» من باب ما يُعرَف من دون أدنى شك باسم *اضطراب نقص الصدق*، إلّا إذا طالبَ طبيبٌ مُشعوذ طَموح، يستقرُّ على الشواطئ المُحرِقة، لقارّة التهكُّم العظمى، بعكس معنى سطحيّ على غرار *مرض بوتر* أو *يرقان جونز*- كلا، سيدتي *العزيزة*، لم يسبق لي أنْ عانيتُ من أخفّ أثر من مرضٍ عقليّ. إنَّ الشغف الحديث بعِلم الأمراض هو منزلق أُجبِرَ على التوقّف عند مسافة معيَّنة من قَدَميّ السليمتَي العقل بكل وضوح. يكفي أنْ أتقدَّم من ذلك الركام من القمامة حتى تزول، فاسحة الطريق للرجل الخارق، السليم

1- الأسبرغر: نوع من مرض التوحّد، يتمسّك فيه المريض بأشياء قليلة ولكن بشكل مهووس، ويُعاني من صعوبة في التعامُل مع الآخرين - المترجم.

بالكامل؛ إنَّ أطباء النفس ينتشرون مبتعدين في حضوري، خجلين من مهنتهم الزائفة!»

قالت فلور بفطنة «أنتَ مجنون بكل معنى الكلمة. هذا ما ظننت. لقد طوّرتُ ما يُسمّى «راداري الصغير» مع مرّ السنين. ضَعْني في غرفةٍ مملوءةٍ بالناس وأستطيع أنْ أتبيَّن في الحال مَنْ منهم كان قد عانى من مثل ***تلك*** المشكلة»

مرَّ نيكولاس بلحظة من اليأس عندما أدركَ أنَّ فصاحته المُدمِّرة لم تترك أي أثر، لكنّه، كما يفعل الراقص الخبير في رقصة التانغو الذي يلتفت بسرعة عند حافة حلبة الرقص، بدَّلَ مدخله وهتفَ بأعلى صوته، «اغربي عن وجهي!»

ألقتْ إليه فلور نظرة أشدّ عمقاً.

ختمتْ قائلة: إذا أمضيتَ شهراً في مركز الدير فسوف تستعيد قواك، ويُعيد إليك عقلك السليم، كما تقول الترتيلة. أتعرفها؟ أغمضَتْ فلور عينيها وبدأتْ ترتّل بنشوة، ربي الحبيب يا أبا البشرية/ اغفر لنا ذنوبنا / أعِد إلينا سلامة عقلنا... كلام رائع. سوف أقول كلمة للدكتور باغاتزي، إنّه الأفضل. أحياناً يكون قاسياً، ولكن فقط لخير المريض. انظر إليّ: أنا كنتُ مجنونة بكل معنى الكلمة وأنا الآن في أحسن الأحوال.

مالتْ إلى الأمام لكي تُفضي بسرٍ لنيكولاس.

«أنا أشعر بأنني في أحسن، أحسن، حال، في الواقع»

كانت لدى جوني من الأسباب المِهنيّة ما يمنعه من التورّط مع نيكولاس برات، الذي كانت ابنته مريضة عنده، لكنَّ مرأى ذلك الرجل الشنيع وهو يجأر في وجه امرأة عجوز شعثة الشعر أوصل الضغطَ الذي فرضَه على أعصابه حتى ذلك الحين إلى آخر مداه. اقتربَ من فلور وسألها بهدوء، مُعطياً ظهره لنيكولاس، إنْ كانت على ما يرام.

ضحكتْ فلورا «على ما يُرام؟ أنا في أحسن الأحوال قاطبة، وأفضل من أي وقت آخر». وكافحَتْ لتعبِّر عن إحساسها بالوفرة. لو كان هناك شيء يُشبه كوني في حالٍ يفوق العادي، فهو حالي. كنتُ فقط أحاول أنْ

أساعد ذلك الرجل المسكين الذي نال أكثر من نصيبه العادل من مشكلات الاضطراب العقليّ.

لمّا اطمأنَّ جوني إلى أنَّه آمن، ابتسم لفلور وبدأ ينسحب بلباقة، لكنَّ نيكولاس كان حينئذٍ قد وصل به الغضب إلى مُنتهاه ولم يستطع أنْ يُفوِّتْ تلك الفرصة.

قال، «آه، ها هو! أشبه بعَرضٍ في دراما تقع أحداثها في قاعة محكمة، نُفِّذَ في اللحظة المثاليّة: طبيب مُشعوذ يمارس شعوذته، ومتعهّد الطب *النفسي*، ودليل سراديب المدافن، ودليل إلى المجاري العامة؛ يعِدُ بأنْ يُحوِّل أحلامك إلى كوابيس ويفي بوعوده عبر الدين»، هكذا زمجر نيكولاس، وقد احمرَّ وجهه وتلطّخَتْ زاويتا فمه بنقاط من اللعاب المُتعَب، «إنَّ ناقل أرواح الموتى عبر النهر الثاني إلى الجحيم لن يقبل سعراً بخساً، كزميله البروليتاريّ الذي يعبر بها نهر الجحيم. سوف تحتاج إلى شيك بمبلغ ضخم لكي تعبر نهر النسيان إلى ذلك العالم السُفليّ المنسيّ المؤلَّف من كلامٍ مُبهم خطير حيث الأطفال الذين لم تنبت لهم أسنان يمزقون حَلَمات أثداء أمهاتهم الخالية من الحليب»

بدا أنَّ نيكولاس يُكافح لكي يتنفّس، وهو ينطق جُمَل الذمّ.

كافح لكي يستأنف الكلام «لا يمكن لأي وهمٍ تبتكره أنْ يُعادل في إثارته للاشمئزاز الوهمَ الذي يقوم على أساسه فنّه الشرير، الذي يُلوِّث المُخيّلة الإنسانيّة بمواليد مجرمين وبأطفال جاؤوا من السِفاح...»

فجأة سكتَ نيكولاس عن الكلام، وبقيَ فمه يتحرَّك ليستقبل كفايته من الهواء. أخذ يهتز بحركة مائلة متكئاً على عصاه قبل أنْ يترنّح إلى الخلف مقدار خطوتين ومن ثم انهار بعنف على الطاولة ومنها إلى الأرض. وفي أثناء سقوطه أمسك مفرش الطاولة وجرَّ معه عدداً من الكؤوس. انكفأتْ زجاجة من النبيذ الأحمر على جنبها وأُريقَ محتواها عبر حافة الطاولة ولطَّخَ بزّته السوداء. اندفعتْ النادلة إلى الأمام وأمسكتْ بدلو قطع الثلج نصف الذائبة كان ينزلق باتجاه جسم نيكولاس المتمدد على ظهره.

قالتْ فلور «أوه، يا إلهي، لقد أنهكَ نفسه. وكما يقول المثل«رفعه

منجنيقه». هذا ما يحدث للّذين يرفضون طلب المُساعدة». قالتْ هذا، كأنها تناقش قضيّةً مع الدكتور باغاتزي.

مالتْ ميري نحو النادلة، وهاتفها المحمول مفتوح.

قالتْ «سوف أطلب الإسعاف»

قالتْ النادلة «شكراً لك، سوف أهبط إلى الطابق السفليّ وأُنذِر الاستقبال»

تجمَّع كل من كان في الغرفة حول الرجل الساقط وأخذوا يتفرّجون بمزيجٍ من الفضول والخوف.

ركع باتريك بجوار نيكولاس وبدأ يفكّ ربطة عنقه. وبعد مرور فترة طويلة على بدء المُساعدة، استمرّ في حلّ العقدة إلى أنْ أزال ربطة العنق كلها. حينئذٍ فقط حلَّ الزرّ العلويّ من قميص نيكولاس. حاول نيكولاس أنْ يقول شيئاً لكنّه أجفل من عزم الجهد وبدل ذلك أغمضَ عينيه، مُشمئزاً من هشاشته الخاصّة.

انتاب جوني إحساسٌ بالرضا لأنه لم يكن له أي دورٍ فعّال في انهيار نيكولاس. ومن ثم نظر أسفلاً إلى خصمه المنهار، متمدداً لا يأتي بحركة على السجادة، وبصورة ما ملأه مشهد عنقه العجوز، الذي لم يعُد مُحاطاً بربطة عنق من الحرير الأسود غالي الثمن، بل أصبح مُجعّداً ورخواً ومكشوفاً عند النحر، كأنما في انتظار تلقّي طعنة خنجر ختاميّة، ملأه بالشعور بالرثاء وجدَّد احترامه للقِوى المُحافِظة لذاتٍ فضّلتْ أنْ تقتل مالكها على أنْ تسمح له بالتغيُّر.

قال روبرت «جوني؟»

قال جوني، عندما رأى روبرت وتوماس ينظران عالياً إليه باهتمام عظيم، «نعم»

«لِمَ كان ذلك الرجل شديد الغضب منك؟»

قال جوني «إنها قصّة طويلة، قصة لا يُسمَح لي بإخبار أحد بها»

قال توماس «هل أُصيبَ بشلل نفسيّ؟ لأنَّ الشلل يعني ألّا تتمكن من الحركة»

لم يستطع جوني منع نفسه من الضحك، على الرغم من الهمهمة الرصينة التي تدور حول انهيار نيكولاس.

«حسن، شخصيّاً، أعتقد أنَّ ذلك تشخيص شديد الذكاء؛ لكنَّ نيكولاس برات ابتكر ذلك التعبير لكي يسخر من التحليل النفسيّ، الذي هو عملي»

قال توماس «وما هو؟»

قال جوني، «هو بصورة ما بلوغ حقائق خفيّة حول مشاعرنا»

قال توماس «كلعبة الغميضة؟»

قال جوني «بالضبط، ولكن بدل الاختباء في دواليب الملابس وخلف الستائر وتحت الأسرَّة، يختبئ هذا النوع من الحقيقة على شكل أعراض مَرَضيّة وأحلام وعادات»

قال توماس «أنستطيع أنْ نلعبها؟»

قال جوني، مُخاطباً نفسه أكثر من مُخاطبته توماس وروبرت، «هل نستطيع أنْ نتوقف عن اللعب؟»

اقتربتْ جوليا وقاطعَتْ حديث جوني مع الطفلين.

قالتْ «أهذه هي النهاية؟ لكي ينتهي أمر المرء يكفي أنْ يمرّ بتعكّر مزاجه. أوه، يا إلهي، إنَّ ذلك المتعصِّب دينيّاً يهزّ رأسه. وهذا سوف يقضي عليّ حتماً»

كانت أنيتْ جالسة على عقبَي قدميها بجوار نيكولاس، وتجويفا يديها يسندان رأسه، وعيناها مُغمضتَان وشفتاها تتحركان حركة ضئيلة.

قالتْ جوليا، مذهولة، «أهي تصلّي؟»

قال توماس «هذا لطفٌ منها»

قالتْ جوليا، «يقولون إنَّ على المرء ألّا يتكلَّم بسوء عن الموتى، ولهذا يُستحسَن أنْ أتجاوز الأمر. لطالما رأيتُ نيكولاس برات شخصاً مُريعاً إلى أقصى مدى. أنا لستُ صديقة مُقرَّبة من أماندا، ولكن يبدو أنّه دمَّرَ حياة ابنته. طبعاً أنتِ تعرفين عن هذا أكثر مني»

لم يواجه جوني مشقّة في لزوم الصمتْ.

قال روبرت بشغف «لِمَ لا تكفّين عن التصرف بصورة فظيعة. إنه رجل عجوز ومريض جداً وقد يسمع ما تقولين، وهو لا يستطيع حتى أنْ يردّ عليك»

قال توماس «نعم، هذا ليس عدلاً لأنه لا يستطيع الردّ عليك»

في أول الأمر بدت جوليا مرتبكة أكثر منها منزعجة، وعندما تكلَّمتْ أخيراً حدث ذلك مع تنهيدة جريحة.

«حسن، تعلمين متى تحين مغادرة حفلة ما عندما يبدأ الأطفال بتدبير هجوم جماعيّ على شخصيتك الأخلاقيّة»

قالت، وهي تقبّل جوني على عَجَل على وجنتيه كلَيهما وتتجاهل الصبيين، «هلّا ودّعت باتريك بالنيابة عني؟ لا أستطيع المواجهة بعد ما حدث – أقصد ما حدث لنيكولاس»

قال روبرت «آمل ألّا نكون قد أغضبناها»

قال جوني «هي أغضبَتْ نفسها، لأنَّ ذلك أسهل عليها من أنْ تضطرب»

بعد مرور لحظات على رحيلها، اضطرّتْ جوليا إلى العودة إلى غرفتها إبّان الوصول السريع للنادلة، مع اثنين من رجال الإسعاف، وبعض المعدّات.

قال توماس «انظر! إنها عبوة أكسجين ونقّالة. أتمنى لو أتمدَّد عليها!»

قال النادل من دون سبب «إنّه هنا»

شعر نيكولاس برسغِهِ يُرفَع. كان يعلم أنَّهم قاموا بقياس نبضه. كان يعلم أنَّه سريع جداً، بطيء جداً، ضعيف جداً، قويّ جداً، كل شيء يجري بشكل خاطئ. ثمة تمزّق في قلبه –شيء ما يخترق صدره. يجب أنْ يُخبرهم بأنه ليس واهباً للأعضاء، وإلّا سرقوا أعضاءه قبل أنْ يموت. يجب أنْ يمنعهم! استدعوا آل ويذر! اطلبوا منهم أنْ يتوقفوا عن فعل هذا في الحال. لم يتمكّن من الكلام. ليس لسانه، لا ينبغي أنْ يأخذوا لسانه. من دون كلام، سوف تستمر الأفكار في الانطلاق كقطار من دون سكّة، يتلوّى، يُحطِّم، يمزِّق كل شيء إرباً. طلب منه أحد الرجال أنْ يفتح عينيه. يفتح عينيه. يُبيِّن لهم أنه ما زال سليم العقل، سليم العقل، أجزاء أُعيد تدويرها؟ كلّا! ليس مخُّه، ليس أعضاؤُه التناسليّة، ليس قلبُه، إنه غير صالح لإعادة زرعه، ما زال يتلوى مع ذات داخل جسد غريب. إنها تُسلِّطُ ضوءاً على عينيه، كلا، ليس عينيه؛

أرجوكم لا تأخذوا عينَيه. الكثير من الخوف. من دون فوج من الكلمات، البرابرة، الأسقف المحترقة، حوافر الجياد تضرب الجماجم الهشّة. إنه لم يعُد نفسه؛ إنه تحت الحوافر. لا يمكن أنْ يكون عاجزاً؛ لا يمكن أنْ يُهان؛ لقد فات الأوان على أنْ يُصبح شخصاً لا يعرفه- إنه شيء مرعب حميم.

همس صوتٌ في أُذنه «لا تقلق، نك، سأكون معك في سيارة الإسعاف»

إنها المرأة الأيرلنديّة. معه في سيارة الإسعاف! تقتلع عينيه بإصبعها، تبحث عن كليتيه بأصابعها الرشيقة، تُخرِج منشار المعادن من صندوق عِدَّة الأرواح. أراد أنْ ينجو. أراد أمّه؛ ليس تلك التي كانت له في الحقيقة، بل الحقيقيّة التي لم يُقابلها قط. شعر بيدَين تقبضان على قدميه وبيدين أخريين تنزلقان حول كتفيه. يُشنَق، يُجرّ، يُقسَّم إلى أربعة أجزاء: يُعدَم عَلَناً جزاءً على كل ما ارتكب من جرائم. إنه يستحق. ارحم روحه يا رب. الرحمة يا رب.

تبادل رجلا الإسعاف النظرات وبإيماء من الرأس رفعا نيكولاس من نهايتيه في الحال ووضعاه على النقّالة التي مدّاها إلى جواره.

قالت أنيتْ «سأرافقه في السيارة»

قال باتريك «شكراً لك. هلّا اتّصلتِ بي من المستشفى إذا جدّ أي جديد؟»

قالتْ أنيتْ «حتماً»، ثم قالتْ، وهي تعانق باتريك عِناقاً غير متوقَّع، «أوه، إنها صدمة مُروّعة بالنسبة إليك. يُستحسن أنْ أذهب»

سألتْ نانسي «هل تلك المرأة سترافقه؟»

«نعم، أليس هذا تصرّفاً لطيفاً منها؟»

«لكنها حتى لا تعرفه. أما أنا فأعرف نيكولاس منذ زمن بعيد. أولاً كانت مع أختي والآن مع صديقي الحميم بكل معنى الكلمة. شيء لا يُطاق»

قال باتريك «لِمَ لا تلحقين بها؟»

قالتْ نانسي، مع لمسة سخط، وكأنّ من المُغالاة أنْ يتوقَّع منها أنْ تكون الشخص الوحيد الذي يُبدي أي قدرٍ من المُراعاة، «ثمة شيء واحد أستطيع أنْ أفعله من أجله. إنَّ ميغيل، سائقه المسكين، ينتظر في الخارج وليست لديه

أدنى فكرة عمّا يحدث. سوف أذهب وأنقل الخبر إليه، ثم أستقلّ السيارة وأذهب إلى المستشفى، بحيث تتوفَّر عندما يحتاج نيكولاس إليها»

كان في وسع نانسي أنْ تتوقف في ثلاثة أماكن وهي على الطريق. سوف يستغرق الفحص وقتاً طويلاً، في الحقيقة قد يكون نيكولاس قد مات فعلاً، وإذا أقلّها ميغيل المسكين بالسيارة وتجوّل بها طوال فترة بعد الظهيرة فقد يُساعده ذلك على الكفّ عن التفكير في الوضع الرهيب. لم يكن لديها نقود لتستأجر سيارة، وكانت قدماها المتورمتان تبرزان خارج الحواف الداخليّة لحذائها الأنيق أناقة فائقة وكلَّفها ألفَي دولار. قال الناس عنها إنها مُفرطة في البذخ بصورة لا خلاص منها، ولكنْ كان يمكن *لكلّ فردة* من الحذاء أنْ تُكلِّف ألفَي دولار لو لم تشتره بكل بخل من عرضٍ للتنزيلات. لم يكن في وسعها أنْ تحصل على أي مبلغ من المال حتى آخر الشهر، عِقاباً لها أنزله بها أصحاب المصارف الشنيعون بسبب «تاريخها في الاستدانة». وتاريخها في الاستدانة، عندما يتعلَّق الأمر بها، يكمن في أنَّ أمّها وضعتْ وصيّة قذرة تسمح بموجبها لزوج أمّها الشرير أنْ يسرق مال نانسي كلّه. وكان ردّها البطوليّ هو أنْ تُنفِق وكأنَّ العدل قد استتبّ، وكأنّها تستعيد النظام الطبيعيّ للعالم بغشّ أصحاب الدكاكين، ومُلاك العقارات، ومُصمّمي الديكور، وبائعي الزهور، ومُصفّفي الشعر، واللحامين، والصاغة وأصحاب المرائب، بعدم إعطاء فتيات حِفظ المعاطِف إكراميات، وبافتعال مُشاجرات مع الهيئة الإداريّة لكي تتمكّن من طردهم من الخدمة من دون أنْ تدفع لهم مُستحقاتهم.

في جولتها الشهريّة إلى مصرف مورغان غوارانتي –حيث كانت أمّها قد فتحتْ لها حِساباً مصرفيّاً بمناسبة حلول عيد مولدها الثاني عشر– تلقَّتْ ألفاً وخمسمائة دولار نقداً. وفي ظل ظروفها الصعبة، كان السير مشياً على الأقدام إلى الشارع التاسع والستين يشبه نبات خنّاق الذباب يسطع بالألوان ويشعّ بحبات ندى اللاصقة. كانت غالباً ما تصل إلى المنزل وقد أنفقَتْ نقود نصف مرتّب الشهر؛ أحياناً كانت تُحصي كامل المبلغ، فيبدو عليها الارتباك من اختفاء ألفين أو ثلاثة آلاف، وتنجح في سرقة مسلّة من الرخام الورديّ أو لوحة فنيّة لقرد يرتدي سترة من المخمل، وتعِدُ بالعودة في وقت لاحق

من النهار، بعد أنْ لاحظتْ وجود نقص آخر في متاهة دَينها المُعقّدة، وتقوم بالتفافة أخرى في جولاتها سيراً على الأقدام في المدينة. كانت دائماً تُعطي رقم هاتفها الحقيقيّ، مع تغيير رقم واحد فيه، وتعطي عنوانها الحقيقيّ مع تغيير الموقع بمقدار عمارة أو عمارتين، وتعطي اسماً زائفاً بأكمله - طبعاً. أحياناً تُطلِق على نفسها اسم إديث جونسون، أو ميري دو فالانسيه، وتُذكِّر نفسها بأنه ليس لديها ما تخجل منه، وبأنه في وقتٍ من الأوقات كان في استطاعتها أنْ تشتري مبنى كاملاً في المدينة، لا بأس في سرقة حلية تافهة من أحد متاجرها.

مع حلول منتصف الشهر تكون قد أضحتْ مُفلسة تماماً. وعند تلك النقطة تلجأ إلى إحسان أصدقائها. فيدعوها البعض إلى المكوث عندهم، والبعض الآخر يسمحون لها بإضافة فاتورة وجبات غدائها وعشائها إلى حسابهم في مطعم جيمي أو لو جاردان، وآخرون يكتفون بتحرير شيك لها بمبلغ كبير من المال، مُعتقدين أنَّ نانسي اقتحمت طريقها لتقف في أول الطابور وأنَّ ضحايا الفيضانات، والتسونامي، والزلازل سوف يُضطرون إلى الانتظار عاماً آخر. أحياناً كانت تفتعل أزمة تُضطر الأوصياء عليها إلى تحرير المزيد من رأس المال لكي يُبعدوها عن السجن، مما يُخفِض دخلها كثيراً. ومن أجل حضور جنازة إلينور، أقامتْ مع أصدقائها الكبار آل تيسكو، في شقّتهم الفخمة في بلغريف سكوير، في مبنى مُحوَّل جزئيّاً يقع على الجهة المقابلة لخمسة مبانٍ من طابقين. وكان هاري تيسكو قد دفع سلفاً قيمة بطاقة سفرها بالطائرة -في الدرجة الأولى- ولكن كان عليها أنْ تنهار وتجهش بالبكاء في غرفة جلوس سينثيا الصغيرة قبل أنْ تذهب إلى دار الأوبرا في تلك الليلة، وتُخبرها عن الضغط الهائل الذي تعرّضَتْ له. وآل تيسكو أثرياء ثراءً فاحشاً مما أثار غضب نانسي الشديد واضطرّتْ إلى أنْ تقوم بعمل مُهين جداً لكي تبتز منهم المزيد من المال.

سألتْ كيتل نانسي «ألم يكن في استطاعتك أنْ توصليني في طريقك؟»

قالتْ نانسي، وقد أُصيبت بالرعب من فظاظة تلميحها، «هذه سيارة نيكولاس الخاصّة، يا عزيزتي، وليست سيارة أداء خدمات. إنَّ مرضَه يجعل الوضع مزعجاً جداً»

قبّلتْ نانسي باتريك وميري قُبلة الوداع وأسرعتْ بالمغادرة.

هتفَ باتريك خلفها «بالمناسبة، هو ينزل في مستشفى سينت توماس. لقد أخبرني سائق سيارة الإسعاف بأنها المكان الأفضل لمعالجة الجلطة»

سألته نانسي «أأُصيبَ بسكتة دماغيّة؟»

«بل بنوبة قلبيّة، لقد أدركوا ذلك من الأنف البارد - إنَّ الأطراف تُصبح باردة»

قالتْ نانسي «أوه، كفى، لا أتحمّل التفكير في الأمر»

اندفعَتْ تهبط الدَّرَج بما أنّه لم يتبقَ لديها وقت تُبدِّده: لقد حدَّدَتْ لها سينثيا موعداً عند محل مُصفِّف الشَعر واستخدمتْ الكلمات السِحريّة، «ضعي التكلفة على حسابي»

بعد مُغادرة نانسي، عرَضَ هاري على كيتل الحزينة توصيلة. وبعد بضع دقائق من الشكوى من فظاظة خالة باتريك، قبِلَتْ العَرض وودّعتْ ميري والطفلَين. وعد هنري بالاتصال بباتريك في اليوم التالي، ورافقَ كيتل إلى الطابق السفليّ. وقد دُهِشا عندما وجدا نانسي لا تزال واقفة على الرصيف خارج النادي.

قالتْ بأنين خيبة الأمل الصبيانيّ «أوه، اللعنة، لقد اختفَتْ سيارة نيكولاس»

قال هنري ببساطة «تستطيعين أنْ تأتي معنا»

جلستْ نانسي وكيتل في المقعد الخلفيّ للسيارة في صمتٍ عِدائيّ. وفي المقعد الأماميّ طلبَ هنري من السائق أنْ يتوجّه أولاً إلى برينس غيت، ومن ثم ينتقل إلى مستشفى سينت توماس وأخيراً يعود إلى الفندق. فجأة أدركتْ نانسي ما ارتكبَتْ بقبولها التوصيلة. كانت قد نسيتْ أمر نيكولاس تماماً. والآن سوف تُضطر إلى اقتراض بعض المال من هنري لكي تستقلّ سيارة أجرة وتعود إلى مُصفِّف الشعر من مستشفى لعينة تقع في مكانٍ ناءٍ. كان ذلك كافياً لدفعها إلى الصراخ.

سقوط نيكولاس، والهرج الذي تبع ذلك، ووصول رجال الإسعاف، وانصراف بعض الضيوف شتَّتَ هذا كله انتباه إراسموس. وعندما طَفَقَتْ

فلور ترتّل في منتصف حديثها مع نيكولاس، أرسلت عبارة «جدِّد عقولنا القويمة» رعشة قصيرة فيه، كصفير استدعاء الكلاب الحادّ، الذي لا يسمعه الآخرون لكنّ طَبَقَته تناسب هواجسه الخاصّة، لقد ذكّرته بسيده الحقيقيّ، مُصرّاً على أنَّ يغادر الحقول الموحلة للذاتيّة للتواصُل الروحيّ والآثار المُضلِّلة للعقول الأخرى إلى الحافة المنعشة للشرفة التي سُمِحَ له باللجوء إليها، بضع لحظات، لكي يُفكِّر في التفكير. إنَّ الحياة الاجتماعيّة تميل إلى دفعه في الاتّجاه المُعاكس لرفضه الأساسيّ لافتراض أنَّ الهويّة الفرديّة يُحدِّدها تحويل التجربة إلى قصّة أكثر زخرفة وتناسقاً بكثير. لقد عثر على الأصالة في التفكير وليس في السرد. لقد جعله الضغط الذي دفعه إلى تحويل ماضيه إلى حكاية، أو في الواقع لكي يتخيَّل المستقبل على شكل مطامح شغوف، جعله يشعر بأنّه أخرق وزائف. كان يعلم أنَّ عجزه عن الشعور بالإثارة من ذِكرى يومه الأول من التحاقه بالمدرسة، أو إبراز ذاتٍ متراكمة وتزداد صلابة أرادتْ أنْ تتعلَّم العزف على آلة الهاربسيكورد، أو تاقتْ إلى العيش في تشيلترنز، أو حداها الأمل في رؤية دماء المسيح تسيل في القبّة الزرقاء، جعل شخصيته تبدو غير حقيقيّة للآخرين، ولكن كون الشخصيّة غير حقيقيّة بالذات بدا له في منتهى الوضوح. كانت ذاته الأصيلة هي الشاهد المُنتبه على تشكيلة من الانطباعات المتقلِّبة التي لم تتمكن، بحد ذاتها، من تعزيز أو التقليل من حسّه بالهويّة.

لم تكن لديه فقط مشكلة وجوديّة مع افتراضات السرد المُسلَّم بها عموماً للحياة الاجتماعيّة العاديّة لكنّه وجد نفسه أيضاً، في تلك الحفلة بالذات، يتساءل حول الافتراض الأخلاقيّ، الذي تقاسمه مع الجميع ما عدا أنيتْ (ولم يتقاسمه مع أنيتْ لأسبابٍ كانت بحدّ ذاتها إشكاليّة)، والقائل إنَّ إلينور ميلْروز أخطأتْ بحرمان ابنها من الميراث. وإذا وضعنا جانباً برهة من الوقت صعوبات الحُكم على فائدة المؤسّسة التي وهبَتها، فهناك ميزة نفعيّة كامنة لا يمكن تجاهلها في الانتشار الأوسع لمصادرها. كان يمكن للسيدة ميلْروز أنْ تتّكل على الأقلّ على جون ستيوارت ميل وجيريمي بنتام وبيتر سينغر و ر. م

هير[1] لكي يتعاطفوا مع قضيتها. وإذا خرج ألف شخص من المؤسّسة، على مرّ السنين، اكتشفوا بوسائل، مهما كانت سريّة، حسّاً بالهدف حوّلَهم إلى مواطنين أكثر غيريّة وأصحاب ضمير حيّ، فهل سترجح كفّة المنفعة بالنسبة إلى المجتمع على كفّة الكآبة التي استبدَّتْ بعائلة من أربعة أشخاص (مع وعي واحد فقط بالخسارة) توقّعوا أنْ يمتلكوا منزلاً ومن ثم خاب أملهم في ذلك؟ ووسط خضم وِجهات النظر هل يمكن إطلاق حكم أخلاقيّ متين من أي وِجهة نظر أخرى تختلف عن تلك الصادرة عن وجهة نظر النزاهة الأشد صرامة؟ ومسألة إمكان ترسيخ وجهة النظر تلك هي سؤال آخر والجواب عليه هو حتماً تقريباً النفي. ومع ذلك، حتى وإنْ طرحنا جانباً عِلم الحساب النفعيّ، القائم على أساس فكرة نزاهة مستحيلة التحقيق، على أساس أنَّ الدافع قائم على الرغبة، كما يقول هيوم، فإنَّ استقلاليّة تفضيل فرد ما لنوعٍ واحد من السلع على نوعٍ آخر تبقى قضية أخلاقيّة قويّة بالنسبة إلى خَيار إلينور المُحبّ للبشريّة.

ساد إحساس بالارتياح عندما رافقَتْ فلور نقّالة نيكولاس إلى الطابق السفلي وبدا أنّها غادرتْ الحفلة، لكنّها عادتْ إلى الظهور من جديد بعد ذلك بعشر دقائق على مدخل الباب بحزم. وعندما رأتْ إراسموس متكئاً على الدرابزين يُحدِّق متأمّلاً أسفل الدرب المفروش بالحصى، عبّرتْ على الفور عن رعبها لباتريك.

سألته بحِدَّة، كمُربّية تشعر باليأس لأنها غادرتْ غرفة الحضانة ولو حتى لبضع دقائق، «ما الذي يفعله ذلك الرجل على الشرفة؟ أينوي أنْ يقفز؟»

قال باتريك «لا أعتقد أنّه ينوي أنْ يفعل هذا، لكنني متيقّن من قدرتك على ثَنيه»

قالتْ فلور «إنَّ آخر ما نحتاج إليه هو ميتة أخرى»

قال روبرت «سأذهب لأتبيَّن»

قال توماس «وأنا أيضاً»، مندفعاً خلال النافذة الفرنسيّة.

1- وهي أسماء لفلاسفة أخصائيين في الاقتصاد والفكر الاقتصادي والأخلاقي – المترجم.

شرح قائلاً «لا ينبغي أنْ تقفز، لأنَّ آخر ما نحتاج إليه هو ميتة أخرى تحدث هنا»

قال إراسموس «لم أكنْ أفكّر في القفز»

سأله روبرت «فيمَ كنتَ تفكّر؟»

أجاب إراسموس «فينا إذا كان فعل الخير للكثير من الناس أفضل من فعل الخير لعدد قليل منهم»

قال روبرت بجديّة، مومئاً بيده اليُمنى إيماءة غريبة، «إنَّ حاجات الغالبيّة أكثر من حاجات الأقليّة، أو الواحد»

عندما فهم توماس التلميح إلى منطق مخلوقات فولكان في فيلم *Star Trek 2*، قام بالإيماءة نفسها بيده.

قال، مبتسماً رُغماً عنه لفكرة أنْ تنمو له أذنان مُدبّبتان، «عِشْ طويلاً وازدهر»

مشت فلور بخُطى واسعة إلى الشرفة وخاطبتْ إراسموس من دون أيّ مُقدمات تافهة.

سألته «هل جرّبتَ تناول الأميتريبتيلين؟»

قال إراسموس «لم أسمع به أبداً. ماذا كتب؟»

أدركتْ فلور أنَّ إراسموس أشدّ تشوّشاً بكثير مما تخيَّلت.

قالت تلاطفه «الأفضل أنْ تأتي إلى الداخل»

عندما ألقى إراسموس نظرة إلى الداخل لاحظَ أنَّ غالبية الضيوف قد غادروا وافترَضَ أنَّ فلور تُلمِّح بلباقة إلى أنَّ عليه أنْ يُغادر.

قال إراسموس «نعم، لعلّك على صواب»

اعتقدتْ فلور أنّها تتمتَّع بموهبة حقيقيّة في التعامُل مع المُصابين بحالات عقليّة متطرفة وأنّه ينبغي ربما تعيينها مسؤولة عن جناح الكآبة في مستشفى العلاج النفسي، أو حتى عن وحدة السياسة القوميّة.

عندما انتقلَ إلى الداخل، قرّر إراسموس ألّا ينخرط في المزيد من الحياة الاجتماعيّة المتنافرة، بل أنْ يودِّع بكل بساطة ميري ومن ثم يُغادر في الحال. وعندما مال عليها ليُقبّلها، تساءلَ إنْ كان شخصاً من النوع الذي يطغى عليه

الطابع الروائي سوف يشتهي ميري لأنه سبق له أنْ اشتهاها في الماضي، وإنْ كان سيتخيَّل أنَّ قسماً من الماضي نُقِلَ عبر آلة الزمن إلى اللحظة الراهنة. وذكَّره الوهم بملاحظة فيتغنشتاين المُستقبليّة القائلة «لا شيء أكثر أهميّة في تعليمنا فهم المفاهيم التي نحملها من تركيب مفاهيم وهميّة». في حالته الخاصّة، تتصِف شهوته، كما هي واقع الحال، بسِمة الحقيقة بصيغة الفعل المضارع غير المنطقيّ، كعِطر زهرة.

قالتْ ميري «شكراً لمجيئك»

تمتم إراسموس «لا شكر على واجب»، وبعد أنْ شدَّ على كتف ميري برقّة، غادر من دون أنْ يودّع أي شخص آخر.

قالت فلور لباتريك «لا عليك، سوف أتبعه سرّاً عن قُرب»

قال باتريك، مجتهداً كي يُخفي ارتياحه للتخلُّص من فلور بتلك السهولة، «أنتِ ملاكه الحارس»

لحقتْ ميري فلور بأدب إلى منبسط الدَّرَج.

قالتْ فلور «لم يُتَح لي الوقت للتحدث. إنَّ حياة ذلك المسكين في خطر»

كانت ميري أكثر حِكمة ولم تناقض امرأة تمتلك قوة قناعات فلور، «حسن، سرَّني كثيراً لقاؤك بوصفك صديقة قديمة لإلينور»

قالت فلور «أنا واثقة من أنها تقودني. إنني أشعر بتواصلها معي. لقد كانت قديسة؛ سوف تدلّني إلى سبيل مساعدته»

قالت ميري «أوه، رائع»

هتفتْ فلور، «باركك الله»، عندما انطلقتْ تهبط الدَّرَج بخُطى واسعة، عازمة على ألّا تفقد أثر تقدُّم إراسموس نحو الانتحار خلال شوارع لندن.

قال جوني «يا لها من امرأة!»، وهو يُراقب فلور تخرج من الباب، «لا يسعني إلّا أنْ أشعر بأنَّ على شخصٍ ما أنْ يتبعها هي بدل العكس»

قال باتريك «أخرجني من هذا، لقد نلتُ ما يكفيني وأكثر من فلور. إنَّ السماح بإخراجها من مركز الدير للمعالجة أمرٌ عجيب»

قال جوني «تبدو لي كأنها على مشارف بدء مشهد مجنون. أتخيّل أنها كانت تستمتع بذلك كثيراً وقرَّرتْ أنْ تمتنع عن تناول أقراصها»

قال باتريك «حسن، فلنأمل أنْ تبدّل رأيها قبل أنْ «تنقذ» إراسموس. قد لا ينجو إذا واجهته بخشونة على الجسر، أو وثبتْ عليه بينما يُحاول اجتياز الشارع»

قالتْ ميري، وهي تضحك بارتياح ودهشة، «يا إلهي، لم أُصدِّق أنها ستغادر. آمل أنْ ينجح في الوصول إلى المنعطف قبل أنْ تخرج هي»

فقال جوني «يجب أنْ أغادر بدوري. لدي مريض عند الساعة الرابعة»

ودَّع الجميع، مُقبّلاً ميري، ومعانقاً الصبيِّين، وواعداً بالاتصال لاحقاً.

فجأة أصبحت العائلة وحدها، بعيداً عن النادلة، التي كانت تزيل الكؤوس وتعيد الزجاجات التي لم تُفتَح إلى علب الكرتون في الركن.

شعرَ باتريك بمزيج مألوف من الحميميّة والأسى، بما أنّه كلاهما معاً ويعلم بأنهما يوشكان أنْ ينفصلا.

سألَ توماس «هل ستعود معنا؟»

قال باتريك «كلا، يجب أنْ ألتحق بالعمل»

قال توماس «أرجوك، أريد منك أنْ تحكي لي حكاية كما كنتَ تفعل»

قال باتريك «أراكما في العطلة الأسبوعيّة»

وقفَ روبرت جانباً، عالِماً أكثر من أخيه ولكن ليس بالمقدار الكافي ليجعله يفهم.

قالتْ ميري «يمكنك أنْ تأتي وتتناول وجبة العشاء معنا إذا شئت»

أرادَ باتريك أنْ يقبل الدعوة وأراد أنْ يرفضها، أراد أنْ ينفرد بنفسه وأراد أنْ يكون في صُحبة، أراد أنْ يكون قريباً من ميري وأنْ يبتعد عنها، وأراد من النادلة الجميلة أنْ تعتقد أنّه يعيش حياة مُستقلّة وأراد لولديه أنْ يشعرا بأنهما جزء من عائلة منسجمة.

قال، كأنّه مدفون تحت ركام من التناقضات ومحكوم عليه بالندم على كل خَيار يقوم به، «أعتقد أنني سوف... أنهار. لقد كان نهاراً طويلاً»

قالتْ ميري «لا عليك إذا غيَّرتَ رأيك»

فقال توماس «في الحقيقة، يجب أنْ تغيِّر رأيك، لأنَّ هذا هو الهدف من الأمر!»

-14-

بدا باتريك وهو يجتهد للوصول إلى شقّته المفروشة، المؤلَّفة من غرفة صغيرة على السطح تم تجهيزها وذات جدران منحدرة في الطابق الخامس من مبنى ضيِّق على الطراز الفيكتوريّ يقع في كينسينغتون، كأنّه ينكفئ إلى تاريخٍ ثوريّ، ويزداد انحناءً مع كل مطلع دَرَج، إلى أنْ أراحَ براجم أصابعه على بساط المنبسط الأعلى، كالإنسان الأول الذي لم يتعلَّم بعد أنْ يقف مُعتدل القامة على مروج إفريقيا ولا يقوم إلّا بجولات استكشافيّة نادرة تحت أمان الأشجار.

تمتم، وهو يستعيد أنفاسه وينهض إلى مستوى ثقب المفتاح، «اللعنة»

كانت دعوة النادلة اللذيذة إلى زريبته أمراً مُستبعداً، على الرغم من أنَّ رقم هاتفها يستقرّ في جيبه، بجوار قلبه الذي ينبض بصورة مُقلِقة. كانت صغيرة السن بحيث لا تُضطر إلى الخروج قسراً من تحت جثّة رجل في منتصف العمر توفيَ في غمرة محاولته أنْ يُبرِّر ارتقاءها الشاقّ إلى شقّته المتواضعة. ارتمى باتريك مُرهَقاً على السرير وعانقَ الوسادة، متخيّلاً ريشها المُرهَق وكيسها الذي اصفرَّ لونه وقد تحوّلا إلى عنق دافئ وناعم. القلق المُثير للشهوة الجنسيّة الذي يتّصِف به موت حديث العهد؛ الرواق الطويل من البدائل التي استُبدِلَتْ ببدائل؛ والعطش المُعذِّب إلى العزاء: هذه كلها مألوفة، لكنّه تذكَّر بكآبة بأنّه عاد إلى اللا - منزل، الآن بعد أنْ انفردَ بنفسه أخيراً، لكي يتفادى التعزية. هذه الشقّة، غرفة عازب لشخصٍ ليس عازباً، غرفة طالب مستأجَرة لغير طالب، كانت مكاناً جيداً كما تمنّاه لكي يُمارِس كونه غير مُعزَّى. إنَّ التوتّر طويل الأمد بين الاتّكال والاستقلال، بين المنزل والمغامرة يمكن حلّه فقط

بالتآلف مع كل مكان، بتعلُّم كيف يتعامل بمُساواة مع احترام الذات الحانق في كل مزاج وفي ظل كل حادثة. كان أمامه مشوار عليه أنْ يقطعه. ويكفي أنْ ينفد من عنده زيت الاستحمام المُفضَّل لديه حتى يشعر برغبة في رفع مطرقة إلى غرفة الاستحمام ويرجو الطبيب إعطاءه وصفة أقراص فاليوم.

مع ذلك، استلقى على السرير وأخذ يفكّر في مقدار تصميمه: فأس توماهوك يُصدر صفيراً داخل الغابة ويستقر بصوت مكتوم على هدفه، ومض ضوء نوويّ يُبدِّد دائرة من الغيوم على امتداد أميال حوله. تدحرج ببطء مُغادراً السرير وهو يئنّ وغاص في أريكة سوداء بجوار المدفأة. ومن خلال النافذة على الجانب المقابل من الشقّة شاهد صفائح الأسقف المنحدرة نحو أسفل التل، ومخارج المداخن المعدنيّة اللولبيّة تلمع تحت شمس بعد الظهيرة، وعلى مسافة منه، كانت أشجار متنزّه هولاند، لا تزال أوراقها مشدودة لتجعل أغصانها خضراء اللون. قبل أنْ يستدعي النادلة – أخرجَ الفاتورة واكتشفَ أنَّ اسمها هيلين– وقبل أنْ يتصل هاتفيّاً بميري، وقبل أنْ يخرج ليتناول وجبة عشاء طويلة ومُهدِّئة وأنْ يُحاولَ أنْ يقرأ كتاباً جديّاً، تحت الإضاءة الضعيفة وتحت تأثير الموسيقى التي تُثير الجنون، وقبل أنْ يتظاهر بأنّ مواكبة الشؤون العامة أمرٌ مهمّ وينتقل إلى الأخبار، وقبل أنْ يستأجر فيلماً سينمائيّاً عنيفاً، أو يستمني في الحمّام لأنه لم يستطع أنْ يواجه استدعاء هيلين أصلاً، كان سيجلس على هذه الأريكة بعض الوقت ويُبدي بعض الاحترام لضغوط النهار ومخاوفه.

ما الذي بالضبط يأسى عليه؟ ليس وفاة أمّه – فقد كانت مُريحة في الأساس. ولا حياتها، لقد تأسّى على سنوات معاناتها وإحباطها الماضية عندما بدأ انحدار حالتها ودخولها مرحلة الخرَف. ولا علاقته بها، التي لطالما اعتبرها أثراً على شخصيته وليستْ تعاملاً من شخصٍ آخر. والضغط الذي شعر به في هذا اليوم كان شيئاً يُشبه حضور مرحلة الطفولة الأولى، شيئاً أعمق بكثير وأكثر عجزاً من علاقته المُجرمة بوالده. وعلى الرغم من حضور والده مع كل مصادر حنقه ومباضعه[1]، وحضور أمّه مع إرهاقها ومشروب

1– مباضِع: جمع مِبضع، أو مِشرط الطبيب الجرّاح – المترجم.

الجِن الخاصّ بها، لم يكن في الإمكان وصف هذه التجربة بأنها روائيّة أو مجموعة من العلاقات، بل وُجِدَتْ في قلب الجمجمة. وبالنسبة إلى رجل حاول أنْ يتكلَّم لكي يخرج من كل ما فكَّر فيه وشعر به، كان شيئاً صاعقاً أنْ يجد أنَّ هناك شيئاً ضخماً فشلَ في أنْ يأتي على ذِكره. ربما هذا ما يتقاسمه مع أمّه، جوهر اللجلجة[1]، الذي تضخَّم في حالتها بسبب المرض، ولكنه في حالته استتر إلى أنْ سمعَ نبأ وفاتها. كأنَّ تصادماً حصل في الظلام في غرفة غريبة؛ كان يتلمَّس طريقه حول شيءٍ لم يتذكّر أنّه كان موجوداً عندما أُطفئت الأنوار. لم تكن كلمة الأسى مناسِبة لهذه التجربة. لقد تُرِكَ مع خوفه ولكن أيضاً مع إثارته. وفي عالم ما بعد الأبوَّة ربما استطاع أنْ يفهم تكيّفه على أنّه حقيقة واحدة، من دون أي اهتمام بعِلم الأنساب، ليس لأنَّ وِجهة النظر التاريخيّة لم تكن صحيحة، بل لأنها أُنكِرَتْ. قد يُحقِّق هذا النوع من الهدنة شخص آخر قبل أنْ يموت والداه، أما والداه هو فشكّلا عائقَين كان عليه أنْ يتخلّص منهما بالمعنى الحرفيّ للكلمة قبل أنْ يتمكّن من تخيُّل شخصيته تُصبح الوسيط الشفّاف كما تاقَ إلى أنْ تكون.

لطالما اعتبرَ فكرة الحياة الطوعيّة فكرة متطرّفة. كان كل شيء محكوماً بما حدث سابقاً؛ حتى رغبته المتعصّبة في هامش من الحريّة كانت محكومة بالغياب القاسي للحريّة في حياته المُبكِّرة. ربما لم يكن متوفّراً إلّا نوع من حرية مشكوك فيها: كان في قبول المحتوم الناجم عن السبب والأثر على الأقلّ تحرُّر من الضلال. والحقيقة هي أنَّه في الواقع لم يكن يعلم. في كل الأحوال كان عليه أنْ يبدأ بالاعتراف بدرجة من انعدام حريته، تستقر في هذا الجوهر من اللجلجة الذي أصبح الآن أخيراً يُعانقه، وينظر إليه بنوع من الرعب الخيريّ. كان يقضي مُعظم وقته في حالة ردّة فعل على تكيّفه، تاركاً الغرفة الصغيرة لتستجيب لما تبقّى من حياته. كيف تكون ردَّة الفعل على لا شيء والاستجابة مع كل شيء؟ قد يستطيع أنْ يتقدم قليلاً على الأقل في هذا الاتجاه. وبينما كان يُحاول أنْ يُخبر جوليا غير المتجاوبة، لم يقتنع بالأحكام الختاميّة أو بالنتائج. لقد عانى مُطوّلاً من العجز، المُضادّ السلبيّ

1- اللجلجة: صعوبة في النطق أو في التعبير بالكلام - المترجم.

لفضيلة شيللي الشهيرة بعيشه وسط الأسرار، والشكوك والريَبْ من دون أنْ يتناول الوقائع والشروحات -أو كائناً ما كانت العبارة الدقيقة- أما الآن فأصبح مستعداً ليبقى منفتحاً أمام تلك الأسئلة التي ليس من الضروري أنْ تجد أجوبة. ربما يستطيع أنْ يُجيب على كل شيء إذا اختبر العالم بوصفِهِ سؤالاً، وربما كان دائماً يتفاعل معه لأنه اعتقد أنَّ طبيعته ثابتة.

بدأ جهاز الهاتف الموضوع على الطاولة الصغيرة المُجاورة للسرير يرنّ، وحدَّقَ باتريك إليه بعض الوقت، بعد أنْ أخرجه من أفكاره، وكأنّه لم يره من قبل. تردَّدَ وأخيراً رفع السمّاعة مباشرة قبل أنْ تبدأ الرسالة المُسجّلة.

قال بضجر «ألو»

«إنه أنا، أنيتْ»

«أوه، مرحباً، كيف حالك؟ كيف حال نيكولاس؟»

قالتْ أنيت «أخشى أنني أحملُ إليك نبأً مُريعاً. نيكولاس لم ينجُ. أنا آسفة، باتريك، أعلمُ أنّه كان صديقاً قديماً للعائلة. في الحقيقة لقد توقف عن التنفّس وهو في سيارة الإسعاف. وحاولوا أنْ يُنعشوه حالما وصل إلى المستشفى، لكنهم لم يتمكنوا من استعادته. أعتقد أنَّ كل تلك الصدمات الكهربائيّة والأدرنالين مُخيفة جداً. فعندما تُصبح الروح مُستعدة للرحيل، ينبغي أنْ ندعها ترحل برفق»

قال باتريك «من الصعب إيجاد صيغة قانونيّة في هذا المجال. على الأطبّاء أنْ يتظاهروا بأنهم يعتقدون أنَّ مزيداً من الحياة يستحق دائماً أنْ يُعاش»

تنهدتْ أنيت «أعتقد أنك على صواب، قانونيّاً. على أي حال، لا بُدَّ أنَّ الخبر شديد الوطأة عليك، وفي يوم إقامة جنازة أمّك»

قال باتريك «لم أكن قد قابلتُ نيكولاس منذ سنين. أعتقد أنني محظوظ لأنني ألقيتُ عليه نظرة أخيرة وهو في أحسن حالاته»

قالتْ أنيتْ «أوه، لقد كان رجلاً مُذهلاً. أنا لم أقابل أي شخص يُشبهه»

قال باتريك «كان فريداً من نوعه. على الأقلّ هذا ما أرجو. شيءٌ مريع أنْ نعثر على قرية ممتلئة بأمثال نيكولاس برات»، ثم تابع باتريك قائلاً، مُدرِكاً

أنَّ نبرة صوته ليست متلائمة مع المناسبة، «على أي حال، أنيتْ، كان سلوكاً طيّباً منكِ أنْ ترافقيه. لقد كان محظوظاً لكونه مع شخص رقيق وعفويّ في وقت وفاته»

قالتْ أنيت «أوه، والآن أنتَ تدفعني إلى البكاء»

«وشكراً لكِ على ما قِلتِ في الجنازة. لقد ذكَّرتني بأنَّ إلينور كانت شخصاً خيِّراً بالإضافة إلى كونها أمّاً مثاليّة. شيء مُفيد أنْ أراها من وِجهات نظر أخرى غير تلك التي كنتُ حبيسها»

«أهلاً بك. أنتَ تعلم أنني أحببتُها»

قال باتريك من جديد «أعلم. شكراً لك»

أنهيا المُحادثة بالوعد غير المتوقَّع بالتحدّث قريباً. كانت أنيتْ ستعود بالطائرة إلى فرنسا في اليوم التالي وباتريك لن يتّصل بها حتماً في سان-نازير. ومع ذلك ودّعها بحبٍ غريب. أحقاً اعتقد أنَّ إلينور كانت امرأة خيِّرة؟ لقد شعر بأنها جعلتْ من مسألة معنى أنْ يكون المرء خيِّراً أمراً مركزيّاً-وكان ممتنّاً لذلك.

تقبّلَ باتريك نبأ وفاة نيكولاس. تخيّله، في حقبة الستينيات، مرتدياً قميص السيد فيش، وينخرط في حديث حقود تحت أشجار الدلب في سان - نازير. تخيّلَ نفسه صبيّاً صغيراً في ذلك الوقت، مُشتَّتاً وصاحب قلبٍ مجنون، ولكنّه يتلبّس شخصيّة بطوليّة عنيفة، منعَتْ في نهاية المطاف أباه من الاعتداء عليه برفضٍ واحد حازم. لقد علِمَ أنّه إذا أراد أنْ يفهم العماء الذي يجتاحه، فسوف يتوجّب عليه أنْ يُنكِر حماية ذلك البطل الهشّ، تماماً كما أنكرَ وَهْمَ حماية أمّه باعترافه بأنَّ أبويه كانا متآمرين وعدوّين.

غاصَ باتريك أعمق في الأريكة، مُتسائلاً كم من هذا كلّه يمكنه أنْ يتحمَّل. إلى أي مدى يستطيع أنْ يبقى بلا عزاء؟ غطّى بطنه بوسادة وكأنّه يتوقَّع أنْ يتلقّى ضربة عليها. أراد أنْ يُغادر، أنْ يتناول مشروباً، أنْ يرمي نفسه من النافذة إلى البركة الممتلئة بدمائه، أنْ يتوقف عن الشعور بأي شيء إلى الأبد وفي الحال، لكنّه تحكَّمَ بفزعه بقدرٍ كافٍ ليجلس منتصباً ويترك الوسادة تسقط على الأرض.

ربما ما اعتقد أنّه ليس في استطاعته تحمّله يتألّف جزئيّاً أو كلّياً من فكرة أنّه لا يستطيع تحمّله. لم يكن يعلم حقاً، ولكن كان عليه أنْ يعرف، وهكذا انفتح على الشعور بالعجز والتنافُر التامّين اللذين افترضَ أنّه أمضى حياته يحاول أنْ يتفاداه، وانتظره لكي يُمزّقه. وما حدث لم يكن ما توقّع. وبدل شعوره بالعجز، شعر بالعجز وبالتعاطف مع العجز في وقتٍ واحد. أحدهما يتبع الآخر مباشرةً، تماماً كما تمتد يد غريزيّاً لتعرك قصبة ساق تلقّت ضربة، أو لتُريح كتف متألّم. إنه قبل كل شيء ليس طفلاً، بل رجل يمرّ بعماء الطفولة التي تنبع من عقله الواعي. ومع انتشار التعاطف رأى نفسه على قدم المُساواة مع المُضطَهَدِين المُفترضَين، رأى والديه، اللذين بدا أنهما سبب معاناته، كالأطفال التعساء الذين لهم آباء يبدو أنهم سبب معاناتهم: لم يكن اللوم يقع على أحد وينبغي مساعدة الجميع، والذين بدا أنهم يستحقون القسم الأكبر من اللوم كانوا الأشد حاجة إلى المساعدة. بقيَ لبعض الوقت متعادلاً مع الحتميّة الصِرف للأشياء كما هي، مع نقطة صِفر الأحداث التي بُنيَتْ عليها صروح التجربة النفسيّة، ولمّا تخيّلَ أنّه لا يتعامل مع حياته بصورة شديدة الشخصيّة، تحوّلَ الظلام الحالك الثقيل للجلجة إلى صمتٍ شفاف تماماً، ورأى أنَّ هناك هامشاً من الحريّة، فترة توقف لردّة الفعل، وسط ذلك الصفاء.

انزلقَ بظهره على الأريكة وبسَطَ ساقيه وذراعيه أمام المشهد. لاحظ كيف بردتْ دموعه وهي تسيل على وجنتيه. عينان مُرهقتان وشعور مُتعَب وفارغ. أهذا ما يعنيه الناس بالسكينة؟ يجب أنْ تكون أكثر من ذلك، لكنّه لم يدّعِ أنّه خبير. فجأة رغبَ في رؤية طفليه، طفلين حقيقيين، ليس أشباح طفولة أسلافهما، بل أطفال حقيقيون تتوفّر لهم فُرصٌ معقولة للاستمتاع بحياتهم. رفع سمّاعة الهاتف واتصل برقم ميري. سوف يُغيِّر رأيه. فقبل كل شيء، هذا ما قال توماس إنّه سيحدث.

- انتهى -

بعض ما قيل في مديح
«روايات باتريك ميلْروز»

«إنها بلا جِدال إحدى إنجازات الأدب الروائي الإنكليزي المُعاصِر الكبرى. كُتِبَت ببراعة لاذعة وبفكاهة مُبهِجة»

• ديفيد سكستون، في «***إيفنينغ ستاندارد***»

«لقد تعلَّقتُ بها بشدّة منذ الأسطر الأولى... وعلى الرغم من كونها كوميديا اجتماعيّة ذكيّة، مؤثّرة وغنيّة، إلّا أنني بكيت في نهايتها ولكن من دون أنْ أبوح بالسبب غير المتوقَّع على الإطلاق»

• أنتونيا فريزر، في «***صنداي تيليغراف***»

«إنّه يمتلك ذكاء وايلد، وخفَّة وودهاوس ولذع وو. إنه ممتع»

• زيدي سميث، في «***هاربرز***»

«إنَّ إدوارد سينت أوبين، على غرار بروست، خلقَ عالَماً لا يمكن لأي شخص يتمتع بقواه العقليّة الصحيحة أنْ يرغب في العيش فيه لكنَّه عالم يبدو حقيقيّاً ومُفعماً بالحياة ومُثيراً للضحك وتافهاً بصورة خطِرة. إلى مَنْ غيره يمكن للمرء أنْ يلجأ إنْ كان الإيمان بمُستقبل أدب الرواية الأدبيّة يتزعزع؟»

• ألان تيلر، في «***هيرالد***»

«في نهاية المطاف، إنَّ اللغة هي التي تزوِّد باتريك -وبالتالي سينت

أوبين- بالعزاء... إنَّ روايات مِيلْروز لسينت أوبين تستحقّ الآن أنْ تُعتبَر رواية اجتماعيّة طويلة مهمّة»

• هنري هيتشينز، في «*تايمز ليتراري سبليمنت*»

«لطالما كانت مُعالجة الذات الاستقصائيّة هي المشروع الضمنيّ لهذه الروايات البديعة. إنّها مصدر غِناها العاطفيّ المُلحّ، والمبدأ الأساسيّ لنظام بنائها... إنها ملحمة مُرعبة، ومُسليّة بشكل رائع»

• جيمس لاسدن، في «*غارديان*»

على مدى ربع قرن، قام إدوارد ســـينت أوبين بتســـجيل تأريخ حياة باتريك ميلروز من خلال خمس روايات عُرفت بعنوان «خماســـية باتريك ميلروز» والتي تُعـــدّ اليوم واحدة من أكثر الروايات الخيالية شهرة في عصرنا.

يقدِّم لنا إدوارد سينت أوبين بطلاً تعيساً ومزهو اً بنفسه، يدعى باتريك ميلروز، يحكي الروائي بيئة متخمة مادياً ومقززة أخلاقياً من خلال حكاية أســـرة أشـــبه ببؤرة من الفساد النتن، حيث الأفراد مشلولو الوظائف إلى حدٍّ مريع. في وسط ثنائي يتكوَّن من طبيب وزوجته الثرية، طفل عاجز معتقل في الحلقة الأضعف يتعرض للاستغلال في أفظع الأشـــكال. في منطق باتريـــك، كان والده مسخاً، فيما والدته شريكة في التضحية، بيد أن ذلك صار راهناً موضع شـــك، فبات ينظر إلى نفسه «وفق منظور الحقيقة العميقة، كلعبة في وسط أخرى سادية مازوشية شـــدَّ والداه طرفاها». ونراه مغتبطاً بعد وفاة والدته «كأنه انتظر طوال حياته أن ينال هذا الحس من الاكتمال». توفّر له مأساة موت والدته حرية جديدة إذ «تمتع بالجرأة لكي لا يسقط في شرك الذنب المتأتي من قطف هذه الفرصة السانحة».



إدوارد ســـينت أوبين روائي إنكليزي، كُتبه على قائمة الأكثر مبيعاً. ولد عام 1960 ونشأ في بريطانيا ومن ثم عاش في جنوب فرنسا. عائلته من الطبقة الارستقراطية، قدَّم من خلال رواياته صورة دقيقة وفاضحة للطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها. رُشِّـــحت بعض رواياته لجائزة بوكر، وحصل على جائزة فيمينا الفرنســـية. تمـــت ترجمة العديد من أعماله أيضـــاً إلى الألمانية والإيطالية والإسبانية.

البحث عن الخلاص واكتشاف الذات في ســـياق مجتمعات العصر الجديد، هذا هو الهدف الذي يسعى إليه إدوارد سينت أوبين من خلال رواياته.


9 789933 655457